

تاريخ ابن خلدون

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

تأليف

الامام الحجة في التاريخ وعلوم الاجتماع

عبد الرحمن ابن خلدون

ولد سنة ٧٣٢ ﻫ ١٣٣٢ م — وتوفي سنة ٨٠٨ ﻫ ١٤٠٦ م

مصحح الأصول ومضبوط الأعلام بعناية الأستاذين الكبيرين السيدين

علال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس بالمغرب

ومعلقا عليه بقلم كاتب العصر الأكبر أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

ومذيلا بعدة فهارس مرتبة على حروف الهجاء

عنى بوضعها وترتيبها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي بدار الكتب المصرية

الجزء الأول

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان

وفروعها بالاقطار المغربية

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

تقدمة الكتاب

إلى

مولاى ناصر العلم والعرفان . ومحيي مجد الأوطان .

حضرة صاحب الجلالة سيدى محمد سلطان المغرب .

ياذن لى مولاى الكريم ، أن أقدّم إلى خير السلاطين .

كتاب خير المؤرخين .

وإنى إذ أرفعه إلى فضلك الأعلى ، ومقامك الأسنى .

أزيد المؤلف وهو عبقرى المغرب مجداً إلى مجده وشرفا

إلى شرفه ؟

الخاضع المخلص

محمد المهدى الحبابى

إهداء الكتاب

إلى روح نابغة التاريخ وعمدة المؤرخين

ابن خلدون

إلى روحك العالية ، واسمك العطر ، وعبقريتك التى يتحدث بها التاريخ إلى أجيال الانسانية طبقة طبقة أهـدى أثراً من آثارك الـكريمة ، التى تزداد على الزمن نَفاسة ، وجلال ، وقيمة ، وكأنى بك المعنىّ بقول الشاعر :

كالبحر يمطره السحاب وماله　　　　منٌّ عليـه لأنه من مائه

المخلص

محمد المهدى الحبابى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

بحمدك اللهم وتيسيرك، وبنفحة من روحانية رسولك المبعوث رحمة للخلق أجمعين، محمد عليه وعلى آله وعترته وصحابته أتم صلواتك وتسليماتك إلى يوم الدين، نشرع فى إخراج هذه الطبعة الجديدة المحررة المستكملة من تاريخ ابن خلدون، مفخرة القرون، ونادرة البطون، الذى عقمت عن مثله السنون، وكانت الطبعة القديمة المتداولة، على عزة الظفر بها الآن، ملأى بشكول من الهنات، وفنون من التحريف، وضروب من الخطأ، خرجت بها غيرَ محرَّرة ولا مستوفاة، هذا إلى وشك نفادها، على اشتداد الرغبة فى مقتنى هذا التاريخ المنقطع القرين فى الدقة والتحرير.

وكان إكبارى من قديم لهذا المؤرخ الفذّ الذى هو حُجّة التاريخ غير مدافع، وصدقُ تقديرى لعبقريته التى سار حديثها مسيرَ المثل، وفرطُ إعجابى بصحة فراسته فى الأشياء والحوادث والسِّير، ووزنها بأصح معيار، كلُّ ذلك قد حدانى إلى البحث والتنقيب قرابة سبع سنين عن أصل لذلك التاريخ حقيق بأن يعول عليه، ويُركن بالثقة واليقين اليه، فما زلت فى سبيل ذلك أكدُّ وأكدحُ وأعانى من ضروب المشقّة، والبذل والنفقة، ما لا يقدره إلا من تصدّى لمثل ما تصدّيت له، فى حال كالحال التى أرانى فيها، وقد تدرَّعتُ بجميل الصبر، حتى أوفى لى الحظُّ، فظفرت بصورة نادرة المثال من نسخة للمؤلف نفسه، ممهورة بتوقيعه بخط يده، رضوان الله تعالى عليه، وكان قد أطرف بها سلطان المغرب على عهده، خلا المجلد الأول، فقد ظفرت بنسخة محررة منه بخط شيخ المحققين الامام الشنقيطي، فأيقنت أن الظفر بتلك النسخة ثواب الله لى فى الدنيا.

ولا والله ما كان الكنز يظفر به المجهود، بعد بذل الجهود، بأسرّ لخاطر

صاحبه ، وأثلج لصدره ، وأروح لنفسه ، من ذلك الأصل وقد احتوته يمينى ؛ فانى لم أكد أظفر به حتى أخذت الأهبة ، وشمرت عن ساعد الجد ، لإخراجه مستعيناً بالله تعالى ، لاجئاً إلى صفوة من علماء العصر الذين يشار اليهم بالبنان ليمدونى بسعة اطلاعهم ، ويعينونى بطول باعهم ، على إخراجه فى هذا الوضع الأنيق ، وفى هذه الحلة القشيبة .

وكان فى طليعتهم نادرة الزمان ، وأمير البيان ، ورافع لواء الفضل والعرفان ، المحقق المدقق ، الثبت ، الثقة ، سعادة الأمير شكيب ارسلان جزاه الله عنى وعن العروبة والشرق والاسلام أفضل ما جزى مجاهدا شجاعا فى الحق ، وحضرتا الأستاذين الأكملين ، والكوكبين النيرين ، السيدين محمد علال الفاسى وعبد العزيز ابن إدريس ، أحسن الله ثوابهما .

فقد أمدنى أولهم بقدر ضاف من التعليقات والتوضيحات ، رأيت أن أجعلها فى جزء مستقل ، يلى الأول من أجزاء الأصل . وهى المثل الأعلى فى التحقيق ، على ما يراه القراء . وتفضل الآخران فتوليا مراجعة الكتاب وضبط أعلامه ، وشرح ما احتاج إلى شرح وتعليق من عبارات المؤلف ، وقد بذلت فى ذلك كله من الجهد ما لا أمن به ، وما أرجو به عند الله تعالى الجزاء الأوفى .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أثنى جميلا على الأستاذ العلامة أحمد أمين المدرس بالجامعة المصرية الذى دبج بيراعته مقدمة هذا الكتاب ، تلك المقدمة الممتعة التى لخص به القول فى ابن خلدون وأحاط به أدق إحاطة ، وأن أعطر هذه الكلمة بخالص الشكر لشاعر العروبة وعلمها الخفاق ، فى جميع الآفاق ، الأستاذ خير الدين الزركلى مستشار المفوضية العربية السعودية ، الذى كان عضدا قويا لى فيما أخذته على عاتقى من تجلية هذا الأثر الأنفس ، وأن أحمد لحضرة العالم الفاضل صاحب الفضيلة الأستاذ الخضر حسين عضو مجمع اللغة العربية الملكى ورئيس جمعية الهداية الإسلامية القائم على تحرير مجلتها ، والأستاذ الدراكة عبد الحميد العبادى المدرس بالجامعة المصرية ، والأستاذ البحاثة عبد الله عنان من كبار موظفى إدارة الثقافة والنشر والصحافة ، وأستاذ البيان العلم المفرد محمد صادق عنبر والأديب المعروف

الأستاذ الدكتور زكى مبارك ، فقد أسدوا إلى جميعاً من المعونة الأدبية فى أثناء طبع هذا الكتاب ، وكانوا عوناً لى على إتمامه على خير وجه ممكن ، أحسن الله جزاءهم ، وأطال للعلم والفضل بقاءهم

ومما يصح أن يحيط به القراء علماء أنا فى سبيل قيامنا بهذا المشروع عرضت لنا مصاعب . وقامت فى وجهنا عراقيل ، كان من أثرها أن فارقنا الوطن العزيز على غير رغبة منا ، وزايلناه وبنا من الأسف والأسى ما الله به أعلم . وقد أوذينا فى مالنا فصبرنا ، وفى تجارتنا فاحتملنا ، وعد من ذنوبنا ما نعده محاسن التوفيق . فليَهْنِ ناصب الشراك لصدنا عن سبيلنا أنه ذاهب والباقيات الصالحات خالدة على وجه الدهر .

وهانحن أولاء نزف إلى القراء ذلك الكنز الأنفس ، والله المسئول أن يتقبل هذا الجهد الضئيل . وعنده حسن الثواب . وإليه المرجع والمآب

محمد المهدى الحبابى



كلمة أولى

لقد كان بودنا أن نكتب مقدمة ضافية عن (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) نشرح منها الفتح العظيم الذى فتحه هذا الكتاب فى ميدان التاريخ عند العرب والطور الجديد الذى دخل به مؤلفه الكبير فى أسلوب التدوين عند المؤرخين المسلمين . ونتعرض فيه بالخصوص لايضاح غلط الذين يقولون : إن ابن خلدون لم يطبق بالمرة المنهج الذى وضعه فى مقدمته والذى يرمى إلى عدم الاكتفاء بعرض الحوادث وأوقاتها ، بل يتجاوزه إلى التمحيص والمناقشة بالمقياس العلمى الصحيح . فان أخذنا فى دراسة الكتاب وتدقيقنا فى فهم ألفاظه وأسلوبه كل ذلك جعلنا نعثر على شواهد كبيرة تدل على أن مؤلفنا العظيم حاول أن يطبق منهجه بقدر ما تسمح له المحاولة الأولى فى الموضوع . وهو إذا لم يكن قد وفق فيما رمى اليه دائماً فإنه قد وفق فى كثير من الأحيان وأبره على مقدرة عظيمة فى تلخيص الحوادث وعرضها على محك النقد الصحيح .

كنا نود أن نكتب هذه المقدمة الآن . ونشير فيها لبعض الشواهد التى عثرنا عليها . ولكن رغبتنا فى أن تكون الأفكار الجديدة التى نعرضها مؤيدة تأييداً لا يقبل النقض . حبب إلينا تأخير ذلك البحث إلى اليوم الذى نكون قد فرغنا فيه من دراسة أجزاء الكتاب كلها . حيث نكون قد عرفنا كتاب العبر معرفة صحيحة مستوفية لشرائط المعرفة وقواعدها .

وإذن فلنكتف الآن بتقديم هذين الجزءين الذين يتضمنان التاريخ القديم ثم سيرة الرسول وخلفائه الراشدين . واضعين بين يدى القراء هذا المجهود المتواضع الذى بذلناه فى خدمة الكتاب وتحريره . وإنا لواثقون من أن نظرة واحدة يلقونها على هذه النسخة الجديدة ثم معارضتها بالطبعة القديمة كافية لتقدير عملنا والاعتراف بمجهودنا .

لقد أقدمنا على خدمة هذا الكتاب ونحن عارفون بمقدار الجهد الذي يتطلبه .

والعناية التى يحتاج إليها ولكن أملنا فى نسخة « القرويين » الخطية كان عظيما . تلك النسخة التى كتبت تحت رعاية المؤلف وهو الذى كتب عليها الأهداء بخط يده لخزانة السلطان أبى فارس رحمه الله .

ولكن الزمن قد أضاع من هذه النسخة سفرها الذى ابتدأنا بخدمته ولم نستطع الحصول على نسخة خطية نرجع إليها وكل ما وجدناه هو أجزاء مختلفة ليس من بينها جزء التاريخ القديم ، فكانت مشقتنا بذلك مضاعفة وكانت حاجتنا للصبر إزاء ذلك قوية (١)

رجعنا إلى نسخة الطبعة الأولى — وهى الملجأ الوحيد الذى قررنا منه ثم اضطرنا القدر للرجوع اليه . فاذا هى مليئة بالتصحيف عامرة بالتحريف ، كثيرة البياض عظيمة البتر . فكان علينا أن نصلح التصحيف . ونرجع التحريف . ونملأ البياض ونستدرك المبتور ومن أين ذلك كله ؟

أخذنا ننقب فى المصادر التى رجع اليها المؤلف . والكتب التى استفادت منه أيضاً ، ولكن ابن خلدون يستفيد من الكتب بأسلوب يشهد له بمقدرة فنية عظيمة ، فهو لا يكتفى بنقل الموضوع أو تلخيصه، من موطن واحد من الكتاب بل يتتبع المؤلف القديم ليستفيد كل ما عنده فى الموضوع الذى يبحث فيه ، وبذلك يجمع الأسفار الضخمة فى صفحات قليلة معدودة ، فكان لزاماً علينا أن نرجع إلى مصدره ونقوم بمثل ما قام به المؤلف . وكثيرا ما كنا نتصفح تاريخ ابن الأثير مثلا بجميع أجزائه ونحصر الصفحات والاسطر التى تكلم فيها على موضوع ما ، ثم نقابل المولف على جميعها . وهذا أسلوب وإن كان من الصعوبة بالقدر الذى يعرفه قارئنا ، ولكن أفادنا كثيراً وجعلنا نقدر قيمة مؤلفنا الكبير .

نعم تزداد الصعوبة بنقطة واحدة هى فقدان العديد من المصادر التى يرجع

---

(١) وظفرنا بعد ذلك ، والشكر لله ، بنسخة كاملة محررة بقلم شيخ المحققين الامام الشنقيطى ، فى دار الكتب الملكية بمصر ، فاستدركنا بها ما فات الاستاذين الكبيرين كاتبى هذا التصدير ، وأشرنا إلى هذا فى كلمتنا السابقة (الناشر)

اليها المؤلف ، وفى الحقيقة أننا قاسينا عناء بسبب هذه الحاجة التى يشعر بها كل باحث فى بلادنا فكان عملنا فى هذه الحالة منحصراً فى الرجوع إلى من نقل عن ابن خلدون . واذا لم نظفر بشىء حققنا الموضوع من المصادر الموجودة ثم أشرنا لما يخالفه المؤلف من النصوص المطلع عليها فى حاشية الكتاب .

لم يكن عملنا مقصوراً على التصحيح والعناية . ولكن عملا آخر اضطلعنا به أيضاً . هو ضبط الأعلام التاريخية من أسماء وقبائل وبلدان . فكنا ننقب فى عشرات المراجع لنبحث عن اللفظة الواحدة وكيف ينطق بها ؟ ثم نضبطها على حسب ما نرجحه من أقوال العلماء . وفى الغالب نشير إلى المصدر المعتمد عليه وذكر غيره من الروايات التى عثرنا عليها .

أما الآيات القرآنية فقد ضبطناها وكذلك آى الكتاب المقدس مع ترقيمها والاحاديث النبوية مع تخريج ما كان منقولا عن لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، والشواهد الشعرية ضبطناها وذكرنا قائلها .

هذا ونحن لا ندع العصمة من الخطأ أو السلامة من النقص ، وانما الذى نعلنه هو أننا بذلنا ما نملكه من مجهود حسب ماتسمح به ظروفنا ويساعد عليه محيطنا . فان نكن موفقين فذلك من الله ، وأن تكن الاخرى فليس بعد بذل المجهود من عتب ولا فى تقديم المستطاع من تقصير .

وكل ما نتمناه الآن ، هو أن يوفق ملاحظ المطبعة ومصححها لتحقيق أمنيتنا فى تخريج الكتاب على الصفة التى أردناها خالياً من التصحيف بعيداً عن الغلط . وفى انتظار تحقيقهم لرجائنا نثنى على همتهم ونقدم لهم خالص الشكر سلفاً

فاس : ٢٠ جمادى الاخيرة ١٣٥٥ ﻫ

محمد علال الفاسى   عبد العزيز ابن ادريس

بيان الرموز المستعملة

فى الكتاب

كد ـ الكتاب المقدس طبعة جمعية التوراة البريطانية والأجنبية بكمبردج سنة ١٩٣٧

ج ـ الطبعة القديمة لتاريخ ابن خلدون

ق ـ القاموس المحيط للفيروزباد

ت ـ تاج العروس بشرح القاموس لمرتض الزبيدى

ط ـ الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك

ك ـ الكامل لابن الأثير طبعة مصر

ش ـ القلقشندى فى صبح الأعشى

ض ـ الروض الانف للعلامة السهيلى

د ـ البداية والنهاية لابن كثير

م ـ للمسعودى فى مروج الذهب طبعة مصر

ع ـ لابن العبرى فى مختصر الدول

هش ـ للحافظ ابن هشام فى السيرة

ف ـ ابو الفدا فى تاريخه

نب ـ الأنباء لابن عبد البر

صب ـ للاصابة فى اسماء الصحابة للحافظ ابن حجر

يا ـ ياقوت فى معجم البلدان

ب ـ للبستانى فى دائرة المعارف

هج ـ النهج القويم فى التاريخ القديم

[ ] ـ مابين معقفين مزيد على المؤلف لتعمير البياض أو اكمال المعنى

( ) ـ الهلالان للجمل الاعتراضية الواردة فى كلام المؤلف لحصر الآيات والأحاديث وبعض الانقال المهمة

؟ ـ كل ما أشكل علينا ولم نجد له وجها تركناه علي حاله ووضعنا عليه علامة الاستفهام .

الأرقام

استعملنا الرقم العربى (الغبارى المغربى) عوضا عن الحروف التى رمز بها المؤلف لترتيب الملوك فى الشجرات . خروجا من الخلاف الواقع فى حساب الجمل بين الشرقيين والمغاربة . والأرقام الأعجمية الجارى بها العمل فى الشرق لمواطن التعليق

المصـــــادر

ـــ قد رجعنا إلى عشرات المصادر العربية وغيرها . وفى جدول الرموز بعض منها . أما الباقى فمصرح به فى الحواشى ، ولذلك لم نرد تجريده هنا كما يفعل بعض الناشرين .

[خ] ماجاء فى الأصل بين هاتين العلامتين متبوعا بحرف الخاء فهو زيادة مأخوذة من نسخة الشنقيطى الخطية التى بدار الكتب المصرية

* وما جاء فى الحاشية بعد هذه النجمة فهو نص النسخة الخطية التى بدار الكتب المصرية مخالفا لنص النسخة المطبوعة الذى يجىء فى الأصل وفوقه النجمة



ابن خلدون وتاريخه

ابن خلدون أحد أفراد قلائل من بين علماء المسلمين أُعجَب بهم وأُعظِمُ مكانتهم ، وأجل قدرهم .

وليس الذى يدعونى إلى الافتتان به علمه الواسع : فقد يكون من بين المسلمين من هو أوسع منه علماً كجلال الدين السيوطى ، فقد ألف فى التاريخ واللغة والبلاغة وعلوم القرآن والحديث وما إلى ذلك ، ومع هذا ليس له فى نفسى مكانة ابن خلدون ولا ما يقرب منها .

وليس الذى يدعونى إلى إعجابى به خُلُقه ، فكثير من العلماء قد يكونون أقوم منه خلقاً وأشد التزاماً لقانون الأخلاق — وفى سيرة ابن خلدون بعض هنات خلقية قد يعاب بها ويؤاخذ عليها .

إنما أشد ما يعجبنى من ابن خلدون « شخصيته » فإذا كان السيوطى وأمثاله علماء فأكثر عليهم جمع وتصنيف ، ولو أُمِرَت كل جملة فى كتبهم أن تذهب إلى مكانها من الكتب الأخرى لم يبق فيها ألفوه شىء — أو لم يبق إلا قليل — سطوا على كتب المتقدمين فحوروا فيها بعض التحوير وجمعوا متفرقاً وفرقوا مجتمعاً واخترعوا اسما للكتاب ونسبوه إلى أنفسهم فعرفوا به .

أما ابن خلدون — ومثله قليل من العلماء — فشىء آخر له قريحة متوقدة ، وله قدرة فائقة على الحكم على الأشياء ، وله ابتكار نادر — إن أخذ من علم الأقدمين فليغذى ذهنه وليهضمه ، وليخرجه شيئاً جديداً يمتاز عن علم من سبقه ، لأن فيه شخصيته وابتكاره وآراءه — وإذا وَجَد حلقة مفقودة فى سلسلة تفكيره ولم يجد لها أصلا فيما كتبه سلفه استطاع أن يخلقها خلقاً وينشئها إنشاء . فهو جديد فيما أخذه عمن قبله ، وهو جديد فيما اخترعه بعقله .

لم يكتف كما اكتفى غيره بالنظر فى الكتب يأخذ منها ويسترشد بها بل هو مع كثرة ماقرأ — رأى أن الكتب وحدها لاتغنى حتى يضاف إليها النظر فى العالم ، وإذ كان همه هو العالم الاسلامى فقد وضع خطة لنفسه أن يتصل به عن قرب ليشاهد أموره بعينه ، ويتصل بأوساطه ، ويخالط ملوكه ، ويمتزج بجماهيره ثم يكوّن من ذلك كله رأيه .

لقد ولد بالمغرب وعرف أحواله ودرس قبائله، وخبر بدوه وحضره، ورحل إلى الأندلس ودرس حال مابقي منها في يد المسلمين.

ورحل إلى مصر وتبوأ مكانة عالية فيها إذ تولى قضاءها، فمكنه ذلك من معرفة مصر وحضارتها وحالتها الاجتماعية.

وسافر إلى الشام فاتصل بشؤونها، وعرف أحوالها.

ورحل إلى الحجاز فمكنه الحج من أن يتعرف أحوال المسلمين وأحوال الحجاز وأهله.

واتصل بالملوك فتهيأ له أن يعرف القصور ومداخلها، وأن يضع يده على منابع السياسة في الدول الاسلامية ومزاياها وعيوبها.

اتصل بسلطان البربر وغرناطة وسلطان مصر واتصل حتى بتيمورلنك، فكان ذلك كله مادة صالحة لذكائه وصدق نظره.

وكان في كل مكان حله له آراء في الاصلاح الاجتماعي يدلي بها في غير مداراة ولا مجاملة - كان له آراء في البربر وملكهم - وجاء إلى مصر وتولى قضاءها فنقد نظام القضاء ونظام الدواوين وصرح بآرائه كلها ونال غضب بعض الخاصة من أجلها - واتصل بتيمورلنك فكان له معه آراء واقتراحات وتوجيهات - ولم يتحرج في كل ظرف من ظروفه أن ينغمس في السياسة ويكون له فيها عمل إيجابي.

وهكذا كانت تظهر شخصيته حيث حلَّ وطُبِّق عليه القانون الذي تنبه إليه «ورقة بن نوفل» قديماً إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم «لم يجيء أحد بمثل ماجئتَ به إلا أوذي» فكل نبي وكل مصلح أتى بما يخالف دين قومه وعادات أمته ودعا إلى الاصلاح وجاهر به كان عرضة للايذاء، فاضطهد في المغرب واضطهد في غرناطة، واضطهد في مصر ولقي الأمرين ثم طالت حياته فعمر نحو أربعة وسبعين عاما، فاجتمع له طول العمر وما ملىء به من أحداث وما أنضجه من عذاب وآلام هذا إلى استعداد فطري نادر ومقدرة فائقة - فكل هذه المقدمات كان لها نتيجتها وهي ابن خلدون.

وساعد على تكونه أن ابن خلدون ليس وحده هو الذي امتلأ عمره بالأحداث، بل ان عصره كذلك كان مليئاً بعظام الأمور - شاهدها ابن خلدون

فعملت فى نفسه وكوّنته — لقد شاهد صراع البربر والعرب ، وصراع البدو والحضارة . وصراع السلاطين بعضهم لبعض ؛ وصراع الدول بعضها لبعض — فأثار ذلك كله فى نفس ابن خلدون نظريات شتى مختلفة النواحى ، فى قيام الدول وسقوطها وقوتها وضعفها وفى البربر وطباعهم والعرب وأخلاقهم الخ وساعده على ذلك أن نظره فى الأمور لم يكن نظراً سطحياً بل كان نظراً فلسفياً عميقاً ، لا يرى المعلول حتى يجدّ فى البحث وراء العلة ولا يؤمن بسبب إلا أن يكون وراءه سبب ولا نتيجة إلا أن تسبقها مقدمة أو مقدمات .

كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ نظراً سابقاً لزمنه ، لا أعرف أحداً من المؤرخين قبله نظر إليه نظره — اسمع إليه فى مقدمته يقول « إن فن التاريخ . . محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تُحَكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الانسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق — وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط » .

ويقول فى موضع آخر « إن صاحب هذا الفن يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار ، فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف . والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها . وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول ، على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه » الخ

وبهذا وأمثاله وضع ابن خلدون أصول علم التاريخ ونظر اليه لا كما كان ينظر من قبله ـ مجرد سرد حوادث تعتمد على الرواية ، بل هو مبنى على أصول ، ونظر تعتمد على علم طبائع الأشياء وعلم الاجتماع وعلم النفس ـ وقد حاول لأول مرة فى التاريخ الإسلامى أن يضع مقاييس للأحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها .

فقد شرح فى المقدمة أن سلوك الانسان يجرى على قوانين ثابتة لا تقبل التغير وأنها تتطور من ا إلى ب ومن ب إلى ت فى نظام ثابت وطبيعة محتمة ، وأن الظروف المتماثلة تنتج نتائج متماثلة ، وبنى على هذا الأساس كل فلسفته التاريخية وطبقه فى مهارة ودقة على العالم الاسلامى ، ولم يكتف فى تطبيق التطور والنشوء والارتقاء ونحو ذلك على الأمور السياسية والشؤون الاجتماعية ؛ بل طبقه فى دقة تستدعى العجب على آداب الأمم الاسلامية وعلومها .

فجاءت مقدمته على هذا الوضع وحيدة فى العالم الاسلامى بل ربما كانت فى عصره لا يساويها شىء فى غير العالم الاسلامى أيضاً .

لقد بحث بحثاً عميقاً فى أثر الجو والبيئة والغذاء فى تكوين طبيعة الناس وعقولهم وأخلاقهم .

وبحث فى الجمعية البشرية فى شكلها ونموها وفنائها .

وبحث فى العلوم الاسلامية ونشأتها وارتقائها .

ويطول بنا القول لو عددنا ما حوته المقدمة من آراء مبتكرة وآراء أخذها من غيرها فجملها وحوّرها وأبدع فى تطبيقها على دول الإسلام وعلوم الاسلام

فجاءت مقدمة على هذا الوضع وحيدة بين المسلمين بل ربما كانت فى عصره لا يساويها شىء فى غير العالم الاسلامى أيضاً .

فاذا نحن وصلنا إلى تاريخه غير المقدمة لانجده قد عنى فيه كثيراً بتطبيق نظرياته التى وضعها فى مقدمته . فهو فى أكثر الأحوال يكتفى بسرد الحوادث كما فعل من قبله . ولا ينظر النظرة العامة الشاملة ولا يحلل التحليل الدقيق كما كان شأنه فى المقدمة.

ولعل السبب فى ذلك أنه كتبه ليكون مادة أولية . أمل أن يفسح له فى الزمن حتى يصوغها صياغة جديدة تتفق ومبادئه ونظراته ثم عاقته المقادير عن إتمامه وربما كان هذا التفسير يوضح لنا ما فى التاريخ من نقص و (بياض بالأصل)

وما فيه أحياناً من ضعف التعبير إذا قورن بتعبير ابن خلدون فى المقدمة .

ومع هذا النقص فالتاريخ لايخلو من أثر كبير لشخصية ابن خلدون ونظراته الصائبة فى كثير من المواضع وقد حوى من تاريخ المغرب مالا تجده فى كتاب غيره .

ظل تاريخ ابن خلدون مخطوطاً لم يطبع منه شيء حتى أوائل القرن التاسع عشر إذ أخذت تتجه أنظار كبار المستشرقين إليه وبخاصة مقدمته الفلسفية الرائعة فنشره همر ، وسلفستر ده ساسى ، وده تاسى ، وكوكبير ، وشلز ، فصولا منها . وفى عام ١٨٢٨ نشر شلز فى المجلة الآسيوية مقالين مسهبين نوه فيهما بفضل ذلك التاريخ ، وضمنهما نبذاً من مقدمته ومعها ترجمتها الفرنسية . وفى عام ١٨٥٨ (١٢٧٣) ه نشر كترمير النص العربى للمقدمة ضمن أجزاء المجموعة المعروفة ب Notices et extraits وأراد نقلها إلى اللغة الفرنسية غير أن الموت حال بينه وبين ما أراد فعهدت أكاديمية النقوش والآداب الفرنسية بترجمتها إلى البارون ده سلان فترجمها ونشرها فى ثلاثة مجلدات فى سنى ١٨٦٢ — ١٨٦٨ .

ولما تم لفرنسا الاستيلاء على الجزائر عنى غير واحد من المستشرقين الفرنسيين بنشر القسم الخاص من تاريخ ابن خلدون بالمغرب الاسلامى ليمدوا حكومة بلادهم بأوفى كتاب قديم فى تاريخ تلك البلاد وأخبار أهلها . فنشر المستشرق نويل ده ڤرچير فى عام ١٨٤١ (١٢٥٦ ه) مجلداً يحوى ما أورده ابن خلدون من أخبار دولة بنى الأغلب بأفريقية وصقلية وبقية أخبار صقلية إلى حين استيلاء الفرنج عليها ، ونشر معه ترجمته الفرنسية . وفى سنى ١٨٤٧ — ١٨٥١ (١٢٦٢ — ١٢٦٧ ه) طبع البارون ده سلان بالجزائر الجزءين السادس والسابع الخاصين بتاريخ البربر وعنونهما بـ (المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب) ثم نقلهما إلى اللغة الفرنسية ، ونشرهما فى أربعة مجلدات فى سنى ١٨٥٢ — ١٨٥٦ .

* * *

على أن أحداً من المستشرقين لم يحاول طبع تاريخ ابن خلدون كله . وبقى فضل ذلك مذخوراً للشرق الاسلامى عامة ومصر خاصة ، ففى عام ١٢٧٤ ه طبعت المقدمة فى مطبعة بولاق بتصحيح الشيخ نصر الهورينى . وفى عام ١٢٨٤

ثم طبع التاريخ بأكمله فى سبعة مجلدات كبار ، وهى طبعة لا تمتاز إلا بأنها الأولى ، وفيما عدا ذلك فهى سقيمة كثيرة العيوب ، ومن عيوبها كثرة التحريف والتصحيف ، وسقوط كثير من عبارات الأصل . على أنها ظلت قرابة سبعين عاماً الطبعة الوحيدة المتداولة لذلك السفر الجليل . ثم شاء الله ألا يبلغ تاريخ ابن خلدون إلى الناس على وجه خير من وجهه الأول إلا رجل من أهل المغرب . فقد انتدب فى أيامنا هذه الحاج محمد المهدى المغربى الحبابى الكتبى لاصدار طبعة جديدة من التاريخ المذكور . وقد توافرت له فرص نادرة ألمع إليها فى الأعلان الذى قدمه بين يدى مشروعه . فهو يقول « ولكن لحسن الحظ حصلنا على صورة مضبوطة من نسخة بخط المؤلف نفسه ، وكان قد أهداها إلى سلطان المغرب فى عصره ، موقعة الأهداء بأمضائه . وبقيت من ذلك العهد مصونة فى خزانة الكتب القروية بفاس حتى أذنت لنا وزارة مولاى السلطان سيدى محمد ملك المغرب ، أعزه الله ، بالمراجعة عليها لطبعها وتعميم نفعها : ماعدا المجلد الأول فقد أخذنا نسخته من مخطوطة الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، فكان من هذا المجهود الشاق صورة كاملة نادرة المثال ، كما راجعناه على الأجزاء الموجودة من نسخة المرحوم أحمد تيمور باشا والمرحوم أحمد زكى باشا بدار الكتب » يضاف إلى ذلك أنه استعان فى إخراج الكتاب إخراجاً علمياً بغير واحد من علماء الاسلام أمثال الأستاذين الفاضلين السيد محمد علال الفاسى ، والسيد عبد العزيز بن إدريس ، والمؤرخ العلامة الأمير شكيب أرسلان

ولقد تصفحت الجزء الثانى الذى ابتدأت به الطبعة الجديدة فوجدته يبشر بطبعة علمية حديثة لتاريخ ابن خلدون . فالأعلام مضبوطة ضبطاً صحيحاً غالبا — والعبارات مصححة ، والبياض الوارد بكثرة فى طبعة بولاق مملوء بقدر الامكان . وقد ذيلت صفحاته بتعليقات قيمة ، كما حليت هوامشه بذكر رءوس الموضوعات التى يدور عليها كلام المؤرخ الكبير .

والمأمول أن تتبع فى بقية أجزاء التاريخ نفس الطريقة العلمية التى اتبعت فى الجزء الثاني . والله سبحانه وتعالى يعينه ويوفقه ؟

أحمد أمين

القاهرة فى { ٩ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ / ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣٦ م }

ابن خلدون

هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، ويتصل هذا النسب بوائل بن حجر الصحابى الذى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ، ودعا له ، ذكر ابن خلدون نسبه على هذا الوجه ، وقال : لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة .

ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ ، واستظهر بالقرآن ، وتلقى الأدب عن والده ، ثم تردد على مجالس العلماء ، مثل قاضى القضاة محمد بن عبد السلام والعلامة الابلى ، ولم يكد يستوفى سن العشرين حتى ظهر نبوغه ، وتولى كتابة العلامة عن السلطان أبى إسحاق صاحب تونس ثم رحل إلى تلمسان ، ثم إلى بجاية ، ثم استدعاه أبو عنان سلطان المغرب الأقصى واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه ، ورحل بعد إلى الأندلس ، فوفد على ابن الأحمر سلطان غرناطة ، وهنالك صاحب الوزير لسان الدين بن الخطيب ، ثم عاد إلى بجاية وتولى الحجابة لسلطانها أبى عبد الله ، وبعد قتل هذا السلطان سافر إلى بسكرة لصحبة كانت بينه وبين أميرها أحمد بن يوسف بن مزنى ، ثم صرف قلبه عن التعلق بالسياسة ، وتوجه إلى البحث العلمى ، وبعد أن تنقل مرة أخرى إلى تلمسان ، فالمغرب الأقصى ، فبلاد الأندلس ، عاد إلى تلمسان ، وتجرد للمذاكرة فى العلم ودراسته ، ثم غادر تلمسان ، ونزل بقلعة أولاد سلامة ، وأقام بينهم أربع سنين ، وهنالك شرع فى تأليف تاريخه ، فأتم مقدمته ، وتاقت نفسه إلى الازدياد من العلم ، والاستفادة من كتب لا تصل اليها يده إلا فى الحواضر فراسل صاحب تونس أبا العباس مستأذناً فى العود إلى تونس ، فأذن له بالقدوم فسار إليها ، ونال لدى السلطان حظوة ، ولم يلبث أن دبت عقارب السعاية به ، وهمس بعض حساده فى أذن السلطان بما يوغر صدره ، وفى ذلك الحين قدم

للسلطان نسخة من تاريخه ، وعند ما شاهد أثر السعاية فى معاملة السلطان ، استأذنه فى السفر ، لأداء فريضة الحج ، فقدم الاسكندرية لمضى عشر ليال من جلوس الملك الظاهر على عرش الملك ، ثم انتقل إلى القاهرة وتصدى للتدريس بالجامع الأزهر ، واتصل بالملك الظاهر فأكرم مثواه ، وأولاه وظيفة التدريس بمدرسة القمحة ، ثم قلده خطة قضاء المالكية ، ثم عزل من القضاء ، وأقبل على التدريس والتحرير نحو ثلاث سنين خرج بعدها لأداء فريضة الحج سنة ٧٨٩ وبعد عودته من الحجاز تقلد خطة القضاء مرة ثانية ، ثم عزل عنها ، ثم تولاها ، وبلغت ولايته لها بعد عزله عنها نحو ست مرات .

وكان الملك الناصر فرج يسلك فى رعايته وإقباله عليه مسلك أبيه الملك الظاهر ، واستصحبه فى خروجه إلى الشام أيام الفتنة التترية ، فكان ابن خلدون ممن وقعوا فى الأسر . ولما لقى تيمورلنك فى طائفة من الأعيان والقضاة دخل معه فى حديث أخذ بمجامع قلبه ، وأعجب بكياسة منطقه ، فأراد ضمه إلى مجلسه ، واستصحابه إلى مقر ملكه ، فتلطف ابن خلدون فى التخلص منه باستئذانه فى العود إلى مصر ليجمع أمره ، ويأتى باهله وكتبه ، فعاد إلى القاهرة ، وأقام بها إلى أن أدركه أجله وهو فى منصب القضاء ، لأربع بقين من رمضان سنة ٨٠٨ ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

وكان ابن خلدون بعيد الشأو فى العلوم الشرعية والعربية ، خبيراً بالعلوم النظرية ، ضليعاً فى الفنون الأدبيـة . وحسبكم شاهداً على تقدمه فى هذه العلوم النقلية والعقلية مقدمة تاريخه التى أمتع فيها البحث عن حقائق هذه العلوم وفلسفتها على أسلوب لا يبتكره إلا من مارسها على بينة من أمرها ، وتوغل فى أسرارها .

وأتى ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة على بعض مؤلفات بن خلدون فقال : شرح البردة شرحا بديعاً دل على انفساح ذرعه ، وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه ولخص كثيراً من كتب بن رشد ، وعلق للسلطان — يعنى ابن الأحمر — أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين

الرازى ، وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع فى هذه الأيام فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لاغاية فوقه فى الكمال .

وكان ابن خلدون على جانب من الأخلاق السامية ، من نحو علو الهمة ، ورقة الطبع ، وقلة المبالاة بالأخطار . وقد وصفه لسان الدين فى كتاب الإحاطة ببعض أخلاق شريفة إذ قال : هو حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياء ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، جواد ، حسن العشرة ، عاكف على رعى خلال الاصالة . ووصفه الوزير ابن زمرك فى قصيدة أرسلها إليه بعد أن قدم مصر ، بشدة الحياء إذ قال :

يقابلنى منك الصباح بوجنـــة ... حكى شفقاً فيه الحياء الذى تبدى

ووصفه بحسن الخلق إذ قال :

لقيتك فى غرب وأنت رئيسـه ... وبابك للأعلام مجتمع الوفد
فآنست حتى ماشكوتُ بغربة ... وواليت حتى لم أجد مضض الفقد
وعدت لقطرى شاكراً مابلوته ... من الخلق المحمود والحسب العدّ

محمد الخضر حسين



بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الثاني

فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم
منذ مبدإ الخليقة الى هذا العهد

وفيه ذكر معاصريهم من الامم المشاهير مثل السريانيين والنّبط والكلدانيين والفُرْس والقِبط وبنى إسرائيل وبنى يونان والروم ، والإلمام بأخبار دولهم . ويتقدم الكلام فى ذلك مقدمتان : إحداهما فى أمم العالم وأنسابهم على الجملة ، والثانية فى كيفية أوضاع الأنساب فى هذا الكتاب

المقدمة الأولى

فى أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة فى أنسابهم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه وكرم بنى آدم باستخلافهم فى أرضه ، وبثهم فى نواحيها لتمام حكمته ، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته ، فيتعارفون بالانساب ، ويختلفون باللغات والألوان ، ويتمايزون بالسير والمذاهب والأخلاق ، ويفترقون بالنحل والأديان والأقاليم والجهات ، فمنهم العرب والفرس والروم وبنو اسرائيل والقبط والبربر ، ومنهم الصقالبة (1) والحَبَش والزنج ، ومنهم أهل الهند وأهل بابل وأهل الصين وأهل اليمن وأهل مصر وأهل المغرب ، ومنهم المسلمون والنصارى واليهود والصابئة والمجوس ، ومنهم أهل الوبر ، وهم أصحاب الخيام

---

١ — الصقالبه جمع صقلبي نسبة إلى صقلب وكان العرب يطلقونها على الأمم التي تقع فى شمال جبال القوقاز وهم المسمون بالسلاف

والحلل (١) وأهل المدر، وهم أصحاب المجاشر والقرى والأُطم ومنهم البدو الظواهر والحضر (٢) الآهلون ، ومنهم العرب أهل البيان والفصاحة ، والعجم أهل الرطانة بالعبرانية والفارسية والإغريقية (٣) واللطينية والبربرية . خالف بين أجناسهم وأحوالهم وألسنتهم وألوانهم ، ليتم أمر الله فى اعتمار أرضه بما يتوزعونه من وظائف الرزق وحاجات المعاش، بحسب خصوصياتهم ونحلهم ، فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة وآيات الوحدانية . إن فى ذلك لآيات للعالمين

الامتياز بالنسب

واعلم أن الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الاجيال والأمم، لخفائه واندراسه بدروس الزمان وذهابه ، ولهذا كان الاختلاف كثيرا ما يقع فى نسب الجيل الواحد أو الأمة الواحدة، إذا اتصلت مع الايام وتشعبت بطونها على الأحقاب ، كما وقع فى نسب كثير من أهل العالم ، مثل اليونانيين والفرس والبربر وقحطان من العرب ، فاذا اختلفت الأنساب واختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوى ، استظهر كل ناسب على صحة ما ادعاه بشواهد الأحوال، والمتعارف من المقارنات فى الزمان والمكان ، وما يرجع إلى ذلك من خصائص القبائل وسمات الشعوب والفرق التى تكون فيهم متنقلة متعاقبة فى بنيهم

وسئل مالك رحمه الله تعالى عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك وقال : من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له : فإلى إسماعيل ؟ فأنكر ذلك وقال : من يخبره به ؟ وعلى هذا درج كثير من علماء السلف . وكره أيضاً أن يرفع فى أنساب الانبياء مثل أن يقال: ابراهيم بن فلان بن فلان ، وقال: من يخبره به ؟ وكان بعضهم إذا تلا قوله تعالى « والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله » قال: كذب النسابون ! واحتجوا أيضاً بحديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الكريم الى عدنان قال :

---

١ — الحلل جمع حلة وهى جماعة بيوت الناس

٢ — الحضر جمع حاضر وهو خلاف البادى

٣ — جاء في ب ان اغريقية او اغريقة اسم نقله بعض كتاب العرب عن لفظة غراشيا باللاتينية والايطالية وهو اسم يطلق عند الاوروبيين على البلاد المسمى أهلها هلاس وتعرف عند العرب ببلاد الاروام أو بلاد اليونان ويسميها الفرنسيون غريس Grece

[من ههنا كذب النسابون] (١) واحتجوا أيضاً بما ثبت فيه « أنه علم لا ينفع وجهالة لا تضر » الى غير ذلك من الاستدلالات

وذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء مثل ابن إسحق والطبري والبخاري الى جواز الرفع في الانساب، ولم يكرهوه محتجين بعمل السلف ، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أنسب قريش لقريش ومضر ، بل ولسائر العرب . وكذا ابن عباس وجُبَير بن مُطْعِم وعَقيل بن أبي طالب ، وكان من بعدهم ابن شهاب والزهري وابن سيرين وكثير من التابعين . قالوا : وتدعو الحاجة اليه في كثير من المسائل الشرعية مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح والعاقلة في الديات ، والعلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر الى المدينة ، فان هذا من فروض الايمان ولا يعذر الجاهل به ، وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها ، وكذا من يفرق في الحرية والاسترقاق بين العرب والعجم ، فهذا كله يدعو الى معرفة الأنساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه ، فلا ينبغي أن يكون ممنوعا . وأما حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه إلى عدنان قال : « من ههنا كذب النسابون » يعني من عدنان . فقد أنكر السهيلي روايته من طريق ابن عباس مرفوعا ، وقال الأصح أنه موقوف على ابن مسعود . وخرَّج السهيلي (٢) عن أم سَلَمَة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : معد بن عدنان بن أُدَدَ بن زَنْد بن يَرَى (٣) بن أعراق الثرى . قال : وفسرت أم سلمة زنداً بأنه الهميسع واليَرَى بأنه نبت أو نابت ، وأعراق الثرَى بأنه اسماعيل ، واسماعيل هو ابن ابراهيم ، وابراهيم لم تأكله النار كما لا تأكل الثرى . ورد السهيلي تفسير أم سلمة ، وهو الصحيح ، وقال إنما معناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم بنو آدم وآدم من تراب » لا يريد أن الهَمَيْسَع ومن دونه ابن لاسماعيل لصلبه . وعضد ذلك باتفاق الاخبار على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل التي يستحيل في العادة أن يكون فيها بينهما أربعة آباء أو سبعة

١ — أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس

٢ — نقله السهيلي عن أبي بشر الدولابي من طريق موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب ابن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة قال : وهو أصح شيء روى فيما بعد عدنان .

٣ — كان في ج « ابن زيد بن البرى» والتصحيح من ض ١ — ٨ وط ٢ — ١٩١ ووقع في ق « زيد بن برى بالباء بن أعراق الثرى » وكتب عليه في ت « وبرى هكذا هو بالموحدة عندنا وفي بعضها بالتحتية »

أو عشرة أو عشرون ، لأن المدة أطول من هذا كله، كما نذكره فى نسب عدنان ، فلم يبق فى الحديث متمسك لأحد من الفريقين . وأما مارووه من أن النسب علم لا ينفع وجهالة لاتضر(١) ، فقد ضعف الأئمة رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مثل الجرجاني وأبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر . والحق فى الباب أن كل واحد من المذهبين ليس على إطلاقه ، فان الأنساب القريبة التى يمكن التوصل إلى معرفتها لا يضر الاشتغال بها لدعوى الحاجة اليها فى الامور الشرعية من التعصيب ، والولاية ، والعاقلة ، وفرض الايمان بمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم ونسب الخلافة ، والتفرقة بين العرب والعجم فى الحرية والاسترقاق ، عندمن يشترط ذلك كما مر كله

وفى الامور العادية أيضاً تثبت به اللحمة الطبيعية التى تكون بها المدافعة والمطالبة ، ومنفعة ذلك فى إقامة الملك والدين ظاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينسبون إلى مضر ويتساءلون عن ذلك ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم » (٢)

وهذا كله ظاهر فى النسب القريب . وأما الأنساب البعيدة العسيرة المدرك التى لايوقف عليها إلا بالشواهد والمقارنات لبعد الزمان وطول الاحقاب، أو لا يوقف عليها رأساً لدروس الاجيال ، فهذا قد ينبغى أن يكون له وجه فى الكراهة ، كما ذهب اليه من ذهب من أهل العلم ، مثل مالك وغيره ، لأنه شغل الانسان بما لا يعنيه . وهذا وجه قوله صلى الله عليه وسلم فيما بعد عدنان : « من ههنا كذب النسابون » . لأنها أحقاب متطاولة ومعالم دارسة لا تثلج الصدور باليقين فى شئ منها ، مع أن علمها لا ينفع وجهلها لا يضر ، كما نقل . والله الهادى الى الصواب

أنساب أمم العالم

ولنأخذ الآن فى الكلام فى أنساب العالم على الجملة ونترك تفصيل كل واحد منها إلى مكانه فنقول: إن النسابين كلهم اتفقوا على أن الأب الاول للخليقة هو آدم عليه السلام ، كما وقع فى التنزيل ، إلا ما يذكره ضعفاء الاخباريين من أن

---

١ — رواه ابن عبدالبر فى كتاب العلم عن أبى هريرة وأثبته السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ: علم النسب علم لاينفع وجهالة لاتضر

٢ — خرجه الترمذى والامام احمد والحاكم ولفظه : «تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال ، منسأة فى الأثر»

الحِن[١] والطِّم أمتان كانتا فيا زعموا من قبل آدم ، وهو ضعيف متروك

وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع فى المصحف الكريم، وهو معروف بين الائمة

واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أحقابا وأجيالا بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام، وأنه كان فيهم أنبياء مثل شيث وإدريس ، وملوك فى تلك الاجيال معدودون، وطوائف مشهورون بالنحل، مثل الكلدانيين ومعناه الموحدون ، ومثل السريانيين ، وهم المشركون ، وزعموا أن أمم الصابئة منهم ، وأنهم من ولد صابيء بن لَمَك[٢] بن أَخنوخ . وكان نحلتهم فى الكواكب والقيام لها كلها واستنزال روحانيتها ، وأن من حزبهم الكلدانيين أى الموحدين .

وقد ألف أبو اسحق الصابي الكاتب مقالة فى أنسابهم ونحلتهم ، وذكر أخبارهم أيضا داهَرُ مؤرخ السريانيين ، والبابا الصابي الحَرَّانى وذكروا استيلاءهم على العالم ، وجملا من نواميسهم، وقد اندرسوا وانقطع أثرهم .

وقد يقال إن السريانيين من أهل تلك الاجيال ، وكذلك النُّمروذ[٣]

---

١ — الحِن بالكسر هم ، فى كلامهم ، حى من الجن منهم الكلاب السود البهم أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم أو خلق بين الجن والانس كانوا قبل آدم عليه السلام وأنشد ابن الاعرابى :

« أبيت أهوى فى شياطين ترن مختلف نجواهم جن وحن »

انظر (ت ٩ — ١٨٥)

٢ — لمك بفتح الميم وقال نصر : « ان صاحب الاتقان ضبطه بالسكون » . وأخنوخ فى نسخ ق بالفتح وقال فى ت : « ضبطه شيخنا بالضم إجراء له على أوزان العرب وإن كان أعجمياً » (يريد أن كل ما أتى على فعلول فهو بضم الفاء) قال : والذى صدر به المصنف هو القول المشهور وعليه الاكثر كما أشار اليه الحافظ ابن حجر. ومن لغاته أخنخ بضم الهمزة وحذف الواو وأهنخ وأهنوح (بالحاء) انظره (٢ — ٢٥٥)

٣ — هكذا هو بالمعجمة فى نسخة المؤلف وهو الموافق للضابط الذى نظمه الفارابى فرقا بين الدال والذال فى لغة الفرس حيث قال :

احفظ الفرق بين دال وذال فهو ركن فى الفارسية معظم
كل ما قبله سكون بلا وا و فدال وما سواه فمعجم

ووقع فى طبعة ابن كثير فى د ١ — ١٤٩ وغيرها بالمهملة وهو الذى يقتضيه صنيع ق وجوز فى المزهر فيه الوجهين وجاء فى كد (تك ١٠ : ٨) نمرود مضبوطا بكسر النون والدال المهملة — وضبطه فى ق بالضم وإياه تبعنا لموافقته للصيغة العربية

والازْدَهاق (١) وهو المسمى بالضحاك من ملوك الفرس . وليس ذلك بصحيح عند المحققين .

واتفقوا على أن الطُّوفان ، الذى كان فى زمن نوح وبدعوته ، ذهب بعمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ومهلك الذين ركبوا معه فى السفينة ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أبا ثانيا للخليقة . وهو نوح بن لامَك ويقال لَمَكَ بن مَتُوشَلَخ (٢) بفتح اللام وسكونها ابن خَنوخ ويقال أُخْنُوخ ويقال أشنُخ ويقال أخنخ ، وهو ادريس النبي ، فيما قاله ابن اسحق ابن يَرْد (٣) ويقال بيرد بن مهلائيل (٤) ويقال ماهلايل بن قاين ويقال قِينَن (٥) بن أَنوش (٦) ويقال يانَش بن شيث بن آدم

---

١ — الازدهاق : قال ب فى الدائرة : « انه بصاد بين السين والكاف وخاء قريبة من الهاء وكاف قريبة من القاف ، ومنه اشتق اسمه العربى أى الضحاك » وكتبه باللاتينية هكذا Izdahac وهو ملك من ملوك الفرس من الطبقة الاولى راجع الدائرة (١١ — ١٢٢) وقال فى ت : « وتزعم الفرس ان د ه اك ومعناه الضحاك » انظره (٧ — ١٥٧) وتأمل ماقاله البستانى من ان الزاى بين السين والكاف فهو غير معهود . وفى ط : والعرب تسميه الضحاك فتجعل الحرف الذى بين السين والزاى فى الفارسية صاداً والهاء حاء والقاف كافا انظره (١—٩٨) و بمثله ضبطه المؤلف (١—١٥٥)

٢ — متوشلخ : هكذا ورد بالخاء والتاء المثناة فى نسخة المؤلف وهكذا فى د (١ — ١٠٠) وط (١— ٨٦ — ٨٧) ووضع فى ف بالحاء والتاء مع حكاية الثاء المثلثة (١ — ٩) ووقع فى ع بالمثلثة والحاء أيضا (ص ١٠ — ١٣) أما فى كد فقد ذكر بالمثناة والحاء مضبوطا هكذا : متوشلح (تك ٥ : ٢٦)

٣ — يرد : هكذا ضبطه فى ق وهو بهذه الصيغة فى ف إلا أنه حكى فيه إعجام الذال ١—٩ وكذلك فى د ١ — ١٠٠ وفى ط « يرد وبعضهم يقول يارد (١—٨٥) وحكى أيضاً فى ت ٢—٥٥٠ ثم نقل عن البرماوى أنه يقال فيه يارد واليرد . وفى كد « وولد له يارد » (تك ٥ — ١٥)

٤ — هكذا هو فى د و ط وق ووقع فى ع « مهلالايل » (ص ١٠) وفى كد « مهلالئيل » (تك ٥ — ١٥)

٥ — هكذا فى د وكما ضبطناه مع المد فى كد (تك ٥ — ١٢) وضبطه فى ق بفتح القاف ومد النون الأولى وكذا هو عند ف و د و ط و ع وابن الكلبي المقري فى كنز الأسرار قال فى ت : « قال محمد بن احمد التوزى : ويقال قينن باسقاط الألف » (أى كما عند المؤلف) أما قاين فقال فى ق إنه ابن لآدم عليه السلام ، قال فى ت « إنه انقرض »

٦ — قال فى ت « أنوش كصبور ويقال يانش كصاحب وآدم ويقال إنوس بكسر الهمزة بمعنى إنسان وهو من المستدرك على القاموس وان كان ذكره فى مادة (ق ى ن) إلا ان الناشر ضبطه بضم الهمزة وهو غلط كما يفهم من كلام ت وضبط كد (تك ٥—٩)

ومعنى شيث : عطية الله . هكذا نسبه ابن اسحق وغيره من الأئمة وكذا وقع فى التوراة نسبه(١) وليس فيه اختلاف بين الأئمة

ونقل ابن اسحق أن خَنوخ الواقع اسمه فى هذا النسب هو إدريس النبى صلوات الله عليه ، وهو خلاف ماعليه الأكثر من النسابين ، فإن إدريس عندهم ليس بجد لنوح ، ولا فى عمود نسبه . وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاأن إدريس هو هرمس(٢) المشهور بالامامة فى الحكمة عندهم .

وكذلك يقال إن الصابئة من ولد صابيء بن لامك وهو أخو نوح عليه السلام. وقيل إن صابيء متوشلخ جده .

سبب الخلاف فى ضبط الاسماء

واعلم أن الخلاف الذى فى ضبط هذه الأسماء إنما عرض فى مخارج الحروف فان هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة، ومخارج الحروف فى لغتهم غير مخارجها فى لغة العرب، فاذا وقع الحرف متوسطا بين حرفين من لغة العرب فترده العرب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا . وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلام العجم

فمن ههنا اختلف الضبط فى هذه الأسماء . واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط . واعلم أن آدم هو كيومرث (٣) وهو نهاية نسبهم فيما يزعمون ، وأن أفريدون الملك فى آبائهم هو نوح ، وانه بعث لازدهاق، وهو الضحاك ، فسلبه الملك وغلبه كما يذكر بعد فى أخبارهم

---

١ — انظر كد (تك ٥ ـ ٩)

٢ — هرمس كزبرج ولفظه أرمس ويسمى عند اليونانيين اطرمسين وعند العرب ادريس وعند العبرانيين أخنوخ وإياهم تبع ابن اسحاق ونسب ب فى الدائرة هذا القول للعرب ثم قال « وفرق قوم بين ادريس وأخنوخ مع مايرى من الفرق البين بين ترجمتيهما » انظره(٢٦ـ٦٧١) وكذلك فى مادة أخنوخ (٢ ـ ٦٣٩)

٣ — هكذا هو بالكاف عند المؤلف وهو عند ب فى الدائرة بالجيم (٤ـ٧٣٣) وكذلك هو عند ط (١ ـ ٩٠٧) وعند ف بالخاء (١ ـ ١٠) وجاء فى طبقات الامم لصاعد(ص ٢٣) بعد ماحكى تنازع القوم فى تاريخ الفرس ماياتى « وأصح ماقيل فى ذلك ان من ابتداء ملك (كيومرث) بن أميم بن لوذ بن سام بن نوح أبى الفرس كلها الذى هو عندهم آدم أبو البشر إلى ابتداء ملك (منوشهر) أول ملوك الطبقة الثانية من ملوك الفرس نحو ألف سنة كاملة » ونقل المؤلف(ص ١٥٤) عن م انه ضبطه بكاف أول الاسم قبل الياء المثناة من أسفل وعن ض بجيم مكان الكاف ثم قال : والظاهر ان الحرف بين الجيم والكاف

وقد تترجح صحة هذه الأنساب من التوراة، وكذلك قصص الأنبياء الأقدمين إذ أخذت عن مسلمى يهودا، ومن نسخ صحيحة من التوراة يغلب على الظن صحتها.

وقد وقعت العناية فى التوراة بنسب موسى عليه السلام وإسرائيل وشعوب الأسباط ونسب ما بينهم وبين آدم صلوات الله عليه.

والنسب والقصص أمر لا يدخله النّسْخ فلم يبق إلا تحرى النُّسَخ الصحيحة والنقل المعتبر

تحريف التوراة

وأما ما يقال من أن علماءهم بدلوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم فى ديانتهم فقد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخارى فى صحيحه: «إن ذلك بعيد» وقال: «معاذ الله أن تعمد أمة من الامم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله» أو ما فى معناه. قال: «وإنما بدلوه وحرفوه بالتأويل» ويشهد لذلك قوله تعالى: «وعندهم التوراةُ فيها حُكم الله» ولو بدلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التى فيها حكم الله. وما وقع فى القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها اليهم فانما المعنىّ به التأويل.

اللهم إلا أن يطرقها التبديل فى الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها فذلك يمكن فى العادة لاسيما وملكهم قد ذهب وجماعتهم انتشرت فى الآفاق واستوى الضابط منهم وغير الضابط، والعالم والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك، فتطرق من أجل ذلك إلى صحف التوراة فى الغالب تبديل وتحريف غير معتمد من علمائهم وأحبارهم، ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذا تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه

أعقاب نوح

ثم اتفق النسابون ونقلة المفسرين، على أن ولد نوح الذين تفرعت الأمم منهم ثلاثة: سام وحام ويافث[1] وقد وقع ذكرهم[2] فى التوراة. وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر، وسام الأوسط.

---

١ — ضبطناه بكسر الفاء متبعين ق ووقع فى كـ مضبوطا بالفتح
٢ — راجع تك ١٠ - ١

وخرّج الطبرى (١) فى الباب أحاديث مرفوعة بمثل ذلك : وأن سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش والزنج ، وفى بعضها السودان، وفى بعضها : سام أبو العرب وفارس والروم ، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وحام أبو القبط والسودان والبربر ، ومثله عن ابن المسيّب ووهب بن منبه

وهذه الأحاديث وإن صحت فانما الانساب فيها مجملة ، ولا بد من نقل ماذكره المحققون فى تفريع أنساب الأمم من هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً . وكذلك نقل الطبرى (٢) أنه كان لنوح ولد اسمه كنعان (٣) وهو الذى هلك فى الطوفان قال وتسميه العرب يام (٤) وآخر مات قبل الطوفان اسمه عابر ، وقال هشام كان له ولد اسمه بو ناطر (؟) والعقب إنما هو من الثلاثة ، على ما أجمع عليه الناس وصحت به الاخبار .

السـاميون

فأما سام فمن ولده العرب على اختلافهم ، وابراهيم وبنوه صلوات الله عليهم باتفاق النسابين ، والخلاف بينهم إنما هو فى تفاريع ذلك أو فى نسب غير العرب إلى سام، فالذى نقله ابن اسحق أن سام بن نوح كان له من الولد خمسة وهم أرْفخْشَذ ولاوَذ (٥) وإرَم وأشّوذ وغُلَيْم ، وكذا وقع ذكر هذه الخمسة فى التوراة. وان بنى أشوذ هم أهل الموصل ، وبنى غليم أهل خوزستان ، ومنها الاهواز. ولم يذكر فى التوراة ولد لاوَذ ، وقال ابن إسحق : وكان للاوذ أربعة من الولد هم طَسْم وعمليق وجرجان وفارس، قال: ومن العماليق أمة جاسم فمنهم بنو هف (٦) وبنو هزّان وبنو مطر وبنو الازرق. ومنهم بديل وراحل وغفار، ومنهم الكنعانيون وبرابرة الشام وفراعنة

١— راجع ١ — ٩٧ من التاريخ

٢— راجع ص ٩٧ أيضاً

٣— قال فى ت : قال شيخنا : وكنعان صريح المصنف انه بالفتح وجزم بعضهم بان الأفصح فيه الكسر وقد يفتح

٤— منه قول العرب : إنما هام عمنا يام

٥— هكذا عند المؤلف وفى كتب التواريخ العربية. والذى فى كد (تك ١٠ — ٢٢) بنو سام عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وإرم

٦— هكذا فى الاصل والذى فى ط ١ — ١٠٣ « منهم بنو هف وسعد بن هزان وبنو مطر وبنو الازرق وأهل نجد منهم بديل وراحل وغفار » بالغين لا بالظاء كما هو عند المؤلف

مصر ، وعن غير ابن اسحق أن عبد بن ضخم وأُميم(١) من ولد لاوذ

قال ابن اسحق :وكانت طَسْم والعماليق وأُميم وجاسم يتكلمون بالعربية ، وفارس يجاورونهم إلى المشرق ويتكلمون بالفارسية . قال : وولد إِرَم عَوْصَ وكاثِر (٢) وعَبيل،ومن ولد عوص عاد ومنزلهم بالرمال والاحقاف إلى حضرموت ، ومن ولد كاثر ثمود وجديس ، ومنزل ثمود بالحجر بين الشام والحجاز . وقال هشام بن الكلبي(٣) عُبيل بن عوص أخو عاد

وقال ابن حزم عن قدماء النسابين: إن لاوذ هو ابن إرَم بن سام أخو عوص وكاثر ، قال فعلى هذا يكون جديس وثمود أخوين ، وطسم وعملاق أخوين ، أبناء عم لحام(٤) وكلهم بنو عم عاد ، قال ويذكرون أن عبد بن ضخم بن إرم وأن أميم ابن لاوذ بن إرم، قال الطبرى : « وفهَّم الله لسان العربية عادا وثمود وعبيل وطسم وجديس وأميم وعمليق . وهم العرب العاربة» وربما يقال إن من العرب العاربة يقطن(٥) أيضا ، ويسمون أيضا العرب البائدة ولم يبق على وجه الارض منهم أحد

قال وكان يقال : عادإرم ،فلما هلكوا قيل: ثمود إرم ، ثم هلكوا فقيل لسائر ولد إرم : إرمان وهم النبَط

وقال هشام بن محمد الكلبي : إن النبط بنو نبيط بن ماش بن إرم ، والسريان بنو سريان بن نَبَط وذكر أيضا أن فارس من ولد أشوذ بن سام وقال فيه : فارس بن طيراش بن أشوذ . وقيل إنهم من أُمَيْم بن لاَوذ وقيل بن غُلَيْم .

---

١ — أميم قال فى ض : « بفتح الهمزة وكسر الميم ، وضم الهمزة وفتح الميم وهو أكثر ووجدت بخط بعض المشاهير أميم بتشديد الميم » ونقله المؤلف ص ٨٢ من هذا الجزء

٢ — كاثر هو بفتح الثاء المثلثة كما ضبطه فى كد (تك ١٠ — ٢٢) نعم هو فيه بالجيم ووقع عند ط (١ — ١٠٣) بالغين فلا شك ان هذا الحرف هو الذى يسميه المؤلف بالقاف المعقودة .

٣ — عبيل كأمير كما فى ق هو ابن عوص بن ارم بن سام ، فيتفق مع ابن الكلبى وفى ض عبيل بن مهلايل بن عوص بن عملاق بن لاود بن إرم ، وبنو عبيل هم الذين سكنوا الجحفة أجحفت بهم السيول فسميت الجحفة

٤ — تأمل هذا فانه لايصح أن يكون حام ابن عم لطسم وعملاق لانهما من سلالة أخيه

٥ — الذى فى (كد تك ١٠ — ٢٩) يقطان بالاشباع وهذا هو المناسب لتعريبه بقحطان كما يقوله المؤلف

وفى التوراة ذكر (١) ملك الاهواز، واسمه كرد، لاعمرو، من بنى غليم، والاهواز متصلة ببلاد فارس، فلعل هذا القائل ظن أن أهل أهواز هم فارس. والصحيح أنهم من ولد يافث كما يذكر

وقال أيضا إن البربر من ولد عمليق بن لاوذ وأنهم بنو تميلة من مأرب بن قاران ابن عمرو بن عمليق، والصحيح أنهم من كنعان بن حام كما يذكر

وذكر فى التوراة ولد إرَم أربعة: عوص وكاثر وماش ويقال مَشَج والرابع حُول (٢) ولم يقع عند بنى اسرائيل فى تفسير هذا شىء إلا أن الجرامقة من ولد كاثر. وقد قيل إن الكرد والديلم من العرب وهو قول مرغوب عنه

وقال ابن سعيد: كان لأشوذ أربعة من الولد: إيران ونبيط وجُرْموق وباسل، فمن إيران الفرس والكرد والخزر، ومن نبيط النبط والسريان، ومن جُرموق الجرامقه وأهل الموصل ومن باسل الديلم وأهل الجبل. قال الطبرى: ومن ولد أرفَخْشَذ العبرانيون وبنو عابر بن شالَخ بن أرفخشذ وهكذا نسبه فى التوراة (٣)

وفى غيره أن شالخ بن قينن بن أرفخشَذ وإنما لم يذكر قينن فى التوراة لأنه كان ساحرا وادعى الألوهية

وعند بعضهم أن النمْرُوذ من ولد أرفخشذ وهو ضعيف

وفى التوراة ان عابر ولد اثنين من الولد هما فالَغ ويقطَن (٤) وعند المحققين من النسابة أن يقطن هو قحطان، عربته العرب هكذا.

ومن فالغ ابراهيم عليه السلام وشعوبه ويأتي ذكرهم

ومن يقطَن شعوب كثيرة ففى التوراة ذكر ثلاثة من الولد له وهم الموذاذ ومعربَه ومُضاض (٥) وهم جرهم. وإرم، وهم حَضُور (٦)

١— الذى فى كد (تك ١٤ — ١و٤)« وكذا لعومر ملك عيلام»
٢— (تك ١٠ — ٢٣)
٣— (تك ١١ : ١١: ١٢ : ١٣) لكن فيه شالح بالحاء المهملة لا الخاء
٤— (تك ١٠ — ٢٥)
٥— الذى فى كد (هو الموداد) والمضاض هذا هو جد ملوك جرهم وكان ملكهم حين قدموا إلى مكة الحارث بن مضاض قال ابن سعيد: وجرهم أمتان: أمة على عهد عاد وأمة من ولد جرهم بن قحطان. ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز ومثله فى ف
٦— حضور كصبور ضبطه فى ت ويا

وسالف (١) وهم أهل السُّلُفات، وسبا. وهم أهل اليمن من حِمْير والتبابعة. وكهلان وهَدَرَماوت وهم حضرموت هؤلاء خمسة، وثمانية أخرى ننقل أسماءهم وهي عبرانية ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من أي البطون هم، وهم ياراح وأوزال ودِفلا وعوثال وأفيمايل وأيوفير وحَويلاويوفاف (٢)

وعند النسابين أن جرهم من ولد يقطن فلا أدرى من أيهم (٣) وقال هشام بن الكلبي إن الهند والسند من نوفير بن يقطن (٤) والله أعلم

---

١ — الذى في كد: شالف. وقال يا: السالف بفتح أوله وكسر ثانيه بوزن الصدف وقيل السلف بوزن الصرد وهما قبيلتان قديمتان من قبائل اليمن. وقال هشام بن محمد ولد يقطن وقيل يقطان ابن عامر (كذا وهو عابر) بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح (الموذاذ) وسالف وهم السلاف وهو الذى نصب دمشق وحضرموت وقد سمى بالسلف مخلاف باليمن ... والسلف من الارض جمع سلفة وهى الكردة المسواة» فلعل المؤلف جمع السلف على سلفات كما ان ق قال: «السلف كصرد بطن من ذى الكلاع: فكتب عليه ت: والذى فى انساب أبى عبيد لما سرد قبائل ذى الكلاع قال: وسلفه. فكأن السلف جمعه فتامل. وقال في السبائك ص ١٦ السلف بضم السين وفتح اللام بطن من بنى قحطان ويقال لهم أيضا بنو السلفان بكسر السين وسكون اللام والسلف في الأصل واحد أولاد الحجل والسلفان جمعهم فسميت بذلك القبيلة على سبيل النقل.

٢ — نص كد (تك ١٠ — ٢٦ — ٢٨) ويقطان ولد المولاد وشالف وحضرموت ويارح وهدوران وأوزال ودقله وعوبال وأبى مايل وشبا وأوفير وخويلة ويوباب جميع هؤلاء بنو يقطان» فتأمله مع نقل المؤلف

٣ — من كلام ابن سعيد وف المشار اليه فى تعليق رقم ٥ ص ١١ يعلم جرهم من أى ولد يقطان هم

٤ — كذا فى ج نوفير وهو أوفير فى لفظ كد السابق وأيوفير عند المؤلف قبل

- نوح
  - سام
    - أرفخشذ
      - شالخ
        - عابر
          - يقطن
            - سبأ
            - مضاض
            - حضرموت
            - حضور
            - جرهم
            - سالف
            - يارح
            - أوزال
            - دفلا
            - عوثال
            - أفيابل
            - أيوفير
            - حويلا
            - يوفاف
    - أشوذ
      - جرموق
      - نبيط
        - سريان
        - نبط
      - باسل
        - الديلم
        - أهل الجبل
      - إيران
        - كرد
        - فرس
        - خزر
    - لاوذ
      - طسم
      - فارس
      - عمليق
        - جاسم
          - غفار
          - راحل
          - بديل
          - هزان
          - هف
          - مطر
          - الأزرق
            - مأرب
              - بربر عميلة
        - عمرو
          - قاران
        - كنعانيون
        - فراعنة
        - جديس
        - ثمود
        - جرموق
      - جرجان
      - أميم
    - إرم
      - حول
      - كاثر
      - عوص
        - عاد
      - ماش
        - نبيط
          - سريان
      - عبيل
      - عبدضخم
    - غلسيم
      - فارس

أولاد يافث

وأما يافث فمن ولده الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج باتفاق من النسابين وفي آخرين خلاف كما يذكر ، وكان له من الولد على ماوقع في التوراة سبعة وهم كُومَر ويَاوَان وماذَاى وماغُوغ وقُطوبال وماشخ وطيراش ، وعدهم ابن اسحق هكذا ، وحذف ماذاى ولم يذكر كومر ، وتُوغَرْما وأشبان وريفاث . هكذا في نص التوراة (١)

ووقع في الإسرائيليات أن توغرما هم الخَزَر وأن أشبان هم الصقالبة وأن ريفاث هم الافرنج ويقال لهم بِرْنسوس ، والخزر هم التركمان ، وشعوب الترك كلهم من بني كومر،ولم يذكروا من أي الثلاثة هم،والظاهر أنهم من توغرما.ونسبهم ابن سعيد إلى الترك بن عامور بن سويل بن يافث . والظاهر أنه غلط ، وأن عامور هو كومر صحف عليه ، وهم أجناس كثيرة منهم الطُغُزْغُز (٢) وهم التَّتَر والخطا ، وكانوا بأرض طَمغاج (٣) والخزلقية والغُزُّ الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذين كان منهم الخَلْج ويقال للهياطلة الصُّغْد أيضا ومن أجناس الترك الغُور والخَزَر والقَفْجاق (٤) ويقال الخفشاخ ومنهم يَمك والعَلاّن ويقال أَلاَّن (٥) ومنهم الشركس (٦) وأركش . ومن ماغوغ عند الاسرائيليين يأجوج ومأجوج وقال ابن اسحق إنهم من كومر . ومن ماذاى الدَّيلَم ويسمون في اللسان العبراني مَاهَان ومنهم أيضا همذان وجعلهم بعض الاسرائليين من بني همذان بن يافث وعد همذان ثامنا للسبعة المذكورين من ولده . وأما ياوان واسمه يونان فعند الاسرائليين أنه كان له من الولد أربعة وهم داود واليشا

---

١ — نص كد (تك ١٠ — ١ — ٣) « بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس وبنو جومر : اشكناز وريفاث وتوجرمه »

٢ — كان في ج الطغزغز

٣ — هكذا في س (٤ — ٣٠٧) ووقع في ف طوغاغ

٤ — في يا— ٧ — ٣١٦ — اللان آخره نون بلاد واسعة في أطراف أرمينية قرب باب الابواب مجاور للخزر والعامة يغلطون فيهم فيقولون علان وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاف

٥ — هكذا هو بالفاء في كثير من الكتب ووقع في ش القبجاق بالباء ٤ — ٤٥١ وغيرها والظاهر أنه بالباء الفارسية

٦ — شركس أو جركس أو سركيسيا

وكَيْتم (١) وترشيش ، وأن كيتم من هؤلاء الأربعة هو أبو الروم والباقى يونان وأن ترشيش أهل طرسوس .

وأما قُطوبال فهم أهل الصين من المشرق واللمان من المغرب ، ويقال إن أهل إفريقية قبل البربر منهم وإن الأفرنج أيضا منهم ، ويقال أيضا إن أهل الأندلس قديما منهم

وأما ماشخ فكان ولده عند الإسرائليين بخُراسان وقد انقرضوا لهذا العهد فيما يظهر وعند بعض النسابين أن الاشبان منهم

وأما طيراش فهم الفرس عند الإسرائيليين وربما قال غيرهم إنهم من كومر ، وإن الخزر والترك من طيراش وإن الصقالبة وبُرجان والاشبان من ياوان وإن يأجوج ومأجوج من كومر ، وهى كلها مزاعم بعيدة عن الصواب وقال هروشيوش مؤرخ الروم : إن القوط واللطين من ماغوغ

وهذا آخر الكلام فى أنساب يافث

---

١ — هكذا هو بتقديم الباء على التاء فى كتب التواريخ العربية وعند المؤلف فى مواضع والذى فى كند تك ١٠ — ٤ « كتيم »

أولاد يافث بن نوح

ماغوغ — قطوبال — همذان — ماذاى — طيراش — ماشخ — ياوان — تومر

ماذاى ← الأسليم

طيراش ← فارس

ماشخ ← خراسان

ياوان ← ترشيش — اليشا — داود — كيم

كيم ← الروم

تومر ← الترك

الترك:
الغور — الخطا — قفجاق — الطغزغز — الغز — ريفاث — أشبان — توغرما (١) — علان — عك — جركس — أزكش

الغز ← سلجوق

أشبان ← الصقالبة

توغرما ← التركان (وهم الخزر)

(١) عند السويدى فى السبائك الذهبية زوائد على ما فى جدول المؤلف فيمكن مراجعته . ص ١٢ — ١٣ .

أولاد حام

وأما حام فمن ولده السودان والهند والسند والقبط وكنعان باتفاق ، وفى آخرين خلاف نذكره ، وكان له على ماوقع فى التوراة أربعة من الولد ، وهم : مصر ، ويقول بعضهم مصرايم ، وكنعان وكوش وفوط (١) فمن ولد مصر عند الاسرائيليين فتروسيم وكسلوحيم ، ووقع فى التوراة فلشتين (٢) منهما معا ولم يتعين من أحدهما ، وبنو فلشتين (٣) الذين كان منهم جالوت . ومن ولد مصر عندهم كفتورع ويقولون هم أهل دمياط . ووقع الاتقلوس ابن أخت قيطش (٤) الذى خرب القدس فى الجلوة الكبرى على اليهود ، قال إن كفتورع (٥) هو قبطقاى ، ويظهر من هذه الصيغة أنهم القبط ، لما بين الاسمين من الشبه ، ومن ولد مصر غنامیم ، وكان لهم نواحى اسكندرية ، وهم أيضاً بفتوحيم ولوديم ولهابيم ، ولم يقع الينا تفسير هذه الاسماء .

وأما كنعان بن حام فذكر من ولده فى التوراة أحد عشر ، منهم صيدون ، ولهم ناحية صيدا ، وايموری (٦) وكرساش (٧) ، وكانوا بالشام ، وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع الى إفريقية فأقاموا بها . ومن كنعان أيضا بيوسا (٨) وكانوا ببيت

---

١ — هكذا وقع هنا بالفاء وهو كذلك فى كد ويقع للمؤلف فى مواضع بالقاف وهو كذلك فى كتب التواريخ العربية وفى ت ٥ — ٢٠٠

٢ — تك ١٠ — ١٤ « فلشتيم »

٣ — الذى فى كد « ومصرايم ولد لوديم وعنامیم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم » فمقتضاه ان كلا من فلشتيم وكفتوريم خرج من فتروسيم وكسلوحيم دون تعيين من أيهما خرج وهو مغاير لما ذكره المؤلف نقلا عنهما فى كفتوريم أنظر تك ١٠ : ١٣

٤ — التصحيح من دال ١ — ٣٨ وك ١ — ١٤٢ وع ٣٥ — ١١٧ — ١١٨ ودائرة المعارف لوجدى ٤ — ٤٤٨ ويأتى للمؤلف فى الفصل المتعلق ببنى اسرائيل ان الجلوة الكبرى كانت على يد طيطش انظره ص ١١٦ وما بعدها وفى ب تيطوس بالتاء فى الاول والسين فى الأخر ٦ — ٢٩٢ و ٩ — ٧٨ فى وهج ص ٥٠٧ نعم ينبغى التنبه إلى غلط وقع فيه ب فى مدة حكم طيطوس هذا ٩ — ٧٨ حيث قال انه ولى من سنة ٧٩ إلى سنة ٨٨ مع انه مات سنة ٨١ كما يعرف من جميع كتب التاريخ القديم وقد غلط وجدى حيث قال انه مات سنة ٨٠

٥ — جاء عند المؤلف ٧٤ من هذا الجزء « وعند بعضهم انهم من كفتوريم بن قبطايين ومعناه القبط » أنظره

٦ — تك ١٠ الأموری

٧ — تك الجرجاشى

٨ — تك اليبوسى

المقدس وهربوا أمام داود عليه السلام ، حين غلبهم عليه الى إفريقية والمغرب ، وأقاموا بها . والظاهر أن البربر من هؤلاء المنتقلين أولا وآخراً ، إلا أن المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان ، فلعل مازيغ ينتسب الى هؤلاء . ومن كنعان أيضا حيث (١) الذين كان ملكهم عُوج بن عِناق(٢) ومنهم عرْفان (٣) وأرْوادى وخوى (٤) ولهم نابلس . وسبا ولهم طرابلس . وصَمارى (٥) ولهم حمص . وحما ولهم أنطاكية ، وكانت تسمى حمتا باسمهم .

وأما كوش بن حام فذكر له فى التوراة خمسة من الولدوهم : سغتا (٦) وسبا وحويلا(٧) ورعما وسفخا (٨) ومن ولد رعماشا او (٩) وهم السند . وددان وهم الهند . وفيها أن النمروذ من ولد كوش ولم يعينه ، وفى تفاسيرها ان حويلا زويلة وهم أهل برقة . وأما أهل اليمن فمن ولد سبا . وأماقوط فعند أكثر الاسرائيليين أن القبط منهم . ونقل الطبرى عن ابن اسحق ان الهند والسند والحبشة من بنى السودان من ولد كوش ، وأن النوبة وفزّان وزغاوة (١٠) والزنج منهم من كنعان ، وقال ابن سعيد : أجناس السودان كلهم من ولد حام . ونسب ثلاثة منهم الى ثلاثة

---

١ — تك حثا ويقال حيثا والارجح انهم هم الحثيون المذكورون فى كد

٢ — قال ق «عوج بن عوق بضمهمارجل ولد فى منزل آدم فعاش إلى زمن موسى وذكر من عظم خلقه شناعة» وقال فى مادة ع و ق : وعوق كنوح والد عوج الطويل ومن قال عوج بن عوق فقد أخطأ قال ت« وهذا الذى خطأه هو المشهور على الألسنة قال شيخنا وزعم قوم من حفاظ التواريخ ان عنق هى أم عوج وعوق أبوه فلا خطأ ولا غلط وفى شعر عرقلة الدمشقى المذكور فى بدائع البدائه المتوفى سنة ٥٦٧

أعور الدجال يمشى   خلف عوج بن عناق

وهو ثقة عارف

٣ — تك العرقى

٤ — تك جوى

٥ — تك «الصمارى» بالصاد المهملة

٦ — تك سبتة أوسبتا ولعل الأصل بين الباء والفاء

٧ — تك حويلة

٨ — تك سبتكا

٩ — تك شبا

١٠ — قال المعرى فى زغاوة :

بسبع إماء من زغاوة زوجت   من الروح فى لماك سبعة أعبد

من ولده غير هؤلاء : الحبشة الى حبش ، والنوبة الى نوابة أو نوى (؟) والزنج إلى زنج . ولم يسم أحدا من آباء الاجناس الباقية. وهؤلاء الثلاثة الذين ذكروا لم يعرفوا من ولد حام ، فلعلهم من أعقابهم ، أو لعلها أسماء أجناس

وقال هشام بن محمد الكلبي : إن النمروذ هو ابن كوش بن كنعان ، وقال هروشيوش مؤرخ الروم: إن سبا وأهل افريقية يعنى البربر من جويلا بن كوش ، ويسمى يضول، وهذا والله أعلم غلط ، لانه مر أن يضول فى التوراة من ولد يافث ، ولذلك ذكر أن حبشة المغرب من دادان بن رعما من القبط من ولد مصر بن حام بنو قبط ابن لاب بن مصر

انتهى الكلام فى بنى حام . وهذا آخر الكلام فى أنساب أمم العالم على الجملة ، والخلاف الذى فى تفاصيلها يذكر فى أماكنه . والله ولى العون والتوفيق

أولاد

حام بن نوح

مصرايم — كنعان — كوش

لهابيم بنتوحيم لوديم كسلوحيم فتروسيم فوط (١) كفتورع عناميم

حما ضمارى أرَوادى مازيغ عرفان أعودى كرساش يبوسا صيدون حيث حوّى

بربر

سبا نمروذ سفتا رعما سفخا جويلا

ددان شا

(١) عند الاسرائيليين القبط بن قوط . ه مؤلف

المقدمة الثانية

فى كيفية وضع الانساب فى كتابنا لاهل الدول وغيرهم

كيفية وضع الانساب فى هذا الكتاب

اعلم أن الانساب تتشعب دائما ، وذلك أن الرجل قد يكون له من الولد ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، ويكون لكل واحد منهم كذلك ، وكل واحد منهم فرع ناشىء عن أصل أو فرع ، أو عن فرع فرع . فصارت بمثابة الاغصان للشجرة ، تكون قائمة على ساق واحدة ؛ هى أصلها ؛ والفروع عن جانبها ، ولكل واحد من الفروع فروع أخرى ، الى أن تنتهى الى الغاية . فلذلك اخترنا بعد الكلام على الانساب للامة وشعوبها أن نضع ذلك على شكل شجرة ، نجعل أصلها .وعمود نسبها باسم الاعظم من أولئك الشعوب ، ومن له التقدم عليهم . فيجعل عمود نسبه أصلا لها ؛ وتفرع الشعوب الاخرى عن جانبه من كل جهة ، كأنها فروع لتلك الشجرة ، حتى تتصل تلك الانساب عمودا وفروعا بأصلها الجامع لها ؛ ظاهرة للعيان فى صفحة واحدة ؛ فترسم فى الخيال دفعة ، ويكون ذلك أعون على تصور الانساب وتشعبها ؛ فان الصور الحسية أقرب إلى الارتسام فى الخيال من المعانى المتعقلة

ثم لما كانت هذه الامم كلها لها دول وسلطان اعتمدنا بالقصد الاول ذكر الملوك منهم فى تلك الشجرات ، متصلة أنسابهم الى الجد الذى يجمعهم؛ بعد أن نرسم على كل واحد منهم رتبته فى تعاقبهم واحدا بعد واحد بحروف (ا ب ج د) فالالف للاول والباء للثانى والجيم للثالث والدال للرابع والهاء للخامس وهلم جرا ؛ ونهاية الاجداد لأهل تلك الدولة فى الآخر منهم ، ويكون للاول غصون وفروع فى كل جهة عنه . فاذا نظرت فى الشجرة علمت أنساب الملوك فى كل دولة وترتبهم بتلك الحروف واحدا بعد واحد . والله أعلم بالصواب .

أجيـــال العرب وأنسابهم

القول في أجيال (١) العرب وأوليتها
واختلاف طبقاتهم وتعاقبها وأنساب كل طبقة منها

اعلم أن العرب منهم الامة الراحلة النـاجعة ، أهل الخيام لسكنـاهم ، والخيل لركوبهم ، والأنعام لكسبهم ، يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها ، يتنازلون حللامفترقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل ، ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارّة القيظ تارة وصبارّة البرد أخرى ، وانتجاعا لمراعى غنمهم وارتياداً لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم . فاختصوا لذلك بسكنى الاقليم الثالث ، ما بين البحر المحيط من المغرب الى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق ، فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وماوراء ذلك ، مما دخلوا اليه فى المائة الخامسة ، كما ذكروه ، من مصر وصحارى برقة وتلولها وقسنطينة وإفريقية وزاغا والمغرب الاقصى والسوس ، لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفـار المحيطة بالارياف والتلول [من الاقاليم الرابع ، فهم يترددون ما بين القفار والعمران دائما يصعدون الى التلول خ] والارياف الآهلة بمن سواهم من الامم فى فصل الربيع وزخرف الارض لرعى الكلا والعشب فى منابتها ، والتنقل فى نواحيها الى فصـل الصيف لمدة الاقوات فى سنتهم من حبوبها ، وربمـا يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من اضرارهم بإفساد السابلة ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائما وحصيدا ، الا ماحاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلطان عليهم فيها . ثم ينحدرون فى فصل الخريف الى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم فى رمالها وما أحاط به علمهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفاء مشاتيها ، فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الايام ، شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجانا على رؤسهم ، يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها ، وهم عرب المشرق ، وقوم يلفون منها الليت والاخـدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهـم من فضلها ، وهم عرب المغرب ،

---

١ — يجب أن نتذكر ان كلمة جيل فى كلام ابن خلدون تأتى دائماً بمعنى الأمة أو الطبقة من الناس ، بخلاف ما يجيء عند كتاب اليوم ؛ فان الجيل فى كلامهم معناه العصر .

حاكوا بها عمائم زَناته (١) من أمم البربر قبلهم، وكذلك لَقِنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية وهجروا تنكب القسيّ، وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين

اشتقاق كلمة عرب

ثم إن العرب لم يزالوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان؛ ولذلك سموا بهذا الاسم، فإنه مشتق من الإبانة؛ لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه (٢) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «الثيب تعرب عن نفسها» (٣) والبيان سمتهم بين الامم منذ كانوا. وانظر قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أن يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضى لذلك، فاختار منهم وفداً أوفده عليه؛ وكان من خبره واستغراب ما جاؤا به من البيان ما هو معروف، فهذه كلها شعائرهم وسماتهم؛ وأغلبها عليهم اتخاذ الإبل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها ومفاحص (٤) توليدها بما كان معاشهم منها. فالعرب أهل هذه الشعائر من أجيال الآدميين، كما أن الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر لما كان معاشهم فيها، فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه الا بالعرض، ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولا عند الاكثر، وفي بعضهم خفيا على الجمهور وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر، فيدعون باسم العرب الا أنهم في الغالب يكونون أقرب الى الاولين من غيرهم؛ وهذا الانتقال لا يكون الا في أزمنة متطاولة، وأحقاب متداولة ولذلك يعرض في الانساب ما يعرض من الجهل والخفاء

قدماء العرب

واعلم أن جيل العرب بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام كان في عادٍ الاولى وثمود والعمالقة وطَسْم وجديس وأُميم وجُرْهُم وحضرموت ومن ينتمي اليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك

---

١ — زناته ينطق بها في المغرب باسكان الزاي. وضبطها في ق بكسرها وهي قبيلة بربرية فلذلك اقتصرنا على ضبطها المغربي

٢ — هذا وجه في اشتقاق كلمة العرب. ويقول الدكتور كارنيليوس فانديك: ان العرب سموا هكذا حين ارتحالهم من الوطن الأصلي العراق قاصدين غربة لان اللغة السامية الأصلية لاغين فيها فلفظ عرب بمعنى غرب

٣ — الثيب تعرب عن نفسها والبكر رضاها صمتها. أخرجه احمد والبيهقي عن عميرة الكندي

٤ — مفاحص جمع مفحص كمفعل وهو مجثم الطائر. منه الحديث «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بني الله له قصراً في الجنة» رواه احمد عن ابن عباس وسنده ضعيف

الامم وأبادهم الله بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل في آخرين ممن قرب من نسبهم من حِمْيَر وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالَخ بن ارفَخْشَذ بن سام. ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو فالَغ بن عابر أعالم من بين ولده واختص الله بالنبوة منهم ابراهيم بن تارَخ وهو آزر بن ناحور ابن سارُوغ بن أرغو[1] بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ماقصه القرآن، ثم كان من هجرته الى الحجاز ما هو مذكور وتخلف ابنه اسمعيل مع أمه هاجر بالحِجْر قربانا لله ومرت بها رفقة من جرهم فى تلك المفازة فخالطوها ونشأ اسماعيل بينهم وربي فى أحيائهم وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان أبوه أعجميا، ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن [2] ثم بعثه الله الى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز فآمن كثير منهم واتبعوه، ثم عظم نسله وكثر، وصار أبا الجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إياد وعَك وشعوب نِزار وعدنان وسائر ولد اسمعيل، وهم العرب التابعة للعرب

ثم انقرض أولئك الشعوب فى أحقاب طويلة، وانقرض ما كان لهم من الدولة فى الاسلام، وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم، ففسدت لغة أعقابهم فى آماد متطاولة وبقي خلفهم أحياء بادين فى القفار والرمال والخلاء من الارض تارة، والعمران تارة، وقبائل بالمشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنوبة والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسِّند وكِرمان وخراسان، أمم لا يأخذها الحصر والضبط، قد كاثروا أمم الارض لهذا العهد شرقا وغربا واعتزوا عليهم، فهم اليوم أكثر أهل العالم وأملك لامرهم من جميع الامم.

العرب المستعجمة

ولما كانت لغتهم مستعجمة على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم، سميناهم لذلك العرب المستعجمة

فهذه أجيال العرب منذ مبدأ الخليقة ولهذا العهد، فى أربع طبقات متعاقبة كان لكل طبقة منها عصور وأجيال ودول وأحياء وقعت العناية بها دون من سواهم

---

١ — هكذا هنا أرغو، وكذلك فى ك ١ — ٤١ وط ١ — ١١٩ وف ص ٥٠ وفى كد تك ١١ رعو وفى د راعو ١ — ١٣٩ وانظر ما يأتى فى ص ٣٣

٢ — بقرة ١٢٥ — ١٢٨

من الامم لكثرة أجيالهم واتساع النطاق من ملكهم

فلنذكر لكل طبقة أحوال جيلها وبعض أيامهم ودولهم ومن كان على عهدهم من ملوك الامم ودولهم ليتبين لك بذلك مراتب الاجيال فى الخليقة كيف تعاقبت والله سبحانه وتعالى ولى العون

برنامج الكتاب

برنامج بما تضمنه الكتاب من الدول فى هذه الطبقات الاربع

على ترتيبها والدول المعاصرين من العجم فى كل خليقة منها

فنبدأ أولا بذكر الطبقة الاولى « وهم العرب العاربة » ونذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة

ثم الطبقة الثانية وهم « العرب المستعربة » من بنى حِمْيَر بن سبا ، ونذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك باليمن فى التبابعة وأعقابهم ، ثم نرجع الى ذكر معاصرهم من العجم وهم ملوك بابل من السريانيين ثم ملوك الموصل ونينوى من الجرامقة ، ثم القبط وملوكهم بمصر ، ثم بنو اسرائيل ودولهم ببيت المقدس قبل تخريب بُخْتُنَصر وبعده ، وبالصابئة ثم الفرس ودولهم الاولى والثانية ، ثم يونان ودولة الاسكندر وقومه ، ثم الروم ودولهم فى القياصرة وغيرهم

ثم نرجع الى ذكر الطبقة الثالثة وهم «العرب التابعة للعرب» من قُضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين : ربيعة ومضر . فنبدأ بقضاعة وأنسابهم ، وما كان لهم من الملك البدوى فى آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة ، بنى حُجْر آكل المُرار ، ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوى بالشأم فى بنى جفنة بالبلقاء والاوس والخزرج بالمدينة النبوية ، ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة فى قريش ، ثم ماشرفهم الله به وجيلَ الآدميين أجمع من النبوة ، وذكر الهجرة والسير النبوية . ثم نذكر ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك فنترجم للخلفاء الاربعة وما كان على عصرهم من الردة والفتوحات والفتن ، ثم نذكر خلفاء الاسلام من بنى أمية وما كان لعهدهم من أمر الخوارج ، ثم نذكر خلفاء الشيعة وما كان لهم من الدول فى الاسلام ، فالاولى الدولة العظيمة لبنى العباس التى انتشرت فى أكثر ممالك الاسلام ، ثم دولة العلوية المزاحمين لها بعد صدْر منها ، وهى دولة الادارسة بالمغرب الاقصى ،

ثم دولة العُبَيدية من الاسماعيلية بالقيروان ومصر ، ثم القرامطة بالبحرين ، ثم دعاة طبرستان والديلم ، ثم ما كان من هؤلاء العلوية بالحجاز ، ثم نذكر بني أمية المنازعين لبني العباس بالأندلس ، وما كان لهم من الدولة هنالك والطوائف من بعدهم

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين بالدعوة العباسية بالمغرب ، والنواحي ، وهم بنو الاغلب بافريقية وبنو حَمدان بالشام وبنو المقلد بالموصل وبنو صالح بن كلاب بحلب وبنو مروان بديار بكر وبنو أسد بالحلة وبنو زياد باليمن وبنو هود بالأندلس .

ثم نرجع إلى القائمين بالدعوة العبيدية بالنواحي ، وهم الصُّلَيْحيون باليمن وبنو أبي الحسن الكلبي بصقلية وصَنهاجة (١) بالمغرب

ثم نرجع إلى المستبدين بالدعوة العباسية من العجم في النواحي ، وهم بنو طولون بمصر ، ومن بعدهم بنو طُغُج ، وبنو الصفار بفارس وسجستان ، وبنو سامان فيما وراء النهر وبنو سُبُكْتكين في غَزْنة وخراسان وغورية في غَزنة والهند وبنو حسنوية من الكرد في خراسان

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين على الخلفاء ببغداد من العجم ، وهم أهل الدولتين العظيمتين القائمتين بملك الاسلام من بعد العرب ، وهم بنو بُوَيه من الديلم والساجوقية من الترك

ثم نرجع إلى ملوك السلجوقية المستبدين بالنواحي ، وهم بنو طُغْتُكين بالشام وبنو قطلميش ببلاد الروم وبنو خوارزم شاه ببلاد العجم وما وراء النهر وبنو سقمان بخَلاط (٢) وإرمينية وبنو أُرتق بماردين وبنو زَنكي بالشام وبنو أيوب بمصر والشام ثم الترك الذين ورثوا ملكهم هنالك ، وبنو رسول باليمن

ثم نرجع إلى ذكر التتر من الترك القائمين على دولة الاسلام والموصلين للخلافة العباسية ثم ما كان من دخولهم في دين الاسلام وقيامهم بالملك بالنواحي ، وهم بنو هولاكو

١ — صنهاجة بفتح الصاد كذا ينطق بها المغاربة وقال ابن دريد « بضم الصاد لا يجوز غيره » وقال ق « بالكسر نسبة الى صنهاجة الحميرى » قال في ت « قال شيخنا والمعروف عندنا الفتح خاصة في القبيلة لا يكادون يعرفون غيره » وفي الوفيات : الصنهاجي « بضم الصاد وكسرها نسبة الى صنهاجة قبيلة مشهورة من حمير وهي بالمغرب » وقد اعتمدنا في الضبط النطق المغربي

٢ — ضبطه (يا) بكسر الخاء وفي ش بفتحها وسماها أولا باخلاط قال « ويقال خلاط »

بالعراق وبنو وشي خان بالشمال ، وبنو أرتَنا ببلاد الروم . ومن بعد بنى هولاكو بنو الشيخ حسن ببغداد وتَوْريز ، وبنو المظفر بأصبهان وشيراز وكَرمان . وبعد بنى أرتَنا ملوك بنى عثمان من التركمان ببلاد الروم وما وراءها

ثم نرجع إلى الطبقة الرابعة من العرب وهم « المستعجمة » ومن له ملك بدوى منهم بالمغرب والمشرق

ثم نخرج بعد ذكر ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب لأنهم كانوا من شرط كتابنا ، وهنالك نذكر برنامج دولهم والله سبحانه أعلم .

العرب العاربة

الطبقة الأولى من العرب وهم العرب العاربة

وذكر نسبهم والالمام بملكهم ودولهم على الجملة

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة وآثاراً فى الارض ، وأول أجيال العرب من الخليقة فيما سمعناه ؛ لان أخبار القرون الماضية من قبلهم يمتنع اطلاعنا عليها لتطاول الاحقاب ودروسها إلا ما يقصه علينا الكتاب ، ويؤثر عن الأنبياء بوحى الله اليهم . وماسوى ذلك من الأخبار الأزلية فمنقطع الإسناد ، ولذلك كان المعتمد عند الأثبات فى أخبارهم ما تنطق به آية القرآن فى قصص الأنبياء الأقدمين ، أو ما ينقله زعماء المفسرين فى تفسيرها من أخبارهم وذكر دولهم وحروبهم ، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة أو سمعوه ممن هاجر إلى الاسلام من أحبار اليهود وعلمائهم أهل التوراة ، أقدم الصحف المنزلة فيما علمناه . وما سوى ذلك من حطام المفسرين ، وأساطير القصص وكتب بدء الخليقة فلا نعول على شىء منه ، وإن وجد لمشاهير العلماء تأليف مثل كتاب الياقوتة للطبرى والبدء للكسائي فانما نحوا فيها منحى القصاص وجروا على أساليبهم ولم يلتزموا فيها الصحة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها ، فلا ينبغى التعويل عليها ، وتترك وشأنها . وأخبار هذا الجيل من العرب وان لم يقع لها ذكر فى التوراة إلا أن بنى اسرائيل من بين أهل الكتاب أقرب اليهم عصراً وأوعى لاخبارهم ، فلذلك يعتمد نقل المهاجرة منهم لأخبار هذا الجيل

ثم إن هذه الامم على ما نقل كان لهم ملوك ودول : فملوك جزيرة العرب — وهى

الأرض التى أحاط بها بحر الهند من جنوبها ، وخليج الحبشة من غربها ، وخليج فارس من شرقها — وفيها اليمن والحجاز والشحر وحضرموت ، وامتد ملكهم فيها إلى الشأم ومصر فى شعوب منهم ، على ما يذكر. ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين. ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور حسبما نذكره ، الى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة ، وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجُرهم وحضرموت وحضورا والسلفات. وسمى أهل هذا الجيل « العرب العاربة» إما بمعنى الراسخة فى العروبة كما يقال ليل أليل وصوم صائم ؛ أو بمعنى الفاعلة للعروبة والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها . وقد تسمى البائدة أيضا بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الارض أحد من نسلهم

عاد فأما عاد ، وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام ، فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعُمان الى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده. وفى التواريخ أنه ولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه وتزوج الف امرأة وعاش ألف سنة ومائتى سنة . وقال البيهقى انه عاش ثلثمائة سنة وملك بعده بنوه الثلاثة شديد وبعده شداد وبعده إرم . وذكر المسعودى ان الذى ملك من بعد عاد وشداد منهم هو الذى سار فى الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق

وقال الزمخشرى: إن شداداً هو الذى بنى مدينة إرم فى صحارى عدن وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت ، والزبرجد ؛ يحاكى بها الجنة لما سمع وصفها طغيانا منه وعتوا

ويقال إن باني إرم هذه هو إرم بن عاد . وذكر ابن سعيد عن البيهقى أن باني إرم هو إرم بن شداد بن عاد الأكبر. والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وإنما هذا من خرافات القصاص وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة فى قوله تعالى :« إرم ذات العماد »القبيلة (١) لا البلد . وذكر المسعودى أن ملك عوص كان

١ — قال فى د ١ – ١٢٥ «فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الاعمدة التى تحمل الخيام» انظره .

ثلثمائة ، وأن الذى ملك من بعده ابنه عاد بن عَوْص ، وأن جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم وانه الذى اختط مدينة دمشق ومَصَّرها وجمع عمد الرخام والمرمر اليها وسماها إرم . ومن أبواب مدينة دمشق الى هذا العهد باب جَيْرون وذكره الشعراء فى معاهدها قال الشاعر : (١)

النخل فالقصر فالجماء بينهما أشهى الى القلب من أبواب جيرون

وهذا البيت فى الصوت الاول من كتاب الاغانى

وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق جيرون . ويزيد أخوان هما ابنا سعد بن لقمان بن عاد ، وبهما عرف باب جيرون ونهر يزيد . والصحيح أن باب جيرون إنما سمى باسم مولى من موالى سليمان عليه السلام فى دولة بنى اسرائيل ، جيرون كان ظاهراً فى دولتهم . وذكر ابن سعيد فى أخبار القبط أن شداد بن بداد بن هداد ابن شداد بن عاد حارب بعضا من القبط وغلب على أسافل مصر ونزل الاسكندرية وبنى بها حينئذ مدينة مذكورة فى التوراة يقال لها أُون(٢) ثم هلك فى حروبهم وجمع القبط إخوتهم من البربر والسودان وأخرجوا العرب من ملك مصر

بعثة هود لقومه

ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الاصنام والاوثان من الحجارة والخشب ، ويقال إن ذلك لا تحالهم دين الصابئة فبعث الله اليهم أخاهم هودا — وهو فيما ذكر المسعودى والطبرى هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود(٣) بن عاد وفى كتاب البدء لابن حبيب : رباح بن حرب بن عاد . وبعضهم يقول : هود بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ — فوعظهم وكان ملوكهم لعهده الخلجان ، ولقمان بن عاد بن عاديا ابن صدا(٤) بن عاد ، فآمن به لقمان وقومه وكفر الخلجان ، وامتنع هود بعشيرته من عاد

---

١ — هو ابو قطيفة وبعده :

الى البلاط فما حازت خزائنه دور نزحن عن الفحشاء والهون
قد يكتم الناس اسراراً وأعلمها وليس يدرون طول الدهر مكنونى

انظر يا ٣ — ١٢٣

٢ — تك ٤١ — ٤٥

٣ — هكذا هنا وفى ط (١ — ١١٠) ود (١ — ١٢٠) « ابن الجارود وفى نب ص ٥٨ وك (١ — ٣٧) « ابن إلجلود بالجيم » .

٤ — فى ش (٥ — ١٩) « صداقا »

وحبس الله عنهم المطر ثلاث سنين وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم. وكان في الوفد على ما قاله الطبرى (١) لُقَيْم بن هَزّال بن هُزَيل بن عَتيل بن ضد بن عاد وقيل ابن عثر وجُلْهُمَة بن الخيبرى ومرْثد بن سعد بن عُفَيْر، وكان ممن آمن بهود واتبعه. وكان بمكة من عاد هؤلاء معاوية بن بكر وقومه وكانت هُزَيلة أخت معاوية عند لُقَيم بن هَزّال وولدت له عبيداً وعمراً وعامراً . فلما وصل الوفد إلى مكة مروا بمعاوية بن بكر وابنه بكر، ونزل الوفد عليه، ثم تبعهم لقمان بن عاد، وأقاموا عند معاوية وقومه شهرا لما بينهم من الخؤولة، ومكثوا يشربون وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر وابنه بكر، ثم غنتاهم شعراً تذكرهم بأمرهم، فانبعثوا ومضوا إلى الاستسقاء، وتخلف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد، فدعوا في استسقائهم وتضرعوا، وأنشأ الله السحب ونودى بهم أن اختاروا فاختاروا سوداء من السحب وأنذروا بعذابها، فمضت إلى قومهم وهلكوا، كما قصه القرآن .

وفي خبر الطبرى أن الوفد لما رجعوا إلى معاوية بن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم هنالك، وأن هودا بساحل البحر، وأن الخلجان (٢) ملكهم قد هلك بالريح فيمن هلك، وأن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتحمله حتى تقطعوا في الجبال، وتقلع الشجر، وترفع البيوت، حتى هلكوا أجمعون . انتهى كلام الطبرى

ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد واتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان (٣). وذكر البخارى في تاريخه أن الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا هو هُدَد بن بُدَد بن الخلجان بن عاد بن رَقيم بن عابَر بن عاد الأكبر وأن المدينة بساحل بَرْقة اه

ولم يزل ملكهم متصلا إلى أن غلبهم عليه يَعرُب بن قحطان، واعتصموا بجبال

---

١ — كان في ج ما يأتي « نعيم بن هزان بن هزيل بن عبيل بن صدا بن عاد وقيل عنز منهم وحلقمة بن الخشرى ومرثد بن سعد بن عنز » فصححناه من ط (١ — ١١١)

٢ — الخلجان هو بفتح الخاء واللام كما ضبطناه وقد نسبوا اليه قوله

لم يبق إلا الخلجان نفسه ... يالك من يوم دهانى أمسه
بثابت الوطء شديد وطؤه ... لو لم يجئنى جئته اجسه

٣ — في ش « وانتقل الملك إلى ولده لقيم »

حضرموت إلى أن انقرضوا . وقال صاحب أخبار إن ملكهم عاد بن رقيم بن عابر ابن عاد الأكبر هو الذى حارب يعرب بن قحطان ، وكان كافرا يعبد القمر ، وإنه كان على عهد نوح[1] . وهذا بعيد ، لأن بعثة هود كانت عند استفحال دولتهم ، أو عند مبتدئها ، وغلب يعرب كان عند انقراضها . وكذلك هدد الذى ذكر البخارى أنه ملك برقة إنما هو حافد الخلجان الذى اعتصم آخرهم بجبل حضرموت وخبر البخارى مقدم. وقال على بن عبد العزيز الجرجاني : وكان من ملوك عاد يعمر بن شداد وعبد أبهر بن معد يكرب بن شمد بن شداد بن عاد ، وحناد بن مياد بن شمد بن شداد ، وملوك آخرون أبادهم الله . والبقاء لله وحده

فأما عبيل وهم إخوان عاد بن عوص ، فيما قاله الكلبى ، واخوان عوص بن إرم فيما قاله الطبرى ، وكانت ديارهم بالجحفة بين مكة والمدينة وأهلكهم السيل ، وكان الذى اختط يثرب منهم . هكذا قال المسعودى . وقال : هو يثرب بن بائلة بن مهاهل بن عبيل وقال السهيلي : إن الذى اختط يثرب من العماليق ، وهو يثرب * بن مهلايل ابن عوص بن عمليق

وأما عبد ضخم بن إرم فقال الطبرى : كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن

---

١ — إلى الآن لايتيسر للمؤرخ أن يحقق الوقائع التى كانت فى عهد حكومة عاد وربما تكشف الآثار عن ذلك فيعرف عنهم مالايزال مجهولا اليوم . نعم تعرف الآن بقايا من آثار هذه الدولة فى محلات عديدة من حضرموت كان زارها البحاثة الهولندى المستر فاندرموان وأتى على وصفها فى كتاب وضعه عن رحلته سماه (حضرموت) وكشف القناع عن بعض أسرارها وقد لخص من صفحتيه ٥٧ — ٥٨ الاستاذ فؤاد حمزة فى كتابه قلب الجزيرة ص ٣٠٩ مانقله عنه وهو أنها تدعى اليوم باسم دار عاد وهى واقعة على نقطة التقاء وادى ثقبة بوادى منوه على أطراف جبل صخرى شاهق ممتدة إلى مسافة بضع مئات من الامتار والخرابات كائنة فى أعالى الجبل الصخرى وبعضها منقور فيه

وعلى مقربة من الخرابات رسوم عديدة ملونة بألوان زاهية رسمت على جدار الجبل المشار إليه، وقد حل المذكور ورفيقه فون وسيمان رموز هذه الرسوم الصخرية المكتوبة بالحرف السبئى فوجداها أسماء أعلام . وكشف أيضاً مواطن أخرى تحتوى على خرابات تنسب إلى عاد منها ماوجده فى قرية المشهد وفى خرائب عنيون الواقعة فى قربها . وحدث عنه فى رحلته المذكورة ص ٨٤ وذكر ان هناك نقشت عليها كتابات سبئية إلا أن درسها وتمحيص مافيها يستغرق من الجهد والوقت مالم يمكنه هو أن يقوم به

* هو يثرب بن دنا بن عبيل بن مهلايل بن عوص بن عماق

هلك من ذلك الجيل . وقال غيره إنهم أول من كتب بالخط العربي (١)

---

١ — من المفيد ان نلخص هنا ما كتبه الدكتور إسرائيل ولفنسون فى نشأة القلم العربى ورأى المؤرخين العرب وموازنته بآراء المستشرقين اليوم مع تصرف وبعض زيادات:

يعتقد العلماء من الافرنج أن هذا الخط أخذ عن خطوط أخرى فى زمن غير بعيد من ظهور الاسلام ويستدلون على رأيهم هذا بانه لم يوجد من الآثار التى بهذا الخط قبل الاسلام إلا شىء قليل لانه كان فى أول أطواره ومبدأ نموه فى بلاد العرب ويرجحون ان أغلب حروفه مقتبس من الخط النبطى

ولمؤرخى العرب روايات تتفق على ان الخط العربى لم يجىء إلى الحجاز إلا من الحيرة وبعض هذه الروايات منسوب لابن عباس والبعض لابن اسحاق والمسعودى وأستاذه الواقدى .

ويذهب العرب إلى ان الخط الحيرى منقول عن الخط المسند .

قال ابن عباس : أول من وضع الكتابة العربية هم ثلاثة من طىء من قبيلة بولان سكنت الانبار وعلموا أهلها وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فالأول وضع الحروف والثانى فصل ووصل والثالث وضع الاعجام، وسموا هذا الخط بالجزم لانه منقطع من الخط الحيرى

وفى رواية ابن عباس ان أهل الانبار تعلموا من أهل الحيرة .

وفى رواية المسعودى وهو مروى أيضاً عن هشام بن الكلبى ان بنى المحض بن جندة بن يعصب بن مدين هم الذين نشروا الكتابة

ويروى ان أول من وضع الخط اسماعيل عليه السلام

وعند ابن هشام انه حمير بن سبأ

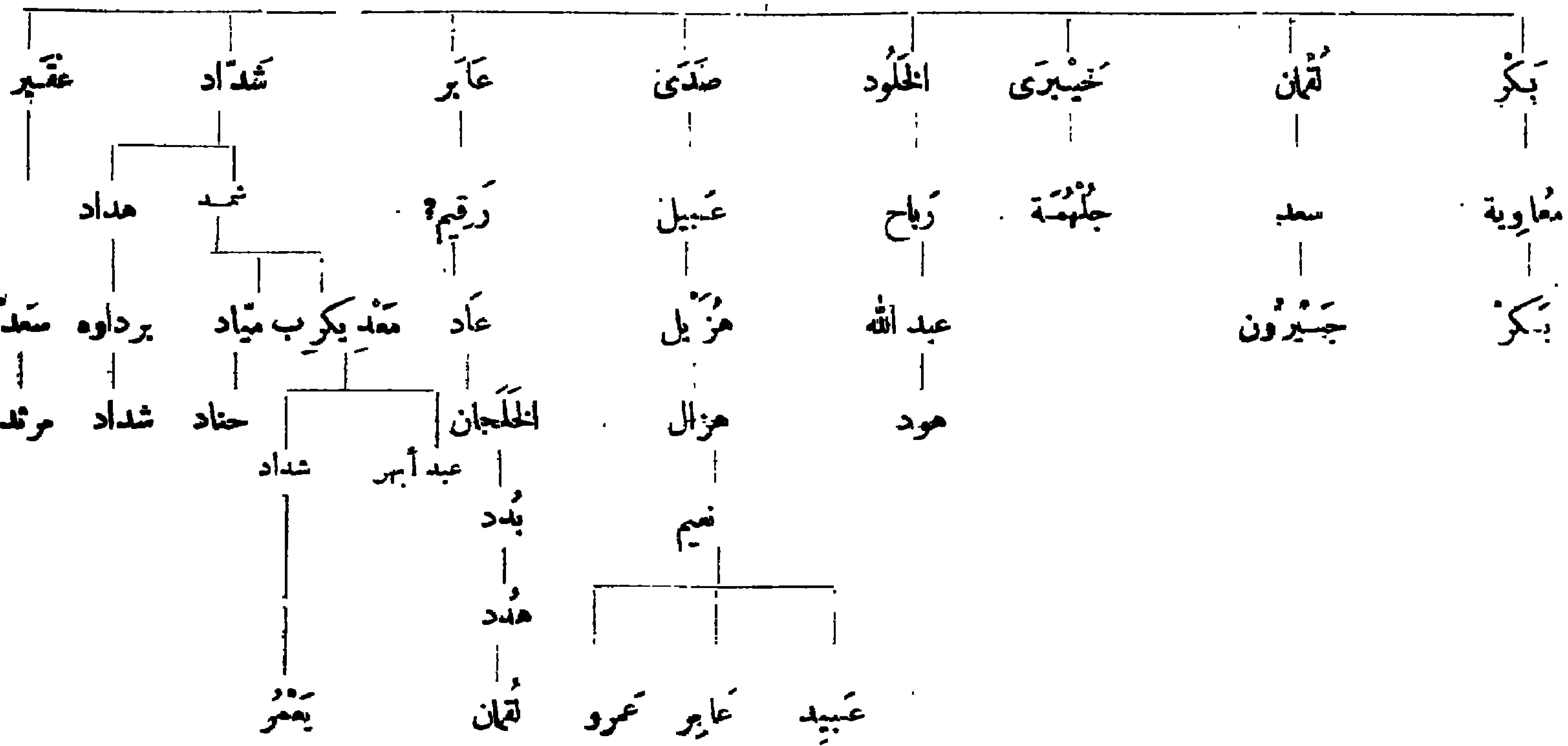
وفى رواية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه انه قال : قلت لابن عباس من أين أخذتم معاشر قريش هذا الكتاب العربى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق ؟ قال :أخذناه عن حرب بن أمية . قال فمن أخذه حرب ؟ قال من عبدالله ابن جدعان قال . فمن أخذه ابن جدعان قال : عن أهل الانبار قال . فمن أخذه أهل الانبار قال : عن أهل الحيرة قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة قال : فمن أخذه ذلك الطارىء قال: من الخلجان كاتب الوحى لهود عليه السلام) بنقل حفنى ناصف تاريخ الادب ص ٦١ — ٦٣)

قال الدكتور ولفنسون (فى تاريخ اللغات السامية ١٩٧)

لاشك ان هذه الروايات مشبعة بروح البساطة والسذاجة حتى لتبدو للباحث أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقائق التاريخية ،فليس فى استطاعته أن يرتاح اليها أو يعول عليها، لانه لاعلاقة بين الخط الحيرى والخط المسند السبئى ، ووجود شىء من وجوه الشبه بين بعض حروف الخط الحيرى والمسند لايكفى لاثبات هذا الرأى بل يرجع إلى ان الخطين اشتقا من أصل واحد هو الخط الكنعانى القديم

وليس بصحيح ذلك الرأى العربى الذى يقول « إن كندة والنبط أخذتا خطهما عن الخط المسند اليمنى وأعطياه الانبار والحيرة ولكون الانبار والحيرة فى طبقة واحدة تعلموا من كندة والنبط ومنهم انتقل الخط إلى الحجاز » لانه اذا كان هناك اتصال أو شبه بين الخطين الحيرى والمسند فذلك لان ثمود واحيان نقلوا خطهم عن المسند السبئى مباشرة (البقية على صفحة ٣٤ و ٣٥)

قوم عاد


سام
ارم
عوص
عاد
بكر
لقمان
خيبرى
الخلود
صدى
عابر
شداد
عقيل
معاوية
بكر
سعد
جبيرون
جلهمة
رباح
عبد الله
هود
عبيل
هزيل
هزال
نميم
عبيد
عابر
عمرو
رقيم؟
عاد
الخلجان
بدد
هدد
لقمان
عبد أبهر
شداد
يعمر
شمد
معد يكرب
مياد
حناد
هداد
برداوه
شداد
سعد
مرثد

ثمود وأما ثمودُ، وهم بنو ثمودَ بنِ كاثرِ بنِ إرَمَ، فكانت ديارُهم بالحِجْرِ (١) ووادي

١ — كانت ثمود تقيم فى جنوب بلاد العرب بين عسير واليمن وحضرموت ثم لأسباب لانعلمها وبعد انتصارها فى حروبها مع عاد وانقضاء هذه وفنائها انتقلت إلى شمالى الحجاز فى وادى القرى وكونت منشآت فى العلا ومداين صالح والحجر فى الوادى بين الحجاز والشام كما قال المؤلف .

« يقول جرجى زيدان فى كتابه « العرب قبل الاسلام » إن الثابت من الآثار وقراءاتها أن مدائن صالح دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حوزة النبطيين سكان بطرة . والأطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين ودرسوا بقاياها وهى منقوشة فى الصخر أهمها أنقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج (وانظر مثلا من هذه الآثار وحلها فى الكتاب المذكور) »

« تابع الشرح المنشور على الصفحة ٣٢ »

ثم نقل عن المرحوم حفنى ناصف فى تاريخ الادب ص ٧٥ رأيه الخاص فى مسألة القلم العربى ويتلخص فى النبط خالطوا اليمانيين كما خالطوا الآراميين وكانت علاقتهم مع اليمن التجارية والحكمية تقتضى مبادلة الكتابة بين الطرفين فيبقى مع كل هذا أن يترك النبط خط اليمن بالمرة ويقتصروا على الاخذ عن الآرام وحدهم ثم الروايات العربية متفقة على ان الخط جاء إلى الحجاز عن اليمن ، فالذهاب مع هذا وذاك إلى ان الخط لم يجىء الا من طوائف الآرام دون أهل اليمن جحود للاجماع ومصادمة للنقل الذى لايتنافى مع العقل

وقد صرح الدكتور بعدم موافقته على هذا الرأى ولا على ان الخط النبطى متأثر بالخط السبئى لان الانباط جاءوا بلغتهم وخطهم من الآراميين

أما علماء الافرنج فكان الرأى عندهم لايتجاوز ماجاء فى المصادر العربية عن أصل القلم العربى حتى ظهرت نقوش النمارة وزبد وحران فاتضح لهم بعد الموازنة ان القلم العربى قريب من الكتابة النبطية المتأخرة التى كشفت فى بطراء أو فى غيرها من بلاد شبه جزيرة طورسينا .

لذلك نحوا نحواً جديداً فى أصل القلم العربى فقالوا: إنه لابد أن يكون امتهد فى أول أطواره بهذه المنطقة .

وبعد أن بين الفوارق الموجودة بين القلم العربى القديم وبين القلم النبطى ووضع لذلك صفحة نماذج قال : ويعتقد العلماء المستشرقون أنه فى ذلك الزمن لم تكن الكتابة العربية قدوجدت(يعنى حوالى القرن الرابع بعد الميلاد) إذ لم نعثر على كتابات عربية ترجع إلى ذلك العهد . ومن حيث ان نقش زبد يرجع إلى سنة ٥١٢ بعد الميلاد ونقش حران يرجع إلى سنة ٥٦٨ بعده يرجح علماء الافرنج أن الخط العربى نشأ ونما بين عهد نقش النمارة وبين عهد نقش زبد أى فى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .

ومن حيث أننا لم نعثر على نقش بين عهد نقش نمارة وزبد لانستطيع أن نقتفى أثر نشأة القلم العربى بعد استقلاله عن القلم النبطى المتأخر الى أن أصبح خطاً متميزاً عن أصله

أمامنا معضلة أخرى تحتاج الى حل وهى : أين نشأ الخط العربى ؟ أكان ذلك فى شبه جزيرة طورسينا أم فى بلاد الشام فى منطقة دولة بنى غسان أو فى أرض آل المنذر بالحيرة ؟ يعتقد المستشرقون ان الخط العربى نشأ فى شبه جزيرة طورسينا وكان فى بادىء أمره لايتميز عن الكتابة النبطية ثم انتشر فى صحراء سورية على تخوم بلاد الشام . ومن هنا انتقل الى المراكز التجارية

القرى فيما بين الحجاز والشأم . وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ، ويقال لأنَّ أعمارُهم كانت تطول ، فيأتي البلاء والخراب على بيوتهم ، فنحتوها لذلك فى الصخر . وهى ماثلةٌ لهذا العهد . وقد مرَّ بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، ونهى عن دخولها ، كما فى الصحيح ، وفيه إشارة إلى أنها بيوتُ ثمودَ أهلِ ذلك الجيل

والفكرية الكبيرة فى بلاد الحجاز ، ولعل انتشار الخط العربى فى حواضر الحجاز وخاصة فى مكة ويثرب انما جاء من الحيرة حيث كانت العلاقات التجارية والادبية تربط عرب جنوب العراق بالقبائل فى بلدان الحجاز

على ان الكتابة بالقلم العربى لم تكن شائعة بين العرب لسببين :

أولا — كان عرب الحجاز وصحراء سورية لايحتاجون كثيرا الى الكتابة لبساطة حياتهم فى البادية . وكانت قوافل التجار تستعمل فى بعض الظروف الكتابة كما انها انتشرت فى المدن التجارية مثل مكة ويثرب

ثانياً — كانت الكتابة النبطية المتأخرة هى المستعملة عند عبدة الاصنام من العرب . لان الحضارة الوثنية العربية كانت مرتبطة بالنبط ارتباطا وثيقاً ، ثم كان نصارى العرب يستعملون الكتابة النبطية واللغة الآرامية حيث كانت الآرامية هى لغة العمران والدين عند نصارى الشرق الذين لم يألفوا اللغة اليونانية حتى ان أهل نجران ، هؤلاء العرب الخلص ، كانوا يعرفون اللغة الآرامية لذلك لا يمكن أن نمعن النظر فى القلم العربى دون أن نذكر الكتابة النبطية المتأخرة .

على أننا نعتقد اعتقاداً تاماً ان نهضة صحيحة ظهرت للقلم العربى منذ ظهور الاسلام لذلك نعرفه بالقلم الاسلامى كما عرف القلم الثمودى بالثمودى مع ان نشأته لم تكن على يد أهل ثمود ولكن وجوده فى منطقة ثمودية دعا الى نسبته الى ثمود .

وأقدم الآثار الاسلامية التى كشفت الى الآن هى :

أولا : جملة قطع من النقود ترجع الى أوائل العصر الاموى .

ثانياً : كشفت أخيراً فى مصر كتابة عربية وجدت بين جملة أحجار فى دار الآثار العربية ونشرت فى جريدة الاهرام فى ٩ ابريل سنة ١٩٢٩ م وهى أقدم ماوجد إلى الآن منقوشاً على الحجر بعد ظهور الاسلام ، وهناك شبه كبير بين قلم هذه الكتابة وقلم حران الذى وضع حوالى مائة عام قبل الاسلام . وهذه الكتابة نقشت على قبر رجل يسمى عبدالله بن خير أوجبر الحجرى أو الحجازى .

وتلى هذه الكتابة المصرية كتابة أخرى كشفت فى بيت المقدس بقبة الصخرة للقرن الأول للهجرة وكشفت كتابات على الورق البردى ترجع إلى القرن الأول للهجرة ، وقد وصلت الينا كتابات قليلة من القرن الثانى ، أما الكتابات العربية فى القرن الثالث فلا بأس بها وعلى العموم كانت الكتابات العربية قد انتشرت كثيراً منذ القرن الثالث للهجرة ولا سيما بعد استعمال الورق .

وتوجد فى دار الكتب المصرية عدة مخطوطات ترجع إلى القرن الأول والثانى والثالث من الهجرة . وفى مكتبة القرويين مصحف من عهد الكتابة الغير المنقوطة كما فى المكتبة الزيدانية بمكناس جزء من القرآن كذلك ، ويظن الاستاذ ابن زيدان أنه من القرن الأول الهجرى .

ويشهد ذلك ببطلان ما يذهب اليه القُصّاص ، ووقع مثله للمسعودى ، من أن أهل تلك الأجيال كانت أجسامهم مفرطة فى الطول والعظم ، وهذه البيوت المشاهدة المنسوبة اليهم بكلام الصادق صلوات الله عليه ، تشهد بأنهم فى طولهم وعظم جثمانهم مثلنا سواء ، فلا أقدم من عاد وأهل أجيالهم فيما بلغنا . ويقال : إن أول ملوكهم كان عابَر بنَ إرم بنِ ثمود . ملك عليهم مائتى سنة ، ثم كان من بعده جندع بن عمرو ابن الدبيل بن إرم بن ثمود ، ويقال ملك نحواً من ثلثمائة سنة . وفى أيامه كانت بعثة صالح عليه السلام ، وهو صالح بن عُبيل (١) بن آسَف (٢) بن شالَخ (٣) بن عُبيل (٤) ابن كاثر (٥) بن ثمود . وكانوا أهل كفر وبغى وعبادة أوثان ، فدعاهم صالح إلى الدين والتوحيد ، قال الطبرى : فلما جاءهم بذلك كفروا وطلبوا الآيات ، فخرج بهم إلى هضبة من الأرض ، فتمخضت عن الناقة ، ونهاهم عن أن يتعرضوا لها بعقر أو هَلَكة ، وأخبرهم مع ذلك أنهم عاقروها ولا بد ، ورأس عليهم قُدار بنُ سالف ، وكان صالح وصف لهم عاقر الناقة بصفة قُدار هذا ، ولما طال النذير عليهم من صالح سَئموه وهمُّوا بقتله ، وكان يأوى إلى مسجد خارج ملائهم فكمن له رهط منهم تحت صخرة فى طريقه ليقتلوه ، فانطبقت عليهم وهلكوا . وحنِقوا ومضوا إلى الناقة ورماها قُدار بسهم فى ضرعها وقتلها ، ولجأ فصيلها إلى الجبل فلم يدركوه . وأقبل صالح وقد تخوّف عليهم العذاب ، فلما رآه الفصيل أقبل اليه ورغا ثلاث رَغاآت فأنذرهم صالح ثلاثا ، وفى صبح الرابعة صعقوا بصيحة من السماء تقطعت بها قلوبهم فأصبحوا جاثمين ، وهلك جميعهم حيث كانوا من الارض ، إلا رجلا كان فى الحرم ، منعه الله من العذاب ، قيل : من هو يارسول الله ؟ قال « أبو رِغال » ويقال : إن صالحا أقام عشرين سنة ينذرهم ، وتوفى ابنَ ثمان وخمسين سنة

بعثة صالح

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فى غزوة تبوك بقرى ثمود

---

١ — عبيد ب (٦ — ٣٣٢) و ف (١—١٢)
٢ — آسف د (١ — ١٣٠)
٣ — ماشج ب (٦ — ٣٣٢) وفى د (١ — ١٣٠ ماسح و ف (١ — ١٢) ماشج
٤ — فى ب (٦ — ٣٣٢) و د (١ — ١٣٠) و ف (١ — ١٢) « عبيد »
٥ — فى ق (١ — ١٢) « حاذر » وفى ب (٦ — ٣٣٢) جادر وفى د (١ — ١٣٠) « حاذر »

فنهى عن استعمال مياههم ، وقال: « لا تَدْخُلوا مساكنَ الذينَ ظلموا أنفسهمْ إلاَّ وأنتمْ باكونَ أنْ يُصيبكم ما أصابهمْ » اهـ كلام الطبرى

وقال الجرجاني : كان من ملوكهم دُوبَانُ بن يَمْنَع ملك الاسكندرية ، ومَوْهِبُ بن مُرَّة بن رحيب ، وكان عظيم الملك ، وأخوه هوبيل بن مرة كذلك. وفيما ذكره المفسرون أنهم أول من نحت الجبال والصخور ، وأنهم بنوا ألفا وسبعمائة مدينة ، وفى هـذا ما فيه ، ثم ذهبوا بما كسبوا ودرجوا فى الغابرين وهلكوا ، ويقال إن من بقاياهم أهل الرسِّ الذين كان نبيهم حَنْظَلة بن صَفْوانَ ، وليس ذلك بصحيح . وأهل الرس هم حَضُور ، ويأتي ذكرهم فى بنى فالَغ بن عابَر

وكذلك يزعم بعض النسابة أن ثقيفاً من بقايا ثمود هؤلاء ، وهو مردود ، وكان الحجاج بن يوسف إذا سمع ذلك يقول كذبوا ! وقال : والله جل من قائل يقول « وثَمودَ فَمَا أَبْقى » أى أهلكهم فما أبقى أحداً منهم

وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عادٍ ولا ثمودَ لأنهم لم يقع لهم ذكر فى التوراة (١) ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام ، بل ولا لأحد من العرب

---

١ — لم يرد ذكر عاد ولا ثمود فى التوراة للعلة التى ذكرها المؤلف . نعم ورد ذكرهم فى تاريخ الأشوريين فان الملك سرجون الثانى ذكر أنه تغلب على قبائل ثمود وعيادة ومرسيجانى وخيابا سنة ٧١٥ ق م وورد ذكرهم فى مباحث ديودورس الصقلى . وقد أشار إلى منازلهـا المعروفة . ويفهم من كلام بطليموس فى جغرافيته أن له معرفة بهم وبمواطنهم فى الشمال الغربى من البـلاد العربية

أما المستشرقون الأوربيون فقد اختلفوا فى أصلهم وفى زمن وجودهم فزعم البعض أنهم بقية من العماليق انتقلوا من غرب الفرات الى مكانهم المذكور ، ويقول البعض انهم من العماليق الذين طردهم أحمس ملك مصر زمن حكم الأسرة الثامنة .

ويقول غيرهم انهم من اليهود سكنوا تلك الجهـة . وهذا مبنى على أن ثمود كانت بعد زمن موسى وهومايعارضهما عليه جمهور المؤرخين وماذكره القرآن الكريم فىقوله (وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمودوالذين من بعدهم ومالله يريد ظلما للعباد) (الآية ٢٩، ٣٠ غافر)

. والحقيقة كما قال الأستاذ فؤاد حمزة : انه ليس من السهل تعيين الزمن الذى قامت فيه حكومة ثمود بالرغم من ورود ذكرهم ومحاربة سرجون لهم فى المائة السابعة قبل الميلاد ، فمن المحتمل أن يكون الذين دعاهم الملك الأشورى بثمود ، من بقايا ثمود الأولى الذين لم يسمع العبرانيون بأخبارهم على مايظهر .

العاربة لأن سياق الاخبار فى التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان فى عمود النسب ما بين موسى وآدم صلوات الله عليهم ، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر فى عمود ذلك النسب ، فلم يذكروا فيها

جديس وطسم

وأما جديس وطسم : فعند ابن الكلبي أن جديساً لارم بن سام ، وديارهم اليمامة ؛ وهم إخوان لثمود بن كاثر ، ولذلك ذكرهم بعدهم ، وأن طسماً للاوذ بن سام ، وديارهم بالبحرين . وعند الطبرى أنهما معاً للاوذ وديارهم باليمامة . ولهذين الاثنين خبر مشهور ينبغى سياقه عند ذكرهم

قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي يسنده إلى ابن إسحق وغيره من علماء العرب : ان طسماً وجديساً كانوا من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وثماراً وحدائق وقصوراً ، وكان ملك طسم غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه ، ويقال له عملوق ، وكان مضرا لجديس مستذلا لهم حتى كانت البكر من جديس لاتهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها . وكان السبب فى ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها فأمر عملوق ببيعها وأخذ زوجها الخمس من ثمنها ، فقالت شعراً تتظلم منه ، فأمر أن لا تزوج منهم امرأة حتى يفترعها ، فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس، وهى عفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود ، فافتضها عملوق فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس : قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغي للكلاب أن تعافه فأطيعوني (١) [فانى] أدعوكم إلى عز الدهر . فقالوا: وما ذاك ؟ قال: أصنع للملك وقومه دعوة فاذا جاؤا، يعنى طسماً ، نهضنا اليهم بأسيافنا فنقتلهم . فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ودعوا عملوقاً وقومه ، فلما حضروا قتلوهم فأفنوهم ، وقتل الأسود عملوقاً وأفلت رباح (٢) بن مرة بن طسم ، فأتى حسان بن تبع مستغيثاً ، فنهض حسان فى حمير لاغاثته ، حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل ، قال لهم رباح : إن لى أختاً مزوجة فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الارض أبصر منها ، وإنها لتبصر الراكب على

١ — الزيادة من ط (٢ — ٣٨)
٢ — تكررت هذه الكلمة عند المؤلف بالباء وهي فى ط (٢ — ٣٨) بالياء

ثلاث مراحل ، وأخاف أن تنظر القوم ، فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها فى يده ويسير كأنه خلفها ففعلوا ؛ وبصرت بهم اليمامة ، فقالت لجديس : لقد سارت اليكم حمير . وإني أرى رجلا من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها أو نعل يخصفها فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به وصبحهم حسان وجنوده من حمير ، فأبادهم وخرب حصونهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلي طيء فأقام بهما ودعا تبع باليمامة أخت رباح التى أبصرتهم فقلع عينها ، ويقال إنه وجد بها عروقاً سوداً ، زعمت أن ذلك من اكتحالها بالأثمد . وكانت تلك البلد تسمى جو(١) فسميت باليمامة اسم تلك المرأة ، قال أبو الفرج الأصبهاني : وكانت طيء تسكن الجوف من أرض اليمن وهي اليوم محلة مراد وهمدان ، وسيدهم يومئذ سامة بن لؤي بن الغوث بن طيء وكان الوادى مسبعة ، وهم قليل عددهم ، وكان يجتاز بهم بعير فى زمن الخريف ويذهب ثم يجيء من قابل ولا يعرفون مقره ، وكانت الازد قد خرجت أيام سيل العرم ، واستوحشت طيء فظعنوا على أثرهم وقالوا لسامة : هذا البعير إنما يأتي من الريف والخصب لان فى بعره النوى ، فلما جاءهم زمن الخريف اتبعوه ، يسيرون لسيره ، حتى هبط عن الجبلين ، وهجموا على النخل فى الشعاب وعلى المواشى ، وإذا هم بالأسود بن غفار فى بعض تلك الشعاب ، فهالهم خلقه وتخوفوه ، ونزلوا ناحية ، ونفضوا الطريق فلم يروا أحداً ، فأمر سامة ابنه الغوث بقتل الأسود ، فجاء اليه فعجب من صغر خلقه وقال : من أين أقبلتم ؟ قال : من اليمن وأخبره خبر البعير ثم رماه فقتله ، وأقامت طيء بالجبلين بعده .

وذكر الطبرى عن غير ابن اسحق : أن تبع الذى أوقع بجديس هو والد حسان هذا وهو تبان أسعد أبو كرب بن ملكي كرب(٢) ؛ ويأتي ذكره فى ملوك اليمن إن شاء الله تعالى . انتهى كلام الطبري .

وقال غيره : إن حسان بن تبان لما سار بحمير إلى طسم بعث على مقدمته اليهم

---

١ — ذكر الاستاذ فؤاد حمزة فى تعليقه (٣) من كتابه (فى قلب الجزيرة) ان الجو معروف اليوم بين المعاصرين انه المكان الذى فيه بلدة القطقط هجرة عتيبة المشهورة التى دمرت عام ١٣٣٨

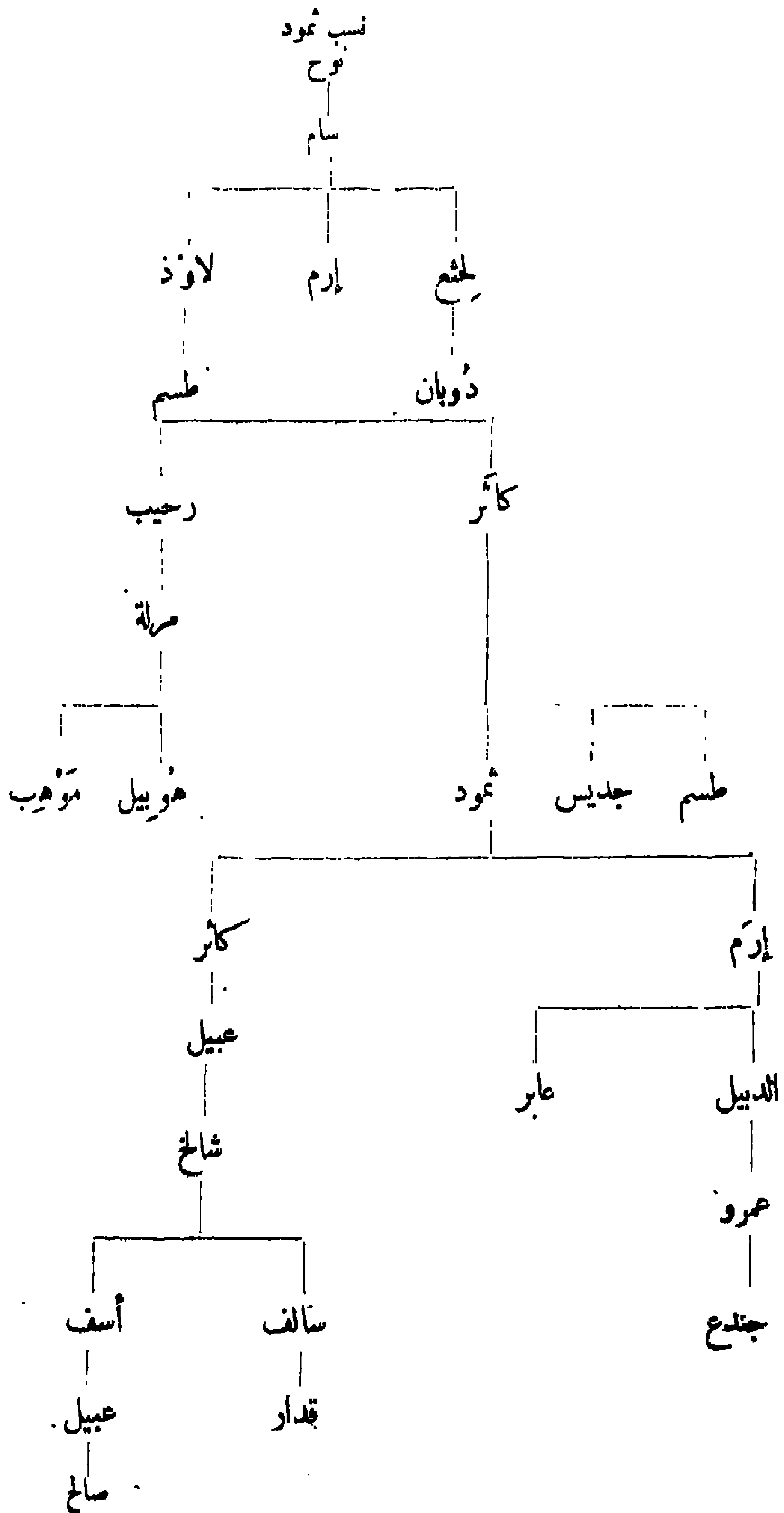
٢ — هكذا فى ط (٢ — ٣) وفى ش (٥ — ٢٣) « كليكرب » وهو الاظهر ، وكذلك عند ف (١ — ٦٧)

عبد كلال بن مثوب بن حجر بن ذى رُعَين من أقيال حمير ، فسلك بهم رياح بن مرة الرمل ، وكانت الزرقاء أخت رياح ناكحاً فى طسم ، وتسمى عنزة اليمامة (١) ، وكانت تبصر على البعد ، فأنذرتهم فلم يقبلوا ، وصبَّح عبد بن كلال جديساً إلى آخر القصة .

وبقيت اليمامة بعد طسم يباباً لا يأكل ثمرها إلا عوافى الطير والسباع حتى نزلها بنو حنيفة ، وكانوا بعثوا رائدهم عبيد بن ثعلبة الحنفى يرتاد لهم فى البلاد ، فلما أكل من ذلك الثمر قال إن هذا لطعام ! وحجر بعصاه على موضع قصبة اليمامة فسميت حَجْراً ، واستوطنها بنو حنيفة ، وبها صبحهم الاسلام كما يأتى فى أخبارهم إن شاء الله تعالى .

---

١ — فى لسان العرب : « وعنز اسم امرأة يقال لها عنز اليمامة وهى الموصوفة بحدة النظر » ومثله فى ت وهى عندها بغير تاء


نسب ثمود
نوح
سام
لاوذ
إرم
لاشع
طسم
دوبان
رحيب
كاثر
مرلة
هوبيل
متوهب
ثمود
جديس
طسم
كاثر
إرم
عبيل
الدبيل
عابر
شالخ
عمرو
أسف
سالف
جندع
عبيل
قدار
صالح

العمالقة

وأما العمالقة فهم بنو عِمْليق بن لَاوَذ ، وبهم يضرب المثل فى الطول والجُثمان . قال الطبرىّ : عمليق أبو العمالقة كلهم ، أمم تفرقت فى البلاد ، فكان أهل المشرق وأهل عُمَان البحرين .وأهل الحجاز منهم ، وكانت الفراعنة بمصر منهم ، وكانت الجبابرة بالشأم الذين يقال لهم الكنْعانيون منهم ، وكان الذين بالبحرين وعُمَان والمدينة يسمون جاسم ، وكان بالمدينة من جاسم هؤلاء بنو هف وسعد بن هزان وبنو مطر وبنو الأزرق ، وكان بنجد منهم بُدَيْل ورَاحِل وغِفَار ، وبالحجاز منهم الى تَيْماء بنو الأرقم ، ويسكنون مع ذلك نجداً ، وكان ملكهم يسمى الأرقم . قال : وكان بالطائف بنو عبد ضخم بن عاد الأول . انتهى

وقال ابن سَعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التى اطلع عليها فى خزانة الكتب بدار الخلافة من بغداد ، قال : كانت مواطن العمالقة تِهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بنى حام ، ولم يزالوا كذلك الى أن جاء إسماعيل صلوات الله عليه وآمن به من آمن منهم . وتَطرّد لهم الملك الى أن كان منهم السَّمَيْدَعُ بن لاوَذ بن عِمْليق ، وفى أيامه خرجت العمالقة من الحرم ، أخرجتهم جُرْهُم من قبائل قحطان ، فتفرقوا . ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل بن مَهْلاييل ابن عَوْص بن عمليق ، فعرفت به . ونزل أرض أَيْلة ابن هَوْبر بن عمليق ، واتصل ملكها فى ولده ، وكان السَّمَيْدَعُ سِمة لمن ملك منهم الى أن كان آخرهم السميدع بن هَوْبَر الذى قتله يُوشَع لما زحف بنو إسرائيل الى الشأم بعد موسى صلوات الله عليه فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالقة هنالك. فغلبه يوشع وأسره . وملك أريحا قاعدة الشأم ، وهى قرب بيت المقدس ، ومكانها معروف لهذا العهد ، ثم بعث من بنى إسرائيل بعثاً الى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدى العمالقة ملوكه ، ونزلوا يَثْرِبَ وبلادها وخَيْبَرَ ، ومن بقاياهم يهود قُرَيْظَةَ وبنو النَّضِير وبنو قَيْنُقَاع وسائر يهود الحجاز على ما نذكره . ثم كان لهم ملك بعد ذلك فى دولة الروم وملكوا أُذَيْنَةَ بنَ السَّمَيْدَع على مشارق الشام والجزيرة من ثغورهم وأنزلوهم فى التخوم ما بينهم وبين فارس . وهذا الملك أُذَيْنَةُ بنُ السميدع هو الذى ذكره الشاعر فى قوله :

أَزَالَ أُذَيْنَةَ عَن مُلْكِهِ   وأَخْرَجَ عَن أَهْلِهِ ذَا يَزَن

وكان من بعده حَسَّانُ بن أُذَيْنَة ، ومن بعده ظَرِب (١) بن حسَّان بن يدياه نسبة إلى أمه ، وبعده عمرو بن ظَرِب وكان بينه وبين جَذِيمة الأبْرَش حروب ، وقتله جَذِيمة واستولى على ملكهم ، وكان آخر أمْرِ العمالقة كما نذكر ذلك فى موضعه

ومن هؤلاء العمالقة فيما يزعمون عمالقة مصر ، وان بعض ملوك القبط استنصر بملك العمالقة بالشأم لعهده واسمه الوَليد بن دُومَع ويقال ثُوران بن أراشة بن فَادَان ابن عَمْرو بن عِملاق ، فجاء معه ملك * مصر ، واستعبد القبط

قال الجرجاني : ومن ثم ملك العماليق مصر ، ويقال إن منهم فِرعون إبراهيم وهو سِنان بن الأشل بن عبيد بن عولج بن عِمليق ، وفِرْعَوْن يوسف أيضاً منهم ، وهو الرَّيان بنُ الوَليد بنِ فوران ، وفِرْعونُ موسى كذلك ، وهو الوَليد بنُ مُصْعَب بن أبى أهون بن الهلوان ، ويقال إنه قابوس بن مصعب بن مُعاوية بن نُمير ابن السلواس * بن فاران * وكان الذى ملك مصر بعد الرَّيان بنِ الوليد طَاشِم بنُ معْدان * اهـ كلام الجرجاني

وقال غيره : الرَّيان فِرعَوْنُ يوسُف ، وهو الذى تُسمِّيه القِبْط نقراوش وإن وزيره كان إطْفير وهو العزيز ، وإنه آمن بيوسف ، وإن أرض الفيُّوم كانت مغايض الماء ، فدبرها يوسف بالوحى والحكمة حتى صارت أعز الديار المصرية : وملك بعده ابنه دَارِم بنُ الرَّيان وبعده ابنه مَعْدانُوس فاستعبد بنى إسرائيل .

قال الكلبيّ : ويذكر القِبْط أنه فِرْعَون موسى . وذكر أهل الأثر أنه الوَليدُ ابنُ مُصعَب ، وأنه كان نجاراً من غير بيت الملك فاستولى * الى أن ولى حَرَس السلطان ، ثم غلب عليه ، ثم استبد بعده . وعليه انقرض أمر العمالقة . ولما غرق فى اتباع موسى صلوات الله عليه رجع الملك إلى القبط ، فولوا من بيت ملكهم دلُوكة العجوز ، كما نذكره فى أخبارهم إن شاء الله تعالى

---

١ — كان فى ج طرف والتصحيح فى ط (٢ — ٣١) وك (١ — ١٥١)
* وملك
* السلسواس بن قادان
* طاشم بن جهدان
* فاتصل

وأما بنو إسرائيل فليس عندهم ذكر لعمالقة الحجاز. وعندهم أن عمالقة الشأم من ولد عِملاق بن أليفاز، بتفخيم الفاء، ابن عِيصو أو عِيصاب أو العيص بن إسحق ابن إبراهيم عليه السلام. وفراعنة مصر منهم على الرأيين

الكنعانيون

وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبرى أنهم من العمالقة فهم عند الإسرائيليين من كنعان بن حام، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشأم وملكوها، وكان معهم فيها بنو عِيصو المذكورون ويقال لهم بنو يَدُوم ومن أيديهم جميعاً ابتزها بنو إسرائيل عند المجىء أيام يُوشع بنِ نون. ولذلك تزعم زناتة المغرب أنهم من هؤلاء العمالقة وليس بصحيح.

وأما أُمَيْم فهم إخوانُ عِملاق بن لاوذ * قال السُّهَيلى: يقال بفتح الهمزة وكسر الميم، وبضم الهمزة وفتح الميم، وهو أكثر. ووجدت بخط بعض المشاهير: أميم بتشديد الميم. ويذكر أنهم أول من بنى البنيان، واتخذ البيوت والآطام من الحجارة وسقفوا بالخشب. وكانت ديارهم فيما يقال أرض فارس. ولذلك زعم بعض نسابة الفرس أنهم من أميم، وأن كَيُومَرْث الذين ينسبون اليه، هو ابن أُمَيْم بن لاوذ، وليس بصحيح. وكان من شعوبهم وبار بن اميم نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشِّحْر * وسالت عليهم الريح فهلكوا

---

* ابن لاوذ بن الأحد

* الشجر

عمود العمالقة

لاوذ

- السميدع
- أميم
  - هوبر ← أيلة ← السميدع ← أذينة ← حسان ← ظرب ← عمرو
  - عوص ← مهلائيل ← عبيل ← يثرب
  - عولج ← عبيد ← الأشل ← ستان
  - كركر ← قطورا
- عمليق
  - عمرو ← قاران
    - سلواس ← عمير ← معاوية ← مصعب ← قابوس
    - الهلوان ← أبو أهون ← مصعب ← الوليد
    - أراشه ← ثوران(١) ← الوليد ← الريان
      - نقراوش
      - دارم ← معدانوس ← طاسم
  - جاسم
    - الأرقم
    - هزان ← سعد
    - مطر
    - هف
    - الأزرق
    - راحل
    - بديل
    - غفار

(١) وهو دومغ ه مؤلف

العرب البائدة

وأما العرب البائدة من بنى أرْفَخْشَذ بن يَقْدَان بن عابر بن شالخ بن أرْفَخْشَذ فهم جُرْهُم وحَضُورا وحضرموت والسَّلِف :

حضورا

فأما حَضُورا فكانت ديارهم بالرَّسّ وكانوا أهل كفر وعبادة أوثان ، وبعث اليهم نبيٌّ منهم اسمه شُعَيْبُ بن ذى مهْزَع ، فكذبوه وهلكوا كما هلك غيرهم من الأمم .

جرهم

وأما جُرْهُم : فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية . وقال البَيْهَقي إن يَعْرُب بن قحطان لما غلبَ عاداً على اليمن وملكه من أيديهم ، ولّى إخوته على الأقاليم وولّي جُرْهُم على الحجاز ، وولى بلاد عاد الاولى ، وهى الشِّحْر ، عاد بن قحطان ، فعُرِفت به ، وولى على عمان * يقطن بن قحطان . انتهى كلام البيْهقى .

وقيل إنما نزلت جُرْهُم الحجاز ، ثم بنى قَطُور ابن كركر ابن عِمْلاَق ، لقحط أصاب اليمن ، فلم يزالوا بمكة إلى أن كان شأن اسمٰعيل عليه السلام ونبوّته فآمنوا به وقاموا بأمره وورثوا ولاية البيت عنه ، حتى غلبتهم عليه خُزاعة وكنانة فخرجت جرْهم من مكة ورجعوا إلى ديارهم باليمن إلى أن هلكوا

حضرموت

وأما حضْرَموت فمعدودون فى العرب العاربة لقدم أزمانهم ، وليسوا من العرب البائدة لأنهم باقون فى الأجيال المتأخرة ، إلا أن يقال إن جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الأولى واندرجوا فى كِنْدَة وصاروا من عدادهم، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا . والله أعلم

وقال على بن عبد العزيز إنه كان فيهم ملوك يقاربون ملوك التبابعة فى علو الصيت ونهاية الذكر ، قال : وذكر جماعة من العلماء أن أول من انبسط ملكه منهم وارتفع ذكره عَمْرو الأشنَبُ بن ربيعة بن يرام بن حضرموت ، ثم خلفه ابنه نِمر الأزج ، فملك مائة سنة وقاتل العمالقة . ثم ملك كرَيْب ذو كراب ، بن نمر الأزج * مائة وثلاثا وثلاثين سنة ، وهلك اخوته فى ملكه . ثم ملك مَرْثَد ذو مَروان بن كريب

---

* وولى عمان

* بن عز الأزج

مائة وأربعين سنة ؛ وكان يسكن مأرب ثم تحول إلى حضرموت ، ثم ملك علقمة ذو قيفان بن مرثد ذى مران بحضرموت ثلاثين سنة . ثم ملك ذو عيل ابن ذي قيفان عشر سنين ، وسكن صنعاء ؛ وغزا الصين فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا القور . ثم ملك ذوعيل بن ذى عيل بحضرموت عشر سنين ؛ ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذوعيل إلى صنعا واشتدت وطأته ؛ وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن وأول من أدخل الحرير والديباج إلى اليمن . ثم ملك بدعات بن ذى عيل بحضرموت أربع سنين . ثم ملك بدعيل بن بدعات ، وبنى حصوناً وخلف آثاراً . ثم ملك بديع ذو عيل . ثم ملك حماد بن بدعيل بحضرموت ، فأنشأ حصنه ، المعقرب ، وغزا فارس فى عهد سابور ذى الأكتاف ، وخرب وسبى ، ودام ملكه ثمانين سنة ؛ وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم . ثم ملك يشرح ذو الملك ابن ودب بن ذى حماد بن عاد (؟) من بلاد حضرموت مائة سنة ، وكان أول من رتب الرواتب وأقام الحرس والروابط . ثم ملك منعم* بن ذي الملك ذي ثار* بن جذيمة ابن منعم ، ثم يشرح بن جذيمة بن منعم ، ثم نمر بن يشرح ثم ساجن المسمى ابن نمر . وفى أيامه تغلبت الحبشة على اليمن

هذه قبائل هذا الجيل من العرب العاربة وما كانوا عليه من الكثرة والملك إلى أن انقرضوا وأدال الله من أمرهم بالقحطانية كما نحن ذاكروه ، ولم نغفل منهم إلا من لم يصلنا ذكره من خبره . والله وارث الأرض ومن عليها

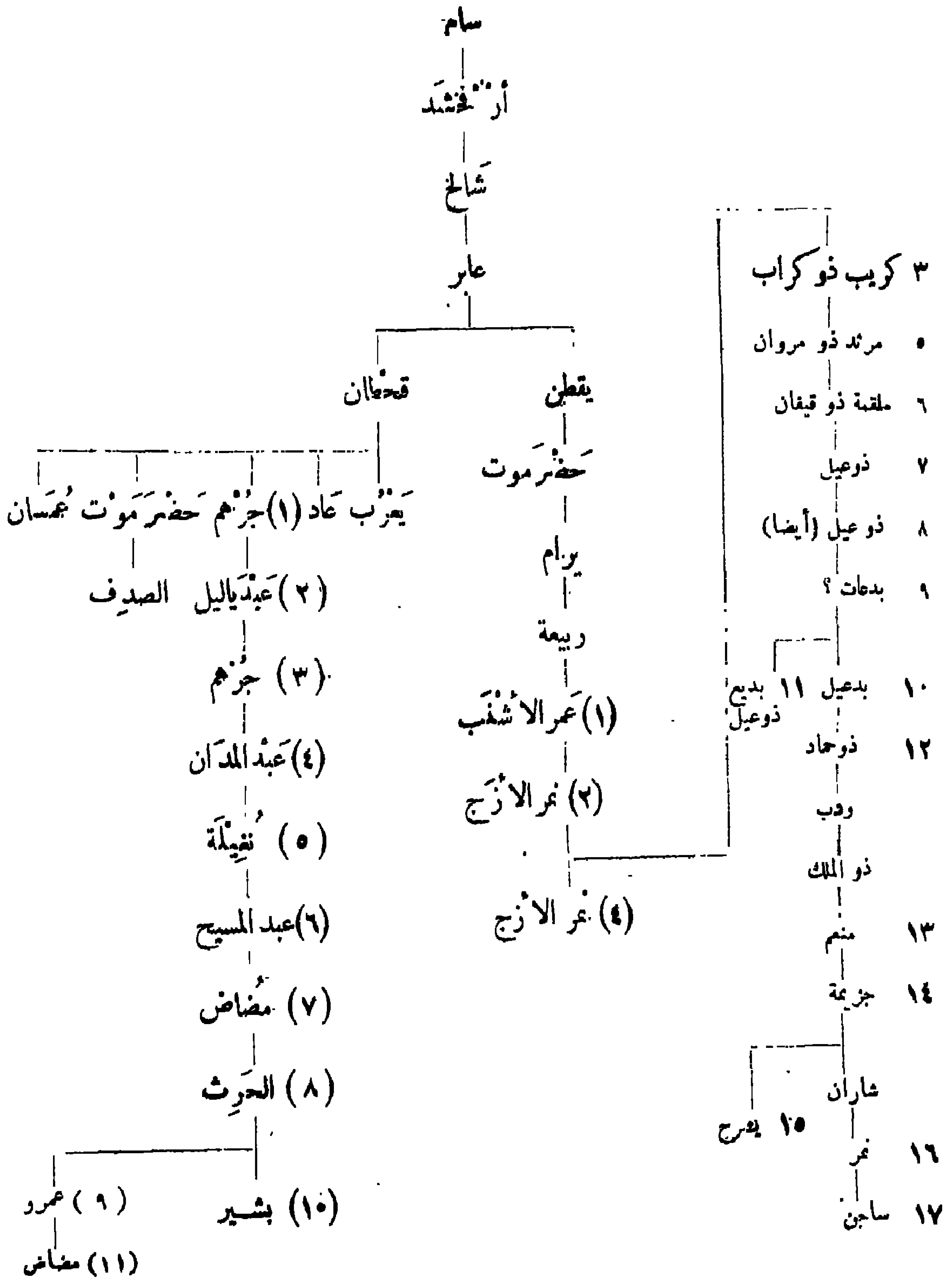
جرهم

وأما جرهم فقال ابن سعيد : إنهم أمتان : أمة على عهد عاد ، وأمة من ولد جرهم ابن قحطان . ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز ، ثم ملك من بعده ابنه عبد ياليل ، ثم بعده ابنه عبد المدان بن جرهم ، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان ، ثم ابنه عبد المسيح بن نفيلة ، ثم ابنه مضاض بن عبد المسيح ، ثم ابنه الحرث* ثم ملك من بعده جرهم بن عبد ياليل ، ثم بعده ابنه عمرو بن الحرث ، ثم أخوه بشير بن الحرث ، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض . قال : وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم . انتهى

---

* منهم * تمرار
* ثم ابنه عمرو بن الحرث ثم أخوه بشر بن الحرث ثم مضاض بن عمرو

عمود العرب البائدة



بنو سبأ

وأما بنو سَبَأ بن يَمْطَن فلم يبيدوا ، وكان لهم بعد تلك الأجيال البائدة أجيال باليمن، منهم حِمْيَر وكهلان وملوك التبابعة ، وهم أهل الطبقة الثانية .

وفى مسند الامام أحمد أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل هو فَرْوة* بن مُسَيْك المرادى ، عن سَبأ أرجل هو أو امرأة أم أرض ؟ فقال : بل رجل ولد عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة والشأم أربعة . فأما اليمانيون فَمَذحِج وكِنْدة والأزْد والأشْعَر(١) وأنمار وحِمْيَر ، وأما الشاميون فَلَخْم وجُذَام وعَامِلة وغسَّان . وثبت أن أباهم قحطان كان يتكلم بالعربية ، ولقِنها عن الأجيال قبله فكانت لغة بنيه ، ولذلك سموا العرب المستعربة ، ولم يكن فى آباء قَحطان مِن لَدُن نوح عليه السلام اليه من يتكلم بالعربية . وكذلك كان أخوه فالَغ ، وبنوه إنما يتكلمون بالعجمية إلى أن جاء إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما ، فتعلم العربية من جرْهُم فكانت لغةَ بنيه ، وهم أهل الطبقة الثالثة المسمون بالعرب التابعة للعرب ، فلنذكر هذا النسب لينتظم أجياله مع الأجيال السابقة واللاحقة، ونستوفى أنساب الأمم منها

إبراهيم عليه السلام

الخبر عن إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام

ونسبه إلى فالَغ بن عَابر وذكر أولاده صلوات الله عليهم وأحوالهم

ولنذكر الآن أهل هذا النسب ، ما بين إسماعيل ونوح عليهما السلام ، ومن كان منهم أو من إخوانهم أو أبنائهم من الأنبياء والشعوب والملوك ، وما كان لإسمعيل صلوات الله عليه من الوَلَد ، ونختم هذه الطبقة الأولى بذكرهم ، وإن كانوا عجماً فى لغاتهم إلا أنهم أصَوَنُ الخليقة فى أنسابهم ، وكل البشر على بعض الآراء من أعقابهم ، وهم مع ذلك معاصرون لهذه الطبقة ، فيتسق الكلام فيهم على شرط كتابنا ، ويتميز بذكر أخبارهم أحوال الطبقات التى بعدهم على الوفاء والكمال

(فنبدأ أولاً بذكر عمود هذا النسب على التوالى ثم نرجع إلى أخبارهم)

وإسماعيل صلوات الله عليه هو ابن إبراهيم بن آزَر وهو تَارَح ، وآزر اسم لصنمه لقب به ، ابن نَاحُور بن سارُوخ — بالخاء أو بالغين — بن عَابَر أو عنبر ،

١ — المعروف من كتب الحديث والاشعرون ، ص

* مروة

ابن شالخ أو شليخ بن أرْفَخْشَد بن سام بن نوح . وهذه الأسماء الأعجمية كلها منقولة من التوراة ، ولغتها عبرانية ، ومخارج حروفها فى الغالب مغايرة لمخارج الحروف العربية ، وقد يجيء الحرف منها بين حرفين من العربية فترده العرب إلى أحد ذينك الحرفين فى مخرجه ، فيتغير عن أصله . ولذلك تكون فيها إمالة متوسطة أو محضة ؛ فيصير إلى حرف العلة الذى بعده من ياء أو واو ، فلذلك تنقل الكلمة منها على اختلاف ، وإلا فشأن الأعلام أن لا تختلف . وقال الطبري : إن بين شالخ وأرفخشد أباً آخر اسمه قينن ، وسقط ذكره من التوراة لأنه كان ساحراً وادعى الألوهية . وقال ابن حزم : فى كتب النصارى أن بين فالغ وعابر أباً آخر اسمه مَلِكِيصَدَق، وهو أبو فالغ

لقاء ابراهيم لنوح

واعلم أن نوحاً صلوات الله عليه بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة ، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة ، فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة ، ألف سنة إلا خمسين . وهذا نص المصحف الكريم (١) ، وكذا وقع فى التوراة بعينه

ومن الغريب الواقع فى التوراة أن عمر إبراهيم كان يوم وفاة نوح ثلاثاً وخمسين سنة ، لأنه قال إن أرفخشد ولد لسام بعد سنتين من الطوفان ، ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ ، وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر وبلغ عابر أربعاً وثلاثين سنة ، فولد ابنه فالغ ، وبلغ فالغ ثلاثين سنة ، فولد له أرغو ، وبلغ أرغو ثنتين وثلاثين سنة ، فولد شاروغ (٢) ، وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور ، وبلغ ناحور تسعاً وعشرين سنة فولد تارح ، وبلغ تارح خمساً وسبعين (٣) سنة فولد إبراهيم . وجملة هذه السنين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة ، وعمر نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسون سنة ، فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة ، فيكون لقى نوحاً صلوات الله عليهما وخالطه وأخذ عنه . وهو على رأى بعضهم أب لجميع الشعوب من بعده ، فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات الله عليهم أجمعين

---

١ — عنكبوت : ١٤ (تك ٩ — ٢٨)

٢ — (تك) سروج

٣ فى كد سبعون فقط

أول من ملك الارض من ولد كنعان

وفى كتاب البدء ، ونقله ابن سعيد ، أن أول من ملك الأرض من ولد نوح كنعان بن كوش بن حام ، فسار من أرض كنعان بالشأم إلى أرض بابل ، فبنى مدينة بابل : اثنى عشر فرسخاً فى مثلها . وورث ملكه ابنه النُّمروذ بن كنعان ، وعظم سلطانه فى الأرض وطال عمره ، وغلب على أكثر المعمور ، وأخذ بدين الصابئة ، وخالفه الكلدانيون منهم فى التوحيد وأسمائه ، ومال معهم بنوسام ، وكان سام قد نزل بشرقى الدِّجلة ، وكان وصى أبيه فى الدين والتوحيد ، وورث ذلك ابنه أرفخشذ ومعنى أرفخشذ: مصباح مضىء، فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيون إلى القيام بالتوحيد فامتنع ، ثم قام من بعده ابنه شالخ وعاش طويلاً ، وقام من بعده بأمره ابنه عابر كذلك ، وخرج مع الكلدانيين على النمروذ منكرا لعبادة الهياكل ، فغلبه نمروذ وأخرجه من كُوثا ، فلحق هو ومن معه من الحلفاء بالجزيرة ، وهى مدينة المجدل بين الفرات ودجلة . وعابر هذا هو أبو العبرانيين الذين تكلموا بالعبرانية واستفحل ملكه بالمجدل . قال ابن سعيد : وورث من بعده ابنه فالغ ، وهو الذي قسم الأرض بين ولد نوح ، وفى زمانه بنى النمروذ الصرح ببابل ، وكان من أمره ما قصه القرآن ، وقام بأمر فالغ من بعده ابنه ملكان فيما زعموا ، وغلبه الجرامقة والنَّبط على ملكه ، وقام بالمجدل فى ملكهم إلى أن هلك وخلف ابنه أتيا ، ويقال له الخضر

وأما أرغو بن فالغ فعبر إلى كلواذا ، ودخل فى دين النَّبط ، وهى بدعة الصابئة ، وولد له منهم ابنه شاروخ ، ثم بعده ناحور بن شاروخ ، ثم بعده تارح بن ناحور الذى سمى آزر . واستخلص النمروذ آزر وقدمه على بيت الأصنام ، والنمروذ من ملوك الجرامقة ، واسمه هاصد بن كوش . انتهى كلام ابن سعيد

وولد لتارح وهو آزر على ما وقع فى التوراة ثلاثة من الولد : ابراهيم وناحور وهاران . ومات هاران فى حياة أبيه تارح وترك ابنه لوطا ، فهو ابن أخى ابراهيم

مولد ابراهيم

قال الطبرى : ولد ابراهيم الخليل قيل بناحية كوثا من السواد ، وهو قول ابن اسحق ، وقيل بحرّان وقيل ببابل ، وعامة السلف أنه ولد على عهد نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام . وكان الكهان يتحدثون بولادة رجل يخالف الدين ،

ويكسر الأصنام والأوثان ، فأمر بذبح الولدان . فولدته أمه وتركته بمغارة فى فلاة من الأرض، حتى كبر وشب ورأى فى الكواكب ما رآه وكملت نبوته ، فأحضرته إلى أبيه ودعاه إلى التوحيد ، فامتنع وكسر ابراهيم الأصنام . وأحضر عند نمروذ وقذفه فى النار فصارت برداً وسلاماً ، وخرج منها ولم تعدُ عليه ، كما نص ذلك القرآن .
ثم تدبر النمروذ فى أمره وطلب من ابراهيم أن يقرب قربانا يفتدى مما دعاه اليه ، فقال له ابراهيم : لن يقبل الله منك إلا الإيمان ، فقال : لا أستطيع وترك ابراهيم وشأنه

هجرة ابراهيم

ثم أمر الله ابراهيم بالخروج من أرض الكلدانيين ببابل ، فخرج به أبوه تارح ومعهما ـ على مافى التوراة ـ ابنه ناحور بن تارح وزوجته مِلْكا بنت أخيه هاران وحفيده لوط بن هاران . قال فى التوراة : وكَنَّتُه سارة ، يعنى زوج ابراهيم ، فقيل إنها أخت مِلْكا بنت هاران بن تارح ، وقيل بنت ملك حرّان ، طعنت على قومها فى الدين فتزوجها ابراهيم على أن لا يضرها . ويردُّ هذا ما فى التوراة أنها خرجت معهم من أرض الكلدانيين إلى حرّان فتزوجها ، وقيل إنها بنت هاران ابن ناحور ، وهاران عم ابراهيم ، قاله السهيلي . فأقاموا بحرّان ومات بها أبوه تارح وعمره مائتا سنة وخمس سنين *

ثم أمر بالخروج إلى أرض الكنعانيين ، ووعده الله بأن تكون أثراً لبنيه ، وأنهم يكثرون مثل حصى الارض ، فنزل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة ، ثم أصاب بلد الكنعانيين مجاعة ، فخرج ابراهيم فى أهل بيته وقدم مصر ، ووُصِفَ لفرعون ملك القبط جمالُ امرأته سارة ، فأحضرها عنده ولما همّ بها يبست يده على صدره ، فطلب منها الاقالة ، فدعت له الله فانطلقت يده . ويقال عاود ذلك ثلاثا تصاب فى كلها وتدعو له فردها إلى ابراهيم ، واستخدمها هاجر ، قال الطبرى : « والملك الذى أراد سارة هو سنان بن علوان ، وهو أخو الضحاك » والظاهر أنه من ملوك النبط ، ثم ساروا إلى أرض كنعان بالشام ، ويقال إن هاجر أهدتها إليه الملك الأردن لسارة ، وكان اسمه ، فيما قال الضبي ، صلاوق ،

* فى نسخة الشنقيطى « وخمسين سنة »

وأنه انتزع سارّة من ابراهيم ولما همّ بها صُرع مكانه ، وسألها فى الدعاء فدعت له فأفاق ، فردها إلى ابراهيم وأخدمها هاجر ، أمَة كانت لبعض ملوك القبط ، ولما عاد ابراهيم إلى أرض كنعان نزل حَبْرُون (١) ، وهو مدفنه المسمى بالخليل [لهذا العهد ، ويقال بل نزل بمكان بيت المقدس ، وكانت تسمى يومئذ أيل خ] وكانت معظمة تعظمها الصابئة وتسكب عليها الزيت للقربان ، وتزعم أنها هيكل المُشترِى والزُّهرة ، فسماها العبرانيون إيليا ، ومعناه بيت الله

لوط — ثم إن لوطا فارق ابراهيم عليه السلام لكثرة مواشيهما وتابعيهما وضيق المرعى فنزل المؤتفكة بناحية فلسطين ، وهى بلاد الغور (٢) المعروف بغورِ زُغَر ، وكانت هنالك على ما نقله المحققون خمس قرى: سَدُوم (٣) [وطبعة وعمرة ودوما وصعوة] ووجدهم على ارتكاب الفواحش فدعاهم إلى الدين ونهاهم عن المخالفة فكذبوه وعتوا ، وأقام فيهم داعياً إلى الله إلى أن هلكوا ، كما قصه القرآن

وخرج لوط مع عساكر كنعان وفلسطين للقاء ملوك الشرق حين زحفوا إلى أرض الشام ، وكانوا أربعة ملوك: ملك الأهْواز من بنى غُلَيم بن سام واسمه كُرز (٤) لاعامر ، وملك بابل واسمه فى التوراة شِنعار (٥) واسمه امراقيل (٦) ويقال هو نمروذ وملك الأستار (٧) وما أدرى معنى هذه اللفظة واسمه أُريُوح وملك كوتم ومعناه ملك أمم أو جماعة ، واسمه تِزْعال (٨) ، وكان ملوك كنعان الذين خرجوا اليهم خمسة على عدد القرى الخمسة ، وذلك أن ملك الأهواز كان استعبدهم ثنتى عشرة سنة ، ثم عصوا ، فزحف إليهم واستجاش بالملوك المذكورين معه ، فأصابوا من أهل

---

١ — كان فى ج جبرون والتصحيح من يا (٣ — ٢٠٨) و ب (٦ — ٦٧٣)
٢ — فى ج « عدور المعروف بعدور صغر » والتصحيح من د (١ — ١٥٢) ويا (٦ — ٢١٢ و ٤ — ٣٩٢)
٣ — الزيادة من ك (١ — ٤٢) و ب (٩ — ٥٣٨)
٤ — كدر لعومر (تك ١٤ — ٥)
٥ — تك (١٤ — ١)
٦ — امراقل (تك ١٤ — ٩)
٧ — الاسار (تك ١٤ — ١)
٨ — تدعال (تك ١٤ — ١)

جبال يسعين إلى فاران التي فى البرية ، وكان بها يومئذ الجويون(١) من شعوب كنعان أيضاً . وخرج ملك سَدُوم وأصحابه لمدافعتهم فانهزم هو والملوك الذين معه من أهل سدوم ، وسباهم ملك الأهْوَازِ ومن معه من الملوك ، وأسروا لوطاً وَسَبَوْا أهله وغنموا ماشيته ، وبلغ الخبر ابراهيم عليه السلام فأتبعهم فى ولده ومواليه نحواً من ثلثمائة وثمانية عشر ، ولحقهم بظاهر دمشق فدهمهم فانفَضُّوا ، وخلص لوطاً فى تلك الوقعة. وجاء بأهله ومواشيه وتلقَّاهم ملك سدوم واستعظم فعلتهم . ثم أوحى الله إلى ابراهيم أن هذه الأرض أرض الكنعانيين التى أنت بها مَلَكتها لك ولذريتك ، وأكثرهم مثل حصى الأرض ، وأن ذريتك يسكنون فى أرض ليست لهم أربعمائة سنة . ويرجع الحقب الرابع إلى هنا

ثم إن سارة وهبت مملوكتها هاجر القبطية لابراهيم عليه السلام لعشر سنين من مجيئهم من مصر ، وقالت لعل الله يرزقك منها ولداً . وكان ابراهيم قد سأل الله أن يهب له ولداً فوعده به ، وكانت سارة قد كبرت وعقمت عن الولد

ولادة اسماعيل

فولدت هاجر لابراهيم اسمعيل عليهما السلام لست وثمانين من عمره ، وأوحى الله اليه : أني قد باركت عليه وكثرته ، ويولد له اثناعشر ولداً ، ويكون رئيساً لشعب عظيم . وأدركت سارة الغيرة من هاجر وطلبت منه إخراجها ، وأمره الله أن يطيع سارة فى أمرها ، فهاجر بها إلى مكة ووضعها وابنها بمكان زمزم عند دَوْحة هنالك ، وانطلق فقالت له هاجر : آلله أمرك ؟ قال نعم ! فقالت : إذاً لا يضيعنا !

وانطلق ابراهيم ، وعطش اسمعيل بعد ذلك عطشاً شديداً ، وأقامت هاجر تتردَّد بين الصفا والمروة إلى أن صعدت عليها سبع مرات لعلها تجد شيئاً ، ثم أتته وهو يفحص برجليه فنبعت زمزم

وعن السُّدِّى أنه تركه فى مكان الحِجْر ، واتخذ فيه عريشاً ، وأن جبريل هو الذى همَز له الماء بعقبه وأخبر هاجر أنها عين يشرب بها ضِيفان الله ، وأن أبا هذا الغلام سيجىء ويبنيان بيتاً لله هذا مكانه . ثم مرت رُفقة من جرْهم أو أهل بيت من جرهم أقبلوا من كَدَاء ونزلوا أسفل مكة ، فرأوا الطير حائمة فقالوا لا نعلم بهذا الوادى ماء ،

---

١ — الحوريون (تك ١٤ — ٦)

ثم [إن جرهم خ] أشرفوا فرأوا المرأة ونزلوا معها هنالك .(وعن ابن عباس) كانت أحياؤها قريباً من ذلك المكان ، فلما رأوا الطير تحوم عليه أقبلوا اليه فوجدوهما ونزلوا معهما ، حتى كان بها أهل أبيات منهم . وشب اسماعيل بينهم ، وتعلم اللغة العربية منهم وأعجبهم وزوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه هاجر فدفنها فى الحِجْر

ولما رجع ابراهيم وأقام فى أهله بالشأم ، وبالغ أهل المؤتفكة فى العصيان والفاحشة ، ودعاهم لوط فكذبوه وأقام على ذلك . (قال الطبرى) :فأرسل الله رسولا من الملائكة لإهلاكهم ، ومرُّوا بابراهيم فأضافهم وخدمهم ، وكان من ضحك سارة وبشارة الملائكة لها باسحق وابنه يعقوب ماقصه القرآن، وكانت البشارة باسحق وابراهيمُ ابنُ مائة سنة ، وسارة بنت تسعين . وفى التوراة أنه أُمِرَ أن يحرِّر ولده اسمعيل لثلاث عشرة سنة من عمره ، وكل من فى بيته من الأحرار ، فكان ذلك لتسع وتسعين من عمر ابراهيم . وقال له : ذلك عهدٌ بينى وبينك وذريتك . ثم أهلك الله المؤتفكة ونجى لوطاً إلى أرض الشأم ، فكان بها مع عمه ابراهيم صلوات الله عليهما .

ولادة اسحق

وولدت سارة اسحق ، وأمر الله ابراهيم بعد ولادة اسمعيل واسحق ببناء بيت يعبد فيه ويذكر ، ولم يعرف مكانه فجعل له علامة تسير معه حتى وقفت به على الموضع، يقال إنها ريح لينة لها رأسان تسير معه حتى تكون بالموضع ، ويقال بل بعث معه جبريل لذلك حتى أراه الموضع . وكان ابراهيم يعتاد اسمعيل لزيارته ، ويقال إنه كان يستأذن سارة فى ذلك وإنها شرطت عليه أن لا يقيم عندهم ، وأن ابراهيم وجد امرأة لاسماعيل فى غيبة منه ـ وكانت من العماليق ـ وهى عُمارة بنت سعيد بن أسامة ابن أكيل ، فرآها فظة غليظة ، فأوصاها لاسمعيل بأن يحول عتبة بابه ، فلما قصت عليه الخبر والوصية ، قال ذلك أبى يأمرنى أن أطلقك ! فطلقها وتزوج بعدها السيدة بنت مُضَاض بن عمرو الجرهُمى ، وخالفه ابراهيم إلى بيته ، فتسهلت له بالإذن وأحسنت التحية وقرَّبت الوضوء والطعام ، فأوصاها لاسمعيل بأنى قد رضيت عتبة بابك . ولما قصت عليه الوصية قال : ذلك أبى يأمرنى بإمساكك ! فأمسكها

بناء الكعبة

ثم جاء ابراهيم مرَّة ثالثة ، وقد أمره الله ببناء البيت ، وأمر اسمعيل بإعانته ،

فرفعوها من القواعد ، وتم بناؤها ، وأَذَّنَ فى الناس بالحج . ثم زوج لوط ابنته من مَدْيَن بن ابراهيم عليهما السلام ، وجعل الله فى نسلها البركة ، فكان منهم أهل مَدْيَن الأُمَّة المعروفة . ثم ابتلى الله ابراهيم بذبح ابنه فى رؤيا رآها . وهى وحي ، وكانت الفدية ، ونجى الله ذلك الولد كما قص فى القرآن

الذبيح من هو؟

واختلف فى ذلك الذبيح من ولديه ، فقيل اسمعيل وقيل اسحق . وذهب إلى كلا القولين جماعة من الصحابة والتابعين : فالقول باسمعيل لابن عباس وابن عمر والشَّعْبِيّ ومُجاهد والحسَن ومحمد بن كَعْب القُرَظى ، وقد يحتجون له بقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن الذَّبِيحَيْنِ » (١) ولا تقوى الحجة به ، لأن عم الرجل قد

---

١ — كذا ذكره الزمخشري فى الكشاف فى سورة والصافات قال الزيلعى فى تخريج أحاديثه إنه غريب ومثله للحافظ وقالا إنه لاوجود له بهذا اللفظ وإنما الموجود ماروواه الحاكم فىالمستدرك عن معاوية بن أبى سفيان قال :

كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه أعرابى فقال : يارسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً وخلفت المال عابسا هلك المال وضاع العيال فعد على مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه قال فى شرح المواهب وقد أستدل معاوية بهذا الحديث على ان الذبيح اسحاق (انظره ص ١١٥ ج ١) والحاصل أن العلماء اختلفوا اختلافا كبيراً فى الذبيح من هو والقول بأنه اسحاق هو الذى رجحه الطبرى ، وابن عطية والقرطبي وعزاه للاكثرين واجمع عليه أهل الكتاب ، وقال به بعض الصحابة وذهب اليه مالك واختاره ابن جرير وجزم به عياض والسهيلي ومال اليه السيوطى ودليلهم زيادة على مافى الكتب المقدسة ماروواه الدارقطني عن ابن مسعود والبزار وابن مردويه عن العباس : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الذبيح إسحاق . والراجح عندنا هو ان الذبيح اسماعيل وما استدل به الأكثرون من الحديث المذكور سابقا لاينهض حجة لان فى سنده المبارك بن فضالة وقد ضعفه الجمهور وقد رواه الطبرانى مرفوعا بلفظ : وأما إسحاق فقد بذل نفسه للذبح . وهو أيضا ضعيف السند فهو دائر بين الرواية الصحيحة موقوفا وبين الرواية الضعيفة مرفوعا . وأما مانقله المؤلف عن الطبرى من الاحتجاج لكون إسحاق هو المبشر به ، فليس فى القرآن مايدل على حصر البشارة فيه ؛ ويعجبنا أن ننقل هنا استدلالا وفق اليه الأستاذ النجار فى كتابه (قصص الانبياء) فقد جاء فيه :

أما هذه القصة فبطلها فى التوراة إسحاق وفى اعتقادي ان لفظ إسحاق حشر حشراً فى غضون القصة وذلك حرصا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه وهو فى حال صغره ، ودليلى على ان الذبيح اسماعيل من التوراة نفسها ، ان الذبيح وصف بأنه ابن ابراهيم الوحيد ، أى الذى ليس له سواه إذ سخاوة نفس ابراهيم بولده الذى ليس له سواه يذبحه امتثالا لأمر ربه له فى منام ؛ أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله . وهذا هو الاسلام بعينه : إذ الاسلام هو الطاعة والامتثال وهو دين الله فى الأولين والآخرين ، وإذا رجعنا الى اسحاق لم نجده وحيداً لابراهيم في يوم من الايام لان اسحاق ولد ولاسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح التوراة ، وبقي اسماعيل الي أن مات ابراهيم وحضر اسماعيل وفاته ودفنه

يجعل أباه بضرب من التجوُّز ، لاسيا فى مثل هذا الفخر ، ويحتجون أيضاً بقوله تعالى « فَبَشَّرْنَاها بإِسْحٰق وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يعْقُوبَ » ولو كان ذبيحاً فى زمن الصِّبا ، لم تصح البشارة بابن يكون له ، لأن الذبح فى الصِّبا ينافى وجود الولد . ولا تقوم من ذلك حجة ، لأن البشارة إنما وقعت على وفق العلم بأنه لا يذبح ، وإنما كان ابتلاء لابراهيم ، والقول باسحق للعباس وعمر وعلى وابن مسعود وكعب الأحبار وزيد بن أسلم ومَسْرُوق وعِكرِمَة وسعيد بن جُبير وعطاء والزُّهرى ومكحول والسُّدِّى وقَتَادة

وقال الطبرى : والراجح أنه اسحق لأن نص القرآن يقتضى أن الذَّبيح هو المبشَّرُ به ، ولم يُبَشَّرْ ابراهيم بولد إلا من زوجته سارة ، مع أن البشارة وقعت إجابة لدعائه عند مُهاجَرِهِ من أرض بابل وقوله « إِنِّى ذَاهِبٌ إلى رَبِّى سَيَهْدِينِ » ثم قال عقبهُ : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِين » ثم قال عقبهُ « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيم » وذلك كله كان قبل هاجر لأن هاجر إنما مَلَكَتْها سارة بمصر ومَلَّكتها لابراهيم بعد ذلك بعشر سنين . فالمُبَشَّرُ به قبل ذلك كله إنما هو ابن سارة ، فهو الذَّبيح بهذه الدلالة القاطعة ، وبشارة الملائكة لسارة بعد ذلك حين كانوا ضيوفاً عند ابراهيم فى مسيرهم لاهلاك سَدُوم ، إنما كان تجديداً للبشارة المتقدمة اهـ

ثم تُوفيت سارة لمائة وسبع وعشرين من عمرها ، وذلك فى قرية حَبرُون من بلاد بنى حبيب الكَنْعانيين ، فطلب ابراهيم منهم مقبرة لها ، فوهبه عِفْرُون بن صُخَر (١) مغارة كانت فى مزرعته ، فامتنع من قبولها إلا بالثمن ، فأجاب إلى ذلك ، وأعطاه ابراهيم أربعمائة مثقال فضة ، ودفن فيها سارة

أولاد ابراهيم من غير سارة وهاجر

وتزوج ابراهيم من بعدها قَطُورَا بنت يَقْطان من الكنعانيين . وقال السُّهَيلى قنطورا بزيادة نون بين القاف والطاء . وهذا الاسم أعجمىٌّ وطاؤه قريبة من التاء . فولدت له كما هو مذكور فى التوراة ستة من الولد : وهم زِمْرَان . و يَقْشان . و مَدَان . و مِدْيَن . و أَشْبَق . وشُوخ . ثم وقع فى التوراة ذكر أولادهم : فولد يَقشان سَبأ .

١ — صوخر (تك ٢٣ — ٨)

ودَذَان . وولدَ دَذَان أشُوريم ولَطُوسِيح (١) ولأُمّيم . وولد مِدْيَن عَيْفا وعَيْفين (٢) وحَنُوخ وأَبِيدَاع وأَلْزَاعا . هذا آخر ولده من قنطورا فى التوراة .

وقال السُّهَيلى : كان لابراهيم عليه السلام أولاد آخرون خمسة من امرأة اسمها حجين (٣) أو حجون بنت أهيب : وهم كبسان وفزوخ وأميم ولوطان ونافس . ولما ذكر الطبرى بنى قنطورا الستة وسمى منهم يقشان قال بعده : وسائرهم من الاخرى وهى رعوة ، ثم قال: ومن يقشان جيل البربر اه

فولد إبراهيم على هذا ثلاثة عشر : فاسمعيل من هاجر ، وإسحق من سارة ، وستة من قنطورا ، كما ذكر فى التوراة ، والخمسة بنو حجين عند السهيلى ، أو رعوة عند الطبرى

وكان إبراهيم عليه السلام قد عهد لابنه إسحق أن لا يتزوج فى الكنعانيين ، وأكد العهد والوصية بذلك لمولاه القائم على أموره ، ثم بعثه إلى حران مهاجرهم الأول ، فخطب من ابن أخيه بتوِيل بن ناحور بن آزر بنته رِفقا فزوجها أبوها ، واحتملها ومن معها من الجوارى ، وجاء بها الى إسحق فى حياة أبيه ، وعمره يومئذ أربعون سنة فتزوجها

ولادة يعقوب وعيصو

وولدت له يعقوب وعيصو توأمين ، وسنذكر خبرهما . ثم قبض الله نبيه إبراهيم صلوات الله عليه بمكان هجرته من أرض كنعان ، وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ، ودفن مع سارة فى مغارة عِفْرون الحيثى (٤) ، وعرف بالخليل لهذا العهد ، ثم جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب آخر الدهر ، فاسمعيل سكن مع جرهم بمكة وتزوج فيهم وتعلم لغتهم وتكلم بها ، وصار أباً لمن بعده من أجيال العرب ، وبعثه الله إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بمكة ، وإلى أهل اليمن ، فآمن بعض وكفر بعض . ثم قبضه الله اليه ، وخلف ولده بين جرهم ، وكانوا على ما ذكر فى التوراة اثنى عشر ،

---

١ — لطوشيم (تك ٢٥ — ٣)
٢ — عفر (تك ٢٥ — ٤)
٣ — فى ض (١ — ١١) « حجون بنت أهين » وفى ط (١ — ١٦٠) حجور بنت أرهير » وفى د (١ — ١٧٥) « حجون بنت أمين »
٤ — عفرون الحثى (تك ٢٣ : ١٠)

ابناء اسمعيل

أكبرهم بَنايُوتُ (١) وهو الذى تقوله العرب نَابت ونبْت ثم قيذَار وأدَبْيل وبُسَام (٢) ومِشْمَع ودُوما ومَسَّا وحراه (٣) وقيما (٤) ويَطور ونَافِس وقِدْما

قال ابن اسحق : وعاش فيما ذكر مائة وثلاثين سنة ، ودفن فى الحِجْر مع أمهُ * هاجَر ، ويقال آجَر ، وفى التوراة أنه قبض ابن مائة وسبع وثلاثين سنة . وأن شيعته سكنوا من حَوِيلَا إلى شُور ، قُبَالة مصر من مدخل أثُور (٥) وسكنوا على حذر * شيع إخوته . وحَوِيلا عند أهل التوراة هى جنوب برقة ، والواو منها قريبة من الياء . وشُر هى أرض الحجاز ، وأثُور بلاد الموصل والجزيرة . ثم ولى أمر البيت من بعد إسمعيل ابنه نَابِت ، وأقام ولده بمكة مع أخوالهم جرهم حتى تشعبوا وكثر نسلهم وتعددت بطونهم من عدنان فى عِدادِ مَعَدّ ، ثم بطون مَعَدّ فى ربيعة ومضر وإياد وأنمار بنى نزار بن مَعَدّ ، فضاقت بهم مكة [وانتشروا فى البلاد ، ونزل العراق منهم عكا وإياد وربيعة وأنمار ، وأقامت مضر حوالى مكة خ] على ما نذكره عند ذكر قريش وأخبار ملكهم بمكة . فكانت بطون عدنان هذه كلها من ولد إسمعيل لابنه نابت ، وقيل لِقيذار ، ولم يذكر النسابون نسلا من ولده الآخرين . وتشعبت من إسمعيل أيضاً عند جماعة من أهل العلم بالنسب بطون قحطان كلها ، فيكون على هذا أباً لجميع العرب بعده . (وأما إسحق) ، فأقام بمكانه من فلسطين وعُمِّر ، وعَمِيَ بعد الكثير من عمره ، وبارك على ولده يعقوب ، فغضب بذلك أخوه عيصو وهمَّ بقتله ، فأشارت عليه * رِفْقَا بنت بَتُويل بالسير إلى حرّان عند خاله لَابَان بن بَتُويل * ، فأقام عنده وزوَّجه بنتيه ، فزوجه أولا الكبرى ، واسمها لَيَا ، وأخدمها جاريتها زِلْفَة ، ثم من بعدها أختها الصغرى واسمها راحيل ، وأخدمها جاريتها بِلْها

ابناء يعقوب

وأول من ولد منهن لَيَا ولدت له رَوْبيل (٦) ثم شِمْعون ثم لَاوِى ثم يَهوذَا .

١ — نبايوت (تك ٢٥ : ١٣)
٢ — مبسام (تك ٢٥ : ١٣)
٣ — حدار (تك ٢٥ : ١٥)
٤ — تيما (تك ٢٥ : ١٥)
٥ — أشور (تك ٢٥ : ١٨)
حدود جميع — أمه —* شرايبل
٦ — رأوبين (تك ٢٩ : ٣١) .

وكانت راحيل لا تحبل، فوهبت جاريتها بلْهها ليعقوب لتلد منه ، فولدت له دان ، ثم نَفْتَالى ، ولما فعلت ذلك راحيل وهبت أختها ليا ليعقوب عليه السلام جاريتها زِلْفة، فولدت له كاد ، وآشر (١) ثم ولدت ليا من بعد ذلك يَسَّاخَر ثم زَبُولون . فكمل له بذلك عشرة من الولد . ثم دعت راحيل الله عز وجل أن يهب لها ولداً من يعقوب ، فولدت يوسف ، وقد كملت له بحرّان عشرون سنة . ثم أمر بالرحيل إلى أرض كنعان التى وعدوا بملكها فارتحل ، وخرج لابان فى أتباعه ، وعزم له فى المقام عنده فأبى ، فودعه وانصرف إلى حرّان ، وسار يعقوب لوجهه، حتى إذا قرب من بلد عيصو ، وهو جبل يسعين بأرض الكَرَك والشَّوْبَك لهذا العهد ، اعترضه عيصو لتلقيه وكرامته ، فأهدى اليه يعقوب من ماشيته هدية احتفل فيها ، وتودد اليه بالخضوع والتضرع ، فذهب ما كان عند عيصو ، وأوحى الله اليه بأن يكون اسمه إسرائيل، ومر على أُرِشَالِيم وهى بيت المقدس ، فاشترى هنالك مزرعة ضرب فيها فُسطاطه ، وأمر ببناء مذبح سماه إيل ، فى مكان الصخرة . ثم حملت راحيل هنالك فولدت له بنيامين وماتت من نفاسه ودفنها فى بيت لَحم . ثم جاء إلى أبيه إسحق بقرية حبرون من أرض كنعان ، فأقام عنده ومات إسحق عليه السلام لمائة وثمانين سنة من عمره ، ودفن مع أبيه فى المغارة

قصة يعقوب وبنيه

وأقام يعقوب بمكانه ، وولده عنده ، وشب يوسف عليه السلام على غير حالهم من كرامة الله به ، وقص عليهم رؤياه التى بشر الله فيها بأمره فغصّوا به ، وخرجوا معه إلى الصيد فألقوه فى الجب ، واستخرجه السيارة الذين مروا به بعد ذلك ، وباعوه للعرب بعشرين مثقالا . ويقال إن الذى تولى بيعه هو مالك بن دُعْر (١) بن وابن بن عيفا ابن مِدْيَن ، واشتراه من العرب عزيز مصر ، وهو وزيرها أو صاحب شرطتها ، قال ابن إسحق : وإسمه أُطِفير (٢) بن رَحيب ، وقيل قوطِفير ، وكان ملكها يومئذ من العماليق الريان بن الوليد بن دومغ

---

١ — فى ط (١ — ١٧٢) « مالك بن دعر بن بويب بن عفقان بن مديان » وفى ت : (٣—٢٠٧) « مالك بن دعر بن حجر بن جزبلة بن لخم » وفى د « نويب » بدل « وابن » عند المؤلف

٢ — فى د (١ — ٢٠٢) نقلا عن ابن اسحاق « اطفير بن روحيب وفى كد (تك٣٩ : ١) « فوطيفار » وفى ط (١ — ١٧٢) أصفير بن روحيب

وربى يوسف عليه السلام فى بيت العزيز ، فكان من شأنه مع امرأته زَلِيخا ، ومكثه فى السجن ، وتعبيره الرؤيا للمحبوسين من أصحاب الملك ، ما هو مذكور فى الكتاب الكريم . ثم استعمله ملك مصر عند ما خشى السنة والغلاء على خزائن الزرع فى سائر مملكته، بقصد جمعها وتصريف الأرزاق منها ، وأطلق يده بذلك فى جميع أعماله وألبسه خاتمه ، وحمله على مركبه ، ويوسف لذلك العهد ابن ثلاثين سنة . فقيل عزل أطفير العزيز وولاه ، وقيل بل مات أطفير فتزوج زَلِيخا وتولى عمله. وكان ذلك سبباً لا نتظام شمله بأبيه وإخوته ، لما اصابتهم السنة بأرض كنعان ، وجاء بعضهم للميرة ، وكال لهم يوسف عليه السلام ، ورد عليهم بضاعتهم ، وطالبهم بحضور أخيهم . فكان ذلك كله سبباً لاجتماعه بأبيه يعقوب بعد أن كبر وعَمِى . قال ابن إسحق : كان ذلك لعشرين سنة من مغيبه

ولما وصل يعقوب إلى بلبيس قريباً من مصر خرج يوسف ليلقاه ، ويقال خرج فرعون معه ، وأطلق لهم أرض بلبيس يسكنون بها وينتفعون ، وكان وصول يعقوب صلوات الله عليه فى سبعين راكباً من بنيه ، ومعه أيوب النبي من بنى عيصو ، وهو أيوب بن برحما بن زبرح (١) بن رَعُويل بن عيصو ، واستقروا جميعاً بمصر ، ثم قبض يعقوب صلوات الله عليه ، لسبع عشرة سنة من مقدمه ، ولمائة وأربعين من عمره ، وحمله يوسف صلوات الله عليه إلى أرض فلسطين ، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها بإذن من فرعون ، واعترضهم بعض الكنعانيين فى طريقهم ، فأوقعوا بهم وانتهوا إلى مدفن إبراهيم وإسحق عليهما السلام فدفنوه فى المغارة عندهما ، وانتقلوا إلى مصر ، وأقام يوسف صلوات الله عليه بعد موت أبيه ومعه إخوته إلى أن أدركته الوفاة ، فقبض لمائة وعشرين سنة من عمره ، وأدرج فى تابوت وختم عليه ودفن فى بعض مجارى النيل . وكان يوسف أوصى أن يحمل عند خروج بنى إسرائيل إلى أرض الشام فيدفن هنالك ، ولم تزل وصيته محفوظة عندهم إلى أن حمله موسى صلوات الله عليه عند خروجه ببنى إسرائيل من مصر

ولما قبض يوسف صلوات الله عليه ، وبقى من بقى من الأسباط إخوته وبنيه

---

١ ـ زارح (تك ٣٦ ـ ١٣) وط (١ ـ ٦٥ ـ ١ : ١)

تحت سلطان الفراعنة بمصر تشعب نسلهم ،وتعددوا إلى أن كاثروا أهل الدولة وارتابوا بهم فاستعبدوهم . قال المسعودي : دخل يعقوب إلى مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف في سبعين راكباً، وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى صلوات الله عليه نحواً من مائتين وعشر سنين ، فتداولهم ملوك القبط والعمالقة بمصر ، ثم أحصاهم موسى في التيه ، وعد من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف ويزيدون . وقد ذكرنا ما في هذا العدد من الوهم والغلو في مقدمة الكتاب فلا نطوّل به . ووقوعه في نص التوراة لا يقضي بتحقيق هذا العدد ، لأن المقام للمبالغة ، فلا تكون أعداده نصوصاً

وكان ليوسف صلوات الله عليه من الولد كثير ، إلا أن المعروف منهم اثنان : أفرايم ومَنَشّى وهما معدودان في الأسباط ، لأن يعقوب صلوات الله عليه أدركهما وبارك عليهما وجعلهما من جملة ولده . وقد يزعم بعض من لا تحقيق عنده أن يوسف صلوات الله عليه استقل آخراً بمُلك مصر ، وينسب لبعض ضَعَفَة المفسرين . ومعتَمَدُهم في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » ولا دليل لهم في ذلك لأن كل من مَلَك شيئاً ولو في خاصة نفسه فاستيلاؤه يسمى مُلْكا ، حتى البيت والفرس والخادم ، فكيف من ملك التصرف ؟ ولو كان في شعب واحد منها فهو مُلْكٌ . وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكا مثل هَجَر ومَعَان ودُومة الجندل ، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد وفي تلك الدولة ؟ وقد كان في الخلافة العباسية تسمى ولاة الأطراف وعمالها ملوكاً فلا استدلال لهم في هذه الصيغة . وأحرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أن لا يكون لهم فيه مستند ، لأن التمكين يكون بغير الملك ، ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع في جمعه وتفريقه كما قال تعالى : « اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » ، ومساق القصة كلها أنه مرءوس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها ، لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه ، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوَهَّم الضعيف . وأيضاً فالقصة في التوراة قد وقعت صريحة في أنه لم يكن ملكا ، ولا صار

اليه ملك ، وأيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة والعصبية يدفع أن يكون حصل له مُلك ، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي اليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه ، ولا يتأتى الملك في هذا الحال . وقد تقدم ذلك في مقدمة الكتاب والله أعلم

عيصو بن إسحاق

وأما عيصو بن إسحق فسكن جبال بنى يسعين من بنى حِوِّى إحدى شعوب كنعان ، وهى جبال الشَّراة بين تَبُوك وفلسطين ، وتعرف اليوم ببلاد كَرَك والشَّوْبَك . وكان من شعوبهم هنالك على ما فى التوراة بنو لوطان وبنو شوبان وبنو صِمْعُون (١) وبنو عَنَا وبنو يُشوق وبنو يِصَد (٢) وبنو دِيسان سبعة شعوب . ومن بنى ديشون الأشبان ، فسكن عيصو بينهم بتلك البلاد ، وتزوج منهم من بنات عنا يسعين من حِوِّى وهى أهليقاما ، وتزوج أيضاً من بنات حى من الكنعانيين عَاذَا بنت إيلول (٣) وباسمت بنت إسمعيل عليه السلام . وكان له من الولد خمسة مذكورون فى التوراة ، أكبرهم أَلِيفَاز ــ بالفاء المفخمة وإشباع حركتها وزاى معجمة من بعدها ــ من عاذا بنت إيلول . ثم رَعُوِيل من باسمت بنت إسمعيل . ثم يَعُوش ويَعْلَام وقُورَح من أهليقاما (٤) بنت عَنَا . وولد أليفاز ستة من الولد : تَيْمَال وأُومَار وصَفْو وكَعْنَام وقتال (٥) وعَمَالِق السادس لسرية اسمها تِمْنَع (٦) وهى شقيقة لوطان بن يسعين . وولد رعويل بن عيصو أربعة من الولد : ناحة (٧) وزَيْدُم (٨) وشُنْبا (٩) ومرا (١٠)

هكذا وقع ذكر ولد العيص وولدهم فى التوراة ، وفيها أن العيص اسمه أرُوم (١١)

---

١ — صبعون (تك ٣٦ : ٢)
٢ — إيقر (تك ٣٦ : ٢١)
٣ — ايكون (تك ٣٦ : ٢)
٤ — أهو ليباما (تك ٣٦ : ٢)
٥ — قناز (تك ٣٦ : ١١)
٦ — تمناع (تك ٣٦ ــ ١٢)
٧ — نحث (تك ٣٦ ــ ١٣)
٨ — زارع (تك ٣٦ ــ ١٣)
٩ — الشمة (تك ٣٦ ــ ١٣)
١٠ — حزة (تك ٣٦ ــ ١٣)
١١ — أدوم (تك ٣٦ ــ ٨) وانظر ما يأتى للمؤلف فى الكلام على الرومان.

فلذلك قيل لهم بنو أرُوم . ولبعض الاسرائيليين أن أروم اسم لذلك الجبل ، ومعناه بالعبرانية الجبل الأحمر الذى لا نبات به . وقد يقع لبعض المؤرخين أن القياصرة ملوك الروم من ولد عيصو . وقال الطبرى: إن الروم وفارس من ولد رعويل بن باسمت وليس ذلك كله بصحيح . ورأيته فى كتاب يوسف بن كَرْبون مؤرخ العمارة الثانية ببيت المقدس قبيـل الجلوة الـكبرى ، وكان من كهنوتينا اليهود ، وهو قريب من الغلط .

قال ابن حزم فى كتاب الجمهرة : وكان لاسحق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب اسمه عيصاب أو عيصو ، كان بنوه يسكنون جبال الشَّراه بين الشأم والحجاز ، وقد بادوا جملة إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده ، وهذا خطأ . وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أرُوم ، فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك ، لأن الروم إنما نسبوا الى رُومُس باني رُومة . فإن ظن ظان أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لِلْجَدِّ بن قَيْس (هل لك فى جِلَادِ بنى الأصفرَ[1] العامَ) وذلك فى غزوة تَبوك ، يدل على أن الروم من بنى الأصفر ، وهو عيصاب المذكور فليس كما ظن : وقول النـبيّ صلى الله عليـه وسـلم حق ، وإنما عنى عليـه السـلام بنى عيصاب على الحقيقة ، لا الروم ، لأن مغزاه عليه الصلاة والسلام فى تلك الغزوة كان الى ناحية الشُّراة ، مسكن القوم المذكورين . اهـ كلام ابن حَزْم

وزعم أهروشيوش مؤرِّخ الروم أن أم الفينان وهاوُا وعالومُ وقَدوح ، الأربعة من بنات كاتيم بن ياوان بن يافث والأول أصح لأنه نص التوراة . ثم كثر نسل بنى عيصو بأرض يسعين وغلبوا الجوِّيين على تلك البلاد وغلبوا بنى مَدْين أيضاً على بلادهم الى أَيْلَة ، وتداول فيهم ملوك وعظماء كان منهم فالَغ بن ساعُور ، وبعده يودب بن

---

١ — خرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مروية وأبو نعيم فى المعرفة وابراهيم فى الهدى عن ابن عباس قال :

لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس « ماتقول فى مجاهدة بنى الاصفر ؟ » قال إنى أخشى ان رأيت نساء بنى الاصفر أن افتتن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه : قد أذنت لك . فنزل قوله تعالى : ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا)

زَيْدَح . ثم كان منهم هَدَّاد بن مَدَاد الذى أخرج بنى مدين عن مواطنهم . ثم كان فيهم بعده ملوك الى أن زحف يُوشَع الى الشأم وفتح أريحاء وما بعدها ، وانتزع الملك من جميع الأمم الذين كانوا هنالك . ثم استلحمهم بخْتُنَصَّر عند ما ملك أرض القدس ، ولحق بعضهم بأرض يونان ، وبعضهم بأفريقيَّة

وأما عَمالِق بن أليفَاز فمن عقبه عند الإسرائيليين عمالقة الشأم ، وفى قول فراعنة مصر من القبط . ونساب العرب يأبون ذلك ونسبوهم الى عملاق بن لاوَذ كما مر ، ثم بنو يروم وكنعان ولم يبق منهم عين تطرف ، والله الباقى بعد فناء خلقه

مدين بن إبراهيم

وأما مَدْين بن إبراهيم فتزوج بابنة لوط ، وجعل الله فى نسلها البركة ، وكان له من الولد خمسة: عَيْفَا وعَيْفين وحنُوخ وأفيداغ وألْزاعَا ، وقد تقدم ذكرهم فى ولد إبراهيم من قَنطورا ، فكان منهم مَدينُ ، أمة كبيرة ذات بطون وشعوب وكانوا من أكبر قبائل الشأم وأكثرهم عدداً ، وكانت مواطنهم تجاور أرض مَعَان من أطراف الشأم ، مما يلى الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكان لهم تَغَلُّبٌ بتلك الأرض ، فعتَوا وبغَوا وعبدوا الآلهة ، وكانوا يقطعون السبل ، ويبخسون فى المكيال . وبعث الله فيهم شُعَيْباً نبياً منهم . وهو (١) ابن نويل بن رَعُوِيل بن عيا بن مدين

قال المسعودى : مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جَندَل بن يعصب بن مدين ، وأن شعيباً أخوهم فى النسب . وكانوا ملوكا عدة يسمون بكلمات أبجد الى آخرها . وفيه نظر . وقال بن حبيب فى كتاب البدء : هو شعيب بن نويب بن أحزم بن مدين . وقال السهيلى : شُعَيْب بن عيفا ، ويقال ابن صَيْفُون ، وشعيب هذا هو شعيب موسى الذى هاجر اليه من مصر أيام القبط ، واستأجره على إنكاح ابنته إياه على أن

---

١ — وقع اختلاف بين العلماء بل اضطراب فى نسب شعيب هذا كما أومأ لذلك ط (١ — ١٦٧) الذى نسب لأهل التوراة انهم يقولون « شعيب بن صيفون بن عنقا بن ثابت بن مدين » ونقل عن بن اسحاق انه يقول شعيب بن ميكائيل وقد انتقد فى د (١ — ١٨٥) ماعزاه ط لابن اسحاق قال : « ويقال شعيب بن يسخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين ، وفى م (١ — ٦٣) « شعيب بن نويت بن عويل بن مدين ابن عنقاء بن مدين بن ابراهيم »

يخدمه ثماني سنين. وأخذ عنه آداب الكتاب والنبوة ، حسبما يأتي عند ذكر موسى صلوات الله عليهما ، وأخبار بني إسرائيل

وقال الطبرى : الذى استأجر موسى وزوّجه هو يثر بن رَعْوِيل ، ووقع فى التوراة أن اسمه يبثر(١) ، وأن رعويل أباه أو عمه هو الذى تولى عقد النكاح . وكان لمدين هؤلاء مع بنى إسرائيل حروب بالشأم ، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً

لوط بن هاران

وأما لوط بن هاران أخى ابراهيم عليهما السلام ، فقد تقدم من خبره مع قومه ما ذكرناه هنالك ، ولما نجا بعد هلاكهم لحق بأرض فَلَسْطين ، فكان بها مع إبراهيم الى أن قبضه الله ، وكان له من الولد على ما ذكر فى التوراة عَمُّون ، بتشديد الميم وإشباع حركتها بالضم ونون بعدها ، ومُوآبي ، بإشباع ضمة الميم وإشباع فتحة الهمزة بعدها وباء تحتية وبعدها ياء ساكنة هوائية . وجعل الله فى نسلهما البركة حتى كانوا من أكثر قبائل الشأم ، وكانت مساكنهم بأرض البَلْقاء ومدائنها فى بلد مُوآبي ومَعَان وما والاهما ، وكانت لهم مع بنى إسرائيل حروب نذكرها فى أخبارهم ، وكان منهم بَلْعَام بن باعور بن رسيوم ؟ بن برسيم ؟ بن موآبي ، وقصته مع ملك كنعان حين طلبه فى الدعاء على بنى إسرائيل أيام موسى صلوات الله عليه ، وأن دعاءه صرف الى الكنعانيين ، مذكورة فى التوراة ، ونوردها فى موضعها(٢)

ناحور أخو ابراهيم

وأما ناحور أخو ابراهيم عليه السلام فقد تقدم ذكره أنه هاجر مع ابراهيم عليه السلام من بابل إلى حَرَّان ، ثم إلى الأرض المقدسة ، فكان معه هنالك وكانت زوجته مِلْكا بنت أخيه هاران . ومِلْكا هذه هى أخت سارة ، زوج ابراهيم عليه السلام وأم اسحق ، وكان لناحُور من مِلْكا على ماوقع فى نص التوراة ثمانية من الولد : عُوص ، وبُوص وقَمُوِيل ، وهو أبو الأرمن ، وكاسد(٣) ومنه

---

١ ـ فى كد ، يثرون :

٢ ـ أنظر كد (عد ص ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤)

٣ ـ كاسد (تك ـ ٢٢ ـ ٢٢)

الـكَسْدَانيون الذين كان منهم بُختَنَصَّر وملوك بابل ، وحَذْو ، وبِلدَاس ويِدلاف(١) ويشُوِيل : وكان له من سُرِّية اسمها أدُوما (٢) أربعة من الولد وهم : طَابَحَ وكاحَمْ وتَاخَشْ وماعخا . هؤلاء ولد ناحور أخى ابراهيم كلهم مذكورون فى التوراة وهم اثنا عشر ولداً ، وهؤلاء كلهم بادوا وانقرضوا ولم يبق منهم إلا الأرمن ، من قَمُويل ابن ناحور أخى ابراهيم عليه السلام ابن آزر ، وهم لهذا العهد على دين النصرانيـة ، ومواطنهم فى إرمينية شرق القُسْطَنطِينية . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . (٣)وهـذا آخر الـكلام فى الطبقـة الأولى من العرب ومن عاصرهم من الأمم . ولنرجع إلى أهل الطبقة الثانية . وهم العرب المستعربة . والله سبحانه وتعالى الـكفيل بالاعانة

---

١ — يدلاف (تك — ٢٢ — ٢٢)
٢ — رؤمة (تك — ٢٢ — ٢٤)
٣ — لم يتكلم المؤلف على زمن شعيب وهلاك مدين . وكذلك القرآن لم ينص عليه ولـكن القلقشندى فى الصبح يقول ان ذلك كان على عهد آحاز أحد ملوك يهودا الذين وجدوا بعد داود وسليمان والمذكورين فى الاصحاح السادس من سفر القضاة .

عمود أولاد ابراهيم

سـام
أرفخشذ
سالخ
عابر
فالغ
ارعو
ساروغ
ناحور

- هاران
  - سارة بنت (١)
- تارح
  - ناحور
    - كاحم
    - ماعخا
    - تاخش
    - بوص
    - عوص
    - كاشد
    - حذو
    - قويل
      - أرمن
    - بلداس
    - يلداف
    - يثويل
    - طالح
  - هاران
    - لوط
      - موآبى
      - عمون
    - ملكا
    - ساره
  - ابراهيم
    - اسماعيل
      - ذوما
      - مشمع
      - مبسام
      - أدبيل
      - قيذار
      - ثابت
      - مسا
      - حراه
      - قيما
      - بطور
      - نافس
      - قدما
    - إسحاق
      - عيصو
        - قورح
        - أقيداع
        - أليفاز
          - عمايق
          - قتال
          - أومار
          - تيمال
          - صفو
          - كمشام
        - يعوش
        - رعويل
      - يعقوب
        - دان
        - بنيامين
        - روبين
        - شمعون
        - لاوى
        - يهوذا
        - زبولون
        - يوسف
          - أفرايم
          - منشا
        - يساخر
        - تاد
        - آيش
        - نفتالى
    - مدين
      - أفيداع
      - عيفا
      - عيفين
      - أزاغا
      - حنوخ
    - شوح
    - زمران
    - مدان
    - إشتق
    - يقشان
      - داذان
        - لأميم
        - أشورين
        - لطوسيم
      - سبا
    - تيرخ

«١» سارة بنت هاران على قول « مؤلف »

العرب المستعربة

الطبقة الثانية من العرب ، وهم العرب المستعربة ، وذكر أنسابهم وأيامهم وملوكهم والالمام ببعض الدول التي كانت على عهدهم

وإنما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم ، لأن السِّمات والشعائر العربية لما انتقلت اليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة ، بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم ، وهى اللغة العربية التى تكلموا بها : فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم : استَنْوَقَ الجمل واستَحْجَرَ الطين . وأهل الطبقة الاولى لما كانوا أقدم الأمم فيما يعلم جيلا ، كانت اللغة العربية لهم بالإصالة ، وقيل العاربة .

واعلم أن أهل هذا الجيل من العرب يعرفون باليَمَنِية والسَّبائية . وقد تقدم أن نسابة بنى اسرائيل يزعمون أن أباهم سَبَأ من ولد كُوش بن كنعان ، ونسابة العرب يأبون ذلك ويدفعونه . والصحيح الذى عليه كافتهم أنهم من قحطان ، وأن سَبَأ هو ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان . وقال ابن اسحق : يَعْرب بن يَشْجُب ، فقدم وأخر . وقال ابن ماكولا ، على ما نقل عنه السهيلى : اسم قحطان مِهْزَم . وبين النسابة خلاف فى نسب قحطان : فقيل هو ابن عابرَ بن شالَخ بن أرْفَخشَذْ بن سام أخو فالَغ ويَقْطَن ، ولم يقع له ذكر فى التوراة ، وإنما ذكر فالغ ويقطن . وقيل هو معرب يقطن لانه اسم أعجمى ، والعرب تتصرف فى الاسماء الاعجمية بتبديل حروفها وتغييرها وتقديم بعضها على بعض . وقيل إن قحطان ابن يَمن بن قِيدَار ، وقيل إن قحطان من ولد اسمعيل . وأصح ما قيل فى هذا : أنه قحطان بن يمن بن قيدر ، ويقال: الهَمَيْسَعْ بن يمن بن قِيدَار ، وإن يمن هذا سميت به اليمن . وقال ابن هشام : أن يعرب بن قحطان كان يسمى يمنا ، وبه سميت اليمن . فعلى القول بأن قحطان من ولد اسمعيل تكون العرب كلهم من ولده ، لان عدنان وقحطان يستوعبان شعوب العرب كلها . وقد احتج لذلك من ذهب اليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم

قال لرماة [1] الأنصار : « ارموا يابنى اسمعيل فإن أباكم كان رامياً » والأنصار من ولد سبأ ، وهو ابن قحطان . وقيل إنما قال ذلك لقوم من أسلم من أقصى إخوة خزاعة بن حارثة ، بناء على أن نسبهم فى سبأ . وقال السهيلى : ولا حجة فى شىء منهما لأنه إذا كانت العرب كلها من ولد اسمعيل [2] [لم يكن لتخصيص هؤلاء القوم بالنسب إلى اسمعيل معنى ، لان غيرهم من العرب أيضاً أبوهم اسمعيل] فهذا من السهيلى جنوح إلى القول بمفهوم اللقب وهو ضعيف . ثم قال : والصحيح أن هذا القول إنما كان منه صلى الله عليه وسلم لأسلم كما قدمناه ، وإنما أراد أن خزاعة من معد بن إلياس بن مضر ، وليسوا من سبأ ولا من قحطان ، كما هو الصحيح فى نسبهم على ما يأتى

واحتجوا أيضاً لذلك بأن قحطان لم يقع له ذكر فى التوراة كما تقدم ، فدل على أنه ليس من ولد عابر فترجح القول بأنه من اسمعيل . وهذا مردود بما تقدم أن قحطان معرب يقطن . وهو الصحيح وليس بين الناس خلاف فى أن قحطان أبو اليمن كلهم

ويقال إنه أول من تكلم بالعربية ، ومعناه من أهل هذا الجيل الذين هم العرب المستعربة من اليمنية ، وإلا فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة ، ومنهم تعلم قحطان تلك اللغة العربيـة ضرورة ، ولا يمكن أن يتكلم بها من ذات نفسه . وكان بنو قحطان هؤلاء معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ، ولم يزالوا مجتمعين فى مجالات البادية ، مبعدين عن رتبة الملك وترفهه ، الذى كان لأولئك ، فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذى يسوق اليه الترف والنضارة ، فتشعبت فى أرض الفضا فصائلهم ، وتعدد فى جو القفر أفخاذهم وعشائرهم ، ونما

---

١ — رواه البخارى فى كتاب الجهاد عن سلمة بن الأكوع الأسلمى قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إرموا يابنى اسماعيل، فان أباكم كان راميا ؛ إرموا، وأنا مع أبى فلان قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالكم لا ترمون ؟ قالوا كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم إرموا فأنا معكم كلكم . وقد خرجه البخارى أيضا فى أحاديث الأنبياء ومناقب قريش وخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة وقال فيه : إرموا وأنا مع ابن الأدرع

٢ — الزيادة من ضب

عددهم وكثرت إخوانهم من العمالقة فى آخر ذلك الجيـل ، وزاحموهم بمناكبهم ، واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم ، وكانت الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم

يعرب بن قحطان

وكان يَعْرُب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ، يقال إنه أول من حياه قومه بتحية الملك ، قال ابن سعيد : وهو الذى ملك بلاد اليمن وغلب عليهـا قوم عاد ، وغلب العمالقة على الحجـاز وولى إخوته على جميع أعمـالهم : فولى جُرْهماً على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشِّحْر وحَضْرَمَوْت بن قحطان على جبـال الشحر وعُمَان ابن قحطان على بلادِ عُمَان هكذا ذكـر البيهقى . وقال ابن حزم : ولد لقحطان عشرة من الولد وانه لم يعقب منهم أحد ، ثم ذكر ابنين منهم دخلوا فى حمير ثم ذكر الحرث بن قحطان وقال : فولد فيما يقال له لاسـور وهم رهط حنظلة ابن صَفْوان ، نبي الرَّسِّ ، والرس مابين نجران إلى اليمن ومن حضرموت إلى اليمامة ثم ذكر يعرب بن قحطان وقال فيهم الحميرية والعداد . انتهى

قال بن سعيد :وملك بعد يعرب ابنه يشجُب وقيل اسمه يمن ، واستبد اعمامه بما فى أيديهم من الممالك ، وملك بعده ابنه عبد شمس وقيل عابر ،ويسمي سبا ، لأنه قيل إنه أول من سن السبي وبنى مدينة سبأ وسد مأرِب ، وقال صاحب (١) التيجان إنه غزا الأقطار ، وبنى مدينـة عين شمس بإقليم مصر وولى عليها ابنـه بَابِليون ، وكان لسبأ من الولد كثير ، وأشهرهم حمير وكهلان اللذان منهما الأمتان العظيمتان من اليمنية أهل الـكثرة والملك والعز ، وملك حمير منهم أعظمه . وكان منهم التبابعة كما يذكر فى أخبارهم

وعد ابن حزم فى ولده زَيْدَان وابنه نَجْرَان بن زيدان ، وبه سميت البـلد . ولمـا هلك سَبأ قام بالملك بعده ابنه حمير ، ويعرف بالعَرَنْجَج . وقيـل هو أول من تتوج بالذهب ، ويقال إنه ملك خمسين سنة . وكان له من الولد ستة فيما قال السهيلى: واثل ومالِك وزَيْد وعَامِر وعَوْف وسَعْد

وقال أبو محمـد بن حزم : الهَمَيْسَع ومالك وزيد وواثل (٢) ومَسْرُوح

---

١ — أنظره ص ٤٩ وما بعدها طبعة حيدر أباد

٢ — واثل هنا بالثاء ووقع فى كتاب التيجان بالهمزة (وائل) ص ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٣

ومَعْدِيكَرِب وأوْس ومُرّه . وعاش فيما قال السهيلى : ثلثمائة سنة ، وملك بعده ابنه واثل ، وتغلب أخوه مالك بن حمير على عُمان ، فكانت بينهما حروب . وقال ابن سعيد : إن الذى ملك بعد حمير أخوه كهلان ، ومن بعده واثل بن حمير ، ثم من بعد واثل السَّكْسَك بن واثل . وكان مالك بن حمير قد هلك وغلب على عمان بعده ابنه قُضَاعة ، فحاربه السَّكْسَك وأخرجه عنها ، وملك بعده ابنه يَعْفُر بن السكسك ، وخرجت عليه الخوارج وحاربه مالك بن الحافِ بن قضاعة ، وطالت الفتنة بينهما . وهلك يَعْفُر وخلّف ابنه النعمان حملا ، ويعرف بالمُعَافِر (١) واستبد عليه من بنى حمير مَارَان بن عَوْف بن حمير ، ويعرف بذى رِياش ، وكان صاحب البحرين ، فنزل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاعة ، ولما كبر النعمان حبس ذارِياش ، واستبد بأمره ، وطال عمره . وملك بعده ابنه أسحَم (٢) بن المعافر ، فاضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف الى أن استقر فى الرائش وبنيه التبابعة ، كما نذكره ، ويقال إن بنى كهلان تداولوا الملك مع حِمْيَر هؤلاء ، وملك منهم جَبّارُ بنُ غالب * كهلان ، وملك أيضاً من شعوب قحطان نجران بن زيد ابن يَعْرُب بن قحطان ، وملك من حمير هؤلاء ، ثم من بنى الهَمَيْسَع بن حمير أَبْيَن ابن زُهَيْر بن الغَوْث بن أبين (٣) بن الهميسع ، واليه نسب عرب أَبْيَن من بلاد اليمن ، وملك منهم أيضاً عبد شمس بن واثل بن الغوث بن حيران (٤) بن قَطَن بن عُرَيب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير ، ثم ملك من أعقابه شداد بن المِلْطَاط ابن عمرو بن ذى هرم بن الصُّوار (٥) بن عبد شمس وبعده أخوه لقمان ثم أخوهما

---

١ — المعافر سمى بذلك لبيت قاله وهو :

إذا أنت عافرت الأمور بقدرة … بلغت معالى الاقدمين المقاول

ومقتضى هذا انه بضم الميم أنظر التيجان ص ٦٣ وكذلك ضبط فى ش (٥ — ٢٠) وضبطه ياقوت بالفتح قال : وهو اسم قبيلة من اليمن وهو معافر بن يعفور » ٨ — ٩٢

٢ — فى ش ٥ — ٢٠ اسحح وفى ابن الوردى كذلك أيضا

* — ابن زيد

٣ — فى ش ٥ — ٢٠ أيمن

٤ — فى ش ٥ — ٢٠ « حيدان » بالدال بدل الراء

٥ — فى ج صوان بالنون بدل الراء وصححناه من ش (٥ — ٢١) وق (٢—٧٣) .

ذوشدد وهوذ ومرائد (١) وبعده ابنه الصعب ، ويقال إنه ذو القرنين ، وبعده أخوه الحرث بن ذى شدد ، وهو الرائش جد الملوك التبابعة ، وملك فى حمير أيضاً من بنى الهميسع من بنى عبد شمس هؤلاء ، حسان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي فى كتاب الأنساب : ونقلتُه من أصل عتيق بخط القاضى المحدث أبي القاسم بن عبد الرحمن بن حبيش ، قال : ذكر الكلبي عن رجل من حمير من ذى الكلاع . قال : أقبل قيس يحرق موضعاً باليمن ، فأبدى عن أزج فدخل فيه ، فوجد سريراً عليه رجل ميت وعليه جبابُ وشى مذهبة فى رأسه تاج ، وبين يديه محجن من ذهب ، وفى رأسه ياقوتة حمراء ، وإذا لوح مكتوب فيه : « بسم الله ربّ حمير أنا حسان بن عمرو القيل* مات فى زمان هيد وما هيد (٢) ، هلك فيها اثنا عشر ألف قبيل ، فكنت آخرهم قبيلا ، فابتنيت ذا شعبين ليجيرني من الموت فأخفرني » اه كلامه . وقال الطبرى : وقيل إن أول من ملك اليمن من حمير شمر بن الأملوك ، كان لعهد موسى عليه السلام وبنى ظفار ، وأخرج منها العمالقة ، ويقال كان من عمال الفرس على اليمن

انتهى الكلام فى أخبار حمير الأولى والله سبحانه وتعالى ولى العون

١ — فى ج وهداد ومدائر والتصحيح من ش (٥ — ٢٠)

٢ — هى أيام موتان كانت فى الجاهلية الاولى

* القبيل فى ش ٥٢ (٢٠ « وصح » وكذا ابن الوردى) ١ — ٥٧ ابن اسحاق الرتانى ابنه بن زهير

عمود العرب المستعربة

- قحطان
  - «١» يعرب
    - «٢» يشجب
      - «٣» عبد شمس
        - «٥» كهلان
          - زيد
            - غالب
              - جبار
        - زيدان
          - نجران
            - عوف
              - باران
            - «٦» وائل
              - «٧» السكسك
                - «٨» يعفر
                  - «٩» المعافر
                    - «١٠» أسحم
                      - الغوث
                        - وائل
                          - عبد شمس
                            - جشم
                              - معاوية
                                - قيس
                                  - عمرو
                                    - حسان
                            - الصوار
                              - ذو هرم
                                - عمرو
                                  - الملطاط
                                    - شداد
                                    - لقمان
                                    - ذو شدد
                                      - الصعب
                                      - الحارث
        - «٤» حمير
          - مالك
            - قضاعة
              - إلحاف
                - مالك
          - الهميسع
            - أيمن
              - الغوث
                - زهير
                  - عريب
                    - قطن
                      - حيران
                  - أيمن

ملوك التبابعة من حمير

الخبر عن ملوك التبابعة من حمير

وأوليتهم باليمن ومصاير أمورهم

هؤلاء الملوك من ولد عبد شمس بن وائل بن الغَوْث باتفاق من النسابين ، وقد مرّ نسبه إلى حِمْـيَر ، وكانت مدائن ملوكهم صنعاء ومأرب ، على ثلاث مراحل منها ، وكان بها السدّ ، ضربته بِلقيس ملكة من ملوكهم سدًّا ما بين جبلين بالصخر والقار ، فحقنت به ماء العيون والأمطار ، وتركت فيه خروقاً على قدر ما يحتاجون اليه فى سقيهم . وهو الذى يسمى العَرِم والسِّـكْر ، وهو جمع لا واحد له من لفظه . قال الجعدى :

من سَبَأ الحاضرين مأرِبَ إذ * يبنون من دون سَيْلِهِ العَرِما (١)

أى السدّ ، ويقال إن الذى بنى السدّ ، هو حِمْـيَر أبو القبائل اليمنية كلهـا . قال الأعشى :

فنى ذاك للمُؤتَسِي أُسْوَةٌ * ومأرِبُ عَفَّى عليه العَرِم

رُخامٌ بَناهُ لهمْ حِمْـيَرٌ * إذا جاء مَنْ رامهُ لم يَرِم

وقيل بناه لقمان الأكبر بن عاد ، كما قاله المسعودى ، وقال : جعـله فرسخاً فى فرسخ ، وجعل له ثلاثين شِعباً ، وقيـل ، وهو الأليق والأصوب ، إنه من بناء سَبَأ بن يَشْجُب ، وإنه ساق اليه سبعين واديا ، ومات قبل إتمامه فأتمه ملوك حِمْـيَر من بعده

وإنمـا رجحناه لأن المبانى العظيمة ، والهيا كل الشامخة ، لا يستقل بها الواحد كما قدمنا فى الكتاب الأول ، فأقاموا فى جنـاته عن اليمين والشمال ، كما وصف القرآن ، ودولتهم يومئذ أوفر ما كانت ، وأترف ، وأبذخ ، وأعلى يداً ، وأظهر ، فلما طغوا وأعرضوا ، سلط الله عليهم الخُلْد ، وهو الجُرَذ فنقبه من أسفله ، فأجحفهم السيل وأغرق جناتهم ، وخربت أرضهم ، وتمزق ملكهم ، وصاروا أحاديث .

وكان هؤلاء التبابعـة ملوكا عدّة ، فى عصور متعاقبة ، وأحقاب متطاولة ، لم

---

١ — هذا البيت نسبه فى ض (١ — ١٥) لأمية بن أبى الصلت وكذلك بن هشام قال : « ويروى للنابغة الجعدى »

يضبطهم الحصر ، ولا تقيدت منهم الشوارد . وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم ، من العراق ، والهند والمغرب تارة ، ويقتصرون على يمنهم أخرى فاختلفت أحوالهم ، واتفقت أسماء كثير من ملوكهم ، ووقع اللبس فى نقل أيامهم ودولهم . فلنأت بما صح منها متحريا جهد الاستطاعة ، عن طموس من الفكر ، أقتفاء التقاييد المرجوع اليها ، والأصول المعتمد على نقلها ، وعدم الوقوف على أخبارهم مدونة فى كتاب واحد . والله المستعان

قال السهيلى « معنى تُبّع : الملك المتبع » وقال صاحب المحكم « التبابعة : ملوك اليمن واحدهم تبع ، لأنهم يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام آخر تابعاً له فى سيرته » وزادوا الباء فى التبابعة لارادة النسب . قال الزمخشرى : « قيل لملوك اليمن التبابعة لانهم يتبعون ، كما قيل ، الأقيال لانهم يتقيلون » . قال المسعودى : « ولم يكونوا يسمون الملك منهم تُبَّعاً حتى يملك اليمن والشّحْر وحَضْرَمَوت ،وقيل حتى يتبعه بنو جُشَم بن عبد شمس.ومن لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكا ، ولا يقال له تبع »

أول ملوك التبابعة الحرث الرائش

وأول ملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين الحرث الرائش وإنما سمى الرائش لأنه راش الناس بالعطاء . واختلف الناس فى نسبه بعد اتفاقهم على أنه من ولد وائل ابن الغوث بن حيران بن قطن بن عُرَيب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير ، فقال ابن إسحاق وأبو المنذر ابن الكلبى(١) أن قيساً بن معاوية بن جشم، فابن إسحق يقول فى نسبه إلى سبا: الحرث بن عدى بن صيفى. وابن الكلبي يقول: الحرث بن قيس ابن صَيْفى ، وقال السهيلى هو الحرث بن همال بن ذى سدد بن الملطاط بن عمرو بن

---

١ — لايضاح كلام المؤلف يجب أن تعرف أن لهم فى هذا العمود سبأين : سبأ الأكبر وهو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، راجع ابن الوردى (١— ٥١) وسبأ الاصغر وهو قيس بن معاوية بن جشم . راجع الشجرة الثانية عند المؤلف ص ٦٧ وابن سبأ الاصغر هو صفير والد عدى أو قيس على اختلاف ابن إسحاق وابن الكلبي ؛ فيكون نسب الرائش على هذا : الحرث بن عدى (أو قيس) بن صفير بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث الخ وعلى ما للسهيلى ماذكره المؤلف فيكون الواقع ان المؤرخين اتفقوا على ان الرائش من ولد وائل

ذى أُبينَ بن ذى يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل ، وُجَشَم جد سبأ هو ابن عبد شمس هذا عند المسعودى وعند بعضهم أنه أخوه وأنهما معاً إبنا وائل وذكر المسعودى عن عبيد (١) ابن شَرِيَّة الجُرْهمى ، وقد سأله معاوية عن ملوك اليمن فى خبر طويل ونسب الحرث منهم فقال: «هو الحرث بن شدد (٢) بن الملطاط بن عمرو » وأما الطبرى فاختلف نسبه فى نسب الحرث ، فمرة قال : وبيت ملك التبابعة فى سبأ الاصغر ونسبه كما مر ، وقال فى موضع آخر : والحرث بن ذى شدد هو الرائش جد الملوك التبابعة . فجعله إلى شَدَد ولم ينسبه إلى قيس ولا عَدِى من ولد سبأ ، وكذلك اضطرب أبو محمد بن حزم فى نسبه فى الجمهرة مرة إلى الملطاط ، ومرة إلى سبا الأصغر والظاهر أنه تبع فى ذلك الطبرى . والله أعلم

وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمسا وعشرين سنة ، وكان يسمى تُبَّعاً وكان مؤمناً ، فيما قال السهيلى

أبرهة ذو المنار

ثم ملك بعده ابنه أَبرَهَة ذو المنار مائة وثمانين سنة ، قال المسعودى ، وقال ابن هشام: أبرهة ذو المنار هو بن الصَعْب بن ذى مداثر بن الملطاط ، وسمى ذا المنار لانه رفع المنار ليهتدى به ، ثم ملك من بعده إفْرِيقش بن أَبرَهة مائة وستين سنة ، وقال ابن حزم ، هو إفريقش بن قيس بن صَيْفى أخو الحرث الرائش وهو الذى ذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت . وساق البربر اليها من أرض كنعان مر بها عند ماغلبهم يوشع وقتلهم ، فاحتمل الفَل منهم وساقهم إلى إفريقية فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير ويقال انه الذى سمى البرابرة بهذا الاسم لانه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم ! فسموا بالبرابرة . والبربرة فى لغة العرب هى اختلاط أصوات غير مفهومة ، ومنه بربرة الأسد

---

١ — كتاب عبيد هذا طبع فى حيدر اباد سنة ١٣٤٧ مع كتاب التيجان فى ملوك حمير الذى ينقل عنه المؤلف أحياناً بتصحيح كرنكو ونصه فى هذا المحل ص ٤٠٠ : « الحرث بن ذى شدد ابن عمرو بن الملطاد بن عمرو بن قطن بن زهير بن عريب بن إيمن بن الهميسع بن حمير بن سبا فانظر مع نقل المسعودى الذى قلده المؤلف

٢ — قال فى التيجان ص ٧٨ « وذوشدد بلغة حمير كقولك ذو شطط » وهو عند المؤلف تارة بالسين وتارة بالشين

ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة. فهم إلى الآن بها وليسوا من نسب البربر. قاله الطبرى والجرجانى والمسعودى ، وابن الكلبي والسهيلى وجميع النسابين .

العبد بن أبرهة ذو الأذعار

ثم ملك من بعد إفريقش أخوه العبد بن أبرهة وهو ذو الاذعار عند المسعودى قال: سمى بذلك لكثرة ذعر الناس من جوره .وملك خمسا وعشرين سنة .وكان على عهد سليمان بن داود وقبله بقليل.وغزا ديار المغرب.وسار اليه كيقاوس بن كنعان ملك فارس فبارزه وانهزم كيقاوس وأسره ذو الاذعار حتى استنقذه بعد حين من يده وزيره رستم. زحف اليه بجموع فارس إلى اليمن، وحارب ذا الاذعار فغلبه واستخلص كيقاوس من أسره، كما نذكره فى أخبار ملوك فارس.وقال الطبرى : ان ذا الاذعار اسمه عمرو بن أبرهة ذى المنار بن الحرث الرائش بن قيس بن صيفى بن سبأ الاصغر إنتهى . وكان مهلك ذى الاذعار فيما ذكر ابن هشام مسموماً على يد الملكة بلقيس

الهدهاد بن شرحبيل

وملك من بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذى الاذعار،وهو ذو الصرح وملك ستا أو عشرا فيما قال المسعودى ، وملكت بعده ابنته بلقيس سبع سنين .

بلقيس

وقال الطبرى: إن اسم بلقيس يلقمة بنت اليشرح بن الحرث بن قيس . انتهى.ثم غلبهم سليمان عليه السلام على اليمن كما وقع فى القرآن ، فيقال تزوجها ، ويقال بل عزلها فى التأيم، فتزوجت سدد بن زرعة بن سبأ . وأقاموا فى ملك سليمان وابنه أربعا وعشرين سنة

ناشر بن عمرو

ثم قام بملكهم ناشر بن عمرو ذى الاذعار ، ويعرف بناشر النعم ، لفظين مركبين جعلا اسماً واحداً . كذا ضبطه الجرجانى ، وقال السهيلى: ناشر بن عمرو ، ثم قال:ويقال ناشر النعم ، وفى كتاب المسعودى نافس بن عمرو ، ولعله تصحيف ونسبه إلى عمرو ذى الاذعار ، وليس يتحقق فى هذه الانساب كلها أنها للصلب ، فان الآماد طويلة، والأحقاب بعيدة ، وقد يكون بين اثنين منهما عدد من الآباء ، وقد يكون ملصقاً به ، وقال هشام بن الكلبي : ان ملك اليمن صار بعد بلقيس إلى ناشر بن عمرو ابن يعفر الذى يقال له ياسر أنعم ، لإنعامه عليهم بما جمع من أمرهم ، وقوى من ملكهم . وزعم أهل اليمن أنه سار غازياً إلى المغرب فبلغ وادى الرمل، ولم يبلغه أحد

ولم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل ، وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا ، فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادي ، وكتب في صدره بالخط المسند : هذا الصنم لياسر أنعم الحميري ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب . انتهى .

شمر مرعش

ثم ملك بعد ياسر هذا ابنه شَمِرْ مَرْعش ، سمي بذلك لارتعاش كان به . ويقال إنه وطئ أرض العراق وفارس وخراسان ، وافتتح مدائنها ، وخرّب مدينة الصُّغْد وراء جَيْحُون ، فقالت العجم ، « شَمِرْ كَنْد » ، أي شَمِرْ خرّب . وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا ، وعرّبته العرب فصار سمرْقنْد . ويقال إنه الذي قاتل قُباذ ملك الفُرْس وأسره ، وأنه الذي حيّرَ الحيرَة . وكان ملكه مائة وستين سنة . وذكر بعض الاخباريين أنه ملك بلاد الروم ، وأنه الذي استعمل عليهم ماهان قَيْصر فهلك ، وملك بعده ابنه دقْيُوس . وقال السهَيْلي في شَمِرِ مَرْعَش الذي سميت به سمرقند إنه شَمِرُ بن مالك ، ومالك هو الأملوك الذي قيل فيه :

فنَقِّبْ عَن الأملوكِ واهتِفْ بذِكْرِهِ * وَعِشْ جَارَ عِزٍّ لا يُغالبهُ الدّهرُ (١)

وهذا غلط من السهَيْلي ، فانهم مجمعون على أن الأملوك كان لعهد موسى صلوات الله عليه ، وشمر من أعقاب ذي الأذعار الذي كان على عهد سليمان ، فلا يصح

---

١ — هذا البيت من قصيدة لحجية بن المضرب يمدح يعفر بن زرعة أحد الاملوك أملوك ردمان وهي :

إذا كنت سئآلا عن المجد والعلا	وأين العطاء الجزل والنائل الغمر
فنقب عن الاملوك واهتف بذكره	وعش جار عز لايغالبه الدهر
أولئك قوم شيد الله فخرهم	فما فوقه فخر وان عظم الفخر
أناس إذا ما أظلم الدهر وجهه	فأيديهم بيض وأوجههم زهر
يصونون أحسابا ومجداً مؤثلا	ببذل أكف دونها المزن والبحر
سموا في المعالي رتبة فوق رتبة	أحلتهم حيث النعائم والنسر
أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت	لنورهم الشمس المنيرة والبدر
فلو لامس الصخر الاصم أكفهم	لفاضت ينابيع الندى ذلك الصخر
ولو كان في الارض البسيطة منهم	لمختبط عاف لما عرف الفقر
شكرت لكم ولاءكم وبلاءكم	وما ضاع معروف يكافئه شكر

أثبتها في الأمالي أبو علي القالي « ١ — ٥٣ » طبع دار الكتب المصرية بروايته عن أبي بكر عن عمر عن أبيه عن ابن الكلبي .

ذلك إلا أن يكون شمر أبرهة ويكون أول دولة التبابعة

تبع الأقرن

ثم ملك على التبابعة بعد شمر مرعش تُبَّع الأقرَن واسمه زيد . قال السهيلي: وهو ابن شمر مرعش . وقال الطبري : إنه ابن عمرو ذى الأذعار . وقال السهيلي : إنما سمى الأقرن لشامة كانت فى قرنه ، وملك ثلاثاً وخمسين سنة . وقال المسعودى ثلاثاً وستين سنة ثم ملك من بعده ابنه كُلَيْكَرِب وكان مستضعفاً ولم يغز قط إلى أن مات

تبان أسعد

وملك بعده ابنه تُبَّان أسعَدَ أبو كرَب ويقال هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة . وعند الطبرى أن الذى ملك بعد ياسر يُنْعِم بن عمرو ذى الأذعار تبع الأقرن أخوه . ثم بعد تبع الأقرن شَمِر مرعش بن ياسر ينعم ، ثم من بعده تبع الأصغر وهو تبان أسعد أبو كرِب ، هذا هو تبع الآخر ، وهو المشهور من ملوك التبابعة . وقال الطبرى : ويقال له الرائد وكان على عهد يَستاسب وحافده أردَشير بَهمَن ابن ابنه إسفَنْدِيار من ملوك الفرس ، وإنه شَخَص من اليمن غازياً ، ومر بالحيرة فتحير عسكره هنالك ، فسمي الحيرة ، وخلف قوماً من الأَزْد ولَخم وجُذام وعَامِلة وقُضَاعة ، فأقاموا هنالك وبنوا الآطام ، واجتمع اليهم ناس من طيئ(١) وكلب والسَّكون وإياد والحرث بن كعب . ثم توجه إلى الأنبار ثم الموصل ثم أذرَبيجان ، ولقى الترك فهزمهم وقتل وسبى . ثم رجع الى اليمن ، وهابته الملوك ، وهادنه ملوك الهند . ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسان الى الصُّغْد ، وابنه يَعفُر الى الروم ، وابن أخيه شمر ذا الجناح الى الفرس ، وإن شمر لقى كَيقُباذ ملك الفرس فهزمه ، وملك سَمرقَند وقتله وجاز الى الصين فوجد أخاه حسان قد سبقه اليها ، فأثخنا فى القتل والسبي ، وانصرفا بما معهما من الغنائم الى أبيهما . وبعث ابنه يعفر الى القُسْطَنْطينية فتلقوه بالجزية والإتاوة ، فسار الى رومة وحصرها ، ووقع الطاعون فى عسكره ، فاستضعفهم الروم ووثبوا عليهم فقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد . ثم رجع الى اليمن ، ويقال إنه ترك ببلاد الصين قوماً من حمير ، وإنهم بها لهذا العهد ، وإنه ترك ضعفاء الناس بظاهر الكوفة ، فتحيروا هنالك وأقاموا معهم من كل قبائل العرب

١ — فى ج « طيرة » والتصحيح من ط (٢ — ٣) و ك (١ — ٩٥) وب (٣—٥١٣)

وقال ابن إسحق : إن الذى سار الى المشرق من التبابعة ، تُبعٌ الآخر ، وهو تُبَّان أسعد أبو كرب بن مَلِكِيْكَرِب بن زيد الأقرن بن عمرو ذى الأذعار ، وتبان أسعد هو حسان تبع ، وهوفيما يقال أول من كسا الكعبة . وذكر ابن إسحق المُلَاء والوَصَائِل (١) ، وأوصى ولاته من جُرْهم بتطهيرها ، وجعل لها باباً ومفتاحاً. وذكر ابن إسحق أنه أخذ بدين اليهودية . وذكر فى سبب تهوّده أنه لما غزا الى المشرق مر بالمدينة يَثْرب فملكها ، وخلف ابنه فيهم فعدوا عليه وقتلوه غيلة،ورئيسهم يومئذ عمرو بن الطُّلَّة من بنى النجار ، فلما أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة مجمعاً على خرابها ، فجمع هذا الحى من أبناء قَيْلة لقتاله فقاتلهم ، وبينما هم على ذلك جاءه حَبْرانِ من أحبار يهود من بنى قُرَيظة ، وقالا له : لا تفعل فانك لن تقدر ، وانها مُهاجَر نبي قريشى يخرج آخر الزمان ، فتكون قراراً له . وإنه أُعْجِب بهما واتبعهما على دينهما . ثم مضى لوجهه ، ولقيه دون مكة نفر من هُذَيل وأغروه بمال الكعبة وما فيها من الجواهر والكنوز ، فنهاه الحبران عن ذلك ، وقالا له : إنما أراد هؤلاء هلاكك ، فقتل النفر من الهذليين ، وقدم مكة فأمره الحبران بالطواف بها والخضوع ، ثم كساها كما تقدم ، وأمر ولاتها من جرهم بتطهيرها من الدماء والحيض وسائر النجاسات ، وجعل لها باباً ومفتاحاً . ثم سار إلى اليمن ، وقد ذكر قومه ما أخذ به من دين اليهودية ، وكانوا يعبدون الأوثان ، فتعرضوا لمنعه ، ثم حاكموه الى النار التى كانوا يتحاكمون اليها ، فتأكل الظالم وتدع المظلوم ، وجاؤا بأوثانهم ، وخرج الحبران متقلدين المصاحف ودخل الحميريون فأكلتهم وأوثانهم وخرج الحبران منها ترشح وجوههم وجباههم عرقاً ، فآمنت حمير عند ذلك وأجمعوا على اتباع اليهودية . ونقل السهيلى عن ابن قتيبة فى هذه الحكاية : أن غَزَاة تُبَّع هذه إنما هى استصراخة أبناء قيلة على اليهود ، فانهم كانوا نزلوا مع اليهود حين أخرجوهم من اليمن على شروط ، فنقضت عليهم اليهود فاستغاثوا بتبع ، فعند ذلك قدمها . وقد قيل إن الذى استصرخه أبناء قيلة على اليهود إنما هو أبو جبَلة من ملوك غَسَّان بالشأم ، جاء به مالك بن عَجْلان ، فقتل اليهود بالمدينة، وكان

---

٢ — الملاء جمع ملاءة والوصائل جمع وصيلة وهو ثوب مخطط يمان

من الخزرج ، كما نذكر بعد . ويعضد هذا أن مالك بن عجلان بعيد عن عهد تبع بكثير ، يقال إنه كان قبل الاسلام بسبعمائة سنة ، ذكره ابن قتيبة . وحكى المسعودى فى أخبار تبع هذا : أن أسعد أبا كرب سار فى الأرض ، ووطأ الممالك وذللها ووطئ أرض العراق فى ملك الطوائف ، وعميد الطوائف يومئذ خرداد بن سابور فلقى ملكا من ملوك الطوائف اسمه قباذ ، وليس قباذ بن فيروز ، فانهزم قباذ ، وملك أبو كرب العراق والشأم والحجاز . وفى ذلك يقول تبع أبو كرب :

إذ حسينا جيادنا من دماء ثم سرنا بها مسيراً بعيدا
واستبحنا بالخيل خيل قباذ وابن إقليد جاءنا مصفودا
وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء منضدا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا

وقال أيضاً :

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل فى سواد العراق
أو تؤدى ربيعة الخرج قسرا لم يعقها عوائق العواق

وقد كانت لكندة معه وقائع وحروب حتى غلبهم حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة ، من ملوك كهلان ، فدانوا له ورجع أبو كرب الى اليمن فقتله حمير . وكان ملكه ثلثمائة وعشرين سنة

ربيعة بن نصر ابن الحرث

ثم ملك من بعد أبى كرب هذا ، فيما قال ابن اسحق : ربيعة بن نصر بن الحرث ابن نمارة بن لخم ، ولخم أخو جذام . وقال ابن هشام : ويقال ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر ، كان أبو حارثة تخلف باليمن بعد خروج أبيه ، وأقام ربيعة بن نصر ملكا على اليمن بعد هؤلاء التبابعة الذين تقدم ذكرهم ، ووقع له شأن الرؤيا المشهورة

رؤيا ربيعة

قال الطبرى عن ابن اسحق عن بعض أهل العلم : إن ربيعة بن نصر رأى رؤيا هالته ، وفظع بها ، وبعث فى أهل مملكته فى الكهنة والسحرة والمنجمين وأهل العيافة ، فأشاروا عليه باستحضار الكاهنين المشهورين لذلك العهد فى إياد وغسان ،

وهما شِق وسَطِيح ، قال الطبرى : شِق[1] بن صعب بن يشكر من رُهم ابن أفرك ابن نذير بن عنفز بن أنمار ، وسطيح هو رَبيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذِيب ابن عدى بن مازن بن غسان ، ولوقوع اسم ذيب فى نسبه كان يعرف بالذيبى ، فأحضرهما وقص عليهما رؤياه وأخبراه بتأويلها ، أن الحبشة يملكون بلاد اليمن من بعد ربيعة وقحطان بسبعين سنة ، ثم يخرج عليهم ابن ذى يزَن من عدن فيخرجهم ويملك عليهم اليمن ، ثم تكون النبوة فى قريش فى بنى غَالب بن فِهر . ووقع فى نفس ربيعة أن الذى حدثه به الكاهنان من أمر الحبشة كائن ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سَابور بن خُرّداذ ، فأسكنهم الحيرة ، ومن بيت ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة وهو النعمان بن المنذر ابن عمرو بن عَدِى بن ربيعة بن نَصر ، قال ابن اسحق : ولما هلك ربيعة بن نصر اجتمع ملك اليمن لحسان بن تُبَان أسعَد أبى كَرِب . قال السهيلى : وهو الذى استباح طَسْماً كما ذكرناه ، وبعث على المقدمة عبدَ كهلاَن بن يَثرب بن ذِى حرب بن حَارث بن ملك بن عبدان بن حُجر بن ذى رُعين واسم ذى رعين يريم وهو ابن زيد الجمهور ، وقد مرّ نسبه إلى سَبأ الأصغر وقال السهيلى : « فى أيام حسان تُبَّع كَان خروج عمرو بن مُزَيْقِيا من اليمن بالازد » وهو غلط من السهيلى لأنَ أبا كَرِب أباه إنما غزا المدينة ، فيما قال هو ، صريخا للأوس والخزرج على اليهود وهو من غسان ونسبه إلى مُزَيْقيا . فعلى هذا يكون الذى استصرخه الأوس والخزرج على اليهود ، إنما هو من ملوك غسان كما يأتى فى أخبارهم ، قال ابن اسحق : ولما ملك حسان بن تبع بن تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب والعجم كما كانت التبابعة تفعل ، فكرهت حِمْيرُ وقبائل اليمن السير معه ، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم فكلموا أخاً له كان معهم فى العسكر يقال له عمرو ، وقالوا له أقتل أخاك نملكك وترجع بنا إلى بلادنا ، فتابعهم على ذلك وخالفه ذو رُعين فى ذلك ونهى عمرا عن ذلك فلم يقبل وكتب فى صحيفة وأودعها عنده :

حسان بن تبان

---

١ — فى ج : شق هذا أبو صعب بن شكر بن وهب بن أحول بن يزيد بن قيس عبقر بن أنمار . والتصحيح من ط (٢ — ٩٩)

أَلاَ مَنْ يَشْترِى سَهَراً بِنَوْمٍ؟ سَعِيدٌ مَن يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ
فَإِمَّا حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمَعْذِرَةُ الإِلَهِ لِذِي رُعَيْنِ

ثم قتل عمرو أخاه بعرصة لخم وهى رحبة مالك بن طَوْق ورجع إلى اليمن فَمُنِعَ النوم وسلط عليه السهر ، وأجهده ذلك فشكى إلى الأطباء عدم نومه والكهان والعرافين ، فقالوا : ماقتل رجل أخاه إلا سُلط عليه السهر ! فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه ولم يغنه ذلك شيئاً ، وهمَّ بذي رُعَين فذكر شعره ، فكانت فيه معذرته ونجاته ، وكان عمرو هذا يسمى مَوْثَبان ، قال الطبرى : لوثوبه على أخيه ، وقال ابن قتيبة لقلة غزوه ولزومه الوثب على الفراش . وهلك عمرو هذا لثلاث وستين سنة من ملكه .

مروج أمر حمير ووثوب عبد كلال

قال الجرجاني والطبرى: ثم مرج أمر حمير من بعده وتفرقوا، وكان ولد حسان تبع صغاراً لا يصلحون للملك ، وكان أكبرهم قد استهوته الجن فوثب على ملك التبابعة عبد كُلال موثباً ، فملك عليهم أربعا وتسعين سنة ، وكان يدين بالنصرانية

تبع الاصغر

ثم رجع ابن حسان تبع من استهواء الجن فملك على التبابعة ، قال الجرجاني: ملك ثلاثا وسبعين سنة ، وهو تبع الاصغر ذو المغازى والآثار البعيدة ، قال الطبرى: وكان أبوه حسان تبع قد زوج بنته من عمرو بن حُجْر آكل المُرار ، ابن عمرو بن معاوية من ملوك كندة ، فولدت له ابنه الحرث بن عمرو ، فكان ابن تبع بن حسان هذا فبعثه على بلاد معدّ ، وملك على العرب بالحيرة مكان آل نصر بن ربيعة ، قالوا انعقد الصلح بينه وبين كَيْقُباد ملك فارس، على أن يكون الفرات حدّاً بينهم ، ثم أغارت العرب بشرقى الفرات ، فعاتبه على ذلك ، فقال لا أقدر على ضبط العرب إلا بالمال والجند فأقطعه بلاداً من السواد ، وكتب الحرث إلى تبع يغريه بملك الفُرس ، وتضعيف أمر كيقباد ، فغزاهم . وقيل ان الذي فعل ذلك هو عمرو بن حُجْر أبوه الذى ولاه تبع أبو كرب ، وأنه أغراه بالفرس واستقدمه إلى الحيرة ، فبعث عساكره مع ولده الثلاثة إلي الصُّغْد والصين والروم ، وقد تقدم ذكر ذلك .

مدثر وليعة

قال الجرجاني : ثم ملك بعد تبع بن حسان تبع أخوه لأمه وهو مَدْثَر (١) ابن عبد كُلال ، فملك إحدى وأربعين سنة ، ثم ملك من بعده ابنه وَلِيعة (٢) ابن مدثر سبعا وثلاثين سنة ، ثم ملك من بعده أبرهة بن الصَّبّاح بن لهيعة بن شيبة ابن مدثر قيلف (٣) بن يعلق بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن ذى أصبح الحرث بن مالك ، أخو ذى رعين وكعب أبو سبا الاصغر ، قال الجرجاني : وبعض الناس يزعم ان أبْرَهة بن الصَّبّاح إنما ملك تِهامة فقط .

حسان بن عمرو لخنيعة

قال ثم ملك من بعده حسان بن عمرو بن تبع بن كَلِيكَيْكَرِب* سبعا وخمسين سنة ، ثم ملك لخنْيعة (٤) ولم يكن من أهل بيت المملكة ، قال ابن اسحق : ولما ملك لخنَيْعة غلب عليهم ، وقتل خيارهم ، وعبث برجالات بيوب المملكة منهم ، قيل انه كان ينكح ولدان حمير ، يريد بذلك أن لا يملكوا عليهم ، وكانوا لا يملكون عليهم من نكح ، نقله ابن اسحق وقال : أقام عليهم مملكاً سبعا وعشرين سنة .

ذو نواس

ثم وثب عليه ذُو نُواس زُرْعة تبع بن تبان أسعد أبي كرب وهو حسان (٥) ذو معاهر فيما قال ابن اسحق وكان صبياً حين قتل حسان ، ثم شب غلاماً جميلا ذا هيئة وفضل ووضاءة ، ففتك بِلَخنْيعَة فى خلوة أراده فيها على مثل فعلاته القبيحة ، وعلمت به حمير وقبائل اليمن فملكوه ، واجتمعوا عليه ، وجدد ملك التبابعة وتسمى يوسف ، وتعصب لدين اليهودية . وكانت مدته ، فيما قال ابن اسحق : ثمانية وستين سنة .

---

١ — هكذا هنا مدثر وفى ابن الوردى (١ — ٥٩) بتقديم الثاء ومثله فى ش (٥ — ٢٤) وق وقد تركناه كما عند المؤلف لانه دائماً يستعمل ذا مداثر بدل مراثد مخالفا غيره . ومعنى ذى مراثد ذو أياد . وذو مرثد ذو يد

٢ — هكذا هنا وليعة وفى ابن الوردى (١ — ٥٨) وم (٤ — ٥) «وكيعة» وفى كتاب التيجان ص ٣٠٠ « ربيعة بن مرثد »

٣ — هكذا فى ج ووقع فى ش (٥ — ٢٤) « أبرهة » بن الصباح ابن لهيعة بن شيبة بن مرثد بن نيف بن معديكرب بن عبد الله بن عمر بن ذى أصبح الحرث بن مالك » فليحرر

٤ — هكذا ذكره فى ق مادة شنتر وهو الذى عند ابن دريد وفى مادة لخع سماه لخيعة بن ينوف

٥ — فى ج تبع بن تبان أسعد أبى كرب وهو حسان أبو ذى معاهر . والتصحيح من التيجان و ش

* كليكرب

إلى هنا انتهى ترتيب أبي الحسن الجرجاني . ثم قال : وقال آخرون : ملك بعد إفريقش بن أبرهة قيس بن صيفي ، وبعده الحرث بن قيس بن مَيّاس ، ثم ماء السماء بن نمروه ، ثم شرحبيل وهو يصحب بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد ابن عوف بن على بن الهمّال بن المنثلم بن جهيم ، ثم الصعب بن قرين بن الهمّال بن المنثلم ، ثم زيد بن الهمّال ، ثم ياسر بن الحرث بن عمرو بن يعفر ، ثم زهير بن عبد شمس أحد بنى صيفي بن سبإ الأصغر ، وكان فاسقاً مجرماً يفتض أبكار حمير حتى نشأت بلقيس بنت اليشرح بن ذى جدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي فقتلته غيلة ، ثم ملكت ، ولما أخذها سليمان ملك لمك بن شرجبيل ، ثم ملك ذو ودَاعَ فقتله ماليكرب * بن تبع بن الأقرن ، وهو أبو ملك ، ثم هلك ، فملك أسعد بن قيس بن زيد بن عمرو ذى الأذعار بن أبرهة ذى المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي بن سبإ ، وهو أبو كرب ، ثم ملك حسان ابنه ، فقتله عمرو أخوه . ووقع الاختلاف فى حمير ووثب على عمرو لخنيعة ينوف ذو الشناتر وملك . ثم قتله ذو نواس بن تبع وملك اه كلام الجرجاني

قيس بن صيفي والحرث بن قيس ومن بعده في ترتيب بعض المؤرخين

وزعم ابن سعيد ، ونقله من كتب مؤرخي المشرق : أن الحرث الرايش هو ابن ذى شدد ، ويعرف بذى مداثر * ، وأن الذي ملك بعده ابنه الصعب ، وهو ذو القرنين ، ثم ابنه أبرهة بن الصعب ، وهو ذو المنار ، ثم العبد ذو الأشفار ابن أبرهة بن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ، ثم قتلته بلقيس . قال فى التيجان : إن حمير خلعوه وملكوا شرحبيل بن غالب بن المنتاب بن زيد بن يعفر بن السكسك بن وائل ، وكان بمأرب فجازبه ذو الأذعار ، وحارب ابنة الهدهاد بن شرحبيل من بعده ، وابنته بلقيس بنت الهدهاد الملكة من بعده ، فصالحته على التزويج وقتلته ، وغلبها سليمان عليه السلام على اليمن ، إلى أن هلك وابنه رحبعم * من بعده

ترتيب ابن سعيد

---

* مليكرب
* مراثد
* طبعم

واجتمعت حمير من بعده على مالك بن عمرو بن يَعْفُرُ بن عمرو بن حمير بن المنتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير ، وملك بعده ابنه شَمِرْ يُرْعِش، وهو الذى خرب سَمَرقند . وملك بعده ابنه صَيْفى بن شَمِرْ على اليمن وسار أخوه إفريقش بن شمر إلى إفريقية بالبربر وكنعان فملكها . ثم انتقل المُلْكُ إلى كهلان ، وقام به عِمران بن عامر ماء السماء بن حارثة امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزْدِ ، وكان كاهناً . ولما احتُضِر عهد إلى أخيه عمرو بن عامر المعروف بمزَيْقيا وأعلمه بخراب سدّ مأرِب وهلاك اليمن بالسيل فخرج من اليمن بقومه ، وأصاب اليمن سيلُ العَرِم ، فلم ينتظم لبنى قحطان بيعته ، واستولى على قصر مأرب من بعده ربيعة بن نصر ، ثم رأى رؤيا وتَذر بملك الحبشة ، وبعث ولده الى العراق، وكتب إلى سابور الأشْغاني فأسكنهم الحيرة ، وكثرت الخوارج باليمن ، فاجتمعت حمير على أن تكون لأبي كَرِب ، أسعد بن عَدِى بن صيفى ، فخرج من ظَفَار ، وغلب ملوك الطوائف باليمن ، ودوخ جزيرة العرب ، وحاصر الأوْسَ والخزْرَج بالمدينة ، وحمل حمير على اليهودية ، وطالت مدته وقتلته حمير ، وملك بعده ابنه حسان الذى أباد طَسْما ، ثم قتله أخوه عمرو بمداخلة حمير ، وهلك عمرو فملك بعده أخوه لأبيه عبد كُلَال بن مَثْوَب . وفى أيامه خلع سابور أكتاف العرب ، وملك بعده تبع بن حسان ، وهو الذى بعث ابن أخيه الحرث بن عمرو الكندى إلى أرض بنى معدّ بن عدنان بالحجاز ، فملك عليهم . وملك بعده مَرْثَد بن عبد كُلال ، ثم ابنه وليعة ، وكثرت الخوارج عليه ، وغلب أبرهة بن الصَّبَّاح على تِهامة اليمن ، وكان فى ظَفَار ، دار التبابعة، حسان بن عمرو بن أبي كرب ، ثم وثب بعده على ظفار ذو شَناتر ، وقتله ذو نواس كما مر . هذا ترتيب بن سعيد فى ملوكهم

ترتيب المسعودى

وعند المسعودى أنه لما هلك كُلَيْكَرِب بن تبع المعروف بالأقرن قال : وهو الذى سار قومه نحو خُراسان والصغد والصين ، وولى بعده حسان بن تبع، فاستقام له الأمر خمساً وعشرين سنة ، ثم قتله أخوه عمرو بن تبع وملك أربعاً وستين سنة ، ثم تُبَّع أبو كرب ، وهو الذى غزا يثرب وكسا الكعبة ، بعد أن أراد هدمها ومنعه الحبران من اليهود، وتهود وملك مائة سنة ، ثم بعده عمرو بن تبع أبي كرب ، وخلع، وملكوا

مرثد بن عبد كلال ، واتصلت الفتن باليمن أربعين سنة ، ومن بعده وليعة بن مرثد تسعاً وثلاثين سنة ، ومن بعده أبرهة بن الصبّاح بن وليعة بن مرثد ، ويدعى شيبة الحمد ، ثلاثا وتسعين سنة ، وكانت له سير وقصص ، ومن بعده عمرو ذو قيفان ، تسع عشرة سنة ، ومن بعده لختيعة ذو شناتر ، ومن بعده ذو نواس

بعض مغايرة عن ابن الكلبي والطبري وابن حزم

وأما ابن الكلبي والطبري وابن حزم فعندهم أن تبع أسعد أبي كرب ، هو ابن كليكرب بن زيد الأقرن ، بن عمرو بن ذي الأذعار ، بن أبرهة ذي المنار الرايش ابن قيس بن صيفي بن سبإ الأصغر . وقال السهيلي : إنه أسقط أسماء كثيرة وملوكا وقال ابن الكلبي وابن حزم : ومن ملوك التبابعة إفريقش بن صيفي ، ومنهم شمر يرعش بن ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار . ومنهم بلقيس ابنة اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث الرايش بن قيس بن صيفي . ثم قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التبابعة : وفي أنسابهم اختلاف وتخليط ، وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة ، ولا يصح من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم الا طرف يسير لاختلاف رواتهم وبعد العهد اهـ

نقد الطبري لتاريخ اليمن

وقال الطبري : (١) * لم يكن لملوك اليمن نظام ، وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكا على مخلافه لا يتجاوزه ، وان تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة ، من غير أن يرث ذلك الملك عن آبائه ، ولا يرثه أبناؤه عنه ، إنما هو شأن شذّاذ* المتلصصة ، يغيرون على النواحي باستغفال أهلها ، فاذا قصدهم الطلب لم يكن لهم ثبات وكذلك كان أمر ملوك اليمن ، يخرج أحدهم من مخلافه بعض الأحيان ، ويبعد في الغزو والإغارة فيصيب ما يمر به ، ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفاً إلى مكانه ، من غير أن يدين له أحد من غير مخلافه بالطاعة أو يؤدي اليه خراجا اهـ

---

١ — جاء في ابن الوردي نقلا عن صاحب تواريخ الأمم : ليس في التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير ، لما يذكر فيه من كثرة عدد سنيهم مع قلة عدد ملوكهم ، فانهم يزعمون أن ملوكهم ستة وعشرون ملكا ، ملكوا في مدة ألفين وعشرين سنة ثم ملك اليمن بعدهم من الحبشة والفرس ثمانية ، ثم صارت اليمن للاسلام . ونقله في (١ — ٩٨٠) .

* القرطي

** شراد

الخبر عن ذي نواس وما بعده

وأما الخبر عن ذى نواس وما بعده : فاتفق أهل الأخبار كلهم أن ذا نُوَاس هو ابن تبان أسعد ، واسمه زُرْعة ، وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة تَسَمَّى يوسف ، وتعصب لدين اليهودية ، وحمل عليه قبائل اليمن ، وأراد أهلَ نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ، ولهم فضل فى الدين واستقامة ، وكان رئيسهم فى ذلك يسمى عبدَ الله بن الثَّامر ، وكان هذا الدين وقع اليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين ، من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له مَيْمون ، نزل فيهم ، وكان مجتهداً فى العبادة ، مجاب الدعوة ، وظهرت على يده الكرامات فى شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده ، وتبعه على دينه رجل من أهل الشأم اسمه صالح ، وخرجا فارين بأنفسهما ، فلما وطئا بلاد العرب اختطفهما سيارة ، فباعوهما بنجران وهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم ، ويعلقون عليها فى الأعياد من حليهم وثيابهم ، ويعكفون عليها أياماً ، وافترقا فى الدير على رجلين من أهل نجران ، وأعجب سيد ميمون صلاتُه ودينُه ، وسأله عن شأنه ، فدعاه الى الدين وعبادة الله ،وأن عبادة النخلة باطل ، وأنه لو دعا معبوده عليها هلكت ، فقال له سيده : إن فعلت دخلنا فى دينك فدعا ميمون فأرسل الله ريحاً فَجَعَفَتِ النخلة من أصلها ، وأطبق أهل نجران على اتباع دين عيسى صلوات الله عليه ، ومن رواية ابن إسحق أن ميمون نزل بقرية من قرى نجران ، وكان يمر به غلمان أهل نجران يتعلمون من ساحر كان بتلك القرية ، وفى أولئك الغلمان عبدُ الله بن الثامر ، فكان يجلس الى ميمون ويسمع منه ، فآمن به واتبعه وحصل على معرفة اسم الله الأعظم ، فكان مجاب الدعوة لذلك ، واتبعه الناس على دينه ، وأنكر عليه ملك نَجْرَان وهمَّ بقتله ، فقال له : لن تطيق حتى تؤمن وتوحد ، فآمن ثم قتله . فهلك ذلك الملك مكانه ، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وأقام أهل نجران على دين عيسى صلوات الله عليه حتى دخلت عليهم فى دينهم الأحداث ، ودعاهم ذو نواس إلى دين اليهودية فأبوا ، فسار اليهم فى أهل اليمن وعرض عليهم القتل ، فلم يزدهم إلاّ جماحا ، فخدَّد لهم الأخاديد ، وقتل وحرق حتى أهلك منهم ، فيما قال ابن اسحق ، عشرين ألفاً او يزيدون ، وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوْس ذو ثُعْلُبان ، فسلك الرمل على فرسه وأعجزهم

ملك الحبشة في اليمن

ملك الحبشة

في اليمن

قال هشام بن محمد الكلبي في سبب غزو ذي نواس أهل نجران : أن يهوديا كان بنجران فعدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلماً ، فرفع أمره إلى ذي نواس ، وتوسل اليه باليهودية واستنصره على أهل نجران ، وهم نصارى ، فحمى له ولدينه وغزاهم . ولما أفلت دوس ذو ثعلبان فقدقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره * على ذي نواس ، وأعلمه بما ركب منهم ، وأراه الانجيل قد احترق بعضه بالنار ، فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره ، وطلب بثأره . وبعث معه النجاشي سبعين ألفاً من الحبشة ، وقيل إن صريخ دوس كان أولا للنجاشي ، وأنه اعتذر اليه بقلة السفن لركوب البحر ، وكتب إلى قيصر ، وبعث اليه بالانجيل المحرق ، فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة ، وأمّر عليهم أرياطا ، رجلا منهم ، وعهد اليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم ، فخرج أرياط لذلك ومعه أبرهة الأشرم ، فركبوا البحر ، ونزلوا ساحل اليمن ، وجمع ذو نواس حمير ومن أطاعه من أهل اليمن ، على افتراق واختلاف في الأهواء ، فلم يكن كبير حرب وانهزموا ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه ، وجه بفرسه إلى البحر ، ثم ضربه فدخل فيه وخاض ضحضاح البحر ، ثم أفضى به إلى غمرة فأقحمه فيه فكان آخر العهد به

ووطئ أرياط اليمن بالحبشة وبعث إلى النجاشي بثلث السبي كما عهد له ، ثم أقام بها فضبطها وأذل رجالات حمير ، وهدم حصون الملك بها مثل سلميس وبينون وغمدان

وقال ذو يزن يرثي حمير وقصور الملك باليمن:

---

* يستصرخه

هَوْ نك ليس يردُّ الدَّمعُ مافاتا   لا تَهْلِكنْ أسفاً فى إثر من ماتا (١)
أبعدَ يَنُونَ لا عينٌ ولا أثرٌ   وبعدَ سَلْحينَ يبنى الناسُ أبياتا ؟

وفى رواية هشام بن محمد الكلبي : أن السفن قَدِمت على النجاشي من قيصر فحمل فيها الجيش ونزلوا بساحل اليمن ، و ستجاش ذو نواس بأقيال حِمْير فامتنعوا من صريخه ، وقالوا كل أحد يقاتل عن ناحيته ، فألقى ذو نواس باليد ، ولم يكن قتال ، وأنه سار بهم إلى صنعاء ، وبعث عماله فى النواحى لقبض الأموال ، وعهد بقتلهم فى كل ناحية فَقتلوا . وبلغ ذلك النجاشى ، فجهز إلى اليمن سبعين ألفاً ، وعليهم أبرهة ، فبلغوا صنعاء ، وهرب ذو نواس ، واعترض البحر فكان آخر العهد به . وملك أبرهة اليمن ، ولم يبعث إلى النجاشى بشىء ، وذكر له أنه خلع طاعته ، فوجه جيشا من أصحابه عليهم أَرْياط . ولما حل بساحته دعاه إلى النصفة والنزال فتبارزا وخدعه أبرهة ، وأكمن عبداً له فى موضع المبارزة ، فلما التقيا ضربه أرياط فشرم أنفه ، وسمى الأشرم ، وخالفه العبد من الكمين فضرب أرياطا فأنفذه . وبلغ النجاشى خبر قتل أرياط ، فحلف ليريقنّ دمه ، ثم كتب اليه أبرهة واسترضاه ، فرضى عليه وأقره على عمله

وقال ابن اسحق : إن أرياطا هو الذى قَدِم اليمن أولاً وملكه وانتقض عليه أبرهة من بعد ذلك ، فكان ماذكرنا من الحرب بينهما وقتل أرياط وغضب النجاشى لذلك ، ثم أرضاه واستبد أبرهة بملك اليمن . ويقال إن الحبشة لما ملكوا اليمن أمَّروا* أبرهة

---

١ — هكذا هذا الشطر عند المؤلف وكذلك فى هش . وفى ط (٢ — ١٠٧) :
« هونك ليس يرد الدمع ما فاتا   لا تهلكى أسفا فى ذكر من ماتا »
وفى ض (١ — ٣٧) « هونك لن يرد الدمع ما فاتا » قال : « هكذا روى هذا القسم ناقصا . قاله البرق . وقد روى عن ابن إسحق من غير رواية هش « هونكما لن يرد » وهو من باب قول العرب للواحد افعلا وهو كثير فى القرآن . وأما البيت التالى فقد كان فى ج كما يلى :
« أبعد سون فلا عين ولا أثر   وبعد سلجيق يبنى الناس أبياتا »
وصححناه بناء على رواية هش و ط و ض أيضا وعلى أن سلحين و ينون هما الحصنان المبنيان مع غمدان كما فى (يا) ووقع له فى غمدان (٦ — ٣٠٢) رواية البيت هكذا :
« هل بعد غمدان أو سلحين من أثر   أو بعد ينون يبنى الناس أبياتا »
* أمر عليهم ابرهة

ا بن الصباح ، وأقاموا فى خدمته ، قاله ابن سلاّم. وقيل إن ملك حمير لما انقرض أمر التبابعة صار متفرقا فى الاذواء من ولد زيد الجمهور ، وقام بملك اليمن منهم ذو يَزَن من ولد مالك بن زيد ، قال ابن حزم: واسمه عَلَس بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور ، وقال ابن الكلبي وأبو الفرج الأصبهاني : هو عَلَس بن الحرث بن زيد بن الغوث ابن سعد بن عَوْف بن عَدِيّ بن مالك بن زيد الجمهور ، قالوا كلهم : ولما ملك ذو يزن بعد مهلك ذي نُواس واستبدّ أمر الحبشة على أهل اليمن ، طالبوهم بدم النصارى الذين فى أهل نجران ، فساروا اليه وعليهم أرْياط ، ولقيهم فيمن معه فانهزم واعترض البحر فأقحم فرسه وغرق ، فهلك بعد ذى نواس ، وولى ابنه مرثد ابن ذى يزن مكانه ، وهو الذى استجاشه أمرؤ القيس على بنى أسد ، وكان من عقب ذى يزن أيضاً من هؤلاء الأذواء عَلْقَمَة ذو قيفان ابن شُراحيل بن ذِى يَزَن * وملك مدينة الهُون ، فقتله أهلها من هَمْدان اه .

ولما استقر أبرهة فى ملك اليمن أساء السير فى حمير ورؤسائهم ، وبعث فى رَيْحانة بنت علقمة بن مالك بن زيد بن كَهْلان فانتزعها من زوجها أبي مُرَّة بن ذى يزن وقد كانت ولدت منه إبنه مَعْد يكرب ، وهرب أبو مرة ولحق بأطراف اليمن واصطفى أبرهة رَيْحانة ، فولدت له مسروق بن أبرهة وأخته بَسْباسة ، وكان لأبرهة غلام يسمى (١) عَتْوَدَة ، وكان قد ولاه الكثير من أمره ، فكان يفعل الأفاعيل حتى عدا عليه رجل من حمير أو خَثْعم فقتله وكان حليماً فأهدر دمه

غزو الحبشة الكعبة

غزو الحبشة الكعبة

ثم ان أبرهة بنى كنيسة بصنعاء تسمى القَلِيس لم ير مثلها ، وكتب إلى النجاشى بذلك ، والى قَيْصر فى الصناع والرخام والفُسَيْفساء ، وقال لست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب ، وتحدث العرب بذلك ، فغضب رجل من السادة أحد بنى فُقَيم ،

١ — فى ج « عمودة » والتصحيح من ط(٢ — ١٠٩) فقد جاء فيه : « انا عتودة » من فرقة أرده لا أب ولا أم يجده » هش عن ابن اسحق وض عن ط قال: « والعتودة السعدة فى الحرب » وليس فى ق ولا فى اللسان ولا فى الأساس هذا الحرف بهذا المعنى فليحقق

* جدن

ثم أحد بنى مالك ، وخرج حتى أتي القَلّيس ، فقعدفيها ، ولحق بأرضه؛وبلغ أبرهة، وقيل له: الرجل من البيت الذى يحج اليه العرب ، لحلف ليسيرن اليه يهدمه ، ثم بعث فى النـاس يدعوهم إلى حج القَلَيس ، فضرب الداعى فى بلاد كنانة بسهم فقتل ، وأجمع أبرهة على غزو البيت وهدمه ، لخرج سائراً بالحبشة ، ومعـه الفيـل ، فلقيه ذو نَفْر الحِمْيرى وقاتله فهزمه ، [ثم عرض له مقتل بن حبيب الخثعمى فيمن اجتمع له فهزمه وأسره خ] واستبقـاه دليـلا فى أرض العرب ، قال ابن إسحق : ولما مر بالطائف خرج اليـه مَسْعود بن مُعتِب فى رجال ثَقِيف فأتوه بالطاعة وبعثوا معـه أبا رِغَال دليلا فأنزله المُغَمَّس، بين الطائف ومكة ، فهلك هنالك ، ورجمت العرب قبره من بعد ذلك قال جرير :

إذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فارْجمُوهُ ... كما تَرْمُون قَبْرَ أَبِي رِغَالِ

ثم بعث أبرهة خيلا من الحبشة فانتهوا إلى مكة واستاقوا أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب وهو يومئذ سـيد قريش ، فهموا بقتاله ، ثم علموا أن لا طاقة لهم به فأقصروا.وبعث أبرهة حناطة الحِميرى إلى مكة يعلمهم بمقصده من هدم البيت، ويؤذنهم بالحرب ان اعترضوا دون ذلك ، وأخبر عبد المطلب بذلك عن أبرهة ، فقـال له : والله ما نريد حربه ! وهذا بيت الله ، فان يمنعه فهو بيته ، وان يخلّ عنه فما لنا نحن من دافع ! ثم انطلق به إلى أبرهة ومر بذى نفر وهو أسير فبعث معه إلى سائس الفيل وكان صديقاً لذى نفر . فاستأذن له على أبرهة ، فلما رآه أجله ونزل عن سريره لجلس معه على بساطه ، وسأله عبد المطلب فى الأبل فقال له أبرهة:هلا سألت فى البيت الذى هو دينك ودين آبائك وتركت البعير ؟! فقال عبد المطلب : أنا رب الابل ، وللبيت رب سيمنعه ! فردّ عليه إبله . قال الطبري : وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب (١) عمرو بن نفاشة بن عدى بن الدئل سـيد كنانة وخُوَيْلِدُ بن وائلة سيد هُذَيل ، وعرضوا على أبرهة ثلث أموال تِهامة ويرجع عن هدم البيت فأبى عليهم فانصرفوا ، وجاء عبد المطلب ، وأمر قريشاً بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها ، ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة الباب ، ومعه نفر من قريش

١ — فى ج « عمر بن معاوية بن عدى بن الرمل سيد كنانة » والتصحيح من ط

يدعون الله ويستنصرونه ، وعبد المطلب ينشد ويقول :

لَاهُمَّ إنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَه فَامْنَعْ رِحَالَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ * وَمِحَالُهُمْ أَبَداً مِحَالَكْ
وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ * وعابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ

فى أبيات معروفة ، ثم أرسل الله عليهم الطير الأبابيل من البحر ترميهم بالحجارة فلا تصيب أحداً منهم إلا هلك مكانه ، وأصابه فى موضع الحجر من جسده كالجدرى والحصبة ، فهلك وأصيب أبرهة فى جسده بمثل ذلك ، وسقطت أعضاؤه عضواً عضواً ، وبعثوا بالفيل ليقدم على مكة فربض ولم يتحرك فنجا ، وأقدم فيل آخر فحصب ، وبعث الله سيلاً مجحفاً فذهب بهم وألقاهم فى البحر ، ورجع أبرهة إلى صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فانصدع صدره عن قلبه ومات .

ملك يكسوم ابن أبرهة

ولما هلك أبرهة ملك مكانه ابنه يكْسُوم وبه كان يكنى ، واستفحل ملكه وأذل حمير وقبائل اليمن ، ووطئتهم الحبشة فقتلوا رجالهم ، ونكحوا نساءهم واستخدموا أبناءهم ، ثم هلك يكسوم بن أبرهة ، فملك مكانه أخوه مَسْرُوق وساءت سيرته

ملك مسروق ابن أبرهة

وكثر عسْفُ الحبشة باليمن ، فخرج ابن ذِى يزَن واستجاش عليهم بكسرى ، وقدم اليمن بعساكر الفرس وقتل مسروقاً وذهب أمر الحبشة بعد أن توارث ملك اليمن منهم أربعة فى ثنتين وسبعين سنة ، أولهم أرياط ثم أبرهة ثم ابنه يكسوم ، ثم أخوه مسروق بن أبرهة .

سيف بن ذى يزن وملك الفرس

قصة سيف بن ذى يزن

وملك الفرس على اليمن

ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيفُ بن ذى يزَن الحمْيَرى من الأذْواء بقية ذلك السلف ، وعقب أولئك الملوك ودَيّال الدولة الموقظ للخمود وقد كان أبرهة انتزع منه زوجته ريحانة ، بعد أن ولدت منه ابنه مَعدِيكرب كما مرّ ونسبه فيما قال ابن الكلبي : سيفُ بن ذى يزَن بن عافِر بن أسلَم بن زيد بن سعد ابن عوف بن عَدِى بن مالك بن زيد الجمهور . هكذا نسبه ابن الكلبي . ومالك

ابن زيد هو أبو الأذواء . فخرج سيف وقدم على قيصر ملك الروم ، وشكى اليه أمر الحبشة وطلب أن يخرجهم ويبعث على اليمن من شاء من الروم، فلم يسعفه عن الحبشة . وقال : الحبشة على دين النصارى [وأنتم على دين اليهود — خ] فرجع إلى كسرى ، وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر ، عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب ، فشكى اليه ، واستمهله النعمان إلى حين وفادته على كسرى ، وأوفد معه وسأله النصر على الحبشة ، وأن يكون ملك اليمن له . فقال : بعدت أرضك عن أرضنا ، أوهى قليلة الخير . إنما هى شاة وبعير ، ولا حاجة لنا بذلك . ثم كساه وأجازه فنثر دنانير الاجازة ، ونهبها الناس ، يوهم الغنى عنها بما فى أرضه ، فأنكر عليه كسرى ذلك . فقال : جبال أرضى ذهب وفضة . وإنما جئت لتمنعنى من الظلم فرغب كسرى فى ذلك ، وأمهله للنظر فى أمره . وشاور أهل دولته فقالوا : فى سجونك رجال حبستهم للقتل . ابعثهم معه ، فان هلكوا كان الذى أردت بهم ، وإن ملكوا كان ملكا ازددته الى ملكك . وأحصوا ثمانمائة ، وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتاً ، وأكبرهم نسباً ، وكان وهزر (١) الديلمى

وعند المسعودى وهشام بن محمد والسهيلى : أن كسرى وعده بالنصر ، ولم ينصره ، وشغل بحرب الروم ، وهلك سيف بن ذى يزن عنده ، وكبر ابنه ابن ريحانة ، وهو معديكرب ، وعرفته أمه بأبيه ، فخرج ووفد على كسرى يستنجزه فى النصرة التى وعد بها أباه ، وقال له أنا ابن الشيخ اليمنى الذى وعدته ، فوهبه الدنانير ، ونثرها إلى آخر القصة ، وقيل ان الذى وفد على كسرى وأباد الحبشة هو النعمان بن قيس ابن عبيد بن سيف بن ذى يزن ، قالوا : ولما كتبت الفرس مع وهزر ، وكانوا ثمانمائة ، وقال ابن قتيبة كانوا سبعة آلاف وخمسمائة ، وقال ابن حزم : كان وهزر من عقب جاماسب عم أنوشروان ، فأمره على أصحابه وركبوا البحر فى ثمان سفائن ، فغرقت منها سفينتان ، وخلصت ست إلى ساحل عدن ، فلما نزلوا بأرض اليمن قال وهزر لسيف : ماعندك ؟ قال ماشئت من قوس عربي ورجلى مع رجلك حتى نظفر أو نموت ! قال أنصفت ! وجمع ابن ذى يزن من استطاع من قومه، وسار

١ — فى ض « وهرز » بتقديم الراء على الزاى

اليه مسروق بن أبرهة فى مائة ألف من الحبشــة وأوباش اليمن ، فتواقفوا للحرب ، وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتــال فقتلوه ، وأحفظه ذلك وقال أروني ملـكهم ، فأروه إياه على الفيل ، عليه تاجه ، وبين عينيه ياقوتة حمراء . ثم نزل عن الفيـل إلى الفرس . ثم إلى البغلة . فقــال وهزر ركب بنت الحمار ذَل وذلّ ملـكه . ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه ، وتغلغل فى دماغه ، وتنكس عن دابته وداروا به ، فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة فى كل وجه ، وأقبل وهزر إلى صَنْعاء ، ولما أتى بابها قال لاتدخل رايتى منكوسة ، فهدم الباب ودخل ناصباً رايته ، فملك اليمن ونفى عنها الحبشة ، وكتب بذلك إلى كسرى وبعث اليه بالأموال ، فكتب اليه أن يملك سيف بن ذِى يزَن على اليمن على فريضة يؤديها كل عام ، ففعل وانصرف وهزر إلى كسرى ، وملك سيف اليمن وكان أبوه من ملوكها ، وخلف وهزر نائباً له على اليمن . فى جماعة من الفرس ضمهم اليه . وجعله لنظر بن ذى يزن وأنزله بصنعاء ، وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه . ونزل قصر الملك وهو رأس غُمْدَانَ يقال أن الضحاك بناه على اسم الزُّهرة . وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الـكواكب وروحانيتها . خرب فى خلافة عثمان . قاله المسعودى

وقال السهيلى : كانت صنعاء تسمى أوال . وصنعاء اسم بانيها صَنْعاء بن أوال ابن عُمير بن عابر بن شالخ . ولما استقل ابن ذي يزن بملك اليمن وفدت العرب عليه يُهنِّونه بالملك ولِمـا رجع من سلطان قومه ، وأباد من عدوهم ، وكان فيمن وفد عليه مشيخة قريش ، وعظماء العرب لعهدهم من أبناء اسمعيل وأهل بيتهم المنصوب لحجهم فوفدوا فى عشرة من رؤسائهم ، فيهم عبـد المطلب ، فأعظمهم سيف وأجلهـم ، وأوجب لهم حقهم ، ووفر من ذلك قسم عبد المطلب من بينهم ، وسأله عن بنيه حتى ذكر له شأن النبي صلى الله عليه وسلم وكفالته إياه بعد موت عبد الله أبيه ، عاشر ولد عبد المطلب ، فأوصاه به ، وحضه على الابلاغ فى القيام عليه ، والتحفظ به من اليهود وغيرهم ، وأسر اليه البشرى بنبوته ، وظهور قريش قومهم على جميع العرب ، وأسنى جوائز هذا الوفد بمـا يدل على شرف الدولة وعظمها ، لبعد غايتها فى الهمة ، وعلو

نظرها فى كرامة الوفد . وبقاء آثار الترف فى الصُّبابة شاهد لشرافة الحال فى الأول. ذكر صاحب الأعلام * وغيره أنه أجاز سائر الوفد بمائة من الإبل وعشرة أعبد، وعشرة وصائف، وعشرة أرطال من الوَرِق والذهب، وكرش ملئ من العنبر، وأضعاف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب

قال ابن إسحق : ولما انصرف وهزر الى كسرى عدا سيف على الحبشة، وجعل يقتل ويبقر بطون النساء، حتى اذا لم يبق إلا القليل جعلهم خولاً، واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب، وعظم خوفهم منه، فخرج يوماً، وهم يسعون بين يديه، فلما توسطهم، وقد انفردوا به عن الناس، رموه بالحراب فقتلوه ووثب رجل منهم على الملك . وقيل ركب خليفة وهزر فيمن معه من المسلحة، واستلحم الحبشة، وبلغ ذلك كسرى فبعث وهزر فى أربعة آلاف من الفرس، وأمره بقتل كل أسود أو منتسب الى أسود، ولو جَعْدًا قَطِطا ففعل وقتل الحبشة حيث كانوا . وكتب بذلك الى كسرى، فأمّره على اليمن فكان يجبيه * له حتى هلك . واستضافت حشابة * ملك الحميريين بعد مهلك ابن ذى يزن وأهل بيته الى الفرس وورثوا ملك العرب وسلطان حمير باليمن، بعد أن كانوا يزاحمونهم بالمناكب فى عراقهم ويجوسون بالغزو خلال ديارهم، ولم يبق للعرب فى الملك رسم ولا طلل، إلا أقيالا من حمير وقحطان رؤساء فى أحيائهم بالبدو لا تعرف لهم طاعة، ولا ينفذ لهم فى غير ذاتهم أمر إلا ما كان لكهلان إخوتهم بأرض العرب من ملك آل المنذر من لَخْم على الحيرة والعراق بتولية فارس، وملك آل جَفْنة من غسّان على الشأم، بتولية آل قَيْصر كما يأتى فى أخبارهم.

وقال الطبرى : لما كانت اليمن لكسرى بعث إلى سَرَنْديب من الهند قائداً من قواده ركب اليها البحر فى جند كثيف فقتل ملكها واستولى عليها، وحمل إلى كسرى منها أموالا عظيمة وجواهر . وكان وَهْزَر يبعث العير إلى كسرى بالأموال

* الأغانى .
* يجبب
* صيانة

والطيوب ، فتمرّ على طريق البحرين تارة وعلى أرض الحجاز أخرى ، وعـدا بنو تميم فى بعض الأيام على عيره بطريق البحرين ، فكتب إلى عامله بالانتقام منهم ، فقتل منهم خلقاً ، كما يأتي فى أخبار كسرى . وعدا بنو كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرّت بهم ، وكانت فى جوار رجل من أشراف العرب من قيس ، فكانت حرب الفِجَار بين قيس وكنانة بسبب ذلك وشهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ينبل فيها على أعمامه ، أى يجمع لهم النبل

المرزبان بن وهرز

قال الطبرى : ولما هلك وهرز أمّر كسرى من بعده على اليمن ابنه المَرْزُبان ؛ ثم هلك فأمّر حافده خُرّخُسْرَو (١) بن التيجان (٢) بن المَرْزُبان ، ثم سخط عليه وحمل اليه مقيداً . ثم أجاره ابن كسرى ، وخلى سبيله ، فعزله كسرى وولى باذان ، فلم يزل إلى أن كانت البعثة ، وأسلم باذان ، وفشا الاسلام باليمن ، كما نذكره عند ذكر الهجرة وأخبار الاسلام باليمن

باذان

هذا آخر الخبر عن ملوك التبابعة من اليمن ومن ملك بعدهم من الفرس . وكان عدد ملوكهم ، فيما قال المسعودى ، سبعة وثلاثين ملكا ، فى مدة ثلاثة آلاف ومائتى سنة إلا عشرا . وقيل أقل من ذلك ، فكانوا ينزلون مدينة ظَفار

قال السهيلى : زَمار وظَفار اسمان لمدينة واحدة يقال بناها مالك بن أبرهة ، وهو الأملوك ، ويسمى مالك ، وهو ابن ذى المنار . وكان على بابها مكتوب بالقلم الأول فى حجر أسود

يوم شِيدَتْ ظَفارْ قيل لمَنْ أنْـ ... ـتِ ؟ فقالت لِحِمْير الأخيار
ثم سِيلتْ مِنْ بعد ذلك قالت ... أنا للحُبْشِ أخبث الأشرار
ثم سِيلتْ مِن بعد ذلك قالتْ ... إنّ مُلكى لفارس الأحرار
ثم سِيلتْ مِنْ بعد ذلك قالتْ ... إن مُلكى لقريش التجّار (٣)

١ — فى ش (٥ - ٢٥) « خد خسرو »
٢ — هكذا هنا وفى ش (٥ - ٢٥) « السيحان » وفى ط (٢ - ١٢١) «ابينجان»
٣ — هكذا هذا الشطر هنا وهو كما رأيت وفى ش :
« ثم سليت من بعد ذاك فقالت ... إن ملكى الى قريش التجار » .
وهو أجود .

ثم سيلتْ منْ بعدِ ذلك قالتْ　　إن مُلكى لحِمْيرِ سنجار [١]
وقليلاً ما يلبثُ القومُ فيها　　منذ شِيدتْ مَشيدُها للبوار [٢]
من أسُودٍ يلقيهم البحر فيها　　تشعَلُ النارَ فى أعالى الجدارِ

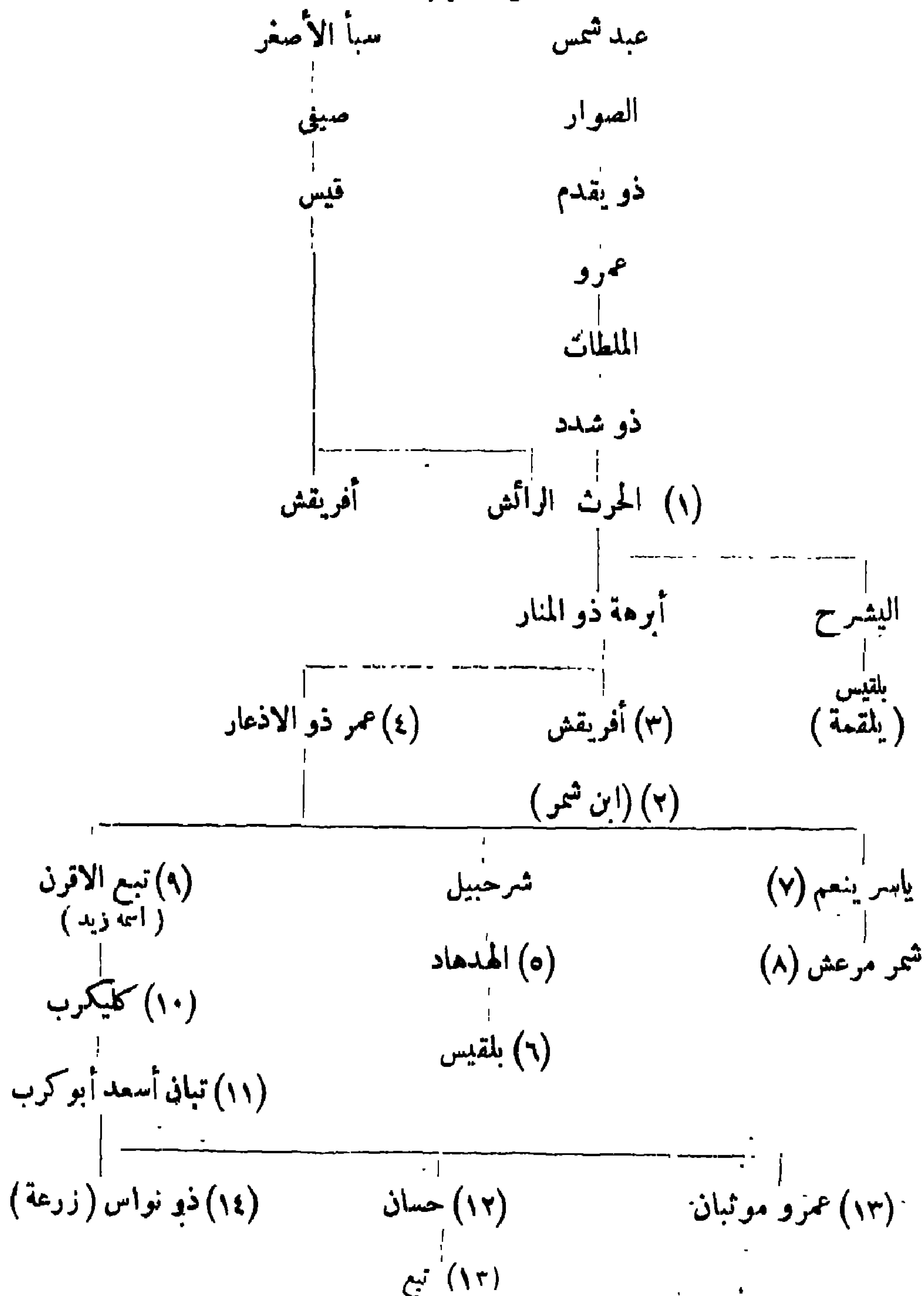
ولم تزل مدينة ظفار هذه منزلا للملوك ، وكذلك فى الاسلام صدر الدولتين وكانت اليمن من أرفع الولايات عندهم بما كانت منازل العرب العاربة ، ودار الملوك العظماء من التبابعة والأقيال والعباهلة

ولما انقضى الكلام فى أخبار حمير وملوكهم باليمن من العرب ، استدعى الكلام ذكر معاصريهم من العجم على شرط كتابنا لنستوعب أخبار الخليقة ، ونميز حال هذا الجيل العربي من جميع جهاته ، والأمم المشاهير من العجم الذين كانت لهم الدول العظيمة لعهد الطبقة الأولى والثانية من العرب ، وهم النَّبطُ والسريانيون أهل بابل ، ثم الجرامقة أهل الموْصل ، ثم القبط ، ثم بنو إسرائيل والفُرْس ويونان والروم ، فلنأت الآن بما كان لهم من الملك والدولة وبعض أخبارهم على اختصار ، والله ولى العون والتوفيق ، لارب غيره ، ولا مأمول إلا خيره

---

١ — فى ج « لخير سنجار » وفى يا (٦ — ٨٦) « ووجد على أركان سور ظفار مكتوبا: لمن ملك ظفار ؟ لحمير الأخيار ، لمن ملك ظفار ؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ظفار ؟ لفارس الاخيار ، لمن ملك ظفار لحميرسنجار « أى يرجع الى اليمن » فصححنا الشطر بمقتضاه

٢ — فى ج « غير تشيدها لحا فى البوار » وهو سقيم فاخترنا ما عند م (٤ — ٦،٢)



(١) العمود الأيسر على ما لابن حزم . والايمن على ما للسهيلى وغيره . وفى ج تخليط بينهما (٢) هذا التفريع على ما للطبرى (٣) كذا فى ج ولم ندر مصدرها ولا مرذها ونظن أنها مقحمة ، وفى جداول النسخ المطبوعة تخليط وتصحيف أصلحناه بعد جهد جهيد (المصححان)

ملوك بابل

الخبر عن ملوك بابل

من النبط والسريانيين وملوك الموصل و نينوى من الجرامقة

قد تقدم لنا أن مُلكَ الأرض من بعد نوح عليه السلام كان لكنعان بن كوش ابن حام ، ثم لابنه النمروذ من بعده ، وأنه كان على بدعة الصابئة ، وأن بني سام كانوا حنفاء ينتحلون التوحيد الذي عليه الكلدانيون من قبلهم . قال ابن سعيد : ومعنى الكلدانيين الموحدون ووقع ذكر النمروذ في التوراة منسوباً إلى كوش بن حام ولم يقع فيها ذكر لكنعان بن كوش فالله أعلم بذلك ، وقال ابن سعيد أيضاً وخرج عَابَر ابن شالخ بن أرفخشيد فغلبه ، وسار من كوثا إلى أرض الجزيرة والموصل فبنى مدينة مجدل هنالك ، وأقام بها إلى أن هلك ، وورث أمره ابنه فالغ من بعده ، وأصاب النمروذ وقومه على عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام ما أصابهم فى الصرح ، وكانت البَلْبَلة ، وهى المشهورة ، وقد وقع ذكرها فى التوراة ، ولا أدرى معناها ، والقول بأن الناس أجمعين كانوا على لغة واحدة فباتوا عليها ، ثم أصبحوا وقد افترقت لغاتهم قول بعيد فى العادة ، إلا أن يكون من خوارق الأنبياء ، فهو معجزة حينئذ ، ولم ينقلوه كذلك .

بلبلة الألسن ونقد المؤلف لها

والذى يظهر أنه إشارة إلى التقدير الإلهى فى خرق العادة وافتراقها ، وكونها من آياته : كما وقع فى القرآن الكريم . ولا يعقل فى أمر البلبلة غير ذلك .

وقال ابن سعيد :سوريان بن نبيط ولاه فالغ على بابل فانتقض عليه وحاربه ، ولما هلك فالغ قام بأمره بعده ابنه ملكان فغلبه سوريان على الجزيرة ، وملكها هؤلاء الجرامقة إخوانه فى النسب بنو جرموق بن أشوذ بن سام ، وكانت مواطنهم بالجزيرة ، وكان ابن أخت سوريان منهم الموصل بن جرموق ، فولاه سوريان على الجزيرة ، وأخرج بنى عابر منها ولحق ملكان منهما بالجبال فأقام هناك ويقال ان الخضر من عقبه واستبد الموصل على خاله سوريان بن نبيط ، ملك بابل وامتازت مملكة الجرامقة من مملكة النبط . وملك بعد الموصل ابنه راتق ، وكانت له حروب مع النبط ، وملك من بعده ابنه أثور وبقى ملكها فى عقبه ، وهو مذكور فى التوراة

وملك بعده ابنه نِينَوَى ، وبنى المدينة المقابلة للموصل من عدوة دِجْلَة المعروفة باسمه . ثم كان من عقبه سنحَارِيف بن أثُّور بن نِينوى بن أثور ، وهو الذى بنى مدينة سنجار ، وغزا بنى إسرائيل فصلبوه على بيت المقدس . وقال البيهقى : إن الجزيرة ملكها بعد مقتل سنحاريف أخوه ساطِرون وهو الذى بنى مدينة الحَضْر فى برية سنجار ، على نهر الثرثار ، لتولعه بصيد الأسود فى غيضاتها . وملك من بعده ابنه زان ، وكان يدين بالصابئة . ويقال إن يونس بن مَتَّى بعث اليه ، ويونس من الجرامقة ، من سبط بَنيامين بن اسرائيل ، من ابنه . فآمن به زان ابن ساطرون بعد الذى قصه القرآن من شأنه معهم . ثم إن بُختُنَّصر لما غلب على بابل زحف اليه ، ودعاه الى دين الصابئة ، وشرط له أن يبقيه فى ملكه فأجاب. ولم يزل على الجزيرة حتى زحف اليه جيوش الفرس مع أرْتاق ، فضمن القيام بالمجوسية على أن يبقوه فى ملكه ، وكتب بذلك ارتاق الى بَهْمَن ، فيضمن له ، فأجابه بأن هذا رجل متلاعب بالأديان فاقتله . فقتله أرتاق ، وانقرض ملكه * بعد ألف وثلثمائة سنة ، فيما قال البيهقى ، وفى أربعين ملكاً منهم . وصارت الجزيرة لملوك الفرس . والذى عند الاسرائيليين : سنحاريف من ملوك نينوى وهم أولاد مَوصِل بن أشوذ * بن سام ، وأنه كان قبله بالموصل ملوك منهم ، وهم فُول وتلفات وبُلناص،وأنهم ملكوا بلد * الأسباط العشرة ،وهي شموزون * المعروفة بالسامرة * وأنه غرَّب الأسباط الذين كانوا فيها الى نواحي أصبهان وخُرَاسان ، وأسكن أهل كومة ، وهى الكوفة ، فى شمُوُرون هذه ، فسلط الله عليهم السباع يفترسونهم فى كل ناحية ، فشكوا ذلك الى سنحاريف ، وسألوه أن يخبرهم عن بلد شمورون فى قسمة أي كوكب هى ، كى يتوجهوا اليه ويستنزلوا روحانيته ، على طريق الصابئة . فأعرض عن ذلك وبعث كاهنين اليهم من اليهود فعلموهم دين اليهودية ، وأخذوا به . وهؤلاء عند اليهود هم الشَّمرة ، نسبة إلى شمرة ، وهى شمورون ، وليس الشمرة عندهم من بنى اسرائيل ، ولا دينهم بصحيح فى اليهودية ، وزحف

---

* ملك الجرامقة
* أشور * بلاد * شومزون * السامرية

سنحاريف عندهم الى بيت المقدس بعد استيلائه على شومرون لحاصرها ، وداخله العجب بكثرة عساكره . فقال لبني اسرائيل : من الذى خلصه إلهه من يدى حتى يخلصكم إلهكم ؟ وفزع ملك بنى إسرائيل الى نبيهم مذ ليلا وسأله الدعاء ، فدعا له وأمنه من شر سنحاريف . ونزلت بعسكره فى بعض لياليهم آفة سماوية ، فأصبحوا كلهم قتلى ، يقال أحصى قتلاهم فكانوا مائة وخمسة وثمانين ألفاً . ورجع سنحاريف الى نينوى ثم قتله أولاده فى سجوده لمعبوده من الكواكب . وولى ابنه إيسرحدّون : ثم استولى عليهم بعد ذلك بختنصر ، كما سنذكره فى خبره

آسرحدون

النبط

وأما ملوك بابل : فهم النبط بنو نبيط بن أشوذ بن سام . وقال المسعودى : نبيط بن ماش بن إرم ، وكانوا موطنين بأرض بابل . وملك منهم سوريان بن نبيط وقال المسعودى : هو أحد نبيط بن ماش ملك أرض بابل بولاية من فالغ ، فلما مات فالغ أظهر بدعة الصابئة ، وانتحلها بعده ابنه كنعان ، ويلقب بالنمروذ ، وملك بعده ابنه كوش ، وهو نمروذ ابراهيم عليه السلام ، وهو الذى قدم أباه آزر فاصطفاه هاصر على بيت الأصنام ، لأن أرعو بن فالغ لما هلك أبوه فالغ ، وكان على دين التوحيد الذى دعاه اليه أبوه عابر ، رجع حينئذ أرعو الى كوثا ، ودخل مع النماروذة فى دين الصابئة ، وتوارثها بنوه الى آزر بن ناحور فاصطفاه هاصر بن كوش ، وقدمه على بيت الأصنام ، وولد له ابراهيم عليه السلام . وكان من أمره ما ذكرناه فيما نصه التنزيل ، ونقله الثقات ، ثم توالت ملوك النماردة ببابل ، وكان منهم بختنصر ، على ما ذهب اليه بعضهم . ويقال إن الجرامقة ، وهم أهل نينوى غلبوا على بابل ، وملكها سنحاريف منهم ، واستعمل فيها بختنصر من ملوكها . ثم انتقض عليه بختنصر بالجزاء والطاعة وغزا بنى إسرائيل ببيت المقدس فاقتحمها عليهم بعد الحصار وأثخن فيهم بالقتل والأسر ، وقتل ملكهم ، وخرب مسجدهم ، وتجاوزهم الى مصر فملكها ولما هلك بختنصر ملك من بعده فيما ذكروه ، ابنه نُشْبُتَ نَصَّر . ثم من بعده بُلينْبصَّر . وغزاه ارتاق ، مرزبان كسرى من ملوك الكنية فقتله ، وملك بابل وأعمالها ، وصار النبط والجرامقة رعية للفرس . وانقرضت دولة النماردة ببابل . هكذا ذكر ابن سعيد ، ونقله عن داهر مؤرخ دولة الفرس ، وجعل السريانيين

والنبط أمة واحدة ، وهما دولة واحدة . وأما المسعودى فجعلهما دولتين . وأما السريانيون ، فقال هم أول ملوك الأرض بعد الطوفان ، وسمى من ملوكهم تسعة متعاقبين فى مائة سنة أوفوقها بأسماء أعجمية ، لا فائدة فى نقلها لقلة الوثوق بالأصول التى بأيدينا من كتبه ، وكثرة التغيير فى الأسماء الأعجمية . نعم ذكر أن شُوشَان بشينين معجمتين ، وأنه أول من وضع التاج على رأسه . والرابع منهم أنه الذى كور الكور ، ومدّن المدن . وأن ملك الهند لعهده كان اسمه رُتْبيل وانه علا ملكه ، واستولى على السريانيين . وأن بعض ملوك المغرب ظاهرهم عليه ، وانتزع لهم ملكهم منه ، ورده عليهم . وسمى الثامن منهم مارُوت ، وأشار فى آخر كلامه الى أنهم كانوا مستولين على بابل وعلى الموصل . وأن ملوك اليمن ربما غلبوهم على أمرهم بعض الأحيان . وذكر فى التاسع أنه كان غير مستقل بأمره ، وإن أخاه كان مقاسمه فى سلطانه . وأن أول من اتخذ الخمر فلان ، وأول من ملك فلان ، وأول من لعب بالصقور والشطرنج فلان ، [ونقل فى ذلك حكاية الله أعلم بصحتها مع أن الأمور الطبيعية للعمران من صناعة وفلح وغيرها لسنا على ثقة من تعيين مبتدعها أو مخترعها ، إذ أخبار أهل الخليقة الأقدمين مجهولة ، فقول المسعودى فى ذلك إن أول من اتخذ الخمر .خ] مزاعم كلها بعيدة من الصحة . إنما وجهه أن السريانيين لما كانوا أقدم فى الخليقة نسب اليهم كل قديم من الأشياء ، أو طبيعى كالخط واللغة والسحر والله أعلم

تعليل نسبة الاوائل للبابليين

وأما النبط : فعند المسعودى أنهم من أهل بابل . لقوله فى ترجمتهم : ذكر ملوك بابل والنبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين . وذكر أن أولهم نمروذ الجبار ، ونسبه الى ماش بن إرم بن سام ، وذكر أنه الذى بنى الصرح ببابل ، واحتفر نهر الكوفة . ونسب النمروذ فى موضع آخر الى كوش بن حام ، لا أدرى هو أو غيره . ثم عد ملوكهم بعد النمروذ ستاً وأربعين أو نحوها ، فى ألف وأربعمائة من السنين ، بأسماء أعجمية متعذر ضبطها فتركت نقلها . إلا أنه ذكر فى الموفىمنهم عدد العشرين بعد التسعمائة من سنيهم ، أنه الذى غزت فارس لعهده مدينة بابل . وذكر فى الموفى

عدد ثلاثة وثلاثين منهم . وعند الألف والأربعمائة * من سنيهم ، أنه سنحاريف * الذي حارب بني إسرائيل ، وحاصرهم ببيت المقدس حتى أخذ الجزية منهم ، وأن آخر ملوكهم داريتوش ، وهو دارًا الذي قتله الإسكندر . لما ملك بابل . هذا ما ذكره المسعودي . ولم يذكر منهم نمروذ الخليل عليه السلام . وذكر أن مدينتهم بابل ، وأن الذي اختطها اسمه نيز * واسم امرأته شمرام من ملوك السريانيين ، اسمان أعجميان لا وثوق لنا بضبطهما

وقال الطبري : نمروذ بن كوش بن كنعان بن حام ، صاحب ابراهيم الخليل عليه السلام . وكان يقال عاد إرم ، فلما هلكوا قيل ثمود إرم ، فلما هلكوا قيل نمروذ إرم ، فلما هلك قيل لسائر ولد إرم أرمان ، فهم النبط . وكانوا على الاسلام ببابل حتى ملكهم نمروذ ، فدعاهم إلى عبادة الأوثان فعبدوها . انتهى كلام الطبري

وقال هروشيوش مؤرخ الروم إنه نمروذ الجسيم ، وإن بابل كانت مربعة الشكل وكان سورها فى دور ثمانين ميلا ، وارتفاعه مائتا ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، وهو كله مبنى بالآجر والرصاص ، وفيه مائة باب من النحاس ، وفى أعلاه مساكن الحراس والمقاتلة ، تبيت على الجانبين فى سائر دورة الطريق بينهما ، وحول هذا السور خندق بعيد المهوى ، أجرى فيه الماء ، وأن الفرس هدموه . ولما تغلبوا على ملك بابل تولى ذلك منهم جيرش ، وهو كسرى الأول . انتهى كلام هروشيوش

ويظهر من كلام هؤلاء ، أن اسم النمروذ سمة لكل من ملك بابل ، لوقوعه فى أهل أنساب مختلفة : مرة إلى سام ، ومرة إلى حام ، وزعم بعض المؤرخين أن نمروذ الخليل عليه السلام هو النمروذ بن كنعان بن سنحاريف بن النمروذ الأكبر ، وأن بختنصر من عقبه ، وهو ابن برازاد * بن سنحاريف بن النمروذ . وأن الفرس الكينية غلبوا بختنصر على بابل ، ثم أبقوه واستعملوه عليها ، وإن كسرى الاول من بنى ساسان خرب مدينة بابل . وعند الإسرائيليين ، وينقلونه عن كتاب دانيال

* سنحاريب * وأربعة
* نين
* بروزاد

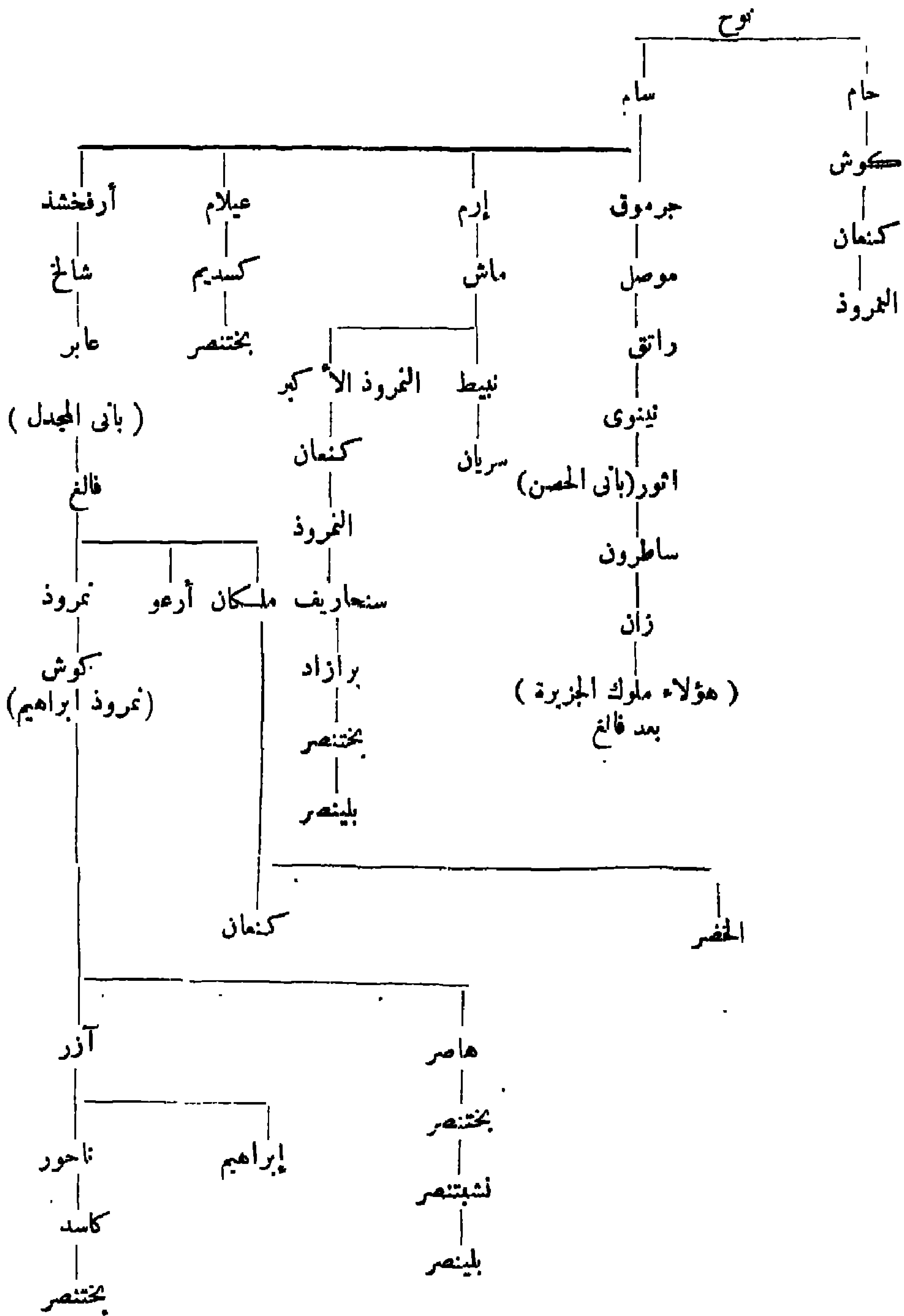
وإرميا من أنبيائهم ، وضبط هذا الاسم يرميا ، أن بختنصر من عقب كاسد بن ناحور (١) وهو أخو ابراهيم الخليل. وبنو كاسد هؤلاء من ملوك بابل ، ويعرفون بالكسدانيين ، نسبة اليه وأن بختنصر منهم ملك أكثر المعمور ، وغلب على بنى إسرائيل وأزال دولتهم . وخرب بيت المقدس ، وانتهى ملكه إلى مصر وما وراءها ، وكان ملكه خمساً وأربعين . وملك بعده ابنه أويل مرود ثلاثا وعشرين سنة ، وبعده ابنه بلينصّر ثلاث سنين . ثم زحف اليه دارا من ملوك الفرس وصهره كورش فحاصروه بمدينة بابل . وقال بعض الاسرائيليين : إن بختنصر وملوك بابل من كسديم وكسديم من عيلام بن سام ، وهو أخو أشوذ ، ومن أشوذ * ملوك الموصل . انتهى الكلام فى ملوك الموصل وملوك بابل . وهذا غاية ماأدى اليه البحث من أخبارهم وأنسابهم . وكان من هؤلاء [النبط - خ] والكلدانيين دين الصابئة ، وهو عبادة الكواكب واستجلاب روحانيتها . ويذكر أنهم كانوا لذلك أهل عناية بأرصاد الكواكب ، ومعرفة طبائعها ، وخلاص المولدات ، وما يشابه ذلك من علوم التجوم والطلسمات والسحر . وأنهم نهجوا ذلك لأهل الربع الغربي من الأرض . وقديشهدلذلك قراءة من قرأ « وَمَا أُنْزِلَ عَلى المَلِكَيْنِ » بكسر اللام مشيراً إلى أن هاروت وماروت من [عداد ملوكهم ويؤيده ما نقلناه عن المسعودى من ذكر ماروت فى - خ] ملوك السريانيين ، وهم أول ملوك بابل ، وعلى القراءة المشهورة وأنهما من الملائكة فيكون اختصاص هذه الفتنة والابتلاء ببابل من بين أقطار الأرض دليلا على وفور قسطهما من صناعة السحر الذى وقع الابتلاء به . ومما يشهد لا نتحالهم السحر وفنونه من النجوم وغيرها أن هذه العلوم وجدناها من منتحل أهل مصر المجاورين لهم ، وكان لملوكها عناية شديدة بذلك حتى كان من مباهاتهم موسى بذلك وحشر السحرة له ما كان . وبقايا الآثار السحرية فى برابي (٢) إخميم من صعيد مصر ما يشهد لذلك أيضا والله أعلم

١ — فى ج « حاور » وقد تقدم للمؤلف ص ٤٤ إن الكسدانيين من ناحور أخى إبراهيم

* أشور

٢ — « البرابى أبنية عجيبة فيها تماثيل وصور » يا (١ - ١٥٣)

عمود ملوك بابل



(١)أسقط المؤلف أشوذا بين جرموق وسـام . وبين نينوى واراتق أشوذا ـ أخر أيضـا ويلاحظ أن مافى الجدول ليس فروعا متفقا عليها بل كل جناح على طريقة (مذهب) والمعجب كون المؤلف يجعل نمروذ الاكبر من أجداد إبراهيم . وبما أن الموضوع مختلط فالمؤلف لم يضع أبجدية لملوكه

القبط

الخبر عن القبط

وأول ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم

والإلمام بنسبهم

هذه الأمة أقدم أمم العالم ، وأطولهم أمداً فى الملك . واختصوا بملك مصر وما اليها . ملوكها من لدن الخليقة إلى أن صبحهم الاسلام بها ، فانتزعها المسلمون من أيديهم ، ولعهدهم كان الفتح

وربما غلب عليهم جميع من عاصرهم من الأمم ، حين يستفحل أمرهم ، مثل العمالقة والفرس والروم واليونان ، فيستولون على مصر من أيديهم ، ثم يتقلص ظلهم فيراجع القبط ملكهم . هكذا إلى أن انقرضوا فى مملكة الاسلام

وكانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر فى اللغة القديمة ، ثم تغيرت اللغة وبقى هذا الاسم مجهول المعنى ، كما تغيرت الحميرية إلى المضرية ، والسريانية إلى الرومية .

ونسبهم فى المشهور إلى حام بن نوح ، وعند المسعودى إلى بَيْصر (١) بن حام وليس فى التوراة ذكر لبيصر بن حام ، وانما ذكر مِصْرَايم وكوش وكنعان وقوط وقال السهيلى إنهم من ولد كنعان بن حام ، لأنه لما نسب مصر قال فيه : مصر بن النَّبيط ، أو ابن قبط بن النبيط ، من ولد كوش بن كنعان . وقال هروشيوش [مؤرخ الروم - خ] إن القبط من ولد قبط بن لايق بن مصر . وعند الاسرائيليين أنهم من قوط بن حام . وعند بعضهم أنهم من كفتوريم بن مصر وقالوا [إن بعض النسابة فسر كفتوريم - خ] قبطقايين ، ومعناه القبط . وقال المسعودى : اختص بيصر بن حام أيام النمروذ ابن أخيه كنعان بولاية أرض مصر واستبد بها وأوصى بالملك لابنه مصر ، فاستفحل ملكه ما بين أسوان واليمن والعريش وأيلة وفوسيسة ،

---

١ — فى ج « ينصر » والتصحيح من يا (٨ — ٧٢) و (١ — ٢٦١) و (١ — ١٠٣) وغيرها ومن م (٣ — ٤٦)

فسميت كلها أرض مصر نسبة اليه .وفى قبليها النوبة ، وفى شرقيها الشأم ، وفى شمالها بحر الزقاق ، وفى غربها برقة ، والنيل من دونها . وطال عمر مصر ، وكبر ولده ، وأوصى بالملك لأكبرهم ، وهو قبط بن مصر ، أبو الأقباط ، فطال أمد ملكه ، وكان له بنون [أربعة : قبط وأشمون وأتريب وصا المقطم وما منهم إلا وينسب اليه معلم من معالم الآثار المطوية . ولم يذكر المسعودي قبط من قبط مصر وإنما جعل هؤلاء الأربعة إخوان ـ خ] قبط بن مصر ، وأن مصر هو الذى قسّم الأرض ، وعهد إلى أكبرهم بالملك ، وهو قبط ، فغلب عليهم فأضيفوا اليه ، لمكان الملك والسنّ ، وملك بعد قبط بن مصر (أشمون) بن مصر . ثم من بعده (صا) ثم أخوهما (أتريب) . ثم عد ملوكا بأسماء أعجمية بعيدة عن الضبط لعجمتها وفساد الأصول التى بين أيدينا من كتبه

ثم لما ذكر ستة منهم بعد أتريب قال : فكثر ولد بيصر بن حام وتشاغبوا ، وملك عليهم النساء ، فسار اليهم ملك الشأم من العمالقة ، الوليد بن دومع فملكهم وانقادوا اليه .

وأما ابن سعيد فيما نقل من كتب المشارقة فقال : ملك مصر بعد ابنه (قبط) ثم من بعده أخوه أتريب ، قال : وفى أيام قبط زحف شداد بن مدّاد بن شداد بن عاد إلى مصر ، وغلب على أسافلها ومات قبط فى حروبه ، ثم جمع أتريب قومه ، واستظهر بالبربر والسودان على العرب ، حتى أخرجهم إلى الشأم واستبد أتريب بملك مصر ، وبنى المدينة المنسوبة اليه ، ومدينة عين شمس ، وملك بعده بن أخيه البودشير بن قبط وهو الذى بعث هرميا المصري إلى جبل القمر ، حتى ركب جرية النيل من هنالك ، وعدل البطيحة الكبرى التى تنصب اليها عيون النيل ، وعمر بلاد الواحات وحول اليها جمعا من أهل بيته ، ثم ملك من بعده ابنه عديم بن البودشير ، ثم ابنه شدات بن عديم ، ثم ابنه منقاوش (١) بن شدات ، وجدد مدينة عين شمس ، وكان لهم فى السحر آثار عجيبة ، ثم ملك بعده ابنه منقاوش (٢) وعبد البقر وصورها من

١ ـــ فى ج « مندوش » والتصحيح من ش (١ـ٣١٤) ليتفق مع السطر الذى بعده
٢ ـــ فى ش « مناوش »

الذهب ، ثم هلك وخلف ابنه مرقيش ، فغلب عليه عمه أشمون بن قبط ، وبنى مدينة الأشمون ، وملك بعده ابنه أشاد بن أشمون، ثم من بعده عمه صا بن قبط وبنى مدينة باسمه ، وملك بعده إبنه تدراس ، وكان حكيماً ، وهو الذى بنى هيكل الزُّهرة الذى هدمه بختُنصر،وملك بعده ابنه ماليق بن تدراس ، فرفض الصابئة ودان بالتوحيد ، ودوَّخ بلاد البربر والاندلس ، وحارب الأفرنج ، وملك بعده ابنه حربيا بن ماليق فرجع عن التوحيد إلى الصابئة ، وغزا بلاد الهند والسودان والشأم ، وملك بعده ابنه كُلكَنْ بن حربيا وهو الذى تسميه القبط حكيم الملوك واتخذ هيكل زُحل، وعهد إلى أخيه ماليا بن حربيا واشتغل باللهو فقتله ابنه خرطيش وكان سفاكاً للدماء والقبط تزعم أنه فرعون الخليل عليه السلام ، وانه أول الفراعنة .

ولما تعدى بالقتل إلى أقاربه سمته ابنته حزريا وملكت القبط من بعده فنازعها ابراحس من ولد عمها أتريب وحاربته فكان لها الغلب وانهزم ابراحس إلى الشأم فاستظهر بالكنعانيين وبعث ملكهم قائده جيرون ، فلما قرب مصر استقبلته حوريا وأطمعته فى زواجها على أن يقتل ابراحس ويبنى مدينة الاسكندرية ، ففعل ثم قتلته آخراً مسموماً ، واستقام لها الأمر ، وبنت منارة الاسكندرية ، وعهدت بأمرها لدليقية ابنة عمها باقوم فخرج عليها أعين من نسل أتريب طالباً بثأر قريبه ابراحس ، ولحق بملك العمالقة يومئذ ، وهو الوليد ابن دومع الذى ذكرناه عند ذكر العمالقة ، فاستنصر به وجاء معه وملك ديار مصر واستبد بالقبط * نقراوس (١) ، فاشتغل باللذات واستكفى من بنيه أطفير (٢) وهو العزيز فكفاه وقام بأمره،ودبر له يوسف الفيوم بالوحى والهندسة ، وكانت أرضها مغايض الماء ، فأخرجه وعمر القرى مكانه على عدد أيام السنة ، فجعله على خزائنه ، وملك بعده * دارم بن الريان وسمته القبط ريموص * ، وكان يوسف مدبر أمره بوصية أبيه ، ومات لعهده فأساء السيرة *

* واستعبد القبط وملك من بعده الريان وهو فرعون يوسف وسمته القبط نقراوش
١ — فى ش « نهراوش » وهذا هو الريان
٢ — تك (٣٩ : ١) « بوطيفار » وفى المقريزى « اطفين »
* ابنه
* درتمون * بعده

وهلك غريقاً فى النيل ، وملك بعده ابنه معدانوس (١) بن دارم فترهب واستخلف ابنه كاشم ، فاستعبد بنى إسرائيل للقبط ، وقتله حاجبه ، ونصب بعده ابنه لاطش ، فاشتغل باللهو فخلعه ونصب آخر من نسل ندراوس اسمه لهوب ، فتجبر . وتذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام ، وأهل الأثر يقولون انه الوليد بن مُصْعَبْ (٢) وأنه كان نجاراً تقلب حاله إلى عرافة الحرس ، ثم تطور إلى الوزارة ، ثم إلى الاستبداد وهذا بعيد لما قدمناه فى الكتاب الأول .

وقال المسعودى : بل كان فرعون موسى من الأقباط ، ثم هلك فرعون موسى وخشى القبط من ملوك الشأم ، فملكوا عليهم دَلُوكة ، من بيت الملك ، وهى التى بنت الحائط على أرض مصر ، ويعرف بحائط العجوز لانها طال عمرها حتى كبرت واتخذت البرابى ومقاييس النيل ، ثم سمى المسعودى من بعد دلوكة ثمانية من ملوكهم، على ذلك النحو من عجمة الأسماء ، وقال فى الثامن (٣) انه فرعون الأعرج الذى اعتصم به بنو إسرائيل من بختنصر فدخل عليه مصر وقتله ، وهدم هيا كل الصابئة ووضع بيوت النيران له ولولده ، وذكر فى تواريخهم ، قال : قال ابن عبد الحكم . وهذه العجوز دلوكة هى التى جددت * البرابى بمصر ، أرسلت إلى امرأة ساحرة كانت لعهدها اسمها ترورة وكانت السحرة تعظمها ، فعملت بربى من حجارة ، وسط مدينة مَنْف . وصورت فيها صور الحيوانات . من ناطق وأعجم . فلا يقع شىء بتلك الصورة إلا وقع بمثالها فى الخارج وكان لهم بذلك امتناع ممن يقصدهم من الأمم . لانهم كانوا أعلم الناس بالسحر . وأقامت عليهم عشرين سنة . حتى بلغ صبي من أبنائهم اسمه دركون [بن — خ] بطلوس فملكوه وأقامت معه على ذلك أربعمائة سنة ثم مات فولوا ابنه برديس بن دركون . ومن بعده أخاه نقاس بن نقراس ومن بعده

١ — سماه فى ش معدان قال ويقال معدايوش
٢ — سماه فى ش « ظلما » وقال م : ويقول بعضهم أنه ظلما بن قومس من ولد اشمون
٣ — نقل فى ش عن م ما يأتى : « وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرب بيت المقدس » (١ — ٤١٧) وهو موافق لما عند م (٣ — ٥٨) فانظر نقل المؤلف من أين هو ؟
* جرت

[أخاه خ] مرينا بن مرينوس. ثم ابنه إستمارس بن مرينا . فطغى عليهم وخلعوه وقتلوه وولوا عليهم من أشرافهم بلوطيس بن منا كيل أربعين سنة . ثم استخلف مالوس ابن بلوطيس ومات . فاستخلف أخاه منا كيل بن بلوطيس. ثم توفى فاستخلف ابنه بركة بن مناكيل فملكهم مائة وعشرين سنة . وهو فرعون الاعرج الذى سبي أهل بيت المقدس ويقال انه خلع .

وقال ابن عبد الحكم : وولى من بعده ابنه مرينوس بن بركة [وهلك. خ] فاستخلف ابنه فرقون بن مرينوس فملكهم ستين سنة . ثم هلك . واستخلف أخاه نقاس بن مرينوس. وكانت البرابي كلها إذا فسد منها شيء لا يصلحه إلا رجل من ذرية تلك العجوز الساحرة التى وضعتها . ثم انقطعت ذريتها ففسدت البرابى أيام نقاس هذا وتجاسر الناس على طلب الملك الذى فى أيديهم . وهلك نقاس واستخلف ابنه قومس بن نقاس . فملكهم دهراً . ثم ملك بختنصر بيت المقدس . واستلحم بنى إسرائيل وفرقهم وقتل وخرب ولحقوا بمصر فأجارهم قومس ملكها وبعث فيهم بختنصر فمنعهم وزحف اليه . وغلب عليه وقتله وخرب مدينة منف . وبقيت مصر أربعين سنة خراباً وسكنها أرمياء مدة ثم بعث اليه بختنصر فلحق به . ثم رد أهل مصر إلى موضعهم . وأقاموا كذلك ماشاء الله إلى أن غلب الفرس والروم على سائر الأمم . وقاتل الروم أهل مصر إلى أن وضعوا عليهم الجزى . ثم تقاسمها فارس والروم . ثم تداولوا ملكها فتوالت عليها نواب الفرس . ثم ملكها الاسكندر اليونانى . وجدد الاسكندرية . والآثار التى خارجها . مثل عمود السوارى ورواق الحكمة . ثم غلب الروم على مصر والشأم وأبقوا القبط فى ملكهم وصرفوهم فى الولاية بمصر إلى أن جاء الله بالاسلام ، وصاحب القبط بمصر والاسكندرية المقوقس ، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلى

فأرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة وجبراً مولى أبى رهم الغفارى ، فقارب الاسلام ، وأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته المعروفة ، ذكرها أهل السير ، كان فيها البغلة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبها وتسمى دلدل والحمار الذى يسمى يعفور ، ومارية القبطية أم ولده

ابراهيم ، وأمها وأختها سيرين . وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن . وقدح من قوارير ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب فيه ، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب ، ويقال إن هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل إلى الإسلام فعزله عن رياسة القبط

وخرج مسلم في صحيحه من رواية أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحتم مصر ، أو إنكم مستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً أو صهراً » ورواه ابن اسحق عن الزهري . وقال قلت للزهري : ما الرحم التي ذكر ؟ قال : كانت هاجر أم اسمعيل منهم . ولبعض رواة الحديث في تفسير الصهر أن مارية أم إبراهيم منهم ، أهداها له المقوقس ، وكانت من كورة حفن من عمل أنصناء

وقال الطبري : إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبي صلى الله عليه وسلم بهم فقال : هذا نسب لا يحفظ حقه الا نبي لأنه نسب بعيد ، وذكروا له أن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة ، فقتلوا الملك وسبوها ، ومن هنالك تسيرت إلى أبيكم ابراهيم .

ولما كمل فتح مصر والاسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية ، أقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو بن العاص وعلى الجزى ، وأبقوه على رياسة قومه ، وكانوا يشاورونه فيما ينزل من المهمات ، إلى أن هلك وكان ينزل الاسكندرية ، وفي بعض الأوقات ينزل منف ، من أعمال مصر ، واختط عمرو ابن العاص الفسطاط ، بموضع خيامه التي كان يحاصر مصر منها ، فنزل بها المسلمون وهجروا المدينة التي كان بها المقوقس ، إلى أن خربت وكان في خرابها ومهلك المقوقس انقراض أمرهم .

وبقى أعقابهم إلى هذا الزمان يستعملهم أهل الدول الاسلامية في حسابات الخراج

وجبايات الاموال لقيامهم عليها ، وغنائهم فيها ، وكفايتهم فى ضبطها وتنميتها ، وقد يهاجر بعضهم إلى الاسلام فترفع رتبهم عند السلطان فى الوظائف المالية التى أعلاها فى الديار المصرية رتبة الوزارة فيقلدونهم إياها ليحصل لهم بذلك قرب من السلطان ، وحظ عظيم فى الدولة وبسطة يد فى الجاه ، تعددت منهم فى ذلك رجال ، وتعينت لهم بيوت قصر السلطانُ نظرَه على الاختيار منها لهذا العهد . وعامتهم يقيم على دين النصرانية الذين كانوا عليها لهذا العهد * وأكثرهم بنواحى الصعيد وسائر الاعمال محترفون بالفلح والله غالب على أمره (١)

وأما اقليم مصر فكان فى أيام القبط والفراعنة جسوراً كله بتقدير وتدبير ، يحبسونه ويرسلونه كيف شاءوا ، والجنات حفاف النيل من أعلاه إلى أسفله مابين أسوان ورشيد وكانت مدينة منف وعين شمس يجرى الماء تحت منازلها وأفنيتها بتقدير معلوم ، ذكر ذلك كله عبد الرحمن [بن عبدالله بن عبد الحكم فى فتوح مصر وعزاه لعبد الرحمن ـ خ] بن شُماسة ، وهو من خيار التابعين ، يرويه عن أشياخ مصر قالوا : ومدينة عين شمس كانت هيكل الشمس ، وكان فيها من الأبنية والأعمدة والملاعب ماليس فى بلد .

قلت : وفى مكانها لهذا العهد ضيعة متصلة بالقاهرة يسكنها نصارى من القبط وتسمى المطرية ، قالوا ومدينة منف مدينة الملوك قبل الفراعنة وبعدهم ، إلى أن خربها بختنصر كما تقدم فى دولة قومس بن نقاس ، وكان فرعون ينزل مدينة منف ، وكان لها سبعون باباً ، وبنى حيطانها بالحديد والصفْر . وكانت أربعة أنهار تجرى تحت سريره ، ذكره أبو القاسم بن خردادبه فى كتاب المسالك والممالك له ، قال : وكان طولها إثنى عشر ميلاً .

---

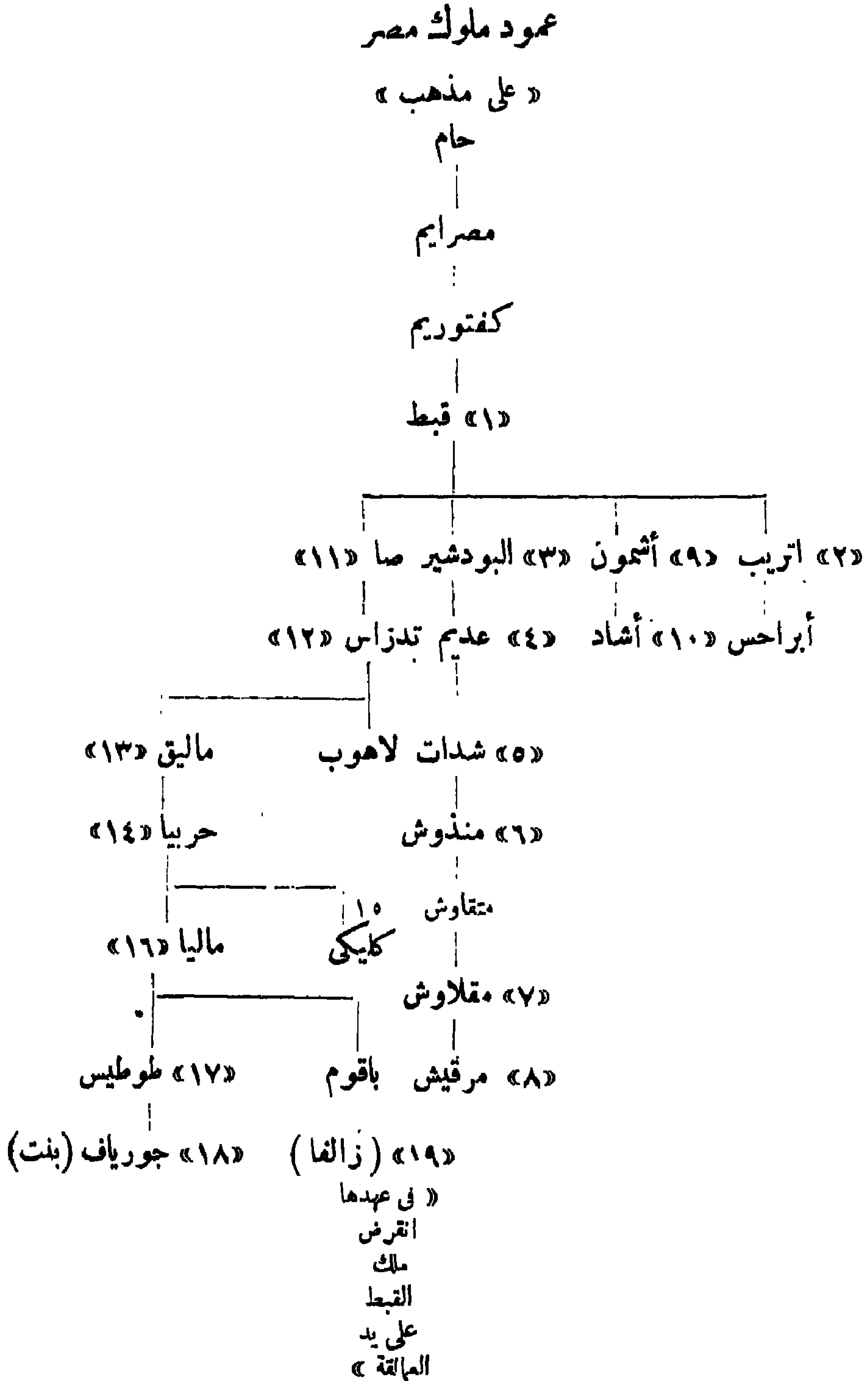
* الذى كانوا عليه لهذا الفتح

١ ـــ لا صلة بين ما يذكره المؤرخون الأقدمون عن مصر والقبط وبين ما هو معروف اليوم ومدون فى الكتب الحديثة المتعددة

وبين المؤرخين الأقدمين أنفسهم تضارب كثير وتعارض فى الأسماء وترتيبها فلذلك أبقينا المؤلف على حالته إلا ما أيقنا بطريقة إصلاحه . وهذا بعد الجهد الجهيد والتنقيب الذى ما عليه من مزيد والرجوع الى عدة مصادر غربية وشرقية

وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار مكررة مرتين بالدينـار الفرعوني ، وهو ثلاثة مثاقيل ، وإنمـا سميت مصر بمصر بن بيْصر بن حام ، ويقال إنه كان مع نوح في السفينة فدعاله ، فأسكنه الله هذه الأرض الطيبة ، وجعل البركة في ولده

وحدُّها طولا من بَرقة إلى أيْلَة وعرضاً من أُسوان إلى رشيد . وكان أهلهـا صابئة ، ثم حملهم الروم لمـا ملـكوها بعد قسطنطين على النّصرانيـة ، عند ماحملوا على الأمم المجاورة لهم ، من الجلالِقـة والصقَالبة وبُرجان والرُّوس والقبط والحبشة والنوبة ، فدانوا كلهم بذلك ، ورجعوا عن دين الصّابئة في تعظيم الهياكل وعبادة الأوثان ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين



هـــذه الارقام حل لا يجريه المؤلف . ولا يعقــل شيء من هذا الترتيب . إذ لا يمكن أن يتأخر أشمون حتى يملك مرقيش فاحرى (صا) فالله أعلم بحقيقة الحال

عمود العمالقة المزاحمون

للقبط
عمليق
عمرو
قاران
أراشه
ثوران
دومغ
الوليد
«٢٠» الريان
«٢١» دارم
«٢٢» معدانوس
«٢٣» كاشم
لاطش
(هنا انقضى ملكهم) «٢٤»
ورجع للقبط

عمود بقية القبط

المالكين بعد العمالقة
زبا
«٢٥» دلوكة (العجوز)
بلوطيس (ليس ابنا لدلوكة وانما ملك بعدها فيما زعموا)
«٢٦» دركون
«٢٧» يرديس
نقراش
«٢٨» نقاس
مارنوس
«٢٩» قرينا
«٣٠» استماريس
مناكيل (١)
«٣١» بلوطيس — نولة
«٣٢» مالوس «٣٥» مارنوس
«٣٦» قرقوره «٣٧» نقاس
«٣٨» قومس

(١) فى هذا الفرع مخالفة لما قدمه المؤلف فقد زاد نولة واسعه ما اعتمده من قبل وهو أن مارنوس بن بركة بن مناكيل بن بلوطين بن مناكيل وهما (٣٣ — ٤٤ من ملوكهم)

عمود ملوك مصر

(على مذهب آخر)

حام

كوش — قوط — كنعان — بيصر

هند — سند — بربر — سودان — بربر — حبش

ماج — ياج — فارق — مصر

أشمون — أتريب — قبط — صا

تدراس

ماليق

حرنيا

كايكى — ماليا

باقوم — طوطيس (هو فرعون ابراهيم الذى اعطاه هاجر ـ هكذا وجد)

زالفا «على عهدها غلب دومغ القبط على مصر وملكها.» — جورياق

بنو إسرائيل

بنو اسرائيل

الخبر عن بنى إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك
وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشأم
وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الاحوال

قد ذكرنا عند ذكر ابراهيم وبنيه صلوات الله وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط .

وفى التوراة أن الله سبحانه وتعالى سماه إسرائيل،وإيل عندهم كلمة مرادفة لعبد، وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته ، والمضاف أبداً متأخر فى لسان العجم ، فلذلك كان إيل هو آخر الكلمة ، وهو المضاف ، ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر ، لمائة وسبع وثمانين * سنة من عمره ، وأوصى أن يدفن عند أبيه ، فطلب يوسف من فرعون أن يطلقه لذلك فأذن له ، وأمر أهل دولته بالانطلاق معه فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين ، فدفنوه بمقبرة آبائه ، وهى التى اشتراها ابراهيم من الكنعانيين ، ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفى ، لمائة وعشرين سنة من عمره ودفن بمصر وأوصى أن يحملو شلوه معهم ، إذا خرجوا إلى أرض الميعاد ، وهى الارض المقدسة وأقام الأسباط بمصر ، وتناسلوا وكثروا ، حتى ارتاب القبط بكثرتهم،واستعبدوهم

وفى التوراة ان ملكاً من الفراعنة جاء بعد يوسف ، لم يعرف شأنه ولا مقامه فى دولة آبائه فاسترق بنى إسرائيل واستعبدهم ثم تحدث الكهان من أهل دولتهم بأن نبوة تظهر فى بنى إسرائيل ، وان ملكا * كائن لهم مع ما كان معلوماً من بشارة آبائهم لهم بالملك ، فعمد الفراعنة إلى قطع نسلهم بذبح الذكور من ذريتهم فلم يزالوا على ذلك مدة من الزمان حتى ولد موسى

نسب موسى

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وأمه يوحانذ بنت

* ملك لمائة وسبع وثلاثين

لاوى عمة عمران* وكان قاهث بن لاوى من القادمين إلى مصر مع يعقوب عليه السلام ، وولد عمران بمصر ، وولد هارون لثلاث وسبعين من عمره ، وموسى لثمانين فجعلته أمه فى تابوت وألقته فى ضحضاح اليَمِّ ، وأرصدت أخته على بعد لتنظر من يلتقطه ، فتعرفه ، فجاءت إبنة فرعون إلى البحر مع جواريها فرأته واستخرجته من التابوت فرحمته ، وقالت هذا من العبرانيين فمن لنا بظئر ترضعه ؟ فقالت لها أخته أنا آتيكم بها ، وجاءت بأمه ، فاسترضعتها له إبنة فرعون إلى أن فصل ، فأتت به إلى إبنة فرعون وسمته موسى ، وأسلمته لها ، ونشأ عندها ثم شب وخرج يوماً يمشى فى الناس وله صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى والرضاع ، فهم لذلك أخواله فرأى عبرانياً يضربه مصرى فقتل المصرى الذى ضربه ودفنه ، وخرج يوماً آخر فاذا هو برجلين من بنى إسرائيل وقد سطا أحدهما على الآخر ، فزجره ، فقال له ومن جعل لك هذا ؟ أتريد أن تقتلنى كما قتلت الآخر* بالأمس ؟ ونما الخبر إلى فرعون فطلبه ، وهرب موسى إلى أرض مَدْين عند عقبة أيلة ، وبنو مدين أمة عظيمة من بنى ابراهيم عليه السلام ، كانوا ساكنين هنالك ، وكان ذلك لأربعين سنة من عمره ، فلقى عند مائهم بنتين لعظيم من عظمائهم ، فسقى لهما ، وجاءتا به إلى أبيهما ، فزوجه بإحداهما ، كما وقع فى القرآن الكريم .

وأكثر المفسرين على أنه شعَيْب بن نوفل* بن عيفا بن مدين ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الطبرى : الذى استأجر موسى وزوجه بنته رُعويل ، وهو بيتر ، حبر مدين أى عالمهم وان رعويل هو الذى زوجه البنت ، وان اسمه يثرون* (١)

وعن الحسن البصرى أنه شعيب رئيس بنى مدين ، وقيل أنه ابن أخى شعيب ، وقيل ابن عمه ، فأقام عند شعيب صهره ، مقبلا على عبادة ربه إلى أن جاءه الوحى ، وهو ابن ثمانين سنة ، وأوحى إلى أخيه هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، فأوحى

* عمرام وهو عمران وكانت قاهث بلت لاوى
* المصرى * نوئيل بن رعوئيل * يترف بن رعوئيل
١ — فى كد « يترون » وهو الموجود فى ط (ا — ٢٠٦) ونقل فى الصفحة نفسها عن ابن عباس ان اسمه يثرى وفى ج « يتر » فصححناه

الله اليهما بأن يأتيا فرعون ليبعث معهما بنى إسرائيل ، فيستنقذانهم من ملكة القبط وجور الفراعنة . ويخرجون إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بملكها على لسان ابراهيم وإسحاق ويعقوب ، فخرجا اليه وبلغا بنى إسرائيل الرسالة ، فآمنوا به واتبعوه . ثم حضرا إلى فرعون وبلغاه أمر الله له بأن يبعث معهما بنى إسرائيل وأراه موسى عليه السلام معجزة العصا ، فكان من تكذيبه وامتناعه وإحضار السحرة لما رأى من موسى فى معجزته ، ثم إسلامهم ما نصه القرآن العظيم ، ثم تمادى فرعون فى تكذيبه ومناصبته واشتد جوره على بنى إسرائيل ، واستعبادهم واتخاذهم سخريا فى مهنة الاعمال ، فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشرة واحدة بعد أخرى ، يسالمهم عند وقوعها ويتضرع إلى موسى فى الدعاء بانجلائها إلى أن أوحى الله إلى موسى بخروج بنى إسرائيل من مصر .

ففى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملاً من الغنم إن كان كفايتهم أو يشتركون مع جيرانهم إن كان أكثر وأن ينضحوا دمه على أبوابهم لتكون علامة . وأن يأكلوه سواء برأسه وأطرافه . ومعناه لا يكسرون منه عظماً . ولا يدعون شيئا خارج البيوت . وليكن خبزهم فطيراً ذلك اليوم وسبعة أيام بعده ، وذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع وليأكلوا بسرعة . وأوساطهم مشدودة . وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم . ويخرجوا ليلاً وما فضل من عشائهم ذلك يحرقوه بالنار .

وشرع هذا عيداً لهم ولأعقابهم ويسمى عيد الفصح (١)

وفى التوراة أيضاً أنه قتل فى تلك الليلة أبكار النساء من القبط ودوابهم ومواشيهم ، ليكون لهم بذلك شغل عن بنى إسرائيل ، وانهم أمروا أن يستعيروا منهم حلياً كثيراً يخرجون به ، فاستعاروه وخرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب

١ ـــ كتب نص ناشر الطبعة الأولى على هذا المحل ما لفظه : قوله عيد الفصح ، صوابه عيد الفطير لأن عيد الفصح للنصارى قال العطار اه . وهذا غير صحيح فان الفصح لأهل الكتابين معا وقد نسبته التوراة لليهود فى (ع ٩ : ٢ ؛ ٣٠ : ٤) « وليعمل بنو إسرائيل الفصح فى وقته » اه

والانعام ، وكانوا ستمائة ألف أو يزيدون وشغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم ، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام ، استخرجه موسى صلوات الله عليه من المدفن الذى كان به بإلهام من الله تعالى ، وساروا لوجههم حتى انتهوا إلى ساحل البحر بجانب الطور .

وأدركهم فرعون وجنوده ، وأمر موسى بأن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه ، فضرب به فانفلق طرقاً ، وسار فيها بنو إسرائيل وفرعون وجنوده فى اتباعه [فلما خلص إلى عدوة الطور انطبق البحر على فرعون وقومه — خ] فهلكوا ونزل بنو إسرائيل بجانب الطور

وسبّحوا مع موسى بالتسبيح المنقول عندهم وهو « نُسبِّحُ الرَّبَّ البهىَّ الذى قهر الجنود ونبذ فُرْسانها فى البحر المنيع المحمود » إلى آخره [وهو طويل — خ] قالوا وكانت مريم أُخت موسى وهارون صلوات الله عليهما تأخذ الدُّفَّ بيدها ، ونساء بنى إسرائيل فى اثرها بالدُّفوف والطبول ، وهى ترتل لهن التسبيح « سبحان الرَّبِّ القهَّارِ الذى قَهَرَ الخيولَ ورُكبانها وألقاها فى البحر » وهو معنى الأول

ثم كانت المناجاة على جبل الطور وكلام الله لموسى . والمعجزات المتتابعة ونزول الألواح ، ويزعم بنو إسرائيل أنها كانت لوحين فيها الكلمات العشر ، وهى كلمة التوحيد ، والمحافظة على السبت ، بترك الأعمال فيه ، وبرّ الوالدين ، ليطول العمر ، والنهى عن القتل ، والزّنا ، والسرقة ، وشهادة الزُّور ، ولا تمتد عين إلى بيت صاحبه أو امرأته أو لشئ من متاعه . هذه الكلمات العشرة التى تضمنتها الألواح

المناجاة ونزول الوحى والألواح

وكان سبب نزول الألواح أن بنى إسرائيل لما نجوا ونزلوا حول طور سيناء صعد موسى الى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بنى إسرائيل بالنعمة عليهم فى نجاتهم من فرعون ، وأن يتطهَّروا ويغسلوا ثيابهم ثلاثة أيام ، ويجتمعوا فى اليوم الثالث حول الجبل من بعد ففعلوا ، وأظلَّت الجبل غمامة عظيمة ذات بروق ورعود ففزعوا ، وقاموا فى سفح الجبل دهشين ، ثم غشى الجبل دخان فى وسطه عمود نور ، وتزلزل له الجبل زلزلة عظيمة شديدة ، واشتدَّ صوت الرعد الذى كانوا يسمعونه ، وأمر موسى صلوات الله عليه بأن يقرب بنى إسرائيل لسماع الوصايا والتكاليف .

قال فلم يطيقوا فأمر بحضور هارون ، وتكون العلماء غير بعيد ، ففعل وجاءهم بالألواح ثم سار بعد ذلك إلى ميعاد الله بعد أربعين ليلة ، فكلمه ربه ، وسأل الرؤية فمنعها فكان الصعق ، وساخ الجبل ، وتلقى كثيراً من أحكام التوراة في المواعظ والتحليل والتحريم ، وكان حين سار إلى الميعاد استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل ، واستبطأوا موسى ، وكان هارون قد أخبرهم بأن الحلي الذي أخذوه من القبط محرم عليهم فأرادوا حرقه ، وأوقدوا النار ، وجاء السامري في شيعة له من بني إسرائيل ، وألقى عليه شيئاً كان عنده من أثر الرسول ، فصار عجلا ، وقيل عجلا حيواناً ، وعبده بنو إسرائيل ، وسكت عنهم هارون خوفا من افتراقهم ، وجاء موسى صلوات الله عليه من المناجاة ، وقد أخبر بذلك في مناجاته ، فلما رآهم على ذلك ألقى الألواح ويقال كسرها وأبدل غيرها من الحجارة ، وعند بني إسرائيل أنهما اثنان ، وظاهر القرآن أنها أكثر ، مع أنه لا يبعد استعمال الجمع في الاثنين ، ثم أخذ برأس أخيه ووبخه ، واعتذر له بما اعتذر ، ثم حرق العجل وقيل برده بالمبرد ، وألقاه في البحر ، وكان موسى صلوات الله عليه لما نجا ببني إسرائيل إلى الطور بلغ خبره إلى يثرون صهره من بني مدين فجاء ومعه بنته صفورا زوجة موسى عليه السلام التي زوجها به أبوها رعويل ، كما تقدم ومعها ابناها من موسى ، وهما جرشون وعازر ، فتلقاها موسى صلوات الله عليه بالبر والكرامة ، وعظمه بنو إسرائيل ورأى كثرة الخصومات على موسى ، فأشار عليه بأن يتخذ النقباء على كل مائة أو خمسين أو عشرة ، فيفصلوا بين الناس ، وتفصل أنت فيما أهم وأشكل ، ففعل ذلك

ثم أمر الله موسى ببناء قبة للعبادة والوحي من خشب الشمشاد (١) ويقال هو السنط ، وجلود الأنعام ، وشعر الأغنام ، وأمر بتزيينها بالحرير والمصبغ والذهب والفضة ، على أركانها صور ، منها صور الملائكة الكروبيين ، على كيفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله ، ولها عشر سرادقات مقدرة الطول والعرض ، وأربعة أبواب وأطناب من حرير منقوش مصبغ وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضة ، وفي كل زاوية بابان وستور من حرير ، وغير ذلك مما هو مشروح في التوراة

١ ــ في ع « شمشار » بالراء (ص ٣٠١)

ويعمل تابوت من خشب الشمشاد طول ذراعين ونصف ، فى عرض ذراعين فى ارتفاع ذراع ونصف ، مصفحاً بالذهب الخالص من داخل وخارج ، وله أربع حلق فى أربع زوايا ، وعلى حافته كَرُوبيان من ذهب ، يعنون مثالى ملكين بأجنحة ويكونان متقابلين ، وأن يصنع ذلك كله فلان ، شخص معروف من بنى إسرائيل وأن يعمل مائدة من خشب الشمشاد ، طول ذراعين فى عرض ذراع ونصف بطناب ذهب وإكليل ذهب ، بحافة مرتفعة ، بأكليل ذهب ، وأربع حلق ذهب ، فى أربع نواحيها مغروزة فى مثل الرمانة من خشب ملبس ذهباً وصحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة ، كلها من ذهب وأن يعمل منارة من ذهب بست قصبات ، من كل جانب ثلاث ، وعلى كل قصبة ثلاث سرج . وليكن فى المنارة أربعة قناديل . ولتكن هى وجميع آلاتها من قنطار من ذهب . وأن يعمل مذبحاً للقربان ، ووصف ذلك كله فى التوراة بأتم وصف

ونصبت هذه القبة فى أول يوم من فصل الربيع ، ونصب فيها تابوت الشهادة وتضمن هذا الفصل فى التوراة من الأحكام والشرائع فى القربان والنحور وأحوال هذه القبة كثيراً

وفيها أن قبة القربان كانت موجودة قبل عبادة أهل العجل ، وأنها كانت كالكعبة يصلون اليها ، وفيها ، ويتقربون عندها ، وأن أحوال القربان كانت كلها راجعة إلى هارون عليه السلام ، بعهد الله إلى موسى بذلك ، وأن موسى صلوات الله عليه كان إذا دخلها يقفون حولها وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرُّون عند ذلك سُجَّداً لله عزّ وجلّ ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام ، الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامد لما بين ذينك الكَرُوبيين . فاذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه اليه من الأوامر والنواهى ، وإذا تحاكموا اليه فى شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة القربان ، ويقف عند التابوت ، ويصمد لما بين ذينك الكروبيين ، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الخصومة

ولما نجا بنو إسرائيل ودخلوا البرية عند سينا أول المصيف لثلاثة أشهر من

خروجهم من مصر ، وواجهوا جبال الشأم وبلاد بيت المقدس التى وعدوا بها أن تكون ملكا لهم على لسان ابراهيم واسحق ويعقوب صلوات الله عليهم [وبها يومئذ جبابرة الكنعانيين والعمالقة وجاء الوحى إلى موسى صلوات الله عليه — خ] بمسيرهم اليها ، وأتوه باحصاء بنى اسرائيل ، من يطيق حمل السلاح منهم من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ، وضرب عليهم الغزو ، ورتب المصاف والميمنة والميسرة ، وعين مكان كل سبط فى التعبئة ، وجعل فيه التابوت والمذبح فى القلب وعين لخدمتها بنى لاوى من أسباطهم ، وأسقط عنهم القتال لخدمة القبة ، وسار على التعبئة سالكا على برية فاران ، وبعثوا منهم اثنى عشر نقيباً من جميع الأسباط فأتوهم بالخبر عن الجبارين ، كان منهم كالب بن يُوفنا بن حَضرون ابن يارص بن يَهُوذا بن يعقوب ، ويُوشع بن نون بن أليشامع بن عمِّيهُود (١) ابن بارص بن لعدَّان بن تاحن بن تالح بن رشف بن رافح بن بريعا بن أفرايم (٢) ابن يوسف بن يعقوب ، فاستطابوا البلاد ، واستعظموا العدو من الكنعانيين والعمالقة ، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم الخبر وخذلوهم إلا يُوشع وكالب فقالا لهم ما قالا ، وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، وقعد بنو اسرائيل عن اللقاء وأبوا السير إلى عدوهم ، والأرض التى ملكهم الله ، إلى أن يهلك الله عدوهم على غير أيديهم ، فسخط الله ذلك منهم ، وعاقبهم بأن لا يدخل الأرض المقدسة أحد من ذلك الجيل إلا كالبا ويوشع ، وإنما يدخلها أبناؤهم ، والجيل الذى بعدهم ، فأقاموا كذلك أربعين سنة فى برية سينا وفاران يترددون حوالى جبال الشَّرَاة وأرض ساعير وأرض بلاد الكرك والشوبك ، وموسى صلوات الله عليه بين ظهرانيهم يسأل الله لطفه بهم ومغفرته ، ويدفع عنهم مهالك سخطه . وشكوا الجوع فبعث الله

---

١ — فى ج « عميهون » بالنون وفى كد (عد ١ — ١٠) بالدال

٢ — هكذا هنا ولم نقف على ضبط العمود كله وفى ت أثناء سرد نسب يوشع ما يخالف هذا إذ قال : « هو يوشع بن نون بن عازر بن سوتالح بن راباد بن باحث بن أهاد بن يارذ بن شوتالح بن أفرايم بن يوسف » وانظر أيضاً كد (عد ٢٦ — ٣٥ — ٣٧) (يا ٧ : ٢٢ — ٢٦) وف (١ — ٢١) ففيه ما يقارب المؤلف مع إسقاط بارص ومغايرة فى الباقى وكذلك وقع لابن الوردى (١٠ — ٢٠)

لهم المَنّ « حبات بيض منتشرة على الأرض مثل ذرير الكزبرة » فكانوا يطحنونه ويتخذون منه الخبز لأكلهم ، ثم قرموا إلى اللحم فبعث لهم السلوى ، طيراً يخرج من البحر ، وهو طير السمانى ، فيأكلون منه ويدخرون ، ثم طلبوا الماء . فأمر أن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وأقاموا على ذلك .

ثم ارتاب واحد منهم اسمه قورَح بن إيصهَر بن قاهَث ، وهو ابن عم موسى ، ابن عمران بن قاهث ، فارتاب هو وجماعة منهم من بنى إسرائيل ، بشأن موسى ، واعتمدوا مناصبته ، ، فأصابتهم قارعة ، وخسفت بهم وبه الأرض ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين .

واعتزم بنو إسرائيل على الاستقالة مما فعلوه والزحف إلى العدو ، ونهاهم موسى عن ذلك فلم ينتهوا ، وصعدوا جبل العمالقة ، فحاربهم أهل ذلك الجبل فهزموهم وقتلوهم فى كل وجه فأمسكوا . وأقام موسى على الاستغفار لهم ، فأرسل إلى ملك أدوم يطلب الجواز عليه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وحال دون ذلك .

ثم قبض هارون صلوات الله عليه لمائة وثلاث وعشرين سنة من عمره ، ولأربعين سنة من يوم خروجهم من مصر ، وحزن له بنو إسرائيل لأنه كان شديد الشفقة عليهم ، وقام بأمره الذى كان يقوم به إبنه ألِعَزار ، ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم ، وغنموا ما أصابوا معهم ، وبعثوا إلى سِيحون ملك العَمُوريين من كنعان فى الجواز فى أرضه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وجمع قومه وغزا بنى إسرائيل فى البرية ، فحاربوه وهزموه ، وملكوا بلاده إلى حد بنى عَمُّون ونزلوا مدينته ، وكانت لبنى مُوَّاب وتغلب عليهم سِيحون . ثم قاتلوا عُوجاً وقومه من كنعان ، وهو المشهور بعُوج بن عَرق ، وكان شديد البأس فهزموه ، وقاتلوه وبنيه وأثخنوا فى أرضه ، وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحاء ، وخشى ملك بنى مُوَّاب من بنى إسرائيل واستجاش بمن يجاوره من بنى مَدْيَن وجمعهم ، ثم أرسل إلى بَلْعام بن باعورا ، وكان ينزل فى التُّخم بين بلاد بنى عمون وبنى مُوَّاب ، وكان مجاب الدعوة معبراً للأحلام ، واستدعاه ليستعين بدعائه . وأتاه الوحى بالنهى عن الدعاء وألح عليه ذلك الملك ، وأصعده إلى الأماكن الشاهقة وأراه معسكر

بنى إسرائيل منها فدعا لهم . وأنطقه الله بظهورهم . وانهم يملكون إلى الموصل . ثم تخرج أمة من أرض الروم فيغلبون عليهم . فغضب الملك وانصرف بلعام إلى بلاده .

وفشا فى بنى إسرائيل الزنا ببنات مُؤاب ومدين فأصابهم المُوتان فهلك منهم أربعة وعشرون ألفاً .

ودخل فِنْحَاص بن أَلِعَازَرَ على رجل من بنى إسرائيل فى خيمته . ومعه امرأة من بنى مدين قد أدخلها للزنا بمرأى من بنى إسرائيل فطعنها برمحه وانتظمها وارتفع المُوتان عن بنى إسرائيل .

ثم أمر الله موسى وألِعازَر بن هارون باحصاء بنى إسرائيل ، بعد فناء الجيل الذى أحصاهم موسى وهارون ببرية سينا ، وانقضاء الاربعين سنة التى حرم الله عليهم فيها دخول تلك الأرض ، وأن يبعث بعثاً من بنى إسرائيل إلى مدين الذين أعانوا بنى مُؤاب ، فبعث اثنى عشر ألفاً من بنى اسرائيل وعليهم فِنْحَاص بن أَلِعازَر بن العِزَر بن هارون ، فحاربوا بنى مدين وقتلوا ملوكهم ، وسبوا نساءهم ، وملكوا أموالهم وقسم ذلك فى بنى إسرائيل ، بعد أن أخذ منه لله . وكان فيمن قتل بَلْعام بن باعورا . ثم قسم الأرض التى ملك من بنى مدين والعَمُورِيين وبنى عَمُّون وبنى مُؤاب ، ثم ارتحل بنو إسرائيل ونزلوا شاطئ الأُرْدُن

وقال الله قد ملَّكتكم ما بين الأردن والفُرات كما وعدت آباءكم .ونهوا عن قتال عِيصو الساكنين ساعير وبنى عَمُّون وعن أرضهم

وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى عليه السلام وقبضه اليه لمائة وعشرين سنة من عمره ، بعد أن عهد إلى فتاه يوشع أن يدخل ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة ، ليسكنوها ويعملوا بالشريعة التى فرضت عليهم فيها ، ودفن بالوادى فى أرض مُؤاب ، ولم يعرف قبره لهذا العهد وفاة موسى

وقال الطبرى : مدة عمر موسى صلوات الله عليه مائة وعشرون سنة ، منها فى أيام أفْرِيدُون عشرون ، ومنها فى أيام مَنُوچِهْر مائة

. قال ثم سار يُوشَع من بعد موسى الى أرِيحَا فهزم الجبارين ودخلها عليهم . أمر يوشع من بعده

وقال السدى : إن يُوشَع تنبأ بعد موسى وسار الى أرِيحَا فهزم الجبارين ودخلها

عليهم ، وإن بَلْعام بن باعورا كان مع الجبارين يدعو على يوشع ، فلم يستجب له ، وصرف دعاؤه على الجبارين ، وكان بَلْعام من قرى البَلْقاء ، وكان عنده الاسم الأعظم ، فطلبه الكنعانيون فى الدعاء على بنى إسرائيل فامتنع ، وألحوا عليه فأجاب ودعا فصرف دعاؤه . وكان قيامه للدعاء على جبل حسان ، مُطلاً على عسكر بنى إسرائيل . هذا خبر السُّدّى فى أن دعاء بلعام كان بعهد يوشع

والذى فى التوراة : أنه كان لعهد موسى ، وأن بلعام قتل لعهد موسى، كما مرَّ فى خبر الطبرى . وقال السدى : أن يوشع بعد وفاة موسى صلوات الله عليه أُمر أن يعبُر ، فسار ومعه التابوت ، تابوت الميثاق ، حتى عبر الأرض ، وقاتل الكنعانيين فهزمهم وأن الشمس جنحت للغروب يوم قتالهم ، ودعا الله يوشع فوقفت الشمس ، حتى تمت عليهم الهزيمة . ثم نازل أريحاء ستة أشهر ، وفى السابع نفخوا فى القرون ، وضج الشعب ضجة واحدة ، فسقط سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها . وكمل الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيين كما أمرهم الله

هذا مساق الخبر عن سيرة موسى صلوات الله عليه وبنى إسرائيل أيام حياته وبعد مماته حتى ملكوا أريحا . وفى كتب الأخباريين : أن العمالقة الذين كانوا بالشأم قاتلهم يوشع فهزمهم ، وقتل آخر ملوكهم ، وهو السَّمَيْدَع بن هَوْبَر بن مالك . وكان لقاؤهم إياه مع بنى مدين فى أرضهم ، وفى ذلك يقول عَوْف بن سعد الجرْهُمى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العلْقَمِىَّ بنَ هَوْبَرٍ ... بأَيْلَةَ أمسَى لَحْمُهُ قد تَمَزَّعا
تَرَامتْ عليهِ منْ يَهودَ جَحَافِلٌ ... ثمانونَ ألفاً حاسِرينَ ودُرَّعا

ذكره المسعودى : وقد تقدم لنا خلاف النسابة فى هؤلاء العمالقة وانهم لعمليق ابن لاوذ أو لعماليق بن أليفاز بن عيصو . الثانى لنسابة بنى إسرائيل ، سار اليه علماء العرب .

وأما الأمم الذين كانوا بالشأم لذلك العهد فأكثرهم لبنى كنعان . وقد تقدمت شعوبهم وبنو أروم * أبناء عمُّون ، وبنو موآب أبناء لوط وثلاثتهم أهل يستعير *

* أدوم * سعير

وجبال الشَّرَاة ، وهي بلاد الكَرَك والشَّوْبَك والبلْقا . ثم بنو فلسطين من بني حام ، ويسمى ملكهم جالوت ، وهو من الكنعانيين منهم ، ثم بنو مَدينَ ثم العمالقة . ولم يؤذن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيين ، فهي التي اقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثاً . وأما غيرها فلم يكن لهم فيها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها

وفي كتب الأخباريين : أن بني إسرائيل بعد ملكهم الشام بعثوا بعوثهم إلى الحجاز ، وهنالك يومئذ أمة من العمالقة يسمون جاسم . وكان اسم ملكهم الأرقم (١) بن الأرقم ، وكان أوصاهم أن لا يستبقوا منهم من بلغ الحلم . فلما ظهروا على العمالقة وقتلوا الأرقم استبقوا ابنه ، وضنوا به عن القتل لوضاءته . ولما رجعوا من بعد الفتح ، وبخهم إخوانهم ومنعوهم دخول الشام وأرجعوهم إلى الحجاز ، وما تملكوا من أرض يثرب فنزلوها واستتم لهم فتح في نواحيها ، ومن بقاياهم يهود خيبر وقُرَيظة والنَّضير . قال ابن اسحق قريظة والنضير والتحام وعمرو هو هزل من الخزرج . وقال ابن الصريح : من التومان بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوي ابن حبر بن النحام بن يَنْحُوم بن عازر بن عَزْر بن هارون عليه السلام . واليهود لا يعرفون هذه القصة وبعضهم يقول كان ذلك لعهد طالوت والله أعلم

حكام بني اسرائيل بعد يوشع الى طالوت

الخبر عن حكام بني اسرائيل

بعد يوشع إلى أن صار أمرهم إلى الملك وملك عليهم طالوت

ولما قبض يوشع صلوات الله عليه ، بعد استكمال الفتح وتمهيد الأمر ، ضيع بنو إسرائيل شريعة موسى وما أوصاهم به ، وحذرهم من خلافه ، فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشأم ، وطمعوا فيهم من كل ناحية ، وكان أمرهم شورى ، فيختارون للحكم في عامتهم من شاؤا ، ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم ، ولهم الخيار مع ذلك على من يلي شيئاً من أمرهم ، وتارة يكون نبياً يدبرهم بالوحي . وأقاموا على .

١ — في ج . ارم ، والتصحيح من ش (٤ — ٢٩٣)

ذلك نحواً من ثلثمائة سنة لم يكن لهم فيهـا ملك مستفحل ، والملوك تناوشهم من كل جهـة إلى أن طلبوا من نبيهم شمـويل أن يبعث عليهم ملـكا . فـكان طالوت ومن بعده داود فاستفحل ملـكهم يومئذ وقهروا أعداءهم ، على ما يأتي ذكره بعد . وتسمى هـذه المدة بين يوشع وطالوت مدة الحـكام ومدة الشيوخ . وأنا الآن أذكر من كان فيها من الحـكام على التتابع ، معتمداً على الصحيح منه على ما وقع فى كتاب الطبرى والمسعودى ، ومقابلا به ما نقله صاحب حماة من بنى أيوب فى تاريخـه عن سفر الحـكام والملوك من الاسرائيليات ، وما نقـله أيضاً هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجـه للحَكَم المُستنصِر من بنى أمية ، قاضى النصارى ، وترجمانهم بقرطبة ، وقاسم بن أصبغ . قالوا كلهم : لما فتح يوشع مدينة أريحاء سار إلى نابلس فملـكها ، ودفن هنالك شلو يوسف عليه السلام ، وكانوا حملوه معهم عند خروجهم من مصر . وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته . وقال الطبرى : إنه بعدفتح أريحاء نهض إلى بلدعاى من ملوك كنعان ، فقتل الملك وأحرق المدينة وتلقاه جبعون (١) ملك عمان (٢) ، وبارق ملك أورشليم بالجزى ، واستذمُّوا بأمانه ، فأمنهم ، وزحف إلى جبعون ملك الارمانيين من نواحى دمشق ، فاستنجد بيوشع فهزم يوشع ملك الأرمن إلى حوران ، واستلحمهم وصلب ملوكهم وتتبع سائر الملوك بالشأم (٣) فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملـكا ، وملك قيسارية وقسم الأرض

ترجمة كتاب هروشيوش

١ — فى ج « خيقون » والتصحيح من ط ومن كد

٢ — فى ج « عماق وبارق » والتصحيح من ط

٣ — اقتضب المؤلف كلام ط اقتضابا وإليك نصه (١ — ٢٢٨) «واحتال أهل عمان جبعون ليوشع حتى جعـل لهم أماناً فلما ظهر على خديعتهم دعا الله عليهـم أن يكونوا حطابين وسـقائين فـكانوا كذلك وأن يكون بازق ملك أورشليم يتعبدق ثم أرسـل ملوك الأرمانيين وكانوا خمسة بعضهم الى بعض وجمعوا كلهم على جبعون فاستنجد أهل جبعون يوشع فأنجدهم » ومقتضى هذا أن يكون ملك أورشليم قد خدع يوشع وعاهده وأنه لم يكن ممن حارب جبعون من أجل خضوعها ليوشع وهذا يغاير ما يذكره كثير من المؤرخين العصريين ويوجد فى كد أن ملك أورشليم هو الذى دعا بقيـة الملوك لمحاربة جبعون جزاء عملها ونص كد (يشوع ١٠ : ١ — ٦) فلما سمع أدونى صادق (فى ط بازق) ملك أورشليم أن يشوع أخـذ عاى ...... وأن سكان جبعون قد صالحوا إسرائيل .... فأرسل أدونى صادق الى هودام ملك حبرون وفرتام ملك يرموث ويافيع ملك لخيش ودبير ملك عجلون يقول : «إصعدوا الى وأعينونى فنضرب جبعون » : ويلاحظ أيضا إن ط والمؤلف يسميان هؤلاء الملوك بالأرمانيين وكد يسميهم بالأموريين

التى ملكها بين بنى إسرائيل ، وأعطى جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم ، وأقام مع بنى يهودا ، ووضع القبة التى فيها تابوت العهد ، والمذبح والمائدة والمنارة على الصخرة التى فى بيت المقدس . وأما بنو أفرايم فكانوا يأخذون الجزية من الكنعانيين

ثم قبض يوشع ، وفى سفر الحكام أنه قبض لثمان وعشرين سنة من ملكه ، وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقال الطبرى : ابن مائة وستة وعشرين سنة . والأول أصح . قال : وكان تدبير يوشع لبنى إسرائيل فى زمن منوشهر عشرين سنة ، وفى زمن أفراسياب سبع سنين . وقال أيضاً : أن [أول من - خ] ملك اليمن شمر بن الأملوك من حمير ، كان لعهد موسى ، وبنى ظفار ، وأخرج منها العمالقة . ويقال أيضاً : كان من عمال الفرس على اليمن

من ملك بعد يوشع

وزعم هشام بن محمد الكلبي أن الفل من الكنعانيين بعد يوشع احتملهم إفريقش بن قيس بن صيفى من سواحل الشام ، فى غزاته الى المغرب التى قتل فيها جرجيس الملك ، وأنه أنزلهم بإفريقية ، فمنهم البربر ، وترك منهم صنهاجة وكتامة من قبائل حمير . اه

كاليب بن يوفنا

وقام بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا* بن حضرون بن بارص بن يهودا ، وقد مر نسبه ، وكان فنحاص بن العيزر بن هارون كوهنا يتولى أمر صلاتهم وقربانهم ، ثم تنبأ ، وتنبأ أبوه العيزرى ، وكان كالب مضعفاً . فأقاما كذلك سبع عشرة سنة . وقال الطبرى : كان مع كالب فى تدبيرهم حزقيل بن بودى ، ويقال له ولد العجوز ، لأنه ولد بعد أن كبرت أمه وعقمت

وحدث عن وهب بن منبه : أن حزقيل هذا دبرهم بعد كالب ، ولم يقع لهذا ذكر فى سفر الحكام

ثم بعد يوشع اجتمع بنو يهودا وبنو شمعون لحرب الكنعانيين ، فغلبوهم وقتلوهم وفتحوا أورشليم ، وقتلوا ملكها ، ثم فتحوا غزة وعسقلان ، وملكوا

* يقنا

الجبل كله ولم يقتلوا [أهل ـ خ] الغَوْر . وأما سبط بَنْيامين فكان فى قسمهم بلد اليونانيين * فى أرضهم ، وأخذوا منهم الخراج واختلطوا بهم ، وعبدوا آلهتهم ، فسلط الله عليهم ملك الجزيرة ، واسمه كوشان شقنائم (١) ومعناه أظلم الظالمين . ويقال إنه ملك الأرمن فى الجزيرة ودمشق وملك حَوْران وصَيْدا وحَرّان ، ويقال والبحرين ؛ ويقال أنه من أَرُوم . وقال الطبرى : من نسل لوط ، فاستعبد بنى إسرائيل ثمانيَ سنين بعد وفاة كالب بن يوفنّا . ثم ولى الحكم فيهم عُثْنِيئال بن أخيه قَنَار * ابن يوفُنّا ، فحارب كوشان هذا وأزال ملكته عن بنى إسرائيل . ثم حاربه فقتله وكان له بعد ذلك حروب سائر أيامه مع بنى مُؤاب وبنى عَمُّون ، أسباط لوط ، ومع العماليق ، إلى أن هلك لأربعين سنة من دولته ، ثم عبد بنو إسرائيل الأوثان من بعده ، فسلط الله عليهم ملك بنى مُؤاب واسمه عِغْلون ، بعين مهملة ومعجمة ساكنة ولام مضمومة تجلب واواً ساكنة ونون بعدها ، فاستعبدهم ثمانيَ عشرة سنة . ثم قام بتدبيرهم ايهوذ (٢) بن كارا ، من سبط أَفْرَيم . وقال ابن حزم : من بنيامين . وضبطه بهمزة ممالة تجلب ياء ، ثم هاء مضمومة تجلب واواً ، ثم ذال معجمة . فتنقذهم من يد بنى مؤاب ، وقتل ملكهم عِغْلون بحيلة تمت لهم فى ذلك : وهو أنه جاءه رسولاً عن بنى إسرائيل متنكراً بهدايا وتحف منهم ، حتى إذا خلا به طعنه فأنفذه ، ولحق بمكانه من جبل أَفْرايِم ، ثم اجتمعوا ونزلوا ، فقتلوا من الحرس نحواً من عشرة آلاف وغلب بنى إسرائيل بنى مؤاب واستلحمهم . وهلك لثمانين سنة من دولته

أيهوذ

شمكار بن عناث

وقام بتدبيرهم بعده شَمْكار بن عَنَاث من سبط كاد . وضبطه « بفتح الشين المثلثة بعدها ميم ساكنة وكاف تقرب من مخرج الجيم ، ويجلب فتحها ألفاً وبعدها راء مهملة » ومات لسنة من ولايته ، وبنو إسرائيل على حيالهم من المخالفة ، فسلط الله

---

* اليبوسيين فلم يغلبوا عليهم وأما بنو يقطالى فسكنوا مع الكنعانيين

١ — (قضاة ٣ : ٨) كوشان ريشعتايم

* قينا ثم ولى الحكم فيهم من بعدهم عتنيئيل بن أخيه قينا بن قنيا لحارب كوشان

٢ — فى ع (ص ٣٨) أهور بن جارا بالراء بدل الدال وقد قال ناشره الأب ألطون صالحانى اليسوعى « إنه فى العبرانية أهود ولعل أهور هو تصحيف أهود لأن الدال تلتبس بالراء فى العربانية كما هو الأمر فى العربية

يافين ملك كنعان

عليهم ملك كنعان واسمه يافين « بفاء شفوية تقرب من الباء » فسرح اليهم قائده سيسرا (١) فملك عليهم أمرهم واستعبدهم عشرين سنة ، وكانت فيهم * كوهنة امرأة متنبئة اسمها دافورا « بفاء هوائية تقرب من الباء » وهي من سبط نفطالى * وقيل من سبط أفرايم ، وقيل كان زوجها بارق بن أبي نوعم من سبط نفطالى* ، واسمه سبدوت فدعته الى حرب سيسرا فأبي إلا أن تكون معه ، فخرجت ببني إسرائيل وهزموا الكنعانيين وقتل قائدهم سيسرا وقامت بتدبيرهم أربعين سنة ، يرادفها زوجها بارق بن أبي نوعم

أفور النبي (و)

قال هروشيوش : وعلى عهدها كان أول ملوك الروم اللطينيين بأنطاكية بنقش (٢) بن شطونش ، وهو أبو القياصرة . ثم توفيت دافورا وبقي بنو إسرائيل فوضى ، وعادوا إلى كفرهم ، فسلط الله عليهم أهل مدين والعمالقة

قال الطبرى : وبنو لوط الذين بتخوم الحجاز قهروهم سبع سنين ، ثم تنبأ فيهم من سبط منشى بن يوسف كدعون بن يواش ، وضبطه « بفتح الكاف القريبة من الجيم وسكون الدال المهملة بعدها وعين مهملة مضمومة تجلب واواً وبعدها نون » فقام بتدبيرهم . وقد كان لمدين ملكان : أحدهما اسمه زابح ، والآخر صلمناع . فبعث إلى بني إسرائيل عساكره مع قائدين : عوديف وزديف . وأهم بني إسرائيل شأنهم ، فخرج بهم كدعون فهزموا بني مدين ، وغنموا منهم أموالاً جمة ، ومكثوا أيام كدعون هذا على استقامة في دينهم ، وغلب لأعدائهم أربعين سنة . وكان له من الولد سبعون ولداً ، وعلى عهده بنيت مدينة طرسوس * (٣) . وقال جرجيس

(ز) كدعون بن يواش

---

١ — في ج « سميراء » والتصحيح من كد (ق ٢٠٤) و ع (ص ٣٩)

* يومئذ

* يقطالى

* يقطالى

٢ — هكذا هنا بنقش وفي ش (٥ — ٣٨٢) بيقش بالياء بعد الباء وسيأتي للمؤلف (٢ — ١٤٦) تسميته الفنش فليحرر

* طرشوش

٣ — الذى في ع (ص ٤١) أنها بنيت أيام تولع ابن فوا

(ح) أبو مليخ

ابن العميد: وملطية أيضاً . ولما هلك قام بتدبيرهم ولده أبو مَلِيخ وكانت أمه من بني شخام بن منشّى بن يوسف من أهل نابلس ، فأنجدوه بالمال ، وقتل بني أبيه [١] كلهم ثم نازعه بنو شخام أخواله الأمر ، وطالت حروبه معهم ، وهلك محاصراً لبعض حصونهم بحجر طرحته عليه امرأة من السور فشدخه ، فقال لصاحب سلاحه : أجهز عليّ لئلا يقال قتلته امرأة . وذلك لثلاث سنين من ولايته

طولاع (ط)

ثم دبر أمرهم بعده طولاع بن فوا* بن داود[٢] من سبط يساخر وضبطه « بطاء قريبة من التاء تجلب ضمتها واواً ، ثم لام ألف ثم عين » . وقال الطبرى : هو ابن خال أبي مَلِيخ أو ابن عمه . قلت : والظاهر أنه ابن خاله لأن سبط هذا غير سبط ذاك

وقال ابن العميد : هو من سبط يساخر إلا أنه كان نازلا فى سامير من* جبل أفرايم . فمن هنا والله أعلم وقع اللبس فى نسبه . ودبرهم ثلاثا وعشرين سنة . قال هروشيوش : وعلى عهده كان بمدينة طرويه* من ملوك الروم اللطينيين برَمامِش[٣] ابن بنقش ، وملك ثلاثين سنة وقد مضى ذكره . ولما هلك طولاع قام بتدبيرهم بعده

يائير بن كلعاد (ى)

يائير بن كِلعاد من سبط مَنَشّى بن يوسف ، وضبطه « بياء مثناة تحتية مفتوحة وألف ثم همزة مكسورة بعدها ياء أخرى ثم راء مهملة » وقام فى تدبيرهم ثنتين وعشرين سنة ونصب أولاده كلهم حكاماً فى بنى إسرائيل وكانوا نحواً من ثلاثين . فلما هلك طغوا وعبدوا الأصنام فسلط الله عليهم بنى فلسطين وبنى عمون ، فقهروهم ثماني

(ع) يفتاح من سبط منشى

عشرة سنة . وقام بتدبيرهم يفتاح من سبط* منشّى . « وضبطه بياء مثناة تحتانية وفاء ساكنة وتاء مثناة من فوق بفتحة تجلب الفاً ، ثم حاء مهملة » . فلما قام بأمرهم طلب ضريبة النحل من بنى عمون ، فامتنعوا من إعطائها وكانوا ملوكا منذ ثلثمائة سنة فقاتلهم وغلبهم عليها وعلى ثنتين وعشرين قرية معها ، ثم حارب سبط أفرايم ،

---

١ — فى ج « بنى أبيب »
* قرءا
٢ — فى كد (ق ١٠ : ١) « دودو »
* سامير من جبال أفرايم * طروبة
٣ — فى ش (٥ ـ ٣٨٢) بريامش بن بيقش »
* كلما بن

وكانوا مستبدين وحدهم عن بنى إسرائيل فأرادهم على اتفاق الكلمة والدخول فى الجماعة حتى استقاموا على ذلك ، وأقام فى تدبيرهم ست سنين . وعلى عهده أصابت بلاد يونان المجاعة العظيمة التى هلك فيها أكثرهم

(يب) أبصان من سبط يهودا

ولما هلك قام بتدبيرهم أَبْصان من سبط يَهُوذا من بيت لحم ، وضبطه « بهمزة مفتوحة وباء موحدة ساكنة وصاد مهملة بفتحة تجلب الفا وبعدها نون » . ويقال إنه جد داود عليه السلام ، بُوعَز بن سَلمُون بن نَحْشُون بن عَمِّينا ذاب بن رَم بن حَصْرون بن بارُص بن يَهُودا ، وحَصْرون هذا هو جد كالِب بن يوفَنَّا الذى دبرهم بعد يوشع ونحشُون كان سيد بنى يَهُودا لعهد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام ، وهلك فى التيه ودخل ابنه سَلمُون أريحا مع يوشع ونزل بيت لحم ، على أربعة أميال من بيت المقدس

قال هروشيوش : فى أيام أبصان هذا كان انقراض ملك السُّرْيانيين وخروج القُوط وحروبهم مع النبط

(يج) إيلون من سبط زبولون

وأقام أبْصان فى تدبير بنى إسرائيل سبع سنين، ثم هلك فقام بتدبيرهم إيلون (١) من سبط زَبُولُون. « وضبطه بهمزة مكسورة تجلب ياء ، ثم لام مضمومة تجلب واواً ثم نون » فدبرهم عشر سنين . ثم هلك فدبرهم عَبدُون بن هِلال من سبط أفرايم

عبدون بن هليل (يد)

ثمان سنين . وقال ابن العميد اسمه عَكْرُون بن هِلْيان وكان له أربعون ابناً وثلاثون حافداً . قال هروشيوش : وفى أيامه خربت مدينة طَرْوَبة قاعدة الروم اللَّطِّينيين ، خربها الروم الاغريقيون فى فتنة بينهم

ولما هلك عَبدُون دفن بأرض أفْرَايم فى جبال العمالقة واختلف بنو إسرائيل بعده وعبدوا الأصنام ، وسلط الله عليهم بنى فلسطين فقهروهم أربعين سنة

(يه) شمسون الجبار

ثم تخلصهم من أيديهم شَمْسُون بن مانوح من سبط دَان ، ويعرف بشمسون القوى ، لفضل قوة كانت فى يده ، ويعرف أيضاً بالجبار ، وكان عظيم سبطه ، ودبر بنى إسرائيل عشر سنين ، بل عشرين سنة ، وكثرت حروبه مع بنى فلسطين ،

١ — فى كد العبرانى « أيلون » بفتح الهمزة

وأثخن فيهم ، وأتيح لهم عليه فى بعض الأيام فأسروه ، ثم حملوه وحبسوه ، واستدعاه ملكهم بعض الأيام إلى بيت آلهتهم ليكلمه . فأمسك عمود البيت وهزه بيده فسقط البيت على من فيه وماتوا جميعاً

ولما هلك اضطربت بنو إسرائيل وافترقت كلمتهم ، وانفرد كل سبط بحاكم يولونه منهم ، والكهنوتية فيهم جميعاً فى عقب العيزار بن هرون ، من لدن وفاة هرون عليه السلام بتولية موسى صلوات الله عليه بالوحى ، ومعنى الكهنوتية إقامة القرابين من الذبح والبخور ، على شروطها وأحكامها الشرعية عندهم

(يد) ميخائل بن راعيل وقال ابن العميد إنه ولى تدبيرهم بعد شمسون حاكم آخر اسمه ميخائيل بن راعيل . دبرهم ثمان سنين ولم تكن طاعته فيهم مستحكمة ، وان الفتنة وقعت بين بنى اسرائيل ففنى فيها سبط بنيامين عن آخرهم ، ثم سكنت الفتنة

(يز) عالى الكوهن وكان الكوهن فيهم لذلك العهد عالى بيطات بن حاصاب بن اليان بن فنحاص ابن العيزار بن هرون . وقيل من ولد إيثامار * بن هرون وضبطه « بعين مهملة مفتوحة تجلب ألفاً ، ثم لام مكسورة تجلب ياء تحتانية » فلما سكنت الفتنة كانوا يرجعون اليه فى أحكامهم وحروبهم ، وكان له ابنان عاصيان فدفعهما الى ذلك وكثر لعهده قتال بنى فلسطين ، وفشا المنكر من ولديه ، وأمر بدفعهم عن ذلك فلم يزدادوا إلا عتواً وطغياناً ، وأنذر الأنبياء بذهاب الأمر عنه وعن ولده ، ثم هزمهم بنو فلسطين فى بعض أيامهم ، وأصابوا منهم ، فتذامر بنو اسرائيل واحتشدوا وحملوا معهم تابوت العهد ، ولقيهم بنو فلسطين ، فانهزم بنو إسرائيل أمامهم وقتلوا ابنى عالى كوهن ، كما أنذر به أبوهما ، وشمويل ، وبلغ أباهما الكوهن خبر مقتلهما فمات أسفاً لأربعين سنة من دولته ، وغنم بنو فلسطين التابوت فيما غنموه ، واحتملوه الى بلادهم بعسقلان وغزة وضربوا الجزية على بنى اسرائيل

ولما مضى القوم بالتابوت ، فيما حكى الطبرى ، وضعوه عند آلهتهم ، فقلاها مراراً فأخرجوه إلى ناحية من القرية فأصيبوا ، فتبادروا باخراجه وحملوه على بقرتين لهما تبيعان ، ووضعتاه عند أرض بنى اسرائيل ورجعتا الى ولديهما وأقبل اليه بنو

* سامار

اسرائيل ، فكان لا يدنو منه أحد إلا مات . حتى أذن شمويل لرجلين منهم حملاه الى بيت أمهما وهى أرملة ، فكان هنالك حتى ملك طالوت اه

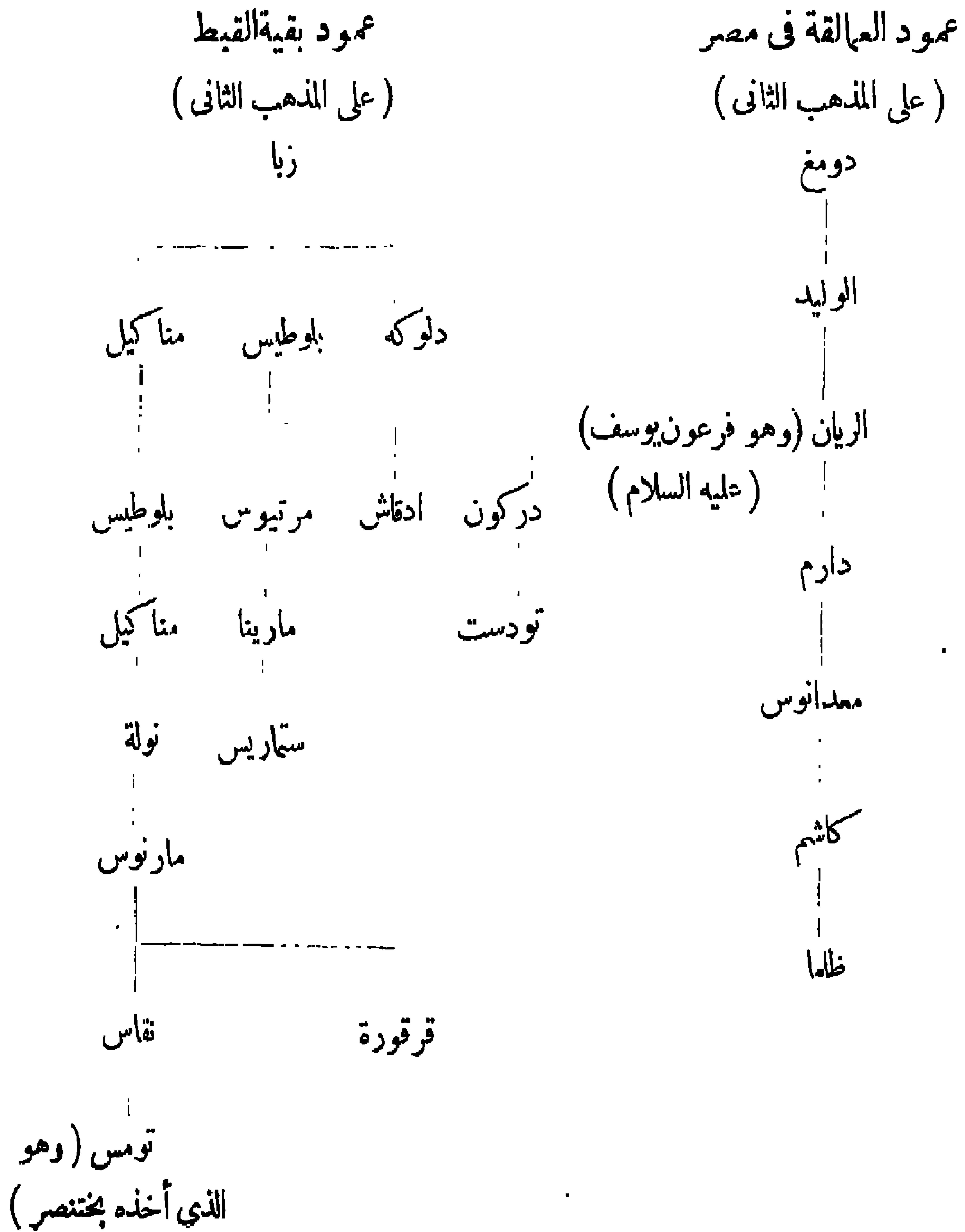
وكان ردّهم التابوت لسبعة أشهر [1] من يوم حملوه ، وكان عالى الكوهن قد كفل ابن عمه شمويل بن الْكَنَا بن يُوْام بن الياهد بن ياو بن سُوف . وسوف هو أخو حاصاب [2] بن اليان بن فِنْحاص

وقيل إن شمويل من عقب قورح ، وهو قارون بن يَصْهار بن قاهاث بن لاوى . ونسبه اليه شمويل ابن القَنا بن يروحام [3] بن اليَهود بن يوحا بن صوب ابن القانا بن يويل بن عزَريَا بن صفنيا بن تاحت بن أسّير بن القانا بن أبياساف [4] ابن قارون . وكانت أمه نذرت أن تجعله خادماً فى المسجد [فلما ولدته جاءت به الى المسجد - خ] وألقته هنالك ، فكفله عالى وأوصى له بالكهونية ، ثم أكرمه الله بالنبوة وولاه بنو اسرائيل أحكامهم . فدبرهم عشر سنين . وقال جرجيس بن العميد : عشرين سنة ، ونهاهم عن عبادة الأوثان ، فانتهوا وحاربوا أهل فلسطين واستردوا ما كانوا أخذوا لهم من القرى والبلاد ، واستقام أمرهم

ثم دفع الأمر إلى ابنيه يُوأل وأبِيّا . وكانت سيرتهما سيئة ، فاجتمع بنو اسرائيل الى شمويل وطلبوه أن يسأل الله فى ولاية ملك عليهم ، فجاء الوحى بولاية طالوت فولاه وصار أمر بنى اسرائيل ملكا بعد أن كان مشيخة ، والله معقب الأمر بحكمته لا رب غيره

---

١ — فى كد (أيام ٩ - ٣٩) أشبعل
٢ — فى ج « حاصاب بن البلى بن بحامن » والتصحيح من الجدول الذى عند المؤلف
٣ — فى كد (من ١ : ١) « بروحام بن اليهو بن توحو بن صوف
٤ — فى ج « بن البشاساف » والتصحيح من أخبار الأيام الأول (٦ - ٢٧)


عمود العمالقة فى مصر
(على المذهب الثانى)
دومغ
الوليد
الريان (وهو فرعون يوسف عليه السلام)
دارم
معدانوس
كاشم
ظلما
عمود بقية القبط
(على المذهب الثانى)
زبا
دلوكه
بلوطيس
منا كيل
دركون
ادقاش
مرتيوس
بلوطيس
تودست
ماريتا
منا كيل
ستماريس
نولة
مارنوس
قرقورة
نقاس
تومس (وهو الذي أخذه بختنصر)

ملوك بنى إسرائيل

الخبر عن ملوك بنى اسرائيل

بعد الحكام ثم افتراق أمرهم ، والخبر عن دولة بنى سليمان بن داود

على السبطين يهوذا وبنيامين بالقدس الى انقراضها

لما نقم بنو اسرائيل على يوآل وأبيا ابنى شمويل ما نقموا من أمورهم ، واجتمعوا الى شمويل وسألوه من الله أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم ، ويجمع نشرهم ، ويدفع الذل عنهم ، فجاء الوحى بأن يولى الله طالوت ، ويدهنه بدهن القدس فأبوا بعد أن أمر شمويل بأن يستهموا عليه فاستهموا على بنى آبائهم [فخرج السهم على بنى مطارب عشيرة طالوت من سبط بنيامين ثم استهموا على رجالاتهم - خ] فخرج السهم على طالوت ، وكان أعظمهم جسما ، فولوه

واسمه عند بنى اسرائيل شاول بن قيس بن أفيل بالفاء الهوائية القريبة من الباء ابن صارو بن نحورت (١) بن أفياح . فقام بملكهم واستوزر أفنير ابن عمه نير ابن أفيل

وكان لطالوت من الولد يهوناتان ، وملكيشوع وتشبهات وأبيناداف

وقام طالوت بملك بنى إسرائيل وحارب أعداءهم من بنى فلسطين وعمون ومؤاب والعمالقة ومدين فغلب جميعهم ونصر بنو اسرائيل نصر الأكفاء له وأول من زحف اليهم ملك بنى عمون ، ونازل قرية بلقاء فهجم عليهم طالوت وهو فى ثلثمائة ألف من بنى اسرائيل فهزمهم واستلحمهم ، ثم أغزى ابنه فى عساكر بنى اسرائيل الى فلسطين ، فنال منهم ، واجتمعوا لحرب بنى اسرائيل فزحف اليهم طالوت وشمويل فانهزموا واستلحمهم بنو اسرائيل ، وأمر شمويل أن يسير الى العمالقة وأن يقتلهم ودوابهم ففعل . واستبقى ملكهم أغاغ مع بعض الأنام ، فجاء الوحى إلى شمويل بأن الله قد سخطه وسلبه الملك ، فخبره بذلك وهجره شمويل فلم

١ — فى كد (صمويل ١ : ص ٩ : ١) بكورة

يره بعد . وأمر شمويل أن يقدس داود وبعث له بعلامته ؛ فسار الى بنى يهوذا فى بيت لحم ، وجاء به أبوه أيشا * ، فمسحه شمويل ، وسلب طالوت روح الجسد ، وحزن لذلك

ثم قبض شمويل وزحف جالوت وبنو فلسطين الى بنى إسرائيل ، فبرز اليهم طالوت فى العساكر ، وفيهم داود بن أيشا من سبط يهوذا ، وكان صغيراً يرعى الغنم لأبيه ، وكان يقذف بالحجارة فى مخلاته فلا تكاد تخطئ . قال الطبرى : وكان شمويل قد أخبر طالوت بقتل جالوت ، وأعطاه علامة قاتله ؛ فاعترض بنى إسرائيل حتى رأى العلامة فيهم ، فسلحه وأقام فى المصاف ، وقد احتمل الحجارة فى مخلاته ؛ فلما عاين جالوت قذفه بحجارة ، فصكه فى رأسه . ومات . وانهزم بنو فلسطين وحصل النصر ، فاستخلص طالوت حينئذ داود ، وزوجه ابنته ، وجعله صاحب سلاحه . ثم ولاه على الحروب فاستكفى به ، وكان عمره حينئذ ، فيما قال الطبرى : ثلاثين سنة . وأحبه بنو إسرائيل واشتملوا عليه

وابتلى طالوت وبنوه بالغيرة منه ، وهمّ بقتله ونفذ لذلك مراراً ، ثم حمل ابنه يهونتان على قتله ، فلم يفعل للخلة ومصافاة كانت بينهما ، ودس الى داود بدخيلة أبيه فيه ، فلحق بفلسطين ، وأقام فيهم أياماً ، ثم الى بنى مؤاب كذلك ، ثم رجع الى سبطه يهوذا ، بنواحى بيت المقدس ، فأقام فيهم يقاتل معهم بنى فلسطين فى سائر حروبهم ، حتى إذا شعر به طالوت طلب بنى يهوذا باسلامه اليه ، فأبوا . فزحف اليهم فأخرجوه عنهم ولحق ببنى فلسطين ، وقاتلهم طالوت فى بعض الأيام ، فهزموه واتبعوه ، وأولاده يقاتلون دونه ، حتى قتل يهونتان ويشوى وملكيشوع ، وبنو فلسطين فى اتباعه ، حتى اذا أيقن بالهلكة قتل نفسه بنفسه ، وذلك فيما قال الطبرى ، لأربعين سنة من ملكه

داود بن أيشا

ثم جاء داود الى بنى يهوذا فملكوه عليهم . وهو داود بن أيشا بن عوفذ ، « بالفاء الهوائية » ، ابن بوعز واسمه أفصان ، « بالفاء الهوائية والصاد المشمة » وقد

---

* إيشاى

قدمنا ذكره فى حكام بنى إسرائيل ، ابن سَلْمون ، الذي نزل بيت لحم لأول الفتح ، ابن منحشون سيد بنى يهوذا عند الخروج من مصر ، ابن عميناذاب بن إرم* بن حصرون بن بارص بن يهوذا

هكذا نسبه فى كتاب اليهود والنصارى ، وأنكره ابن حزم ، قال : لأن منحشون مات بالتيه ، وإنما دخل القدس ابنه سلمون . وبين خروج بنى إسرائيل من مصر وملك داود ستمائة سنة باتفاق منهم . والذى بين داود ونحشون أربعة آباء ، فاذا قسمت الستمائة عليهم يكون كل واحد منهم إنما ولد له بعد المائة والثلاثين سنة ، وهو بعيد اه

ولما ملك داود على بنى يهوذا نزل مدينتهم حَفْرون « بالفاء الهوائية » ، وهى قرية الخليل عليه السلام لهذا العهد ، واجتمع الأسباط كلهم الى إيشبوشات (١) ابن طالوت فملكه فى أورشليم . وقام بأمره وزير أبيه أفنير ، وقد مر نسبه

وفى كتاب أسفار الملوك من الاسرائيليات : أن رجلاً جاء لداود بعد وفاة طالوت فأخبره بمهلكه ومهلك أولاده فى هزيمتهم أمام بنى فلسطين ، و [أن طالوت ـ خ] أمر هذا الرجل أن يقتله لما أدركوه فقتله وجاء بتاجه ودملجه الى داود ، وانتسب الى العمالقة فقتله داود بقتله [الملك ـ خ] وبكى على طالوت ، وذهب الى سبط يهوذا بأرض حفرون « بالفاء القريبة من الباء » ، وهى قرية الخليل لهذا العهد ، وأقام أشبوشات (٢) بن طالوت فى أورشليم ، والأسباط كلهم مجتمعون عليه ، وقامت الحرب بينهم وبين داود أكثر من سنتين ، ثم وقع الصلح بينهم والمهادنة ، وأذعن الأسباط الى داود وتركوه ، ثم اغتاله بعض قواده وجاء برأسه الى داود فقتله به ، وأظهر عليه الحزن والأسى ، وكفل أخواته وبنيه أحسن كفالة

واستبد داود بملك بنى إسرائيل لثلاثين سنة من عمره ، وقاتل بنى كنعان

---

* رام

١ — فى ج « يشوشاب » والتصحيح من ابن الوردى (١ — ٢٣) وهج (ص ١٣٢)
٢ — فى ج « شيوشيات » والتصحيح من كد (صمويل ٢ : ٢ : ٨)

فغلبهم ، ثم طالت حروبه مع بنى فلسطين ، واستولى على كثير من بلادهم ، ورتب عليهم الخراج ، ثم حارب أهل مُؤاب وعَمُّون وأهل أرُوم وظفر بهم ، وضرب عليهم الجزية ، ثم خرَّب بلادهم بعد ذلك ، وضرب الجزية على الأرْمن بدمشق وحلب ، وبعث العمال لقبضها ، وصانعه ملك أنطاكية بالهدايا والتحف ، واختط مدينة صِهْيون وسكنها ، واعتزم على بناء مسجد فى مكان القبة التى كانوا يضعون بها تابوت العهد ويصلون اليها ، فأوحى الله الى دانيال ، نبىٌّ على عهده ، أن داود لا يبنى بيتاً ، وإنما يبنيه ابنه ، ويدوم ملكه إلى الأبد ، فسر داود بذلك

أيشلوم ثم انتقض عليه ابنه أيْشَلوم وقتل أخاه أمُّون ، غيرة منه على شقيقه بامان وهرب ثم استماله داود وردَّه وأهدر دم أخيه وصيَّر له الحكم بين الناس ، ثم رجع ثانياً لأربع سنين بعدها ، وخرج معه سائر الأسباط . ولحق داود بأطراف الشأم وقيل لحق بخيبَروما اليها من بلاد الحجاز ، ثم تراجع للحرب فهزمه داود ، وأدركه يُوءاب وزير داود ، وقد تعلق بشجرة فقتله . وقتل فى الهزيمة عشرون ألفاً من بنى إسرائيل ، وسيق رأس أيشَلوم إلى أبيه داود فبكى عليه وحزن طويلا . واستألف الأسباط ورضى عنهم ورضوا عنه . ثم أحصى بنى إسرائيل فكانوا ألف ألف ومائة ألف . وسبط يهوذا أزيد من أربعمائة ألف . وعوتب فى الوحى لأنه أحصاهم بغير إذن ، وأخبره بذلك بعض الأنبياء لعهده

وأقام داود صلوات الله عليه فى ملكه ، والوحى يتتابع عليه ، وسُوَر الزبور تنزل . وكان يسبح بالأوتار والمزامير . وأكثر المزامير المنسوبة اليه ، فى ذكر التسبيح وشأنه . وفرض على الكهنوتية من سبط لاوِى التسبيح بالمزامير قُدَّام تابوت العهد ، اثنى عشر كوهنا لكل ساعة

ثم عهد عند تمام أربعين سنة من دولته لابنه سليمان صلوات الله عليهما ، ومسحه مابان (١) النبي وصادوق الحَبْر مسحة التقديس وأوصى ببناء بيت المقدس ثم قبض صلوات الله عليه ودفن فى بيت لحم ، وكان لعهده من الانبياء نامان

١ — فى كد (ا م ١ : ٣٤) « ناتان »

وكاد ، وأصاف . وكان الكهنون * الأعظم أفيثار بن أخى مليخ من عقب عالى الكوهن الذى ذكرناه فى الحكام . وكان من بعده صادوق

سليمان بن داود

ثم قام بالملك من بعده فى بنى اسرائيل ابنه سليمان صلوات الله عليه ، وهو ابن ثنتين وعشرين سنة ، فاستفحل ملكه ، وغالب الأمم ، وضرب الجزية على جميع ملوك الشأم ، مثل فلسطين وعمون وكنعان ومواب وأرم والارمن . وأصهر اليه الملوك من كل ناحية ببناتهم ، وكان ممن تزوج بنت فرعون مصر ، وكان وزيره يوأب بن نيثرا ؟ وهو ابن أخت داود اسمها صرويا ، وكان وزيراً لداود ، فلما ولى سليمان استوزره فقام بدولته . ثم قتله بعد ذلك ، واستوزر يشوع بن شيداح

ولأربع * سنين من ملكه شرع فى بناء بيت المقدس بعهد أبيه اليه بذلك ، فلم يزل إلى آخر دولته بعد أن هدم مدينة أنطاكية ، وبنى مدينة تدمر فى البرية ، وبعث إلى ملك صور ليعينه فى قطع الخشب من لبنان ، وأجرى على الفعلة فيه فى كل عام عشرين ألف (١) كر من الطعام ، ومثلها من الزيت ، ومثلها من الخمر ، وكان الفعلة فى لبنان سبعين ألفاً ولنحت الحجارة ثمانين ألفاً ، وخدمة المناولة سبعون ألفاً ، وكان الوكلاء والعرفا على ذلك العمل ثلاثة آلاف وثلثمائة رجل ، ثم بنى الهيكل وجعل ارتفاعه مائة ذراع فى طول ستين وعرض عشرين . وجعل بدائره كله أروقة وفوقها مناظر ، وجعل بدائر البيت إفريزاً من خارج ، ونمقه وجعل الظهر مقوراً ليودع فيه تابوت العهد . وصفح البيت من داخله وسقفه بالذهب ، وصنع فى البيت كروبيين من الخشب ، مصفحين بالذهب ، وهما تمثالان للملائكة الكروبيين ، وجعل للبيت أبواباً من خشب الصنوبر ، ونقش عليها تماثيل من الكروبيين والنرجس والنخل والسوسن ، وغشاها كلها بالذهب ، وأتم بناء الهيكل فى سبع سنين ، وجعل لها باباً من ذهب .

---

* الكهنوت

* ولأربعين سنة

١ — الكر أو الككر قال ع : (ص ٥٩) « أنه ثلاثة آلاف مثقال بمثاقيل الفرس كل مثقال خمسة مثاقيل بمثقالنا »

ثم بنى بيتاً لسلاحه ، أقامه على أربعة صفوف من العمد من خشب الصنوبر ، فى كل صف خمسة عشر عموداً . ووضع فيه مائتى ترس من الذهب ، فى كل ترس ستمائة من حجر الجوهر والزمرد ، وثلثمائة درقة من الذهب ، فى كل درقة ثلثمائة من حجر الياقوت . وسمى هذا البيت عيضة لبنان . وصنع منبراً لجلوسه تحت رواق وكراسى كثيرة كلها من العاج ملبسة من الذهب

ثم بنى من فوق هذا البناء بيتاً لابنة فرعون التى تزوج بها ، وصنع بها أوعية النحاس لسائر ما يحتاج اليه بالبيت واسترضى * الصناع لذلك من مدينة صور ، وعمل مذبح القربان بالبيت من الذهب ، ومائدة لخبز الوجوه من الذهب . وخمس منابر عن يمين الهيكل ، وخمسا عن يساره ، بجميع آلاتها من الذهب ومجامر من الذهب

وأحضر موروث أبيه من الذهب والفضة والأوعية الحسنة فأدخلها إلى البيت وبعث إلى تابوت العهد من صهيون ، قرية داود ، إلى البيت الذى بناه له ، فحمله رؤساء الأسباط والكهونية على كواهلهم ، حتى وضعوه تحت أجنحة التماثيل للكروبيين بالمسجد . وكان فى التابوت اللوحان من الحجارة اللذان صنعهما موسى عليه السلام بدل الالواح المنكسرة ، وحملوا مع تابوت العهد قبة القربان وأوعيتها الى المسجد

وأقام سليمان أمام المذبح يدعو فى يوم مشهود ، اتخذ فيه ولمية لذلك ، ذبح فيها ثنتين وعشرين ألفاً من البقر [وثلاثاً وعشرين ألفا من الغنم ـ خ] ثم كان يقرب ثلاث مرات من السنة قرابين وذبائح كاملة ويبخر البخور ، وجميع الأوعية لذلك كلها ذهب . وكانت جبايته فى كل سنة ستمائة قنطار وستة وستون قنطاراً من الذهب ، غير الهدايا والقربان إلى بيت المقدس . وكانت له سفن فى بحر الهند تجلب الذهب والفضة والبضائع ، والفيلة والقرود والطواويس ، وكانت له خيل كثيرة مرتبة تجلب من مصر وغيرها تبلغ الفاً وستمائة فرس ، معدة كلها للحرب ، وكانت له ألف امرأة لفراشه ما بين حرة وسرية منها ثلثمائة سرية

* واستحضر

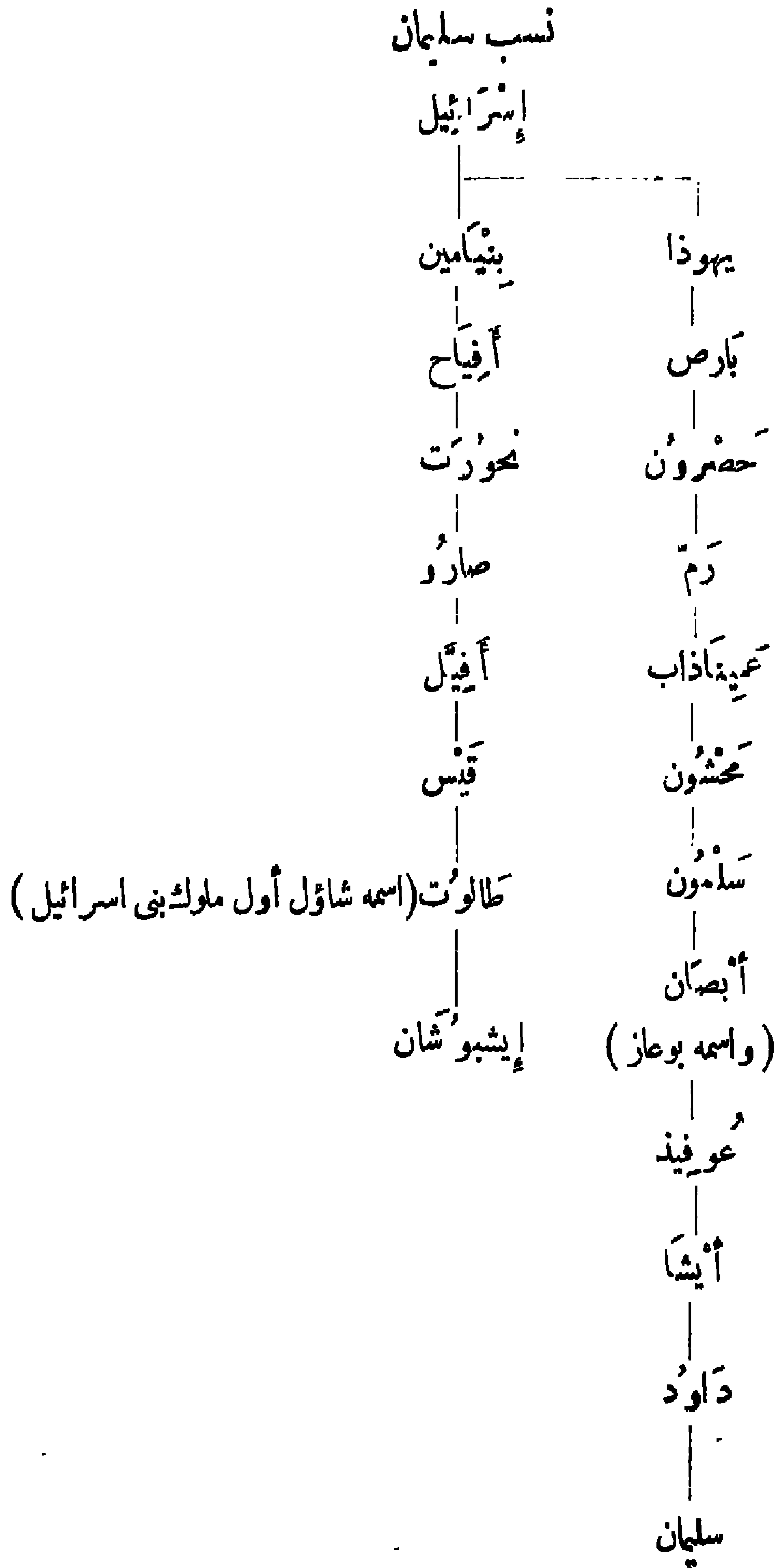
وفى الاخبار للمؤرخين أنه تجهز للحج ، فوافى الحرم ، وأقام به ماشاء الله ، وكان يقرب كل يوم خمسة آلاف بدنة ، وخمسة آلاف بقرة ، وعشرين ألف شاة ، ثم سما إلى ملك اليمن وسار اليه ، فوافى صنعاء من يومه وطاب الهدهد لتماس الوضوء وكانت قناقنه أى ملتمس الماء له فى الأرض ، فافتقده ورجع اليه بخبر بلقيس ، كما قصه القرآن ودافعته بالهدية فلم يقبلها ، فلاذت بطاعته ، ودخلت فى دينه وأطاعته ، وملكته أمرها ، ووافته بملك اليمن . وأمرها بأن تتزوج ، فنكرت ذلك لمكان الملك ، فقال لا بد فى الدين من ذلك فقالت زوجنى ذا تبع ملك همدان ، فزوجها إياه وملكه على اليمن ، واستعملها فيه ، ورجع إلى الشأم ، وقيل تزوجها وأمر الجن فبنوا لها سلحين وغمدان ، وكان يزورها فى الشهر مرة ، يقيم عندها ثلاثا . وعلماء بنى إسرائيل ينكرون وصوله إلى الحجاز واليمن ، وإنما ملك اليمن عندهم مراسلة ملكة سبأ وانها وفدت عليه فى يروشالم ، وأهدت اليه مائة وعشرين قنطاراً من الذهب ، ولؤلؤاً وجوهراً وأصنافاً من الطيب والمسك والعنبر ، فأجازها وأحسن اليها وانصرفت .

هكذا فى كتاب الانساب من كتبهم

ثم انتقض على سليمان آخر أيامه هدرور ملك الأرمن بدمشق ، وهدّاد ملك أروم ، وكان قد ولىّ على ضواحى بيت المقدس وجميع أعماله يَرُبعام بن نباط ، من سبط أفرايم ، واستكفى به فى ذلك ، وكان جباراً فعوتب بالوحى على لسان أخيا النبي فى توليته ، فأراد قتله وشعر بذلك يَرُبعام فهرب إلى مصر ، فأنكحه فرعون ابنته ، وولدت له ابنه ناباط ، وأقام بمصر

وقبض سليمان صلوات الله عليه لأربعين سنة من ملكه ، وقيل لثنتين وخمسين ودفن عند أبيه داود صلوات الله عليهما ، وافترق ملك بنى إسرائيل من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى

نسب سليمان


إِسْرَائِيل
يهوذا
بِنْيَامِين
بَارص
أَفِيَاح
حَصْرُون
بَحُورَت
رَمّ
صارُو
عَمِينَادَاب
أَفِيَّل
نَحْشُون
قَيْس
سَلْمُون
طَالُوت (اسمه شاؤل أول ملوك بنى اسرائيل)
أَبْصَان
إِيشبوشَان
(واسمه بوعاز)
عُوفِيذ
أَيْشَا
دَاوُد
سليمان

افتراق بنى إسرائيل

الخبر عن افتراق بنى اسرائيل

منهم ببيت المقدس على سبط يهوذا وبنيامين إلى انقراضه

لما قبض سليمان صلوات الله عليه وسلامه ، ولى ابنه رُحُبْعُم « وضبطه براء مهملة وحاء مهملة مضمومتين وباء موحدة ساكنة ، وعين مهملة مضمومة وميم » فقام بأمره ، وزاد فى عمارة بيت لحم وغزّة وصُور وأيله ، واشتد على بنى إسرائيل وطلبوا منه تخفيف الضرائب ، فامتنع وطالبهم بالوظائف ، وأخذ فيهم برأى الغواة من بطانته فنقموا عليه ذلك ، وانتقضوا وجاءهم يَرُبْعَم بنُ نبَاط من مصر فبايعوه وولوه عليهم ، واجتمع عليه سائر الأسباط العشرة من بنى اسرائيل ، ما عدا سبط يهوذا وبنيامين ، وتزاحفوا للحرب . ثم دعاهم بعض أنبيائهم للصلح فتواضعوا واصطلحوا . وفى السنة الخامسة من ملك رُحُبْعُم زحف شيشاق ملك مصر الى بيت المقدس ، فهرب رُحبْعُم ، واستباحها شيشاق ورجع وضرب عليهم الجزية . ثم دفعوه ومنعوه ، فأقام بنو داود فى سلطانهم على بنى يهوذا وبنيامين، ببيت المقدس وعسقلان وغزّة ودِمشق وحلَب وحِمْص وحماة ، وما الى ذلك من أرض الحجاز . وملك الأسباط العشرة بنواحى نابُلس وفلسطين . ثم نزلوا مدينة شُومُرُون ، وهى شَمِرة وسامرة فى الناحية الشرقية الشمالية من الشام ، مما يلي الفرات والجزيرة ، واتخذوها كرسياً لملكهم ذلك . وأقاموا على هذا الافتراق الى حين انقراض أمرهم ووقعوا فى الجلاء الذى كتب الله عليهم ، كما نذكره

أفيا

ثم هلك رُحُبْعُم لسبع عشرة سنة من دولته وولى بعده سبط يهوذا وبنيامين بأرض القدس ابنه أَفْيا « وضبطه بهمزة مفتوحة وفاء متوسطة بين الفاء والذال من لغتهم ، وياء مثناة من تحت مشدّدة وألف » ، وكان على مثل سيرة أبيه ، وكان عابداً صواماً ، وكانت أيامه كلها حربا مع يَرُبْعم بن نَباط وبني إسرائيل . وهلك لثلاث سنين

أسـا

وولى بعده ابنه أُسَا بضم الهمزة وفتح السين المهملة وألف بعدها بن أفِيًا . وطال أمد ملكه . وكان رجلاً صالحاً . وكان على مثل سيرة جده داود صلوات الله عليه ، وتعددت الأنبياء فى بنى اسرائيل على عهده ، ومات يَرُبْعَم بن نَبَاط لسنتين من ملكه ، وملك بعده ابنه نَادَاب ؛ وقتله يَعْشَا بن أَخِيَا كما نذكر فى أخبارهم ؛ ثم وقعت بينه وبين أُسَا حروب ، واستمد أُسَا بملك دمشق ، فزحف معه وكان يَعْشَا ملك السامرة * ، فى ناحية يَثرب (١) ، لبنائها ، فهرب وترك آلات البناء ؛ فنقلها أُسا ؛ ملك القدس ، وبنى بها الحصون . ثم خرج عليهم زادَح (٢) ؛ ملك الكوش ، فى ألف ألف مقاتل ، ولقيهم أُسا فهزمهم وأثخن فيهم . ولم تزل الحرب قائمة بين أُسا وبين الأسباط بالسامرة سائر أيامه . وعلى عهده اختطت السامرة كما نذكر بعد

يهوشاط

ثم هلك أُسا بن أَفِيًا لإحدى وأربعين سنة من ملكه ، وولى بعده ابنه يهوشاط (٣) * بياء مفتوحة مثناة تحتانية وهاء مضمومة ، وواو ساكنة ، وشين معجمة بعدها ألف ؛ ثم ظاء بين الذال والظاء المعجمتين . فكان على مثل سيرة أبيه وكانت أيامه مع أهل السامرة وملوكهم سلماً . واجتمع ملوك العمالقة ، ويقال أروم * ؛ وخرج لحربهم ، فهزمهم وغنم أموالهم . وكان لعهده من الأنبياء إلياس بن شوياق ، واليسع بن شوبوات (٤) . وقال ابن العميد إيليا وميخَيا * وعُبُوديا . وكانت له سفن فى البحر يجلب له فيها بضائع الهند ، فأصابها قاصف الريح فتكسرت وغرقت . ثم هلك لخمسة وعشرين سنة من ملكه

يهـورام

وولى ابنه يَهورَام بفتح المثناة التحتية ، ثم هاء مضمومة تجلب واواً ، ثم راء

* السامرية
١ — الذى فى كد (أملوك ١٥ : ٢١) « رامة »
٢ — فى الطبرى (١ — ٤٨٤) زرج الهدى وفى د ك أيام (٣ : ١٤ : ٩ رارح)
٣ — فى ش (٤ — ١٥٩) يهوشافاظ
* يهوشافاظ
* أدوم
٤ — فى كد (أملوك ١٩ — ١٦) سافاظ وسيأتى للمؤلف ص ١١٢ منسوبا إلى أخيطوب
* وفنحيا

مفتوحة تجلب ألفاً ، وبعدها ميم . وانتقض عليه أرُوم * وولوا عليهم ملكاً منهم فزحف اليهم ووقع بهم فى سَعِيرا * ، أوسط بلادهم ، وأثخن فيهم بالسبي والقتل . ثم رجع عنهم وأقاموا فى عصيانهم . وعلى عهده زحف ملك الموصل الى الأسباط بالسامرة ، فكانت بينه وبينهم حروب كما نذكر

وقال ابن العميد : كانت على بنى مُؤاب جزية مضروبة لبنى يهوذا ، مائتان من الغنم كل سنة فمنعوها ، واجتمع ملوك القدس والسامرة لحربهم ، وحاصروهم سبعة أيام ، وفقدوا الماء فاستسقى لهم اليَسَعْ ، وجرى الوادى . فخرج أهل مؤاب فظنوه ماء ، فقتلهم بنو إسرائيل وأثخنوا فيهم . وفى أيام يهورام ، رفع إيليا النبي ، وانتقل سره الى اليسع . وكان على عهده من الأنبياء أيضاً عُبُودِيا . ثم هلك يورام لثمان سنين من ملكه ودفن عند جده داود

أحزياهو

وولى بعده ابنه أَحزْياهو « بهمزة مفتوحة وحاء مهملة مضمومة وزاى معجمة ساكنة ثم ياء مثناة تحتية بفتحة تجلب ألفاً ثم هاء مضمومة تجلب واواً » وأمه عثَلْيا (١) بنت عُمْرى أخت أجاب (٢) ، وسار سيرة خاله ، وملك سنة واحدة ، وقيل سنتين ، وخرج لقتال ملك الجزيرة والموصل واستنفر معه صاحب السامرة يورام ابن خاله أجاب فاقتتلوا معه ، ثم انصرفوا ، وابن خاله جريح ،وجاءه أحزْياهو فى بعض الأيام يعوده . وكان ابنُ يَهوشَافاض ابن منشّى من سبط مَنَشّا بن يوسف يترصد قتل يورام بن أجاب ملك السامرة ، فأصاب فرصة فى ذلك الوقت فقتلهما جميعاً

وقال ابن العميد : إن يورام بن أجاب ملك السامرة خرج لحرب أروم ، فى رواية كِلعاد ، وخرج معه أحزْياهو فقتل فى تلك الحرب . قال وقيل : إن ياهو بن

---

* أدوم
* سيعيرا
١ — الموجود فى كد (٢ م ٨ — ٦٦) هو « عثليا » كما عند ط
٢ — كذا هنا « اجاب » رفى ب (١١ — ٦٦٦) أحاب وفى كد (١ م ١٧ — ٢٩) « أخاآءب »

عشا رمى بسهم فأصاب يورام بن أجاب . وكان لعصره من الأنبياء اليسع وعامُور * وفنحاء *

ثم ملك بعد أحزْيا أمه عَثَلْيا بنت عُمْرى ، كذا وقع اسمها فى كتاب الطبرى وفى كتاب الاسرائيليات اسمها اضالية * ، ويقال كانت من جوارى سليمان . ثم استفحل ملكها بالقدس ، وقتلت بنى داود كلهم ، وأغفلت ابنا رضيعا من ولد أبنها أحزياهو اسمه يُؤاش بضم الياء المثناة التحتية ، ثم همزة مفتوحة تجلب ألفاً ، ثم شين معجمة . أخفته عمته يَهوشَبَع بنت يهورام فى بعض زوايا القدس وعلم بمكانه زوجها يَهُوياذَع * وهو يومئذ الكوهن الأعظم ، حتى اذا كملت له سبع سنين ، ونقم بنو يهوذا سيرة عثَلْيا ، اجتمعوا الى يهويادع الكوهن . فأخرج لهم يؤاش بن أحزياهو من مكانه * واستحلفهم فبايعوا له ، وقتلوا جدته عثليا ومن معها لسبع سنين من ملكها

يؤاش

وقام يوأاش بملكه فى تدبير يهويادَع الكوهن . ثم أراد عبادة الأصنام ، فمنعه زكريا النبي فقتله . وكان لعهده من الأنبياء اليَسع وعوفريا وزكريا ابن يهويادَع وهلك يهويادَع لثلاث وعشرين سنة من ملك يوأاش ، بعد أن جدد يوأاش بيت المقدس. ولثمان وثلاثين من ملكه قبض اليَسع النبي صلوات الله عليه . وعلى عهده زحف شريال ملك الكسدانيين ببابل إلى بيت المقدس ، ويقال ملك نينوى والموصل . وقال ابن العميد : ملك الشأم فأعطاهم جميع ما فى خزائن الملك ، وبيت المقدس من الأموال ودخل فى طاعتهم إلى أن قتله وزراؤه وأهل دولته لأربعين سنة من ملكه

أمصياهو

وولوا مكانه ابنه أمَصْياهو « بفتح الهمزة والميم وسكون الصاد المشمة بالزاى بعدها ياء مثناة تحتانية بفتحة تجلب ألفا ثم هاء مضمومة تجلب واوا » واستبدوا عليه ثم ثار عليهم بأمه وقتلهم أجمعين ، وسار إلى أروم فظفر بهم ، وقتل منهم نحوا من

* وعاموص * ومنحا * أطالية
* يوناداع * مكنه

عشرين الفا ، ثم زحف اليه ملك الأسباط بالسامرة مَنَحيم ولقيه فهزمه ، وحصل فى أسره . وسار إلى بيت المقدس فحاصرها ، وهدم من سورها نحوا من أربعمائة ذراع واقتحمها ، فغنم مافى خزائن بيت السلطان وبيت الهيكل ، من الأموال والأوانى والذخائر ، ورجع إلى السامرة فأطلق أمَصْياهو ملك القدس ، فرجع إلى قومه ورمّ ماتثلم من سورها

ولم يزل ملكا حتى نقموا عليه أفعاله فقتلوه لسبع وعشرين سنة من ملكه . وكان لعهده من الأنبياء يُونان وناحوم . وتنبأ لعصره عاموص

عزياهو ولما قتلوا أمَصْياهو ولوا ابنه عُزّياهو (١) « بعين مهملة مضمومةوزاى معجمة مكسورة مشددة وياء مثناة تحتانية تجلب ألفا وهاء تجلب واوا » وطالت مدته ثلاثا وخمسين سنة . واختلفت فيها أحواله . قال ابن العميد : ولخمس من ملكه كان ابتداء وضع سنى الكبس ، التى هى سنة بعد (٢) أربع تزيد يوماً على الماضية ، بحساب ربع يوم فى كل سنة ، الذى اقتضاه حساب مسير الشمس عندهم . قال : ولست من ملكه انقرض ملك الأرمانيين من الموصل ، وصارت إلى بابل . ولثنتين وعشرين من ملكه غزا ملك بابل ، واسمه فُول ، مدينة السامرة ، فاقتحمها ، وأعطاه ملكها [ألف] (٣) بدرة من المال ، فرجع عنه . قال : ولعهده ملك على بابل ريتوس ، ويلقب قسب الملك . ولعهده ملك على اليونانيين ملكهم الاول من مدينة اقيباس ، لثلاث وعشرين سنة من تملك عُزّياهو . قال : ولاحدى وخمسين من ملكه ملك ببابل بختنصر الاول . قال : ولعهده أيضاً كان الملك الاول من الروم المقدونيين ، ويسمى فروس . ولعهده كان من الانبياء يهوشع وعوزيا وأموص وأشعيا ويونس بن متى . قال ابن العميد [وهو يوثاثان ـ خ] وانتهت عساكر عزياهو الى ثلثمائة ألف وأصابه البرص بدعاء الكوهن . لما أراد أن يخالف التوراة فى استعمال البخور ،

---

١ ـــ فى كد (٢ م ١٥ : ١ ـ ٦ ـ ٧) وغيرها عزويا وفى (٢ م ٥ ـــ ١٣) «عزيا»
٢ ـــ كذا عند المؤلف سنة بعد أربع تزيد يوما والحقيقة أنها سنة بعد ثلاث تزيد يوما
٣ ـــ فى ج بياض والزيادة بين موقفين من (كد ملوك ٣ ص ١٥ : ١٩)

وهو محرم على سبط لاوى ، فبرص ولزم بيتــه سنة وصار ابنه يُؤام ينظر فى أمر الملك إلى أن تغلب على أبيه

قال هروشيوش : وعلى عهده أيضا قتل شرديال آخر ملوك بابل من الكسدانيين على يد قائده أرياط بن المادس . واستبد بملك بابل وأصاره إلى قومه ، بعد حروب طويلة . ثم زحف إلى القوط والعرب من قضاعة فحاربهم طويلا وانصرف عنهم . ثم هلك عزّياهو لثلاث وخمسين سنة من ملكه

يؤاب

وملك بعده ابنه يُوءاب وكان صالحاً تقياً ، وكان لعهده من الأنبياء هوشيع وأشعْيا و يُؤيل و عوفد . وفى أيامه ابتـدأ غلب ملك الجزيرة على اليهود ، وكانوا يعرفون بالسّريانيين . ثم هلك يُوءاب لست عشرة من ملكه

أحاز

وملك ابنه أحاز « بهمزة مفتوحة ممالة وحاء مهملة تجلب الفا وزاى معجمة » فخالف سنة آبائه . وعبد بنو اسرائيل الأوثان فى أيامه ، وحارب الأرمن واستجاش عليهم بملك الموصل ، فزحف معه وحاصر دمشق وملكها منهم واستباحها ، ورجع الى بلاده . ثم خرج أحاز لحربهم ، فهزموه وقتلوا من اليهود مائة وعشرين ألفا ونحوها ورجعوا أحاز الى دمشق أسيراً

قال هروشيوش : وعلى عهد أحاز كان انقراض ملك الماديين على يد كيرش ملك الفرس ، ورجعت أعمالهم اليه . ويقال إن آخر ملوكهم هو أشتانيش ، وكان جد كيرش لأمه ، وكفله صغيرا . فلما شب وملك حارب جده فقتله ، وانتزع ملكه . وقال ابن العميد عن المسبحى : ولذلك العهد ملك على الروم الفرنجة غير اليونان الاخوان رُوملس ورُومانس (١) واختطا مدينة رومة . وقال هروشيوش ولعهده ملك على الروم اللطينيين بأرض أنطاكية روملس ، ثم مركة . وبنى مدينة رومة . ثم هلك أحاز لست عشرة [سنة ـ خ] من ملكه . وولى ابنه حزقياهو

حزقياهو

« بحاء مهملة مكسورة ، وزاى معجمة ساكنة ، وقاف مكسورة ، وياء مثناة تحتانية مشددة تجلب ألفا ، وهاء مضمومة تجلب واوا » فقطع عبادة الاوثان وسار سيرة جده داود

---

١ ـ أنظر ما كتبناه عن هذين العلمين ص ١٩٦ تعليقه ٥ من هذا الجزء

ولم يكن فى ملوك بنى يهوذا مثله ، وعصى على ملك الموصل وبابل وكُورِيش ، وهزم فلسطين وخرب قراهم ، وفى أيامه وأيام ابيه سار شلمناصر ملك الجزيرة والموصل الى الأسباط بالسامرة فضرب عليهم الجزية ، ثم سار فى أيامه فأزال ملكهم ، ولأربع من ملكه زحف اليه رصين * ملك دمشق ، ورجع عنه من غير قتال . ولأربع عشرة من ملكه زحف اليه سنحاريف * ملك الموصل ، بعد فتح السامرة ، فافتتح أكثر مدائن يهوذا ، وحاصرهم ببيت المقدس ، وصانعه حزقياهو بثلثمائة قنطار من الفضة ، وثلاثين من الذهب ، أخرج فيها ما كان فى الهيكل وبيت الملك من المال ، ونثر الذهب من أبواب المسجد ، ودفع ذلك له ورجع عنه . ثم فسد ما بينهما ، وزحف اليه سنحاريف ثانياً وحاصره وامتنع من قبول مصانعته ، وقال : من ذا الذى خلصه إلهه من يدى حتى يخلصكم أنتم إلهكم ؟ ! فخافوا منه وفزعوا الى النبي إشعياء فى الدعاء فأمنهم منه ، ودعا عليه فوقع الطاعون فى عسكره ، ثم تواقعوا فى بعض الليالى فبلغ قتلاهم مائة وعشرين ألفاً . ورجع سنحاريف إلى نينوي والموصل فقتله أبناؤه وهربوا الى بيت المقدس وملك ابنه حدون

وقال الطبرى : ان ملك بنى إسرائيل أسر سنحاريف وأوحى الله إلى إشعياء أن يطلقه فأطلقه ، قال : وقيل ان الذى سار اليه سنحاريف من ملوك بنى إسرائيل كان أعرج ، وأن سنحاريف [استنفر لعهده — خ] ملك أذربيجان ، وكان يدعى سليمان الأعسر ، فلما نزل بيت المقدس صار بينهما أحقاد كامنة ، فتواقعوا وهلك عامة عسكرهما ، وصار مامعهما غنيمة لبنى إسرائيل ، وبعث ملك بابل إلى حزقيا ملك القدس بالهدايا والتحف ، فأعظم موصلها ، وبالغ فى كرامة الوفد ، وفخر عليهم بخزانته وطوفهم عليها ، فنكر ذلك عليه إشعياء النبي وأنذره بأن ملوك بابل يغنمون جميع هذه الخزائن ، ويكون من أبناءك خصيان فى قصرهم ، ثم هلك حزقياهو لتسع وعشرين سنة من ملكه .

منشا ولى ابنه مِنَشا « بميم مكسورة ونون مفتوحة وشين معجمة مشددة وألف » وكان عاصياً قبيح السيرة وكانت آثاره فى الدين شنيعة وأنكر عليه شعيا النبي أفعاله

* رمين * سنحاريب

فقتله نشراً بالمناشير من رأسه إلى مفرق ساقيه ، وقتل جماعة من الصالحين معه

وفى تاسعة وثلاثين من ملكه ملك سنحاريف الصغير مملكة الموصل. قاله ابن العميد. وفى الثانية والخمسين بنيت بِزَنطية، بناها بورس الملك وهى التى جددها قسطنطين وسماها باسمه ، وفى أيامه ملك برومة قنوقرسوس الملك وفى الحادية والخمسين من ملكه زحف سنحاريف ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين وافتتحها فى الرابعة والخمسين من ملكه [واستباحها قتلاً وسبياً وأسر منشى وسجنه بالموصل ثم أعاده الله إلى ملكه ومات لخمس وخمسين من دولته — خ]

أمون

وولى بعده ابنه أمُون « بهمزة قريبة من العين والميم مضمومة تجلب واوا ثم نون ». وكانت حاله مثل حال أبيه ، فملك سنتين ، وقيل ثنتى عشرة، ثم اغتاله عبيده فقتلوه، واجتمع بنو يهوذا فقتلوا أولئك العبيد ، وأقاموا ابنه يوشِيا مكانه « وضبطه بياء مثناة تحتية مضمومة تجلب واوا بعدها شين معجمة مكسورة ثم ياء مثناة تحتية بفتحة تجلب ألفاً » ، فلما ملك أحسن السيرة وهدم الأوثان ، وكان صالح الطريقة مستقيم الدين ، وقتل كهنة الأصنام ، وهدم البيوت والمذابح التى بناها يربعام بن نباط بالبرابي وكان فى أيامه من الأنبياء صقونا ؟ وكلدى ؟ امرأة شالوم ونا حوم ، وتنبأ لعهده أرمياء بن الحيا من نسل هارون وأخبرهم بالجلاء إلى بابل سبعين سنة ، فأخذ يوشِيا قبة القربان وتابوت العهد وأطبق عليهما فى مغارة فلم يعرف مكانهما من بعد ذلك ، وفى أيامه ملك المجوس بابل. ولأحدى وثلاثين من دولته ملك فرعون الأعرج مصر وزحف لقتال مسيح بالفرات ، فخرج يوشيا لحربه ، وانهزم يوشيا ، فهلك بسهم أصابه لثنتين وثلاثين من دولته .

يوشيا

يواش أو يهوياحاز

وولى بعده ابنه يُواش ، ويقال اسمه يهُوياحاز * فعطل أحكام التوراة ، وأساء السيرة ، فزحف اليه فرعون الأعرج وأخذه ورجع به إلى مصر ، فمات هنالك وضرب على أرضهم الخراج مائة قنطار فضة وعشرة ذهباً ، وكانت ولايته ثلاثة أشهر

ألياقيم

وولوا مكانه أخاه أَلياقِيم بن يُوشيا « بهمزة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتانية يجلب فتحها ألفاً وقاف مكسورة تجلب ياء ثم ميم » وكان عاصياً كافراً ، وكان

* يهودا حازا

يأخذ الخراج لفرعون من بنى يهوذا على قدر أحوالهم ، ثم زحف اليه بختنصر ملك بابل لسبع من ولاية ألياقيم * فملك الجزيرة وسار إلى بيت المقدس فضرب عليهم الجزية أولاً ، ودخل ألياقيم فى طاعته ثلاث سنين ، وسلط الله عليه أروم وعمون ومُوآب والكسدانيين. ثم انتقض عليه فسرح الجيوش اليه فقبضوا عليه واحتملوه إلى بابل ، فهلك فى طريقه لاحدى عشرة سنة من ملكه .

يخنيو

وولى بختنصر مكانه ابنه يَخْنِيُو « بفتح الياء المثناة التحتانية بعدها خاء معجمة مضمومة ثم نون ساكنة وبعدها ياء تحتانية تجلب ضمتها واوا » فأقام ثلاثة أشهر ، ثم زحف اليه وحاصره وأخرج اليه أمه وأشراف مملكته ، فأشخصهم إلى بلده ، وجمع أهله ورجال دولته ، وسائر بنى إسرائيل ، نحواً من عشرة آلاف واحتملهم أسارى إلى بابل ، وغنم جميع ما كان فى الهيكل والخزائن من الاموال ، وجميع الأواني التى صنعها سليمان للمسجد ، ولم يترك بمدينة القدس إلا الفقراء والضعفاء وبقى يخنيو ملك بنى إسرائيل محبوساً سبعا وثلاثين سنة .

وقال ابن العميد : أن بختنصر سار إلى القدس فى الثالثة من مملكة ألياقيم ، وسبي طائفة منها ، وانتهب جميع مافى بيت الهيكل ، وكان فى زمنه دانيال وخانيا (١) وعزاريا وميصائل وان فى السنة الخامسة من ملكه قاتل بختنصر فرعون الاعرج ملك مصر ، وفى الثانية من ملك ألياقيم غزا بختنصر القدس ووضع عليهم الخراج ، وأبقى ألياقيم فى ملكه ، وهلك لثلاث سنين بعد ذلك ؛ وملك ابنه يخنيو ، وكان لعهده من الأنبياء إرمياوأوريا بن شعيا ومورى والد حزقيا ، وفى أيامه تنبأ دانيال . ثم سار بختنصر ليَخنيو فأشخصه إلى بابل كما مرّ

صدقياهو أو متنيا

وقال الطبرى ووافقه نقل هِروُشيُوش : ان بختنصر ولى مكان يخنيو بن ألياقيم عمه مَتّنيا « بميم مفتوحة وتاء مثناة فوقانية مفتوحة مشددة ، ونون ساكنة ، وياء مثناة تحتانية بفتحة تجلب ألفاً » ويسمى صِدْقِياهو ، وكان عاصياً قبيح السيرة ، ولتسع سنين من ولايته انتقض على بختنصر فزحف اليه فى العساكر وحاصر بيت

* ولايتها لياقيم
١ — « حتنيا » (دانيال ١ : ٦)

المقدس ، وبنى عليها المدر للحصار ، وأقام ثلاث سنين واشتد الحصار بهم ، فخرجوا هاربين منها إلى الصحراء ، واتبعتهم العساكر من الكسدانيين ، وأدركوهم فى أريحاء ، فقبض على ملكهم صدقياهو وأتي به أسيراً فسمل عينيه .

وقال الطبرى : وذبح ولده بمرأى منه ، ثم اعتقله ببابل إلى أن مات . ولحق بعض من بنى إسرائيل بالحجاز ، فأقاموا مع العرب ، وكان لعهده من الانبياء إرْميا وحبقوف وبارُوخ ، وبعث بختنصر قائده نَبُوزَرَاذُون « بنون مفتوحة وباء موحدة مضمومة تجلب واوا بعدها زاي وراء مفتوحة تجلب ألفاً ، وذال مضمومة تجلب واوا بعدها نون » بعثه إلى مدينة القدس ، وكانوا يدعونها مدينة يروشَالِم ، فخربها وخرب الهيكل ، وكسر عمد الصفر التى نصبها سليمان فى المسجد ، طول كل عمود منها ثمانية عشر ذراعا وطول رؤسها ثلاثة أذرع ، وكسر صرح الزجاج ، وسائر ما كان بها من آثار الدين والملك ، واحتمل بقية الأوانى ، وما كان وجده من المتاع ، وسبي الكوهن سارية والحبر منشا ، وخدمة الهيكل إلى بابل .

قال هروشيوش : وأبقى صدقيا هو محبوساً ببابل إلى أن أطلقه بزْدَاق قائد بهمن ملك الفرس حين غلبوا على بابل فأطلقه ووصله وأقطعه . وقال مؤرخ حماة ووافقه المسعودى : ان بختنصر بعد تخريب القدس هرب منه بعض ملوك بنى إسرائيل إلى مصر وبها فرعون الاعرج ، وطلبه بختنصر فأجاره فرعون ، وسار اليه بختنصر فقتله وملك مصر ، وافتتح من المغرب مدائن ، وبث فيها دعاته ، وكان إرمياء نبي بنى إسرائيل من سبط لاوى ، ويقال اسمه إرمياء بن خَلْقِيا وكان على عهده صدقياهو ووجده بختنصر فى محبسهم فأطلقه ، واحتمله معهم فى السبي إلى بابل ، وقيل أنه مات فى محبسه ولم يدركه بختنصر ، وكذلك احتمل معهم دانيال بن حزقيل من أنبيائهم .

وقال ابن العميد : وولى جدَلِيا بن أحان (١) على من بقى من ضعفاء اليهود بالقدس . ولسبعة أشهر من ولايته قام اسمعيل بن مَتَنْيا بن اسمعيل ، من بيت الملك فقتل جدليا واليهود والكسدانيين الذين معهم ، ثم هرب الى مصر وهرب معه

جدليا

١ — فى كد (١ – ٤٠ – ١٤) « جدليا بن أخيقام »

إرميا وهرب حَبَقّوق إلى الحجاز فمات وكان قيما ، ولحقهم بمصر ، وتنبأ إرمياء فى مصر وبابل [ويهوذا] وصور وصيدا وعمّون ثمانية وثلاثين سنة ، ورجمه أهل الحجاز فمات . وكان فيما أخبرهم به مسير بختنصر إلى مصر ، وتخريبه هيا كلها ، وقتله أهلها . ولما دخل بختنصر مصر نقل جسده إلى اسكندرية ودفنه بها ، وقبل دفن بالقدس لوصيته . وأما حِزْقياهو فقتله اليهود فى السبي . قال الطبرى : وافترقت جالية بنى إسرائيل فى نواحى العراق ، إلى أن ردّهم ملوك الفرس إلى القدس فعمروه وبنوا مسجده . وكان لهم فيه ملك فى دولتين متصلتين ، إلى أن وقع بهم الخراب الثانى والجلوة الكبرى ، على يد طِيطُش من ملوك القياصرة ، كما نذكر بعد

نسب بختنصر

ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف فى نسب بختنصر هذا ، والى من يرجع من الأمم . فقد ذهب قوم الى أنه من عقب سنحاريف (١) ، ملك الموصل الذى كان يقاتل بنى إسرائيل والسامرة بالقدس

قال هشام بن محمد الكلبي فيما نقل الطبرى : هو بختنصر بن نَبُوزَرَاذون بن سنحاريف . ثم نسب سنحاريف الى نمرُوذ بن كوش بن حام ، الذى وقع ذكره فى التوراة فى ولد كوش . وعدّ بين سنحاريف والنمروذ ، ستة عشر أبا أو نحوها ، أولهم ، دَارِيُرش بن فالَغ وعصا بن نمروذ ، أسماء غير مضبوطة يغلب على الظن تصحيفها ، لعدم دراية الأصول وقلة الوثوق بضبطها .

وقيل ان بختنصر من نسل أشوذ * بن سام . ولم يقع الينا رفع هذا النسب ، ولعله أصح من الأول لانه قد تقدم نسب سنحاريف فى الجرامقة ، ثم فى الموصل منهم ، وهم من ولد أشوذ باتفاق من أهل فارس ، نقله أيضاً الطبرى عن ابن الكلبي ،

---

١ — دائماً نجد فى النسخة سنجاريف بالجيم والفاء أما الفاء فهى ترجمة للباء الأثورية التى يسميها المؤلف هوائية فلذلك أبقينا عليها وأما الجيم فلا محل لهـا فيما نرى لأن المؤرخين قاطبة يذكرون هذه اللفظة بالحاء . ثم إن الكلمة أثورية ومعناها : (القمر يكثر الأخوة)

* أشور

وان اسمه بختمرسه (١) ، فسمى بختنصر ، وكان يملك ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة ، أيام هراسب، ويشتاسب، وبهمن ، من ملوك الفرس ، وانه افتتح ما يليه من بلاد بابل والشأم ، ثم سار إلى القدس ، فافتتحها ، كما تقدم . وقيل أن بهمن بعث رسله إلى القدس فى طلب الطاعة منهم فقتلوه ، فبعث بهمن أصبهبذا (٢) للناحية القريبة من مملكته ، وبعث معه داريوش من ملوك مادى * بن نابت وكيرش بن كيكرس من ملوك بنى غلميم بن سام ، وأحشوارس (٣) بن كيرش بن جاماسب ، من قرابته ، وسار معهم بختنصر بن نبوزراذون بن سنحاريف ، صاحب الموصل الذي لقومه البراآت فى أهل المقدس ، فكان ماوقع من الفتح ، وقيل كان بختنصر صاحب الموصل فى مقدمتهم ، وكان الفتح على يده

وأما بنو إسرائيل فيزعمون ان بختنصر من الكسدانيين ، وهم ولد ناحور ابن آزر أبى ابرهيم عليه السلام ، وكان لهم الملك ببابل ، وكان بختنصر هذا من أعقابهم ، وكان مدة دولته خمسا وأربعين سنة ، وكان فتحه المقدس لثمانية عشر من دولته .

أويل مروداخ

وملك بعده أويل مروداخ ثلاثا وعشرين سنة ، ثم بعده ابنه فيلسنصر بن أويل ثلاث سنين . ثم غلب عليهم كورش * وأزال ملكهم . وهو الذى ردّ

١ — فى ط (١٨٢ — ١٨٣ — ١) وغيرهما بخترشة قال فى ق « وبختنصر » بالتشديد اصله بخت ومعناه ابن ونصر كبقم صنم وكان وجد عند الصنم ولم يعرف له أب فلسب اليها » قال فى ت « وقد نفى سيبويه هذا البناء » أنظره فى مادة نصر وفى ع (ص ٨٣) أن أصله بالسريانية نبو خد نصر أعنى : عطارد ينطق وإنما سمى بذلك لأنه نطق بالعلوم والآداب المنسوبة الى عطارد « قال ناشره الأب أنطون صالحانى اليسوعى » أصل الاسم نبو (وهو عطارد) كدر نصر فيكون المعنى (نبو ينصر من الكدر)

٢ — أصبه بوذ عند الفرس لقب كان يلقب به حافظ الجيوش

* مادای

٣ — فى ط (١ — ٢٨٣) أحشوارس بن كيرس بن جاماسب وسيأتى فى آخر الصفحة مثله للمؤلف وفى كد (أستير — ١ : ١ : ١٥ : ١٧ : ١٩) « أحشويروش » وانظر ما كتبه ب عن هذا الاسم (٢ — ٥٦٥)

* كيورش

بنى إسرائيل إلى بيت المقدس فعمروه وجدّدوا به ملكاً كما نذكره .

وقد اختلف فى كيرش الذى ردَّ بنى اسرائيل إلى القدس من هو ؟ بعد اتفاقهم على أنه من الفرس ، فقيل هو يستاسب * ، [بن لهراسب جد بهمن . وقيل هو بن دى اراس بن كيكسبا بن كفتاد الأكبر ، وانه أخو كيقاوس وعم تستاسب ـ خ] ولم يكن ملكا ، وإنما كان مُمَلَّكا على خوزِستان وأعمالها من قِبل كَيْقَوس * وبنجسون بن سياوش ، ولهراسب من بعدهما ، وكان عظيم الشأن ولم يكن ملكا . وقيل إن كيرش هو ابن اخْشوَازش بن جاماسب بن لهراسب ، وأبوه أخشوارش هذا هو الذى بعثه بهمن

ولما رجع من ذلك الفتح بعثه الى ناحية الهند والسند ، وانصرف إلى حصن الإبر فولاه بابل وتزوج من سبي بنى اسرائيل ابنة أبى حاويل الرَّحا ، وأخت مَرْدُخاى من الرضاع ، وهو من أنبياء بنى اسرائيل ، فتزعم النصارى أنها ولدت عند احشوارش * الى بابل ابنه كيرش هذا ، فحضنه مَرْدخاى ولقنه دين اليهودية ولزم سائر أنبيائهم،مثل متنيا ، وعازَريا ، وميثائل وعزير.وولى دانيال أحكام دولته ، وجعل اليه أمره ، وأذن له أن يخرج مافى الخزائن من السبي والذخائر والآنية ، ويرده إلى مكانه ، ويقوم فى بناء القدس ، فعمره ، وراجعه بنو اسرائيل ، وسأله هؤلاء الانبياء أن يرجعوا الى بيت المقدس ، فمنعهم انتباطا بمكانهم ، وقيل ان كِيرَش هو كيرش بن كَيْكَو بن غُلَمْيم بن سام ، وهو الذى كنا قدمنا أن بهمن بعثه مع قائده بختنصر الى فتح بيت المقدس ، وأن بختمرس ملكه بهمن على بابل . وكان يسمى بختمرسى * ، كما ذكرنا فملكها ، وملك ابنه من بعده ثلاثا وعشرين سنة ثم ابنه بُلْتَنَصَّر سنة واحدة . ثم بلغ بهمن سوء سيرته فعزله ، وولى على بابل داريوش الماذى ابن ماذاى ، ثم عزله وولى كِيرَش بن كَيْكو . وكتب اليه بهمن بأن يرفق ببنى اسرائيل ويحسن ملكتهم ، وأن يردهم الى أرضهم ، ويولى عليهم

* تستاسب
* كيقاوس * سيراحوارش * بختنصر

من يختارونه ، ففعل ، فاختاروا دانيال من أنبيائهم ، فولاه . وقيل ، وهو لعلماء بنى إسرائيل : إن بلتنصر حافد بختنصر ، وهو ملك بابل والكسدانيين ، وإن دارا ويسمى داريوش ملك ماذى وكورش ، وهو كيرش ملك فارس ، كانا فى طاعته ، فانتقضا عليه . وخرج اليهم فى العساكر فانهزم أولا ، ثم بعث عساكره وقواده اليهم فهزمهم ، ثم قتله خادمه على فراشه ، ولحق بداريوش وكورش ، وزحفا إلى بابل فغلبا الكسدانيين عليها ، واختص دارا وقومه ماذى ، وأظنهم الديلم ، ببابل ونواحيها [وقصور الملك بها — خ] واختص كورش وقومه فارس بسائر الأعمال والكور ، وكان كورش نذر ببناء بيت المقدس ، وإطلاق الجالية ورد الآنية ، ثم هلك دارا وانفرد كورش بالملك على فارس وماذى ووفى بنذره

هذا محصل الخلاف فى بختنصر وكيرش والله أعلم .

عمود بنى اسرائيل فى الفرس

داود

(١) سليمان

(٢) رحبعم

(٣) أفياس

(٤) أسا

(٥) يهوشافاظ

(٦) يهورام

(٧) احزياهو

(٨) يؤاش

(٩) أمصياهو

(١٠) عزياهو

(١١) يؤاب

(١٢) أحاز

(١٣) حزقياهو

(١٤) منشا

(١٥) أمون

(١٦) يوشيا

(١٧) يؤاش

(١٨) ألياقيم

(١٩) يوخنيو

دولة الأسباط

الخبر عن دولة الاسباط العشرة وملوكهم

إلى حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا فى دولة سليمان عليه السلام أن يَرُبْعَام بن نَبَاط ، من سبط أفرَائيم ، كان والياً لسليمان على جميع نواحي يُورشَليم ، وهى بيت المقدس ؛ وقيل إنما كان والياً على عمل بنى يوسف بنابلس وما اليها ، وكان جباراً ، وأن سليمان عوتب على ولايته من الله ، وانتقض ولحق بمصر ، فلما قبض سليمان ، وولى ابنه رُحبْعُم ، واختلف عليه بنو إسرائيل بما بلوا من سوء ملكته * ، والزيادة فى الضرائب عليهم ، واجتمع الأسباط العشرة ، ما عدا يهوذا وبنيامين ، فاستقدموا يَرُبْعام بن نباط من مصر ، فبايعوا له ، وولوه الملك عليهم ، وحاربوا رحبعم ومن فى طاعته ، وهم سبط يهوذا وبنيامين ، فامتنعوا عليهم بمدينة يورشليم ، ثم انحازوا الى جهة فلسطين فى عمل بنى يوسف ، ونزل يَرُبْعم مدينة نابلس [واستبد ـ خ] بملك الأسباط العشرة ؛ ومنعهم من الدخول الى المقدس والقربان فيه ، وكان عاصياً مسخوط السيرة ولم يزل الحرب بينه وبين رحبعم بن سليمان وابنه أبيًا من بعده ، واثنين من ملك أسا ابن أبيًا ، وكان أبيًّا ظاهراً عليه فى حروبه ، ثم هلك يربعام بن نباط لسنتين من ملك أبيا ، ولثلاث وعشرين من ملكه ، فولى مكانه على الأسباط يُونَاذَاب ، وكان على مثل سيرة أبيه من الجور وعبادة الأصنام ، فسلط الله عليه يَمْشا بن أحيا (١) فقتله وجميع أهل بيته لسنتين من ملكه ، وقام بملك الأسباط ، فلم يزل يحارب أسا ابن أبيا وأهل القدس سائر أيامه ، وكان أسا يستمد عليه بملك دمشق من الأرمن . وسار معه اليهمرة ، وكان يعشا بن أحيا يبنى يثرب (٢) فأجفل أمامهم ، وترك الآلات

(١) يربعام بن نباط

(ب) يوناذاب

(ج) يمشا

* مملكته

١ ــ فى كد (املوك ١٥ ــ ٢٧) « أخيا »

٢ ــ فى ج نبى يثرب « وهو غير مستقيم » أنظر ص ١٠١

(٠)ــ كذا هنا والذى فى كد (أملوك ١٥ ــ ٢١) وغيرها « رامة »

فأخذها أسا وبنى بها الحصون . وهلك يَمْشا بن أحيًّا لأربع وعشرين سنة من ملكه ، ودفن فى بِرْصا (١) بمدينة ملكهم بعد أن أنذره بالهلاك نبيهم ياهو (٢)

(د) إيليا — ولما هلك ولى بعده ابنه إيليا . ويقال إيلهُوا* ، فى السادسة والعشرين من ملك أسا ، فأقام سنين ، ثم بعث عساكر بنى إسرائيل الى محاصرة بعض المدن بفلسطين ،

(ه) زمرى — فوثب عليه سبط من الأسباط ، من عقب كان يعرف زِمْرِى صاحب المراكب ، ويقال ابن إلْيافا ، فقتله وجميع أهل بيته ، وقام بالملك ومكث أياماً يسيرة خلال ما بلغ الخبر لبنى إسرائيل بمكانهم من حصار فلسطين ، فلم يرضوه وملكوا عليهم صى بن

(و) صى بن كيسات — كسات من سبطه ، ورجعوا الى زِمْرِى المتوثب على الملك فحاصروه ، فلما أحيط به دخل مجلس الملك ، وأوقد ناراً لتحرقه ، فاحترق فيه لسبعة أيام من ثورته

(ز) عمرى — وكان عُمْرِى بن نادَاب من سبط أفْرَايم ، ويلقب صاحب الحربة ، يرادف صى فى الملك فقتله واستبد ، وذلك فى الحادية والثلاثين من ملك أسا . ثم اختلف عليه بنو إسرائيل ونصب بعضهم بنيامين ، فنال من سبط يَسَّاخَر وحاربهم عُمْرِى فغلبهم ، وكان ينزل مدينة بِرْصا ولست سنين من ملكه اختط مدينة السامرية ابتاع لها جبل شُمْرَان من رجل اسمه سامر بقنطار فضة ، وبنى فيه قصوره ، وسميت سَبَسْطِيَة ، ثم غلبت عليها النسبة الى البائع . ويقال ان الاسم كان شُومِرون فعرب سامرة ، وأهملت شينها المثلثة (٣) . وكانت هذه المدينة مدينة ملكهم الى انقراض أمرهم . ثم هلك عمرى لثنتى عشرة سنة من ولايته ، ودفن فى نابلس

(ح) أحآب — وقام بملك الأسباط من بعده ابنه أحْآب . وكان على مذهبه ومذهب سلفه منهم من الكفر والعصيان ، وتزوج بنت ملك صَيْدَا ، وبنى هيكلاً بسامرة وجعل فيه صنماً

١ — فى كد (أملوك ١٦ — ٦) « بترصة »

٢ — ياهو (املوك ١٦ — ١)

٣ — يغلب أن تكون الشين فى العبرية سيناً فى العربية ، وقد كان رجال سبط يهوذا يكلفون من أرادوا امتحانه ليدركوه هل هو إفرايمى أو من سبط يهوذا ان ينطق (شيولت) أى السنبلة فاذا نطق بالشين فذاك وإلا عرفوا أنه أفرايمى ولا يزال اليهود فى المغرب ينطقون السين شينا

* إيلهودا

(٠) فى كد (أملوك ١٦ — ٢٢) « تبنى بن جينة » وكذلك فى ف (١ — ٢٨) وابن الوردى (١ — ٢٦) ولم نقف على الإسم المذكور عند المؤلف

يسجد له ، وأفحش فى قتل الأنبياء ، وبنى قرية أريحاء ، ودعا عليه إيليا النبي فقحطوا ثلاث سنين ، خرج فيها إيليا الى البرية فسكنها . ثم رجع فدعا وأنزل الله المطر ، وذبح الذين حملوا أحآب على عبادة الأصنام

هكذا قال ابن العميد . والذى قاله الطبرى : أن هذا النبي الذى دعا عليهم هو إلياس بن سين . وقيل ابن ياسين ، من نسل فِنْحاص بن العازار ، وكان بعث الى أهل بَعْلَبكّ وإلى أحآب وقومه . وقال الطبرى : فكذبوه فأصابهم القحط ثلاثاً ، ففزعوا اليه فى الدعاء ، وباهلهم فى أصنامهم ، فلم تغن شيئاً ، فدعا لهم فمطروا . ثم إنهم أقاموا على ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ، وكان أحآب شديداً عليه ، ودعا عليه إلياس . ثم طلب من الله أن يتوفاه ، بعد أن أنذر الناس بهلاكه وهلاك قومه بل عقبه . وتنبأ بعده اليسع بن أخطوب ، من سبط أفرايم ، وقيل ابن عم إلياس . قال ابن عساكر : اسمه اسباط بن عَدِي بن شولِّم بن أفرائيم

قال الطبرى : كان مستخفياً مع الياس بجبل قاسيون من ملك بعلبك ، ثم خلفه فى قريته . انتهى كلام الطبرى .

وقال ابن العميد : فى أيام أحآب أوحى الله الى إيليا أن يبارك على الياس بن بَفْسا ففعل ذلك ، وأن يبارك على [جبرائيل ملكا على — خ] أروم بدمشق وعلى ياهو ملكاً على بنى إسرائيل ففعل ذلك ، وهو أيضاً على عهد أحآب فجاء سنداب ملك سورية ، فحاصر أحآب بن عمرى والأسباط العشرة فى السامرة ، وخرجوا اليه فهزموه واستلحموا عامة عسكره . ثم رجع اليهم من العام القابل ، فخرجوا اليه وهزموه ثانياً وقتلوا من عسكره نحواً من مائة ألف ومروا فى اتباعهم ، وامتنع سنداب فى بعض حصونه ، وأحاطوا به فخرج اليهم ملقيا * بنفسه على ملكهم أحآب ، فعفا عنه ورده الى ملكه ، وسخط ذلك النبي من فعله ، وأنذره بعذاب يصيب ولده ، عقوبة من الله تعالى على إبقائه عليهم

ثم خرج أحآب من ملك الأسباط مع يهوشافاط ، ملك يهوذا المقدس ، لمحاربة ملك سورية . فأصابه سهم هلك فيه ، ودفن بسامرة لثنتين وعشرين سنة من

* أ ملبقا

ملكه . قال ابن العميد: وقيل لثمان عشرة . وقال : إنما خرج لحرب كلعاد ،لك أروم فانهزم وقتل

(ط)
أحزيا

ولما هلك ملك من بعده ابنه أَحزْيا ويقال أَمَشيا . وكان عاصياً سيء السيرة . قتل عامُوص النبي ، وعبد بعلا الصنم ، وهلك لسنتين ، فملك أخوه يُوام ، وقيل إنه لتسع عشرة من ملك يهوشافاظ ملك الفرس ، فملك يوام على الأسباط ثنتى عشرة سنة ، زحف فيها أولاً إلى مؤاب ، لما منعوه الجزية التي كانت عليهم للاسباط : مائتين من الغنم في كل سنة ، واستنجد ملك يهوذا لحربهم فحاصرهم سبعة أيام ، وفقدوا الماء ، فاستسقى لهم اليسع ، وجرى الوادى ، وخرج أهل مؤاب يظنونه ماء فقتلهم بنو إسرائيل ، وجمع هداد ملك أروم لحصار سامرة ، ونازلها ثلاث سنين ، ثم دعا عليهم اليسع فأجفلوا ورجعوا إلى بلادهم ، وفى الثانية عشرة من ملك يؤام ملك الأسباط ، ثار عليه ياهو بن يهو شافاظ بن منشا من سبط منشا بن يوسف ، وذلك عند منصرفه من محاربة ملوك الجزيرة وأروم مع أحزيا بن يهورام ملك القدس ، وكان جريحاً ، فعاده أحزيا ، وكان هذا الفتى ياهو ، يترصد قتل يؤام ، فأمكنته الفرصة فيه تلك الساعة ، فقتله وقتل معه أحزيا ملك القدس ، وبنى يهوذا ، وملك على الأسباط .

(ى)
يوام

وقال ابن العميد : خرج يؤام بن أحآب ملك الأسباط لحرب أروم ، ومعه أحزيا ملك القدس ، فقتلا جميعاً فى تلك الحرب ، وقيل ان ياهُو بن مِنَشّا رمى بسهم فأصاب يؤام بن أحآب فمات . ولما ملك ياهو على الاسباط قتل بنى أحآب كلهم ، كما أمره اليسع ، وهلك لخمس وثلاثين من ملكه ، وولى ابنه يُواص وقيل يهوذا ، ولثمان وعشرين من دولة يواص بن أحزيا ملك يهوذا القدس ، وكان قبيح السيرة ، عبّاداً للأصنام ، وعمل مذبحاً بسامرة ، وهلك لسبع عشرة من ملكه وولى بعده ابنه يواش لسبع وثلاثين من دولة يُواص بالقدس ، وزحف إلى القدس فملكها من يد أمصيا ملك يهوذا وهدم من سورها أربعمائة ذراع ، وسبى أهل المقدس ، وسبى بنى عزريا الكوهن ، وأخذ جميع مافى المسجد ، ورجع إلى

(يا)
ياهو بن يهوشافاظ

(يب)
يواص

سامرة ، ومرض اليسع فعاده يُواش فوعده بأنه يهلك أروم ويظفر بهم ثلاث مرات ، فكان كذلك ، وهلك لثلاث عشرة سنة من ملكه .

(يج) يربعام

وولى من بعده ابنه يرُبْعام ، وكان سيء السيرة ، وزحف إلى أمَصيا ملك يهوذا. وقيل ان الذى زحف إلى أمَصْيَا إنما هو يؤاش أبوه ، فهزمه وأخذه أسيراً وسار به إلى القدس ، فاقتحمها عنوة ، وغنم جميع مافى خزانتها وسبي بنى عَزرْيا الكوهن، ورجع إلى السامرة فأطلق أمصيا ، ثم [هلك] لاحدى وأربعين سنة من ملكه ، ولسبع وعشرين من ملك عزياهو بن أمصيا ، ملك القدس . قال ابن العميد : وبقى بنو إسرائيل بالسامرة فوضى إحدى عشرة سنة ، ثم ملكوا ابنه زكريا فى الثامنة والثلاثين من ملك عزياهو ، فملك ستة أشهر * . وقال ابن العميد شهراً ثم وثب به مَنَاخيم بن كَادِ ، من سبط زَبلُون من أهل بِرْصَا ، فقتله وملك مكانه ثنتى عشرة سنة . وقال ابن العميد عشر سنين . قال وفى التاسعة والثلاثين من ملك عزياهو ، خرج إلى مدينة برصا ، ففتحها عنوة واستباحها ، وزحف اليه فول ملك الموصل فصانعه بألف قنطار من الفضة ورجع عنه ، وكانت سيرته رديئة ، ولما هلك مناخيم ملك ابنه يَقْحِيا لأربعين من دولة عزيا ملك القدس ، فأقام فيهم ثنتى عشرة سنة . وقال ابن العميد سنتين ، ثم ثار عليه من عماله بَاقَح بن مليا وكان على طريقة من تقدمه فى الضَلال ، فأقام ملكاً على الأسباط بالسامرة عشر سنين. وهلك لدولته عزيا بن أمصيا ملك يهوذا بالقدس ، وأقام باقح بن مليا على سوء السيرة وعبادة الأصنام ، إلى أن قتله هويشيع (١) بن أيليا من سبط كاد فى الثالثة من ملك يُوءاب ملك القدس . وبقى الاسباط بعده فوضى عشر سنين .

(يد) زكريا بن يربعام

(يه) مناخيم

(يو) يقحيا

(يز) باقح بن مليا

هويشيع بن إيليا

ثم ملكوا قاتله هويَشيَع بن أيليا المذكور . فأقام ملكاً عليهم سبع سنين . وفى أيامه زحف اليه ملك أشور والموصل . فصير الأسباط فى طاعته وأدوا اليه الخراج . ثم إن هويشيع راسل ملك مصر فى الاستعانة به والرجوع إلى طاعته . فلما بلغ ذلك

---

* وولى مكانه سنة

١ — فى كد (٢ ملوك ١٥ — ٣٠) « يوشع » وكأن المؤلف رسم الحرفين الواو والياء للدلالة على الاشمام فى أصل النطق

إلى ملك الموصل زحف اليه وحاصره فى مدينة السامرة ثلاث سنين . واقتحمها فى الرابعة، وتقبض على هويشيع لتسع سنين من ملكه ، ونقله مع الأسباط كلهم إلى الموصل ، ثم بعثهم إلى قرى أصبهان وأنزلهم بها ، وقطع ملك بنى إسرائيل من السامرة وبقى ملك يهوذا وبنيامين بالقدس ، وكان ذلك لعهد أحزيا بن أحاز من ملوكهم لسنة من دولته .

انقراض ملك الأسباط

وتعاقبت ملوكهم بعد ذلك بالقدس إلى أن انقرضوا ، وجمع ملك الموصل من (كوره (١) غارا وحماة وصفرارام ، ويقال ومركتا وأسكنهم بالسامرة . قال ابن العميد : وتفسيرها حفيظة ؟ ويواطر ؟) . قالوا وسلط الله عليهم السباع يفترسونهم ، فبعثوا إلى ملك الموصل أن يعرفهم بصاحب قسمة السامرية من الكواكب ليتوجهوا اليه بما يناسبه على طريقة الصابئة ، فقيل له إن الشريعة التى رسخت فيها وهى دين اليهودية تمنع من ذلك ومن ظهور أثره ، فبعث اليهم كوهنين من عامة اليهود يعلمانهم اليهودية ، فتلقوها عنهما

فهذا أصل السامرة فى فرق اليهود ، وليسوا منهم عند أهل ملتهم لا فى نسبهم ولا فى دينهم . والله مالك الأمور ، لا رب غيره ولا معبود سواه ، سبحانه وتعالى .

---

١ — كذا هنا سطر ونصف كله تحريف وقد تركناه على حاله ولكننا نوضح المقصود منه بنقل بعضه من التوراة :

(الملوك ٢ : ١٧ : ٢٤) وأتى ملك الشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفرة وايم وأسكنهم فى مدن السامرة عوضا عن بنى اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا فى مدنها

وفى سفر عزرا (٤ : ٩ - ١٠) مهاجرون أخراسكنهم أستقر الشريف السامرة بعد جلاء الاسرائيليين عنها

عمود الاسباط فى السامرة

اسرائيل

دان — يساخر — يوسف — نفتالى — زبولون — كاد

رمليا — فنال — رصوتا — منشا — أفرايم — يامنش — كاد — اليان — أيليا — كسات

١٧ باقح — بنيامين — أخيا — (١)أيشا — (١) — شالوم — مناخيم — (٥)زمرى — هو(١٨)يشيع — صى

بقحيا

(٣)بعشا — يهوشافاط — نباط — ناذاب

(٤) إيليا — (١٠) — (١)يربعام — عمرى (٦)

ويقال إليهو — ياهو — (٢)يوناذاب — أحآب (٧)

(١١)يواص وقيل يهودا — أحزيا (٨) — يؤام (٩)

(١٢) يؤاش

(١٣) يربعام

(١٤) زكرياء

---

١ — كذ فى ج : والذى يظهر أنه ابن منشا بن منشا بن يوسف

الدولة الأشمونية أو بنو حشمناى

الخبر عن عمارة بيت المقدس بعد الخراب الأول

وما كان لبنى إسرائيل فيهامن الملك فى الدولتين لبنى حشمُناى وبنى هيرُدُوس إلى حين الخراب الثانى والجلوة الكبرى

هذه الأخبار التى كانت لليهود ببيت المقدس ، والملك الذى كان لهم فى العمارة بعد جلاء بختنصر ، وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم فى تلك المدة ، لم يكتب فيها أحد من الأئمة ، ولا وقفتُ فى كتب التواريخ ، مع كثرتها واتساعها ، على ما يلم بشئ من ذلك . ووقع بيدى وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بنى إسرائيل ، من أهل ذلك العصر ، فى أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ، مابين خراب بختنصر الاول ، وخراب طيطُش الثانى ، الذى كانت عنده الجلوة الكبرى ، استوفى فيه أخبار تلك المدة بزعمه . ومؤلف الكتاب يسمى يوسف بن كريون (١) . وزعم أنه كان من عظماء اليهود وقوّادهم ، عند زحف الروم اليهم، وأنه كان على صولة ، فحاصره اسبيانوس أبو طيطش ، واقتحمها عليه عنوة ، وفرّ يوسف إلى بعض الشعاب ، وكمن فيها . ثم حصل فى قبضته بعد ذلك ، واستبقاه ، ومنّ عليه ، وبقى فى جملته . وكانت له تلك وسيلة إلى ابنه طيطش ، عند ما أجلى بنى إسرائيل عن البيت ، فتركه بها للعبادة ، كما يأتى فى أخباره

تاريخ اليهود ليوسف بن كريون

قوله على صولة بلد قريب من المقدس كما فى التوراة ولعلها المسماة اليوم بصفد اهـ كذا بخط العطار

هذا هو التعريف بالمؤلف ، وأما الكتاب فاستوعب فيه أخبار البيت واليهود

١ — كتاب تاريخ اليهود لابن كريون ذكره فى كشف الظنون وقال إنه عنى بنقله من العبرانية الى العربية زكريا بن سعيد اليمنى الاسرائيلى ، وهو مجلد واحد وقد طبع هذا الكتاب بالعربية (دون ذكر اسم مترجمه) مرار منها طبعة المكتبة العمومية ببيروت . وابن كريون هذا هو يوسيفوس بن ماتيا الاسرائيلى الهارونى ولد بأورشليم فى سبعة وثلاثين ميلادية ودرس العلوم الدينية وأتقن اليونانية وفى سنة ٦٣ زار رومية وحظى لدى بوبيا زوجة نيرون وتشفع بها لدى العاهل فى إطلاق كهان اليهود الذين أرسلهم فلكس الوالى أسارى لرومية ، ثم أسره أسبازيانس الى الاسكندرية ، وبعد ما انتخب عاهلا وكان تنبأ له بذلك من قبل فرافقه يوسينوس الى رومية وأعفى أملاكه اليهودية من الخراج وتوفى متم المائة ميلادية

وقد ألف يوسيفوس تاريخ اليهود فى عشرين جزءاً وكتابا آخر فى سبعة أجزاء فى تاريخ اليهود وعلاقتهم مع الروم ، وقد نقلت تآليفه للاتينية والفرنسية

بتلك المدة وأخبار الدولتين اللتين كانتا بها لبنى حشمناى ، وبنى هيردوس ، من اليهود ، وما حدث * فى ذلك من الأحداث فلخصتها هنا كما وجدتها فيه ، لأني لم أقف علي شيء فيها لسواه ، والقوم أعلم بأخبارهم ، اذا لم يعارضها ما يقدم عليها . وكما قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا (۱) أهلَ الكتابِ » فقد قال : « ولا تكذبوهم » مع أن ذلك إنما هو راجع إلى أخبار اليهود وقصص الأنبياء ، التى كان فيها التنزيل من عند الله ، لقوله بعد ذلك : « وقولوا آمنّا بالذِى أُنزِلَ اليْنَا وَأُنزِلَ إليكم » . وأما الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحس ، فخبر الواحد كاف فيه ، اذا غلب على الظن صحته . فينبغي أن نلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم ، لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره ، والله أعلم [بالحق من ذلك وإنما قصدت بهذا الخروج عن العهدة فيما كتبت من ذلك ـ خ] ، ولم ألتزم صدقه من كذبه ، والله المستعان

قال الطبري وغيره من الأئمة : كان يرْميا ، ويقال إرْميا ، بن خِلْقِيَا من أنبياء بنى اسرائيل ومن سبط لاوِى ، وكان لعهد صِدْقياهو ، آخر ملوك بنى يهوذا ببيت المقدس . ولما توغلوا فى الكفر والعصيان أنذرهم بالهلاك على يد بختنصر [فحبسوه واستلحمهم ـ خ] وسأله عنه وأطلقه واحتمله معه فى السبي . وكان فيما يقوله إرْمِيا إنهم يرجعون إلى بيت المقدس بعد سبعين سنة يملك فيها بختنصر وابنه وابن ابنه ويهلكون ، واذا فرغت مملكة الكسدانيين بعد السبعين يفتقدكم ، يخاطب بذلك بنى اسرائيل فى نص آخر له ، عند كمال سبعين لخراب المقدس

وكان شَعْيا بن أمَصْيا من أنبيائهم أخبرهم بأنهم يرجعون الى بيت المقدس على يد كُورَش من ملوك الفرس ، ولم يكن وجد لذلك العهد ، فلما استولى كورش على بابل وأزال مملكة الكسدانيين ، أذن لبنى إسرائيل فى الرجوع الى بيت

* تخلل
١ ــــ الحديث خرجه البخارى وأبو داود والامام احمد وهو : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوا ولكن قولوا : آمنا بما أنزل الينا وما أنزل اليكم » وله روايات مختلفة

المقدس وعمارة مسجدها ، ونادى في الناس أن الله أوصاني أن أبنى بيتاً ، فمن كان لله ، وسعيه لله فليمض الى بنائه . فمضى بنو اسرائيل ، في اثنين وأربعين ألفا وعليهم زِربّافيل ، بالفاء الهوائية، بن شألتِهيل بن يوخُنْيا آخر ملوكهم بالقدس ، الذى حبسه بختنصر . وقد مرّ ذكره . وقد مضى معهم عزِّير النبي من عقب أبْشوع بن فنحاص ابن العازَر بن هارون ، وبينه وبين أبْشوع(١) ستة آباء ، لم أثق بنقلها لغلبة الظن بأنها مصحفة ، وورد عليهم كورش الأواني ، وكانت لا يعبر عنها من الكثرة

قال ابن العميد : كانت خمسة آلاف وأربعمائة قصعة ذهباً وفضة . فمضوا إلى بيت المقدس ، وشرعوا في العمارة ، وشرع كورش ، وسعي عليهم في إبطال ذلك بعض أعدائهم من السامرة ، ولم يكن أمد السبعين التى وعدهم بها انقضى ، لأن الخراب كان لثمان عشرة من ملك بختنصر ، وكانت دولته خمسة وأربعين ، ومدة ابنه وابن ابنه خمس وعشرون ، فبقيت من السبعين ثمانية عشر ، التى نفدت من ملك بختنصر قبل الخراب ، فمنعوا من العمارة بسعاية السامرية ، الى أن انقضت الثمان عشرة ، وجاءت دولة دارا ، من ملوك الفرس ، فأذن لهم في العمارة ، وعاد السامرة لسعايتهم في إبطال ذلك عند دارا . فأخبره أهل دولته أن كورش أذن لهم في ذلك فخلى سبيلهم ، وعمروا بيت المقدس في الثانية من ملك دارا الأول .وهو أرْفَخْشذْ ، والكوهن يومئذ عزَير . وجدّد لهم التوراة بعد سنتين من رجوعهم الى البيت

ثم هلك زِربّافيل وخلفه فيهم يهشمياس . وقبض العُزَير وخلفه شِمْعون الصفا من بنى هارون أيضا

وقال يوسف بن كربون : إن بختنصر لما رجع إلى بابل أقام ملكا سبعاً وعشرين سنة . وملك بعده ابنه بلتنصر ثلاث سنين . وانتقض عليه دار يُوش ملك ماذى ، وأظنهم الدَّيلم ، وكيرش ملك فارس ، وهزمتهم عساكره كما مرّ ، فعمل في بعض أيامه

---

١ — في كد (عزر ٧١ : ١ — ٥) بين عازر — الذى يسميه المسلمون عزير — وبين أبيشمون اثنا عشر علما ونصها « عزرا بن سرايا بن عمارزيا بن حلقيا بن شلوم بن صادوق بن أخيطوب بن أمريا بن عزريا بن مرايوس بن زارحيا بن عزى بن بقى بن أبى شوع

صنيعاً لقوّاده سرورا بالواقع ، وسقاهم فى أواني بيت المقدس التى احتملها جدُّه من الهيكل ، فسخط الله لذلك ، ورأى تلك الساعة كأن يدا خرجت من الحائط تومى بكتابة كلمات بالخط الكسداني والكلمات عبرانية، وهى « أحْصى ، وَزَنَ ، نَفذَ » فارتاع لذلك هو والحاضرون ، وفزع الى دانيال النبي فى تفسيرها . قال وهب بن مُنَبِّه : وهو من أعقاب حِزْقيل الأصغر ، وكان خلفا من دانيال الأكبر ، فقال له دانيال : هذه الكلمات تنذر بزوال ملكك ، ومعناها أن الله أحصى مدة ملكك ووزن أعمالك ، ونفذ قضاؤه بزوال ملكك عنك وعن قومك . وقتل فى تلك الليلة بلتنصر ، وكان ما قدمناه من استقلال كورش وقومه فارس بالملك ، ورد الجالية إلى بيت المقدس ، وأطلق لهم المال لعمارتها شكرا على الظفر بالكسدانيين .

ومضى بنو اسرائيل، ومعهم عزْرا الكاهن ونَحْميا، ومَرْدَخاى، وجميع رؤساء الجالية يبنون البيت والمذبح ، على حدودها ، وقربوا القرابين. وكان كورش بعد ذلك يطلق لهم فى كل سنة من الحنطة والزيت والبقر والغنم والخمر مايحتاجون اليه فى خدمة البيت، ويطلق لهم جراية واسعة ، وجري ملوك الفرس بعده على سنته فى ذلك إلا قليلاً ، فى أيام أحْشويرُوش منهم ، كان وزيره هامان ، وكان من العمالقة ، وكان طالوت قد استخلفهم بأمر الله ، فكان هامان يعاديهم لذلك ، وعظمت سعايته فيهم ، وحمله على قتلهم ، وكان مَرْدُخاى من رؤسائهم قد زوج أخته من الرضاع [كما تقدم — خ] لأحشويروش ، فدس اليها مردخاى أن تشفع إلى الملك ، فى قومها ، فقبلها وعطف عليهم ، وأعادهم [إلى حالهم — خ] إلى أن انقرضت دولة الفرس بمهلك دارا ، واستولى بنو يونان بمهلك دارا على ملك فارس ، وملك الأسكندر بن فليفوس* ودوخ الأرض ، وفتح سواحل الشأم ، وسار إلى بيت المقدس لأنها من طاعة دارا، وخاف الكهنة من وصوله اليهم ، ورأى فى بعض [الطرق] تمثال رجل فقال [له — خ] « أنا رجل* أرسلت لمعونتك » ونهاه عن أذية المقدس ، وأوصاه بامتثال إشارتهم . فلما وصل إلى البيت لقيه الكوهن ، فبالغ فى تعظيمه ، ودخل معه

* فيلبس * ملك

إلى الهيكل ، وبارك عليه ، ورغب اليه الاسكندر أن يضع هنالك تمثاله من الذهب ، ليذكر به ، فقال هـذا حرام ، لـكن تصرف همتك فى مصالح الـكهنة والمصلين ، ويجعل لك من الذكر دعاؤهم لك ، وأن يسمى كل مولود لبنى إسرائيل فى هـذه السنة بالاسكندر ، فرضى الاسكندر وحمل لهم المـال وأجزل عطية الـكوهن ، وسأله أن يستخير الله فى حرب دارا ، فقـال له امض والله مظفرك ، وحض دانيال . وقص عليه الاسكندر رؤيا رآها ، فأولها له بأنه يظفر بدارا ، ثم انصرف الاسكندر وسار فى نواحى بيت المقدس ومر بنابلس ولقيه سَنْبلاّط السامرى ، وكان أهل المقدس أخرجوه عنهم فأضافه وأهدى له أموالاً وأمتعة واستأذنه فى بنـاء هيكل فى طول بريد . فأذن له فبناه ، وأقام صهره منشا كوهناً فيه ، وزعم أنه المراد بقوله فى التوراة: « اجعل (١) البركة على جبل كرزيم » فقصـده اليهود فى الأعيـاد ، وحملوا اليـه القرابين وعظم أمره ، وغص بشأنه أهل بيت المقدس ، إلى أن خربه هركانوس ابن شمعون ، أول ملوك بنى حَشْمُناى كما يأتى ذكره .

ثم هلك الاسكندر ببابل بعـد استيفاء مدته لثنتين وثلاثين من ملـكه . وقد كان قسم ملـكه بين عظماء دولته ، فكان سلفانوس [بانطاكية ونواحيها . وكان أنطيخوس بمقدونيـة ، وكان تلماى ؟ بمصر . فلما ملك سلياقوس ــ خ] بعـد الاسكندر ، وكان عظيم أصحابه ، فأكرم اليهود ، وحمل المال إلى فقراء البيت .

ثم سعى عنده بأن فى الهيكل أموالاً وذخائر نفيسة ، ورغبوه فى ذلك ، فبعث عظيماً من قواده اسمه أرْذوس ليقبض ذلك المال ، فحضر بالبيت وأنكر الـكاهن حننيا أن يكون بالبيت إلا بقية الصدقات من فارس ويونان ، وما أعطاهم سلياقوس آنفاً ، فلم يقبل ووكل بهم فى الهيكل . فتوجهوا بالدعاء ، وجاء أردوس ليقبض المال فصدع فى طريقه ، وجاء أصحابه إلى الـكوهن وجماعة الـكهنة يسألون الاقالة والدعاء لأردوس ، فدعوا له وعوفى وارتحل [عنهم ــ خ] وازداد الملك سلفانوس إعظاماً للبيت ، وحمل ما كان يحمل اليهم مضاعفاً .

١ ـــ هذه هى الآية ٢٩ من سفر التثنية اصحاح ١١

ترجمة التوراة لليونان

قال ابن كريون : ثم ترجمت التوراة لليونانيين وكان من خبرها أن تِلْماى (١) ملك مصر من اليونانيين بعد الاسكندر ، وكان من أهل مقدونية ، وكان محباً للعلوم ومشغوفا بالحكمة والكتب الإلهية ، وذكرت له كتب اليهود الأربعة والعشرون سفراً فتاقت نفسه للوقوف عليها ، وكتب إلى كهنون القدس فى ذلك ، وأهدى له فاختار سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم ، وفيهم كوهن عظيم اسمه أَلِعازَر ، وبعثهم اليه ومعهم الأسفار ، فتلقاهم بالكرامة ، وأوسع لهم النزول ،ورتب مع كل واحد كاتباً يملى عليه ما يترجم له ، حتى ترجم الأسفار من العبرانية إلى اليونانية ، وصححها وأجاز الأحبار وأطلق لهم من كان بمصر من سبي اليهود ، نحواً من مائة الف ، وصنع مائدة من الذهب ، نقشت عليها صورة أرض مصر والنيل ، ورصعها بالجواهر والفصوص ، وبعث بها إلى القدس فأودعت فى الهيكل

تلماى

انطيوخوس

ثم مات * تلماى صاحب مصر واستولى بعده أنطِيُـوخُوس صاحب مقدونية على أنطاكية ، ثم على مصر ، وأطاعه ملوك الطوائف بأرض العراق ، واستفحل ملكه وعظم طغيانه ، وأمر الأمم بعبادة الأصنام ، وعمل أصناماً على صورته ، فامتنع اليهود من قبولها ، وسعى بهم عنده بعض شرارهم ، وكانوا أهل نجدة وشوكة فسار أنطِيخوس اليهم ، وأثخن فيهم بالقتل والسبي ، وفروا إلى الجبال والبرارى ، فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده فليكوس ، وأمره أن يحملهم على السجود لأصنامه ، وعلى أكل الخنزير وترك السبت والختان ، ويقتل من يخالفه ففعل ذلك أشد ما يكون ، وبسط على اليهود أيدى أولئك الأشرار الساعين ، وقتل أَلعازَر الكوهن الذى ترجم لهم التوراة لما امتنع من السجود لصنمه ، وأكل قربانه [وقتل بذلك خلق كثير منهم قال ابن كريون ـ خ] :

ابتداء أمر بنى شماع

وكان فيمن هرب الى الجبال والبرارى مَتِّيثْيا بن يوحنا بن شِمعون الكوهن

١ — هذا الملك هو الثانى من ملوك اليونانيين بعد الاسكندر وهو بطليموس بن فيلاديفوس أى محب أخيه وهذه التوراة هى سبعينية أنظر ف (١ ــ ٣٣) و ع (ص ٩٩) وهج (ص ٣١٤ و ١٣١٥) وغيرها من الكتب

* هلك

الأعظم ويعرف بحسمناى بن حورنيا من بنى نوذاب ، من نسل هارون عليه السلام ، وكان رجلا صالحا خيراً شجاعا ، وأقام بالبرية وحزن لما نزل بقومه . فلما أبعد أنطيخوس الرحلة عن القدس بعث متيتيا الى اليهود يعرفهم بمكانه ، ويتمعض لهم ويحرضهم على الثورة على اليونانيين فأجابوه وتراسلوا فى ذلك ، وبلغ الخبر فليكوس قائد أنطيخوس ، فسار فى عسكره إلى البرية طالباً متيتيا وأصحابه . فلما وصل اليهم حاربهم فغلبوه وانهزم فى عساكره ، وقوى اليهود على الخلاف

يهوذا

وهلك متيتيا خلال ذلك . وقام بأمره ابنه يهوذا ، فهزم عساكر فليكوس ثانية وشغل أنطيخوس بحروب الفرس ، فزحف اليهم من مقدونية ، واستخلف عليهم ابنه أفطر ، وضم اليه عظيما من قومه اسمه ليشاوش ، وأمرهم أن يبعثوا العساكر إلى اليهود ، فبعثوا ثلاثة من قوادهم ، وهم نيقاتور ، وتلماى ، وهيردوس ، وعهد اليهم بإبادة اليهود ، حيث كانوا ، فسارت العساكر ، واستنفروا سائر الأرمن من نواحى دمشق وحلب ، وأعداء اليهود من فلسطين وغيرهم ، وزحف يهوذا بن متيتيا مقدم اليهود للقائهم بعد أن تضرعوا إلى الله ، وطافوا بالبيت ، وتمسحوا به ، ولقيهم عسكر نيقاتور [أولا ـ خ] فهزموه وأثخنوا فيه بالقتل ، وغنموا ما معهم . ثم لقيهم عسكر القائدين تلماى وهيردوس ثانياً فهزموهما كذلك ، وقبضوا على فليكوس القائد الأول لأنطيخوس فأحرقوه بالنار ، ورجع نيقاتور إلى مقدونية فدخلها متنكراً ، وخبر ليشاوش وأفطر ابن الملك بالهزيمة ، فجزعوا لها ، ثم جاءهم الخبر بهزيمة أنطيخوس أمام الفرس ، ثم وصل إلى مقدونية واشتد غيظه على اليهود وجمع لغزوهم ، فهلك دون ذلك بطاعون فى جسده ودفن فى طريقه .

وملك [ابنه ـ خ] أفطر وسموه أنطيخوس باسم أبيه ، ورجع يهوذا بن متيتيا إلى القدس فهدم جميع ما بناه أنطيخوس من المذابح . وأزال مانصبه من الأصنام ، وطهر المسجد ، وبنى مذبحاً جديداً للقربان ، فوضع فيه الحطب ودعا الله أن يريهم آية فى اشتعاله من غير نار ، فاشتعل كذلك . ولم ينطف إلى الخراب الثانى أيام الجلوة ، واتخذوا ذلك اليوم عيداً سموه عيد العساكر

ونازل ليشاوش ، فزحف اليه يهوذا بن متيتيا فى عسكر اليهود ، وثبت عسكر ليشاوش ، فانهزموا ، ولجأ إلى بعض الحصون وطلب النزول على الأمان ، على أن لا يعود إلى حربهم، فأجابه يهوذا على أن يدخل أفطر معه فى العقد ، وكان ذلك وتم الصلح، وعاهد أفطر اليهود على أن لا يسير اليهم،وشغل يهوذا بالنظر فى مصالح قومه

قال ابن كريون : وكان لذلك العهد ابتداء أمر الكيتيم وهم الروم ، وكانوا برومية، وكان أمرهم شورى بين ثلثمائة وعشرين رئيساً،ورئيس واحد عليهم يسمونه الشيخ، يدبر أمرهم، ويدفعون للحروب من يثقون بغنائه وكفايته منهم أو من سواهم. هكذا كان شأنهم لذلك العهد ، وكانوا قد غلبوا اليونانيين واستولوا على ملكهم وأجازوا البحر إلى إفريقية ، فملكوها ، كما يأتى فى أخبارهم ، فأجمعوا السير إلى أنطيخوس أفطراو بن عمه ليشاوش بقية ملوك يونان بأنطاكية ،وكاتبوا يهوذا ملك بنى إسرائيل بالقدس يستميلونهم عن طاعة أنطيخوس واليونانيين ، فأجابوهم إلى ذلك . وبلغ ذلك أنطيخوس فنبذ إلى اليهود عهدهم . وسار إلى حربهم فهزموه ونالوا منه .

ثم راسلهم فى الصلح ، وأن يقيموا على عهدهم معه . وتحمل لبيت المقدس بما كان يحمله من المال ، وأن يقتل من عنده من شرار اليهود الساعين عليهم . فتم العهد بينهم على ذلك ، وقتل شملاوش من الساعين على اليهود

ثم جهز أهل رومة قائد حروبهم دمترياس بن سلياقوس إلى أنطاكية ،ولقيه أنطيخوس أفطر فانهزم أنطيخوس . وقتل هو وابن عمه ليشاوش ، وملك الروم أنطاكية ونزلها قائدهم دمترياس ، وكان ألقيموس الكوهن من شرار اليهود عند أنطيخوس ، فلما ملك دمترياس قائد الروم ، فسعى عنده فى اليهود ، ورغبه فى ملك القدس والاستيلاء على أمواله ، فبعث قائده نيقاتور * لذلك . وخرج يهوذا ملك القدس * لتلقيه وطاعته وقدم بين يديه الهدايا والتحف ، فمال نيقاتور إلى مسالمة

* نيقاتور
* اليهود

اليهود ،وحسن رأيه فيهم ، وأكد بينه وبينهم العهد ورجع . وبادر القيُوس الكوهن إلى دمتريَاس ، وأخبره بميل قائده نيقاتور إلى اليهود ، وزاد في إغرائه . فبعث إلى قائده ينكر عليه ويستحثه لانفاذ أمره ، وأن يحمل يهوذا مقيداً .وبلغ ذلك يهوذا فلحق بمدينة السامرة صبصطية ، واتبعه نيقاتور في العساكر، فكر عليه يهوذا وهزمه، وقتل أكثر عساكر الروم الذين معه . ثم ظفر به فصابه على الهيكل ببيت المقدس .واتخذ اليهود ذلك اليوم عيداً ، وهو ثالث عشر آذار ، ثم بعث قائد الروم دمترياس من قابل قائده الآخر نيكروس في ثلاثين ألفا من الروم لمحاربة اليهود ، وخرجت عساكرهم من المقدس ، وفروا عن ملكهم يهوذا ،وافترقوا في الشعاب ، وأقام معه منهم فل قليل ، واتبعهم نيكروس فلقيهم يهوذا وأكمن له فانهزم اليهود . وخرج عليهم كمين الروم ، فقتل يهوذا في كثير منهم لسبع سنين من ولايته ، ودفن إلى جانب أبيه متثيتيا

يوناثال

ولحق أخوه يوناثال فيمن بقي من اليهود بنواحي الأردن ، وتحصنوا في بئر سبع فحاصرهم نيكروس هنالك أياماً ، ثم بيتوه فهزموه . وخرج يوناثال واليهود في اتباعه فتقبضوا عليه ، ثم أطلقوه على مسالمة اليهود ، وأن لا يسير الى حربهم . فهلك يوناثال إثر ذلك

شمعون

وقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون،فاجتمع اليه اليهود من كل ناحية،وعظمت عساكره ، وغزا جميع أعدائهم ، ومن ظاهر عليهم من سائر الأمم . وزحف اليه اليه دمترياس قائد الروم بأنطاكية فهزمه شمعون (١) وقتل غالب عسكره . ولم تعاودهم الروم بعدها بالحرب إلى أن هلك شمعون : وثب عليه صهره تلماي زوج

هركانوس بن شمعون

أخته فقتله وتقبض على بنيه وامرأته ، وهرب ابنه الأكبر هركانوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها ، وكان اسمه يوحان ، وكان شجاعا قتل في بعض الحروب شجاعا اسمه هرقانوس فسماه أبوه باسمه

ثم اجتمع عليه اليهود وملكوه ، وسار إلى بيت المقدس ، وفر تلماي المتوثب

١ — المقصود به سيمون المكابي أحد أولاد « متيتيا »

على أبيه إلى حصن داجون ، فامتنع ، بهوسار هرقانوس إلى محاربته ، وضيق عليه، وأشرف تلماى فى بعض الأيام من فوق السور بأم هرقانوس وأخته يتهدده بقتلهما فكف عن الحرب ، وانصرف لحضور عيد المِظال (١) ببيت المقدس ، فقتل تلماى أخته وأمه وفر من الحصن .

قال ابن كربون : ثم زحف دمترياس بن سلفانوس قائد الروم إلى القدس ، وحاصر اليهود فامتنعوا ، وثلم السور وراسلوه فى تأخير الحرب إلى انقضاء عيدهم ، ففعل على أن يكون له نصيب فى القربان ، ووقعت فى نفسه صاغية اليهم ، وأهدى تماثيل للبيت ، لحسن موقعها عندهم ، وراسلوه فى الصلح على المسالمة والمظاهرة بعضهم لبعض ، فأجاب وخرج اليه هرقانوس ملك اليهود ، وأعطاه ثلثمائة بدرة من الذهب، استخرجها من بعض قبور بنى داود ، ورحل عنهم الروم .

وشغل هرقانوس فى رم ماثلم من السور ،وحدثت خلال ذلك فتنة بين الفرس والروم ، فسار اليهم دمترياس فى جموع الروم ، وبينما أبطأ هرقانوس ملك اليهود لحضور عيدهم ، إذ جاءه الخبر بأن الفرس هزموا دمترياس ، فانتهز الفرصة وزحف إلى أعدائه من أهل الشأم ، وفتح نابلس وحصون أروم * التى بجبل الشراة ، وقتل منهم خلقاً ، ووضع عليهم الجزية ، وأخذهم بالختان والتزام أحكام التوراة ، وخرب الهيكل الذى بناه سَنْبَلَّاط السامرى فى طورتربل (٢) بإذن الاسكندر، وقهر جميع الأمم المجاورين لهم .

ثم بعث وجوه اليهود وأعيانهم إلى الأشياخ والمدبرين برومة ، يسأل تجديد العهد وأن يردوا على اليهود ما أخذ أنطيخوس ويونان من بلادهم التى صارت فى مملكة الروم ، فأجابوا ، وكتبوا له العهد بذلك ، وخاطبوه بملك اليهود ، وإنما كان يسمى من سلف قبله من آبائه بالكوهن ، فسمى نفسه من يومئذ بالملك ، وجمع بين

---

١ ـــ عيد المظال سبعة أيام أولها خامس عشر تشرين أول، يستظلون فيه بالخلاف والقصب تذكاراً لاظلال الله إياهم بالغمام فى التيه أنظر ف (١ ــ ٨٩)

* أدوم

٢ ـــ فى ج طول بريد والتصحيح من ابن كربون ونظن أن هذا هو جبل جرذيم الذى بارك عليه فى التوراة

منزلة الكهنونة ومنزلة الملك ، وكان أول ملوك بنى حشمناى ، ثم سار إلى مدينة السامرة صَبَصْطِية ففتحها وخربها ، وقتل أهلها .

فرق اليهود زمر المكابيين

قال ابن كريون ، وكان اليهود فى دينهم يومئذ ثلاث فرق : فرقة الفقهاء وأهل القياس ، ويسمونهم الفَروشيم ، وهم الربانيون ، وفرقة الظاهرية المتعلقين بظواهر الألفاظ من كتابهم،ويسمونهم الصدوقية ، وهم القراءون، وفرقة العبادالمنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ، ويسمونهم الحيسيد [يم]وكانهرقانوس وآباؤه من الربانيين ، ففارق مذهبهم إلى القرائين ، لأنه جمع اليهود يوماً عند ماتمهد أمره ، وأخذ بمذاهب الملك ، وألقى به فى صنيع احتفل فيه ، وألان لهمجانبه وخضع فى قوله ، وقال :أريد منكم النصيحة ، فطمع بعض الربانيين فيه ، وقال : إنالنصيحة أن تنزل عن الكهنونة وتقتصر على الملك ، وقد فاتك شرطها ، لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيخوس ، فغضب لذلك ، وقال للربانيين قد حكمتكم فى صاحبكم ، فأخذوا فى تأديبه بالضرب ، فتنمر لهم من أجل ذلك ، وفارق مذهبهم إلى مذهب القرائين ، وقتل من الربانيين خلقاً كثيراً ، ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود ، واتصلت بينهم الحرب إلى هذا العهد .

ارستبلوس

وهلك هرقانوس لإحدى وثلاثين سنة من دولته ، وملك من بعده ابنه أرِسْتَبُلُوس وكان كبيرهم . وكان له ولدان آخران ، وهما أنطِغْنُوس [والأسكندر وكان] يحبه الملك ويبغض الأسكندر ، فأبعده إلى جبل الخليل ، فلما ملك أرستبلوس أخذ من إخوته بمذهب أبيهم ، وقبض على الاسكندر وأمه ، واستخلص أنطغنوس وقدمه على العساكر واكتفى به فى الحروب ، وترفع عن تاج الكهنونة ، ولبس تاج الملك ، وخرج أنطغنوس إلى الأمم المجاورين الخارجين عن طاعتهم ، فردهم إلى الطاعة ، وكثرت السعاية فيه عند أخيه من البطانة ، وأغروه به ، فلما قدم أنطغنوس من مغيبه وافق عيد المظال ، وكان أخوه ملتزما بيته لمرض طرقه ، فعدل أنطغنوس عن بيته إلى الهيكل للتبرك ، فأوهموا الملك أنه إنمافعل ذلك لاستمالة الكهنونية والعامة ، وأنه يروم قتل أخيه،وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه،فعهد

أرستبلوس إلى حشمانه وغلمان قصره إن جاء متسلحاً أن يقتلوه ، وكان ذلك ، وتمت حيلة البطانة وسعايتهم عليه ، وعلم أرستبلوس أن قد خدع فى أخيه ، فندم واغتم ولطم صدره حتى قذف الدم من فيه . وأقام عليلاً بعده حولاً كاملاً ثم هلك .

فأفرجوا على أخيه الاسكندر من محبسه ، وبايعوا له بالملك واستقام له الأمر . الاسكندر

ثم انتقض عليه [أهل] عكا وأهل صيدا وأهل غزة وبعثوا الى قبرص ، وسار الاسكندر إلى عكا ، لحاصرها . وكانت كلُوبَطره ملكة مصر من بقية اليونان قد انتقض عليها ابنها واسمه اليطرا ، وأجاز البحر إلى جزيرة قبرص فملكها ، فبعث أهل عكا أنهم يملكونه ، وأجاز اليهم فى ثلاثين ألف مقاتل ، حتى اذا أفرج الاسكندر عن حصارهم راجعوا أمرهم ، ومنعوا اليطرا من الدخول اليهم ، فسار فى بلاد الاسكندر ، ونزل على جبل الخليل ، فقتل منهم خلقا ، ونزل على الأردن . وفى خلال ذلك زحف الاسكندر إلى صيدا ففتحها عنوة واستباحها ، وعاد الى القدس ، [وبعث إلى كاوبطرة بالعساكر فى طلب ابنها فانجفل أمامها وعاد إلى قبرص وخرج الاسكندر إلى غزة فافتتحها واستباحها ورجع الى القدس ـ خ] وقد أطاعته البلاد وحسم داء المنتقضين عليه

ثم تجددت الفتنة بين اليهود بالقدس ، وذلك أنهم اجتمعوا فى عيد المظال بالمسجد ، وحضر الاسكندر معهم ، فتلاعبوا بين يديه مراماة بما عندهم من مشموم ومأكول ، وأصاب الاسكندر رمية من الربانيين ، فغضب لها وشاتمهم القراءون بما كانوا من شيعته ، فشتموا الاسكندر ، وقتلوا الشاتم وأصحابه ، فلم يغن عنهم ، وعظم فيهم الفتك ، وانفض الجمع . وشهد الاسكندر أن يستد المذبح والكهنة بحائط عن الناس ، ونفذ أمره بذلك ، واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل من الربانيين نحو من خمسين ألفا ، والاسكندر يعين القرائين عليهم . وبعثوا الى دمتريوس المسمى أنطيخوس ، وبذلوا له المال فسار معهم الى نابلس ولقى الاسكندر فهزمه وقتل عامة أصحابه ، ورجع فخرج الاسكندر الى الربانيين وأثخن فيهم ، وظفر منهم بجماعة تزيد على ثلثمائة فقتلهم صبرا ، وقهر سائر اليهود ، وسار الى دمتريوس ففتح

الكثير من بلاده ، وخرج فظفر به الاسكندر وقتله ، وعاد الى بيت المقدس لثلاث سنين فى محاربة الربانيين ودمتريوس ، فاستقام أمره وعظم سلطانه . ثم طرقه المرض فقام عليلا ثلاثا آخرين * وخرج بعدها * لحصار بعض الحصون ، وانتقضوا عليه فمات هنالك . وأوصى امرأته الاسكندرة بكتمان موته حتى يفتح الحصن ، وتسير بشلوه الى القدس فتدفنه فيه ، وتصانع الربانيين على ولدها فتملكه ، لأن العامة اليهم أميل ، ففعلت ذلك ، واستدعت من كان نافراً من الربانيين ، وجمعتهم وقدمتهم للشورى ، واستبدت بالملك

الاسكندره

وكان لها ابنان من الاسكندر بن هرقانوس ، اسم الأكبر منهما هرقانوس ، والآخر إرِسْتُبُلوس * وكانا صغيرين عندموت أبيهما ، فلما كبرا عينت هرقانوس للكهنونة ، وقدمت أرِسْتُبلوس * على العساكر والحروب ، وضمت اليه الربانيين ، وأخذت الرهن من جميع الأمم

أرستبلوس

وسألها الربانيون فى الأخذ بثارهم من القرائين [فيمن قتله الاسكندر منهم برأيهم ، فأذنت لهم فى ذلك فقتلوا من القرائين ـ خ] خلقاً كثيراً ، وجاء القراءون الى ابنها الكهنون * ينكرون ذلك ، وأنه إذا فعل بهم ذلك ، وقد كانوا شيعاً لأبيه الاسكندر ، فقد تحدث النفرة من سائر الناس ، وسألوه أن يلتمس لهم إذنها فى الخروج عن القدس ، والبعد عن الربانيين ، فأذنت لهم رغبة فى انقطاع الفتنة ، وخرج معهم وجوه العسكر ، ثم ماتت خلال ذلك لتسع سنين من دولتها

ويقال إن ظهور عيسى صلوات الله عليه كان فى أيامها ، وكان ابنها أرِسْتُبلوس قائد العسكر لما شعر بموتها خرج الى القرائين يستدعيهم إلى نصرته فأجازوه وتقبضت هى على ابنيه وامرأته ، واجتمعت عليه العساكر من النواحى ، وضرب البوق وزحف لحرب أخيه هرقانوس والربانيين ، [وخرجوا الى مدافعته والتقوا بالأردن وانهزم هرقانوس والربانيون ـ خ] وحاصرهم أرستبلوس ببيت المقدس ، وعزم على هدم الحصن ، فخرج اليه أعيان اليهود والكهنونية ساعين فى الصلح بينهما ، وأجاب على أن يكون ملكا ويبقى هرقانوس على الكهنونية فتم ذلك واستقر عليه أمره

أرستبلوس الثانى

* أخرى * آخرها * ارتبلوس * الكهنوت

أنطفتر

ابتداء أمر أنطفتر أبو هيردوس

ثم سعى فى الفتنة بينهما أنطفتر أبو هيردوس ، وكان من عظماء بنى إسرائيل من الذين جمعوا مع العزير من بابل . وكان ذا شجاعة وبأس ، وله يسار وقنية من الضياع والمواشى . وكان الاسكندر قد ولاه على بلاد أروم *. وهى جبال الشراة فأقام فى ولايتها سنين ، وكثر ماله وأنكحوه منهم . فكان له منها أربعة من الأبناء وهم : فزائيل ، وهيردوس ، وفوراس، ويوسف، وبنت اسمها سلومث . وقيل إن انطفتر (١) لم يكن من بنى إسرائيل وإنما كان من أروم وربى فى جملة بنى حشمناى وبيوتهم . فلما مات الاسكندر وملكت زوجته الاسكندرة عزلته عن جبال الشراة فأقام بالقدس ، حتى اذا استبد بالأمر أرستبلوس ، وكان بين هرقانوس وأنطفتر مودة وصحبة، فغص أرستبلوس بمكانه من أخيه، لما يعلم من مكر أنطفتر وهم بقتله، فانفض عنه وأخذ فى التدبير على أرستبلوس ، وفشا فى الناس تبغضه اليهم ، وينكر تغلبه ، ويذكر لهم أن هرقانوس أحق بالملك منه ، ثم حذر هرقانوس من أخيه وخيل اليه أنه يريد قتله ، وبعث لشيعة هرقانوس المال على تخويفه من ذلك حتى تمكن منه الخوف . ثم أشار عليه بالخروج إلى ملك العرب هرثمة (٢) وكان يحب هرقانوس فعقد معه عهداً على ذلك ، ولحق هرقانوس بهرثمة ومعه أنطفتر ، ثم دعوا هرثمة الى حرب أرستبلوس فأجابهم بعد مراوغة ، وتزاحفوا ونزع الكثير من عسكر ارستبلوس الى هرقانوس ، فرجع هارباً الى القدس ، ونازلهم هرقانوس وهرثمة، واتصلت الحرب وطال الحصار ، وحضر عيد الفطير وافتقد اليهود القرابين ، فبعثوا الى أصحاب هرقانوس فيها ، فاشتطوا فى الثمن ، ثم أخذوه ولم يعطوهم شيئا ، وقتلوا

١ — فى ابن كربون ص ١١٣ : وقد ذكر قوم آخرون من العلماء أن أنطفتر هذا لم يكن من بنى اسرائيل بل كان من عبيد الكهنة المكائيين بنى حشمناعه وكان من الأمم المستعبدين للأصنام عسقلانيا وثنيا لا عبرانيا

٢ — فى ابن كربون : هريمة ملك الأعراب

* أدوم

بعض النساك : طلبوه فى الدعاء على أرستبلوس وأصحابه وامتنع فقتلوه ، ووقع فيهم الوباء فمات منهم أمم

قال ابن كريون : وكان الأرمن ببلاد دمشق وحمص وحلب ، وكانوا فى طاعة الروم ، فانتقضوا عليهم فى هذه المدة ، وحدثت عندهم ساغية الى الفرس ، فبعث الروم قائدهم فمفيوس (١) ، فخرج لذلك من رومية * وقدم بين يديه قائده شكاروس فطوع الأرمن ولحق * دمشق ، ثم لحقه فمفيوس ونزل بها وتوجهت اليه وجوه اليهود فى إثرهم ، وبعث اليه أرستبلوس من القدس وهرقانوس من مكان حصاره ، كل واحد منهما يستنجده على أخيه ، وبعثوا اليه بالأموال والهدايا ، فأعرض عنهما ، وبعث إلى هَرْثمة ينهاه عن الدخول بينهما ، فرحل عن القدس ، ورحل معه هرقانوس وأنطفتر ، وأعاد أرستبلوس رسله وهداياه من بيت المقدس ، وألح فى الطلب ، وجاء أنطفتر إلى فمفيوس بغير مال ولا هدية ، فنكث عنه فمفيوس فرجع إلى رغبته ، ومسح أعطافه وضمن له طاعة هرقانوس ، الذى هو الكهنوت الأعظم ، ويحصل بعد ذلك إضعاف أرستبلوس ، فأجابه فمفيوس على أن يتحيل له فى الباطن ، ويكون ظاهره مع أرستبلوس حتى يتم الأمر ، وعلى أن يحملوا الخراج عند حصول أمرهم فضمن أنطفتر ذلك ، وحضر هرقانوس وأرستبلوس عند فمفيوس القائد يتظلم كل واحد من صاحبه ، فوعدهم بالنظر بينهم إذا حل بالقدس ، وبعث أنطفتر فى جميع الرعايا فجاءوا شاكين من أرستبلوس فأمره فمفيوس بإنصافهم ، فغضب لذلك واستوحش وهرب من معسكر فمفيوس وتحصن فى القدس ، وسار فمفيوس فى أثره فنزل أريحا ثم القدس ، وخرج أرستبلوس واستقال ، فأقاله ، وبذل له الأموال على أن يعينه على أخيه ، ويحمل له مافى الهيكل من الأموال والجواهر ، وبعث معه قائده لذلك ، فمنعهم الكهنونية ، وثارت بهم العامة وقتلوا بعض أصحاب القائد وأخرجوه ، فغضب فمفيوس وتقبض لحينه على أرستبلوس ، وركب ليقتحم البلد ، فامتنعت عليه وقتل جماعة من أصحابه ، فرجع وأقام عليهم .

---

١ — « Pompeiuo »

* رومة　　* وفتح

ووقعت الحرب بالمدينة بين شيع أرستبلوس وهرقانوس ، وفتح بعض اليهود الباب لفمفيوس فدخل البلد وملك القصر ، وامتنع الهيكل عليه ، فأقام يحاصره أياماً وصنع آلة الحصار فهدم بعض أبراجه ، واقتحمه عنوة ووجد الكهنونية على عبادتهم وقرباتهم مع تلك الحرب ، ووقف على الهيكل فاستعظمه ولم يمد يده إلى شيء من ذخائره ، وملك عليهم هرقانوس ، وضرب عليهم الخراج يحمله كل سنة ، ورفع يد اليهود عن جميع الأمم الذين كانوا فى طاعتهم ، ورد عليهم البلدان التى ملكها بنو حشمناى ، ورجع إلى رومة واستخلف هرقانوس وأنطفتر على المقدس ، وأنزل معهما قائده شكاروس الذى قدمه لفتح دمشق وبلاد الأرمن ، عندما خرج من رومية ، وحمل أرستبلوس وإبنيه مقيدين معه ، وهرب الثالث من بنيه ، وكان يسمى الأسكندر ، ولحقه فلم يظفر به .

ولما بعد فمفيوس عن الشأم ذاهباً إلى مكانه ، خرج هرقانوس وأنطفتر إلى العرب ليحملوهم على طاعة الروم ، فخالفهم الأسكندر بن أرستبلوس إلى المقدس وكان متغيباً بتلك النواحى منذ مغيب أبيه لم يبرح ، فدخل إلى المقدس ، وملكه اليهود عليهم ، وبنى ماهدمه فمفيوس من سور الهيكل . واجتمع اليه خلق كثير ، ورجع هرقانوس وأنطفتر فسار اليهم الأسكندر وهزمهم ، وأثخن فى عساكرهم

الاسكندر بن أرستبلوس

وكان قائد الروم كينانُوس قد جاء إلى بلاد الأرمن من بعد فمفيوس ، فلحق به واستنصره على الاسكندر فسار معه إلى القدس وخرج اليهم الاسكندر فهزموه ، ومضى إلى حصن له يسمى الأسكندرونة ، واعتصم به وسار هرقانوس إلى القدس ، فاستولى على ملكه ، وسار كينانوس قائد الروم إلى الاسكندر فحاصره بحصنه ، واستأمن اليه فقبله وعفا عنه وأحسن اليه ، وفى أثناء ذلك هرب أرستبلوس أخو هرقانوس من محبسه برومية ومعه ابنه أنطغنوس ، واجتمع اليه فحاربه كينانوس وهزمه وحصل فى أسره ، فرده إلى محبسه برومية ، ولم يزل هنالك إلى أن تغلب قيصر على رومية ، واستحدث الملك فى الروم ، وخرج فمفيوس من رومية إلى نواحى عمله ، وجمع العساكر لمحاربة قيصر ، فأطلق أرستبلوس من محبسه وأطلق معه

قائدين فى اثنى عشر ألف مقاتل وسرحهم الى الأرمن واليهود ليردوهم عن طاعة فمفيوس ، وكتب فمفيوس إلى أنطفتر ببيت المقدس أن يكفيه أمر أرستبلوس ، فبعث قوماً من اليهود لقوه فى بلاد الأرمن ودسوا له سماً فى بعض شرابه كان فيه حتفه .

وقد كان كينانوس كاتب الشيخ صاحب رومية فى إطلاق من بقى من ولد أرستبلوس فأطلقهم .

قال ابن كريون : وكان أهل مصر لذلك العهد انتقضوا على ملكهم تاماى (١) وطردوه وامتنعوا من حمل الخراج إلى الروم ، فسار اليهم واستنفر معه أنطفتر فغلبهم وقتلهم ، ورد تلماى إلى ملكه ، واستقام أمر مصر ، ورجع كينانوس إلى بيت المقدس لجدد الملك لهرقانوس وقدم أنطفتر مدبر المملكة ، وسار إلى رومية .

قال ابن كريون : ثم غضبت الفرس على الروم فندبوا إلى ذلك قائدا منهم يسمى كرسوس وبعثوه لحربهم ، فمر بالقدس ودخل إلى الهيكل وطالب الكهنون * بما فيه من المال ، وكان يسمى ألعازر من صلحاء اليهود وفضلائهم ، فقال له : إن كينانوس وفمفيوس لم يفعلوا ذلك بتلك ، فاشتد عليه . فقال : أعطيك ثلثمائة من الذهب وتتجافى عن الهيكل ، ودفع اليه سبيكة ذهب على صورة حية كانت تلقى عليها الصورة التى تنزل من الهيكل الذى تجدد وكان وزنها ثلثمائة ، فأخذها ونقض القول وتعدى على الهيكل ، وأخذ جميع ما كان فيه من منذ عمارتها من الهدايا والغنائم وقربانات الملوك والأمم ، وجميع آلات القدس وسار الى لقاء الفرس فحاربوه وهزموه وأخذوا * جميع ما كان معه وقتل ، واستولت الفرس على بلاد الأرمن : دمشق وحمص وحلب ، وما اليها . وبلغ الخبر الى الروم فجهزوا قائداً عظيماً فى عساكر جمة اسمه كيسيلو فدخل بلاد الأرمن الذين كانوا غلبوا عليها ، وساروا * إلى القدس فوجد اليهود يحاربون هرقانوس وأنطفتر فأعانهما حتى استقام ملك هرقانوس

١ — الذى فى ابن كريون ملكهم بطليموس
* الكهنوت　　* وغنموا
* انجلوا عنها ثم سار

ثم سار إلى الفرس فى عساكره فغلبهم وحملهم على طاعة الروم ، ورد الملوك الذين كانوا عصوا عليهم إلى الطاعة ، وكانوا اثنين وعشرين ملكاً من الفرس ، كان فمفيوس قائد الروم هزمهم ، فلما سار عنهم انتقضوا .

أمر القياصرة

يوليوس قيصر

قال ابن كربون : ثم ابتدأ أمر القياصرة ، وملك على الروم يوليّاس ولقبه قَيْصر ، لأن أمه ماتت حاملا به عند مخاضها فشق بطنها عنه ، فلذلك سمى قيصر ، ومعناه بلغتهم القاطع ، ويسمى أيضا يولياس باسم الشهر الذى ولد فيه ، وهو يوليه خامس (١) شهورهم ، ومعنى هذه اللفظة عندهم الخامس

وكان الثلثمائة والعشرون المدبرون أمر الروم ، والشيخ الذى عليهم ، قد أحكموا أمرهم مع جماعة الروم على أن لا يقدموا عليهم ملكا ، وأنهم يعينون للحروب فى الجهات قائداً بعد آخر . هذا ما اتفق عليه النقلة فى الحكاية عن أمر الروم وابتداء ملك القياصرة

قالوا: ولما رأى قيصر هذا الشيخ الذى كان لذلك العهد كبر وشب ، على غاية من الشجاعة والاقدام ، فكانوا يبعثونه قائدا على العساكر الى النواحى ، فأخرجوه مرة الى المغرب فدوّخ البلاد ورجع ، فسمت نفسه الى الملك ، فامتنعوا له وأخبروه أن هذا سنة آبائهم منذ أحقاب ، وحدثوه بالسبب الذى فعلوا ذلك لأجله وهو أمر تركوين (٢) وأنه عهد لأولهم لا ينقض ، وقد دوّخ فمفيوش الشرق ، وطوّع اليهود ولم يطمع فى هذا . فوثب عليهم قيصر وقتلهم واستولى على ملك الروم منفردا به وسمى قيصر . وسار الى فمفيوس بمصر فظفر به وقتله . ورجع ، فوجد * بتلك الجهات قوّاد فمفيوس فسار اليهم يولياس قيصر ومرّ ببلاد الأرمن فأطاعوه ، وكان عليهم ملك اسمه متر داث ، فبعثه قيصر الى حربهم ، فسار فى الأرمن

١ — قال ع (ص ١٠٦) ويسمى تموز (يوليو) باسمه وكان يسمى أولاقنطاليس " Pvintles „ وهو غير ما عند المؤلف وهو الصواب لأن مجلس الأعيان الرومانى هو الذى أطلق هذا الاسم على شهر آب سنة ٨ — ٩ قبل الميلاد

٢ — Tarpuinius

* ثم ثار

ولقيه هرقانوس ملك اليهود بعسقلان ، ونفر معه الى مصر هو وأنطفتر ليمحو بعض ما عرف منهم من موالاة فمفيوس ، وساروا جميعاً الى مصر ، ولقيتهم عساكرها ، واشتد الحرب فحصر بلادهم . وكادت الأرمن أن ينهزموا . فثبت أنطفتر وعساكر اليهود، وكان لهم الظفر ، واستولوا على مصر . وبلغ الخبر الى قيصر ، فشكر لأنطفتر حسن بلائه ، واستدعاه فسار اليه مع ملك الأرمن متردات فقبله وأحسن وعده . وكان أنطِغْنُوس بن أرستبلوس قد اتصل بقيصر وشكا بأن هرقانوس قتل أباه حين بعثه أهل رومه لحرب فمفيوس فتحيل عليه هرقانوس وأنطفتر وقتلاه مسموما ،فأحسن أنطفتر العذر لقيصر بأنه إنما فعل ذلك فى خدمة من ملك علينا من الروم ، وإنما كنت ناصحاً لقائدهم فمفيوس بالأمس ، وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب . فحسن موقع كلامه من قيصر ورفع منزلته ، وقدمه على عساكره لحرب الفرس ، فسار اليه أنطفتر وأبلى فى تلك الحروب ، ومناصحة قيصر

فلما انقلبوا من بلاد الفرس أعادهم قيصر الى ملك بيت المقدس على ما كانوا عليه واستقام الملك لهِرْقانوس ، وكان خيراً إلا أنه كان ضعيفاً عن لقاء الحروب ، فتغلب عليه أنطفتر واستبد على الدولة وقدم ابنه فزائيل ناظراً فى بيت المقدس وابنه هيرُدُوس عاملا على جبل الخليل وكان كما بلغ الحلم

واحتازوا الملك من أطرافه وامتلأ أهل الدولة منهم حسداً ، وكثرت السعاية فيهم ، وكان فى أطراف عملهم ثائر من اليهود يسمى حِزْقيا ، وكان شجاعاً صعلوكاً واجتمع اليه أمثاله ، فكانوا يغيرون على الأرمن وينالون منهم ، وعظمت نكايتهم فيهم ، فشكا عامل بلاد الأرمن ، وهو سفنوس بن عم قيصر الى هيرُدُوس وهو بجبل الخليل ما فعله حزقيا وأصحابه فى بلادهم ، فبعث هيردوس اليهم سرية فكبسوهم وقتل حزقيا وغيره منهم ، وكتب بذلك الى سفنوس فشكره وأهدى اليه . ونكِر اليهود ذلك من فعل هيردوس وتظلموا منه عند هِرْقانوس ، وطلبوه فى القصاص منه ، فأحضروه فى مجلس الأحكام ، وأحضر السبعين شيخاً من اليهود ، وجاء هيردوس متسلحاً ، ودافع عن نفسه . وعلم هرقانوس بغرض الأشياخ ففصلوا

المجلس،فنكروا ذلك على هرقانوس، ولحق هيردوس ببلاد الأرمن ، فقدمه سفنوس على عمله . ثم أرسل هرقانوس الى قيصر يسأل تجديد عهود الروم فكتب له بذلك ، وأمر بأن يحمل أهل الساحل خراجهم الى بيت المقدس ، ما بين صيدا وغزّة ، ويحمل أهل صيدا اليها فى كل سنة عشرين ألف وسق من القمح ، وأن يرد على اليهود سائر ما كان بأيديهم الى الفرات واللاذقية وأعمالها . وما كان بنو حشمناى فتحوه عنوة من عدوات الفرات ، لأن فمفيوس كان يتعدّى عليهم فى ذلك

وكتب العهد بذلك فى ألواح من نحاس بلسان الروم ويونان، وعلقت فى أسوار صور وصيدا ،واستقام أمر هرقانوس

قال ابن كريون : ثم قتل قيصر ملك الروم وأنطفتر وزير هرقانوس المستبد عليه . أما قيصر فوثب عليه كيساوس من قواد فمفيوس فقتله وملك،وجمع العساكر وعبر البحر الى بلاد آسيا (١) ففتحها ، ثم سار الى القدس وطالبهم بسبعين بدرة من الذهب فجمع له أنطفتر وبنوه من اليهود ، ثم رجع كيساوس الى مقدونيه فأقام بها . وأما أنطفتر فان اليهود داخلوا القائد ملكيا الذى كان بين أظهرهم من قبل كيساوس فى قتل انطفتر وزير هرقانوس فأجابهم الى ذلك ، فدسوا الى ساقيه سماً فقتله ، وجاء ابنه هيردوس الى القدس مجمعاً قتل هرقانوس ، فكفه أخوه فزائيل عن ذلك . وجاء كيساوس من مقدونية الى صور ولقى هرقانوس وهيردوس وشكوا اليه ما فعله قائده ملكيا من مداخلة اليهود فى قتل انطفتر ، فأذن لهم فى قتله فقتلوه ، ثم زحف كينانوس ابن أخي قيصر وقائده أنطيوس فى العساكر لحرب كيساوس المتوثب على عمه قيصر ، فلقيهم قريباً من مقدونية فظفروا به وقتلاه .

أوغسطس قيصر

وملك كينانوس مكان عمه ، وسمى أوغسطس قيصر ، باسم عمه ، فأرسل اليه هرقانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر وسأل تجديد العهد لهم ، وأن يطلق السبي الذى سبى منهم أيام كيساوس ، وأن يرد اليهود إلى بلاد

---

١ — فى ج أشيته، والتصحيح من ابن كريون ونرى أن هـذه هى أصيا : قرية من قرى ناحية البطرون العليا فى شمالى لبنان

يونان وأثينة ، وأن يجرى لهما كان رسم به عمه قيصر ، فأجابه إلى ذلك كله .

وسار أنطيانوس وأوغسطس قيصر إلى بلاد الأرمن بدمشق وحمص فلقيته هنالك كلبطرة ملكة مصر ، وكانت ساحرة فاستمالته وتزوجها ، وحضر عنده هرقانوس ملك اليهود ، وجاء جماعة من اليهود فشكوا من هيردوس وأخيه فزائيل وتظلموا منهما ، وأكذبهم ملكهم هرقانوس ، وأثنى عليهما ، وأمر أنطيانوس بالقبض على أولئك الشاكين ، وقتل منهم ، ورجع هيردوس وأخوه فسارا إلى مكانهما ، ومكان أبيهما من تدبير مملكة هرقانوس ، وسار أنطيانوس إلى بلاد الفرس فدوخها وعاث فى نواحيها ، وقهر ملوكهم وقفل إلى رومة

قال ابن كريون : وفى خلال ذلك لحق أنطغنوس وجماعة من اليهود بالفرس ، وضمنوا لملكهم أن يحملوا اليه بدرة من الذهب ، وثمانمائة جارية من بنات اليهود ، ورؤسائهم يسبيهن له ، على أن يملكه مكان عمه هرقانوس ، ويسلمه اليه ، ويقتل هيردوس وأخاه فزائيل ، فأجابهم ملك الفرس إلى ذلك . وسار فى العساكر وفتح بلاد الأرمن ، وقتل من وجد بها من قوّاد الروم ومقاتلتهم ، وبعث قائده بعسكر من القدس مع أنطغنوس موريا بالصلاة فى بيت المقدس والتبرك بالهيكل ، حتى اذا توسط المدينة ثار بها وأثخن فى القتل ، وبادر هيردوس إلى قصر هرقانوس ليحفظه ، ومضى فزائيل الى الحصن يضبطه ، وتورط من كان بالمدينة من الفرس ، فقتلهم اليهود عن آخرهم ، وامتنعوا على القائد ، وفسد ما كان دبره فى أمر أنطغنوس ، فرجع الى استمالة هرقانوس وهيردوس ، وطلب الطاعة منهم للفرس ، وأنه يتلطف لهم عند الملك فى إصلاح حالهم ، فصغى هرقانوس وفزائيل الى قوله ، وخرجوا اليه وارتاب هيردوس وامتنع ، فارتحل بهما قائد الفرس ، حتى إذا بلغ الملك ببلاد الأرمن تقبض عليهما ، فمات فزائيل من ليلته ، وقيد هرقانوس واحتمله إلى بلاده ، وأشار انطغنوس بقطع أذنه ليمنعه من الكهنونة ، ولما وصل ملك الفرس إلى بلاده أطلق هرقانوس من الاعتقال وأحسن اليه ، إلى أن استدعاه هيردوس كما يأتى بعد .

وبعث ملك الفرس قائده الى اليهود مع أنطغنوس ليملك ، فخرج هيردوس عن القدس إلى جبل الشراة ، فترك عياله بالحصن عند أخيه يوسف ، وسار إلى مصر يريد قيصر ، فأكرمته كالبطره* ملكة مصر ، وأركبته السفن الى رومية ، فدخل بها أنطيانوس الى أوغسطس قيصر ، وخبره الخبر عن الفرس والقدس ، فملكه أوغسطس وألبسه التاج وأركبه فى رومية فى زى الملك ، والهاتف بين يديه بأن أوغسطس ملكه واحتفل أنطيانوس فى صنيع له حضره الملك أوغسطس قيصر وشيوخ رومية ، وكتبوا له العهد فى ألواح من نحاس ، ووضعوا ذلك اليوم [مبدأ] للتاريخ ، وهو أول ملك هيردوس ، وسار أنطيانوس بالعسكر إلى الفرس ، ومعه هيردوس وفارقه من أنطاكية ،وركب البحر إلى القدس لحرب أنطغنوس ، فخرج أنطغنوس إلى جبال الشراة للاستيلاء على عيال هيردوس ، وأقام على حصار الحصن ، وجاء هيردوس فحاربه ، وخرج يوسف من الحصن من ورائه ، فانهزم أنطغنوس إلى القدس ، وهلك أكثر عسكره ، وحاصره هيردوس وبعث أنطغنوس بالأموال إلى قواد العسكر من الروم فلم يجيبوه ، وأقام هيردوس على حصاره ، حتى جاءه الخبر عن أنطيانوس قائد قيصر أنه ظفر بملك الفرس وقتله ودوخ بلادهم ، وأنه عاد ونزل الفرات فترك هيردوس أخاه يوسف على حصار القدس مع قائد الروم سيساو ومن تبعهم من الأرمن وسار للقاء أنطيانوس ، وبلغه وهو بدمشق أن أخاه يوسف قتل فى حصار القدس على يد قائده أنطغنوس وأن العساكر انفضت، ورجعوا إلى دمشق ، وجاء سيساو منهزماً فأمده أنطنيانوس بالعساكر ، وتقدم هيردوس ، وقد خرج انطغنوس للقائه فهزمه ، وقتل عامة عسكره ، واتبعه إلى القدس ، ووافاه سيساو قائد الروم ، فحاصروا القدس أياماً ، ثم اقتحموا البلد ، وتسللوا صاعدين إلى السور ، وقتلوا الحرس ، وملكوا المدينة ، وأفحش سيساو فى قتل اليهود ، فرغب اليه هيردوس فى الابقاء ، وقال له: إذا قتلت قومى فعلى من تملكنى؟ فرفع القتل عنهم ورد مانهب وقرب إلى البيت تاجاً من الذهب وضعت فيه،وحمل اليه هيردوس

* كلاوبطره

أموالاً ثم عثروا على أنطغنوس مختفياً بالمدينة ، فقيده سيساو القائد وسار به إلى أنطنيانوس ، وقد كان سار من الشأم إلى مصر ، فجاءه بأنطغنوس هنالك ، ولحق بهم هيردوس ، وسأل من أنطيانوس قتل أنطغنوس فقتله ، واستبد هيردوس بملك اليهود ، وانقرض ملك بنى حشمناى ، والبقاء لله وحده .

انقراض ملك بنى حشمناى

انقراض ملك بنى حشمناى وابتداء ملك هيردوس وبنيه

وكان أول ما افتتح به ملكه أن بعث إلى هرقانوس الذى احتمله الفرس وقطعوا أذنه ، يستقدمه ليأمن على ملكه من ناحيته ، ورغبه فى الكهنونية التى كان عليها ، فرغب وحذره ملك الفرس من هيردوس وعزله اليهود الذين معه ، وأراه أنها خديعة ، وأن العيب الذى به يمنع الكهنونية ، فلم يقبل شيئا من ذلك ، وصغى الى هيردوس وحسن ظنه به وسار اليه ، وتلقاه بالكرامة والاعطاء ، وكان يخاطبه بأبى فى الجمع والخلوة . وكانت الاسكندرة بنت هرقانوس تحت الاسكندر ، وابن أخيه أرستبلوس ، وكانت بنتها منه مريم (١) تحت هيردوس ، فاطلعتا على ضمير هيردوس من محاولة قتله فخبرتاه بذلك ، وأشارتا عليه باللحاق بملك العرب ، ليكون فى جواره ، فخاطبه هرقانوس فى ذلك وأن يبعث اليه من رجالاتهم من يخرج به الى أحيائهم ، وكان حامل الكتاب من اليهود مضطغنا على هرقانوس ، لانه قتل أخاه وسلب ماله فوضع الكتاب فى يد هيردوس ، فلما قرأه ردّه اليه وقال: أبلغه الى ملك العرب وأرجع الجواب إلىّ ، فجاء بالجواب من ملك العرب الى هرقانوس ، وأنه أسعف وبعث الرجال * فالقهم بوصولك الىّ . فبعث هيردوس من يقبض على الرجال بالمكان الذى عينه وأحضرهم ، وأحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخاً ، وأحضر هرقانوس ، وقرأ عليه الكتاب بخطه فلم يحر جوابا ، وقامت عليه الحجة وقتله هيردوس لوقته ، لثمانين سنة من عمره ، وأربعين من ملكه ، وهو آخر ملوك بنى حشمناى .

١ — فى هج (ص ٣٤٩) « مريمنة »
* الى مكان كذا

آرستبلوس بن الاسكندر

وكان للاسكندر بن أرستبلوس ابن يسمى أرستبلوس، وكان من أجمل الناس صورة ، وكان فى كفالة أمه الاسكندرة ، وأخته يومئذ تحت هيردوس كما قلناه ، وكان هيردوس يغص به ، وكانت أخته وأمهما يؤملان أن يكون كوهناً بالبيت مكان جده هرقانوس . وهيردوس يريد نقل الكهنونة عن بنى حشمناى ، وقدم لها رجلاً من عوام الكهنونية ، وجعله كبير الكهنونية ، فشق ذلك على الاسكندرة بنت هرقانوس وبنتها مريم زوج هيردوس ، وكان بين الاسكندرة وكلوبطره ملكة مصر مواصلة ومهاداة ، وطلبت منها أن تشفع زوجها أنطنيانوس فى ذلك الى هيردوس ، فاعتذر هيردوس بأن الكواهن لا تعزل ، ولو أردنا ذلك فلا يمكننا أهل الدين من عزله ، فبعثت بذلك الاسكندرة ، ودست الاسكندرة الى الرسول الذى جاء من عند أنطيانوس وأتحفته بمال ، فضمن لهم أن أنطنيانوس يعزم على هيردوس فى بعث أرستبلوس اليه ، ورجع الى أنطنيانوس فرغبه فى ذلك ، ووصف له من جماله وأغراه باستقدامه ، فبعث فيه أنطنيانوس الى هيردوس وهدده بالوحشة إن منعه . فعلم أنه يريد منه القبيح، فقدمه كهنوناً وعزل الأول ، واعتذر لأنطنيانوس بأن الكوهن لا يمكن سفره ، واليهود تنكر ذلك . فأغفل أنطنيانوس الأمر ولم يعاود فيه

ووكل هيردوس بالاسكندرة بنت هرقانوس عهدته* من يراعى أفعالها ، فاطلع على كتبها الى كلوبطره أن تبعث اليها السفن والرجال يوصلنها اليها ، وأن السفن وصلت الى ساحل يافا ، وأن الاسكندرة صنعت تابوتين لتخرج فيهما هى وابنتها على هيئة الموتى . فأرصد هيردوس من جاء بهما من المقابر فى تابوتيهما فوبخهما ثم عفا عنهما . ثم بلغه أن أرستبلوس حضر فى عيد المظال، فصعد على المذبح وقد لبس ثياب القدس ، وازدحم الناس عليه ، وظهر من ميلهم اليه ومحبتهم ما لا يعبر عنه ، فغص بذلك ، وأعمل التدبير فى قتله: فخرج فى متنزه له بأريحاء فى نيسان ، واستدعى

* صهرته

أصحابه، وأحضر أرستبلوس فطعموا ولعبوا وانغمسوا فى البرك ، يسبحون . وعمد غلمان هيردوس الى أرستبلوس فغمسوه فى الماء حتى شرق وفاض . فاغتم الناس لموته وبكى عليه هيردوس ودفنه . وكان موته لسبع عشرة سنة من عمره

وتأكدت البغضاء بين الاسكندرة وابنتها مريم زوج هيردوس أخت هذا الغريق ، وبين أم هيردوس وأخته وكثرت شكواهما اليه ، فلم يشكهما لمكان زوجته مريم وأمها منه

قال ابن كربون : ثم انتقض أنطيانوس على أوغسطس قيصر، وذلك أنه كان تزوج كلوبطره وملك * مصر ، وكانت ساحرة ، فسحرته واستمالته وحملته على قتل ملوك كانوا فى طاعة الروم، وأخذ بلادهم وأموالهم،وسبي نسائهم وأموالهم وأولادهم ، وكان من جملتهم هيردوس ، وتوقف فيه خشية من أوغسطس قيصر لأنه كان يكرمه بسبب ما صنع فى الآخرين ، فحمله على الانتقاض والعصيان ففعل ، وجمع العسكر واستدعى هيردوس فجاءه وبعثه الى قتال العرب ، وكانوا خالفوا عليه ، فمضى هيردوس لذلك ومعه أنثياون قائد كلوبطره ، وقد دست له أن يجر الهزيمة على هيردوس ليقتل، ففعل ، وثبت هيردوس وتخلص من المعترك بعد حروب صعبة هلك فيها من الفريقين خلق كثير ، ورجع هيردوس الى بيت المقدس فصالح جميع الملوك والأمم المجاورين له ، وامتنع العرب من ذلك، فسار اليهم وحاربهم ، ثم استباحهم بعد أيام ومواقف ، بذلوا وجمعوا له الأموال ،وفرض عليهم الخراج فى كل سنة، ورجع

وكان أنطيانوس لما بعثه الى العرب سار هو إلى رومة،وكانت بينه وبين أوغسطس قيصر حروب هزمه قيصر فى آخرها وقتله ، وسار الى مصر ، فخافه هيردوس على نفسه ، لما كان منه فى طاعة أنطيانوس وموالاته ، ولم يمكنه التخلف عن لقائه ، فأخرج خدمه *من القدس، فبعث بأمه وأخته الى قلعة * الشراة لنظر أخيه فرودا ، وبعث بزوجه مريم وأمه الاسكندرة الى حصن الاسكندرونة لنظر زوج أخته يوسف ورجل آخر من خالصته * من أهل صور اسمه سوما ، وعهد اليها * بقتل

* ملكة   * حريمه   * فى جبال
* خاصته   * اليهما

زوجته وأمها إن قتله قيصر، ثم حمل معه الهدايا وسار الى قيصر أوغسطس ، وكان تحقدله صحبة أنطيانوس ، فلما حضر بين يديه عنفه وأزاح * التاج عن رأسه ، وهمّ بعقابه ، فتلطف هيردوس فى الاعتذار ، وأن موالاته لأنطيانوس إنما كان لما أولى من الجميل فى السعاية عند الملك وهى أعظم أياديه عندى ، ولم تكن موالاتي له فى عداوتك ولا فى حربك ، ولو كان ذلك وأهلكت نفسي دونه كنت غير ملوم ، فان الوفاء شأن الكرام ، فان أزلت عنى التاج فما أزلت عقلى ولا نظرى ، وإن أبقيتنى فأنا محل الصنيعة والشكر . فانبسط* أوغسطس لكلامه* وتوجّه كما كان ، وبعثه على مقدمته الى مصر . فلما ملك مصر وقتل كلوبطره ، وهب لهيردوس جميع ما كان أنطيانوس أعطاها إياه ونفل * فأعاد هيردوس الى ملكه ببيت المقدس ، وسار الى رومية

قال ابن كريون : ولما عاد هيردوس الى بيت المقدس ، أعاد حرمه * من أماكنهن ، فعادت زوجته مريم وأمها من حصن الاسكندرونة ، وفى خدمتها يوسف زوج أخته ، وسوما الصورى ، وقد كانا حدّثا المرأة وأمها بما أسرّ اليهما هيردوس ، وقد كان سلف منه قتل هرقانوس وأرستبلوس ، فشكرتا له

وبينما هو آخذ فى استمالة زوجته ، إذ رمتها أخته بالفاحشة مع سُوما الصُّورى ، فى ملاحاة جرت بينهما ، ولم يصدق ذلك هيردوس للعداوة والثقة بعفة الزوجة ، ثم جرى منها فى بعض الأيام وهو فى سبيل استمالتها عتاب فيما أسرّ إلى سوما وزوج أخته ، فقويت عنده الظنة بهم جميعاً ، وأن مثل هذا السرّ لم يكن إلا لأمر مريب ، وأخذ فى إخفائها وإقصائها .ودست عليه أخته بعض النساء تحدثه بأن زوجته داخلته فى أن تستحضر السم وأحضره فجرّب وصح . وقتل للحين صهره يوسف وصاحبه سوما ، واعتقل زوجته ثم قتلها ، وندم على ذلك . ثم بلغه عن أمها الاسكندرة مثل ذلك فقتلها وولى على أرُوم * مكان صهره رجلا منهم اسمه كِرَسوس وزوجه أخته ، فسار

* وأزال * فأعجب * بكلامه
* وقفل * حرمه * أدوم .

إلى عمله وانحرف عن دين التوراة ، والإحسان الذى حملهم عليه هرقانوس ، وأباح لهم عبادة صنمهم . وأجمع الخلاف ، وطلق أخت هيردوس ، فسعت به إلى أخيها وخبرته بأحواله ، وأنه آوى جماعة من بنى حشمناى المرشحين للملك منذ اثنتى عشرة سنة ، فقام هيردوس فى ركائبه وبحث عنه ، فحضر وطالبه ببنى حشمناى الذين عنده فأحضرهم فقتله وقتلهم ، وأرهف حده وقتل الجماعة من كبار اليهود ومقدميهم ، اتهمهم بالانكار عليه ، فأذعن له الناس واستفحل ملكه ، وأهمل المراعاة لوصايا التوراة ، وعمل فى بيت المقدس سوراً ، واتخذ منزه لعب ، وأطلق فيه السباع ، ويحمل بعض الجهلة على مقابلتها فتفترسهم ، فنكر الناس ذلك

وأعمل أهل الدولة الحيلة فى قتله فلم تتم لهم . وكان يمشى متنكراً للتجسس على أحوال الناس . فعظمت هيبته فى النفوس

وكان أعظم طوائف اليهود عنده الربانيون بما تقدم لهم فى ولايته ، وكان لطائفة العباد من اليهود المسمى بالحيسيد مكانة عنده أيضاً ، كان شيخهم مناحيم لذلك العهد محدثا . وكان حدثه وهو غلام بمصير الملك له ، وأخبره وهو ملك بطول مدته فى الملك فدعا له ولقومه . وكان كلفا ببناء المدن والحصون . ومدينة قيسارية من بنائه

ولما حدثت فى أيامه المجاعة شمر لها ، وأخرج الزرع للناس وبثه فيهم بيعاً وهبة وصدقة ، وأرسل فى الميرة من سائر النواحى ، وأمر قيصر فى سائر تخومه وفى مصر ورومة أن يحملوا الميرة إلى بيت المقدس ، فوصلت السفن بالزرع إلى ساحلها من كل جهة ، وأجرى على الشيوخ والأيتام والأرامل والمنقطعين كفايتهم من الخبز ، وعلى الفقراء والمساكين كفايتهم من الحنطة ، وفرق على خمسين ألفا قصدوه من غير ملته ، فرفعت المجاعة ، وارتفع له الذكر والثناء الجميل

تجديد البيت على قواعد سليمان

قال ابن كريون : ولما استفحل ملكه ، وعظم سلطانه ، أراد بناء البيت على ما بناه سليمان بن داود ، لأنهم لما رجعوا الى القدس بإذن كورش عين لهم مقدار البيت ، لا يتجاوزونه ، فلم يتم على حدود سليمان . ولما اعتزم على ذلك ابتدأ أولا بإحضار الآلات مستوفيات ، خشية أن يحصل الهدم ، وتطول المدة ، وتعرض

القواطع والموانع . فأعد الآلات وأكمل جمعها فى ست سنين ، ثم جمع الصناع للبناء وما يتعلق به ، فكانوا عشرة آلاف ، وعين ألفا من الكهنة يتولون القدس الأقدس الذى لا يدخله غيرهم . ولما تم له ذلك ، شرع فى الهدم فحصل لأقرب وقت ، ثم بنى البيت على حدوده وهيئته أيام سليمان ، وزاد فى بعض المواضع على ما اختاره ووقف عليه نظره ، فكمل فى ثمان سنين . ثم شرع فى الشكر لله تعالى على ما هيأ له من ذلك ، فقرب القربان ، واحتفل فى الولائم وإطعام الطعام . وتبعه الناس فى ذلك أياماً ، فكانت من محاسن دولته

قال ابن كريون : ثم ابتلاه الله بقتل أولاده ، وكان له ولدان من مريم بنت الاسكندرة ، قتيلة السم ، أحدهما الاسكندر ، والآخر أرستبلوس . وكانا عند قتل أمهما غائبين برومة يتعلمان خط الروم . فلما وصلا وقد قتل أمهما ، حصلت بينه وبينهما الوحشة . وكان له ولد آخر اسمه أنطفتر على اسم جده ، وكان قد أبعد أمه راسيس لمكان مريم . فلما هلكت واستوحش من ولدها ، طاب محل راسيس منه وقدم ابنها أنطفتر ، وجعله ولى عهده ، وأخذ فى السعاية على إخوته خشية منهما بأنهما يرومان قتل أبيهما ، فانحرف عنهما

واتفق أن سار الى أوغسطس قيصر ومعه ابنه اسكندر ، فشكاه عنده وتبرأ الاسكندر وحلف على براءته ، فأصلح بينهما قيصر . ورجع إلى القدس ، وقسم القدس* بين ولده الثلاثة ، ووصاهم ووصى الناس بهم وعهد أن لا يخالطوهم ، خشية مما يحدث عن ذلك ، وأنطفتر مع ذلك متماد على سعايته بهما ، وقد داخل فى ذلك عمه فيروراس وعمته سلومنت فأغروا أباه بأخويه المذكورين حتى إعتقلهما . وبلغ الخبر أرخلاوش ملك كبدوكية(١) وكانت بنته تحت الإسكندر منهما ، فجاء الى هيرودس مظهراً السخط على الاسكندر والانحراف عنه ، وتحيل فى إظهار جراءتهما وأطلعه على جلية الحال وسعاية أخيه وأخته ، فانكشف له الأمر وصدقه ، وغضب على

* الملك

١ — كبدوكية ولاية واقعة شرقي اسيا الصغرى وقرب ارمينيا قرب البحر الاسود

أخيه فيروراس ، فجاء إلى أرخلاوش [يشفع له،واعترف بما كان منه فى تلك السعاية فشفع له أرخلاوش ـ خ] وأحضره عند هيردوس حتى أخبره بمصدوقية الحال ، ثم شفعه فيه وأطلق ولديه ، ورضى عنهما ، وشكر لأرخلاوش تلطفه فى تلافى هذا الأمر ، وانصرف إلى بلده ، ولم ينف ذلك أنطفتر عن تدبيره عليهما ، ومازال يغرى أباه ويدس له من يغريه حتى أسخطه عليهما ثانية واعتقلهما ، ومضى بهما فى بعض أسفاره مقيدين ، ونكر ذلك بعض أهل الدولة ، فدس أنطفتر الى أبيه [من يقول له: إن هذا] المنكر من المدبرين عليك ، وقد ضمن لحجامك [عند] الاسكندر مالا على قتلك ، فأنزل هيردوس بهما العقاب ليتكشف الخبر ، ونما له أن ابن ذلك الرجل معه ولذغه العقاب وأقر على نفسه ، وقتل هو وأبوه والحجام . ثم قتل هيردوس ولديه وصلبهما على مصطبة ، وكان لابنه الاسكندر ولدان من بنت أرخلاوش ملك كبدوكيه ، وهما تركان والاسكندر ، ولابنه أرستبلوس ثلاثة من الولد : أغرباس وهيردوس وأرستبلوس . ثم ندم هيردوس على قتل ولديه ، وعطف على أولادهما فزوج تركان بن الاسكندر بابنة أخيه فيروراس ، وزوج ابنة ابنه أرستبلوس من ابن ابنه أنطفتر ، وأمر أخاه فيروراس وابنه أنطفتر بكفالتهما والاحسان اليهما ، فكرها ذلك ، واتفقا على فسخه وقتل هيروس متى أمكن . وبعث هيردوس ابنه أنطفتر إلى أوغسطس قيصر . ونما الخبر اليه بأن أخاه فيروراس يريد قتله ، فسخطه وأبعده وألزمه بيته . ثم مرض فيروراس واستدعى أخاه هيردوس ليعوده فعاده ، ثم مات فحزن عليه ، ثم هم * باستكشاف مانما اليه فعاقب جواريه ، فأقرت إحداهما بأن أنطفتر وفيروراس كانا يجتمعان عند رسيس أم أنطفتر يدبران على قتل هيردوس على يد خازن أنطفتر ، فأقر بمثل ذلك ، وأنه بعث على السم من مصر ، وهو عند امرأة فيروراس ، فأحضرت فأقرت بأن فيروراس أمرها عند موته باراقته ، وأنها أبقت منه قليلاً يشهد لها إن سئلت ، فكتب هيردوس إلى ابنه انطفتر بالقدوم ، فقدم مستريباً بعد أن أجمع على الهروب ، فمنعه خدم أبيه

ولما حضر جمع له الناس فى مشهد ، وحضر رسول أوغسطس وقدم * كاتبه

* حدثه * وقام .

نيقالوس ، وكان يحب أولاد هيردوس المقتولين ويميل اليهما عن أنطفتر فدفع * يخاصمه حتى قامت عليه الحجة،وأحضر بقية السم وجرّب فى بعض الحيوانات فصدق فعله ، فحبس هيردوس ابنه أنطفتر حتى مرض وأشرف على الموت ، وأسف على ما كان منه لأولاده ، فهمّ بقتل نفسه فمنعه جلساؤه وأهله ، وسمع من القصر البكاء والصراخ لذلك، فهمّ أنطفتر بالخروج من محبسه ومنع ، وأخبر هيردوس بذلك ، وأمر بقتله فى الوقت فقتل .

ثم هلك بعده لخمسة أيام ولسبعين سنة من عمره ، وخمس وثلاثين من ملكه .

أركلاوش بن هيردوس

وعهد بالملك لابنه أركلاوش * وخرج كاتبه نيقالوس ، فجمع الناس وقرأ عليهم العهد ، وأراهم خاتم هيردوس عليه ، فبايعوا له . وحمل أباه إلى قبره على سرير من الذهب مرصع بالجوهر والياقوت ، وعليه ستور الديباج منسوجة بالذهب ، وأجلس مسنداً ظهره إلى الأرائك ، والناس أمامه من الأشراف والرؤساء،ومن خلفه الخدم والغلمان ، وحواليه الجوارى بأنواع الطيب ، إلى أن اندرج فى قبره . وقام أركلاوش بملكه ، وتقرب إلى الناس باطلاق المسجونين ، فاستقام أمره وانطلقت الألسنة بذم هيردوس والطعن عليه .

ثم انتقضوا على أركلاوش بملكه بما وقع منه من القتل فيهم ، فساروا إلى قيصر شاكين بذلك ، وعابوه عنده بأنه ولى من غير أمره ، وحضر أركلاوش وكاتبه نيقالوس بخصمهم * ودفع دعاويهم، وأشار عظماء الروم بإبقائه فملكه قيصر ، وأعاده إلى القدس ، وأساء السيرة فى اليهود، وتزوج امرأة أخيه الأسكندر، وكان له أولاد منها، فماتت لوقتها. ووصلت شكاية اليهود بذلك كله إلى قيصر ، فبعث قائداً من الروم إلى المقدس ، فقيد أركلاوش وحمله إلى رومة لسبع سنين من دولته .

أنطيفس

وولى على اليهود بالقدس أخاه أنطيفَس ، وكان شراً منه ، واغتصب امرأة أخيه فيلفوس ، وله منها ولدان ، ونكر ذلك عليه علماء اليهود والكهنونية . وكان لذلك العهد يوحنا بن زكريا فقتله فى جماعة منهم . وهذا هو المعروف عند النصارى بالمعمَدان الذى عمد عيسى، أى طهره بماء المعمودية بزعمهم .

---

* فاندفع * أرخيلاوش * لخصمهم

طبريانوس

وفى دولة أنطيفس هذا مات قيصر أوغسطس، فملك بعده طِبَرْيانُوس ، وكان قبيح السيرة ، وبعث قائدة بيلاطس بصنم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود ، فامتنعوا فقتل منهم جماعة ، فأذنوا بحربه وقاتلوه وهزموه ، وبعث طبريانوس العساكر مع قائده إلى القدس فقبض على أنطيفس وحمله مقيداً ، ثم عزله طبريانوس إلى الاندلس ، فمات بها .

أغرباس — نيروش

وملك بعده على اليهود أغرباس ابن أخيه أرستبلوس المقتول ، وهلك فى أيامه طبريانوس قيصر . وملك نيرُوش (١) وكان أشر من جميع من تقدمه ، وأمر أن يسمى إلاهو* وبنى المذبح للقربان ، وقرب ، وأطاعته الناس إلا اليهود ، وبعثوا اليه فى ذلك أفيلو الحكيم فى جماعة ، فشتمهم وحبسهم . وسخط اليهود . ثم قبحت أحواله ، وساءت أفعاله ، وثارت عليه دولته ، فقتلوه ورموا شلوه فى الطريق فأكلته الكلاب .

قلديوس

ثم ملك بعده قُلَدْيُوس قيصر ،وأطلق أفيلو والذين معه إلى بيت المقدس ، وهدم المذابح التى كان نيروش بناها . وكان أغرباس حسن السيرة معظماً عند القياصرة . وهلك لثلاث وعشرين سنة من دولته

أغرباس الثانى

وملك بعده ابنه أغرباس بأمر اليهود ، وملك عشرين سنة ، وكثرت الحروب والفتن فى أيامه فى بلاد اليهود والأرمن ، وظهرت الخوارج والمتغلبون ، وانقطعت السبل، وكثر الهرج داخل المدينة فى القدس ،وكان الناس يقتل بعضهم بعضاً فى الطرقات يحملون سكاكين صغاراً ، محدّين لها ، فاذا ازدحم مع صاحبه فى الطريق طعنه فأهواه ، حتى صاروا يلبسون الدروع لذلك . وخرج كثير من الناس عن المدينة فراراً من القتل ، وهلك ولد طبريوس * قيصر ونبروس * من بعده .

١ — المعروف أن الذى ولى الملك بعد طيباريوس هو كاليغولا وسيأتى للمؤلف تسميته (غابنيش) وهو كابوس كاليغولا انظره فى هذا الجزء. أما نيروش فقد ولى بعد كاوريوس كما سيأتى للمؤلف ولعله اختلط على المؤلف نيرون وكابوس بسبب أن كلا منهما كان راغبا فى عبادة تماثيله

* إلها * طبريانوس * نيروش

وملك على الروم فيلقوس (١) قيصر ، فسعى بعض الشرار عنده بأن هؤلاء الذين خرجوا من القدس يذمون على الروم ، فبعث اليهم من قتلهم وأسرهم ، واشتد البلاء على اليهود ، وطالت الفتن فيهم . وكان الكهنون الكبير فيهم لذلك العهد عَنّانِى ، وكان له ابن اسمه ألعازار ، وكان ممن خرج من القدس ، وكان فاتكاً مصعلكاً ،وانضم اليه جماعة من الأشرار،وأقاموا يغيرون على بلاد اليهود والأرمن وينهبون ويقتلون ، وشكتهم الأرمن إلى فيلقوس قيصر ، فبعث من قيده وحمله وأصحابه الى رومة ، فلم يرجع الى القدس الا بعد حين . واشتد قائد الروم ببيت المقدس على اليهود ، وكثر ظلمه فيهم، فأخرجوه عنهم بعد أن قتلوا جماعةمن أصحابه، ولحق بمصر ، فلقى هنالك أغرباس ملك اليهود راجعاً من رومية ومعه قائدان من الروم ، فشكا اليه فيلقوس بما وقع من اليهود ، ومضى الى بيت المقدس ، فشكا اليه اليهود بما فعل فيلقوس وأنهم عازمون على الخلاف . وتلطف لهم فى الامساك عن ذلك حتى تبلغ شكيتهم الى قيصر ، ويعتذر منه ، فامتنع العازار بن عنانى ، وأبى إلا المخالفة ، وأخرج القربان الذى كان بعثه معه نيروش قيصر من البيت ، ثم عمد إلى الروم الذين جاءوا مع أغرباس فقتلهم حيث وجدوا وقتل القائدين ، ونكر ذلك أشياخ اليهود ، واجتمعوا لحرب العازار، وبعثوا إلى أغرباس ، وكان خارج القدس ، فبعث اليهم بثلاثة آلاف مقاتل ، فكانت الحرب بينهم وبين ألعازار سجالا ، ثم هزمهم وأخرجهم من المدينة . وعاث فى البلد وخرب قصور الملك ونهبها وأموالها وذخائرها ، وبقى أغرباس والكهنونة والعلماء والشيوخ خارج المقدس . وبلغهم أن الأرمن قتلوا من وجدوه من اليهود بدمشق ونواحيها وبقيساريه،فساروا إلى بلادهم ، وقتلوا من وجدوه بنواحى دمشق من الأرمن . ثم سار أغرباس إلى نيروش قيصر ، وخبره الخبر ، فامتعض لذلك ، وبعث إلى كسبينا وقائده على الأرمن

---

١ — هكذا هذه العبارة هنا عند المؤلف وهو لايتفق مع المعروف فى التاريخ لأن فيلقوس المذكور إنما كان واليا على اليهود لا قيصراً على الروم. ولاه قلوديوس فى الوقت الذى كان أغرباس فى روما يشكو للقيصر السامرة. وصواب العبارة (وملك على اليهود فيلقوس)

وقد كان مضى إلى حرب الفرس فدوخها وقهرهم، وعاد إلى بلاد الأرمن فنزل دمشق، فجاءه عهد قيصر بالمسير مع أغرياس ملك اليهود إلى القدس ، فجمع العساكر وسار وخرب كل مامر عليه ، ولقيه العازار الثائر بالقدس ، فانهزم ورجع ، ونزل كسبينا وقائد الروم ، فأثخن فيهم ، وارتحل كسبينا والى قيسارية ، وخرج اليهود فى اتباعهم فهزموهم ، ولحق كسبينا وأغرياس بقيصر نيروش ، فوافقوا وصول قائده الأعظم أسباسيانوس عن بلاد المغرب ، وقد فتح الأندلس ودوخ أقطارها ، فعهد اليه نيروش قيصر بالمسير إلى بلاد اليهود ، وأمره أن يستأصلهم ويهدم حصونهم ، فسار ومعه ابنه طيطوش وأغرياس ملك اليهود ، وانتهوا إلى أنطاكية ، وتأهب اليهود لحربهم وانقسموا ثلاث فرق فى ثلاث نواحى ، مع كل فرقة كهنون ، فكان عنانى الكهنون الاعظم فى دمشق ونواحيها ، وكان ابنه العازار كهنون بلاد أروم وما يليها إلى أيلة ، وكان يوسف بن كريون كهنون طبرية وجبل الخليل وما يتصل به ، وجعلوا فيما بقى من البلاد من الأغوار إلى حدود مصر من يحفظها من بقية الكهنونية ، وعمر كل منهم أسوار حصونه ، ورتب مقاتلته . وسار اسباسيانوس بالعساكر من أنطاكية فتوسط فى بلاد الأرمن ، وأقام . وخرج يوسف بن كريون من طبرية ، فحاصر بعض الحصون بناحية أغرياس ففتحه واستولى عليه ، وبعث أهل طبرية من ورائه الى الروم ، فاستأمنوا اليهم ، فزحف يوسف مبادراً وقتل من وجد فيها من الروم ، وقبل معذرة أهل طبرية . وبلغه مثل ذلك عن جبل الخليل فسار اليهم ، وفعل فيهم فعله فى طبرية ، فزحف اليه اسباسيانوس من عكا فى أربعين ألف مقاتل من الروم ومعه أغرياس ملك اليهود ، وسارت معهم الأمم من الأرمن وغيرهم ، إلا أروم ، فانهم كانوا حلفاء لليهود منذ أيام هرقانوس . ونزل أسباسيانوس بعساكره على يوسف بن كريون ومن معه بطبرية ، فدعاهم الى الصلح فسألوا الامهال الى مشاورة الجماعة بالقدس ، ثم امتنعوا ، وقاتلهم أسباسيانوس بظاهر الحصن فاستلحمهم حتى قل عددهم ، وأغلقوا الحصن ، فقطع عنهم الماء خمسين ليلة ، ثم بيتهم الروم فاقتحموا عليهم الحصن فاستلحموهم ، وأفلت يوسف بن كريون ومن

معه من الفل، فامتنعوا ببطن الأعراب، وأعطاهم أسباسيانوس الأمان، فمال اليه يوسف وأبي القوم إلا أن يقتلوا أنفسهم، وهموا بقتله، فوافقهم على رأيهم الى أن قتل بعضهم بعضاً ولم يبق من يخشاه، فخرج إلى أسباسيانوس مطارحا عليه، وحرضه اليهود على قتله، فأبي واعتقله، وخرب أعمال طبرية، وقتل أهلها ورجع إلى قيسارية.

قال ابن كربون: وفى خلال دلك حدثت الفتنة فى القدس بين اليهود داخل المدينة، وذلك أنه كان فى جبل الخليل بمدينة كوشالة يهودى اسمه يُوحنان، وكان مرتكباً للعظائم، واجتمع اليه أشرار منهم، فقوى بهم على قطع السابلة والنهب والقتل، فلما استولى الروم على كوشالة لحق بالقدس، وتألف عليه شرار اليهود من فل البلاد التى أخذها الروم، فتحكم على أهل القدس، وأخذ الأموال، وزاحم عنانى الكهنون الأعظم، ثم عزله، واستبدل به رجلا من غواتهم، وحمل الشيوخ على طاعته، فامتنعوا، فتغلب عليهم، فقتلهم، فاجتمع اليهود إلى عنانى الكهنون، وحاربهم يوحنان وتحصنوا فى القدس، وراسله عنانى فى الصلح فأبى وبعث إلى أروم* يستجيشهم فبعثوا اليه بعشرين ألفاً منهم، فأغلق عنانى أبواب المدينة دونهم، وأحاط بهم من الأسوار، ثم استغفلوه وكبسوا المدينة واجتمع معهم يوحنان، فقتلوا من وجوه اليهود نحواً من خمسة آلاف، وصادروا أهل النعم على أموالهم، وبعثوا يوحنان الى مدن الذين استأمنوا الى الروم فغنم أموالهم، وقتل من وجدمنهم، وبعث أهل القدس فى استدعاء اسباسيانوس وعساكره فزحف من قيسارية حتى إذا توسط الطريق خرج يوحنان من القدس وامتنع ببعض الشعاب، فمال اليه اسباسيانوس بالعسكر وظفر بالكثير منهم فقتلوهم، ثم سار الى بلاد أروم* ففتحها، وسبسطية بلاد السامرة ففتحها أيضا، وعمر جميع مافتح من البلاد، ورجع الى قيسارية ليزيح علله، ويسير الى القدس. ورجع يوحنان أثناء ذلك من الشعاب، فغلب على المدينة، وعاث فيهم بالقتل، وتحكم فى أموالهم، وأفسد حريمهم.

قال ابن كربون: وقد كان ثار بالمدينة فى مغيب يوحنان ثائر آخر اسمه شمعون

* ادوم * ادوم

واجتمع اليه اللصوص والشرار حتى كثر جمعه ، وبلغوا نحواً من عشرين ألفا ، وبعث اليه أهل أرُوم* عسكرا فهزمهم ، واستولى على الضياع، ونهب الغلال ، وبعث الى امرأته من المدينة،فردَّها يوحنَّان من طريقها ، وقطع من وجدمعها ، ثم أسعفوه بامرأته ، وسار الى أروم فحاربهم وهزمهم ، وعاد الى القدس فحاصرها ، وعظم الضرر على أهلها من شمعون خارج المدينة ، ويوحنان داخلها ، ولجؤا الى الهيكل وحاربوا يوحنان فغلبهم ، وقتل منهم خلقاً ، فاستدعوا شمعون لينصرهم من يوحنان فدخل ونقض العهد ، وفعل أشرَّ من يوحنان

أبطالوس

قال ابن كريون: ثم ورد الخبر الى اسباسيانوس - وهو بمكانه من قيسارية - بموت نيروش قيصر ، وأن الروم ملكوا عليهم مضعفا اسمه إبطالوس (١) فغضب البطارقة الذين مع اسباسيانوس وملكوه وسار الى رومة ، وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطش ، وقدم بين يديه قائدين الى رومة لمحاربة إبطالوس الذي ملكه الروم، فهزم وقتل، وسار اسباسيانوس الى أسكندرية ، وركب البحر منها ، ورجع طِيطُش الى قيسارية الى أن ينسلخ فصل الشتاء ، ويزيح العلل

وعظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس، وكثر القتل حتى سالت الدماء فى الطرقات ، وقتل الكهنونية على المذبح ، وهم لا يقربون الصلاة فى المسجد لكثرة الدماء ، وتعذر المشى فى الطرقات من سقوط حجارة الرمى ، ومواقد النيران بالليل .وكان يوحنَّان أخبث القوم وأشرهم

حصار القدس

ولما انسلخ الشتاء، زحف طِيطُش فى عساكر الروم الى أن نزل على القدس ، وركب الى باب البلد يتخير المكان لمعسكره ويدعوهم الى السلم ، فصموا عنه وأكمنوا له بعض الخوارج فى الطريق ، فقابلوه وخلص منهم بشدته ، فعبّى عسكره من الغد ، ونزل بجبل الزيتون شرقى المدينة ، ورتب العساكر والآلات للحصار، واتفق اليهود داخل المدينة، ورفعوا الحرب بينهم ، وبرزوا الى الروم فانهزموا ، ثم عادوا فظهروا ، ثم انتقضوا بينهم وتحاربوا ، ودخل يوحنَّان الى القدس يوم الفطير

* أدوم

١ — فى ج « لطاوس » والتصحيح مما يأتى للمؤلف ، و.ش (٥ – ٣٨٦)

فقتل جماعة من الكهنونة ، وقتل جماعة أخرى خارج المسجد ، وزحف طيطش ، وبرزوا اليه فردوه إلى قرب معسكره ، وبعث اليهم قائده نيقاتور فى الصلح ، فأصابه سهم فقتله ، فغضب طيطش وصنع كبشاً وأبراجاً من الحديد توازى السور، وشحنها بالمقاتلة ، فأحرق اليهود تلك الآلات ودفنوها وعادوا الى الحرب بينهم . وكان يوحنّان قد ملك القدس ومعه ستة آلاف أو يزيدون من المقاتلة، ومع شمعون عشرة آلاف من اليهود ، وخمسة آلاف من أروم * وبقية اليهود بالمدينة مع أليعازار ، وأعاد طيطش الزحف بالآلات ، وثلم السور الأول ، وملكه الى الثاني فاصطلم * اليهود بينهم وتذامروا ، واشتد الحرب، وباشرها طيطش بنفسه ، ثم زحف بالآلات الى السور الثاني فثلمه ، وتذامر اليهود فمنعوهم عنه، ومكثوا كذلك أربعة أيام ، وجاء المدد من الجهات الى طيطش ، ولاذ اليهود بالأسوار ، وأغلقوا الأبواب ، ورفع طيطش الحرب ودعاهم الى المسالمة فامتنعوا ، فجاء بنفسه فى اليوم الخامس وخاطبهم ودعاهم ، وجاء معه يوسف بن كريون فوعظهم ورغبهم فى أمنة الروم ووعدهم ، وأطلق طيطش أسراهم ، فجنح الكثير من اليهود الى المسالمة ، ومنعهم هؤلاء الرؤساء الخوارج ، وقتلوا من يروم الخروج الى الروم ، ولم يبق من المدينة ما يعصمهم إلا السور الثالث ، وطال الحصار واشتد الجوع عليهم والقتل ، ومن وجد خارج المدينة لرعى العشب قتله الروم وصلبوه ، حتى رحمهم طيطش ، ورفع القتل عمن يخرج فى ابتغاء العشب . ثم زحف طيطش الى السور الثالث من أربع جهاته ، ونصب الآلات، وصبر اليهود على الحرب وتذامر اليهود، وصعب الحرب، وبلغ الجوع فى الشدة غايته ، واستأمن متّابى الكوهن الى الروم ، وهو الذى كان خرج فى استدعاء شمعون فقتله شمعون ، وقتل بنيه ، وقتل جماعة من الكهنونية والعلماء والأئمة ممن حذر منه أن يستأمن ، ونكر ذلك أليعازار بن عناني ، ولم يقدر على أكثر من الخروج عن بيت المقدس

وعظمت المجاعة، فمات أكثر اليهود ، وأكلوا الجلود والخشاش والميتة ، ثم

* أدوم * فاصطلح

أكل بعضهم بعضاً ، وعثر على امرأة تأكل ابنهـا ، فأصابت رؤساءهم لذلك رحمة ، وأذنوا فى الناس بالخروج ، فخرجت منهم أمم ، وهلك أكثرهم حين أكلوا الطعام ، وابتلع بعضهم فى خروجه ما كان له من ذهب أو جوهر ضنة به ، وشعر بهم الروم الروم فكانوا يقتلونهم ويشقون عنها بطونهم . وشاع ذلك فى توابع العسكر من العرب والأرمن ، فطردهم طيطش ، وطمع الروم فى فتح المدينـة ، وزحفوا الى سورها الثالث بالآلات . ولم يكن لليهود طاقة بدفعهـا وإحراقها ، فثلموا السور ، وبنى اليهود خلف الثلمة ، فأصبحت منسدة ، وصدمها الروم بالكبش فسقطت من الحدة ، واستماتوا فى تلك الحال الى الليل

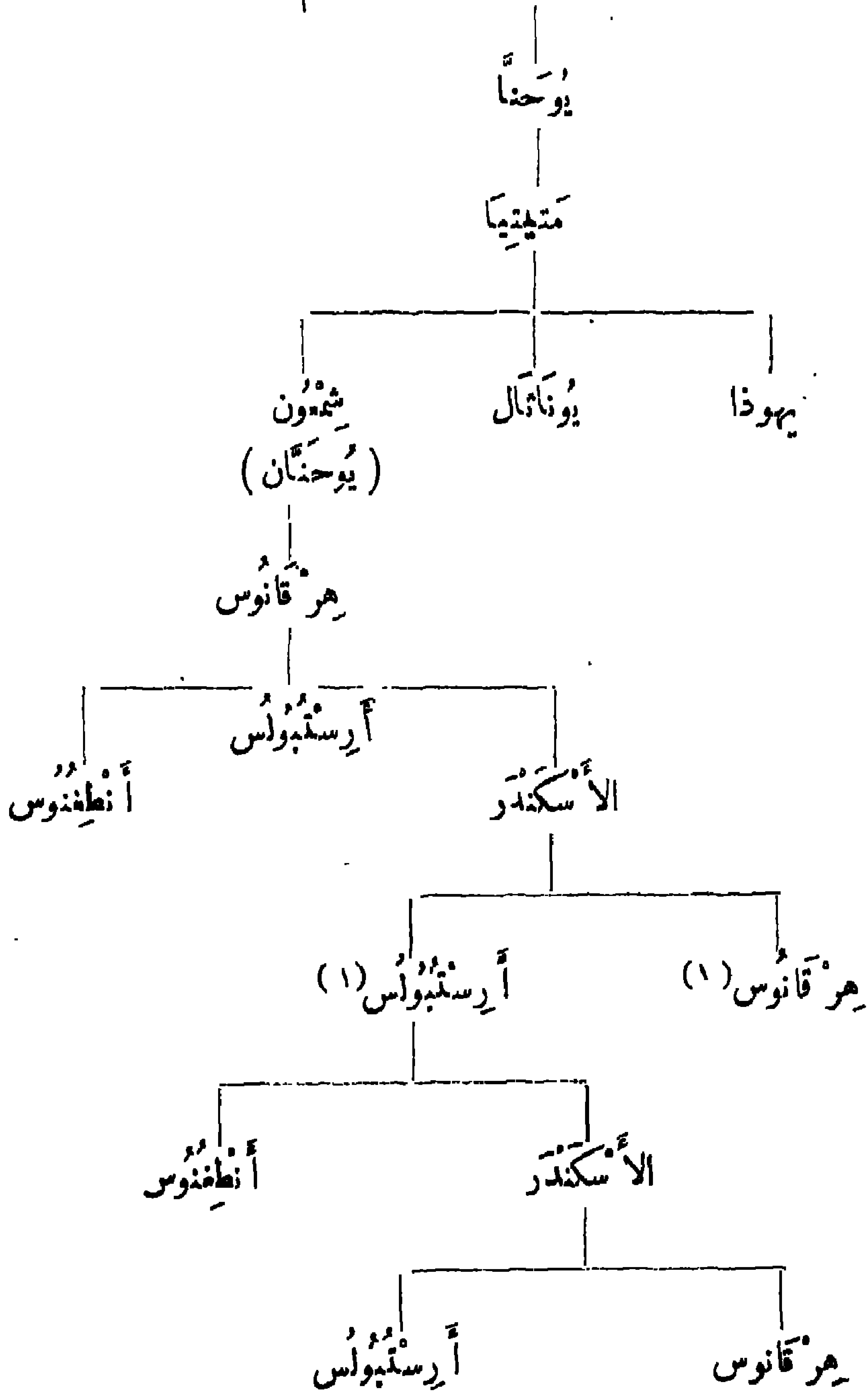
ثم بيّت الروم المدينة ، وملكوا الأسوار عليهم ، وقاتلوهم من الغد ، فانهزموا الى المسجد وقاتلوا فى الحصن ، وهدم طيطش البناء ما بين الأسوار الى المسجد ليتسع المجال ، ووقف ابن كربون يدعوهم الى الطاعة فلم يجيبوا ، وخرج جماعة من الكهنونية فأمنهم ، ومنع الرؤساء بقيتهم . ثم باكرهم طيطش بالقتال من الغد فانهزموا الى القدس ، وملك الروم المسجد وصحنه ، واتصلت الحرب أياماً ، وهدمت الأسوار كلها ، وثلم سور الهيكل ، وأحاط العساكر بالمدينـة حتى مات أكثرهم ، وفر كثير . ثم اقتحم عليهم الحصن ، فملكه ونصب الأصنام فى الهيكل ، ومنع من تخريبه ، ونكر رؤساء الروم ذلك ، ودسّوا من أضرم النار فى أبوابه وسقفه فاحترق ، وألقى الكهنونة أنفسهم فى النار جزعاً على دينهم ، وحزنوا ، واختفى شمعون ويوحنان فى جبل صهيون ، وبعث اليهم طيطش بالأمان ، فامتنعوا ، وطوقوا القدس فى بعض الليالى فقتلوا قائداً من قواد العسكر ورجعوا الى مكان اختفائهم ، ثم هرب عنهم أتباعهم وجاء يوحنان ملقياً بيده الى طيطش فقيّده ، وخرج اليه يوشع الكوهن بآلات من الذهب الخالص ، من آلات المسجد ، فيها منارتان ومائدتان . ثم قبض على فنحاص خازن الهيكل ، فأطلعه على خزائن كثيرة ، مملوءة دنانير ودراهم * وطيبا ، فامتلأت

* وجواهر وماسا

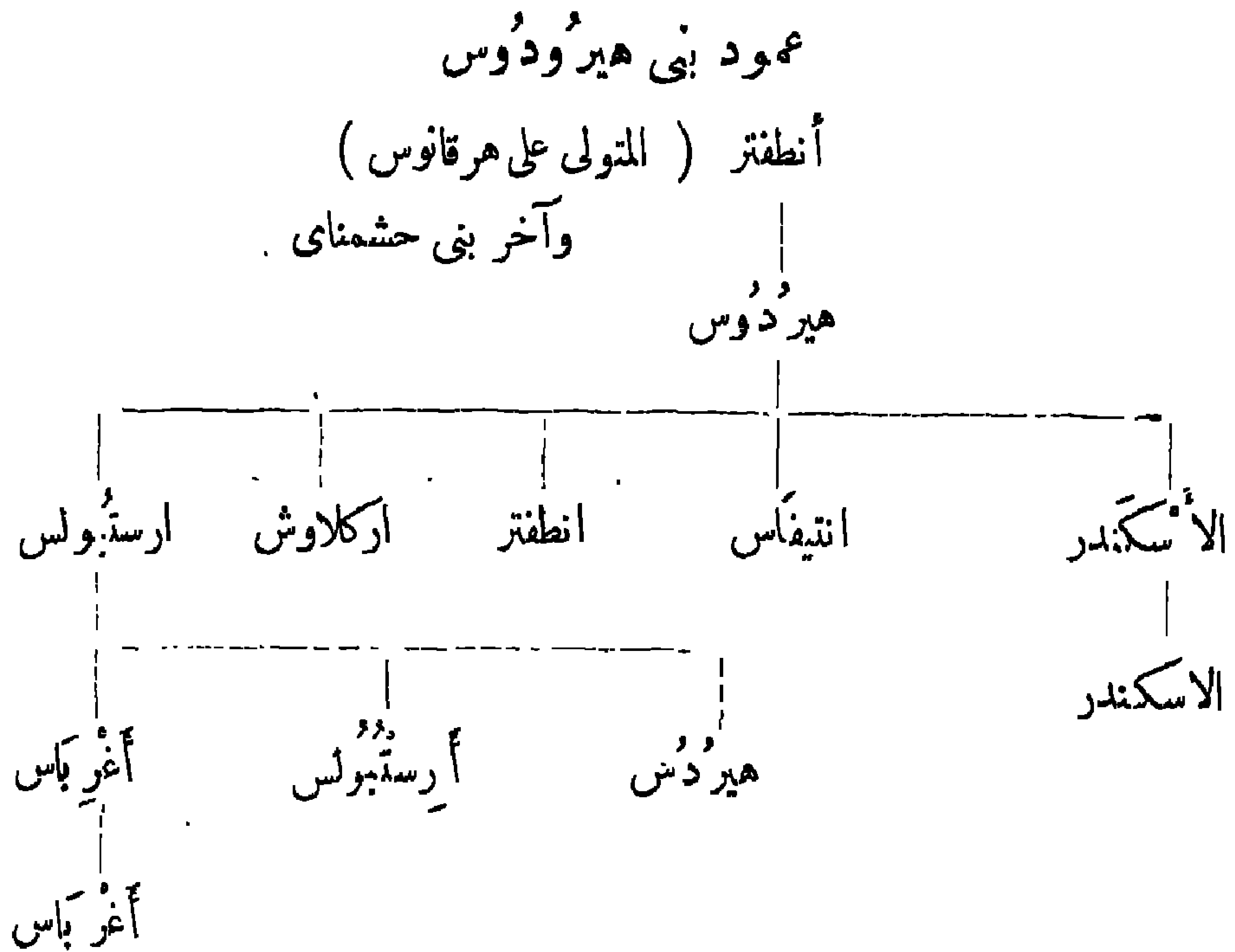
يده منها، ورحل عن بيت المقدس بالغنائم والأموال والأسرى ،وأحصى الموتي في هذه الوقعة

قال ابن كربون : فكان عدد الموتي الذين خرجوا على الباب للدفن ، بأخبار مناحيم الموكل به ، مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً وثمانمائة . وقال غير مناحيم : كانت عدتهم ستمائة ألف ، دون من ألقي في الآبار ، أو طرح الى خارج الحصن وقتل في الطرقات ولم يدفن . وقال غيره : كان الذى أحصى من الموتي والقتلى ، ألف ألف ومائة ألف ، والسبي والأسارى مائة ألف . كان طيطش في كل منزلة ، يلقي منهم الى السباع ، الى أن فرغوا . وكان فيمن هلك شمعون أحد الخوارج الثلاثة . وأما ألعازار بن عنان ، فقد كان خرج من القدس عند ما قتل شمعون أمتاى الكوهن كما ذكرنا . فلما رحل طيطش عن القدس نزل في بعض القرى وحصنها، واجتمع اليه فل اليهود ، واتصل الخبر بطيطش وهو في أنطاكية فبعث اليه عسكراً من الروم مع قائده سلوانس فحاصرهم أياماً ، ثم قتلوا نساءهم وأولادهم ، وخرجوا الى الروم مستميتين ، فقاتلوا الى أن قتلوا عن آخرهم.

وأما يوسف ابن كربون : فافتقد أهله وولده في هذه الوقائع ، ولم يقف لهم بعدها على خبر ، وأراده طيطش على السكنى عنده برومة ، فتضرع اليه في البقاء بأرض القدس ، فأجابه الى ذلك وتركه ، وانقرضت دولة اليهود أجمع . والبقاء لله وحده ، سبحانه وتعالى ، لا انقضاء لملكه .



(١) أمهما الاسكندرة اه مؤلف



بقية الزعماء
آخر بني هيرُدُوس
أَلِعَازَار بن عَنانِي
يوحنَّان الجَلِيل
يوسُف بن كَرْبون
شِمْعُون

أخبار المسيح عليه السلام

الخبر عن شأن عيسى بن مريم

صلوات الله عليه فى ولادته وبعثته ورفعه من الأرض

والإلمام بشأن الحواريين بعده وكتبهم الأناجيل الأربعة

وديانة النصارى بملته واجتماع الأقسة على تدوين شريعته

ماثان

كان بنو ماثان من ولد داود صلوات الله عليه كهنونية بيت المقدس، وهو ماثان ابن أليعازار بن اليهود بن أخس بن زادوق بن عازور بن ألياقيم بن أبود بن زروفابل ابن سألتهيل بن يوختانيا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بنى إسرائيل ابن أمون (١) بن عمون بن منشا بن حزقيا بن أحاز بن يوآش بن أحزيا بن يورام ابن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم بن سليمان بن داود صلوات الله عليهما . ويوختانيا ابن يوشيا السادس (٢) عشر من ملوك بنى سليمان . ولد فى جلاء بابل . وهذا النسب نقلته من انجيل متى (٣) . وكانت الكهنونية العظمى من بعد بنى حشمناي

عمران أبو مريم

لهم ، وكان كبيرهم قبل عصر هيردوس عمران أبو مريم ، ونسبه ابن إسحق إلى أمون ابن منشا الخامس عشر من ملوك بيت المقدس من لدن سليمان أبيهم .

وقال فيه : عمران بن باشم بن أمون ، وهذا بعيد ، لان الزمان بين عمون وعمران أبعد من أن يكون بينهما أب واحد ، فان أمون كان قبيل الخراب الأول وعمران كان فى دولة هيردوس قبيل الخراب الثاني ، وبينهما قريب من أربعمائة سنة

ونقل ابن عساكر — والظن أنه ينقل عن مستند — أنه من ولد زربافيل الذي ولى على بنى إسرائيل عند رجوعهم إلى بيت المقدس ، وهو ابن يخنيا آخر ملوكهم الذي حبسه بختنصر وولى عمه صدقيا هو بعده كما مرّ . وقال فيه: عمران بن ماثان بن فلان

١ — أمون وعمون شخصية واحدة كما يعلم من الانجيل ومن كلام المؤلف فى هذه الصفحة
٢ — الصواب التاسع عشر كما يعلم من مراجعة ماسبق
٣ — نقل المؤلف هذا النسب عن إنجيل متى وفيه نوع مغايرة كما يعلم بمراجعته فى الاصحاح الأول: (٢ — ١٥) .

ابن فلان إلى زربافيل،وعد نحواً من ثمانية آباء بأسماء عبرانية ، لا وثوق بضبطها،وهو أقرب من الأول ، وفيه ذكر ماثان الذى هو شهرتهـم ، ولم يذكره ابن إسحق . وكان عمران أبو مريم كهنوتاً فى عصره ، وكانت تحته حنة بنت فاقود بن فنيل، وكانت من العابدات ، وكانت أختها إيشاع(١) ويقال خالتها،تحت زكريا بن يوحنا . ونسبه ابن عساكر إلى يهوشافاظ خامس ملوك القدس من عهد سليمان أبيهـم ، وعد ما بينه وبين يهوشافاظ اثنى عشر أبا أولهم يوحنا ، بأسماء عبرانية كما فعل فى نسب عمران ، ثم قال: وهو أبو يحيي صلوات الله عليهما ، ويقال بالمد والقصر من غير ألف ، وكان نبياً من بنى إسرائيل صلوات الله عليهم اه

ونقلت من كتاب يعقوب بن يوسف النجار:مثان، يعنى ماثان، من سبط داود، وكان له ولدان :يعقوب ويواقيم ، ومات فتزوج أمهما بعـد مطنان (٢) ومطنان بن لاوى من سبط سليمان بن داود ، وسمى ماثان ، فولدت هالى من مطنان ، ثم تزوج ومات ولم يعقب ، فتزوج امرأته أخوه لأمه يعقوب بن ماثان ، فولدت منه يوسف خطيب مريم ، ونسب إلى هالى ، لأن من أحكام التوراة أن من مات من غير عقب فامرأته لأخيه ، وأول ولد منها ينسب إلى الأول ، فلهذا قيل فيه يوسـف بن هالى ابن مطنان ، وإنما هو يوسف بن يعقوب بن ماثان ، وهو ابن مريم عم مريم لحاً

وكان ليوسف من البنين * خمسة بنين وبنت ، وهم : يعقوب، ويوشا ، وبيلوت ، وشمعون ، ويهوذا،وأختهم مريم ، كانوا يسكنون بيت لحم، فارتحل بأهله ونزل ناصرة وسكن بها وتعلم النجارة حتى صار يلقب بالنجار ، وتزوج يواقيم حنة أخت إيشاع * العاقر امرأة زكريا بن يوحنا المعمدان * وأقامت ثلاثين سنة لا يولد لها ، فدعوا الله فولد لها مريم ، فهى بنت يواقيم موثان وهو مثان وولدت إيشاع * العاقر من زكريا

ولادة مريم

١ — فى د (٢ — ٥٦) « أشياع » وفى ابن الوردى (١ — ٣٠) و ف (١ — ٣٤) « إيساع » والمعروف فى كتب المسيحيين « أليصابات »
٢ — فى كد (لو ٣ — ٢٤) « منثات »
* الولد * اليسع * العمرانى
* اليسع

ابنه يحيى * قلت: فى التنزيل مريم ابنة عمران ، فليعلم أن معنى عمران بالعبرانية يواقيم وكان له اسمان اه

وعن الطبرى : وكانت حنة أم مريم لاتحبل ، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها حبيساً ببيت المقدس ، على خدمته،على عاداتهم فى نذر مثله،فلما حملت ووضعتها لفتها فى خرقتها وجاءت بها إلى المسجد فدفعتها إلى عباده ، وهى ابنة إمامهم وكهنونهم،فتنازعوا فى كفالتها ، وأراد زكريا أن يستبد بها لأن زوجه إيشاع خالتها، ونازعوه فى ذلك لمكان أبيها من إمامهم ، فاقترعوا فخرجت قرعة زكريا عليها ، فكفلها ووضعها فى مكان شريف من المسجد لا يدخله سواها، وهو المحراب فيما قيل. والظاهر أنها دفعتها اليهم بعد مدة إرضاعها ، فأقامت فى المسجد تعبد الله وتقوم بسدانة البيت فى نوبتها حتى كان يضرب بها المثل فى عبادتها . وظهرت عليها الأحوال الشريفة والكرامات كما قصه القرآن . وكانت خالتها إيشاع زوج زكريا أيضاً عاقراً .

وطلب زكريا من الله ولداً فبشره بيحيى نبياً كما طلب،لأنه قال« يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » وهم أنبياء ،فكان كذلك . وكان حاله فى نشوئه وصباه عجباً.وولد فى دولة هيردوس ملك بنى إسرائيل ، وكان يسكن القفار ويقتات الجراد ، ويلبس الصوف من وبر الإبل . وولاه اليهود الكهنونية ببيت المقدس ، ثم أكرمه الله بالنبوة ، كما قصه القرآن .

وكان لعهده على اليهود بالقدس أنطيفس بن هيردوس ، وكان يسمى هيردوس باسم أبيه ، وكان شريراً فاسقاً ، واغتصب امرأة أخيه وتزوجها ولها ولدان منه ، ولم يكن ذلك فى شرعهم مباحاً ، فنكر ذلك عليه العلماء والكهنونية ،وفيهم يحيى بن زكريا * المعروف بيوحنان ، ويعرفه النصارى بالمعمدان ، فقتل جميع من نكر عليه ذلك . وقتل فيهم يحيى صلوات الله عليه . مقتل يحيى

وقد ذكر فى قتله أسباب كثيرة وهذا أقربها إلى الصحة ، وقد اختلف الناس هل كان أبوه حياً عند قتله ؟ فقيل إنه لما قتل يحيى طلبه بنو إسرائيل ليقتلوه ففر

* ابنة يوحنا　　* وكانوا يسمونه يوحنان

أمامهم ودخل فى بطن شجرة كرامة له ، فدلهم عليه طرف ردائه خارجاً منها، فشقوها بالمنشار وشق زكريا فيها نصفين . وقيل بل مات زكريا قبل هذا والمشقوق فى الشجرة إنما هو شَعْيا النبي، وقد مرّ ذكره . وكذلك اختلف فى دفنه فقيل دفن ببيت المقدس وهو الصحيح .

مقتل زكريا

وقال أبو عبيد بسنده الى سعيد بن المسيَّبِ : إن بختنصر لما قدم دمشق وجد دم يحيي بن زكريا يغلى ، فقتل على دمه سبعين ألفا،فسكن دمه . ويشكل أن يحيي كان مع المسيح فى عصر واحد باتفاق ، وأن ذلك كان بعد بختنصر بأحقاب متطاولة. وفى هذا ما فيه . وفى الاسرائيليات من تأليف يعقوب بن يوسف النجار أن هيردوس قتل زكريا عند ماجاء المجوس للبحث عن إيشوع والانذار به ، وأنه طلب ابنه يوحنا ليقتله مع من قتل من صبيان بيت لحم، فهربت به أمه الى الشقراء ،واختفت، فطالب به أباه زكريا ، وهو كهنون فى الهيكل ، فقال:لا علم لى ،هو مع أمه ، فتهدّده وقتله . ثم قال بعد قتل زكريا بسنة (١) أبا يعقوب بن يوسف ، الى أن مات هيردوس. (وأما مريم سلام الله عليها) فكانت بالمسجد على حالها من العبادة الى أن أكرمها الله بالولاية . وبين الناس فى نبوّتها خلاف من أجل خطاب الملائكة لها . وعند أهل السنة أن النبوة مختصة بالرجل . قاله أبو الحسن الأشعرى وغيره . وأدلة الفريقين فى أماكنها . وبشرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها ، وأنها تلد ولداً من من غير أب يكون نبياً . فعجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قادر على مايشاء . فاستكانت وعلمت أنها محنة بما تلقاه من كلام الناس ، فاحتسبت . وفى كتاب يعقوب ابن يوسف النجار أن أمها حَنَّة توفيت لثمان سنين من عمر مريم . وكان من سنتهم أنها إن لم تقبل التزويج يفرض لها من أرزاق الهيكل [ما يقيمها فعرضوا عليها التزويج حين بلغت سنه وزكريا يومئذ كهنوت ـ خ] فأوحى الله اليه أن يجمع أولاد هارون * ويردّها اليهم . فمن ظهرت فى عصاه آية * تدفعها اليه تكون له شبه زوجة

اصطفاء مريم

---

١ — بياض بالأصل

* دواد * آفة .

ولا يقربها . وحضر الجمع يوسف النجار ، فخرج من عصاه حمامة بيضاء ، ووقفت على رأسه، فقال له زكريا: هذه عذراء الرب تكون لك شبه زوجة ولا تردّها، فاحتملها متكرّهاً بنت ثنتي عشرة سنة الى ناصرة ، فأقامت معه إلى أن خرجت يوما تستسقي من العين ، فعرض لها الملك أولا وكلمها . ثم عاودها وبشرها بولادة عيسى كما نص القرآن ، فحملت ، وذهبت إلى زكريا ببيت المقدس فوجدته على الموت وهو يجود بنفسه ، فرجعت إلى ناصرة . ورأى يوسف الحمل فلطم وجهه وخشى الفضيحة مع الكهنونية فيما شرطوا عليه، فأخبرته بقول الملك فلم يصدق . وعرض له الملك فى نومه وأخبره أن الذى بها من روح القدس، فاستيقظ وجاء الى مريم فسجد لها، وردّها الى بيتها . ويقال إن زكريا حضر لذلك ، وأقام فيهما سنة اللعان الذى أوصى به موسى فلم يصبهما شىء ، وبرأهما الله . ووقع فى إنجيل متّى أن يوسف خطب مريم ووجدها حاملا قبل أن يجتمعا ، فعزم على فراقها خوفا من الفضيحة ، فأمر فى نومه أن يقبلها ، وأخبره الملك بأن المولود من روح القدس . وكان يوسف صديقاً ، وولد على فراشه إيشوع. انتهى

حمل مريم

وقال الطبرى : كانت مريم ويوسف بن يعقوب بن عمها ، وفى رواية عنه أنه ابن خالها ، وكانوا سدنة فى بيت المقدس لا يخرجان منه إلا لحاجة الانسان ، وإذا نفد ماؤهما فيملآن من أقرب المياه . فمضت مريم يوماً وتخلف عنها يوسف، ودخلت المغارة التى كانت تعهد أنها للورد ، فتمثل لها جبريل بشراً ، فذهبت لتجزع ، فقال لها : « إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » فاستسقاها . وعن وهب بن مُنَبِّه : أنه نفخ فى جيب درعها فوصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت على عيسى، فكان معها ذو قرابة يسمى يوسف النجار ، وكان فى مسجد بجبل صهيون، وكان لخدمته عندهم فضل ، وكانا يجمرانه ويقمّانه ، وكانا صالحين مجتهدين فى العبادة. ولما رأى ما بها من الحمل استعظمه وعجب منه لما يعلم من صلاحها ، وأنها لم تغب قط عنه ، ثم سألها فردت الأمر إلى قدرة الله ، فسكت وقام بما ينوبها من الخدمة . فلما بان حملها أفضت بذلك الى خالتها إيشاع، وكانت أيضاً حبلى بيحيى. فقالت لها:

إني أرى مافى بطني يسجد لما فى بطنك . ثم أُمِرَتْ بالخروج من بلدها ، خشية أن يعيرها قومها ، ويقتلوا ما فى بطنها . فاحتملها يوسف الى مصر . وأخذها المخاض فى طريقها فوضعته، كما قصه القرآن . واحتملته على الحمار وأقامت تكتم أمرها من الناس وتتحفظ به حتى بلغ ثنتى عشرة سنة ، وظهرت عليه الكرامات ، وشاع خبره، فأمرت أن ترجع به الى إيلياء ، فرجعت ، وتتابعت عنه المعجزات ، وانثال الناس عليه يستشفون ويسألون عن الغيوب

ميلاد المسيح

قال الطبري : وفى خبر السُّدّي : أنها إنما خرجت من المسجد لحيض أصابها فكان نفخ الملك ، وأن إيشاع خالتها التي سألتها عن الحمل وناظرتها فيه فحجتها * بالقدرة ، وأن الوضع كان فى شرقى [المسجد وأن بنى إسرائيل عذلوها فتكلم فى المهد ببراءتها اه والصحيح أن مريم وضعته ببيت ـ خ] لحم قريبا من بيت المقدس ، وهو الذى بنى عليه بعض ملوك الروم البناء الهائل لهذا العهد [وقد روى النسائي ذلك والبيهقى ـ خ] . قال ابن العميد مؤرخ النصارى : ولد لثلاثة أشهر من ولادة يحيى بن زكريا ، ولاحدى وثلاثين من دولة هيردوس الأكبر ، ولثنتين وأربعين من ملك أوغسطس قيصر . وفى الانجيل أن يوسف تزوجها ومضى بها ليكتم أمرها فى بيت لحم، فوضعته * هنالك ووضعته فى مذود لأنها لم يكن لها موضع نُزُل ، وأن جماعة من المجوس بعثهم ملك الفرس يسألون أين ولد الملك العظيم، وجاءوا الى هيردوس يسألونه ، وقالوا جئنا لنسجد له ، وحدثوه بما أخبر الكهان وعلماء النجوم من شأن ظهوره ، وأنه يولد ببيت لحم [ونكر ذلك هيردوس ونقب عنه وأمر بقتل الصبيان ببيت لحم ـ خ] من ابن سنتين فما دونها . وسمع أوغسطس قيصر بخبر المجوس فكتب الى هيردوس يسأله، فكتب له بمصدوقية خبره وأنه قتل فيمن قتل من الصبيان . وكان يوسف النجار قد أمر أن يخرج به الى مصر ، فأقام هنالك ثنتى عشرة سنة ، وظهر عليه الكرامات ، وهلك هيردوس الذى كان يطلبه، وأمروا بالرجوع إلى إيليا فرجعوا، وظهر صدق شعيا النبي فى قوله عنه : من مصر دعوتك. وفى كتاب يعقوب بن يوسف النجار [وانجيل متى : أنها ولدت فى بيت لحم ، خرج

* لحصتها . » « فولدته .

بها يوسف النجار - خ] حذرا من أن يكتب كما أمر أوغسطس فى بعض أيامه (؟) فأجاءها المخاض وهى فى طريقها على حمار، فصاب ته إلى قرية بيت لحم وولدت فى غار، وسماه إيشوع، وأنه لما بلغ سنتين، وكان من أمر المجوس ماقدمناه، حذر هيردوس من شأنه، وأمر أن يقتل الصبيان ببيت لحم، فخرج يوسف به وبأمه إلى مصر. أمر بذلك فى نومه، وأقام بمصر سنتين حتى مات هيردوس، ثم أمر بالرجوع فرجع إلى ناصرة، وظهرت عليه الخوارق: من إحياء الموتى، وإبراء المعتوهين، وخلق الطير، وغير ذلك من خوارقه، حتى إذا بلغ ثماني سنين كف عن ذلك

ثم جاء يوحنان المعمدان من البرية، وهو يحي بن زكريا، ونادى بالتوبة والدعاء إلى الدين، وقد كان شعيا أخبر أنه يخرج أيام المسيح، وجاء المسيح من الناصرة ولقيه بالأردن، فعمده يوحنّان وهو ابن ثلاثين سنة

ثم خرج إلى البرية واجتهد فى العبادة والصلاة والرهبانية، واختار تلامذته الاثنى عشر: سمعان بطرس، وأخوه أندراوس، ويعقوب بن زيدى، وأخوه يوحنا، وفيليش، وبرتولوماوس، وتوما، ومتى العشار، ويعقوب بن حلفا، وتدّاوس، وسمعان القناني (١)، ويهوذا الإسخَرْيُوطي. وشرع فى إظهار المعجزات. ثم قبض هيردوس الصغير على يوحنان، وهو يحي بن زكريا لنكيره عليه فى زوجة أخيه، فقتله ودفن بنابلس

الحواريون

ثم شرع المسيح الشرائع من الصلاة والصوم وسائر القربات، وحلّل وحرّم، وأُنزل عليه الإنجيل، وظهرت على يديه الخوارق والعجائب، وشاع ذكره فى النواحى، واتبعه الكثير من بنى إسرائيل، وخافه رؤساء اليهود على دينهم، وتوامروا فى قتله، وجمع عيسى الحواريين فباتوا عنده ليلتين، يطعمهم ويبالغ فى خدمتهم بما استعظموه، قال: وإنما فعلته لتتأسوا به، وقال يعظهم: « ليكفرن بي بعضكم قبل أن يصيح الديك ثلاثا، ويبيعنى أحدكم بثمن بخس، وتأكلوا ثمنى » ثم افترقوا

١ — القانوى (مت ١٠ : ٤) و (مرقس ٣ — ١٨) و ب (١٠ — ٥٨)

وكان اليهود قد بعثوا العيون عليهم ، فأخذوا شمعون من الحواريين فتبرأ منهم، وتركوه . وجاء يهوذا الإسخريوطي وبايعهم على الدلالة عليه بثلاثين درهماً ، وأراهم مكانه الذي كان يبيت فيه ، وأصبحوا به إلى فلاطش البنطى قائد قيصر على اليهود، وحضر جماعة الكهنونية ، وقالوا : هذا يفسد ديننا ويحل نواميسنا ، ويدعى الملك فاقتله . وتوقف ، فصاحوا به وتوعدوه بإبلاغ الأمر إلى قيصر ، فأمر بقتله . وكان عيسى قد أبلغ الحواريين بأنه يشبه على اليهود فى شأنه ، فقتل ذلك الشبه وصلب ، وأقام سبعاً . وجاءت أمه تبكى عند الخشبة ، فجاءها عيسى ، وقال : مالك تبكى ؟ قالت: عليك ، قال : إن الله رفعنى ولم يصبنى إلا خير ، وهذا شىء شبه لهم ، وقولى للحواريين يلقونى بمكان كذا . فانطلقوا اليه ، وأمرهم بتبليغ رسالته فى النواحى كما عين لهم من قبل . وعند علماء النصاري أن الذى بعث من الحواريين إلى رومة بطرس ومعه بولس من الأتباع ، ولم يكن حوارياً . وإلى أرض السودان والحبشة (ويعبرون عن هذه الناحية بالأرض التى يأكل أهلها الناس) متى العشار . وأندراوس إلى أرض بابل . والمشرق توماس . وإلى أرض أفريقية فيلبش . وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحناس . والى أورشليم وهى بيت المقدس يوحنا (١) . وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس . والى أرض برقة والبربر شمعون القنانانى (٢)

صلب الشبه ورفع المسيح

قال ابن اسحق : ثم وثب اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويفتنونهم ، وسمع قيصر بذلك ، وكتب اليه فلاطش البنطى قائده بأخباره ومعجزاته ، وبغى اليهود عليه وعلى يوحنان قبله فأمرهم بالكف عن ذلك ، ويقال قتل بعضهم، وانطلق الحواريون الى الجهات التى بعثهم اليها عيسى فآمن به بعض وكذب بعض، ودخل يعقوب أخو يوحنان الى رومة فقتله غاليوس قيصر ، وحبس شمعون ، ثم خلص، وسار الى أنطاكية، ثم رجع الى رومة أيام قلوديش قيصر بعد غاليوس ، واتبعه كثير من الناس ، وآمن به بعض نساء القياصرة ، وأخبرها بخبر الصليب ،فدخلت

انتشار الحواريين للدعوة

١ — فى ط (٢ — ٢٤) « ويعقوبس الى أورشليم »
٢ — القانوي (مت : ١٠ : ٤) و (مرقس ٣ — ١٨) و (ب ١٠ — ٥٨)

الى القدس وأخرجته من تحت الزبل والقمامات بمكان الصلب ، وغشته بالحرير والذهب ، وجاءت به الى رومة .

كتابة الأناجيل

وأما بطرس كبير الحواريين وبولص اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه الى رومة ، فإنهما مكثا هنالك يقيمان دين النصرانيـة ، ثم كتب بطرس الإنجيل بالرومية ونسبه الى مرقص تلميذه ، وكتب متى إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ونقله من بعد ذلك يوحنان بن زبدى إلى رومة ، وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعثه الى بعض أكابر الروم ، وكتب يوحنا بن زبدى إنجيله برومة .

الكتب القانونية عند المسيحيين

ثم اجتمع الرسل الحواريون برومة ووضعوا القوانين الشرعية لدينهم وصيروها بيد إقلمنطس [1] تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها . فمن القديمة التوراة خمسة أسفار ، وكتاب يوشع بن نون ، وكتاب القضاة ، وكتاب راعوث ، وكتاب يهوذا ، وأسفار الملوك أربعة كتب ، وسفر بنيامين ، وسفر المقباسين ثلاثة كتب ، وكتاب عزرا الامام ، وكتاب أستير ، وكتاب قصة هامان ، وكتاب أيوب الصديق، ومزامير داود النبي ، وكتب ولده سليمان خمسة، ونبوات الأنبياء الصغار والكبار ستة عشر كتاباً ، وكتاب يشوع بن شارخ . ومن الحديثة كتب الانجيل الأربعة وكتب ، القتاليقون (؟) سبع رسائل ، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة ، والابركسيس ، وهو قصص الرسل. ويسمى أقليمد ثمانية كتب تشتمل على كلام الرسل وما أمروا به ونهوا عنه ، وكتاب النصارى الكبار الى أساقفتهم الذين يسمون البطارقة ببلاد معينة يعلمون بها دين النصرانية .

فكان برومة بطرس الرسول الذى بعثه عيسى صلوات الله عليه ، وكان ببيت المقدس يعقوب النجار ، وكان بالاسكندرية مرقص تلميذ بطرس ، وكان ببزنطية وهى قسطنطينية أندراوس الشيخ . وكان بأنطاكية برنابا

الوظائف الدينية عند النصارى

وكان صاحب هذا الدين عندهم والمقيم لمراسمه يسمونه البترك، وهو رئيس الملة وخليفة المسيح فيهم، ويبعث نوابه وخلفاءه إلى من بعد عنهم من أمم النصرانيـة

١ — « إكليمنس » (٤ س ١٥٣)

ويسمونه الأُسقُف أي نائب البطرك ، ويسمون القَرّا بالقسيس ، وصاحب الصلاة بالجاثليق، وقومة المسجد بالشمامشة والمنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضى بالمَطران .

ولم يكن بمصر لذلك العهد أساقفة ، إلى أن جاء المتريوس الحادى عشر من بطاركة اسكندرية ، وكان بطرك أساقفة بمصر . وكان الأساقفة يسمون البطرك أباً والقسوس يسمون الأسقف أباً ، فوقع الاشتراك فى اسم الأب ، فاخترع اسم البابا لبطرك الاسكندرية ليتميز عن الأسقف فى اصطلاح القسوس ، ومعناه أبو الآباء . فاشتهر هـذا الاسم ، ثم انتقل الى بطرك رومة ، لأنه صاحب كرسى بطرس كبير الحواريين ورسول المسيح ، وأقام على ذلك لهذا العهد يسمى البابا

قتل بطرس وبولس .

ثم جاء بعد قلوديُس قيصر نيرون قيصر ، فقتل بطرس كبير الحواريين وبولُص اللذين بعثهما عيسى صلوات الله عليه الى رومة ، وجعل مكان بطرس أرنوس برومة، وقتل مَرقص الانجيلى تلميذ بطرس ، وكان بالاسكندرية يدعو الى الدين سبع سنين ويبثه فى نواحى مصر وبرقة والمغرب ، وقتله نيرون ، وولى بعده حَنينيا وهو أول البطاركة عليها بعد الحواريين

وثار اليهود فى دولته على أُسقف بيت المقـدس وهو يعقوب النجار ، وهدموا البيعة ودفنوا الصليب الى أن أظهرته هيلانة أُم قُسطنطين كما نذكره بعد ، وجعـل نيرون مكان يعقوب النجار ابن عمـه شِمعون بن كيافا . ثم اختلف حال القياصرة من بعد ذلك فى الأخذ بهذا الدين وتركه كما يأتي فى أخبارهم. إلى أن جاء قسطنطين ابن قسطنطين بانى المدينة المشهورة ، وكانت فى مكانها قبله مدينـة صغيرة تسمى بيزنطية .

وكانت أمه هيلانة صالحة ، فأخـذت بدين المسيح [وحملت ابنها على ذلك ، ثم رحلت الى زيارة المسجد والوقوف على آثار المسيح ـ خ] لثنتين وعشرين سنة من ملك قسطنطين ابنها ، وجاءت الى مكان الصليب فوقفت عليه وبكت ، وترحمت، وسألت عن الخشبة التى صلب عليها بزعمهم ، فأخبرت بما فعل اليهود فيها ، وأنهم

دفنوها وجعلوا مكانها مطرحا للقُمامة والنجاسة والجيف والقاذورات ، فاستعظمت ذلك ، واستخرجت تلك الخشبة التي صاب عليها بزعمهم . وقيل من علامتها أن يمسها ذو العاهة فيعافى لوقته ، فطهرتها وطيبتها وغشتها بالذهب والحرير ، ورفعتها عندها للتبرك بها ، وأمرت ببناء كنيسة هائلة بمكان الخشبة تزعم أنها قبره ، وهى التى تسمى لهذا العهد قُمامة ، وخربت مسجد بنى إسرائيل ، وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التى كانت عليها القبة التى هى قبلة اليهود ، إلى أن أزال ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك

وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلثمائة وثمان وعشرون سنة ، وأقام هؤلاء النصرانية بطاركتهم وأساقفتهم على إقامة دين المسيح على ما وضعه الحواريون من القوانين والعقائد والأحكام

رأى المؤلف فى التثليث

ثم حدث بينهم اختلاف فى العقائد وسائر ماذهبوا اليه من الإيمان بالله وصفاته ، وحاش لله وللمسيح وللحواريين أن يذهبوا اليه ، وهو معتقدهم التثليث ، وإنما حملهم عليه ظواهر من كلام المسيح فى الانجيل لم يهتدوا إلى تأويلها ، ولا وقفوا على فهم معانيها ، مثل قول المسيح حين صلب بزعمهم : « أذْهَبُ إلى أبى وأبيكم » . وقال: « افعلوا كذا وكذا من البرّ لتكونوا أبناء أبيكم فى السماء وتكونوا تامّين ، كما أن أباكم الذى فى السماء تامّ » . وقال له فى الانجيل : « إنك أنت الابن الوحيد » وقال له شمعون الصفا : « إنك ابن الله حقاً » . فلما أثبتوا هذه الأبوة من ظاهر هذا اللفظ زعموا أن عيسى بن مريم من أب قديم ، وكان اتصاله بمريم بجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح وتدرعت به ، فكان مجموع الكلمة والجسد ابنا وهو ناسوت كلى قديم أزلىّ ، وولدت مريم إلها أزلياً ، والقتل والصلب وقع على الجسد (١) والكلمة ، ويعبرون عنهما بالناسوت واللاهوت . وأقاموا على هذه العقيدة . ووقع بينهم فيها اختلاف ، وظهرت مبتدعة من النصرانية اختلفت أقوالهم الكفرية ، كان

١ — هذا هو مذهب الملكانية من المسيحيين . أما النسطوريون فيقولون : إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته . انظر الشهرستانى (٢ — ٩٣)

من أشدهم ابن ديصان . ودافعهم هؤلاء الأساقفة والبطاركة عن معتقدهم الذين كانوا يزعمونه حقا

وظهر بولس السميساطى بطرك أنطاكية بعد حين أيام اقلوديس قيصر ، فقال بالوحدانية ، ونفى الكلمة والروح ، وتبعه جماعة على ذلك ، ثم مات فردّ الأساقفة مقالته وهجروها ، ولم يزالوا على ذلك إلى أيام قسطنطين بن قسطنطين فتنصر ودخل فى دينهم

آريوش وبدعته

وكان باسكندرية اسكندروس البطرك ، وكان لعهده أريوش من الأساقفة ، وكان يذهب الى حدوث الابن ، وانه إنما خلق الخلق بتفويض الأب إليه فى ذلك ، فمنعه اسكندروس الدخول الى الكنيسة ، وأعلم أن إيمانه فاسد ، وكتب بذلك إلى سائر الأساقفة والبطاركة فى النواحى . وفعل ذلك بأسقفين آخرين على مثل رأى أريوش ، فرفعوا أمرهم الى قسطنطين ، وأحضرهم جميعاً لتسع عشرة من دولته ، وتناظروا ، ولما قال أريوش : إن الابن حادث ، وإن الأب فوّض اليه بالخلق ، قال الاسكندروس : للخلق ، استحق الألوهية . فاستحسن قسطنطين قوله ، وأذن له أن يشيد بكفر أريوش

المجتمع النيقاوى

وطلب الاسكندروس باجتماع النصرانية لتحرير المعتقد الايمانى ، فجمعهم قسطنطين وكانوا ألفين وثلثمائة وأربعين أسقفاً ، وذلك فى مدينة نيقية ، فسمى المجتمع مجتمع نيقية

وكان رئيسهم الاسكندروس بطرك اسكندرية ، واسطارس بطرك انطاكية ، ومقاريوس أسقف بيت المقدس ، وبعث سلطوس بطرك رومة بقسيس حضر معهم لذلك نيابة عنه ، فتفاوضوا وتناظروا واتفقوا عنهم بعد الاختلاف الكثير على ثلثمائة وثمانية عشر أُسقفاً على رأى واحد ، فصار قسطنطين الى قولهم ، وأعطى سيفه وخاتمه ، وباركوا عليه ، ووضعوا له قوانين الدين والملك ، ونُفى أريوش ، وأُشيد بكفره

العقيدة التى اتفق عليها المجمع

وكتبوا العقيدة التى اتفق عليها أهل ذلك المجمع ، ونصها عندهم على ما نقله ابن العميد من مؤرخيهم ، والشهرستاني فى كتاب الملل والنحل ، وهو : نؤمن بالله

الواحد الأحد ، الأب مالك كل شيء ، وصانع ما يرى ومالا يرى ، وبالابن الوحيد إيشوع المسيح ابن الله ، ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع ، إله حق من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وكل شيء ، الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شيء ، الذى نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وولد من مريم البتول ، وصلب أيام فيلاطوس ، ودفن ، ثم قام فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس على يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى ، بالقضاء بين الأحياء والأموات ، ونؤمن بروح الواحد ، روح الحق الذى يخرج من أبيه ، وبعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين انتهى .

هذا هو اتفاق المجمع الأول الذى هو مجمع نيقية ، وفيه إشاره إلى حشر الأبدان ، ولا يتفق النصارى عليه ، وإنما يتفقون على حشر الأرواح ، ويسمون هذه العقيدة الأمانة ، ووضعوا معها قوانين الشرائع ويسمونها الهيابون .

وتوفى الأسكندروس البطرك بعد هذا المجمع بخمسة أشهر ، ولما عمرت هلانة أم قسطنطين الكنائس ، وأحب الملك أن يقدسها ويجمع الأساقفة لذلك ، وبعث عنه أوشانيوش بطرك القسطنطينية ، وحضر معهم أثناش بطرك الأسكندرية ، واجتمعوا فى صور . وكان أوشانيوش هو الذى أخرجه اسكندروس مع أريوش من كنيسة اسكندرية ، وكان بسبب ذلك مجمع نيقية وكتاب الأمانة ، ونفى أريوش حينئذ وأوشانيوش وصاحبهما ولعنوا . جاء أوشانيوش من بعد ذلك وأظهر البراءة من أريوش ومن مقالته ، فقبله قسطنطين ، وجعله بطركا بالقسطنطينية ، فلما اجتمعوا فى صور ، وكان فيهم أومانيوش على رأى أريوش ، فأشار اليه أوشانيوش بطرك القسطنطينية بأن يظاهر * أثناش بطرك الاسكندرية عن مقالة أريوش ، فقال أومانيوش إن أريوش لم يقل إن المسيح خلق العالم ، وإنما قال هو كلمة الله التى بها خلق كما وقع فى الأنجيل * فقال أثناس بطرك الاسكندرية : وهذا الكلام أيضا يقتضى أن

---

* يناظر
* فكان به ، وبغيره لم يكن شيء ، فالعالم به كان وبه كون فأجزاء العالم كون به ولم يكونه فهذه مقالة أريوش وإنما لعنته جماعة بتعسه ظلما وجهلا

الابن مخلوق ، وأنه خلق المخلوقات دون الأب ، لأنه إذا كان يخلق به فالأب لم يخلق شيئاً لأنه مستعين بغيره ، والفاعل بغيره محتاج إلى ذلك المتمم ، فهو فى ذاته الخالق * والله سبحانه منزه عن ذلك . وإن زعم أريوش أن الأب يريد الشيء والابن يكونه ، فقد جعل فعل الابن أتم . لأن الأب إنما له الارادة فقط وللابن الاختراع ، فهو أتم .

فلما ظهر بطلان مقالة أريوش وثبوا على أومانيوش المناظر عن مقالة أريوش وضربوه ضربا وجيعاً ، وخلصه ابن أخت الملك ، ثم قدسوا الكنائس ، وانفض الجمع ، وبلغ الخبر إلى قسطنطين ، فندم على بطركية أوشانيوش بالقسطنطينية ، وغضب عليه ، ومات لسنتين من رياسته . واجتمع بعد ذلك أصحاب أريوش إلى قسطنطين فحسنوا له تلك المقالة ، وأن جماعة نيقية ظلموا أريوش ، وبغوا عليه ، وصدر عن الحق فى قولهم : إن الأب مساو للابن فى الجوهرية . وكاد الملك أن يقبل منهم ، فكتب اليه كيراش أسقف بيت المقدس يحذره من مقالة آريوش ، فقبل ورجع . واختلف حال ملوك القياصرة بعد قسطنطين فى الأخذ بالأمانة أو بمقالة أريوش وظهور إحدى الطائفتين متى كان الملك على دينهم . وأفحش بعض ملوك القياصرة فى الحق على مخالفه ، فقال له بعض العلماء والحكماء : لا تنكر المخالفة ، فالحنفاء يختلفون أيضا وإنما هم الخلق يحمدون الله ، ويصفونه بالصفات الكثيرة ، والله يحب ذلك ، فسكن بعض الشيء

وكان بعضهم يعرض عن الطائفتين ويخلى كل أحد ودينه

مجمع القسطنطينية

ثم كان المجمع الثانى بقسطنطينية بعد مجمع نيقية بمائتين وخمسين سنة ، اجتمعوا للنظر فى مقالة مقدونيوس [وكانوا يسمونه عدو روح القدس لانه كان يقول روح القدس مخلوق ، ونظروا أيضا فى مقالة تاسليوس ــ خ] وسليوس بأن جسد المسيح بغير ناسوت ، وأن اللاهوت أغناه عنها ، مستدلين بما وقع فى الانجيل أن الكلمة صار لحما ، ولم يقل صار إنسانا ، وجعلا من الإله عظما ، وأعظم منه ، والأب أفضل

---

* ناقص

عظماً ، وقال : إن الأب غير محدود فى القوة وفى الجوهر ، فأبطلوا هذه المقالة ولعنوهما ، وأشادوا بكفرهما ، وزادوا فى الأمانة التى قررها جماعة نيقية مانصه :

« ونؤمن بروح القدس المنتقى من الأب » ولعنوا من يزيد بعد ذلك على كلمة الأمانة أو ينقص منها

ثم كان لهم بعد ذلك بأربعين سنة المجمع الثالث على نسطوريوس البطرك بالقسطنطينية لأنه كان يقول : « إن مريم لم تلد إلهاً وإنما ولدت إنساناً ، وإنما اتحد به فى المشيئة لا فى الذات ، وليس هو إلهاً حقيقة بل بالموهبة والكرامة » وكان يقول بجوهرين وأقنومين ، وهذا الرأى الذى أظهره نسطوريوس ، كان رأى ناودوس وديودوس الأسقفين ، وكان من مقالتهما : أن المولود من مريم هو المسيح ، والمولود من الأب هو الابن الأزلى ، والابن الأزلى حل فى المسيح المحدث ، فسمى المسيح ابن الله بالموهبة والكرامة ، وإنما الاتحاد بالمشيئة والارادة ، فأثبتوا لله ولدين : أحدهما بالجوهر ، والثانى بالنعمة

وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كرلس بطرك اسكندرية، فكتب إلى بطرك رومة وهو أكليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك انطاكية ، وإلى يونالوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا إلى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة ، فلم يرجع،ولا التفت إلى قولهم ، فاجتمعوا فى مدينة أفسيس مائتى أسقف للنظر فى مقالته . فقرروا إبطالها ولعنوه ، وأشادوا بكفره ، ووجد عليهم يوحنا بطرك أنطاكية ، حيث لم ينتظروا حضوره ، فخالفهم ووافق نسطوريوس ، ثم أصلح بينهم باوداسوس من بعد مدة، واتفقوا على نسطوريوس ، وكتب أساقفة المشارقة أمانتهم وبعثوا بها إلى كرلس ، فقبلها ، ونفى نسطوريوس إلى صعيد مصر ، فنزل إخميم ، ومات بها لسبع سنين من نزولها ، وظهرت مقالته فى نصارى المشرق وبفارس والعراق والجزيرة والموصل إلى الفرات . مجمع أفسيس

وكان بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة المجمع الرابع بمدينة خلقدونية ، اجتمع فيه ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفاً من فتيان قيصر للنظر فى مقالة ديسقورس بطرك مجمع خلقدونية

الأسكندرية ، لأنه كان يقول : المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين ، وكانت الأساقفة والبطاركة لذلك العهد يقولون بجوهرين وطبيعتين ومشيئتين وأُقنوم واحد ، فخالفهم ديسقورس فى بعض الاساقفة وكتب خطه بذلك ، ولعن من يخالفه ، فأراد مرقيان قيصر قتله ، فأشارت البطارقة بإحضاره وجمع الأساقفة لمناظرته ، فحضر بمجلس مرقيان قيصر ، وافتضح فى مخاطبتهم ومناظرتهم ، وخاطبته زوج الملك فأساء الردفلطمته بيدها ، وتناوله الحاضرون بالضرب ، وكتب مرقيان قيصر إلى أهل مملكته فى جميع النواحى بأن مجمع خلقدونية هو الحق ومن لا يقبله يقتل، ومرّ دِيسْقُورُس بالقدس وأرض فلسطين وهو مضروب منفى ، فاتبعوا رأيه ، وكذلك اتبعه أهل مصر والاسكندرية ، وولى وهو فى النفى أساقفة كثيرة كلهم يعقوبية .

قال ابن العميد : وإنما سمى أهل مذهب ديسقورس يعقوبية ، لأن اسمه كان فى الغلمانية يعقوب ، وكان يكتب إلى المؤمنين من المسكين المنفى يعقوب ، وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب فنسبوا اليه ، وقيل بل كان شاويرُش بطرك انطاكية على رأى ديسقورس ، وكان له تلميذ اسمه يعقوب ، فكان شاويرش يبعث يعقوب إلى المؤمنين ليثبتوا على أمانة ديسقورس ، فنسبوا اليه .

قال : ومن جمع خلقدونية افترقت الكنائس والاساقفة إلى يعقوبية وملكية ونَسْطُورية . فاليعقوبية أهل مذهب ديسقورس الذى قررناه آنفاً ، والملكية ، أهل الأمانة التى قررها جماعة نيقية ، وجماعة خلقدونية بعدهم ، وعليها جمهور النصرانية . والنسطورية ، أهل المجمع الثالث ، وأكثرهم بالمشرق . وبقى الملكية واليعقوبية يتعاقبون فى الرياسة على الكراسى بحسب من يريدهم من القياصرة ، وما يختارونه من المذهبين .

المجمع الخامس بقسطنطينية

ثم كان بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة أو ثلاث وستين سنة المجمع الخامس بقسطنطينية فى أيام يُوسِيطَانُوس قيصر ، للنظر فى مقالة أُقفسح * ، لانه نقل عنه أنه يقول بالتناسخ ، وينكر البعث، ونقل عن أساقفة أنقرا والمصيصة والرها أنهم يقولون

* أسقف ساح

إن جسد المسيح فنطاسيا (؟) فأحضر قيصر جمعهم بالقسطنطينية ليناظرهم البطرك بها ، فقال البطرك : إن كان جسد المسيح فنى فقوله وفعله كذلك . وقال الأسقف أقفسح* إنما قام المسيح من بين الأموات ليحقق البعث والقيامة ، فكيف تنكر ذلك أنت ؟ وجمع لهم مائة وعشرين أسقفاً ، فأشادوا بكفره ، وأوجبوا لعنتهم ولعنة من يقول بقولهم ، واستقرت فرق النصارى على هذه الثلاثة .

الخبر عن الفرس

الخبر عن الفرس

وذكر أيامهم ودولهم وتسمية ملوكهم

وكيف كان مصير أمرهم إلى تمامه وانقراضه

هذه الأمة من أقدم أمم العالم وأشدهم قوة وآثارا فى الأرض ، وكانت لهم فى العالم دولتان عظيمتان طويلتان ، الأولى منهما الكَيْنية ، ويظهر أن مبتدأها ومبتدأ دولة التبابعة وبنى إسرائيل واحد ، وأن الثلاثة متعاصرة . ودولة الكينية هذه هى التى غلب عليها الاسكندر والساسانية الكِسْرَوية ، ويظهر أنها معاصرة لدولة الروم بالشأم ، وهى التى غلب عليها المسلمون ، وأما ماقبل هاتين الدولتين فبعيد ، وأخباره متعارضة : ونحن ذاكرون مااشتهر من ذلك .

وأما أنسابهم فلا خلاف بين المحققين أنهم من ولد سام بن نوح ، وأن جدهم الأعلى الذين ينتمون اليه هوفوس ، والمشهور أنهم من ولد إيرَان بن أشوذ * بن سام بن نوح ، [وأن النبط إخوتهم من ولد ينبيط بن أشور . ففرس على هذا هو ابن إيران بن أشوز بن سام بن نوح ، وأرض إيران هى بلاد الفرس ، ولما عربت قيل لها إعراق . هذا عند المحققين . وقيل إنهم منسوبون إلى إيران بن إيران بن أشوذ * ، وقيل إلى غليم بن سام . ووقع فى التوراة ذكر ملك الأهواز كَدَرْلَعَوْمَر من بنى غليم . فهذا أصل هذا القول . والله أعلم . لأن الأهواز من ممالك بلاد فارس .

* سلح　* أشور　* أشور

وقيل إلى لاوَذ بن إرَم بن سام . وقيـل إلى أميم بن لاوذ . وقيل إلى يوسف بن يعقوب بن اسحق

ويقال إن الساسانية فقط من ولد اسحق ، وإنه يسمى عندهم وترك ، وإن جدّهم منوشهر بن منشحر بن فرهس بن وترك .

هكذا نقل المسعودي هذه الاسماء ، وهي كما تراه غير مضبوطة . وفيما قيـل إن الفرس كلهم من ولد إيران بن أفريدون الآتى ذكره ، وأن من قبله لا يسمون بالفرس . والله اعلم .

وكان أول ماملك إيران ، أرضَ فارس ، فتوارث أعقابه الملك * ثم صارت لهم خراسان ، ومملكة النبط والجرامقة ، ثم اتسعت مملكتهم إلى الاسكندرية غرباً ، وباب الأبواب شمالاً . وفى الكتب أن أرض إيران هى ارض الترك . وعند الاسرائيليين انهم من ولد طيراس بن يافث ، وإخوتهم بنومادى بن يافث ، وكانوا مملكة واحدة .

فأما علماء الفرس ونسابتهم فيأبون من هذا كله ، وينسبون الفرس إلى كيُومَرْث ، ولا يرفعون نسبه إلى مافوقه . ومعنى هذا الاسم عندهم ابن الطين ، وهو عندهم أول النسب . هذا رأيهم .

واما مواطن الفرس فكانت اول امرهم بأرض فارس ، وبهم سميت ، وبجاورهم إخوانهم فى نسب أشوذ* بن سام ، وهم فيما قال البيهقى : الكُرْد والدَّيلم والخزر والنبط والجرامقة ، ثم صارت لهم خراسان ومملكة النبط والجرامقة ، وسائر هؤلاء الأمم ، ثم اتسعت ممالكهم إلى الاسكندرية .

وفى هذا الجيل على ما اتفق عليه المؤرّخون أربع طبقات : الطبقة الاولى تسمى البيشدانية * ، والطبقة الثانية تسمى الكينية ، والطبقة الثالثة تسمى الإشْكانية ، والطبقة الرابعة تسمى الساسانية .

ومدة ملكهم فى العالم — على ما نقل ابن سعيد عن كتاب تاريخ الأمم لعليّ بن حمزة الأصبهاني ، وذلك من زمن كيومرث ابيهم إلى مهلك يزدجرد أيام عثمان — أربعة

* بها * اشور * الفيشدادية

آلاف سنة ومائتا سنة ونحو إحدى وثمانين سنة ، وكيومرت عندهم هو أول ملك نصب فى الأرض . ويزعمون فيما قال المسعودى أنه عاش ألف سنة ، وضبطه بكاف أول الاسم قبل الياء المثناة من أسفل . والسهيلى ضبطه بجيم مكان الكاف . والظاهر أن الحرف بين الجيم والكاف كما قدمناه .

البيشدادية

الطبقة الأولى من الفرس

وذكر ملوكهم وما صار * اليه فى الخليقة احوالهم (١)

الفرس كلهم متفقون على أن كيومرت هو آدم الذى هو اول الخليقة ، وكان له ابن اسمه مَنَشًا ، ولمنشا (٢) سيامك ، ولسيامك أفروال (٣) ومعه أربعة بنين وأربع بنات ، ومن أفروال كان نسل كيومرت ، والباقون انقرضوا فلا يعرف لهم عقب ،

---

١ — اعتنى المؤرخون الاسلاميون بتاريخ الفرس وذكر أخبارهم والاعلاء من شأنهم وخاصة الطبرى وابن الأثير وقالا : « إنما ذكرنا من أمورهم ما ذكرنا لأن ملكهم لم يزل منتظما على سياق متصل بأرض المشرق وجبالها الى أن قتل يزدجرد بن شهريار بمرو أيام عثمان والتاريخ على أسماء ملوكهم أسهل بيانا وأقرب الى التحقيق منه على أعمار غيرهم من ملوك الأمم إذ لا يعلم أمة من الأمم الذين ينتسبون الى آدم دامت لهم المملكة واتصل الملك لملوكهم ، يأخذه آخرهم عن أولهم وغابرهم عن سلفهم ، سواهم »

وفى الحقيقة : إن تاريخ الفرس وخاصة القديم منه مبنى على اخبار مينلوجية وأساطير لا يستطيع المؤرخ اثباتها وقد زحزحت المباحث الجديدة ما كان ثابتاً من أخبارهم الأولى وكشفت القناع عن بعض الحقائق النافعة ومع ذلك فأول ما يعلم من تاريخهم ما ذكر فى مكتوبات الأشوريين لأن شلمناصر الثانى لما غزا نواحيهم فى القرن التاسع ق م التقى بهم مع الماديين ولم يكونوا وقتئذ خرجوا عن الدائرة القبلية الى طور الأمة المتحدة الخاضعة لملك مركزى . ولعلهم لم يرتقوا حتى سقطت نينوى فى القرن السابع ق م ويقول رونسون : « إن أول من أقام مملكة إيرانية فى فارس هاخميس (اخيمنيس عند اليونان) وملك عليها قبل قورش نحو قرن ثم ملك بعده تيسپيس ثم قبيز الأول ثم كورش الأول ثم قمبيز الثانى ثم ولده كورش الكبير ولكنهم مع ذلك بقوا خاضعين للماديين تمام الخضوع كما يقول هيرودوس أما داريوس فيقول إن أسلافه كانوا مستقلين ولعل خضوعهم لم يكن تاما » راجع كتب التاريخ القديم

٢ — فى ط (١ - ٧) « مساة » وك (١ — ١٧) ميشا »

٣ — فى ط (١ - ٧٦) « افروان » وفى ب (٤ — ٦٦٦) « افروال وأفزوال » .

* صارت

قالوا : وولد لأفروال أُوشَهَنْك بيشذاد ، فاللفظة الأولى حرفها الأخير بين الكاف والقاف والجيم ، واللفظة الأخرى معناها بلغتهم النور ، قاله السهيلي

أوشهنك

وقال الطبري : أول حاكم بالعدل . وكان أفروال وارث ملك كيومرت ، وملك الأقاليم السبعة . قال الطبري عن ابن الكلبي إنه أوشهنك بن عَابَر بن شالخ . قال: والفرس تدعيه وتزعم أنه بعد آدم بمائتي سنة . قال : وإنما كان بعدنوح بمائتي سنة فصيَّره بعد آدم . وأنكره الطبري لأن شهرة أوشهنك تمنع من مثل هذا الغلط فيه . وزعم بعض الفرس أن أوشهنك بيشداد هو مَهْلايل ، وأن أباه افروال هو قِينن ، وأن سيامك هو أنوش ، وأن منشا هو شيث ، وأن كيومرت هو آدم

قال : وزعمت الفرس أن ملك أوشهنك كان أربعين سنة ، فلا يبعد أن يكون بعد آدم بمائتي سنة . وقال بعض علماء الفرس : إن كيومرت هو كومَر بن يافث بن نوح ، وإنه كان معمراً ، ونزل جبل دُنْباوَند من جبال طبرستان وملكها ، ثم ملك فارس ، وعظم أمره وأمر بنيه حتى ملكوا بابل ، وأن كيومرت هو الذى بنى المدن والحصون واتخذ الخيل وتسمي بآدم ، وحمل الناس على دعائه بذلك ، وأن الفرس من عقب ولده ماداى ، ولم يزل الملك فى عقبهم فى الكَيْنِيَة والكِسْرَوية إلى آخر أيامهم . وتقول الفرس : إن أوشهنك وهو مهلايل ملك الهند . قالوا : وملك بعد أوشهنك طَهْمورث[1] بن [يوهجان بن جبادادبن جادار بن أوشهنك . وقيل بل هو طهمورث بن — خ]أنوجهان بن أنكهد بن أسكهد بن أوشهنك[2] . وقيل مكان أسكهد فيسداد، وكلها أسماء أعجمية لاعهدة علينا فى نقلها لعجمتها وانقطاع الرواية فى الأصول التى نقلت منها

طهمورث

قال ابن الكابي : إن طهمورث أول ملوك بابل، وإنه ملك الأقاليم كلها . وكان محموداً فى ملكه . وفى أول سنة من ملكه ظهر بيُوراسب ، ودعا إلى ملة الصابئة

١ — طهمورث بالتاء عند المؤرخين العرب. ويقول الفرس طهمورس بالسين
٢ — فى ط (١ — ٨٦) « طهمورث بن يونجهان بن حنانداد بن حنادار بن أوشهنج »
قال : وقد اختلف فى نسب طهمورث فنسبه بعضهم النسبة التى ذكرت ، وقال بعض نسابة الفرس إنه طهمورث بن أيونكهان بن أنكها بن أسكهد الخ »

جمشيد

وقال علماء الفرس : ملك بعد طهمورث جَمْشيد ومعناه الشجاع [1] لجماعة* وهو جَمْ بن نوجهان أخو طهمورث ، وملك الأرض واستقام أمره ، ثم بطر النعمة وساءت أحواله، فخرج عليه قبل موته بسنة بيُوراسب [وهو الضحاك] وظفر به فنشره بمنشار وأكله ، وشرط أمعاءه . وقيل إنه ادعى الربوبية فخرج عليه أولا أخوه استوير [2] فاختفى . ثم خرج بيوراسب ، فانتزع الأمر من يده ، وملك سبعمائة سنة . وقال ابن الكلبي مثل ذلك

قال الطبرى : بيوراسب هو الأزْدَهاك ، والعرب تسميه الضحاك ، وهو بصاد بين السين والزاى ، وحاء قريب من الهاء ، وكاف قريبة من القاف ، وهو الذى عنى أبو نواس بقوله :

وكانَ منا الضحاك تعبدُهُ الـ　　جامِل والجنُّ فى مَحاربِها

لأن اليمن تدعيه ، قال : وتقول العجم : إن جمشيد زوَّجَ أخته من بعض أهل بيته وملك على اليمن ، فولدت الضحاك . وتقول أهل اليمن فى نسبه : الضحاك بن عَلوَان بن عبيدة بن عُوَيْج ، وإنه بعث على مصر أخاه سِنان بن علوان ملكا ، وهو فرعون إبراهيم. قاله ابن الكلبي . وأما الفرس فينسبونه هكذا : بيوراسب بن رتيكان ابن ويدوشتك بن فارس بن أفروال ، ومنهم من خالف فى هذا

ويزعمون أنه ملك الأقاليم كلها ، وكان ساحراً كافراً ، وقتل أباه . وكان أكثر إقامته ببابل . وقال هشام : ملك الضحاك ، وهو نمرود الخليل ، بعد جمشيد [ألف سنة ونزل السواد وملك الأرض وكان شديد العسف قتالا . وخرَّج السهيلي : هو بيوراسب بن اندارست من ولد طاخ أخى أو شهنك اه . وقام عليه رجل من أهل بابل ، ونصب لواء لقتاله ، وأهل اصبهان من عقب ذلك الخارج . قال: وبلغنا أن

١ — الذى فى ش (٤ — ٤١١) « ومعناه شعاع القمر » هكذا عند ب (٦ — ٥٢٣) وكذا فى ف (١ — ٤٠) قال : « وجم هو القمر وشيد هو الشعاع، وكذلك يسمون خورشيدا شعاع الشمس » وما عند المؤلف تصحيف

٢ — فى ط (١ — ٨٩) أسفيتور، وب (٦ — ٢٢٥) اسفينور. وفى هذه الأسماء تخالف كبير فى الكتب التى بين أيدينا فنعتمد ما عند المؤلف مع التنبيه

* لجماله

افريدون من عقب جمشيد ـ خ] وأنه التاسع منهم . وكان مولده بدنباوند ، وأن الضحاك سار الى الهند ، فخالفه افريدون إلى بلاده فملكها . ورجع الضحاك فظفر به افريدون وحبسه بجبال دنباوند، واتخذ يوم ظفر به عيداً . وعند الفرس أن الملك إنما كان للبيت الذى وطنه اوشهنك وجمشيد ، وان الضحاك هو بيوراسب ، خرج عليهم وبنى بابل ، وجعل النبط جنده ، وغلب أهل الارض بسحره ، وخرج عليه رجل من عامة اصبهان اسمه عالى * وبيده عصا علق فيها جراباً ، واتخذها راية ودعا الناس إلى حربه ، فأجابوا، وغلبه ، فلم يدع الملك،وأشار بتولية بنى جمشيد لأنه من عقب اوشهنك ملكهم الاول ابن افروال

أفريدون

فاستخرجوا افريدون من مكان اختفائه ، فملكوه ، واتبع الضحاك فقتله ، وقيل اسره بدُنباوند ، ويقال كان على عهد نوح ، واليه بعث، ولهذا يقال: إن افريدون هو نوح . والتحقيق عند نسابة الفرس على ما نقل هشام بن الكلبي أن أفريدون من ولد جمشيد بينهما تسعة آباء . وملك مائتى سنة . ورد غصوب الضحاك ومظالمه ، وكان له ثلاثة بنين : الأكبر شَرَم (١)، والثاني طوج، والثالث إيرج ، وانه قسم الأرض بينهم، فكانت الروم وناحية المغرب لشرم، والترك والصين والعراق لإيرج وآثره بالتاج والسرير ، ولما مات قتله أخواه واقتسما الأرض بينهما ثلثمائة سنة . ويزعمون أن أفريدون وآباءه العشرة يلقبون كلهم اشكيان

بنو أفريدون

وقيل فى قسمته الأرض بين ولده غير هذا ، وأن بابل كانت لإيرج الأصغر ، وكان يسمى خبارث(؟)ويقال : كان لإيرج ابنان ، ونداں واسطوية (٢)، وبنت اسمها خورك ، وقتل الابنان مع ابيهما بعد مهلك افريدون ، وان افريدون ملك خمسمائة سنة (٣) وأنه الذى محا آثار ثمود من النبط بالسواد ، وأنه أول من تسمى

---

١ — فى ط و م « سلم » أما طوج فهو هكذا عند المؤلف وقال ب « انه يقال طوج وطور « Tour » وايراج هو الذى صحف بعد الى ايران »

٢ — فى ط (١ ـ ١٠٩) «اسطونه» بالنون و «خوزك» بالزاى قال: «ويقال خوشك»

٣ — هكذا يذكر المؤرخون الشرقيون لهؤلاء الملوك أعماراً لا يمكن الايمان بها ولذلك فان بعض الباحثين يرى أن اسم أمثال هؤلاء الملوك وغيرهم من الفراعنة والأكاسرة أسماء لدول اشتهرت بهم وانتشرت بأسمائهم وهذا الظن مقبول من جهة العقل لو وجد ما يصدقه من الآثار أما الآن فلا زال لم يتحقق هل إفريدون شخصية حقيقية أوخيالية ؟ ولا على أى البلاد ملك ، وكذلك يقال في الدولة الفيشدادية كلها

* كالي

بكى، فقيل كى افريدون ومعناه التنزيه ، اى مخلص متصل بالروحانيات ، وقيل معناه البهاء لأنه يغشاه نور من يوم قتل الضحاك . وقيل معناه مدرك الثار

منوشهر

وكان مَنُوشِهْر الملك ابن مَنُشِخْر بن إيرج من نسل افريدون ، وكانت أمه من ولد إسحق عليه السلام، فكفلته حتى كبر ، فملك وثار بأبيه إيرج من عمه بعد حروب كانت له معهما ، ثم استبد ونزل بابل، وحمل الفرس على دين ابراهيم عليه السلام ،

افراسياب

وثار عليه فرَاسياب * ملك الترك فغلبه على بابل وملكها ، ثم اتبعه الى غياض طبرستان، فجهز العساكر لحصاره ، وسار الى العراق فملكه . ويقال فراسياب* هذا من عقب طوج بن افريدون ، ولحق ببلاد الترك عند ما قتل منوشهر جدطوج ، فنشأ عندهم وظهر من بلادهم ، فلهذا نسب اليهم

وقال الطبرى : لما هلك منوشهر بن منشحور (١) غلب * أفراسياب بن أشك بن رستم بن ترك على خيارات وهى مملكة بابل، وأفسد مملكة فارس وخربها

زومر

فثار عليه زومر (٢) بن طهمارست ، ويقال [طهماسفان ويقال ـ خ] راسب بن طهمارست، وينسب إلى منوشهر فى تسعة آباء . وأن منوشهر غضب على طهمارست، وكانوا يحاربون أفراسياب، فهمّ بقتله وشفع فيه أهل الدولة، فنفاه إلى بلاد الترك وتزوج منهم، ثم عاد الى أبيه وأعمل الحيلة فى إخراج امرأته من بلاد الترك، وكانت ابنة وامن(؟) ملك الترك فولدت له زومر ابنه. وقام بالملك بعد منوشهر، وطرد أفراسياب عن مملكة فارس، وقتل جده وامن فى حروبه مع الترك، ولحق افراسياب بتركستان، واتخذ يوم ذلك الغلب عيداً ومهرجانا ، وكان ثالث أعيادهم . وكان غلبه على بلاد فارس لثنتى عشرة سنة من وفاة منوشهر جده ، وكان زومر بن طهمارست هذا محموداً فى سيرته، وأصلح ما أفسد فراسياب من خيارت من مملكة بابل ، وهو الذى حفر نهر الزاب بالسواد وبنى على حافته المدينة العتيقة وسماها الزوابى (٣) وعمل فيها البساتين وحمل اليها بزور

١ ــ فى ط (١ ــ ٢٣٥) « ملشخورز »

٢ ــ فى ش (١ ــ ٤١٢) « زو بن طهماسب » وكذلك فى ط (١ ــ ٢٣٥) و ك (١ ــ ٧١) و ف (١ ــ ٤١) وابن الوردى (١ ــ ٣٥) ولا وثوق لنا بضبط هذه الأعلام فلذلك اعتمدنا ما عند المؤلف

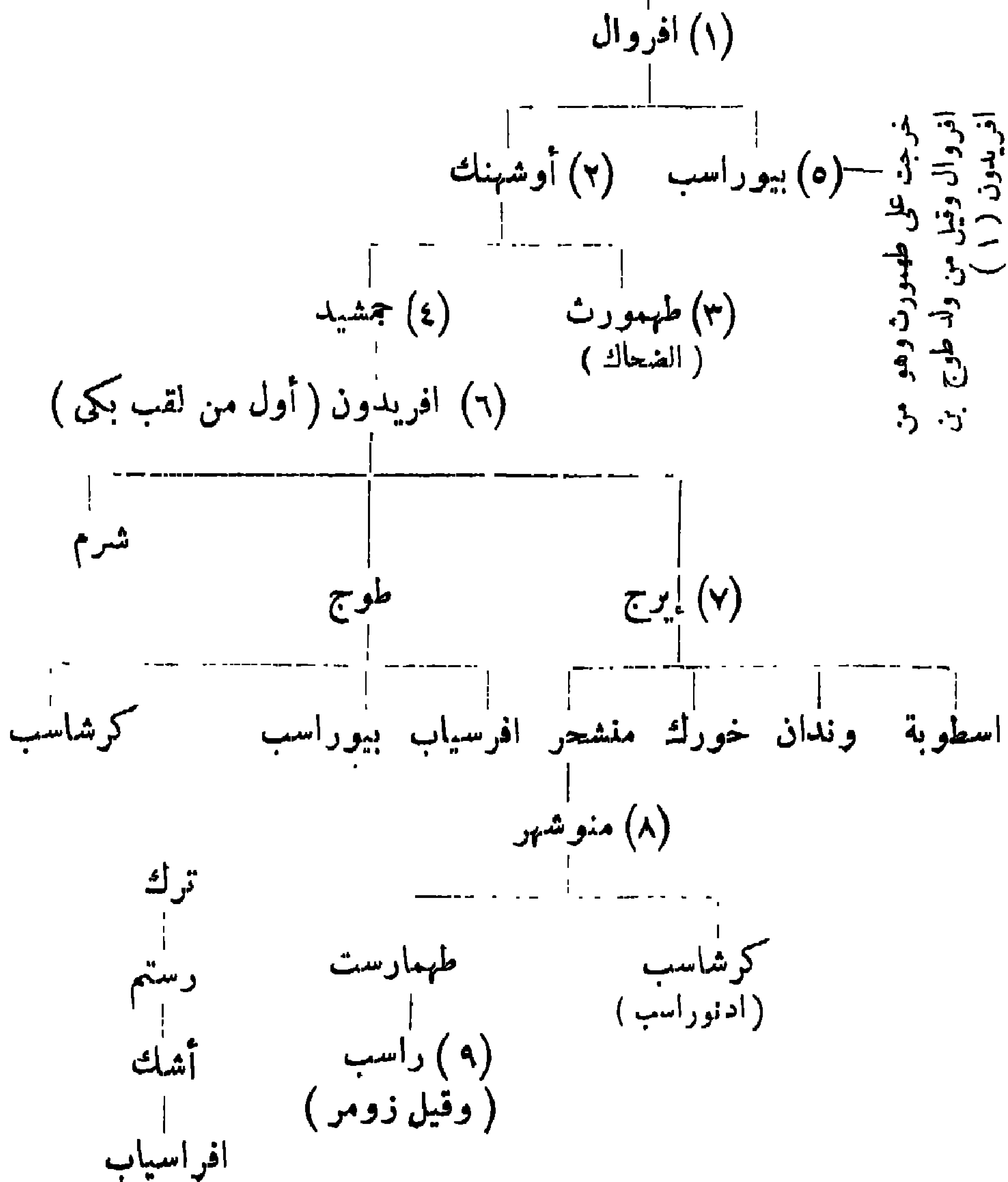
٣ ــ فى ج «الزواهى» بالهاء والتصحيح من ط ، وقد اخترناه لأن وضع المدينة كان على حافة الأنهر التى هى الزوابى جمع زاب

* فراسيات * على

الاشجار والرياحين ،وكان معه فى الملك كرشاسب من ولد طوج بن أفريدون ، وقيل من ولد منوشهر . ويقال إنما كان رديفاً له ، وكان عظيم الشأن فى أهل فارس ولم يملك ، وإنما كان الملك لزومر بن طهمارست ، وهلك لثلاث سنين من دولته .

وفى أيامه خرج بنو إسرائيل من التيه ، وفتح يوشع مدينة أريحاء ، ودال الملك من بعده للكينية حسبما يذكر. وأولهم كيقُباذ . ويقال إن مدة الملك لهذه الطبقة كانت ألفين وأربعمائة وسبعين سنة فيما قال البيهقى والاصبهانى ، ولم يذكر من ملوكهم إلا هؤلاء التسعة الذين ذكرهم الطبرى . والله وارث الأرض ومن عليها

عمود الطبقة الاولى من ملوك الفرس



(١) كذا وجد في ج، ولا يدري معناه

الطبقة الثانية من الفرس وهم الكينية

الطبقة الثانية الكينية

وذكر ملوكهم وأيامهم إلى حين انقراضهم

هذه الطبقة الثانية من الفرس وملوكهم يعرفون بالكينية ، لان اسم كل واحد منهممضاف إلى كى وقد تقدم معناه ، والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف اليه .

كيقباذ

وأولهم فيما قالوا : كيقباذ من عقب منوشهر ، بينهما أربعة آباء ، وكان متزوجاً بامرأة من رءوس الترك، ولدتله خمسة من البنين : كى وافيا (١) وكيكاوس ، وكى أرش ، وكى نية ، وكىفاسمن ، وهؤلاء هم الجبابرة وآباء الجبابرة

قال الطبرى : وقيل إن الملوك الكينية وأولادهم من نسله جرت بينه وبين الترك حروب، وكان مقيما بنهربلخ يمانعالترك منطروق بلاده .وملك مائةسنة.انتهى.

كيكاوس

وملك بعده ابنه كيكاوس بن كينية وطالت حروبه مع فراسياب ملك الترك ، وهلك فيها ابنه سياوخس ، ويقال كان على عهد داود ، وأن عمرا ذا * الأذعار من ملوك التبابعة ،غزاهفى بلاده فظفر به وحبسه عنده باليمن ، وسار وزيره رستم بن دستان بجنود فارس إلى غزو ذى الأذعار فقتله ، وتخلص كيكاوس إلى ملكه .

وقال الطبرى : كان كيكاوس عظيمالسلطان والحماية، وولدله ابنه سياوخس (٢) فدفعه إلىرستم الشديدبن دستان وكانأصبهبذ(٣) بسجستان ، حتى إذا كملت تربيته وفصاله رده إلى أبيه فرضيه، وكلفت به امرأة أبيه ، فسخطه وبعثه لحرب فراسياب ، وأمره بالمناهضة ، فراوده فراسيات فى الصلح وامتنع أبوه كيكاوس ، فخشى منه على نفسه ، ولحق بفراسيات فزوجه بنته أم كى خُسْرو ، ثم خشيه فراسياب على نفسه ،

١ — فى ط (١ — ٢٣٦) « كى افنه وكيكاوس وكى ارش وكى به أرش وكى ياشين كى بيه »

٢ — هكذا فى ط (١ — ٢٦٢) وك (١ — ٨٣) وفى ف (١—٤١) « سياوش » وكذا فى ابن الوردى (١ — ٣٦) وفى ش (٤ —٤١٣) « سياووس » قال ف «سياوش» بسين مهملة مكسورة وياء مشناة من تحتها وألف وواو مكسورة وشين منقوطة

٣ — فى ج « اصهر» والتصحيح من ط (١ — ٢٦٢)

* عمر راذي

وأشار على ابنته بقتله فقتلته ، وترك ابنة فراسياب حاملاً بخسرو، وولدته هنالك وأعمل كيكاوس الحيلة فى إخراجه فلحق به ، ويقال إنه لما بلغه قتل ابنه بعث عساكره مع قواده ، فوطئوا بلادالترك وأثخنوا فيها ، وقتلوا بنى فراسياب فيمن قتلوه .

قال الطبرى : وإنه غزا بلاد اليمن ولقيه ذُو الأذعار فى حمير وقحطان ، فظفر به وأسره ، وحبسه فى بئر وأطبق عليها ، وأن رستم سار من سجستان فحارب ذا الأذعار ، ثم اصطلحا على أن يسلم اليه كيكاوس ، فأخذه ورجع إلى بابل ، وكافأه كَيكاوُس على ذلك بالعتق من عبودية الملك ، ونصب لجلوسه سريراً من فضة بقوائم من ذهب ، وتوجه بالذهب ، وأقطعه سجستان وزابلستان (١) ، وهلك لمائة وخمسين من دولته، وملك بعده — فيما قال الطبرى والمسعودى والبيهقى وجماعة من المؤرخين — حافده كَىْ خُسْرُو ابن ابنه سياوخش

كي خسرو

وقال السهيلى : إنه ملك كى خسرو بعد ثلاثة آخرين بينه وبين كيكاوس، فأولهم بعده ابنه كى كينة ، ثم من بعده ابنه * أجوا بن كى كينة ، ثم عمه سياوخش بن كيكاوس ، ثم بعد الثلاثة كى خسرو بن سياوخش .اه.وهو غريب ، فإنهم متفقون على أن سياوخش مات فى حياة أبيه فى حروب الترك .

قال الطبرى: وقد كان كيكاوس بن كى كينية بن كيقباذ ملك كى خُسرو حين جاءه من بلاد الترك مع أمه واسفاقدين (٢) بنت فراسياب . قالوا : ولما ملك بعث العساكر مع أجو (٣) الى أصبهان ، لحرب فراسياب ملك الترك ، للطلب بثار أبيه سياوخش . فزحفوا الى الترك، وكانت بينهم حروب شديدة انهزمت فيها عساكر الفرس، فنهض كى خسرو بنفسه إلى بَلْخ وقدم عساكره وقواده فقصدوا بلادالترك من سائر النواحى وهزموا عساكرهم وقتلوا قوادهم . وكان قاتل سياوخش أبى (٤)

---

١ — فى ج « أباستان » والتصحيح من ط (١ ـ ٢٦٤) و ك (١ ـ ٨٤)

٢ — فى ك (١ ـ ٨٣) وط (١ ـ ٢٦٣) « وسفافريد » واعلم أن فى الكتب التى بين أيدينا مغايرة كبيرة فى هذه الأعلام الفرسية. فلذلك نعتمد ماعنــد المؤلف إلا فيما يتضح لنا ترجيحه .

٣ — فى ط (١ ـ ٢٦٥) « أجودراز »

٤ — فى ج « سياوس بن كيخسرو » وهو مناقض لما تقدم للمؤلف

* بكي

كى خسرو فيمن قتل منهم ، وبعث فراسياب ابنه سبيرةوكانساحراً إلى كيخسرو يستميله، فعمد إلى القواد بنعه وقتاله ، وقاتل فقتل ، وزحف فراسياب ، فلقيه كى خسرو، وكانت بينهما حروب شديدة انجلت عن هزيمة فراسياب والترك ، واتبعه كى خسرو ، فظفر به فى أذربيجان فذبحه ، وانصرف ظافراً

وكان فيمن حضر معه لهذا الفتح ملك فارس (١) وهو كى أوجن (٢) بن حينوش بن كيكاوس ابن كينية بن كيقباذ ، وهو عند الطبرى : أبو كيهراسف الذى ملك بعد كيخسرو على ما نذكر .

وملك على الترك بعد فراسياب جوَراسف (٣) ابن أخيه شراشف ، ثم إن كى خسرو ترهب وتزهد فى الملك ، واستخلف مكانه كَيْهراسف بن كى أوجن الذى قدمنا أنه أبوه عند الطبرى، وفُقِد كيخسرو،فقيل غاب فى البرية ، وقيل مات، وذلك لستين سنة من ملكه .

كيهراسف

ولما ملك كيهراسف اشتدت شوكة الترك ، فسكن لقتالهم مدينة بلخ على نهر جيحون، وأقام فى حروبهم عامة أيامه ، وكان أصبهبذ مابين الأهواز والروم من غربى دجلة فى أيامه بختنرسى المشتهر ببختنصر ، وأضاف اليه كهراسف ملكا عند ماسار اليه وأذن له * فى فتح ما يليه، وسار الى الشأم [معه ملوك الفرس ، وبختنصر ملك الموصل وله * سنجاريف *] ففتح بيت المقدس، وكان له الظهور على اليهود واستأصلهم كما مر فى أخبارهم

وبختنصر هذا الذى غزا العرب وقاتلهم واستباحهم،ويقال: إن ذلك كان فى أيام كى بهمن حافد كيساسب بن كيهراسف

قال هشام بن محمد : أوحى الله إلى أرميا * النبي صلى الله عليه وسلم وكان حافد

١ — فارس ولاية واسعة أول حدودها من جهة العراق. انظر خريطة الممالك الاسلامية والأطلس التاريخى (ص ١٩) و يا (٦ — ٣٢٤)
٢ — الذى فى ط (١ — ٢٦٩) « كى أوجى بن كينوش بن كيماشين بن كيبيه. وكان مملكا على فارس وهو أبو كيلهراسف الملك
٣ — فى ط (١ — ٢٦٩) « خردزاسف » وكذلك فى ب (٧ — ٣٦١)
* وأدركه * من ولد * سنحاريب * أبرخيا

زَرُبّابِل الذى رجع بنى إسرائيل إلى بيت المقدس بأمر بختنصر أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ، ويستبيحهم بالقتل،ويعلمهم بكفرهم بالرسل،واتخاذهم الآلهة

وفى كتاب الاسرائيليين : والوحى بذلك كان إلى يرميا بن خلقيا ، وقد مرّ ذكره ، وأنه أمر أن يستخرج معدّ بن عَدنان من بينهم ويكفله إلى انقضاء أمر الله فيهم.انتهى .

قال: فوثب بختنصر على من وجده ببلاده من العرب للميرة ، فحبسهم ، ونادى بالغزو ، وجاءت منهم طوائف مستسلمين ، فقبلهم وأنزلهم بالأنبار والحيرة . وقال غير هشام : إن بختنصر غزا* العرب بالجزيرة ، وما بين أيْلة والأُبلة وملأها عليهم خيلاً ورجالاً ، ولقيه بنو عدنان فهزمهم إلى حضوراء* واستلحمهم أجمعين ، وإن الله أوحى إلى أرميا ويوحنا أن يستخرجا معد بن عدنان الذى من ولده محمد «صلى الله عليه وسلم» أختم به النبيين آخر الزمان ، [فاحتملاه] وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وردفه يوحنا على البراق وجاء به إلى حران ، وربى بين أنبياء بنى إسرائيل ، ورجع بختنصر إلى بابل وأنزل السبي بالأنبار ، فقيل أنبار العرب ، وسميت بهم ، وخالطهم النبط بعد ذلك .

ولما هلك بختنصر خرج معد بن عدنان مع أنبياء بنى إسرائيل إلى الحج ، فحجوا، وبقى هنالك مع قومه ، وتزوج بمعانة بنت الحارث بن مُضاض الجرهمى ، فولدت له نزار بن معد .

وأما كيهراسف فكان يحارب الترك عامة أيامه ، وهلك فى حروبهم لمائة وعشرين سنة من ملكه ، وكان محمود السيرة ، وكانت الملوك شرقاً وغرباً يحملون اليه الإتاوة ويعظمونه . وقيل إنه ولى ابنه كَيْستاسب على الملك ، وانقطع للعبادة . ولما ملك ابنه كيستاسب شغل بقتال الترك عامة أيامه ، ودفع لحروبهم ابنه إسفنديار ، فعظم عناؤه فيهم .

كيستاسب

ظهور زرادشت

وظهر فى أيامه زَرَادُشْت الذى يزعم المجوس نبوّته ، وكان فيما زعم أهل

* استباح * حصوراء

الكتاب من أهل فلسطين خادماً لبعض تلامذة إرميا النبي خالصة عنده ، فخانه فى بعض أموره ، فدعا الله عليه فبرص ، ولحق بأذربيجان ، وشرع بها دين المجوسية ، وتوجه إلى كيستاسف، فعرض عليه دينه فأعجبه ، وحمل الناس على الدخول فيه ، وقتل من امتنع .

وعند علماء الفرس: أن زرادشت من نسل منوشهر الملك ، وأن نبيا من بنى إسرائيل بعث إلى كيستاسف وهو ببلخ ، فكان زرادشت وجاماسب العالم وهو من نسل منوشهر أيضاً : يكتبان بالفارسية مايقول ذلك النبي بالعبرانية ، وكان جاماسب يعرف اللسان العبرانى ويترجمه لزرادشت ، وأن ذلك كان لثلاثين سنة من دولة كيهراسف .

وقال علماء الفرس : إن زرادشت جاء بكتاب ادعاه وحياً كتب * فى اثنى عشر ألف مجلد نقشاً بالذهب ، وإن كيستاسف وضع ذلك فى هيكل بإصْطَخْر ووكل به الهرابذة ، ومنع من تعليمه العامة .

قال المسعودى : ويسمى ذلك الكتاب بِستاه ، وهو كتاب الزمزمة ، ويدور على ستين حرفاً من حروف المعجم ، وفسره زرادشت ، وسمى تفسيره زند ، ثم فسر التفسير ثانياً وسماه زندية . وهذه اللفظة هى التى عربتها العرب زنديق .

وأقسام هذا الكتاب عندهم ثلاثة : قسم فى أخبار الأمم الماضية ، وقسم فى حدثان المستقبل ، وقسم فى نواميسهم وشرائعهم ، مثل أن المشرق قبلة ، وأن الصلوات فى الطلوع والزوال والغروب ، وأنها ذات سجدات ودعوات ، وجددلهم زرادشت بيوت النيران التى كان منوشهر أخمدها ، ورتب لهم عيدين : النَّيْرُوز فى الاعتدال الربيعى ، والمهرجان فى الاعتدال الخريفى ، وأمثال ذلك من نواميسهم . ولما انقرض ملك الفرس الأول أحرق الأسكندر هذه الكتب . ولما جاء أردشير جمع الفرس على قراءة سورة منها تسمي أسبا .

قال المسعودى : وأخذ كيستاسف بدين المجوسية من زرادشت لخمس وثلاثين سنة من نبوته فيما زعموا ، ونصب كيستاسف مكانه جاماسب العالم من أهل

* بمده

أذربيجان ، وهو أول موبذان كان فى الفرس. انتهى .

قال الطبرى : وكان كيستاسب مهادناً خرزاسف بن كراسوسف ملك الترك. [وكان ملك الترك] قد اشترط عليه أن تكون دابة كيستاسف موقفة على بابه بمنزلة دواب الرؤساء عند أبواب الملوك ، فمنعه من ذلك زرادشت،وأشار عليه بفتنة الترك فبعث إلى الدابة والموكل بها وصرفهما اليه ، وبلغ الخبر إلى ملك الترك فبعث اليه بالعتاب والتهديد ، وأن يبعث بزرادشت اليه وإلا فيعزره ، وأغلظ كيستاسف فى الجواب وآذنه بالحرب ، وسار بعضهما إلى بعض واقتتلوا ، وقتل رزين بن (١) كيستاسف [فاشتد عليه حربه وخلى فى ذلك المعترك اسفندناز بن يستاسب ـ خ]، وانهزم الترك ، وأثخن فيهم الفرس ، وقتل ساحر الترك قيدوشق (٢) ورجع كيستاسف إلى بلخ . ثم سعى عنده بابنه أسفنديار فحبسه وقيده ، وسار إلى جبل بناحية كرمان وسجستان فانقطع به للعبادة ودراسة الدين ، وخلف أباه كيشتاسف فى بلخ شيخاً قد أبطله الكبر ، وترك خزائنه وأمواله فيها مع امرأته فغزاهم بها خرزاسف ، وقدم أخاه جورا (٣) فى جموع الترك ، وكان مرشحا للملك ، فأثخن واستباح واستولى على بلخ . وقتل كهراسف أباهم ، وغنموا الأموال وهدموا بيوت النيران ، وسبوا خمانى بنت كشتاسف وأختها ، وكان فيما غنموه العلم الأكبر الذى كانوا يسمونه درفش كابيان (٤) وهى راية الحدّاد الذى خرج على الضحاك وقتله ، وولى أفريدون فسموا بتلك الراية ، ورصعوها بالجواهر ووضعوها فى ذخائرهم يبسطونها فى الحروب العظام ، وكان لها ذكر فى دولتهم ، وغنمها المسلمون يوم القادسية .

ثم مضى خرزاسف ملك الترك فى جموعه إلى كستاسف وهو بجبال سجستان

١ ـــ فى ط (١ ـ ٢٩٣) « ومع يستاسف رزين أخوه »
٢ ـــ فى ط (١ ـ ٢٩٤) « بيدرفش »
٣ ـــ فى ط (١ ـ ٢٩٤) « جوهرمز »
٤ ـــ فى ج « زركش كابيان » وفى ط (١ ـ ٢٩٤) « درفش كابيان » وكذلك فى ك والدرفش من الألفاظ التى استعملتها العرب من لغة الفرس. وفى ب (١ ـ ٣٦١) « درفتش كابيان »

متعبداً فتحصن منه، وبعث إلى ابنه أسفنديار مع جاماسب العالم، وهو [بمحبسه] فقلده الملك ومحاربة الترك ، فسار اليهم وأبلى فى حروبهم ، فانهزموا وغنم مامعهم واسترد ما كانوا غنموه ، والراية درفش كابيان فى جملته ، ثم دخل أسفنديار إلى بلادهم فى أتباعهم ، وفتح مدينتهم عنوة، وقتل ملكهم خرزاسف وإخوته ، واستلحم مقاتلته ، واستباح أمواله ونساءه ، ودخل مدينة فراسيات ودوخ البلاد ، وانتهى إلى بلاد صُول والتُّبَّت ، وولى على كل ناحية من الترك ، وفرض الخراج ، وانصرف إلى بلخ، وقد غص به أبوه .

قال هشام بن محمد : فبعثه إلى رستم ملك سجستان الذى كان يستنفره كيقباذ جدهم من ملوك اليمن ، وأقطعه تلك الممالك جزاء لفعله ، فسار اليه أسفنديار وقاتله فقتله رستم ، وهلك كشتاسف بعده لمائة وعشرين سنة (؟) ويقال إنه الذى رد بنى إسرائيل إلى بلادهم ، وإن أمه كانت من بنى طالوت ، ويقال إن ذلك هو حافد بهمن ، وقيل إن الذى ردهم هو كورش من ملوك بابل أيام بهمن بأمره .

ثم ملك بعد كستاسف حافده كى بهمن ، ويقال أردشير بهمن . قال الطبرى : ويعرف بالطويل الباع لاستيلائه على الممالك والأقاليم . كى بهمن

قال هشام بن محمد : ولما ملك سار إلى سجستان طالباً بثأر أبيه ، فكانت بينهما حروب ، فقتل فيها رستم بن دستان وأبوه وإخوته وأبناؤه . ثم غزا الروم وفرض عليهم الإتاوة ، وكان من أعظم ملوك الفرس ، وبنى مدناً بالسواد ، وكانت أمه من نسل طالوت لأربعة آباء من لدنه ، وكانت له أم ولد من سبي بنى إسرائيل اسمها راسف (١) وهى أخت زُرُبافيل الذى ملكه على اليهود ببيت المقدس ، وجعل له رياسة الجالوت وملك الشأم ، وملك ثمانين سنة [ثم هلك]

فملكت [بنته] خماني ، ملكها الفرس [حباً لأبيها]* . ولحسن أدبها وكمال معرفتها وفروسيتها ، وكانت تلقب شهرازاد . وقيل إنما ملكوها لأنها لما

١ — فى ط (٢ — ٤) « راحب »

* وفاء لابنها

حملت من ابنها بدَارا الأكبر ، سألته أن يعقد له التاج فى بطنها ، ففعل ذلك . وكان ابنه ساسان مرشحاً للملك فغضب ولحق بجبال إصْطخْر ، زاهداً يتولى ماشيته بنفسه . فلما مات أبوه فقدوا ذكراً من أولاده ، فولوا خماني هذه ، وكانت مظفرة على الأعداء

ولما بلغ ابنها دارا الأشد سلّمت اليه الملك ، وسارت الى فارس ، واختطت مدينة دَارَابْجِرْد ، وردّدت الغزو الى بلاد الروم ، وأعطيت الظفر ، فكثر سبيهم عندها . وملكت ثلاثين سنة

دارا

ولما ملك ابنها دَارَا نزل بابل وضبط ملكه ، وغزا الملوك ، وأدّوا الخراج اليه . ويقال إنه الذى رتب دواب البُرُد . وكان معجباً بابنه دارا ، حتى سماه باسمه وولاه عهده . وهلك لاثنتى عشرة سنة

دارا بهمن

وملك بعده ابنه دَارَا بَهْمَنْ ، وكان له مربى اسمه بيدلى ، قتله أبوه دارا بسعاية وزيره أرشيش محمود ، وندم على قتله . فلما ولى دارا جعل على كتابته أخا بيدلى (١) ثم استوزره رعياً لمرباه [معه و] مع أخيه فاستفسده على أرشيش وزيره ووزير أبيه ، وعلى سائر أهل الدولة ، حتى استوحشوا منه

وقال هشام بن محمد : وملك دارا بن دارا أربع عشرة سنة ، فأساء السيرة ، وقتل الرؤساء ، وأهلك الرعية ، وغزاه الاسكندر بن فيلبّس ملك بنى يونان ، وقد كانوا يسمونه بذى القرنين ، فوثب عليه بعضهم وقتله ، ولحق بالاسكندر ، وتقرب بذلك اليه ، فقتله الاسكندر ، وقال : هذا جزاء من اجترأ على سلطانه . وتزوج بنته روشنك (٢) كما نذكره فى أخبار الاسكندر [الرومى الماكيدونى]

وقال الطبرى : قال بعض أهل العلم بأخبار الماضين : كان لدارا من الولد يوم قتل أربع بنين : أشك ، وبنو دارا ، وأردشير ، وبنت اسمها روشنك ، وهى التى تزوجها الاسكندر . قال : وملك أربع عشرة سنة

هذه هى الأخبار المشهورة للفرس الأولى الى مليكهم الأخير دارا .

---

١ — فى ط (٢ – ٦) « نيرى »

٢ — Roxan

قال هروشيوش مؤرخ الروم فى مبدأ دولة الفرس هؤلاء إنما كانت بعد دخول بنى إسرائيل إلى الشأم ، وعلى عهد عُثْنيئال بن قناز بن يوفّنا ، وهو ابن أخى كالَب بن يوفنا الذى دبر أمر بنى إسرائيل بعد يوشع . قال : وفى ذلك الزمان خرج أبو الفرس من أرض الروم أغريقيين من بلاد أسيا . واسمه بالعربيـة فارس ، وباليونانية بَرْشُور ، وبالفارسية برشيرش ، فنزل بأهل بيته فى ناحية وتغلب على أهل ذلك الموضع ، فنسبت اليه تلك الأمة واشتق اسمها من اسمه ، ومازال أمرهم ينمو الى دولة كيرش الذى يقال فيه إنه كسرى الأول ، فغلب على القُضاعيين . ثم زحف الى مدينة بابل وعرض له دونها النهر الثانى بعد الفرات ، وهو نهر دجلة ، فاحتفر له الجداول وقسمه فيها ، ثم زحف الى المدينـة وتغلب عليها وهدمها ، ثم حارب السريانيين ، فهلك فى حروبهم ببلاد شيت . وولى ابنه قَنْبيشاش بن كيرش فثأر منهم بأبيه ، وتخطاهم إلى أرض مصر فهدم أوثانهم ونقض شرائعهم ، فقتـله السحرة ، وذلك لألف سنة من ابتداء دولتهم . فولى أمر الفرس دارا ، وقتل السحرة بمصر وردّ عمالة السريانيين اليهم ، ورجع بنى إسرائيل الى الشام فى الثانيـة من أيامه ، وزحف الى بلاد الروم الغريقيين طالباً ثار كيرش ، فلم يزل فى حروبهم الى أن هلك لثلاث وعشرين من دولته

قبيـز

دارا

ووَلى بعده ابنه ارتشخـار (١) * [ودامت الحرب بينه وبين الغريقيين الى أن هلك لعشرين سنة من دولته ، ثار عليه أحد قواده فقتله . وولى بعده ابنه ارتشخار بن شخشار ـ خ] أربعين سنة . وولى بعده ابنه دارا أنوطو سبع عشرة سنة . ثم ولى بعده ابنه ارتشخار بعد أن نازعه كيرش بن نوطو ، فقتله ارتشخار واستولى على الأمر وسالم الروم الغريقيين ، ثم انتقضوا عليه واستعانوا بأهل مصر ، فطالت الحرب ، ثم اصطلحوا ووقعت الهـدنة ، وهلك ارتشخار ، وذلك على عهد الاسكندر ملك اليونانيين ، وهو خال الاسكندر الأعظم ، وهلك لعهده ، فولى أبو الاسكندر الأعظم ببلد مقدونية وهو ملك فيلبس . وهلك ارتشخار أُوقُش لست وعشرين

أرتشخار ومن بعـده

دارا أنوطو

١ — كذا هنا . وفى ب (٢ ــ ٧٨٠) « أرتحشستا أو أرتحشتا أو أرطخشيازس أو أرطحشاش أو أرطحشاشت » اسم لعدة من ملوك الفرس القدماء * شخشار

من دولته . وولى من بعده ابنه شخشار أربع سنين . وفى أيامه ولى على مقدونية اليونانيين سائر الروم الغريقيين الاسكندر بن فيلبس

شخشار دارا

ثم ولى بعده شخشار دارا، وعلى عهده تغلب الاسكندر على يهود بيت المقدس وعلى جميع الروم [أرض] الغريقيين. ثم حدثت الفتنة بينه وبين دارا وتزاحفوا مرّات انهزم [دارا] فى كلها . وكان لاسكندر الظهور عليه . ومضى إلى الشأم ومصر فملكهما، وبنى الاسكندرية ، وانصرف فلقيه دارا أنطوس فهزمه ، وغلب على ممالك الفرس واستولى على مدينتهم ، وخرج فى اتّباع دارا فوجده فى بعض طريقه جريحاً ولم يلبث أن هلك من تلك الجراحة، فأظهر الاسكندر الحزن عليه، وأمر بدفنه فى مقابر الملوك ، وذلك لألف سنة ونحو من ثمانين سنة منذ ابتداء دولتهم كما قلناه . انتهى كلام هروشيوش

وقال السهيلى : وجده مثخناً فى المعركة فوضع رأسه على فخذه وقال : ياسيد الناس لم أرد قتلك ولا رضيته ، فهل من حاجة ؟ فقال : تتزوّج ابنتى وتقتل قاتلى . ففعل الاسكندر ذلك . وانقرض أمر هذه الطبقة الثانية . والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى

عمود الطبقة الثانية من الفرس

«١» كى قباذ
|
كينيا
|
«٢» كيقاوس

أبناء كيقاوس: كى كينيا — كى أجوا — سياوخش — كينية

سياوخش
|
«٣» كى خسرو

كينية
|
كى نوس
|
كى كاوس
|
«٤» كهراسب
|
«٥» كيشتاسب
|
اسفنديار
|
«٦» بهمن
|
«٧» خمانى
|
«٨» دارا
|
دارا
|
أشك

ترتيب ابن العميد لملوك الفرس الكينية

قال ابن العميد : فى ترتيب هؤلاء الملوك الفرس من بعد كيرش الى دارا آخرهم يقال : إنه ملك من بعد كورش ابنه قمبوسيوس ثمانياً وقيل تسعاً وقيل ثنتين وعشرين سنة . وقيل إنه غزا مصر واستولى عليها وتسمى بختنصر الثانى ، وملك بعده أرتوش بن كستاسب خمساً وعشرين سنة ، وهو أول الملوك الأربعة الذين عناهم دانيال بقوله : ثلاثة ملوك يقومون بفارس والرابع يكثر ماله ويعظم على من قبله . فأولهم دارا بن كستاسف وهو مذكور فى المجسطى ، والثاني دارا بن الأمة ، والثالث الذى قتله الاسكندر ، وقيل بل هو الرابع الذى عناه دانيال ، لأنه جعل أول الأربعة داريوش وأخشورش الهادى وسركورش ورديفه فى الملك ، ثم عد الثلاثة بعده . وفى الثانية من مملكة داريوش بن كيشتاسف لبابل تمت سبعون سنة لخراب القدس . وفى الثالثة كمل بناء البيت

ثم ملك بعد داريوش بن كيشتاسف هذا أسمرديوس * المجوسى سنة واحدة ، وقيل ثلاث عشرة سنة ، وسمى مجوسياً لظهور زرادشت بدين المجوسية فى أيامه

ثم ملك أخشويرش عشرين سنة ، وكان وزيره هامان العمليقى ، وقد مرت قصته مع الجارية من بنى إسرائيل

ثم ملك من بعده ابنه أرطحشاشت بن أخشويرش ويلقب بطويل اليدين ، وكانت أمه من اليهود بنت أخت مردخاى ، وكانت حظية عند أبيه ، وعلى يدها تخلص اليهود من سعاية وزيره فيهم عنده . وكان العزير فى خدمته ، ولعشرين من دولته أمر بهدم أسوار القدس . ثم رغب اليه العزير فى تجديدها فبناها فى ثنتى عشرة سنة

قال ابن العميد عن المجسطى : إن العزير هذا ـ ويسمى عزراء ـ هو الرابع عشر من الكهنونة من لدن هرون عليه السلام ، وأنه كتب لبنى اسرائيل التوراة ، وكتب الأنبياء من حفظه بعد عودهم من الجلاء الأول ، لأن بختنصر كان أحرقها . وقيل إن الذى كتب لهم ذلك هو يشوع بن أبوصادوق

* سمرديوس

ثم ملك من بعده أرطحشاشت الثاني خمس سنين ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل ست عشرة ، وقيل شهرين . ورجح ابن العميد الخمس لموافقتها سياقة التواريخ ، وكان لعهده أبقراط وسقراط في مدينة أثينا ، ولعهده كتب النواميس الاثنى عشر

ثم ملك بعده صغريدوس ثلاث سنين ، وقيل سنة واحدة ، وقيل سبعة أشهر ، ولم يزل محتقاً لمرض * كان به الى أن هلك .

ثم ملك من بعده دارا بن الأمة ، ويلقب الناكيش . وقيل داريوش الياريوس ملك سبع عشرة سنة ، وكان على عهده من حكماء يونان: سقراط وفيثاغورس وأقليدس . وفي الخامسة من دولته انتقض أهل مصر على يونان ، واستبدوا بملكهم بعدمائة وأربع وعشرين سنة كانوا فيها في مملكتهم

ثم ملك من بعده أرطحشاشت ابن أخي كورش داريوش إحدى عشرة سنة ، وقيل ثنتين وعشرين سنة ، وقيل أربعين ، وقيل إحدى وعشرين ، وكان لعهده أيأقيم الكوهن الذي داهن * الكهنونية ستاً وأربعين سنة

ثم ملك من بعده أرطحشاشت وتسمى أخوش ، ويقال أوغش ، عشرين سنة ، وقيل خمسا وعشرين ، وقيل تسعا وعشرين ، وزحف إلى مصر فملكها ، وهرب منها فرعون ساناق إلى مقدونيـة واسمه قصطرا (؟) وبنى أرطحشاشت قصر الشمع وجعل فيه هيكلاً ، وهو الذي حاصره عمرو بن العاص وملكه .

ثم ملك من بعده ابنه أرشيش بن أرطحشاشت ، وقيل اسمه فارس ، أربع سنين ، وقيل إحدى عشرة ، وكان لعهده من حكماء يونان بقراط وأفلاطون ودمقراطس ، ولعهده قتل بقراط على القول بالتناسخ ، وقيل لم يكن مذهبه وإنما ألزمه به بعض تلامذته ، ثم شهدوا عليه ، وقتل مسموماً ، قتله القضاة بمدينة أثينا .

ثم ملك من بعده ابنه دارا بن أرشيش عشرين سنة ، وقيل ست عشرة .

وقال ابن العميد عن أبي الراهب: إنه دار الرابع الذي أشار اليه دانيال كما مر ، وكان هذا الملك عظيماً فيهم ، وتغلب على يونان ، وألزمهم الوظائف التي كانت عليهم

---

* مختفيا في بيته لمرض * رأس

لآبائه. وملكهم يومئذ الأسكندر بن فيلبس، وكان عمره ست عشرة سنة، فطمع فيه دارا وطلب الضريبة، فمنع وأجاب بالإغلاظ، وزحف اليه فقاتله وقتله، واستولى الأسكندر على ملك فارس وما وراءه. انتهى كلام ابن العميد.

الاشكانية ملوك الطوائف

الطبقة الثالثة من الفرس وهم الاشكانية (١)

ملوك الطوائف وذكر دولهم ومصائر أمورهم إلى نهايتها

هذه الطبقة من ملوك الفرس يعرفون بالأشكانية، وكافها أقرب الى الغين. من ولد أشكان بن دارا الأكبر، وقدم ذكره. وكانوا من أعظم ملوك الطوائف عند افتراق أمر الفرس. وذلك أن الإسكندر لما قتل دارا الأصغر استشار معلمه أرسطو فى أمر الفرس، فأشار عليه أن يفرق رياستهم فى أهل البيوت منهم فتفترق كلمتهم، ويخلص لك أمرهم. فولى الإسكندر عظماء النواحي من الفرس، والعرب، والنبط، والجرامقة، كلا على عمله، واستبد كلٌّ بناحية. واستقام له [بذلك] ملك فارس والمشرق. ولما مات الاسكندر قسم ملكه بين أربعة من أمرائه، فكان ملك مقدونية وأنطاكية وما اليها من ممالك الروم لفيلبس من قواده، وكانت الإسكندرية ومصر والمغرب لفيلادلفوس (٢) ولقبه بطليموس (٣)، وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لدمطوس، وكان السواد الى الجبال والأهواز وفارس لبلاقس سيلقس ولقبه أنطيخس، وأقام السواد فى مملكته أربعاً وخمسين سنة

---

١ — قال ب (١١ – ٣٤٥) «الأصح أن تدعى الآرشاكية أو الأرشاكونية كما يسميها الأرمن لأنها إنما سميت كذلك نسبة الى مؤسس دولتها أرشاك وهو الاسم الذى يعرفها به الافرنج (Arsaeides) والظاهر أن لفظ أرشاك ليس اسما وإنما هو لقب أطلق على هذه الطبقة كما أطلق لقب فرعون على ملوك مصر» انظره فقد كتب بحثا لطيفا فى هذا الموضوع وأحال على مصادر مفيدة

٢ — يقتضى كلام المؤلف أن فيلادلفوس هو الذى اقتسم مع قواد الاسكندر ميراثه ونال الاسكندرية ومصر فى حظه، مع أن ذلك وقع لبطليموس الأول وهو ابن لاغوس، وإنما ولى فيلادلفوس بعد وفاته حسبما يعلم من مراجعة سائر كتب التاريخ القديم

٣ — قد اتبعنا فى الضبط الاستعمال الموجود فى كتب العرب، وإلا فان الضبط اليونانى هكذا بطلميوس «Pollmeios»

أشك بن دارا

قال الطبري : وكان أشك (١) بن دارا الأكبر خلفه أبوه بالري فنشأ بها ، فلما كبر وهلك الإسكندر جمع العساكر وسار يريد أنطيخس ، والتقيا بالموصل ، فانهزم أنطيخس وقتل ، وغلب أشك على السواد من الموصل إلى الري وأصبهان ، وعظمه سائر ملوك الطوائف لشرفه ، ونسبه ، وأهدوا اليه من غير أن يكون له عليهم إيالة في عزل ولا تولية ، بل إنما كانوا يعظمونه ويبدءون باسمه في المخاطبات ، وهم مع ذلك متعادون تختلف حالاتهم بعضهم مع بعض في الحرب والمهادنة .

وقال بعضهم : كان رجلا من نسل الملوك من فارس مملكا على الجبال وأصبهان والسواد لفوات الاسكندر ، ثم غلب بعد ذلك ولده على السواد ، وجمعه الى الجبال وأصبهان ، وصار كالرئيس على سائر ملوك الطوائف ، ولذلك قصر ذكر هؤلاء الملوك دون غيرهم من الطوائف ، فمنهم من قال إنه أشك بن دارا كما قدمنا ، وهو قول الفرس . وقيل هو أشك [من] عقب اسفنداذ بن كستاسب بينهما ستة آباء ، وقيل هو أشك بن أشكان الأكبر من ولد كينية بن كيقباذ ، ويقال إنه كان أعظم الأشكانية ، وقهر ملوك الطوائف ، و[غلب] على إصطخر لاتصالها بأصبهان وتخطاها إلى ما يتاخمها من بلاد فارس فغلب عليه ، واتصل ملكه عشرين سنة .

جورا ابن أشك

وملك من بعده جورا بن أشك ، وغزا بني إسرائيل بسبب قتلهم يحيى بن زكريا

ترتيب المسعودي

وقال المسعودي : ملك أشك بن أشك بن دارا بن أشكان الأول منهم عشر سنين ، ثم سابور ابنه ستين سنة ، وغزا بني إسرائيل بالشأم ونهب أموالهم ، ولإحدى وأربعين من ملكه ظهر عيسى صلوات الله عليه بأرض فلسطين ، ثم ملك عمه جور عشر سنين ، ثم [ملك] نيرو (٢) بن شابور إحدى وعشرين سنة ، وفي أيامه

---

١ — لا خلاف بين المؤرخين في أن اشك هو أول ملوك الدولة الاشكانية ، ولكنهم اضطربوا في نسبته وقال البعض إنه ابن دارا وهو الذي في ط ووافقه المؤلف وقال اخرون إنه ابن اسفنديار ، وليس هنالك دليل على صحة إحدى النسبتين أو غيرها لأن دارا قتل سنة ٣٠٢ ق م وأشك لم يقم إلا سنة ٢٥٥ ق م

٢ — كذا هنا وفي ش (٤ — ٤١٣) و ف (١ — ٤٤) « بيرن » وفي ط (٢ — ١١) « بيزن » بالزاي

غلب طيطش قيصر على بيت المقدس وخربها وأجلى منها اليهود كما مر ، ثم جور (١) ابن نيرو تسع عشرة سنة، ثم جرسى (٢) أخوه أربعين سنة ، ثم هرمز أخوهما أربعين سنة، ثم ابنه أردوان بن هرمز خمس عشرة سنة ، ثم ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة ، ثم ابنه بلاش بن كسرى أربعا وعشرين سنة .

وفى أيامه غزت الروم السواد مع قيصر، يطلبون بثار أنطيخس ملك إنطاكية من اليونان الذى قتله أشك جدّ يلاوش هذا ، فجمع يلاوش العساكر واستنفر ملوك الطوائف بفارس والعراق ، فوجهوا له بالمدد ، واجتمع له أربعمائة ألف من المقاتلة وولى عليهم صاحب الحضر ، وكان من ملوك الطوائف على السواد، فزحف الى قيصر فقتله واستباح عسكر الروم ، وقتل ، وفتح انطاكية ، وانتهى الى الخليج . وولى من بعد يلاش ابنه أردوان بن يلاوش ثلاث عشرة سنة ، ثم خرج عليه أردشير ابن بابك بن ساسان ، وجمع ملك فارس من أيدى ملوك الطوائف ، وجدد الدولة الساسانية ، كما نذكر فى أخبارهم

قال الطبرى : وفى أيام الطوائف كانت ولادة عيسى صلوات الله عليه ، لخمس وستين من غلب الاسكندر على بابل ، ولإحدى وخمسين من ملك الأشكانية . والنصارى يزعمون أن ذلك كان لمضى ثلثمائة وثلاث وستين من غلب الاسكندر على بابل

قال الطبرى : وجميع سنى الطوائف من لدن الاسكندر الى ظهور أردشير بن بابك واستوائه على الأمر ، مائتان وستون سنة . وبعضهم يقول : خمسمائة وثلاث وعشرون سنة

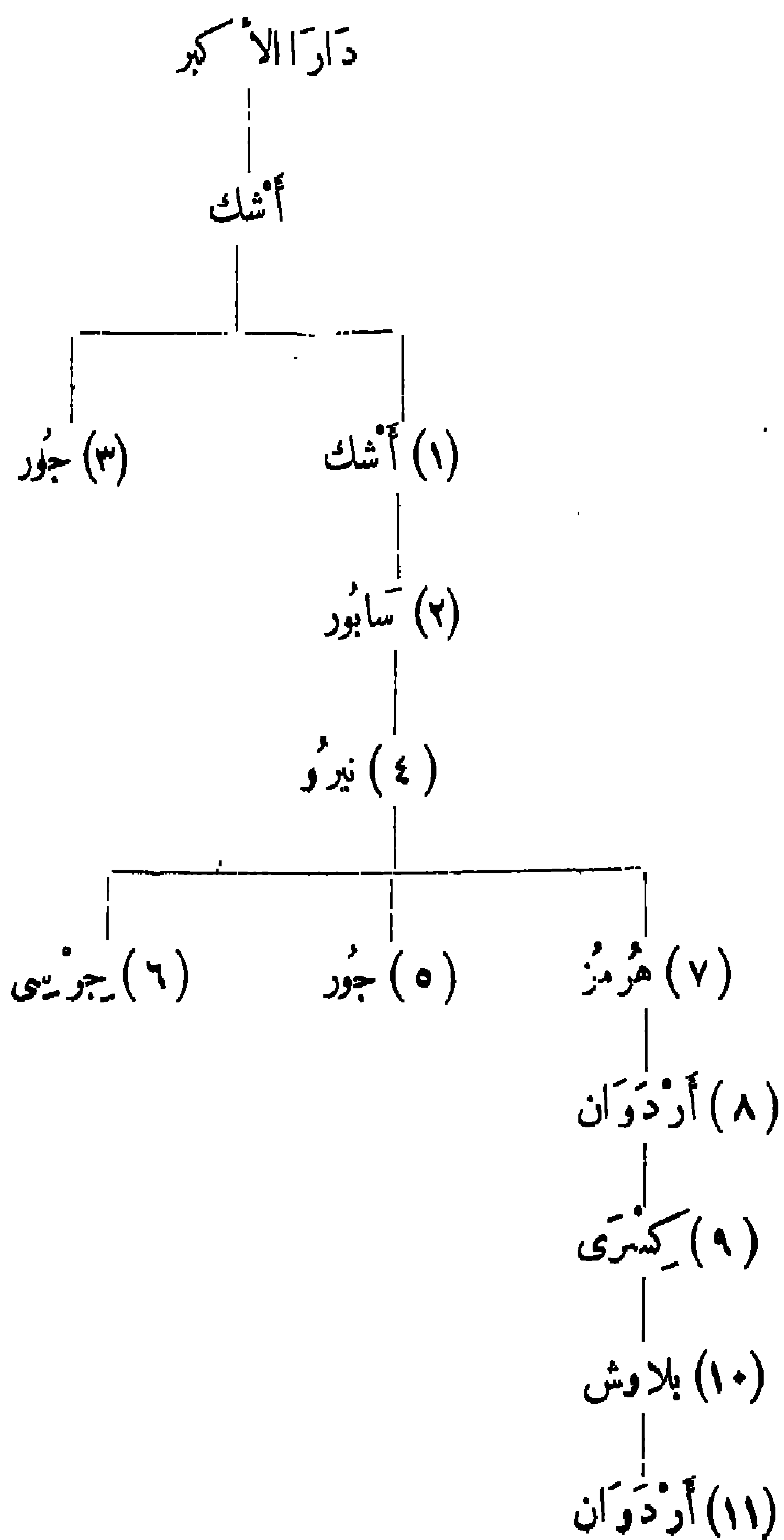
وقال بعضهم : ملك فى هذه المدة منهم تسعون ملكا على تسعين طائفة ، كلهم يعظم ملوك المدائن منهم ، وهم الأشكانيون

---

١ — فى م (٢ — ٩٣) « جوذر بن نيرو » وفى ط (٢ — ١١) وف (١ — ٤٦) « جوذرز » وكذلك فى ش (٤ — ١١٤) وك (١ — ١٠٢)
(تنبيه : — الطبعات التى بين أيدينا من المسعودى ليست بذاك)

٢ — فى ط (٢ — ١١) وف (١ — ٤٦) وش (٤ — ١١٤) نيرسي وفى د (١ — ١٠٢) نيرس

عمود الطبقة الثالثة من الفرس



الطبقة الرابعة الساسانيـة

الطبقة الرابعة من الفرس وهم الساسانية

والخبر عن ملوكهم الأكاسرة إلى حين الفتح الاسلامى

هذه الدولة كانت من أعظم الدول فى الخليقة وأشدها قوة ، وهى إحدى الدولتين اللتين صبحهما الأسلام فى العالم ، وهما دولة فارس والروم ، وكان مبدأ أمرها من توثب أردشير بن بابك شاه ملك مَرْو ، وهو ساسان الأصغر ابن بابك ابن ساسان بن بابك بن هرمز بن ساسان الأكبر بن كى بهمن ، وقد تقدم لنا ذكر كى بهمن وأن ابنه ساسان غضب لما تُوّج للملك أخوه دارا وهو فى بطن أمه ، ولحق بجبال إصطخر فأقام هنالك، وتناسل ولده بها إلى أن كان ساسان الأصغر منهم ، فكان قيماً على بيت النار لإصطخر ، وكان شجاعا ، وكانت امرأته من بيت ملك فولدت له ابنه بابك ، وولد لبابك أزدشير — وضبطه الدار قطنى بالراء المهملة — أزدشير

وكان على إصطخر يومئذ ملك من ملوك الطوائف ، وله عامل على دارا بجرد ، خصى اسمه تِيرَى ، فلما أتت لأزدشير سبع سنين جاء به جده ساسان إلى ملك إصطخر وسأله أن يضمه إلى عامل دارا بجرد الخصى يكفله إلى أن تتم تربيته .

ولما هلك عامل دارا بجرد فأقام بأمره فيها أردشير هذا وملكها ، وكان له علم من المنجمين بأن الملك سيصير اليه، فوثب على كثير من ملوك الطوائف بأرض فارس فاستولى عليهم ، وكتب إلى أبيه بذلك ، ثم وثب على عامل إصطخر فغلبه على ما بيده وملك إصطخر وكثيراً من أعمال فارس . وكان زعيم الطوائف يومئذ أردَوان ملك الأشكانيين ، فكتب اليه يسأله أن يتوجه فعنفه ، وكتب اليه بالشخوص فامتنع ، وخرج بالعساكر من إصطخر ، وقدم مُوبَذان رورين فتوجه ، ثم فتح كرمان وبها ملك من ملوك الطوائف ، وولى عليها ابنه ، وكتب اليه أردوان يتهدده، وأمر ملك الأهواز من الطوائف أن يسير اليه ، فرجع مغلوباً ، ثم سار أزدشير إلى أصبهان فقتل ملكها واستولى عليها ، ثم إلى الأهواز فقتل ملكها كذلك ، ثم زحف اليه أردوان عميد الطوائف فهزمه أردشير وقتله ، وملك همذان والجبل وأذربيجان

وأرمينية والموصل ، ثم السوذان * ، وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقى المدائن ، ثم رجع إلى إصطخر ففتح سجستان ، ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان ، وبعث بكثير من الرءوس الى بيت النيران ، ثم رجع الى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوشان ومُكرّان ، ثم ملك البحرين بعد أن حاصرها مدة ، وألقى ملكها بنفسه فى البحر

ثم رجع فنزل المدائن وتوج ابنه سابور ، ولم يزل مظفراً ، وقهر الملوك حوله ، وأثخن فى الأرض ، ومدّن المدن ، واستكثر العمارة ، وهلك لأربع عشرة سنة من ملكه باصطخر بعد مقتل أردوان سابور

وقال هشام بن الكلبي : قام أردشير فى أهل فارس يريد الملك الذى كان لآبائه قبل الطوائف ، وأن يجمعه لملك واحد ، وكان أردوان ملكاً على الاردوانيين وهم أنباط السواد ، وكان بابا ملكاً على الارمانيين ، وهم أنباط الشأم ، وبينهما حرب وفتنة ، فاجتمعا على قتال أردشير ، لحارباه مناوبة ، ثم بعث أردشير إلى بابا فى الصلح على أن يدعه فى الملك ويخلى بابا بينه وبين أردوان ، فلم يلبث أن قتل أردوان واستولى على السواد ، فأعطاه بابا الطاعة بالشأم ، ودانت له سائر الملوك وقهرهم ، ثم رجع إلى أمر العرب ، وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة ، وكانوا ثلاث فرق : أردشير والعرب

الأولى: تَنُوخ ، ومنهم قضاعة الذين كنا قدمنا أنهم كانوا اقتتلوا مع ملك من التبابعة ، وأتى بهم ، وكانوا يسكنون بيوت الشعَر والوبر ، ويضعونها غربى الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها ، فأنفوا من الاقامة فى مملكة أردشير وخرجوا إلى البرية .

والثانية : العِبَاد الذين كانوا يسكنون الحيرة وأوطنوها .

والثالثة : الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم ، ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ، ولا من العباد الذين دانوا بهم ، فملك هؤلاء الأحلاف

* السواد

الحيرة والأنبار ، وكان منهم عمرو بن عدى وقومه ، فعمروا الحيرة والأنبار ونزلوا وخربوها ، وكانتا من بناء العرب أيام بختنصر ، ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما أصاروها نزلا لملكهم ، إلى أن صبحهم الاسلام . واختط العرب الاسلاميون مدينة الكوفة ، فدثرت الحيرة . وكان أردشير لما ملك أسرف فى قتل الأشكانية حتى أفناهم لوصية جده [ساسان الأصغر اليهم بذلك . فلم يستبق من نسل أشك بن أشكان ذكراً ولا أنثى إمضاء بعهد جده — خ] ، ووجد بقصر أردوان جارية استملحها ، ودفعت عن نفسها القتل بإنكار نسبها فيهم ، فقالت: أنا مولاة و بكر ، فواقعها وحملت وظنت الأمن على نفسها ، فأخبرته بنسبها ، فتنكر ودفعها إلى بعض مرازبة [فارس] ليقتلها ، فاستبقاهــا ذلك المرزبان إلى ان شكا اليه أردشــير قلة الولد والخوف على ملكه من الانقطاع ، وندم على ماسلف منه من قتل الجارية وإتلاف الحمل ، فأخبره بحياتها ، وأنهــا ولدت ولداً ذكراً ، وأنه سماه سابور ، وأنه قد كملت خصاله وآدابه ، فاستحضره أردشير واختبره ، فرضيه وعقد له التاج .

ثم هلك اردشير فملك سابور من بعــده ، فأفاض العطــاء فى أهل الدولة ، وتخير العمال ، ثم شخص الى خراسان فمهد أمورها ، ثم رجع فشخص إلى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبى ، وافتتح من الشأم مدناً ، وحاصر أنطاكية وبها من الملوك أريانوس فاقتحمها عليه وأسره ، وحمله إلى جُندَيْسابور فحبسه بها إلى أن فاداه على أموال عظيمة ويقال على بناء شَاذِرْوَان تُسْتر ، ويقال جدع أنفه وأطلقه ، ويقال بل قتله ، وكان بجبال تَكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر وبها ملك من الجرامقة يقال له الساطرون من ملوك الطوائف ، وهو الذى يقول فيه الشاعر (١)

وأَرَى المْوْتَ قَدْ تَدَلَّى مِن الحَضْـ ـرِ عَلَى رَبِّ أَهلِهِ السَّاطِرُون
وَلَقَدْ كانَ آمِناً للدَّواهى ذا ثَرَاء وَجَوْهَرٍ مَكْنُونِ

١ — هو أبو دواد الايادى. قال ابن هشام (١ — ٥٦) : وهذا البيت فى قصيدة له . ويقال انها لخلف الأحمر . ويقال إنها لحماد الراوية . ورواية البيت الثانى فى ض (١ — ٥٦) كما يأتى :

صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون

وقال المسعودى : وهو الساطرون بن استطرون من ملوك السريانيين

قال الطبرى : وتسميه العرب الضَّيْزَن .

وقال هشام بن محمد الكلبي : من قُضاعة وهو الضَّيْزن بن معاوية بن العَبَيْد (١) ابن الأجرم بن عمرو بن النخع بن سَليح (٢) . وسنذكر نسب سليح فى قضاعة . وكان بأرض الجزيرة ، وكان معه من قبائل قضاعة مالا يحصى ، وكان ملكه قد بلغ الشأم ، فخلف سابور فى غزاته الى خراسان ، وعاث فى أرض السواد ، فشخص اليه سابور عند انقضاء غزاته ، حتى أناخ على حصنه ، وحاصره أربع سنين . قال الأعشى :

أَلم تَرَ لِلْحَضْرِ إِذ أَهلُهُ بنُعْمى وهلْ خالدٌ مِن نِعَم
أَقامَ بهِ شاهَبُور الجنود حَولَين يَضرِبُ فيه القِمَمْ (٣)

ثم إن ابنة ساطرون واسمها النَّضيرة خرجت إلى رَبَضِ المدينة ، وكانت من أجمل النساء ، وسابور كان جميلا ، فأشرفت عليه فشغفت به وشغف بها ، وداخلته فى أمر الحصن ودلته على عورته ، فدخله عنوة ، وقتل الضَّيْزَن ، وأباد قضاعة الذين كانوا معه وأكثرهم بنو حُلوان ، فانقرضوا ، وخرَّب حصن الحضر . وقال عدِيّ ابن زيد فى رثائه :

وأخو الحَضْرِ إذْ بَناهُ وإذ دِجْـ ـلَةُ تُجْبَى إليه والخابُورُ
شادَهُ مَرْمَراً وجَلَّلهُ كلْـ ـساً فللطَّيرِ فى ذُراه وُكُورُ
لم يَهَبْهُ رِيحُ* المَنُون فَبا دَ المُلْكُ عنه فبابُهُ مَهجُورُ

١ — فى ج « معاوية بن العبيد بن الأجذم » وقد نقل فى ض (١ — ٥٦) عن ابن الكلبي انه ابن معاوية بن عبيد بن أجرم بالراء . قال : « ووجدته بخط أبى بحر عبيد بضم العين » والذى يفهم من قول الجدى بن الدمهاث :

ألم يحزنك والأنباء تنمى بما لاقت سراة بنى العبيد .

انه بفتح العين وكسر الباء

٢ — فى ج « سليم » فى الموضعين ، والصواب سليح

٣ — كذا هنا القمم جمع قمة . وفى ابن هشام والسهيلى (١ — ٥٩) القدم . قال فى ض : « جمع قدوم وهى الفاس » وقد رأينا أن القمم أولى

* ريب .

ثم أعرس بالنضيرة بعين التمر ، وباتت ليلها تتضوّر في فراشها ، وكان من الحرير محشواً بالقز والقسي ، فاذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها ، فقال: ويحك ، ما كان أبوك يغذيك ؟ قالت : الزبد والمخ والشهد وصفو الخمر . فقال : وأبيك لأنا أحدث عهداً وأبعد وداً من أبيك الذى غذّاك بمثل هذا . وأمر رجلا ركب فرساً جموحا وعصب غدائرها بذنبه ، ولم يزل يركضه حتى تقطعت أوصالها

وعند ابن اسحق : أن الذى فتح حصن الحضر وخرّبه وقتل الساطرون هو سابور ذو الأكتاف

وقال السهيلي : لا يصح ، لأن الساطرون من ملوك الطوائف ، والذى أزال ملكهم هو أزدشير وابنه سابور ، وسابور ذو الأكتاف بعدهم بكثير ، وهو التاسع من ملوك أزدشير

قال السهيلي : وأول من ملك الحيرة من ملوك الساسانية ، سابور بن أزدشير . والحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب ، ولم يكن لأحد قبله من آل ساسان ، حتى استقام العرب على طاعته . وولى عليهم عمرو بن عدى جد آل المنذر بعده وأنزله الحيرة ، فجبي خراجهم وإتاوتهم ، واستعبدهم لسلطانه ، وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه ، وما كانوا يرومونه بسواد العراق من نواحي مملكته . وولى بعده ابنه امرأ القيس بن عمرو بن عدى ، وصار ذلك ملكا لآل المنذر بالحيرة توارثوه حسبما نذكره بعد . وهلك سابور لثلاثين سنة من ملكه

هرمز

وولى بعده ابنه هُرمُز ، ويعرف بالبطل ، فملك سنة واحدة

بهرام

وولى بعده ابنه بهرام بن هرمز ، وكان عامله على مَذْحِج [العرب] من ربيعة ومضر ، وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز : امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ، وهو أوّل من تنصّر من ملوك الحيرة، وطال أمد ملكه

قال هشام بن الكلبي : ملك مائة وأربع عشرة سنة من لدن أيام سابور .اه

وكان بهرام بن هُرْمُز حليما وقوراً ، وأحسن السيرة واقتدى بآبائه . وكان ماني الثنوي الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة قد ظهر في أيام جده سابور فاتبعه قليلا

ثم رجع الى المجوسية دين آبائه . ولما ولى بهرام بن هرمز ، جمع الناس لامتحانه فأشادوا بكفره وقتله، وقالوا : زنديق

حقيقة الزنديق وأصل الكلمة

قال المسعودى : « ومعناه أن من عدل عن ظاهر الى تأويله ينسبونه الى تفسير كتاب زَرادُشت الذى قدمنا أن اسمه زِندة ، فيقولون : زِندية ، فعربته العرب فقالوا : زنديق ، ودخل فيه كل من خالف الظاهر الى الباطن المنكر . ثم اختص فى عرف الشرع بمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر »

ثم هلك بهرام بن هرمز لثلاث سنين وثلاثة أشهر من دولته

بهرام بن بهرام

وولى ابنه بهرام ثمانى عشرة سنة ، عكف أولها على اللذات ، وامتدت أيدى بطانته إلى الرعايا بالجور والظلم ، فخربت الضياع والقرى ، حتى نبهه المو بذان لذلك بمثل ضربه له ، وذلك أنه سامره فى ليلة فمرَّ راجعاً من الصيد ، فسمعا بومين يتحدثان فى خراب ، فقال بهرام : ليت شعرى هل [أُعْطِيَ] أحد فهمَ لغات الطير ؟ فقال له المو بذان : نعم ، إنا نعرف ذلك أيها الملك ، وإنهما يتحاوران فى عقد نكاح ، وإن الأُنثى اشترطت عليه إقطاع عشرين ضيعة من الخراب ، فقبل الذكر ، وقال : إذا دامت أيام بهرام أقطعتك ألفاً . فتفطَّن بهرام لذلك وأفاق من غفلته ، وأشرف على أحوال ملكه مباشراً بنفسه ، وقابضاً أيدى البطانة عن الرعية ، وحسنت أيامه الى أن هلك .

بهرام الثالث

وولى بعده بهرام بن بهرام بن بهرام (ثلاثة أسماء متشابهة) وتلقب شاه . وكان ملكاً على سجستان ، وهلك لأربع سنين من دولته

قرسين بن بهرام

وملك بعده أخوه قرسين (١) بن بهرام تسع سنين أخرى ، وكان عادلا ، حسن السيرة

هرمز بن قرسين

وملك بعده ابنه هرمز بن قرسين ، فوجل منه الناس لفظاظته . ثم أبدل من خُلُقه الشر بالخير ، وسار فيهم بالعدل والرفق والعمارة . وهلك لسبع سنين من ولايته . وكان هؤلاء كلهم ينزلون جُنْدَيْسابور من خراسان . ولما هلك ولم يترك ولداً شق

---

١ — فى ط (٢ — ٧١) و ش (٤ — ١٤٠٤) و ف (١ — ٤٨) وغيرهم « نرسى »

سابور ذو الأكتاف

ذلك على أهل مملكته لميلهم اليه ، ووجدوا ببعض نسائه حملا ، فتوّجوه ، وانتظروا تمامه . وقيل بل كان هرمز أبوه أوصى بالملك لذلك الحمل ، فقام أهل الدولة بتدبير الملك ينتظرون تمام الولد ، وشاع فى أطراف المملكة أنهم يتلومون صبياً فى المهد، فطمع فيهم الترك والروم ، وكانت بلاد العرب أدنى الى بلادهم ، وهم أحوج الى تناول الحبوب من البلاد لحاجتهم اليها بما هم فيه من الشظف وسوء العيش ، فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووحاظة ، فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم ، وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعايش ، وأكثروا الفساد . ومكثوا فى ذلك حيناً ، ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعوهم، لصغر الملك، حتى إذا كبر وعرضوا عليه الأمور ، فأحسن فيها الفصل . وبلغ ست عشرة سنة من عمره ، ثم أطاق حمل السلاح ، فنهض حينئذ للاستبداد بملكه ، وكان أول شيء ابتدأ به : شأن العرب ، فجهز اليهم العساكر ، وعهد اليهم أن لا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم ، ثم شخص بنفسه اليهم وغزاهم وهم غارون ببلاد فارس ، فقتلهم أبرح القتل ، وهربوا أمامه ، وأجاز البحر فى طلبهم إلى الخط ، وتعدى إلى بلاد البحرين قتلاً وتخريباً . ثم غزا بعدها رءوس العرب من تميم وبكر وعبد القيس ، فأثخن فيهم ، وأباد عبد القيس ولحق فلهم بالرمال ، ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب ، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشأم ، فقتل من وجد هنالك من العرب وطمّ مياههم ، وأسكن من رجع اليه من بنى تغلب دارين من البحرين والخط، ومن بنى تميم هجر ، ومن بكر بن وائل كرمان ، ويدعون بكر إياد ، ومن بنى حنظلة الأهواز . وبنى مدينة الأنبار والكرخ والشوس . وفيما حكاه المسعودى وغيره: أن إياداً كانت تشتو بالجزيرة وتصيف بالعراق وتشن الغارة ، وكانت تسمى طماً لانطباقها على البلاد ، وسابور يومئذ صغير ، حتى إذا بلغ القيام على ملكه شرع فى غزوهم ، ورئيسهم يومئذ الحرث بن الأغر الإيادى ، وكتب اليهم بالنذر بذلك رجل من إياد كان بين ظهرانى الفرس ، فلم يقبلوا حتى واقعتهم العساكر ، فاستلحمهم، وخرجوا إلى أرض الجزيرة والموصل إجلاء ، ولم يعاودوا العراق. ولما كان الفتح ،

طلبهم المسلمون بالجزية مع تغْلِب وغيرهم ، فأنفوا ولحقوا بأرض الروم .

وقال السهيلي عند ذكر سابور بن هرمز : إنه كان يخلع أكتاف العرب، ولذلك لقبه العرب: ذو الأكتاف. وإنه أخذ عمرو بن تميم بأرضهم بالبحرين وله يومئذ ثلثمائة سنة . وإنه قال إنما أقتلكم معاشر العرب لأنكم تزعمون أن لكم دولة . فقال له عمرو بن تميم : ليس هذا من الحزم أيها الملك ، فان يكن حقا فليس قتلك إياهم بدافعه ، وتكون قد اتخذت يداً عندهم ينتفع بها ولدك وأعقاب قومك. فيقال: إنه استبقاه ورحم كبره

ثم غزا سابور بلاد الروم وتوغل فيها ونازل حصونهم ، وكان ملوك الروم على عصره: قسطنطين، وهو أول من تنصر من ملوكهم . وهلك قسطنطين ، وملك بعده أليانوس من أهل بيته ، وانحرف عن دين النصرانية ، وقتل الأساقفة ، وهدم البيع وجمع الروم، وانحدر لقتال سابور، واجتمعت العرب معهم لثارهم عند سابور بمن قتل منهم ، وسار قائد أليانوس واسمه يوسانوس فى مائة وسبعين ألفا من المقاتلة حتى دخل أرض فارس ، وبلغ خبره وكثرة جموعه الى سابور ، فأحجم عن اللقاء وأجفل ، وصحبه العرب ففضوا جموعه ، وهرب فى فل من عسكره ، واحتوى اليانوس على خزائنه وأمواله ، واستولى على مدينة طيسفون من مدائن ملكه ، ثم استنفر أهل النواحى ، واجتمعت اليه فارس ، وارتجع مدينة طيسفون، وأقاما متظاهرين، وهلك أليانوس بسهم أصابه ، فبقى الروم فوضى ، وفزعوا إلى يوسانوس القائد أن يملكوه ، فشرط عليهم الرجوع إلى دين النصرانية ، كما كان قسطنطين ، فقبلوا وبعث اليه سابور فى القدوم عليه ، فسار اليه فى ثمانين من أشراف الروم ، وتلقاه سابور وعانقه وبالغ فى إكرامه ، وعقد معه الصلح على أن يعطى الروم قيمة ما أفسدوه من بلاد فارس ، وأعطوا بدلا عن ذلك نصيبين ، فرضى بها أهل فارس ، وكانت مما أخذه الروم من أيديهم ، فملكها سابور وشرّد عنها أهلها خوفاً من سطوته ، فنقل اليها من أهل إصطخر وأصبهان وغيرهما . وانصرف يوسانوس بالروم ، وهلك عن قرب . ورجع سابور إلى بلاده

وفيما نقله بعض الأخباريين : أن سابور دخل بلاد الروم متنكرا ، وعثر عليه

فأخذ وحبس فى جلد ثور ، وزحف ملك الروم بعساكره الى جُندَيسابور فحاصرها، وأن سابور هرب من حبسه ، ودخل جُندَيسابور المدينة ، ثم خرج الى الروم فهزمهم ، وأسر ملكهم قيصر ، وأخذه بعمارة ما خرّب من بلاده ، ونقل التراب والغروس اليها ، ثم قطع أنفه* وبعث به على حمار الى قومه . وهى قصة واهية تشهد العادة بكذبها

ثم هلك سابور لثنتين وسبعين سنة من ملكه . وهو الذى بنى مدينة نيسابور وسجستان ، وبنى الإيوان المشهور لمقعد ملوكهم . وملك لعهده امرؤالقيس بن عدى

أزدشير بن هرمز

وأوصى بالملك لأخيه أزدشير بن هرمز، وفتك فى أشراف فارس وعظمائهم ، فخلعوه لأربعين* سنة من دولته

سابور بن ذى الأكتاف

وملكوا سابور بن [سابور] ذى الأكتاف ، فاستبشر الناس برجوع ملك أبيه اليه. وأحسن السيرة ، ورفق بالرعية ، وحمل على ذلك العمال والوزراء والحاشية، ولم يزل عادلاً . وخضع له عمه أردشير المخلوع ، وكانت له حروب مع إياد ،وفى ذلك يقول شاعرهم :

عَلَى رَغْمِ سَابُورِ بْنِ سَابُورَ أَصْبَحَتْ　　قِبَابُ إِيَادٍ حَوْلَهَا الْخَيْلُ وَالنَّعَمْ

وقيل إن هذا الشعر إنما قيل فى سابور ذى الأكتاف . ثم هلك سابور لخمس سنين من دولته .

بهرام بن ذى الأكتاف

وملك أخوه بهرام ويلقب كرمان شاه ، وكان حسن السياسة . وهلك لإحدى عشرة سنة من دولته، رماه بعض الرماة بسهم فى القتال فقتله .

يزدجرد ذى الأثيم

وملك بعده ابنه يزدجرد ذى الأثيم، وبعض نسابة الفرس يقول : إنه أخوه ، وليس ابنه، وإنما هو ابن ذى الأكتاف

وقال هشام بن محمد : كان فظا غليظا، كثير المكر والخديعة ، يفرغ فى ذلك عقله وقوة معرفته ، وكان معجباً برأيه ، سيئ الخلق ، كثير الحدّة، يستعظم الزلة الصغيرة ، ويرد الشفاعة من أهل بطانته ، متهماً للناس ، قليل المكافأة . وبالجملة فهو سيئ

---

* تعقبه　* لأربع

الأحوال مذمومها . واستوزر لأول ولايته نرسى الحكيم ، ويسمى مهرنرسى ومهرنرسة(؟) وكان متقدما فى الحكمة والفضائل . وأمَّل أهل المملكة أن تهرب من يزدجرد ذى الأثيم فلم يكن ذلك ، واشتد أمره على الأشراف بالإهانة ، وعلى من دونهم بالقتل . وبينما هو جالس فى مجلسه يوما إذا بفرس عابر لم يطق أحد إمساكه قد وقف ببابه ، فقام اليه ليتولى إمساكه بنفسه ، فرمحه ، فمات لوقته لإحدى وعشرين سنة من ملكه

بهرام بن يزدجرد

وملك بعده ابنه بهرام بن يزدجرد ، ويلقب ببهرام جور . وكان نشوؤه ببلاد الحيرة مع العرب ، أسلمه أبوه اليهم ، فربي بينهم وتكلم بلغتهم . ولما مات أبوه قدم أهل فارس رجلاً من نسل أرْدَشير . ثم زحف بَهْرام جور بالعرب ، فاستولى على ملكه كما نذكر فى أخبار آل المنذر . وفى أيام بَهرام جور سار خاقان ملك الترك الى بلاد الصغْد من ممالكه فهزمه بهرام وقتله . ثم غزا الهند ، وتزوج ابنة ملكهم ، فهابته ملوك الأرض ، وحمل اليه الروم الأموال على سبيل المهادنة . وهلك لتسع وعشرين من دولته

يزدجرد بن بهرام

وملك ابنه يزدجرد بن بهرام جور ، واستوزر مهر نرسى الحكيم الذى كان أبوه استوزره ، وجرى فى ملكه بأحسن سيرة من العدل والإحسان ، وهو الذى شرع فى بناء الحائط بناحية الباب والأبواب ، وجعل جبل الفتح سداً بين بلاده وما وراءها من أمم الأعاجم . وهلك لعشرين سنة من دولته

هرمز

وملك من بعد ابنه هُرمز ، وكان ملكاً على سِجستان ، فغلب على الدولة ، ولحق أخوه فَيْروز بملك الصغْد بمَرْو الرُّوذ . وهذه الأمم هم المعروفون قديماً بالهياطلة (١) ، وكانوا بين خوَارَزم وفَرْغانة ، فأمر فيروز بالعساكر ، وقاتل أخاه

فيروز

---

١ ــ الهياطلة بكسر الطاء اسم بلد . والهيتال بالتاء المثناة يطلق فى لغة بخارى على شخص قوي صحيح البدن . واسم لولاية ختلان ، وهى كورة فى إقليم بذخشان ويطلق على أميرهم هياطلة . والهيطل أيضا . والهياطلة الساكنون فى ولاية طخارستان وبذخشان . واختلف فى أصلهم فقيل إنهم من الترك ، وقيل إنهم من الهند نزحوا لتلك الجهات . والصحيح أنهم أتراك ما وراء النهر الذين يطلق عليهم فى بعض التواريخ الافرنجية أفتاليت إذ أصل هذه الكلمة آب تله بمعنى ساحل النهر

هرمز فغلبه وحبسه ، وكانت الروم قد امتنعت من حمل الخراج فحمل اليهم العساكر مع وزيره مهر نرسى ، فأثخن فى بلادهم حتى حملوا ما كان يحملونه ، واستقام أمره ، وأظهر العدل . وأصابهم القحط فى دولته سبع سنين ، فأحسن تدبير الناس فيها ، وكف عن الجباية ، وقسم الأموال ، ولم يهلك فى تلك السنين أحد إتلافا . وقيل : إنه استسقى لرعيته من ذلك القحط، فسقوا، وعادت البلاد الى أحسن ما كانت عليه. وكان لأول ما ملك أحسن الى الهياطلة جزاء بما أعانوه على أمره ، فقوى ملكهم، وزحفوا الى أطراف ملكه ، وملكوا طَخَارِستَان وكثيراً من بلاد خُرَاسان ، وزحف هو إلى قتالهم ، فهزموه وقتلوه وأربعة بنين له وأربعة إخوة ، واستولوا على خراسان بأسرها . وسار اليهم رجل من عظماء الفرس من أهل شِيرَاز فغلبهم على خراسان وأخرجهم منها، حتى ألقوا بجميع ماأخذوه من عسكر فَيرُوز من الأسرى والسبي . وكان مهلكه لسبع وعشرين سنة من ملكه . وبنى المدن بالرَّى وجُرجان وأذْرَبِيجَان

وقال بعضهم : إن ملك الهياطلة الذى سار الى فيروز اسمه اخشنوار (١) ، والرجل الذى استرجع خراسان من يده سوخرا (٢) من نسل مَنُوشِهر ، وإن فيروز استخلفه لماسار الى اخشنوار والهياطلة على مدينتى الملك وهما طيسفون وبَهرَشِير (٣) فكان من أمره مع الهياطلة بعد فيرُوز ما تقدم . وملك بعد فَيرُوز بن يزْدَجِرْد ابنه بلاوش بن فيروز ، ونازعه أخوه قُبَاذ الملك ، فغلبه بلاوش ، ولحق قباذ بخاقان ملك الترك يستنجده ، وأحسن بلاوش الولاية والعدل ، وحمل أهل المدن على عمارة ما خرب من مدنهم ، وبنى مدينة سَابَاط بقرب المدائن . وهلك لأربع سنين من دولته

طيسفون

بلاوش

١ — فى ج « خشنو » والاصلاح من ط (٢ — ٨٣) و ك (١ — ١٤٢) و ف (١ — ٥٠)
٢ — وقع هنا فى ج « خرسوس » وسيأتى فى الصفحة الموالية « سرحد » مكرراً . ووقع فى ط (٢ — ٨٣) و ك (١ — ١٤٣) « سوخرا » فى هذه المحلات كلها ،فاعتمدناها
٣ — فى ج « طيسون ونهراشير »

قباذ بن فيروز

وملك من بعده أخوه قباذ بن فيروز ، وكان قد سار بعساكر الترك ، أمده بها خاقان ، فبلغه الخبر بهلك أخيه وهو بنَيْسابور من طريقه ، وقد لقى بها ابناً كان له هنالك حملت به أمه منه عند مروره ذاهباً الى خاقان، فلما أحل بنيسابور ومعه العساكر سأل عن المرأة فأحضرت ومعها الولد، وجاءه الخبر هنالك بهلك أخيه بلاوش، فتيمن بالمولود ، وسار الى [المدائن فملكها وفوض تدبير ملكه الى ـ خ] سوخرا الذى كان أبوه فيروز استخلفه على المدائن ، ومال الناس اليه دون قباذ ، واستبد عليه . فلما كبر وبلغ سن الاستبداد بأمره أنف من استبداد سوخرا عليه ، فبعث الى أصبهبذ البلاد ، وهو سابور مهران ، فقدم عليه وقبض على سوخرا وحبسه ، ثم قتله

مزدك

ولعشرين من دولته حبس وخلع ، ثم عاد الى الملك. وصورة الخبر عن ذلك أن مَزْدَك الزِّنديق كان إباحياً ، وكان يقول باستباحة أموال الناس ، وأنها فىء ، وأنه ليس لأحد ملك شئ ولا حجره ، والأشياء كلها ملك لله ، مشاع بين الناس ، لا يختص به أحد دون أحد ، وهو لمن اختاره . فعثر الناس منه على متابعة مَزْدَك فى هذا الاعتقاد ، واجتمع أهل الدولة فخلعوه وحبسوه

جاماساب

وملكوا جَامَاسَب أخاه ، وخرج زرمهر شاكياً داعياً لقباذ ، وتقرب الى الناس بقتل المزدكية ، وأعاد قباذ الى ملكه . ثم سعت المزدكية عنده فى زرمهر بانكار ما أتى قبلهم فقبله ، واتهمه الناس برأى مَزْدَك ، فانتقضت الأطراف ، وفسد الملك، وخلعوه وحبسوه ، وأعادوا جاماساب، وفر قباذ من محبسه ولحق قباذ بالهياطلة وهم الصغد مستجيشاً لهم ، ومر فى طريقه بأبْرَشَهْر (١) ، فتزوج بنت ملكها ، وولدت له أنُوشِرْوان . ثم أمده ملك الهياطلة فزحف الى المدائن لست سنين من مغيبه ، وغلب أخاه جاماساب ، واستولى على الملك . ثم غزا بلاد الروم وفتح آمِدْ وسَبَي أهلها ، وطالت مدته ، وابتنى المدن العظيمة ، منها مدينة أرَّجَان بين الأهواز وفارس . ثم هلك لثلاث وأربعين سنة من ملكه فى الكرَّة الأولى

---

١ — فى ج « أبو شهر » وفى ط (٢ — ٨٩) « أبرشهر » وقد رجحناها لأنها هى التى فى طريقه بين المدائن والصغد (انظر خريطة الممالك الاسلامية) . وهى نيسابور انظر يا

أنوشروان بن قباذ

وملك ابنه أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد ، وكان يلي الأصبهبذ وهي الرياسة على الجنود . ولما ملك فرّق أصبهبذ البلاد على أربعة ، فجعل أصبهبذ المشرق بخراسان ، والمغرب بأذربيجان وبلاد الخزر ، واستردّ البلاد التي تغلب عليها جيران الأطراف من الملوك ، مثل السند وبست والرخج وزابلستان وطخارستان ودهستان ، وأثخن في أمة البارز (١) وأجلى بقيتهم ثم أدهنوا * واستعان بهم في حروبه ، وأثخن في أمة سول واستلحمهم ، وكذلك الجرامقة وبلنجر واللان ، وكانوا يجاورون أرمينية ويتمالأون على غزوها ، فبعث اليهم العساكر واستلحموهم ، وأنزل بقيتهم أذربيجان ، وأحكم بناء الحصون التي كان بناها قباذ وفيروز بناحية صول (٢) واللان لتحصين البلاد ، وأكمل بناء الأبواب والسور الذي بناه جده بجبل الفتح ، بنوه على الأزقاق المنفوخة تغوص في الماء كلما

١ — البارز قال في اللسان « قيل إنها ناحية قريبة من كرمان بها جبال. وفي بعض الروايات هم الأكراد اه . وفي الحديث عن أبي هريرة : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما ينتعلون الشعر وهم أهل البازر » . وقال ابن الأثير : هكذا خرجه أبو موسى : بالباء والزاي من كتابه وشرحه . والذي رويناه في كتاب البخاري عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بين يدي الساعة تقاتلون قوما هم هذا البارز » . وقال سفيان مرة : هم أهل البارز يعني بأهل البارز أهل فارس. هكذا قال هو بلغتهم . قال : وهكذا جاء في لفظ الحديث لأنه أبدل السين زايا . قال في اللسان : واختلف في فتح الراء وكسرها . وكذلك اختلف مع تقديم الزاي انظره (٥ — ١٢٢) والظرف (٣ — ٤١)

٢ — كذا عند ابن الأثير وقد نقله في تلفيق الأخبار ١٠٣ — ١ وكتب عليه ما ننقله عنه قلت : هذا الموضع الذي كان يسمى سابقا بالصول هو في جهة جرجان . وأما اللان فليس في طرقهم موضع يسمى بصول. والظاهر بل الصواب أنهما لفظ واحد وهو سولان (بفتح السين والواو) حرفوه الى ما في النسخة وسولان جبل قرب أردبيل. قال في البرهان: سولان على وزن همدان جبل في أذربيجان كان يسكن به في سالف الزمان أهل الرياضة ؛ وللمجوس في حقه اعتقاد قوي ، واحترام عظيم ، حتى أنهم يحلفون به . وسمعت بعض أحبابنا يقول : إنه رآه ورأى فوقه آثار قلاع قديمة جداً وأن اسمه صوآلان يعني الجبل الذي يؤخذ منه الماء سمي به لأخذ الناس ماء عين في سفحه

ويرى صاحب تلفيق الأخبار : أن ما عند ابن الأثير صحيح لأنه قريب من لفظة ديزابول أو ديصابول الذي يطلقه الافرنج على هذا الخاقان . قال : ويسميه الترك يومين تاغان والصينيون موقان خان أنظر ما كتبه عنه في التلفيق ص ١١٠ ج ١

* أذعنوا

ارتفع البناء ، الى أن استقرت بقعر البحر ، وشقت بالخناجر ، فتمكن الحائط من الأرض . ثم وصل السور فى البر ما بين جبل الفتح والبحر ، وفتحت فيه الأبواب ، ثم وصلوه فى شعاب الجبل * وبقى فيه الى أن كمل

قال المسعودى : إنه كان باقياً لعصره . والظن أن التتر خرّبوه بعد لما استولوا على ممالك الأسلام فى المائة السابعة ، ومكانه اليوم فى مملكة بنى دوشى خان ملوك الشمال منهم ، وكان لكسرى أنوشروان فى بنائه خبر مع ملوك الخزر ، ثم استفحل ملك الترك ، وزحف خاقان سيحور (١) ، وقتل ملك الهياطلة ، واستولى على بلادهم وأطاعه أهل بَلَنْجَر ، وزحف إلى بلاد صول فى عشرة آلاف مقاتل ، وبعث إلى أنوشروان يطلب منه ماأعطاه أهل بانجر فى الفداء ، وضبط أنوشروان أرمينية بالعساكر ، وامتنعت صول بملكها أنوشروان ، والناحية الأخرى بسور الأبواب ، فرجع خاقان خائباً ، وأخذ أنوشروان فى إصلاح السابلة ، والأخذ بالعدل ، وتفقد أهل المملكة ، وتخير الولاة والعمال مقتدياً بسيرة أزدشير بن بابك جدّه .

ثم سار إلى بلاد الروم وافتتح حلب وقبرص وحمص وأنطاكية ومدينة هرقل ثم الأسكندرية ، وضرب الجزية على ملوك القبط ، وحمل اليه ملك الروم الفدية ، وملك الصين والتبت الهدايا ، ثم غزا بلاد الخزر وأدرك فيهم بثاره وما فعلوه ببلاده ، ثم وفد عليه ابن ذى يزن من نسل الملوك التبابعة يستجيشه على الحبشة ، فبعث معه قائداً من قواده فى جند من الديلم فقتلوا مسروقا ملك الحبشة باليمن وملكوها ، وملك عليهم سيف بن ذى يزن ، وأمره أن يبعث عساكره إلى الهند ، فبعث إلى سَرَنْدِيب قائداً من قواده فقتل ملكها واستولى عليها ، وحمل إلى كسرى أموالاً جمة ، وملك على العرب فى مدينة الحيرة

ثم سار نحو الهياطلة مطالباً بثأر جده فيروز ، فقتل ملكهم ، واستأصل أهل بيته ، وتجاوز بلخ وما وراءها ، وأنزل عساكره فَرْغَانة ، وأثخن فى بلاد الروم وضرب عليهم الجزى ، وكان مكرماً للعلماء ، محباً للعلم . وفى أيامه ترجم كتاب (كليلة ودمنة) ترجمة كتاب كليلة للفارسية

١ — فى ط (٢ - ٩٢) سنجبو وفى ك (١ - ١٥٤) « سيجبور »

* وصفحه

وترجمه من لسان الهنود [1] وحله بضرب الأمثال ، ويحتاج إلى فهم دقيق .

ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم

وعلى عهده ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لثنتين وأربعين سنة من ملكه وذلك عام الفيل ، وكذلك ولد أبوه عبدالله بن عبد المطلب لأربع وعشرين من ملكه

قال الطبرى : وفى أيامه رأى الموبذان الإبل الصعاب تقود الخيل العراب ، وقد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها ، فأفزعه ذلك ، وقص الرؤيا على من يعبرها فقال : حادث يكون من العرب ، فكتب كسرى إلى النعمان أن يبعث اليه بمن يسأله عما يريده ، فبعث اليه بعبد المسيح بن عمرو بن حسان بن نفيلة الغساني وقص عليه الرؤيا فدله على سَطيح ، وقال له ائته أنت ، فسار اليه وقص عليه الرؤيا ، فأخبره بتأويلها ، وأن ملك العرب سيظهر ، والقصة معروفة ، وكان فيما قاله سطيح ، أنه يملك من آل كسرى أربعة عشر ملكاً ، فاستطال كسرى المدة ، وملكوا كلهم فى عشرين سنة أو نحوها .

وبعث عامل اليمن وَهرْز بهدية وأموال وطرف من اليمن إلى كسري ، فأغار عليها بنو يربوع من تميم وأخذوها .

وجاء أصحاب العير إلى هوذة بن على ملك اليمامة من بنى حنيفة ، فسار معهم إلى كسرى فأكرمه وتوّجه بعقد من لؤلؤ ، ومن ثم قيل له ذو التاج ، وكتب إلى عامله بالبحرين فى شأنهم ، وكان كثيراً مايوقع ببنى تميم ويقطعهم حتى سموه المكفر ، فتحيل عليهم بالميرة ، ونادى مناديه فى أحيائهم : إن الأمير يقسم فيكم بحصن

---

١ ـــ فى ج وترجمه من لسان اليهود وقد صححناه على حسب المعروف من تاريخ الكتاب إذ هو مؤلف باللغة السنسكريتية بقلم الفيلسوف الهندى بيدبا صنعه للملك دبشليم الذى تولى بعد فتح الاسكندر فيما زعموا . وقد كانت أبوابه فى الأصل اثنى عشر بابا . ثم نقل عن اللغة السنسكريتية الى لغة التبت وجلب الى بلاد فارس فى القرن السادس للميلاد ونقله عن السنسكريتية الى الفهلوية برزويه بن أزهر بأمر من كسرى أنوشروان وقد زيد فى هذه الترجمة ثلاثة أبواب ، ثم ترجم عن الفهلوية الى السريانية للمرة الأولى حوالى ٥٧٠ للميلاد . وعن الفهلوية نفسها ترجمه ابن المقفع وأضاف اليه ستة أبواب

وقد قدر لجميع الترجمات والأصول أن تضيع وأن يكون للسان العربي فضل الاحتفاظ بهذا الكتاب الخالد وعنه نقل الى سائر اللغات الحية

المُشَقَّر ميرة . فتسايلوا اليه ودخلوا الحصن ، فقتل الرجال ، وخصى الصبيان .

وجاءت هدية أخرى من اليمن على أرض الحجاز ، أجازها رجل من بنى كنانة ، فعدت عليه قيس وقتلوه وأخذوا الهدية ، فنشأت الفتنة بين كِنَانة وقيس لأجل ذلك . وكانت بينهما حرب الفِجَار عشرين سنة ، وشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيراً كان ينبل على أعمامه

هرمز بن أنوشروان

ثم هلك أنوشروان لثمان وأربعين من دولته ، وملك ابنه هرمز .

قال هشام : وكان عادلاً حتى لقد أنصف من نفسه خصياً كان له ، وكانت له خُؤُولة فى الترك ، وكان مع ذلك يقتل الاشراف والعلماء . وزحف اليه ملك الترك شبابة (١) فى ثلثمائة ألف مقاتل ، فسار هُرْمُز إلى هَراة وبَاذَغِيس لحربهم ، وخالفه ملك الروم إلى ضواحى العراق ، وملك الخزر إلى الباب والأبواب ، وجموع العرب إلى شاطىء الفرات ، فعاثوا فى البلاد ونهبوا ، واكتنفته الأعداء من كل جانب ، وبعث قائده بهرام صاحب الرى إلى لقاء الترك ، وأقام هو بمكانه من خراسان بين هراة وباذغيس ، وقاتل بهرام الترك وقتل ملكهم شبابة بسهم أصابه ، واستباح معسكره ، وأقام بمكانه ، فزحف اليه بَرْمُودَة بن شابة بالترك فهزمه بهرام ، وحاصره فى بعض الحصون حتى استسلم ، وبعث به إلى هرمز أسيراً ، وبعث معه بالأموال والجواهر والآنية والسلاح وسائر الأمتعة ، يقال فى مائتين وخمسين ألفاً من الأحمال ، فوقع ذلك من هرمز أحسن المواقع ، وغص أهل الدولة ببهرام وفعله ، فأكثروا فيه السعاية ، وبلغ الخبر الى بهرام فخشيه على نفسه ، فداخل من كان

أبرويز

معه من المرازبة وخلعوا هرمز ودعوا لابنه أَبْرَوِيز ، وداخلهم فى ذلك أهل الدولة فلحق أبرويز بأذربيجان خائفاً على نفسه ، واجتمع اليه المرازبة والاصبهبذيون فملكوه ، ورتب بالمدائن الاشراف والعظماء ونَفْدُوبة و بسطام خالا أبرويز ، فخلعوا هرمز وحبسوه تحرزاً من قتله ، وأقبل أبرويز بمن معه الى المدائن فاستولى على الملك ، ثم نظر فى أمر بهرام وتحرز منه ، وسار اليه ، وتواقفا بشط النهروان . ودعاه أبرويز الى

١ — فى ميرآ خندحين ترجم لهرمز بن أنوشروان : أن خاله ساوه أوشاذ قصده بثلاثمائة أو أربعمائة ألف

الدخول فى أمره ويشترط ماأحب ، فلم يقبل ذلك، وناجزه الحرب فهزمه ، ثم عاود الحرب مراراً وأحس أبرويز بالقتل من أصحابه ، فرجع الى المدائن منهزماً ،وعرض على النعمان أن يركبه فرسه [للنجاة عليها فأبي وأعطاه حسان بن حنظلة بن خبة الطائى فرسه — خ] ، فنجا عليها . وكان أبوه محبوساً بطيشفون ، فأخبره الخبر ، وشاوره فأشار عليه بقصد مُورِيق ملك الروم يستجيشه ، فمضى لذلك ، ونزل المدائن لثنتى عشرة سنة من ملكه .

وفى بعض طرق هذا الخبر أن أبرويز لما استوحش من أبيه هرمز لحق بأذربيجان واجتمع عليه من اجتمع ولم يحدث شيئاً ، وبعث هرمز لمحاربة بهرام قائداً من مرازبته فانهزم وقتل، ورجع فلّهم الى المدائن وبهرام فى اتباعهم ، واضطرب هرمز ، وكتبت اليه أخت المرزبان المهزوم من بهرام تستحثه للملك فسار الى المدائن وملك ، وأتاه أبوه فتواضع له أبرويز وتبرأ له من فعل الناس، وأنه إنما حمله على ذلك الخوف، وسأله أن ينتقم له ممن فعل به ذلك ، وأن يؤنسه بثلاثة من أهل النسب والحكمة يحادثهم كل يوم ، فأجابه ، واستأذنه فى قتل بَهْرَام چُوبين فأشار به ، وأقبل بهرام حثيثاً وبعث خاليه نِفْدُوَبَة وبِسطام يستدعيانه للطاعة ، فردَّ أسوأ ردّ ؛ وقاتل أبرويز واشتدت الحرب بينهما

ولما رأى أبرويز فشل أصحابه شاور أباه ولحق بملك الروم وقال له خالاه عند فصولهم من المدائن: نخشى أن يدخل بهرام المدائن ويملك أباك ويبعث فينا إلى ملك الروم ، وانطلقوا الى المدائن فقتلوا هُرمز . ثم ساروا مع أبَرْويز وقطعوا الفرات واتبعتهم عساكر بهرام، وقد وصلوا الى تخوم الروم وقاتلوهم ، وأسروا نَفْدويه خال أبرويز ورجعوا عنهم ، ولحق أبرويز ومن معه بأنطاكية ، وبعث الى قيصر موريق يستنجده فأجابه وأكرمه وزوَّجه ابنته مريم ، وبعث اليه أخاه بِناطوس بستين ألف مقاتل وقائدهم واشترط عليه الإتاوة التى كان الروم يحملونها ، فقبل وسار بالعساكر الى أذربيجان ووافاه هنالك خاله نفدويه هاربا من الأسر الذى كانوا أسروه . ثم بعث العساكر من أذربيجان مع أصبَهْبذ الناحية فانهزم بهرام چُوبين ولحق بالترك

وسار أبرويز الى المدائن فدخلها وفرق فى الروم عشرين الف الف دينار ، وأطلقهم الى قيصر ، وأقام بهرام عند ملك الترك ، وصانع أبرويز عليه ملك الترك وزوجته حتى دست عليه من قتله ، واغتم لذلك ملك الترك وطلقها من أجله ، وبعث الى أخت بهرام أن يتزوجها فامتنعت

ثم أخذ أبرويز فى مهاداة قيصر موريق والطافه ، وخلعه الروم وقتلوه ، وملكوا عليهم ملكا اسمه قوقا قيصر ، ولحق ابنه بأبرويز فبعث [معه] العساكر على ثلاثة من القواد ، وسار أحدهم ودوخوا الشأم الى فلسطين ، ووصلوا الى بيت المقدس ، فأخذوا أسقفها ومن كان بها من الأقسة ، وطالبوهم بخشبة الصليب فاستخرجوها من الدفن وبعثوا بها الى كسرى ، وسار منهم قائد آخر الى مصر وأسكندرية وبلاد النوبة فملكوا ذلك كله، وقصد الثالث قسطنطينية وخيم على الخليج ، وعاث فى ممالك الروم ، ولم يجب أحد الى طاعة ابن موريق

وقتل الروم قوقا الذى كانوا ملكوه لما ظهر من فجوره ، وملكوا عليهم هرقل ، فافتتح أمره بغزو بلاد كسرى ، وبلغ نصيبين فبعث كسرى قائداً من أساورته فبلغ الموصل ، وأقام عليها يمنع الروم المجاوزة . وجاز هرقل من مكان آخر الى جند فارس ، فأمر كسرى قائده بقتاله فانهزم وقتل ، وظفر هرقل بحصن كسرى وبالمدائن ، ووصل هرقل قريباً منها . ثم رجع وأوقع كسرى العقوبة بالجند المنهزمين وكتب الى سخراب * بالقدوم من خراسان ، وبعثه بالعساكر ، وبعث هرقل عساكره والتقيا بأذرعات وبصرى ، فغلبتهم عساكر فارس ، وسار سخراب * فى أرض الروم يخرب ويقتل ويسبي حتى بلغ القسطنطينية . وزجع . وعزله أبرويز عن خراسان وولى أخاه ، وفى مناوبة هذا الغلب بين فارس والروم نزلت الآيات من أول سورة الروم

قال الطبرى : وأدنى الأرض التى أشارت اليها الآية (١) هى أذرعات وبصرى

---

* شهر براز * شهر براز

١ ـــ سورة الروم الآيات (١ ـ ٥)

التى كانت بها هذه الحروب ، ثم غلبت الروم لسبع سنين من ذلك العهد ، وأخبر المسلمون بذلك الوعد الكريم لما أهمهم من غلب فارس الروم ، لأن قريشاً كانوا يتشيعون لفارس لانهم غير دائنين بكتاب ، والمسلمون يودون غلب الروم لأنهم أهل كتاب . وفى كتب التفسير بسط ما وقع فى ذلك بينهم

وأبرويز هذا هو الذى قتل النعمان بن المنذر ملك العرب وعامله على الحيرة ، سخطه بسعاية عدى بن زيد العبادى وزير النعمان ، وكان قد قتل أباه وبعثه الى كسرى ليكون عنده ترجمانا للعرب ، كما كان أبوه قد فعل بسعايته فى النعمان ، وحمله على أن يخطب اليه ابنته ، وبعث اليه رسوله بذلك عدى بن زيد فترجم له عنه فى ذلك مقالة قبيحة أحفظت كسرى أبرويز ، مع ما كان تقدم له فى منعه الفرس يوم بهرام كما تقدم ، فاستدعاه أبرويز وحبسه بساباط ، ثم أمر به فطرح للفيلة ، وولى على العرب بعده إياس بن قبيصة الطائي جزاء بوفاء ابن عمه حسان يوم بهرام كما تقدم

وقعة ذى قار وسببها

ثم كان على عهده وقعة ذى قار لبكر بن وائل ومن معهم من عبس وتميم على الباهوت [صاحب] مسلحة كسرى بالحيرة ومن معه من طيئ

وكان سببها أن النعمان بن المنذر أودع سلاحه عند هانئ بن مسعود الشيباني، وكانت شكة الف فارس ، وطلبها كسرى منه فأبي إلا أن يردها الى بيته ، فآذنه كسرى بالحرب وآذنوه بها ، وبعث كسرى الى إياس أن يزحف اليه بالمسالح التى كانت ببلاد العرب ، بأن يوافوا إياساً . واقتتلوا بذى قار ، وانهزمت الفرس ومن معهم . وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم: « اليوم (١) انتصف العرب من العجم وبي نصروا » أوحى اليه بذلك أو نفث فى روعه

قيل إن ذلك كان بمكة . وقيل بالمدينة بعد وقعة بدر بأشهر

وفى أيام أبرويز كانت البعثة لعشرين من ملكه ، وقيل لثنتين وثلاثين . حكاه الطبرى

١ — هذا الخبر مذكور فى كثير من كتب السيرة والأخبار ولكننا لم نعثر على مخرجه من أئمة الحديث المعتبرين فلينظر

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

وبعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه يدعوه الى الاسلام كما تقدم فى أخبار اليمن ، وكما يأتى فى أخبار الهجرة . ولما طال ملك أبرويز بطرَ وأشرَّ وخسر الناس فى أموالهم ، وولى عليهم الظلمة وضيق عليهم المعاش، وبغض عليهم* ملكه

وقال هشام : جمع أبرويز من المال مالم يجمعه أحد ، وبلغت عساكره القسطنطينية وإفريقية ، وكان يشتو بالمدائن ويصيف بهَمَذَانَ ،وكان له اثنتا عشرة الف امرأة وألف فيل وخمسون ألف دابة ، وبنى بيوت النيران ، وأقام فيها اثنى عشر الف هربذ ، وأحصى جبايته لثمان عشرة سنة من ملكه ، فكان اربعمائة الف الف (مكررة مرتين(١)) وعشرون الف الف مثلها ، فحمل الى بيت المال بمدينة طيسفون ، وكانت هنالك أموال أخرى من ضرب فيروز بن يزدجرد ، منها اثنا عشر الف بدرة فى كل بدرة من الورق مصارفة اربعة آلاف مثقال ، فتكون جملتها ثمانية وأربعين ألف الف مثقال (مكررة مرتين (١)) فى صنوف من الجواهر والطيوب والأمتعة والآنية لا يحصيها الا الله تعالى . ثم بلغ من عتوه واستخفافه بالناس أنه أمر بقتل المقيدين فى سجونه ، وكانوا ستة وثلاثين الفاً ؛ فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه واسمه قباذ وكان محبوساً مع أولاده كلهم لا نذار بعض المنجمين له بأن بعض ولده يقتاله فحبسهم .

وأطلق أهل الدولة شيرويه ، وجمعوا اليه المقيدين الذين أمر بقتلهم ، ونهض إلى قصور الملك بمدينة بهرسير فملكها ، وحبس أبرويز ، وبعث إلى ابنه شيرويه يعنفه ، فلم يرض ذلك أهل الدولة وحملوه على قتله،وقتل لثمان وثلاثين سنة من ملكه، وجاءته أختاه بُوران وآزرْميدَخت فأسمعتاه وأغلظتا له فيما فعل ، فبكى ورمى التاج عن رأسه ، وهلك لثمانية أشهر من مقتل أبيه فى طاعون هلك فيه نصف الناس أو ثلثهم ، وكان مهلكه لسبع من الهجرة فيما قال السهيلى .

شيرويه

١ — هذه الجملة يذكرها المؤلف لتأكيد الحساب المذكور لئلا يظن أن كلمة ألف مكررة غلطا والمقصود أربعمائة مليون

* اليهم

أزدشير

ثم ولى ملك الفرس من بعده ابنه أزدشير طفلاً ابن سبع سنين لم يجدوا من بيت الملك سواه ، لأن أبرويز كان قتل المرشحين كلهم من بنيه وبنى أبيه ، فملك عظماء فارس هذا الطفل أزدشير، وكفله بها دُرْخُشْنَش صاحب المائدة فى الدولة ، فأحسن سياسة ملكه .

وكان شهريران (١) بتخوم الروم فى جند ضمهم اليه أبرويز وحموهم هنالك وصاحب الشورى فى دولتهم ، ولما لم يشاوره فى ذلك غضب وبسط يده فى القتل وطمع فى الملك ، وأطاعه من كان معه من العساكر ، وأقبل إلى المدائن وتحصن بهادُرخُشْنَش بمدينة طيسفون دار الملك ، ونقل اليها الأموال والذخائر وأبناء الملوك ، وحاصرها شهريران فامتنعت ، ثم داخل بعض الحرس ففتحوا له الباب ، فاقتحمها وقتل العظماء ، واستصفى الأموال ، وفضح النساء ، وبعث أزدشير الطفل الملك من قتله لسنة ونصف من ملكه .

شهريران

وملك شهريران (١) على التخت ولم يكن من بيت الملك ، وامتعض لقتل أزدشير جماعة من عظماء الدولة وفيهم زادان (٢) فرُّوخ وشهريران ، ووهب مؤدب الأساورة وأجمعوا على قتل شهريران ، وداخلوا فى ذلك بعض حرس الملك ، فتعاقدوا على قتله ، وكانوا يعملون قدام الملك فى الأيام والمشاهد سماطين . ومر بهم شهريران بعض أيام بين السماطين وهم متسلحون فلما حاذاهم طعنوه فقتلوه . وقتلوا العظماء بعد قتل أزدشير الطفل

بوران

ثم ملّكوا بوران بنت أبرويز ، ودفعت أمر الدولة إلى قبائل شهريران من حرس الملك ، وهو فرُّوخ بن (٣) ماخُذْشيراز من أهل اصطخر ، ورفعت رتبته وأسقطت الخراج عن الناس ، وأمرت برم القناطير والجسور ، وضرب الورق ، وردت خشبة الصليب على الجاثليق ملك الروم . وهلكت لسنة وأربعة أشهر

---

١ — فى ط (١ - ١٦٧) « سهربراز » أما ف وش وغيرهما فقد وافقوا المؤلف

٢ — فى ط (١ — ١٦٧) « وساعدهم على قتله رجل من العظماء يقال له زادان فروخ ابن سهرداران ، ورجل يقال له ماهيان كان مؤدب الأساورة وكثير من العظماء وأهل البيوتات »

٣ — فى ط (١ — ١٦٧) فسفروخ بن ماخرشيذان

خشنشده — وملكوا بعدها خُشْنَشْدة (١) * من عمومة ابرويز عشرين يوماً فملك أقل من شهر.

آزر ميدخت — ثم ملك آزَرْميدَخْت بنت أبَرْوِيز ، وكانت من أجل نسائهم . وكان عظيم فارس يومئذ فرُّوخ هرمز اصْبَهْبذ خراسان ، فأرسل اليها في التزويج ، فقالت : هو حرام على الملكة ، ودعته ليلة كذا فجاء ، وقد عهدت الى صاحب حرسها أن يقتله ففعل ، فأصبح بدار الملك قتيلا ، وأُخفي أثره وكان لما سار إلى آزَرْميدَخت استخلف على خراسان ابنه رُسْتم ، فلما سمع بخبر أبيه أقبل في جند عظيم حتى نزل المدائن وملكها ، وسمل آزرَميدخْت وقتلها ، وقيل سمها فماتت ، وذلك لستة أشهر من ملكها .

ومَلكوا بعدها رجلاً من نسل أزدشير بن بابك ، وقتل لأيام قلائل . وقيل

فروخ — بل هو من ولد أبرويز اسمه فرُّوخزاد بن خُسْرُو (٢) وجدوه بحصن الحجارة قريب نصيبين ، فجاءوا به الى المدائن ، وملّكوه ، ثم عصوا عليه فقتلوه .

وقيل لما قتل كسرى بن مِهر خُشْنَش ، طلب عظماء فارس من يولونه الملك ولو من قبل النساء ، فأتي برجل وجد بميسان اسمه فيروز بن مهرخشنش ، ويسمى أيضاً خُشْنَشْدة ، أمه صهاربخت بنت يزدَانْدار بن أنوشِروان ، فملكوه كرهاً ، ثم قتلوه بعد أيام قلائل ، ثم شخص رجل من عظماء الموالي ، وهو رئيس الخول ، الى ناحية الغرب ، فاستخرج من حصن الحجارة قرب نصيبين ابناً لكسرى كان لجأ إلى طيسفون فملكوه ، ثم خلعوه وقتلوه لستة أشهر من ملكه .

وقال بعضهم : كان أهل إصْطَخر قد ظفروا بيزدِجرد بن شهريار بن أبرويز ، فلما بلغهم ان أهل المدائن عصوا على ابن خسروفروخزاذ ، أتوا بيَزْدِجرد من بيت النار الذي عندهم ويدعى أزدشير ، فملكوه باصطخر وأقبلوا به إلى المدائن ، وقتلوا فرُّوخ زاذخسرو لسنة من ملكه .

يزدجرد — واستقل يزدجرد بالملك ، وكان أعظم وزرائه رئيس الموالي الذي جاء

١ — كذا هنا وفي س (٤ — ٤١٥) وعند ط (٢ — ١٦٨) جشنسد

٢ — في الطبري (٢ — ١٦٩) خرزاذ خسروا

* آخشنشد

بفرّخزاذ خسرو من حصن الحجارة ، وضعفت مملكة فارس ، وتغلب الأعداء على الأطراف من كل جانب ، فزحف اليهم العرب المسلمون بعد سنتين من ملكه وقيل بعد أربع ، فكانت أخبار دولته كلها هى أخبار الفتح ، نذكرها هنالك ، الى أن قتل بمرو بعد نيف وعشرين سنة من ملكه

هذه هى سياقة الخبر عن دولة هؤلاء الأكاسرة الساسانية عند الطبرى

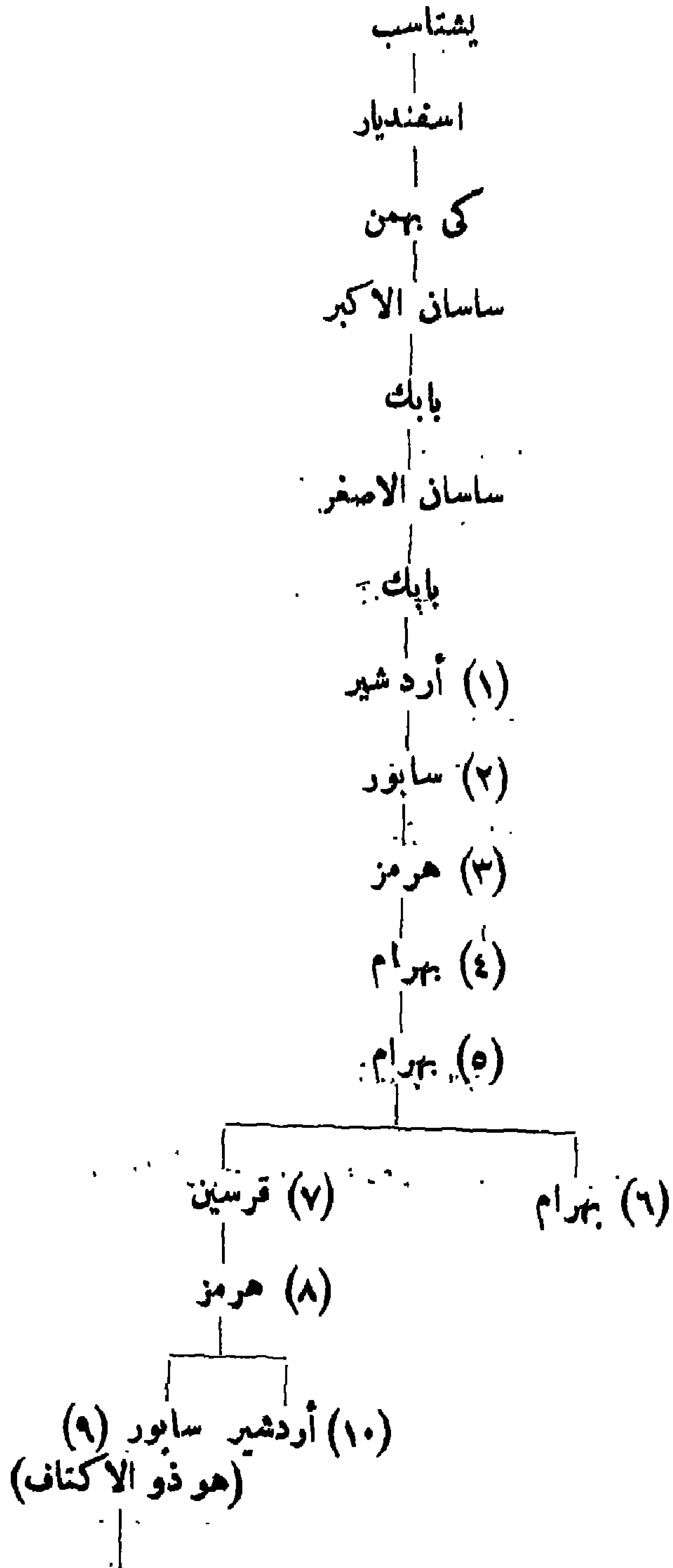
ثم قال : آخرها لجميع سنى العالم من آدم الى الهجرة — على ما يزعمه اليهود — أربعة آلاف سنة وستمائة واثنان وأربعون سنة

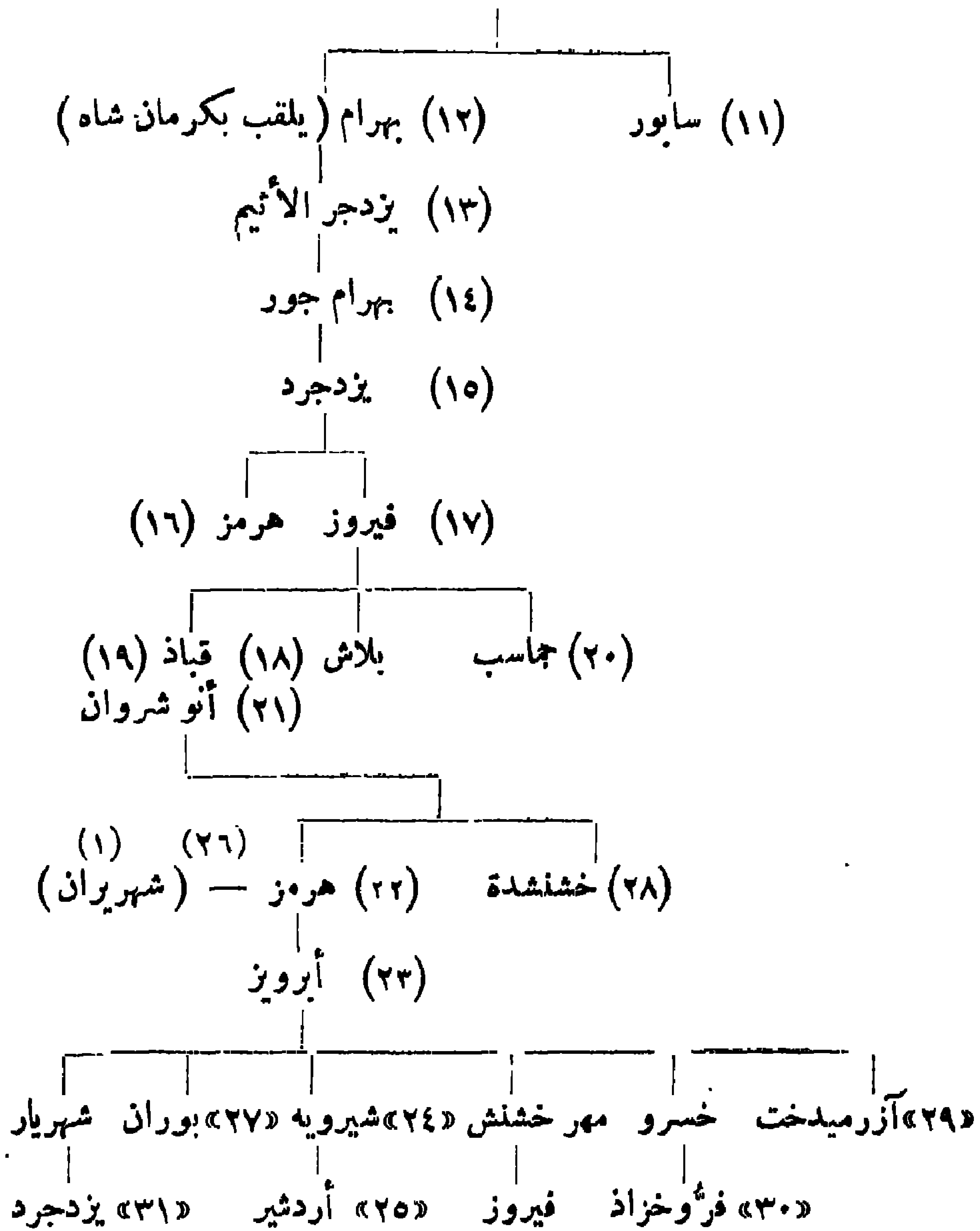
وعلى ما يدعيه النصارى فى توراة اليونانيين : ستة آلاف سنة غير ثمان سنين

وعلى ما يقوله الفرس : الى مقتل يزدجرد أربعة آلاف ومائة وثمانون سنة ، ومقتل يزدجرد عندهم لثلاثين من الهجرة

وأما عند أهل الاسلام : فبين آدم ونوح عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، وبين نوح وابراهيم كذلك ، وبين إبراهيم وموسى كذلك . ونقله الطبرى عن ابن عباس ، وعن محمد بن عمرو بن واقد الاسلامى ، عن جماعة من أهل العلم ، وقال : إن الفترة بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة ، ورواه عن سلمان الفارسى وكعب الأحبار . والله أعلم بالحق فى ذلك ، والبقاء لله الواحد القهار

عمود الطبقة الرابعة من الفرس





(١) شهريران من غير بيت الملك كما يعلم مما سبق للمؤلف

الخبر عن دولة يونان والروم

وأنسابهم ومصائر أمورهم

تاريخ اليونان والروم

كان هؤلاء الأمم من أعظم أمم العالم وأوسعهم ملكا وسلطاناً ، وكانت لهم الدولتان العظيمتان للاسكندر والقياصرة من بعده الذين صبحهم الاسلام ، وهم ملوك بالشأم. ونسبهم جميعاً إلى يافث باتفاق من المحققين ، إلا ما ينقل عن الكندي في نسب يونان إلى عَابَر بن فالَغْ وأنه خرج من اليمن بأهله وولده مغاضباً لأخيه قحطان ، فنزل ما بين الافرنجة والروم ، فاختلط نسبه بهم . وقد ردّ عليه أبو العباس الناشئ في ذلك بقوله :

تُخَالِطُ يوناناً بِقَحْطانَ ضَلّةً لعَمْرِى لقد باعدْتَ بينهما جدًّا

ولذلك يقال إن الاسكندر من تُبّع . وليس شئ من ذلك بصحيح ، وإنما الصحيح نسبهم إلى يافث . ثم إن المحققين ينسبون الروم جميعاً الى يونان، الاغريقيون منهم واللّيطينيون . ويونان معدود فى التوراة من ولد يافث لصلبه ، واسمه فيها يافان « بفاء تقرب من الواو » فعربته العرب الى يونان

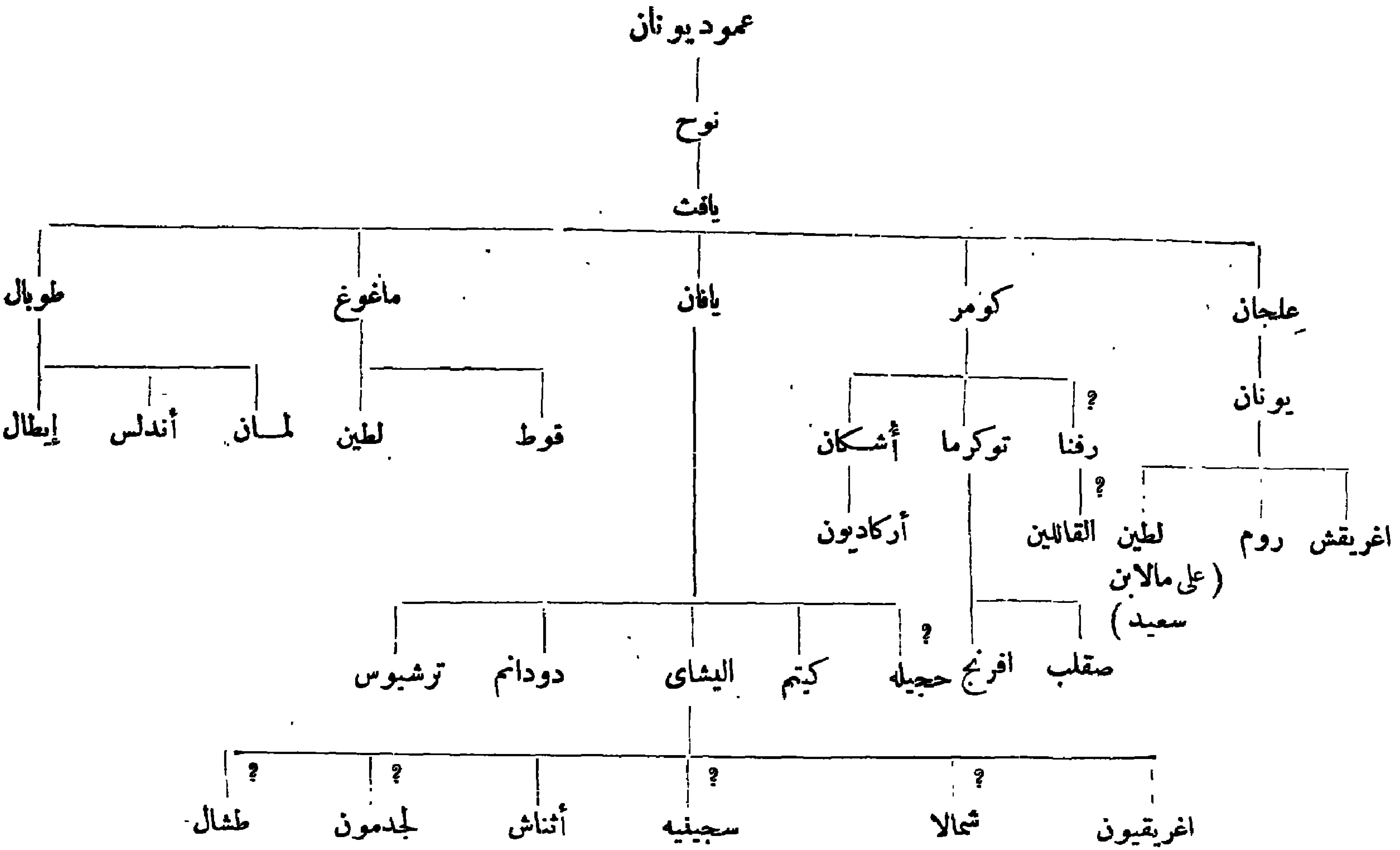
وأما هروشيوش : فجعل الاغريقيين خمس طوائف، منتسبين الى خمسة من أبناء يونان، وهم كيْتَم وحجيلة (؟) وترْشوش ودُوَدّانم وأليشاى ، وجعل من شعوب أليشاى سجينية(؟)وأنشتاش وشمالا وطشال(؟)ولجدمون .ونسب الروم اللّطينيين فيهم ولم يعين نسبهم فى أحد من الخمسة . ونسب الافرنج الى توغرما بن غومر بن يافث ، وقال إن الصقالبة إخوانهم فى نسبه ، وقال إن الملك كان فى هذه الطوائف لبنى أُشكان بن غُومَر ، والملوك منهم هؤلاء الاغريقيون قبل يونان وغيرهم . ونسب القوط الى ماداى بن يافث ، وجعل من إخوانهم الأرمن

ثم نسب القُوط مرة أخرى الى ماغوغ بن يافث،وجعل اللَّطينيين من إخوانهم في ذلك النسب ، ونسب القاللين منهم الى رفنا بن غومار ، ونسب الى طوبال بن

يافث الأندلس والايطاليين والأركاديين ، ونسب الى طبراش بن يافث أجناس الترك . واسم الاغريقيين عنده يشمل أبناء يونان كلهم كما ذكره ، وينوع الروم الى الغريقيين واللطينيين

وقال ابن سعيد فيما نقله من تواريخ المشرق عن البيهقي وغيره : إن يونان هو ابن علجان بن يافث . قال: ولذلك يقال لهم العلوج. ويشركهم في هذا النسب سائر أهل الشمال من غير الترك . وإن الشعوب الثلاثة من ولد يونان . فالاغريقيون من ولد إغريقش بن يونان. والروم من ولد رومى بن يونان ، واللطينيون من ولد لطين ابن يونان ، وإن الاسكندر من الروم منهم . والله أعلم

ونحن الآن نذكر أخبار الدولتين الشهيرتين منهم مبلغ علمنا ، والله الموفق للصواب سبحانه وتعالى



عمود يونان
نوح
يافث
علجان
كومر
يافان
ماغوغ
طوبال
يونان
رفنا ؟
توكرما
أشكان
قوط
لطين
لمان
أندلس
إيطال
اغريقش
روم
لطين
(على ما الابن سعيد)
القالين ؟
أركاديون
صقلب
افرنج
حجيله ؟
كيتم
اليشاى
دودانم
ترشيوس
اغريقيون
شمالا ؟
سجينيه ؟
أثناش
لجدمون ؟
طشال ؟

دولة يونان والاسكندر

الخبر عن دولة يونان والاسكندر منهم

وما كان لهم من الملك والسلطان إلى انقراض أمرهم

هؤلاء اليونانيون المتشعبون إلى ألغريقيين واللطينيين كما قلناه اختصوا بسكنى الناحية الشمالية من المعمور مع إخوانهم من سائر بنى يافث كلهم ، كالصقالبة والترك والأفرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث ، ولهم منها الوسط ما بين جزيرة الأندلس إلى بلاد الترك بالمشرق طولاً ، وما بين البحر المحيط والبحر الرومى عرضاً ، فمواطن اللطينيين منهم فى الجانب الغربي، ومواطن الغريقيين منهم فى الجانب الشرقى والبحر بينهما خليج القسطنطينية . وكان لكل واحد من شعبي الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة فى العالم ، واختص الغريقيون باسم اليونانيين . وكان منهم الاسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العالم ، وكانت ديارهم كما قلناه بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية بين بلاد الترك ودروب الشأم ، ثم استولى على ماوراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند ، ثم جال أرمينية وما وراءها من بلاد الشأم وبلاد مقدونية (١) ومصر والاسكندرية وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية .

---

١ — كذا هنا مقدونية بالدال المهملة وذكر يا أنها بالمعجمة وبفتح أولها وثانيها وإياه تبع ناشر ش والصواب مع المؤلف. هذا من جهة اللفظ أما من جهة الموقع فالمعروف أن مقدونيا إحدى الولايات اليونانية القديمة وأنها فى ف شمال بلاد اليونان بالجانب الغربى من الخليج كما سيقوله المؤلف وكما يعلم من مراجعة الأطلس الجغرافى التاريخى ص ٨٨ خريطة ٢٩ — ٣٠ والأطلس التاريخى خريطة ١٠ – ١٢ — ١٣ وهذه هى التى ينسب اليها الملوك المقدونيون الاسكندر فمن دونه . أما كلام يا فيستفاد منه أن مقدونيا هى من بلاد مصر واليها ينسب هؤلاء الملوك . ونحن لا نعرف أن هناك فى أفريقيا مدينة تعرف بمقدونيا أو مقدونية ، فلعل الأمر التبس على مؤرخينا العرب حيث أن نفوذ المقدونيين امتد لمصر وغيرها . وكل من يدرس التاريخ القديم يعلم مثلا من هذه الاختلاطات التى يقع فيها المؤلفون القدماء . وأقرب مثال الينا فى هذا الموضوع أمر البطالسة الذين كانوا يعتبرون فى نظر الكثيرين ملوكا على بلاد اليونان كلها فى حين أنهم إنما ملكوا مصر وأحيانا سورية وما جاورها . ومهما يكن فان مقدونيا التي ينسب اليها الاسكندر هي ولاية يونانية فى شمال بلاد اليونان في قلب أوروبا

وذكر هروشيوش (١) مؤرخ الروم أن من شعوب هؤلاء الغريقيين بنى لجدمون وبنى أ ذنناش،قال: واليهم ينسب الحكماء الا تناشيون، وهم ينسبون لمدينتهم أجدة المسماة أثينا . قال: ومن شعوبهم أيضاً بنو طمان ، وطمان ، ولجدمون ، وأثينا، كلهم بنو شمالا بن اليشاى . وقال فى موضع آخر : الجدمون أخو شمالا .

وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبنى إسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها . وكان بينهم وبين إخوانهم اللطينيين فتن وحروب . ولما استفحل ملك فارس لعهد الكينية أرادوهم على الطاعة لهم فامتنعوا ، وغزتهم فارس فاستصرخوا عليهم بالقبط فسالموهم الى محاربة الغريقيين حتى أذلوهم ، وأخذوا الجزي منهم وولوا عليهم ، ويقال إن إفريدون ولى عليهم ابنه ، وأن جده الاسكندر لأبيه من أعقابه. ويقال إن بختنصر لما ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة ، وكانوا يحملون خراجهم إلى ملك فارس عدداً من كرات الذهب أمثال البيض، ضريبة معلومة عليهم فى كل سنة ، ولما فرغوا من شأن أهل فارس ، وأنفوا ملكهم بالجزي والطاعة ، صرفوا وجوههم إلى حرب اللطينيين ، ثم استفحل أمر الايشائيين من الغريقيين ، ولم يكن قوامهم إلا الجرمونيون، فغلبوهم وغلبوا بعدهم الليطينيين والفرناسيين والأركاديين، واجتمع اليهم سائر شعوب الغريقيين ، واعتز سلطانهم، وصار لهم الملك والدولة .

وقال ابن سعيد : ان الملك استقر بعد يونان فى ابنه أغريقش فى الجانب الشرقى من خليج قسطنطينية ، وتوالى الملك فى ولده ، وقهروا اللطينيين والروم ، ودال ملكهم فى أرمينية ، وكان من أعظمهم هرقل ابن الجبار مَلْكان بن سلقوس بن اغريقش يقال انه ضرب الاتاوة على الأقاليم السبعة ، وملك بعده ابنه بلاق ، واليه تنسب الامة البلاقية ، وهى الآن باقية على بحر سُودان .

واتصل الملك فى عقب بلاق إلى أن ظهر إخوانهم الروم واستبدوا بالملك ، وكان أولهم هرُدوس بن منطرون (٢) بن رومى بن يونان ، فلك الأمم الثلاثة ، هردوس

١ — ليس تحت يدنا الآن كتاب هيرودتس ولا نسأل فى هاته الأعلام التى ينقلها المؤلف عنه تصحيفا، فليتنبه المطالع

٢ — في ش (ه — ٣٧٩) « هردوس بن مطرون »

وصار اسمه لقباً لـكل من ملك بعده ، وسمّت به يهود الشأم كل من قام بأمرها منهم

هرمس

ثم ملك بعده ابنه هرمس ، فكانت له حروب مع الفرس إلى أن قهروه وضربوا عليه الإتاوة ، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين ، وصاروا دولاً وممالك ، وانفرد الإغريقيون برئيس لهم ، وصنع مثل ذلك اللطينيون . إلا أن اللقب بملك الملوك كان لملك الروم .

مطريوش

ثم ملك بعده ابنه مطريوش (١) ، فحمل الإتاوة لملك الفرس لاشتغاله بحرب اللطينيين والإغريقيين .

فيلفوس

وملك بعده ابنه فيلفوش ، وكانت أمه من ولد سرم(؟) من ولد أفريدون الذى ملكه أبوه على اليونان ، فظهر وهدم مدينة إغريقية ، وبنى مدينة مقدونية فى وسط الممالك بالجانب الغربي من الخليج ، وكان محباً فى الحكمة،فلذلك كثر الحكماء فىدولته

الاسكندر

ثم ملك من بعده ابنه الاسكندر ، وكان معاه من الحكماء أرسطو .

وقال هروشيوش: إن أباه فيلفوش إنما ملك بعد الأسكندر بن تراوش أحد ملوكهم العظماء ، وكان فيلفوش صهراً له على أختـه لينبادة بنت تراوش ، وكان له منها الاسكندر الأعظم .

قال : وكان ملك الاسكندر بن تراوش لعهد أربعـة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة ، ولعهد أربعمائة أو نحوها من بنـاء رومة ، وهلك وهو محاصر لرومة ، قتـله اللطينيون عليها لسبع سنين من دولته . فولى أمر الغريقيين والروم من بعده صهره على أخته لينبـادة فيلفوش بن آمنته بن هركاش . واختلفوا عليـه فافترق أمرهم ، وحاربهم إلى أن انقادوا ، وغلبهم على سائر أوطانهم . وأراد بنـاء القسنطنينية فمنعه الجرمانيون بما كانت لهم ، فقاتلهم حتى استلحمهم ، واجتمـع اليـه سائر الروم والغريقيين من بنى يونان . وملك مابين المانية وجبال أرمينية .

وكان الفرس لذلك العهد قد استـولوا على الشأم ومصر ، فاعتزم فيلفوش على غزو الشأم ، فاغتاله فى طريقه بعض اللطينيين ، وقتله بثأر كان له عنده .

١ — فى ش « مطرنوس » وفى ك (١ — ٩٧) « مطرنوس » وفى م « مصرايم »

وولى من بعده ابنه الاسكندر ، فاستمر على مطالبة بلاد الشأم ، وبعث اليه ملوك فارس فى الخراج على الرسم الذى كان لعهد أبيه فيلفوش ، فبعث اليه الاسكندر: إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكلتها .

ثم زحف إلى بلاد الشأم واستولى عليها ، وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر إياها ، وامتعض أهل فارس لانتزاعه إياها من ملكتهم ، فزحف اليه دارا فى ستين ألفاً من الفرس ، ولقيه الاسكندر فى ستمائة ألف من قومه ، فغلبهم وفتح كثيراً من مدن الشأم ، ورجع إلى طرسوس، فزحف اليه دارا ، ولقيه عليها ، فهزمه الاسكندر ، وافتتح طرسوس ، ومضى وبنى الاسكندرية ، ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله .

وتخطى إلى فارس فملك بلادها ، وهدم مدينة الملك بها ، وسبي أهلها ، وأشار عليه معلمه أرسطو بأن يجعل الملك فى أسافلهم لتتفرق كلمتهم ويخلص اليه أمرهم ، فكاتب الأسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب ، وملّك على كل ناحية وتوجه ، فصاروا طوائف فى ملكهم ، واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه .

ارسطو الفيلسوف وبعض حكماء يونان

ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين ، وكان مسكنه أثينا ، وكان كبير حكماء الخليقة غير متازع،أخذ الحكمة عن أفلاطون اليونانى ، كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس، فسمى تلاميذه بالمشائين. وأخذ أفلاطون عن سقراط ، ويعرف بسقراط الدّن بسكناه فى دن من الخزف ، اتخذه لرهبانيته ، وقتله قومه أهل يونان مسموماً لما نهاهم عن عبادة الأوثان ، وكان هو أخذ الحكمة عن فيثاغورس منهم ، ويقال : إن فيثاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية ،وأخذ تاليس عن لقمان .

ومن حكماء اليونانيين ديمقراطيس وأنكيثاغورس . كان مع حكمته مبرزاً فى علم الطب ، وبعث فيه بهمن ملك الفرس إلى ملك يونان ، فامتنع من إيفاده عليه ضنانة به . وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ، ومات بصقلية ودفن بها .

ولما استولي الأسكندر على بلاد فارس تخطاها إلى بلاد السند فملكها ، وبنى

بهامدينة سماها الاسكندرية ، ثم زحف إلى بلاد الهند فغلب على أكثرها ، وحاربه فور ملك الهند ، فانهزم ، وأخذه الاسكندر أسيراً بعد حروب طويلة . وغلب على جميع طوائف الهنود ، وملك بلاد الصين والسند ، وذلت اليه الملوك ، وحملت اليه الهدايا والخراج من كل ناحية ، وراسله ملوك الأرض من أفريقية ، والمغرب ، والأفرنجة ، والصقالبة ، والسودان .

ثم ملك بلاد خراسان والترك ، واختط مدينة الاسكندرية عند مصب النيل فى البحر الرومى ، واستولى على الملوك ، يقال على خمسة وثلاثين ملكاً .

وعاد إلى بابل فمات بها ، يقال مسموماً ، سمه عامله على مقدونية ، لان أمه شكته إلى الاسكندر فتوعده ، فأهدى له سماً وتناوله ، فمات لثنتين وأربعين سنة من عمره ، بعد أن ملك ثنتى عشرة سنة ، سبعاً منها قبل مقتل دارا ، وخمساً بعده .

قال الطبرى : ولما مات عرض الملك على ابنه اسكندروس ، فاختار الرهبانية ، فملك يونان عليهم لاغوس [1] من بيت الملك ، ولقبه بطليموس . لاغوس

قال المسعودى : ثم صارت هذه التسمية لكل من يملك منهم ، ومدينتهم مقدونية ، وينزلون الاسكندرية ، وملك منهم أربعة عشر ملكا فى ثلثمائة سنة .

وقال ابن العميد : كان قسم الملك فى حياته بين أربعة من أمرائه : بطليموس فيلادلفوس ، كان على الأسكندرية ومصر والمغرب ، وفيلفوس بمقدونية وما اليها من ممالك الروم ، وهو الذى سم الاسكندر ، ودمطرس بالشأم ، وسلقتوس [2] بفارس والمشرق ، فلما مات استبد كل واحد بناحيته ، وكتب أرسطو شرح كتاب هرمس وترجمه من اللسان المصرى الى اليونانى ، وشرح مافيه من العلوم والحكمة والطلسمات ، وكتاب الاسطماخيس يحتوى على عبادة الأول ، وذكر فيه أن أهل الأقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة ، كل إقليم لكوكب ، ويسجدون له ، ويبخرون ويقربون ويذبحون ، وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزعمهم

---

١ — فى ط (٢ــ١٠) « بطليموس بن لاغوس » وكذلك فى ف والنهج القويم ص ٢٩٩

٢ — كذا هنا ، والذى تقدم للمؤلف فى الدولة الأشكانية « يلاقش سلوقس وأخيه ألطيوخس » وكذلك فى ط (٢ــ١٠) لكنه لم يجعل أنطوخس لقبا ليلاقش بل شخصا ثانيا

وكتاب الاستماطيس (١) يحتوى على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم، ومنها طلسمات لانزال المطر وجلب المياه . وكتب الأشطرطاش فى الاختبارات على سرى القمر فى المنازل والاتصالات ، وكتب أخرى فى منافع وخواص الأعضاء الحيوانيات ، والأحجار والأشجار والحشائش

وقال هروشيوش : إن الذى ملك بعد الاسكندر صاحب عسكره بطليموس ابن لاوى فقام بأمرهم ، ونزل الاسكندرية واتخذها داراً لملكهم ، ونهض كاش * ابن الاسكندر (٢) وأمه بنت دارا ولينبادة (٣) أم الاسكندر . ساروا الى صاحب انطاكية ، واسمه فشاندر (٤) فقتلهم

واختلف الغريقيون على بطليموس ، وافترق أمره ، وحارب كل واحد منهم ناحيته الى أن غلبهم جميعاً واستقام أمره . ثم زحف الى فلسطين وتغلب على اليهود ، وأثخن فيهم بالقتل والسبي والأسر ، ونقل رؤساءهم الى مصر . ثم هلك لأربعين سنة من ملكه

بطليموس فيلادلفوس

وولى بعده ابنه فلديفيش (٥) وأطلق أسرى اليهود من مصر وردّ الأواني الى البيت وحباهم بآنية من الذهب ، وأمرهم بتعليقها فى مسجد القدس ، وجمع سبعين من أحبار اليهود ترجموا له التوراة من اللسان العبراني الى اللسان الرومى واللطينى . ثم هلك فلديفيش لثمان وثلاثين سنة من ملكه

---

١ — لم يذكر ابن القفطى ولا غيره ممن سرد وثبت مؤلفات أرسطو كتبا بهذه الأسماء ولا يمكن الاعتماد على ما فى هذه النسخة لما فيها من التصحيف الذى يعسر تداركه خصوصا فى هذا المحل

٢ — لما مات الاسكندر لم يترك ولداً شرعيا ولم يعين من يخلفه بصراحة وإنما أبقى امرأته روشنك أو روكسانا (Roxana) حبلى فوضعت لثلاثة أشهر من موته ولداً سمته اسكندر إيغوس

٣ — كذا هنا والمعروف أن اسم أم الاسكندر أولمبياس ابنة نيوبتوليمس (Olympuas)

٤ — كذا هنا وهو تحريف لكاسندر الذي نازع قواد الاسكندر فى الملك وقتل أولمبياس وروكسانا وولدها ثم تغلب على بلاد اليونان مع مكدونيا ومات عام ٢٩٦ ق م

٥ — هكذا سماه المؤلف هنا ، وكذا فى ش (٥ — ٣٨٠) وهو الذى سماه المؤلف ص ١١٩ تيليماى من ملوك مصر . وسيصرح المؤلف فى الصفحة الثالثة بعد هذه بأنه فلادلفوس

* وان هركلش

انطريس — وولى بعده ابنه أنطريس (١) ويلقب أيضا بطليموس ، لقبهم المخصوص بهم الى آخر دولتهم ، فانعقدت السلم بينه وبين أهل إفريقية على مدعيون(؟) ملك قرطاجنة ووفد عليه ، وعقد معه الصلح عن قومه وزحف قواد رومة الى الغريقيين [فغلبوهم – خ] ونالوا منهم . ثم هلك أنطريس (١) لست وعشرين سنة من ملكه

فلوباذي — وولى بعده أخوه فلوباذى (٢) فزحف اليه قواد رومة فهزمهم وجال فى ممالكهم ثم كانت حروبه معهم بعدها سجالا . وزحف الى اليهود فملك الشأم عليهم ، وولى الولاة من قبله فيهم ، وأثخن بالقتل والسبي فيهم . يقال إنه قتل منهم نحواً من ستين ألفاً . وهلك لسبع عشرة سنة من ملكه

ابفانش — وولي بعده ابنه إبفانش . وعلى عهده كانت فتنة أهل رومة وأهل إفريقية التى اتصلت نحوا من عشرين سنة . وافتتح أهل رومة صقلية ، وأجاز قوادهم إلى إفريقية ، وافتتحوا قرطاجنة كما نذكر فى أخبارهم . وهلك إيفانش لأربع وعشرين سنة من دولته

قلوماظر — وولى بعده بالاسكندرية ابنه قلوماظر (٣) فزحف الغريقيون الى رومة ، وكان فيهم صاحب مقدونية وأهل أرمينية والعراق ، وظاهرهم ملك النوبة ، واجتمعوا لذلك ، فغلبهم الروما نيون ، وأسروا صاحب مقدونية. وهلك قلوماظر لخمس وثلاثين سنة من ملكه

إيرياطش — وولى بعده ابنه إيرياطش . وعلي عهده استفحل ملك أهل رومة ، واستولوا على الأندلس ، وأجازوا البحر الى قرطاجنة بافريقية فملكوها ، وقتلوا ملكها

---

(١) — فى س (٥ – ٣٨٠) ألطرطيش وفى ط (٢–١٠) وع (ص ١٠) «أورغاطيس» وفى ف (١ – ٥٩) « أورخاطيس » وهذا قريب من الاسم العجمى (ياوركيتس أو بافرجيتس) أى المحسن

(٢) فى س (٥–٣٨٠) « قلوباظر » وفى ط (٢–١٠) « فيلافطور » وهو فيليفاطور عند ع (ص ١٠١) واسمه الحقيقى فلوباتور

٣ — كذا هنا بالقاف والظاء ، وفي ش ايضا (٥–١٨١) وعند ف (١ – ٦٠) « فيلوميطور » وهو أقرب لاسمه عند الافرنج فلوميتر

أسدرُبال (١) ، وخربوا مدينتها بعد أن عمرت تسعمائة سنة من بنائها كما نذكر فى أخبارها . وزحف أيضا أهل رومة الى الفريقيين فغلبوهم ، وملكوا عليهم مدينتهم أقرنطة من أعظم مدنهم . يقال إنها كانت ثانيـة قرطاجنة . ثم هلك إيرياطش لسبع وعشرين سنة من ملـكه

١ — المعروف أنه كان لفلوميتر ثلاثة أولاد وهم بيوباتور وابنتان اسم كل منهما كليوباطرا فلما هلك ولى بعده ابنه بيوباتور (وهوبطليموس السابع) إلا أنه لم يبق فى الملك إلا بضعة أيام لأن عمه فيسكون عزله وقتله وولى الملك مكانه وهو بطليموس الثامن الذى لقب نفسه بيوركيتس الثانى تشبها بالمحسن السابق ويعرف عنـد المؤرخين بالبطين . وبما أن بيوباتور لم يملك إلا أياما قلائل كما قلنا . فقد أسقطه بعض المؤرخين من عداد البطالسـة وذكروا عمه مكانه ، فالتبس على المؤلف ذلك وخلط بين بيوباتور الذى هو ابن فيلوميتر وبين عمه الذى ولى مكانه وقد وقع فى مثل ذلك ش (٥ ـ ٣٨١)

٢ — أسدروبال (Asdrubal) وقد يعربه البعض بصـدر بعل او أسدربال ويقول توفيق المدنى (ص ٤٨) «قرطاجنه فى أربعة عصور» إن ذلك غلط ؛ وانه وجد منقوشا ، بأسم (ازر بعل ، وهو عربى وهذا الاسم يطلق على ستة من قواد قرطاجنة

أولا : صهر هملـكار والد حنبعل

ثانيا : ابن ماغون الذى امتاز فى المراتب العسكرية وقلدته أمته القضاء الأكبر احدى عشرة سنة

ثالثا : ابن هملـكار وأخو حنبعل

رابعا : ابن جسكون الذى تزوج بابنة ملك نوميديا

خامسا : المنتصر على شيبو فى عدة مواقع والذى انتحر لما حوصر لئلا يؤخذ حيا

سادسا : القائد الذى استسلم لشيبو الثانى عند خراب قرطاجنة . وكان من خبره أنه تولى مقاتلة الرومان والهجوم عليهم حتى كادوا يهلكون . ثم جاء شيبو وحاصر المدينة وضيق على أهلها وأمر بسد خليج قرطاجنة ليمنع وصول الأقوات اليها فأراد الناس أن يستسلموا فمنعهم أسدروبال ووطد نفسه معهم على المقاتلة وأكرههم على الطاعة وقتل من كان بيـده من أسرى الرومانيين ولـكن العدو تمكن من نقب المدينة وثقب أسوارها بالمنجنيقات ودخلها فالتجأ القائد الى البرج المسمى برسا وتحصن أهل المدينة فى بيوتهم ودخل الرومان المدينـة وحاصروا كل بيت على حدته وقتلوا عدداً كبيراً من الذرية والنساء ثم توجهوا لمهاجمة الحصن فطلب أهله الأمان فأمنهم شيبو واستسلم أسدروبال وظهر أمام عدوه بمظهر غير مشرف فغاظ ذلك زوجته فحرضت عليه القائد الرومانى . ثم ذبحت أولادها وقتلت نفسها ، فراراً من التلطيخ بالعار الذى ارتكبه زوجها . وأسدروبال هذا هو الذى يقصده المؤلف هنا ويقول أن الرومان قتلوه وقد سماه ملـكا مع كونه قائداً أو لعل ذلك تجوز منه بناء على ما سـبق له فى الـكلام على يوسف من أن العرب كانوا يسمون قواد المدن ملوكا أنظره (ص ٤١)

وهناك أسدروبال سابع كان مشاركا لأسدروبال السادس فى قيادة المدينة ثم تشاجرا وقتله صاحبه واشتغل بالقيادة على ما بيناه

شوطار

وولى بعده ابنه شوطار سبع عشرة سنة ، وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة ومهدوا الأندلس

الاسكندر

وملك بعده (١) أخوه الاسكندر عشر سنين

ديونشيش

ثم ابنه ديُونُشْيُش (٢) مائة وثلاثين سنة . وعلى عهده استولى الرومانيون على بيت المقدس ، ووضعوا الجزية على اليهود . وزحف قيصر يوليوس من قوادهم الى الافرنجة ، ولمِيَاش أيضا من قوادهم الى الفرس ، فغلبوهم جميعاً وما حولهم الى إنطاكية ، واستولوا على ما كان لهم من ذلك . وخرج الترك من بلادهم فأغاروا على مقدونية فردَّهم هامس * قائد الرومانيين بالمشرق على أعقابهم

كيليوباطره

وهلك ديُونُشْيُش (٢) فوليت بعده ابنته كلابطره * سنتين فيما قال هروشيوش لخمسة آلاف ونيف من مبدأ الخليقة ، ولسبعمائة سنة من بناء رومة . وعلى عهدها استبد قيصر يوليوس بملك رومة ، وغلب عليها القواد أجمع ، ومحا دولتهم منها ، وذلك بعد مرجعه من حرب الافرنج . ثم سار الى المشرق فملك الى أرمينية ونازعه مبانش (٣) هنالك فهزمه قيصر ، وفرَّ مبانش (٣) الى مصر متستجداً بملكتها. وهى يومئذ كلابطره * فبعثت برأسه الى قيصر خوفا منه ، فلم يغنها ذلك . وزحف قيصر اليها ، فملك مصر والاسكندرية من كلابطره * هذه وانقرض ملك اليونانيين ، وولى

---

١ — لم يترك بطليموس الثامن ابناً شرعيا وإنما خلف ابلته برنيكى فخلفته وملكت وحدها ستة أشهر ثم تزوجت اسكندر بن الاسكندر الأول وشاركها فى الملك ثم قتلها ليستبد بالأمر وحده لكن ذلك أغضب الشعب الذى ثار عليه وقتله ثم ولى بعده الاسكندر أخو سوتير الذى ذكره المؤلف . وينبغى أن ينبه القارئ الى ما بين قدماء المؤرخين من التخالف فى عد البطالسة وذكر أسمائهم

٢ — كذا هنا وفى ش (٥ — ٣٨١) « دنونشيش » كما ضبطناه ووقع فيه (٣ — ٤١٩) « دوتيسوس » وفى ع (ص ١٠٥) « ديانوسيوس » وفى ط (٢ — ١٠) «دونسيوس» وفى ف « دينوسيوس » وهو فى عد كثير من المؤرخين المعاصرين بطيلموس الثالث عشر المسمى بأولتيس والد كليوباطرة

٣ — كذا عند المؤلف هنا والمراد به پومبيوس الكبير (pompejus) وقد تقدمت تسميته هذا من الجزء ص ١٢٥ فمبوس بالباء الهوائية

* ساسم * كلوبطره * كلوبطريه * كلوبطريه

قيصر على مصر والاسكندرية وبيت المقدس من قبله . وذلك لسبعمائة أو نحوها من بناء رومة ، ولخمسة آلاف سنة من مبدأ الخليقة

وذكر البيهقي أن كلابطره * زحفت الى أرض اليطينيين وقهرتهم ، وأرادت العبور الى الاندلس ، فحال دونها الجبل الحاجز بين الأندلس والافرنج ، فاستعملت فى فتحه الحيل والنار حتى نفذت الى الأندلس ، وان مهلكها كان على يد أوغسطس ابن يولش ؟ ثانى القياصرة . وكذا ذكر المسعودى : وأنها ملكت ثنتين وعشرين سنة ، وكان زوجها أنطونيوس مشاركا لها فى ملك مقدونية ومصر ، وأن قيصر أوغسطس زحف اليهم ، فهلك زوجها انطونيوس فى حروبه ، ثم أراد التحكم فى كلابطره * ليستولى على حكمتها إذ كانت بقية الحكماء من آل يونان ، فخطبها ، وتحيلت فى إهلاكه وإهلاك نفسها بعد أن اتخذت بعض الحيات القاتلة التى بين الشأم والحجاز ، وأطلقتها بمجلسها بين رياحين تصبتها هنالك ، ولمست الحيات فهلكت لحينها ، وأقامت بمكانها كأنها جالسة ، ودخل أوغسطس لا يشعر بذلك حتى تناول من تلك الرياحين ليشمها ، فأصابته الحية ، وهلك لحينه وتمت حيلتها عليه ، وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها ، وذهبت علومهم ، الا ما بقى بأيدى حكمائهم فى كتب خزائنهم ، حتى بعث عنها المأمون ، وأمر باستخراجها فترجمت له من [لسانهم الى اللسان العربي والله وارث الأرض ومن عليها . انتهى كلام — خ] هروشيوش

تنبيه المؤلف الى التغاير فى عد البطالسة

وأما ابن العميد : فعد ملوك مصر والاسكندرية بعد الاسكندر أربعة عشر ، آخرهم كلابطره * كلهم يسمون بطليموس كما قال المسعودى . ولم يذكر ملوك المشرق منهم بعد الاسكندر ولا ملوك الشأم ولا ملوك مقدونية الذين قسم الملك فيهم كما ذكرناه ، إلا بذكر ملك أنطاكية من اليونانيين ، ويسميه أنطوخس كما ذكرناه الآن . وذكر فى أسماء ملوك مصر هؤلاء وفى عددهم * خلافا كثيراً إلا أنه سمى كل واحد منهم بطليموس .

* كلوبطره * كلوبطره * كلوبطره * ومددهم

فقال فى بطليموس الأول : إنه أخو الاسكندر أو مولاه اسمه فلافاذا فسدا ؟ . وأرندواس أولوغس أوفيلس ملك سبعاً وقيل أربعين .

قال وفى عصره بنى بسلقيوس وأظنه ملك المشرق منهم (١) قامة وحلب وقنسرين وسلوقية واللاذقية .

قال ومنها كان الكوهن الأعظم بالقدس سمعان بن خونيا ، وبعده أخوه ألعازار

قال وفى التاسعة من ملك لوغش جاء أنطوخش المعظم إلى بلاد اليهود واستعبدهم

وفى الحادية عشر حارب الروم فغلبوه وأسروه وأخذوا منه ابنه أقفاقش رهينة

وفى الثالثة عشر تزوج أنطيوخش كلابطرة * بنت لوغش ، زوجها له أبوها ، وأخذ سورية بلاد المقدس فى مهرها .

وفى التاسعة عشر وثب أهل فارس والمشرق على ملكهم فخلعوه ، وولوا ابنه ثم هلك لوغش .

قال ابن العميد : بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة لليونان . وملك [بطليموس كلاباطر خمساً وثلاثين سنة ثم ملك ـ خ] بطليموس بن الاسكندروس ، ويلقب غالب أثور * وملك مصر والاسكندرية والبلادالغربية إحدى وعشرين سنة ، وقيل ثمانياً وثلاثين سنة . ويسمى أيضاً فيلادلفوس أى محب أخيه ، وهو الذى استدعى أحبار اليهود وعلماءهم الاثنين وسبعين فترجموا له التوراة وكتب الأنبياء من العبرانية الى اليونانية وقابلوها بنسخهم فصحت . وكان من هؤلاء الأحبار سمعان المذكور أولا ، وعاش الى أن حمل المسيح على ذراعيه فى الهيكل ومات ابن ثلثمائة وخمسين ؟ ؟ ؟ وكان منهم ألعازار الذى قتله أنطيخوس على امتناعه من السجود لصنمه . وقتله ابن سبعين سنة

ويظهر من هذا أن بطليموس هو تلماى ، وأنه من ملوك مقدونية ، وملك

١ ـــ قال با (٣ ـ ٢١٢) و (١ ـ ٢٩٨) و (١ ـ ١٥٩) نقلا عن يحي بن جرير المتطبب فى كتاب له قال فيه « بناسلوقوس » فى السنة السادسة من موت الاسكندر اللاذقية وسلوقية وافامية وباروا وهى حلب وأداسا وهى الرها وكمل بناء أنطاكية

* وأكلوبطره . * أشور

مصر ، لأن ابن كريون قال : وفى ذلك الزمان كان تلماى من أهل مقدونية ملك مصر ، وكان يحب العلوم ، فاستدعى من اليهود سبعين من أحبارهم وترجموا له التوراة وكتب الأنبياء ، وكان فى عصره صادوق الكوهن . انتهى

وملك خمساً وأربعين سنة . وملك بعده بطليموس الأرنبا ، وقيل اسمه أرغادى ، وقيل راكب الأرنبا ، وملك أربعا وعشرين سنة ، وقيل سبعاً وعشرين ، وهو الذى بنى ملعب الخيل باسكندرية ، الذى أحرق فى عصر زينون قيصر . وملك بعده بطليموس محب أخيه . ويقال أوغسطس . ويقال فيلاذلفس ملك ست عشرة . وكان فى عصره إخميم الكوهن . وملك بعده بطليموس الصانع ويقال محب أخيه، ملك خمس سنين . وقيل خمساً وعشرين . وعلى عهده كان اليهود الكوهن ، وكان [ظالماً — خ] ضالاً غشوماً ، وقتله بعض خدمه خنقاً .

وملك بعده بطليموس محب أبيه وقيل اسمه كلافاطر ، ملك سبع عشرة سنة ، وأخذ الجزية من اليهود ، وملك بعده بطليموس المظفر ، وقيل الغالب ، وقيل محب أمه ، ملك عشرين ، وقيل أربعاً وعشرين .

وفى التاسعة عشر من ملكه خرج متتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ، ويعرف بحشمناى من بنى يوناداب من نسل هارون ، بعث أنطيخوس ملك أنطاكية ابنه الفايس بالعساكر إلى القدس ، فأعمل الحيلة فى ملكها وقتل ألعازار الكوهن ، وحمل بنى إسرائيل على السجود لآلهته ، فهرب متتيا فى جماعة من اليهود إلى الجبال ، حتى إذا خرجت عساكر يونان رجع إلى القدس ، ومر بالمذبح فوجد يهوديا يذبح خنزيراً عليه [فقتله — خ] وثار باليونانيين فقتل قائدهم وأخرجهم ، واستبد بملك القدس كما ذكرناه فى أخباره .

ثم ملك بطليموس كلاباطر أى محب أبيه خمساً وعشرين سنة ، وقيل عشرين ، وكان فى أيامه بالقدس يهودا ابن متتيا ، وبعده أخوه يوناداب ، وبعده أخوه شمعون وبعده أخوه هرقانوس واسمه يوحنان ، وهو أول من تسمى بالملك من بنى حشمناى وبعث ابنه يوحنا بالعساكر لقتال قيدونوس قائد أنطيخوس فغلبه ، وارتفع عن

اليهود الخراج الذى كانوا يعطونه لملوك سورية من أيام فيلفوس ملك المشرق .

وملك بعده بطليموس أرغادى أى الفاضل ، وقيل بطليموس الصايغ وقيل سايتظر ، ملك عشرين ، وقيل ثلاثا وعشرين ، وقيل ثلاثة عشر ، ولعهده جدّد أنطيخوس بناء أنطاكية وسماها باسمه ، ولعهده كان ملك هرقانوس على القدس وبنيه الثلاثة ، وخرب مدينة السامرة ،[ثم بناها وسماها ـــخ] « سبسطية » ولعهده أيضاً زحف أنطيخوس إلى القدس وحاصرها فصانعه هرقانوس بثلثمائة كرة من الذهب ، استخرجها من قبر داود عليه السلام.

ثم ملك على مصر والاسكندرية بطليموس المخلص وقيل مقروطون ، وقيل ؟ سعرى ، ملك ثمانى عشرة ، وقيل عشرين ، وقيل سبعاً وعشرين ، ولعهده كان الاسكندروس تلماى بن هرقانوس سابع بنى حشمناى بالقدس ، وكانت فرقة اليهود عندهم ثلاثة : الربانيون ، ثم القراؤن وهم فى الانجيل زنادقة ، ثم العباد * وهم فى الانجيل الكتبة .

ثم ملك على مصر بطليموس محب أمه ، وقيل الاسكندروس ، وقيل قيقس ، وقيل الاسكندر ، وقيل ابن المخلص ، ملك عشر سنين لا غير ، ولعهده كانت الاسكندرة ملكة على بيت المقدس ، ولعهده بطلت مملكة سورية لمائتين وسبع عشرة سنة من ملك يونان وقتل بطليموس هذا ، قتله أهل إهراقية وأحرقوه

ثم ملك على مصر بطليموس فيناس ، وقيل إيزيس ، وقيل المنفى لان كلابطرة * الملكة نفته عن الملك ، وملك ثمان سنين ، وقيل ثلاثا وعشرين يوماً ، وقيل ثمانية عشر يوماً . وبعضهم أسقطه من البطالسة ولم يذكره .

ثم ملك على مصر بطليموس يوناشيش إحدى وعشرين سنة ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل ثلاثين ولعهده كان أرستبلوس وأخوه هرقانوس على القدس

ثم ملك على مصر كلابطره * بنت ديوناشيش . ومعنى هذا الاسم الساكنة على الصخرة ، ملكت ثلاثين ، وقيل ثنتين وعشرين . وكانت حاذقة *

* ثم الطّبر * كلوبطرة * خازمة

وفى الثالثة من ملكها ، حفرت خليج الاسكندرية ، وجرى فيه الماء وبنت باسكندرية هيكل زحل والعاروص وبنت مقياسا باخميم وآخر بمدينة أنصناء

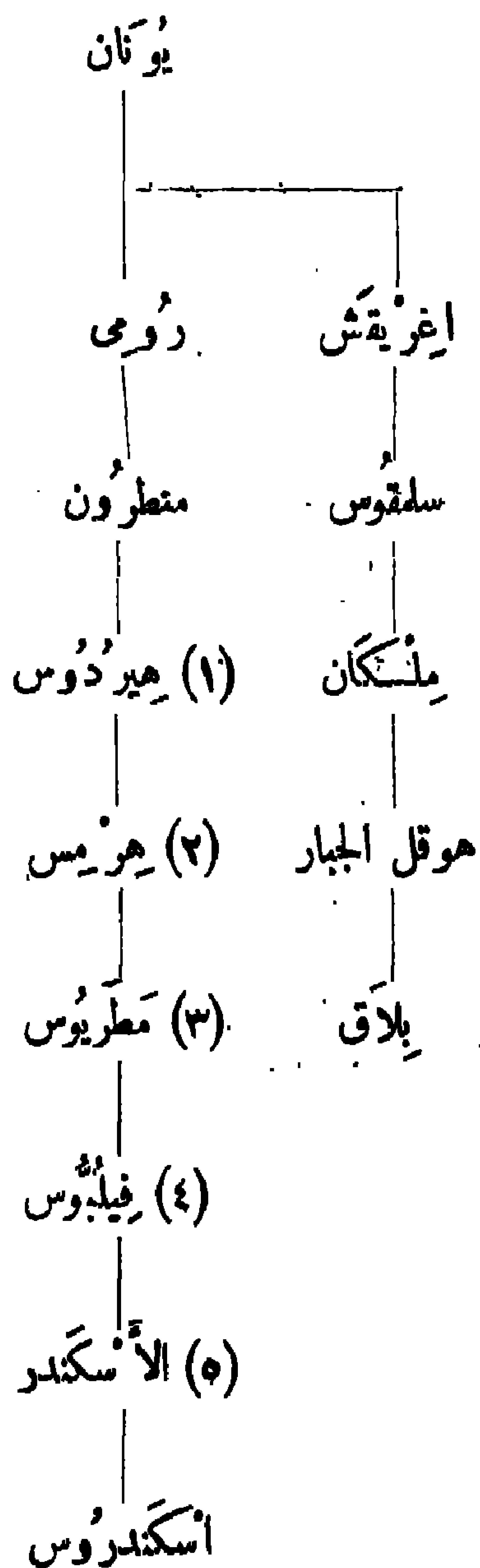
وفى الرابعة من ملكها ، ملك برومة أغانيوس ملك القياصرة ، ملك أربعاً . ثم يوليوش بعده ثلاثا . ثم أوغسطس بن مرنوجس ، فاستولى على الممالك والنواحى ، وبلغ خبره اليها فحصنت بلادها وبنت حائطا من الغرما الى النوبة شرقى النيل ، وحائطا آخر من اسكندرية الى النوبة غربي النيل ، وهو حائط العجوز لهذا العهد .

وبعث أوغسطس العساكر الى مصر مع قائده أنطريوس ومعه مترداب ملك الأرمن ، فخادعت كلابطرة أنطريوس وأوعدته بتزويجها ، فقتل رفيقه مترداب وتزوجها ، وعصى أوغسطس ، فسار أوغسطس اليها ، وملك مصر وقتل كلابطرة * وولدها وقائده أنطونيوس الذى تزوجها ، ويقال انها وضعت له سما فى مجلسها ، وإن أوغسطس تناوله ومات والله أعلم

وانقرضت مملكة يونان من مصر والاسكندرية والمغرب بملكها ، وصارت هذه الممالك للروم الى حين الفتح الاسلامى . انتهى كلام ابن العميد : والخلاف الذى ينقله عن جماعة مؤرخيهم يذكر منهم جماعة سعيد بن بطريق ، ويوحنا فم الذهب ، والمنجى ، وابن الراهب ، وأبو فانيوس . والظاهر أنهم من مؤرخى النصارى . والبقاء لله الواحد القهار ، سبحانه لا إله غيره ، ولا معبود سواه

* كلوبطرة .

عمود ملوك اليونان



فى ج بعد الجدول سطر يحتوى على ما يأتى : اسكندر بن فيلبس بن وامنته ابن هركاش الاسكندر بن ترواش. وكان اشارة لنسب فيلبس على ما نقله المؤلف سابقاً عن هرشيوس ولكن لاجل الاتفاق مع ماسبق يجب ان يكون الكلام هكذا . اسكندر بن فيلبس بن آمنته بن هركاش (ولد اخت) الأسكندر بن ترواش

عمود البطالسة على ما لابن العميد

كربانس ؟
(١) اسكندروس
(٢) فيلادلفوس
(٣) أرغادى
(٤) أغشطش
(٥) الصائغ
(٦) كيلابطرة
(٧) المظفر
(٨) كيلابطرة
(٩) أرغادى
(١٠) مريطون
(١١) اسكندروس
(١٢) فيتاس
(١٣) ذيونشيش
(١٤) كيلابطرة

عمود البطالسة على ماصدر به المؤلف

بطليموس (١)
(١) لاغوس
(٢) فيلادلفوس
(٣) إنطرطيش — (٤) قيلوباذى
(٥) أبى فانيش
(٦) قيلو فاطر
(٧) إبرياطش
(٨) شوطار — (٩) الاسكندر
(١٠) ذيونشيش
(١١) كيلوباطرة

١ — اول الملوك بمصر والاسكندرية بعد الاسكندر وكل واحد منهم يسمى بطليموس ه مؤلف

الأمم اللطينية عند المؤلف

الخبر عن اللطينيين وهم الكيتم

المعروفون بالروم من أمم يونان وأشياعهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقياصرة وأولية ذلك ومصايره

هذه الأمة من أشهر أمم العالم ، وهي ثانية الاغريقيين عند هروشيوش ، ويجتمعان في نسب يونان ، وثالثتهم عند البيهقي . ويجتمعون في نسب يونان بن عَلْجان بن يافث . واسم الروم يشملهم ثلاثتهم لما كان الروم أهل المملكة العظمى منهم

ومواطن هؤلاء الليطينيين بالناحية الغربية من خليج القُسطَنْطينية الى بلاد الأَفْرَنجة فيما بين البحر المحيط والبحر الرومي من شماليه . وملوك هذه الأمة قديما كانت لهم مدينة اسمها طروية (١)

وذكر هروشيوش : أن أول من ملك من الليطينيين أَلْفَنْش بن شطرنش بن أيوب (٢) وذلك لعهد دائرة بني اسرائيل وقد مر ذكرها . وفي آخر الألف الرابع من مبدأ الخليقة . وملك من بعده ابنه بِرْيامُش (٣) ، واتصل الملك في عقب الفنش هذا وإخوته وكان منهم كرمنش ؟ بن مرسية ؟ بن شين ؟ بن مُرْنكه الذي أَلَّفَ حروف اللسان اللطيني وأثبتها . ولم تكن قبله ، وذلك على عهد بوآثير بن

١ — طروية هي طروايا أو طراودة أو أليسون وهي عاصمة مملكة ترواده (Troie) وهي تقع في آسيا الصغرى قرب الشاطئ جنوب بوغاز الدردنيل سفح جبل أيبا كان يسكنها البلاجيون الذين كانوا يستوطنون بلاد اليونان والأرخبيل وشاطئ آسيا الصغرى وإيطاليا وجرت بينهم وبين اليونان حروب ترواده الشهيرة التي خلدها أوميروس في الياذة وانتهت بخراب المدينة ويظن أن ذلك كان بين ١٢٠٠ و ٨٠٠ ق . م . أما عاصمة هذه المملكة فقد عفت آثارها منذ قرون ولكنه يؤخذ مما توصل اليه بالبحث أنها كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية يونار باشي

٢ — في ش (٥ — ٣٨٢) « يبقش بن شطونش بن يوب »

٣ — (Priamouch)

كِلْعاد من حكام بنى إسرائيل بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدأ الخليقة . وكان بين هؤلاء اليطينيين وبين الغريقيين إخوانهم فتن طويلة ، وعلى يدهم خربت طروية مدينة اليطينيين لعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين من مبد الخليقة ، أيام عَبدُون ملك بنى إسرائيل وقد مرّ ذكره

وكان ملكهم يومئذ إناش من عقب برتامُس بن الفنش بن شطرنش وولى بعده ابنه إشكانْيُش بن إناش وهو الذى بنى مدينة ألْبَنَا (١)

ثم اتصل الملك فيهم الى أن افترق أمرهم

ثم كان من أعقابهم برقاش ؟ أيام انقراض ملك الكسدانيين * وصار للمازنيين والقضاعيين على عهد عُزْياهُ بن أمَصْيا من ملوك بنى إسرائيل ، ولعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين سنة من مبدأ الخليقة فصار الأمر فى اليطينيين لبرقاش ؟ هذا بتولية ملك المازنيين ما كان لهم وللسريانيين قبلهم من الصيت فى العالم ، والتفوق على الملوك بنسبهم وعصبيتهم

ثم اتصل الملك لابنه ولحافديه رومُلُوس (٢) وأمُاش ، وهما اللذان اختطا مدينة رومة ، وذلك لعهد أربعة آلاف وخمسمائة سنة من مبدأ الخليقة ، وعلى عهد حَزْقِيا بن أحاز ملك بنى إسرائيل ، ولأربعمائة ونيف من خراب مدينة طروية

اختطاط رومة

وكان طول مدينة رومة من الشمال الى الجنوب عشرين ميلا فى عرض اثنى عشر ميلا ، وارتفاع سورها ثمانية وأربعون ذراعا فى عرض عشرة أذرع ، وكانت من أحفل مدن العالم ، ولم تزل دار مملكة اليطينيين والقياصرة منهم حتى صبحهم الاسلام وهى فى ملكهم . وكان اليطينيون بعد روملس واملش وانقراض عقبهم قد

١ — البا أو البالنغا أى الطويلة (Albalonga) من أقدم مدن اللاتيوم وهى أم رومية على مسافة ١٠ أميال منها الى الجنوب الشرقى يقال أن الذى أسسها هو اسكانيس بن اناس

٢ — المعروف أن الأخوين اللذين إختطا مدينة روما هما روميلوس (Romulus) وريموس (Rémus) وسماهما فى ش روملس وراملش (٥ — ٣٨٣) وأما أملس فهوأموليوس جدهما الذى كفله نوميتور لكى يملك مكانه فانتصر له حفيداه وقتلا نوميتور وأرجعا جدهما الى الملك ولعل هذا الاسم اختلط على المؤلف

* السريانيين ببابل

سئموا ولاية الملوك عليهم فعزلوهم ، وصار أمرهم شورى بين الوزراء ، وكانوا يسمونهم القناصل . ومعناه الوزراء بلغتهم ، وكان عددهم سبعين ، على ما ذكر هروشيوش . ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة ، الى أن استبد عليهم قيصر يولش بن غايش أول ملوك القياصرة كما نذكر بعد .

وكانت لهم حروب مع الأمم المجاورة لهم من كل جهة ، فحاربوا اليونانيين ، ثم حاربوا الفرس من بعدهم ، واستولوا على الشأم ومصر ، ثم ملكوا جزيرة الاندلس ثم جزيرة صيقلية ، ثم أجازوا إلى أفريقية فملكوها ، وخربوا قرطاجنة، وأجاز أهل أفريقية ، اليهم وحاصروا رومة ، واتصلت الفتن بينهم عشرين سنة ، أو نحوها على ما نذكر .

وذهب جماعة من الاخباريين إلى أن الروم من (١) ولد عيصو بن اسحق عليه السلام .

قال ابن كربون كان رأنيقاز بن عيصو ولد اسمه صفوا ، ولما خرج يوسف من مصر ليدفن أباه يعقوب فى مدينة الخليل عليه السلام اعترضه بنو عيصو وقاتلوه فهزمهم وأسر منهم صفوا بن أليفاز وبعثه إلى أفريقية ، فصار عندملكها ، واشتهر بالشجاعة وحدثت الفتنة بين أعساس وبين الكيتم وراء البحر ، فأجاز اليهم أعساس فى أهل إفريقية وأثخن فيهم ، وظهرت شجاعة صفوا بن أليفاز ، ثم هرب صفوا إلى الكيتم وعظم بينهم ، وحسن أثره فى أهل أفريقية وفى الأمم المجاورة لكيتم من أموال وغيرها ، فزوجوه وملكوه عليهم . قال : وهو أول من ملك فى بلاد إسبانيا وأقام ملكاً خمسا وخمسين سنة .

ثم عدّ ابن كريون بعده ستة عشر ملكاً من أعقابه آخرهم رومُلُس بانى رومة ، وكان لعهد داود عليه السلام ، وخاف منه فوضع مدينة رومة وبنى على جميعها هيا كله

١ — تقدم للمؤلف أن حكى هذا القول وبين أن الاخذين به يستندون لكون العيص وقع فى التوراة مسمى باروم ونقل هناك عن ابن حزم فى الجمهرة تخطئة هذا المذهب قال « وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم (أولاد عيصو) كان يقال له أروم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك لأن الروم إنما نسبوا الى رومس بانى رومة انظره فى مبحث نسل ابراهيم السابق

ونسبت المدينة اليه ، وسميت باسمه ، وسمي أهلها الروم نسبة اليها. ثم عدّ بعد رومُلُس خمسة من الملوك اغتصب خامسهم رجلا فى زوجة ، فقتلت نفسها وقتله زوجها فى الهيكل ، وأجمع أهل رومة أن لا يولوا عليهم ملكاً ، وقدموا اشيوخا ثلثمائة وعشرين يدبرون ملكهم ، فاستقام أمرهم كما يجب ، إلى ان تغلب قيصر وسمى نفسه ملكاً فصاروا من بعده يسمون ملوكاً انتهى كلام ابن كريون ، وهو مناقض لما قاله هروشيوش ، فانه زعم أن بناء رومة كان لعهد داود عليه السلام ، وهروشيوش ، قال انه كان لعهد حزقيا رابع عشر ملوك بنى يهوذا من لدن داود عليه السلام وبين المدتين تفاوت .

وخبر هروشيوس (١) مقدم لان واضعيه مسلمان كانا يترجمان للخلفاء الاسلام بقرطبة وهما معروفان ، ووضعا الكتاب ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك .

قرطاجنة حروبها. خرابها بناؤها على يد اللطين

الخبر عن فتنة الكيتم

مع أهل إفريقية وتخريب قرطاجنة

ثم بناؤها على الكيتم وهم اللطينيون .

كان بناء قرطاجنة هذه قبل بناء رومة بثنتين وسبعين سنة . قال هروشيوش على يدى دُيدن بن أليشا من نسل عيصو بن إسحق ، وكان بها أمير يسمى ملكون ، وهو الذى بعث إلى الاسكندر بطاعته عند استيلائه على طرسوس ، ثم صار ملك

١ — عبارة المؤلف هنا قلقة ربما يفهم تعصب يتنزه عنه مقام بن خلدون ومقصوده أن كتاب هرشيوش هو ما هو فى القيمة والاعتبار إذ هو من مصادر المتفق على الاستمداد منه فى تاريخ القدماء وقد نقله الى العربية مترجمان مسلمان لخليفة الاسلام معروفة أمانتهما فى النقل وذلك ما يؤكد للعربى أن الترجمة التى نقلها هى مؤدى كتاب شيوس وهو لمكانته التى أشرنا لها مقدم على كتاب ابن كريون الذى لا يعرف المؤلف من واضعه إلا ما رواه فى أول نسخة كتابه بخزانة الاسكندرية حسبما سبق له أن صرح بذلك فى تاريخ الاسرائيليين ــ هذا وينبغى التنبيه الى كون المؤلف سبق أن قال ص ٨٨ أن كتاب هرشيوش ترجمه للحكم المستنصر قاضي النصاري وترجمانهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ .

إفريقية إلى أملقا من ملوكهم فافتتح صقلّية ، وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الاسكندرية بسبب أهل سَرْدانية ، وذلك لخمسين سنة من بناء رومة ، ثم وقعت السلم بينهم ، وهي السلم التي وفد فيها عتون (؟) من ملوك أفريقية على أنطريطش (١) ملك مقدونية واسكندرية ، وهو ملك الروم الاعظم ،

ثم ولى بقَرْطاجنة أملقا ابنه واسمه أَنبيل (٢) فأجاز البحر إلى بلاد الافرنج وغلبهم على بلادهم ، وزحف اليه قواد رومة ، فوالى عليهم الهزائم ، وبعث أخاه أَسدُرْبَال إلى الاندلس ، فملكها وخالفه قواد الرومانيين إلى أفريقية بعد أن ملكوا من حصون صقلية أربعين أو نحوها ، ثم أجازوا إلى أفريقية فملكوها ، وقتلوا غشول ؟ خليفة أنبيل (٢) فيها ، وافتتحوا مدينة جَرْدا ، وخرج آخرون من قواد رومة إلى الأندلس ، فهزموا أسدربال ، واتبعوه إلى أن قتلوه ، وفرّ أخوه أنبيل (٣) عن بلادهم بعد ثلاث عشر سنة من أجازته اليهم ، وبعد أن حاصر رومة وأثخن فى نواحيها ، فلحق بافريقية ، ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى إفريقية فهزموه وحاصروه ، بقرطاجنة ، حتى سأل الصلح ، على أن يغرم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة ، فأجابوه اليه ، وسكنت الحرب بينهم ، ثم ظاهر بعد ذلك أنبيل صاحب افريقية ملوك السُّريانيين على حرب أهل رومة ، فهلك فى حربهم مسموماً

وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب ، رجعوا إلى الأندلس فملكوها ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة . ففتحوها ، وقتلوا ملكها .يومئذ أنبيل (٢) ، وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة لبناء رومة

ثم دارت الحرب بين أهل رومة وملك النوبة ، واستظهر ملك النوبة بالبربر بعد أن هزمه أهل رومة ، واتبعوه إلى قَفْصَة فملكوها ، واستولوا على ذخيرتها ،

---

١ — تقدم للمؤلف فى البطالسة تسميته بأنطريس وانظر ما كتبناه هناك

٢ — يسميه الأخ احمد توفيق المدنى فى كتابه قرطاجنة فى اربعة عصور هن بعل ويقول « انه اسم عربى صريح مركب من كلمتين فلا صحة لمن يكتبه هنيبال أو هنى اليال او غير ذلك » ويقول الأستاذ اسرائيل ولفنسون ان الأستاذ أنوليتمان هو اول من وضع هذه التسمية باللغة الألمانية

٣ — صوابه أسد روبان راجع ص ١٩٠ والتعليق رقم (١)

وهى من بناء أركاش ؟ الجبار ملك الروم بالبربر ، وهزمهم أهل رومة ، فخافهم ملك البربر وأمكنوهم من ملك من ملوك النوبة إلى أن هلك فى أسرهم

وكانت هذه الحروب لعهد بطليموس الأسكندر ، بعد أن كان قواد رومة اجتمعوا على بناء قرطاجنة وتجديدها لثنتين وعشرين سنة من خرابها ، فعمرت واتصل بها لأهل رومة ملك ، على ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

القياصرة ومصيرهم

الخبر عن ملوك القياصرة من الكيتم

وهم اللطينيون ومبدأ أمورهم ومصاير أحوالهم

لم يزل أمر هؤلاء الكيتم ، وهم اللطينيون ، راجعاً إلى الوزراء [القناصل ـ خ] منذ سبعمائة سنة ، كما قلناه من عهد بناء رومة أو قبلها بقليل كما قال هروشيوش ، تقترع الوزراء فى كل سنة ، فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية كما توجبه القرعة ، فيحاربون أمم الطوائف ، ويفتتحون الممالك ، وكانوا أولاً يعطون إخوانهم من الروم اليونانيين طاعة معروفة بعد الفتن والمحاربة ، حتى إذا هلك الاسكندر ، وافترق أمر اليونانيين والروم ، وفشلت ريحهم ، وقعت فتنة هؤلاء اللطينيين ، وهم الكيتم مع أهل أفريقية ، واستولوا عليها مراراً ، وخربوا قرطاجنة ثم بنوها كما ذكرناه ، وملكوا الاندلس ، [وأثخنوا فى الجلالقة وملكوا اسمدرتة مدينة القوط واستولوا على سائر الاندلس ـ خ] ، وملكوا الشأم وأرض الحجاز ، وقهروا العرب بالحجاز وافتتحوا بيت المقدس ، وأسروا ملكها يومئذ من اليهود ، وهو أرستبلوس بن الاسكندر ثامن ملوك بنى حشمناى ، وغربوه إلى رومة ، وولوا قائدهم على الشأم .

ثم حاربوا الفماس *فكانت حربهم معهم سجالا الى أن خرج يوليوس بن غايش ومعه ابن عمه لوجيار بن مزكة الى جهة الأندلس ، وحارب من كان بها من الافرنج

* الفرس

والجلالقة ، الى أن ملك برطانية وإشبونة ورجع الى رومة واستخلف على الاندلس اكتَبْيان (١) ابن أخته يولِيان (٢) فلما وصل الى رومة وشعر الوزراء أنه يروم الاستبداد عليهم ، فقتلوه ، فزحف أكتبيان ابن أخيه من الأندلس فأخذ بثاره ، وملك رومة واستولى على أرض قسطنطينية ، وفارس ، وإفريقية والأندلس ، وعمه يوليُش هو الذى تسمى قيصر ، فصار سمة لملوكهم من بعده

وأصل هذا الاسم جَاشَرْ ، فعربته العرب الى قيصر ، ولفظ جاشر مشترك عندهم ، فيقال جاشر للشعر ، وزعموا أن يوليش ولد [له-خ] شعر تام يبلغ عينيه ، ويقال أيضاً للمشقوق جاشر . وزعموا أن [يوليش - خ] قيصر ماتت أمه وهى مُقرِب فبقر بطنها ، واستخرج يوليش . والأول أصح وأقرب الى الصواب

وكانت مدة يوليش قيصر خمس سنين

ولما ولى قيصر أكتبيان بن أخته انفرد بملك الناحية الشمالية من الأرض ، ووفد عليه رسل الملوك بالمشرق يرغبون فى ولايته ويضرعون اليه فى السلم ، فأسعفهم ودانت له أقطار الأرض ، وضرب الاتاوة على أهل الآفاق من الصغر . وكان العامل على اليهود بالشام من قبله هيردوش بن أنطفتر ، وعلى مصر ابنه غايش . وولد المسيح لثنتين وأربعين سنة خلت من ملكه . وهلك قيصر أكتبيان لست وخمسين من ملكه بعد سبعمائة وخمسين سنة لبناء رومة ، وخمسة آلاف ومائتين لمبدأ الخليقة انتهى كلام هروشيوش

وأما ابن العميد مؤرخ النصارى : فذكر عن مبدأ هؤلاء القياصرة ، أن أمر رومة كان راجعاً الى الشيوخ الذين يدبرون أمرهم ، وكانوا ثلثمائة وعشرين رجلا ، لأنهم كانوا حلفوا أن لا يولوا عليهم ملكا ، فكان تدبيرهم يرجع الى هؤلاء ، وكانوا يقدمون واحداً منهم ويسمونه الشيخ ، وانتهى تدبيرهم فى ذلك الزمان الى أغانيوس ، فدبرهم أربع سنين ، وهو الذى سمى قيصر ، لأن أمه ماتت وهو جنين

---

١ — (Octavianus) وهو الذى لقب نفسه من بعد بأوغشطس اى الفخم
٢ — فى ج « بن أخيه يونان » والصواب ما اصلحناه به

فى بطنها ، فبقروا بطنها ، وأخرجوه . ولما كبر انتهت اليه رياسة هؤلاء الشيوخ برومة أربع سنين

ثم ولى من بعده يوليوس قيصر ثلاث سنين . ثم ولى من بعده أوغسطس قيصر ابن مَرنوخس

قال : ويقال إن أوغشطش قيصر كان أحد قواد الشيخ مدبر رومة ، وتوجه بالعساكر لفتح المغرب والأندلس ، ففتحهما وعاد إلى رومة ، فملك عليهم ، وطرد الشيخ من رياسته بها وتدبيره ، ووافقته الناس على ذلك وكان للشيخ نائب بناحية المشرق يقال له قمفيوس ، فلما بلغه ذلك زحف بعساكره الى رومة ، فخرج اليه أوغسطس فهزمه وقتله ، واستولى على ناحية المشرق ، وسير عساكره الى فتح مصر مع قائدين من قواده ، وهما أنطونيوس ومترداب ملك الارمن بدمشق فتوجها الى مصر وبها يومئذ كلابطره * الملكة من بقية البطالسة ملوك يونان بالاسكندرية ومصر ، فحصنت بلادها ، وبنت بعدوتي النيل حائطين مبدؤهما من النوبة الى الاسكندرية غربا ، والى الفَرَما شرقا ، وهو حائط العجوز لهذا العهد ١١

ثم داخلت القائد أنطونيوس وخادعته بالتزويج فتزوجها ، وقتل رفيقه مترداب وعصى على أوغسطس ، فزحف اليه وقتله ، وملك مصر ، وقتل كلابطره وولديها ، وكانا يسميان الشمس والقمر ، وملك مصر والاسكندريه ، وذلك لثنتى عشرة سنة من ملكه

ولادة المسيح وسنو العالم

قال ولثنتين وأربعين سنة من ملك أوغسطس ، ولد المسيح بعدمولد يحيى بثلاثة أشهر ، وذلك لتمام خمسة آلاف وخمسمائة سنة من سنى العالم ، ولثنتين وثلاثين من ملك هيرذوس بالقدس ، وقيل لخمس وثلاثين من مملكته ، والكل متفقون على أنها لثنتين وأربعين من ملك أوغسطس

قال وسياقة التاريخ تقتضى أنها خمسة آلاف وخمسمائة شمسية من مبدأ العالم ، لأن من آدم إلى نوح ألفا وستمائة ، ومن نوح إلى الطوفان ستمائة ، ومن الطوفان إلى

* كلوبطرة * كلوبطرة

ابراهيم ألفاً وثنتين وسبعين سنة ، ومن ابراهيم الى موسى أربعمائة وخمسا وعشرين ، ومن موسى إلى داود عليهما السلام سبعمائة وستين ، ومن داود الى الاسكندر سبعمائة وستين سنة ، ومن الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة مائة وتسع عشرة سنة

هكذا ذكر ابن العميد : وانها تواريخ النصارى ، وفيها نظر ، ويظهر من كلامه أن قيصر الذي سماه أوغسطس ، وذكر أن المسيح ولد لثنتين وأربعين من ملكه هو الذي سماه هيروسش قيصر اكتبيان ، وجعل مهلكه لخمسة آلاف ومائتين من مبدأ الخليقة ، وعند ابن العميد : أن مهلكه لخمسة آلاف وخمسمائة وخمس عشرة والله أعلم بالحق من ذلك

طباريش

ثم ولى من بعده طَبَارْيُشْ قيصر ، وكان وادعا ، واستولى على النواحى ، وعلى عهده كان شأن المسيح ، وبغى اليهود عليه ، ورفعه الله من الأرض ، وأقام الحواريون من بعده واليهود يضطهدونهم ويحبسونهم على إظهار أمرهم وكان * بِلاَطس البنطى الذى كان قائداً على اليهود يسعى الى طبارْيش بأخبار المسيح وبغي اليهود عليه ، وعلى يوحنا المَعْمَدان ، وتبعتهم الحواريون من بعده بالأذية وأراه أنهم على حق فأمر بتخليه سبيلهم ، وهمَّ بالأخذ بدينهم ، فمنعه من ذلك قومه ، ثم قبض على هيردوس وأحضره الى رومه ، ثم نفاه الى الاندلس فمات بها

ثم ولى مكانه أغْرِبَاس ابن أخيه ، وافترق الحواريون فى الآفاق لاقامة الدين ، وحمل الأمم على عبادة الله ، ثم قتل طِبَارْيُش قيصر أغْرِبَّاس ملك اليهود [فعادوا الخ] الى أشر من حالهم وقتلوا أتباع الحواريين من الروم ، ومات طباريش لثلاث وعشرين من ملكه بعد ان جدَّد مدينة طَبرِيَّة فيما قال ابن العميد ، واشتق اسمها من اسمه

غايس

وملك من بعده غايـنس قيصر . وقال هَروشيش : هو (١) أخو طَبـارْيُش وسماه غايـنس فليفة من اكتبيان ، وقال هو رابع القياصرة وأشدهم * ، واراد اليهود على نصب وثنه ببيت المقدس فمنعوه

---

١ ـــ فى ش (٥ ــ ٢٨٥) « غاينوس » وسماه هرشيوش غاييس قليفه بن اكتبيانى وهو كايوس كاليغولا اى القارب الصغير لقبه له جنود ابيه (جرمانيكوس) رجاء ان يكون محققا لآمالهم ليقطع بهم الى شاطئ الحياة

* وكتب * واشرهم

وقال ابن العميد : ووقعت فى أيامه شدة على النصارى ، وقتل يعقوب أخا يوحنا من الحواريين وحبس بطرس رئيسهم ، ثم هرب الى انطاكية فأقام بها ، وقدم هرادیوس بطركاً عليها ، وهو أول البطاركة فيها . ثم توجه الى رومة لسنتين من ملك غايس ، فدبرها خمساً وعشرين سنة ، ونصب فيها الأساقفة ، وتنصرت امرأة من بيت الملك فعضدت النصارى ، ولقى النصارى الذين بالقدس شدائد من اليهود ، وكان الأسقف عليهم يومئذ يعقوب بن يوسف الخطيب

وقال ابن العميد عن المسبحى: إن فيلقس ملك مصر غزا اليهود لأول سنة من ملك غايش واستعبدهم سبع سنين

قال : وفى الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بسورية ، وهى أورشاليم وهى بيت المقدس ، أن ينصب الأصنام فى محاريب اليهود ، ووثب عليه بعض قواده فقتله

قلوديش قيصر

وملك من بعده قلوديش قيصر

قال هروشيوش : هو ابن طبارش ، وعلى عهده كتب متى الحوارى إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية

قال ابن العميد : ونقله يوحنا بن زبدى الى الرومية

قال: وفى أيامه كتب بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية ، ونسبه الى مرقص تلميذه . وكتب لوقا من الحواريين إنجيله بالرومية ، وبعث به الى بعض الأكابر من الروم ، وكان لوقا طبيباً . ثم عظم الفساد بين اليهود ، ولحق ملكهم أغرباش برومة ، فبعث معه قلوديش عساكر الروم فقتلوا من اليهود خلقا ، وحملوا الى أنطاكية ورومة منهم سبياً عظيماً ، وخربت القدس ، وانجلى أهلها ، فلم يول عليهم القياصرة أحداً لخرابها ، وافترقت اليهود على فرق كثيرة أعظمها سبعة

قال : ولسبع من ملك قلوديش دخلت بطريقة من الروم فى دين النصارى على يد شمعون الصفا ، وسمعت منه الصليب [حنتنيخ] ، فجاءت الى القدس لاظهاره ،

ورجعت الى رومة . وهلك قلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه وملك من بعده ابنه نيرون .

نيرون قيصر

قال هروشيوش: هو سادس القياصرة ، وكان غشوماً فاسقاً ، وبلغه أن كثيراً من أهل رومة أخذوا بدين المسيح فنكر ذلك وقتلهم حيث وجدوا ، وقتل بطرس رأس* الحواريين ، وأقام أريوس بطركاً برومة مكان بطرس من بعد خمس وعشرين سنة مضت لبطرس في كرسيها ، وهو رأس الحواريين ، ورسول المسيح الى رومة ، وقتل مرقص الانجيلي بالاسكندرية لثنتي عشرة من ملكه ، وكان هنالك من منذ سبع سنين بها مساعداً الى النصرانية بالاسكندرية ومصر وبرقة والمغرب ، وولى مكانه حنانيا ، ويسمى بالقبطية جنبار (؟) وهو أول البطارقة بها ، واتخذ معه الأقسة الاثنى عشر .

قال ابن العميد عن المسبحى : وفى الثانية من ملك نيرون عزل بلخس (؟) القاضى ، كان على اليهود من جهة الروم ، وولى مكانه قسطس القاضى ، وقتل بوثار رئيس الكهنونية بالمقدس ، ومات القاضى قسطس ، فثار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى ، وقتلوا أسقفهم هنالك وهو يعقوب بن يوسف النجار ، وهدموا البيعة ، وأخذوا الصليب والخشبتين ودفنوها ، الى أن استخرجتها هلانة أم قسطنطين كما نذكر بعد . وولى مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون بن كتابا ، ثم ثار بهم اليهود وأخرجوهم من المقدس لعشر من ملك نيرون ، فأجازوا الأردن ، وأقاموا هنالك . وبعث نيرون قائده أسباشيانس ، وأمر بقتل اليهود وخراب القدس ، وتحصن اليهود منه ، وبنوا عليهم ثلاثة حصون ، وحاصرهم أسباشيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها ، وأقام عليهم سنة كاملة .

وقال هروشيوش: إن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته ، فخرج عن طاعته أهل بوطانية من أرض الجوف [الشمال. خ.](١) ، ورجع أهل أرمينية

(١) تسمى المغاربة الشمال من الجهات الأربع بالجوف والجنوب بالقبلة

* وقواس

والشأم الى طاعة الفرس ، فبعث صهره على أختـه وهو يُشْبَشْيانُ بن لوجيه ، فسار اليهم فى العساكر ، وغلبهم على أمرهم . ثم زحف الى اليهود بالشأم وكانوا قد انتقضوا فحاصرهم بالقدس . وبينما هو فى حصاره إذ بلغه موت نيرون لأربع عشرة سـنة من ملـكه ، ثار به جماعة من قواده فقتـلوه ، وكان قد بعث قائداً الى جهـة الجوف والأندلس ، فافتتح بَرُطانيـة ، ورجع الى رومة بعـد مهلك نيرون قيصر فملـكه الروم عليهم ، وأنه قتـل أخاه يشبشيان ، فأشار عليه أصحابه بالانصراف الى رومة وبشره رئيس اليهود وكان أسيراً عنده بالملك ، ويظهر أنه يوسف بن كرْبون الذى مر ذِكره ، فانطلق الى رومة وخلف ابنه طِيطُس على حصار القدس ، فافتتحها ، وخرب مسجدها وعمرانها كما مر ذكره

المسانية الرومانيين !!

قال : وقتل منهم نحواً من سمائة ألف ألف (مرتين)(١) . وهلك فى حصارها جوعاً نحو هذا العدد ، وبيع من سَرَاريهم فى الآفاق نحو من تسعين ألفاً ، وحمل منهـم الى رومة نحواً من مائة ألف استبقاهم لفتيان الروم يتعلمون المقاتلة فيهم ضرباً بالسـيوف وطعناً بالرماح » ، وهى الجلوة الـكبرى . كانت لليهود بعـد ألف ومائة وستين سـنة من بناء بيت المقدس ، ولخمسـة آلاف ومائتين وثلاثين * من مبدأ

---

١ — هذا القـدر يتجاوز الامكان ولا يعقـل أن تحتوى بلاد القدس على هذا العدد من الخلق الذى يتجاوز الاثنى عشر مليونا . ونحن ننقل هنا ما ذكره ابن كربون فى تاريخه عن عدد القتلى والأسرى مع ما هو معقول أن يكون فيه من الانحراف والمبالغة ، قال ص٣١٢ : ذكر مناحيم الموكل بأحد أبواب المدينـة أنه كان أحصى من أخرج ميتاً من الباب الذى كان موكلا به فـكان عددهم مائة ألف وخمسة وعشرين ألفا وثمانمائة . وذكر رؤسـاء اليهود الذين استأمنوا الروم أنهـم أحصوا الموتى الذين أخرجوا من جميع الأبواب ليدفنوا فى مدة الحصـار والحروب التى كانت بالمدينة فـكان مبلغ عددهم سمائة ألف ، هؤلاء غير من طرح فى الآبار وسوى خلق كثير ماتوا فى الشوارع والأزقة والمنازل ولم يكن عندهم من يدفنهم، وغير من طرح الى خارج الحصن ممن مات وقتل، وغير من قتل فى القدس ولم يدفن . وأما الذى عرف من إحصاء من قتله الروم فى الحرب وغيره ومن قتـله الخوارج فى مدة تغلبهم على المدينة فـكان ألف ألف ومائة إنسان، وكان جملة من حصل من السبى مع تيطس غير من أمنه تسـعة وتسعين ألف إنسان . أما أصحاب الخوارج فان أكثرهم هلكوا فى الحرب التى كانت بينهم وبين الروم، ومن بقى منهم أسره تيطس ، فلما رحل تيطس عن أورشليم أخذهم معه فى جملة السبى الذى سبى من اليهود فـكان فى كل منزلة ينزل بها يلقى منهم للسباع التى معه الى أن هلك جميعهم ولم يبق منهم ولا واحد

* وستين

الخليقة، ولثمانمائة وعشرين من بناء رومة، فكان معه الى أن افتتحها ، وكان المستبد بها بعد مهلك نيرون قيصر ، وانقطع ملك آل يوليس قيصر لمائة وست عشرة سنة من مبدإ دولتهم ، واستقام ملك يشبشيان فى جميع ممالك الروم وتسمى قيصر كما كان من قبل* اه كلام هروشيوس

أسباشيانس — سياقة ابن العميد

وقال ابن العميد : إن أسباشيانس لما بلغه وهو محاصر للقدس أن نيرون هلك بالعساكر الذين معه ، وبشره يوسف بن كريون كهنون طبرية من اليهود بأن مصير ملك القياصرة إليه ، ثم بلغه أن الروم بعد مهلك نيرون ملكوا غلبان بن قيصر ، فأقام عليهم تسعة أشهر ، وكان ردئ السيرة . وقتله بعض خدمه غيلة ، وقد مواعوضه أتون ثلاثة أشهر ، ثم خلعوه وملكوا إبطالس ثمانية أشهر ، فبعث أسباشيانس (وهو الذى سماه هروشيوس يشبشيان) قائدين الى رومة فحاربوا إبطالس وقتلوه . وسار أسباشيانس الى رومة وبعث اليه طيطس المحاصر للقدس بالأموال والغنائم والسبي

قال : وكانت عدة القتلى ألف ألف ، والسبي تسعمائة ألف ، واحتمل الخوارج الذين كانوا فى نواحى القدس مع الأسرى ، وكان يلقى منهم كل يوم للسباع فرائس إلى أن فنوا

طيطش

قال : ولما ملك طيطش بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا إلى الأردن ، فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا . وكان الأسقف فيهم شمعان بن كاوبا ابن عم يوسف النجار ، وهو الثاني من أساقفة المقدس . ثم هلك أسباشيانس وهو يشبشيان لتسع سنين من ملكه ، وملك بعده ابنه طيطش قيصر سنتين ، وقيل ثلاثا [وقيل أربعا - خ]

قال ابن العميد : لأربعمائة من ملك الاسكندر .

وقال هروشيوش : كان متفننا فى العلوم ، ملتزما للخير ، عارفا باللسان الغريقى واللطيني .

دومريان

ثم ولى بعده أخوه دومريان (١) خمس عشرة سنة .

---

١ — (Domitien) * قبله

قال هروشيوش : وهو ابن أخت نيرون قيصر . قال : وكان غشوماً كافراً ، وأمر بقتل النصارى فعل خاله نيرون ، وحبس يُوحنا الحواري ، وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذراً أن يملكوا ، وهلك في حروب الافرنج ، وسماه ابن العميد دانسطيانوس . وقال ملك ست عشرة سنة ، وقيل تسعا ، وكان شديداً على اليهود ، وقتل أبناء ملوكهم .

وقيل له إن النصارى يزعمون أن المسيح يأتي ويملك ، فأمر بقتلهم ، وبعث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين ، وحملهم إلى رومة مقيدين ، وسألهم عن شأن المسيح ، فقالوا : إنما يأتي عند انقضاء العالم ، فخلى سبيلهم .

وفي الثالثة من دولته طرد بطرك اسكندرية لسبع وثمانين سنة للمسيح :

وقدم مكانه ملموا (؟) فأقام ثلاث عشرة سنة ومات ، فولى مكانه كرماهو (؟)

قال ابن العميد عن المسبحي : ولعهده كان أمر ليونيوس صاحب الطلسمات برومة ، فنفى ذوسطيالوس جميع الفلاسفة والمنجمين من رومة ، وأمر أن لا يغرس بها كرم ، ثم هلك ذوسطيالوس ، وهو الذي سماه هروشيوش دومريان .

نرفا وقال: هلك في حروب الافرنج ، وملك بعده نرفا ابن أخيه طيطش نحواً من سنتين ، وسماه ابن العميد ناوداس ، وقال إن المسبحي سماه نارون[الصغير ـ خ]، قال ويسمى أيضاً برسطوس ، وقال : ملك على الروم سنة أو سنة ونصفاً ، وأحسن السيرة ، وأمر برد من كان منفياً من النصارى ، وخلاهم ودينهم ، ورجع يوحنا الأنجيلي إلى أفسس بعد ست سنين .

وقال هروشيوش : أطلقه من السجن . قال : ولم يكن له ولد ، فعهد بالملك إلى

طريانس طريانس (١) من عظماء قواده ، وكان من أهل مالقة (٢) فولى بعده وتسمى قيصر

قال ابن العميد : واسمه أنطيانوس ، وسماه المسبحي طرينوس ، وملك على الروم باتفاق المؤرخين سبع عشرة سنة ، وقتل شمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس

١ — (Trajan)

٢ — في ب (١ — ٢٤٨) « انه من ايتاليكا من اسبانيا »

وإغناطيوس بطرك أنطاكية ، ولقى النصارى فى أيامه شدة ، وتتبع أئمتهم بالقتل، واستعبد عامتهم . وهو ثالث القياصرة بعد نيرون فى هذه الدولة .

ولعهده كتب يوحنا إنجيله برومة فى بعض الجزائر لسادسة من ملكه ، وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس فكثروا بها ، وعزموا على الانتقاض ، فبعث عساكره ، وقتل منهم خلقاً كثيراً

وقال هروشيوش: إن الحرب طالت بينه وبين اليهود، فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ، ثم إلى مصر والاسكندرية ، فانهزموا هنالك وقتلوا ، وزحفوا بعدها إلى الكوفة فأثخن فيهم بالقتل ، وخضد من شوكتهم .

قال ابن العميد : وفى تاسعة من ملكه مات كونيانو (١) بطرك الاسكندرية لإحدى عشرة سنة من ولايته ، وولى مكانه أمرغو (٢) ثنتى عشرة سنة أخرى .

وقال بطليموس صاحب كتاب المجسطى : إن شيلوش الحكيم رصد برومة فى السنة الأولى من ملك طرتيوس وهو أندريانوس لاربعمائة وإحدى وعشرين للاسكندر ، ولثمانمائة وخمس وأربعين لبختنصر

أيذريانوس وقال ابن العميد : خرج عليه خارجي ببابل فهلك فى حروبه لتسع عشرة سنة من ولايته كما قلناه ، فولى من بعده أيذريانوس (٣) إحدى وعشرين سنة .

وقال ابن العميد عن ابن بطريق: عشرين سنة

وقال هروشيوس إنه أثخن فى اليهود ، ثم بنى مدينة المقدس وسماها إيلياء .

وقال ابن العميد : كان شديداً على النصارى ، وقتل منهم خلقا ، وأخذ الناس بعبادة الأوثان ، وفى ثامنة ملكه خرب بيت المقدس ، وقتل عامة أهلها ، وبنى على باب المدينة عموداً وعليه لوح نقش فيه مدينة إيلياء ، ثم زحف إلى الخارجى الذى خرج على طرتيوس قبله فهزمه إلى مصر ، وألزم أهل مصر حفر خليج من مجرى النيل إلى مجرى القلزم ، وأجري فيه الحلو ، ثم ارتدم بعد ذلك .

١ — فى الخطط للعلامة المقريزى « كرتيانو »
٢ — فى الخطط « إبريمو »
٣ — (Abrianus) . Hadrianus .

وجاء الفتح والدولة الاسلامية ، فألزمهم عَمْرو بن العَاص حفره حتى يجرى فيه الماء ، ثم انسد لهذا العهد .

وكان أيلدريانوس هذا قد بنى مدينة القدس ، ورجع اليها اليهود ، وبلغه أنهم يرومون الانتقاض ، وأنهم ملّكوا عليهم زَكَرِيا من أبناء الملوك فبعث اليهم العساكر ، وتتبعهم بالقتل ، وخرب المدينة حتى عادت صحراء ، وأمر أن لا يسكنها يهودى ، وأسكن اليونان بيت المقدس . وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطش الذى هو الجلوة الكبرى . وامتلأ القدس من اليونان .

الخراب الثالث لبيت المقدس

وكان النصارى يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه .

وكانت اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات ، فمنعهم اليونان من الصلاة فيه، وبنوا هنالك هيكلاً على اسم الزُهرة

وقال ابن العميد عن المسبحى : وفى الرابعة من ملك أندريانوس بطل الملك من الرُّها وتداولتها القضاة من قبل الروم ، وبنى أيلدريانوس بمدينة أثينُوش بيتاً ،ورتب فيه جماعة من الحكماء لمدارسة العلوم

قال : وفى خامسة ملكه قدم بسطس بطركا على اسكندرية ، وكان حكيماً فاضلاً ، فلبث إحدى عشرة سنة ، ثم مات ، وقدم مكانه أمانيق (١) فى سادسة عشر من ملك أيلدريانوس ، فلبث إحدى عشرة سنة ، وهو سابع البطارقة ، ثم مات أندريانوس لإحدي وعشرين من ملكه كما مر

أنطونيش

وولى ابنه أنطونيُش . قال هروشيوش : ويسمى قيصر الرحيم . وقال ابن العميد : ملك ثنتين وعشرين . وقال الصعيديون إحدى وعشرين . قال : وفى خامسة ملكه قدّم موقيانو بطركاً باسكندرية وهو الثامن منهم ، فلبث تسع سنين ومات ، وكان فاضل السيرة ، وقدم بعده كلوتيانو ، فلبث أربع عشرة سنة ومات فى سابعه ملكه أوزاليانوس بعده ، وكان محبوباً .

وقال بطليموس صاحب المجسطي : إنه رصد الاعتدال الخريفى فى ثالثة ملك

١ — فى المرجع نفسه أرمانيون

أنطو نيوس فكان لأربعمائة وثلاث وستين بعد الاسكندر

أورالياانوس

ثم هلك أنطونيوس لثنتين وعشرين كما مر ، فملك من بعده أورَالِيانُس قال هروشيوش : وهو أخو أنطونيوس ، وسماه أورالُش وأنطونيوس الأصغر ، وقال : كانت له حروب مع أهل فارس ، وبعد أن غلبوا على أرمينية وسورية من ممالكه فدفعهم عنهما [وغلبه الافرنجة على كثير من نواحي رومة فدفعهم عنها ـ خ] وغلبهم فى حروب طويلة . وأصاب الأرض على عهده وباء عظيم ، وقحط الناس سنتين ، واستسقى لهم النصارى فأمطروا ، وارتفع الوباء والقحط بعد أن كان اشتد على النصارى . وقتل منهم خلقاً ، وهى الشدّة الرابعة من بعد نيرون

قال ابن العميد : وفى السابعة من ملكه قدم على الاسكندرية البطرك أغْرِيبوس (١) ، فلبث اثنى عشرة سنة ، ومات فى تاسعة عشر من ملك أنطونيوس الأصغر

قال : وفى أيامه ظهرت مبتدعة من النصارى ، واختلفت أقوالهم ، وكان منهم ابن دِيصَان وغيره ، فجاهدهم أهل الحق من الأساقفة ، وأبطلوا بدعتهم . وهلك أنطونيوس هذا لتسع عشرة من ملكه [وولى من بعده ابنه كُمودة ثلاث عشرة سنة وقال ابن العميد عن ابن الراهب : ثنتى عشرة سنة ـ خ]

كمودوس

وفى عاشرة ملكه ظهر أرْدَشِير بن بَابَك أول ملوك السَّاسانية ، واستولى على ملك الفُرْس ، وكان صاحب الحَضْر متملكا على السواد فغلبه ، وملك السواد* وقتله ، وقصته معروفة . وكان لعهده جالينوس المشهور بالطب ، وكان ربى معه ، فلما بلغه أنه ملك على الروم قدم عليه من بلاد اليونان وأقام عنده . وكان لعهده أيضاً دِيمُقْرَاطِس (٢) الحكيم . ولأول سنة من ملكه قدم يُلْيَانُس بطركا على أسكندرية ، وهو الحادى عشر من بطاركتها ، فلبث فيهم عشر سنين ومات .

---

١ — فى الخطط « غرنبو »

٢ — المعروف أن ديمقريطس الفيلسوف الشهير وصاحب مذهب الذى كان قبل الميلاد وانه ولد عام ٤٧٠ ق . م وعاش مائة وتسعة أعوام

* الحضر

وولى مكانه ديمتريوس ، فلبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة . ومات كُودُة (١) قيصر لثلاثة عشر كما قلناه ، فولى من بعده ورمتيلوش ثلاثة أشهر

قال ابن العميد : وسماه ابن بطريق فَرْطِنَوُش . وقال : وملك ثلاثة أشهر . وسماه غيره فرْطِيَخُوس . وسماه الصعيديون بَرْطانُوس . ومدة ملكه باتفاقهم شهران

وقال هروشيوش: اسمه اللبيس (؟) بن طيجليس (؟) ، وهو عم كودة قيصر قال : وولى سنة واحدة، وقتله بعض قواده . وأقام فى الملك ستة أشهر وقتل

قال ابن العميد[فيه-نخ] : وملك بعده يُولْيانُس قيصر شهرين ومات — يوليانس

ثم ولى سوَرْيَانوس (٢) قيصر . وسماه بعضهم سورُس . وسماه هروشيوش طَبار ُيش بن أرنت بن أنطُونيُش . واختلفوا فى مدته . فقال ابن العميد عن ابن بطريق : سبع عشرة سنة — سورس

وقال المسبحى : ثمان عشرة ..وعن أبى فانيوس ست عشرة . وعن ابن الراهب ثلاث عشرة . وعن الصعيديين سنتين

قال : وملك فى رابعة من ملك أرْدَشِير ، واشتد على النصارى ، وفتك فيهم، وسار الى مصر والاسكندرية فقتلهم وهدَّم كنائسهم وشرَّدهم كل مُشَرَّد ، وبنى بالاسكندرية هيكلا سماه هيكل الإله

قال هروشيوش : وهى الشدَّة الخامسة من بعد شدَّة نيرون

قال : ثم انتقض(٣) عليه اللطينيون ، ولم يزل محصوراً إلى أن هلك . وملك

---

١ — كان كمودوس هذا ملكا جباراً أرهق الشعب بالضرائب والغرامات فغضب عليه وقتله أحد خدمته وبه انقرضت أسرة القلاف. ثم انتخب السناتو أحد أعضائه وهو (بير تيناكس) ملكا ، فكان حازما عادلا ، ولكن الجيش ثار عليه وقتله لثلاثة أشهر من ملكه وهذا هو الذى يذكر المؤلف الخلاف فى اسمه

٢ — هو القائد ثم الملك سفيروس

٣ — الذى انتقض عليه هم أهالى اسكوسيا وهم الاسكوتلانديون الذين ثاروا واعتدوا على الحدود الرومانية فى الجزيرة البريطانية فذهب لاخضاعهم حيث توفى فى مدينة (يورك) سنة ٢١١ م

أقطونيش — من بعده أقطونيش . قال ابن العميد عن ابن بطريق : ست سنين . وعن المسبحي سبع سنين . وسماه أنطونيُش قُسطُس

قال : وكان ابتداء ملكه عندهم لخمس وعشرين، وخمسمائة من ملك الاسكندر . ولعهده سار أرْدَشِير ملك الفرس إلى نَصيبين فحاصرها ، وبنى عليها حصناً ، ثم بلغه أن خارجا خرج عليه بخراسان ، فأجفل عنهم بعد المصالحة على أن لا يتعرضوا لحصنه ، فلما رحل بنوا من وراء الحصن وأدخلوه فى مدينتهم ، ورجع أرْدَشِير ، فنازلهم وامتنعوا عليه ، فأشار بعض الحكماء بأن يجمع أهل العلم فيدعون الله دعوة رجل واحد ، ففعلوا ، فملك الحصن لوقته

وقال هروشيوش : لما ولى أنطونيُش ضَعُف عن مقاومة الفرس،فغلبوا على أكثر مدن الشأم ونواحى أرمينية ، وهلك فى حروبهم

مقرين بن مزكة — وولى بعده مَقْرين بن مُزكة ، وقتله قواد رومة لسنة من ملكه . وكذا قال ابن العميد . [قال ــ خ] : وسماه ابن بطريق بَقْرُونْشوش . والمسبحي : هِرقَلْيانوس .

أنطونيش — قالوا جميعاً : وملك من بعده أنطونيُش . قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب : ثلاث سنين . وعن المسبحي والصعيديين أربع سنين

قال : وفى أول سنة من ملكه بنيت مدينة عَمَّان بأرض فلسطين ، وملك سابور بن أردشير مدناً كثيرة من الشأم . ومات أنطُونيُش فملك من بعده اسكندروس لثلاث وعشرين من ملك سابور بن أردشير ، فملك على الروم ثلاث عشرة سنة . وكانت أمه محبة فى النصارى . وقال هروشيوش : ملك عشرين سنة وكانت أمه نصرانية ، وكانت النصارى معه فى سعة من أمرهم

اسكندروس

قال ابن العميد : وفى سابعة ملكه قدمَ يَاوكلاً بطركاً بالاسكندرية ، وهو الثالث عشر من البطاركة ، فلبث فيهم ست عشرة سنة ومات

قال هروشيوس : ولعشر من ملكه غزا فارس ، فقتل سابور بن أردشير ، وانصرف ظافراً ، فثار عليه أهل رومة . وقتلوه وملك * من بعده مَخشِيِيان بن

مخشميان

* وولى

لوجية ثلاث سنين ، ولم يكن من بيت المُلْك ، وإنما ولوه لأجل حرب الافرنج . واشتد على النصارى الشدّة السادسة من بعد نيرن

وأما ابن العميد ، فسماه فقيموُس ، ووافق على الثلاث سنين فى مدته ، وعلى لقى النصارى منه ، وأنه قتل منهم (١) سَرْجبوس فى سَلَمْيَة ، وواجوس فى بَالِس على الفرات ، وقتل بطرك أنطاكية فسمع أسقف بيت المقدس بقتله ، فهرب وترك الكرسى .

قال : وفى ثالثة ملكه ملك سابور بن أردشير ، خلاف ما زعم هروشيوس من أنه قتله . ثم هلك فقيموس (؟) أرْمَشْميان (؟)

يونيوس

وولى من بعده يُونيُوس ثلاثة أشهر ، وقتل فيما قال ابن العميد . وقال : سماه أبو فانيُوس لوكَش قيصر . وابن بطريق : بِلِينَايُوس . ولم يذكره هروشيوش

غردبانوس

ثم ملك غُرْدِيَانُوس قيصر

قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب : أربع سنين . وعن المسبحى والصعيديين ست سنين

وسماه أبو فانيُوس فِردْينُوس والصعيديون : قُرْطانوس . قال : وكان ملكه لإحدى وخمسين [سنةـخ] وخمسمائة من ملك الاسكندر

وقال هروشيوش غُرْدِيَار بن بلِيسان . قال : وملك سبع سنين ، وطالت حروبه مع الفرس ، وكان ظافراً عليهم ، وقتله أصحابه على نهر الفرات

قال : وولى بعده فِلفُّش (٢) بن أوليان بن أنطونيُش سبع سنين ، وهو ابن عم الاسكندر الملك قبله ، وأول من تنصَّر من ملوك الروم

وقال ابن العميد عن الصعيديين : ملك ست سنين ، وقيل تسع سنين ، وكان ملكه لخمس وخمسين وخمسمائة من ملك الاسكندر ، وآمن بالمسيح . وفى أول سنة

١ — قال ع ص ١٢ فى هذا الملك « . . . واضطهد النصارى وقتل سرجيس وباخوس الشاهدين وتوفريانس الأسقف مع جماعة من المؤمنين

٢ — هذا هو فيلبس العربى وكان بصريا من ولاية الرومانيين ولعله من مهاجرتهم . ومما يعرف به احتفاله بذكرى مرور ألف سنة على بناء رومية . انظر هنج ص٥٢٤ .

من ملكه قدم دِنُوشيُرش بطركاً بالاسكندرية ، وهو رابع عشر البطاركة بها ، فلبث تسع عشرة سنة

ولعهد فِيلِفُش هذا قدم غُرْدَيانُوس أسقفاً على بيت المقدس بعد هروب مركيُوس ، ثم غاد من هروبه فأقام شريكا معه سنة واحدة . ومات غرديانُوس فانفرد مركيوش أسقفاً ببيت المقدس عشر سنين

دافيوس

قال : وقتل فيلفُش قيصر قائدٌ من قواده يقال له داُفيُس (١) وملك مكانه خمس سنين

وقال عن المسبحى وابن الراهب : سنة . وعن ابن بطريق : سنتين

قال : وكان يعبد الأصنام ، ولقى النصارى منه شدة ، وكان من أولاد الملوك ، وقتل بطرك رومة ، وأجاز من مدينة قرطاجنة الى مدينة أفسُسْ ، وبنى بها هيكلا وحمل النصارى على السجود له . قال : وفى أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف وظهروا بعده فى أيام تاوذُوسيُوس

وأما هروشيوش فسماه داجية بن مخشميان . وقال : ملك سنة واحدة

وكانت على النصارى فى أيامه الشدة السابعة ، وقتل بطرك رومة منهم

غالش قيصر واليريانس واضطراب المؤرخين فى اسمه وفيمن ولى بعده

وولى من بعده غالُش قيصر سنتين ، واستباح (٢) فى قتل النصارى ، وكان فى أيامه وباء عظيم أقفرت له المدن ، ومات فملك من بعده واليريانس

وقال هرشيوش هو غالُش بن يُولياش

وقال ابن بطريق : إن يولياش كان شريكاً له فى ملكه ، ومات قبله .

قال ابن العميد : إحدى عشرة سنة ، لسبعين وخمسمائة من ملك الاسكندر .

وقال هروشيوش وابن بطريق : ملك خمس عشرة سنة واسمه غاليوُش .

---

١ — فى ع ص ١٢٧ « دوقيوس قيصر وتبع فى ش (٥ — ٣٨٩) هروشيوش فسماه داجيه بن مخيشان وفى هج ص ٥٢٤ « ديسيوس »

٢ — فى ج « واستباح فى قتل النصارى وباء عظيم أقفلت له المدن وماهروشيوس هوغالش » والزيادة من ش (٥ — ٣٩٠) لتتم المعنى ويرتبط الكلام

وقال المسبحى خمس عشرة سنة ، وسماه داقيوس، وغاليوش ابنه . وقال آخرون اسمه أو رليوش . وملك خمس سنين

وقال أبو فانيوس : اسمه غليوس . وملك أربع عشرة سنة

وقال الصعيديون : ملك كذلك . واسمه أوراليونوس .

قال ابن العميد : وكان يعبد الأصنام ، ولقى النصارى منه شدة . وفى أول سنة من ملكه قدم مكتيموس بطركاً بالاسكندرية ، وهو الخامس عشر من بطاركتها فلبث ثنتى عشرة سنة ومات ، وفى خامسة ملكه قدم أسكندروس أسقفاً ببيت المقدس، ثم قتله بعد سبع سنين ، وبعث ابنه فى عساكر الروم لغزو الفرس ، فانهزم وحمل أسيراً إلى كسرى بهرام فقتله .

غليلش

وقال هرشيوش : ولى غلينوش خمسةعشرة سنة ، فاشتد على النصارى الأمر، وقتلهم ، وقتل معهم بطرك بيت المقدس ، وكانت له حروب مع الفرس أسره فى بعضها ملكهم سابور ، ثم منّ عليه وأطلقه ، ووقع فى أيامه برومة وباء عظيم ، فرفع طلبه عن النصارى بسببه

وفى أيامه خرج القوط من بلادهم ، وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية وبلاد التبط ، وكان هؤلاء القوط يعرفون بالسيسيين ، وكانت مواطنهم فى ناحية بلاد السريانيين ، فخرجوا لعهد غلينوش هذا وغلبوا كما قلناه على بلاد الغريقيين ومقدونية وعلى مزية * وهلك غلينوش قتيلاً على يد قواد رومة .

فلوديوش

ثم ملك فلوديوش قيصر سنة واحدة .

وقال ابن العميد عن المسبحى : سنة وتسعة أشهر ، لثمانين وخمسمائة للاسكندر وفى أول سنة من ملكه قدم يونس السميصاطى بطركا بانطاكية ، فلبث ثمان سنين ، وكان يقول بالوحدانية ، ويجحد الكلمة بالروح ، ولما مات اجتمع الأساقفة بأنطاكية وردوا مقالته .

وقال هروشيوس : ولى بعد غلينوش فلوديس بن يلاريان بن موكله ، فنسبه هكذا ، وقال فيه: من عظماء القواد ولم يكن من بيت الملك ، ودفع القوط المتغلبين عن

* وعلبرية

مقدونية من منذ خمس عشرة سنة عليها ، ومات لسنتين من ملكه ، وهذا كما قال المسبحى .

وقال هروشيوش : ولى بعده أخوه نطيل (١) سبع عشرة يوما وقتله بعض القواد ، ولم يذكر ذلك ابن العميد .

أوريليانس

ثم ملك بعده أوريليانُش ست سنين ، وسماه ابن بطريق أوراليُوس ، والمسيحى أُرينوس ، وأبو فانيوس أُوليوش ، وهروشيوش : أوراليان بن بلنسيان . وقال ملك خمس سنين .

قال ابن العميد : وفى الرابعة من ملكه قدم تاوَبا بطركاً بالاسكندرية سادس عشر البطاركة ، فلبث عشر سنين . وكان النصارى يقيمون الدين خفية ، فلما صار بطركاً قابل الروم ولاطفهم بالهدايا ، فأذنوا له فى بناء كنيسة مريم ، وأعلنوا فيها بالصلاة .

قال : وفى سادسة ملكه ولد قُسطنطين

وقال هروشيوش : إن أورلْيان بن بلَنْسيان هذا حارب القوط فظفر بهم ، وجدّد بناء رومة ، واشتد على النصارى تاسعة بعد نيرون، ثم قتل

طافيش

فولى بعده طافُيش بن إلْياس ، وملك قريبا من سنة

وقال ابن العميد اسمه طافسْوس ، وملك ستة أشهر . وقال ابن بطريق : اسمه طافساس ، وملك تسعة أشهر (٢)

فروبوس فاروش

ثم ملك فرُوبُوس قيصر خمس سنين ، وقال أبو فانيوس : اسمه فروش . وقال بن بطريق وابن الراهب والصعيديون : ست سنين .

وقال المسبحى : سبع سنين . وسماه الاكيوس وارفيون . وسماه ابن بطريق

---

١ — فى ش « قنطل »

٢ — ذكر ع بعده ملكا آخر هو ملوريانوس قيصر ، ملك شهرين وقتل بمدينة طرسوس انظره ص ١٣١ ، وسماه ك (١ — ١١١) « فولورنوس » وقال : « إنه ملك خمسة وعشرين يوما » ومثله فى ط (٢ — ٢٦) وفى هج ص ٥٣٠ « إن فلوريان هذا إنما كان مدعيا للملك بعد موت تبيش (طافيش) دون أن تبايعه الرعية والجند . ولعل ذلك هو عذر المؤلف فى إسقاطه

بروش . وسماه هروشيوش [فرويش بن كلوديش ، وقال قتله قوّاد رومة ، ثم ولى بعده فاريوش قيصر سنتين ، وقال المحبي ثلاثة وسماه بوروش وسماه هروشيوش ـ خ] فاروش (١) بن أنطويس

قال : وتغلب على كثير من بلاد الفرس

وقال ابن العميد : كان ملكه لسابعة من ملك سابور ذى الأكتاف ، ولخمسمائة وثنتين وتسعين من ملك الاسكندر

وكان شديداً على النصارى ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهلك هو وابناه فى الحرب

وقال هروشيوس : ولما هلك فاروس ولى من بعده ابنه منارِيان ، وقتل لحينه ، ولم يذكره ابن العميد . — منارِيان

ثم ملك ديقلاديانوس إحدى وعشرين سنة . وقال المسبحى عشرين سنة وقال غيره ثمانى عشرة سنة ، وملك لخمسمائة وخمس وتسعين للاسكندر . — ديقلاديانوس

وقال غيرهم : كان اسمه عربيطا (٢) وارتقى فى أطوار الخدمة عند القياصرة الى أن استخلصه فاروس وجعله على خيله ، وكان حسن المزماز . ويقال إن الخيل كانت ترقص طرباً بالمزامير ، وعشقته بنت فاروس الملك ، ولما مات أبوها وإخوتها ، ملكها الروم عليهم ، فتزوجته وسلمت له فى الملك ، فاستولى على جميع ممالك الروم [وقدّم ولده الأكبر واسمه مكسيانوس على ناحية المشرق إلى بابل والمداين ومكيموس الأصغر على ممالك الروم ـ خ] وما والاها ، وقسطنطيس ابن عمه

١ — ليست لدينا هذه الأصول التى نقل عنها المؤلف انرجع اليها إنما الذى يظهر لنا ويستفاد من ع و ش و ط و ج وغيرها من كتب التاريخ أن المؤلف غلط بين شخصين هما : بروبوس (فروبوس وقاروس وقاربوس) (ومجمل الأمر أنه لما هلك طافيس ولى من بعده بروبس قيصر فملك خمس أو ست أو سبع سنين على اختلاف بين المؤرخين فقتله جنده بمدينة سرمين سنة ٢٨٢ ب . م وملك من بعده كاروس) قاروس (سنة أو سنتين او ثلاث سنين ومات بين النهرين حتف انفه . وقيل قتله بعض خاصته سنة ٢٨٣ ب . م وهو الذى كان ملكا لسابعة سابور ذى الأكتاف وقتل ولداه نونيريانس (منارِيان) وقورينوس الأول بأفريقية وقيل فى البسفور والثانى فى حرب الجرامقة .

٢ — فى ش (٥ ـ ٣٩١) « وقيل اسمه غرنيطا »

على بلاد أشيا وبيزنطية (١) وأقام هو بأنطاكية وله الشأم ومصر إلى أقصى المغرب

وفى تاسعة عشر من ملكه انتقض أهل مصر والاسكندرية فقتل منهم خلقاً ، ورجع إلى عبادة الأصنام ، وأمر بغلق الكنائس ، ولقى النصارى منه شدة ، وقتل القسيس مارجرس ، وكان من أكابر أبناء البطارقة ، وقتل ملفوس منهم أيضاً

وفى عاشرة ملكه قدم مار بطرس بطركاً بالاسكندرية ، فلبث عشر سنين وقتله ، وجعل مكانه تلميذه اسكندروس ، وكان كبير تلامذته أريوس (٢) كثير المخالفة له ، فسخطه وطرده . ولما مات مار بطرس رجع أريوس عن المخالفة ، فأدخله اسكندروس الى الكنيسة وصيّره قسًّا

قال ابن العميد : وفى أيام ديقلاديانوس خرج قسطنطيش ابن عمه ونائبه على بيزنطيا وأشيا ، ورأى هلانة ، وكانت تنصرت على يد أسقف الرها ، فأعجبته ، وتزوجها ، وولدت له قسطنطين ، وحضر المتجمون لولادته فأخبروا بملكه ، فأجمع ديقلاديانوس على قتله ، فهرب إلى الرها ، ثم جاء بعد موت ديقلاديانوس فوجد أباه قسطنطيش قد ملك على الروم ، فتسلم الملك من يده على ما نذكر

وهلك ديقلاديانوس لعشرين سنة من ملكه ، ولستمائة وست عشرة سنة من ملك الاسكندر

مقسيمانوس ومقطوس

وملك من بعده ابنه مقسيمانوس

قال ابن بطريق : سبع سنين . وقال المسبحى وابن الراهب : سنة واحدة . قالوا : وكان شريكه فى الملك مقطوس ، وكان أشد كفراً من ديقلاديانوس ، ولقى النصارى منهما شدة ، وقتلا منهم خلقاً كثيراً . وفى أول سنة من ملكه قدم الاسكندروس تلميذ مار بطرس الشهير بطركاً بالاسكندرية ، فلبث فيهم ثلاثا وعشرين سنة

« وعلى عهد مقسيمانوس تذكر تلك الخرافة بين المؤرخين من أن سابور ملك

١ — يظهر أن هاتين اللفظتين تصحفتا على آسيا وبريطاليا

٢ — فى المقريزى « أورتسلاوس » وراجع ع (ص ١٣١) وهيج (ص ٥٣٢) وما بعدها تستبين لك معالم هذا الفصل الذى لم يحرره المؤلف

الفرس دخل أرض الروم متنكرا ، وحضر مكان مقسميانوس [فى صنيع وعرفه بعض الحكماء بالفراسة فى نعوته وخلقه فقبض عليه مقسميانوس - خ] وسجنه فى جلد بقرة ، وسار الى مملكة فارس وسابور فى ذلك الجلد ، وهرب منه ولحق بفارس وهزم الروم فى حكاية مستحيلة وكلها أحاديث خرافة » والصحيح منه أن سابور سار إلى مملكة الروم فخرج اليه مقسميانوس [وكانت بينهم حروب ، ثم خرج قسطنطين من قسطنطينية على مقسميانوس —خ] واستولى على ملكه كما نذكر بعد

وأما هروشيوش : فلما ذكر مناريان قيصر بن ظاريوس وأنه ملك بعد أبيه وقتل لحينه ، ثم قال : وقام بملكهم ديوقاريان وثأر من قاتله ، ثم خرج عليه أقْرِيرِ بن قارْيُوس فقتله ديوقاريان بعد حروب طويلة ، ثم انتقض عليه أهل ممالكه ، وثار الثوار ببلاد الافرنجة والأندلس وأفريقية ومصر ، وسار اليه سابور ذى الأكتاف فدفع ديوقاريان إلى هذه الحروب كلها مَخشيمْيان هِركوريُش وصيره قيصر ، فبدأ أولا ببلاد الافرنجة فغلب الثوار بها وأصلحها ، وكان الثائر الذى بالأندلس قدملك بُرْطانية سبع سنين ، فقتله بعض أصحابه ، ورجعت بُرطانية إلى ملك ديوقاريان ، ثم استعمل مَخشيميان خليفة ديوقاريان صهره قسطنطيُس وأخاه مَخشمس ابنى ولينُوس فمضى مَخشمس الى إفريقية وقهر الثوار بها ، وردّها إلى طاعة الرومانيين وزحف ديوقاريان قيصر الأعظم إلى مصر والاسكندرية فحضر الثائر بها الى أن ظفر به وقتله ، ومضى قسطنطيُس إلى اللّمانيين فى ناحية بلاد الافرنج فظفر بهم بعد حروب طويلة ، وزحف مَخشمْيان خليفة ديوقاريان الى سابور ملك الفرس ، فكانت حروبه معه سجالا حتى غلبه وأصاب منه ، واستأصل مدينة غُورة والكوفة من بلاده سبياً وقتلا ، ورجع إلى رومة

ثم سرحه ديوقاريان قيصر الى حروب أهل غالس من الافرنجة ، فأثخن فيهم قتلا وسبياً ، ثم اشتد ديوقاريان على النصارى الشدة العاشرة بعد نيرون ، وأثخن فيهم بالقتل ودام ذلك عليهم عشر سنين

ثم اعتزل ديو قاريان وخليفته مخشميان الملك ورفضاه ، ودفعاه الى قسنطس

ابن وليتنوس وأخيه مخشمس ، ويسمى غلاريُس ، فاقتسما ملك الرومانيين ، فكان لمخشمس غلاريس ناحية الشرق ، وكان لقسنطس ناحية المغرب ، وكانت إفريقية وبلاد الأندلس وبلاد الافرنج فى ملكته . وهلك ديوقاريان ومخشميان معتزلين عن الملك بناحية الشأم ، وأقام قسنطس فى الملك ، ثم هلك ببرطانية ، وأقام بملك اللطاينيين من بعده ابنه قسطنطين . انتهى كلام هروشيوش

ويظهر أن هذا الملك الذى سماه ابن العميد ديقلاديانوس هو الذى سماه هروشيوش ديوقاريان ، والخبر من بعد ذلك متشابه ، والاسماء مختلفة . ولا يخفى عليك وضع كل اسم فى مكانه من الآخر . والله سبحانه وتعالى أعلم

القياصرة اللاتين المتنصرة أو دولة رومانيا الشرقية

الخبر عن القياصرة المتنصرة من اللطينيين

وهم الكيتم واستفحال ملكهم بقسطنطينية ثم بالشأم بعدها

الى حين الفتح الاسلامى ثم بعده الى انقراض أمرهم

هؤلاء الملوك القياصرة المتنصرة من أعظم ملوك العالم وأشهرهم ، وكان لهم الاستيلاء على جانب البحر الرومى من الأندلس الى رومة إلى القسطنطينية الى الشام الى مصر والاسكندرية ، الى إفريقية والمغرب ، وحاربوا الترك والفرس بالمشرق ، والسودان بالمغرب ، من النوبة فمن وراءهم

نجاح المسيحية فى المملكة

وكانوا أولا على دين المجوسية ، ثم بعد ظهور الحواريين ونشر دين النصرانية بأرضهم وتسلطهم عليهم بأرضهم مرة بعد أخرى أخذوا بدينهم .

وكان أول من أخذ به قسطنطين بن قسنطيُس بن وليتنوس وأمه هلانه بن مخشميان قيصر خليفة ديوقاريان قيصر ، الثالث والثلاثون من القياصرة ، وقد مرّ ذكره آنفاً

وإنما سمي هذا الدين دين النصرانية نسبة الى ناصرة القرية التى كان فيها مسكن عيسى عليه السلام عند مارجع من مصر مع أمه

وأما نسبه الى نصران فهو من أبنية المبالغة . ومعناه أن هذا الدين فى غير أهل عصابة فهو دين من ينصره من أتباعه

ويعرف هؤلاء القياصرة ببنى الأصفر .

وبعض الناس ينسبهم إلى عيصو بن إسحق .

وقد أنكر ذلك المحققون وأبوه .

وقال أبو محمد بن حزم عند ذكر إسرائيل عليه السلام ، كان لإسحق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب ، واسمه عيصاب ، وكان بنوه يسكنون جبال السراة من الشأم إلى الحجاز ، وقد بادوا جملة ، إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده ، وهو خطأ ، وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أروم ، فظنوا أن الروم من ذلك الموضع ، وليس كذلك ، لان الروم إنما نسبوا إلى رومُلس باني رومة ، وربما يحتجون بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة تبوك للحارث بن قيس هل لك فى جلاد بنى الاصفر (؟) [العام ـ خ] ولا حجة فيه لاحتمال أن يريد بنى عيصاب على الحقيقة لان قصده كان إلى ناحية السُّراة وهو مسكن بنى عيصو .

(قلت) [وهو موضع ـ خ] مسكن بنى عيصو هؤلاء ، كان يقال له أيدوم بالذال المعجمة إلى الظاء أقرب ، فعربتها العرب راء ومن هنا جاء الغلط والله تعالى أعلم ، وهذا الموضع يقال له يسعُون * أيضاً والاسمان له فى التوراة .

قسطنطين

قال ابن العميد : خرج قسطنطين المؤمن على مقسيانوس فهزمه ورجع إلى رومة ، وازدحم العسكر على الجسر ، فوقع بهم فى البحر ، وغرق مقسيانوس مع من غرق ، ودخل قسطنطين رومة ، وملكها بعد أن أقام ملكاً على بيزنطية من بعد أبيه ستا وعشرين سنة ، فبسط العدل ، ورفع الجور ، وخرج قائده يسكن ناحية قسطنطينية ، وولاه على رومة وأعمالها ، وألزمه باكرام النصارى ، ثم انتقض عليه وقتل النصارى وعبد الأصنام ، وكان فيمن قتل مار يادس بطرك بطارقة ، فبعث قسطنطين العساكر إلى رومة لحربه ، فساقوه أسيراً وقتله ، ثم تنصر قسطنطين فى مدينة نيقيا * لثنتى عشر من ملكه وهدم بيوت الأصنام ، وبنى الكنائس ،

* سبعين * سيقيا

ولتاسع عشرة من ملكه كان مجمع الأساقفة بمدينة نيقية ، ونفى أريوس كما ذكرنا ذلك كله من قبل ، وأن رئيس هذا المجمع كان اسكندروس بطرك الاسكندرية ، وفى الخامسة عشر من رياسته توفى بعد المجمع بخمسة أشهر .

وقال ابن بطريق : كانت ولاية اسكندروس فى الخامسة من ملك قسطنطين ، وبقى ست عشرة سنة ، وقتل فى السادسة والعشرين من ملك ديقلاديانوس . وأنه كان على عهده أوسانيوس أسقف قيسارية .

قال المسبحى : مكث بطركاً ثلاثا وعشرين سنة ، وكسر صنم النحاس الذى هو هيكل زحل باسكندرية ، وجعل مكانه كنيسة فهدمها العبيديون عند ملكهم اسكندرية .

وقال ابن الراهب: ان أسكندروس البطرك ولى أول سنة من ملك قسطنطين فمكث ثنتين وعشرين سنة ، وعلى عهده جاءت هلانة أم قسطنطين لزيارة بيت المقدس ، وبنت الكنائس ، وسألت عن موضع الصليب فأخبرها مقاريوس الأسقف أن اليهود أهالوا عليه التراب والزبل ، فأحضرت الكهنونية وسألتهم عن موضع الصليب وسألتهم * رفع ماهنالك من الزبل ، ثم استخرجت ثلاثة من الخشب وسألت أيتها خشبة المسيح ، فقال لها الأسقف : علامتها أن الميت يحيا بمسيسها ، فصدقت ذلك بتجربتها واتخذوا ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب ، وبنت على الموضع كنيسة القمامة ، وأمرت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس ، وكان ذلك لثلثمائة وثمان وعشرين من مولد المسيح عليه السلام

وفى حادية وعشرين من ملك قسطنطين كان مهلك اسكندروس البطرك وولى مكانه تلميذه أثناشيوش كانت أمه تنصرت على يده ، فربي ابنها عنده ، وعلمه ، وولى بطركاً مكانه ، وسعى به أصحاب أريوش إلى الملك بعده مرتين بقى فيهما على كرسيه ، ثم رجع ، وحمل قسطنطين اليهود بالقدس على النصرانية فأظهروها وافتضحوا فى الامتناع من أكل الخنزير ، فقتل منهم خلقاً وتنصر بعضهم ، فزعموا أن أحبار اليهود نقصوا من سنى مواليد الآباء نحواً من ألف وخمسمائة سنة ليبطلوا

* وألزمتهم

مجيء المسيح فى السوابيع التى ذكر دانيال أن المسيح يظهر عندها، وأنها لم يحن وقتها ، وأن التوراة الصحيحة ، إنما هى التى فسرها السبعون من أحبار اليهود لتلماى * ملك مصر

وزعم ابن العميد أن قسطنطين أحضرها وأطلع منها على النقص الذى قاله . قال وهى التوراة التى بيد النصارى الآن

قال ثم أمر قسطنطين بتجديد مدينة بيزنطية وسماها قسطنطينية باسمه ، وقسم ممالكه بين أولاده ، فجعل لقسطنطين قسطنطينية وما والاها ، ولقسطنطين الآخر بلاد الشأم إلى أقصى المشرق ، ولقَسْطُوس الثالث رومة وما والاها

قال : وملك خمسين سنة ، منها ست وعشرون ببيزنطية قبل غلبة مقسميانوس ومنها أربع وعشرون بعد استيلائه على الروم ، وتنصر فى ثنتى عشرة من آخر ملكه وهلك لستمائة وخمسين للاسكندر

قال هروشيوش كان قُسْطَنْطين بن قُسْنطيش على دين المجوسية ، وكان شديداً على النصارى ونفى بطرك رومة فدعا عليه ، وابتلى بالجذام ، ووصف له فى مداوته أن ينغمس فى دماء الأطفال ، فجمع منهم لذلك عدداً ، ثم أدركته الرقة عليهم، فأطلقهم فرأى فى منامه من يحضه على الاقتداء بالبطرك ، فردّه إلى رومة ، وبرىء من الجذام ، وجنح من حينئذ إلى دين النصرانية ، ثم خشى خلاف قومه فى ذلك فارتحل إلى القسطنطينية ونزلها وشيد بناءها ، وأظهر ديانة المسيح ، وخالف أهل رومة فرجع اليهم ، وغلبهم على أمرهم ، وأظهر دين النصرانية ، ثم جاهد الفرس حتى غلبهم على كثير من ممالكهم ، ولعشرين سنة من ملكه خرجت طائفة من القوط إلى بلاده ، فأغاروا وسبوا ، فزحف اليهم وأخرجهم من بلاده . ثم رأى فى منامه عرباً وبنوداً على تمثال الصلبان ، وقائلاً يقول : هذه علامة الظفر لك ، فخرجت أمه هلانة إلى بيت المقدس لطلب آثار المسيح ، وبنت الكنائس فى البلدان ، ورجعت ، ثم هلك قسطنطين لإحدى وثلاثين سنة من ملكه اهـ كلام هروشيوش

ثم ولى قسطنطين الصغير بن قسطنطين وسماه هروشيوش قُسنطِش

* لبطلميوس

قسطنطين الصغير

قال ابن العميد : ملك أربعا وعشرين سنة ، وكان أخوه قسطوس برومية بولاية أبيهما ، فنى خامسة من ملك قسطنطين [الصغير وثب على أخيه قسطوس قائده مقنيطوس فبعثهوقتل قسطنطين العساكر — خ] ، فقتل مقنيطوس وأتباعه ، وولى على رومة من جهته ، فكانت له صاغية إلى أريوش ، فأخذ بمذهبه ، وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينية . وأنطاكية ومصر والاسكندرية ، وغلب أتباع أريوش على الكنائس ، ووثبوا على بطرك اسكندرية ليقتلوه ، فهرب كما مر ، ثم هلك لأربع وعشرين سنة من ملكه

يولياس

وولى ابن عمه يُولْيَاش . وقال هروشيوش بن مَنَخْشِطش

قال : وملك سنة واحدة . وقال ابن العميد : ملك سنتين بإتفاق لثلاثة من ملك سابور ، وكان كافراً ، وقتل النصارى وعزلهم عن الكنائس وأطرحهم من الديوان وسار لقتال الفرس فمات من سهم أصابه

وقال هروشيوش : تورط فى طريقه فى مفازة ضل فيها عن سبيله ، فتقبض عليه أعداؤه وقتلوه

بليان

قال هروشيوش : وولى بعده بُلْيان بن قسطنطين سنة أخرى ، وزحف إلى الفرس وملكهم يومئذ سابور فأحجم عن لقائهم ، فصالحهم ورجع ، وهلك فى طريقه

ولم يذكر ابن العميد : بليان هذا وإنما قال ملك من بعد يوليانوس الملك يوشانوس واحدة باتفاق فى سادسة عشر من ملك سابور ، وكان مقدم عساكر يوليانوس ، فلما قتل اجتمعوا اليه ، وبايعوه ، واشترط عليهم الدخول فى النصرانية فغلبوه ، وأشار سابور بتوليته ونصب له صليباً فى العسكر . ولما ولى نزل على نصيبين للفرس ونقل الروم الذى بها إلى آمد ، ورجع إلى كرسى مملكتهم ، فرد الأساقفة إلى الكنائس ، ورجع فيمن رجع أثنَاشِيُوش بطرك اسكندرية ، وطلب منه أن يكتب له أمانة أهل مجمع نيقية ، فجمع الأساقفة وكتبوها وأشار عليه بلزومها

ولم يذكر هرشيوش يُوشانوش هذا ، وذكر مكانه آخر . قال : وسماه بَلَنْسيان ابن قسنطش . قال : وقاتل أمماً من القُوط والافرنجة وغيرهم . قال : وافترق القوط فى أيامه فرقتين على مذهبي أريوش وأمانة نِيقيةُ

قال : وفى أيامه ولى داماش بطركاً برومة . ثم هلك بالفالج . وملك بعده أخوه واليس (١) أربع سنين ، وعمل على مذهب أريوش ، واشتد على أهل الامانة وقتلهم وثار عليه بأهل إفريقية بعض النصارى مع البربر ، فأجاز اليهم البحر ، وحاربهم فظفر بالثأر وقتله بقرطاجنة ، ورجع إلى قسطنطينية ، فحارب القوط والأمم من ورائهم ، وهلك فى حروبهم

وقال ابن العميد : فى قيصر الذى قتل واليس وسماه واليطنوس : إنه ملك ثنتى عشرة سنة فيما حكاه ابن بطريق وابن الراهب . وحكى عن المسبحى ، خمسة عشر سنة ، وإن أخاه والياش كان شريكه فى الملك ، وإنه كان منانيا* ، وانه ملك لستمائة وست وسبعين للاسكندر ، وسبع عشرة لسابور كسرى

قال : وفى أيامه وثب أهل اسكندرية على اثناشيوش البطرك ليقتلوه ، فهرب وقدموا مكانه لوقيوس ، وكان على رأى أريوش . ثم اجتمع أهل الأمانة بعد خمسة أشهر ورجعوه إلى كرسيه وطردوا لوقيوس ، وأقام اثناشيوش بطركاً إلى أن مات فولوا بعده تلميذه بطرس سنتين ، ووثب به أصحاب لوقيوس ، فهرب ، ورجع لوقيوس إلى الكرسى فأقام ثلاث سنين ، ثم وثب به أهل الأمانة ورجعوا بطرس ومات لسنة من رجعته ، ولقى من داريانوس قيصر ومن أصحاب أريُوص شدائد ومحناً

وقال المسبحى : كان واليطينوس بدين بالأمانة ، وأخوه واليش يدين بمذهب أريوش ، أخذه عن ثاودكيس أسقف القسطنطينية وعاهده على إظهاره ، فلما ملك نفى جميع أساقفة الأمانة ، وساراريوس أسقف أنطاكية بأذنه إلى الاسكندرية ، فحبس بطرس البطرك ، وأقام مكانه أريوش من أهل شمُيْساط ، وهرب بطرس من السجن ، وأقام برومة ، وكانت بين واليطينوس قيصر ، وبين سابور كسرى فتنة وحروب ، وهلك فى بعض حروبه معهم

وولى بعده أخوه واليش

---

١ — اسمه باللاتينية والنس (Valens)

* مانيا

والاش

قال ابن العميد عن ابن الراهب : سنتين ، وعن أبي فانيوس ثلاث سنين، وسماه والاش ، وقال هو أبو الملكين اللذين تركا الملك وترهبا ، وسمى مكسيمنموس ودوقاديوس

قال وفى الثانية من ملكه بعث طيماتاوس أخا بطرس بطركا على اسكندرية فلبث فيهم سبع سنين ومات وفى سادسة ملكه ، كان المجمع الثانى بقسطنطينية ، وقد مر ذكره فى أيام واليش قيصر هذا مات بطرك قسطنطينية فبعث أغريوس * أسقف بزناروا (؟) وولاه مكانه ، فوليه أربع سنين ومات

ثم خرج على واليش خارج من العرب فخرج اليه فقتل فى حروبه

غراديانس

ثم ولى أغراذيانوس قيصر

قال ابن العميد : وهو أخو واليش ، وكان والنطوس بن واليش شريكاً له فى الملك ، وملك سنة واحدة

وقال : عن أبي فانيوس : سنتين ، وعن ابن بطريق : ثلاث سنين . وذكر عن ابن المسبحى ، وابن الراهب : أن تاوداسيوس الكبير كان شريكا لهما ، وأن ابتداء ملكهم لستمائة وتسعين من ملك الاسكندر ، وأنه ردّ جميع مانفاه واليش قبله من الأساقفة إلى كرسيه ، وخلى كل واحد مكانه . ومات اغرديانوس وابن أخيه فى سنة واحدة

تاوداسيوس

قال ابن العميد : وملك بعدهما تاوداسيوس سبع عشرة سنة باتفاق ، لستمائة وتسعين من ملك الاسكندر ، ولإحدى وثلاثين من ملك سابور كسرى .

وفى سادسة ملكه مات اثناشيوش بطرك اسكندرية ، فولى مكانه كاتبه تاوفيلا ، وكان بطرك القسطنطينية يوحنا فم الذهب ، وأسقف قبرس أبو فانيوس ، كان يهوديا وتنصر

قال : وكان لتاوداسيوس ولدان أرقاديوس وبرياريوس . قال : وفى خامسة عشر من ملكه ظهر الفتية السبعة أهل الكهف الذين ناموا أيام دقيانوس ولبثوا فى

---

* أغريقووريوس

نومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين ، كما قصه القرآن ، ووجد معهم صندوق النحاس ، والصحيفة التي أودع البطريق فيها خبرهم ، وبلغ الأمر إلى قيصر تاوداسيوس ، فبعث فى طلبهم ، فوجدهم قدماتوا ، فأمر أن يبنى عليهم كنيسة و يتخذ يوم ظهورهم عيداً

قال المسبحى : وكان أصحاب أريوش قد استولوا على الكنائس منذ أربعين سنة فأزالهم عنها ونفاهم ، وأسقط من عساكره كل من يدين بتلك المقالة ، وعقد المجمع الثانى بقسطنطينية لمائتين وخمسين سنة من مجمع نيقية وقرر فيه الأمانة الأولى بنيقية ، وعهدوا أن لا يزاد فيها ولا ينقص . وفى خامسة عشر من ملكه مات سابور ابن سابور ، وملك بعده بهرام ، ثم هلك تاوْدَاسيوس لسبع عشرة من ملكه

وأما هروشيوش : فقال بعد ذكر واليش ، وملك بعده وِلِيطَانِش ابن أخيه فلَنْسَيَان ست سنين ، وهو الموفى أربعين عدداً من ملوك القياصرة

قال : واستعمل طُودُوشيُش بن أنطيونش بن لوخيان على ناحية المشرق ، فملك الكثير منها ، ثم همّ أهل رومة على قائدهم فقتلوه وخلعوا وُلِيطِيَانُش الملك ، فلحق بطُودُوشيُش بالمشرق ، فسلم اليه فى المُلْك ، فأقبل طُودُوشِيش إلى رومة وقتل الثائر بها ، واستقل بملك القياصرة ، وهلك لأربع عشرة سنة من ولايته ، فولى ابنه أرْكادِيكُش . ويظهر من كلام هروشيوش . أن طودشيش هو تاوداسيُس الذى ذكره ابن العميد ، لأنهما متفقان فى أن ابنه أركادُيس ومتقاربان فى المدة ، فلعل وليطانش الذى ذكره هروشيوش هو أغْرَاديانوس الذى ذكره ابن العميد

قال ابن العميد : وملك أركاديش ولد تاوداسيوس الأكبر ثلاث عشرة سنة باتفاق فى ثالثة ملك بهرام بن سابور ، وكان مقيما بالقسطنطينية . وولى أخاه أنُورُيش على رومة . قال : وولد لأرْكادُيش ابن سماه طودوشيش باسم أبيه . ولما كبر طلب معلمه أُرْيانُوس ليعلم ولده ، فهرب إلى مصر وترهّبَ ورغبه بالمال فأبى وأقام فى مغارة بالجبل المقطَّم على قرية طُرَا ثلاث سنين ، ومات فبنى الملك على قبره كنيسة وديراً يسمى دِيرَ القُصَـيْر . ويقال دير البغل

وفى أيامه غرق أبو فانيُوس مرجعه إلى قبرص ، ومات يوحنا فم الذهب بطرك

القسطنطينية ، وكان نفاه أرْكادْيُش بموافقة أبي فانيوس ، ودعا كل منهما على صاحبه فهلكا ، وفى التاسعة من ملك أركاديش مات بهرام ابن سابور وملك ابنة يزْدَجرْد ثم هلك أركاديش

طودوشيش

وملك من بعده طودوشيش (١) الأصغر ابن أركاديش ثلاث عشرة سنة ، وولى أخاه أنوريش على رومة فاقتسما ملك اللطينيين ، وانتقض لعهديهما قومس إفريقية ، وخالفه إلى طاعة القياصرة ، فحدثت بافريقية فتنة لذلك . ثم غلب القومس أخاه فلحق بِقُبْرص وُترَهَّبَ بها ، وزحف القوط إلى رومة وفرَّ عنها أنوريش ، فحاربوها ، ودخلوها عنوة ، واستباحوها ثلاثا وتجافوا عن أموال الكنائس

قال : ولما هلك أركاديش قيصر استبد أخوه أنوريس بالملك خمس عشرة سنة وأحسن فى دفاع القوط عن رومة ، وهلك فولى من بعده طودشيش ابن أخيه أركاديش

ولم يذكر ابن العميد أنوريش ، وإنما ذكر بعد أركاديش ابنه طودشيش (١) وسماه الأصغر ، قال : وملك ثنتين وأربعين سنة باتفاق فى خامسة ملك يزدجرد ، وكانت بينه وبين الفرس حروب كثيرة

قال : وفى أول سنة من ملكه ، مات تاوْفِيلا بطرك اسكندرية ، فولى مكانه كيرلوس ابن أخته فى سابعة عشر من ملكه ، قدم نسطوريش بطركا بالقسطنطينية فأقام أربع سنين ، وظهرت عنه العقيدة التى دان بها وقد تقدمت ، وبلغت مقالته إلى كيرلس بطرك الاسكندرية فخاطب فى ذلك بطرك رومة وانطاكية وبيت المقدس ثم اجتمعوا بمدينة أفِسُس فى مائتى أُسقف ، وأجمعوا على كفْر نَسْطورْيش ونفوه فنزل إلى إخميم من صعيد مصر وأقام بها سبع سنين ، وأخذ بمقالته نصارى الجزيرة والمَوْصِل إلى الفرات ، ثم العراق وفارس إلى المشرق ، وولى طودشيش بالقسطنطينية مَقسيمُوس عوضاً عن نسطوريس فأقام بها ثلاث سنين . وفى ثامنة وثلاثين من ملك

---

١ — طوديوش هذا هو الذى سماه فيما سبق ثاوذ اسيوس وهما اثنان الأكبر والأصغر وقد غلط المؤلف فى غيرها وذكر أن انبعاث أهل الكهف كان فى عهد الأول مع أنه كان فى عهد الثانى وأقرب مرجع لبيان ذلك ع ص ١٤٢ وما بعدها . .

طودشيش الأصغر مات كيرلس بطرك الاسكندرية . وولى مكانه دِيسْقُرس ، ولقى شدائد من مرقيان الملك بعده . وفى سادسة عشر من ملك طودُشيش الأصغر مات يزْدَجرْد كسرى ، وولى ابنه بهرام جور ، وكانت بينه وبين خاقان ملك الترك وقائع ، ثم عدل عن حروبهم ودخل إلى أرض الروم فهزمه طودُشيش ، وملك ابنه يزدجرد

قال هروشيوش : وفى أيام طودُشيش الأصغر تغلب القوط على رومة وملكوها ، وهلك ملكهم ألاريك كما نذكر فى أخبارهم ، ثم صالحوا الروم على أن يكون لهم الأندلس ، فانقلبوا اليها وتركوا رومة . انتهى

مركيانوس

قال ابن العميد : ثم ملك مرقيان بعد ست سنين باتفاق ، وتزوج أخت طودُوشيُش . وسماه هروشيوش مركيان بن مَليكة . قالوا : وكان فى أيامه المجمع الرابع بخلقدُونية وقد تقدم ذكره ، وأنه كان بسبب ديسقرس بطرك اسكندرية وما أحدث من البدعة فى الأمانة فأجمعوا على نفيه وجعلوا مكانه برطاوس ، وافترقت النصارى الى مليكة وهم أهل الأمانة فنسبوا الى مركيان قيصر الملك الذى جمعهم وعهد بأن لا يقبل ما اتفق عليه أهل المجمع الخلقِدُونى ، والى يعقوبية وهم أهل مذهب دِيُسقُرُس وتقدم الكلام فى تسميتهم يعقوبية ، والى نسطووية وهم نصارى المشرق

وفى أيام مركيان سكن شِمْعون الحبيس الصومعة ومات بأنطاكية وترهب ، وهو أول من فعل ذلك من النصارى . وعلى عهده مات يَزْدَجِرْد كسرى . ومات مركيان قيصر لست سنين من ملكه

لاون الكبير

وملك بعده لاون الكبير

قال ابن العميد : لسبعمائة وسبعين من ملك الاسكندر ، ولثانية من ملك فَيْروز ملك ست عشرة سنة ووافقه هِروشيوش على مدّته ، وقال فيه ليُون بن شَمَخلية قال ابن العميد وكان على مذهب الملكيه

ولما سمع أهل أسكندرية بموت مركيان وثبوا على برْطاوُس البَطرك فقتلوه بعد ست سنين من ولايته ، وأقاموا مكانه طيماتاوس وكان يعقوبيا ، فجاء قائد من

قسطنطينية بعد ثلاث سنين من ولايته ، فنفاه وأبدل عنه سَورُس من الملكية ، وأقام تسع سنين . ثم عاد طيماتاوس بالأمر لاون قيصر . ويقال انه بقي بطركاً ثنتين وعشرين سنة . ولثانية عشر من ملك لاون زحف الفرس الى مدينة آمِد وحاصروها وامتنعت عليهم . وفى أيامه مات شِمْعُون الحبيس صاحب العمود . ثم هلك لاون قيصر لست عشرة سنة من ملكه

لاون الصغير

قال ابن العميد : وولى من بعده لاون الصغير ، وهو أبو زينون الملك بعده . وقال ابن بطريق : هو ابن سينون ، وكان يعقوبيا ، وملك سنة واحدة (١) ولم يذكره هروشيوش . وإنما ذكر زينون الملك بعده وسماه سينون بالسين المهملة .

زينون

وقال ملك سبع عشرة سنة ، وقال ابن العميد مثله . ولثمانية عشر من ملك فيروز . ولسبعمائة وسبع وثمانين للاسكندر

وقال : وكان يعقوبيا . وخرج عليه ولده ورجل من قرابته وحاربهما عشرين شهراً ، ثم قتلهما وأتباعهما ، ودخل قسطنطينية ووجد بطركها وكان ردى العقيدة قد غير كتب الكنيسة وزاد ونقص ، فكتب زِينُون قَيْصَر (٢) إلى بطرك رومة وجمع الأساقفة فناظروه ونفوه ، وفى سابعة ملك زينون مات طيماناوس بطرك اسكندرية فولى مكانه بطرس ، وهلك بعد ثمان سنين ، فولى مكانه أثناشيوش ، وهلك لسبع سنين ، وكان قيماً ببعض البيع فى بطركيته

قال المسبحى : وفى أيام زينون احترق ملعب الخيل الذى بناه بطليموس الأزنبا بالاسكندرية

١ — قال ع « إن لاون هذا كان صبيا فخدعته أمه بأن رغبت منه أن يجلس معه على السرير والده ناديا ففعل وصار يشترك معه الى أن مات وتحدث الناس بأن والديه قتلاه ليستبدا بالملك من بعده . وجاء فى تاريخ القرون الوسطى الذى ترجمه من الفرنسية مصطفى سيد الزرابى « إن لاون هذا لما مات جده كان لا زال فى السنة الأولى من عمره ومات لعشرة أشهر بعد إن ولى القيصرية انظره (١ - ١١٨)

١ — لم يكتف زينون بمقاومة هذا المبتدع بل طمع فى إعادة الوحدة فى العقائد الدينية وترك المذاهب المتعددة فأصدر لذلك قانونا انتشر سنة ٤٨١ (قرة النفوس والعيون) ولكنه لم يحصل به التوفيق المطلوب بل صار سببا للاختلاف فيمن يلي المراتب والأحكام الدينية

وقال ابن بطريق : وفى أيام زينون هاجت الحرب بين فيروز والهياطلة وهزموه فى بعض حروبهم ، ورد الكرّة عليه بعض قواده كما فى [بعض نسخ] أخبارهم ، ومات فيروز ، وتنازع الملك إبناه قباذ وبلاش ؛ وفى عاشرة من ملك زينون غلب بلاش أخاه واستقل بالملك ، ولحق أخوه قباذ بخاقان ملك الترك ، ثم هلك بلاش لأربع سنين ، ورجع قباذ * واستولى على مملكة فارس ، وذلك فى أربعة عشر من ملك زينون ، فأقام ثلاثا وأربعين سنة ، وهلك زينون لسبع عشرة من ولايته

نشطاش فملك بعده نَشْطَاش سبعا وعشرين سنة فى أربعة من ملك قباذ ، ولثمانمائة وثلاث للاسكندر ، وكان يعقوبيا ، وسكن حماة ، ولذلك أمر أن تشيد وتحصن ، فبنيت فى سنتين ، وعهد لأول ملكه أن يقتل كل امرأة كاتبة ، وفى ثالثة ملكه أمر ببناء مدينة فى المكان الذى قتل فيه دارا فوق نصيبين ، ثم وقعت الحرب بينه وبين الأكاسرة ، وخرب قباذ مدينة آمد ، ونازلت عساكر الفرس اسكندرية وأحرقوا ماحولها من البساتين والحصون ، وقتل بين الأمتين خلق كثير ، وفى سادسة ملكه مات أثناشيوس بطرك الاسكندرية فصير مكانه يوحنا ، وكان يعقوبيا ، ومات لتسع سنين فصير بعده يوحنا الحسن ومات بعد إحدى عشرة [سنة] وفى أيام نشطاش قدم ساويرس بطركاً بأنطاكية ، وكان كلاهما على أمة ديسقرس ، وفى سابعة وعشرين من ملك نشطاش قدم ساريوس بطركاً بأنطاكية ، ومات يوحنا بطرك اسكندرية ، فولى مكانه ديسقرس الجديد ومات لسنتين ونصف

وقال سعيد ابن بطريق : إن إيليا بطرك المقدس كتب إلى نشطاش قيصر يسأله الرجوع إلى الملكية ، ويوضح له الحق فى مذهبهم ، وصبا اليه فى ذلك جماعة من الرهبان ، فأحضرهم وسمع كلامهم ، وبعث اليهم بالأموال للصدقات وعمارة الكنائس ، وكان بقسطنطينية رجل على رأى ديسقرس ، فمضى إلى نشطاش قيصر ومضى وأشار عليه باتباع مذهب ديسقرس ، وأن يرفض المجمع الخلقدوني فقبل ذلك منه ، وبعث إلى جميع أهل مملكته ، وبلغ ذلك بطرك أنطاكية ، فكتب إلى نشطاش قيصر بالملامة على ذلك . فغضب ونفاه ، وجعل مكانه بأنطاكية سويروس

* فيروز

وبلغ ذلك إلى إيليا بطرك القدس ، فجمع الرهبان ورؤساء الديور فى نحو عشرة آلاف ولعنوا سويرس وأجرموه والملك نشطانش معه ، فنفاه نشطانش [من القدس - خ] إلى إيليا ، وذلك فى ثالثة وعشرين من ملكه ، فاجتمع جميع البطاركة والأساقفة من الملكيه ، وأجرموا نشطانش الملك وسويرس وديسقرس أمام اليعقوبية ونسطورس

قال ابن بطريق : وكان لسويروس تلميذ اسمه يعقوب البرادعى يطوف البلاد داعياً إلى مقالة سويرس وديسقرس ، فنسب اليعاقبة اليه

وقال ابن العميد : وليس كذلك ، لأن اليعاقبة سموا بذلك من عهد ديسقرس كما مر ، ثم هلك نشطانش لسبع وعشرين من ملكه

يشطيانش

وملك بعده بسطيانش قيصر لثمانية وثلاثين من ملك قباذ بن فيروز ولثمانية وثلاثين للاسكندر ، وملك تسع سنين باتفاق . وقال هروشيوش سبعا . وقال المسبحى : كان معه شريك فى ملكه اسمه يشطيان وفى ثالثة ملكه غزت الفرس بلاد الروم ، فوقعت بين الفرس والروم حروب كثيرة ، وزحف كسرى فى آخرها لثمانية من ملك يشطيانش ومعه المنذر ملك العرب فبلغ الرها ، وغلب الروم ، وغرق من الفريقين فى الفرات خلق كثير ، وحمل الفرس أسارى الروم وسباياهم ، ثم وقع الصلح بينهما بعد موت قيصر وفى تاسعة ملكه أجاز البربر من المغرب إلى رومة وغلبوا عليها

قال ابن بطريق وكان يشطيانس على دين الملكية ، فرد كل من نفاه نشطانس قبله منهم ، وصير طيماتاوس بطركاً بالاسكندرية ، وكان يعقوبيا ، فلبث فيهم ثلاث سنين وقيل سبع عشرة سنة

وقال ابن الراهب : كان يشطيانس خلقدونيا ، ونفى طيماتاوس البطرك عن اسكندرية ، وجعل مكانه أبولِنَار يوش ، وكان ملكياً وعقد مجمعاً بالقسطنطينية يريد جمع الناس على رأى الخلقدونية مذهبه ، وأحضر شاويرش بطرك أنطاكية وأساقفة المشرق فلم يوافقوه ، فاعتقل بطرك أنطاكية سنين ، ثم أطلقه ، فسار إلى مصر وبقى مختفياً فى الديور ، ثم وصل أبوليناريووش بطرك اسكندرية ومعه كتاب

الأمانة الخلقدونية ، فقبل الناس منه ، وتبعوا مذهبه فيها ، وصاروا اليه ، وهلك يشطيانس لتسع سنين من ملكه

يشطينانش

ثم ملك يشطينانس قيصر لإحدى وأربعين من ملك قياذو لثمانمائة وأربعين للأسكندر وكان ملكياً ، وهو ابن عم يشطيانس الملك قبله

وقال المسبحي : بل كان شريكه كما مر وملك أربعين سنة باتفاق . وقال أبو فانيوس : (؟) ثلاثا وثلاثين . وفي سابعة ملكه غزا كسرى بلادالروم ، وأحرق إيليا ، وأخذ الصليب الذي كان فيها ، وفي حادية عشر من ملكه عصت السامرية عليه ، فغزاهم وخرب بلادهم ، وفي سادسة عشر من ملكه غزا الحارث بن جَبَلة أمير غسّان والعرب ببرية الشأم ، غزا بلاد الأكاسرة وهزم عساكرهم وخرب بلادهم ، ولقيه بعض مرازبة كسرى فهزمهم ، ورد السبي منهم ، ثم وقع الصلح بين فارس والروم وتوادعوا

وفي خمس وثلاثين من ملك يُشطِينانش عهد بأن يتخذ عيد الميلاد في رابع وعشرين من كانون ، وعيد الغِطّاس (١) في ست منه ، وكانا من قبل ذلك جميعاً في سادس كانون

وقال المسبحي : أراد يشطينانش حمل الناس على رأي الملَكية فأحضر طيانَاوس بطرك اسكندرية وكان يعقوبياً ، وأراده على ذلك فامتنع ، فهم بقتله ثم أطلقه فرجع إلى مصر مختفياً ، ثم نفاه بعد ذلك ، وجعل مكانه بولس كان ملكياً فلم يقبله اليعَاقبة . وأقام على ذلك سنين *

قال سعيد بن بطريق : ثم بعث قيصر قائداً من قواده اسمه أثوليناريوس وجعله بطرك اسكندرية ، فدخل الكنيسة بزي الجند ، ثم لبس زي البطاركة وقدس ،

١ — هذا هو اسم هذا العيد في الكنائس الشرقية ويسميه السريان بالدنح والكنيسة اللاتينية (Epiphania) الظهور وهو ذكر اليوم الذي غمس فيه يحيى بن زكريا المسيح في نهر الأردن

* سلتين

فهمّوا به ، فصار إلى سياستهم ، فأقصدوا ، ثم حملهم على رأى اليعقوبية ، وقتل من امتنع ، وكانوا مائتى ألف

وفى أيام يشطينانش هذا ثار السامرة بأرض فلسطين وقتلوا النصارى وهدموا كنائسهم ، فبعث العساكر ، وأثخنوا فيهم ، وأمر ببناء الكنائس كما كانت ، وكانت كنيسة بيت لحم صغيرة فأمر بأن يوسع فيها ، فبنيت كما هى لهذا العهد وفى عهده كان المجمع الخامس بقسطنطينية بعد مائة وثلاث وستين من المجمع الخلقدوني ولتاسعة وعشرين من ملك يشطينانش وقد مرّ ذكر ذلك

وفى عهد قيصر هذا ، مات أثوليناريوس القائد الذى جعل بطركا باسكندرية لسبع عشرة سنة من ولايته ، وهو كان رئيس هذا المجمع ، وجعل مكانه يوحنا وكان أمانيا ، وهلك لثلاث سنين ، وانفرد اليعاقبة بالاسكندرية وكان أكثرهم القبط ، وقدموا عليهم طودشيوش بطركا ، لبث فيهم ثنتين وثلاثين سنة ، وجعل الملكية بطركهم داقيانوس ، وطردوا طودشيوش من كرسيه ستة أشهر ، ثم أمر يشطينانش قيصر بأن يعاد فأعيد ، وطلب منه المغامسة أن يقدم دقيانوس بطرك الملكية على الشمامسة فأجابهم . ثم كتب يشطينانش إلى طودشيوش البطرك اجتماع المجمع الخلقدوني أو يترك البطركيه ، فتركها ، ونفاه وجعل مكانه بولش التنيسى فلم يقبله أهل اسكندرية ولا ماجاء به . ثم مات ، وغلقت كنائس القبط اليعقوبية ولقوا شدائد من الملكية . ومات طودشيوش البطرك فى سابعة وثلاثين من مملكة يشطينانش ، وجعل مكانه باسكندرية بطرس . ومات بعد سنتين

قال ابن العميد : وسار كسرى أنوشروان فى مملكة يشطينانش قيصر الى بلاد الروم ، وحاصر أنطاكية وفتحها ، وبنى قبالتها مدينة سماها رومة ونقل اليها أهل أنطاكية. ثم هلك يشطينانش

يوشطونش

وملك بعده يوشطونش قيصر لست وثلاثين من ملك أنو شروان ، ولثمانمائة وثمانين للاسكندر . فملك ثلاث عشرة سنة

وقال شروشيوش : احدى عشرة سنة ، ولثانية من ملكه مات بطرس

بطرك اسكندرية ، فجعل مكانه دَامِيَانو ، فمكث ستاً وثلاثين سنة ، وخربت الديور على عهده

وفى الثانية عشر من ملكه مات كسرى أنوشِرْوان بعد أن كان بعث العساكر من الديْلَم مع سَيفِ بن ذِى يَزَن من التبابعة ،ففتحوا اليمن،وصارت للأكاسرة. ثم هلك يوشطونش قيصر لإحدى عشرة أو ثلاث عشرة من ملكه

طباريش — وملك بعده طِبَارْيش قيصر لثالثة من ملك هُرمُز بن أنو شِرْوان ، ولثمانمائة وثنتين وتسعين للاسكندر . فملك ثلاث سنين عند ابن بطريق وابن الراهب، وأربعاً عند المسبحى . ولعهده انتقض الصلح بين الروم وفارس ، واتصلت الحرب وانتهت عساكر الفرس الى رأس عين الخابور ، فثار عليهم مُورِيق من بطاركة الروم فهزمهم . ثم جاء طِبَاريش قيصر على أثره فعظمت الهزيمة ، واستحرّ القتل فى الفرس ، وأسر الروم منهم نحواً من أربعة آلاف غربهم الى جزيرة قُبرُص، ثم انتقض بهرَام مرزُبان هرمُز كسرى وطرده عن الملك بمنجع * من تخوم بلاد الروم ، وبعث بالصريخ الى طِباريش قيصر ، فبعث اليه المدَدَ من الفرسان والأموال يقال كان عسكر المدد أربعين ، ألفاً فسار هرمز ولقيه بهرام بين المدائن وَواسط ، فانهزم واستبيح . وعاد هرمز الى ملكه ، وبعث الى طِبارْيش بالأموال والهدايا أضعاف ما أعطاه ، ورد اليه ما كانت الفرس أخذته من بلادهم وسألهم [رأس العين وغيرها فسلموها ــ خ] ونقل من كان فيها من الفرس الى بلاده ، وسأله طِبارْيش بأن يبنى هيكلين للنصارى بالمدائن وَواسِط ، فأجابه الى ذلك . ثم هلك طباريش قيصر

موريكش — وملك بعده مُوريكش * قيصر فى السادسة لهرمز ، ولثمانمائة وخمس وتسعين للاسكندر ، وملك عشرين سنة باتفاق المؤرخين ، فأحسن السيرة. وفى حادية عشر من ملكه بلغه عن بعض اليهود بأنطاكية أنه بال على صورة المسيح

---

* فلحق بمنتج * مورلين

فأمر بقتلهم ونفيهم . ولعهده انتقض على هرمز كسرى قريبه بهرام وخلعه واستولى على ملكه وقتله ، وسار ابنه أَبَرْوِيز الى موريكش قيصر صريخاً فبعث معه العساكر ، ورد أبرويز الى ملكه ، وقتل بهرام الخارج عليه ، وبعث اليه الهدايا والتحف كما فعل أبوه من قبله مع القياصرة ، وخطب أبرويز من موريكش قيصر ابنته مريم ، فزوّجه إياها ، وبعث معها من الجهاز والأمتعة والأقمشة ما يضيق عنه الحصر

ثم وثب على موريكش بعض مماليكه بمداخلة قريبه البطريق قوقا * فدسه عليه فقتله ، وملك على الروم وتسمى قيصر ، وذلك لتسعمائة * وأربع عشرة للاسكندر وخمس عشرة لأبرويز ، فملك ثماني سنين ، وقتل أولاد موريكش وأفلت صغير منهم ، فلحق بطورسينا وترهب ، ومات هنالك قوقا

وبلغ أبرويز كسرى ما جرى على موريكش وأولاده ، فجمع عساكره وقصد بلاد الروم ليأخذ ثأر صهره ، وبعث عساكره مع مرزبانه خَزْرَوَيه الى القدس ، وعهد اليه بقتل اليهود وخراب البلد ، وبعث مرزُبانَ آخر الى مصر والاسكندرية ، وجاء بنفسه فى عساكر الفرس الى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها . وأما خَزْرَوَيه المرزُبان فسار الى الشأم وخرّب البلاد ، واجتمع يهود طَبَرِيّة والخليل وناصِرَة وصور ، وأعانوا الفرس على قتل النصارى وخراب الكنائس ، فنهبوا الأموال ، وأخذوا قطعة من الصليب ، وعادوا الى كسرى بالسبي ، وفيهم ذُخريا بطرك القدس ، فاستوهبته مريم بنت موريكش من زوجها أبرويز ، فوهبه إياها مع قطعة الصليب

ولما خلت الشأم من الروم ، واجتمع الفرس على القسطنطينية ، تراسل اليهود من القدس والخليل وطَبرِية ودِمَشْق وقبرص ، واجتمعوا فى عشرين ألفاً ، وجاءوا الى صور ليملكوها ، وكان فيها من اليهود نحو من أربعة آلاف ، فتقبض بَطرَكها عليهم وقيَّدَهم ، وحاصرهم عساكر اليهود ، وهدموا الكنائس خارج صور ، والبطرك

* موكاس * لسبعمائة

يقتل المقيدين ويرمى برءوسهم الى أن فنوا ، وارتحل كسرى عن القسطنطينية جائياً ، فأجفل اليهود عن صور وانهزموا

وقال ابن العميد : وفى رابعة من [ملك ــ خ] فوقاص قيصر قدم يوحنا الرَّحوم بطركاً على الملكية بأسكندرية ومصر ، وإنما سمى الرَّحوم لكثرة رحمته وصدقته ، وهو الذى عمل البيمارستان للمرضى بأسكندرية ، ولما سمع بمسير الفرس هرب مع البطريق الوالى بأسكندرية الى قبرص ، فمات بها لعشر سنين من ولايته ، وخلا كرسى الملكية باسكندرية سبع سنين . وكان اليعاقبة باسكندرية قدّموا عليهم فى أيام فوقاص قيصر بطركاً اسمه أنشطانيوش مكث فيهم ثنتى عشرة سنة، واسترد ما كانت الملكية استولت عليه من الكنائس اليعقوبية ، وجاءه أثناشيوش بطرك أنطاكية بالهدايا سروراً بولايته ، فتلقاه هو بالأساقفة والرهبان ، واتخذت الكنيسة بمصر والشأم ، وأقام عنده أربعين يوماً ، ورجع إلى مكانه . ومات أنسطانيوش بعد ثنتى عشرة من ولايته لثلمائة وثلاثين من ملك دقلاديانوس

ولما انتهى أبرويز فى حصار القسطنطينية نهايته ، وضيق عليها ، وعدموا الأقوات، واجتمع البطارقة بعلوقيا (؟) * وبعثوا السفن مشحونة بالأقوات مع هرقل أحد بطارقة الروم ، ففرحوا به ومالوا اليه ، وداخلهم فى الملك. وأن فوقاص سبب هذه الفتنة ، فثاروا عليه وقتلوه ، وملّكوا هرقل ، وذلك لتسعمائة وثنتين وعشرين للأسكندر ، فارتحل أبرويز عن القسطنطينية راجعاً الى بلاده هرقل

وملك هرقل بعد ذلك إحدى وثلاثين سنة ونصف عند المسبحى وابن الراهب، وثنتين وثلاثين عند ابن بطريق، وكانت مملكته أول سنة (١) من الهجرة

وقال هروشيوش : لتسع ، وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيش
ولما تملك هرقل بعث أبرويز بالصلح بوسيلة قتلهم موريكش، فأجابهم على تقرير

---

١ — ليس هذا بصحيح، بل كانت ملكته لاثنى عشر قبل الهجرة، إذ ولى من ٦١٠ الى ٦٤١ والهجرة كانت ٦٢٢ م

* جلوقيا

الضريبة عليهم فامتنعوا ، فحاصرهم ست سنين أخرى إلى الثمان التي تقدمت ، وجهدهم الجوع ، فخادعهم هرقل بتقرير الضريبة ، على أن يفرج عنهم حتى يجمعوا له الأموال ، وضربوا الموعد معه ستة أشهر ، ونقض هرقل ، فخالف كسرى إلى بلاده ، واستخلف أخاه قسطنطين على قسطنطينية ، وسار فى خمسة آلاف من عساكر الروم إلى بلاد فارس ، فخرب وقتل وسبى ، وأخذ ابنى أبرويز كسرى من مريم بنت موريكش ، وهما : قباذ وشيرويه ، ومرّ بحُلْوان وشَهْرَزُور إلى المدائن ودِجْلة ، ورجع إلى أرمينية . ولما قرب من القُسْطَنطِينية ، وارتحل أبرويز كسرى إلى بلاده ، فوجدها خرابا ، وكان ذلك مما أضعف من مملكة الفرس وأوهنها . وخرج هرقل لتاسعة من ملكه لجمع الأموال ، وطلب عامل دِمَشْق منصور بنَ سرحون ، فاعتذر بأنه كان يحمل الأموال إلى كسرى ، فعاقبه ، واستخلص منه مائة ألف دينار ، وأبقاه على عمله .

ثم سار إلى بيت المقدس ، وأهدى اليه اليهود ، فأمنهم أولاً ، ثم عرفه الأساقفة والرهبان بما فعلوه فى الكنائس ، ورآها خرابا ، وأخبروه بمن قتلوه من النصارى ، فأمر هرقل بقتلهم ، فلم ينج منهم إلا من اختفى أو أبعد المفر إلى الجبال والبرارى ، وأمر بالكنائس فبنيت

وفى العاشرة من ملكه قدم أدراسلون بطركاً لليعاقبة بأسكندرية ، فأقام ست سنين خربت فيها الديور ، ثم مات ، فجعل مكانه بنيامين ، فمكث سبعا وثلاثين سنة ، ومات والفرس يومئذ قد ملكوا مصر والأسكندرية .

وأما هرقل فسار من بيت المقدس إلى مصر وملكها ، وقتل الفرس ، وولى على الأسكندرية فيرش ، وكان أمانياً ، وجمع له بين البطركة والولاية ، ورأى بنيامين البطرك فى نومه شخصاً يقول : قم فاختف ، إلى أن يجوز غضب الرب . فاختفى وتقبض هرقل على أخيه مينا ، وأراده على الأخذ بالأمانة الخلقدونية فامتنع ، فأحرقه بالنار ، ورمى بجثته فى البحر

ثم عاد هرقل إلى قسطنطينية بعد أن جمع الأموال من دمشق وحمص وحَماة وحلَب ، وعمر البلاد ، إلى أن ملك مصر عمرو بن العاصى ، وفتحها لثلثمائة

وسبع وخمسين لدِيقلاَديانُوس ، وكتب لبنيامين البطرك بالأمان ، فرجع إلى أسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة

قال ابن العميد : وانتقل التاريخ إلى الهجرة لإحدى عشرة من ملك هرقل ، وذلك لتسعمائة وثلاث وثلاثين للأسكندر ، وستمائة وأربع عشرة للمسيح (١)

قال المسعودى : وقيل إن مولده عليه السلام كان لعهد نيشطيانش الثانى الذى ذكر أنه نوسطيونس الذى بنى كنيسة الرُّها ، وأن ملكه كان عشرين سنة

ثم ملك هرقل بن نوسطيونس خمس عشرة سنة ، وهو الذى ضرب السكة الهرقلية ، وبعده مورق بن هرقل . قال : والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم لهرقل

قال: وفى كتب السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورق ، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبى بكر ، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر ، وعليه كان الفتح ، وهو المخرج من الشأم . قال : ومدة ملكهم إلى الهجرة مائة وخمس وسبعون سنة

قال الطبرى : مدة ما بين عمارة المقدس بعد تخريب بختنصر إلى الهجرة ــ على قول النصارى ــ ألف سنة وتزيد ، ومن ملك الأسكندر إليها تسعمائة ونيف وعشرون سنة ، ومنه إلى مولد عيسى ثلثمائة وثلاث سنين . وعمره إلى رفعه اثنان وثلاثون سنة ، ومن رفعه إلى الهجرة خمسمائة وخمس وثمانون سنة

وقال هروشيوش : إن ملك هرقل كانت الهجرة فى تاسعته ، وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيوس ، لستمائة وإحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولألف ومائة من بناء رومة .

والله تعالى أعلم

١ ــ التحقيق أن ذلك كان لتسعمائة وخمسة وأربعين للاسكندر وستمائة واثنين وعشرين للميلاد

الخبر عن* ملوك القياصرة من لدن هرقل

والدولة الإسلامية إلى حين انقراض أمرهم وتلاشى أحوالهم

دولة الروم الشرقية بعد الإسلام

قال ابن العميد : وفى الثانيـة من الهجرة بعث أَبَرْوِيز عساكره إلى الشام والجزيرة فملكها ، وأثخن فى بلاد الروم ، وهدم كنائس النصاري ، واحتمل ما فيها من الذهب والفضة والآنية ، حتى نقل الرخام الذى كان بالمبانى ، وحمل أهل الرُّها على رأى اليعقوبية بإغراء طبيب منهم كان عنده ، فرجعوا اليه وكانوا ملكية . وفى سابعة الهجرة بعث عساكر الفرس ومقدمهم مَرْزُبانه شَهْرِيار ، فدوّخ بلاد الروم ، وحاصر القسطنطينية ، ثم تغير له ، فكتب إلى المرازبة معه بالقبض عليه ، واتفق وقوع الكتاب بيد هِرَقل ، فبعث به إلى شهريار فانتقض ومن معه ، وطلبوا هرقل فى المدد ، فخرج معهم بنفسه فى ثلثمائة ألف من الروم ، وأربعين ألفا من الخزر الذين هم التركمان ، وسار إلى بلاد الشأم والجزيرة ، وافتتح مدائنهم التى كان ملكها كسرى من قبل ، وفيما افتتح : أرمينية ، ثم سار إلى الموصل فلقيه جموع الفرس وقائدهم المرزبان ، فانهزموا ، وقتل ، وأجفل أبَرْويز عن المدائن ، واستولى هرقل على ذخائر ملكهم . وكان شِيرَوَيْه بن كسرى محبوساً فأخرجه شهريار وأصحابه ، وملكوه ، وعقدوا مع هرقل الصلح ، ورجع هرقل إلى آمد بعد أن ولى أخاه تداوس على الجزيرة والشأم ، ثم سار إلى الرُّها ، وردّ النصارى اليعاقبة إلى مذهبهم الذى أكرهوا على تركه ، وأقام بها سنة كاملة .

ومن غير ابن العميد : وفى آخر سنة ست (١) من الهجرة كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كتابه من المدينة مع دِحْيَة الكلبي يدعوه إلى الإسلام، ونصه على ما وقع فى صحيح البخارى :

« بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم : (من محمدٍ رسولِ اللهِ) إلى هِرَقل عظيم الروم:

---

١ — أى وكان وصوله سنة سبع كما صوبه ابن حجر

* . بقية

سلامٌ على مَن اتَّبعَ الهُدَى ، أما بعدُ فإني أدعوكَ بدِعايةِ الإسلام ، أَسلِمْ * تَسلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتينِ ، فإنْ * تولَّيْتَ فإنَّ * عليكَ إثمَ الأَرِيسيِّين . ويَأهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينكم ألا نَعبُدَ إلاَّ اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شَيئاً ولا يَتخذَ بَعضُنا بَعضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسلِمون »

فلما بلغه الكتاب جمع من كان بأرضه من قريش ، وسألهم عن أقربهم نسباً منه ، فأشاروا إلى أبي سُفيانَ بن حَرْب . فقال لهم : إني سائله عن شأن هذا الرجل فاستمعوا ما يقوله . ثم سأل أبا سفيان عن أحوال تجب أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو ينزه عنها [عن مبلغ علم هرقل - خ] وكان هرقل عارفا بذلك ، فأجابه أبو سفيان عن جميع ماسأله من ذلك فرأى هرقل أنه نبي لا محالة ، مع أنه كان حَزَّاءً ينظر فى علم النجوم ، وكان عنده علم من القرآن الكائن قبل الملة بظهور الملة والعرب ، فاستيقن بنبوته وصحة ما يدعو اليه ، حسبما ذكره البخارى فى صحيحه

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحرث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّاني مَلك غسَّان بالبَلقْاء من أرض الشأم وعامل قيصر على العرب ، مع شجاع بن وَهْبٍ الأَسدِي ، يدعوه إلى الإسلام

قال شجاع : فأتيته وهو بغُوطَةِ دِمشْقَ يهيئُ النُّزُل لقيصر حين جاء من حِمْصَ إلى إيلياء ، فشغل عني ، إلى أن دعاني ذات يوم وقرأ كتابي ، وقال : من ينزع مني ملكي أنا سائر اليه ولو كان باليمن . ثم أمر بالخيول تنعل ، وكتب بالخبر إلى قيصر ، فنهاه عن المسير ، ثم أمرني بالانصراف ، وزوّدني بمائة دينار

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثامنة من الهجرة جيشه الى الشأم ، وهي غزوة مُؤْتة ، كان المسلمون فيها ثلاثة آلاف ، وأمّرَ عليهم زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب فجعفر فعبد الله بن رَوَاحة ، فانتهوا إلى مَعَان من أرض الشام ، ونزل

* فأسلم * وإن * فعليك

هرقل مآب من أرض البلقا فى مائة ألف من الروم ، وانضمت اليهم جموع جذام وبلقين ، وبهراء وبلي

وعلى بلي مالك بن رافلة

ثم زحف المسلمون إلى البلقا ، ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب على مؤتة، فكان التمحيص والشهادة ، واستشهد زيد ، ثم جعفر ، ثم عبد الله . وانصرف خالد بن الوليد بالناس ، فقدموا المدينة ، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم على من قتل من المسلمين ، ولا كوجده على جعفر بن أبي طالب ، لأنه كان تلاده

ثم أمر بالناس فى السنة التاسعة بعد الفتح وحنين والطائف : أن يتهيئوا لغزو الروم ، فكانت غزوة تبوك ، فبلغ تبوك وأتاه صاحب أيلة وجرباء وأذرح ، وأعطوا الجزية

وصاحب أيلة يومئذ يوحنا بن رؤبة بن نفاثة ، أحد بطون جذام ، وأهدى له بغلة بيضاء

وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل ، وكان بها أكيدر بن عبد الملك ، فأصابوه بضواحيها فى ليلة مقمرة ، فأسروه وقتلوا أخاه ، وجاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فحقن دمه وصالحه على الجزية ورده إلى قريته . وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة ، وقفل إلى المدينة ، وبلغ خبر يوحنا إلى هرقل ، فأمر بقتله وصلبه عند قريته اهـ من غير ابن العميد

ورجعنا إلى كلامه .

قال : وفى الثالثة عشر من الهجرة جهز أبو بكر العساكر من المسلمين من العرب لفتح الشأم :عمرو بن العاصى لفلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان لحمص ، وشرحبيل بن حسنة للبلقاء ، وقائدهم أبو عبيدة بن الجراح ، وبعث خالد بن سعيد بن العاصى إلى سماوة، فلقيه ماهان البطريق فى جموع الروم، فهزمهم خالد إلى دمشق، ونزل مرج الصفر ثم أخذوا عليه الطريق ونازلوه ثانية ، فتجهز إلى جهة المسلمين وقتل ابنه . وبعث أبو بكر خالد بن الوليد بالعراق [أن ـخ]يسير إلى الشأم أميراً على المسلمين، فسار ونزل

معهم دمشق وفتحوها كما نذكر في الفتوحات . وزحف عمرو بن العاصي إلى الأرطبون ولقيته الروم هنالك فهزمهم ، وتحصنوا ببيت المقدس وقيسارية ، ثم زحف عساكر الروم من كل جانب في مائتين وأربعين ألفاً ، والمسلمون في بضع وثلاثين ألفاً ، والتقوا باليرموك ، فانهزم الروم ، وقتل منهم من لا يحصى ، وذلك في خامسة عشر من الهجرة ، ثم تتابعت عليهم الهزائم ، ونازل أبو عبيدة وخالد بن الوليد حمص ، فصالحوهم على الجزية

ثم سار خالد إلى قِنَّسْرِين فلقيه ميناس البطريق في جموع الروم فهزمهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وفتح قنسرين ودوخ البلاد . ثم سار عمرو بن العاصي وشُرَحبيل ابن حَسَنة فحاصروا مدينة الرّملة ، وجاء عمر بن الخطاب إلى الشأم ، فعقد لأهل الرملة الصلح على الجزية ، وبعث عمراً وشرحبيل لحصار بيت المقدس فحاصروها ، ولما أجهدهم البلاء طلبوا الصلح على أن يكون أمانهم من عمر نفسه ، فحضر عندهم ، وكتب أمانهم ، ونصه : «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ من عمر بن الخطاب لأهل إيليَّاء إنهم آمِنون على دِمَائهم وأولادِهم ونِسَائِهم ، وجميع كنائِسِهم لا تسكَنُ ولا تهدَم» أمان عمر لأهل الفرس

ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وجاء كنيسة القُمامة فجلس في صَحْنها وحان وقت الصلاة فقال للبِتْرَك : أريد الصلاة ، فقال له صل موضعك ، فامتنع [وخرج ــ خ] ، وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً ، فلما قضى صلاته قال للبترك : لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي ، وقالوا : هنا صلى عمر . وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ، ولا يؤذن عليها . ثم قال للبترك : أرني موضعاً أبني فيه مسجداً ، فقال : على الصخرة التي كلَّم الله عليها يعقوب . ووجد عليها ردماً كثيراً ، فشرع في إزالته ، وتناوله بيده يرفعه في ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة ، فزال لحينه ، وأمر ببناء المسجد

ثم بعث عمرو بن العاصي إلى مصر فحاصرها ، وأمده بالزبير بن العوَّام في أربعة آلاف من المسلمين ، فصالحهم المقوقس على الجزية ، ثم سار إلى الأسكندرية فحاصرها وافتتحها

وفى السابعة عشر من الهجرة جاء ملك الروم إلى حمص فى جموع النصرانية ، وبها أبو عبيدة ، فهزمهم واستلحمهم ، ورجع هرقل إلى أنطاكية ، وقد استكمل المسلمون فتح فلسطين وطبرية والساحل كله ، واستنفر العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وقدم عليهم (١) ماهان البطريق ، وبعثه للقاء العرب ، وكتب إلى عامله على دمشق منصور ابن سرحون أن يمده بالأموال ، وكان يحقد عليه نكبته من قبل ، واستصفى ماله حين أفرج الفرج عن حصاره بالقسطنطينية لأول ولايته ، فاعتذر العامل للبطريق عن المال ، وهوّن عليه أمر العرب ، فسار من دمشق للقائهم ، ونازلهم بجابية الخولان ، ثم اتّبعه العامل ببعض مال جهزه للعساكر ، وجاء العسكر ليلاً وأوقد * المشاعل ، وضرب الطبول ، ونفخ البوقات ، فظنهم الروم عسكر العرب جاءوا من خلفهم ، وأنهم أحيط بهم ، فأجفلوا ، وتساقطوا فى الوادى ، وذهبوا طوائف إلى دمشق وغيرها من ممالك الروم ، ولحق ماهان بطورسيناء وترهب إلى أن هلك ، واتبع المسلمون الفل مع منصور إلى دمشق ، وحاصروها ستة أشهر فرقوا على أبوابها ، ثم طلب منصور العامل الأمان للروم من خالد ، فأمنه ، ودخل المدينة من الباب الشرقى ، وتسامع الروم الذين بسائر الأبواب ، فهربوا وتركوها ، ودخل منها الأمراء الآخرون عنوة ، ومنصور ينادى بأمان خالد ، فاختلف المسلمون قليلاً ثم اتفقوا على أمان الروم ، [ولحقوا بهرقل فى أنطاكية ، فسار من هنالك إلى قسنطيطنية ، ثم لحق به الروم — خ] الذين كانوا بالأسكندرية بعد أن افتتحها عمرو ابن العاصى ، ركبوا اليه البحر ، ووافوه بها

ثم هلك هرقل لإحدى وعشرين من الهجرة . ولإحدى وثلاثين من ملكه ، فملك على الروم بقسطنطينية قسطنطين ، وقتله بعض نساء أبيه لستة أشهر من ملكه قسطنطين

وملك أخوه هرقل بن هرقل ، ثم تشاءم به الروم فخلعوه وقتلوه

وملكوا عليهم قسطينوس بن قسطنطين ، فملك ست عشرة سنة ، ومات لسابعة وثلاثين من الهجرة قسطينوس

١ — فى ج: وولى عليهم بطرك قريبا من مائة سنة . والتصحيح من خطط المقريزى
* وقد أوقدوا

وفى أيامه غزا معاوية بلاد الروم سنة أربع وعشرين ، وهو يومئـذ أمير على الشأم فى خلافة عمر بن الخطاب ، فدوخ البلاد وفتح منهـا مدناً كثيرة وقفل ، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص فى البحر ، ففتح منها حصوناً ، وضرب الجزية على أهلها ، وذلك سنة سبع وعشرين

وكان عمرو بن العاصى لما فتح الأسكندرية كتب لبنْيَامين بطرك اليعاقبة بالأمان، فرجع بعد ثلاث عشرة من مغيبه ، وكان ولاه هرقل فى أول الهجرة كما قدمنا . وملك الفرس مصر والاسكندرية عشر سنين عند حصار قسطنطينية أيام هرقل ، ثم غاب عن الكرسى عندما ملك الفرس وقدموا الملكية ، وبقى غائباً ثلاث عشرة سنة: أيام الفرس عشرة، وثلاث من ملكة المسلمين ، ثم أمنه عمرو بن العاصى فعاد ، ثم مات فى تاسعة وثلاثين من الهجرة ، وخلفه فى مكانه أغاثوا ، فمكث سبع عشرة سنة

ولما هلك قُسنطينوس بن قسطنطين فى سابعة وثلاثين من الهجرة كما قلناه ، ملك على الروم القسطنطينية ابنه يوطيانوس ، فمكث ثنتى عشرة سـنة ، وتوفى سنة [ثمان وأربعين من الهجرة ، وملك ابنه لاوى ، فملك ثلاثا ، وتوفى سـنة — خ] خمسين ، فملك بعده طيباريوس ، ومكث سبع سنين يوطيانوس طيباريوس

وفى أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية فى عساكر المسلمين ، وحاصرها مدة ثم أفرج عنها ، واستشهد أبو أيوب الأنصارى فى حصارها ودفن فى باحتها . ولما قفل عنها توعدهم بتعطيل كنائسهم بالشأم إن تعرضوا لقبره ، ثم قتل طيباريوس قيصر سنة ثمان وخمسين

أوغسطس ومللك أوغسطس قيصر ، وفى أيام ولايتـه مات أغاثوا بطرك اليعاقبة القبط بأسكندرية ، وقدم مكانه يوحنا ، ثم قتل أوغسطس قيصر ، ذبحه بعض عبيده سنة [نيف وستين]

أصطفانيوس وملك ابنه اصطفانيوس ، وكان لعهد عبد الملك بن مروان

وفى سنة خمس وستين من الهجرة زاد عبد الملك فى المسجد الأقصى ، وأدخل الصخرة فى الحرم ، ثم خلع اصطفانيوس

لاون　ثم ملك بعده لاون ، ومات سنة ثمان وسبعين

طيباريوس　وملك طيباريوس سبع سنين، ومات سنة ست وثمانين

سطيانوس　فملك سطيانوس ، وذلك فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى بنى مسجد بنى أمية بدمشق، يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صندوق فى كل صندوق أربعمائة عشر ألف دينار ، وكان فيه من جملة الفعلة اثنا عشر ألف مُرَخِّم ، ويقال كانت فيه ستمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل ، فكانت تغشى عيون الناظرين، وتفتن المسلمين ، فأزالها عمر بن عبد العزيز ، وردّها إلى بيت المال

وكان الوليد لما اعتزم على الزيادة فى المسجد أمر بهدم كنيسة النصاري، وكانت ملاصقة للمسجد فأدخلها فيه ، وهى معروفة عندهم بكنيسة ماريوحنا . ويقال: إن عبد الملك طلبهم فى ذلك فامتنعوا ، وإن الوليد بذل لهم فيها أربعين ألف دينار فلم يقبلوا ، فهدمها ولم يعطهم شيئاً . وشكوا أمرها إلى عمر بن عبد العزيز ، وجاءوه بكتاب خالد بن الوليد وعهده ألا تخرب كنائسهم ولا تسكن ، فراودهم على أخذ الأربعين ألفاً التى بذل لهم الوليد ، فأبوا، فأمر أن تُرَدَّ عليهم، فعظم ذلك على الناس. وكان قاضيه أبو إدريس الخولانى، فقال لهم: تتركون هذه الكنيسة فى* [كنيسة توما التى فتحت عنوة] وإلا هدمناها ، فأذعنوا ، وكتب لهم عمر الأمان على ما بقى من كنائسهم

وفى سنة ست وسبعين بعث كاتب الخراج إلى سليمان بن عبد الملك بأن مقياس حلوان بطل ، فأمر ببناء مقياس فى الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة ، فهو لهذا العهد

تداوس　وفى سنة إحدى ومائة من الهجرة، ملك تداوس على الروم سنة ونصفاً ، ثم ملك

لاون　بعده لاون أربعاً وعشرين سنة ، وبعده ابنه قسطنطين

قسطنطين　وفى سنة ثلاث عشرة ومائة غزا [معاوية بن ـ خ] هشام بن عبد الملك الصائفة اليسرى ، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى ، ولقيهم قسطنطين فى جموع الروم فانهزموا ، وأخذ أسيراً ، ثم أطلقوه بعد

وفى أيام مروان بن محمد وولاية [عبد الملك بن ـ خ] موسى بن نُصَير لقى

* الكنائس التى فى نصف العنوة فى المدينة ـ

النصارى بالأسكندرية ومصر شدة ، وأخذوا بغرامة المال ، واعتقل بطرك الأسكندرية ميخايل، وطلب بجملة من المال فبذلوا موجودهم ، وانطلقوا يستسعون ما يحصل لهم من الصدقة ، وبلغ ملك النوبة ما حل بهم فزحف فى مائة ألف من العساكر إلى مصر، فخرج اليه عامل مصر ، فرجع من غير قتال

وفى أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدى اليعاقبة وولى عليهم* [قسيا بطركا سنة سبع ومائة] وكانت رياسة البطرك فيها لليعاقبة ، وكانوا يبعثون الأساقفة للنواحي ، ثم صارت النوبة من ورائهم للحبشة يعاقبة

جرجس

قسطنطين

لاون ونقفور

ثم ملك بالقسطنطينية رجل من غير بيت الملك اسمه جرجس ، فبقى أيام السفاح والمنصور وأمره مضطرب ، ثم مات وملك بعده قسطنطين بن لاون *وبنى المدن وأسكنها أهل أرمينية وغيرها . ثم مات قسطنطين بن لاون* ، وملك ابنه لاون ،* ثم هلك لاون* ، وملك بعده نقفور

وفى سنة سبع وثمانين ومائة غزا الرشيد هرقلة ، ودوخ جهاتها، وصالحه نقفور ملك الروم على الجزية ، فرجع الى الرقة ، وأقام شاتيا ، وقد كلب البرد ، وأمن نقفور من رجوعهم، فانتقض، فعاد اليه الرشيد وأناخ عليه حتى قرر الموادعة والجزية عليه ، ورجع . ودخلت عساكر الصائفة بعدها من درب الصفصاف ، فدوخوا أرض الروم ، وجمع نقفور ولقيهم ، فكانت عليه هزيمة شنعاء قتل فيها [من الروم - خ] أربعون ألفاً ، ونجا نقفور جريحاً

وفى سنة تسعين ومائة دخل الرشيد بالصائفة الى بلاد الروم فى مائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى المطوعة ، وبث السرايا فى الجهات ، وأناخ على هرقلة ففتحها ، وبلغ سبيها ستة عشر ألفاً . وبعث نقفور بالجزية فقبل ، وشرط عليهم أن لا يعمر هرقلة ، وهلك نقفور فى خلافة الأمين . وولى ابنه أستبراان قيصر

أستبراان

وغزا المأمون سنة خمس عشرة ومائتين الى بلاد الروم ، ففتح حصوناً عدة

* بطرك بعد أن أقاموا من لدن خلافة عمر من غير بطرك قريبا من مائة سنة

* لاوي

ورجع الى دمشق . ثم بلغه أن ملك الروم غزا طَرَسوس والمصيِّصة وقتل منها نحواً من ألف وستمائة رجل ، فرجع وأناخ على انطواغوا (١) حتى فتحها صلحاً . وبعث المعتصم ففتح ثلاثين [حصنا — خ] من حصون الروم ، وبعث يحيي بن أكثم بالعساكر فدوّخ أرضهم ، ورجع المأمون الى دمشق . ثم دخل بلاد الروم وأناخ على مدينة لؤلؤة مائة يوم ، وجهز اليها العساكر مع عجيف مولاه ، ورجع ملك الروم فنازل عجيفا ، فأمده المأمون بالعسكر ، فرحل عنه ملك الروم ، وافتتح لؤلؤة صلحاً

ثم سار المأمون الى بلاد الروم ففتح سلغوس والبروة (؟) ، وبعث ابنه العباس بالعساكر فدوّخ أرضهم وبنى مدينة طوانة* ميلاً في ميل ، وجعل لها أربعة أبواب . ثم دخل غازياً بلاد الروم ، ومات في غزاته سنة ثمان عشرة ومائتين . وفي أيامه غلب قسطنطين على مملكة الروم ، وطرد ابن نغفور عنها

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين فتح المعتصم عمُّورِيَّة ، وقصتها معروفة في أخبارها . انتهى كلام ابن العميد ، وأغفلنا من كلامه أخبار البطاركة من لدن فتح الاسكندرية ، لأنا رأيناه مستغنى عنه ، وقد صارت بطركيتهم الكبرى التي كانت بالاسكندرية بمدينة رومة ، وهي هنالك للملكية ، ويسمونه البابا ومعناه : أبو الآباء ، وبقي ببلاد مصر بطرك اليعاقبة على المعاهدين من النصارى بتلك الجهات ، وعلى ملوك النُّوبة والحبشة

وأما المسعودى فذكر ترتيب هؤلاء القياصرة من بعد الهجرة والفتح * كما ذكره ابن العميد

قال : والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم فيها لهرقل

سياقة المسعودى عن أهل السير

قال : وفي كتب أهل السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مُورِق

ثم كان بعده ابنه قَيْصَر بن قَيْصَر أيام أبي بكر ، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر ، وعليه كان الفتح ، وهو المخرج من الشأم أيام أبي عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن

١ — في ط (١٠ — ٢٨١) «انطيغوا» و في ك (٦ — ١٤٢) انطيعوا بالعين المهملة
* انطولية　* مخالفا بعض الشيء لما

أبي سفيان ، فاستقر بالقسطنطينية ،وبعده مُورق بن هرقل أيام عثمان ،وبعده مُورق بن مُورق أيام علي ومعاوية ، وبعده قَلَنْط بن مورق آخر أيام معاوية وأيام يزيد ومروان ابن الحكم ، كان معاوية يراسله ويراسل أباه مورق ، وكان يختلف اليه * غلامه نياق. ويبشره مورق بالملك ، وأخبره أن عثمان يقتل ، وأن الأمر يرجع إلى معاوية، وهادى ابنه قلفط حين سار إلى حرب عليّ رضي الله عنه ، ثم نزلت جيوش معاوية، مع ابنه اليزيد قسطنطينية ، وهلك عليها في حصاره أبو أيوب الأنصارى ، ثم ملك من بعد قلفط بن مورق لاون * بن قلفط أيام عبد الملك بن مروان ،وبعده جيرون ابن لاون أيام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ، ثم غشيهم المسلمون في ديارهم وغزوهم في البر والبحر ، ونازل مسلمة القسطنطينية ، واضطرب ملك الروم

وملك عليهم جرجيس من مَرْعش ، وملك تسع عشرة سنة ، ولم يكن من بيت الملك ، ولم يزل أمرهم مضطربا إلى أن ملك عليهم قسطنطين بن أليُون ، وكانت أمه مستبدة عليه لمكان صغره

ومن بعده نِغْفُور (١) بن استيراق أيام الرشيد ، وكانت له معه حروب ، وغزاه الرشيد فأعطاه الانقياد، ودفع اليه الجزية ، ثم نقض العهد ، فتجهز الرشيد إلى غزوه ، ونزل هرقلة وافتتحها سنة تسعين ومائة ، وكانت من أعظم مدائن الروم ، وانقاد نغفور بعد ذلك وحمل الشروط

وملك بعده استيراق بن نغفور أيام الأمين ، وغلب عليه قسطنطين بن قلفط وملك أيام المأمون، وبعده نوفيل أيام المعتصم ، واستردّ زِبطرة ، ونازل عمورية وافتتحها ، وقتل من كان بها من أمم النصرانية

---

١ — جاء في ك (١ — ١١٦) : كنت رأيت نيقفور في كثير من الكتب بسكون القاف حتى رأيت رجلا زعم أن اسمه نيقفور « بفتح القاف » وقال ناشر ابن الوردى في جدول تصحيحاته أول الجزء الأول: نِيقفور بالنون مكسورة وبالقاف المبدلة من الكاف المضمومة كما يدل على ذلك ما في السلسلة المذكورة انه نيكوفوروس فعربوه بما ذكر . وكثير من المؤلفين يكتبه نيقفور أو نغفور ، وهذا الأخير هو الذى اعتمدنا في ضبط الكلمة

* اليهما * لاوى

ثم ملك ميخائيل بن نوفيل أيام الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين

ثم تنازع الروم، وملكوا عليهم نوفيل بن ميخاييل ، ثم غلب على الملك نسيل الصقلبي، ولم يكن من بيت الملك ، وكان ملكه أيام المعتز والمهتدى وبعضاً من أيام المعتمد

ومن بعده أليون بن نسيل بقية أيام المعتمد، وصدراً من أيام المعتضد

ومن بعده الاسكندروس ، ونقموا سيرته فخلعوه ، وملكوا أخاه لاوى بن اليون بقية أيام المعتضد والمكتفى وصدرا من أيام المقتدر ، ثم هلك

وملك ابنه قسطنطين صغيراً ، وقام بأمره أرمنوس بطريق البحر ، وزوجه ابنته ، ويسمى الدمستق ، وهو الذى كان يحارب سيف الدولة ملك الشأم من بنى حمدان ، واتصل ذلك أيام المقتدر والقاهر والراضى والملتقى وافترق أمر الروم وأقام بعض بطارقتها ، ويعرف باستفانس، فى بعض النواحى ، وخوطب بالملك (١)وجعل أرمانوس ابناً له آخر) أرمنوس بطركاً بكرسى القسطنطينية . إلى هنا انتهى كلام المسعودى

وقال عقبه : فجميع سنى الروم المتنصرة من أيام قسطنطين بن هلانة إلى عصرنا، وهو حدود الثلثمائة والثلاثين للهجرة ، خمسمائة سنة وسبع سنين . وعدد ملوكهم أحد وأربعون ملكاً ، قال : فيكون ملكهم إلى الهجرة مائة وخمسا وسبعين سنة اهـ كلام المسعودى

سياقة ابن الأثير

وفى تاريخ ابن الأثير : إن أرمانوس لما مات ترك ولدين صغيرين ، وكان الدمستق على عهده قوقاش ، وملك ملطية من يد المسلمين بالأمان سنة ثنتين وعشرين وثلثمائة ، وكان أمر الثغور لسيف الدولة بن حمدان، وملك قوقاش مرعش وعين زربة(٢) وحصونهما ، وأوقع بجابية طرسوس مراراً ، وسار سيف الدولة فى بلادهم فبلغ خرشنة وصارخة ، ودوخ البلاد ، وفتح حصوناً عدة ، ثم رجع

ثم ولى أرمانوس نقفور دمستقا (واسم الدمستق عندهم على من يلى شرق

---

١ — الزيادة بين علمين من م لتتم المعنى

٢ — فى ج: عرزربه .والتصحيح من ك .وقد وقعت عند ياقوت مقصورة

الخليج حيث ملك ابن عثمان لهذا العهد) فأقام نُقفور دمستقا، وهلك أرمانوس وترك ولدين صغيرين، وكان نغفور غائباً في بلاد المسلمين، فلما رجع اجتمع اليه زعماء الروم وقدموه لتدبير أمر الولدين، وألبسوه التاج، وسار إلى بلاد المسلمين سنة إحدى وخمسين وثلثمائة إلى حلب، فهزم سيف الدولة وملك البلد، وحاصر القلعة فامتنعت عليه، وقتل ابن أخت الملك في حصارها، فقتل جميع الأسرى الذين عنده، ثم بنى سنة ست وخمسين مدينة بقَيْسارية ليجلب منها على بلاد الاسلام، فخافه أهل طرَسوس واستأمنوا اليه، فسار اليهم وملكها بالأمان، وملك المصّيصة عنوة، ثم بعث أخاه في العساكر سنة تسع وخمسين إلى حلب فملكها، وهرب أبو المعالى ابن سيف الدولة إلى البرية، وصالحه قَرْعويه بعد أن امتنع بالقلعة، ورجع. ثم إن أم الملكين ابنى أرمانوس اللذين كانا مكفولين له استوحشت منه، وداخلت في قتله ابن الشمشْقيق (١) فقتله سنة ستين

وقام ابن أرمانوس الأكبر وهو بسيل بتدبير ملكه، وجعل ابن الشمشقيق (١) دُمستقا (٢) وقام * على لاون أخى نغفور وعلى ابنه ورديس بن لاون، واعتقلهما، وسار إلى الرُّها ومَيّافارِقين، وعاث في نواحيهما، وصانعه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل بالمال، فرجع. ثم خرج سنة ثنتين وستين، فبعث أبو تغلب ابن عمه أبا عبدالله بن حمدان فهزمه، وأسره وأطلقه. وكان لأم بسيل (٣) أخ قام بوزارتها، فتحيل في قتل ابن الشمشقيق بالسم

١ — في ج «الشميشق» والتصحيح من ك قال: «وهو الذى تسميه العامة ابن الشمشكى» والذى في ك (٨ — ٢٤٨) أنه لم يزل محبوسا الى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ ابو تغلب في علاجه وجمع الاطباء فلم ينفعه ذلك ومات

٢ — الدال في الدمشتق بالاشمام (Dunustule) ولذلك يضبطها البعض بالضم والبعض بكسرها

٣ — باسيليوس (Basil) وقد تقدم للمؤلف كتابته بالنون أوله، نقلا عن م والصواب ما له هنا عن ك

* وقبض

ثم وَلّى بسيل بن أرمانوس سقلاروس دمستقا ؛ فعصى عليه سنة خمس وستين وطلب الملك لنفسه ، وغلبه بسيل ، ثم خرج على بسيل وَرْد بن منير من عظماء البطارقة ، واستجاش بأبى تغلب بن حمدان ، وملكوا الأطراف ، وهزم عساكر بسيل مرة بعد مرة ، فأطلق ورديس لاون وهو ابن أخى نغفور من معقله، وبعثه فى العساكر لقتاله ، فهزمه ورديس ، ولحق ورد بن منير بميافارقين صريخاً بعضد الدولة، وراسله بسيل فى شأنه ، فجنح عضد الدولة إلى بسيل ، وقبض على ورد (١) واعتقله ببغداد ، ثم أطلقه ابنه صَمْصَام الدولة لخمس سنين من اعتقاله ، وشرط عليه إطلاق أسرى المسلمين والنزول عن حصون عدة من معاقل الروم ، وأن لا يغير على بلاد الاسلام ، وسار فاستولى على مَلَطْية ، ومضى إلى القسطنطينية فحاصرها ، وقتل ورديس بن لاون ، واستنجد بسيل بملك الروس وزوّجه أخته ، ثم صالح ورداً على ما بيده

ثم هلك ورد بعد ذلك بقليل ، واستولى بسيل على أمره ،وسار إلى قتال البُلْغار فهزمهم،وملك بلادهم وعاث فيها أربعين سنة ، واستمده صاحب حلب أبو الفضائل ابن سعْد * الدولة لما زحف اليه منجوتكين صاحب دِمَشق من قبل الخليفة بمصر سنة إحدى وثمانين ، فجاء بسيل لمدده ، وهزمه منجوتكين ، ورجع مهزوماً، ورجع منجوتكين إلى دمشق ، ثم عاود الحصار ، فجاء بسيل صريخاً لأبى الفضائل ، فأجفل منجوتكين من مكانه على حلب وسار [بسيل — خ] إلى حمص وشَيزَر فملكها وحاصر طرابلس، وصالحه ابن مروان على ديار بكر، ثم بعث الدُّوقس الدمستق إلى إمامه فبعث اليه * صاحب مصر أبا عبدالله بن ناصر الدولة بن حمدان فى العساكر ، فهزمه وقتله . ثم هلك بسيل سنة عشر وأربعمائة لنيف وسبعين من ملكه

وملك بعده أخوه قسطنطين ، وأقام تسعاً . ثم هلك عن ثلاث بنات ، فملّك الروم عليهم الكبرى منهن ، وأقام بأمرها ابن خالها أرْمَانوس ، وتزوجت به ، فاستولى على مملكة الروم ، وكان خاله ميخاييل متحكما فى دولته ومداخلا لأهله ،

---

١ — فى ج « ورديس » والتصحيح من ك

* ابن سيف . * به .

فمالت اليه الملكة وحملته على قتل أرمانوس فقتله ، واستولى على الأمر . ثم أصابه الصرع وآذاه [وأزمن به ــ خ] ، فعهد لابن أخته واسمه ميخاييل أيضاً . وكان أرمانوس قد خرج سنة إحدى وعشرين إلى حلب فى ثلاثة آلاف مقاتل، ثم خار عن اللقاء فاضطرب ورجع، واتبعه العرب فنهبوا عساكره ، وكان معه ابن الدُّوقس من عظماء البطارقة فارتاب وقبض عليه ، وخرج سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة فى جموع الروم ، فملك الرُّها وسَرُوج ، وهزم عساكر ابن مَرْوان . ولما ملك ميخاييل [بعده ــ خ] سار إلى بلاد الإسلام فلقيه الدِّزْبِرِى صاحب الشأم ، من قِبل العَلَوِية ، فهزمه ، واقتصر الروم بعدها عن الخروج إلى بلاد الإسلام . وملك ميخاييل ابن أخته كما قلناه ، وقبض على أخواله وقرابتهم ، وأحسن السيرة فى المملكة ، ثم طلب زوجته فى الخلع فأبت ، فنفاها إلى بعض الجزائر ، واستولى على المملكة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة . ونكر عليه البترك ما وقع فيه ، فهمَّ بقتله ، ودخل بعض حاشيته فى ذلك ، ونمى الخبر إلى البترك ، فنادى فى النصرانية بخلعه ، وحاصره فى قصره ، واستدعى الملكة التى خلعها ميخاييل من مكانها ، وأعادوها إلى الملك ، فنفت ميخاييل كما نفاها أولا

ثم اتفق البترك والروم على خلع الملكة بنت قسطنطين ، وملكوا أختها الأخرى تودُورة وسلموا (١) ميخاييل لها ، ثم وقعت الفتنة بين شيعة تودُورة وشيعة ميخاييل واتصلت ، وطلب الروم أن تملكوا عليهم من يمحو هذه الفتنة ، وأقرعوا على المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين منهم فملَّكوه أمرهم ، وتزوَّج بالملكة الصغيرة (٢) تودُورة ، وجعلت أختها الكبرى على ما بذلته لها ، وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة . ثم توفى قسطنطين سنة ست وأربعين

---

١ ـــ فى ك (٩ ــ ٢٠٨) وكحلوا ميخائيل ، فلعل سلموا فى كلام المؤلف تصحيف عن سملوا ، وزاد بعض النساخ « لها »

٢ ـــ الذى فى ك (٩ ــ ٢٠٨) « فخرج اسم قسطنطين فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة واستنزلت أختها الصغيرة تودورة عن الملك بمال بذلته لها واستقر فى الملك سنة ٤٣٤ » فانظره مع نقل المؤلف عنه

وملك على الروم أرمانوس ، وقارن ذلك بظهور الدولة السلْجُوقية ، واستيلاء طُغْرُلبَك على بغداد، فردّد الغزو اليهم من ناحية أذربيجان ، ثم سار ابنه (١) الملك ألْبْ أرسلاَن ، وملك مدناً من بلاد الكُرْج ،منها مدينة آني (٢) وأثخن في بلادهم ، ثم سار ملك الرُّوم إلى مَنْبِج وهزم [محمود بن صالح (٣)] ابن مِرْداس وابن حسان وجموع العرب ، فسار ألب أرسلان اليه سنة ثلاث وستين

وخرج أرمانوس في مائتي ألف من الروم والعرب والروس والكُرْج ، ونزل على نواحي أرمينية ، فزحف اليه ألب أرسلان من أذرَبيجان فهزمه وحصل في أسره ، ثم فاداه على مال يعطيه ، وأجروه عليه وعقد معه صلحاً ، وكان أرمانوس لما انهزم وثب ميخاييل بعده على مملكة الروم ، فلما انطلق من الأسر ورجع دفعه ميخاييل عن الملك ، والتزم أحكام الصلح الذى عقده مع ألب أرسلان ، وترهَّب أرمانوس . إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير

استفحال ملك الافرنج

ثم استفحل ملك الافرنج بعد ذلك ، واستبدوا بملك رومة وما وراءها . وكان الروم لما أخذوا بدين النصرانية حملوا عليه الأمم المجاورين لهم طوعا وكرهاً ، فدخل فيه طوائف من الأمم ، منهم الأرمن ، وقد تقدم نسبهم إلى ناحور أخي ابراهيم عليه السلام ، وبلادهم أرمينية ، وقاعدتها خِلاط (٤)

ومنهم الكُرج ، وهم من شعوب الروم ، وبلادهم الخزَر ، مابين إرمينية والقسطنطينية شمالا ، في جبال ممتنعة

---

١ — الصواب ابن أخيه كما في ك (١٠ – ١١) و ش (٤ – ٤١٨) والسلوك (١–٣٣)

٢ — في ج « وملك مدنا من بلاد الكرخ منها مدينة آي وقد تبين لنا من ك (١٠–١٥) أن ذلك غلط والصواب ما أصلحناه به . هذا ومن الفائدة أن نلاحظ هنا أن ب اعتمد التصحيف الموجود في ج فذكر (١ – ١٥٦) أن آى مدينة من مدن الكرخ سار اليها الب ارسلان الخ وهو غلط إذ لا نعلم له مصدراً غير هذا التحريف

٣ — الزيادة من ك (١٠ – ٢٤)

٤ — ضبطناها بالكسر تبعا ليا ونقل في ش (٤ – ٣٥٥) عن تقويم البلدان أنها أخلاط بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام ثم ألف وطاء ويقال فيها خلاط بفتح الخاء من غير همزة

ومنهم الجرْكَش ، فى جبال بالعدوة الشرقيــة من بحر نيطش (١) ، وهم من شعوب الترك

ومنهم الروس فى جزائر ببحر نيطش ، وفى عدوته الشمالية

ومنهم البلْغار ، نسبة إلى مدينة لهم فى العدوة الشمالية أيضاً من بحر نيطش

ومنهم الـبُرْجان،أمة كبيرة متوغلون فى الشمال ، لا تعرف أخبارهم لبُعـدها ، وهؤلاء كلهم من شعوب الترك ، وأعظم من أخـذ به من الأمم الافرنج ، وقاعدة بلادهم فَرَنْجة ، ويقولون فَرَنسة بالسين ، وملـكهم الفَرَنسيس،وهم فى بسائط على عُدْوة البحر الرُّومى من شماليه، وجزيرة الأندلس من ورائهم فى المغرب،تفصل بينهم وبينها جبال متوعرة ذات مسالك ضيقة يسمونها البون (٢) ، وساكنها الجلالقة من شعوب الافرنج،وهؤلاء فرنسة أعظم ملوك الافرنجة بالعدوة الشمالية من هذا البحر ، واستولوا من الجزيرة البحرية منه على صِقِلِّية وقُبْرُص وأقْرِيطش (كريد) وجَنْوَة واستولوا أيضاً على قطعة من بلاد الأندلس إلى بَرْشَلُونة ؛ واستفحل ملـكهم بعـد القياصرة الأول

ومن أمم الافرنجـة البنادقة (أهل فينيسيا) ، وبلادهم حِفَافَى خليج يخرج من بحر الروم متضايقاً إلى ناحية الشمال ومغرّبا بعض الشئ على سبعمائة ميل من البحر ، وهـذا الخليج مقابل لخليج القسطنطينية وفى القرب منـه ، وعلى ثمان مراحل من بلاد جنوة

ومن ورائها مدينة رومة حاضرة الافرنجة ومدينة ملـكهم ، وبها كرسى البطرك الأكبر الذى يسمونه البابا

ومن أمم الافرنجة الجلالقة ، وبلادهم الأندلس ، وهؤلاء كلهم دخلوا فى دين النصرانية تبعاً للروم إلى من دخل فيه منهم من أمم السودان والحبشة والنوبة ، ومن كان على ملـكة الروم من برابرة العدوة بالمغرب ، مثل نَفزَاوة وهُوارة بإفريقيـة

---

١ — نيطش هكذا يستعمله المؤلف فى التاريخ وكذلك سماه فى جغرافيـه من المقدمة وهو تحريف لبنطس أو بنطش (البحر لأسود)

٢ — كذا هنا ولعلها تحريف عن البرنات (البرانس)

والمصامدة بالمغرب الأقصى ، واستفحل ملك الروم ودين النصرانية

ولما جاء الله بالاسلام وغلب دينه على الأديان ، وكانت ممالك الروم قد انتشرت حفافا في البحر الرومي من عدوتيه ، فانتزعوا منهم لأول أمرهم عدوته الجنوبية كلها من الشأم (١) ومصر وإفريقية والمغرب ، وأجازوا من خليج طنجة ، فملكوا الأندلس كلها من يد القوط والجلالقة ، وضعف أمر الروم وملكهم بعد الانتهاء إلى غايته ، شأن كل أمة ، ثم شغل الافرنجة بما دهمهم من العرب في الأندلس والجزائر بما كانوا يتخيفونهم ويرددون الصوائف إلى بسائطهم أيام عبد الرحمن الداخل وبنيه بالأندلس وعبد الله الشيعي وبنيه بالإفريقية ، وملكوا عليهم جزائر البحر الرومي التي كانت لهم ، مثل صقلية وميورقة ودانية وأخواتها ، إلى أن فشل ريح الدولتين ، وضعف ملك العرب ، فاستفحل الافرنجة ، ورجعت لهم ، واسترجعوا ما ملكه المسلمون إلا قليلا بسيف البحر الرومي مضائق العرض في طول أربع عشرة مرحلة ، واستولوا على جزائر البحر كلها ، ثم سموا الى ملك الشأم وبيت المقدس مسجد أنبيائهم ومطلع دينهم ، فسربوا اليه آخر المائة الخامسة ، وتواثبوا على الأمصار والحصون وسواحله . ويقال إن المستنصر العبيدي هو الذي دعاهم لذلك وحرضهم عليه لما رجا فيه من اشتغال ملوك السلجوقية بأمرهم وإقامتهم سداً بينه وبينهم عند ما سموا إلى ملك الشأم ومصر . وكان ملك الافرنجة يومئذ اسمه بردويل وصهره رجار ملك صقلية من أهل طاعته (؟) فتظاهروا على ذلك ، وساروا إلى القسطنطينية سنة إحدى وتسعين ليجعلوها طريقاً إلى الشأم ، فمنعهم ملك الروم يومئذ ، ثم أجازهم على أن يعطوه ملطية إذا ملكوها ، فقبلوا شرطه ، ثم ساروا إلى بلاد ابن قطلوميش ، وقد استولى يومئذ على مرية وأعمالها وأرزن الروم وأقصرا وسيواس ، افتتح تلك الأعمال كلها عند هبوب ريح قومه على السلجوقية [فلقيهم ابن قطلومش فهزموه ، وفروا ببلاد ابن ليون ملك الأرمن فلم يطق دفاعهم ، ثم جاءوا الى إنطاكية وهي بيد باغي سيان من موالي السلطان ملكشاه (؟) فحاصروه بها وافتتحوها عنوة فملكوها ، وفر باغي سيان وجيء اليهم برأسه ، ونزل أنطاكية

١ — الشأم بيت في العدوة الجنوبية ، بل في العدوة الشرقية

بتمد (؟) من زعمائهم ، وتعدوا سواحل الشأم وأمصاره واحدة واحدة ، واستولوا على بيت المقدس كما نذكر فى أخبار دولة الفرنج بالشأم ، فانا انفردنا بأخبار دولتهم متوسطة بين دول السلجوقية ـ خ]

ثم حدثت الفتنة بينهم وبين الروم بالقسطنطينية ، واستنجد كل منهم بملوك المسلمين فى ثغور الشأم والجزيرة ، وعظمت الفتن فى تلك الآفاق ، ودامت الحال على ذلك نحواً من مائة سنة وملك الروم بالقسطنطينية فى تناقص واضمحلال ، وكان رجار صاحب صقلية يغزو القسطنطينية من البحر ، ويأخذ ما يجد فى مرساها من سفن التجار وشوانى المدينة . ولقد دخل جرجى بن ميخاييل صاحب أسطوله إلى مينا القسطنطينية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ورمى قصر الملك بالسهام ، فكانت تلك أنكى على الروم من كل ناحية *

استيلاء الافرنج على القسطنطينية

ثم كان استيلاء (١) الافرنج على القسطنطينية آخر المائة السادسة . وكان من

١ ــ كانت هذه الحوادث فى الحروب الصليبية الرابعة وذلك أنه بعد وفاة المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبى واختلاف أبنائه وأخيه على اقتسام البلاد لاح للصليبيين أمل فى النجاح والفوز وجعل البابا يحثهم على التجنيد والعودة إلى إنقاذ الأراضى المقدسة ، ولكن أوربا التى كانت فى مشاغل داخلية ظلت تتردد الى سنة ١٢٠٢ حيث كونت جيشا عرمرما معظمه من الفرنسيس وفيه من الطليان والمجر والألمان واتفق الفرنسيون مع ملك البندقية على أن يؤاجرهم السفن لنقل الجند إلى فلسطين ثم لما وصلوا إلى البندقية عجزوا عن دفع الأجرة المتفق عليها فزين لهم هريكوس دندولوا زعيم البندقية وكان مسنا أعمى (كما ذكر المؤلف) مساعدته على فتح مدينة زارا التى كان اغتصبها منه ملك المجر واشترط لهم تنازله عما بقى له من الأجرة عليهم ووعدهم بحملهم على خمسين سفينة يذهب بها معهم إلى فلسطين . ثم إن البابا كتب يمنعهم من محاربة المسيحيين فلم يعملوا بكتابه بل ساعدوا رئيس البندقية وفتحوا مدينة زارا حيث قضوا فصل الشتاء وهنالك جاءهم الكسيس الرابع ابن اسحاق طالبا نجدة الصليبيين على عمه الكسيس الثالث الذى انتزع الملك من اسحاق الثانى أخيه وأبى الطفل وسمله وطرحه فى السجن . فطلب معونتهم متعهداً بمبلغ من المال وما يلزم من الزاد لكل الجيش وأن يحشد معهم عشرة آلاف جندى فى شروط أخرى من أهمها سعيه بضم الكنيستين الشرقية والغربية فاختلفت آراؤهم فى مساعدته وتركها ثم مالت الأغلبية للذهاب معه . ورغم تبكيت البابا لهم على ذلك سار الأكثرون للقسطنطينية ففتحوها فى ١٨ يوليو سنة ١٢٠٣ وأقاموا ألكسيس الرابع أمبراطوراً عليها والتجأ عمه الى الهرب وأعلن فى أياصوفيا اتحاد الكنيستين حسب وعده ثم خرج عليه دوفس الأقرن فهيج الأمة عليه واغتاله وتسمى الكسيس الخامس فكان ذلك سببا فى حقد الصليبيين ومعاودتهم الهجوم عليها ففتحوها للمرة الثانية فى ١٢ أبريل سنة ١٢٠٤ م وأقاموا قيصراً عليها

* نكاية

خبرها أن ملك الروم بالقسطنطينية أصهر إلى الفرنسيس عظيم ملوك الافرنج فى أخته فزوجها له الفرنسيس ، وكان له منها ابن ذكر . ثم وثب بملك الروم أخوه فسمله ، وملك القسطنطينية مكانه ، ولحق الابن بخاله الفرنسيس صريخاً به على عمه ، فوجده قد جهز الأساطيل لارتجاع بيت المقدس . واجتمع فيهسا ثلاثة من ملوك الافرنجة بعساكرهم :

دوقس البنادقة صاحب المراكب البحرية ، وفى مراكبه كان ركوبهم ، وكان شيخاً أعمى تقاداً ذا ركب

والمركس (١) مقدّم الفرنسيس

وكيد فليد وهو أكبرهم ،فأمر الفرنسيس بالجواز على القسطنطينية ليصلحوا بين ابن أخته وبين عمه ملك الروم ، فلما وصلوا إلى مرسى القسطنطينية خرج عمه وحاربهم فهزموه ودخلوا البلد ، وهرب إلى أطراف البلد ، وقتل حاضروه وأضرموا النار فى البلد، فاشتغل الناس بها وأدخل الصبي بشيعته ، فدخل الافرنج معه وملكوا البلد ، وأجلسوا الصبي فى ملكه ، وساء أثرهم فى البلد ، وصادروا أهل النعم ، وأخذوا أموال الكنائس، وثقلت وطأتهم على الروم فعقلوا * الصبي وأخرجوهم ، واستدعوا ملكهم عم الصبي من مكان مقرّه ، وملكوه عليهم ، وحاصرهم الافرنج ، فاستنجد

بلدوين الذى يسميه المؤلف كيدفيلد وتوجوه فى ١٦ مايو وجعلوا توما موروسيني بطريركا والمركيز دومنتفرات ملكا لتسالينكوا ، وقد استقبح البابا وكان وقتئذ أنوكنت الثالث مافعله الصليبيون رغم أنه سر بانضمام الكنيستين ، وقد كانت مملكة القسطنطينية مضعفا للصليبيين بما أنهم أخذوا يهتمون بها ويهاجرون اليها ثم أخذوا يتنازعون من أجلها ، وبذلك لم تفدهم الحرب الصليبية الرابعة شيئا ، وسيأتى للمؤلف الكلام على الصليبيين فى موضعه . وإنما لخصنا مايتعلق بهذا الموضوع إيضاحا لما أجمله المؤلف هنا

١ — ان المركيس مقدم الفرنسيس الذى ذكره المؤلف هو بونيفاس الثانى مركيز دى مونتفرات (Mangusde) ولم يكن من جاس الفرلسيس وانما كان مقدما على جيوشهم وعلى جيوش فلاندرا . أما كيد فليد ، فهو عند غير المؤلف من الأقدمين كندافلند وبالافرنجية (Conte Deflandre) وهو بلدوين التاسع الذى سمى أمبراطوراً على القسطنطينية بعد فتح الصليبيين لها كما أوضحناه

* فقتلوا

بسليمان بن قليج أرسلان صاحب قونية وبلاد الروم شرقى الخليج . وكان فى البلد خلق من الافرنج ، فقبل أن يصل سليمان ثاروا فيها وأضرموا النيران حتى شغل بها الناس ، وفتحوا الأبواب ، فدخل الافرنج واستباحوها ثمانية أيام حتى أقفرت ، واعتصم الروم بالكنيسة العظمى منها وهى أيا صوفيا ، ثم خرجت جماعة القسيسين والأساقفة والرهبان وفى أيديهم الانجيل والصلبان ، فقتلوهم أجمعين ، ولم يراعوا لهم ذمة ولا عهداً ، ثم خلعوا الصبي واقترعوا ثلاثتهم على الملك فخرجت القرعة على كيدفليد كبيرهم فملكوه على القسطنطينية وما يجاورها ؛ وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية ، مثل أقريطش وردوس وغيرهما ، وللمركيس مقدم الفرنسيس البلاد التى فى شرقى الخليج [مثل أمرسق ولادق فى جوار سليمان بن قليج أرسلان فلم يحصل أحد منهم شيئاً إلا الذى أخذ شرقى الخليج ـ خ]

ثم تغلب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكرى (١) ودفع عنها الافرنج وبقيت بيده، واستولى بعدها على القسطنطينية ، وكان اسمه ميخاييل

وفى كتاب المؤيد صاحب حماة أنه أقام ببعض الحصون ثم بيّت القسطنطينية وملكها وفر الافرنج فى مراكبهم ، وملكه الروم [عليهم - خ] وقتل الذى كان ملكاً قبله ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وستمائة ،وعقد معه الصلح المنصور قلاوون صاحب مصر والشأم لذلك العهد

قال: وملك بعده ابنه ماند ، ويلقب الدوقس ، وشهرتهم جميعاً اللشكرى

ثم انقرضت دولة بنى قليج أرسلان وملك أعمالهم التتر كما نذكر فى أخبارهم ، وبقى بنو اللشكرى ملوكاً على القسطنطينية إلى هذا العهد ، وملك شرقى الخليج بعد انقضاء دولة التتر من بلاد الروم ابن عثمان جق * أمير التركمان ، وهو الآن متحكم على صاحب القسطنطينية ، ومتغلب على نواحيه من سائر جهاته

هذا ما بلغنا من أخبار الروم من أول دولتهم متديونان والقياصرة لهذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

---

١ — لشكرى أو الأشكرى هو تيودور لسكريس L' Héopor La Scaris

* ابن

القوط بالأندلس

الخبر عن القوط

وما كان لهم من الملك بالأندلس إلى حين الفتح الاسلامى

وأولية ذلك ومصائره

هذه الأمة من أمم أهل الدولة العظيمة المعاصرة لدول الطبقة الثانية من العرب وقد ذكرناهم عقب اللطينيين ، لأن الملك صار اليهم من بينهم كما ذكرناه

وسياقة الخبر عنهم أنهم كانوا يعرفون فى الزمن القديم بالسيسيين ، نسبة إلى الأرض التى كانوا يعمرونها بالمشرق فيما بين الفرس واليونان ، وهم فى نسبهم إخوة الصين ، من ولد ماغوغ بن يافث ، وكانت لهم مع الملوك السريانيين حروب موصوفة زحف اليهم فيها مومن (؟) * مالى ملك سريان ، فدافعوه ، [وذلك — خ] لعهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم كانت لهم حروب مع الفرس عند تخريب بيت المقدس وبناء رومة ، ثم غلبهم الاسكندر وصاروا فى ملكته ، واندرجوا فى قبائل الروم ويونان. ثم لما ضعف أمر الروم بعد الأسكندر ، وتغلبوا على بلاد ألغريقيين ومقدونية ونبطة (؟) أيام [غالينوس بن فاليريان — خ] من ملوك القياصرة ، وكانت بينه وبينهم حروب سجال ، ثم غلبهم القياصرة من بعده وظفروا بهم ، حتى إذا انتقل القياصرة إلى القسطنطينية وفشل أمرهم برومة ـ زحف اليها هؤلاء القوط واقتحموها عنوة ، فاستباحوها ، ثم خرجوا عنها أيام طوذوشيش بن أركادش بعد حروب كثيرة ، وكان أميرهم لذلك العهد ألاريك كما ذكرناه ، ومات لعهده طودوشيش ، وأراد أن يجعل اسمه سمة الملوك برومة منهم مكان سمة قيصر ، فاختلف عليه أصحابه فى ذلك فرجع عنه ، ثم صالح الرومانيين على أن يكون له ما يفتح من بلاد الأندلس ، لما كان أمر الرومانيين قد ضعف عن الأندلس

سقوط رومة فى أيدى القوط

ولحق بها ثلاث طوائف من الغريقيين ، فاقتسموا ملكها ، وهم : الأبيون (١)

---

١ — فى ش : « الأنبيون »

* [illegible]

والشوانيون، والفندلُش، وباسم فندلس سميت الأندلس . وكان بالأندلس من قبلهم الأربار يون من ولد طُوبال بن يافث، وهم إخوة الانطاليس، سكنوها من بعد الطوفان، وصاروا إلى طاعة أهل رومة، حتى دخل اليهم هؤلاء الطوالع من الغريقيين عند ما اقتحم القوط مدينة رومة، وغلبوا الأمم الذين كانوا بها من ولد طوبال

وقد يقال: ان هؤلاء الطوالع كلهم من ولد طوبال بن يافث، وليسوا من الغريقيين، واقتسم هؤلاء الطوالع ملكها، وكانت جِلِّيقِيَّة لفندلس ولشبُونة وماردة وطَلَيْطلَة ومُرسية لشوانش، وكانوا أشرافهم، وكانت إشبيليه وقُرطبة وجيّان وطالعة [١] للايبسيس وأميرهم عند ريقش أخو لشيقش أربعين سنة حين زحف اليهم القوط من رومة، وكان قد ولى عليهم بعد إطفانش ملك آخر منهم اسمه طشريك، وقتله الرومانيون، وولى مكانه منهم ماستة [٢] ثلاث سنين، وزوّج أخته من طودوشيش ملك الرومانيين، وصالحه على أن يكون له ما يفتحه من الأندلس ثم مات

ماستة

ولى مكانه لُزريق ثلاث عشرة سنة، وهو الذى زحف إلى الأندلس وقتل ملوكها، وطرد الطوائف الذين كانوا بها، فأجازوا إلى طنجة، وتغلبوا على بلاد البربر وضرفوا البربر الذين كانوا بالعدوة عن طاعة القسطنطين إلى طاعتهم، فلم يزالوا على ذلك إلى دولة بشتيانش نحوا من ثمانين سنة، ثم هلك لزريق ملك القُوط بالأندلس

لزريق

وولى مكانه ابنه [وريقش] سبع عشرة سنة، وانتقض عليه البُشْكُنس إحدى طوائف القُوط، فزحف اليهم وردهم إلى طاعته، ثم هلك

وولى بعده ألاريك ثلاثا وعشرين سنة، وكانت الافرنج لعهده قد طمعوا فى ملك الأندلس، وأن يغلبوا عليها القُوط، فجمعوا لهم، وملكوا على أنفسهم منهم، فزحف اليهم ألاريك [٣] فى أمم القوط إلى أن توغل فى بلاد الافرنج، فغلبوه وقتلوه وعامة أصحابه، وكانت القوط قبل دخولهم إلى الأندلس فرقتين، كما ذكرنا فى دولة

---

١ — فى ش (٥ — ٢٣٨): « مالقة »
٢ — فى ش: « تاليه »
٣ — فى ش: « الديك »

بلنسيان بن قسطنطين من القياصرة المتنصرة ، وكانت إحدى الفرقتين قد أقامت بمكانها من نواحي رومة ، فلما بلغهم خبر أكريك صاحب الأندلس منهم ، امتعضوا لذلك ، وكان أميرهم طوذريك منهم ، فزحف إلى الافرنج وغلبهم على ما كانوا يملكونه من الأندلس ، ودخل القوط الذين كانوا بالأندلس في طاعته

اشتريك

فولى عليهم ابنه اشتريك ، ورجع إلى مكانه من نواحي رومة ، فزحف الافرنج إلى محاربة اشتريك حتى غلبوه على طلوسة من ناحيتهم ، وهلك اشتريك بعد خمس سنين من ملكه

بشليقش

وولى عليهم بعده بشليقش أربع سنين ، ثم بعده طوذريق إحدى وستين سنة ، وقتله بعض أصحابه بإشبيلية ، وولى بعده أبرليق (١) خمس سنين ، وبعده طودس ثلاث عشرة سنة وبعده طودشكل (ثيودوريك) سنتين ، وبعده أيلة خمس سنين وانتقض عليه أهل قرطبة فحاربهم وتغلب عليهم [وولى — خ] بعده طنجاد خمس عشرة سنة ، وبعده ليولةسنة واحدة ، وبعده لوبليدة ثماني عشرة سنة ، وانتقضت عليه الأطراف ، فحاربهم وسكنهم ، ونكر عليه النصارى تثليث أريش ، وراودوه على الأخذ بتوحيدهم الذى يزعمونه ، فأبى وحاربهم ، فقتل. وولى ابنه رذريق ست عشرة سنة ، ورجع إلى توحيد النصارى بزعمهم ، وهو الذى بنى البلاد المنسوبة اليه بقرطبة (٢)

ولما هلك ولى بعده على القوط ليوية سنتين. وبعده تبديقا (٣) عندمار سنتين ، وبعده شيشوط (٤) ثماني سنين ، وعلى عهده كان هرقل ملك قسطنطينية والشأم ولعهده كانت الهجرة . وهلك شيشوط ملك القوط. وولى بعده رذريق آخر منهم ثلاثة أشهر ، وبعده شنتله (٥) ثلاث سنين ، وبعده سنشادش خمس سنين ، وبعده

١ — في ش (٥ — ٢٣٩) : « املريق » ولعله أمالاريك الذى عند ب (٤ — ٣٥١)
٢ — في ش : « وهو الذى بنى البلاط المنسوب اليه بقرطبة »
٣ — في ش : (٥ — ٢٤٠) « بتريق »
٤ — في ش : « ششيوط »
٥ — في ش : « شتنله »

خَنْشُوند سبع سنين . وبعده جَنْشُوند ثلاثا وعشرين سنة . ولهذه العصور ابتداء ضعف الأحكام للقوط . وبعده مانيه (١) ثمان سنين . وبعده لوري ثمان سنين . وبعده أُيْقَه ست عشرة سنة . وبعده غَطْشة أربع عشرة سنة ، وهو الذي وقع من قصته مع ابنه بُليان عامل طنجة ما وقع . ثم بعده رُذْرِيق سنتين ، وهو الذي دخل عليه المسلمون وغلبوه على ملك القوط وملكوا الأندلس .

ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك ، حسبما نذكره عند فتح الأندلس إن شاء الله تعالى

هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط ، نقلته من كلام هروشيوش ، وهو أصح ما رأيناه فى ذلك . والله سبحانه وتعالى الموفق المعين بفضله وكرمه ، لارب غيره ، ولا مأمول إلا خيره .

انتهى الجزء الأول

١ — فى ش : «بانيه»

مشتملات الفهارس

١ — فهرس الموضوعات الواردة فى هذا الجزء وهى التى كتبت على هوامش صحفه.

٢ — فهرس الأعلام

٣ — فهرس الأمم والقبائل والشعوب والبطون والعشائر والأرهاط

٤ — فهرس أسماء البلاد والمدن والمواضع والجبال والأودية والأنهار ونحو ذلك.

تنبيهات

١ — لم نتبع فى ترتيب هذه الفهارس الترتيب الذى اعتمدناه فى فهارس كتاب الأمالى لأبى علىّ القالى بحذف صدور الكنى من أسماء الأعلام ولفظ « ذو » كما هى عادة واضعى الفهارس للكتب العربية ، بل تسهيلا للبحث راعينا صدور هذه الكنى ووضعناها فى الحرف الذى يبتدئ به ، فمثلا وضعنا لفظ « أبو ذرّ » و « أبو على » و « أبو نواس » ونحوها فى حرف الألف ، كما وضعنا اسم « ذويزن » فى حرف الذال و « بنو إسرائيل » فى حرف الباء ، وهى الطريقة التى روعيت بعد الاسترشاد برأى كثير من المفكرين فى فهارس مطبوعات دار الكتب المصرية

٢ — اعتمدنا فى الترتيب على أول الاسم دون المبالاة بأل التعريف ، فمثلا وضعنا اسم « الطبرى » فى حرف الطاء و « المسعودى » فى حرف الميم و « الجرجانى » فى حرف الجيم

٣ — إذا تكرر الاسم فى الصفحة الواحدة عدة مرات اكتفينا بذكر الاسم مرة واحدة

٤ — قد ورد فى بعض الأسماء ما يدل على أنه اسم علم ويطلق أيضاً على اسم قبيلة أو اسم مكان ، فمثلا اسم «غسان» يطلق على مكان كما يطلق أيضا على قبيلة . واسم « معد بن عدنان » اسم علم كما يطلق أيضا على قبيلة . واسم «مصر» اسم علم كما يطلق أيضا على مكان وهكذا ، فهذه الأسماء وما شابهها وضعناها فيما ينبغى أن توضع فيه من أعلام الأشخاص أو القبائل أو الأماكن حسب ما يقتضيه السياق فى عبارة المؤلف .

محمد عبد الجواد الأصمعى
بدار الكتب المصرية

فهارس الجزء الأول

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام

(خ)

(د)

(ز)

(ش)

(ظ)

(ع)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

فهرس الأمم والقبائل
والشعوب والبطون والعشائر والأرهاط

(أ)

(ت)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(م)

(و)

(ى)

(تم الفهرس)

فهرس أسماء البلاد والمدن

والمواضع والجبال والأودية والأنهار ونحو ذلك

(ا)

(ت)

(ج)

(س)

(ش)

تم فهرس البلاد والمدن وبه تم جميع فهرس الجزء

استدراك وتصحيح

على الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون

عمل أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي

صفحة	سطر	
١٠	٩	(أبناء عم لحام) كذا فى الأصل ، واستبعده مصححو الكتاب ، وهو بعيد حقاً ، والذى أرجحه أن صوابه (أبناء عم لَحًّا) أى لازق النسب ، يقال : هما أبناء عم لحا وابنا خالة لحا ، ولا يقال ابنا خال لحا ولا ابنا عمة لحا ، لأنهما مفترقان إذ هما رجل وامرأة . أنظر لسان العرب مادة (ل ح ح)
١٠	١٧	(وقيل بن غليم) صوابه (وقيل ابن غليم)
١٤	١٧	(الاسرائيليين) صوابه (الاسرائيليين)
١٥	٦	(الاسرائليين) صوابه (الاسرائيليين)
١٨	٤هامش	(عوق) صوابه (عنق) كما فى القاموس ، والعبارة منقولة منه .
٢١	٥	(فرعٍ فرعٍ) صوابه بكسر الأولى بدون تنوين . مضافة للثانية
٢٣	١	(زْناتة) ضبط الزاى بالسكون تبعاً للنطق بها فى المغرب كما قال المصححون فى الحاشية رقم (١) لا يوافق النطق العربى الذى يمنع البدء بالساكن . وكل الأعلام الأعجمية عربها العرب على نطقهم لا على نطق أهلها ، كما هو معروف .
٢٥	١٠	(من الملك باليمن فى التبابعة) صوابه (من الملك باليمن فى الدولة ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة وبنو حمير وسبأ وذكر أنسابهم فى التبابعة) ، وهذا التصحيح استدركه حضرات مصححى الكتاب
٢٥	١٣	(وبالصابئة) صوابه (والصابئة)
٢٧	١	(وبنو وشى خان) صوابه (وبنو دوشى خان)
٢٨	١٦	(إن الذى ملك من بعد عاد) الخ الكلام غير واضح ولعل صوابه (إن الذى ملك منهم من بعد عادٍ شدادٌ ، وهو الذى سار فى الممالك) الخ

صفحة	سطر	
٣٠	٨	(تذكرنهم) صوابه تذكرانهم)
٣٠	١٤	(حتى تقطعوا فى الجبال) صوابه (حتى تقطعه بالجبال) كما فى الطبرى (ج ١ ص ١١٥)
٣١	١٣ هامش	(إن هناك نقشت) سقطت كلمة قبل قوله (نقشت)
٣٢	١٢ هامش	(منقطع) صوابه (مقتطع)
٣٤	١١ هامش	(فى النبط) صوابه (فى أن النبط)
٣٥	١	(ويقال لأن) لعل الصواب (ويقال إن)
٤٩	٦	(والأشعر) كذا فى الأصل ، ونقل المصححون فى الحاشية أن المعروف من كتب الحديث (والأشعرون) ولكن الذى رأيته فى مسند أحمد (ج ١ ص ٣١٦ رقم ٢٩٠٠) (والأشعريون)
٥١	١٢	(بالمَجدل) صوابه (بالمِجدل) بكسر الميم .
٥٢	٢١	(واستخدمها) صوابه (وأخدمها) أى أعطاها لها خادماً
٥٥	٦	(رسولا) صوابه (رسلا)
٧١	٣ هامش	(مع أبى فلان) صوابه (مع بنى فلان) عن البخارى
٧١	٦ هامش	(ابن الأذرع) صوابه (ابن الأدرع) بالدال المهملة عن فتح البارى (ج ٦ ص ٦٧)
٧٧	١٤	(الرائشْ) صوابه (الرائشُ)
٧٨	٣ هامش	(إيمن) صوابه (أيمن)
٧٩	١٢	(بن عمرو بن ذى الأذعار) صوابه (بن عمرو ذى الأذعار)
٨٠	٤ هامش	(بذكره) صوابه (بيعفر) عن الأمالى
٨٠	٤ هامش	(عز) صوابه (ظل) عن الأمالى
٨٠	٦ هامش	(ما أظلم الدهر) صوابه (ما الدهر أظلم) عن الأمالى
٨٠	١٢ هامش	(ولاءكم) صوابه (آلاءكم) عن الأمالى
٨٠	١٤ هامش	(بى بكر عن عمر) صوابه (أبى بكر عن عمه) عن الأمالى
٨١		(وملك سمرقند) جعل هذا كأنه بدء كلام جديد ، وهو خطأ ، بل هو معطوف على ما قبله ، وكلمة (وملك) بفتح الميم وكسر اللام ونصب الكاف ، أى : ولقى ملك سمرقند وقتله ، كما هو ظاهر من السياق

صفحة	سطر	
٨٢	٣	(هو حسان تبع) صوابه (هو أبو حسان بن تبع) كما هو واضح وكما يفهم من الطبرى (ج ٢ ص ٩١)
٨٥	٤	(فشكى) صوابه (فشكا)
٨٥	١٦	(فكان ابن تبع بن حسان) صوابه (فكان ابن أخت تبع بن حسان) كما هو واضح ، ثم إن مانقله المؤلف هنا عن الطبرى غير المذكور فيه ، لأن الذى فى الطبرى (٢ : ٨٦) أن الذى زوج ابنة حسان بن تبع لعمرو بن حجر هو عمها عمرو بن تبع بعد أن قتل أباها حساناً .
٨٦	١	(حسان تبع) صوابه (حسان بن تبع)
٨٦	٧	(كلكيكرب) صواب (ملكيكرب) بالميم فى أوله . عن الطبرى (٢ : ٣٩و٩٩)
٨٦	١٢	(زرعة تبع بن تبان) صوابه (زرعة بن تبع تبان)
٨٦	١٢	(وهو حسان) صوابه (وهو أخو حسان) كما يفهم من الطبرى (٢ : ١٠٣)
٨٨	٣	(وهو الذى خرب سمرقند) لعل الصحيح (وهو الذى بنى سمرقند) انظر ما مضى فى صفحة (٨٠)
٨٨	١٥	(لأبيه) صوابه (لأمه)
٨٨	١٦	(ابن أخيه) صوابه (ابن أخته)
٨٩	٦	(كلكيكرب) صوابه (ملكيكرب) . عن الطبرى (٢ : ٣٩و٩٩)
٩٢	٤	(وستجاش) صوابه (واستجاش) أى طلب منهم الجيوش
٩٣	١٠	(شُراحيل) صواب (شَراحيل) بفتح الشين
٩٤	١٩	(البعير) صوابه (العير) أى الابل
٩٦	١	(وشكى) صوابه (وشكا)
٩٦	٥	(فشكى) صوابه (فشكا)
٩٧	١١	(لنظر بن) صوابه (لنظر ابن)
٩٧	١٢	(غمدان يقال أن) صوابه (غمدان يقال إن)
١٠٤	٨	(أشُوذ) صوابه (أشّوذ) بتشديد الشين المضمومة
١١٥	١٩	(خردادبه) صوابه (خرداذبه) بالدال المهملة أولا ثم الذال المعجمة ثانيا

صفحة	سطر	
١٢٣	٢ هامش	(قال العطار) صوابه (قاله العطار)
١٢٤	٨	(اشرائيل) صوابه (اسرائيل)
١٢٤	١٤	(فجاء ومعه بنته) الخ الكلام غير واضح ، بل هو مضطرب ، ثم إنه يخالف صريح القرآن من أن موسى بعد أن قضى أجل استئجاره فى مدين خرج منها بأهله أى زوجه ، ثم أوحى الله إليه وأرسله إلى فرعون وقومه ثم بعد أن كان فى مصر ما كان خرج ببنى اسرائيل إلى طورسينا وهناك كانت حادثة السامرى
١٢٥	السطر الأخير	(المصيف) لعل صوابه (الصيف)
١٢٧	١٥	(العيزار) سيأتى بالصفحة التالية (العازر)
١٢٨	٦	(فطعنها برمحه وانتظمها) صوابه (فطعنهما برمحه وانتظمهما) انظر لباب الآداب بتحقيقنا (ص ١٦٩ — ١٧٠)
١٣١	١٣	(بارق) فى الطبرى (بازق) بالزاى
١٣١	٥	(أورشليم) الذى فى الطبرى المنقول عنه (أورشلم)
١٣٢		عنوان بالهامش (من ملك بعد يوشع) صوابه أن يكون (أصل البربر فى رأى ابن الكلبى)
١٣٢		عنوان بالهامش (كاليب) صوابه (كالب)
١٣٣	٧	(ملكته) صوابه (ملكه)
١٣٣	٤ هامش	(بدل الدال) صوابه (بدل الذال)
١٤٠	١٥	(ونصر بنو إسرائيل نصر الأكفاء له) صوابه (نُصِرَ بنو إسرائيل نصراً لا كفاء له)
١٤١	٢	(أيشا) فى الطبرى (ايشى)
١٤١	٣	هنا ملاحظة عند قوله (وحزن لذلك) فان هذا كلام غير واضح ولعله خطأ ، وفيه نقص كثير . وانظر قصة طالوت وسلب الملك منه فى الطبرى (١ : ٢٤٥ - ٢٤٦)
١٤١	٢٠	قوله (قتل نفسه بنفسه) هو خطأ من المؤلف ، والصواب أنه قتل فى الحرب كما نص عليه الطبرى
١٤٤	١٣	(سبعون) صوابه (سبعين)
١٤٤	٢٠	(وجعل لها) صوابه (وجعل له)

صفحة	سطر	
١٤٦	٧	(ذا تبع) سقطت هنا هامشة من تعليقات المصححين وهى : (ق ط ١ - ٢٥٧) « ذا تبع » مكررا ، وعند ب (٥ - ٥٧٣) « تبع »)
١٥٩	٤	(فقتلوه) صوابه (فقتلوهم)
١٦٣	١١	(يربعم) صوابه (يربعام) كما مضى فى أول الصفحة
١٧٠	٣ هامش	(مرار) صوابه (مرارا)
١٧٢	١٦	(ارنخشد) صوابه (ارنخشذ) بالذال المعجمة
١٧٤	١ هامش	(الآية) الواجب أن يقال (الفقرة) لأن الآية لا تطلق إلا على آية القرآن لأنه اصطلاح إسلامى صرف مأخوذ من معنى الاعجاز ولم توصف الكتب السابقة بالاعجاز ولم تكن موضعا لتحدى الأمم وتعجيزها
١٨١	٤	(على أخيه) صوابه (عن أخيه)
١٨٣	١١	(تبغض) صوابه يُبْغِضُهُ
١٨٣	١٨	(وافتقد) لعل الصواب (وافتقدها)
١٩٢	١١	(وابن أخيه) لعل صوابه (وابنه منها) كما يفهم من أول الصفحة التالية
١٩٤	١١	(لحمله) صوابه (لحملته)
١٩٥	٢	(تحقد) صوابه (يحقد)
١٩٨	١٥	(هيروس) صوابه (هيردوس)
٢٠٠	١٣	(أغرباس) لعل صحته (قلديوس) كما يفهم من السياق
٢٠١		الهامشة رقم (١) نلاحظ عليها أن كلام المؤلف وسياقه يفهم منه أنه ملك على الروم ، فان كان هذا خطأ فهو خطأ . ولكن لا يصح السياق بأنه ملك على اليهود .
٢٠٦	٨	(الحدة) لعل صوابه (الجدة)
٢١٠	١٤	(عمون) صوابه (أمون)
٢١١	١٥	(وهو ابن مريم لحا) صوابه (وهو ابن عم مريم لحا)
٢١٢	١	(فليعلم) صوابه (فيعلم)
٢١٥	١٥	(مدود) صوابه (مذود) بالذال المعجمة بعد الميم
٢١٦	٢١	(به) صوابه (بى)
٢١٦	٢٢	(وتأكلوا) صوابه (وتأكلون)

صفحة	سطر	
٢١٧	٧	(تبکی) صوابه (تبکین)
٢٢٢	٣ هامش	(بتعسة) لعل صحته (نيقية)
٢٣٠	٨	(وجاه) صوابه (وحام)
٢٣٩	١٥	(زندية) صوابه (زنديه)
٢٤٧	٦	(دارا بن الأمه) صوابه (دارا ابن الأمة)
٢٤٧	٢٢	(دار الرابع) صوابه (دارا الرابع)
٢٥٠	٤, ١٠	(بلاش) صوابه (يلاوش)
٢٥٤	٦	(بعهد) صوابه (لعهد)
٢٥٧	٤	(زندة . . . زندية) صوابهما (زنده . . . زنديه)
٢٥٨	٨	(كبر وعرضوا) صوابه (كبر عرضو) بحذف العاطف
٢٥٨	١٥	(فُلهم) صوابه (فَلهم) بفتح الفاء
٢٦١	١٤, ١٥	(الذى كان أبوه استوزره) سبق أن جده هو الذى استوزره ، ولم يذكر أنه كان وزيرا لبهرام
٢٦٣	٣	(أحل) صوابه (حَلّ)
٢٦٤	٥ هامش	(وقال سفيان مرة : هم أهل البارز) هكذا نقله المصححون بتقديم الراء وهو خطأ فان الحديث فى البخارى (٤ : ١٩٦ — ١٩٧ من الطبعة السلطانية) وفتح البارى (٦ : ٤٤٨) وضبط « البارز » بتقديم الراء مع فتحها أو كسرها ، ثم حكى البخارى رواية سفيان بتقديم الزاى مع فتحها أو كسرها أيضا
٢٦٧	٢	(وجاءت) لعل صوابه (وجازت)
٢٦٧	١٤	(شابة) صوابه (شبابة)
٢٧٠	١٢, ١٧	والعنوان بالهامش (ذى فار) صوابه (ذى قار)
٢٧١	١٧	(إلى ابنة) لعل صوابه (إليه ابنه)
٢٧٢	٦	(يشاوره) صوابه (يشاوروه)
٢٧٢	١٠	(وبعث ازدشير) صوابه (وبعث إلى أزدشير)
٢٧٣	٢	(ملك) صوابه (ملكت)
٢٧٤	١٣	(محمد بن عمرو بن واقد الاسلامى) صوابه (محمد بن عمر بن واقد الأسلَمى)
٢٨١	٩	(وأن جده الاسكندر لأبيه من أعقابه) غير واضح ولعل صوابه (وأنه جد الاسكندر لأبيه وهو من أعقابه)

صفحة	سطر	
٢٨٥	١ هامش	(سرد وثبت) صوابه (سَرَدُوا ثَبْتَ)
٢٨٧		الهامشة نمرة (١) ليس موضعها فى هذه الصفحة وإنما هى متعلقة بالتى قبلها
٢٩٨	١٢	(رأنيقاز) صوابه (لأليفاز)
٢٩٩	٤ هامش	(شيوس) صوابه (هرشيوش)
٢٩٩		الهامشة رقم (١) لا أعرف وجه انتقاد كاتبها على ابن خلدون ، ولا أدرى معنى لتنزيه ابن خلدون عن التعصب لقومه وأبناء دينه وهم الثقات فى الرواية ؟ ! وإنما هذه نعرة أخذها المتربون فى المدارس الافرنجية والمستضعفون من المسلمين خوفا من أوربا واتهامها المسلمين بالتعصب الدينى ، وليت هذه التهمة كانت صحيحة فى هذه العصور وكان المسلمون متعصبون لدينهم حقاً ، إذاً لأفلحوا ، وما أتى المسلمون إلا من تخاذلهم وتركهم التعصب لدينهم .
٣٠١	السطر الأخير	(وخارب) صوابه (وحارب)
٣٠٢	٣	(فقتلوه) صوابه (قتلوه)
٣٠٣	٥	(أغشطش) تكرر مراراً (أغسطس) بالمهملتين
٣٠٤	٦	(هيروسش) صوابه (هروشيوش)
٣٠٤	١٢ و ١٧	(طباريش) صوابه بفتح الطاء وضم الياء
٣٠٤	١٦	(وافترق) صوابه (وافترق)
٣٠٧	٢ هامش	(الاثنى عشر مليوناً) الخ يلاحظ هنا أن كلام ابن خلدون يفهم من أنه يريد ستمائة مليون وهو عدد غير معقول .
٣١٢	١٠	(إثنى عشرة) صوابه (إثنتى عشرة)
٣١٢	٢ هامش	(وصاحب مذهب) لعله (وصاحب المذهب)
٣٢١	آخر سطر	(قسنطس) صوابه (قسطنطيس) وتكرر كذلك فى ص ٣٢٢
٣٢٢	١٨	(هلانة بن) صوابه (هلانة بنت)
٣٢٣	١٢	(بنى الأصغر) صوابه (بنى الأصفر) بالفاء
٣٢٦	آخر سطر	(أربوش) صوابه (أريوش)
٣٣٤	٩	(بسطيانش) صوابه (يشطيانش)
٣٣٤	٩ و ١٠	(ولثمانية وثلاثين للاسكندر) صوابه (ولثمانمائة وثلاثين للاسكندر)
٣٥٨	١ هامش	(بيت) صوابه (ليست)
٣٦٠	٣ هامش	(مضعفاً) صوابه (مضعفة)

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

ملحق للجزء الأول

يشتمل على ما علّق به على غوامض أبحاثه

كاتب العصر الأكبر

الأمير شكيب أرسلان

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان

وفروعها بالاقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢



الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ابن خلدون أمة وحده

لم نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران وما يسمّى اليوم بعلم الاجتماع ، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التى لا تجول فيها أفكار الحكماء . وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا اليه فى تضاعيف مباحثهم ، ولكنهم لم يبلغوا فيه شيئاً من الإحاطة التى بلغها ابن خلدون ، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذى جعله فى هذا الموضوع نسيج وحده ، حتى أُلقىَ إليه فيه بمقاليد الرئاسة . فهو واضع علم الاجتماع بالاجماع ، وهو الذى لم يدع منه غُفلا غير معلم ، ولا وشياً غير منمنم .

قال البارون المستشرق « كارادوڤو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكّرى الاسلام » فى الجزء الأول من تأليفه هذا : أنجبت افريقية الاسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى فى شخص ابن خلدون الذى لم يُعرف من قبله عالم أوتى تصوراً عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فانّ أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلّصها ، كل ذلك كان من المباحث التى خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه ، وذلك فى مقدمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد فى أوربا إلا فى القرن الثامن عشر ، للمسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أقفالا مستحجبة تعذر فتحها ، فكان ابن خلدون فى العقل والادراك من فضيلة « مونتسكيو Montesquieu » أو الأب « مابلى Mably » وهو من دون شك الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل « تارد Tarde » أو المستشرق « غو بينو Gobineau » اهـ .

ثم ذكر صاحب كتاب « مفكّري الاسلام » شيئاً عن حياة ابن خلدون وقال إن الأب « بورغيس Bargues » قدح فى ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة ، وزعم أن قاعدته فى السياسة كانت التحوّل من حزب إلى حزب آخر بحسب ما كانت تقضى عليه به مصلحته الشخصية ، أو اتقاؤه للضرر ، ونسى بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذى يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون . على أن بورغيس نفسه يسمى ابن خلدون « بالمؤرخ الفيلسوف » برغم ما زنّه به من عدم الثبات .

ثم ذكر كارادوفو كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيراً عن سلطان غرناطة إلى « بطرة » الغاشم سلطان قشتالة فى بعض المهات ، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده ولم يحصل من ذلك على طائل ، وذكر مجيئه إلى مصر وولايته للقضاء ثم صحبته لسلطان مصر فى خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، ثم ما جرى بينه و بين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالاذن له فى الرجوع إلى مصر توفى سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن اربع وسبعين سنة . وقال : إنه كان رجلا سرياً بهىّ الطلعة ، حسن الصورة والشورَة ، خبيراً بالسياسة ، عارفاً بأخلاق الملوك .

ثم قال : إن عمل هذا الكاتب المظيم كان عبارة عن تاريخ عام مجموع من كتب كثيرة ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو « دوسلان de Slane » إلى الافرنسية ، وقدّم عليه مقدمة تضمنت فلسفته السياسية . وهذه المقدمة هى فى حد ذاتها انسيكلوبيدية شاملة ، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية ، والتاريخ نفسه معدود فيها من جملة فروع الفلسفة .

قال ابن خلدون « إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجى وجدنا مهمته تقييد الحوادث التى تتابعت على مر الأعصار ، وتعاقب الأدوار ، مما كانت الأجيال الماضية شاهدة له ، و إنه لأجل سرد هذه الحوادث تنقحت العبارات ، وتطرّز الانشاء بحلىّ البلاغة ، و بهذا التاريخ زهت مجالس الأدب ، وتداعى اليها الناس من كل حدب ، والتاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ، وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض . كل أمة إلى

المدة المقدرة لها من الحياة ، فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ ، فأعظم اسراره هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها ، والتأمل في الأسباب التي أنشأتها وفي كيفية جريانها وتطورها . فالتاريخ بالجملة إنما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل في عداد العلوم الجليلة التي لها المكانة الأولى » .

فأنت ترى أن التاريخ في نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها . وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران ، وكان ابن خلدون يرى العمران في زمانه قد أجحف به النقصان ، وأكدى كما أرى فيذهب إلى أن المدنيات قد أشرقت شموسها على العالم من مشارق متعددة ولكنه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور المعالم ، فهو يقول: إن العلوم التي وصلت إلينا هي أقل من العلوم التي لم تصل إلينا ؛ فأين علوم الفرس ، والكلدانيين ، والبابليين ، والأشوريين ، والأقباط القدماء ، فانها كلها قد ذهبت . ولم يبق من العلوم التي وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التي انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون في ترجمتها و إنفاقه الأموال الطائلة عليها .

وقد عقب كارادوفو على كلام ابن خلدون هذا بقوله : إن فيه شيئا من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تنكر أهميتها من معارف الفرس ، والهنود واليهود . ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة عطن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية .

ثم إن ابن خلدون يتكلم عن الاجتماع البشري فيقول : إن أساس الاجتماع الانساني إنما هو ضعف الانسان منفرداً بنفسه ، فانه إذا عاش وحده فلا يكون مليئا بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشته ، بل لو عاش وحده لما قدر أن يثبت في وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة . ثم إن الاجتماع يستلزم السلطان الذي هو في الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ، فلا بد فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين ، فهذا في الأصل هو منشأ السلطان قال : وهذا غير محصور في الآدميين ؛ بل هو يوجد في الحيوانات أيضاً ، فقد تحقق عند بعضها مثل النحل والجراد ، وغيرهما ؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع ، ويكون لصاحب

تلك الرئاسة امتياز فى الشكل أو بسطة خاصة فى الجسم . والفرق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرد غريزة مركوزة فى فطرته ، وأن الانسان ينقاد إلى هذه الرئاسة بناء على تفكّر وروية .

وقد أطال ابن خلدون البحث فى تأثير الأقاليم بطباع البشر ، وأورد على ذلك الأمثال ، واستخلص منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكانا ، بخلاف الاقليم الأول والثانى والسادس والسابع فان أهلها يسكنون فى بيوت من القصب أو الطين وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش ، وهم فى الغالب عراة الأجسام و إذا اكتسوا فإنما يخصفون على أبدانهم من ورق الأشجار . فأما الأقاليم المتوسطة فأهلها عندهم مزية التعديل فى الأمور واتخاذ الأليق من التدابير ، والألبق من مظاهر الحياة . وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهى ، والنظام والملك ، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسّست الدول والممالك ، وسُنّت القوانين ، ووضعت العلوم ، وتشيّدت الأمصار وغُرست المغارس ، وحُرثت المحارث ، وتولّدت الصناعات النفيسة ، وترفّهت المعيشة ، و إنما الأمم التى تنسب إلى هذه الأقاليم هى العرب ، والرومان ، والفرس والاسرائيليون ، واليونان ، والهند ، والصين .

وقد أمعن ابن خلدون فى البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق فى البشر ، فهو يتساءل لماذا الزنوج مثلا تغلب عليهم الخفة والطرب ؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسعودى صاحب التاريخ المسمى «مروج الذهب» فقال : إن هذا يوجد عند الأمم التى يسهل عليها القوت ، بعكس الأمم التى تضرب فى المناطق الباردة التى لايسهل فيها إيجاد الغذاء . وضرب ابن خلدون مثلا مدينة « فاس » فقال : إنها لكونها محاطة بالبلاد الباردة تجد الواحد من أهلها سائراً وهو مطرق رأسه فى الأرض يظهر للناس أنه حزين ، وذلك من شدة تفكّره فى العواقب ، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدة سنين ، وهم مع ذلك يذهبون كل يوم إلى الأسواق لابتياع لوازم معيشتهم ! ! ثم قال : إن لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوعة فى طباع البشر ، فمن الأقوام من يعيشون فى أرضين دارّة بالخيرات ، وتتوافر لديهم الآلايت ، فتكثر عندهم الحبوب والثمار ، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من

القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشى وألبانها ، وتقلّ عندهم الأخلاط . قال : و إن قلّة الأخلاط تزيد الناس بسطة فى العلم والجسم . فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى ، وأكثر تناسبا ، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجاً ، وأذهانهم أشد لحظاً وثقوباً .

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التى يكمل بها الانسان . وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسذاجة المعيشة ، و برغم أنه كان مترفاً متبحراً فى العلوم ، عارفاً بقدر الصناعات ، تراه يحمد دائماً معيشة البداوة ، ويراها أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وهو يقول : إن البداوة أصل ، والحضارة فرع و إن الأمصار إنما عمرت بأهل البادية ، و إن هؤلاء هم أحسن أخلاقاً من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم . والحال أن أهل المدن ينغمسون فى النعيم ويتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وأموالهم ، فالمدن والحواضر تعيش فى ظلال حامياتها وأسوارها ، بينما سكان البوادى يأنفون من السكنى وراء الأسوار ، وتحت خفارة الجنود ، و يرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، وهم دائماً على حذر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً ، لأنهم أبداً يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأة هبّوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع ، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة .

والذى يظهر من كلام ابن خلدون ، أنه كان نزاعاً إلى المجد ، ميّالا بطبيعته إلى الاستقلال وشمم الأنف ، وهو يقول : إن الشعوب لا ينبغى أن تكون على العموم سلسلة القياد ، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك ، و يقول أيضاً إن القبائل التى ليس لها حظ من المدنية هى أقوم على فتح الفتوحات من غيرها ، ولقد ساق الله تعالى بنى إسرائيل إلى الصحراء وأخّرهم فى بادية التيه أربعين سنة حتى يعتادوا الاستقلال و يتمكنوا من فتح أرض الميعاد . وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر ، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثم تكتمل ثم تدخل فى سن الشيخوخة — أى تهرم — ثم تأخذ بالتردّى — أى أرذل العمر — وهو يعرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها وهنا قد قصّر ابن خلدون كثيراً من آماد الدول . ثم يقول : عندما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادى إلى الحواضر ، و يأخذون بعادات أهلها الذين يكونون تغلبوا

عليهم . فلما تغلّب العرب على فارس ، وكانوا يجهلون مآخذ الحضارة ومنازعها ، قيل إنهم وجدوا فى مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها ، ووضعوا الكافور في العجين مكان الملح ، ثم تعلموا دقائق المدنية شيئاً فشيئاً من الفرس ، ولكن هذه الخشونة لا يطول فى العادة أمرها ، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف ، ولا يلبثون أن يتأنقوا فى المأكل والمشرب ، والملبس والمفرش، والمركب واتخاذ الآنية النفيسة ، وامتهاد البسط الوثيرة ، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بد من أنواع الصناعة ، و إفنان الفنون وكلما تعددت أسباب الترف تعددت الصناعات بقدرها .

قال : و إذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف ، وأخذ حكام الاطراف بالتمرد عليها . والخروج عن طاعتها . وقال : إن تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر ، وذلك لأن بناء المدن يستلزم إيجاد الصنّاع ، والعملة الذين لا مفرّ لهم من أن يفيئوا إلى ظل نظام ثابت . وهنا يتكلم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة و يقول : إن تقدّم الصناعة إنما يكون على نسبة استبحار العمران ويقول : إن الصناعات المبنية على الضرورات كالحياطة والحدادة والنجارة الخ تتيسّر فى كل مكان . ولكن الصناعات التى تتعلق بالترف لا توجد إلا فى المدن التى قد زخر عمرانها ، ففيها تجد الصاغة والزجاجين والعطارين والطباخين وما أشبه ذلك . وفى المدن وحدها توجد الحمّامات التى هى من لوازم الترف ورفاهة المعيشة .

قال كارادوڤو : إننا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون فى جميع آرائه وتعليلاته العلمية للقضايا التى تلقف كرة البحث عنها ، ولكنه على كل حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادىء ملازماً لتحقيقاته ، وفى الغالب كان على أثر سديد وكانت له نظرات صائبة وكثيراً ما يأتى فى مباحثه بالادلة المقانع والشواهد على آرائه ، وقد يستشهد بالكتب التى يستظهر بها و يسمّيها ويذكر أسماء العلماء الذين يتوكأ على أقوالهم . فمقدمة ابن خلدون تشتمل على مباحث قيمة فى السياسة ، والزراعة ، والنجارة ، والنساجة والخياطة ، وفن البناء ، والطب ، والتوليد ، وغيرها ، وكذلك تبحث في الموسيقى .

والوراقة ، والعلوم القرآنية ، والعلوم العددية ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، والكيميا والمنطق ، والنحو ، والبيان ، الخ . فهذا التنقيب الذى نقّبه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها فى جميع مناحى العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الافريقى الذى عاش فى القرن الرابع عشر نداً لأعظم فلاسفة أوربا الحديثة انتهى ملخصاً .

ولنذكر الآن على وجه الاجمال مَنْ مِن الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية ، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول :

إن القسم السياسى من فلسفة أفلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائى الحافظ للمجتمع الانسانى الكافل لانسجامه . وهو يرى أن المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة » . وفى كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشرى يقول فيه : إن المدنيــة إنما هى وليدة الحاجة ، وهى فى الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . و إن هذه الوسائل لاتتهيأ إلا بتوزيع الأعمال . فمتى اجتمع عدة أشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج اليه الآخرون فهذه هى المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشىء كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . إذ المدنية ليست مجتمع أشخاص متماثلين متساوين فى كل شىء ؛ بل هى بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلا يأتى المتخصص بعمل السكك الزراعية ، و بجانب أصحاب المحاصيل تأتى الطبقة القائمة بالأخذ والعطاء فى البر والبحر . وهذا إتقان للعمل و إكمال له ، ولكن المبدأ الأصلى واحد . ثم إن هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسمة المجتمع و يصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة إذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس أو الحفظة تهيمن على إجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث أى المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كل مدنية .

ويقول أفلاطون : إنه لايجوز استغلال مدنيّةلفائدة شخص واحد ؛ و إن المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة ، و إنما هو إسعاد المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فاذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأى أفلاطون أن احتياجات المجتمع المنظم يجب أن ينظر فيها إلى طبيعة الخلق إذ مهما كان الثقاف ذا تأثير فان الأصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندى ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : إن أقسام هذه الغرائز فى البشر هى تحت تأثير البيئات التى يعيشون بها ، فالعلوم الحسابية التى تدرّج بعض الناس إلى الفلسفة هى عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة فى التحيّل لا فى العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأى إلا تعسفاً .

و يوصى أفلاطون كثيراً باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذاكرة الخ .

ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده و يحصر حركته فى هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . و إذا تأمل القارىء فى عقلية أفلاطون الأجتماعية وجدها داخلة فى علم النفس ، وفي علم الاخلاق ، فهو يذكر الاحوال لا على ما تكون عليه فى الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبي محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية فى البشر حتى يأتى العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردى ؛ ويدخل أفلاطون حينئذ فى شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم أن نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد إلا إجمالا . و إنما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجز للمدنية عن التردى، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح ، إنما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء ، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تبلغ المدنية السعادة إلا إذا كان الفيلسوف ملكا ، أو الملك فيلسوفاً .

ومن رأى أفلاطون أن كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطوارىء

و إن السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بهـا فى كل زمان ومكان . و يترتب على رأى أفلاطون هـذا أن رجل الدولة يكون أحيـاناً فوق القواعد والاوضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية أنها مجمع منازل وعائلات تتوخى فى معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف افلاطون فى حصره المدنية بتوزيع الأعمال ومجرد المبادلة ، و يقول : إن الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وإن علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الـكافلة للوصول إلى هذه الغاية وهو يأتى بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيّات . ومن رأيه أن الاستقلال الزراعى هو شرط فى صحة الأخلاق ، وأنه كلما استقلت مملـكة عن غيرها فى احتياجاتها المعاشية استقلت فى أمورها السياسية والعكس بالعكس ، وكلما كثر أخذ المملـكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسى وتعرضت للحروب ، وهى حقيقة قد انطبخت حتى احترقت ، وقضية قد ابتقرت حتى انفلقت ، فالأمة التى ليس لها استقلال اقتصادى هيهات أن يتم لها استقلال سياسى .

ومما يذهب إليه أرسطو أن الرق أمر طبيعى لا ينبغى التعجب منه ، وأن الطبيعة فى قسمتها البشر إلى طبقتين سادة وأرقاء ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد فى آسيا فى الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لـكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمـكنه أن يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فاليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو فى ذلك أشد المبالغة ورأى الناس فى رأيه هذا مجرد تسويغ وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر فى الشرق .

أما اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا كثُر فيهم الحـكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو :

« الاقاليم الرابع أعدل العمران ، والذى حفَافَيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذى يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع مايتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألوانا وأخلاقا وأدياناً ، حتى النبوات فانما توجد فى الأكثر فيها . ولما نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التى فيها الحر الزائد ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وخلقهم » اه

هذا وأن أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية ، وهى أنه لا بد لكل عائلة من رأس ، وأن هذا الرأس هو الرجل الذى يدبر النفوس القاصرة أى نفوس النساء والأولاد . ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقاء ، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة . ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة ، بل كان حكمه عليها حكم الوالى على رعيته ، وفى العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية .

ثم إن أرسطو لا يعد فى الوطنيين الأحرار طبقة الصناع والأكَرَة ، بل يقول إن أعمال هؤلاء خسيسة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة ، وللاشتغال بسياسة المجتمع . وهذا القول مردود من جهة شقه الأول ، وهو ممارسة الفضيلة التى تكون عند الصناع والزرّاع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثانى وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فان هذه الطبقات قلّما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجالات الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، وإنها حيث توجد تؤمن الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأَصلاَء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة فى الثروة تؤدى إلى الحكم المطلق المنحصر فى بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هى تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلّى بمكارم الاخلاق وذلك لا يكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض

شروط اقتصادية لامناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التى لاتقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها . فهى بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولا تقصد الاجتماعات الشعبية إلاّ عند الضرورة . أما إذا وجد في المجتمع من يستغنى عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فان الديموقراطية تضعف فى مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم أبونصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فى مبادىء العمران أيضا وأجاد وأفاد ونقل كارادوفو أكثر نظرياته السديدة فى المدنيّة . ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسى المتوفى بعد زمن الفارابى بقرن واحد قال :

أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فيلسوف المسلمين بالحقيقة أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلانى المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر ، فبذّ جميع أهل الاسلام فيها ، وأربى عليهم فى التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرّها وقرّب تناولها ، وجمع مايحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما أغفله الكندى وغيره من صناعة التحليل ، وانحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وأفاد وجود الانتفاع بها ، وعرّف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة . ثم له بعد هذا كتاب شريف فى إحصاء العلوم[1] والتعريف بأغراضها لم يُسبق اليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه . وله كتاب فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس[2] يشهد له بالبراعة فى صناعة الفلسفة ، والتحقق بفنون الحكمة ، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً ؛ وبيّن كيفية التدرّج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً (إلى أن يقول) : ثم له بعد هذا في العلم الالهى والعلم المدنى كتابان لا نظير لها ، أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة » [3] عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهى

(١) وقد طبع فى مصر حديثا (٢) وهو مطبوع فى مصر أيضا

(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة

على مذهب ارسطاطاليس فى مبادىء السنة الروحية ، وكيف تؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هى عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرّف فيها بمراتب الانسان وقواه النفسانية ، وفرّق بين الوحي والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة واحتياج المدنية إلى السير الملوكية ، والنواميس النبوية . انتهى . ولكن ليس من هؤلاء واحد لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابى يُعَدّ واضعاً لعلم فلسفة التاريخ الذى هو حق ولىّ الدين أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب بل مفخرة الاسلام كله .

ولقد كان لمحرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة لاتمثل وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لى فى الأول ، وأشرف منها على آراء طريفة ، ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها فى غير هذه المقدمة التى لا تخلق ديباجتها ولا تذهب بهجتها . وكأنى استبرأت بطول الزمن الكتب العربية المعروفة فكنت أرجع فى النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد أمنيتى إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسقى غيثاً لا يمطره غير ذلك العارض ، ولم يكن إعجابى بما فى كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يعزّ وجودها فى كتب غيره من أساطين الحكمة ؛ بأقل من إعجابى ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى كأنه يخطب من فوق منبر ، ويصول فى المواضيع صولة غضنفر ، فينزل بيانه من نفوس الأدباء ـ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ المنزلة التى لا تعلوها منازل الأقمار ، فى أعين السّمار . فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع على أسلوبها فى الانشاء العربى دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنيّة ، وعلوم جمّة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة فى فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب ، ولعل عشقى أسلوب هذا الامام فى كتابة التاريخ ، وغرامى بطريقته فى تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً فى ملكتى بلغ من العمق أنه

فلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري والافضاء بجلاجل نفسي ، وخوانس صدري ، إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبّه بأسلوب ابن خلدون . أقول هذا وإن كان المشبّه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً ، وبقيت أنظر اليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها ، ولكني لم أكن مطالعاً من التاريخ الكبير إلا لمحات يسيرة ، وربما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر مما طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير ، فما زال يحز في صدري أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق ، وعُدَوَاء الأشغال تعدو عن هذه الأمنية ، وتحول بيني وبين هذا الغرض المُلِحّ ، والوجد المبرّح ، إلى أن جاءني في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن الكتبي النبيه الساعي في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمد المهدى الحبابى » أخذ الله بيده ، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرّزة بالحواشي القيّمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم ، مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرّح عن مداهما البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر معهما في صعيد ، أعني كلا من المحققين الكاملين ، والجهبذين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسي الفهرى ، وعبد العزيز بن ادريس زيّن الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامها مربع العربية اذا جَدَب ، فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر ، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر بذاهب الصبر ، وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدني أن أعلق أنا أيضا على هذا التاريخ حواشي بما يعنّ لي من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أوافقه . وأفارقه في وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدى من النظريات العصرية في علم الاجتماع ما تتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه .

وقد صادف مجيء هذا الاقتراح أني كنت من « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» في شغل شاغل عماسواها أكاد أنوء بها وحدها فضلا عن أن أتعداها فاعتذرت عن خوض هذا البحر العجاج وقلت: من ذا الذي يجري مع ابن خلدون إذا أقرّ أنمُلَه على مُهْرَق ، وقد خاب من يساجل البحر الخضمّ ، ومن يزحم البحر يغرق . فما زال بي إبرام الاخوان وإصرارهم ، وإيرادهم في هذه الحاجة وإصدارهم حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلّق بعض الحواشي على بعض المظان ، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد ، ومكتفيا من القلادة بما أحاط بالجيد ، ولما كان قد ورد في متن المؤلف ذكر الأمم الكبار ، ومن جملتها أمة الترك علقت تحت هذه اللفظة خلاصة صافية في نسب هذه الأمة وأولياتها ومصايرها ، ثم لما كان لابد في هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بني عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الاسلامية ردحاً من الدهر ، دخلت في هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الاجمال سبيلا ، فاذا بي مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلص من هذا التاريخ إلا في مجلّد كبير ، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض ، وشجت عروقها ، وامتدت شماريخها ، من حدود المغرب الأقصى غربا إلى بحر الخزر شرقا ، ومن أواسط أفريقية جنوبا ، إلى المانيا وبولونيا شمالا ، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفتي الليل والنهار ، فمضيت فيه متوكلا على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً في الوصف الحد المتوسط ، متجانفا عن خطتي المفرط والمفرّط ، ولا أظن كتاباً قد وُضع في العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لاسيما في العصر الحاضر . فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ، ريثما أكون عرفت ما يجب أن أملكه في هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد ، والله أسأل العون والتيسير ، إنه تعالى من وراء السداد .

جنيف ٢٦ شعبان المعظم ١٣٥٥ — شكيب أرسلان

الصقالبة

تعليق على ماجاء بسطر ١٥ صفحة ١ جزء أول من ابن خلدون

الصقالبة هم الأمة التى يقال لها السلاف ، وهم أمة عظيمة من الأمم التى يقال لها هناك « الڤند » أو « الڤنيد » Wendes ou Wenedes واستقر آخرون على شواطىء البحر الأسود وضفاف الطونة ، ويقال لهؤلاء « يازيج Jazyges » و « باستارن Bastarnes » و « روكسولان Roxolans » وأول من سماهم السلاف « چورناندس » المؤرخ القوطى ، ومعنى السلاف الشرفاء ، وقد انتهى هـذا المعنى بأن يفهم منه الأمم المستعبَدَة ، وانقلب عن معناه الاصلى لجاء من لفظة السلاف « Slaves » لفظة إسكلاف « Esclaves » ومعناها عبد . وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف ينقسمون إلى سلاف غربيين وهم التشيك الذين سكنوا بوهيميا ، والبوليز الذين سكنوا بولونيا ، والليتون أهل ليتوانيا ، والموراڤ أهل موراڤيا ، والسوراب أهل بوميرانيا وبراندبورج ، والسلاف الشماليون : وهم الذين منهم الشعب الروسى ، والسلاف الجنوبيون : وهم الذين عبروا الطونة وسكنوا على شطوط بحر الأدرياتيك ، وهم البشناق ، والصرب ، والحزوات ، والاسكلاڤون.

وأول ما عرف العرب هـذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكانت كثيراً ما تمد سلطانها على السلاف الجنوبيين ، ولما كان العرب لايوجد عندهم حرف الڤاء الفارسية ، وكانوا يقلبونها باء ، فلفظوا الاسكلاڤون أصقلابون ومنها جاءت لفظة صقلبى وصقالبة . ولما كانوا فى القرون الوسطى يسترقون منهم فقد صار الصقلبى بمعنى رقيق كما هو فى اللغات الافرنجية . وقد جاء فى اللسان العربى أن الصقلاب هو الرجل الأبيض ، وقيل هو الرجل الأحمر ، وأنه قيل له صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة كما فى معجم البلدان ، وقال المتنبى فى وصف حرب بين سيف الدولة وملك الروم :

يجمع الروم والصقالب والبلــــــغار فيها وتجمع الآجالا

فمن هنا يعلم أن الصقالبة والبلغار مثل اليونان كانوا يخضعون لملك الروم ، وأن العرب القدماء لم يكونوا يقولون «سلاف» بل صقالبة للجميع ، سموا الجميع باسم البعض الذين كانوا على شطوط الادرياتيك ، والآن الصقالبة هم الروس ، والاوكرانيون والروتينيون ، والروس البيض ، ويقال لهم صقالبة الشرق . وقسم من البلغار ، وجميع الصرب ، والحزوات ، والبوشناق ، والسلوفين ، ويقال لهم صقالبة الجنوب والبولونيون ، والفنيد ، والسلوفاك ، والتشيك ويقال لهم صقالبة الغرب ، وأكثر الصقالبة تابعون للكنيسة الشرقية ، ماعدا البولونيين والتشيك والسلوفين والحزوات فانهم كاثوليكيون ، ومن الصقالبة مسلمون وهم البشناق .

إغريقية هي ما يسميه الاوروبيون « إغريق » والافرنسيس يقولون «غريس» والألمان يقولون « غريش » . وهي تطلق على البلاد الممتدة من شبه جزيرة البلقان إلى الجنوب بين بحرى إيجه والادرياتيك ، فهي شبه جزيرة صغيرة ناتئة عن شبه جزيرة كبيرة . والقسم الشمالى منها يقال له تساليا والقسم الجنوبى يقال له بيلوپونيز . ومن جملة أقسامها البلاد المسماة إيير ، و بيوسنية ، وايونية ، وأتيكيا ، على جانب البحر . ولمجاورة أيونية والاتيك للبحر كانتا أول البلاد اليونانية التى تلقت المدنية من الشرق فان الشرق هو أصل مدنية اليونان ، ومن لفظة يونية جاءت لفظة يونان التى عمت الجميع فيما بعد فى عرف العرب .

ويقال لليونان الهيلانيون أيضاً ، ولا يوجد أعرق فى الظلمة من تاريخ أوائل اليونان ، إلا أن المؤرخين بحسب ما عثروا عليه من الآثار يؤكدون أن اليونانيين هم من أصل آرى ، وأول اسم عرف من أسماء الأولين من سكان هذه البلاد هو اسم البيلاجيين « Pélasges » ثم عرفت أسماء الليليجيين « Leléges » والكاريين « Cariens » ثم « الآشيين Acheens ثم « الدُوريين Doriens » .

الأنساب

تعليق على ما جاء بسطر ٧ صفحة ٢ جزء أول من ابن خلدون

إن علم الأنساب هو العلم الذى يبحث فى تناسل القبائل والبطون من الشعوب وتسلسل الأبناء من الآباء والجدود ، وتفرع الغصون من الأصول فى الشجرة البشرية بحيث يعرف الخلف عن أى سلف انحدر ، والفرع عن أى أصل صدر ، وفى هذا العلم من الفوائد النظرية والعملية ، بل من الضرورات الشرعية والاجتماعية والأدبية والمادية ، مالايحصى . فليس علم الأنساب بطراز مجالس يتعلمه الناس لمجرد الاستطراف أو للدلالة على سعة العلم ، و إنما هو علم نظرى عملى معاً . عملى لأنه ضرورى لأجل إثبات المواريث التى يتوقف توفيرها لأهلها على ثبوت درجة قرابة الوارث من المورث ، وهذا لا يكون إلا بمعرفة النسب .

وكذلك هو ضرورى لأجل الدول الراقية المهذبة التى تريد أن تعرف أصول الشعوب التى اشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التى عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها ، فكما أن العالم المتمدن يعني بتدريس جغرافية البلدان من جهة أسماء البلاد ومواقعها وحاصلاتها وعدد سكانها ومقدار جباياتها ، فانه يجب أن يعنى بمعرفة أنساب أولئك السكان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كل جماعة منهم ، وغير ذلك من المعارف التى لايجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية ، ولما كان من الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء ، كما هى مقررة عند الأدباء والشعراء ، أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية فى العروق ، فقد كان لابد من معرفة الأنساب حتى يسعى كل فريق فى إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب استعدادها الفطري ، لأن الاجتهاد فى تنمية القرائح الطبيعية

والمواهب اللدنية لا يمكن أن يثمر ثمره في قبيل إذا جاء معاكساً لاستعداده الفطرى وهذه الاستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب .

وليس هذا العلم منحصراً في العرب ـ كما يتوهم بعضهم ويظنون أن سائر الأمم قليلة الاحتفال به ـ فان الأمة الصينية الكبرى هي أشد الأمم قياماً على حفظ الأنساب ، حتى أنهم ليكتبون أسماء الآباء والجدود في هيا كلهم ، فيعرف الانسان أصوله إلى ألف سنة فأكثر . وقد تناهوا في الاعتناء بهذا الأمر إلى أن قدسوا آباءهم وجدودهم ، وعبدوهم كما يعبدون آلهتهم . وكذلك الافرنج كانت لهم عناية تامة بالأنساب في القرون الوسطى والأخيرة ، وكانت في دولهم دوائر خاصة لأجل تقييدها وضبطها ، ووصل آخرها بأولها ، وقد بقى ذلك معمولا به إلى أن ساد الحكم الديموقراطى في أوروبا فضعف عندهم الاعتناء بهذا الأمر بالغاء الامتيازات التي كان يتمتع بها النبلاء ، وكانوا يدققون في الأنساب من أجلها ، وبقى الاهتمام بالأنساب من الجهة العلمية لا العملية .

فأما العرب فلا شك في أنهم في مقدمة الأمم التي تحفظ أنسابها ، وتتجنب التخليط بينها ، فلا تجعل الأصيل هجيناً ، ولا الهجين أصيلا ، ولا تحتقر قضية الكفاءة في الزواج ، بل تعض عليها بالنواجذ . ولا يقيم العربي وزناً لشيء بقدر مايقيم للنسب لاسيما في البوادي التي اقتضت طبيعة استقلال بعضها عن بعض ، وتنافسها الدائم فيما بينها ؛ أن كل قبيلة فيها تعرف نفسها ، وتحصى أفرادها ، وتحفظ بطونها وأفخاذها حتى تكون يداً واحدة في وجه من يعاديها من سائر القبائل . فاقتضى ذلك أن يكون العرب علماء بأنسابهم ، يحفظون سلاسلهم العائلية بصورة مدهشة لاتجدها عند غيرهم ، فتجد البدوى أحياناً يجهل أقرب الأمور إليه ، ولكنه إذا سألته عن أبيه وجده ومنتسبه فانه يسرد لك عشرين اسما ولا يتتعتع .

وأما في الحواضر فليس الأمر بهذه الدرجة من الضبط ، وذلك لعدم الاحتياج الذي عليه البوادي من هذه الجهة ، فإن الحواضر مشغولة بصناعاتها ومهنها ومتاجرها ومكفولة بالسلطان الذي يغنيها عن تماسك الفصيلة أو القبيلة ، وعن اعتناء كل فريق

بجمع أفراده ليقف فى وجه عدوه . وكلما استبحر العمران فى مصر من الأمصار قلّ الاعتناء بالأنساب ، وصار الناس ينسبون إلى حرفهم ومهنهم ، أو إلى البلاد التى جاءوا منها . وكلما قرب المجتمع من حال البداوة اشتدت العناية بالأنساب ، واستفحلت العصبيات التى هى من طبيعة الاعتناء بالنسب . وقولنا إن البوادى أشد من الحواضر عناية بهذا الأمر لا يعنى أن الحواضر العربية لاتقيم للأنساب وزنا ، فالعرب غالب عليهم الاحتفال بالنسب حاضرهم و باديهم ، وأبناء البيوتات منهم ، ولو كانوا فى أشد الحواضر استبحار عمارة يحفظون أنسابهم و يقيدونها فى السجلات ، وكثيراً مايصدقونها لدى القضاة بشهادات العلماء الأعلام والعدول ، و يسجلونها فى المحاكم الشرعية . و إذا كانوا من آل البيت النبوى ــ وهو أشرف الأنساب بالنظر إلى اتصالهم بفاطمة الزهراء التى هى بضعة الرسول عليه السلام ، وهو أشرف الخلق ــ حرروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف ، وكتبوا به الكتب المؤلفة ، وهذا أمر بديهى لانزاع فيه ، لأن هذا الشرف هو مما يتنافس به ، ومما يستجلب لصاحبه مزايا معنوية ، وأحيانا منافع مادية ، فلا يريد منتسب إلى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه . ولئن كان البيت النبوى هو أشرف الأنساب بالسبب الذى تقدم الكلام عليه فليس سائر بيوتات العرب من ذرارى الملوك والأمراء ، والأئمة والعلماء والاولياء بأقل حرصا على حفظ أنسابهم من آل البيت الفاطمى . وجميع قريش مثلا سواء كانوا من الطالبيين أو من غيرهم يفتخرون بنسبهم القرشى ، وكذلك ذرارىّ الأنصار من الأوس والخزرج يفتخرون بأنسابهم القحطانية ، وكذلك سلائل الملوك من لخم وغسان ، وأمثالهم من العرب القحطانية ليسوا بأقل حرصاً على حفظ أنسابهم من تلك البطون العدنانية الشريفة . والعرب بالاجمال سائرون فى النسب على مقتضى قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) فكل قبيلة راضية بنسبها ، تحفظ مآثر قومها ، وتعتز بالاعتزاء إلى سلفها ، مع أن القبيلة الثانية التى تنافسها تحفظ لها عورات ومعرات تعيّرها بها عند المفاخرة والمنافرة .

ولشدة اعتنائهم بالأنساب تجد انتصار بعضهم لبعض على نسبة درجة القرابة

فكلما كانت القبيلة أقرب إلى القبيلة كانت أولى بنصرها ، لا يتخلف ذلك فيهم إلا لعوامل غير معتادة . ومهما اشتدت العداوة بين أبناء فخذ واحد فإنهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم من قبيلتهم ، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة إلى عمارة لمقاومة عمارة أخرى ، وهلم جرا . ولا بد أن ينزع عرق النسب فى العربى فيميل به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقرب بعيداً في الحقيقة ؛ فالقحطانى ينتسب إلى شعب طويل عريض يحصى بالملايين ، والعدنانى ينتسب إلى شعب لا يقل عنه فى العدد والمدد ، ولكن إذا اختصما فى موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع فى كل عربى ، فمال القحطانى إلى قبائل اليمن ، ومال العدنانى إلى قبائل الحجاز ونجد ، أى مضر وربيعة . وقد يؤاخى الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق آخر أشد عداوة لأنه أبعد نسبا ، وعليه قول شاعرهم :

وذوى ضِبابٍ مضمرين عداوة قرحى القلوب معاودى الأفناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم وهمو إذا ذكر الصديق أعادى
كيما أعدّهمو لأبعدَ منهم ولقد يُجاء إلى ذوى الأحقاد

ومن أجل هذا التدقيق فى قرب النسب وبعده ، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات هذا القرب وهذا البعد ؛ انقسم العرب إلى ذينك الشعبين الكبيرين عدنان ، وقحطان ، وغلب على قحطان اسم اليمن ، لأن أكثر منازل العرب القحطانية هي فى اليمن ، ومن وُجد منهم خارجا عن اليمن كالأوس والخزرج فى المدينة ، وكطىّ وغيرها فى نجد مثلا ؛ فإنما خرجوا بعد أن انهدم سدّ مأرب ، وتفرقت القبائل فى البلدان .

وأشهر القحطانيين حِمْيَر ، ومنهم قضاعة ، ومن قضاعة بلى ، ومنهم الآن في شمالى الحجاز ، وجهينة ، ومنهم على سواحل الحجاز يبلغون ١٠٠ الف نسمة ، وكلب وهم فى بادية الشام ، ويقال لهم اليوم الشرارات ، وعُذرة المشهورون بالعشق ، ولهم بقايا بمصر وبقايا بالشام ، وبهراء ومنهم ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، ونهد ، وجرم ، وتنوخ وهؤلاء كانوا فى شمالى بلاد الشام .

ومن القحطانية كهلان ، ومنهم الأزد ، ومن الأزد غسّان وكانوا بالشام ، وكان منهم نصارى ، ولذلك تجد كثيرين من نصارى سورية ينتسبون إلى غسّان ـ أو يحبون أن ينتسبوا إلى غسان ـ ومنهم الأوس والخزرج فى المدينة المنوّرة ، وقد تفرقوا فى البلاد ولا يكاد يوجد منهم أحد فى المدينة فى هذه الأيام . ومن كهلان طِيء وهم من أكبر القبائل ،و يقال لهم اليوم شمّر . و بطون طيء كثيرة منها ثُعَل ، وجَدِيلة،ونبهان و بولان ، وهِناء ، وسدوس ، وسلامان ، و بحتر الذين منهم البحترى الشاعر ، وزُبَيْد بضم أوله ففتح فسكون ، وكثير من قبائل الشام هى من زبيد ، وسُنبس ، وجَرم ومنهم فى بلاد غزة ومصر . وثعلبة ، ومنهم كثير فى الديار المصرية . وغزيّة ، ومنهم بطون فى العراق وفي الشام والحجاز . و بنو لام ، وهم بالعراق ومنهم الظفير

ومن كهلان مَذْحِج ، ومن هؤلاء خولان ، وجنب ، وسعد العشيرة ، ومن سعد العشيرة بنو جُعفى بضم فسكون والنسبة إليهم جعفى على مثل لفظه ، وكان المتنبّى الشاعر جعفياً . ومن سعد العشيرة قبيلة يقال لها أيضاً زُبيد بضم ففتح فسكون وهم زبيد الحجاز الذين ينتسب إليهم عمرو بن معد يكرب . ومن كهلان النخع ، ومنهم الأشتر النخعى عامل الامام على رضى الله عنه على مصر . ومنهم عنس ، الذين منهم عمار بن ياسر رضى الله عنه . ومنهم الأسود العنسى الكذاب . ومنهم بنو الحارث الذين يسكنون فى الجنوب الشرقى من الطائف ، ومن كهلان همدان ولا يزال منهم فى اليمن جموع غفيرة ، فضلا عمن تفرقوا فى البلاد . ومنهم الهمدانى صاحب كتاب «الاكليل» وكتاب «صفة جزيرة العرب» ومن كهلان كِندة ، وكان لهم ملك ومنهم امرؤ القيس الكندى الشاعر ، وأبو إسحق يعقوب الكندى فيلسوف العرب . وهم متفرقون فى البلاد فمنهم أناس فى اليمن ، وآخرون فى الشام ، ومنهم قوم يقال لهم السكون وآخرون يقال لهم السّكاسك ، جاء فى صبح الأعشى : أن النسبة إلى السّكاسك سكسكى ، رداً له إلى أصله ، وهذا صحيح . وقبلى صيدا فى سواحل سورية مكان يقال له السكسكية .

ومن كهلان مراد الذين منهم قاتل سيدنا على بن أبى طالب . وأنمار ، ومن أنمار تتفرع بطون كثيرة مثل بجيلة ، وخَثْعَم ، وهم متفرقون فى البلاد . ومن كهلان

جذام ، وقيل إنهم من العدنانية ، ولكنهم انتقلوا إلى اليمن . وكثير من أعقاب جذام فى الديار المصرية فى الصعيد ، وفى الشرقية ، والدقهلية ، ومنهم بنو صخر فى الشام ، ومن كهلان لخم ، وكان منهم ملوك الحيرة من بلاد العراق ، وكان منهم بنو عباد ملوك اشبيلية . ومن لخم أمراء لبنان الأرسلانيّون ، والتنوخيون ، وهؤلاء على الأصح ليسو من التنوخيين سكان شمالى سورية ، بل هم ينتسبون إلى جد يقال له تنوخ من سلالة اللخميين ملوك الحيرة . ومن لخم بطون كثيرة فى الديار المصرية ومن لخم بنو الدار رهط تميم الدارى الصحابى ، وذريته فى خليل الرحمن بفلسطين ومن كهلان الأشعريون رهط أبى موسى الأشعرى الصحابى . وعاملة ، ومن عاملة أهالى جبل عاملة بالشام بين صور وصيدا ، وهم شيعة الشام . إلا أن رؤساءهم بنى على الصغير ينتمون إلى وائل كما علمت منهم .

وأما العدنانية فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وتواريخ العرب تتفق على أن هؤلاء يقال لهم العرب المستعربة ، وأن القحطانية هم العرب العاربة ، ولكن فى مسألة القحطانية يوجد خلاف ؛ لأن بعضهم زعم أن العرب العاربة ليسوا قحطان ولكن الذين قبلهم ممن يقال لهم العرب البائدة ؛ عاد وثمود وعمليق وطسم الخ . والرأى الذى عليه الجمهور أن العرب العاربة هم القحطانية ، وأن العرب المستعربة هم العدنانية ، وهؤلاء العدنانية هم سلالة اسماعيل بن إبراهيم تعلموا العربية من جُرهُم الذين هم من القحطانية ، جاء إلى مكة وأقام بها واختلطوا بذرية اسماعيل .

والعدنانية هم نزار بن معد بن عدنان . ومنهم إياد الذين ينسب إليهم قس بن ساعدة ، ومنهم بنو أنمار بن نزار ، ومنهم ربيعة ويعرف بربيعة الفرس ، ومن ربيعة أسد وضبيعة وديارهم بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة ، وفى نجد كثير من ربيعة الفرس ، وأسد أكثرهم أفخاذاً . ومن أسد بنو عنزة ، وكانت منازلهم خيبر من ضواحى المدينة . ثم رحل قسم كبير منهم إلى بادية الشام ، وهم أكثر عرب هذه البادية . فمنهم الرولة ، وولد على ، والمُعْجل ، والحسنة ، ويقال لهؤلاء ضَنَى مسلم ثم السبعة ، والفدعان ، ويقال لهم ضني عبيد . وآل سعود الذين منهم ملك الحجاز

ونجد عبد العزيز بن سعود فى هذا العصر ليسوا من عنزة ، ولكنهم مجتمعون مع عنزة فى ربيعة . ومن ربيعة جديلة ، وكانت ديارهم بتهامة . ثم خرجوا إلى البحرين ومنهم فريق فى الجزيرة الفراتية ، ومن جديلة بنو وائل ، ولوائل بكر وتَغْلِب ، ومن تغلب بن وائل كليب الذى قتله جسّاس واشتعلت لأجله الحرب المعروفة بالبسوس .

وكان الحمدانيون ملوك حلب قديماً من تغلب ، وكان من تغلب نصارى كما كان من غسان ، ولما ظهر الاسلام أسلم منهم أناس ، وبقى الآخرون متمسكين بنصرانيتهم وأبوا أن يدفعوا الجزية كسائر النصارى بحجة أنهم عرب ، وأصرّ سيدنا عمر على أخذها منهم ، وكان سيدنا على فكّر فى منعهم من تنصير أولادهم وذلك حتى ينشأ أحداثهم فى الاسلام . ولهم حكم خاص فى الفقه الاسلامى ، واختلفت فى شأنهم الأقوال ، وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى عن ابن عباس قال : لاتؤكل ذبائح نصارى بنى تغلب ، ولا تنكح نساؤهم ، ليسوا منا ولا من أهل الكتاب وتظاهرت الروايات على أنه لما أراد عمر أخذ الجزية منهم لحقوا بأرض الروم ، فقال زرعة بن النعمان لعمر : أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم . فأرسل عمر فى طلبهم فردّهم ، وأضعف عليهم الصدقة . وكتب عمير بن سعد إلى عمر يسأله رأيه فيهم لانهم همّوا باللحاق بمملكة الروم ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التى تؤخذ من المسلمين فى كل سائمة وأرض ، وإن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة ، وقالوا « أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا » .

وقال الزهرى : « ليس فى مواشى أهل الكتاب صدقة إلاّ نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشى ، فان عليهم ضعف ما على المسلمين . وكان عثمان رضى الله عنه أمر أن لايقبل من بنى تغلب فى الجزية إلا الذهب والفضة ، فجاءه الثبْت أنّ عمراً أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك ، واتفقوا على أن سبيل ما يؤخذ من أموال

بنى تغلب سبيل مال الخراج ، لأنه بدل من الجزية . و بالاختصار أبت بهم عرو بتهم أن يؤدوا كنصارى الأعاجم ، وأبى الخلفاء الراشدون أن يعاملوهم معاملة المسلمين فوجدوا لذلك طريقاً وسطاً .

ومن بنى تغلب الأخطل التغلبي الشاعر النصرانى المشهور وهم كثيرون فى نجد .

وأما بكر بن وائل فنهم شيبان ، ومنهم بَنُو حَنيفة رهط مسيلمة الكذّاب وأكثر سكان الرياض عاصمة نجداليوم من بنى حنيفة ، ومن بكر بنو عجل بن لُجيم

وأما القسم الثانى من العدنانية فهم سلالة مضر بن نزار ، و يقال مضر الحمراء ولذلك تجتمع عدنان كلها فى ربيعة ومضر .

ولمضر فرع جمع عدة قبائل وهو قيس ؛ و يقال له قيس بن عيلان بن مضر وقيل هو قيس بن مضر لصلبه وعيلان مضاف إليه ، قيل فرسه وقيل كلبه . ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية ، حتى صار فى مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس و يمن ، وفى جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيس و يمن ، وكانت حروب القيسية واليمنية فى لبنان متصلة وانتهت بواقعة عين دارة منذ ٢٢٥ سنة . وأما فى فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة . وأما فى الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية ، ومن أشهر قبائل قيس هوازن ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، ويقال لهوازن اليوم عتيبة . وهم من أكبر قبائل العرب منهم أناس فى الحجاز و آخرون فى نجد . وينقسمون اليوم إلى فرعين: الروقة ، والبرقة و بعضهم يرى أن أحد الفريقين وهو البرقة من عامر بن صعصعة . ومن هوازن بنو سعد الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم رضيعا فيهم . و يقال لهم بنو سعد بن بكر ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم فرقة بنواحى باجة من المغرب . ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة . ومنهم بنو كلاب ، وكان لهم فى الاسلام دولة باليمامة ، ثم انتقلوا إلى الشام وملكوا حلب مدة من الزمن . ومن بنى عامر بن صعصعة بنو هلال وهم أشهر قبائل العرب . وكانوا فى الحجاز ونجد . وقد انتقلوا إلى المغرب فملأوه . ثم إن قبيلة حرب الكبيرة فى الحجاز من بنى هلال ، وهم بطون ثلاثة ؛ بنو مسروح

وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . هكذا فى صبح الأعشى . وأما في كتاب « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » فقد جاء فى الصفحة ٣٧٢ ذكر قبائل الحجاز النازلة بين الحرمين ، وقد كنت نقلتها عن سجلات الحكومة فىالمدينة المنوّرة فهنالك أقول : « أهم هذه القبائل حرب ؛ وهم بنوحرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية . وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ، ومسروح ، وعبد الله وعمرو . فمسروح أكثرهم ولداً ، وقد دخلت بطون بنى عبد الله و بنو عمرو فى مسروح » أما صبح الأعشى فيقول نقلا عن الحمدانى أنهم ثلاثة بطون ؛ بنو مسروح و بنو سالم ، و بنو عبيد الله . وقال : إن من حرب زبيد الحجاز ، وذكر أن منهم بنى عمرو . ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنوّرة وعددهم يزيدعلى ستين ألف نسمة . وأمابنوسالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادى الصفر إلى الحديدة إلى ينبع البحر ، وهم يزيدون على خمسين ألفا . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة ألف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الأحمدى ، وكان ناصر بن نصار الظاهر ، ومنصور الظاهرى ، من مشايخ المراوحة من بنى سالم من حرب . و بنو مزينة الذين بأطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبى سلمى المزنى صاحب المعلقة ؛ داخلون الآن فى بنى سالم من حرب . والحال أن مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابنى عمرو ابن أد بن طابخة ، واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما فى صبح الأعشى . وكان شيخهم حجاب بن نحيت معدوداً من مشايخ المراوحة من بنى سالم إلى آخر ماذكرناه من أسماء شيوخ حرب فى العصر الأخير .

وأخبرنى العلامة النسابة الشيخ عبد الله بن بلهيد قاضى قضاة المملكة السعودية أن ما ذكرته عن قبائل الحجاز هو أصح ما اطلع عليه فى هذا الباب . ومن بنى عامر ابن صعصعة أيضاً بنو عقيل ، وكانت مساكنهم بالبحرين ، وكانوا أعظم القبائل هناك واجتمعوا هم و بنى تغلب على بنى سليم بن منصور فأخرجوهم من البحرين ، ثم تغلب بنو تغلب على بنى عقيل فأخرجوهم إلى العراق ، ثم عادوا إلى البحرين وتغلبوا على بنى تميم . ومن بنى عقيل بنو عبادة ، و بنو خفاجة فى العراق ومنهم المنتفق .

ثم من بطون هوازن بنو جشم ؛ كانت مساكنهم بالسروات بين تهامة ونجد ، ومن بطون هوازن ثقيف ، و يقال للطائف سوق ثقيف ، لأنهم سكانها ومحيطون بها من كل جهة . وفى كتابنا « الارتسامات اللطاف » استوفينا الكلام على ثقيف .
ومن قبائل قيس باهلة ، و بنو مازن ، و بنو غطفان ، ومن غطفان بنو عبس جماعة عنترة الشاعر الفارس المشهور ، ومنهم أشجع ، ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم حياً عظيما بسجلماسة فى المغرب . ومن غطفان ذبيان ، ومنهم النابغة الذبيانى ، ومن ذبيان فزارة ومنهم بنو صبيح فى برقة ومن هؤلاء رواحة وهيب بأرض برقة إلى طرابلس الغرب و بأفريقية والمغرب ، ومنهم جماعة بالديار المصرية .

ومن قبائل قيس بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وكانوا فى عالية نجد بالقرب من خيبر ، وفى وادى القرى وتيماء ، ولكن أكثرهم رحلوا إلى مصر ، ثم إلى برقة ، وأكثر عرب برقة منهم . ومن شاء أن يتوسع فى معرفة قبائل برقة فعليه بحواشينا على « حاضر العالم الاسلامى » فانه يجد فى الفصل المتعلق بطرابلس الغرب من صفحة ٦٤ من المجلد الثانى إلى صفحة ١٦٥ كل ما يلزم من المعلومات عن ذلك القطر ، ولا سيما عن القبائل بأسمائها القديمة والجديدة مما يطول بنا استيفاؤه هنا . ونحن إنما ذكرنا هنا مجمل أنساب العرب على سبيل التمثيل .

ومن قبائل قيس بنو عدوان وكانوا بالطائف ، ثم غلبهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة ، و بأفريقية منهم أحياء بادية ، وفى شرقى الأردن اليوم عرب العدوان ، وهم رؤساء البدو فى تلك الناحية ، ولا يعلم هل هم من عدوان هؤلاء ، أم هو اتفاق فى الاسم

ومن مُضَر الياس ، وكانت تحته خِنْدِف بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال وهى بنت حلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة ، عرف بنوه بها فقيل لهم خِنْدِف وغلب على سائر قيس قال الشاعر ــ وقد أهانه العدنانية فى أسوان وأعزه القحطانية فى اليمن :

إذا تمّ لى فى أرض مأرب مأربى   فلست على أسوانَ يوماً بأسوانِ
إذا جهلت قدرى زعَانفُ خِنْدِف   فقد عرفت فضلى غطارف همدانِ

ومن الياس طابخة ، ومن طابخة هذه تميم وهى من أكبر القبائل . ومن بطون تميم بنو العنبر ، و بنو حنظلة ، ومن قبائل طابخة بنو ضبة الذين منهم ضبَّة الذى هجاه المتنبى وقتل بسبب هجوه إياه . ومن بنى تميم قبائل فى نجد منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذى ينتسب اليه أهل نجد ، فيقال لهم الوهابية . وهم يقولون لأنفسهم السلفية إشارة إلى أنهم على عقيدة السلف الصالح . ومنهم أناس فى الدرعيّة ومنهم كثير من سكان القصيم ، ومنهم فريق فى جوار حائل مثل أهل قفار والسميرة ، وقرى أخرى . ومن قبائل طابخة مزينة الذين منهم زهير بن أبى سلمى ولكنهم دخلوا فى حرب كما تقدم الكلام عليه . ومن هؤلاء الامام المزنى صاحب الامام الشافعى . ومن الياس بن مضر بنو قمعة ، ثم بنو مدركة ؛ ومن مدركة هذيل ومساكنهم جبال الطائف العليا ، وقد ذكرت ذلك في « الارتسامات اللطاف » وهم مجاورون لثقيف . ولمدركة خزيمة وله فرعان الهُون وأسد . ومن بطون أسد الكاهلية وهم بنو كاهل بن أسد . ومن خزيمة كنانة وهم قبيلة شهيرة ذات فروع منها ملكان ، وعبد مناة ، وغفار رهط أبى ذر الغفارى . و بكر بن عبد مناة ، ومن بكر الدُّؤَل الذين منهم أبو الأسود الدؤلى . والليث ، و بنى الحارث ، و بنو مدلج و بنو ضمرة . وجميعهم متفرقون فى بلاد العرب .

ومن كنانة عمرو ، وعامر ، ومالك . ومن مالك هؤلاء بنو فراس بن غنم الذين اشتهروا باعجاب سيدنا على بفروسيتهم : (لو أنّ لى بالفٍ منكم سبعةً من بنى فراس ابن غنم) ومن العرب العدنانية قريش ، وهم فهر بن مالك ، ومنهم بنو الحارث بن فهر ، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه وبنو محارب بن فهر ، ومنهم الضحاك بن قيس أحد الأصحاب . و بنو الجد الذين كانوا فى الأندلس ، ثم صاروا إلى فاس . ومنهم الأمراء والرؤساء والعلماء هم من بنى فهر . ومن قريش بنو غالب بن فهر ، ومنهم بنو لؤى بن غالب ، ومن هؤلاء بنو سعد و بنو خزيمة ، و بنو عامر بن لؤى ، و بنو كعب بن لؤى . ومن بنى كعب بن لؤى هُصَيص ، ومن هؤلاء بنو سهم رهط عمرو بن العاص رضى الله عنه . ومنهم بنو جمح

ومن كعب بن لؤى بن غالب بنو عدىّ ، ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد رضى الله عنهما .

ومن قريش مُرّة بن كعب ، ومن بنى مرة بن كعب تيم ، ومن هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق ، وطلحة رضى الله عنهما . ومن مرّة بن كعب بنو يقظة ، و بنو مخزوم . ومن بنى مخزوم سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومنهم سعيد بن المسيب التابعى المشهور .

ومن قريش كلاب بن مرّة ، ومنهم بنو زهرة ، ومن بنى زهرة الصحابيان سعد ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنّة رضى الله عنهما ومن قريش قصىّ بن كلاب بن مرّة ، ومنهم بنو عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة . ومن بنى عبد الدار بنو شيبة وهم الشيبيون الذين بأيديهم مفاتيح بيت الله إلى يومنا هذا . ومن قُصَىّ بن كلاب بن مرة بنو عبد العزّي . ومن هؤلاء بنو أسد الذين منهم سيدنا الزبير بن العوام أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه . ومنهم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

ومن قريش بنو عبد مناف ، وهم بنو عبد شمس بن عبد مناف ، ومن هؤلاء بنو أمية ، وهم بنو أمية الأكبر ، وأمية الأصغر ابنى عبد شمس ، ومن بنى أمية الأكبر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبى سفيان . ومن عبد مناف ابن قصى نوفل ، و بنو المطلب . ومن بنى المطلب الامام الشافعى رضى الله عنه . وأما هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو ، وسمى هاشما لهشمه الثريد أيام المجاعة ، وكان سيد قريش فى وقته . وله عبد المطلب بن هاشم ، وكان لعبد المطلب اثنا عشر ولداً عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد سيدنا على ، والزبير وعبد الكعبة ، والعباس ، والد عبد الله بن عباس ، وضرار ، وحمزة ، وحجل وأبو لهب ، وقُثم ، والغيداق ، والحارث ، والعقب منهم لستة ؛ حمزة ، والعباس وأبى لهب ، وأبى طالب ، والحارث ، وعبد الله . فأما عبد الله فمن ولده سيد الوجود محمد بن عبد الله عليه السلام ، وأما العباس فمن ولده الخلفاء العباسيون ، وأما أبو طالب

فكان له عدا أمير المؤمنين عليًّا كرم الله وجهه جعفر ، وعقيل . وذرية أمير المؤمنين من فاطمة منتشرة فى جميع العالم الاسلامى . و يقال لهم آل البيت ، وهم السنام الأعلى فى الشرف .

ومن خيبر إلى الحائط ، والحويِّط ، إلى الحرّة ، قبيلة هتَيْم . وليست من القبائل المعروفة بالأصالة فى العرب ، ولكنها كثيرة العدد تصادم شمّر ، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة ، و يقال إنها نحو من مائتى ألف نسمة .

جاء فى انسيكلو بيدية الإسلام أن هتيما مشهورون بالقنص ، وأن منهم قيوناً كثيرين ، وأن بينهم و بين الشرارات مصاهرات .

ومن القبائل التى لا يختلط بها سائر العرب الصُّلَيْب ؛ ولا يعرف أصلهم . وقد ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا الصليبيّين ، واستدلوا على ذلك بمشابهة الاسم والحقيقة مجهولة ولا يعادون أحدا ولا يعاديهم أحد ، وكلما وقعت واقعة بين العرب وفشت الجراحات جاء الصُليب هؤلاء وأخذوا الجرحى من الفريقين ، وعالجوهم ، فهم يتخذون لأنفسهم مهنة الصليب الأحمر فى أورو بة . ولذلك لا يعتدى عليهم أحد وأحياؤهم آمنة .

وكل من العرب كما تقدم آنفا مفتخر بنسبه ، مستمسك بأصله ، فاذا كان عدنانياً لم يرض أن يكون قحطانياً ، و إذا كان قحطانياً ساءه أن ينتسب إلى عدنان قال الشاعر :

وما قحطانُ لى بأبٍ وأمّ ولا تصطادنى شبه الضلال

وليس إليهم نسبي ولكنْ مَعَدّيًّا وجدتُ أبى وخالى

ومن أراد أن يطلع على سلاسل قبائل العرب وشجرات أنسابهم ؛ فعليه « بسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » للسيد محمد أمين السو يدى البغدادى ، فهو كتاب قد جمع فأوعى فى هذا الباب . على أن إفراط العرب فى التمسك بأنسابهم قد أوجد بينهم من العصبيّة بعضهم على بعض ما لا يوجد فى أمة سواهم ، حتى أن « دوزى » الهولندى المعدود من أوسع المستشرقين علماً ذكر فى كتابه عن مسلمى إسبانية أن

العداوة التى بين العدنانية والقحطانية قد تكون أشدّ من العداوة التى بين العرب والأعاجم . والحقيقة أن هذه العداوة نفسها هى التى كانت الأصل الأصيل فى فقدهم الأندلس ، بل فى نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم ، وكادوا يستولون على تلك القارة . وقد كانوا كلما تم لهم الظفر فى واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطانى ومُضرى ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واضطروا أن يعودوا من حيث أتوا . ولم ينحصر ضرر هذه العصبية فى الأندلس والمغرب ، بل قد أفنت القبائل العربية بعضها بعضا فى المشرق أيضا ، وصرفتهم عن التبسط فى الفتوحات فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلو هممهم ؛ فقد فقدوه فى منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم ، لا سيا بين هذين القبيلتين ؛ قيس واليمن . وكثيراً ما كانت تقتتل ربيعة ومضر وكلا الفريقين من العدنانية ، ونظراً لكون مضر أكثر عدداً كانت ربيعة تلجأ إلى اليمن حتى تقف فى وجه مضر . وكل عربى تنزع فيه العصبيّة إلى قومه ، فلا يسلم من ذلك أحد ، حتى الملوك والخلفاء كانوا يتعصبون للقبائل التى هم منها وهم مع ذلك سادة الجميع .

ومن الأمثال التى تدلك على غلوّهم فى هذا الباب أن جرير بن عطية الشاعر ـ وكان من تميم ـ قال فى إحدى مفاخراته للأخطل التغلبى :

إن الذى حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
مضرٌ أبى وأبو الملوك جميعهم فاعلم فليس أبوكمُ كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكمُ إلىّ قَطِينا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ضحك وقال : ما زاد ابن الفاعلة على أن جعلنى شرطيًّا عنده ! ! ثم قال وقد نبض به عرق العصبية لمضر : أما والله لو شاء لسقتهم إليه . ولم يكن ليفت فى عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الإسلامية التى جعلت الاسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة . ولذلك قيل : إن العرب لم يكونوا ليتحدوا فى يوم من الأيام إلا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوبا وقبائل يقتتلون فى جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، و بأسهم أبداً

بينهم . فلما جاء الاسلام ووحّد بينهم فى الدين ، وقال الله تعالى : (وكنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ؛ ففتحوا نصف العالم فى ثمانين سنة ، ولم يقف فى وجههم شىء ! ! ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ؛ ضعفت فيهم العقيدة التى كانت هى مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية فى الاسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الاسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيما ، وبَذْرُهم عرجوناً قديماً .

فكما أن الانساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والفتن التى تصدع وحدتهم وتخمد فى النهاية جمرتهم ، فأضرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون ، واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة فى الانقسام والانفراد ، وغرامها فى منافسة بعضها بعضا .

ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التى يتنافس بها ، و يتمكن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها أفلا ترى كيف ثار الألمان فى هذه السنين الأخيرة ، وأوجدوا قضية النسب « الآرى » ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط « السامى » مع « الآرى » بالمصاهرات حفظاً للنسب الذى ينتمون اليه ، والذى لا يرون لهم رقياً إلا به وضمن خصائصه . وما فعلوا ذلك إلاّ بناء على نظريات علمية ثابتة ، وهم و إن كانوا غلوا فى هذا الأمر إلى حد أوجب انتقاد سائر الأمم لهم ؛ فلا يمكن أن يقال إن قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح .

ونحن لو نظرنا إلى السبب فى حفظ النسب لا نجده منحصراً فى معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادية التى يحوزها أصحاب النسب فى العادة ؛ ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التى تهتف بالفضائل ، والأفعال المجيدة

وتزكى الأنفس . فمن المعلوم أن أصل البيوت الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه ، و يبذ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة فى نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، و إنما تظهر آثارها فى أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، و يشيع ذكره ، و يرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف و بعد ذلك إذا أعقب نسلا اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الامكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التى امتاز بها أبوهم ، و يحوزوا مثلما حازه من الشرف والسؤدد ، وتعب رهطهم فى تقوية هذه الروح فيهم طمعاً فى استبقاء هذه الغرائز التى أورثهم إياها سلفهم وهى التى تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد .

ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوتات الكريمة على عمل خسيس كان أول مايقرعه به الناس ، و يهيبون به إلى التوبة منه ؛ أن يقولوا له : أفلست أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك أن تفعل ما هو كذا وكذا ! ! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الأقوال التى تدل دلالة واضحة على أن الأصالة مفروض فيها أن تقترن بالنبالة ، و بعبارة أخرى أن الأصيل فى نسبه ينبغى أن يكون فاضلا فى عمله ، بارعا بأدبه . وما جاء على خلاف هذه القاعدة فيعد شاذاً .

فاذا تقرر عندنا هذا ؛ تقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل و إمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل فى المجتمع ترقت الامة وعرجت فى سلم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالبة ، لأن الأخلاق الفاضلة هى الأساس الذى يبنى عليه كيان الأمم .

وقد تقدم لنا أن الأوروبيين شديدو العناية بالأنساب ، خلافا لما يتوهم الشرقيون ، وأن الكفاءة فى الزواج طالما كانوا يراعونها ولا يزالون يراعونها حتى اليوم و إن كان قد خف ذلك التمسك القديم بعض الشىء ، وذلك بأن النبلاء لايزوجون بناتهم من الطبقات التى ليست فى درجتهم . وأشد الاوروبيين منعة فى هذا الأمر هم نبلاء الانجليز ، الذين يأتى الاميركى المثرى فيبذل القناطير المقنطرة من الذهب حتى ينال شرف مصاهرتهم ، ولا ينالها إلا لأياً ، وكل هذا لأجل أن « يستقطر

بأنبيق ديناره دمهم الشريف فى دن نسبه » كما قال أحمد فارس فى « كشف المخبا عن فنون أوروبا » . وما قاله أحمد فارس من ثمانين سنة فى هذا الموضوع لايزال تضداقه جاريا إلى الآن .

وكذلك نجد النبلاء فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما محافظين على أنسابهم ، مفتخرين بها ، مستظهرين على صحتها بالكتب والوثائق والشجرات التى يعتقدونها مع أنفس أعلاقهم وذخائرهم ، وكثيراً ما اجتمعنا بأناس من هؤلاء يرفعون أنسابهم إلى عهود بعيدة جداً ، ويذكرون أن أصول عائلاتهم معروفة من ألف سنة ، وألف ومائتي سنة ، ولم نجد أشراف العرب أشداعتناء بأنسابهم من نبلاء الافرنج ، وهم يزيدوننا فى شيء واحد ؛ وهى هذه الأشعرة « جمع شعار » التى تمتاز بها كل عائلة منهم وتحفظها من عهود متطاولة . ونحن العرب لا يوجد عندنا هذا الاصطلاح إلا ما ندر وأكثر ما يكون فى الاعلام والرايات . فالعباسيون رايتهم السواد ، والأمويون رايتهم بيضاء ، والفاطميون رمزهم اللون الاخضر ، وأمراء مكة رايتهم عنابية وما أشبه ذلك . فنحن نستظهر على حفظ أنسابنا بالتواريخ والوثائق والصكوك القديمة وكثيراً ما نثبتها بالمحاكم الشرعية ، فأما أن تتخذ كل عائلة من بيوتات العرب شعارا خاصاً تمتاز به كما هو الشأن عند الافرنج فليس بمعهود ، وإنما جرت العادات عند العرب بأن يتخذ عشائرهم أسماء خاصة يتنادون بها فى ميادين القتال ، فهؤلاء يقال لهم « إخوة بلجاء » وهؤلا يقال لهم « إخوة شيخة » وأولئك يقال لهم « رعاة العليا » أو « فرسان الصباح » وما أشبه ذلك من الألقاب والكنى . فأما نبلاء الافرنج فلا تكاد تكون منهم أسرة شهيرة بدون شعار تجد صورته على آنيتها ومواعينها وحلاَها وفى كتبها ، ويقال إن أصل هذا الاصطلاح عندهم هو من زمان الصليبيين .

وقد غلا نبلاء الافرنج فى التمسك بأنسابهم ، ورفعوها أحيانا إلى أبعد ما يكون من الأعصر ، حتى دفع ذلك العقل . وغلا أيضا علماء الانساب فى مراعاة قواعدهم ودخل بينهم المتزلفون الوضاعون الذين كانوا يتقربون إلى الأسر النبيلة بزيادة رفع الأنساب ــ أو بوضعها اختراعا ــ حتى وقعت الشبهة فى الصحيح منها ، واتُّهم النسّابون جميعهم بالكذب ، وفى أوروبا مثل سائر يقولون « هو أكذب من نسابة » .

وكان يوجد عند الملوك في أوربة وظيفة اسمها وظيفة « نسّاب الملك » وهو ضابط من ضباط رهبانية روح القدس ، ترجع إليه مهمة تثبيت الأنساب ، لا سيما أنساب الفرسان الذين يقال لهم « شيڤالير Chevalier » وذلك أن النبلاء كانت لهم حقوق لم تكن للعامة ، فكان النبيل يدخل فى نظام الفرسان عند الملك مثل نظام مالطة ، وليون ، وسانت كلود ، وغيرها . فكانوا يحتفظون بأنسابهم لتكون لهم وسيلة إلى الدخول فى هذه الأنظمة ، وكان للنساء النبيلات أيضاً رهبانيات يدخلن فيها ، ويلتزمن لأجل الدخول فيها تثبيت أنسابهن .

وإثبات النسب كان عبارة عن إظهار ورقة المعمودية التى تثبت أن فلاناً هو ابن أبيه فلان ، وأن هذا هو ابن فلان وهلم جرا . وكانوا يقدمون مع أوراق المعمودية الوصايا ، وعقود الزواج ، وصكوك الشراء والبيع والهبة ، وما أشبه ذلك من الوثائق وكانوا إذا حرروا نسب عائلة وضعوا جميع فروعها فى السجل ، وجعلوا بجانب كل فرع جميع ما يتعلق به من وصايا وعقود أنكحة ، وصكوك مهمة بتواريخها مع براءات الملوك المتعلقة بذلك الفرع .

وهذه البراءات هى التي يقال لها فى الدولة العثمانية « الفرامين » جمع « فرمان » ومعناه الأمر ، ويقابل الفرمان فى الدولة المغربية « الظهير » . وكانوا فى أوروبة يذكرون أيضاً فى سجلات الأنساب تواريخ الأشخاص المشهورين ، ومن قتل منهم فى الحروب ، ويقال إن هذا الاصطلاح بدأ فى فرنسا منذ سنة ١٦٠٠ وإنه من قبل ذلك التاريخ لم تكن للأنساب دائرة خاصة بل كانت الحكومة عند ماتريد التحقيق عن نسب من يُدلى اليها بطلب ترسل مأمورين إلى البلدة التى ينتسب اليها طالب الوظيفة فيسألون الشيوخ وأهل الخبرة ، ويرفعون خلاصة التحقيق إلى الحكومة .

ولما قدمتُ إلى ألمانيا في أيام الحرب الكبرى ، كان ممن تعرفت إليهم من العلماء مؤرخ جليل اسمه الدكتور « ستراد ونتز » وكان مديراً لمصلحة الأنساب فى البلاد الجرمانية ، وقد تذاكرت معه طويلا في مسألة الانساب ، وذكرت له أنساب العرب وسألته عن أنساب الالمان فعلمت منه أن أقدم أسرة معروفة فى المانيا ينتهى قدمها إلى

القرن التاسع بعد المسيح ، ولا يوجد أسرة معروفة يعرف لها نسب لأبعد من هذا التاريخ . قال : وإن الاسرة المالكة فى الساكس هى أقدم بيت فى ألمانيا ، ويوجد من لهم نسب إلى القرن الثاني عشر للمسيح .

وذكر لى أسراً عريقة من جملتها آل هونلوهيه وكنت عرفت منهم برنساً ضابطاً وشاهدته في الأستانة ، وتكلمنا على نسب آل هوهنزولون قياصرة المانيا ، وأن أصلهم من جهة بحيرة كونستانزا فى بلاد باڤاريا ، ومنذ نحو من ستمائة سنة قام جدهم بخدمات جليلة للوطن فأعطاه الامبراطور سيجسموند لقب شرف وجعله أميراً على براند نبورغ ، وهذا هو مبدأ سيادتهم . ومن هناك لم يزالوا يعظمون ويغاظ أمرهم ويتسع ملكهم حتى أوائل القرن الثامن — أى منذ مائتين وعشر سنوات — إذ ترقوا إلى درجة الملك ، وصاروا ملوك بروسية . وفى سنة ١٨٧٠ بعد الغلبة على فرنسة توج الملك غليوم الاول امبراطوراً على المانيا كلها كما هو معلوم . ومما ذكره لى هذا الاستاذ المؤرخ أنه يوجد فى جبال سويسرة أسرة رومانية ، أى من الرومانيين القدماء محفوظة النسب ، يقال لها « پلانتا » وكان ذلك متواتراً عندهم والناس تنكره ولا يجدون له سنداً حتى كشفوا بطريق الاتفاق كتابة لاتينية على حجر كان قد طمسه التراب فاذا به يؤيد تواتر نسب هذه الأسرة ، فهى الآن أقدم عائلة معروفة فى أوروبا . انتهى .

وعلم الأنساب مهم جداً للتاريخ ، مشتبك به اشتباكا تاما ، لأنه به يعرف تاريخ مشاهير الرجال الذين قاموا بأدوار عظيمة فى العالم ، فيتبين من هذا العلم أصلهم ، كما يتبين من التاريخ فصلهم . وكذلك تعرف من الانساب علاقات المصاهرة ، وما يحصل بسببها من التوارث ، وما ينشأ عن هذا التوارث من دعاوى وخصومات قد تجر الى الحروب . ولم تنحصر الأنساب فى العترة الآدمية ، بل للطبقة العالية من الحيوانات الداجنة أنساب معروفة ، ولحفظ أنسابها فائدة عظيمة فى تنشئة هذه الحيوانات وتنميتها ، فإن تأثير العرق غير مشكوك فيه ، وانتقال النجابة من بطن الى بطن هذا معدود من القواعد العلمية ، وإن كان قد تعرض أحيانا عوارض تمنع انتظام سير هذا التوارث .

ومن الغريب أن الانسان قد يهمل نفسه أحيانا ، ولا يحافظ على صحة بدنه ولا على متانةِ عقله ، ولا يكترث لقضية تسلسل النجابة فى عرقه ، ولا لصيانة المزايا التى انتقلت اليه بالإرث الطبيعى من آبائه ؛ وبينما هو يهمل نفسه هذا الاهمال ، تجده يعتنى بحفظ نسل حيواناته حتى لا يكون الفرع مقصراً عن الأصل . ولهذا كانت أنساب الحيوانات معتنى بها فى كل مكان ، وكان ذلك بها جدير ، وإن كثيراً من الكتب قد كتب لحفظ أنساب العجاوات . قال لاروس فى معجمه الكبير : « إن العرب سبقوا جميع الأمم فى حفظ أنساب حيواناتها ، وإذا كان الجواد العربي قد بقى محفوظا بجميع مزاياه الباهرة ، فما كان ذلك إلاّ بطهارة أصله وصفاء عرقه منذ قرون لا تحصى ، وهذا بفضل العرب الذين وجّهوا لصفاء عرق الجواد أشد الاهتمام ، وإن جميع حيوانات العرب الفارهة لها أنساب يعتنى العرب بحفظها بمزيد الدقة . قال : وليس عند العرب دفتر نفوس عمومى للخيول ، ولكن كل فرس كريم معه حجة يتبين منها نسبه ، فلا تختلط عندهم الخيل الأصيلة بغيرها . أما الانجليز فقد نظموا ذلك وجعلوا للخيل دفاتر نفوس رسمية ، منها مايسمونه « Stud - Book » يذكرون به أصل الحصان وسلسلة نسبه ، ومنها المسمى « Cing Calender » يذكرون فيها أوصاف الحصان وشياته . وما عملوه لأجل الخيل وحفظ أرسانها ؛ عملوه أيضا لأجل البقر ، ولأجل الغنم . ولكن الفرق بين البقر والغنم أن النسب فى البقر يكون للثور بمفرده ، وأما فى الغنم فلا يكون للشاة بل للقطيع كله . ويرى العلماء فى تربية الحيوانات أنه لأجل إصلاح جنسها يكون ضروريا الوقوف على أنسابها » انتهى .

والانساب معروفة للهررة أيضا ، فهى كالخيل الأصيلة ، كلما كان الجواد عتيق الأصل كان أحسن جريا ، وكذلك كلما كان الهرّ أصيلا كان أحسن صيداً للفيران . وبالاجمال إصلاح الأجناس بالتزاوج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان فى الآدميين أو كان فى الحيوانات الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعتقها . ولايزال الحديث الشريف : (اطلبوا اكرام المناكح فانها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلميّة ، والحقائق العالميّة .

الخلافة واشتراط القرشية فيها

تعليق على ما جاء بسطر ١٠ صفحة ٣ جزء أول من ابن خلدون

لست هنا فى صدد وجوب الخلافة فى الاسلام ، وهو البحث الذى وفاه علماء هذه الملة حقه ، ولم يتركوا فى قوسه منزعاً ، وقد قال فى هـذا المقام ابن خلدون والماوردى وغيرهما كل مايجب أن يقال ، و إنما أقول: إنه اتفق المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - على وجوب نصب الامام لحراسة الدين والدنيا ، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية - لكن بدون العصمة التى يقول بها الكاثوليكيون فى البابا - و بين السلطة الدنيوية وهى ما يسميه النصارى بالسلطة الزمنية - لكن بدون الامتيازات التى تسجلها القوانين الأوروبية للملوك - ولا نبالى بما يتشدق به بعض الطاعنين فى الاسلام من أنه جمع بين السلطتين فكان فى ذلك عائق للمجتمع عن الترقى ، فهو قول عريق فى التحامل ، مخالف لسنة الله فى خلقه . إذ أن الدين متصل بالدنيا فى كل مجتمع بشرى ، والدنيا ممتزجة بالدين بدون انفكاك ، ولا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر .

وقد وفّينا هذا الموضوع حقه فى « حاضر العالم الاسلامى » بما لاحاجة إلى إعادته هنا ، وأثبتنا ما فى جملة « فصل الدين عن السياسة » من السفسطة التى لاتستند على شىء من الواقع . لأن جميع الحكومات الأوربية التى جعلها الشرقيون هى المُثُل العليا فى العالم ، ولم يبق لهم عمل إلا أن يحطبوا فى حبالها ، و ينسجوا على منوالها ؛ لم تقدر أن تفصل الدين عن السياسة فصلاً حقيقياً . وغاية ما هناك أنها فصلتهما فصلاً إدارياً لاغير ، بحيث أن للأمور الدينية مراجع مخصوصة ، وللأمور الدنيوية مراجع مخصوصة . وهذا ما هو أيضاً فى الحكومات الاسلامية . وقد كان فى الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد . فالصدر الأعظم كان ينظر فى الامور السياسية والادارية خاصة وشيخ الاسلام كان ينظر فى الأمور الشرعية والدينية خاصة ، وكل من المرجعين كان يعود إلى السلطان .

و إذا نظرنا الى أوضاع الدول الأور بية ، نجد أن ملك انكلترة مثلا هو في المركز نفسه ، فكما أنه ملك الأمة الانكليزية ومرجعها فى الحكومة ؛ فهو رئيس الكنيسة الانكليكانية ، وبالتالى فمرجع الانكليز فى العقيدة . ومثل ذلك قيصر ألمانيا الذى كان رئيساً للكنيسة اللوثيرية ، فكانت له السلطة الروحية العليا لاتفترق فى شيء عن سلطة الخليفة فى الاسلام ، وهى مجموعة فيه الى السلطة الدنيوية التى تجعل فى يده زمام الأمة الألمانية فى الأمور الدنيوية . ولما آل أمر الالمان الى الجمهورية – وهى مؤقتة – قام مقام القيصر فى الأمرين رئيس الجمهورية الالمانية ، وقد زعم بعضهم أن من الدول من فصل الدين عن السياسة بالمرة كفرانسة مثلا ، والحقيقة أن فرانسة اتفقت مع الطبقة الاكليريكية على وضع نظام خاص يكفل راحة الفريقين ، ولكن الحكومة لا تزال هى مرجع رجال الدين عند حدوث المشكلات لما تقدم من أن الدين والدنيا فى المجتمع لا يستغنى كل منهما عن الآخر . وليس فى عصرنا هذا حكومات لا دينية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة سوى ثلاث حكومات ، إحداها الروسية البلشفية والثانية الجمهورية المكسيكية ، والثالثة الجمهورية التركية الكمالية . وما دامت الأمة الافرنسية تعلن عن نفسها أنها أمة مسيحية – يتجلى ذلك فى جميع حركاتها وسكناتها – فيكون مخالفاً للمحسوس الزعم بان حكومتها فى واد والكنيسة فى واد ! ! إذاً فالاسلام لم يأت فى هذا المعنى بوضع مبتدع ، بل هى سنة الله فى أرضه . وما دامت الأمم لا تستغنى عن الأديان ؛ فلوكها وحكوماتها لا تستغنى عن الجمع بين الدين والسياسة .

غير أن الاسلام فى أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه و إن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهى – على شرط مشاورة أهل الحل والعقد – فهى لا تشبه الملك فى مزايا الترف وخصائص الابهة التى يجيزها ملوك الأمم الأخرى . وقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا المقام فى « حاضر العالم الاسلامى » فقلنا فى صفحة ٢٤٠ من الجزء الاول : (الخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، و إنما هى رعاية عامة للأمة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة ، والسلطان الذى

يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم ، وعرف الخلافة التعريف الصحيح ، بخلاف كثير من الاور بيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة إنما هو من الأوضاع الغربية الاوربية ، قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجرأهم على الخلط .

ومن أغرب الأمور أن كثيراً من الشرقيين - ومن المسلمين أنفسهم - يتابعون الافرنج متابعة عمياء فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الاربعة - وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع - لرأوه أمراً شعبياً محضاً ، ووضعاً ديمقراطياً بحتاً ، وأبعد شيء عن السلطان المطلق والقرآن فى هذا صريح بقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) وقوله : (وأمرهم شورى بينهم) . نعم إن الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم إلى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات اليوم ، ولم يكن العرب لذلك العهد - بسذاجة البداوة - يعرفون هذا الضرب من الترتيب ، ولكنه لا جدال فى أن الخليفة لم يكن شخصاً مقدساً غير مسؤول كما هو عند الأوربيين ، ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة ، وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة ، بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعتها ، فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين ، فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام .

ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فى ما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الأمر ، جاء فى « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال . حدثنى قيس بن الربيع عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أن عمر قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن الحارث عن أبيه عن سفيان بن أبى العرجاء قال قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى ! ؟ أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت

ملكا فهذا أمر عظيم . قال قائل : يا أمير المؤمنين ؛ إن بينهما فرقاً . قال ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق ، فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا و يعطى هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا و إنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى ، وعصمه به ألا و إنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعونى فاذا رأيتمونى استقمت فاتبعوني و إن رأيتمونى زغت فقومونى ») اه . إلى آخر ما ذكرنا فى « حاضر العالم الاسلامى »

ومنه يظهر أن الخليفة ليس معصوماً عند أهل السنة ، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له أن يستبد بالأمر . ولعل قائلا يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضا مقيدون بالدساتير التى وضعتها الأمم التى يلون أمورها وليس لهم أن يستبدوا فى شىء ! وهذا لاجدال فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم و بين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين فى أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء فى الاسلام هم مسؤولون كسائر الرعية . و يبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقشف فى معيشتهم ما لم يكن أحد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضرورى والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوافرة و يعيشون فى ترف عظيم لا ينازع فيه أحد .

وكذلك الملوك فى هذا العصر ينتقل الملك منهم الى أولادهم فأحفادهم ، والخلفاء الراشدون كانوا يعهدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم . فروح الاسلام الحقيقى هى مراعاة الكفاية والأهلية دون أى اعتبار آخر . ولهذا لم أكن ممن يذهب الى اشتراط القرشية فى الخلافة ولو كان هو مذهب الجمهور ، فان حصر الامامة فى أسرة أو عائلة ، أو عشيرة ، لا ينطبق على هَدْىِ الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعهد بالأمر لولده ، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك . فلا أبو بكر فكر فى العهد

لمحمد بن أبى بكر ، ولا عمر فكر فى العهد لعبد الله بن عمر ، ولولا خروج معاوية على على لكان على أيضاً اقتدى بهما فى اختيار من هو الأصلح لأمر الأمة . ولو كان حصر الامامة فى قريش محتما ما كان عمر يقول : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به ؛ سالم مولى أبى حذيفة ، وأبى عبيدة بن الجراح . وقد كان سالم مولى أبى حذيفة من الأعاجم كما لا يخفى ! . وقد رُد على هذا الدليل بأن عمر صحابى ، وأن مذهب الصحابى ليس بحجة . ولكن يرد على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوما فهو الذى رُوى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حقه « لو كان نبى بعدى لكان عمر » . فهو صحابى ولكن ليس كغيره من الصحابة ولقد منع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذى يخفى عليه حكم الشرع فى مسألة هى أجل المسائل ، ولم يكن أيضاً سعد بن عبادة ورهطه من الأنصار بالذين يمارون قريشا فى أمر الامامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدى قريشاً . وأين تذهب مع قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة » . فهل هذا ينتظم مع حصر الخلافة فى قريش ؟

إن الذين يقولون بحصر الخلافة فى قريش إنما يستندون على الحديث الشريف « الأئمة فى قريش » . ولكن هذا جاء فى زمن كانت الرئاسة فيه لقريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب فى صدر الاسلام تطيعها مالا تطيع سواها. ولا ينبغى من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرمداً فى قريش مهما تقلبت الأحوال ، وتبدلت الأطوار ، ومادامت تطلع الشمس ، وما بلَّ بحرٌ صوفة . وما بالهم لا يذكرون أنه جاء فى رواية هذا الحديث . « الأئمة فى قريش ما أقاموا الدين » . وجاء هذا الحديث فى بعض المسانيد التى يعول عليها مثل صحيح مسلم . فان كان حصر هذا الأمر فى قريش معلقاً بهذا الشرط ؛ فيكون قد انحل الاشكال . وليس من ينازع فى رئاسة قريش فى كونها الأولى بالامامة من غيرها من عرب وعجم ، وإنما النزاع واقع فى أنه إذا وجد من الخارجين عن قريش من هم أقوى على حمل الخلافة

منها ، وأشد عصبية فى وقتهم ، وأقدر على حفظ حوزة الاسلام فى وجه الأجانب فهل يجب حصر الخلافة الاسلامية فى القرشى مع ضعفه و إقصاء غير القرشى عنها مع كفايته ورجحانه ؟ هذا هو المعترك الذى كان ينبغى أن يجرأ العلماء أن يفصلوا فيه فصلا يتلاءم مع روح الاسلام المبنى على قاعدة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فليس فى الاسلام طبقات كما هى عند البراهمة ؛ الدين فى هذه الطبقة ، والحكم فى تلك الطبقة ، والصناعة في هاتيك الطبقة ، الخ وليس الاسلام فى شيء من مشابهة اليهودية فى أن الملك هو فى السبط الفلانى ، وأن الكهنوت هو فى السبط الفلانى الخ . فكل هذه الأوضاع لا يعرفها الاسلام ، ولا يعرف إلا عمل الانسان نفسه . وكما قال عمر رضى الله عنه : « لو جاءت الاعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، وليعمل لما عند الله ، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه » أفتكون الشريعة التى يقول فيها عمر مثل هذا القول هى الشريعة التى تجعل الامامة إرثاً خاصاً بعشيرة خاصة إلى أبد الدهر ، مهما كان فى الخارج عنها من كفاية تزيد على كفايتها ، وقدرة على حفظ بيضة الاسلام ترجح على قدرتها ؟ ! لا جرم أن هذا غير معقول . ولذلك لا نعجب من أن يكون مثل القاضى أبى بكر الباقلانى وغيره من العلماء قد أسقطوا شرط القرشية فى الخلافة بعد أن رأوا ما رأوا من ضعف قريش ورجحان غيرها عليها .

ولو أن الذين اشترطوا القرشية فى الخلافة استدركوا الأمر بقولهم: إنه إذا تساوى القرشى وغير القرشى فى الاشتمال على شروط الخلافة فالقرشى بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة ؛ أولى من غير القرشى لهان الخطب . ولكن مقتضى كلامهم أن القرشى بسلطان ذلك الحديث المتعلق بقريش فى عهد كانت فيه هى الأول — مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية — فإنه أولى من غير القرشى مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الاسلام ، ومهما بلغ من الضلاعة والكفاية . فهذا الذى نراه مخالفاً لروح الشرع ، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة .

لقد كان لقريش التقدم على جميع العرب ، وعلى جميع المسلمين ، فكان ذلك الحديث

لو صح على ما رووه وارتفعت فيه كل شبهة ؛ مطابقاً لحالة قريش فى أيام تقدمها فأما من بعد أن غلبت الأعاجم ، وقام فيها من رجح ميزانه على قريش فى القوة والمنعة رجحاناً محسوساً لا يمترى فيه عاقل ؛ فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح . ولعمرى أن ابن خلدون رحمه الله قد جمع فأوعى عند ما قال فى مقدمته : إذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة ؛ علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه اليها ، وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهى وجود العصبية . فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها فى عصرها ليستتبعوا من سواهم ، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ، ولا يعلم ذلك فى الأقطار والآفاق كما كان فى القرشية . إذ الدعوة الاسلامية التى كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية ، فغلبوا سائر الأمم ، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة .

وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى . اه

فلعمرى ليس بعد هذا القول مجال لقائل ، فانه القول الذى لا يحسن بعده المراء وإن هذا الدين هو دين العقل لم يقم بالأسرار غير المفهومة ، ولم يمتحن اتباعه بما تعيي به العقول ، ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح . وهو كما قال ابن خلدون : لا نجد فيه الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى . ولا يمكن أن يتقدم فيه المرجوح على الراجح ،وكل معترك هذه المسألة هى القدرة على حماية الاسلام ، وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذى يريده الله ورسوله قياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التى هى ومبادىء العقل توأمان متلازمان .

مذهب النشوء والارتقاء

تعليق على ماجاء بسطر ٢١ صفحة ٤ من الجزء الأول من ابن خلدون

قول ابن خلدون إن النسابين كلهم اتفقوا على أن الأب الأول للخليقة هو آدم عليه السلام كما وقع فى التنزيل الخ . هذا ما كان عليه الناس فى القرون الوسطى التى عاش ابن خلدون فى آخرها ، وما لايزال عليه المتمسكون بالأديان فى عصرنا الحاضر ولكن علماء هذا العصر فى العلوم الكونية ، وإذا قلنا علماء هذا العصر فى العلوم الكونية فانما نعنى بهم علماء أوربة ـ قد عدلوا عن نظرية ابتداء العائلة البشرية بآدم وحواء ، وعما يقوله اليهود والنصارى من أن عمر البشرية خمسة آلاف أوسبعة آلاف سنة ، ورجحوا ـ ولكن بدون جزم ـ أنه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو من مائة ألف سنة ! ! وذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقدروا لوجودها مائتين وثلاثين إلى مائتين وأربعين ألف سنة ! ! وقد وقعوا لأجل ذلك فى مشكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراة ؛ فمنهم من حل هذا المشكل برفض التوراة بتاتاً وهؤلاء هم الفئة التى لاتقول بالأديان ، والفئة المسماة بالالهيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات ، ومنهم من بقى متمسكا بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراة دخلها تحريف كثير ، وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهذه الفئة تشابه أقوالها أقوال علماء الاسلام الذين يقولون إن التوراة كتاب منزل لاشك فيه ، ولكن اليهود قد حرفوها ـ بل بدلوها ـ إلى أن صاروا يقولون من جملة الأمثال : « توراة مبدّلة » وبالاختصار لايوثق بالنسخ الموجودة منها بين أيدينا . وكذلك يضعفون كثيراً من الروايات الواردة عن السلف الصالح بحجة أنها منقولة عن أحبار اليهود ، ويسمون هذا الضرب من الروايات الكونية والقصص (بالاسرائيليات) ويقولون إنها أدخلت فى الاسلام وليست منه . فما يقوله المسلمون عن التوراة المبدلة وعن الاسرائيليات هو بعينه الذى يقوله العلماء العصريون فى

أوربة الذين لايقدرون أن يطبقوا بين ماجاء فى التوراة عن بدء الخليقة؛ وبين ما يقرره العلم الحديث، وهم مع ذلك لا يريدون أن يفارقوا العقيدة النصرانية التى فارقتها الفئة المعطلة، والفئة الاخرى التى يقال عنها الالهيون.

وهناك الفئة الثالثة التى لاتقبل التأويل والتخريج فى التوراة، ولا ترضى بأن يقال إن فيها من أوضاع اليهود ـ وبالتالى فليس من التنزيل ـ كما أنها لاترضى بأن يقال إن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وإدخال الشك على العقائد. فهذه الفئة الثالثة هى الفئة المتدينة الباقية إلى اليوم على العقائد التى كانت عليها النصرانية فى القرون الوسطى وهى التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية، أو الأرثوذكسية، أو البروتستانتية التى يقال عنها الانجيلية، ومن هذه الفئة السواد الأعظم فى الحقيقة من الأوربيين والامريكيين. وهم يقولون بأن البشر تناسلوا من آدم وحواء وفقاً لما فى التوراة، ويردّون مذهب النشوء والارتقاء الذى يرده أيضاً أناس كثيرون من الفئة المعطلة، ومن الالهيين، لا من جراء مخالفته للدين؛ بل من ضعف الأدلة اللازمة للقطع به، وانخرام كثير من الحلقات التى يفترض وجودها بين الحيوان والانسان، أو بين الانسان فى أصل تكوينه والانسان الحالى. وفقد هذه الحلقات وعدم وجود أثر لها فى الآثار الحفرية هذا لايساعد على الجزم عندهم بمذهب النشوء والارتقاء الذى غلب عليه اسم المذهب الداروينىّ نسبة إلى « دارون » وهو عالم طبيعى من علماء الانكليز مات فى أواخر القرن التاسع عشر للمسيح.

ولما كان تاريخ ابن خلدون مما يصلح لكل الأعصر بالنظر إلى ما فيه من قواعد أبدية، ونظريات فى الخليقة والخلق لاتخلق ديباجتها، ولا تنقضى حقائقها، ولكنه كتب منذ خمسة قرون طرأت فى أثنائها على المجتمع الانسانى أفكار جديدة، ومبادىء ناقضة لما سبقها، ونظريات لم تكن معروفة فى أيام ابن خلدون، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الاسلام، والنصرانية، واليهودية.

وكان لا بد للناشئة الجديدة من الأمة الاسلامية من أن يطالعوا ما جد من هذه

النظريات المحدثة ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ، فلم نشأ أن نمر بهذا الموضوع بدون أن نشير ـ ولو بجملة مختصرة ـ إلى ما عليه العلماء الأور بيون ، حاشا أتباع الكنيسة من جهة أصل وجود الانسان على وجه الأرض .

وقبل أن نشرع في ذلك نقول : إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه في الكتاب ، فأما المدة التي ضربها أصحاب التوراة لوجود الانسان فليس في القرآن الكريم شيء يدل عليها ، بل هناك هذه الآية الكريمة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) .

ثم نقول : إن الذين جزموا بقدم عهد الانسان بناء على ما كشفوه في باطن الأرض ، وما نقبوا عنه في الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضاً واتفاقا في قيعان البحيرات ؛ لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الاكمال ، وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرية الاجمالية التي معناها كون الانسان وجد؛ لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ؛ بل من أضعاف هذا العدد من السنين . وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مصقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون في أول الأمر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون في السحاب ! ! .

ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائتي سنة تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة في أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت المياه ، ومنها ما يسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التي صنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور الدهارير ؛ فحكموا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألوف من السنين .

وقد قسموا المدة التي قضاها الانسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفاً عند أعقابه إلى جملة أدوار ، أقربها إلى الدور الحالي ـ بزعمهم ـ هو الدور المسمى بالرباعي ، ويقال له الجليدي . وهو الذي فيه كان الثلج دائماً في أماكن أصبح الثلج فيها اليوم نادراً . وكانت البلاد السكاندينافية وهولاندة وجزر انكلترا وألمانيا والروسية

مغطاة بالثلوج . وكان في أوربة فى الاصقاع التى ينحسر عنها الثلج حيوانات لاتوجد اليوم عثروا على عظامها ، واستدلوا منها على التفاوت العظيم الذى وقع فى درجات البرودة والحرارة ، مما قضى بهلاك قسم من أنواع هذه الحيوانات ، والتجاء القسم الآخر إلى أصقاع أخرى من الكرة الأرضية . ومن أشهر هذه الحيوانات الحيوان الذى يقال له « الماموث Mammouth » و« الكركدن » اللذان بعد أن انحسرت الثلوج الدائمة عن القارة الأوربية رحلا إلى الشمال . وكذلك الحيوان المسمى « بالرنة Renne » الذي لا يزال فى القطب الشمالى مع أن له بقايا مستحجرة فى أواسط أوربة . وقد علت على هذه البقايا طبقات متكونة بكرور الأيام ، ومعادن لا يمكن أن تتكون إلا بعشرات ألوف من السنين . كما أنهم عثروا على عظام بشرية أيضاً تراكمت من فوقها تلك الطبقات ، و بقيت بشريتها ظاهرة .

ولم يقع الاستدلال على وجود الانسان فى تلك الأعصر بالرمم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثر . فالإنسان وجد فى أواسط أوربة ـ مثلا ـ معاصراً للماموث وللرنة . وقد عثر العلماء فى القرن الماضى على عدة رمم بشرية ، منها ماوجد فى مغاور ووجدت بجانبه عظام حيوانات ـ كالكركدن مثلا ـ مما لم يبق له أثر الآن فى هذه المناطق . و بعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين ، اصطلح الأوربيون على قسمة الأدوار التى يعرفونها عن الانسان إلى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هى عبارة عن المدة التى مضت فى بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هي عليه أوربة اليوم . ويقدرون هذه المدة بألف قرن — أى مائة ألف سنة — فقد ذكروا الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرباعى أو الجليدى . وقالوا : إن حيوانات كثيرة لم تطق التغيرات التى وقعت في أثنائه فانقرضت . وهنا اختلفوا في إمكان ظهور الانسان فى الدور الثلاثى وتحمله ما لم تتحمله تلك الحيوانات الكبيرة وفى عدم إمكان ذلك .

فبعضهم ذهب الى أن الانسان وجد فى الدور الثلاثى بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شيء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الانسان فى الدور الثلاثي إلى أن الأدوات المذكورة هى أحدث عهداً من ذلك الدور . فالمفروض ـ مع الترجيح التام ـ أن الانسان وجد فى الدور الرباعى .

وأعظم دليل من الآثار الحفرية على ذلك أنه وجد بقرب « هيدلبرغ » فى بلاد بادن من المانيا على عمق أربعة وعشرين متراً فك أسفل إنسانى ، ووجد فى المحل نفسه بقايا كركدن وفرس من أفراس البحر مما كان يعيش فى الدور الثلاثى وهذا الفك وجد ضخماً عظيما عريضاً جداً قليل الارتفاع ، ولم يوجد له ذقن ، ووجد فيه تشابه كثير مع فكوك القردة التى تشبه الانسان من النوع الذى يقال له «انترو بو يد» « Anthropoides » بَيْد أن الأسنان هى أسنان بشرية بالتمام والكمال .

وعثروا فى انكلترة بقرب « بيلتدون Piltdown » على جمجمة بشرية ولكنها منحطة عن الجماجم الحاضرة ، فاما من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت فى جبل طارق ، وأخرى فى «سبى Spy» من بلجيكا . وأخرى في فرنسة ، ووجدوا من هذا النوع نفسه فى افريقية الجنوبية فى روديزيا . فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية فى الدور الرباعى المذكور ، اصطلح العلماء على تسميتها بطبقة « نياندرتال Neanderthal » وذلك لأن أول مثال منها وجد فى واد اسمه وادى «نياندر تال» فى المانيا . وقد وجد مع رمم هذا الدور أدوات مصنوعة بالأيدى لا تدع شكا بأن أصحاب هذه الرمم كانوا بشراً ، ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقاً ، والوجه عريضاً ، والفكان نائتين إلى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضاً مع ضيق فى مركزه ، والذقن منقبضاً ، وغير ذلك من الملامح التى تثبت أن طبقة « نياندرتال » هى من الطبقات البشرية ، لكنها أدنى من البشر الموجودين الآن . وهى من جهة الجمجمة والوجه تتشابه مع نوع القردة المسمى «بالأنترو بوئيد»

أي أقرب القردة للانسان . وبالاختصار آدمىُّ نياندرتال مكانه هو بين القرد والانسان الأخير . وقد امتاز الآدمى فى هذا الدور الذى نحن بصدده بقوة العضلات ووجد العلماء القائلون بهذه النظرية أن السلسلة الفقارية ، وأن عظام الأعضاء والأطراف والجمجمة ؛ فيها تشابه كثير مع ما يقابلها فى القردة . وقد رجّحوا بحسب مادققوا فيه من الهيكل العظمى الذى كان عليه إنسان « نياندرتال » أنه كان يمشى منحنياً نحو أفخاذه ، ولم يكن يتنصّب قائماً سوياً . ولما وصل علماء النشوء والارتقاء إلى هذه النقطة اختلفوا فيما يعولون عليه من جهة الانسان الأول ؛ فقالوا : إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنترو بوئيد « Anthropoïde » ولكن ثبت أيضاً أن هذا النوع من الانسان وجد فى أواسط الدور الرباعى ، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه أقدم نوع في البشر ؛ لأنه قد ثبت وجود آثار الانسان فى أوائل الدور الرباعى . فصار العلماء يتساءلون كيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين ؟ فذهب هيكل « Haeckel » الألمانى من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الانسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذى يقال له « أورانج أوتان » .

وقال أضداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لايزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الانسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسمّوا هذا النوع بيتيكانتروب « Pithécanthrope » فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمى نياندرتال وبين الآدمى المسمى بيتيكانتروب وبين هذا وبين القرد المسمى أورانج أوتان ؛ فليس يستلزم ذلك حتما أن يكون الانسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل انسان نياندرتال انقرض فى أواسط الدور الرباعى ولم يترك بقايا .

وقالوا إن الآثار البشرية التى عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مداراً للحكم وخالفهم الذين قالوا إن بين إنسان نياندرتال والانسان الحالى وجوه شَبَه كثيرة وأنه لايمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال والتبدل منه إنساناً من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذى سمّوه بالانسان العاقل ، وبالافرنجية «Home Sapiens»

فاذا ثبتت نظرية الانسان العاقل هذا فيكون قد انقطع ما بين الانسان الحالى و بين الانسان الأصلى الذى عاش فى النصف الأول من الدور الرباعى ، والذى يشابه القرد كثيراً .

هذا و بعد سلالة نياندرتال وجدت فى أوروبة سلالة أخرى يقال لها سلالة جريمالد « Grimalde » وقد عثروا على بقايا هـذه السلالة فى إيطاليا بقرب منتون « Menton » وهذه البقايا عبارة عن هيكلين عظميَّيْن ؛ أحدهما هيكل امرأة والثانى هيكل غلام مراهق مدفونين معاً . ووجدت قامة هذا النوع عالية أى أنها تبلغ متوسط القامات الحاضرة ، ووجد الوجه أقل ضخامة ، والجبين أعرض وتباعد هذا النوع كثيراً عن المنظر الحيوانى الذى كان يظهر على الانسان المنسوب إلى الطبقات السابقة الذكر ، ولـكن نوع جريمالد هـذا هو نوع سودانى بارز للعيان ، ومن العلماء من ذهب إلى أن أصل هذه السلالة هو من افريقية ، وأنه موجود منها الآن فى جنوبى أفريقية ، وذلك عنـد قوم يقال لهم بوشيمان « Boschimans » وخالف بعضهم هذا الرأى وقالوا إن الانسان فى تلك الادوار المتوغلة فى القدم لم يكن ليقدر على الانتقال من أفريقية إلى أوروبة ، ولا كان يعرف ركوب البحر . وأن البوشيمان هؤلاء لا يتشابهون مع سلالة جريمالد ، وإنما هم نوع من الزنوج قائم بذاته ، ولم يوجد إلى الآن بقايا لسلالة جريمالد فى أوروبة سوى هذين الهيكلين اللذين عثروا عليهما فى إيطاليا بقرب منتون .

ثم بعد سلالة جريمالد افترضوا وجود سلالةاسمها كرومانيون «Cro - Magnon» وهذه السلالة عليها مسحة الجمال ؛ فالقامة أعلى من قامات السلائل الأولى ، لأن سلالة نياندرتال كانت القامة فيها متراً وخمسة وخمسين ، أما هذه فمتر وخمسة وثمانون وهذه ظاهرة عليها قوة العضلات ، والجمجمة فيها ضخمة مستطيلة من الأمام إلى الوراء كما هى فى السلائل السابقة ، وهى مسطحة تسطحا عموديا لـكن أقل من تسطح سلالة نياندرتال ، و بينما الجمجمة مسطحة فاذا الوجه قصير وهو عريض من جهة العوارض ، وضيق من جهة الحنكين وأن الحنكين لا يكادان يظهران مع أن الذقن بارز جداً .

فني هذه السلالة تَضَادٌ كثير ، أي بينما الجمجمة مستطيلة ، والوجه قصير ، و بينما أعلى الوجه عريض ، إذ أسفله ضيق ، وهذه السلالة وجدوا منها بقايا كثيرة.

وذكروا بعد هذه سلالة منسوبة إلى « شانسلاد Chancelade » المكان الذى وجدوا فيه بقاياها ، وقالوا إنها شبيهة فى أكثر الملامح بالانسان الحالى ، وأن إبهام الرجل بعيد عن سائر أصابع الرجل . وهذا شيء يوجد فى القرود كما يوجد فى البشر الحاضرين . و بعدهذه الطبقة قرروا وجود طبقة أوائلها عاشوا فى أواخر الدورالرباعى وقالوا : إن قاماتها صغيرة ، وجماجمها قصيرة مستديرة ، وطبقة أخرى قاماتها أعلى من القامات المتوسطة ، وهى ذات جماجم مستطيلة . وقد اختلطت هذه السلائل بعضها ببعض ، وما زال الانسان يتكمل إلى أن صار كما هو الآن ، وما زال يزداد بسطة فى العلم والجسم ، وقد بدأ بأن يصنع بيده فى الدور الرباعى وهو مايسمى «بالدورالحجرى» فقد وجدوا حجارةمقطوعة من أيام هذا الدور ، ثم بكرور الزمان صار الانسان ينحت الحجر المقطوع ، وقد قسم العلماء هذه الأدوار التى بدأ الانسان فيها يصنع بيده إلى أقسام ؛ منها الدور الشيليي « Chelleen » وهو معاصر للدور الرباعى الذى عاش فيه فرس البحر والكركدن ، والدور الأشوليّ « Acheuleen » وهو المعاصرلعصر الماموث ، والدور الموستيرى « Moustirien » وهو معاصر لهذين الدورين ، والدور الأورنياسى « Aurignacien » · والدور السوليترى « Solutreen » والدور الماجدالينى « Magdalenien » وهذان عاصرا الحيوان المسمى بالرنّة ، والدور الآزيلى « Aziliénne » وكل هذه الأسماء مأخوذة من أسماء الأماكن التى وجدت فيها بقايا صناعية من الدور الحجرى فى أوربة .

ومما لا يجوز أن ننساه كون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرمم التى وجدت فى أوربة ، والعلماء الأوربيون لا يعرفون شيئا تقريباً عما وجد من رمم الانسان الأول فى سائر القارات ، ولكنهم يحكمون بأن النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعاً كما حصل فى أوربة على وتيرة واحدة .

فهذه خلاصة ماعند الأوربيين الذين لايتقيدون بالكتب الدينيةمن النظريات

عن أصل الانسان ، ننقله لقراء هذا الكتاب حتى لا يفوتهم شيء مما يجب معرفته على أهل هذا الزمن ، ومن قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به .

ولا يزال فى أوربة عدد كبير من العلماء يردون بشدة نظرية داروين ، وليسوا هم فقط من أنصار الأديان ؛ بل يوجد من العلماء الطبيعيين من يقيم الأدلة على فساد هذا المزعم . ومنهم من ذهب مذهبا متوسطاً ، فوافق على بعض قضايا المذهب الداروينى ، وردّ بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية . وعندى كتاب عنوانه « المذهب الداروينى وما فيه من صواب وخطأ » وممن اشتهر فى الردّ على مذهب داروين الانجليزى ، ولامارك الافرنسى فى النشوء والارتقاء ؛ الأستاذ « ڤيالتون Vialleton » المدرس فى جامعة مونبلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكى ، وغيرهما ممن يقولون إن مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم ، وقال ڤيالتون : إن داروين قد ذهب فى نظريته مذهبا جاهلا ماهية القواعد التى تتنزل عليها الجزئيات ، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاءه فى المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التى بين الأنواع نظرا سطحياً ، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف فى كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها .

فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الاثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيور ، لكن إذا أنعم الانسان النظر لا يجد هذه الرابطة فى محلّها ، لأن هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءاً من هيكل الصدر ؛ بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات . فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحيّة . والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الاثداء لا تمتاز فقط بالنطاق الصدرى ؛ ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى أنسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل مايعهد فى ذوات الأثداء . والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ؛ فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فان الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لا يمكن أن عملها

يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . ففي طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيّار مثلاً يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عند مايطير ، ولولا ذلك لا يتمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لا يمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع أُنُفاً بدون تدرّج . كذلك ذوات الأثداء السابحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى إلى الأسفل ؛ فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقياً بدلا من أن يكون عمودياً كما هو فى سائر ذوات الأثداء .

ويقول ڤيالتون : إن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافاً ، وهو أشبه بالمجاز منه بالحقيقة ، ففى الجراثيم شيئان ؛ البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ، ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدايات لا يمكن أن يتكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جدا أشبه ببراعم تختلف كثيراً عما سيأتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لا ينتج منها أقسام خاصة إلا بعد النمو . فالحويصلة لا يمكن أن تشبه حيواناً تاماً مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حويصلته . والحويصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصلة السمكة قبل أن يتكمل فيها هذا الجهاز ، وأورد أدلة كثيرة ليس هنا موضعها .

وكان الكيماوى الفرنساوى برتلو — وهو من أشهر علماء الطبيعة — ينعت مذهب داروين بقوله : « قصة داروين الخيالية » و « قصيدة لامارك الفكرية » مع أن برتلو كان يحفل بهذا المذهب . فمن شاء التوسع فى هذا الموضوع فليقرأ كتاب ڤيالتون المسمى « بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء »

«L'origine des Êtres Vivants, l'illusion transformiste par Vialleton»

وقد طرق السيد جمال الدين الحسينى الافغانى هذا الموضوع ، ورد على نظرية داروين ، ونحن واضعون كلامه تحت أنظار القراء .

وقد اعترض بعضهم على خوض السيد جمال الدين فى حديث كهذا يلزم له تخصص فى العلوم الطبيعية ، وليس هـذا الاعتراض بشىء ، لأن التخصص شرط فى المباحث التفصيلية ، فأما فى المبادىء العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعاً وأوسع نظراً كان أحق بأن يتكلم بها ؛ فالسيد جمال الدين إذاً يقدر أن يقول هنا ، وهو يقول ما يأتى فى رسالته المعروفة « بالرد على الدهريين »

« وذهب فريق إلى أن الاجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزال الآزال ولا تزال ، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن فى كل بذرة نباتا مندمجاً فيها ، وفى كل نبات بذرة كامنة ، ثم فى هـذه البذرة الكامنة نبات وفيه بذرة إلى غير نهاية . وعلى هذا زعموا أن فى كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيواناً تام التركيب ، وفى كل حيوان كامن فى الجرثومة جرثومة أخرى ، يذهب كذلك إلى غير نهاية . وغفل أصحاب هذا الزّعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار متناه وهو من المحالات الأولية .

وزعم فريق ثالث أن سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع ، كما أن الأجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص ، ولكن لاشىء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم ، وإنما كل جرثومة وبذرة هى بمنزلة قالب يتكون فيها ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى . وفاتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة ، وكذلك الحيوان التام الخلقة ، قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها .

ومال جماعة منهم إلى الابهام فى البيان فقالوا : إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت فى أطوار ، وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور ، حتى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة . وأول النازعين إلى هذا الرأى « أبيقور » أحد أتباع « ديوجينس الكلبى » ومن مزاعمه أن الانسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البَشَرة بالشعر الكثيف ، ثم لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة ، والخلق القويم ، ولم يقم دليلاً

ولم يستند على برهان فيما زعمه من أن مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الأنواع.

ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث. ثم اختلفوا فى بحثين؛ الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية، فذهب جماعة إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عند ما أخذ التهاب الأرض فى التناقص، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى. وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصاً فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة.

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم، موجب لالتئامها، حافظ لكونها. وأن قوتها الغاذية، هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حيًّا بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثم صارت إلى الانحلال. وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس، وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تُمح صورها فى تلك النيران المستمرة؟!.

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (نقول: وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص، إلى ما نراه من الصور المتقنة، والهيآت المحكمة، والبُنَى الكاملة. فمنهم قائل: إن لكل نوع جرثومة خاصة به، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء الغير الحيّة ليصير جزءاً لها بالتغذية، ثم تجلوه بلباس نوعه. وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة ـ الحمار مثلا ـ وظهور تماثل النطف بالعناصر البسيطة. فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها؟! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة ـ خصوصا الحيوانية ـ متماثلة فى الجوهر، متساوية فى الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى، ولا انفصال

ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة . الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان ، وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواسر الخارجية .

ورأس القائلين بهذا القول « داروين » وقد ألف كتابا فى بيان أن الانسان كان قردا ، ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة ، وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ « أوران أوتان » ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف « البيم » وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى (قد ثبت أن الداروينيين يستندون فى النشوء والارتقاء على جماجم وجدت فى أوروبة تحت الأرض ، وليست هذه الجماجم وهذه الهياكل أقرب إلى الانسان القوقاسى منها إلى الانسان الزنجى ، ولا هى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما) وعلى زعم داروين هـذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك ! ! .

(لا مبالغة فى قول السيد جمال الدين هذا عن مذهب داروين ؛ لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى إلى ما يظهر عجيبا وربما يظهر مستحيلا وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كيماويا كبيراً مثل « برتلو » يسمى مذهب داروين قصصا متسع الخيال ، هو حكم داروين باطّراد هذا المبدأ فى المخلوقات)

فان سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة ، وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بمـاء واحد ؛ فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته ، وأشكال أوراقه ، وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقته ، وزهره وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع

وحدة المكان والهواء والماء ؟ ! أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه ! ! وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البُنَى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو إلى تربة جديدة تخالف تربتها ؛ فماذا تكون حجته في علة اختلافها ؟ كأنها تكون كسفاً لا كشفاً ! .

بل إذا قيل له : أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها ؟ وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة و إيداع كل منها قوة على حسبه ، ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، و إيفاء عمل حيوى ، مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، و ينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب و يتلقاه شك إلى أبد الآبدين . الخ)

قلنا : يجوز أن يكون فى كلام السيد جمال الدين هذا ما يعترض عليه بعض العلماء الطبيعيين من جهة أن السيد فيلسوف إلهى يستند على قواعد من الحكمة والمنطق أصبح كثير من الطبيعيين اليوم يرفضونها ولا يجعلونها معياراً للحكم ؛ ولكن لا يمكن هؤلاء ولا غيرهم . أن يأتوا فى نقض كلام السيد فى هذا الموضوع بما يشفى الغليل ، أو بما يثلج به اليقين . فلا «داروين» ولا «مارك» ولا « بخنر » ولا خصومهم الكثيرون فى أوربا ، ولا « السيد جمال الدين » يقدر واحد منهم أن يقول قولا فى معضلة كهذه و يسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، و إنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه ما يمنعه من الجزم .

وما أحسن قول جمال الدين : لايزال يرفعه ريب و يتلقاه شك إلى أبد الآبدين.

ولهذا نجد علم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرد لاينتهي . وكيف يمكن أن ينتهى والآثار التى بني أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هى آثار ضئيلة جداً ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير ! ! وقد اعترفوا هم بأن كل ماعثروا عليه في باطن الأرض إن هو إلا هيكلان أو ثلاثة فى القارة الأوروبية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء فى القارات الأخرى التى هى أوسع من أوروبة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة فى بقعة واحدة ؛ فانه يستحيل القطع بشيء . هذا ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربى الدكتور شبلى شميِّل اللبنانى ، نشر فى ذلك كتاباً فى مصر ضمّنه مذهب داروين الانجليزى ، وبخنر الألمانى ، وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادي مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق ، ورد عليه إذ ذاك الأستاذ الشيخ ابراهيم الحورانى من علماء المسيحيين الذين يردّون المذهب المادّى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين واشتدت المناقشات بين الفريقين ، وكنا نطالعها أيام الطلب قبل هذا التاريخ بخمسين سنة . وكان نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذه جمال الدين التى نقلنا عنها هذه الجمل لذلك العهد أيضاً . فمذهب داروين معروف فى أوروبة منذ ثمانين سنة ، وفى العالم العربى منذ خمسين سنة .

نوح وولده وقضية الطوفان والسلائل البشرية

تعليق على ماجاء بسطر ٣ صفحة ٦ جزء أول من ابن خلدون

إن ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع لايخرج عما اصطلح عليه المؤرخون القدماء مستندين فيه على التوراة ، ولكن المؤرخين اليوم قد عدلوا عن هذه الروايات ، وعن القول بأن سام وحام ويافث هم آباء البشر الحقيقيين ، وأن سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الزنج ، إلى غير ذلك . وإذا ذكروا هذه الأمور فانما يذكرونها وفقاً للتوراة وللتقاليد القديمة ، ومن باب العلم بالشىء ولكنهم لا يعتقدونها . فأما الطوفان فانهم يعتقدون بوقوع حادث عظيم من هذا القبيل ـ إن لم يكن عم الأرض كلها فلا شك في أنه غمر جانباً منها ـ وذلك لأنه وجدت روايات تشابه خبر الطوفان عند الأمم الأخرى .

وقد أجمع المسلمون والنصارى واليهود على وقوع الطوفان لورود ذكره فى كتبهم المنزلة وزعم « أوسيليوس » العالم اللاهوتى الانجليزى من رجال القرن السادس عشر للمسيح أن الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل المسيح ، وتابعه فى ذلك المطران الافرنسى « بوسويت » وذهب « كلنتون » الانجليزى إلى أن الطوفان إنما وقع سنة ٢٤٨٢ وهؤلاء ممن يعتقدون أن العالم وجد قبل المسيح باربعة آلاف سنة . ومن المعلوم أن هذه الروايات مردودة اليوم عند جميع علماء أوربة ـ تقريباً ـ وهؤلاء يقولون بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الانسان ، فضلا عن وجود المادة الأرضية نفسها وفي القرآن لا يذكر عدد السنين التى مرت على الانسان ، وإنما يقول الله تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهو أصح الأقوال . وقد روى بيروز الكلدانى رواية تشابه رواية الطوفان ، وهو أن الملك « كيزوتروس » نجا بسفينة صنعها لنفسه عند ما غرق جميع النوع البشرى . وجاءت رواية عن اليونان بأنه وقع فيها طوفان فى القرن الثامن عشر قبل المسيح ، وكذلك طوفان آخر فى القرن

السادس عشر ، وأما بيروز الكلدانى فقد كتب تاريخ بابل فى أقدم الأعصر ، وأخذ عنه يوسيفوس اليهودى .

فأما تقسيمات البشر الى سلالة حام وسام ويافث ، فقدقام مقامها اليوم تقسيمات أخرى ، فقالوا سلالة العصر الحجرى ، وسلالة العصر الحديدى ، وسلالة عصر سكب الرمل. وجعلوا تاريخ ظهور البشر على حسب التغييرات الجوية ، وتقلص الجليد التدريجى فانهم استدلوا بالآثار الباقية فى الأرض على مرور الانسان ببعض البقاع فى عصر من الأعصر ، مما يدل على أن تلك البقعة كانت قد أصبحت صالحة للسكنى ، على حين أن غيرها فى ذلك الوقت كان لا يزال غير قابل لسكنى الانسان ، فالأرض هى التى يصح أن يقال إنها أم البشر ، وإنها واضعة التقسيم بين السلائل البشرية . وليس ذلك من سام وحام ويافث كما قال الأولون .

وذهبوا إلى أن الانسان قطع من الحيوانية الدنيا إلى أن صار إنسانا ـ شبيهاً لما هو اليوم ـ عشرات ألوف من السنين ، حتى قالوا : إن السلالة المسماة نياندرتال « Nèanderthal » عاشت نحواً من مائتى ألف سنة ، وأنه لما بدأ العصر الجليدى الرابع يضمحل أمام أحوال جوية أميل إلى الاعتدال ظهر نوع جديد يظنون أنه بدأ ظهوره فى جنوبى آسية ، أو شمالى أفريقية ، أو فى الأماكن التى غمرها البحر المتوسط فيما بعد ، وأنه مضى مئات من القرون حتى تكملت أعضاء هذا النوع الجديد الذى سماه علماء السلالة البشرية بالانسان السابق « Homo - Sapiens » وهذا النوع البشرى فى جمجمته وأيديه وأسنانه وعنقه يشبه تماماً الانسان الحالى . ويذهبون إلى أنه ربما كان قد وجد سلالات أخرى غير هذين النوعين ، وربما يكون قد وجد أنواع متوسطة بينها وبين النوع الانسانى الحاضر . وقد وجدوا فى كهوف « كرومانيون Cro-Magnon » هيا كل أجسام بشرية ترجع إلى نهاية العصر الحجرى ، وهى تامة الخلقة ، فأطلقوا على هذه السلالة اسم سلالة كرومانيون ، ووجدوا آلات من الصوان ومن الصدف مع هذه الأجساد ، كما أنهم وجدوا فى مغارة غريمالد بقرب منتون جنوبى فرنسة هيا كل أجساد بشرية مشابهة لأجساد الزنوج اليوم ، فترجح وجود سلالتين بشريتين

في ذلك العصر الأقدم يختلف إحداهما عن الأخرى . فسلالة كرومانيون ربما كانت متحدّرة من سلالة غريمالد ، ويجوز أن يكون في ذلك الوقت قد بقيت بقايا من سلالة نياندرتال .

ويظهر أنه كلما كان الجو يميل إلى الاعتدال ، والجليد يتقلص ؛ كان الانسان يتكمل وتعلو طبقة عقله ، ويزداد التناسب فى أعضائه . وبالاختصار لم يكن اختلاف السلائل عند العلماء العصريين ، والتباينات التى أوجدت الشكل القوقاسى ، والشكل المغولى ، والشكل الزنجى ، والشكل الامريكى القديم ؛ إلا نتيجة العوامل الجوية باختلافها وتحولها من طور إلى آخر ، وما يستتبع تحولاتها من تغير النبات والحيوان . فالهواء والغذاء هما اللذان كانا الأصل فى هذه التباينات بين البشر حتى تكونت هذه السلائل المختلفة . وهذا قد أجمع عليه علماء الوقت الحاضر ، وإن كانوا لا يزالون غير متفقين فى نسبة الشعوب إلى سلالة سلالة ، وذلك لفقد الوثائق التاريخية ، وقلة الآثار التى فى الأيدى . فأكثر ما عندهم من التعليلات لإثبات أن هذا هو من هذه السلالة ، وأن ذاك من تلك السلالة ؛ إنما هو افتراض ، وأحياناً تخرص ، والجزم غير ممكن . وأكثر العلماء يقولون إن تحقيق هذا الباب متعذر ، ولكن مأمول ازدياد المعلومات بالعثور على الآثار البشرية القدمى ، لاسيا فى آسية وأفريقية وأميركا . وقد قيل بناء على الآثار البشرية القدمى التى وجدت فى أميركا : بأن الانسان قبل أن يتكمل ويصل إلى درجة الانسانية الحاضرة لم يوجد فى القارة الاميركية ، فما قطع الانسان بوغاز بيرين بين آسية وأميركا ، وأخذ ينتجع أميركا حتى وصل إلى القسم الجنوبى منها إلا بعد أن كان قد صار إنساناً كاملا . فالعالم القديم وحده ، أى أوروبا وآسية وافريقية ؛ هو العالم الذى وجدت فيه السلائل المتوسطة بين الحيوانية والانسانية ومرجع هذه الفروق والتباينات بين أصناف السلائل هو اختلاف البيئة ، فكل بيئة أثّرت فى سكانها تأثيراً خاصاً ، وطبعته بطابعها . وقد يقع الاختلاط بين السلائل المختلفة بسهولة ، حيث لا توجد الموانع الطبيعية ، وهذه الموانع هى من قبيل الاوقيانوس الاطلانطيكى ، ومنها فى آسية الوسطى جبال عالية منعت اتصال الأمم بعضها ببعض

وقالوا إنهم وجدوا فى جزيرة تسمانيا « Tasmanie » بقرب استراليا شعباً صغيراً بقى عائشاً من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين ألف سنة فى الحالة التى كان فيها فى أواخر الدور الحجرى. ! ولما كشف الهولنديون سنة ١٦٤٢ هذه الجزيرة وجدوهم لعدم اختلاطهم بغيرهم على ما كانوا عليه منذ آلاف من السنين ، وقالوا : إن التاسمانى الأخير مات سنة ١٨٧٧ ، و به انقرضت هذه السلالة .

وقد لوحظ أن سكان شرقى آسية ، وسكان أميركا فى القديم ، يغلب عليهم اللون الأصفر ، والشعر الأجعد ، كما أن سكان أفريقية جنوبى الصحراء الكبرى يغلب عليهم اللون الأسود ، والأنف المفرطح ، والشعر المفلفل ، والشفاه الضخمة . كما أن سكان شمالى أوربا وغربيها شقر الألوان ، زرق العيون ، مع الشعر السبط ، والجلد البَضّ ، وعلى شواطىء البحر المتوسط نجد الشعوب بيض الألوان لكن مع سواد العيون والشعور ، وفى جنوبى الهند نجد الشعوب غالبة عليها سمرة اللون ، وجعودة الشعر . ولكن كلما ذهب الانسان شرقا مالت الألوان إلى الاصفرار . ولا يجب أن تخلو هذه القواعد من استثناءات ، ففى أفريقية مثلا أقوام ملامحهم آسيوية ، وفى بلاد اليابان جنس يقال له الأينوس « Oinos » هم أشبه بالأور بيين منهم باليابانيين وقد وجدوا قوماً أشبه بالزنوج فى جزر أندمان « Andamans » فى خليج البنغالة من الهند ، كما أنه فى بعض أقسام الهند يوجد أناس يغلب عليهم السّواد الزنجى وليس من المحقق كون هؤلاء الهنود من أصل واحد مع سودان أفريقية ، فإن تأثير البيئة واستمرار هذا التأثير ألوفاً من السنين هما اللذان أوجدا الفروق التى ميزت السلالة البيضاء عن الصفراء ، وعن الحمراء ، وعن السوداء ، بحيث أنه فى أواخر الدور الحجرى فى أوروبة ـ أى منذ اثنى عشر ألف سنة ـ كانت السلائل البشرية قد تميزت بعضها عن بعض .

قال الفيلسوف المعاصر ولز الانجليزى « H. G. Wells » إن العلماء كانوا لايزالون يقسمون البشر إلى ثلاث أو أربع سلائل منفصلة بعضها عن بعض منذ القدم وهى سلالة سام ، وحام ، ويافث اعتماداً على قصة نوح ، الواردة فى الكتب المقدسة

ولم يبدأوا باخراج البشرية من هذا التقسيم ، وبالاعتماد على نظرية أخرى معناها أن البشرية كلها كتلة واحدة تباين بعضها عن بعض بالتأثيرات الجوية ، والعوامل الارضية والقوى المختلفة ، إلا منذ خمسين أو ستين سنة . ولكن العلماء لايزالون مختلفين فى بعض الشعوب هل هى عائدة إلى هذه السلالة ، أو تلك السلالة ؟ لأن الجزم بذلك غير ممكن . فالسلائل المشهورة هى أربع ، وكل منها مختلط بالآخر ؛ فأوربا وشطوط البحر المتوسط وآسيا الغربية تسكنها منذ آلاف من السنين أمم يقال لها السلالة القوقازيّة ، وهى ثلاثة أقسام ؛ الجنس الأشقر الشمالى ، وقد زعموا أنه جنس متوسط بين سلالتين ، والجنس الألبى الذى في وسط أوروبة ؛ والجنس الايبيرى أوالساكن على شواطىء البحر المتوسط . ثم تأتى السلالة الصفراء وهي فى شرقى آسية ، وفى أميركا ، ويقال لها السلالة المغولية . وفى أفريقية السلالة السوداء ، ومنها فى استراليا وفى غينيا الجديدة ، ثم إن السلالة الايبيرية المشتقةمن السلالة البيضاء كانت فى الماضى تسكن أقطاراً أوسع مما تسكن الآن ، فلذلك لاتعلم فى الحقيقة التخوم التى تفصلهاعن السلالة السوداء ، ولا الفواصل التى تفصلها عن شعوب شرقى آسية . وقد ذهب « فيلفريد سكافن » إلى أن « هوكسلى » Huxley — وهو عالم طبيعى انجليزى ممن يقول بالنظرية الداروينية — كان يقول : إنه يوجد بين المصريين وبين الدارفيديين — شعب أورال النائى جاء إلى الهند واستقر فى جنوبيها — وحدة فى الأصل ، وأن هناك نطاقاً بشرياً مستطيلا من ذوى اللون الأسمر كان يمتد فى القدم من الهند إلى أسبانية .

قال ولز : ويجوز أن هذا النطاق يكون قد امتد حتى شطوط الاوقيانوس الباسيفيكى . وربما كانت الشعوب الشمالية الشقراء ، والمغولية الصفراء ، فرعين من أصل واحد .

وهذه الشعوب الشمالية انفصل بعضها عن بعض ، فتباعد ما بينهما باختلاف

البيئة ، و يظهر أنه جاء وقت على التاريخ البشرى انتشرت فيه ثقافة أولية حجرية ذات خصائص مميزة لها ، وكان انتشارها على شواطىء البحر المتوسط بين الشعوب المائلة إلى السمرة ، ثم امتدت إلى الهند و إلى شواطىء الصين ، ثم إلى المكسيك والبيرو ، ولذلك تجدها دائماً على الشواطىء البحرية غير متوغلة فى الداخل .

وذهب « اليوت سميث » إلى وجود عادات وعقائد عامة لهذه الأقوام الساكنة على هذه الشواطىء لا تجدها عند الأمم الشمالية ، ولا عند الأمم الجنوبية . ومهد هذه الثقافة الحجرية كان قبل المسيح بخمسة عشر ألف سنة على ضفاف البحر المتوسط ، والقسم الشمالى من افريقية . والمدنيات الاولى أى مدنية مصر ، ووادى الفرات ، ودجلة ، قد تولدت من هذه الثقافة الحجرية . وكذلك مدنية العرب الرحّل الساميّين . اهـ ملخصاً .



التوراة وهل وقع فيها تبديل أم لا ؟

تعليق على ما جاء بسطر ٣ صفحة ٨ جزء أول من ابن خلدون

هـذا مقام جليل دقيق لا بد للباحث فيـه من أن يبلغ نهاية التروى حتى لا تدحض قدمه ، ولا يقع فيما يؤاخذ عليه . والذى يظهر من رأى ابن خلدون أنه لا يعتقد بتبديل التوراة أخذاً بقوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) قال : فلو كانوا بدّلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التى فيها حكم الله . ونقل عن ابن عباس قوله : معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله . أو ما فى معناه . ثم قال : إن ما وقع فى القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فى التوراة إلى اليهود فإنما يراد به التأويل فيها . ثم استدرك بقوله : (إلا أن يطرقها التبديل فى الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها ، فذلك يمكن فى العادة ، لا سيما وملكهم قد ذهب ، وجماعتهم انتشرت فى الآفاق ، واستوى منهم الضابط وغير الضابط) الخ .

قلت : وليس هذا مذهب جميع المسلمين ، فإن قضية التبديل فى التوراة معروفة من صدر الاسلام ، ومشار إليها فى القرآن نفسه بأن اليهود كانوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ، وأنهم كانوا يتعمدون كتمان بعض ما أنزل عليهم ، وقد ضربوا مثلا لذلك كون النبي صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عما جاء فى التوراة بشأن رجم الزانية فأخفوا عنه آية التوراة المتعلقة بهذا الأمر . ومن المعلوم أن هذا وأمثاله مما شهد به القرآن على اليهود ، وجاء مثله في الحديث ؛ لا يخرج عن كونه تبديلاً ، ولذلك صارت قضية التبديل فى التوراة مثلا مضروبا . كنت أسمع أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله يقول : « هذه توراة مبدّلة » ولا أرى فى نسبة التبديل إلى التوراة مايخالف قوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) لأن العبرة بالغالب ، أو لأنه

يريد أن يقول : إن التوراة فيها حكم الله إذا كانت على وجهها الصحيح . وبالجملة فالمسلمون منهم من حصر معنى التبديل في تحريف الكلم عن مواضعه ، ومنهم من اتهم اليهود بتبديل التوراة نفسها .

ومقدم هذه الطبقة هو أبو محمد بن حزم . فقد ذكر فى كتابه « الملل والنحل » وجود مناقضات ظاهرة ، وأكاذيب واضحة فى « الكتاب الذى تسميه اليهود التوراة ، وفى سائر كتبهم ، وفى الأناجيل الأربعة ، يتيقن بذلك تحريفها وتبديلها وأنها غير الذى أنزل الله عز وجل » ثم ذكر ابن حزم المواضع التى حكم فيهـا بوجود الكذب والتناقض ، وقال : « إنهـا من الكذب الذى لا يشك كل ذى مسكة تمييز فى أنه كذب على الله تعالى ، وعلى الملائكة عليهم السلام ، وعلى الأنبياء عليهم السلام » . ثم قال قبل أن شرع فى إيراد الأمثلة : « إننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما وإن دقّ ، وبعد فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له . وكذلك أيضا لم نخرج منها كلاماً لا يفهم معناه ، وإن كان ذلك موجودا فيها . لأن للقائل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد ، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيـه ، ولا وجه أصلا إلا الدعاوى الكاذبة التى لا دليل عليها أصلا لا محتملا ولا خفيّا » .

وقد جاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية بقلم المستشرق الالماني اليهودى هوروفتز ــ وكانت لنا معرفة به وهو الذى ترجم لنا شِعْراً ارتجلناه عند زيارة بيت غوته شاعر الألمان الأكبر ، ونشر ذلك فى الصحف ولهوروفتز ترجمة شعر الكميت أيضا ــ أن ابن حزم أورد ٥٧ موضعاً بيّن فيها تناقضات التوراة والمستحيلات التى فيهـا .

قلنا : إن أبا محمـد بن حزم ذكر أن بأيدى السامرية توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود ، يزعمون أنها المنزلة ، ويقطعون بأن التى بأيدى اليهود محرفة مبدلة وسائر اليهود يقولون إن التى بأيدى السـامرية محرفة مبدّلة ؟ ! قال : ولم يقع الينا توراة السامرية ، لأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً ، إلا أننا قد أتينا ببرهان ضرورى على أن التوراة التى بأيدى السامرية محرفة مبدلة عندما

ذكرنا في آخر هذه الفصول اسماء ملوك بني اسرائيل » انتهى . قلنا إن اختلاف توراة اليهود عن توراة السامرية مسموع ، وقد كنا في نابلس منذ ثلاثين سنة ، وكان يتردد علينا اسحق كاهن السامريّة ، ودعانا مرة الى الكنيس الذي لهم وهو شيء قديم جدا ، وأطلعنا على توراتهم وقال : إن تاريخ نسخها يرجع إلى ألف سنة . ومما أتذكره من كلامه ــ وكان عالماً بمذهبهم ــ أن بين توراتهم وتوراة اليهود بعض الاختلاف ، وربما يكون ذكر لي مواضع الاختلاف أو بعضها ، ولكنه لم يبق في خاطري ما ذكره لطول العهد به .

ونعود الى كلام ابن حزم ؛ فهو يأخذ مثلا عبارات من التوراة و يبين ما فيها من الاستحالة مثل « ونهر يخرج من عدن فيسقي الجنان ، ومن ثمّ يفترق فيصير أربعة أرؤس ، اسم أحدها النيل وهو محيط بجميع بلاد زويلة الذي به الذهب وذهب ذلك البلد جيّد ، و بها اللؤلؤ وحجارة البلّور . واسم الثاني جيحان وهو محيط بجميع بلاد الحبشة ، واسم الثالث الدجلة وهو السائر شرق الموصل ، واسم الرابع الفرات ، فقال : في هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذّاب مستهزىء ، أول ذلك إخباره أن هذه الأربعة تفترق من النهر الذي يخرج من جنات عدن . وأفاض ابن حزم في تكذيب ذلك بما لاحاجة الى نقله هنا . ثم قال : فإن قال قائل : فقد صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة » قلنا نعم هذا حق لا شك فيه ، ومعناه هو على ظاهره بلا تكلف تأويل أصلا ، وهي أسماء لأنهار الجنة كالكوثر والسلسبيل فإن قيل قد صح عنه عليه السلام أنه قال : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » قلنا هذا حق ، وهو من أعلام نبوته ، لأنه أنذر بمكان قبره فكان كما قال وذلك المكان لفضله وفضل الصلاة فيه يؤدي العمل فيه الى دخول الجنة ، فهي روضة من رياضها ، و باب من أبوابها .

ومعهود اللغة أن كل شيء فاضل طيب فإنه يضاف الى الجنة ، وليس كذلك الذي في توراة اليهود ، لأن واضعها لم يدعها في لبس من كذب ، بل بين أنه عني النيل

المحيط بأرض زويلة بلد الذهب الجيد ، ودجلة التى بشرق الموصل ، وجيحان المحيط ببلد الحبشة ، فلم يدع لطالب تأويل حيلة ولا مخرجاً . ثم قال نقلا عن التوراة : « وقال الله هذا آدم قد صار كواحد منا فى معرفة الخير والشر ، والآن كيلا يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة و يأكل و يحيى إلى الدهر ، فطرده الله من جنات عدن » قال ابن حزم : حكاية عن الله تعالى أنه قال : هذا آدم قد صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر ، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد . وقد أدى هذا القول الخبيث المفترى كثيراً من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذى خلق آدم لم يكن إلا خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم ، وأكل من الشجرة التى أكل منها آدم فعرف الخير والشر ، ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة ، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق ، ونحمده إذ هدانا للملّة الزهراء التى تشهد سلامتها من كل دَخَل بأنها من عند الله تعالى .

ثم قال فى إحدى الأماثيل التى أوردها من التوراة : فلما ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض ، وولد لهم البنات ، فلما رأى أولاد الله بنات آدم أنهن حسان اتخذوا منهن نساء !! وقال بعد ذلك : كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم و يولد لهم حراماً ، وهم الجبابرة الذين على الدهر لهم أسماء ، وهذا حمق ناهيك به ، وكذب عظيم ، إذ جعل لله أولاداً ينكحون بنات آدم وهذه مصاهرة تعالى الله عنها . حتى أن بعض أسلافهم قال : إنما عنى بذلك الملائكة ، وهذه كذبة إلا أنها دون الكذب فى ظاهر اللفظ ، ثم مضى ابن حزم بلهجته الشديدة المعهودة المشهورة فى تكذيب التوراة ، أو بالأحرى ماينسب إلى التوراة مما ليس بالحقيقة منها ، فأملى نحواً من تسعين صفحة فى هذا الموضوع .

ومن جملة ما ذكر قضية لوط ، وأنه أقام فى المغارة هو وابنتاه ، فقالت الكبرى للصغرى : أبونا شيخ وليس فى الأرض أحد يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا الخمر ونضاجعه ونستبق منه نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة ، فأتت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنومها ولا بقيامها ، فلما كان من الغد قالت الكبرى

للصغرى : قد ضاجعت أبي أمس تعالى نسقيه الخمر هذه الليلة وضاجعيه أنت ونستبقى من أبينا نسلا ، فسقتاه تلك الليلة خمراً وأتت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنومها ولا بقيامها . وحملت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت الكبرى ابناً وسمته مواب وهو أبو الموابيين إلى اليوم ، و ولدت الصغيرة ابناً سمته ابن عمون وهو أبو العمونيين إلى اليوم » الخ . قال ابن حزم : فى هذه الفصول فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام ، فأولها ما ذكر عن بنتى لوط عليه السلام من قولهما ليس أحد فى الأرض يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا خمرا ونضاجعه ونستبق منه نسلا ، فهذا كلام أحمق فى غاية الكذب والبرد ! ! أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله حتى لم يبق فى الأرض أحد يضاجعهما ؟ إن هذا لعجب » اه .

وسحب ابن حزم سائر اعتراضاته هذا السحب مما لا حاجة لاعادته ، فمن شاء فليراجعه فى كتاب « الملل والنحل » و إنما أوردنا ما أوردناه هنا على سبيل التمثيل ولا شك فى أن مثل هذه الأقاويل لا تجوز على كتاب منزل ، وأن نسبتها إلى كتاب منزل مضرة جداً بالدين ، ومفسدة للأخلاق ، وأن المسلمين لا يعتقدون بأن مثل هذا يكون من التوراة الحقيقية .

ومن العجب أن التوراة مع اشتمالها على هذه الفصول المستهجنة ، وهذه العبارات الغريبة المدهشة ، قد صدقها المجمع الكاثوليكى التارنتى الذى قرر أن التوراة الصحيحة فى نظر الكنيسة الكاثوليكية هى خمسة أسفار موسى التى يقال لها الناموس وكتاب الأنبياء المشتمل على كتب يشوع ؛ والقضاة ، والملوك ، ونبوات أشعيا و إرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، والاثنى عشر نبيّاً صغيراً ، وكذلك كتب «باراليپونسيس» و « إسدراس » و « نيحميا » و « طوبيا » و « يوديث » و « أستير » و « أيوب » والمزامير ، والأمثال ، والكهنوت ، ونشيد الانشاد ، والحكمة ، وكتابى المكابيين . ولم يخرج الكاثوليكيون من التوراة إلا كتاب أنوخ ، وثلاثة أو أربعة كتب من إسدراس ، وثلاثة أو أربعة كتب من المكابيين ، وكتاب منشى .

أما اليهود والبروتستانت فانهم يخرجون من التوراة كتاب طوبيا ، ويوديث والحكمة ، والكهنوت ، وكتاب باروخ ، وبعض أقسام من كتاب أستير ، وقصة سوسان ، وقصة الشبان العبرانيين الثلاثة ، والكتابين الأولين من المكابيين ، وقصة أوثان بعل ، وداغون . هذا ما كان من العهد القديم ، فأما العهد الجديد فهو الذى يشتمل على الأناجيل الأربعة : متى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا ، وأعمال الرسل ، و١٤ رسالة من بولس ، وسبع رسائل من بطرس ، ويعقوب ، ويهوذا ، ورؤيا ، يوحنا . وقد أخرج المجمع التارنتى من العهد الجديد رسائل برنابا ، ورسائل بولص إلى اللاوديقيين وإلى سنيكا وكتاب السيد المسيح إلى أبقار ، وكثيراً من الأناجيل .

وقد جاء فى كثير من الكتب - حتى التى ألفها مؤلفون مسيحيون - تخطئة للعهد الجديد أيضاً ، فضلا عن العهد القديم . وتجد فى معجم لاروس تخطئة إنجيل متّى فى نَسَب المسيح ، فبعد أن ساق ماقاله متّى من أنه من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر بطنا ، قال : إن فى هذه النسبة مشكلات لاتقبل الحل ، لأنه لايوجد من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر ، وإنما هي ثلاثة عشر بحسب كلام متّى نفسه . فأما الذين أنحَوا على الأناجيل الأربعة بالتخطئة ممن لم يبق عليهم من المسيحية إلا الاسم فانهم كثيرون جداً . وقد ازدادت الكتب المتعلقة بهذا المبحث بعد الحرب العامة كثيراً ، فقد عرضوا الأناجيل على المحك ومحّصوها تمحيصاً لا بأس بأن نشير إلى بعضه ، ونورد عليه بعض الأمثلة ، لأن الاستقصاء فى هذا الباب يستغرق مجلدات كثيرة ، ونحن إنما نتوخّى مجرد الاشارة إلى الموضوع ، حتى إذا كان للقارىء رغبة يمكنه أن يراجعه فى مظانه ، ولو كانت هذه الحواشى للاستقصاء لم تكن لتنتهى .

جاء فى الكتاب المتعلق بالسيد المسيح من تأليف الدكتور « بينيه سانغليه » « Binet - Sanglé » أحد أساتيذ علم الروح فى فرنسة ، وذلك فى الجزء الأول من الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور فى صفحة ٢٠ إلى صفحة ٧١ ما يأتى ملخصاً

« إن أكثر رجال العمل لا يفكرون فى الكتابة والتأليف ، وترى المتهوسين من أصحاب الدعاية الدينيّة لا يهتمون بتقييد أعمالهم وتخليدها إلا بعد أن يدخلوا من العمر فى الطور الذي يقتضي الراحة ، فأما تلاميذ المسيح فقد تأخروا عن كتابة تاريخ

معلمهم بهذا السبب ، و بسبب آخر هو اعتقادهم أنه لم يبق وقت للكتابة لأن القيامة قريبة ، فبقيت أعمال المسيح مدة عشرين إلى ثلاثين سنة محفوظة فى الصدور لا فى السطور .

وقد ذكر « پاپیاس Papias » الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى وكان مطراناً على هيرابوليس ، وهى البلدة التى أقام بها فيلبّس الرسول أن المكتبة الأولى للأنجيل كانت ذاكرة شمعون الصفا ، ويعقوب بن زبدى ، ويوحنا بن زبده ولاوى بن الفايوس أى متّى ، وتوما ، واندريا ، وارستيون ، ويوحنان ، وفيلبس نفسه . فان هؤلاء الذين كانوا يحفظون تاريخ المسيح ، وكانوا يروون حركاته وسكناته للناس شفهياً ، إلى أن ألحّت جماعات المؤمنين عليهم بكتابتها فى الورق فكانت من أجل ذلك الأناجيل الأولى التى يشهد بوجودها الانجيلى لوقا ، و يشهد پاپیاس نفسه ، فان لوقا يقول ما يأتى : « إن كثيرين أرادوا أن يسطروا روايات الوقائع التى تمت طبقاً لشهادة من شاهدوا عياناً » .

وانظر إلى ما يقول پاپیاس فى مقدمة كتابه المسمى « شرح أحكام الرب » خطاباً لأحد أصحابه : « لا أتردد من أجلك أن أحرر ما سمعته من الزكينيم ـ الزكينيم بالعبرية تقوم مقام الشيوخ فى العربية . وهى مشتقة من فعل زكن بمعنى عَلِم وفطِن وأنت تعلم أن العربية والعبرية من أصل واحد والميم فى العبرية كالنون فى العربية فقولك الزكينيم هوكقولك الزكينين ـ وما وعته ذاكرتى لأجل إثبات حقيقة الشرح الذى شرحته ، ولم أكن ناقلا عن الرواة المعروفين بفصاحة اللسان وذلاقة التعبير كما يفعل الكثيرون ؛ بل ناقلا عن معلمى الحقيقة . فانى لا أحبّ أن أروى عمّن يدخلون مبادىء أجنبية فى كلامهم ؛ و إنما أحب أن أروى الوصايا التى فرضها الربّ والتى هى وليدة الحقيقة . فاذا كنت صادفت بعض من كانوا فى عشرة الزكينيم ـ أو الزكينين ـ فكنت أتحرى أن أعلم ما قال أندريا ، أو بطرس ، أو فيلبس ، أو توما ، أو يوحنان ، أو متّى ، أو تلميذ آخر من تلاميذ السيّد . ولم أكن أعتقد أن ما هو فى الكتب أفيد لى من سماع كلمة حيّة من أفواه هؤلاء ، فمرقص كان ترجماناً

لبطرس ، وكان يكتتب كل ما سمعه من بطرس عن أقوال المسيح وأفعاله ، لأن مرقص لم يسمع المسيح ولم يصحبه ، وكان يتبع بطرس حيث ذهب ، وكان بطرس يعلّم بحسب الظرف الذى يوجد فيه ، و بدون أن يهتم بربط الروايات بعضها مع بعض ، فمرقص لم يكتتب إلاّ ماسمع من بطرس ، ولم يكن له همّ إلاّ فى تقييد كل ما سمع بدون زيادة ولا نقصان »

ثم إن پاپياس يقول عن متى : « إن متّى جمع كلمات يسوع باللغة العبرية وترجمها كل بحسب استطاعته » فالأناجيل الأولية إذن كانت إنجيلين ؛ أحدهما إنجيل مرقص الأصلى ، والثانى مجموعة متّى . وكان إنجيل مرقص خاليا من الترتيب ، وكان مرقص هذا و يقال له أيضا يوحانان من سلالة اللاوية ، وكان يحمل لقبا يونانيا بحسب العادة فى ذلك الوقت ، وكانت أمه تدعى مريم وفى بيتها كان يجتمع حوار يوا المسيح وكان قد قطع إحدى أصابعه حتى لا يعود صالحاً للكهنوت اليهودى . فكان « هيپوليتوس » القديس يقول له : « مرقص ذو الاصبع المقطوعة » وقد روى « أوزيبيوس » أنه لما كان بطرس الملقب بالصفا يعظ فى رومة ؛ كان الناس الذين يتلقون البشارة منه يترجون مرقص أن يقيد ذلك بالورق و يدفعه لمن يريد ، فعرف بطرس بالأمر فما نهاه ولا شجعه فى البداية ، ولكن بعد أن كتب مرقص إنجيله صار يتلى فى الكنائس ، ثم ذهب مرقص إلى إسكندرية وأسس هناك الكنيسة المسيحية ــ ولا يزال القبط يسمون كنيستهم بالكنيسة المرقصية ــ وعاش هناك بين سنة ٤٥ و ٤٧ للمسيح .

أما مجموعة متّى فقد كتبها هذا بين سنة ٥٠ و ٦٠ وكان متّى من الحواريين وكان متصوفا متقشفاً لا يأكل اللحم ، ولا يشرب الخمر ، و بقى فى فلسطين اثنتى عشرة سنة بعد المسيح ، ونشر إنجيله بلغة العبريين ، بينما كان بطرس و بولص يؤسسان كنيسة رومة . فهذان الانجيلان هما أقدم الأناجيل .

وجاءت بعد ذلك الأناجيل الثانوية وكثر عددها ، ولما تغلبت الكنيسة فى الدولة الرومانيّة أحرقت جانبا عظيما من هذه الأناجيل الثانوية ، بحيث لم يبق منها

إلا أسماء فقط . فمنها إنجيل « أندرياس » جاء ذكره فى منشور من البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ ومنها إنجيل « بارنابى » الذى ذكره « جيلاسيوس » ولم يكن يفترق عن إنجيل متّى . ومنها إنجيل « باسيليديس » ذكره « أوريجينيس » وقد كتب سنة ١٢٥ . ومنها إنجيل « قيرنيتوس » وكان يهوديا مال إلى شريعة عيسى وكتبه فى نحو سنة ١٨٠ وكان يقول إن عيسى هو ابن يوسف من مريم . وقد ذكر هـذا الـكتاب القديس « هيپوليتوس» . ومنها إنجيل « هيز يشيوس » الذى ذكره « إيرونيموس » (سنة ٣٤٠ إلى سنة ٤٢٠) ومنها إنجيل يعقوب الصغير ذكره «جيلاسيوس» ومنها إنجيل يهوذا ذكره «ايرينابوس» (١٧٧—٢٠٢) وكان هذا الانجيل مستعملا عند القايينيين وهى نحلة كانت تتمسك بكل شىء تحرمه الـكنيسة وكانت تعظم قايين . ومنها إنجيل « تاداى » ذكره جيلاسيوس . ومنها إنجيل « مقريون » ابن مطران سينوب ألفه سنة ١٣٠ وذكره ايرنايوس وهو مأخوذ من إنجيل لوقا ، ولـكنه لا يذكر الفصل المتعلق بميلاد يسوع ، ولا قصة الـكرمة ولا الابن الشاطر . ومنها إنجيل متّى الذى ذكره « أوريجينيس » ومنها إنجيل « ساتورينوس » ذكره هيپوليتوس وتاريخه سنة ٢٢٠ . ومنها مجموعة الأناجيل الأربعة بقلم « تاتيانوس » الأشورى تلميذ يوستينوس وكان من النّحلة التي تحرم أكل اللحم وشرب الخمر والشهوات البدنية . وقد كتب هذا الـكتاب سنة ١٧٢ باللغة الآرامية ولا يوجد فى هذا الانجيل النسبة الداودية .

وفى سنة ٤٥٣ وجد «تيودوريتوس» أسقف سيروس ـ مدينة بقرب الفرات ـ مائتى نسخة من هذا الانجيل بين رعيته فمنعها . وفى سنة ٥٤٥ اطلع فـكتور أسقف « كابرى » على ترجمة لاتينية لهذا الـكتاب . ثم أناجيل الناسينيين « Naasseniens » والبيراتيين « Perates » والسيتيين « Sethiens » ذكرها كلها هيپوليتوس وفى الانجيل الأول منها خطب ليعقوب بن يوسف أخى يسوع . ومنها إنجيل السمعانيين « Simoniens » جاء ذكره فى المقدمة العربية لمجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ . ومنها الانجيل الأبدي ، جرى تأليفه فى القرن الثانى عشر بقلم راهب اسمه « جيوفاشينو »

« Giovacchino » وحرمه البابوات سينيبالدو الذى عاش من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤ ؛ و بطرس الذى عاش سنة ١٢٧٦ . ثم تاريخ فرار مريم العذراء و يوسف إلى مصر ، وهو منسوب إلي « ثيوفيلوس » الاسكندرى وقد ذكره السمعاني فى المكتبة الشرقية (١٦٨٧ ــ ١٧٦٨) ومنها أسئلة مريم التى ذكرها « أبيفانوس » (٣٢٠ ــ ٤٠٣) وفيها قضية تطهير الأنفس . ومنها إنجيل الكمال ذكره أبيفانوس ومنها الانجيل الحيّ كان منتشراً بين المانويين .

و يوجد أناجيل أخرى محفوظة منها بعض قطع ، وذلك مثل إنجيل حوّاء وكان معروفا عند الأوفيتيين « Ophites » الذين كانوا يعبدون الثعبان ، وهو مشابه لانجيل الكمال . ومنها إنجيل « بارتلماى » الذى حرمه جلاسيوس ، وجد فيه بعض المؤلفين قطعاً مهمة باليونانى والقبطى مترجمة عن العبرى . ومنها إنجيل فيلبس من القرن الثانى وكان هذا يحرم الزواج ، و يذهب إلى أن النسل نتيجة مبدأ غير حسن ، ولم يبق منه إلا قطعة ذكرها أبيفانوس .

ومنها إنجيل شمعون الصفا و يذهب يوستينوس إلى صحتة ، وليس بينه و بين إنجيل متى إلا فرق قليل وتاريخه من سنة ١٦٠ إلى ١٧٠ و بقى معمولا به إلى سنة ١٩٠ وفى سنة ١٨٨٧ وجدوا فى أخميم بمصر فى قبر راهب قطعة منه . ومنها إنجيل توما المحرر فى القرن الثانى بقلم بعض مسيحيين من سورية باللغة اليونانية . ومنها إنجيل الحقيقة محرر سنة ١٥٠ ذكر منه هيبوليتوس بعض قطع . ومنها تعاليم الرسل الاثنى عشر ، عثروا عليه بشكل مخطوط يونانى و يقال إنه كان فى القرن الثانى . ومنها إنجيل الاثنى عشر حوارياً وجده ريفيليو « Revillout » باللغة القبطية ، ومنه مخطوط فى مكتبة ستراسبورج وكاتبه يزعم أنه غمليل القديم الذى كان يدافع عن شيعة يسوع أمام مجلس اليهود . وهذا الانجيل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى . ومنها ذكريات الرسل أشار إليها يوستينوس سبع عشرة مرة ، وكانوا يقرأونها كل يوم أحد فى النصف الثانى من القرن الأول . ومنها الانجيل بحسب العبرانيين أو الناصريين كتب باللغة الآرامية فى أواخر القرن الأول ، وهو يشبه إنجيل متّي . و يذهب

«إيرونيموس» ، و«ريشارد» سيمون إلى أن هذا الانجيل أعلى درجة من إنجيل متّى . فالغلطة التي غلطها متّى فى جعله زكريا ابناً لبريكيا مصححة فى إنجيل العبرانيين الذى يجعله ابن يُوادا . وقد كان هذا الانجيل مستعملا فى فلسطين وسورية و بقى منه اثنتا عشرة قطعة وأشار إليه « إغناطيوس » فى رسائله إلى أهل إزمير و « طيطوس » و « فلاڤيوس » و « كليمان » و « أوريچينيس » و« أوريئيموس » . وليس فى هذا الانجيل ذكر لبكارة مريم . ثم إنجيل العبرانيين الإبيونيم وهم جماعات فى السامرّية كانوا يحافظون على بعض عادات اليهود لكنهم كانوا يمتنعون عن أكل اللحم وكانوا يحبون الاغتسال كثيراً ، و يعيشون فى الفقر . و إنجيلهم هذا مشتق من إنجيل الحواريين الاثنى عشر ، وليس فيه نسبة يسوع ، ولا حمل مريم له بصورة عجيبة ولا قصة ملوك المجوس ، ولا قصة فرار مريم بيسوع إلى مصر . وهم يقولون : إن يسوع هو ابن يوسف من مريم ، ولم تكن مريم بكراً ، ولا كان يسوع إلهاً . وقد حفظ أبيفانوس قطعة من هذا الانجيل . ثم الانجيل بحسب المصريين كتب باللغة الآرامية سنة ١٥٠ يقرب من إنجيل لوقا ، و إنجيل متّى ، وهو ينسب إلى يسوع ألفاظاً غريبة . وقد ذكره تيتوس ، وفلاڤيوس ، وكليمان ، وغيرهم . ثم الانجيل المتهوّد وهو منسوب إلى « فوسطُس كليمانس » ولا يوثق به . ووجد « بيكل » « Bickel » فى ڤينا قطعة من إنجيل لم يعرف صاحبه . و يوجد كتاب فيه كلمات منسوبة إلى يسوع لا توجد فى الأناجيل واسمه أغرافا « Agrapha » وكشف « ريفليو » قطعاً فيها أخبار عن مريم فى صغرها كان يسوع يحدث بها الرسل ، ونشر ذلك فى الجريدة الآسيوية . و وجد طرس فى البهنسا من مصر يحتوى واحداً وعشرين سطراً على الوجهين ، يظهر أن تاريخها راجع إلى سنة ٢٠٠ . ووجد خبر موت القديس يوسف الناصرى النجّار والد السيد المسيح ـ بحسب زعمهم ـ عثروا على ثمانى ورقات من هذا الكتاب . ووجد خبر موت العذراء مريم فى مخطوط قبطى نشره «ادوار دولوريبه Dawrulier»

ثم إنه يوجد أناجيل محفوظة بتمامها ووثائق أخرى ساميّة متعلقة بالسيد المسيح وعائلته منها الكتاب المسمى عقيدة أداى « Addai » وهو مؤلف سريانى من القرن الرابع

كتب تحت إملاء بارسلناك كاتب أبقار « Abgar » الأسود ملك الرها من سنة ١٣ إلى سنة ٥٠ وجد من هذا الكتاب مخطوط تاريخه القرن الخامس عشر عليه « كيرتون Cureton » سنة ١٨٧٦ وقد وجد في هذا الكتاب مكتوب من « أبقار » إلى يسوع يرجوه أن يحضر إليه في الرها حتى يشفيه من مرض هو مصاب به . ومكتوب من يسوع إلى أبقار يذكر له فيه أن كل من يؤمن به ينال الخلاص ، وأنه سيرسل إليه أحد تلاميذه ليشفيه من مرضه . وقد ذكر أوزيبيوس (٢٦٥ — ٣٤٠) هذين الكتابين في تاريخ الكنيسة ولم يشك كثير من العلماء في صحتهما ، منهم « تيلمونت Tillemont » والسمعاني و « كاف Cave » و « جراب Grabe » و « رنك Rinck » وفيلبُس .

ثم إنجيل برنابي وصاحبه يزعم أنه عاش في زمن يسوع ، وكان مخالطا له ولأمه وهو يذكر أنه لم يكن إلا نبياً من الأنبياء ، وأن الصلب إنما وقع على يهوذا الاسخريوطي لشدة شبهه بعيسى ، وأن عيسى رجع إلى أمه وتلاميذه ولم يصلب وهذا الكتاب هو تأليف أحد المسلمين .

قلنا : إن الحكم بدون دليل لا يصح ، فقول الدكتور بينيه سانغليه إن هذا الكتاب تصنيف أحد المسلمين بدون ذكر المسلم الذي صنفه بل بمجرد الظن ليس بوارد ، فالظن لا يغني من الحق شيئاً ، وكان عليه أن يأتي بالأدلة على هذا الزعم فان كان الدليل عنده على هذا هو نفي الصلب ، والقول بأنه وقع على غير عيسى تشبيهاً له به ؛ فليس المسلمون وحدهم قالوا بهذا ، وهذه الرواية موجودة من زمن عيسى نفسه . حتى أن أميل لودفيج اليهودي الألماني المشهور بتأليف التراجم ذكر في آخر كتابه الذي ألفه لهذا العهد عن المسيح أنه لما سرق النصارى جثة عيسى من المغارة بعد الصلب جاء اليهود وشكوا الى بيلاطوس النبطيّ سرقة جسد عيسى وقالوا له : كيف يمكن بدون التواطؤ مع الحكومة أن يتمكن النصارى من إخراج الجسد من المغارة! . وشائع اليوم كثيرا أن عيسى لم يصلب ، وأن الصلب إنما وقع على غيره . وقد استوفينا قضية الصلب هذه في حواشينا على « حاضر العالم الاسلامي » في عرض

الكلام على كتاب « درمنجهم » الذى أراد التوفيق بين الاسلام والنصرانية . فمن شاء فليراجعها هناك . وقد نشر الأستاذ صاحب المنار (رحمه الله) مباحث فى هذا الموضوع ورسالة سديدة لأحد الدكاترة المصريين .

وبديهى أن من الأناجيل المحفوظة بتمامها إنجيل مرقص ، و إنجيل يوحنا و إنجيل متّى ، و إنجيل لوقا ، وهى الأربعة التى يعول عليها النصارى .

ثم هناك كتاب يقال له ظولدوس يشوع « Toldos Jeschou » وهو مؤلف عبرانى من القرن الثانى عثروا عليه فى أواخر القرن الثالث عشر ، ونشر سنة ١٦٨١ وفيه أكثر القصص المذكورة فى الأناجيل ، وفيه ذكر موت يعقوب أخى المسيح . ثم تلمود أورشليم وبابل ، وفيه ذكر المسيح . ثم قصة المسيح وهو صغير بقلم توما الفيلسوف الاسرائيلى يذكر معجزات عيسى وهو محفوظ بكل من اللغات السريانية واليونانية ، واللاتينية . ثم مكتوب يسوع النازل من السماء ذكره « ليسنيانوس » أسقف قرطاجنّة فى القرن الرابع للمسيح . ثم تاريخ يوسف النجار كتب فى مصر في القرن الثانى وهو بالقبطية . ثم قصة مولد مريم وهى ثلاثة أقسام ؛ اثنان منها كتبا فى القرن الثانى ، والثالث فى القرن السادس . وفى هذا الكتاب مذكور ولادة مريم ومنشؤها فى الهيكل ، وزواجها وحملها بيسوع ، وغضب يوسف النجار عند ماعلم أنها حامل . وهذا الكتاب محرر باليونانية . ثم كتاب ولادة مريم وطفولية عيسى لمؤلف مجهول اسمه متّى و يظهر أنه من القرن السادس ، وفيه قصص وردت فى كتاب ولادة مريم ، وفى كتاب توما الفيلسوف الاسرائيلى ، مع زيادات ، وهو محرر باللاتينى . ومثله كتاب عن ولادة مريم أيضاً كتب فى القرن الخامس باللغة اللاتينية . ثم مكاتيب السيدة مريم إلى أهالى مسّينى ، وفلورانسا ، وجواب السيدة مريم إلى أغناطيوس ، وهذه المكاتيب ظهرت سنة ١٤٩٥ فى خاتمة تاريخ توما دوكانتربورى « Thomas de Cantorbery » ثم كتاب عن مريم أيضا جاء ذكره فى منشور البابا جيلاسيوس وهو منسوب إلى يوحانان بن زبده . وقد وصل إلى الناس هذا الكتاب بالعربية . وكتاب آخر يتعلق بمريم تأليف « ميلتون »

مطران السارد تاريخه القرن الثانى . ثم رسالة للقديس يوحانان اللاهوتى على قيامة مريم من بين الأموات مظنون أنه كتب فى القرن الثانى عشر . ثم الانجيل المسمى بانجيل الحداثة كتبه أحد النساطرة الذين ينكرون وجود المطهر ، ولا يقولون بعزوبة القسيسين ، وقد وصل إلى الناس باللغة العربية ، ولعله مترجم عن السريانى ثم الرسائل المنسوبة إلى يعقوب بن يوسف ، و إلى يهوذا بن يوسف إخوة المسيح . ثم أعمال الرسل تأليف لوقا ، ثم تاريخ الرسل تأليف أوباديا ـ أو عُبَادية ـ كتب بالعبرانى فى صدر النصرانية . ثم تاريخ الكنيسة لأوزيبيوس (٢٦٠ — ٣٤٠)

فجميع هذه الكتب ما عدا الأناجيل الأربعة عدت أحاديث خرافة ، وحرمتها الكنيسة ، واضطر الذين بأيديهم منها شىء أن يخفوه . و برغم هذا فقد كانت من القرن الخامس إلى القرن السادس عشر منتشرة جداً ، وربما كانت هى السبب فى انتشار العقيدة المتعلقة بمريم حتى انتهى الأمر بأن عبدوها . فأما الأناجيل الأربعة فقد تقررت صحتها فى المجمع اللاوديقى فى أيام البابا سلفستر الأول (٢٧٠ ـ ٣٣٧) وفى مجمع قرطاجنة المنعقد سنة ٣٩٧ وقد ثبّت ذلك البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ وأقدم هذه الأناجيل الأربعة إنجيل مرقص ، وهو رأى « ڤيلكه » « Wilke » و « ڤايس Weiss » و « أرنست رينان » و « جول سورى » و « ألبير ريفيل » و « إدمون ستاپفر » وليس فى هذا الانجيل صنعة ولا اهتمام بتأييد العقيدة ، بل هو يذكر الحوادث كما هى بدون زيادة ولا نقصان ، وليست فيه النسبة الداودية ولا أعجوبة الحمل ، ولا ميلاد المسيح ولا صعوده ، و إنشاؤه ساذج ، ولذلك فقيمته التاريخية عظيمة ، و يأتى بعده إنجيل متى وقد كتب بالعبرية ، وترجم إلى اليونانية ، وكاتبه يروى روايات غير مضبوطة ، فيها كثير من التعسف ، و يزيد و ينقص ، و يحرف و يبدل ، و يضع فى يوم واحد حوادث وقعت فى يومين مختلفين ولا يتنبه إلى أنه قد روى القصة مرتين ، و يحاول أن يعلل كيف أن يسوع الذى كان أكبر من يوحنا المعمدان جاء يطلب من يوحنا أن يعمده . وفى المحل الذى يذكر مرقص مريضاً واحداً نال الشفاء على يد عيسى يذكر هو مريضين ، وفى المحل

الذى يقول مرقص فيه لفظه « كثير » يقول متَّى « الجميع » والفتاة النائمة يقول عنها إنها ميتة ، وقد ورد فى إنجيل مرقص : « لماذا تدعوننى صالحاً . مامن صالح غير الله » فمتَّى يبدل ذلك قائلا عن لسان المسيح « لماذا تسألوننى عما هو صالح لايوجد إلا صالح واحد » و محل « طوبى للفقراء » يقول «طوبى للفقراء بالعقل » ومحل « الجياع » يقول « الجياع إلى العدل » ثم إن متَّى يحذف الجملة التى وردت فى إنجيل مرقص من أن أقارب يسوع ظنوا به جِنّة ، ومتَّى يتعب كثيراً فى إثبات أن عيسى ولد فى بيت لحم وأن جميع النبوات المتعلقة بالمسيح قد تمت به ، وهكذا يؤوّل ما جاء فى العهد العتيق متعلقاً بحوادث لا صلة بينها و بين المسيح ، وهو يحذف ما جاء فى إنجيل مرقص من زيارة النساء لقبر المسيح وكونهن لم يكنّ منتظرات قيامه من بين الأموات . ثم إنه يذكر التوراة إحدى عشرة مرّة ، وفى نقله عنها يخلط خلطاً كبيراً ، إما فى النص أو فى اسم القائل ، إلى غير ذلك من التحريف والتبديل وفيه كثير من الخرافات . اهـ

فأنت ترى أن مؤلف هذا الكتاب الذى لا يوجد أوسع منه فى هذا الباب يطرى فى الصدق إنجيل مرقص ، و يبالغ فى انتقاد إنجيل متّى . والحال أنه منذ ثلاث سنوات ظهر كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » تأليف الأستاذ « بروسبير الفاريك Prospere Alfaric » المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الأستاذ المذكور مذهب من يرى أن أكثر ما ورد فى إنجيل مرقص مطبق عمداً على نبوّات سبقت فى العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وهذا من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يثبت كل ما هناك من التناقضات تارة ، ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً ، مثل أن الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب ، وأنه انشق حجاب الهيكل ، وغير ذلك من القصص . وكذلك ظهر كتاب جديد اسمه حياة يسوع للمسيو « موريس غوغويل Goguel » من علماء فرنسا توخّى فيه الرد على الدكتور « كوشو Couchoud » الافرنسى وغيره من

علماء الألمان والانجليز والهولنديين الذين لم يجدوا فى الأناجيل حقائق تاريخية تثبت على التمحيص ، بل كل ما وجدوا فيها تقريباً هو من باب الدعاية الدينية المحضة . ومنهم من رجح كون المسيح رمزاً ، وأنه لم يوجد أصلا . فالمسيو غوغويل يبين ما فى هذه الأقاويل من المبالغات ، وهو يقول إن وجود عيسى محقق ، وأن الأخبار الواردة فى الأناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها ، وهو يرى أن ادعاء كون المسيح رمزاً فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل.

نعم أن المسيو موريس غوغويل يعتقد أن كثيراً من روايات الأناجيل غير واقعية ، بل مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية ، أو بحسب الاعتقاد وأن هذا فى واد والتاريخ في واد . وكذلك رينان فى كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات على النبوات السابقة تعمّداً أو تعملاً .

ولنعد إلى بحث الدكتور « بينيه سانغليه » فهو يذكر أن انجيل لوقا كتب سنة ٦٤ وأن لوقا لم يكن من الذين عاصروا المسيح ، ولا كان يهوديا ، ولكن فى كلامه كثير من العبرى والآرامى فهو بدون شك من أصل سامى . وقد كان لوقا فيما يظهر من المتصوفة وكان مذهبه فى التاريخ أن يجمع و يرتب الحوادث بدون اعتناء فى أمر صحتها وعدمه . ولكنه لم يكن يسلم من التكرار والتناقض . و يظهر أنه كان طبيباً ، وله عدا الانجيل المذكور كتاب اسمه « أعمال الرسل » . وهذه الأناجيل الثلاثة لم يأت القرن الثانى للمسيح حتى كانت هى المساند المعول عليها عند جميع النصارى . أما إنجيل يوحنا بن زبدى فقد كتب بين سنة ٨٠ و ٩٠ في آسيا الصغرى وهو يأخذ عن الأناجيل السابقة ، وعن وثائق لم يطلع عليها مرقص ومتّى . وقد كان يوحانان هـذا يهوديا وكانت كتابته بالعبرانية ، وكان مطلعا على العهد العتيق ، وكان يجتهد فى إثبات أن المسيح هو ابن الله ، و يأتى بجمل من العهد العتيق ليستخرج منها إشارات إلى مجىء المخلّص ، و يكثر من الكنايات والاستعارات والتأويلات ، وعند ما يذكر أن المسيح قال : « اهدموا هذا الهيكل وأنا أقيمه بعد ثلاثة أيام » زعم أن مراده بالهيكل إنما هو جسده ! و برغم كل هذا فالذين حكموا بصحة هذا الانجيل عدد لا يحصى من

العلماء ، وذهبوا إلى أنه ناقل أمين ، وأن يوحانان هذا كان أعلم بالأسماء والأعلام من أصحاب الأناجيل الأخرى ، وربما أوضح أموراً من أحوال المسيح وعلاقاته مع أحبار اليهود وأعماله فى القدس قد فاتت أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى .

و برغم أن فى كلامه عن أيام المسيح فى القدس بعض سقطات فهو فى هذا الموضوع أعلى درجة من مرقص ومتى ولوقا . وذهب بعضهم إلى أن يسوع فى إنجيل يوحانان هو يسوع الحقيقى التاريخى . وقال آخرون : إن أوثق الأناجيل هما إنجيل مرقص ، و إنجيل يوحنا المذكور . وطعن بعضهم فى يوحانان المذكور فقالوا : إنه كان جاهلا متكبراً متعصباً منتقما ، وكانت فيه ميول شاذة ، وكان تلميذا ليوحنا المعمدان وأن والده كان صياد سمك فترك والده واتبع المسيح ، وقال عن نفسه : إنه التلميذ الذى كان يسوع يحبه ، و بعد موت المسيح صار من رؤساء الفرقة المسيحية ، فحبس واضطهد ، وكانت وفاته فى أفسوس سنة ٩٨ . وقد كان لانجيله نجاح عظيم ، لأن الناس كانوا يعلمون خلطته بالمسيح من البداية ومن قبل متى . وقد سأله بعض المؤمنين عن رأيه فى أصحاب الأناجيل الثلاثة التى سبقته فقال : إن الذى أهملوه من جهة المعجزات التى يجب أن تروى كان شيئاً قليلا . فرغب إليه المؤمنون بسدّ النقص الذى وقع فى الأناجيل الأخرى ، فكان ذلك هو الحامل له على وضع إنجيله .

وكانت هذه الأناجيل الأربعة مكتوبة على ورق البردى ، وما انتهى القرن الثانى حتى وجد منها ستون ألف نسخة ! ويقال إنه يوجد اليوم ١٠٧٧ مخطوطاً من الأناجيل الأربعة ، و إن أقدمها هو إنجيل تاريخه القرن الرابع عشر عليه «تشندورف» فى جبل سيناء فى ٤ فبراير ١٨٥٩ . انتهى .

ثم إن الدكتور بينيه سانغليه تكلم عن قيمة الأناجيل التاريخية فنقل أكثر الأقوال المختلفة فى هذا الموضوع ، ورجح الرأى القائل بأن أصحابها كانوا قوما سذّجاً رووا الأمور على علاتها ، وأنهم لو كانوا من أهل الصنعة والدهاء لم تقع فى أناجيلهم الأغلاط والتناقضات التى وقعت . نعم أن سذاجتهم أوقعتهم فى أخطاء كثيرة كما هو الشأن فى كل ساذج يريد أن يروى قصة ، لكن مما لاجدال فيه أنهم لم يضعوا

أكاذيب من عندهم ، وغاية ماهناك أن هوسهم كان يحملهم على نقل أشياء غير مطابقة للواقع . اه ملخصاً .

فالقارىء يرى مما لخصناه هنا عن العهدين العتيق والجديد أن الاختلاف واقع فى كل منهما . فالعهد العتيق قد أضاف إليه اليهود مالا يليق بالكتب المنزلة بوجه من الوجوه كما تقدم الكلام عليه ، فلم يكن التبديل منحصراً فى تحريف الكلم ، ولا فى تأويله كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون رحمه الله ، هذا فضلا عما وقع من الاختلاف فى الأقسام التى يجب أن تعد من التوراة ، والأقسام التى يجب إخراجها منها .

وأما العهد الجديد فان التناقضات واقعة فيه من كل مكان ، فمنه أناجيل رفضتها الكنيسة بالمرة ، ومنه أناجيل لم ترفضها الكنيسة بالمرة ولكنها لم تدخلها فى الكتب الكنسية المعول عليها ، ومنه الأناجيل الأربعة التى قررت المجامع العمل بها . وليس رفض الكنيسة لبعض الأناجيل و بعض التواريخ المتعلقة بالعهد الجديد دليلا كافيا على عدم صحتها ، لأن الكنيسة تنفى كل ماهو خارج عن عقيدتها ، ودليل ذلك أن ما ينفيه الكاثوليك مثلا قد يثبته البروتستانت ، فالاختلافات بين الأناجيل المردودة والأناجيل المصدقة لا تكاد تحصى . وأهم من هذا أن الأناجيل المصدقة والمعول عليها هي أيضا لم تسلم من الاختلافات ولا من الأخطاء كما أجمع على ذلك العلماء الأوربيون الذين محصوها .

وقد يعترف العلماء المسيحيون أيضا بوقوع الاختلاف فيها ، لكنهم يردونه إلى التأويل ، و يجعلونه من الأعراض التى لا تمس جوهر الحقيقة ، وهذا فيه نظر . وعلى فرض جواز هذا القول فان وجوه الاعتراض الكثير الواقع على الأناجيل من جهة العلماء المدققين غير المؤمنين بالدين المسيحى إنما هى من مخالفة رواياتها للسنن الطبيعية ومن جهة كونها إنشاء جماعة إن لم يجز وصفهم بالكذب لم يجز وصفهم بالعلم وهذا كله لا ينفى ما يجب من حرمة التوراة والانجيل وتقديسهما وفقا لما فى القرآن العظيم الذى يوجب لهما هذه الحرمة من حيث وجودهما الأصلى ، ولكنه لم يضمن صحة نسخ التوراة ونسخ الأنجيل التى تعاورتها أيدى الناس بالحذف والتبديل بحسب الأهواء ، والله تعالى من وراء العلم .

تاريخ العرب الأولين

تعليق على ماجاء فى السطر ١٨ من الصفحة ٢٣ من الجزء الأول من ابن خلدون

لايزال المؤرخون عموماً ، والمتخصصون فى تاريخ الأمم السامية ، متفقين على كون تاريخ العرب القدماء غامضاً ، وأنه لايزال مفتقراً إلى وثائق كثيرة تجلو حقيقته ولقد عثروا على كتابات غير قليلة كشفت بعض نواح منه ، إلا أن كثيراً من هذه الكتابات لايزال مجهولا ، وما دام هذا القسم من الكتابات لايزال مغيبا ، فلا يزال تاريخ العرب الأولين ناقصا . والآن تجد معول المؤرخين فى هذا التاريخ على بعض الكتابات التى تمكنوا من حلها فى بلاد العرب ، وعلى ماهو وارد فى تواريخ الأمم الأخرى من بابليين وأشوريين ومصريين وعبرانيين ويونانيين ورومانيين وكذلك على ماهو وارد عن علماء الاسلام بشأن عرب الجاهلية .

وقد جاء فى الكتابات البابلية الخزفية التى عثروا عليها مايدل على وجود ملك إسمه « مانيوم » كان ملكا على « ماغان » أو بلاد العرب الشرقية . ويظنون أن « ماغان » هذه هى معان ، كما أنه ورد فى محل آخر ذكر « ملوخ » الذى يظن أن منه اشتق اسم العمالقة . وكان السومريون ذوى علاقات مع هؤلاء ، ثبت إذن وجود العمالقة فى التاريخ منذ ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح . فأما الكتابات التى عثروا عليها فى جزيرة العرب فهى ترجع إلى ألف سنة فأكثر قبل المسيح ، وأكثر من خدم العلم فى كشف هذه الكتابات المنقوشة على الصخور هو بحسب ماورد بالانسكلوبيدية الاسلامية يوسف هاليفى «Goséphe Halevy» وأدوار غلازر «Edoird Glaser» وهذه الكتابات تنقسم إلى قسمين بحسب اللغة : فالأول هى المعينية ، والثانى هى السبئية نسبة إلى معين وسبأ ، وهما قبيلان يقال إنهما من حضرموت . وفى سنة الخمسمائة قبل المسيح كان ملوك مأرب فى اليمن يطلق عليهم لقب ملوك سبأ ، ثم ظهر بعدهم الحميريون وتمكنوا فى مأرب أيضاً . وفى نحو السنة الثلاثمائة قبل المسيح كان يقال للواحد من

هؤلاء ملك سبأ وذى رَيْدَان وحضرموت ، ثم أضافوا إلى ذلك اللقب جملة « وعربهم فى الجبل وتهامة » و بقى ملك الحميريين هؤلاء إلى ما بعد استيلاء الأحباش على اليمن أى فى القرن الرابع بعد المسيح إلى القرن السادس .

وقد وجد العلماء كتابات منقوشة على الصخور من ذلك العهد . وكان غلازر الآنف الذكر هو الذى كشف الكتابة الطويلة المتعلقة بسيل العرم ، أى انفكاك سد مأرب ، وهو الحادث العظيم الذى وقع فى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين بعد المسيح وهذه الكتابة كتبها أبرهة ونصها : (بقوة الرحمان «رحمانان» ولطفه ورحمته و بمسيحه والروح القدس نقشت هذه الكتابة على الحجر بأمر أبرهة الوالى من قبل الملك اليكسومى «رامفيس ذى بيامان» ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت و يمنات وعربهم فى الوعر والسهل) . ثم يوجد فى هذه الكتابة إشارة إلى رسل ملك الروم وملك فارس والمنذر والحارث بن جَبَلة ، مما يدل على أن دسائس كل من الدولتين الرومية والفارسية كانت بدأت فى جزيرة العرب منذ ذلك العهد ، ولم يطل الأمر حتى خلع أبرهة عامل الحبشة آخر الملوك الحميريين الملقب بذى نواس ، وأزال مملكة حمير وأبرهة هذا هو الذى زحف إلى مكة ومعه الفيل و إليه أشار صاحب البردة بقوله :

كأنهم هرباً أبطال أبرهة أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى

وفى ذلك الوقت تغلب العجم على اليمن لعهد كسرى الأول ، فاستناب عنه رجلا يقال له وهريز . ولما ظهر الاسلام كان فى اليمن عامل لكسرى أبرو يز الثانى يقال له « باذان » فأسلم ودخل بعد ذلك اليمن فى الحوزة المحمدية ، ولم يقدر العلماء أن يكشفوا شيئاً عن المملكة السبئية يرجع الى أقدم من سنة سبعمائة قبل المسيح .

فأما المعينيون فالمظنون أن الكتابات المتعلقة بهم ، تملأ تواريخها خمسة قرون و يظهر أن المعينيين كانوا معاصرين للسبئيين ، وغاية ما هناك أنهم رجحوا أن أقدم الكتابات السبئية يرجع تاريخها إلى أحدث الكتابات المعينية ، وقد جاء فى الكتابات المعينية ما يثبت وجود دولة السبئيين فى اليمن . وكان ملوك المعينيين مثل « خالي كاريبا صادوقِ » و « يحتيل ريام أبو تبع كرب » فى الزمن الذى كان فيه

ملوك سبأ ، والمظنون أن هذا كان بين سبعمائة وستمائة سنة قبل المسيح ، وقد جاء فى كتابة معينية مايفيد أن السبئيين وقبيلةأخرى اسمها «خولان» كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدى من نجران إلى معان فى بلاد الشراة جنوبى سورية ، وقد أشار كتاب أيوب من التوراة إلى هذه الغارات .

ووجدت كتابات أشورية سابقه لسنة السبعمائة قبل المسيح فيها إشارة إلى وجود أمير من سبأ اسمه « أيطع آماده » يظن أنه كان فى بلاد العرب الوسطى . وفى المظنون أيضاً أن ملكة سبأ كانت مالكة لشمالى بلاد العرب . هـذا ولم تنفرد سبأ ومعين بملك اليمن ، بل كان هناك دولتان قحطان وحضرموت ، فالجملة دول أربع أعظمها سبأ .

وكان للمعينيين مستعمرة فى مدين نظراً لتجارتهم بالطيب ، وقد ثبت ذلك من كتابات كشفها العالم (أوتنغ Eutung) فى « العلى » شمالى المدينة المنورة . وسقطت دولة المعينيين فى نحو الستمائة والخمسين قبل المسيح ، وقد ورث السبئيون مستعمرتهم فى مدين . وفى ذلك الوقت تقدم نحو بلاد العرب دول أخرى مثل حكومة « نبوكدنصر » ، فقد كشف أوتنغ و «هوبر Huber» فى تيماء كتابات تدل على كون حكم الآراميين البابليين وصل إلى هناك ، وربما كان الملك العربى الذى أشار إليه هيرودوتوس بأنه عاش في نحو السنة الخمسمائة والعشرين قبل المسيح هو ملك اللحيانيين الذى قال بلينوس الرومانى المؤرخ « Pline » إن عاصمته كانت هَجَر . فاللحيانيون هؤلاء يجوز أن يكونوا ورثوا المعينيين والسبئيين ووجدوا قبل النبطيين أى كانت دولتهم بين الخمسمائة والثلاثمائة سنة قبل المسيح . ثم ظهرت آثار النبطيين فى القرن الثانى قبل المسيح ، وبقيت دولة هؤلاء النبطيين إلى سنة مائة وستة قبل المسيح ، إذ تغلب عليهم الرومان . وكانت مدينةالنبطيين هى بتراء ـ أى وادى موسى اليوم ـ وكان يمتد ملكهم إلى مدين وبلاد بنى سُليم الوارد ذكرها فى نشيد الانشاد من التوراة ، وقد عثروا فى وعرة الصفاة من حوران على كتابات مشابهة لحروف الهجاء العربية اليمنية . أما الكتابة النبطية — موصولة الحروف — فهي مشتقة من

الفرع الآرامى من الكتابة الكنعانية ، أو يرجح أنها هى أصل الكتابة العربية التى اصطلحوا عليها فى القرن الثالث بعد المسيح .

وأقدم كتابة عربية معروفة اليوم هى كتابة « نماره » فى شرقى حوران ، تاريخها سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين بعد المسيح ، وهذه الكتابة تتعلق بملك يقال له امرؤالقيس بن عمرو ملك العرب ، وملك أسد وطئ ونزار ، ومن هذه الكتابة يعلم أن ملك امرىء القيس هذا كان يمتد إلى نجران اليمن .

جاء فى الانسكلو بيديا الاسلامية أنه ربما كان امرؤالقيس هو أحد ملوك المناذرة اللخميين . قلنا : هذا محقق إذ جاء فيهم بحسب مافى تاريخ أبى الفداء ذكر امرؤالقيس ابن عمرو ، ثم عمرو بن امرىء القيس ، ثم امرىء القيس المحرق بن عمرو وهو والد النعمان الأعور ، ثم جاء امرؤ القيس بن النعمان . وقد تابع أبا الفداء فى ذلك جرجى زيدان السورى ، وعلى ظريف الأعظمى العراقى ، وقابلنا بين هذه السلسلة التى ذكرها كل منهما و بين تاريخ صالح بن يحيى التنوخى فوجدنا أن فى سلسلة صالح ابن يحيى ذكر امرىء القيس بن النعمان الأعور بن امرىء القيس المحرق بن عمرو بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى ، وقابلناها مع سجل نسب العائلة الارسلانية اللخمية فوجدنا أن المنذر الذى أمه ماء السماء ، أى المنذر الأول هو ابن امرىء القيس الثالث بن النعمان الثانى بن امرىء القيس الثانى بن النعمان الأول ابن عمرو الثانى بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى .

فمن هنا يعلم أنه يوجد عدة ملوك من اللخميين باسم امرىء القيس ، ولكن المقصود بالذات هنا هو الملك الذى تولى منهم بين سنة مائتين وخمسين وثلاثمائة وثلاثين بعد المسيح .

فهذا هو امرىء القيس الأول الذى يقال له المحرق ، ويقال له البدء ، فانه ملك بين سنة مائتين وثمان وثمانين ، وثلاثمائة وثمانية وعشرين . وقد كان اللخميون عمالا للأكاسرة كما كان الغسانيون عمالا للقياصرة ، وكان مقصد ملوك الفرس باستعمال ملوك الحيرة أن يكونوا فاصلا بين الفرس والعرب ، ويصدوا غارات القبائل العربية

على العراق . ومثل ذلك كان مقصد ملوك الروم بواسطة الملوك أولاد جفنة الغسانيين ردع العرب عن شن الغارات فى جنوبى سورية .

فهذا جل ما يعرف من تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكلما توغل هذا التاريخ فى القدم يزداد غموضاً كما لا يخفى . غير أن هناك حقيقة اتفق عليها الباحثون من علماء الأفرنجة ، ولا سيما الذين نقبوا عن الكتابات الحجرية المبثوثة فى جزيرة العرب . وهذه الحقيقة أنه فى نحو الألف سنة قبل المسيح كانت للعرب ـ لا سيما فى اليمن ـ مدنية فى غاية الارتقاء والازدهار . وبعض العلماء يذهب ومنهم صاحبنا الأستاذ المستشرق « موريتز Morits » الألمانى إلى أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغلوفية كان فى اليمن ، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة ، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأى المشهور .

وقد أفضى موريتز إلىّ بأدلته على هذا الرأى وقال : إن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية ، ثم إن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين وعنهم أخذ الرومانيون ، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة فى العالم ، وبهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية .

وأما المستشرق «هومل Hommel » ففى الانسكلوبيدية الاسلامية يذكر أخذ اليونان عبادة أبولون وأمه « ليتو ـ Leto » عن العرب . وقال روبيرتسون سميث «Robertson Smith» إن ليتو هذه هى اللات ، وإن اليونان بحسب رأى بريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن ، والبعض الآخر عن كتابة الكنعانيين قال هومل : إن جنوبى بلاد العرب كانت فيه مَدَنيّة فى أوائل الألف قبل المسيح بالغة الحد الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون ، ومحافد وقصور ، وكتابات .

فأما الكتابة الحميرية وهى التى يقال لها الخط المسند ؛ فقد جاء فى الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » للفيلسوف العربى الحسن بن أحمد الهمدانى صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » تصوير هذه الكتابة كما سيأتى . وقد اشتهر كتاب «الاكليل» كثيراً ، ولكن أكثره مفقود حتى فى بلاد اليمن نفسها ، فقد بحثنا عنه فلم نجدهم

يذكرون إلا جزئين ، والحال أنه عشرة أجزاء ، الأول مختص بالمبتدأ وأصول الأنساب ، والثانى نسب ولد الهميسع بن حمير ، والثالث فى فضائل قحطان ، والرابع فى السيرة القديمة إلى عهد تبع أبى كرب ، والخامس فى السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذى نواس ، والسادس فى السيرة الأخيرة إلى الاسلام ، والسابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، والثامن فى ذكر قصور حمير ومدنها وما حفظ من شعر علقمة والمراثى والمساند ، والتاسع فى أمثال حمير وحكمها باللسان الحميرى وحروف المسند ، والعاشر فى معارف حاشد و بكيل .

وقد اطلعت على الجزئين الثامن والعاشر فى المكتبة الملوكية فى برلين وأخذت صورتهما بالفوتوغرافيا ، وعلمت أن أحد هذين الجزئين لا يزال محفوظاً فى استانبول كما أنى علمت أن الجزء الثامن الذى يدور على القصور والمحافد والمساند قد طبعه الدكتور مولر وشرحه سنة ١٨٧٩ ، وأما سائر الأجزاء فما علمنا بوجودها .

و إليك الآن ما جاء فى الجزء الثامن عن الخط المسند ، قال الهمدانى : باب حروف المسند ، وهو كتاب حمير ومثلاته فى حروف ا . ب . ت . ث وغيرها . قال الهمدانى : أكثر ما يقع بين الناس الخلف فيما تقولوه فى لسان حمير من اختلاف صور الحروف ، لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون الذى يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة ، فلما وقع الخلل فى هذا الموضع رأينا أن نثبت تحت كل حرف من حروف ؛ ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، صورة جميعها . و إنما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتاب العربى ، وكانوا يطرحون الألف إذا كانت وسطاً مثل ألف همدان ، وألف ريام ، فيكتبون ريْم وهمدْن ، كذلك تبع كتّاب المصاحف الحروف فى مثل الرحمْن ، وألف إنسان ، ويثبتون ضمة آخر الحرف وواو عليهمو .

(إلى أن يقول) : ويقرأون كل سطرين بخط ، ويفصلون بين كل كلمتين فى السطر بخط ، ومثال ذلك فى أول مسند هذه صورته :

والذى عليه جمهور المؤرخين والمنقبين اليوم وفى مقدمتهم سبرنجر ، وشرادر ؛ هو أن جزيرة العرب هى مهد الأمم السامية ، وأن المهاجرة بدأت منها إلى الخارج .

وقد خالف فى ذلك بعضهم وذهبوا إلى أنه يجوز أن يكون وقوع المهاجرة بالعكس أى بدلا من أن يكون العرب ارتحلوا من الجزيرة إلى بابل ؛ يجوز أن يكون بعض الأقوام الذين على شواطىء الفرات قد ارتحلوا منها إلى الجزيرة العربية ، فأما كون البربر هم من العرب ، وأنهم جاءوا من جزيرة العرب ، وأن اللغة البربرية هى من اللغات السامية ؛ فهذا سيكون البحث فيه بمكان آخر .

فبعض العلماء ومنهم « نولدكه » المستشرق الألمانى المعروف يقول بهذا الرأى

و بعضهم يردّه ، وقد ذهب « هومل Hommel » إلى أن السبئيين كانوا فى الجوف فى شمالى بلاد العرب (التابعة لابن سعود اليوم) وأنهم تقدموا منها إلى الجنوب . وقد جاء ذكر سبأ فى التوراة مراراً ولكن بأقوال يناقض بعضها بعضاً ، وإنما يمكن الاتفاق على أن السبئيين كانوا تجاراً فى تلك الأعصر يبيعون عود الطيب فى مصر والشام ويتجرون بالحجارة الكريمة . والتوراة تشير إلى ثروة السبئيين ، ويؤيد ذلك مؤرخو اليونان والرومان .

وقد ذكر «سترابون» المؤرخ الجغرافى اليونانى ، أن الرومانيين فى زمن أغسطس غزوا سبأ ، وذلك سنة ٢٤ ـ أملا بالاستيلاء على أموال هذه الأمة ـ ففشلت هذه الغزوة الرومانية فشلاً تاماً ، ولكنها عرفت الرومانيين ببلاد العرب . فقد جاء فى كتب مؤرخى الرومان واليونان مثل « ديودور » و«هيرودوت » وغيرهما ، كلام كثير عن حضرموت واليمن ، ووجد مطابقاً للكتابات التى عثروا عليها فى جنوبى الجزيرة العربية . ومن ذلك كله يظهر أن أهالى اليمن كانوا أشداء فى الحروب ، أصحاب إقدام ونشاط فى الأعمال ، وكانت لهم زراعة راقية جداً ، وتجارة ممتدة إلى سائر الأقطار وعلاقات اقتصادية مع مصر وفينيقية ، وكان لهم قيام على الملاحة وركوب البحر يعجب به المؤرخون .

وكان السبئيون سبّاقين فى هذه المزايا كلها ، وكانوا أصحاب يسار وترف . ولكن يظهر أنه لما غزا الرومان تلك البلاد بقيادة « جالّوس Gallus » كان قد بدأ ظهور دولة الحميريين ، وكان قد تقهقر السبئيون . فالقائد جالّوس يذكر أنهم ـ أى الحميريين ـ أصحاب الكلمة العليا فى اليمن .

وقد كان هذا فى القرنين الأول والثانى قبل المسيح . ولكن السبئيين بحسب ما جاء فى تاريخ « بلين الرومانى » كانوا لا يزالون ذوى سيادة ومكانة ، وكانت بقيت لهم بعض المدن ، وهذا مؤيد بالكتابات المنقوشة على الصخور ، وبآثار العمران ، من أقنية وسدود وصهاريج ، وبأقوال الهمداني صاحب كتاب « الإكليل وصفة جزيرة العرب » .

وقد ذكر بلين الرومانى معادن جزيرة العرب ، واستخراج هذه الأمة للذهب الذى زاد في ثروتها ، وسهل طرق مدنيتها . وأما محصول الطيب فقد كان خاصاً بالسبئيين والمعينيين .

و فى أوائل القرن الثانى قبل المسيح تقدم الأحباش إلى بلاد سبأ ، وصار «أيزاناس» يلقب بملك حمير وسبأ ، و يستدل من الكتابات المنقورة فى الصخور أنه من نهاية القرن الثالث إلى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح لم يكن فى اليمن ملوك من أهل اليمن أنفسهم ؛ وأن الحكم كان قد صار للحبشة ، ولذلك منذ أواخر القرن الرابع لا تكاد تجد ذكراً لسبأ فى كتابات اليونان والرومان .

وقد كان «سبرنجر» منذ نصف قرن لا غير يقول : إن مؤرخى اليونان و بلين الرومانى هم الذين نستقى منهم جميع المعلومات عن السبئيين ، وكذلك قبل هذا التاريخ كانت جميع المعلومات التى لدينا عن جنوبى بلاد العرب هى ما جاء فى العهد العتيق ، وما يتناقله العرب من القصص التى فيها من التخيل أكثر مما فيها من الحقيقة . فلما عثر المنقبون على ما عثروا عليه من الكتابات هناك انكشف لديهم ما يجدر بأن يسمى تاريخاً ، والفضل أكثره فى كشف هذه الكتابات راجع إلى غلازر

وقبل غلازر كان « كارستن نيبور Caresten Nie Buhr» ذهب إلى جزيرة العرب فى بعثة علمية أنفذتها الحكومة الدانمركية سنة ١٧٦٣ ، وكان فيها « راتكن الألمانى » حدثنى بذلك حفيده الأستاذ راتكن فى هامبورغ .

فهذه البعثة التى هى أول بعثة علمية إلى جزيرة العرب تنبهت لقضية الكتابات المنقوشة على الصخور ، فجابت البلاد من لحية ، إلى مخا ، إلى تعز ، فصنعاء ، وكان غرضها معرفة الجغرافية وأحوال السكان ، وأصولهم وأنسابهم ، مع درس طبقات الأرض ونباتاتها ، لكنها علمت بوجود كتابات فى ظفار لم تصل هى اليها ، غير أن هولنديا كان قد أرسل إلى هذه البعثة نسخة عن كتابات عثر عليها . وعلى كل حال فأول من نبّه إلى هذه الكتابات ووجوب حلها خدمة للعلم هو « نيبور الدانمركى » ثم تلاه « ستزن Seetzen » من أولدنبورغ فانه نسخ الكتابات المنقوشة على صخور

ظفار وأرسل نسخة عن بعض جمل سبئيّة إلى أور با وذلك سنة ١٧١١ ، ولم يفهموا مآلها في أول الأمر ، ثم توصلوا إلى حلها فاشتدت رغبتهم في معرفة غيرها .

وفي سنة ١٨٣٤ كشف الانجليزي «ولستيد Wellsted» كتابة في حصن غراب على ساحل حضرموت ، وكتابة في محل يقال له « نقاب الحجر » وفي سنة ١٨٣٦ كشف « كروتندن Cruttenden » خمس قطع سبئيّة في صنعاء ، ثم نشر الرحالة « ڤريده Wrede » في سنة ١٨٧٠ كتابات وجدها في حضرموت ، ثم إنه جاء «أرنود Arnaud » وهو أول أور بي توصل إلى سد مأرب فنسخ عما وجده في مأرب وفي صنعاء ٥٦ كتابة أكثرها كان جملا قصيرة ، ثم كثر الاطلاع على هذه الكتابات في بلاد اليمن . وكان الفضل في حل هذه الكتابات ومعرفة معانيها إلى « جيسنيوس Gesenius » و«روديجر Rodiger» سنة ١٨٤١ وإلى «أوزياندر Oseander» (سنة ١٨٥٦ — ١٨٦٣) واطلعوا على كتاب ليعقوب بن صافر اليهودي كتبه بالعبري في سنة ١٨٦٦ فانه ذهب من الحديدة إلى عمان على طريق صنعاء ، وجاء في كتابه بمعلومات ذات قيمة ، وبها استدل « هاليڤي Halévy » على الأماكن التي يجب ارتيادها لاجل الاطلاع على الكتابات الحجرية .

ويُظنّ أن هاليڤي كان أول أور بي تمكن من الايغال إلى وادي نجران ، وإلى الجوف اليماني مركز بلاد معين . وبذلك تمكن من الاطلاع على كتابات كثيرة من أقدم عهود البشرية ، ولم يطلع عليها بعده غيره من الأورو بيين . فنسخ هاليڤي ٦٨٦ كتابا منها خمسون من الكتابات الطويلة ، ومن هذه الخمسين ثلاثون معينيّة .

وقد كان ما اطلع عليه هاليڤي هذا هو الأساس الذي اتخذه العلماء للتاريخ العربي المتعلق بجنوبي جزيرة العرب .

ثم ذهب إلى هناك الكابتن « ميلز Miles » ثم «هينرك ملتسان Heinrich Von Maltzan » الذي ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠ ثم «ميلنجن Millingen» الذي ذهب من الحديدة إلى صنعاء سنة ١٨٧٣ ثم «مانزوني Manzoni» الذي جاب البلاد بين عدن وصنعاء والحديدة سنة ١٨٨٠ ثم «شابيرا» الذي جوّل في تلك البلاد سنة ١٨٧٩

ثم « هاريس Harris » الذى ساح فى اليمن سنة ١٨٩٣ . ولم يأت هذا الأخير بكتابات جديدة ، ولكنه أتى بمعلومات عن تلك البلاد مهمة . ثم جاء « لانجر Langer » النمساوى فتوصل إلى ٢٢ كتابة لم تكن معروفة من قبل ، ومات ضحية بحثه وتنقيبه ، كما مات ستزن من قبله ، وهوبر من بعده . وإن القارىء الذى يهمه هذا البحث جدير بأن يطالع كتاب « ڤبر Weber » الذى أسماه « العرب قبل الاسلام « Arabien vor dem Islam » وكتاب هومل المسمى برحلة هلبرخت .

وأما « غلازر » الألمانى البوهيمى فقد برع على الجميع لأنه تمكن من نقل ألفى كتابة حجرية ، وبدأ سياحته سنة ١٨٨٢ فذهب من الحديّدة إلى صنعاء ، وجاب البلاد ثلاث مرات فى الشمال ، والغرب ، والجنوب الشرقي ، والشرق . ثم ذهب إلى بلاد ظفار ، كما أنه ذهب إلى مأرب ونقل أربعمائة كتابة منها ، وحقق معلومات جغرافية أطلسية كثيرة ، ووقف على فوائد عظيمة من جهة اللغة ، واقتنى أكثر من ستمائة مخطوط عربي ، فنشرت أكاديمية باريس جانباً من هذه الكتابات . والآن يوجد حجارة عليها كتابات معينيّة فى لوندرة ، وأخرى فى برلين . فأما المخطوطات فأكثرها فى برلين ، ومنها جانب فى المتحف البريطانى . وأهم هذه الكتابات هى كتابة « حدقان » وكتابة « صرواح » التى منها يؤخذ أهم الوثائق التاريخية على جنوبى بلاد العرب .

ولما سافر غلازر المرة الرابعة إلى اليمن حصل أيضا على مائة كتابة لم نعرفها من قبل ، وعلى ٢٥١ مخطوطا عربياً ، وجمع معلومات كثيرة .

وأنه يعود أكثر الفضل فى تفسير الكتابات واستخراج معانيها إلى هاليفى المار ذكره ، وبريتوريوس ، ومُوردتمان ، ومولر ، وهومل ، وغلازر . ثم قام بعض العلماء بسياحات أخرى فى اليمن منهم « دڤلر Deflers » سنة ١٨٨٧ لكن غرض سياحته كان علم النبات ، ثم « هِرْش » ساح إلى حضرموت سنة ١٨٩٣ وهو أول أوربى دخل « شبام » ، و« تريم » ولم يكن باحثا إلا عن الأمور الطبيعية ، ثم فى سنة ١٨٩٣ جاء « بانت Beant » إلى حضرموت فدخل شبام وظفار ، ثم جاء « كارلو لاندبرج Carrlo

Landberg » في سنة ١٨٩٦ وكتب رحلة مهمة ، ثم أرسلت أكاديمية ڤينا سنة ١٨٩٨ بعثة أنفق عليها ملك السويد فلم تفز بكبير طائل ، فتحولت إلى جزيرة سقطرة وقامت هناك بمباحث طبيعية ولغوية . ثم إن « بوري Bury » جاء من قبل هذه البعثة إلى « بيحان وخولان » وصوّر عدة كتابات ، وفي سنة ١٩٠٢ أرسلت أكاديمية ڤينا رجلا اسمه «هاين Hein » إلى حضرموت رجع بمعلومات كثيرة لم يكونوا عرفوها .

هذا ويقال إن جميع ما اطلع عليه غلازر الذي هو إمام هذا الفن لم ينشر بأجمعه لأنه لم يتسع له الوقت ، ومات قبل أن يتمكن من نشر جميع معلوماته ، وبعد موته نشروا في ڤينا جانباً منها لا كلها . وقد ذهب غلازر إلى أن الكتابات المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفي سنة ، ولذلك تكون أقدم من الكتابة الفينيقية التي لم تظهر قبل المسيح إلا بألف سنة ، فلذلك اعترض العلماء على غلازر في هذا الزعم بحجة أن الكتابة المعينية مستقيمة وأشكالها هندسية ، ولا يظن أن مثل هذا الشكل يكون متوغلا في القدم إلى تلك الدرجة .

جاء في الأنسيكلوبيدية الاسلامية أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن ، وبمعلومات مؤسسة على قواعد متينة مثل الهمداني . فقد كان هذا الرجل يمانياً مولوداً في صنعاء ، فحمله حب وطنه والاعجاب بقومه على تأليف كتاب « الاكليل » الذي ذكر فيه تاريخ اليمن ووصف العاديّات التي هي فيها . والجزء الثامن من الاكليل كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور «مولر H. Muller» كما تقدم . وقد أخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ما ورد في كتاب الهمداني الآخر المسمى « بصفة جزيرة العرب » وقد كان في كتاب الهمداني قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمداني على علاتها ، إلا أنه برغم ذلك هو الكتاب العربيّ الوحيد الذي يفهم منه القارىء ما اليمن ، ومن أهل اليمن ؟ وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن ، وطبائع أهلها ، وعن مواقع مدنها ، وعن قصورها وحصونها لاتوجد في كتب الافرنج برغم جميع تدقيقاتهم .

وكذلك في أكليل الهمداني عن سبأ وعن سيل العرم ما لايتم تاريخ اليمن إلا به

وقد ذهب مولر إلى أن الـكتابات الحجرية لاتكفى لجلاء تاريخ سبأ ومعين و بلاد اليمن . فأما قول الهمدانى إن بانى سد مأرب هو لقمان بن عاد فهو قول تابع فيه العوام والحقيقة التى ظهرت من الـكتابات أن باني السدّ هو إثيعمر ، فأما وصف آثار السدّ بعد خرابه فان أرنود وهاليفى لم يصفا تلك الآثار بغير ماصورها به الهمدانى .

وقد قسم مؤرخو العرب أدوار اليمن قبل الاسلام إلى ثلاثة ؛ الأول من البدء إلى عهد تبع أبى كرب ، والثانى من عهد أبى كرب إلى ذى نواس ، والثالث من عهد ذى نواس إلى الاسلام . ولـكن علماء الأفرنج قسموا هذه الأدوار إلى ثلاثة بشكل آخر . فقالوا : الدور الأول هو السبئى المعينى . والدور الثانى هو الحميرى ، والدور الثالث هو الحبشى فالفارسى . ولعل الوقت يأتى بمعلومات أوضح مما تيسّر حتى الآن فان تاريخ الأعصر الغابرة كان ظلمات بعضها فوق بعض ، فانكشف جزء منها بالحفر والتنقيب وحل الـكتابات القديمة ، ولا يزال تحت التراب — ور بما فوق التراب — كتابات كثيرة لم يصل المنقبون إليها .

ولما كنت فى الحجاز منذ ست سنوات ، وصعدت إلى جبال الطائف ، وجدت كتابات كثيرة على الصخور ، وقيل لى إنها مستفيضة فى كل مكان تقريباً من جزيرة العرب ، وقيل لى أيضاً إن بين المدينة ونجد كتابات لاتحصى . وكيف ضرب الانسان فى أرض جزيرة العرب يجد كتابات على الصخور ، فإن من عادتهم أن ينقشوا أخبار الحوادث التى تقع عندهم على الجنادل ، وقد شاهدنا من هذه الأخبار المحفورة على الصخر بالخط الـكوفى شيئاً كثيراً ، وأوردت أمثلة عليه فى رحلتى الحجازية .

ومرة قرأت فى طريق وادى ليّة على صخر خبر قحط أصاب الناس وأجدبوا ثم بعث الله الغيث وسُقوا . على أن مؤرخى الأفرنج يعترفون بأن فى كتب مؤرخى الاسلام روايات عن مدنية سبأ القديمة والأدوار التى تلتها تنطبق أشد الانطباق على الـكتابات المنقوشة فى الحجر ، وعلى المنابع اليونانية والرومانية ، وكلها تفيد أن مدنية

سبأ كانت راقية جداً ، وأرقى من المدنيات العربية الأخرى ، فالمبانى القديمة الدائرة من آثار سبأ ، والنقوش والتماثيل ، و بقايا الأعمدة والهياكل ، والقصور والأسوار والابراج ، وسدود المياه ، مما شاهده سياح الأفرنج بأعينهم يطابق أشد المطابقة الأوصاف التى وصف بها اليونان والرومان تلك الآثار المدهشة ، ولا يجدون فيها مبالغة ، كما أنه عند ماينظر السائح إلى تلك الآثار الباهرة لايعود متعجباً مما جاء عنها فى كتب الاسلام مما كان يظنه من أساطير الأولين . وحسبك بما ذكره الهمدانى من قصر غمدان وغيره من قصور سبأ مثل قصر سالحين ، و بينون ، وما ذكره عن عظمة سد مأرب ، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور ، وهاتيك الأسداد والقلاع ، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان .

فقد كان العرب فى جنوبى الجزيرة فى حاجة إلى خزن مياه الأمطار لأجل زراعتهم ، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياض أقصى درجة يتصوّرها العقل وترقّت الزراعة فى اليمن لذلك العهد القديم إلى حدّ لايخطر ببال أحد .

وروى الهمدانى أنه كان يقال لليمن : اليمن الخضراء . لـكثرة أشجارها وفواكهها ومحصولاتها ، ولم تكن الزراعة وحدها هى التى بلغت الأمد الأقصى من الرقىّ ؛ بل ضارعتها التجارة من جهة ، والصناعة من جهة أخرى . فأما خصب أراضى اليمن الذى روى عنه هذه الروايات مؤرخو اليونان والرومان متفقين فى ذلك مع مؤرخى العرب ؛ فقد اعترف به سياح الأفرنج الذين جوّلوا فى بلاد اليمن ، إلا أن هؤلاء أشاروا إلى تناقص الأشجار والغابات بالقياس إلى الماضى .

وقد ذكر الهمدانى اعتدال الاقليم فى جهات صنعاء بخاصة ، وهذا يطابق ماقاله غلازر وغيره من السياح الأوروبيين ، وهو أن أعالى اليمن معتدلة الهواء ، وأن هذا الاعتدال هو السبب فى كثرة محصولاتها .

ولقد شاهدت بنفسى فى سياحتى إلى اليمن السنة الماضية اعتدال بقعة صنعاء منذ صعدنا « عقبة آنس » حتى انتهينا إلى قرية يقال لها « القبّة » ثم إلى قرية أخرى يقال لها « المعبر » ومن هناك سرنا عدة ساعات بالسيارة الكهربائية فى بسيط من

الأرض يعلو ألفين إلى ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر ، إلى أن بلغنا صنعاء فررنا ببقعة من أحسن بقاع الأرض ، وأكثرها قابلية زراعية ، وأجودها هواء وماء ولما وصلنا إلى صنعاء سألنا هل يوجد كثير من نمط هذه البقعة فى اليمن ؟ فأجابونا بأننا لم نشاهد إلا جزءاً يسيراً من البسائط المربعة المحيطة بصنعاء من الجهات الأربع . وقد كاشفت بما فى نفسى من هذا الأمر الأمير الخطير السيد عبد الله بن الوزير أمير الحديدة — وهو من العقل والفضل بالمقام الذى يندر مثله — فقال لى : إن اليمن فى الحقيقة هى عبارة عن جبالها .

ولم تكن الزراعة وحدها سبب ثروة اليمن المدهشة في ذلك العصر كما تقدم الكلام عليه ؛ فقد أفاض المؤرخون الأولون من اليونان والرومان مثل ديودور واسترابون ، وأغاترشيد ، فى ذكر تجارة سبأ ، واستخراجها للذهب والحجارة الكريمة التى كانت تبيعها من البطالسة بمصر ، وإلى الفينيقيين بالشام ، هذا مع تجارة العنبر وعود الطيب ، وأيدت التوراة هذه الروايات كلها .

جاء فى الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه لامبالغة فيما نقلوه من أن أبواب منازل سبأ وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثير مموها بالذهب والفضة ، مرصعاً بالحجارة الكريمة ، وأن آنيتهم كانت مصوغة من أنفس المعادن . وهذا ما ذكره الهمدانى والمسعودى وغيرهما من مؤرخي العرب ، وما أيدته الكتابات الصخرية نفسها فيما ترويه عن التقادم العظيمة من الذهب والفضة ونفائس الأحجار . وقد وجد كثير من المسكوكات السبئية ومن الحلى تؤيد أيضاً روايات الرواة من كل قبيل .

وقد عنى بعض علماء الافرنج بالتنقيب عن هذه الحياة الاقتصادية التى كانت فى اليمن السعيدة من جميع نواحيها ، وكان السابق فى هذه الحلبة « رودوكَنَاكِيس Rhodocanakis » الذي ألف كتاباً استخرج فيه من الكتابات الحجرية مما أمكنه أن يستخرجه من المسائل الاقتصادية التى كان يعول عليها أهل اليمن ، والمسائل الحقوقية المتعلقة بها .

وثبت من هذه التدقيقات أنه كان يوجد عند العرب الأولين قانون صارم يقتضى استثمار الأرض بدون إهمال شيء منها ، وأنه كان يوجد إدارة خاصة لأجل تقسيم المياه وتوزيع الأعمال الزراعية . وهذه القوانين المتعلقة باستثمار الأرضين واستيفاء أسباب القيام عليها ؛ كانت متشابهة فى جميع بلاد العرب الجنوبية . وهذا البحث قد حمل « جرومان Grohmann » على تأليف كتاب خاص بهذا الموضوع وصف فيه طبقات الأرض والمناخ ، وكيفية توزيع المياه ، واستخراج المعادن ، وتربية المواشى والصيد وغير ذلك مما اعتمد فيه على الكتابات الحجرية من جهة ، وعلى شهادات المؤرخين والسياح من جهة أخرى . وقد استقى فى هذا التأليف من بعض منابع مجهولة حتى الآن نظير الآثار التى جمعها غلازر ولم يتيسر له نشرها كلها . و بالجملة فرأى محققى الافرنج عن بلاد العرب يتلخص فيما يلى :

الأول : أن المدنية العربية ـ لا سيما فى جنوبى جزيرة العرب ـ هى من أقدم مدنيات العالم وأرقاها ، وهم على خلاف فيما إذا كان الساميّون هم الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى بلاد بابل ؛ أو كانوا نزحوا من بابل إلى الجزيرة ، وكل فئة من المؤرخين تفترض افتراضات لا يمكن معها الجزم بشيء .

الثانى : أن أهم أمة فى الجزيرة العربية فى الثروة والعظمة والآثار فى الأرض كانت أمة سبأ ، وكان يعاصرها ويضارعها المعينيون وقحطان وحضرموت ، وأن هاتين الأمتين « سبأ ومعين » بقيتا سائدتين إلى الزمن الذي ظهرت فيه الدولة الحميرية وأن هذه الدولة تغلبت على اليمن وبقيت فيه إلى أن جاء الأحبوش فاستولى على اليمن وأزال ملك الحميريين ، وبقيت اليمن خاضعة للحبشة حتى جاء الفرس فأزالوهم عنها وبقيت اليمن تابعة للأكاسرة حتى ظهر الاسلام .

الثالث : أن تاريخ اليمن وبلاد العرب أجمع لم يكن له منابع سوى العهد القديم وكتابات هيرودوتس ، واسترابون ، وديودور ، وأنختريد . وغيرهم من يونانيين ورومانيين ، مع بعض تواريخ للعرب أنفسهم بعد الاسلام مما اختلط فيه التاريخ

بالخرافة . فيجب على الناظر فى التواريخ العربية أن يجرد الأقاصيص من الأخبار التاريخية ، وأن أحسن ما كتب عن جزيرة العرب بأقلام العرب هو كتب الهمدانى أى « الأكليل وصفة جزيرة العرب » .

الرابع : أن تاريخ العرب الأولين لم يبدأ فى الحقيقة إلا منذ بدأ سياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار ، وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلف عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك فى صحة المجموع ، وإن يكن وقع اختلاف فى التفاصيل . والقضية الأصلية وهى ارتقاء مدنية العرب إلى تلك الدرجة العليا فى تلك الأعصر المتوغلة فى القدم ؛ قد ثبت بالكتابات الحجرية التى أيدت أقوال المؤرخين كما أن أقوال المؤرخين قد أيدتها .

وهذه مسألة يجب أن تكون عبرة ودرساً للذين يحملون جميع ما يتناقله الناس من الأخبار القديمة محمل الأساطير والأقاصيص الوهمية ، وهو ظن باطل ، ورأى فائل . فانه مهما كان التواتر قد تداخله أقوال عامية ، وآراء ساذجة ؛ فانه يرجع إلى نصاب صدق فى الأصل لا شبهة فيه فى مجموعه ، وهذه قضية تاريخ جزيرة العرب شاهدة على ذلك ، بعد أن جاءت فيها المكتوبات الحجرية معززة للقراطيس والأوراق المخلفة عن اليونان والرومان والعرب ، تعزيزاً لم يكن لينتظره أحد .

الخامس : أنه وجد أقوام دخلت إلى جزيرة العرب ، كما وجد أقوام خرجت منها . وأنه بسبب استيلاء الحبشة على اليمن ، ثم استيلاء الفرس ، قد حصل اختلاط فى الدماء فى جنوبى الجزيرة ، كما حصل اختلاط فى شماليها بسبب تقدم الآراميين إلى مدائن صالح وتيماء ، وأن النبطيين كانوا أيضا تقدموا من بلاد الشراة إلى شمالى الحجاز .

السادس : أنه يوجد عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة كما جاء فى تواريخ الاسلام . وأن من العرب البائدة عادا ، وثمود ، وطسما ، وجديس ، وكلهم

نزحوا من اليمن إلى الشمال . و بعضهم يذكر منهم العمالقة ، وقد ورد ذكرهم فى التوراة وقد وجدت كتابات آرامية فى شمالى الحجاز كمدائن صالح منتشرة على الصخور و يذهب بعضهم إلى أن هذه الكتابات من بقايا النبط الذين اختلطوا بالعرب ولذلك يجد فيها الانسان ألفاظا عربية مع الألفاظ النبطية .

وقد روى «هوارت Huart» فى « تاريخ العرب » أن الكتابات التى وجدت فى تيماء هي أقدم جدا من الكتابات التى وجدت فى مدائن صالح ، والمظنون أنها ترجع إلى ستمائة سنة قبل المسيح ، وهى خطوط بارزة كما هى خطوط العرب المحدثين بعكس سائر الخطوط السامية التى حروفها مجوفة .

السابع : على ظن محققى الافرنج أن الكنعانيين فى الأمم السامية نزحوا من الجنوب وأوطنوا فلسطين ، وأن الفينيقيين جاءوا من شواطىء خليج فارس الغربية وأقاموا على شواطىء الشام ، واستدلوا على أن أصل الفينيقيين هو من شواطىء خليج فارس بوجود النواويس ــ أى القبور المنحوتة فى الصخور ــ فى وطن الفينيقيين الأصلى كما فى سواحل سورية ، وكذلك الرعاة فى مصر كانوا عربا فتحوا قسما من وادى النيل وخرجت منهم ملوك . وقد ثبت أن الأشوريين فى حروبهم مع المصريين قد تكلموا عن العرب ، ووجدت لذلك آثار فى كتاباتهم الخزفية .

وقد جاء فى هذه الآثار وجود دولتين فى شمالى جزيرة العرب يقال لإحداهما «موصرى Mousri » وللأخرى «ملوحه Melouhha » ولم يعلم شىء عن ملوحه هذه ولكن ظهر أن دولة موصرى هي المستعمرة المعينية التى كانت فى شمالى الحجاز فان تغلاط بيلسّر الثالث ملك الآشوريين الذى عاش بين سنة ٧٤٥ و ٧٢٧ قبل المسيح كان قد غزا العرب فى شمالى الحجاز .

فهذه لمحة دالة مما يتعلق بالعرب وتاريخهم القديم ؛ يقدر أن ينشد منها القارىء مظان البحث .

ولكن الذى لم أجده حتى الآن فى كتب الافرنج هو أصل اشتقاق لفظة « عرب »

ومن أين جاءت ؟ فعلماء العرب قالوا : إن هذه اللفظة جاءت من قولهم أعرب عن الشيء أي أبان عنه ، سمي العرب بذلك لفصاحتهم وحسن إعرابهم عن مقاصدهم . وقيل : إنهم انتسبوا الى ناحية بقرب المدينة المنورة اسمها عربة ، وذلك أن أولاد اسماعيل نشأوا بهذه الناحية فسموا عربا ، ثم غلب الاسم على الجميع . ورُدَّ على هذا القول بأن الغالب هو ان أسماء الأرضين والبلاد تنقل من اسماء ساكنيها ، أو من صفة ثابتة لها ، ولم يعهد أن الناس أخذت أسماءها من الأرض التي نزلت فيها إلا على وجه النسبة . والأكثرون على أن اشتقاق لغة « العرب » هو من مادة الاعراب أي الإبانة عن الضمير ، وذلك لما اتصفت به هذه الأمة من حسن البيان ، وبلاغة التعبير ، ومن كون لغتهم هي أشرف اللغات ، والله أعلم .



الترك

تعليق على ماجاء فى السطر ٢ من الصفحة ٢٧ من الجزء الأول من ابن خلدون

هذه الأمة هى بدون شك من أشهر أمم الكرة الأرضية ، وأكثرها عددا وأشدها شكيمة ، وأوسعها فتوحات ، وأمجدها تاريخاً . وقد حررت خلاصة تاريخها فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » بما أرى مناسبا إعادته هنا مع زيادة تفصيل .

قلت هناك : إن الترك هم من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية ، وإنهم معدودون من الشعوب الطورانية ، وهم متشابهون فى الخلقة مع الصين والتبت واليابان . ولا عبرة بما تجده من سحناء أتراك الأستانة والاناضول ؛ فإن هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا فى غربى آسية من قرون متطاولة ، واختلطوا بالأمم الأخرى كالقوقازيين ، والمكدونيين والأرناؤوط ، والروم ، والبلغار ، والأكراد ، والصرب ، وبقايا أهالى الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لا تشبه المغول ، ولا الصين ، ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الأمم الغريبة يشبهون كثيرا أتراك بخارى ، وخيوه ، وكاشغر ، وهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين ، والتبت ، والمغول .

كان الترك من على عنق الدهر فى جبل الذهب بين سيبيريا والصين ، ثم أخذوا ينتشرون فى الاقطار ، فهاجروا الى شمالى سيحون وجيحون ، والى الشرق الشمالى من بحر خوارزم ، والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب وهم « المجار والفنلانديون » ـ أهل فنلاندا على البلطيك ـ والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم « الأوراليون » . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم « المانشو والتونغوز » . وقسم في الجنوب الشرقى وهم « المغول » .

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الأمة الفارسية ، وقيل إن هيرودتس أبا المؤرخين أشار إليهم تحت اسم تاركيتاوس .

وباني أول دولة منهم أوغوز خان بن قره خان ، وكان له ستة أولاد ؛ وهم كون خان ، وآى خان ، ويلديز خان ، وكول خان ، وطاغ خان ، ودكز خان . فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق ، وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد ، فصار لأوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية ، هكذا قال نسّابوهم .

ومن البداية انقسم الترك إلى قسمين ؛ الساكنين فى شرقى تركستان ، وهم « الاويغور » والساكنين فى الغرب منها وهم « الترك أو التركمان » وكان « الاويغور » بادىء ذى بدء أرقى وأرق وأكثر مدنية ، وكان لسانهم لسان الترك الأدبى ، وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصّروا بعضهم وعلموهم خطًّا مأخوذاً من السريانية ، وموجود بهذا الخط كتب تركية إلى اليوم .

وفى سنة ٨٥ للهجرة غزا « قتيبة الباهلى » بالمسلمين العرب بلاد الترك ، وافتتح بخارى ، ومرو ، وخوارزم ، وسمرقند ، وغيرها . واجتمع عليه ملك السغد ، وملك الشاش ، وغيرهما . فهزمهم وأثخن فى الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه ، وكان فى صلحة بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسُلبت حليتها . وكانوا يقولون إن هناك أصناماً من استخف بها هلك ، فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول إسلامهم .

وفى خلافة هشام بن عبد الملك تولى خالد بن عبد الله القسرى العراق ، وأخوه أسد بن عبد الله خراسان ، وغزا أسد بلاد الترك ومنها « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم . ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمى ، فدعا أهل ما وراء النهر إلى الاسلام ، وطرح الجزية عن الذين أسلموا ، فسارعوا إلى الاسلام ثم لما صارت الخلافة إلى بنى العباس وتولى المأمون خراسان ــ وذلك قبل خلافته ــ أخذ يغزو السغد ، وأشروسنة ، وفرغانة ، ويقول البلاذرى فى « فتوح البلدان » إنه كان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

نعم ! ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل فى الاسلام كاوس ملك أشروسنة

بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالي تلك البلدان ، وكان المأمون رحمه الله بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم إلى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « وكان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك ، حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد ، والفراغنة ، والاشروسنة ، وأهل الشاش وغيرهم . وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اه

ولا يخفى أن البلاذرى كان قريب العهد من هذه الحوادث ، لأن الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيي البلاذرى مات سنة ٢٧٩ .

وسنة ٣٥٠ أسلم سالورخان سلطان التركان سلالة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم معه قومه ، وجاء ابنه فبنى جوامع ، وفتح عمه بغراخان كاشغر ، وأخذ بخارى من السامانية . وجاء بعده أحمد خان بن أبي نصر فأكمل إسلام من لم يهتد من الأتراك ، وازداد تردد الترك إلى بغداد ، وامتلأت منهم العراق وارضروم واذربيجان ووصلوا إلى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة ، واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربى ، وبعضهم اتخذ اللسان الفارسى ، ولم يهتم أحد منهم بلسان « الاويغور التركى القديم » ولم يجعلوا التركى لساناً رسمياً إلا فى زمان بنى سلجوق فى الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان فى زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق ، لا سيما فى أيام محمد الفاتح ، وسليم وسليمان . وفكر سليم فى جعل العربى لسان الدولة الرسمى فلم يطيعوه ، لكنه بقى لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان فى زمن جنكيزخان ترقى كثيراً ، لكنه عراه بعد ذلك التوقف ، وهو الذى يعرف «بجغطاى» ثم بتوالى الزمن تباعد « التركى الغربى العثمانى » عن « التركى الجغطائى » كثيراً . ثم هناك « تركى تتر القريم » وهو متوسط بين الفريقين .

وعلماء الألسن يجعلون التركى خمسة أقسام : الأول الاويغورى أو الجغطائى الثانى التتارى ، والثالث القيرقيز ، الرابع الياقوتى ، الخامس العثمانى ، وليس للقيرقيز

والياقوت أدبيات فى ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لا يزالون وثنيين . وقيل إن الياقوتى هو أصل التركى ، والباقى فروع عنه . و يقول المدققون : إن التركى يشبه فى الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة الطورانية ، وفى الدرجة الثانية لسان المغول ، وفى الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين .

هذا والفرقة الأنقرية من الأتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم فى مكاتب تركيا مذهبا جديداً فى التاريخ ، وهو أن أصل الترك الذين فى الأناضول وغربى آسية هم من الحثّيين ؟ وأن هذه البلدان هى لهم من أربعة آلاف سنة ، وهم في هذا الكشف التاريخى الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة فى أوروبة ، ولكن شيئا من هذا لم يثبت .

وأكثر مؤرخى الأوروبيين يقولون إن أصل الحثّيين من جهة الدم لم يتحقق بعد وغاية ما تقرر — تاريخاً — أنهم أخذوا مدنيتهم عن السومريين والأكاديين أهل بابل ، وقلدوهم فى الكتابة والديانة والشعائر الدينية ، ومزجوها كلها بمدنيتهم وديانتهم وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين أن الحثّيين هم كانوا الواسطة بين المدنية السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثّيين فى أول عهده ، ولا تزال العلماء لم تحلّ الكتابات الباقية عنهم ، ولا يعلمون هل لغة الحثّيين هى هندية أوروبية ، أم قوقاسية ؟ وغاية ما لحظوا أن فيها دخيلا من لغات أخرى .

أما الآكاديون من أهل بابل فانهم ساميون بلا نزاع ، ولغتهم سامية ، والأرجح أنهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين .

وأما السومريون فلا يعرف أصلهم ، وقصارى ما نرجح من أمرهم أنهم غير ساميين ، وأنه وجدت مدنية معاصرة لمدنيتهم فى جهات بحر الخزر .

ولا يعلم أحد مافائدة أتراك أنقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لاتستند على قواعد متينة ؟ ! وهل إذا كان ترك الأناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من ألف سنة فقط يسقط حقهم بالأناضول ؟ ! ولا بد من أن يثبتوا أن هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من السنين حتى يستحقوها ؟ ! كل هذا من جملة الغرائب التى ولدت

مع الانقلاب الأنقرى . انتهى ما كتبته فى « حاضر العالم الاسلامى » .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية أن لفظة « ترك » هى محرفة عن لفظة « توكو » عند الصينيين ، وهو شعب ظهر فى القرن السادس بعد المسيح وأسس ملكا طويلا عريضا امتد من بلاد المغول وشمالى الصين إلى البحر الأسود ، وكان أصحاب هذا الملك من القبائل الرحالة ، وكان مؤسس هذا الملك الكبير رجلا يقال له « تومان » عند الصينيين ، و « ترك بومين » عند الأتراك ، وقد مات سنة ٥٥٢ للمسيح . وكانت أكثر الفتوحات على يد خاقان الذى مات سنة ٥٧٦ والصينيون يقولون لهؤلاء : ترك الشمال والغرب وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق . وفى القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعا الشرقيون والغربيون لسلالة « تانغ » الصينية ، ولكن تُرك الشمال عادوا فاستقلوا فى سنة ٦٨٢ للمسيح ، وفي مدة هذه الدولة التركية الغربية وجدت الكتابة المسماة بكتابة « أورخون » نسبة إلى نهر فى بلاد المغول يقال له « أورخون » وهى أقدم كتابة تركية . واشتهر فى قبائل الترك الغربية قبيلة « ترغش » وحاز أمراؤها لقب « خان » فى أواخر القرن السابع المسيحى . وفى ذلك الوقت جاء العرب فقضوا على ملك الترغش هؤلاء فى زمان نصر بن سيار سنة ١٢١ للهجرة . اهـ كلام الانسيكلو بيدية .

قلت : فى زمان هشام بن عبد الملك تولى نصر بن سيار بلاد طخارستان ، فغزا « أشروسنة » وذلك فى أيام الخليفة مروان بن محمد الأموى . وقد كان مضاء العرب فى فتح خراسان وما وراء النهر من أبدع ما جاء فى التواريخ ، ومما يدل على أن العرب اذا استقام أمرهم لم يقف فى وجههم قبيل . فان الترك الذين تغلب العرب عليهم مشهورون بشدة البأس وقوة المراس ، وقد حشدوا للعرب من كل حدب فما نالوا منهم نيلا وتغلب العرب عليهم فى أوساط بلادهم ، وأثخنوا فيهم ، ولم يكفّوا عنهم حتى دخلوا فى الإسلام . فكان الاسلام هو الذى أنجاهم فى الدنيا فضلا عن الآخرة .

وفى زمن معاوية استولى العرب على خراسان ، وكان الوالى عبيد الله بن زياد وهو لايزال ابن خمس وعشرين سنة ، فقطع النهر فى ٢٤٠٠٠ مقاتل فأتى « بيكند » وقصد الى بخارى ، فأرسلت « خاتون » ملكة بخارى الى الترك تستنجدهم ، فزحفوا

إلى العرب فهزمهم العرب واستولوا على « بخارى ، ورامدين ، و بيكند » . ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر بجنده ، وكان معه رجل يقال له رفيع أبو العالية الرياحى ، فتفاءل بهذا الاسم خيراً وقال : رفيع أبو العالية رفعة وعلو . و بلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهرفحملت إليه الصلح ، وأدت الاتاوة ، و بينا هى داخلة فى الطاعة أقبل الترك من « السغد وكَش ونَسَف » فى مائة وعشرين ألف مقاتل والتقوا ببخارى ، وندمت خاتون على طاعتها للعرب ، ونكثت العهد ، إلا أن العرب هزموا الترك فرجعت خاتون إلى الصلح . ودخل سعيد بن عثمان بن عفان مدينة بخارى ، ثم زحف إلى سمرقند ، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها ، وما زال يضيق عليها الحصار حتى صالحوه وأعطوه رهائن من أبناء ملوكهم . ثم أقام على الترمذ وما زال يضيق عليها حتى فتحها ، ثم انتقض أهل الترمذ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلى

وفى فتح بلاد الترك استشهد قثم بن العباس بن عبد المطلب ، كان مع سعيد بن عثمان فلما بلغ خبر شهادته أخاه عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : شتان ما بين مولده ومقبره !! ولم يوجد أناس تباينت قبورهم مثل أولاد العباس بن عبد المطلب فقد توفى عبد الله بن عباس بالطائف ، وتوفى الفضل بن عباس شهيدا بوقعة أجنادين بفلسطين ، وقيل بطاعون عمواس ، واستشهد معبد وعبد الرحمن ابنا عباس بافريقية وقيل إن معبدا مات شهيدا بافريقية ، وعبد الرحمن مات بالشام . واستشهد قثم بن العباس بسمرقند ، ومات عبيد الله بن العباس بالمدينة ، وقيل باليمن . ثم إنه بعد موت معاوية ولى ابنه يزيد بن معاوية سلم بن زياد ماوراء النهر ، فصالحه أهل خارزم على أربعمائة ألف وحملوها اليه ، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاصى الثقفى ، وكانت أول عربية عبرت النهر . وأقام سلم بن زياد بالسغد ، وسرح جيشا الى « خنجدة » وفيهم أعشى همدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيش فقال الاعشى :

ليت خيلى يوم الخجندة لم تُهــزم وغودرت فى المكر سليبا
تحضر الطير مصرعى وتروّحـــت الى الله فى الدماء خضيبا

ثم رجع سلم بن زياد إلى مرو وحشد هناك جيشا وغزا بلاد الترك ، فجمع له أهل السغد فقاتلهم ودوخهم . ثم إن سلم بن زياد انصرف عما وراء النهر وتولاها عبد الله ابن خازم السلمى بعهد من سلم بن زياد ، فعصاه سليمان بن مرثد من بنى سعد بن مالك من المراثد بن ربيعة واقتتلا ، وكان ذلك فى أثناء فتنة ابن الزبير مع بنى أمية . وطال القتال بين العرب فانتهز الترك الفرصة وشنوا الغارات حتى بلغوا قرب نيسابور ولكن انتهت هذه الفتنة بين العرب بالطائلة لابن خازم . وكانت العصبية العربية بين القبائل هى العامل فى تلك الفتن ، كما كانت فى الأندلس وفى بلاد الافرنجة . وكان عبد الله بن خازم لايتولى غير عبد الله بن الزبير ، ولا يطيع عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح يوليه خراسان ، فقاتل ابن خازم وتغلب عليه وقتله ، وأرسلوا برأسه إلى عبد الملك بن مروان فنصبه بدمشق ، واشتدت الفتنة بين العرب فى خراسان إلى أن كتب وجوه العرب إلى عبد الملك بن مروان أنه لاتصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلا برجل من قريش ، فولّى عبد الملك على خراسان أمية ابن عبد الله بن خالد ، وغزا أمية بلاد الختل فافتتحها . ثم جاءت أيام الحجاج بن يوسف وكانت خراسان من جملة ولايته ، فولاها المهلب بن أبى صفرة من الأزد وذلك سنة ٩٩ فغزا مغازى كثيرة ، وانتقضت الختل فى أيامه فدوخها وفتح «خجندة» وأطاعت له « السغد » و « كُش » و « نَسَف » ومات المهلب فقام بعده ابنه يزيد ابن المهلب ، فغزا مغازى كثيرة فى بلاد الترك ، وفتح « البتم » ثم غزا يزيد « خارزم » . ثم ولى الحجاج بن يوسف المفضل بن المهلب بن أبي صفرة ففتح المفضل بلدانا منها « بادغيس وشومان » . وكان موسى بن عبد الله بن خازم السلمى بعد قتل أبيه قد امتنع بالترمذ ، فاستنجد أهل الترمذ الترك على موسى فهزمهم موسى ، وحدث مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلب فيها كلها .

وكان أهل خراسان يقولون عن موسى بن عبدالله بن خازم السلمى هذا : مارأينا مثل موسى ! ! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَلّ ، ثم أتى الترمذ فغلب عليها وهو فى عدة يسيرة وأخرج ملكها عنها ، ثم قاتل الترك والعجم فأوقع بهم ، إلا أنه لما تولى

المفضل بن المهلب خراسان أرسل جيشاً يقاتل موسى على الترمذ ، فانهزم موسى وقتل وتولى الترمذ مدرك بن المهلب ، وكان قتل موسى فى آخر سنة ٨٥ ، وقيل إن رجلا ضرب ساق موسى وهو قتيل ، فلما تولى قتيبة الباهلى وعلم به قتله . ثم ولى الحجاج ابن يوسف قتيبة ، وهو أشهر فاتح عربى لبلاد الترك ، خرج يريد بلاد « آخرون » فلما كان ببلاد الطالقان تلقاه دهاقين بلخ ، فعبروا معه النهر ، وقدم عليه ملك الصغانيان بهدايا وأعطاه الطاعة ، واستعان به على ملك « آخرون » و « شومان » الذى كان عدواً لملك الصغانيان ، ثم أقبل على قتيبة ملك « كفيان » وقدم له الطاعة فانصرف قتيبة إلى مرو ، وخلف أخاه صالحا على ماوراء النهر ، ففتح صالح « كاسان » و « أورشت » من بلاد فرغانة و « بيعنخر » و « خشكت » وكان فى جيش صالح هـذا نصر بن سيار المشهور . وأطاع ملك « الجورجان » وقدم على قتيبة ، ثم غزا قتيبة « بيكند » سنة ٨٧ فاستصرخ أهالى « بيكند » أتراك السغد ، فهزمهم قتيبة وفتح « بيكند » ثم فتح « تومشكت » و « كرمينيه » سنة ٨٨ ، ثم استخلف على « مرو » أخاه بشّاراً ، وغزا «بخارى» ودخلها صلحاً، ثم أوقع بالسغد وافتتح «كش» و «نسف» وكان ملك خارزم قد عصاه أخوه خرزاد فالتجأ الملك إلى قتيبة ، فوجه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بجيش فقاتل خرزاد فقتله وأوقع بجماعته ، وأعاد الملك إلى أخيه ، ثم وثب الأهالى بالملك فقتلوه ، فولى قتيبة أخاه عبيد الله بن مسلم على خارزم ثم غزا قتيبة « سمرقند » فاجتمعوا لقتاله ، وكتب ملك السغد إلى ملك الشاش (الشاش مايقال له اليوم طاشقند) فنهدوا إليه فى خلق كثير فقاتلهم المسلمون وهزموهم وصالحهم أهل سمرقند على ألف ومائتى ألف درهم فى كل عام ، وعلى أن يصلى قتيبة فى المدينة ، فدخل قتيبة سمرقند وصلى واتخذ مسجداً ، وخلف بها جماعة من المسلمين فيهم الضحاك بن مزاحم « صاحب التفسير » وكان فى صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران ، فأخرج قتيبة الأصنام وسلب حليتها وأحرقها ، وكانوا يعتقدون بها فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ولم يحصل له سوء أسلم منهم خلق .

وفى زمن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا

اليه أن قتيبة دخل مدينتهم غدراً وأسكنها المسلمين ، فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيما ذكروا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجى لحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب و بقى المسلمون فيها . ثم فتح قتيبة عامة بلاد الشاش و بلغ « اسبيجاب » وقالوا « إن قتيبة فتح خارزم وسمرقند عنوة . وقد كان سعيد بن عثمان بن عفان قد تغلب على سمرقند وخارزم صلحا ، ولكن قتيبة استقل هذا الصلح وأبى إلا فتحها بالقوة ، ثم فتح « بيكند، وكش ، ونسف » وقيل والشاش و بعض فرغانة ، وغزا « أشروسنة » . ولما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلي مستوحشا منه ، كارها لخلافته ، فكتب سليمان إلى قتيبة يأمره باطلاق كل من فى حبسه ، وأن يعطى الناس أعطياتهم ، و يأذن لمن أراد القفول فى القفول ، وكانوا متطلعين إلى ذلك . وكان من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً ، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف ، ومن الموالى سبعة آلاف . فلم يأذن قتيبة فى القفول ، فثاروا به فانتصر له العجم على العرب ، وكانت حرب بين الفريقين فظفر العرب بقتيبة وقتلوه ، وهو الذى مهد لهم بلاد خراسان وما وراء النهر ، وقتل معه جماعة من إخوته ، وقتلت زوجته ، ونجا أخوه ضرار بواسطة بنى تميم ، وأخذت الأزد رأس قتيبة وخاتمه و بعثوا به إلى الخليفة مع سليط بن عطية الحنفى ، وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة . و بعد أن قتل قتيبة رحمه الله تولى خراسان وكيع بن حسان ابن قيس التميمى ، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يثبته فى الولاية فقيل له : إن وكيعا ترفعه الفتنة ، وتضعه الجماعة ، وفيه جفاء وأعرابية ، وكان وكيع يدعو بطست فيبول والناس ينظرون إليه ، فلم يكن يصلح للولاية . فقدم عليه يزيد بن المهلب والياً فقدم يزيد ابنه مُخْلَدَا فعزا مخلد « البتم » ففتحها ، ثم نقض أهلها العهد فكر عليهم وفتحها ثانية ، وأصاب بها مالا وأصناماً .

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام ، فإن همه كان نشر الاسلام قبل كل شىء ، فأسلم بعضهم . وكان عامل عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى ، فوجه الجراح أحد قواده

عبد الله بن معمر اليشكرى إلى ماوراء النهر ، فأوغل فى بلاد العدو وهمّ بدخول الصين فلما تكاثر عليه الترك رجع إلى الوراء وامتنع ببلد الشاش ، ورفع الخليفة رضى الله عنه الخراج عمن أسلم بخراسان ، وفرض العطاء للمسلمين منهم ، وبنى الخانات . وكان الجراح بن عبد الله الحكمى قد كتب للخليفة أنه لايصلح خراسان إلا السيف فاغتاظ عمر من كلامه هذا وعلم أنه وال يستخف بالدماء فعزله ، ولكن قضى الدين الذى عليه . ثم ولى عبد الرحمن بن نعيم الغامدى حرب خراسان ، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيرى خراجها . وفى خلافة يزيد بن عبد الملك تولى خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصى بن أمية ، فنزل خراسان و بعث ابنه إلى ماوراء النهر فنزل « اشتيخن » فزحف إليه الترك فقاتلهم وهزمهم . ثم لقى الترك مرة ثانية فانهزم أصحاب سعيد ، فولى سعيد نصر بن سيار على الجيش . وشخص قوم من وجوه خراسان إلى مسلمة بن عبد الملك والى العراق وشكوا سعيداً ، فعزله مسلمة ، وولى سعيد بن عمر الجرشى على خراسان ، فافتتح الجرشى عامة حصون السغد.

وقال البلاذرى : إنه نال من العدو نيلا شافياً . وفى خلافة هشام بن عبد الملك تولى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، فعزل الجرشى واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد ، فغزا « الأفشين » فصالحه على ستة آلاف رأس ، ودفع إليه قلعتَه . وتولى طخارستان نصر بن سيار كما تقدم الكلام عليه ، فخالفه خلق من العرب فأوقع بهم ثم سفرت بينهم السفراء فاصطلحوا .

ثم تولى العراق خالد بن عبد الله القسرى من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فولى خالد أخاه عبد الله بلاد خراسان ، و بلغ ذلك مسلم بن سعيد فسار إلى فرغانة وأناخ على مدينتها وعاث فيها ، فاجتمع عليه الترك وعليهم خاقانهم ، فارتحل عن فرغانة وغزا أسد بن عبد الله القسرى « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم ، وغزا «الختل» فلم يقدر عليها .

ثم استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السُّلَمى فدعا أهل ما وراء النهر إلى

الاسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم ، فسارعوا إلى الاسلام وانكسر الخراج . ثم استعمل الخليفة هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن المرّى على خراسان ، فحارب الترك وهزمهم وظفر بابن خاقان فبعث به إلى الخليفة هشام ، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوخهم ، وأمده الخليفة بعمرو بن مسلم فى عشرة آلاف رجل من أهل البصرة و بعبد الرحمن بن نعيم فى عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وحمل إليه ثلاثين ألف قناة ، وثلاثين ألف ترس ، وأطلق يده فى الفريضة ، ففرض لخمسة عشر ألف رجل وكانت للجنيد مغاز كثيرة . وفى زمانه عصت نواح من طخارستان ففتحها ، وكانت وفاته بمرو . فولى الخليفة هشام عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى .

وكان نصر بن سيار غزا « أشروسنه » أيام الخليفة مروان بن محمد فلم يقدر عليها وكان من بعده من الخلفاء يُولّون عمالهم فينتقصون حدود أرض العدو ، و يحاربون من نقض العهد . و بقى الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامه بخراسان ، فكان يغزو بلاد الترك من « السغد » و « أشروسنة » و « فرغانة » و يوالى عليهم الغارات ولكنه من جهة ثانية يدعوهم إلى الاسلام . وكتب إليه « كاوس » ملك «أشروسنة» يسأله الصلح على مال يؤديه على شرط أن لا يغزى المسلمين بلده ، فأجيب إلى ذلك فلما تولى المأمون الخلافة امتنع كاوس من الوفاء بالصلح . فأرسل المأمون أحمد بن أبى خالد الأحول الكاتب لغزو « أشروسنة » فى جيش عظيم ، فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته ، ولكن أحمد بن أبى خالد أناخ على «أشروسنة » قبل وصول الأتراك فاستسلم كاوس له ، وورد كاوس مدينة السلام وأظهر الاسلام ، وملّكه المأمون على بلاده . ثم ملك ابنه « خيذر بن كاوس » الملقب بالأفشين بعده (واسمه بالخاء المعجمة كما رأيت فى تاريخ أبى الفداء) وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عماله فى خراسان بغزو من لم يسلم من الترك ، و يُسنى العطاء لمن أسلم . و إذا ورد ملوك الترك بابه بالغ فى تشريفهم و إكرامهم وأدرّ عليهم الأرزاق . ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته فى الترك أكثر من كل الخلفاء ، وصار أكثر جيشه من أهل السغد ، وفرغانة ، والأشروسنة ، والشاش ، وغلب الاسلام على تلك البلاد ، وصار

أهلها يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد « الغوزية » ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله . وكان قتيبة الباهلى أسكن العرب فى أرض « فرغانة والشاش » .

والأفشين هذا هو الذى بعد أن أسبغ عليه الخلفاء النعم الجسام ، عاد فظهر أنه لم يكن إسلامه إلا خداعاً ، وأنه لم يكن طهر قلبه من عبادة أصنامه ، فانتهى الأمر بأن المعتصم قاتله وأخذه ، وبعد وقوعه باليد أحرقه . وفى ذلك يقول أبو تمام الطائى شاعر الحضرة :

يارُب فتنة أمة قد بزها ... جبّارها فى طاعة الجبّار
جالت « بخيذر » جولة المقدار ... فأحله الطغيانُ دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها فى غربة وإسار
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء فى الأطمار
صادى أمير المؤمنين بزبرج ... فى طيه حُمَةُ الشجاع الضارى
حتى إذا ما الله شق غباره ... عن مستكنّ الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى ... والحق منه قانىء الأظفار
هذا النبىُّ وكان صفوة ربّه ... من بين بار فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابةً ... وهو أشد أذًى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى ... سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة النور التى ... رفعت له سجفاً عن الأسرار

ومنها :

ما كان لولا فحش غدرة « خيذر » ... ليكون فى الاسلام عام فجار
ما زال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرّها ... لهبٌ كما عصفرتَ شق إزار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً ويدخلها مع الفجّار

قد كان بوأه الخليفة جانباً من قلبه حرما على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرّدٍ وأنامه في الأمن غير غرار
فاذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى كعب زمانَ رثى أبا المغوار
دلت زخارفهُ الخليفةَ أنه ما كل عود ناضر بنضار
يا قابضا يد آل كاوس عادلاً أتبع يميناً منهم بيسار
واعلم بأنك إنما تلقيهم في بعض ما حفروا من الآبار

وذلك أن « الأفشين خيذر بن كاوس » كان مقربا عند المعتصم ، وللخيذر جهاد عظيم في حروب الروم ولا سيما في فتح عمورية ، وهو الذي هزم «بابك الخرّمي» الذي خرج على الخلافة في « جبال طبرستان » واشتد أمره ، وهزم عساكر المعتصم مرارا ، فرماه المعتصم بالأفشين ، فما زال يقاتله حتى أخذه. ولكن في سنة ست وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الافشين خيذر بن كاوس وحبسه إلى مات في حبسه وأخرج فصلب الى جانب بابك كما هو مبسوط في التواريخ .

وجاء في الانسكلو بيدية الاسلامية أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملك الترك الى الاسلام ، وأن مؤلفي العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك الا في القرن الثالث للهجرة . فذكروا من أصنافهم « الطوغوزغوز » و « الغزغِز » و « الكيماك » و « الغُز » أو « الاوغُز » و « القارلُق » وكان الغزغز أبعدهم مكاناً عن العرب وكان الاوغز والقارلق هم الساكنين على حدود المملكة العربية مثل جرجان ، وفاراب وأربيجاب . وكان الطريق من المملكة العربية الى الصين ماراً ببلاد القارلق ، فكان المسافر يمشي ثلاثين يوماً من حدود فرغانة الشرقية في بلاد القارلق الى أن يصل الى البحر المحيط .

وذكر ابن خرداذبه قبيلا من الترك كان يسكن بقرب مشاتي القارلق وهم « الخالاج » . وذكروا أن مدينة « خاقان ترغُش » كانت بقرب « نهر كو » وكان الترغش ينقسمون الى « تخسى » والى « آز » وكان التخسى يسكنون على ضفاف

« كو » ولهم مدينة اسمها «صوياب» . وكان الى الشرق منهم قبيل يقال له «الصيغل» وكان الى الجنوب من نهر « مارين » قبيل يقال له « يغمة » من الطوغوزغوز وفى بلادهم كانت مدينة « كاشغر » . وقال محمود الكشغرى : إن اليغمة والتخسى كانوا يسكنون على ضفاف نهر « اللى » وكان بالقرب منهم قسم من « الصيغل » وكان هؤلاء الصيغل ثلاثة أقسام « صيغل اللى » و « صيغل كاشغر » والصيغل الذين بقرب « تاراز » . وكان الأوغز يسمون جميع الترك من سيحون الى الصين «صيغل» ويقول محمود الكشغرى : إن الاوغز والقارلق كان يقال لهم « التركمان » .

وذهب بعضهم الى أنه قد يكون التركمان من سلائل الايرانيين الرحالة ، وقد استتركوا بكرور الأيام ، لان سحنتهم تختلف عن سحنة سائر الترك . ويظنون أن « التاتار » هم من قبائل « الكيماك » السبع ، وأصلهم من الطوغوزغوز . وقسم بعضهم الترك الى قسمين ؛ الشمالى ، والجنوبي ، وقالوا إن كلا منهما عشرة شعوب فالشماليون هم ؛ البجنك ، والقبجاق ، والاوغز ، واليمك ، والباشكرد ، والباسميل والقاى ، واليابا كو ، والتتر ، والغرغز . وإن الجنوبين هم ؛ الجيكيل ، والتخسى واليغمه ، والاغراق ، والجاروق ، والجومول ، والاويغور ، والتنكوت ، والخيطاى والتفغاق . وقد يقع اختلاف فى هذا التقسيم ، لأن شعوباً منسوبة الى الشمال قد ثبت أنها سكنت فى الجنوب .

ومن شعوب القسم الشمالى من كانت لهم لغات مخصوصة بهم مثل القاى واليابا كو ، والتتر ، والباسميل ، ولكنهم كانوا يعرفون اللسان التركى العام . وكان اليابا كو يسكنون على ضفاف النهر الكبير « يامار » الذى يظن أنه النهر الذى يقال له اليوم « أومور » وقد روى بعض المؤرخين أن جيشاً إسلامياً عبر هذا النهر فى القرن الحادى عشر للمسيح تحت قيادة أرسلان تكين ، الذى ذهب يغزو اليابا كو والباسميل وأما الشعوب الجنوبية من الترك . فكان منهم شعب « الجومول » يتكلم بلغة غير التركى ، ولكنه يعرف التركى . وقيل مثل هذا عن « الاويغور » فقد كانت لهم عدا التركى لغة خاصة . وأما « التنكوت » فكانوا قبيلا غريباً فى الحقيقة ، سكن

في وسط الترك . وكذلك أهل « خوطان » و « التبت » فقد كانت لهم لغات خاصة بهم . وفى بلاد الصين وماسين كان للاهالى لغة غير التركى ، و إنما كانوا يعرفون التركى وفى أصناف الترك « الجاروق » وكانوا يسكنون فى مدينة برقوق التى هى اليوم « ما رالباشى » وكان فى بلاد الأو يغور خمس مدن ؛ منها « بشبالق » و « قوقو » و « قره خوجه » وكان الاو يغور بوذيين يعبدون الأصنام . وقد ذكر محمود الكشغرى قبائل تركية أخرى ليست داخلة ضمن الشعوب العشرين التى ذكرناها ، من جملتها « الأدغيش » و « الكوجات » الذين كانوا فى خوارزم . وقد ذكروا من جملة من هم من أصل تركى « البلغار » و « الصوغار » وذهب الكشغرى إلى أن لغة البلغار والصوغار ، والبجناك ، كلها لغة واحدة . ولكن الاصطخرى يقول : إن لغة البلغار والخزر ، تفترق عن لغة الترك . وكانت لهجات القرغز ، والقبجاق ، والأوغز، والتخسى واليغمة ، والصيغل ، والاغراق ، والكاروق ؛ تركية محضة ، و يقرب منها لغات اليكة ، والباشكير . و بالاجمال فالترك الرحالة الساكنين بين «الايتل» و « اليامار » كانوا يتكلمون بلغة أنقى من لغات أهل المدن ، وقد كانت اللغة الصُغدية مستعملة إلى جانب التركى فى المدن ، وكان يغلب على لغة الأوغز ـ أو التركمان ـ لهجة الشعوب التركية الجنوبية . ثم جاء فى الانسكلو بيدية الاسلامية ؛ أن ظهور العرب على الترك فى أول الدولة العربية لم يؤثر فى قضية اتخاذ الترك الاسلام ديناً ، وكانوا يروون الحديث النبوى : « إتركوا الترك ما تركوكم » . وما أسلم الترك إلا اختياراً فى القرن الرابع للهجرة (وقد ظهر لك مما تقدم أن الاسلام بدأ فى الترك من أيام بنى أمية ، ثم فشا فيهم لعهد المأمون والمعتصم) .

وأنه في سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة ، كان زحف الترك الوثنيين على المملكة السامانية ، فدحرهم المسلمون ، وفى سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، دخل الترك المسلمون بخارى واستولوا عليها . وفى القرن الخامس للهجرة فتح الترك المسلمون تحت راية بنى سلجوق بلاد الاناضول . وقد رويت أحاديث عن الرسول عليه السلام بخلاف الحديث السابق ، أي أنه كان يحرض على تعلم لسان الترك لأنه سيكون لهم

ملك طويل العهد — وأظنه من الأحاديث الموضوعة — ولم يعلم شىء عن تاريخ الحادث الذى قيل فيه إن شعباً تركيا يبلغ مائتى ألف خيمة قد أسلم فى يوم واحد .

(قلت ورد هذا فى صبح الأعشى) والمظنون أن لهذا الحادث علاقة بدولة « ألك خان » من قبيلة « أفراسياب » وكان أمراء كاشغر المسلمون استولوا على بلاد « خوطان » ولم تعلم تفاصيل هذا الاستيلاء . وكانت بلدة « كوزن » وقلعة «بوغور» وغيرها معدودة ثغور الاسلام في بلاد التركستان الصينى . وكان دخول الأتراك الذين فى الغرب متأخرا عن دخول الذين كانوا فى الشرق فى الاسلام .

وقد روى ابن الأثير أن شعبا تركيا كان يشتو فى بلاد « بالازاغون » و يصيف فى بلاد « بلغار » بقرب « الاورال » قد أسلم فى شهر صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وروى أنهم كانوا عشرة آلاف خيمة . وكان « القبجاق » فى أواسط القرن السادس للهجرة لمّا يدخلوا فى الاسلام ، وذلك يستفاد من كتاب قيل فيه عن وصول أمير القبجاق إلى « جند » ثم يقول صاحب الرواية عنه : رزقه الله الاسلام . وكان الروس منذ أواسط القرن الثانى عشر للمسيح يسمون جميع أصناف الترك ما عدا القبجاق « سرنيكلو بوكى » أى الطرابيش السود . ومن هؤلاء قبيلة « البكنج » يظن أن أصلها ليست من الترك بل أمة غربيّة ، وهم يخالفون الأتراك الطارئين من أواسط آسية بكونهم يربون البقر ، وقد أسلموا كسائر من أسلم من الترك . ولما تأسست سلطنة « قره خيطاى » التركية بعد سنة ثلاثين ومائة وألف مسيحية ، كان الاسلام قد فشا فى الترك ، ولكن هذه السلطنة كانت وثنية فأخذت تضطهد الاسلام ولكنها لم تقدر عليه ، وكانت إمارة « بالازاغون » الواقعة فى الشمال إمارة إسلامية وعند انحلال سلطنة قرة خيطاى كانت توجد إمارات إسلامية فى شمالى « اللى » مثل إمارة « قارلق » و إمارة أخرى فى بلاد « قلجه » وكانت بلاد « ما ناس » هى الحد الفاصل بين الترك الاسلامية وغير الاسلامية .

أما دخول الأتراك فى الأناضول وقبل ذلك فى أزربيجان فما بدأ إلا فى زمن السلاجقة ، وقد تم تتريك تلك البلاد فيما بعد .

وفى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يوجد أتراك فى مصر ومنها دخلوا إلى أفريقية ، و بعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشى . ولكن لم يكن أثر يذكر للترك فى الأندلس . انتهى كلام الانسكلو بيدية الاسلامية ملخصا . وفيه بعض خطأ ، وهو فى ظنه أن الترك لم يعرفوا مصر إلا فى زمن صلاح الدين بل عرفوا مصر قبل صلاح الدين بكثير ، وقبل الفاطميين .

وآل طولون هم من الترك وقيل : إنه كان فى مجالس الخلفاء الفاطميين أناس من الترك ، فبعد انصرافهم سئل عنهم فقال : هؤلاء الذين سيكونوا أمراؤنا فى الغد .

قلنا : إنه فى القرن الحادى عشر للمسيح كانت جميع بلاد الأناضول التى يقال لها « آسية الصغرى » مع بلاد «قيلقية» أى « ولاية أطنة » الحاضرة ، ومع شمالى سورية كانطاكية ، واللاذقية ، ومع أرمينية كلها داخلة فى ملك القسطنطينية . وكان الاسلام يومئذ منقسما إلى دولتين ؛ الخلافة العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى مصر . وكانت فارس الغربية تخص بنى بويه الذين استأثروا بالأمر فى بغداد وحجروا على الخلفاء العباسيين ، وأما فى شرقى إيران فكانت الدولة السامانية تارة فى بخارى ، وتارة فى سمرقند.. و بقيت مستتبة إلى زمان محمود الغزنوى التركى الذى استولى على خراسان وعلى قسم من بلاد العجم ، ولو لم يشغل بفتوحات الهند لربما كان تقدم إلى بغداد فشغلت الهند الدولة الغزنوية ، و بذلك اتسع المجال لدولة أخرى تركية من الغوز يقال لها « الدولة السلجوقية » . وكان آل سلجوق أتباعا للغزنويين فى بادىء الأمر ، فظهر منهم رجل يقال له طغرل بك ، واستولى على نيسابور قاعدة خراسان ، فأرادا الغزنويون أن يقضوا عليهم ولكن جاءوا متأخرين بما شغلهم من فتوحات الهند . وظهر طغرل بك على الغزنوية ، فتمكن طغرل بك من خراسان وانتشر أبناء عمه فى البلاد الغربية مثل إيران ، وكرجستان ، وأرمينية .

وكان طغرل بك أحسن السلاجقة سياسة ، وأوفرهم عقلا ، فاتخذ لنفسه خطة معينة ، وصار يفتح بلداً بلداً حتى وصل الى بغداد . وكان بنو بويه غلبوا على بغداد وحجروا على الخلفاء ، وكانوا شيعة متعصبين . فجاء طغرل بك الى بغداد ورفع منار

السنة ، وأيد الخلافة العباسية ، وقلده الخليفة السلطنة ، وسماه بملك الشرق والغرب . وكان فى ذلك الوقت أرسلان البساسيرى قد دعا للخليفة الفاطمى فى وسط بغداد وانهزم القائم العباسى من وجهه ، فجاء طغرل بك وهزم البساسيرى وقتله ، وأعاد الخليفة الى مكانه . ثم تزوج طغرل بك بابنة الخليفة ، وعاد أمر الخلافة العباسية كما بدأ من القوة ، وانتصرت السنة أيضاً على يد طغرل بك السلجوقى . ومنذ أن تمكن طغرل بك من بغداد نشر غاراته هو وأبناء عمه فى بلاد الاناضول ، وأخذ ينتقص أطرافها ، فبدأ السلاجقة بأرمينية وقارس ، وأغار عليها طغرل بك بذاته سنة ١٠٥٤ مسيحية . وكان امبراطور بيزنطية فى ذلك الوقت قسطنطين التاسع المسمى «مونوماك» فعجز عن دفعهم ، وجاء بعده قسطنطين العاشر الملقب « دوكاس » فوصل الترك فى زمانه إلى «سيواس» فى قلب الأناضول . ثم توفى طغرل بك وخلفه ألب أرسلان ابن أخيه ، فزحف صوب مملكة الروم واستولى على « أرمينية » وهزم ملوك الأرمن وهكذا انفتحت أمامه مسالك الأناضول ، فبث فيها الغارات من كل جانب ،ووصل الى قيصرية . وتولى الأمر فى القسطنطينية قيصر شديد الشكيمة اسمه « رومان ديوجينوس » فجهز الجيوش وزحف الى الأتراك ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالا . وكان ألب أرسلان قد كرّ راجعا الى إيران بسبب عصيان أولاد عمه عليه ، فلما فرغ من قتالهم عاد الى الاناضول فنهد اليه « رومان ديوجينوس » بمائة الف مقاتل وذلك سنة ١٠٧١ مسيحية فتلاقى الجمعان فى ١٩ اغسطس سنة ١٠٧١ عند بلدة «مالازغرد» بقرب «خلاط» فدارت الدائرة على الروم ، وجرح «رومان ديوجينوس» ووقع فى الأسر ، وكان ذلك أعظم خطب حلّ بالنصرانية فى الشرق ، وانقصم بمعركة « مالازغرد » ظهر السلطنة الرومانية البيزنطية .

ووصلت الأخبار إلى الغرب فهاج هائج جميع العالم المسيحى ورأوا أن المملكة البيزنطية أصبحت لا تصلح خصما للاسلام ، ولا حاجزا دون تقدمه صوب أوروبة . ومن ذلك اليوم تولدت فكرة الحرب الصليبيّة ، ومعناها أن المسيحيين الشرقيين لا يقدرون أن يقفوا فى وجه الاسلام ، فيجب على المسيحيين الغربيين أن ينهضوا

و يزحفوا إلى الاسلام فى عقر داره . و برغم الحروب الصليبية لم يزل الترك يتقدمون فى آسيا الصغرى حتى بلغوا بحر مرمرة ، وذلك فى زمان ملك شاه بن ألب أرسلان و بمعاونة ابن عمهم « سليمان بن قطولمش » ووصل الأتراك إلى أزمير فى سنة ١٠٨١ وأخذ ظل الروم يتقلص عن تلك البلاد الواسعة . نعم أن الصليبيين أخروا تتريك الأناضول مدة من الزمن ، ولكن عاد الاتراك فأتموا فتح هذه البلاد ، ووجدت دوله ثانية تركية غير السلاجقة وهى الدولة « الدانشمندية » التى تأسست فى « كپادوكية » وكانت لها قيصرية ، وسيواس ، وأماسيه ، وأخيراً جاء بنو عثمان وخلفوا السلاجقة والدانشمندية ، وفتحوا بورسة وجعلوها دار مملكتهم ، ثم أجازوا إلى الروملى ونقلوا دار ملكهم إلى أدرنة قبل أن فتحوا القسطنطينية .

ثم وفق الله محمدا الثانى الملقب بالفاتح فاستولى على عاصمة النصرانية فى الشرق واستصفى بلاد الأناضول كلها ، وعاد فأكمل فتح الروملى واستولى على جميع ملحقات الملك القسطنطينى ، وأوغل فى بلاد البلقان حتى استولى على بلاد الصرب و بوسنة ، وأكمل خلفاؤه عمله فاستولوا على جميع الممالك التى فى شبه جزيرة البلقان وأدخلوها فى الحكم العثمانى ،واستلحقوا مملكة المجار ، ووصلوا إلى بولونية ، وحصروا فينا ، ولولا قليل لكانت سقطت فى أيديهم . ولم يبدأ تقلص الأتراك عن شبه جزيرة البلقان إلا عند ظهور الروسية ، فأصبح الترك بازاء عدوين كبيرين معاً ؛ السلطنة الألمانية ، والسلطنة الروسية . فمامضى بعد ذلك أربعة قرون حتى عاد الأتراك فخرجوا من جميع تلك الممالك التى كانوا افتتحوها فى البلاد البلقانية ،ولم يبق لهم إلا القسطنطينية ور بضها الذى ينتهى عند أدرنة . وسنذكر شيئاً عن تتمة تاريخ الأتراك العثمانيين بعد الانتهاء من مبحث الترك الأصلى .

ونعود إلى تاريخ الترك فى أيام زحف المغول من الشرق إلى الغرب فنقول : إن المغول شعب آخر غير الترك ولكنهم من أصل واحد ، وقد دخل من المغول كثير فى الترك فصاروا منهم ، ولما زحف جنكيز خان وأعقابه كان يقال لهم «المغول» و يقال لهم أيضاً « التتار » ولكن بعد أن أسلمت الدولة المغولية فى القرن الرابع عشر

للمسيح غلب على المغول اسم التتار . فتأسست سلطنة فى « قازان » وسلطنة أخرى فى « استراخان » وسلطنة أخرى فى « القريم » وكلها كانت دولا تترية إسلامية . ثم تأسست دولة تترية إسلامية فى « سيبريا » بقرب « طوبولسك » الحاضرة وغلب اسم التتار على جميع الأتراك غير العثمانيين . وهـذا هو اصطلاح الروس واصطلاح كثير من الأوربيين . وذلك بأن يسموا بالترك أتراك السلطنة العثمانية وبالتتر الأتراك الذين فى الروسية الحاضرة .ومن هؤلاء شعب يقال لهم « الأوزبك » تغلبوا فى القرن السادس عشر المسيحى على « بخارى » و « خيوه » وأزالوا مملكة « الجغطاى » ثم أسسوادولة « خانات خوقند » . وجاء شعب آخر اسمه «النوغاى» من الترك فكانت لهم دولة فى بلاد « الفولغا » . ثم غلب عليهم شعب تركى آخر اسمه « الكلموك » . ومن الشعوب التركية المعروفة شعب يقال له « القزق » كانوا مستقلين ، و إن كانوا جيراناً للأوزبك .

وقد كانت تأست فى « كاشغر » من التركستان الصينى دولة تركية على أثر سقوط دولة الجغطاى ، واتخذت الاسلام دينا فى أواسط القرن الرابع عشر ، أى مذ نحو أر بعمائة وخمسين سنة . واشتهر منها أمير يقال له « محمود خان » اعتنى جدا بنشر الاسلام . وكان المغولى أو التركى الذى لا يلبس عمامة يدق له مسمار فى رأسه!! وأخذت الديانة البوذية تتقهقر من تلك الديار ، وكان « الأويغور » من أشهر شعوب الترك لا يزالون بوذيين ، فانتشر الاسلام فيهم أيضا . ولم يبق على البوذية إلى يومنا هذا إلا قسم منهم يقال لهم « الأويغور الصفر » .

ومما يجب أن يعرف أن الأتراك العثمانيين هم من جنس الترك الذى يقال له « التركان » . وهؤلاء التركان منهم قسم يقال له « الخروف الأسود » وقسم آخر يقال له « الخروف الأبيض » . وقد انتشروا فى غربى آسية ، ودخلت منهم أقوام فى البلاد العربية . وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر للمسيح تغلب « الكلموك » على هؤلاء التركان كما تغلب الكلموك على « القرغز » و « القزق » ثم سقطت دولة « الكلموك » . ومن القرغز فرقة تسكن فى بلاد « ينى زاى » و يقال لها اليوم

« خاكاس » ليسوا كسائر أصناف الترك تابعين للمدنية الاسلامية ، كما أنه يوجد فى « جبال الألطاى » ترك غير مسلمين ، والروس يقولون لهم « كَلموك الجبال » وليس هؤلاء مسلمين . وكذلك الأمة المسماة « بالياقوت » هم أتراك غير مسلمين ، ولغتهم لغة تركية قديمة . وقد كانت جميع البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح من شبه جزيرة البلقان ، وشطوط البحر الأسود إلى الصين ممالك إسلامية متصلة كما ورد فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ، ولـكن كان قد بدأ دخول هذه الممالك فى دور الانحطاط ، فتقلص ظل المدنية وعادت البداوة القديمة . وكان قد بدأ الروس من ذلك العهد يتغلبون على من جاورهم من الترك ، فاستولوا على مملكة « قازان » سنة ١٥٥٢ وعلى مملكة « استراخان » سنة ١٥٥٤ فقطعوا مابين الترك المشارقة والترك المغاربة أى العثمانيين .

ومنذ ذلك الوقت أخذ الروس يزحفون صوب الشرق فيستولون على مملكة مملكة من هذه الممالك التركية الاسلامية ، واتفقوا مع الصين على أنه لا يجوز أن يبقى للاسلام ملك من بحر الخزر إلى حدود الصين . فالذى لم يدخل تحت حكم الروسية يجب أن يدخل تحت حكم الصين ، وقد انعقد هذا الاتفاق بين الروسية والصين بمعاهدة تاريخها (٢٤ فبراير ١٨٨١) و برغم هذا فيقول « بارتولد » محرر هذا الفصل من الأنسيكلو بيدية الاسلامية : إن الاسلام والتركية لم يرجعا إلى الوراء فى الروسية وأنه بعد الانقلاب الروسى والحكومة البلشفية تأسست للأتراك فى الروسية جمهوريات تابعة لموسكو مثل جمهوريتى « الأوزبك » و « التركمان » وجمهورية « أذربيجان » فى القوقاز . و بالاجمال فللأتراك تحت حكومة السوڤييت الحاضرة سبع جمهوريات لها شبه استقلال ؟ وهى جمهورية القريم ، وجمهورية قوفاس ، وجمهورية الباشكيرد وجمهورية التتار ، وجمهورية القزق ، وجمهورية القرغز ، وجمهورية ياقوت . و يوجد أربع نواح لها أيضا إدارة مستقلة ، وأكثر أهلها من الترك وهى ؛ بلاد قره كاى وبالكار ، وقره كالبكيك ، وأويرات . ويقول إن هذا الدور قد أحيا أسماء القبائل التركية القديمة . و يذكر أن أكثر هؤلاء الأتراك قد عولوا فى الكتابة على الحروف

اللاتينية . أما « السكوفاش » و «السكا كاس » و « الاويرات » فقد بقوا متمسكين بأحرف الهجاء الروسية . اه

قلنا : إن السبب فى هذا هو الدعاية الأنقرية والدعاية البلشفية نفسها ، فان كلا من موسكو وأنقرة أخذتا بالحروف اللاتينية ، فالأتراك المسلمون فى الروسية قلدوا فى ذلك أنقرة ، وأما الأتراك غير المسلمين مثل « السكا كاس ، والاويرات » فبقوا متمسكين بالحروف الروسية ، وذلك لأنه لا يجمعهم بأنقرة جامعة اسلامية حتى يقلدوها ، وقد بلغ من انقلاب الأوضاع أن صارت الحروف اللاتينية هى موضوع دعاية الأتراك المسلمين ! ! ويقلد بعضهم بعضاً فيها ، وأن الأتراك غير المسلمين لا يعرفونها. وجاء فى الانسيكلو بيدية أنه فى إحصاء سنة ١٨٨٥ كان عدد الترك فى الروسية ٢٦ مليونا وقيل إن هذا العدد مبالغ فيه ، وأن أتراك الروسية ليسوا غير ١٦ مليوناً ، وأن جميع الأمة التركية فى العالم ثلاثون مليونا . ولكن كتّاب الأتراك ومؤلفيهم يجعلون للترك أكثر من هذا العدد بكثير . فأحمد أغاييف يقول : إنهم من سبعين إلى ثمانين مليوناً ، ومصطفى كمال باشا يقول : مائة مليون ! انتهى ما فى الانسيكلو بيدية الاسلامية .

والحقيقة أن الذين قالوا إن الترك بأجمعهم ثلاثون مليونا قد نقصوا عددهم كثيراً كما أن كتّاب الترك قد يكونون زادوا العدد على ما هو فى الحقيقة ، ولا شك أن الترك الذين فى الروسية لا يقلون عن ثلاثين مليونا ، كما أن الترك الذين فى التركستان الصينى يبلغون عشرة ملايين ، فيبقى ترك الأناضول ومن يليهم من الترك الذين فى تراقية ، وبلاد البلغار ، ورومانيا ، فهؤلاء كلهم لا يقلون عن خمسة عشر مليونا . ويجب أن نضيف إلى هذا العدد أتراك إيران وهم أربعة إلى خمسة ملايين ، فالجميع ستون مليونا ، وهذا أقرب تعديل .

وقد جاء فى «صبح الأعشى» فى الجزء الخامس خبر كيفية استيلاء الترك على بلاد الاناضول بعد أن كانت كلها للروم قال : إن ثغور المسلمين كانت من جهة الشام « ملطية » ومن جهة أذربيجان « أرمينية » إلى أن دخل بعض قرابة « طغرلبك »

أحد ملوك السلجوقية فى عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء ، ثم دخلها بعد ذلك « تمانى » أحد أمرائهم بعد الثلاثين وأربعمائة ففتح وغنم ، وانتهى فى بلادهم حتى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة . ثم فتح « قطلمش » ابن اسرائيل بن سلجوق « قونية » و « أقصرا » وأعمالها . ثم وقعت الفتنة بين قطلمش وبين ألب أرسلان السلجوقى وقتل قطلمش فى حربه سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وملك البلاد من بعده ابنه سليمان ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وملك بعده «قلج أرسلان» ثم خَلَفَهُ بقونية وأقصرا ابنه مسعود . ثم توفى مسعود سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وملك بعده ابنه قلج أرسلان . وهذا قسم المملكة بين أولاده ؛ فأعطى قونية وأعمالها ابنه غياث الدين كيخسرو ، وأعطى أقصرا والسيواس ابنه قطب الدين ، وأعطى «دوقاط» ابنه ركن الدين ، وأعطى انقرة ابنه محيي الدين وأعطى ملطية ابنه عز الدين قيصر ، وتخلى الى ابنه غياث الدين عن الأبلستين ؛ ولابنه نور الدين محمود عن قيسارية ، وأعطى أماسية لابن أخيه . ثم ندم على هذه القسمة وأراد انتزاع هذه الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته ، إلا ابنه غياث الدين فإنه بقى معه . وحاصر قلج أرسلان ابنه محموداً فى قيسارية فتوفى وهو محاصر لها سنة ٥٨٨. ووقعت الحروب بين الإخوة ، وتغلب عليهم أخيراً ركن الدين صاحب « دوقاط » وخلفه ابنه قلج أرسلان ، ثم قبض عليه أهل قونية وملكوا عمه غياث الدين كيخسرو ، وبقى حتى قتل فى حرب مع صاحب القسطنطينية ، وملك بعده ابنه كيكاوس الغالب بالله ، وبقى حتى مات سنة ٦١٦ . وخلفه أخوه علاء الدين فتوفى سنة ٦٣٤ . وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو وتوفي سنة ٦٥٤ . وملك بعده ابنه علاء الدين .

ولما جاء المغول واستولوا على بغداد كان الملك لعز الدين كيكاوس ، وركن الدين قلج أرسلان ، فخضعا لهولاكو سلطان المغول . وبعد هلاك هولاكو غلب ركن الدين على جميع ملك الترك فى الأناضول ، وكان هولاكو أقام رجلا اسمه «ألبرواناه» وكيلا من قبله فى بلاد الأناضول ، فغلب على ركن الدين قلج أرسلان ثم قتله ، وحجر على

ابنه غياث الدين كيخسرو . وفى تلك الأيام دخل الملك الظاهر بيبرس صاحب الديار المصرية إلى بلاد الروم سنة ٦٧٥ ولقيه «صمغان بن بيدو» الشحنة من « جهة التتار » فهزمهم ، وثار بيبرس إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل سلجوق بها ، ثم رجع إلى مصر . و بلغ ذلك «ابغا» بن هولاكو صاحب ايران ، فسار فى جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشق عليه ، واتهم « البرواناه » بممالأة الظاهر بيبرس فقبض عليه وقتله ، واستقل بالملك غياث الملك بن ركن الدين قلج أرسلان ، و بقى فى الملك حتى قتله أرغون بن أبغا صاحب ايران سنة ٦٨١ وجعل مكانه مسعود ابن عمه كيكاوس وجعل شحنة فى الأناضول رجلا اسمه «هولاكو » وليس لمسعود بن كيخسرو من الملك إلاّ الاسم . و بعد ذلك استقل الشحنة بالملكة ، وصار ملوك التتر يرسلون إلى الأناضول شحنة بعد شحنة ـ أصل معنى الشحنة حامية البلد من قبل السلطان ـ وربما عصى عليهم بعض هؤلاء فلجأوا إلى صاحب مصر ، وكثيرا ماتقلدوا الامارة بعهد من صاحب الديار المصرية مثل « الناصر محمد بن قلاوون » وصارت الأناضول من مضافات الديار المصرية ، وكان فى بلاد الأناضول ـ وصبح الأعشى يقول بلاد الروم ـ : طوائف كثيرة من التركمان كان « السلاجقة » يستعينون بهم فى الحروب ، فظهر منهم أمراء وأسسوا ممالك مثل « أولاد قرمان » أصحاب « أرمناك » و « قسطمونية » و « بنو الحميد » أصحاب «أنطالية» . و « بنو آيدين» أصحاب البلاد التى يقال لها «أزمير» اليوم . و « بنو منتشة » و بلادهم إلى الجنوب من أزمير . و « بنو أورخان بن عثمان جق» وهو صاحب « بورسة » . وكان قد اتخذ بورسة داراً لملكه ، لكنه لم يفارق الخيام إلى القصور . وكان ينزل بخيامه فى ضواحى بورسة ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال القلقشندى فى صبح الأعشى : وملك بعده ابنه « مراد بك » وتوغل فى بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القسطنطينى فى الجانب الغربى ، وفتح بلادهم إلى أن قرب من خليج البنادقة ، وصير أكثرهم أمراء ورعايا له ، وأحاط بالقسطنطينية من كل جانب حتى أعطاه صاحبها الجزية . ولم يزل حتى قُتل فى حرب الصقالبة سنة ٧٩١ وملك بعده ابنه أبو يزيد فجرى على سنن أبيه ، وغلب على البلاد فيما بين سيواس

وانطالية والعلايا ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلاّ « سيواس » التى كانت بيد قاضيها ابراهيم المتغلب عليها ، و « ملطية » الداخلة فى مملكة الديار المصرية ، ولم يزل أبو يزيد حتى قصده « تمرلنك » بعد تخريب الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة ، وقبض عليه فبقى فى يده حتى مات . وملك بعده ابنه « سليمان شلبى » و بقى حتى مات . وملك بعده أخوه « محمد بن أبى يزيد ابن مراد بن عثمان جق » وهو القائم بمملكتها إلى الآن . انتهى بتصرف .

قلنا : أيام زحف جنكيزخان على بلاد خوارزم جاء رجل يقال له « سليمان شاه ابن كيّالب » من بعض قبائل « الأوغوز » ومعه خمسين ألفاً من قبيلته ونزل على شواطىء الفرات بين أرزنجان وخلاط ، وذلك فى سنة ١٢٢٤ مسيحية ، وتوفى سليمان شاه هذا غريقاً فى الفرات ، وبعد وفاته رجع أكثر قومه إلى خراسان و بقى منهم أربعمائة عائلة مع ولديه « دندار » و « أرطغرل » . وتقدم أرطغرل إلى الغرب وكانت حصلت فى ذلك الوقت حرب مع « علاء الدين السلجوقى » فخدمه أرطغرل ونصره ، فأقطعه السلجوقى إقطاعات معلومة مكافأة له ، ثم تقدم عنده فأقطعه بلاداً على مقربة من « ينى شهر » . وولدلأرطغرل ولد سماه عثمان ، وكان عثمان يخطب ابنة شيخ من الأولياء اسمه (آده بالى) ووالدها يأبى أن يزوجه بها ، فرأى يوماً فيما يرى النائم أنه تزوج بملك خاتون ابنة الآده بالى وخرج من حجرها هلال وصعد إلى صدرها ، ثم ظهرت من جوانبها شجرة عمت البر والبحر ، إلى آخر ما تحدثوا عن هذا الحلم ، فلما أصبح الصباح قص رؤياه على الشيخ الآده بالى فأزوجه ابنته ، وولدت له ابنه أورخان . وكان عثمان كبير أولاد أرطغرل ، وكان المقدم عند سلطان قونية فحسده الأمراء على حظوته عند السلطان ، ثم ملك عثمان بلدة « قره حصار » وزاد السلطان فى إقطاعه ومنحه حق ضرب السكة ، وصار اسمه يقرن باسم السلطان فى صلاة الجمعة ، وكان (المغول) قد غزا بلاد الاناضول سنة ١٣٠٠ للمسيح ، فانهزم علاء الدين الثالث الذى كان يقال له سلطان الروم ، والتجأ إلى « ميشيل باليوغ » ملك القسطنطينية ، فمات فى حبسه . وصار كرسى ملك الإسلام فى الروم فارغاً .

فتولى عدة أمراء منهم « بنو قرمان » ومنهم « بنو قرەسى »ومنهم « بنو صاروخان» ومنهم « بنو آيدين » ومنهم « بنو حميد » ومنهم « بنو منتشه » ومنهم « بنوعثمان» الذين كان بيدهم ينى شهر وما والاها .

وكان عثمان شديد البأس صارماً ، وكان لا يزال للقسطنطينية قلاع و بلاد فى الأناضول ، فأرسل عثمان الى قواد هذه القلاع يخيّرهم بين الاسلام أو الخضوع له وكان له صاحب من الروم اسمه « ميشيل كيوز » فأسلم ، وأقطعه عثمان بلاداً ، وهذا هو جد عائلة « ميكال أوغلو » التى لها ذكر شهير فى الدولة العثمانية . وخضع له بعض أمراء الروم وأدّوا الجزية ، ثم استولى ابنه أورخان على بورسة أخذها من أيدى الروم وكانت أحصن بلدة فى آسية الصغرى ، وذلك الفتح كان سنة ١٣٢٦ مسيحية . ومات عثمان وحزن عليه قومه لأنه كان بطلا مغوارا ، وهو الذى أسس هذا الملك فقيل الدولة العثمانية من ذلك الوقت ، وكان زاهداً يقتدى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يدّخر مالا بل يوزع كل ما يدخل فى يده على أصحابه وكان يعيش فى بيته من قطيع غنم لا يزال من ذريته حتى اليوم فى نواحي بورسه .

بويع للسلطان عثمان مؤسس السلطنة العثمانية في سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة .

وقد كان الادبالى الذى تزوج السلطان عثمان ابنته من علماء القرامان ، وتفقه فى البلاد الشامية ، وكان عاملا عالماً عابداً زاهداً ، وكانوا يرجعون اليه بالمسائل الشرعية

ومن العلماء المعروفين فى أيام عثمان : المولى طوسون ختن الأدبالى ، وقد قرأ عليه وقام مقامه فى أمر الفتوى . ومنهم المولى خطاب بن أبى القاسم القره حصارى ، قرأ أيضاً فى البلاد الشامية ، وله شرح نافع على منظومة الشيخ عمر النسفى فى الخلافيات . ومنهم مخلص بابا من بلاد قرامان ، وكان يرافق السلطان عثمان فى فتوحاته . ومنهم ابنه عاشق باشا ، وكان عابداً زاهداً متصوفاً . ومنهم ابن عاشق باشا المذكور ، وكان أيضاً على قدم الصلاح نظير آبائه . ومنهم العارف بالله الشيخ حسن ، وكانت له زاوية ببلدة بروسه .

وكان أكبر أولاد عثمان علاء الدين، إلا أنه كان مشغوفاً بالعلم، محباً للعزلة فعهد عثمان بالملك لولده أورخان، فعرض أورخان على أخيه الأكبر قسمة المُلك فأبى علاء الدين، وأراد الاعتزال جانباً واختار أن يقيم على ضفة نهر «نيلوفر» الجارى فى مرج بورسة، فعرض عليه أورخان نصف قطعان الغنم التى خلفها لهم أبوهم فرفض أيضا، فقال له أورخان: من حيث أنك رفضت أن تأخذ حصتك من الغنم والبقر والخيل؛ فانى أعرض عليك أن ترعى رعيتى وتكون وزيراً لى، فلم يسعه إلا القبول وصار وزيراً لأخيه، وأحسن الادارة. وكان عثمان لم يضرب السكة باسمه فالذى ضربها هو ولده علاء الدين فى أيام أخيه أورخان، ثم جعل علاء الدين للمملكة جيشا دائما. ولكن هذا الجيش لم يطل أمره، فاتفق أورخان وأخوه علاء الدين على حله، واعتمدا على طريقة أخرى أشار بها خليل جندرلى، وهى تأسيس وجاق الانكشارية، وكانوا يأتون بأحداث من أبناء النصارى وغيرهم فيربّونهم فى الاسلام، فأكثر الانكشارية هم من هؤلاء. ولما أسسوا هذا الجيش باركه «الحاج بكتاش» وهو الذى أعطاه اسم «ينى شارى» وفى البداية لم يكن هذا الوجاق أكثر من ألف جندى، ولكنه صار يزداد سنة فسنة. وقضية أخذ أولاد النصارى وتربيتهم فى الاسلام وجعلهم جنودا كان العثمانيون قد أخذوها عن الروم أصحاب القسطنطينية الذين كانوا إذا غزوا بلاد الاسلام سَبَوا كثيرا من الأولاد وربوهم فى النصرانية، وجعلوهم جندا يقاتلون به المسلمين. ولما استولى «نيقوفورفوقاس» على حلب سبى عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم فى دار ملكه وعمّدهم وصيرهم من أعز جنوده. وكذلك عندما استولى «البطريق ميشيل بورتسنريس» على انطاكية سنة ٩٦٩ سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف أيضا وربّوهم فى القسطنطينية فخرجوا نصارى وصاروا جندا. فالعثمانيون لم يعملوا إلى ما عمله البيزنطيون من قبل ورتّب أورخان وأخوه عدة أصناف من الجيوش؛ منهم الجيش الذى يقال له «العزَب» ومنهم الخيالة وهم أنواع «السباهية» و «السلحدارية» و «العلوفه جية» و «الغُرَباء» و «المسلمان» و «الايكنجى» وبقيت قيادة الايكنجى ـ وهم

الـكشافة ـ فى ذرية عائلة ميكال أوغلى مدة أعصر .

وجعل أورخان وأخوه مدينة بورسة قاعدة المملـكة ، وأخذا يفتتحان كل يوم بلدا جديداً وحاصرا « نيقية » التى كانت العاصمة الثانية لمملكة الروم ، وبعد حصار سنتين أخذاها عنوة وهى البلدة التى انعقد فيها المجمع النيقى الذي به تقررت العقيدة الـكاثوليكية ، فحوّل الأتراك كنيسة المجمع المقدس جامعا . وأسس أورخان وأخوه فى نيقية مدرسة عالية وملجأ للفقراء ، وشيّدا فيها عمارات كثيرة ، وعهدا بقيادة موقع نيقية إلى « سليمان باشا » كبير أولاد أورخان الذى صار فيما بعدخلفا لعمه علاء الدين فى الوزارة .

ثم مضى العثمانيون فى فتوحاتهم فاتسعت المملـكة . وكان أولاد أمير « قَرَسى » قد اختلفوا بعد موت والدهم ، فوضع أورخان يده على هذه الامارة . وعمرت بورسة فى ذلك الوقت واجتمع فيها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وصارت عاصمة حقيقية ، ولا تزال عماراتها ومآثرها إلى اليوم تدهش الأبصار . وفيها مدافن ستة من السلاطين آل عثمان . وكان « دوشان » ملك الصرب جمع الصقالبة وافتتح بلاد البلغار وأراد أن يزحف على القسطنطينية فأرسل ملك القسطنطينية « يوحنا باليولوغ » وعرض على أورخان أن يزوجه ابنته حتى يستعين به على قتال الصقالبة . ولـكن دوشان مات قبل أن يتمكن من الزحف على بيزنطية ، وفى سنة ١٣٥٧ أجاز سليمان باشا ابن السلطان إلى البر الأوربى بستين مقاتلا فقط ، ثم أجاز بعده ثلاثة آلاف مقاتل واستولوا على « مدينة غاليبولى » على الدردنيل ، ثم على « كونور » و « بولاير » و « مالاجره » و « ابسالة » و « رودُستو » وبينما سليمان باشا يتقدم فى الفتوحات تردّى به جواده فمات ، ولم يلبث أبوه إلى أن لحق به .

بويع للسلطان أورخان بالسلطنة فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وقد نبغ فى زمانه المولى داود القيصرى القرامانى ، قرأ فى مصر ، وكان له قدم راسخة فى التصوف ، وشرح فصوص ابن العربي . ولما بنى السلطان أورخان مدرسته فى بلدة ازنيق انتدبه للتدريس بها . ومنهم المولى تاج الدين الـكردرى ، وكان فقيهاً علامة ، ولما مات داود القيصرى

جعله السلطان أورخان مكانه في التدريس . ومنهم المولى علاء الدين الأسود ، وقرأ في بلاد العجم وله مؤلفات ، ودرس في مدرسة ازنيق . ومنهم المولى خليل الجندري وهو أول قاض من قضاة العساكر ، وصار فيما بعد وزيراً ، وكان من أقارب الشيخ أدبالي . ومنهم المولى محسن القيصري ، وقرأ في البلاد الشامية ، وله نظم في علم الفرائض وشرح عليه . ومنهم الشيخ الغزال ومولده ببلدة (خوى) من بلاد العجم ، وكان يركب الغزال ، وحضر فتح بروسه مع السلطان أورخان وكان متجرداً عن العلائق الدنيوية ، وكان السلطان أورخان يحبه حباً جماً ؛ فأقطعه موضعاً قريباً من مقامه مع ماحوله من القرى فلم يقبل ذلك الشيخ وقال : الملك والمال هما مما يلزم الملوك والأمراء ومما لا يحتاج اليه الفقراء . ومنهم الشيخ العالم بالله قره جه احمد ، وأصله من بلاد العجم سلك مسلك الزهد . ومنهم الشيخ العارف بالله أخي أوران . ومنهم الشيخ المجذوب موسى ابدال ، حضر مع السلطان أورخان فتح بروسه . ومنهم ابدال مراد وهو أيضاً حضر فتح بروسه مع السلطان . ومنهم بداوغلو بابا وهو أيضاً من المجاهدين الذين حضروا ذلك الفتح .

ثم جلس على كرسي السلطنة مراد بن أورخان أخو سليمان باشا ، وكان سلطانا عظيما في حب الفتوحات ، وحسن التدبير ، وهو الذي استولى على « أدرنة » في البر الأوربي ونقل اليها كرسي ملكه ، وهي من أهم المدن واقعة في ملتقى ثلاثة أنهار ومن أدرنه زحفت جيوشه فاستولت على « كلچنه » في « تراقية » وعلى «قاردار» و « فيليپولى » و بنى مراد جامعاً كبيراً في « أدرنة » .

ولما رأى أهالى بلاد البلقان تقدم العثمانيين وتوالى فتوحهم ؛ هالهم الأمر وعمدوا إلى مصادمتهم ، وكان البـابا « أوربانوس الخامس » نادى بالحرب الصليبية فزحف « أوروشق الخامس » ملك الصرب ومعه أمراء بوسنة ، والفلاخ ، والمجر قاصدين الأتراك في أدرنه . وكان السلطان مراد يحاصر بلدة « بيغا » في الاناضول فالتقاهم الحاج « إلبيكى » من قواد مراد وهزمهم هزيمة شنيعة سنة ١٣٦٣ ، واستولى الترك على أثر هـذه الوقعة على « قيزِلْ أغاج » و « يَانبُول » و « إسْتِيمان »

و «سَمَا كوف» . ثم رجع مراد فاستولى على «قِرْق كَلِيسَه» و«آيدوس» ومُدُن أخرى . وفى تلك المدة أزْوج مراد ابنه بايزيد المسمى «يِلْدِرِم» الذى تقدم أنّ تيمورلنك أخذه أسيرا ، وذلك من ابنة أمير «كوتاهية» واستولى عليها . وأجْبَر أمير حميد فى الأناضول أن يبيعه إمارته ، وسرّح «تيمور طاش» أحد قوّاده فافتتح «مناستير» و«بيرلِيبَه» و«إشتيب» فى بلاد الصرب ، وافتتح أيضاً «صوفيا» من بلاد البلغار . ثم سرّح جيشا آخر بقيادة الصدر الأعظم «خير الدين» فافتتح «سلانيك» . وكان خير الدين هذا من أحسن الوزراء تدبيراً ، فلما مات طمع أعداء العثمانيين ، وزحف البلغار من جهة أوروبة ، وأمراء قرامان فى الأناضول فى وقت واحد ؛ فأسرع مراد إلى صدّ أمير قرامان وهزمه وأسره ، وعاد إلى البلقان لقتال الصرب والبلغار ، وزحف الوزير «على باشا» فاستولى على بلاد البلغار ، وأسر «سيسمان» ملك بلغاريا ولم يقتله ، وعيّن له مرتبا يعيش به . وصار ابن ملك البلغار من أتباع السلطان . وأما ملك الصرب «أليعازر» فكان قد جمع جموعه وزحف بالصرب والارناؤوط ، فالتقى الجمعان فى صحراء «قوصوْوَه» فكانت معركة من أشد ما عرف التاريخ ، وانهزم الصرب وأحلافهم ، و بينما السلطان مراد يسير على أشلاء قتلى الصرب نهض أحد الجرحى فأغمد فيه خنجره ، فجرح السلطان جرحاً بليغا مات به ، ولكن بعد أن أمات أليعازر ملك الصرب .

وكان لقبه عند الناس «غازى خداوندكار» بويع له سنة إحدى وستين وسبعمائة ونبغ فى زمانه المولى محمود قاضى بروسه ، وكان قاضياً بالعدل تقياً متورعاً ، وكان له ولد اسمه محمد فبرع فى العلوم إلا أنه مات شابا . وكان له ولد آخر اسمه موسى باشا ارتحل إلى بلاد العجم وقرأ على علماء خراسان وما وراء النهر ، وبلغ شهرة عظيمة واتصل بخدمة ملك سمرقند «أولغ بك» ، وكان هذا الملك محباً للعلوم الرياضية ، فقرأها عليه لأنه كان من علماء هذه العلوم ، ومن المؤلفين فيها ، وشرح أشكال التأسيس فى الهندسة . وله كتاب فى علم الهيئة ، وقرأ على السيد الشريف ولكن لم تحصل الملاءمة بينهما فتركه ، وقال السيد الشريف فى حقه : غلبت عليه الرياضيات . ومنهم

الشيخ جمال الدين محمد بن محمد الاقصرائى ، كان علامة فى العلوم العقلية والنقلية ، وله كتب منها كتاب فى الطب ، ويقال إنه من نسل الفخر الرازى . ومنهم المولى برهان الدين أحمد قاضى أرزنجان ، وكان عالما فاضلا ورعا وصار أميرا على أرزنجان وقتل فى أواخر سنة ثمانمائة فى إحدى الوقائع . ومنهم الحاج بكتاش ، وكان من الأولياء وجاء فى « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » أنه انتسب إليه فيما بعد بعض الملاحدة نسبة كاذبة وهو برىء منهم . ومنهم الشيخ محمد الكشترى ، أصله من العجم توطن بروسه . ومنهم بيوستين بوش ، أصله من العجم بنى له السلطان مراد زاوية فى قصبة ينى شهر .

ثم تولى السلطنة بعد مراد ابنه « بايزيد يلدرم » أى الصاعقة . وفى أيام بايزيد صارت مملكة الصرب تابعة للملكة العثمانية ، ولكن بقى « إتيان بن أليعازر » أميرا عليها يؤدى الجزية لبايزيد . وكانت بقيت لمملكة القسطنطينية فى الأناضول بلدة فيلادلفيا والأتراك يقولون لها « آلاشِهِر » فأراد السلطان بايزيد أن يلحقها بمملكته وحاصرها ، فأرسل السلطان إلى ملك القسطنطينية باليولوج بأن يأمر القائد بتخلية البلدة فزحف باليولوج إلى البلدة وأجبر أهلها على تسليمها للسلطان . وفى ذلك الوقت استولى السلطان على إمارة « آيْدِين » وعلى قسم من إمارة « قَرَامَان » ثم حاصر بايزيد القسطنطينية وزحف صوب بلاد « الفلاخ » من رومانيا الحاضرة ودوّخها حتى ارتضى أهلها بدفع الجزية . ثم استولى بايزيد على مملكة « قرامان » كلها وعلى « طوقات » و « سيواس » فلم يبق فى آسية الصغرى مملكة تركية مستقلة إلا إمارة « قسطمونى » والتجأ اليها الأمراء الذين كان بايزيد أخذ بلادهم ، فطلب بايزيد من أمير قسطمونى تسليم أولاد أمراء « منتشة » و « آيدين » فرفض طلبه ، فزحف إليه واستولى على « صمصون » و « عثمان جيك » وغيرهما ، وفر أمير قسطمونى لاحقا بتمرلنك . وفى أيام بايزيد استلحقت السلطنة العثمانية مملكة البلغار تماماً ، وأسلم ابن الملك « سيسمان » فاعترض « سيجسموند » ملك المجر على استلحاق بايزيد لبلاد البلغار كلها ، وتأهب للحرب وأرسل يستصرخ الفرنسيس والبابا ، فأعلن البابا الحرب الصليبية على العثمانيين

وأرسل « دوق برغونية » ستة آلاف مقاتل لمعاونة المجر ، وانضم إلى ذلك الجيش أكابر أمراء فرنسة مثل « الدوق دوبور بون » و « الدوق دوبار » أولاد عم ملك فرنسة ، والماريشال «بوسيكو» وانضم إليهم كثير من الألمان من «باڤاريا» و«استيريا» ولما تلاقى هذا الجيش مع المجر وزحفوا لقتال الأتراك كان عدد هذا الجيش الصليبي ستين ألفا . ولكن جيش آل عثمان كان مائتي ألف ؛ فعند ما التقى الجمعان هجم الفرنسيس على مقدمة العثمانيين فأحاط هؤلاء بهم فانهزموا ، فلما رأى الهزيمة جيش الميمنة من الصليبيين تحت قيادة « لازكوڤيتش » أمير ترانسلڤانيا تقهقر إلى الوراء وكذلك تقهقر « مانيس » قائد الميسرة المؤلفة من الفلاخيين ، وثبت القلب وكان فيه المجر والألمان ، واشتد القتال وكادت تتزلزل أقدام العثمانيين ، إلا أنهم تغلبوا في الآخر على أعدائهم بعد معركة تشيب لها الأطفال هي من أشهر معارك التاريخ .

ويقال إن العثمانيين لم يقهروا الجيش الصليبي ذلك اليوم الا بعد خسائر تفوق التصور ، ، حتى أن بعض مؤرخي الافرنج ذكروا أن المسلمين خسروا في تلك المعركة ستين ألف قتيل مما هاج غضب السلطان حتى أمر بقتل عشرة آلاف أسير من الافرنج واستحيي السلطان منهم « الكونت دي نيڤير Nevers » الذي يقال له « جان بلاخوف » وأربعة وعشرين أميراً من أعظم نبلاء فرنسة ، فهؤلاء لم يقتلهم السلطان بل اكتفى بأخذ الفدية منهم ، ولما سرّح الكونت « دي نيڤير De Nevers » قال له : « أنت في حلّ من العهد الذي تعهدت به أن لا تقاتل عساكري ، وذلك أنك لو أتيتني بكل جيوش النصرانية لما كان ذلك إلا سبباً في انتصاري عليهم » وأدّى « باليولوج » ملك القسطنطينية الجزية السنوية لبايزيد ، وبني جامعاً ومحكمة في القسطنطينية ، وكان للمسلمين فيها قاض شرعي قبل أن فتحوها ! !

وقال بايزيد : إنه لا بد أن يطعم حصانه الشعير في رومة ، وصارت ايطالية كلها ترتجف منه ، وبينا بايزيد في أوج عظمته إذ التجأ اليه « احمد جلاير » أمير بغداد الذي كان تمرلنك تغلب على بلاده ، فبعث تمرلنك الى بايزيد يطلب تسليم أحمد جلاير ، فقابل بايزيد تلك الرسالة بالازدراء ، فزحف تمرلنك الي الاناضول

واستولى على سيواس ، وقتل ارطغرل بن بايزيد فى المصاف ، فسار بايزيد الى قتال تمرلنك بجيوشه ، وتلاقى الجمان فى سهل أنقرة فكان بايزيد فى ذلك اليوم صاعقة كما هو اسمه ، ولكن طالع الحرب لم يكن معه فانهزم وتردّى به جواده فوقع أسيراً فى ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ وأسر معه ابنه موسى ، ونجا أولاده الثلاثة سليمان ، ومحمد وعيسى ، واختفى ابنه مصطفى ولم يطل أسْر بايزيد إذ مات غمًّا فى السنة التالية . فأخذ الأمير موسى جثة والده بإذن تمرلنك ودفنها فى بروسة . ويقال إنه في زمن بايزيد ابتدأ فساد الاخلاق فى الدولة ، وانتشرت الرشوة ، الى أن السلطان أمر في يوم واحد بقتل ثمانين قاضياً .

بويع لبايزيد فى رابع رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة . ومن علماء زمانه شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى ، قال ابن حجر : كان الفنارى عارفاً بالعلوم العربية ، وعلمى المعانى والبيان ، وعلم القرآآت ، كثير المشاركة فى الفنون ، أخذ عن علماء بلاده ثم ارتحل إلى مصر ، ثم رجع إلى الروم وتولى قضاء بروسة ، وكان مقدماً عند السلطان ، ويقال إنه أثرى إلى الغاية ، حتى كان عنده من النقد خاصة مائة وخمسون ألف دينار ، وحج مرتين ، وزار القدس ، ثم أصابه رمد أشرف به على العمى ، ثم رد الله إليه بصره فحج بعد ذلك الحجة الأخيره ، وله كتاب يسمى « فصول البدائع فى أصول الشرائع » . وشرح « الرسالة الأثيرية فى الميزان » شرحاً لطيفاً ، وشرح « الفوائد السراجية » وعلق على « شرح المواقف للسيد الشريف » تعليقات تتضمن مؤاخذات لطيفة على السيد ، وبلغ من الجاه والثروة الدرجة القصوى وتزاحم الناس على بابه ، وخلف عشرة آلاف من الكتب . وقيل إنه شهد السلطان أمامه شهادة فى قضية فرد شهادته ، فسأله عن السبب فى ردها فقال له : إنك تارك للجماعة ، فلم يترك السلطان الجماعة بعد ذلك . ثم اختلف المولى الفنارى مع السلطان والتحق بصاحب قرامان ، ولكن السلطان ابن عثمان عاد فاسترضاه ورجع إلى بروسه ومنهم المولى حافظ الدين بن محمد الكردرى المشهور « بابن البزازى » وله « الفتاوى البزازية » وكتاب فى مناقب الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وقيل إنه

تباحث مع المولى الفنارى فغلب عليه في الفروع ، وغلب الفنارى فى الأصول وسائر العلوم . ومنهم مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروز آبادى صاحب القاموس ، وكان ينتسب إلى الشيخ أبى اسحق الشيرازى . قال صاحب « الشقائق النعمانية » . وربما يرفع نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . دخل بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان بايزيد يلدرم ، وأنعم عليه ، وحظى عند السلطان وجوّل فى البلدان ، وبرع فى العلوم كلها لاسيما الحديث والتفسير واللغة ، وله تصانيف كثيرة تنيف على الأربعين ، وأجل مصنفاته « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » . وكان تمامه فى ستين مجلدا ، ثم لخصه فى مجلدين وسماه « بالقاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، فيما تفرق من كلام العرب شماطيط » . وكان آية فى الحفظ والاطلاع . ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وتوفى باليمن قاضياً بزبيد ليلة العشرين من شوال سنة ست أو سبع عشرة وثمانمائة ، وهو ممتع بحواسه ، ودفن بتربة الشيخ اسماعيل الجبرتى ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : وهو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفن فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن ، وهم : الشيخ سراج الدين البلقينى فى الفقه الشافعى ، والشيخ زين الدين العراقى فى الحديث ، والشيخ سراج الدين بن الملقن فى كثرة التصانيف فى الفقه والحديث ، والشيخ شمس الدين الفنارى فى سعة الاطلاع على العلوم العقلية والنقلية ، والشيخ أبو عبد الله بن عرفة فى فقه المالكية ، والشيخ مجد الدين الشيرازى فى اللغة .

وممن نبغ فى زمان السلطان بايزيد يلدرم الشيخ شهاب الدين السيواسى ، وأصله عبد لبعض أهالى سيواس ، تعلم فى صغره ونبغ ومال إلى التصوف وتوطن فى بلاد آدين وأكرمه أميرها ، وله تفسير للقرآن العظيم ، وله رسالة فى التصوف سماها « رسالة النجاة فى شرف الصفات » . ومنهم المولى حسن باشا بن المولى علاء الدين الأسود وله شرح « المراح فى الصرف » وشرح « المصباح فى النحو » . ومنهم المولى صفر شاه وكان من علماء ذلك العصر . ومنهم محمد شاه بن المولى شمس الدين الفنارى ، وكان مطلعاً على ما اطلع عليه والده من العلوم ، وفوض إليه فى حياة أبيه تدريس المدرسة

السلطانية فى بروسة وهو فى سن الثمانية عشرة ، وكانت وفاته سنة ٨٣٩ . وكان له أخ هو المولى يوسف بن المولى الفنارى ، وتولى التدريس بمدرسة بروسة واستقضى فيها . ومنهم الشيخ قطب الدين الازنيقى ، وكان زاهدا متورعا متصوفا ، علامة فى العلوم الشرعية ، قيل إنه لما اجتاز تمرلنك بالبلاد الرومية اجتمع مع هذا الشيخ فقال له : عليك أن تترك صنيعك هذا من قتل عباد الله وسفك الدماء المحرمة ، فقال له تمرلنك : ياشيخ إني أنزل في منزل وباب خيمتى إلى الشرق فأجد بابها فى الغد إلى الغرب ، وإذا ركبت يركب أمامى خمسون رجلا لا يراهم غيرى فاقفو أثرهم . فقال له الشيخ : كنت سمعت أنك رجل عاقل ، فالآن علمت أنك جاهل . فقال : من أين علمت هذا ؟ قال : لأنك تفتخر بوصف الشيطان ، وهو كونه مظهراً لقهر الله سبحانه وتعالى . ومات هذا الشيخ سنة ٨٢١ . ومنهم المولى بهاء الدين عمر بن قطب الدين الحنفى كان من الفقهاء أرباب الفتوى ، ومثله المولى ابراهيم بن محمد الحنفى ومثله أيضا نجم الدين الحنفى . ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن على الجزرى المكنى بأبى الخير ، ولد بدمشق ، ورحل إلى الديار المصرية وقرأ بها وجلس للاقراء وولى قضاء الشام سنة ٧٩٣ وجاء إلى بروسة فى زمان السلطان بايزيد بن عثمان . ولما تغلب تمرلنك على السلطان المذكور أخذ تمرلنك هذا الشيخ معه إلى بلاد تركستان وقرأ عليه الناس في سمرقند . ثم بعد وفاة تمرلنك خرج من تلك البلاد إلى خراسان ودخل هراة ، ثم جاء إلى أصفهان ، ثم إلى شيراز . وكان الناس يقرأون عليه فى كل محل ، ثم جاء إلى البصرة ، ثم جاور بمكة والمدينة ، وكان متخصصا فى علم القراآت ، وله التصانيف فيه ، وتوفى سنة ٨٣٣ فى شيراز ، وله ولدان فاضلان أكبرهما محمد أبو الفتح ، وكان من العلماء الكبار ذوى التآليف . والثانى محمد أبو الخير وكان أيضا من العلماء ، وولد ثالث اسمه أحمد وكان أيضا كأخويه . ولما وقعت الفتنة التيمورية أرسله تمرلنك رسولا إلى الناصر فرج بن برقوق صاحب الديار المصرية ، وافترق عن والده نحواً من عشرين سنة ثم اجتمعا بمصر .

وأدرك أبو الخير ابن الشيخ الجزري زمان السلطان محمد بن مراد ، ونصبه السلطان

موقعاً بالديوان العالى ، وأكرمه الى الغاية . ومنهم المولى عبد الواحد بن محمد بن محمد كان بارعاً فى العلوم العقلية والنقلية ، وله كتاب فى الاسطرلاب ، ودرس فى مدرسة كوتاهية ، وأصله من بلاد العجم . ومنهم المولى عز الدين عبد اللطيف بن الملك وكان عند الامير محمد بن آيدين . شرح « مشارق الانوار » للامام الصاغانى ، وله تصانيف أخرى . ومنهم أخوه محمـد بن عبد اللطيف بن الملك . ومنهم الشيخ العارف بالله عبدالرحمن بن على بن أحمد البسطامى من أهل انطاكية ، وكان متخصصا بعلم الحروف والأوفاق والجفر ، وله معرفة بالتاريخ ، وسكن فى بروسه . ومنهم المولى علاء الدين الرومى ، أخذ عن العلامة التفتازانى ، والسيد الجرجاني ، وحضر مباحثهما وحفظ منهما أسئلة كثيرة مع أجوبتها . ومنهم الشيخ العارف بالله فخر الدين الرومى وكان من العلماء الزهاد . ومنهم الشيخ رمضان ، اتخذه السلطان بايزيد شيخاً لنفسه ثم جعله قاضياً للعسكر . ومنهم المولى احمدى ، أصله من كرمان ، وصار المولى أحمدى معلماً للامير ابن كرميان . وكان المولى احمدى شاعراً ، وابن كرميان كان محباً للشعر ثم صحب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد ، ولاجله نظم المولى احمدى الديوان المسمى « اسكندر نامه » . ومنهم الشيخ بدر الدين محمد بن اسرائيل المعروف بابن قاضى سماوة . وكان قد تعلم فى الديار المصرية ، وقرأ مع السيد الجرجاني على مبارك شاه المنطقى المدرس بالقاهرة ، وعلى الشيخ أكمل الدين ، وقرأ عليه السلطان فرج بن برقوق ملك مصر ، ثم التحق ببلاد الروم . ولما تسلطن الأمير موسى الملقب بشلبي من أولاد عثمان وهو أخو السلطان محمد الأول ؛ نصب الشيخ بدر الدين قاضياً للعسكر . ثم وشوا به الى السلطان فأمر بقتله بافتاء مولانا حيدر العجمى ، وله تصانيف كثيرة . ومنهم المولى الحاج باشا ، وكان من رفاق الشيخ بدر الدين عند ما كان يقرأ بالقاهرة وتخصص بالطب ، وفوض اليه بيمارستان مصر فدبره أحسن التدبير ، وصنف كتاب «الشفاء» باسم الأمير محمد بن آيدين . ومنهم الشيخ العارف بالله حامد بن موسى القيصري وكان يبيع الخبز والناس يشترون منه تبركا به ، ولما بنى السلطان بايزيد الجامع الكبير بمدينة بروسه رغب اليه أن يكون واعظاً فيه ، ومات بمدينة آقسراى . ومنهم شمس الدين

محمد بن على الحسينى البخارى ، ولد فى بخارى وكان له قدم راسخة فى التصوف وجاء الى بروسه وأحبه أهلها واشتهر عندهم باسم أمير سلطان ، وأحبته بنت السلطان بايزيد فتزوج بها . وكان آل عثمان يتبركون به ، ومات فى بروسه . ومنهم العارف بالله الحاج بيرم الأنقروى ، ولد بقرية قريبة من أنقره ، ونبغ فى العلوم ، وصار مدرسا فى أنقره ، ومات بها . ومنهم الشيخ عبد الرحمن الأرزنجانى ، كان ساكنا فى الجبال بقرب أماسيه . ومنهم العارف بالله (طابدق امره) كان من الزهاد النساك يسكن بقرب نهر سقارية .

ولما أسر بايزيد ثارت الممالك البلقانيّة التى كان السلطان العثمانى قد أخضعها مثل بلغاريا ، والصرب ، ورومانيا . وكذلك ثار أمراء الأناضول من الأتراك مثل أمراء قرامان ، ومنتشه ، وآيدين ، وصاروخان ، واسترجعوا استقلالهم . ووقع الشقاق بين أولاد بايزيد فصاروا يقتتلون و يستأثر كل واحد منهم بشطر من المملكة ؛ ولكن تمرلنك انكفأ عن آسيا الصغرى قاصداً الصين ، و بقى القتال بين أولاد بايزيد بعضهم مع بعض ، و بينهم و بين أمراء الأناضول الذين استرجعوا استقلالهم ، وذلك مدة عشر سنوات والأمور فوضى إلى أن تغلب محمد على الجميع . وكان ملك القسطنطينية « باليولوج » حليفاً لمحمد ، فلذلك عند ما صفا الوقت له لم يحاول أن يستولى على بلدته بل ردّ له بعض المدن التى كانت من قبل تابعة للقسطنطينية ، وكان السلطان محمد هذا وهو محمد الأول عظيم الأمانة ، محباً للعفو ، وقد أجمع المؤرخون على وصف معالى أخلاقه ، وهو الذى مهّد المملكة تمهيداً جديداً ، ورتق جميع فتوقها بعد أن مزّقتها الفتن تمزيقاً ، وكان محبا للعلم والعلماء ، متمسكا بالدين الاسلامى ، منفذا لأحكامه .

وهو أول سلطان عثمانى أرسل صرّة الى أمير مكة ، وفرّق الصدقات فى الحجاز وفى زمانه نبغ كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين ، ومن جملتهم ابن عرب شاه صاحب تاريخ تيمور المسمى « بعجائب المقدور » وكان معلّما لأولاد السلطان محمد ، ومات السلطان محمد سنة ١٤٢١ مسيحية .

بويع له بالسلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة ، وممن نبغ فى ذلك الزمان الشيخ

المسمى بأمير سلطان ونبغ فى زمانه برهان الدين حيدر بن محمود الخوانى الهروى من تلاميذ السعد التفتازانى ، له حواش على « شرح الكشاف للسعد » أورد فيها أجوبة على اعتراضات السيد الجرجانى ، وكان تقياً ورعا . ومنهم المولى فخر الدين العجمى قرأ على السيد الجرجانى ، ثم أتى الى بلاد الروم وصار مفتيا فى زمن السلطان مراد وتعين له ثلاثون درهما كل يوم ، فأراد السلطان أن يزيد عليها فلم يقبل وقال : حقى فى بيت المال ما يقوم بكفايتى ولا يحل الزيادة عليه . وكان شديد الوطأة على أتباع فضل الله التبريزى رئيس الطائفة الحروفية الضالةومات فى أورفه ، ولما مرض مرض الموت عاده المولى على الطوسى واستوصاه ، فأوصى بان لا يخلى ظهر العوام من عصا الشريعة . ومنهم المولى يعقوب الأصغر القرامانى ،وكان عالماً مدققاً ، وجاء الى بروسه وله رسالة فى دفع المارض بين الآيتين ؛ قوله تعالى (إنا ننصر رسلنا) وقوله تعالى (و يقتلون النبيين بغير حق) . ومنهم المولى المعروف بقره يعقوب من بلاد قرامان ومنهم المولى بايزيد الصوفى ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه محمد . ومنهم العلامة محى الدين الكافيه جي ، سمى بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية فى النحو . قال السيوطى : شيخنا العلامة أستاذ الأستاذين محى الدين ابو عبد الله الكافيهجى ، ولد سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . واشتغل بالعلم أول مابلغ ، ورحل إلى بلاد العجم وتبريز ولقى العلماء الأجلاء فأخذ العلوم عن شمس الدين الفنارى ، والبرهان حيدرة ، والشيخ واجد ، وابن فرشته شارح المجمع ، وحافظ الدين البزازى ، وغيرهم . ودخل القاهرة وأخذ عنه الفضلاء والأعيان ، وولى مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن الهمام . وكان إماماً كبيراً فى المعقولات كلها ؛ الكلام ، وأصول الفقه ، والنحو ، والتصريف ، والاعراب ، والمعانى ، والبيان ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، والهيئة ، بحيث لا يشق أحد غباره بشىء من هذه العلوم . وله اليد الحسنة فى الفقه ، والتفسير ، والنظر فى علوم الحديث ، وألف فيه وأما تصانيفه فى العلوم العقلية فلا تحصى بحيث أنى سألته أن يسمى لى جميعها لأكتبها فى ترجمته فقال لا أقدر على ذلك .

قال السيوطى : وكان صحيح العقيدة ، حسن الاعتقاد فى الصوفية ، محباً لأهل الحديث ، كارهاً لأهل البدع ، كثير التعبد على كبر سنه ، كثير الصدقة والبذل لايبقى على شىء ، سليم الفطرة ، صافى القلب ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبوراً على الأذى ، واسع العلم جداً ، لازمته أربع عشرة سنة فما جئته من مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب مالم أسمعه قبل ذلك . قال لى يوماً : ما إعراب زيدٌ قائمٌ ؟ فقلت : قد صرنا فى مقام الصغار نسأل عن ذلك ! ! . فقال : لى فيها مائة وثلاثة عشر بحثا ؛ فقلت : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها ، فأخرج لى تذكرتها فكتبتها منه . انتهى .

قلت : وما سبقنا الأوربيون فى المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحد الذى يخرج عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوقوا وتغلبوا علينا .

وممن نبغ فى زمان السلطان محمد الأول العثمانى ؛ الشيخ عبد اللطيف المقدسى وكان عالما ثم مال إلى التصوف ، وسكن بروسه ومات فيها . ومنهم العارف بالله عبدالرحيم بن الأمير عزيز المرزيفونى ، وكان متصوفاأيضاً . ومنهم العارف بالله پير الياس الأماسى ، وكان من الزهاد الأتقياء ، وله مريدون . ومنهم عبدالرحمن شلبى ابن بنت پير الياس . ومنهم شجاع الدين القرامانى . ومنهم بدر الدين الدقيق . ومنهم العارف مظفر الدين الأرندوى . ومنهم بدر الدين الأحمر . ومنهم بابا نخايش الأنقروى . ومنهم صلاح الدين البولوى . ومنهم مصلح الدين خليفة . ومنهم عمردده البروساوى . ومنهم الشيخ لطف الله . وكل هؤلاء من مشاهير الاتقياء رحمهم الله .

وخلفه ابنه مراد وكان عمر مراد عند ما تولى السلطنة ثمانى عشرة سنة ، وبدأ عمله بمهادنة أمير القرامان ، وملك المجر . وثار على مراد عمه مصطفى ، وعضده ملك القسطنطينية ، فتغلب مراد على عمه وأخذه أسيراً وشنقه ، وزحف على القسطنطينية وجرت معركة شديدة إلا أن الأتراك لم يقدروا ذاك اليوم على فتح البلدة ، أمافى الأناضول فاستولى مراد على أمارة « آيدين » بعد أن كان امراؤها استقلوا فى أثناء

الفتنة التي وقعت بين أولاد السلطان بايزيد ، وكذلك استولى على « صاروخان » وعلى « منتشة » وعلى « بلاد القرامان » وعلى نصف امارة « قسطمونى » فاسترجع مراد جميع ما كانت معركة أنقرة المشؤومة مع تمرلنك أخسرته إياه من البلدان .

ولما استراح فكر مراد من جهة آسية ؛ وجّه همته نحو أوربة ، وكان « جورج برانكوويتش » ملكا على الصرب ، و « سيجيسموند » ملكا على المجر ، فظفر العثمانيون بالمجر ظفراً عظيما ، فاضطر « برانكوويتش » خوفاً على ملكه أن يخضع ويؤدي سنوياً خمسين ألف دوكة للسلطان مراد ، ويقطع كل علاقة مع المجر .

واحتل العثمانيون « كروش واتس » في قلب بلاد الصرب ؛ ثم وجه السلطان قوته صوب بلاد « الارناؤوط » وكان الجنوبي منها يليه « بنو توكشى » والقسم الشمالي يليه « جان كستريوت » فاستولى السلطان على القسمين ، ثم زحف نحو بلاد الفلاخ أي رومانية فخضع أميرها «ڤلاد دارا كول» للسلطان ، ولكن «سيجيسموند» ملك المجر ثار ، ومالأه ملك الصرب وأمير الفلاخ من جهة أوربة ، وأمير القرامان من جهة آسية ، فقهرهم السلطان جميعاً ، واستسلم أمير الفلاخ للسلطان ، وطلب ملك الصرب العفو وأزوج السلطان ابنته . فبقي ملك المجر وحده برأسه ، فعاث الأتراك في بلاده ورجعوا بسبعين ألف أسير . ثم استأنف « برانكوويتش » ملك الصرب ثورته ، فزحف السلطان إلى بلاد الصرب ، وفر برانكوويتش » إلى المجر ، واستولى السلطان على أكثر بلاد الصرب ، إلا أنه لم يقدر على بلغراد فرجع عنها بعد حصار ستة أشهر . وأما المجر فكان ظهر فيهم بطل اسمه « جان هونياد » فهزم العثمانيين وقتل منهم عشرين ألفاً مع قائدهم مزيد بك . فأرسل السلطان « شهاب الدين باشا » ومعه ثمانون ألف مقاتل للأخذ بالثأر فكسرهم « هونياد » بفئة قليلة ، وأخذ أكابر قوادهم أسرى ، ووالى الهزائم على العثمانيين ، ثم زحف السلطان بنفسه فانهزم هو أيضاً في واقعة « نيشل » وخسر ألفي قتيل ، وأربعة آلاف أسير ، وتقهقر الى الوراء . ثم تقدم هونياد الى الامام ، واستولى على مدن كثيرة للعثمانيين ، فاضطر السلطان مراد للصلح وأعاد امارة الفلاخ الى أميرها « دراكول » .

وعقد هدنة مع المجر الى عشر سنوات ، وصارت بلاد الصرب و بلاد الفلاخ تابعة لمملـكة المجر . فحزن السلطان من هـذه الحوادث ، وعقب ذلك أن ولده « علاء الدين » توفى فخلع السلطان نفسه وذهب معتزلا الملك وأقام « بمغنيسيا » وتولى مكانه ابنه محمد الثانى وهو فى الرابعة عشرة من العمر ، ولم يصل السلطان إلى مغنيسيا حتى نقض المجر عهدهم بتحريض البابا الذى أرسل إليهم أن العهد ليس مسئولا إذا كان مع المسلمين فزحف « هونياد » واستولى على بلاد البلغار ، وحاصر « وارنه » فرجع السلطان إلى أوربة وزحف « هونياد » وهزمه ؛ وكان معه « الـكردينال سيزاريني » رسول البابا ، فقتل الـكردينال فى المعمعة . و بعد هذه الطائلة على المجر رجع السلطان إلى عزلته وأراد أن يستريح . و إذا بالانـكشارية قد قاموا بثورة في أدرنة فجاء السلطان بنفسه فأطاعوا . ثم زحف بستين ألف مقاتل على بلاد اليونان فدوخها ، وانعطف نحو بلاد الأرناؤوط وكان أمير هذه البلاد المسمى أمير المردريت جعل أولاده الأربعة رهائن عند السلطان ، ومنهم « جورج » الذى تربى فى الاسلام ، وكان السلطان يحبه جداً لشجاعته وهو الذى أطلق عليه اسم « اسكندر بك » إلا أن اسكندر بك هذا لم ينس وطنه ، فانسل خفية وأثار الأرناؤوط على العثمانيين وهزم القائد « على باشا » واستقل بالبلاد . فسرح السلطان اليه « فيروز باشا » و « مصطفى باشا » بعساكر وافرة ، فتغلب اسكندر بك عليهما وأخذ مصطفى باشا أسيراً فاضطر السلطان مراد أن يخرج من عزلته مرة ثالثة وزحف بمائة ألف مقاتل وهزم الأرنؤوط واستولى على « دبرة » بعد معارك شديدة .

وانتهز هذه الفرصة « جان هونياد » المجرى وشن الغارة على العثمانيين بجيش عدده أربعة وعشرون الفاً ، منهم عشرة آلاف من الفلاخيين ، ولم ينضم اليه ملك الصرب خوفا من السلطان ، فتلاقي هونياد وجيشه فى صحراء قوصوه مع السلطان مراد وجيشه فبقى القتال ثلاثة أيام ؛ ولـكن انتهت الواقعة بانـكسار المجر وتفرغ السلطان لمحاربة اسكندر بك فلم يقدر عليه ، وبقى يناوشه القتال معتصما بالجبال

ومات السلطان مراد فى فبراير سنة ١٤٥١ .

بويع له بالسلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، ومن علماء عصره : المولى محمد ابن أرمغان ، انتهت إليه رئاسة الفتوى فى بروسة بعد المولى شمس الدين الفنارى . ومنهم ابنه محمد شاه استقضى ببروسة . ومنهم ابنه يوسف وكان مدرساً . ومنهم المولى محمد بن بشير ، وكان من مدرسى بروسة . ومنهم المولى شرف الدين بن كمال القريمى ومنهم المولى سيد احمد بن عبد الله القريمى ، ومات بالقسطنطينية بعد فتح السلطان محمد الثانى لها . ومنهم السيد علاء الدين السمرقندى ، وكان عالماً ثم مال إلى التصوف ومنهم احمد بن اسماعيل الكورانى ، كان فقيهاً أصولياً ، ارتحل إلى القاهرة وأجازه ابن حجر فى الحديث . وجاء الكورانى إلى بلاد الروم فأجله السلطان مراد الثانى وأعطاه مدرسة جده مراد الأول فى بروسة ثم مدرسة جده بايزيد يلدرم فى بروسة أيضاً . روى صاحب «الشقائق النعمانية» أن الأمير محمد بن السلطان مراد ــ وهو الذى صار فيما بعد السلطان محمد الفاتح ــ كان أرسل إليه والده عدة من المعلمين ليعلموه ، فلم يمتثل أمرهم ولم يقرأ شيئاً ، حتى أنه لم يختم القرآن . فطلب السلطان مراد رجلا ذا مهابة وحدة ليتمكن من تعليم ابنه فذكروا له المولى الكورانى فجعله معلماً لولده ، وأعطاه بيده قضيباً يضرب به إذا خالف أمره ، فذهب إليه والقضيب بيده . فقال له : أرسلنى والدك للتعليم وللضرب إذا خالفت أمرى ، فضحك السلطان محمد من هذا الكلام ، فضربه المولى الكورانى فى ذلك المجلس ضرباً شديداً حتى خاف منه السلطان محمد وختم القرآن فى مدة يسيرة ففرح بذلك السلطان مراد وأرسل إلى المولى الكورانى أموالا عظيمة ، ثم إن السلطان محمد خان لما جلس على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه عرض على الكورانى الوزارة فلم يقبل وقال له : إن من فى بابك من الخدام والعبيد إنما يخدمونك لأن ينالوا وزارة آخر الأمر ، وإذا كان الوزير من غيرهم تنحرف قلوبهم عنك فيختل أمر سلطنتك ، فاستحسنه السلطان محمد وعرض عليه قضاء العسكر فقبله . ولما باشر أمر القضاء أعطى التدريس والقضاء لأهلهما من غير عرض على السلطان ، فأنكره

السلطان ولكن استحيي من أن يظهره له ، فشاور الوزراء فأشار واحد على السلطان بأن يقول له : سمعت أن أوقاف جدي في بروسة قد اختلت فلا بد من أن تداركها . فلما قال له السلطان هذا الكلام قال الكوراني : إن أمرتني بذلك أصلحها ، فقال السلطان : هذا يقتضي زمانا مديداً . فقلده قضاء بروسة مع تولية الأوقاف . فقبل الكوراني وذهب إلى بروسة ، وبعد مدة أرسل السلطان إليه واحدا من خدامه بيده مرسوم السلطان وضمّنه أمراً يخالف الشرع ، فمزق الكتاب وضرب الخادم فاشمأز السلطان لذلك فعزله ووقع بينهما نفور ، فارتحل المولى الكوراني إلى مصر وسلطانها يومئذ قايتباي ، فأكرمه غاية الاكرام ، ثم إن السلطان محمداً الفاتح ندم على ما فعله ، فأرسل إلى السلطان قايتباي يلتمس منه أن يرسل المولى الكوراني إليه فحكى السلطان قايتباي ذلك للكوراني وقال له : لاتذهب إليه فانى أكرمك فوق ما يكرمك هو . قال الكوراني : نعم هو كذلك ، إلا أن بيني وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد ، وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر ، وهو يعرف أني أميل إليه بالطبع ، فان لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فيقع بينكما خلاف . فاستحسن السلطان قايتباي هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً ، وهيأ له أسباب السفر ، وأرسل معه هدايا إلى السلطان محمد ، فلما جاء إلى القسطنطينية ولاه السلطان قضاء بروسة ثانية سنة ٨٦٣ ، ثم قلده منصب الفتوى ، وعاش في كنف حمايته عيشا رغدا وصنف تفسيراً للقرآن العظيم سماه « غاية الأماني في تفسير السبع المثاني » عقب فيه على العلامتين الزمخشري والبيضاوي ، وشرح البخاري وسماه « بالكوثر الجاري على رياض البخاري » وله تصانيف أخرى ، وكان قوالا بالحق ، وكان يخاطب الوزير والسلطان باسمه ، وكان إذا لقي السلطان يسلم عليه ولا ينحني له ، ويصافحه ولا يقبل يده ، ولا يذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه ؛ وكان رحمه الله ينصح للسلطان محمد الفاتح فيقول له : إن مطعمك حرام ، وملبسك حرام ، فعليك بالاحتياط . فاتفق في بعض الأيام أنه أكل مع السلطان ، فقال له السلطان : أيها المولى أنت أكلت أيضا من الحرام ؟ ! فقال : ما يليك من الطعام حرام ، وما يليني منه حلال

فحول السلطان الطعام ، فأكل المولى فقال السلطان : أكلت من جانب الحرام ؟ !
فقال المولى : نفد ماعندك من الحرام ، وما عندى من الحلال ، فلهذا حولت الطعام .
وتوفى الكورانىّ سنة ٨٩٣ فى القسطنطينية . ومنهم المولى مجد الدين ، صار قاضى
عسكر فى زمان الفاتح . ومنهم المولى خضر بك بن جلال الدين ، أعطاه السلطان محمد
مدرسة جده فى بروسة ، وكان علاّمة يلقب بجراب العلم .

ولما فتح محمد الفاتح القسطنطينية جعله قاضياً فيها ، وهو أول قاض بتلك العاصمة
وتوفى فيها ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصارى عليه رحمة الله . ومنهم المولى ابراهيم
ابن الخطيب . ومنهم المولى خضر شاه من منتشة ، قرأ فى بلاده ثم ارتحل فى طلب العلم
إلى مصر ، وعاد إلى الروم ، وكان زاهداً وتوفى قاضيا . ومنهم المولى محمد بن قاضى
أياجلوغ وكان عالما زاهدا . ومنهم المولى علاء الدين على الطوسى ، وأصله من العجم
وجاء إلى بلاد الروم ، ولما فتح السلطان محمد الثانى قسطنطينية جعل ثمانيا من كنائسها
مدارس وأعطى واحدة للطوسى وهى مدرسة جامع زيرك . وجاءه السلطان محمد الفاتح
مرة وأمر بأن الطوسى يدرس كالعادة، وجلس على يمينه وجلس محمود باشا الوزير على
يساره وصار الطوسى يقرأ فى شرح العضد للسيد الجرجانى ، وحل كثيراً من الدقائق
فطرب السلطان و يقال إنه قام وقعد من شدة طربه ، وخلع عليه بعد الدرس وأعطاه
عشرة آلاف درهم ، وأحسن الى جميع الطلبة . ثم أعطاه السلطان مدرسة والدة
السلطان مراد فى أدرنة ، وعين له كل يوم مائة درهم : ثم أمر السلطان محمد المولى
الطوسى والمولى خوجه زاده أن يصنف كل منهما كتاباً للمحاكمة بين تهافت الامام
الغزالى والحكماء . فكتب المولى خوجه زاده كتابه فى أربعة أشهر ، وكتب المولى
الطوسى كتابه فى ستة أشهر ، ففضل الناس كتاب خوجه زاده ، وأعطى السلطان
محمد كلا منهما عشرة آلاف درهم ، وزاد خوجه زاده خلعة نفيسة ، فكان ذلك
سبباً فى ذهاب المولى الطوسى إلى بلاد العجم . ومنهم المولى حمزة القرامانى . والمولى
ابن التمجيد ، وكان معلما للسلطان محمد . ومنهم المولى على العجمى ، حصل العلوم فى
بلاده ، وقيل قرأ على السيد الجرجانى . ثم أتى بلاد الروم ونزل بقسطموني فأكرمه

أميرها اسماعيل بك غاية الاكرام . ثم أتى إلى أدرنة فأعطاه السلطان مراد الثانى مدرسة جده السلطان بايزيد يلدرم فى بروسة ، وعاش إلى زمان السلطان الفاتح . ومنهم المولى على القومنانى و بلده قريبة من مدينة طوقات . ومنهم المولى حسام الدين الطوقاتى . ومنهم المولى الياس بن ابراهيم السينابى . ومنهم المولى الياس بن يحيى بن حمزة . ومنهم المولى محمد بن ميناس . ومنهم المولى علاء الدين القوجه حصارى ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على التفتازانى . والسيد الجرجانى . ومنهم المولى قاضى بلاط . ومنهم المولى بخشايش صنف رسائل للسلطان مراد . ومنهم المولى محمد بن قطب الدين الأزنيقى ، ومنهم المولى فتح الله الشيروانى قرأ على السيد الشريف الجرجانى ، وقرأ العلوم الرياضية على قاضى زاده الرومى بسمرقند ، ثم أتى بلاد الروم وتوطن قسطمونى ومنهم المولى شجاع الدين الياس و يلقب بشيخ اسكوب ، درس فيها مدة أربعين سنة ومنهم المولى الياس الحنفى ، ومنهم المولى سليمان شلبى ابن الوزير خليل باشا ، وكان خليل باشا وزيرا للسلطان مراد خان . وتولى هو القضاء بالعسكر المنصور فى زمن والده . ومنهم المولى آقبيق ، وهو من العارفين . ومنهم الشيخ محمد بن الكاتب توطن غاليبولى منقطعاً عن الخلق . ومنهم الشيخ احمد بن الكاتب أخوه ، وسكن غاليبولى أيضا ، ومنهم المولى شيخى من بلاد كرميان ، ومنهم مصلح الدين المعروف بامام الدباغين بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحميدى ، ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن بخشى فقيه . ومنهم الشيخ العارف حسن خوجه من بلاد قرسى ، ومنهم شمس الدين من خلفاء حسن خوجه .

وخلفه ابنه محمد الثانى الفاتح بويع له فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة للهجرة، وكانت آسية الصغرى ـ أى الأناضول ـ كلها فى يده ، ماعدا إمارة القرامان وولاية طرابزون التى كانت تابعة للقسطنطينية ، أما فى أوربة فلم يكن للروم غير القسطنطينية وضواحيها وأما بلاد اليونان فكانت مقسمة بين البنادقة ، و بين بعض أمراء من الأهالى، وأما الأرناؤوط فكانت تحت حكم اسكندر بك ، وأما بوسنه فكانت لها امارة مستقلة وأما الصرب فكانت تؤدى الجزية للسلطنة العثمانية ، وكان باقى ما بقى تابعاً للسلطنة

رأسا ، فلما تولى محمد الثانى فكر فى فتح القسطنطينية حتى يجمع شمل المسلمين ، وكان « بايزيد يلدرم » بنى من قبل بازاء القسطنطينية حصناً من جهة آسية ، فجاء محمد الثانى فبنى حصناً يقابله من جهة أوربة ، فلما رأى الأمبراطور قسطنطين مباشرة السلطان محمد هذه البناية أرسل يستعطفه ، وعرض عليه دفع اتاوة سنوية ، فاستنكف السلطان عن قبول أي شيء ، وبدأت الحرب ؛ فاستأصل السلطان الروم الذين فى ضواحي القسطنطينية ، وأجمع كل من الفريقين على القتال ، وصنع رجل مجرى للسلطان مدفعاً كبيراً يرسل قذائفه إلى مسافة ميل ، كان موكلا به سبعمائة رجل ، فكان تأثير هذا المدفع عظيما بضخامته وبعد مرماه .

وكان السلطان محمد يقدر أن يحشد مئات ألوف من المقاتلة ، أما الامبرطور قسطنطين فلم يقدر أن يحشد إلا أربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستين مقاتلا ، فهذا العدد كان يقابل مائتين وخمسين ألف جندى عثمانى ، معها أربع عشرة بطارية من المدافع ، يعاونها من البحر مائة وثمانون سفينة حربية ا ا ، فاستصرخ « قسطنطين باليولوغ » ممالك النصرانية فخذلته ، وكل ما أنجدته به هو أن البابا وعد باعلان حرب صليبية اذا كانت الكنيستان الشرقية والغربية تتحدان ، وأرسلت جنوة أسطولا صغيراً خمس سفائن ، وتمكن خمسة آلاف مقاتل من الغرباء من الوصول إلى المدينة ، فنقل السلطان مراكبه البحرية إلى البر ، وأزلقها على الشحم ، وأنزلها في خليج « قاسم باشا » فى ليلة واحدة ، ولما أصبح الصباح كان سبعون سفينة حربية فى وسط الخليج ، وبقى الحصار خمسين يوماً فتهدمت الأبراج ، فأرسل السلطان إلى قسطنطين يعرض عليه الاستسلام فامتنع ، فعرض عليه السلطان أن يوليه بلاد المورة بدلا من فروق فاستنكف أيضاً ، وفى ٢٩ مايو من تلك السنة قام العثمانيون بهجوم عام ، وكان المهاجمون مائة وخمسين ألفاً ، فدافع الروم فى ذلك اليوم دفاعا شديداً ولكن المسلمين دخلوا من الأسوار ، فلجأ الروم إلى كنيسة آيا صوفيا يرجون المعجزة التى تنقذهم ، فدخل عليهم العثمانيون من كل جهة ، وأخذوا البلدة عنوة ، وقتل الامبراطور قسطنطين وهو يقاتل بنفسه . وكان للاستيلاء على القسطنطينية دوى

لايوصف ، ووصلت الأخبار إلى المورة فحل من الرعب فى قلوب اليونانيين ما لا يحيط به تعريف ، وأخذوا يجلون عن بلادهم إلى حيث لا يعلمون ، وامتلأ البحر بالسفن التى تشحن الأثقال ، وتحمل الأنام ، ولجأ كثيرون من الأروام إلى الجزر الخاصة بالبنادقة ، والجنوية . فصدر أمر السلطان بتأمين الناس ، ونادي المنادى فى كل مكان بأن كل رومى يريد الرجوع إلى وطنه فهو آمن على حياته ودينه وماله !! وترك السلطان للأروام عدداً كبيراً من الكنائس ، وكان البطريرك قد قتل فى المعمعة فعين السلطان بطريركا جديداً اسمه « جناديوس » وسلمه العصا وقال له : إنى أعطيك الامتيازات التى كان يتمتع بها أسلافك . وصار البطريرك منذ ذلك اليوم رئيساً للأمة الرومية ، وكان له فى الدولة العثمانية « رتبة وزير » وكانت عنده محكمة ، ومجلس روحانى ، فكان يحكم بين الاروام فى جميع القضايا ، وكان المجلس الروحانى أشبه بمحكمة استئناف ، وكان أعضاؤه ذوى امتيازات أيضاً فلا يدفعون شيئا من الخراج وبالاختصار لم يتعرض الاتراك إلى الاروام فى دينهم ، ولا فى أملاكهم إلا كنيسة « آياصوفيا » فقد جعلها السلطان جامعا .

وبعد أن انتهى السلطان من فتح « العاصمة الرومانية » أخضع بلاد اليونان باجمعها ، ودخلت جيوشه بلاد الصرب ، وسبت خمسين الف نسمة من رجال ونساء فارسل « جان هوينياد » بطل المجر الى « برانكوويتش » ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين ، فبعث برانكوويتش الى هوينياد يقول له : ماذا تصنع فيما اذا تغلبت أنت من جهة الكنيسة ؟ فأجابه هوينياد : إنني أقرر العقيدة الكاثوليكية ، وكان سفراء برانكوويتش سألوا السؤال نفسه السلطان محمد الفاتح فاجابهم : بجانب كل جامع أبنى كنيسة ، وكل من الفريقين يعبد ربه كما يشاء . فسار السلطان بمائة وخمسين الف مقاتل ، وثلاثمائة مدفع ، وحاصر بلغراد لكنه لم يقدر عليها ، ولحقت به خسائر كثيرة فى الحصار . وكان « هوينياد » قد جرح فى المعركة ومات ، فضعفت المقاومة ولم تمض سنتان حتى دوخ العثمانيون جميع بلاد الصرب . وبعد ان انتهوا من الصرب زحفوا الى «بوسنه» وأخذ محمود باشا قائد

الاتراك أمير «البوشناق» أسيراً، ولكنه وعده بالامان على حياته ، ثم إن السلطان محمداً أخذ فتوى من شيخ الاسلام بجواز قتله. وأما الأهالى فمنهم من هاجر ، ومنهم من أسلم . وأكثر من أسلم كانوا من طائفة يقال لها «البوغوميل» وكانت مسيحية لكنها لم تكن تعتقد بألوهية عيسى كما يعتقد جمهور النصارى ، وكانت لها آداب خاصة بها ، وعقائد بعيدة عن العقيدة المسيحية ، وكان من هذه النحله اقوام فى بلاد البلغار . ونظراً لتعصب المجر للكنيسة الكاثوليكية طالما اضطهدوا هؤلاء البوغوميل وأرادوا اكراههم على قبول الكثلكة ، وكانت الباباوات لا تزال تلح على ملوك المجر باستئصال هذه الطائفة فكان هؤلاء يعانون الوان العذاب ، فلما دخل الأتراك الى بلاد البلقان التى يقولون لها « الروملى » بدأ هؤلاء البوغوميل يدخلون فى الاسلام ، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمد الفاتح مملكة بوسنة . ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاء أنفسهم . فمؤرخو الافرنج يزعمون أنه لما دخل السلطان الى بوسنة خيّر الناس بين الاسلام والنصرانية ، وأن الذى أسلم بقيت له أملاكه ومن لم يقبل الاسلام جرده الأتراك من ثروته ، وكل هذا من أكاذيب المؤرخين الأوروبيين ! ! والحقيقة هى ما ذكرناه . ولو كان السلطان محمد الفاتح عامل البوشناق هذه المعاملة لكان أولى به أن يعامل النصارى بهافى سائر البلاد ، والحال كما هو معلوم ومشهور أن السلاطين العثمانيين لم يتعرضوا لأحد فى دينه . « فالبوشناق » المسلمون لم يكن أصلهم نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا من هذه الطائفة التى وصفنا شيئاً من عقيدتها ، والتى كانت أرقى من جميع سكان تلك البلاد .

ولنا رحلة الى بلاد « بوسنه وهرسك » جمعنا فيها كل المعلومات اللازمة عن أصل « البوشناق » وعن أصل « البوغوميل » ومرادنا نشرها فى أول فرصة . وقد رأينا باعيننا قبور « البوغوميل » القديمة وليس عليها شىء من الصلبان ، ولا من علامات النصرانية . وبديهى أنه لما كان البوغوميل هم فى الأصل ذوى الوجاهة فى بلاد بوسنه وهرسك ، صاروا هم ذوى الوجاهة فى الاسلام أيضا . وكان استيلاء الاتراك على بوسنه سنة ١٤٦٣ . وفي تلك المدة استولي السلطان محمد علي بلاد « طرابزون »

التى كان يليها ملوك من الاروام من عائلة « كومين » . ثم زحف السلطان لفتح بلاد الفلاخ فقاومه أميرها « ڤلاد » مدة من الزمن ، لكنه انهزم والتجأ الى بلاد المجر . فجعل السلطان أخاه « رادول » أميراً على الفلاخ ، فاما الارناؤوط فكانوا لايزالون عصاة ، وكان اسكندر بك لايزال مظفراً فى حروبه مع الاتراك ، فزحف السلطان بنفسه الى بلاد الارناؤوط واستولى على بعض المدن مثل « برات » وغيرها ثم رجع وترك القيادة « لبَلْبَان باشا » فلم يوفق ، و بقيت ألبانيا متمردة الى أن مات اسكندر بك .

واشتعلت الحرب بين السلطان و بين جمهورية البندقية . فأرسل السلطان أسطولا مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة حربية ، عليها سبعون ألف مقاتل تحت قيادة « محمود باشا » فاستولى هذا الأسطول على جزيرة « نيفروبون » وأخذها عنوة واستأصل حاميتها فتحالف البنادقة ، ومملكة نابولى ، والبابا ، مع لوزون حسن من أمراء التركمان فى شرقى الأناضول ، وذلك لمحاربة السلطان ، فزحف السلطان لصد أوزون حسن بمائة ألف مقاتل ، وقهره فى واقعة « أوقلق بيلى » وفى ذلك الوقت استولى على برالقرامان فى جنوبى الأناضول بعد مقاتلات شديدة ، وكان السلطان اعتزم فتح بلاد البغدان « من رومانية الحاضرة » فساق مائة ألف مقاتل لفتحها ، وكان أميرها « إيتيان الرابع » صلبا شديداً فقاوم أشد مقاومة ، وأوقع بالأسرى . فحنق السلطان وزحف من جهة الجنوب ، وأوعز الى تتر القرم بالزحف من الشرق ، وكان فى القرم عائلة مالكة من التتر تنتسب إلى « جنكيزخان » . وكانت هذه المملكة تشتمل على شبه جزيرة القرم و بلاد قوبان ، و بلاد الشركى ، ولها جانب من بلاد البغدان ، و بسرابيا . وكان فيها عدة إمارات تخضع « للخان الكبير » مثل آل « شيرين » و « آل منصور » و « آل سُجُد » و « آل إرغين » و « آل بارون » . وكل هذه العائلات كانت من سلائل أعوان « جنكيز خان » . وكان الجنويون قد استولوا على جانب من القرم وأوقعوا الشقاق بين أمراء التتر ، فجاء السلطان محمد الفاتح وطرد الجنوية من هناك بأسطول مؤلف من ثلاثمائة شراع ، واستولى هو على بلاد القرم ، ووضع على كرسى تلك

المملكة « منفلى غرانى » وصار من الملوك التابعين للسلطنة العثمانية . واستولى الاسطول العثمانى على مصابّ نهر الطونة ، وزحف بمائة ألف مقاتل لقتال «إيتيان الرابع» فكانت الحرب سجالا . وكانت أساطيل البندقية تجتاح سواحل الأناضول ، واشتعلت الحرب بين البنادقة والسلطان فى البانيا ، وبعد حصار شديد استولى السلطان على « اشقودره » سنة ١٤٧٩ ثم تصالحت جمهورية البندقية مع السلطان فتفرغ لقتال المجر ، وزحف أربعون ألف مقاتل من الأتراك إلى « ترنسيلفانيا » ثم إن الخلف وقع بين القواد فظفر بهم « إيتيان باتورى » أمير ترانسيلفانيا ، والجنرال « مايتاس كورفين » وهزموا الجيش الاسلامى ، وارتكبوا من فظائع التعذيب للأسرى ما روته التواريخ . ولكن السلطان لم يتوقف فى فتوحاته بل صمم على فتح « إيطالية » أيضاً وأرسل أسطولا ففتح عنوة مدينة « أوترانت » فى ١٤ اغسطوس ١٤٨٠ فوقع الرعب فى جميع إيطالية وكان مسيح باشا يغزو « رودس » لطرد فرسان مار يوحنا أورشليم ، وهم الذين كان يسميهم العرب بالاسبتارية ، ولهم ذكر شهير فى الحروب الصليبية ، ولما طردهم المسلمون من فلسطين جعلوا رودس مركزاً لهم ، وكانت قاعدة سياستهم محاربة المسلمين ، فجاء مسيح باشا بمائة وستين شراعا وحصر رودس ، وأنزل العساكر إلى البر ، وبقى الحصار مدة شهرين ، فدافع الاسبتارية دفاعاً شديداً ، واضطروا مسيح باشا إلى رفع الحصار . وبعد ذلك بقليل مات السلطان الفاتح فى ٢ مايو ١٤٨١ . وخلاصة أعمال السلطان محمد الفاتح هو أنه فتح القسطنطينية ، وكان ذلك فتحاً مبيناً انتهت به القرون الوسطى فصيَّرها عاصمة للاسلام ، وفتح أيضاً ملحقاتها ، وفتح مملكتى الصرب وبوسنة ، وبلاد الأرناؤوط ، وجمع جميع آسية الصغرى فى ملكه .

ولم يكن السلطان الفاتح من أعظم الفاتحين فى الحروب فقط ؛ بل امتاز بحسن الإدارة ، وتنظيم الملك ، وهو الذى حرر النظام المسمى « بقانون نامه » وفيه جميع أنظمة السلطنة من علمية ، وإدارية ، وسياسية ، وعسكرية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولا سيما التراتيب المتعلقة للقضاة والعلماء والمدرسين فانه اعتنى بها الفاتح أشد الاعتناء ، وكان الفاتح نفسه على جانب عظيم من العلم

وحسن الثقافة ، يتكلم بلغات متعددة وكان بدون شك من أعاظم رجال الدهر ومن حسنات الاسلام الكبرى ، وجميع هؤلاء السلاطين من عثمان إلى الفاتح لم يوجد منهم إلا بطل مجاهد وسلطان عظيم الشان ، وقلما تصادف ذلك فى دولة أخرى بهذا النسق خلفا عن سلف

وفى زمان السلطان محمد الفاتح نبغ من العلماء المولى خسرو قاضى العسكر المنصور أخذ العلم عن المولى حيدر الهروى ، وصار مدرسا بمدينة أدرنة ، ولما فتح السلطان القسطنطينية جعله قاضيا فيها مع التدريس في آياصوفيا ، وكان إذا دخل جامع آياصوفيا يقوم له من فى الجامع كلهم ، ويصلى عند المحراب ، وكان السلطان ينظر إليه من مكانه ويقول لوزرائه : أنظروا هذا أبو حنيفة رفاقه ، وكان كثير الاشتغال بالمطالعة ، وله تآليف متعددة ، ومساجد متعددة بناها فى القسطنطينية ، ومات فيها ونقل جثمانه إلى بروسة . ومنهم خير الدين خليل بن القاسم بن الحاج صفا . ومنهم المولى محمد الشهير بز يرك ، وكان مدرسا بمدرسة السلطان مراد فى بروسه ، ووقعت له مناظرة مع خواجه زاده أمام السلطان محمد الفاتح ، وكان السلطان مدققا متبحراً يحب مناظرات العلماء بعضهم لبعض ، ويميز بينها تمييزاً مدهشاً ، ففى ذلك اليوم استحسن السلطان قول خواجه زاده فوقع فى نفس المولى ز يرك شىء ، فترك القسطنطينية وذهب إلى بروسه فعاد السلطان يحاول تطييب خاطره وعرض عليه مناصب عالية فرفضها . ومنهم مصلح الدين مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوى المشتهر بين الناس بخواجه زاده والمذكور كان أبوه من التجار فمال إلى تحصيل العلم برغم إرادة أبيه ، ولم يكن أبوه مع ثروته يعطيه شيئا ، فعاش معيشة الفقراء ، وتولى القضاء فى زمان السلطان مراد ولما انتهت السلطنة إلى الفاتح ــ وكان محبا للعلم والعلماء ــ صار هؤلاء يشدّون الرحال إليه ، وكان خواجه زاده ممن قصد السلطان فلقيه وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة ، فلما رآه محمود باشا الوزير الأكبر قال له : أصبت فى مجيئك لأنى ذكرتك عند السلطان فاذهب إليه وعنده البحث ، فذهب إلى السلطان فسأل عنه فقال محمود باشا للسلطان : هو خواجه زاده ، فكان فى جانب السلطان المولى ز يرك ، وفى الجانب

الآخر المولى سيدى على ، فجلس خواجه زاده إلى جانب سيدى على واعترض على المولى زيرك وأفحمه ، حتى قال له السلطان : كلامك ليس بشيء ! ثم ذهب المولى زيرك و بقى خواجه زاده عند السلطان ، ثم جعله السلطان معلما لنفسه وقرأ عليه السلطان متن عز الدين الزنجانى فى التصريف ، وصار مقربا عند السلطان إلى النهاية حتى حسده محمود باشا الوزير وقال للسلطان : إن خواجه زاده يريد منصب قضاء العسكر . فقال السلطان : لأى شيء يريد أن يترك صحبتى ؟ فقال الوزير : هكذا يريد . ثم قال الوزير لخواجه زاده : أمرك السلطان أن تصير قاضى العسكر . فقال : أنا لا أريد ذلك قال الوزير : هكذا جرى الأمر . فامتثل خواجه زاده أمر الوزير وصار قاضيا للعسكر وكان والد خواجه زاده لا يزال فى الحياة ، وكذلك إخوته . فجاءوا يزورونه وهو فى منصبه العالى ، ورأوا ذلك الاقبال العظيم ، فقال خواجه زاده لوالده : لو كنت أعطيتنى مالا لما صرت إلى هذا الجاه الذى تراه الآن . يشير بذلك إلى أنه فى صغره لما عوّل خواجه زاده على طلب العلم وخالف مسلك أبيه فى التجارة أمسك أبوه عن الانفاق عليه ، فصار يكد و يجتهد حتى بلغ تلك الدرجة العالية ، وكان الشيخ ولى شمس الدين البخارى رأى خواجه زاده وهو يطلب العلم فى صباه وثيابه رثة ورأى إخوته متجملين بالثياب النفيسة ، فسأل أباهم ؟ لماذا أولادك هؤلاء كلهم عليهم علامات اليسار وولدك هذا وحده بحالة الفقر ؟ فقال له : هذا لأنى أسقطته من نظرى حين ترك طريقتى . فقال الولى شمس الدين : إن هذا الولد سيكون له شأن عظيم و يقوم إخوته أمامه بمقام الخدم ، وقد تحقق كلام الولى هذا ، لأن خواجه زاده عند ما صار قاضى العسكر صنع ضيافة عظيمة لأبيه ، وحشد إليها الأكابر والأعيان والعلماء ، فجلسوا على مراتبهم ، ونظراً للازدحام لم يوجد مكان فى السفرة لاخوة خواجه زاده فلبثوا واقفين كالخدم ، وتذكر خواجه زاده قول الولى شمس الدين .

وصنف خواجه زاده كتاب « التهافت » بأمر السلطان ، وقال المولى الفنارى : المصيبة كل المصيبة أن الخواجه زاده قبل القضاء إذ لو داوم على الاشتغال بالتأليف لظهرت له آثار تتحير فيها الألباب .

ثم إن السلطان جعل محمد باشا القرماني وزيراً ، وكان متعصباً على المولى خواجه زاده لميل الوزير إلى المولى على الطوسي ، فقال للسلطان الفاتح . إن خواجه زاده يشكو هواء القسطنطينية ويمدح هواء إزنيق . فقال السلطان : أعطيته قضاء ازنيق مع المدرسة التي فيها ، فمضى خواجه‌زاده إلى إزنيق ، ثم ترك القضاء واشتغل بالتدريس فقط ، ثم رجع إلى القسطنطينية بعد وفاة الفاتح . ولما جلس السلطان بايزيد بن السلطان الفاتح على سرير السلطنة أعطاه المدرسة السلطانية في بروسة ، مع منصب الفتوى فيها . وكان لا يكتب الفتوى إلا بعد النظر في الفتاوى ، وإذا تكررت عليه مسألة واحدة لا يهمل أن يعيد النظر في الفتاوى قائلا : لو ساعت نفسي في هذه لربما تساعت في غيرها . وكان إذا لم يجد المسألة في الفتاوى سلك مسلك الرأي ، وكان يقول إني قد أرجح وجها من الوجوه ثم إذا طالعت في الكتب وجدت هذا الوجه قد ذهب اليه بعض الأئمة قبلي . وكان يقول : ما نظرت في كتاب أحد بعد تصانيف السيد الشريف بنية الاستفادة . وكان خواجه زاده يقول : إني صاحب إقدام وإحجام . فقيل له : ما تريد بذلك ؟ فقال : إذا كملت مطالعتي لا أخاف أحدا كائنا من كان وإذا لم تكمل أخاف كل أحد . ونقل عنه أنه قال : إن العلوم على ثلاثة أقسام ؛ قسم منها ما يمكن تقريره وتحريره وهو المكتوب في المصنفات . ومنها ما يمكن تقريره ولا يجوز تحريره وهو الجاري في المباحثات . ومنها ما لا يمكن تقريره ولا تحريره وهو ما لا يمكن التعبير عنه لدقته إلا إذا حصل لأحد تلك الحالة الذوقية فيتكلم بالايماء والاشارة . وأمر السلطان بايزيد خواجه زاده أن يكتب حاشية على شرح المواقف فامتثل أمره . وكان قد وقع شلل في يده اليمنى فكان يكتب الحاشية باليد اليسرى وتوفي خواجه زاده سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، وكان له ولد اسمه الشيخ محمد من العلماء الكبار مال في آخر الأمر إلى التصوف .

ومن علماء عصر الفاتح المولى شمس الدين احمد بن موسى الشهير بالخيالي ، وكان عالما عاملا ورعاً ، ولما توفي تاج الدين الخطيب مدرّس أزنيق طلب السلطان محمد الفاتح مدرّساً مكانه ، فعرض الوزير محمود باشا اسم الخيالي فقال له السلطان : أليس

هو الذى كتب الحواشى على شرح العقائد وذكر فيها اسمك ؟ قال الوزير : نعم هو ذلك . قال السلطان : إنه مستحق لهذا المنصب . وأعطاه المدرسة المذكورة وعين له كل يوم مائة وثلاثين درهما ، ومات وهو مدرس فيها وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان كثير العبادة . حكى من لازمه أنه لم يره فرح ولا ضحك . وكان دائم الصمت لا يتكلم إلا عند مباحث العلوم .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى القسطلاني ، كان مدرسا فى مدرسة «ديموطقة» فى الروملى ثم لمّا بنى الفاتح المدارس فى القسطنطينية أعطاه واحدة منها وصار قاضيا بالعسكر المنصور بخافة محمد باشا القراماني لأن القسطلانى كان قوّيا لا يدارى أحدا ، فقال الوزير للسلطان : الأولى أن يكون للعسكر قاضيان ؛ أحدهما القسطلانى يكون قاضيا لعسكر الروملي ، والآخر يكون قاضيا لعسكر الأناضول . وفى تلك المدة مات السلطان الفاتح وجلس السلطان بايزيد ، فعزل القسطلانى عن قضاء العسكر . وكانت له تصانيف عالية الدرجة ، ولم يتفرغ لأكثر منها لكثرة اشتغاله بالدرس والقضاء ، وتوفي سنة إحدى وتسعمائة ودفن بجوار أبي أيوب الأنصارى .

ومنهم المولى محيي الدين محمد بن الخطيب كان مدرساً باحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وادعى مرة أنه يقدر على مباحثة خواجه زاده ، فقال له السلطان الفاتح : أأنت تقدر على البحث معه ؟ قال : نعم لاسيما أن لى مرتبة عند السلطان . فعزله السلطان محمد لهذا الكلام . وكان طليق اللسان ، جرىء الجنان ، وقهر كثيراً من علماء زمانه . ويروى عنه أنه ذهب ومعه جماعة من العلماء الى السلطان بايزيد فقبّل العلماء يد السلطان ، وأما ابن الخطيب فلم يقبل يده ولا انحنى له ، فلما خرجوا من حضرة السلطان قالوا له : كان الأليق أن تنحنى له وتقبل يده ! ! قال : أنتم لا تعرفون ، يكفيه فخرا أن يذهب اليه عالم مثل ابن الخطيب وهو راض بهذا القدر . ثم إن السلطان بايزيد جمعه مع المولى علاء الدين العربى وغيره من العلماء وانتهى البحث الى كلام غضب منه السلطان ، فصنف ابن الخطيب رسالة وذكر السلطان بايزيد خان فى خطبتها وأرسلها الى السلطان بيد الوزير إبراهيم باشا ، فازداد السلطان غضباً وقال للوزير

ما اكتفى بذكر ذلك الكلام الباطل باللسان حتى كتبه فى الورق ! اضرب برسالته وجهه وقل له يخرج من مملكتى . فالوزير كتم ذلك عن ابن الخطيب ولم يشأ كسر خاطره ، وأرسل إليه عشرة آلاف درهم باسم السلطان والسلطان لا يعلم ذلك . وله مؤلفات كثيرة .

ومنهم المولى علاء الدين على العربي ، أصله من نواحى حلب ، قرأ أولا فى حلب ثم قدم الى بلاد الروم فقرأ على المولى الكورانى ، وقال المولى الكوارنى له : أنت عندى بمنزلة السيد الشريف عند مبارك شاه المنطقى . وتحرير الخبر أن السيد الشريف كان قرأ شرح المطالع ست عشرة مرّة ، ثم قال فى نفسه : أريد أن أقرأ هذا الكتاب على مصنفه . فذهب إليه وهو بهراة والتمس منه أن يقرأ عليه شرح المطالع ، وكان الشيخ قد بلغ من الكبر عتيًّا ، فنظر الى السيد الشريف فقال له : أنت شاب وأنا شيخ كبير لا أقدر على التدريس ، فاذهب الى مبارك شاه فهو يقرئك كما سمع منى وكان مبارك شاه وقتئذ يدرّس بمصر ، فذهب السيد الشريف من هراة إلى مصر ومعه الكتاب ، فقال له مبارك شاه : نعم إلا أنه ليس لك درس مستقل ، ولا آذن لك بالتكلم بل تقنع بمجرد السماع . فرضى السيد الشروط كلها وحضر الدرس . وكان بيت مبارك شاه متصلا بالمدرسة وله باب اليها ، فخرج ليلة إلى صحن المدرسة و بينما كان يدور فيها سمع السيد الشريف يقول : قال الشارح كذا ، وقال الأستاذ كذا ، وأنا أقول كذا ، وكرر كلمات لطيفة أعجبت مبارك شاه حتى رقص من شدة طربه ، فأذن للسيد الشريف أن يقرأ و يتكلم ، وسود الشريف حاشية شرح المطالع هناك ، فالمولى الكورانى قص على المولى العربى هذه القصة وقال له : إنى أفتخر بك افتخار مبارك شاه بالسيد الشريف ودرّس المولى العربى باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم صار مفتياً فيها . وكان رجلا قوى المزاج إلى الغاية يجلس عند الدرس مكشوف الرأس فى أيام الشتاء و يقال إنه كان يأتى النساء كل ليلة ، وكان يغتسل فى بيته مهما اشتد البرد ، ثم يصلى مائة ركعة ، ثم ينام ، ثم يقوم للتهجد ، ثم يطالع إلى الصبح وقد وُلد من صلبه سبع وستون نفساً ، ولما مرض مرض الموت

عاده الوزراء ومعهم طبيب ، فأشار عليه الطبيب بالاستحمام فلم يرض ، فحمله الوزراء جبراً على سرير قبض كل واحد طرفا منه وذهبوا به إلى الحمام .

ومنهم المولى عبد الكريم كان هو والوزير محمود باشا والمولى إياس عبيداً لمحمد أغا من أمراء السلطان مراد ، وقد جيء بهم من بلادهم وهم صغار ، فمحمود باشا صار فيما بعد وزيراً للسلطان الفاتح ، والمولى عبد الكريم قرأ العلوم بأسرها ، واشتهر بالفضل وأخذ عن المولى على الطوسى ، والمولى سنان العجمى ، ثم صار مدرساً بإحدى المدارس الثمان التى أحدثها الفاتح بعد فتحه القسطنطينية ، وصار قاضياً للعسكر ، ومات فى أيام السلطان بايزيد خان

ومنهم المولى حسن بن عبد الصمد الصمصونى ، كان عالماً فاضلا محباً للفقراء أخذ عن المولى خسرو ، ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ، ثم معلما للسلطان محمد الفاتح ثم قاضيا للعسكر المنصور ، ثم قاضيا لمدينة القسطنطينية ، وكان محمود الطريقة فى قضائه ، وكان له خط حسن ، كتب للسلطان الفاتح صحاح الجوهرى بخطه . ومنهم المولى محمد بن مصطفى بن الحاج حسن . قرأ على علماء عصره ، وصار قاضيا بمدينة « غاليبولى » ثم أعطاه السلطان محمد مدرسة والده بمدينة بروسه ، ثم استقضى فيها ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم صار قاضيا للعسكر ومات فى سنة إحدى عشرة وتسعمائة فى زمان السلطان بايزيد خان . وله تآليف منها حاشيته على تفسير سورة الأنعام للبيضاوى ، وحاشيته فى المحاكمة بين الدوانىّ ومير صدر الدين ، وكتاب فى الصرف اسمه ميزان التصريف .

ومنهم علاء الدين على بن محمد القوشجى كان أبوه من خدام أولغ بك ملك ماوراء النهر ، وكان حافظ البازى « وهو معنى القوشجى بالتركية » قرأ على علماء سمرقند ، وقرأ على قاضى زاده الرومى العلوم الرياضية ، وكان الأمير أولغ بك أيضاً عالماً بهذه العلوم فأخذها عنه ، و بنى الأمير أولغ بك مرصداً فى سمرقند عظيما وتعين له المولى القوشجى هذا ، وله زيج شهير . و بعد وفاة أولغ بك لم يعرف أولاده قدر القوشجى فرحل إلى تبريز وكان أميرها السلطان حسن الطويل فأكرمه كثيرا ، وأرسله فى رسالة إلى

السلطان محمد العثمانى ، فلما جاء إلى الفاتح بالرسالة أكرمه فوق ما أكرمه السلطان حسن ورغب إليه أن يسكن فى ظل حمايته ، فوعده بالمجىء بعد إتمام الرسالة ، وعاد إلى السلطان حسن وأدى الجواب ، ثم أرسل الفاتح من جاء به إلى القسطنطينية بالحشمة الوافرة ، وقدم للسلطان رسالة فى علم الحساب وسماها المحمدية ، ولا يوجد أنفع منها فى هذا العلم . ثم حصلت حرب بين الفاتح والسلطان حسن الطويل فاستصحب السلطان المولى القوشجى وهو ذاهب إلى الحرب ، فصنف له فى أثناء السفر رسالة فى علم الهيئة سمَّاهَا «الفتحيّة» ولما رجع السلطان من فتح العجم أعطى القوشجى مدرسة أيا صوفيا وأكرم أولاده وأتباعه وكان معه مئتا نفس من الأتباع . ورووا أن المولى القوشجى ذكر مباحثة السيد الشريف مع العلامة التفتازانى ورجّح جانب التفتازانى وكان المولى خواجه زاده يقول : كنت أظن الأمر كذلك إلا أنى حققت البحث المذكور فظهر لى أن الحق فى جانب السيد الشريف فكتبت ذلك فى حاشية كتابى وطالعها القوشجى فاستحسن ما كتبت . ولمَّا لقى القوشجى السلطان محمدا الفاتح قال له السلطان : كيف شاهدت خواجه زاده . قال : لا نظير له فى العجم والروم . قال السلطان : ولا نظير له فى العرب أيضا . وللقوشجى حاشية على أوائل شرح الكشاف للتفتازانى توفى فى القسطنطينية ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى .

ومنهم المولى على بن مجد الدين محمد بن مسعود بن محمود بن محمد بن عمر الشاهرورى البسطامى الهروى الرازى العمرى البكرى الشهير بالمولى « مصنفك » والكاف علامة التصغير عند العجم ، ولقب بذلك لاشتغاله بالتصنيف مذ حداثة سنه ، وهو من ذرية فخر الدين الرازى ، ويقال إن الفخر الرازى صرح فى بعض مصنفاته بأنه من ذرية عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وقيل بل هو من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ولد المولى «مصنفك» سنة ثلاث وثمانمائة ، وسافر إلى هراة لتحصيل العلم سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وصنف شرح الارشاد سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ــ أى وهو ابن عشرين سنة ــ وشرح المصباح فى النحو سنة خمس وعشرين ، وشرح آداب البحث سنة ست وعشرين ، وشرح اللباب سنة ثمان وعشرين ، وشرح المطوّل سنة اثنتين

وثلاثين ، وشرح شرح المفتاح للتفتازانى سنة أربع وثلاثين ، وصنف حاشية التلويح سنة خمس وثلاثين ، وشرح البردة والقصيدة الروحية لابن سينا فى تلك السنة ، ثم ارتحل إلى هراة وشرح « الوقاية » ثم شرح « الهداية » سنة تسع وثلاثين . ثم صنف حدائق الايمان لأهل العرفان ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم سنة ثمان وأربعين وشرح المصابيح للبغوى ، وشرح شرح المفتاح للسيد الشريف ، وصنف شرح الكشاف للزمخشرى . وله عدة تآليف بالفارسية ، وقرأ العلوم الأدبية على المولى جلال الدين يوسف الأبْهَرى من تلاميذ التفتازانى ، وقرأ فقه الشافعى على الامام عبد العزيز بن الابهرى ، وقرأ الفقه الحنفى على الامام نصيح الدين محمد بن محمد علاء الدين .

وكان سريع الكتابة يكتب كل يوم كراسا ، وكان يدرس الطلبة بالكتابة يكتبون اليه مواضع الاشكال فيجيب كلاً فى ورقة ويدفعها إلى الطالب ، مات بالقسطنطينية سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، ودفن عند أبى أيوب الأنصارى وأصيب بالصمم فى آخر حياته .

ومنهم المولى سراج الدين محمد بن عمر الحلبى ، لمّا أغار تمرلنك على البلاد الحلبية أخذه معه إلى ما وراء النهر فقرأ هنالك ، ثم قدم إلى بلاد الروم فى زمن السلطان مراد خان ونصبه معلما لابنه السلطان محمد الذى فتح استانبول ثم أعطاه مدرسة بأدرنة وبقى يدرّس ويصنف حتى مات فيها .

ومنهم المولى محيى الدين درويش محمد بن خضرشاه ، كان مدرساً بسلطانية بروسة وكان فى غاية الورع والناس تتبرّك به . ومنهم المولى إياس ، وكان متصوّفا انقطع للعبادة والمطالعة ، وكان له غرام بتصحيح الكتب وكتابة الفوائد فى حواشيها ، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم . ومنهم المولى خير الدين معلم السلطان محمد الفاتح ، وكان له جامع ومدرسة في القسطنطينية . وكان عالمًا فاضلا متفننًا لذيذ الصحبة حسن النادرة .
ومنهم المولى حميد الدين بن أفضل الدين الحسينى ، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى ، صبوراً على الشدائد ، تولى التدريس بمدرسة السلطان مراد فى بورسة

ثم عزل عنها فى أوائل سلطنة الفاتح ، وأتى إلى القسطنطينية . وكان الفاتح أحياناً يخرج ماشياً فى عدة من أعوانه فصادفه الشيخ حميد الدين فنزل عن فرسه ووقف فقال له السلطان : أنت ابن أفضل الدين ؟ قال : نعم . قال : احضر إلى الديوان غداً . فلما حضر أعطاه مدرسة السلطان مراد فى بورسة ، وأجرى عليه أرزاقا تكفيه وأوصاه بالاشتغال بالعلم وقال له : أنا لا أغفل عنك . ثم أعطاه السلطان إحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم استقضاه ، و بعد وفاة الفاتح صار مفتياً فى زمان ولده السلطان بايزيد . وكان شديد الحفظ قلّما توجد مسألة شرعية أو عقلية إلا وهو يحفظها ، ولم يكن يعرف الغضب ومنهم المولى سنان الدين يوسف بن المولى خضر بك ابن جلال الدين ، كان عالماً فاضلا واسع الاطلاع حادّ الذهن ، ولشدة ذكائه غلب عليه الشك فصار يشتبه فى أكثر الأشياء ، وكان والده يلومه على ذلك ، وكانا يأكلان مرة معاً فقال له والده : بلغ بك الشك إلى مرتبة أنك قد تشك فى أن هذا الظرف من نحاس ؟! فقال له : نعم يمكن ذلك لأن للحواس أغاليط . فغضب والده عليه وضربه بالطبق على رأسه . ولمّا مات والده كان فى العشرين من سنه . فأعطاه السلطان الفاتح مدرسة بأدرنة ، ثم أعطاه دار الحديث ، ثم جعله من خواصه ، وتعلم سنان الدين العلوم الرياضية على المولى على القوشجى الذى تقدّم ذكره ، ثم سفر الجو بينه و بين السلطان فعزله وحبسه . فلما عرف العلماء اجتمعوا فى الديوان العالى وقالوا : لابد من إطلاق سبيله و إلا نحرق كتبنا ونخرج من المملكة ، فأمر السلطان بتخلية سبيله ولكنه أخرجه من القسطنطينية إلى سفر حصار ، و بقى غضبان عليه . إلا أن السلطان بايزيد عاد فاستدعاه إلى أدرنة ، وجعله فى دار الحديث فيها ، وأنعم عليه وكتب هناك حواشى على مباحث الجواهر من شرح المواقف ، وأورد أسئلة كثيرة على السيد الشريف ، فنصحه بعض أصحابه قائلا له : لابد من انتخاب تلك الأسئلة لأن السيد رفيع الشان ، فأوعز للطلبة بأن يطالعوا تلك الأسئلة ، فأسقط منها ما أجابوا عنه ، ثم ترك المناصب ومات بقسطنطينية ، ودفن بجوار أبى أيوب الانصارى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . وكان ينفق كل ما فى يده ، ولما مات لم يوجد فى بيته حطب يسخّن

به الماء . ومنهم المولى يعقوب باشا بن المولى خضر بك بن جلال الدين ، وكان عالماً محققاً صالحاً ، استقضى فى مدينة بورسة ومات وهو قاض بها سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . ومنهم احمد باشا بن خضر بك بن جلال الدين كان أيضاً عالماً فاضلا متواضعا محبا للفقراء ، أعطاه السلطان محمد إحدى المدارس الثمان وهو دون العشرين ثم صار مفتيا بمدينة بروسة فى زمان السلطان بايزيد ، ومات سنة سبع وعشرين وتسعمائة وقد ذرف على التسعين . ومنهم المولى صلاح الدين ، كان عالما عابداً جعله الفاتح معلما لابنه بايزيد ، وتوفى فى بورسة .

ومنهم المولى عبد القادر أصله من « اسبارتة » من ولاية حميد ، قرأ على المولى على الطوسى وترقى فى المناصب حتى صار من خواص السلطان الفاتح ، فنقل الوزير محمود باشا عنه إلى السلطان ما غيَّر خاطره عليه ، فذهب إلى وطنه ومات مكسور الخاطر . ومن نكاته أنه كان مع السلطان فى قونية ، فخرج العلماء لاستقبال السلطان مشاة ، وكان المولى عبد القادر راكباً ، فقال له السلطان : قد أضناك السفر فانظر إلى هؤلاء العلماء وقوة مزاجهم ، فأنشده بيتاً بالفارسية معناه : إن الفرس العربى و إن كان نحيفاً فهو أجود من جماعة الحُمُر ، فضحك السلطان واستحسن جوابه . ولكنه لم يستحسن منه قوله مرة : إنه لو كان العلامة التفتازانى والسيد الجرجانى فى عصره لحملا قدّامهُ غاشية سرجه ، فان السلطان اشمأز من كلامه ، وأمره بالمباحثة مع خواجه زاده فأفحمه خواجه زاده ، كأن السلطان جعل ذلك عقاباً له . ومنهم المولى علاء الدين على بن يوسف بالى بن المولى شمس الدين الفنارى ، كان من العلماء المحققين ارتحل إلى بلاد العجم وأخذ عن علماء هراة ، ثم عن علماء سمرقند ، و بخارى ، ثم عاد إلى بلاده . وكان المولى الكورانى يقول للسلطان الفاتح : يجب أن يكون عندك أحد أبناء المولى الفنارى ، فلما بلغه وجود المولى علاء الدين من ذرية الفنارى استقضاه بمدينة بورسة ثم جعله قاضيا للعسكر المنصور ، وفى زمانه ارتقى شرف العلم وكانت للعلماء سيادة تامّة . ثم عزل ، ثم أعاده السلطان بايزيد لقضاء العسكر ، ثم عزل وأقام على جبل فوق مدينة بورسة يشتغل بالعلم ، وكان يقضى فى ذلك الجبل الفصول الثلاثة

وينزل إلى بورسة فى الفصل الرابع . وكان لا ينام على فراش ، فاذا غلب عليه النوم استند على الجدار والكتب بين يديه . وكان ماهرا فى العلوم الرياضية ، وفى علم الكلام ، وعلم الأصول ، وفى الفقه والبلاغة ، وسلك أيضاً طريق التصوف ودخل فى خدمة العارف بالله حاجى خليفة ، ومع سعة علمه لم يرغب فى التأليف ، وليس له إلا شرح الكافية فى النحو . وكان ينفق كل ما بيده ولم يدّخر من رواتبه الكثيرة التى جرت عليه وهو قاض للعساكر أقل شىء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : كنت رجلا سكران ولم يوجد عندى من يحفظ المال . يريد أنه كان سكرانا بخمرة الجاه . فقال له بعض الحاضرين : إذا رجعت إلى المنصب فيلزم أن تحفظ المال ، فقال : لا يفيد فانه إذا عاد المنصب يعود معه السكر . توفى سنة ثلاث وتسعمائة ، وقيل إحدى وتسعمائة .

ومنهم المولى حسن شلبى بن محمد شاه الفنارى ، كان عالماً عابداً محباً للفقراء وكان مدرسا بالمدرسة الحلبية فى أدرنة ، وكان ابن عمه المولى على الفنارى قاضياً بالعسكر فى أيام الفاتح ، فدخل عليه وقال : استأذن لى من السلطان لأنى أريد أن أذهب إلى مصر لقراءة كتاب «مغنى اللبيب» فى النحو على رجل مغربى سمعته بمصر يعرف ذلك الكتاب غاية المعروفة ، فأذن له السلطان وقال قد اختل دماغه . وكان السلطان لا يحبه لأنه صنف حواشيه على كتاب التلويح باسم السلطان بايزيد فى حياة والده ، ثم ذهب إلى مصر وقرأ مغنى اللبيب على العالم المغربى قراءة تحقيق وتدقيق وكتب الكتاب بخطه وكتب له المغربى إجازة على ظهر الكتاب ، وقرأ البخارى على بعض تلاميذ ابن حجر وأخذ إجازة فى الحديث ، ثم حج ورجع إلى بلاد الروم فأرسل كتاب مغنى اللبيب إلى السلطان فلما نظر فيه رضى عنه وأعطاه مدرسة إزنيق ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان . وفى زمان السلطان بايزيد سكن بورسة وعين له السلطان رزقا كافيا ، ومات ببورسة . وله حواشى على الشرح المطوّل للتلخيص وحواشى على شرح المواقف للسيد الشريف ، وحواشى على التلويح للتفتازانى .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن المولى حسام ، وكان عالما فى العلوم الشرعية والعلوم الأدبية ، ومتصوفاً أيضا ، وكانت له اليد الطولى فى الانشاء ، وصار مفتياً فى

بورسة ، ومات بها . ومنهم محيي الدين محمد الشهير « بأخوين » قرأ على علماء الروم ودرّس فى إحدى المدارس الثمان فى قسطنطينية . ومنهم المولى قاسم المشتهر « بقاضى زاده » كان أبوه قاضيا فى مدينة قسطمونى ، وكان عالما عابدا ، وكانت له معرفة بالعلوم الرياضية ، وتولى القضاء فى بورسة ، وكان محمود الطريقة ، ومات وهو قاض فى بورسة ومنهم المولى محيي الدين الشهير «بابن مغنيسا» اتصل بخدمة المولى خسرو وهو مدرس بمدرسة آيا صوفيا ، وكان يسكن فى الطبقة العليا من المدرسة ، ويشعل سراجه طول الليل ويرى ذلك السلطان محمد من دار السعادة ، فسأل السلطان يوما المولى خسرو : من أفضل تلاميذك؟ فقال له : ابن مغنيسا . قال : ثم من؟ قال : ابن مغنيسا . قال السلطان: أهو رجلان ؟ قال: لا ولكنه واحد كألف ، فقال له السلطان : إنه ساكن فى الحجرة الفلانية ، وذلك لأن السلطان كان يرى سراجه موقداً طول الليل . ولما بنى الوزير محمود باشا مدرسته بالقسطنطينية أعطاها السلطان لابن مغنيسا ، ففى أول درس ألقاه قال أستاذه المولى خسرو بحضور جمّ من العلماء : حضرت درسين ؛ أحدهما لمحمد شاه الفنارى ، والآخر هذا الدرس . قال ذلك لشدة إعجابه بتلميذه . ثم صار قاضيا بالقسطنطينية ، ثم قاضيا بالعسكر المنصور . واتفق أن سافر السلطان الفاتح إلى الحرب فى الروملى فسأل ابن مغنيسا عن بيت من الشعر العربى فقال له : أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب . فقال له السلطان محمد : أيحتاج بيت واحد من الشعر إلى كل هذا وأمر بحضور المولى سراج الدين – وكان موقّعا فى الديوان العالى – فسأله عن ذلك البيت ففى الحال أجابه قائلا : هو للشاعر الفلانى من القصيدة الفلانية من البحر الفلانى . ثم قرأ السباق والسياق ، وحقق معنى البيت . فقال السلطان لابن مغنيسا : ينبغى أن يكون العالم هكذا فى العلم ، ثم عزله عن قضاء العسكر وأعطاه إحدى المدارس الثمان وقال هو محتاج بعد إلى التدريس . ثم بعد ذلك استوزره ثم عزله عن الوزارة . وفى زمان السلطان بايزيد رجع قاضيا للعسكر وتوفى وهو قاض .

ومنهم المولى حسام الدين حسين بن حسن بن حامد التبريزى المشهور «بأم ولد» لقّب بذلك لأنه تزوج أم ولد المولى فخر الدين العجمى ، كان عالماً عابداً منقطعاً عن

الخلق ، عاكفاً على الدرس والعبادة ، أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان وكان يحبه لصلاحه ويحسن إليه . ومنهم ابن المعرّف كان من ولاية بالى كسرى وكان معلّما للسلطان بايزيد ، وكان السلطان يقول : لولا صحبتى معه ماصحّت عقيدتى ومنهم المولى بهاء الدين بن الشيخ الحاجى بيرم ، كان عالماً فاضلا عابداً ، صار مدرسا بمدرسة السلطان بايزيد بن مراد فى بورسة ، وأخذ عن الخواجه زاده ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان بايزيد بن محمد مدرسته بأدرنة أعطاها إلى المولى بهاء الدين المذكور . ومنهم المولى سراج الدين كان معيدا لدرس خواجه زاده ، ثم أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان بقسطنطينية ، وكان يحفظ جيدا قصائد العرب ، وينظم الشعر العربى ، وقد تقدم كونه تغلب على ابن مغنيسا فى معرفة الشعر العربى ، ومات فى عنفوان شبابه ، وحزن عليه الناس . ومنهم المولى محيي الدين محمد ابن كوبلو ، جعله الفاتح قاضياً بالعسكر المنصور ، وتزوج بأخته سليمان شلبى بن كمال باشا فولدله منها ولد اسمه أحمد شاه ، وهو المولى العالم الفاضل المعروف «بابن كمال باشا» ومنهم المولى محيي الدين محمد المعروف بمولانا « ولدان » وكان قاضياً بمدينة غاليبولى ثم جعله السلطان مدرسا فى بورسة ، ثم قاضيا بها ، ثم جعله قاضى العسكر ، ثم عزله وبقى إلى زمان ولده بايزيد خان فأعاده إلى قضاء العسكر وحصل فى زمانه أن أخذ خدام السلطان في أدرنة ظهر منه فساد ، فأرسل نائب المحكمة أناسا من قبله لمنعه فلم يمتنع ، فغضب النائب وركب إليه بنفسه وقصد منعه فضرب هو النائب ضربا شديداً ، وبلغ الخبر السلطان فأمر بقتله لتحقيره نائب الشرع ، فشفع له الوزراء فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من مولانا ولدان أن يتوسط فى الأمر فقال للسلطان : إن النائب مخطىء فى قيامه من مجلس القضاء بسبب الغضب . فلما ذهب فضربه ذلك الغلام لم يكن عند الضرب قاضيا بل كان قد أسقط نفسه ، فلذلك لايقال إنه حصل تحقير للشرع يستحق فاعله القتل . فسكن السلطان الفاتح ، ثم جىء بالغلام بين يدى السلطان فضربه ضربا شديدا مرض من بعده أربعة أشهر ثم برىء بعد ذلك وترقى وصار وزيرا للسلطان بايزيد ، وكان يترحّم على الفاتح ويقول : ماحصل لى

هذا الرشد إلا من ضرب به . ومنهم أحمد باشا بن المولى ولى الدين الحسينى ، كان مدرسا بمدرسة السلطان مراد فى بورسة ، ثم صار قاضيا بأدرنة ، ثم جعله السلطان محمد الفاتح قاضيا بالعسكر ، ثم جعله معلما لنفسه ، وكان حلو الفكاهة يقرض الشعر بالتركية ، واستوزره السلطان ثم عزله ، وجعله أميرا على بورسة ومات بها . ومنهم المولى تاج الدين ابراهيم باشا بن خليل بن إبراهيم بن خليل باشا ، جده الأعلى خليل باشا أول قاض بالعسكر المنصور فى الدولة العثمانية ، وأما والده خليل باشا فكان وزيرا للسلطان مراد والد الفاتح ، فلما تولى الفاتح عزل خليل باشا ونكبه ومات محبوسا ، وكان ولده تاج الدين ابراهيم باشا قاضيا بأدرنة ، فعزله أيضا وتحولت به الأحوال وصار إلى فقر شديد ، ثم ولاه السلطان قضاء أماسيه ، ولما مات وتولى ابنه بايزيد استدعاه إلى القسطنطينية وجعله قاضيا للعسكر ، ثم جعله رئيسا للوزراء وكانت سيرته فى القضاء والوزارة محمودة ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم ستمائة نفس من الفقراء ، وعند وفاته لم يوجد فى خزانته إلا ثمانية آلاف درهم ! ! وله جامع ومدرسة فى القسطنطينية . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن أوحد الدين البارجصارى ، كان عالما فاضلا عالى الهمة ، عظيم الحرمة ، أخذ عن خواجه زاده ودرّس فى أدرنة وفى القسطنطينية ، واستقضى فيها أيام دولة السلطان بايزيد ، ومات وهو قاض ، ولم يصنف كتبا إلا رسالة فى تجويز الفرار من الوباء . ومنهم المولى يوسف بن حسين الكرماستى قرأ على خواجه زاده ، ودرس فى القسطنطينية ثم استُقضى فيها ، وكان سيفا من سيوف الحق لا يخاف فى الله لومة لائم ، خرج مرة إلى المسجد بعمامة صغيرة ، فطلبه الوزير ابراهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره فى الحال فلم يبدل عمامته الصغيرة ، فسأله الوزير عن ذلك فأجابه : حضرت خدمة الخالق بهذه الهيئة ، ثم لما استدعيتنى لم أجد فى نفسى رخصة فى تغيير الهيئة لأجل الوزير فوقع هذا الكلام عند الوزير موقع القبول ، ورواه للسلطان بايزيد فسرّ السلطان بذلك وأنعم عليه .

ومنهم المولى ابن الأشرف ، قرأ على خواجه زاده ، ثم على المولى على الطوسى

ونبغ نبوغا عجيبا ، ولكنه التحق أخيراً بزمرة الصوفية ورغب فى السياحة إلى أن مات . ومنهم المولى عبدالله الأماسى ، كان مدرساعظيم الشأن فى أماسية ، زاهداً فى الدنيا ومنهم المولى حاجى بابا الطوسى ، اشتغل بالتدريس وأخذعنه الكثيرون ، وله تصانيف كثيرة فى النحو . ومنهم المولى ولى الدين القرامانى والد الشاعر المشهور «بنظامى» توفى ولده نظامى فى حياته . ومنهم المولى علاء الدين على الفنارى ، وليس من أولاد المولى الفنارى تولى القضاء فى بورسة ، ثم صار قاضى عسكر الأناضول ، ومات فى أيام السلطان بايزيد ، وكان له ملكة فى الانشاء بالعربية . ومنهم سنان الدين يوسف المشهور « بقره سنان » كان ماهراً في العلوم العربية والأدب شرح مراح الأرواح فى الصرف ، وشرح الشافية فى الصرف أيضاً . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن زكريا القرامانى ، قرأ فى القاهرة ، ثم عاد إلى بلاد الروم ، وله التصانيف . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى أخو زوجة المولى عبد الكريم ، كان مدرّساً بمرادية بورسة . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير بقراجه أحمد ، كان مدرساً بمرادية بورسة ، وله تصانيف . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير « بدنقوس » كان مدرسا في بورسة وصنف شرح المراح فى الصّرف ، وله شرح على كتاب المقصود فى الصرف .

ومنهم المولى طشغون خليفة ، وكان متصوفا توفى فى زمان السلطان بايزيد. ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى الشهير « بالبغل الأحمر » وكان عالما حافظا لجميع المسائل درّس مدة فى بورسة ، ثم فى أدرنة ، وكان عظيم الجثة جداً لا يحمله إلا فرس قوى . ومنهم المولى شمس الدين أصله من ولاية « آيدين » ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على علمائها . ثم إلى بلاد العرب وقرأ أيضا على علمائها ، وبرع فى علم النغمات ، واتصل بالفاتح ثم غضب عليه فذهب إلى بورسة ، واختل عقله فى آخر عمره من حزنه لأجل مفارقته للسلطان . وكان ينظم القصائد العربية ، والفارسية والتركية ، وكل قصيدة إذا صُحّفَت من أولها إلى آخرها يحصل منها هجو كما جاء فى « الشقائق النعمانيّة » .

ومنهم المولى المليحى ، مهر فى العلوم وذهب إلى بلاد العجم فأخذ عن علمائها وكان يحفظ صحاح الجوهرى كله ، ولكنه ابتلى فى آخر الأمر بالخمر وسقطت منزلته ونقل إلى السلطان الفاتح أن المليحى شرب الخمر فى سوق البزّازين ، وصبّ الخمر على الناس ، فأرسل فأتوا به فسأله لماذا شربت الخمر وصببته على الناس ؟ فكان المليحى يقول : عجبا للسلطان كيف صدّق قولهم أن المليحي صب الخمر على الناس مع أن المليحى إذا وجد الخمر لا يضيّع منها قطرة ! ! وقد تاب المليحى عن الخمر فى زمان السلطان محمد ، فلما توفى رجع إلى شأنه عفا الله عنه والله يعفو عن كثير . ومنهم المولى سراج الخطيب ، وكان من بلاد العجم جاء إلى بورسة ثم إلى استانبول فجعله السلطان الفاتح خطيباً فى الجامع الذى بناه المعروف بالفاتح ، وكان له فى رعاية النغمات شىء عظيم لم يلحقه به أحد بعده .

ومنهم قطب الدين العجمى ، كان وزيراً لبعض ملوك العجم ثم جاء إلى بلاد الروم وخدم السلطان الفاتح فأكرمه جدا ، وكان يعرف علم الطب غاية المعرفة. ومنهم الحكيم شكر الله الشيروانى ، وكان طبيبا ماهرا وعالما بالعلوم العربية . ولما حج أقام بمصر وقرأ على علمائها كالشيخ السخاوى ، وغيره . وأجازه بالروم المولى الكورانى واتصل بخدمة السلطان محمد ومات فى أيامه . ومنهم خواجه عطا الله العجمى ، جاء من بلاد العجم إلى بلاد الروم فى أيام الفاتح ، ومات فى أوائل سلطنة بايزيد وكان ماهرا فى الفلك والرياضيات ، ومعرفة الأزياج واستخراج التقاويم ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : رأيت له رسالة كبيرة فى العلوم الرياضية لحل الأسطرلاب والربع المجيّب ، والمقنطرات ، ورسالة لطيفة فى معرفة الأوزان . ومنهم يعقوب الحكيم كان يهوديا وكان من أمهر الأطباء لحظى عند السلطان محمد لأجل طبه ، ثم أسلم فاستوزره السلطان ، ولما مرض السلطان الفاتح رحمه الله عالجه يعقوب الحكيم هذا فلم ينجع علاجه ، فأشار الوزير محمد باشا باستدعاء الحكيم اللارى فعالج السلطان بخلاف معالجات يعقوب فازداد ضعف السلطان ، فاستدعى يعقوب مرة ثانية ، فلما عاينه عرف أن مرضه غير قابل للشفاء ، فصوّب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان

إلا قليلا حتى مات روّح الله روحه ، وجزاه عن الاسلام خيراً . ومنهم الحكيم اللارى العجمى ، اتصل بخدمة الفاتح . ومنهم الحكيم « عرب » حصّل الطب فى بلاد العرب ثم جاء إلى بلاد الروم واتصل بخدمة عيسى بك بن اسحق بك أمير أسكوب ، ثم اتصل بخدمة السلطان محمد . ومنهم ابن الذهبى ، كان عالماً عابداً زاهداً ورعاً ، وكان ماهراً فى معرفة الأعشاب ، وكان لايؤتى إليه بشىء منها إلا عرفه باسمه ورسمه ومنافعه ! وكان طبيباً حاذقاً . ومنهم محمد بن حمزة الشهير «بآق شمس الدين» نجل العارف بالله شهاب الدين السهروردى ، ولد بدمشق الشام ، ثم أتى مع والده إلى بلاد الروم ، وكان مائلا إلى التصوف واتصل بخدمة الشيخ بيرم ، وكان طبيبا للأبدان كما هو طبيب للأرواح . ولما عزم السلطان محمد على فتح القسطنطينية دعا هذا الشيخ للجهاد فقال الشيخ آق شمس الدين : سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلاني فى اليوم الفلانى ، وقت الضحوة الكبرى ، وكان الأمر كما قال . فاعتقد فيه السلطان محمد مزيد الاعتقاد ، وقال : ما فرحت بهذا الفتح كفرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمانى . ثم جاءه السلطان يوما من الأيام وهو مضطجع فى خيمته فلم يقم للسلطان فقبّل السلطان يده وقال له : جئتك لحاجة ! قال : ماهى ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياما . فقال الشيخ : لا . فألح السلطان مراراً والشيخ يقول لا . فقال له السلطان وهو غضبان : إن واحداً من الاتراك يجىء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة فلماذا تمنعنى أنا وحدى ؟ فأجابه الشيخ آق شمس الدين : إذا دخلت الخلوة تجد فيها لذة تسقط السلطنة من عينك ، وتختل أمورها ، فيمقتنا الله ، والغرض من الخلوة إنما هو تحصيل العدالة ، فأنت عليك أن تفعل كذا وكذا ، وذكر ما بدا له من النصائح ثم قام السلطان من عنده والشيخ مضطجع لا يقوم له ، فقال السلطان لابن ولى الدين ما قام الشيخ لى ؟ ! ـ وكان مستاء من ذلك ـ فقال له ابن ولى الدين : إن الشيخ خاف عليك الغرور لهذا الفتح الذى لم يتيسر لغيرك من السلاطين العظام ، والشيخ كما لايخفى هو مرشد . ثم دعا السلطان الشيخ فى الثلث الأخير من الليل وجاء والليل مظلم فما رآه بالبصر ولكن عرفه بالروح ، فعانقه وضمّه وجلس اليه حتى طلع الفجر ، فصلى

السلطان خلفه ، و بعد الصلاة قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه فلما أتمها التمس السلطان من الشيخ أن يعين له موضع قبر أبى أيوب الانصارى وكان يروي فى التواريخ أن قبره بموضع قريب من سور القسطنطينية ، فقال آق شمس الدين : إنى أشاهد فى هذا الموضع نوراً ، فلعل قبر أبى أيوب هو هنا . قال له السلطان إنى أصدقك ، ولكن أريد علامة يطمئن بها قلبى ، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال : احفروا هذا الموضع من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر رخام عليه خط عبراني تفسيره كذا ، فحفروا مقدار ذراعين فظهر الرخام الذى قال عنه وعليه الخط ففسروه فاذا هو كما قال . فاندهش السلطان وغلب عليه الحال حتى كاد يسقط وأمر ببناء القبة على ذلك الموضع ، و ببناء جامع ، والتمس من الشيخ أن يجلس هناك مع مريديه ، فأبى الشيخ واستأذن أن يرجع إلى وطنه . فلم يشأ السلطان أن يخالفه فلما عبر البحر قال لولده : لما جاوزت البحر امتلأ قلبى نوراً ، وقد فسدت إلهاماتى فى قسطنطينية من ظلمة الكفر فيها . وعاد إلى وطنه « قصبة قومنك » و بقى فيها حتى مات . وله رسالة فى التصوف اسمها « رسالة النور » وكان ماهراً فى علم الطب ، وله رسالة فيه .

حاصر العرب القسطنطينية من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ و يقولون : إن أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه وهو خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بلحارث بن الخزرج الذى شهد « بدرا » « وأُحُداً » « والخندق » والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج غازيا فى زمان معاوية ومرض في غزو القسطنطينية ، فلما ثقل قال لأصحابه : إنْ أنا متُّ فاحملونى فاذا صاففتم العدو فادفنونى تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » . قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعوده فقال حاجتك ؟ قال : حاجتى إذا أنا متُّ فاركب بى ثم سُغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغا ، فاذا لم تجد مساغاً فادفنى ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار فى أرض

العدو ما وجد مساغاً ، ثم دفنه ثم رجع . قال محمد بن عمر : توفى أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية فى خلافة أبيه سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية وقبره بأصل حصن القسطنطينية ، ولقد بلغنى أن الروم يتعهدون قبره ويرمّونه ويستسقون به إذ قحطوا ، انتهى ماجاء فى الطبقات . وقد نقلته الى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » ثم قلت : إن الاتراك عند ما فتحوا القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبى أيوب الأنصارى و بنوا عليه قبة ، وجعلوا عنده جامعاً .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية : أن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب . قلت : كانت وفاة ابن قتيبة فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ، وقيل ست وسبعين ومائتين على ما فى وفيات الأعيان ، والحال أن وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كان يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ، أى قبل وفاة ابن قتيبة كما فى وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم اصحاب الانسيكلو بيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب الانصارى هو بغير محله وذلك لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة ، وأنت ترى أنه قد ذكره . وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به فى القحط فقد جاء فى الانسيكلو بيدية المذكورة نقلها عن الطبرى ، وابن الأثير ، وابن الجوزى ، والقزوينى ، والحال انها مذكورة فى طبقات ابن سعد الذى تقدم فى الزمن هؤلاء جميعاً ، وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبى أيوب فى كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية فى المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧ . ثم ذكرت فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » رواية كون المولى آق شمس الدين كشف ضريح أبى أيوب ، وأن السلطان الفاتح بنى سنة ٨٦٣ جامعاً عند الضريح المذكور . و بعد طبع « حاضر العالم الاسلامى » اطلعت على روايات لا أتذكر الآن مظنتها بالتحقيق تدل على أن قبر أبى أيوب كان معروفا الى القرن السادس للهجرة . وقد حدّث أحد التجار المسلمين بأنه رأى بنيّة بيضاء فى ذلك الموضع ، فسأل عنها فقالوا له : هذا قبر أبى أيوب الانصارى . فان كان طمس القبر بعد ذلك حتى اختفى أثره وانكشف للمولى آق شمس الدين فهذا لا يتعارض مع هذا .

ومنهم الشيخ عبد الرحيم المعروف بابن المصرى ، اتصل بخدمة العارف بالله آق شمس الدين ، وله كتاب اسمه «وحدة نامة» . وهو من بلدة «قره حصار» ومات فيها . ومنهم الشيخ ابراهيم بن حسين السيواسى ، قرأ العلوم على المولى يعقوب بقونية ثم تولى التدريس بمدرسة خوند خاتون بمدينة قيصرية ، فلما اطلع على أن المدرسة للحنفية تركها لأنه كان شافعى المذهب ، وكان متصوفا وتوفى بقيصرية . ومنهم الشيخ حمزة المعروف بالشامى . ومنهم الشيخ مصلح الدين بن العطار وكلاهما من جماعة آق شمس الدين . ومنهم العارف بالله أسعد الدين بن الشيخ آق شمس الدين وكان على قدم أبيه فى الصلاح والانقطاع عن الدنيا ، وكان من علماء عصره . وكذلك أخوه فضل الله ، كان من العلماء والاتقياء . ومنهم أخوه أمر الله . ومنهم أخوه حمد الله المشهور « بحمدى شلبى » وكلهم كانوا على قدم والدهم رحمه الله . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير «بابن الوفاء» وكان جامعاً بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة وكان يعرف الموسيقى معرفة تامة ، وكان يختار الخلوة على الصحبة . وقصد السلطان الفاتح أن يشاهده فلم يقبل أن يجتمع معه ، وكذلك قصد ولده السلطان بايزيد فلم يرض هوأن يرى السلطان . وكان حنفى المذهب ، إلا إنه كان يجهر بالبسملة فى الصلاة الجهرية ، فأنكر عليه علماء الحنفية ذلك فأجاب عنه المولى سنان باشا قائلا : لعله اجتهد فيحق له ذلك ، فقالوا هل يمكنه الاجتهاد ؟ قال نعم شرائط الاجتهاد موجودة فيه ، فسكتوا . ومنهم العارف بالله عبد الله حاجى خليفة ، أصله من قسطمونى وكان من العارفين ، وله مناقب كثيرة ، ومثله الشيخ سناد الدين الفروى ، ومثله الشيخ مصلح الدين القوجوى ، وهو من العارفين أيضاً . ومثله الشيخ مصلح الدين الأبصلاوى وكان أيضاً عارفاً منقطعاً عن الناس ومنهم الشيخ محيى الدين القوجوى وكان جامعاً بين الظاهر والباطن ، معرضاً عن أبناء الزمان مشغولا بتهذيب الفقراء . ومنهم العارف بالله سليمان خليفة ، وكان من المنقطعين إلى الله ، توطن بالقسطنطينية قريباً من جامع زيرك .

ومنهم الشيخ عبد الله الالهى من أهل الأناضول ، وذهب إلى ما وراء النهر

واتصل بخدمة عبيد الله السمرقندى وغيره ، ثم رجع إلى القسطنطينية وسكن فى جامع زيرك ، واجتمع عليه الأكابر والأعيان فقرّ منهم إلى بلاد الروملى ، فأقام عند الأمير أحمد بك الاورنوسى وأقبل عليه الطلبة ومات هناك . ومنهم العارف بالله عبيد الله السمرقندى ، ولد فى طاشقند من تركستان ، ويقول بعضهم إن نسبه ينتهى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يقول : الوحدة خلاص القلب عن العلم بوجود ما سوى الله ، ويقول : الاتحاد الاستغراق فى وجود الحق سبحانه وتعالى . ويقول : السعادة خلاص السالك عن نفسه فى مشاهدة الله تعالى . ويقول الوصل نسيان العبد نفسه فى شهود نور الحق ، والفصل قطع السر عما سوى الله تعالى توفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة وقبره بسمرقند ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الرحمن ابن أحمد الجامى . وله تآليف كثيرة بالعربية ، والفارسية . ومنهم العارف بالله علاء الدين الخلوتى جاء إلى القسطنطينية فخاف منه السلطان الفاتح لكثرة إقبال الناس عليه فأمره بالذهاب إلى بلاد أخرى فتوفى فى بلاد القرامان . ومنهم العارف بالله دَدَه عمر الآيدينى ، وأقام فى تبريز عند الأمير حسن الطويل . ومنهم الشيخ حبيب العمرى القرامانى ، كان عمريا من جهة الأب ، وبكريا من جهة الأم ، وكان من بلاد القرامان ، وكان من كبار المتصوفة . ومنهم المولى مسعود وتوطن بمدينة أدرنة واشتغل بتربية المريدين . ومنهم محمد الجمالى الشهير « بشلبى خليفة » وكان أيضا من المتصوفة ومنهم الشيخ سنان الدين ، وكان من العارفين المنقطعين عن الناس ، يسكن بالقرب من القسطنطينية . ومنهم السيد يحيى بن بهاء الدين الشروانى . وكان يقول : يجوز إكثار الخلفاء بتعليم الآداب للناس ، وأما المرشد الذى يقوم بمقام الارشاد بعد شيخه فلا يكون إلا واحداً .

هذا ، وبعد وفاة الفاتح رحمه الله بويع بالسلطنة لولده السلطان بايزيد سنة ست وثمانين وثمانمائة . وكان محمد باشا القرمانى يميل إلى أخيه جمّ معجبا بمزاياه العالية فأرسل الى جمّ يعجل عليه بالحضور ، فعلم الانكشارية بذلك فثاروا بالوزير فقتلوه وكان بايزيد في أماسية ، فجاء ومعه جيش فاقتتل الاخوان بايزيد وجمّ فى صحراء

بنى شهر ، فتغلب بايزيد على جمّ وفرّ هذا الى مصر . ثم إن أنصار جمّ مثل قاسم بك ومحمود صنجق بك الأنقرى دعوا جمّ ثانية الى القتال ، فجمع جموعه وتلاقى مع عساكر أخيه فانهزم هذه المرة أيضا ، واضطر أن يلتجىء إلى فرسان مار يوحنا فى رودس فاستقبلوه برا وترحيبا ، فأرسل بايزيد اليهم يعرض عليهم خمسة وأربعين ألف دوكا فى السنة بشرط أن لا يَدَعوا جمّ يفرّ من عندهم ، فاتفقوا مع بايزيد على ذلك وأرسلوا جمّ الى فرنسة واعتقلوه فى برج « بورغانوف Bourganeuf » ثم نقلوه الى رومة في زمن البابا « اينوشنسيوس » الثامن ، ولما ارتقى اسكندر بورجيا إلى كرسى البابوية بعث الى السلطان بايزيد يعرض عليه هذه المساومة ؛ وهو أنه إن أراد أن يقتل له أخاه فهو يتقاضى على ذلك ثلاثمائة ألف دوكا ، وإن كان يكتفى بحبسه فهو يطلب على ذلك أربعين ألف دوكا فى السنة . وفى أثناء ذلك زحف كارلوس الثامن ملك فرنسة على ايطالية . فتخلص جمّ من البابا مدة قصيرة إلاّ أن ملوك النصرانية حاولوا أن يستعملوه لاثارة الفتنة فى المملكة العثمانية ، فاتفق فرسان رودس مع ملوك « إيكوسية » و « المجر » و « بولونيا » و « فرنسة » و « المرديت » من الأرناؤوط وغيرهم على أن يزحفوا بجم ويقاتلوا السلطان بايزيد فبلغ ذلك السلطان فأرسل الى البابا المبلغ الذى اقترحه من المال لأجل قتل جمّ فسموه فى نابولى فى ٢٤ فبراير ١٤٩٥ ومات مسموما ، وتخلص بايزيد من أخيه .

وبعد موت أخيه حاول بايزيد أن يشنّ الغارة على إيطالية إلا أن الأحوال لم تساعده إذ كانت الحرب قد اشتعلت بينه وبين الدولة المصرية ، فان المصريين كانو قد احتلوا بعض القلاع بقرب طرسوس وأطنَة فأمر السلطان بايزيد قره جوز باشا والى القرامان بأن يطردهم من هناك ، ولكن المصريين تغلبوا على جيش بايزيد واشتدت الحرب بين الفريقين ، وبينما الحرب قائمة بين السلطان بايزيد وسلطان مصر مات ملك المجر « ماتياس كورفين » فاهتبل بايزيد هذه الغرّة وأغار على المجر من جهة ، وحاصر بلغراد من جهة أخرى . وكان قائد عسكره في المجر سليمان باشا فهزمه المجر ورجع أدراجه ، ورفع الترك الحصار عن بلغراد إلا أن السلطان

دخل فى بلاد الألمان مثل « كارنتيا » و « استيريا » وعاث وغنم وسبى ، وكان معه من المسيحيين خمسة عشر ألف أسير يجرّهم الجيش العثمانى من ورائه ، فزحف الألمان بقيادة الكونت « كينتز » والتقى الجمعان فى كارنتيا ، فأفلت الاسرى المسيحيون من الوراء ، ووقع العثمانيون فى الوسط ، فانكسروا . وفعل فيهم المسيحيون الأفاعيل وعذبوا الأسرى بألوان العذاب ، ولكن الأتراك فى السنة التالية بقيادة يعقوب باشا عادوا فشنوا الغارة على « استيريا » وهزموا الألمان .

وسنة ١٤٩٥ عقد الأتراك هدنة مع المجر ووجهوا قوتهم لقتال البندقية ، وقهر الأسطول العثمانى أسطول البندقية ، واستولى على « ليبانت » وغزا اسكندر باشا والى بوسنة بلاد «طارنت» وخربها تخريبا تاماً ، وكان أمير البحر داود باشا استولى على « مورون » و « ناڤارين » و « كورون » فوجدت البندقية نفسها عاجزة وحدها عن مقاومة العثمانيين ، فاتفقت مع دول النصرانية فرانسة واسبانية والمجر والبابا على مقاتلة السلطان بايزيد ، وبثوا أساطيلهم من كل جهة . وفى أثناء ذلك ثارت قبائل القرامان على السلطان فألجأته الضرورة الى عقد الصلح .

وفى ذلك العهد ظهر اسم « الروس » وكانوا من قبل تحت حكم المغول ـ أى التتر ـ ولبثوا تحت حكمهم الى سنة ١٤٨١ حينما ظهر منهم « الغراندوق ايڤان الثالث » فهزم التتر ووحّد كلمة الروس . وفى سنة ١٤٩٢ طلب إيڤان الثالث محالفة السلطان بايزيد ، وجاء سفراؤه بعد ذلك الى استانبول ، وانعقد الاتفاق بين بايزيد و إيڤان واضطر السلطان إلى السلم لأنه كان حصل زلزال خارق للعادة انهدم فيه سبعون ألف بيت ، ومائة وتسعة جوامع في القسطنطينية ، وخربت مُدُن كثيرة مثل أدرنه وغاليبولى ، وديموطيقه ، وشورلو .

وكان بايزيد قد قسّم ولايات السلطنة بين أولاده ، فأعطى كلا منهم ولاية وأخطأ فى هذا التدبير لأنهم بدأوا يقتتلون بعضهم مع بعض فى حياة أبيهم . بل ثار به ابنه سليم واستولى على بعض المدن ، فقام أخوه « قورقود » واستولى على مدن أخرى وكان الانكشارية يميلون الى سليم ، فطلبوا من السلطان أن يعتزل الملك وأن يولى

السلطان سليما فلم يجد بُدًّا من إجابتهم ، ومات بعد ذلك بقليل . ويقال إنه كان حليما محباً للعلم والعلماء ، وللشعر والأدب ، وإنه لم يكن يحب الحرب بفطرته ، وإنما كان يساق اليها بالضرورة . وقام باصلاحات كثيرة ، وفى زمانه وجدت العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية والدول المسيحية ، وفى زمانه نبغ من العلماء المولى محي الدين محمد ابن ابراهيم البلكسارى ، وكان مدرساً فى قسطمونى ، ثم جاء الى القسطنطينية ، وكان السلطان يحضر درسه في جامع آيا صوفيا ، وكان بارعاً فى علم التفسير وصنف تفسيراً لسورة الدخان وأهداه للسلطان بايزيد . ومنهم يوسف بن جنيد الطوقانى ، أخذ عن المولى خسرو ، وتولى التدريس فى بورسة ثم فى القسطنطينية .

ومنهم المولى قاسم بن يعقوب الأماسى المشهور «بالخطيب» كان مدرساً ببلدة أماسية واتّصل بالسلطان بايزيد يوم كان أميراً على تلك البلدة ، فلما تولى السلطنة جعله معلماً لابنه الأمير أحمد . ومنهم سنان الدين يوسف ، اتصل بخدمة المولى على القوشجى وقضى حياته فى التدريس والافادة . ومنهم سنان الشاعر ، أخذ العلم عن المولى خسرو ومنهم المولى شجاع الدين إلياس . وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم شجاع الدين إلياس الشهير « بأوصلو شجاع » ومنهم المولى علاء الدين اليكانى ، وكان مفتياً بمدينة بورسة . ومنهم لطف الله الطوقانى ، أخذ عن المولى على القوشجى ، وكان بارعاً فى فى العلوم الرياضية ، وصار أميناً على خزانة الكتب عند السلطان الفاتح ، وكان عالماً علامة ، إلا أنه كان يطيل لسانه على أقرانه ، وأحياناً يطعن على السلف فأبغضه العلماء ونسبوه إلى الزندقة ، وحكم المولى خطيب زاده بإباحة دمه فقُتِل !! وجاء فى تاريخه (ولقد متّ شهيداً) وقيل إنه لما قتل خرجت روحه وهو يكرر كلمتى الشهادة ، وجاء فى «الشقائق النعمانية» : أنه كان يُقرىء صحيح البخارى فتنزل دموعه على الكتاب . وحكى يوماً وهو يبكى أن علياً بن أبي طالب رضى الله عنه ضُرب فى بعض الغزوات بسهم فثبت نصل السهم فى بدنه فلم يقدروا على إخراجه ، فلما قام للصلاة أخرجوه من بدنه ولم يحس بذلك . قال المولى لطفى : هذه حقيقة الصلاة ، وأما صلاتنا نحن

فهى قيام وانحناء لا فائدة فيها ، فجاء الوشاة ونقلوا عنه أنه قال : الصلاة قيام وانحناء لا عبرة بها ، وشهدوا عليه بذلك . وأما المولى أفضل الدين فتوقف عن إباحة دمه وكذلك المولى محيي الدين القوجوى قال : أشهد بأن المولى لطفى برىء من الالحاد والزندقة .

ومنهم المولى قاسم الكرمياني ، وكان علامة فى عصره وكثر عنده الطلبة ، وكان مجلسه كثير الفوائد . ومنهم المولى قوام الدين قاسم بن أحمد الجمالى، تولى قضاء القسطنطينية ، وكان عالماً كثير الحفظ إلا إنه لم يصنف شيئاً . ومنهم المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالى وقضى حياته مدرّساً ينتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ثم صار مفتيا فى العاصمة ، وكان متواضعا خاشعا طاهر اللسان لا يذكر أحداً بسوء ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه ، وكان يقعد فى أعلى داره وله زنبيل معلق فيلقى المستفتى ورقته فى الزنبيل ويحركه فيجذبه المولى علاء الدين ويأخذ الورقة ويكتب جوابها ، وذلك حتى لا ينتظر الناس لأجل الفتوى . وكان السلطان سليم ابن بايزيد قد تولى السلطنة ، وكان سفا كا للدماء فأمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن ، فجاء المولى علاء الدين إلى الديوان العالى وقال للوزراء : أريد أن أقابل السلطان ، فعرضوا الأمر للسلطان ، فدخل عليه وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد بلغنى أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا لا يجوز قتلهم شرعا فيجب أن تعفو عنهم . فغضب السلطان سليم وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فأجابه المفتى : بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتى ، فان عفوت فلك النجاة ، وإلا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت عند هذا القول حدة السلطان وعفا عنهم ، وتحدث مع المفتى ساعة ولما أراد المفتى أن ينصرف قال للسلطان : تكلمت معك فى أمر آخرتك ، وبقى لى كلام متعلق بالمروءة قال السلطان : ما هو ؟ قال المفتى : إن هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال السلطان لا . قال فقرّرهم فى مناصبهم ، فقال له السلطان نعم إلا أنى أعزرهم فى تقصيرهم فى خدمتهم ، فقال المفتى : هذا جائز لأن

التعزير مفوض إلى رأى السلطان . ومرّة أخرى أمر السلطان بقتل أربعمائة رجل كانوا قد اشتروا الحرير خلافاًلأمر السلطان ، فعارضه المفتى فى ذلك . فغضب السلطان أيضاً وقال له : أيها المولى أما يحل قتل ثلثى العالم لنظام الباقى ؟ فقال : نعم لكن إذا كان هناك خلل عظيم . فقال السلطان : ليست هذه من وظيفتك . فقال: له بلى هى من وظيفتى لأنها متعلقة بالآخرة . وانصرف المفتى ولم يسلّم على السلطان فبقى السلطان واجماً مدةطويلة ، ولكنه عاد فعفا إجابة لطلب المفتى . ثم فكر فى استقامة هذا المفتى وولاه قضاء العسكر وقال له : إنى تحققت أنك تتكلم بالحق ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ومنهم المولى عبد الرحمن بن على بن المؤيد الأماسى . كان متبحراً إلى الغاية فى العلوم العقلية والنقلية ، شيخا فى العلوم العربية ، ناظما بالتركية والعربية والفارسية . وقرأ فى حلب كتاب «المفصل فى النحو للزمخشرى» وقرأ على المولى جلال الدين الدوانى فى بلاد العجم ، وجاء إلى استامبول فى أيام بايزيد خان ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ثم استقضاه السلطان بالعسكر المنصور . ولما تولى السلطنة السلطان سليم بن بايزيد وسار إلى حرب الشاه اسماعيل كان المولى المذكور معه ، وفى أثناء الطريق اختل عقله فجاءوا به إلى استانبول حيث مات ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن البركى زاده ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه احمد فى أماسية ثم استقضاه فى أدرنة ، ومات فى القسطنطينية . ومنهم المولى محيى الدين محمد الصامصونى ، قضى حياته مدرسا واستقضاه السلطان سليم فى أدرنة . ومنهم المولى سيدى الحميدى قضى حياته مدرسا بين بورسة ، و إزنيق ، والقسطنطينية ، ثم صار قاضيا فى العاصمة . ومنهم المولى سيدى القرامانى ، وكان مدرسا ثم صار قاضيا بالعسكر المنصور . ومنهم المولى نور الدين القراصوى كان مدرسا فى بورسة ، ثم صار مدرسا فى أسكوب ، ثم صار مدرسا فى إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وصار قاضيا بالعسكر المنصور ، وكان قوّالا بالحق ، محافظاً على الشريعة ، ورعاً متعبداً . ومنهم المولى محيى الدين محمد القوجوى ، وقضى حياته مدرسا إلى أن استقضاه السلطان سليم

فى القسطنطينية ، ثم استقضاه بالعسكر المنصور ، ثم استعفى ثم جعلوه قاضيا بمصر وذهب من هناك إلى الحج ومات سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . ومنهم المولى بالى الآيدينى وكان من كبار المدرّسين . ومنهم المولى عبد الرحيم بن علاء الدين العربى وكان من عظام المدرسين أيضا . ومنهم المولى موسى بن حميد الدين بن أفضل الدين الحسينى ، وكان عالماً عابداً . ومنهم المولى محيي الدين العجمى وكان قاضيا بأدرنة متصلبا فى الحق . ومنهم المولى سنان الدين يوسف العجمى وكان من كبار المدرسين ، ومن الصلحاء ، ومن المؤلفين وله حواش على شرح المواقف للسيد الشريف — وقلما يوجد عالم كبير من علماء الترك ليس له حواشى على كتب السيد الشريف الجرجانى ، أو على كتب التفتازانى — ومنهم المولى السيد ابراهيم من سادات العجم ، جاء إلى بلاد الروم وكان معدوداً من أولياء الله ، وكانت تروى عنه الكرامات ، وتوفى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فى القسطنطينية . ومنهم المولى علاء الدين على الأماسى وكان مدرسا أرسله السلطان بايزيد إلى قايتباى سلطان مصر فأصلح بينهما ، ومنهم المولى بدر الدين محمود بن الشيخ محمد ، كان إماما للسلطان بايزيد . ومنهم المولى الخليلى كان مدرسا ثم استقضى بالعسكر المنصور . ومنهم پير محمد الجمالى كان قاضيا فى صوفية بلاد البلغار ، ثم صار حافظا للدفتر بالديوان العالى ، ثم استوزره السلطان سليم خان ولقّبه پير باشا ، ثم عزل عن الوزارة وكان محمود السيرة ، كثير المبرّات ، توفى فى حدود الاربعين وتسعمائة . وكان السلطان سليم يقول : إن كان اسكندر يفتخر بوزيره ارسطو فأنا أفتخر بوزيرى پير باشا فى عقله ورأيه .

ومنهم المولى محمد المشهور « بابن زيرك » بعد أن قضى مدة من عمره مدرسا بين بورسة ، و إزنيق ، و كوتاهية ؛ تولى القضاء فى أدرنة ، ثم بالقسطنطينية ، ثم بالعسكر المنصور وأرسله السلطان سليم إلى السلطان الغورى صاحب مصر ، ومات سنة تسع وثلاثين وتسعمائة . ومنهم قوام الدين يوسف المعروف « بقاضى بغداد » كان قاضيا فى بغداد فلما حدثت فتنة ابن أردبيل ارتحل إلى ماردين ، ثم جاء إلى القسطنطينية ، وكان عالما علامة له شرح على « نهج البلاغة » للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ومنهم المولى ادريس بن حسام الدين البدليسى كان من بلاد العجم ارتحل إلى بلاد الروم وأكرمه السلطان بايزيد غاية الاكرام ، وأنشأ تاريخ آل عثمان بالفارسية ويقال إنه تاريخ منقطع النظير . انتقل إلى رحمة ربه فى زمان السلطان سليمان القانونى .
ومنهم المولى يعقوب بن سيدى على كان من كبار المدرسين ، له شرح على كتاب «شرعة الاسلام» وكان السلطان بايزيد يلقبه بشارح الشرعة لميله إلى الشرح المذكور .
ومنهم المولى نور الدين حمزة كان حافظا لدفتر بيت المال بالديوان العالى فى زمان السلطان بايزيد .

ومنهم شجاع الدين إلياس الرومى كان من قصبة ديموطقه فى الروملى ، وكان من كبار المدرسين معروفا بالعلم والصلاح والزهد ، وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الجرجانى ، وحواشى على حاشية المطالب للسيد أيضا ، وحواش على حاشية شرح الشمسية للسيد أيضا ، وحواش على حاشيه شرح العضد كذلك للسيد ، وكان أكثر اشتغاله بالعلوم العقلية . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير «بابن الاستاذ» وكان من المدرسين فى زمان السلطان بايزيد . ومنهم ابن المعيد كان مدرساً فى اسكوب ومات فيها . ومنهم ابن العبرى وكان من المدرسين . ومنهم شمس الدين أحمد اليكانى وكان من المدرسين أيضا . ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبى كان من أصحاب السلطان محمد الفاتح ، ونال عنده القبول التام ، ثم صدر منه ماغاظ السلطان فأبعده عن جنابه وقال : لولا أنه ابن أستاذى لدمَّرتهُ . ومات قاضيا فى كوتاهية . ومنهم المولى عبد الوهاب بن عبد الكريم كان حافظا لدفتر الديوان فى أيام سليم خان ، وتوفى فى زمان السلطان سليمان . ومنهم المولى يوسف الحميدى المشهور «بشيخ سنان» كان من العلماء المدرسين ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم المولى جعفر بن التاجى وكان من أصحاب السلطان بايزيد وبلغ عنده حظوة تامة ، ثم غضب عليه وبقى الى زمان السلطان سليم فجعله قاضيا للعسكر ، ثم نكبه وقتله .

ومنهم المولي سعدي بن ناجي ودرّس مدة طويلة ، وكان متقنا للعربية يقرض

الشعر كأنه من فُصَحَاء العرب ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف ، وقد نظم العقائد النسفية بالعربية نظما بليغاً .

ومنهم المولى محمود بن محمد بن قاضى زاده الرومى ، درس فى غاليبولى ، وفى أدرنة ثم جعله السلطان بايزيد من أصحابه ، وقرأ عليه العلوم الرياضية إذ كان لا يدانيه فيها أحد ، وفى زمان السلطان سليم بن بايزيد تولى قضاء عسكر الأناضول .

ومنهم المولى غياث الدين بن أخى العارف بالله آق شمس الدين ، قرأ على الخيالى وعلى خواجه زاده ، ودرّس بالمدرسة السيفيّة فى أنقرة ، ثم بالمدرسة الحسينية فى أماسيه ، ثم بالمدرسة الحلبية بأدرنة ، ثم بسلطانيّة بورسه ، ثم باحدى المدارس الثمان فى قسطنطينية ، ثم فى مدرسة ابى أيوب الأنصارى ، ومات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة . ومنهم الشيخ مظفر الدين على الشيرازى ، قرأ فى بلاد العجم على صدر الدين الشيرازى ، والجلال الدوانى ، وارتحل الى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان ، ثم كُفّ بصره فتوطن مدينة بورسة . وكان شافعى المذهب ، وكانت له اليد الطولى فى العلوم العقلية والمنطق وعلم الكلام ، وكذلك فى الحساب والهيئة والهندسة ، وكان مع هذا صالحاً مؤثراً الفقر ، باذلا ماله للفقراء . ومنهم الحكيم شاه محمد القزوينى كان من تلاميذ الجلال الدوانى ومهر فى علم الطب ، وجاور مدة فى مكة المكرمة ، واستدعاه السلطان بايزيد الى استانبول ونال حظوة تامة عند ولده السلطان سليم ، ومات فى أيام السلطان سليمان القانونى لأن صاحب « الشقائق النعمانية » يقول : « ومات فى أيام سلطاننا الأعظم سلّمه الله تعالى وأبقاه » يريد به السلطان سليمان . وله حواش على شرح العقائد العضدية للدوانى ، وترجمة حياة الحيوان الى الفارسية ، وغير ذلك من التواليف ومنهم المولى السيد محمود ، كان نقيبا للاشراف فى زمان السلطان بايزيد ، وكان كريم الأخلاق ، طارحاً للتكلف ، مشتغلا بنفسه ، جواداً بماله . ومنهم المولى محيى الدين المشتهر « بطبل البازى » وكان مدرسا مشهورا . ومنهم المولى ابراهيم المشهور « بابن الخطيب» مات وهو مدرس فى بورسة . ومنهم المولى يحيى بن بخشى ، كان عالماً

واعظاً ، وكان يُقرىء الطلبة تفسير القاضى البيضاوى بلا مطالعة ، وله حواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة . ومنهم كمال الدين اسماعيل القرامانى ، وكان من المدرسين الكبار ، وله تصانيف منها حواش على الكشاف ، وحواش على تفسير البيضاوى وحواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة ، وحواش على شرح المواقف للسيد الجرجانى ومنهم المولى عبد الأول بن حسين الشهير « بابن أم الولد » قرأ على المولى خسرو الشهير ، وتزوّج بابنته ، وكان قاضياً فى البلدان الكبيرة ، ثم اعتقل لسانه فلزم بيته فى القسطنطينية ، ومات عن مائة سنة . ومنهم المولى شمس الدين احمد الأماسى كان مدرسا وتوفى فى أوائل سلطنة سليم خان . ومنهم علاء الدين على الآيدينى الملقب « باليتيم » وكان مدرسا زاهدا ، أرادوه على القضاء فلم يرض ، وكان يقرأ عشرين درسا فى اليوم ولا يأخذ أجرة من أحد ، و ر بما قبل الهدية ، وكان راضياً من العيش بالقليل ، ومات عن تسعين سنة .

ومنهم المولى الشيخى ، كان مدرسا بمدرسة أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه وأخذ عنه كثيرون . ومنهم المولى المعروف « بضميرى » أعطاه السلطان بايزيد إحدى المدارس الثمان ، فقال له المولى ابن المؤيد : إنه غير قادر على التدريس فيها ، فقال السلطان بايزيد : فليدرّس الشرح المتوسط للكافية لعلّه يقدر على ذلك . ومنهم عمر القسطمونى كان علامة بالقراآت . ومنهم علاء الدين على القسطمونى أخذ عن المولى عمر القراآت ، وأقرأها الطلاّب ، ومنهم ابن عمر زاده وكان أيضاً يعرف القراآت السبع وأقرأها للناس . ومنهم حسام المشهور « بابن الدلاك » كان خطيباً بجامع الفاتح فى القسطنطينية ، وكان عالماً صالحاً . ومنهم محيى الدين الطبيب جعله السلطان رئيساً للأطباء وأكرمه غاية الاكرام ، وكان عالما عابداً يحب المساكين ، و بعد موته جعل السلطان بايزيد مكانه الحكيم حاجى ، وكان السلطان يحب علاج الحكيم المذكور .

ومنهم محيى الدين محمد الأسكليبى ، وكان من رجال التصوف . وكان السلطان بايزيد أميراً على أماسية ، فذهب هذا الشيخ إلى الحج ولما ودع السلطان بايزيد قال له : سأراك بعد إيابى من الحجاز جالساً على سرير السلطنة ، فلما رجع من الحج كان

الأمر كما قال . فأحبه السلطان حبًّا جمًّا وبنى له زاوية فى القسطنطينية ، وكانت تزدحم فى بابه الوزراء وقضاة العساكر ، وكان يدعوه السلطان إلى مصاحبته فحصل له جاه عظيم ، لكنه لم يتغير طوره ، وبقى ملازماً الزهد والتقوى . ومنهم الشيخ مصطفى البروزى ، كان من خلفاء الشيخ الأسكليبى ، وكان عالما عابداً . ومنهم العارف بالله السيد « ولاية » من قصبة كرمستى فى الأناضول وكان شريفا صحيح النسب ، حج ثلاث مرات وكان فى غاية الورع . ويقال إن السلطان سليم عند ماطلب السلطنة فى أيام والده بايزيد وسلمه والده السلطنة ، التجأ إلى المشايخ الصوفية ، ومنهم السيد ولاية المذكور . فقال له السيد : ستصير سلطانا ولكن ليس فى عمرك امتداد . وهكذا كان لأن السلطان سليم لم يبق فى السلطنة أكثر من ثمانى سنوات . ومنهم الشيخ محيي الدين محمد الشهير « بيولولى شلبى » كان مدرسا ، ثم تصوف وصار مرشداً ومنهم شجاع الدين الشهير « بنيازى » وهو أيضا كان قاضيا ثم تصوف وترك الدنيا . ومنهم صفى الدين مصطفى ، وكان من الزهاد المرشدين . ومنهم الشيخ رستم خليفة البروسى كان ينتسب إلى الشيخ حاجى خليفة ، وكان عابداً متوكلا . ومنهم العارف بالله ابن على دَدَه خليفة العارف بالله ابن الوفاء ، وكان شيخاً عابداً زاهداً . ومنهم علاء الدين الأسود ، أخذ عن حاجى خليفة ، وكان متوجها إلى الله بكلّيته .

ومنهم السيد على بن ميمون المغربى الاندلسى ، جاء فى « الشقائق النعمانية » أنه أخذ عن ابن عرَفة وعن الشيخ الدبّاسى ، وجاء إلى الشرق لأجل الحج ، ودخل مصر ثم الشام ، ثم جاء إلى بورسة ، ثم رجع إلى البلاد الشامية وتوفى بها سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان على جانب عظيم من التقوى ، قوّالا بالحق ، وكان لا يخالف السنّة . فلا يقوم للزائرين ، وكان يقول : لو أتانى بايزيد بن عثمان لا أعامله إلا بالسنّة . وكان لايقبل الوظائف ولا هدايا الملوك . وجاء فى « شذرات الذهب » لعبد الحى ابن العماد الحنبلى ترجمة العارف بالله سيدى على بن ميمون فقال : إنه ابن ميمون بن أبى بكر بن على بن ميمون بن أبى بكر بن يوسف بن اسماعيل بن أبى بكر بن عطاء الله ابن حسّون بن سليمان بن يحيى بن نصر الهاشمي القرشي المغربى الغمارىّ أصله من

«جبل غمارة» وسكن مدينة فاس، واشتغل بالعلم ثم درّس ثم وُلّى القضاء. ثم ترك ذلك ولازم الغزو على السواحل، وكان رأس العسكر، ثم ترك ذلك أيضا وصحب مشايخ الصوفية. منهم الشيخ عرفة القيرواني فأرسله الى أبى العباس احمد التوزى الدباسى ومن عنده توجه الى المشرق. قال الشيخ موسى الكناوى: فدخل بيروت فى أول القرن العاشر، وكان اجتماع سيدى محمد بن عراق به أولا هناك.

ولما دخل بيروت استمر ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً، فاتفق أن ابن عراق قال لجماعته وقد أتوا بالطعام: ادعوا ذلك الفقير، فقام السيد على وأكل ثم قال ابن عراق قوموا بنا نزور الامام الأوزاعى، فصحبهم ابن ميمون ففى أثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان، فعاب عليه ابن ميمون. فقال له ابن عراق: أتحسن اللعب على الخيل أكثر منى؟ قال: نعم فنزل ابن عراق عن فرسه فحلّ ابن ميمون الحزام وشكّه كما يعرف، وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره فى ذلك، ثم انفتح الأمر بينهما إلى أن شهر الله تعالى سيدى على بن ميمون. وقال فى «الشقائق»: إنه دخل القاهرة وحج منها، ثم دخل البلاد الشامية وربّى كثيراً من الناس، إلى آخر ما نقل عن صاحب الشقائق. وقال ابن العماد الحنبلى: إنه كان من طريقته ما حكاه محمد بن عراق فى كتابه «السفينة» وهو أنه لا يرى لبس الخرقة ولا إلباسها وذكر الشيخ علوان أنه كان لا يرى الخلوة ولا يقول بها. ومن وصاياه اجعل تسعة أعشارك صمتا، وعُشرك كلاما. وكان يقول: الشيطان له وحى وفيض، فلا تغترّوا بما يجرى فى نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام فى التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم. وكان ينهى أصحابه عن الدخول بين العوام والحكام. ويقول: مارأيت لهم مثلا إلا الفأر والحيّات، فان كلاً منهما مفسد فى الأرض، وكان شديد الانكار على علماء عصره، ومن كلامه: لا ينفع الدار إلا ما فيها. ومنه: لا تشتغل بأن تعد أموال التجار وأنت مفلس. ومنه: أسلك ماسلكوا تدرك ماأدركوا. ومنه: عجبت لمن وقع عليه نظر المفلح كيف لا يفلح. ومنه: كنزك تحت جدارك، وأنت تطلبه من عند جارك. وله من المؤلفات شرح الجرومية على طريقة الصوفيّة، وكتاب غربة

الإسلام فى مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والأعجام ، ورسالة لطيفة سماها «تنزيه الصدّيق عن وصف الزنديق » ترجم فيها الشيخ محيي الدين بن العربى ترجمة فى غاية الحسن والتعظيم .

وذكر ابن طولون أنه دخل دمشق فى أواخر سنة اثنتى عشرة وتسعمائة ، ونزل بحارة السكة بالصالحية ، وهرع الناس إليه للتبرك به . وقال محمد بن عراق فى « سفينته » إنه لم يشتهر فى بلاد العرب بالعلم والمشيخة والارشاد إلا بعد رجوعه من الروم إلى حماة سنة إحدى عشرة ، ثم قدم إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وتسعمائة ، وأقام فى قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما يربّى ويرشد ، ويدعو إلى الله على بصيرة ، واجتمع عليه الجمّ الغفير ، ثم دخل عليه قبْض وهو بصالحيّة دمشق واستمر ملازما له حتى ترك مجلس التأديب ، وأخذ يستفسر عن الأماكن التى فى بطون الأودية ورؤوس الجبال ، فذكر له محمد بن عراق « مجدل معوش » فهاجر إليها فى ثانى عشر محرم هذه السنة . قال سيدى محمد بن عراق : ولم يصحب غيرى والولد على ــ وكان سنه عشر سنين ــ وشخصا آخر عملاً بالسنة . وأقمت معه خمسة أشهر وتسعة عشر يوما ، وتوفى ليلة الاثنين حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بها فى أرض موات بشاهق جبل حسبما أوصى به قال : ودفن خارج حضرته المشرفة رجلان وصبيّان ، وامرأتان ، وأيضاً امرأتان و بنتان ، الرجلان محمد المكناسى ، وعمر الأندلسى ، والصبيّان ولدى عبد الله ــ وكان عمره ثلاث سنين ــ وموسى بن عبد الله التركمانى . والمرأتان أم ابراهيم و بنتها عائشة زوجة الذعرى ، والأخريتان : مريم القدسية ، وفاطمة الحموية . وسألته عند وفاته أين أجعل دار هجرتى ؟ فقال : مكان يسلم فيه دينك ودنياك ثم تلا قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) الآية .

قلت : قرية « مجدل معوش » هى فى قضاء الشوف من بلادنا فى جبل لبنان وكان أهلها مسلمين من أهل السنة ، ووقعت بينهم عداوة شديدة فخرجوا منها واشتراها النصارى وذلك منذ مائتى سنة . ولمّا دخلها السيد على بن ميمون المغربى كانت لاتزال قرية إسلامية ، و بقى قبر السيد من ذلك الوقت معروفا لا يجهله أهل القرية

وجاءنا مرة الخبر بأن بعض النصاى أرادوا استعمال ذلك القبر للدفن وكان في ذلك الوقت عمنا الأمير مصطفى أرسلان قائمقام قضاء الشوف فأخبرته بالخبر فأمر مدير ناحية العرقوب الشمالي التي منه تلك القرية بأن يتحقق هذا الامر ويمنع تعرض أحد للقبر ، ثم جمعنا إعانة مالية وأدى كل منا ما قدر عليه ، فبلغ المجموع مائة جنيه ذهب وجدّدنا القبر المذكور لأنه كان قد خرب تقريبا ، فخشينا بسبب خرابه أن يستعمله النصارى لدفن موتاهم .

وبلغ المرحوم الأمير على بن الأمير عبد القادر الجزائرى شروعنا ببناء هذا القبر فأراد أن يكون له حصة في المثوبة ، فأرسل أيضاً شيئاً من المال وهكذا جددنا قبر الولى المشار إليه قدّس الله سرّه بعد نحو من أربعمائة سنة من وفاته وكان هذا العاجز السبب في ذلك وأخمّن أن هذه القضية مضى عليها سبع وثلاثون سنة ، وقد أطلتُ في ترجمة السيد على بن ميمون لكونه من أقمار أهل المغرب التي طلعت على المشرق ولكونى قمت له بخدمة قبره بعد دفنه بأربعة قرون ، والله على ذلك شهيد .

ثم نعود إلى ذكر العلماء الذين اشتهروا في زمان السلطان بايزيد ، فمنهم العارف بالله الشيخ علوان الحميدى ، اتصل بخدمة السيد على بن ميمون وكان بحراً من بحار الحقيقة ، وكان شافعى المذهب ، توفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم الشيخ محمد الشهير « بابن عراق » كان من أولاد الأمراء الشراكسة ، وكان من طائفة الجند ، وكان صاحب ثروة وحشمة وافرة ، فترك كل هذا واتصل بخدمة السيد على ابن ميمون ، واشتغل عنده بالرياضة ، وكان عالماً زاهداً . وجاور مدة بعد وفاة ابن ميمون بالمدينة المنورّة ، ومات ودفن فيها . وأتذكر أنه يوجد في بيروت زاوية منسوبة إلى ابن عراق . ومنهم « ابن صوفى » واسمه عبد الرحمن كان عالماً مدرساً ثم اتصل بالسيد على بن ميمون وصار من تلاميذه ، ولما ذهب السيد إلى الشام بعد أن سكن مدة في بورسة نصبه خليفةً له في بلاد الروم . ومنهم المولى اسماعيل الشروانى قرأ على جلال الدين الدوانى ، وخدم العلم طول حياته ، وتوطّن أخيراً في مكة المكرمة ومات فيها . ومنهم الشيخ بابا نعمة الله ، وكان من السادة الصوفية ، سكن بقصبة

آق شهر وتوفى بها . ومنهم الشيخ محمد البدخشى كان زاهداً متجرداً من علائق الدنيا ، ثم ذهب إلى دمشق وسكن بها ، ولما دخل السلطان سليم دمشق زار هذا الشيخ مرتين : ففى المرة الأولى جاسا صامتين ، وسئل السلطان سليم عن ذلك فقال : فتح الكلام ينبغى أن يكون من العالى ، ولا علوّ لى عليه وقد تأدب الشيخ هو أيضاً واختار الصمت تنزُّلاً منه . وأما فى الزيارة الثانية فقال الشيخ البدخشى للسلطان : كلانا عبداً لله تعالى ، و إنما الفرق هو أن ظهرك ثقيل من أعباء الناس ، وظهرى أنا خفيف ، فاجتهد أن لاتضيّع أمتعتهم . ومات البدخشى بدمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم السيد احمد البخارى الحسينى ، جاء من بخارى إلى بلاد الروم ، وصحب الشيخ الالهى ، وكان من أشد الناس ورعا ، وتعلق به الناس كثيراً وتركوا المناصب ، واختاروا خدمته ، فبنى مسجداً وحجرات حوله للطالبين وذلك فى القسطنطينية ، وكان مجلسه فى غاية الوقار ، تجلس فيه الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ولا تجرى فى مجلسه كلمات دنيوية أصلا ، وكانت طريقتهُ العمل بالعزيمة وترك البدعة ، واتباع السنة ، و إقامة الصلاة ، والانقطاع عن الناس ، والمداومة على الذكر الخفىّ ، والعزلة عن الأنام ، وقلة الكلام والطعام ، و إحياء الليالى وصوم الأيام . مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .

ومنهم الشيخ مصلح الدين الطويل ، أصله من كرة النحاس من ولاية قسطمونى كان من المشتغلين بالعلم ، ثم التحق بالشيخ الالهى واشتغل بالتصوف . ومنهم عابد شلبى من ذرية مولانا جلال الدين الرومى ، كان قاضياً ثم ترك القضاء واتصل بالشيخ الالهى و بنى مسجداً فى القسطنطينية ، وحوله حجرات للفقراء . ومنهم الشيخ لطف الله الأسكوبى . وهو ممن اتصل أيضاً بالشيخ الالهى ، وكان فى الآخر زاهداً ناسكا ساكناً على جبل من جبال أسكوب ، منقطعاً عن الدنيا . ومنهم بدر الدين بابا وكان أيضا من جماعة الشيخ الالهى ، ثم منهم علاء الدين خليفة ، وكان أولا من طائفة الجند ثم اقتدى بالشيخ علاء الدين أبدال ورووا عنه الكرامات و بنى زاوية بالقسطنطينية . ومن هذا النمط الشيخ سليمان خليفة و بنى زاوية أيضاً . ومنهم الشيخ

سونديك الشهير « بقورجي دده » ومنهم العارف بالله ابن الامام من السادة الصوفية من أهل آيدين . ومنهم الشيخ صلاح الدين الازنيقي كان من مريدى شيخى خليفة ومنهم الشيخ بايزيد خليفة ، وكان عالماً متصوفاً سكن بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ سنان الدين يوسف المعروف « بسنبل سنان » وكان مرشداً مربياً ، وعلى جانب من العلم . ومنهم الشيخ جمال الدين القراماني المعروف « بجمال خليفة » جاء من بلاد قرامان إلى القسطنطينية وكان مربياً مرشداً ، وتاب على يده كثيرون .

وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه عاده فى مرض موته وطلب منه الوصية فقال له : لا تسلك مسالك الصوفيّة ، إذ لم يبق لها اليوم أهل . وقال : التوحيد والالحاد يصعب التميز بينهما ، فالوقوف على طريقتك أسلم . ثم قال له : فان غلب عليك خاطرك بالميل إلى التصوف فاختر من المشايخ من كان ثابت القدم فى الشريعة وإن رأيت فيه شيئا يخالف الشرع ولو قليلا فاحترز منه ، فان مبنى الطريقة رعاية الأحكام الشرعية . ومنهم الشيخ داود من قصبة مدرنى ، وكانت تروى عنه الكرامات . ومنهم الشيخ قاسم شلبى ، وكان متصوّفا جلس فى زاوية الوزير على باشا فى القسطنطينية ومنهم الشيخ رمضان كان من أتباع طريقة الحاج بيرم ، وكان مرشدا كبيراً . ومنهم الشيخ بابا يوسف السفرحصارى ، وكان منتسبا إلى هذه الطريقة . ولما بنى السلطان بايزيد جامعه بالقسطنطينية حضر للصلاة فى أول جمعة بعد بنائه ، وصعد الشيخ بابا يوسف المنبر ووعظ الناس فحصل لكلامه تأثير عظيم فى السامعين ، وكان بعض النصارى يستمعون من خارج الجامع فأسلم منهم ثلاثة ففرح السلطان بايزيد بذلك وأنعم عليهم وصار السلطان يحب هذا الشيخ كثيراً وعند ماذهب الشيخ للحج أعطاه السلطان مقداراً من الذهب وقال له : هذا المال حصل لى من كسب يدى ، وأوصاه أن يجعله فى قنديل الصدقات فى التربة المطهرة بالمدينة وأن يقول عند التربة المطهرة : يا رسول الله إن راعى أمتك العبد المذنب بايزيد يقرئك السلام ، وأرسل هذا الذهب الحاصل من طريق الحلال ليصرف إلى زيت قنديل تربتك ، وتضرع إليك أن تقبل صدقته . ففعل الشيخ ما أمره به السلطان ، وكانت وفاة هذا الشيخ فى أوائل

سلطنة سليم خان ، ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصاري عليه رحمة البارى .

ولما جلس السلطان سليم بن بايزيد على كرسى السلطنة ، وذلك فى الثانى عشر من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، طلب الانكشارية زيادة رواتبهم ، فاضطر أن يرضيهم لأنهم كانوا السبب فى سلطنته ، وزاد الرسوم المضروبة على البضائع الواردة إلى بلاده ، رفعها من ثلاثة فى المائة إلى خمسة . وكان الأمير احمد أمير أماسيه استقل واستولى على بورسة ، واتفق مع مصطفى بك والى أنقره . فرأى السلطان سليم أن لا بد من قتل إخوته ، ولما وقع أخوه « قورقوت » فى يده قتله . وكذلك زحف إلى قتال أخيه أحمد ، فتلاقيا فى صحراء ينى شهر فكانت الطائلة للسلطان سليم ووقع احمد فى يد أخيه فقتله أيضاً فاتسق له الأمر ، وأرسلت الدول المجاورة تهنيه ما عدا الشاه اسماعيل سلطان العجم ، فكان هواه مع الأمير أحمد . وقد بلغ الشاه اسماعيل فى زمانه أقصى درجات القوة ، وكان فى يده جميع فارس ، وخراسان ، والعراق العربى ، وكردستان ، وديار بكر ــ أى من الفرات إلى سيحون وجيحون ــ فكانت الدولة الصفوية فى أوج مجدها . وكانت دولة شيعية خالصة ، وقد أخذت تبث التشيع فى البلاد العثمانية . فثار غضب السلطان سليم وزحف بمائة وثمانين ألف مقاتل ، فصار جيش شاه اسماعيل ينكصُ إلى الوراء ولا يقاتل ، فوصل العثمانيون إلى تبريز فاعتصم الايرانيون بأعالى الجبال المشرفة على صحراء « تشالديران » فقبل أن أصلاهم السلطان سليم نار الحرب عقد مجلساً حربياً ، فأشار الوزراء بإراحة العسكر أربعا وعشرين ساعة بالأقل ، وخالفهم فى ذلك پيرى باشا قائلا : تجب المناجزة فى الحال . فأعجب رأيه السلطان سليم وهجم على الايرانيين وتغلّب عليهم بواسطة مدافعه ، ووقع فى يد السلطان أثقال الشاه اسماعيل وأمواله مع حرمه ، وعدد كبير من الأسرى فأمر بقتل الجميع ما عدا النساء والأولاد .

وأراد السلطان سليم أن يشتو تلك السنة فى تبريز ، وأن يزحف في أول الربيع إلى فارس ، ولكن الانكشارية كانوا قد ملوا القتال والسفر ، وأصبحوا يريدون الرجوع . فعاد بهم إلى أماسيه ، وقيل إنه رجع لفقد القوت والعلوفة فى بلاد العجم

لأن الشاه اسماعيل كان قد خرب البلاد . ثم أرسل الشاه اسماعيل يطلب من السلطان سليم زوجته التي وقعت في الأسر في معركة « تشالديران » فرفض السلطان تسليمها إليه ، وأزوجها من وزيره جعفر شلبي . ثم ان الانكشارية ثاروا مرة ثانية في أماسية وأجبروا السلطان على الرجوع إلى القسطنطينية ، فأراد السلطان الانتقام من رؤسائهم ، وقتل اسكندر باشا ، وسقبان باشي عثمان ، وقاضي العسكر جعفر شلبي . ثم إن بلاد كردستان كانت بعد واقعة « تشالديران » دخلت في حوزة السلطان وجاء جيش من قبل الشاه اسماعيل يسترجع ديار بكر ، فهزمهم العثمانيون واستولوا على « حصن كيفا » و « سنجار » و « بيرجك » و« الموصل» . ثم فكر السلطان سليم في فتح بلاد العرب ، فزحف إلى « حلب » وجاء من مصر السلطان قانصوه الغوري وكان شيخاً كبيراً بلغ سنّ الثمانين ، إلا أنه كان عالي الهمة ، فتلاقى مع السلطان سليم في مرج دابق عند حلب ، وكانت مدافع العثمانيين جعلت الرجحان في جانبهم وانحاز جانب من جماعة قانصوه الغوري إلى السلطان سليم ، ومن هؤلاء «جان بردى» الغزالي و « خير بك » الجركسيان ، وكان معهما أمراء لبنان .

وكان الملك الأشرف قانصوه الغوري أمر الغزالي وخير بك أن يتقدماه أمام الجيش أملاً بأن يقتلا لوحشة كانت بينه و بينهما ، فراسلا السلطان سليما واتفقا معه وانحازا إلى جيشه ومعهما جمّ من رجال الجيش المصري ومعهما أمراء لبنان منهم الامير « فخر الدين المعنى » والامير « جمال الدين الأرسلاني » وهو جدنا على عمود النسب والأمير «عساف التركماني »ولما دارت المعركة كان النصر للسلطان سليم وقتل الغوري في المعركة . وكانت هذه الواقعة سنة ١٥١٦ وقيل ١٥١٥ وهو الأصح . فدخل بعدها السلطان سليم حلب . ثم دمشق بدون قتال . وقيل إن السلطان سليم صلى الجمعة في جامع سيدنا زكريا في حلب فخطب الخطيب ودعا له بالنصر ولقبه « سلطان البرين والبحرين . وصاحب الحرمين الشريفين » فأمر السلطان بأن يقال « خادم الحرمين الشريفين » وسجد شكراً لله .

ولما مر بحماة نزل في دار آل الكيلاني السادة المشهورين من ذرية السيد

عبد القادر الكيلاني ، ورأيت بعيني الغرفة التي بات فيها وهي مطلة على نهر العاصي وأنعم السلطان على آل الكيلاني وأكرمهم . وكان شاعراً أديبا . فأطربه مركز حماه وأعجبه ماهم عليه السادة الكيلانية من الوجاهة والكرم فنطق لسانه بهذين البيتين :

بنى كيلان هُنّئتم بعيش أرى من دونه السبع الطباقا
أطاع لديكموا العاصي ولما تشرف بالجوار حلا وراقا

رواهما لى السيد عبد القادر حسنى الكيلانى كبير هذه الأسرة الشريفة اليوم .

وجلس على كرسى مصر بعد قتل الغورى « طومان بك » واستعد للقتال فزحف السلطان سليم إلى مصر واشتبكت معركة من أشد المعارك المعروفة فى التاريخ ولكن الأتراك بسبب مدافعهم تغلبوا على المماليك . ودخل السلطان سليم الى القاهرة وانهزم طومان بك بعد أن ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ، ولم يقع طومان بك فى المعركة أسيرا ، بل انحاز بمن بقى معه الى الريف ، وشرع يهاجم العثمانيين . فأرسل السلطان يعرض عليه الصلح فأبى المماليك الصلح ، فزحف السلطان إليهم . وفى هذه الوقعة أخذ طومان بك أسيراً ، وشنقه السلطان وعلقه على باب القاهرة وذلك سنة ١٥١٧ فى ١٣ ابريل وبعد ذلك دخل الحجاز تحت حماية الدولة العثمانية . ويقال إن السلطان سليم كتب بيده على عمود المقياس الذي على شاطىء النيل هذين البيتين :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده حقا ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وقد ظن بعض المؤرخين أن هذين البيتين هما من نظمه لأنه كان شاعرا بليغا بالعربية والتركية والفارسية ، ولكننا وجدنا هذين البيتين فى لزوميات المعرى ، فيكون السلطان قد استشهد بهما .

ثم إنه بعد أن استودع إدارة مصر خير بك ، رجع إلى سورية وأخذ بتنظيم إدارتها ، وكان نشاط هذا السلطان غير معهود المثال ، وتوقد ذهنه فوق الخيال .

وكان محباً للعلماء والأدباء، مغرماً بالعلم والعرفان. وكانت همته أعلى ما عهد في همم الرجال، وكان يتنكر ويخرج متنكراً فيختلط بالشعب ليطلع على حقائق الاحوال ويعرف ممن تشكو الرعايا فيقتص من العمال الذين يتحقق خروجهم عن جادة العدل ولم يكن فيه عيب يذكر سوى شدة ميله إلى سفك الدماء، وكم قتل من إخوته ووزرائه وعمّاله، ولم يكن يجرؤ عليه إلا المفتى الجمالى، الذى يلقبه الاتراك «بزنبيللى على افندى» لأنه كما تقدم الكلام كان عنده زنبيل معلق يضع فيه السائل سؤاله ويحركه فيجذبه الشيخ ويخرج منه السؤال ويجيب عليه ويعيده بالزنبيل الذى يسقط إلى أسفل فيؤخذ الجواب منه.

ويقال إن السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين فى المملكة على الاسلام جميعاً، أو يخرجوا من البلاد، فعارضه زنبيللى على افندى ـ أى المفتى الجمالى ـ وقال له: لا يحل لك ذلك، وليس لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة. ويروى الناس بالتواتر شيئاً آخر، وهو أن السلطان سليم أراد أن يجعل العربية لساناً رسمياً للدولة فعارضه الأتراك فى ذلك، ولم أطلع على هذه الرواية فى الكتب ولكن الناس يتناقلونها كثيراً والله أعلم.

فأما قضية حمل النصارى الذين فى المملكة على قبول الاسلام أو الرحيل منها فهو مروى بالتواتر، وفى الكتب أيضاً فيكون قد ثبت أن الشريعة الاسلامية بعدالتها وأمانتها هى التى حفظت المسيحيين فى السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفذ جميع ما يريده بهم، ولذلك نجد ملاحدة الترك ينتقدون دائماً العمل بالشرع الاسلامى بحجة كونه السبب فى بقاء النصارى فى السلطنة العثمانية، وأن بقاءهم كان السبب فى ضعف تركية، فملاحدة الترك يجعلون الشرع الاسلامى مذنباً فى تهيئة الخطر السياسى الذى أصاب تركية، ولذلك لما استولوا على الحكم بعد الحرب العامة أخرجوا جميع النصارى من تركية، ولم يبق إلاّ النصارى الذين في القسطنطينية فقط لأن الدول فى مؤتمر لوزان لم توافق على إخلاء القسطنطينية من النصارى تماما، وتقرر بمقابلتهم إبقاء مسلمى تراقية الغربية فى بلاد اليونان.

ومن العجب أننا نرى الأوروبيين يعملون بكل قوتهم لمحو الشريعة الاسلامية التي في ظلها ـ و بسببها لاغير ـ بقي النصارى في جميع الممالك الاسلامية ، وفي السلطنة العثمانية ، متمتعين بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون منذ ظهور الاسلام إلى يوم الناس ، هذا وكان نصارى البلاد العثمانية بضعة عشر مليون نسمة ، ومن العجب أننا نراهم مع ذلك يفضلون أن تكون الحكومات الاسلامية ملحدة ، ولو كانت تخرج جميع النصارى من بلادها ، وهذا أقصى مايتصوره العقل من التحامل والتعصب على الاسلام ! ! يكرهونه ولو حفظهم ، و يحبون زواله ولو كان في ذلك زوالهم ! .

هذا ومات السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فلم يقم في السلطنة أكثر من ثماني سنوات ، ولو طالت مدة هذا الرجل العظيم على كرسي هذه السلطنة العظمى لمّا عرف أحد إلى أية درجة من الشوكة والبسطة كانت تنتهي السلطنة العثمانية ؟ !

وجاء في « شذرات الذهب » عن السلطان سليم ما يأتي :

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة توفي السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد السلطان المفخم ، والخاقان المعظم ، سليم خان بن عثمان تاسع ملوك بني عثمان . هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الاسلامية ، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الايمانية ، رفعوا عماد الاسلام ، وأعلوا مناره وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع الشريف مقداره ، وصاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب ، واستخلصها من أيدي الشراكسة بعد ما شتت جمعهم فانفلّوا عن مليكهم ، وجدوا في الهرب . ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه عن السلطنة وسلّمها إليه ، وكان السلطان سليم ملكا قهاراً ، وسلطانا جباراً ، قويّ البطش ، كثير السفك ، شديد التوجّه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسّس عن أخبار الناس ، وربما غيّر لباسه وتجسّس ليلا ونهاراً ، وكان شديد اليقظة والتحفّظ يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية ، منه ماذكره

القطب الهندي المكي أنه رآه بخطه في الكشك الذي بنى له بروضة المقياس بمصر ونصه :

الملك لله من يظفر بنيل غنى يردده قسراً و يضمن عنده الدَّركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مُشْتَرَكا

قال الشيخ مرعى الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين » : وفى أيامه تزايد ظهور شأن اسماعيل شاه ، واستولى على سائر ملوك العجم ، وملك خراسان ، وأزربيجان وتبريز ، و بغداد ، وعراق العجم ، وقهر ملوكهم ، وقتل عساكرهم ، بحيث قُتِل ما يزيد على ألف ألف ! ! وكان عسكره يسجدون له ، و يأتمرون بأمره ، وكان يدَّعى الربوبية . وقتل العلماء ، وأحرق كتبهم ، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة وأخرج عظامهم وأحرقها ، وكان إذا قتل أميراً أباح زوجته وأمواله لشخص آخر فلما بلغ السلطان سليم ذلك تحركت همته لقتاله ، وعد ذلك من أفضل الجهاد ؛ فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرّار ، وكانت وقعة عظيمة ، فانهزم جيش اسماعيل شاه واستولى سليم على خيامه ، وأعطى الرعية الأمان ، ثم أراد الاقامة بالعجم للتمكن من الاستيلاء عليها فما أمكنه ذلك لشدة القحط ، بحيث بيعت العليقة بمائة درهم ، والرغيف بمائة درهم ، وسببه تخلف قوافل الميرة التى كان أعدَّها السلطان سليم ، وما وجد في تبريز شيئاً . لأن اسماعيل شاه عند انهزامه أمر باحراق أجران الحَبّ فاضطر سليم للعود إلى بلاد الروم .

وفى أيامه كانت وقعة الغورى ، وذلك أن سليم لما رجع من غزو اسماعيل شاه تفحص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه ، فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه الغورى ، فانه كان بينه و بين اسماعيل شاه محبة ، ومراسلات وهدايا ، فلما تحقق سليم ذلك صمم على قتال الغورى أولا ، ثم بعده يتوجه لقتال اسماعيل شاه ثانيا ، فتوجه بعسكره إلى جهة حلب سنة اثنتين وعشرين كما تقدم ، فخرج الغورى بعساكر عظيمة لقتاله ، ووقع المصاف بمرج دابق شمالى حلب ، ورمى عسكر سليم عسكر الغورى بالبندق ، ولم يكن فى عسكر الغورى شىء منه ، فوقعت الهزيمة على عسكر الغورى بعد أن كانت النصرة له أولا ، ثم فقد تحت سنابك الخيل ، وكان ذلك بمُخَامرة

خير بك والغزالي ، بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام .

ثم بعد الوقعة أخليا له حلب لأنهما معه في الباطن ، فأقبل سليم إلى حلب فخرجوا للقائه يطلبون الأمان ومعهم المصاحف يتلون جهاراً (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) فقابلهم بالاجلال والاكرام . ثم حضرت صلاة الجمعة فلما سمع الخطيب خطب باسمه وقال : « خادم الحرمين الشريفين » سجد لله شكراً على أن أهّله لذلك ثم ارتحل للشام بعد أن أخلاها له خير بك والغزالي ، فخرجوا للقائه ودعوا له فأكرمهم وأقام بها لتمهيد أمر المملكة . وأمر بعمارة قبة على الشيخ محيي الدين بن عربي بصالحية دمشق ، ورتّب عليها أوقافا كثيرة ، ثم توجه إلى مصر فلما وصل إلى خان يونس بقرب غزة قُتل فيه وزيره حسام باشا .

ثم لما دخل مصر وقع بينه وبين « طومان باى » سلطان الجراكسة حروب يطول ذكرها ، وقتل بها وزير سليم يوسف سنان باشا ، وكان مقداما ذا رأي وتدبير فأسف سليم عليه بحيث قال : أي فائدة في مصر بلا يوسف ؟ ! وقاتل طومان باى ومن معه من الأمراء قتالا شديدا ، وظهر لطومان باى شجاعة قوية عُرِف بها وشهد له بها الفريقان ، وأوقع الفتك بمسكر السلطان سليم ، ولولا شدة عضده بخير بك والغزالي ومكيدتهما ما ظفر بطومان باى . ثم لما ظفر به أراد أن يكرمه ويجعله نائباً عنه بمصر ؛ فعارضه خير بك وخاف عاقبة فعله ، وقال لسليم : إنك إن فعلت ذلك استولى على السلطنة ثانياً ، وحسّن له قتله فقتله وصلبه بباب زويلة ، ودفنه كما أسلفنا .

ونزل السلطان سليم بالمقياس مدة إقامته بمصر بعيداً عن روائح القتلى ، وحذرا من المكيدة إلى أن مهدها ، ثم ولى خير بك أمير الأمراء على مصر ، وولى الغزالي على الشام ، وولّى بمصر القضاة الأربعة وهم ؛ قاضي القضاة كمال الدين الشافعي وقاضي القضاة نور الدين علي بن يس الطرابلسي الحنفي ، وقاضي القضاة الدميري المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن النجّار الحنبلي ، واستولى على الأرض الحجازية وغيرها ، ورتب الرواتب ، وأبقى الأوقاف على حالها ، ورتب لأهل

الحرمين فى كل سنة سبعة آلاف إردب حَبّ . ثم عاد إلى القسطنطينية وقد صرف غالب خزائنه ، فأخَّرَ السفر إلى بلاد العجم ليجمع ما يستعين به على القِتال ، فظهر له في ظهره جَمرة منعته الراحة ، وعجزت فى علاجها حذّاق الأطباء ، ولا زالت به حتى حالت بينه و بين الأمنية فتوفى رحمه الله فى رمضان ـ أو شوال ـ بعد علة نحو أربعين يوما . وذكر العلائى فى تاريخه «أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنه وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه ، فلم يفطن بها حتى وصل الى المكان الذى بارز فيه أباه أبا يزيد حين نازعه فى السلطنة ، فطلب له الأطباء فلم يدركوه إلا وقد تأكّلت و وصلت إلى الأمعاء ، فلم يستطيعوا لها دفعا ولا نفعا ، ومات بها ودفن بأدرنة عند قبر أبيه » . انتهى ملخصاً .

قلت : ونبغ من العلماء فى عصر السلطان سليم المولى شمس الدين احمد بن سليمان ابن كمال باشا ، وكان جدّه من أمراء الدولة العثمانيّة ، ونشأ فى حجر العزّ والدلال ثم غلب عليه حب العلم والكمال فاشتغل بتحصيل العلم ليلاً ونهاراً ، و بعد أن مهر في العلوم تولى التدريس ، وانتقل من مدرسة الى مدرسة ، ثم تولى قضاء العسكر ، ثم تولى الإفتاء فى القسطنطينية بعد وفاة زنبيللى على أفندى ، ومات وهو فى الإفتاء سنة أربعين وتسعمائة . وله تصانيف كثيرة منها حواشى على الكشاف ، وله كتاب فى الفقه متن وشرح سماه «الإصلاح والإيضاح» ، وله كتاب فى الأصول متن وشرح وله كتاب فى علم الكلام متن وشرح ، وله كتاب فى الفرائض متن وشرح ، وله حواشى على شرح المفتاح للسيد الشريف ـ ومَن مِن فحول علماء الأتراك لم يكتب حواشى على كتب السيد الشريف ـ وله تآليف فى التركية والفارسية ، ومن جملة كتبه التركية تاريخ لآل عثمان . ومنهم المولى عبد الحميد بن على ، وقرأ فى بلاد العرب ثم فى بلاد العجم ، ثم جاء الى بلاد الروم وسكن ببلدة قسطمونى . ولما جلس السلطان سليم على سرير السلطنة اتخذه إماما لنفسه ، ومات بصحبة السلطان بمدينة دمشق بعد قفول السلطان من مصر . ومنهم المولى محيي الدين محمد شاه بن على بن يوسف بالي بن شمس الدين الفنارى ، وهم بيت علم كابرا عن كابر ، وتولى التدريس مدة

طويلة ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم تولى قضاء العساكر . ومنهم المولى محيي الدين محمد بن على بن يوسف بن شمس الدين الفنارى ، ودرّس مدة طويلة ، واستقضى بالعسكر المنصور ، وكان عالما ورعاً ، مدققا محتاطاً فى معاملاته مع الناس ، محبا للفقراء والصلحاء ، قال صاحب « الشقائق » : كان رحمه الله علامة فى الفتوى ، وآية كبرى فى التقوى .

ومنهم محيي الدين محمد بن علاء الدين على الجمالى المتقدم الذكر ، وهم بيت علم وفضل ، تولى التدريس ثم القضاء ، وكان من ذوى الطريقة الحسنة . ومنهم محمد شاه بن محمد بن الحاج حسن ، وتولى التدريس مدة طويلة ، وله تواليف منها شرح على مختصر القدورى . ومنهم المولى حسام الدين حسين بن عبد الرحمن ودرّس فى أكثر المدارس المشهورة ، ثم تولى القضاء . ومنهم مصلح الدين مصطفى بن خليل والد « صاحب الشقائق » ولد سنة فتح القسطنطينية — أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت ولادته ببلدة « طاش كوبرى » . وأخذ عن علماء كثيرين ، وأشهرهم خواجه زاده ، وتولى التدريس تارة فى أنقرة ، وتارة فى بورسة ، وطورا فى أسكوب وطورا فى أدرنه ، ثم جعله السلطان بايزيد معلما لابنه السلطان سليم ، ثم استقضاه السلطان سليم بمدينة حلب ، ثم استعفى من القضاء ورجع الى التدريس ، وكان زاهداً عابداً صاحب أدب ووقار فيما يروى عنه ولده ، وقال : إنه لم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب ، ولا كلمة فيها الفحش ، وكان طاهر الظاهر والباطن ، وكانت أكثر براعته فى الحديث ، والتفسير ، وأصول الفقه ، والعلوم الأدبيّة . ولم يتبحّر فى المعقول . وله عدة تصانيف . ومنهم قوام الدين قاسم بن خليل ، وهو أخو المترجم السابق ، وكان مدرسا كبيرا ، وكانت أكثر مهارته فى العلوم الأدبية ، والعقليّة .

ومنهم عبد الواسع بن خضر من أولاد الامراء أصله من بلدة «دي‌وطقة» فى الروملى وارتحل إلى بلاد العجم وخراسان ، وقرأ على شيخ الاسلام حافظ العلامة التفتازانى حواشى شرح المطالع ، وحواشى شرح العضد للسيد الشريف ، ثم رجع إلى بلاد الروم فى أواخر سلطنة بايزيد ، وفى زمان السلطان سليم تولى التدريس ، وفى زمان

السلطان سليمان القانونى تولى قضاء العساكر ، وبعد أن بقى مدة فى القضاء و بنى مدارس ومكاتب ؛ ارتحل إلى مكة المكرمة واعتزل الناس ، وعكف على العبادة إلى أن مات سنة خمس وأربعين وتسعمائة .

ومنهم عبد العزيز بن يوسف بن حسين الحسينى الشهير « بعابد شلبى » وكان مدرساً ثم تولى القضاء . ومنهم عبد الرحمن بن يوسف بن حسين الحسينى ، وكان أيضاً مدرساً ثم انقطع عن الخلق لأجل العبادة . ومنهم پير احمد شلبى الآيدينى وكان من المدرسين الكبار . ومنهم محيى الدين محمد بن الخطيب قاسم ، وكان مدرساً وتولى تعليم الأمير احمد بن السلطان بايزيد ، وكان عالماً أديباً عابداً ورعاً ، وكان ينظم الشعر العربى والتركى ، و يحفظ المحاضرات والتواريخ . ومنهم زين الدين محمد بن محمد شاه الفنارى ، وكان عالما فاضلا خدم العلم الشريف مدة طويلة مع التقوى والورع ومنهم المولى داود بن كمال القوجوى ، وكان مدرساً كبيراً ، وله اليد الطولى فى العلوم العقلية . ومنهم بدر الدين محمود الشهير « ببدر الدين الأصغر » وكان أيضا من المشتغلين بالعلوم العقلية ، و بعلم الحديث أيضاً . ومنهم المولى نور الدين حمزة ، وكان من الفقهاء ولكنه كان حريصاً على جمع المال ، و بنى بماله مسجداً بالقسطنطينية وحجرات لسكنى العلماء . قال له الوزير ابراهيم باشا : إنك تحب المال فكيف صرفت هذه الأموال فى الأوقاف ؟ قال : هذا من غاية محبتى للمال ؛ حيث لا أرضى أن أخلفه فى الدنيا ، وأريد أن يذهب معى إلى الآخرة . ومنهم المولى محيي الدين محمد البردعى وكان بارعاً فى العلوم العربيّة ، وصاحب أخلاق ، وله تصانيف . ومنهم محمود الشهير « بابن المجلد » وكان عالما زاهداً ، وتوفى فى أوائل سلطنة سليمان القانونى . ومنهم محيي الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الملقب « باجه زاده » وكان من المدرسين ، ثم صار من القضاة فى زمان السلطان سليم . ومنهم محيى الدين محمد المشهور « بشيخ شاذلو » وكان من العلماء العابدين . ومنهم سنان الدين يوسف بن علاء الدين اليكانى كان مدرسا ثم صار قاضيا ، وفى زمان السلطان سليم تولى قضاء دمشق وله حواشى على شرح المواقف للسيد الجرجانى . ومنهم پير احمد بن نور الدين حمزة ، درّس فى أشهر

المدارس ثم تولى القضاء وصار قاضيا بمصر مرتين . ومنهم المولى باشا شلبي اليكانى بقي مدة فى التدريس ، وله حاشية على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم باشا شلبي بن زيرك ، وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم محيي الدين بن زيرك استقضى فى عدة من البلدان . ومنهم عبد العزيز حفيد المولى المشهور « بابن أم الولد » وكان من العلماء الأدباء . ومنهم محيي الدين محمد بن مصلح الدين القوجي ، وكان عالما زاهدا ، وانتفع به خلق كثير ، وله عدة تصانيف .

ومنهم الشريف عبد الرحمن العباسى ، ولد بمصر ومهر في العلوم الأدبية ، وجاء إلى القسطنطينية فى زمن بايزيد خان ورجع إلى مصر ، ثم لما انقرضت دولة السلطان الغورى عاد إلى القسطنطينية . وتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، وقد عاش نحواً من مائة سنة ، وله كتاب « معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص » وهو شهير . وقرأته أول مرة فى استانبول منذ ٤٥ سنة أعارنيه قبل أن اقتنيته الشريف عبد الإله باشا أمير مكة سابقا رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميذ الشنقيطي المعروف بالشنقيطى الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيبات له على المؤلف من جملتها أنه ذكر احمد بن خلف ، وذكر أنه قُتل ، فقال الشنقيطى فى الهامش : « هو خلف بن احمد ، والمعروف أنه مات حتف أنفه » .

ومنهم المولى بخشى خليفة الأماسى ، ولد بأماسية وقرأ على علماء عصره ، ثم ارتحل الى بلاد العرب وقرأ على علمائها أيضاً ، ثم اختار طريق التصوف وجلس للوعظ والتذكير ، وانتفع به خلق كثير ، وتوفى فى جوار الثلاثين وتسعمائة . ومنهم محيي الدين محمد بن عمر بن حمزة ، كان جده من بلاد ما وراء النهر من تلاميذ السعد التفتازانى ، وضرب فى الارض فوصل الى انطاكية . وبها ولد محمد هذا ، وتفقه فى انطاكية ، ثم سار الى « حصن كيفا » و « آمد » ثم الى « تبريز » وأخذ عن علماء تلك البلاد ، ثم رجع الى انطاكية ، وحلب ، ثم ذهب الى القدس وجاور هناك وحج البيت الحرام . ثم ذهب الى مصر وأخذ عن السيوطى ، ولقى قبولا عظيما عند السلطان « قايتباى » وبقي عنده الى أن توفي . فسافر الى الروم من طريق البحر

وأول بلدة أقبل عليها « بروسة » فحصل له فيها إقبال عظيم ، ثم ذهب الى القسطنطينية فأحبه أهلها ، وسمع السلطان بايزيد وعظه فمال اليه كل الميل ، وألف له كتاباً اسمه « تهذيب الشمائل » فى السيرة النبوية . ولما خرج السلطان الى الغزو كان هذا الشيخ محمد بن عمر معه ، فلما فتح « قلعة مشون » كان هو ثانى الداخلين إليها أو ثالثهم ثم ذهب إلى حلب ورجع الى الروم فى زمن السلطان سليم ، وحرضه على الجهاد فى طائفة «قزلباش» ـ هى طائفة تؤلّه عليًا ـ وكان يعظ الجنود وعظاً مؤثراً ، ويذكر لهم ثواب الجهاد . ثم ذهب الى « الروملى » وأخذ يعظ أهلها ، فأصلح كثيراً من الخلق ، وأسلم على يديه كثيرون من غير المسلمين ، وبنى جامعاً فى سراى بوسنه ومسجداً فى أسكوب .

وأقام فى تلك البلاد عشر سنوات يعظ ويفسر القرآن الكريم ، وفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة غزا مع السلطان سليمان بلاد المجر ، ووافقهم الفتح المبين . ثم سكن فى بروسة ، وشرع فى بناء جامع كبير توفى قبل اتمامه فى رابع المحرم ٩٣٨ وذلك عن سبعين سنة . وولد من صلبه قريب من مائة نفس ، وله كتب ورسائل وكم أحيا من سنن ، وأمات من بدع . فهذا من الرجال الذين اشتغلوا فى حياتهم وفقدهم الناس عند مماتهم ! ! ومنهم خير الدين خضر المعروف « بالعطوفى » كان معلماً لعبيد السلطان بايزيد ، ثم اختار طريقة الوعظ فصار يفسر أيام الجمع فى مساجد القسطنطينية ، وكان ماهراً فى التفسير ، وله اليد الطولى فى علمى المعانى والبيان . ومنهم عبد الحميد بن شرف من أهل قسطمونى ، قرأ على علماء عصره ، ثم رغب فى التصوف ، وصحب مصلح الدين الطويل من شيوخ النقشبندية . وبعد وفاته اختار طريق الوعظ ، وعكف على التفسير ، وكان زاهداً فى الدنيا .

ومنهم عيسى خليفة من قسطمونى أيضاً ، وكان متصوفاً ، واختار طريق الوعظ وكان لكلامه تأثير فى النفوس . ومنهم المولى شعيب الترابى ، جعله السلطان بايزيد معلماً لعبيده ، ثم اختار طريقة الوعظ ، وكان على الفطرة ، وكان قوى البدن الى النهاية وقيل إنه كان فى شبابه يكسر نعال الدواب بأصبعيه !! ومنهم محيي الدين محمد الأماسي

وكان من العلماء المحدثين والوعاظ ، وكانت الناس تحبه لورعه وتقواه . ومنهم المولى الطوقاتى من أماسية ، لم يفارقها إلى أن مات ، ومات فى أوائل سلطنة سليمان القانونى وكان مشتغلاً بالدرس والعبادة ، منقطعاً عن الناس . ومنهم المولى مصلح الدين موسى بن موسى الأماسى ، اشتهر بين الناس « بحافظ الكتب » لأنه كان قيماً على خزانة كتب جامع السلطان بايزيد ببلدة أماسية ، قرأ على علماء العجم ، ثم على علماء العرب . وكان صحيح العقيدة ، مرضى السيرة ، وكانت له اليد الطولى فى الفقه والأصول وله تآليف نفيسة . ومنهم المولى الشهير « بابن المعيد الأماسى » وكان فاضلا محققا ، سالكا مسلك التصوف ، مقبلا على شأنه . ومنهم المولى عبد الله خواجه نزيل « قصبة كو برجك » اشتهر بعلم العربية ، والفقه ، وكان من الصالحين . ومنهم المولى ابن دده جك ، وكان مشهوراً بالقراآت العشر ، مرضى السيرة ، زاهداً عابداً

ومنهم المولى الشهير فى علم القراآت صادق خليفة المغنيساوى ، وكان من القانتين العابدين . ومنهم المولى محمد بن الحاج حسن وكان عالماً ، ولكنه لم يكن على نمط العلماء فى الزهد وخشونة العيش ، بل كان مائلا إلى الزينة والترف ، فجعله السلطان سليم من الأمراء ، وكان بارعا بالانشاء ، وله معرفة بالتواريخ . ومنهم محمد باشا حفيد المولى « ابن المعرف » معلم السلطان بايزيد ، وكان محمد باشا هذا من وزراء السلطان سليم ، وكان على جانب من المعرفة بالآداب السلطانية . ومنهم المولى عيسى باشا بن الوزير ابراهيم باشا ، وكان من العلماء ، ثم صار موقعاً بالديوان العالى ، ثم تولى الامارة فى بلاد الشام . ومنهم المولى الشهير « بنهانى » و بقى مدة من حياته يشتغل بالتدريس ، ثم ذهب إلى الحج ، ومات بمكة المكرمة . وكان من العلماء الأدباء . ومنهم المولى حيدر ابن أخى المولى الخيالى ، وقرأ على علماء عصره ، ثم ذهب إلى مصر وأخذ عن علمائها ، ثم رجع إلى الروم وأقام ببروسة ، وتوفى فى أواخر سلطنة سليم خان وكان جميل الطلعة ، مرضى السيرة ، جيد المحاضرة ، زينة للمجالس . ومنهم المولى محمد ابن الحاج حسن ، تولى القضاء فى عدة من البلاد ، وكان حليم الطبع معرضاً عن أبناء الزمان مشتغلا بنفسه . ومنهم محمود بن الكمال المشتهر « بأخى شلبى » كان أبوه من

الأطباء المشهورين ، وطلبه السلطان محمد ليصير طبيباً عنده فاعتذر وقال : كيف أختار الرق بعد الحرية . و بعد وفاته نبغ ولده محمود فى صناعة الطب ، حتى صار رئيساً للأطباء فى المستشفى الذى بناه محمد الفاتح بالقسطنطينية ، ثم صار رئيساً للأطباء في زمان ولده السلطان بايزيد ، ثم عزله السلطان سليم ، ثم أعاده إلى مكانه . ولما تولى سليمان القانونى عزله أيضاً ، ثم أعاده إلى مكانه . ثم حج بيت الله . ومات بمصر منصرفه من الحج ، ودفن عند قبر الامامى الشافعى رضى الله عنه .

ومنهم هدهد بدر الدين ، وكان من الأطباء المعروفين في دار السلطنة . ومنهم من أكابر الصوفية العارف بالله الشيخ نصوح الطوسى . ومنهم العارف بالله الشيخ مصلح الدين الامام بمدينة بروسة . والعارف بالله محمد الشهير « بابن أخى شوروه » . والعارف بالله محيي الدين محمد المعروف « بأبي شامة » والعارف بالله الشيخ عبدالرحيم المؤيدى المعروف « بحاجى شلبى » . والشيخ محيي الدين محمد بن المولى بهاء الدين أخذ عن العارف بالله محيي الدين الاسكليبى . والشيخ مصلح الدين مصطفى المنسوب إلى المولى خواجه زاده . والعارف بالله مصلح الدين مصطفى المعروف « بابن المعلم ». والعارف بالله الشيخ نبى خليفة . والشيخ محيي الدين الأسود . والشيخ لطف الله . والشيخ أمير على بن أمير حسن . والمولى خضر بك بن المولى أحمد باشا . والشيخ محمود بن عثمان بن على النقاش المشتهر « باللامعى » وسيدى خليفة الاماسى . والشيخ عبداللطيف من أتباع طريقة الشيخ ابن الوفاء . والحاج رمضان المتوطن فى قسطمونى . والشيخ سنان الدين الشهير « بسخته سنان » .

سلطنة السلطان الأعظم سليمان القانونى

هذا ثم تولى سلطنة آل عثمان ، السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان فى شهر شوال سنة ٩٢٦ .

وأكثر المؤرخين على أن سليمان خان هو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعلماء الأفرنج يسمونه سليمان العظيم « Le Grand » أو سليمان الفاخر « Le Magnfique » .

وكان عمره ستاً وعشرين سنة يوم تولى الملك ، وبدأ ملكه بالحلم والعفو ، فأطلق سبيل ستمائة أسير مصرى ، وكان أبوه السلطان سليم قد ضبط لتجار الحرير مقداراً عظيما من متاجرهم ، فعوضهم السلطان سليمان مما خسروه وأخذ على أيدى الولاة الظالمين وأمر بالعدل والاحسان ، وجعل هذه الآية القرآنية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) شعاره .

وعقد سليمان معاهدة مع البندقية ليس هنا محل ذكرها ، وبموجبها كانت البندقية تؤدى إتاوتين إلى السلطان عن بعض البلاد التى كانت تحت احتلالها . وفى زمن سليمان القانونى ثار الغزالى والى الشام الذي انحاز إلى السلطان سليم فى واقعة مرج دابق فأرسل السلطان سليمان جيشاً بقيادة فرهاد باشا ، فتغلب عليه وقتله . وغزا سليمان بلاد المجر فأرسل أحمد باشا لحصر « شاباتس » وبيرى باشا لحصر « بلغراد » ومحمد ميكال أوغلى فاجتاح « ترانسلفانيا » فاستولى على شاباتس ودخلها السلطان ظافرا ، ثم استولى على بلغراد وعلى سملين ، وكان نصراً باهراً . ثم فكر السلطان فى فتح « رودس » لأن فرسان رودس كانوا ملؤا البحر المتوسط اعتداء على المسلمين ، وكانوا يقطعون الطريق على الحجاج إلى مكة إذا ذهبوا فى البحر . ففى ١٦ يونيو سنة ١٥٢٢ سار الأسطول العثمانى عليه مائة ألف مقاتل . وضيق السلطان الحصار على رودس ووالى عليها الهجمات نحوا من شهرين بدون انقطاع . ويقول مؤرخو الأفرنج ـ وربما كانوا يبالغون فى تقدير خسائر العثمانيين ـ : إن هؤلاء فقدوا فى حصار رودس مائة ألف مقاتل ، منهم أربعون ألفاً ماتوا بالأمراض . إلا أن العثمانيين دخلوا أخيرا رودس عنوة واستولوا عليها وعلى الجزر التى فى جوارها . وأخرج السلطان قائد فرسان رودس وكان اسمه « Villiers de l'Sile-Adam » سالما فذهب إلى مالطة وهناك جددوا قوة الفرسان المذكورين ؛ فصاروا يقطعون الطرق على مراكب المسلمين كما كانوا يفعلون وهم فى رودس .

وفى زمن سليمان عصى أحمد باشا والى مصر وحدثته نفسه بالاستقلال ، فأرسل إليه السلطان جيشا فهزمه ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فقطعوا رأسه وعلقوه على أسوار

القسطنطينية . ثم وقع الخلاف بين والى مصر والدفتردار ـ أى رئيس الجباية ـ فأرسل السلطان وزيره ابراهيم باشا وأصله مملوك صار مقربا عند السلطان و بلغ من الحظوة ما لم يبلغه أحد ، فابراهيم باشا عزل العاملين المتخاصمين ، ورتب الأمور ونصب واليا على مصر سليمان باشا الذى كان واليا على سورية . ثم غزا السلطان بلاد المجر بمائة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ، فنشبت معركة هائلة . قاتل فيها الفريقان أشد قتال ، وانتهت بظفر السلطان وغرق « لويس الثانى » ملك المجر وهو منهزم هو وجانب من جماعته فى مستنقعات « موهاش » وسقط « بول طومورى » رئيس أساقفة المجر ومعه سبعة مطارين ، واثنان وعشرون أميراً . وخمسة وعشرون ألف جندى قتلى . وكانت هذه الواقعة فى ٢٦ اغستوس سنة ١٥٢٦ وعلى رواية كانت خسارة المجر مائتى ألف رجل . ولم تكن خسائر العثمانيين أكثر من مائة وخمسين رجلا .

وقيل : إنه وقع فى أسر الأتراك عشرة آلاف مجرى فذبحوهم عن بكرة أبيهم ودخل الأتراك بودابست قاعدة المملكة ، واستولوا على ما فيها من الخزائن والكنوز وأسروا مائة ألف نسمة من رجال ونساء ، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن أجلس على كرسى المجر أمير ترانسلفانيا المسمى « سابوليا » . وكان المجر الذين فرّوا من أمام الترك نادوا بفرديناند ، أخى الامبراطور شارلكان ملكا عليهم ، وفى أيام سليمان حصلت فتن فى بلاد قرامان ، وكليكيا وثارت البكطاشية ، وسارت الجيوش تلو الجيوش ، وخسرت الدولة جنداً كثيرا إلا أن ابراهيم باشا قمع الفتنة .

وفى زمن سليمان اشتدت العداوة بين فرانسة والامبراطور شارلكان ، وكان الامبراطور شارلكان أعظم سلطان مسيحى فى عصره ، إذ كان يلى ألمانية ، واسبانية وايطالية ، وهولاندة ، وكانت له الكلمة العليا فى البحر المتوسط فأوشك أن يخنق فرانسة ، ولم يبق أمل للفرنسيس إلا بالالتجاء إلى العثمانيين لأن السلطان سليمان لم يكن يجد أمامه قرناً يقاومه فى أوربة غير الامبراطور شارلكان ، الذى كانت الوقائع متصلة بينه و بينه على حدود النمسا . فكان من الطبيعى أن فرانسة تتفق مع السلطان العثمانى عدو عدوها ، ولكن فرانسة المشهورة بكثرة حروبها الصليبية ، و بشدة

عداوتها للاسلام ، لم يكن من السهل عليها أن تحالف العثمانيين بدون أن تكبر هذا الأمر جميع أمم النصرانية ، والأمة الافرنسية نفسها ، غير أن « فرنسيس الأول » الذى كان وقع فى أسر شارلكان ، مضى فى عزيمته فى الالتجاء إلى العثمانيين ، ومد يده لمحالفة السلطان سليمان ، وكانت العلاقات الرسمية قد بدأت بين فرانسة والدولة العثمانية فى زمن السلطان بايزيد الثانى من جهة ؛ ولويس الحادى عشر من جهة أخرى ثم كتب السلطان بايزيد كتاباً إلى « شارلوس الثامن » . وفى سنة ١٥٠٠ كتب السلطان إلى « لويس الثاني عشر » يطلب منه التوسط بينه و بين البندقية .

وكان « فرنسيس الأول » لأول حكمه عرض على امبراطور المانية وعلى فرديناند الكاثوليكى صاحب اسبانية مشروعا مآله تقسيم السلطنة العثمانية بين ملوك النصرانية ولكن لم يتم هذا الأمر لأنه لم يكن سهلا عليهم هذا العمل . ثم اتفق أن الحرب وقعت بين الالمان والفرنسيس ، وأخذ فيها فرنسيس الأول أسيرا ، فأرسلت الملكة « لويزا دوسافواى » بناء على مشورة وزيرها « دو براه Duprat » معتمدا بهدايا نفيسة إلى السلطان سليمان ، وذلك فى ٢٥ فبراير سنة ١٥٢٥ ثم كتب الملك فرنسيس الاول نفسه كتابا إلى السلطان يخطب صداقته . ولما كان شارلكان قد عرض من جهته الصلح على السلطان واقترح التحالف ؛ ففضل السلطان محالفة الفرنسيس لما كان الاتراك يعلمون من شدة الفرنسيس ، ولكن لم يرض الترك وقتئذ بكتابة حلف بالورق و إنما أجاب السلطان على كتاب الملك فرانسيس بكتاب تعالى فيه على ملك فرانسة ، وأظهر له مزيد عظمته . وهذا الكتاب لايزال مشهورا فى التاريخ بعد أن ذكر فيه سليمان جميع ألقابه السلطانية . قال لفرنسيس : قد انتهى إلينا ما قدمته إلينا من العرض عن أن عدوك قد استولى على مملكتك ، وأنك الآن في أسره ، وأنك تلجأ إلينا لأجل إنقاذك وحمايتك ، فكل هذا قد عرض على سدتنا السنية ملجأ العالم ، وأحاط به علمنا السلطانى ، وليس غير معهود أن تدور الدائرة على الملوك ، وأن يقعوا فى الأسر ، فليكن قلبك ثابتاً ، ولتكن نفسك طيبة الخ . ثم وعده خيراً .

ثم إن فرنسيس الأول تخلص من أسره بموجب معاهدة مجريط ، ولكنه لم

يعدل عن خطته من جهة محالفة السلطان سليمان وكتب إليه يشكره قائلا له : إننا مغتبطون بما نراه من كرم أخلاقك ، وما وعدتنا به من المساعدة فى حالتنا الحرجة . الخ ثم أخذ فرنسيس الأول يجتهد فى إقناع شعبه بأن تقربه إلى العثمانيين يكون وسيلة لنشر نفوذ فرانسة فى الشرق ، ومحافظتها على المسيحيين الذين هناك ، وقد حصل بالفعل على امتيازات عديدة للفرنسيس بموجب الخط الشريف السلطانى المؤرخ فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٥٢٨ . فان السلطان سمح للفرنسيس والكتالان أن يجولوا في مصر ويتجروا كما يشاؤون ، وأنهم فى الخصومات التى بينهم يراجعون قناصلهم فيما عدا الدم إذ يبقى الحكم فيه لقضاة الشرع . وأذن للفرنسيس والكتالان بانفاذ وصاياهم وأن القناصل يحررون التركات ، وغير ذلك من الامتيازات التى تساهل فيها السلطان ليتخذ من فرانسة ردءاً ضد المانية .

ثم إنه جرى كلام بين فرانسة والسلطان بموجبه يتولى أحد أولاد ملك فرانسة على عرش المجر . وكانت الحرب قد اشتعلت بين المجر والعثمانيين ، فكان العثمانيون من جهة ومعهم الأمير « سابوليا الترانسلڤانى » المولى من قبلهم على المجر ؛ والمجر والنمسويون من جهة أخرى . فانكسر سابوليا ودخل فرديناند أخو شارلكان إلى بودابست . فزحف الجيش الاسلامى بقيادة ابراهيم باشا ـ وكان الجيش مائتين وخمسين ألف مقاتل ـ فدخل العثمانيون بودابست وأعادوا سابوليا إلى الملك . وجاء أمير البغدان وخضع للسلطان وسار السلطان سليمان فى شهر سبتمبر سنة ١٥٢٩ إلى ڤينا يحاصرها ومعه مائة وعشرون ألف مقاتل ، وأربعمائة مدفع ، ولاقاه فى نهر الطونة ثمانمائة قلع . ولم يكن فى ڤينا أكثر من ستة عشر ألف مقاتل ، واثنين وسبعين مدفعاً ، ولم تكن الأسوار متينة ، ولكن خوف الألمان على بلادهم بعث فيهم حمية خارقة للعادة ، فصدوا هجمات العثمانيين كلها . ويقال إن السلطان خسر فى هذا الحصار أربعين ألف جندى ، واضطر إلى الرجوع خائباً ، وهى أول خيبة عرفتها جيوش سليمان القانونى ! .

ولما رجع السلطان إلى بودابست توج سابوليا ملكا على المجر ، وكان فرديناند

أخو شارلكان يسعى فى استمالة ابراهيم باشا حتى يقنع السلطان بقبوله ملكا محل سابوليا ، فعرض على ابراهيم باشا الرشوة فلم يجبه إلى شىء ، و بقيت الحرب تشتعل وفى سنة ١٥٣٢ استولى العثمانيون على « غون Guns » بعد حصار شديد ، ثم بثوا الغارات فى إستيريا من بلاد النمسا ، وحصلت هناك معارك كانت فيها الحرب سجالا وجاء أمير البحر « اندرى دوريا » المشهور فعاث فى بلاد اليونان ، واستولى على الحصون التى كان بناها السلطان با يزيد على جوانب خليج ليبانت ، ثم حصلت متاركة بين السلطان و بين شارلكان أراد السلطان خلالها أن يتفرغ لمحار بة العجم وذهب ابراهيم باشا على رأس جيش جرار فاستولى على تبريز ، ولكنه عامل الأهالى بالرفق . وزحف السلطان بنفسه واستولى على بغداد ، ورجع ظافراً بعد أن غاب أر بعة أشهر .

وفى ذلك الوقت اشتهر فى البحر المتوسط «أندرى دوريا» أمير الأساطيل المسيحية و بمقابلته «خير الدين بربروس» أمير الأساطيل الاسلامية ؛ وكان هذا فى مبدأ أمره هو وأخوه «عروج» من متلصصة البحر ، ثم دخلا فى خدمة السلطان محمد الحفصى صاحب تونس ، ومن هناك امتدت سلطتهما على سواحل الجزائر . وقتل عروج فى حرب بينه و بين الاسبانيول على تلمسان ، فانفرد بالأمر أخوه خير الدين ، وسماه السلطان أمير البحر سنة ١٥٣٣ ، وأخذ يعيث فى البحر المتوسط ، و يغزو سواحل إيطالية . ثم استولى على تونس فاضطر شارلكان الى غزو تونس وأخذها عنوة . وأطلق فيها خمسين ألف أسير مسيحى ، وأعاد سلطانها مولاى الحسن على شرط أن يؤدى له الاتاوة ، وأن تبقى هناك حامية اسبانيولية .

ثم إن فرنسيس الأول أرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه المحالفة مع معاهدة تجار ية على أن سليمان وفرانسيس يحار بان شارلكان إذا كان شارلكان يمتنع عن إعادة دوقية ميلانو ، وجنوة ، و بلاد فلاندر ، إلى فرانسة . وطلب من السلطان سليمان أن يقرضه مليوناً من الذهب حتى يقوم بنفقات الحرب اللازمة ، وكذلك كان من جملة الاقتراحات أن يغزو خير الدين جزيرة صقلية ، ومملكة نابولى

وجزيرة سردينية ، وكان المتولى لهذه المهمة الوزير الافرنسى « جان دولا فوره Jean dela Forest » فانعقدت معاهدة تتضمن حرية التجارة بين المملكتين العثمانية والافرنسية براً و بحراً ، وأن تكون الدعاوى بين الفرنسيس جزائية كانت أو حقوقية متعلقة بقناصل فرانسة . واذا وقعت جناية من إفرنسى فلا يساق كسائر الناس إلى الحبس بل لابد أن يساق إلى الباب العالى ، وأن تجار الفرنسيس لايؤدون إلا خمسة فى المائة عن بضائعهم ، وأن الافرنج من غير الفرنسيس كالانكليز ، والكتلان والصقليين ، والجنوية ؛ ممن ليست بينهم و بين الدولة العثمانية معاهدات إذا سافروا تحت العلم الافرنسى يتمتعون بالحقوق التى يتمتع بها الفرنسيس ، ولكن برغم الحرية الدينية التى يكفلها السلطان لرعايا فرانسة لا يحق أن يملك الفرنسيس ، ولا تملك الكنائس اللاتينية عقارات فى بلاد الاسلام ، وكذلك الافرنسى الذى يتزوج بمسيحية عثمانية تكون أولاده من رعايا السلطان ، وتضمن الاتفاق تحالفاً عسكريا فى الهجوم والدفاع ، فالسلطان تعهد بمهاجمة مملكة المجر ، ومملكة نابولى ، والملك فرنسيس تعهد بشن الغارة على بلاد لومبارديا ، وجرى الاتفاق على أن المدن الايطالية التى يستولى عليها الاسطول العثمانى يكون للأتراك حق انتهابها وسوق أهلها أسرى ولكن ملكية هذه المدن تعود إلى ملك فرانسة . ولما انعقدت هذه المعاهدة كانت اليد الطولى فى عقدها لابراهيم باشا الصدر الاعظم ، و يقال إنه جعل توقيعه فى ذيل هذه المعاهدة باسم (سر عسكر سلطان) فغاظ ذلك السلطان سليمان وأساء فيه الظن وفى ٥ مارس ١٥٣٦ ذهب ابراهيم باشا إلى السراى بحسب عادته فقبض عليه وخنق وتولى مكانه إياس باشا الارناؤطى . وكان السلطان سليمان والملك فرنسيس اتفقا على ادخال جمهورية البندقية فى هذه المعاهدة ، فأبى البنادقة أن يدخلوا فى هذا العقد فغزاهم السلطان بأسطول يبلغ مائة شراع ، فاجتاح سواحلهم ورجع بعشرة آلاف أسير ، واستولى على جزر الارخبيل اليونانى .

وجاء أمير البحر اندرى دوريا قائد أساطيل شارلكان لينازل الاسطول الاسلامى

فدارت الدائرة على أندرى دوريا ، وذلك فى واقعة « بريڤيزا » التى وقعت فى سبتمبر ١٥٣٨ . وفى السنة التالية حشد السلطان مائة ألف مقاتل فى ألبانيا ناوياً شن الغارة على ايطاليا ، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية ، فأنزل عساكره فى مدينة « أوترانت » . وانتظر السلطان من ملك فرانسة أن يزحف على شمالى ايطالية ويرسل أسطوله لمعاونة الاسطول العثمانى ، فلما انتشر هذا الخبر فى الأمم النصرانية قامت له وقعدت ولم يجرأ فرنسيس على الاتيان بحركة . بل اشترط لأجل الهجوم على مملكة « بيمون » أن يخرج الأتراك من إيطاليا ، وعقد معاهدته مع شارلكان فلم يقع ذلك عند السلطان سليمان موقعاً حسناً ، لكنه اجتنب أن يخرق عهده لملك فرانسة ، واستمرت الحرب بين السلطان و بين شارلكان ومعه البنادقة ، وكانت الحرب بين السلطان والبنادقة سجالا ، إلا أن البنادقة اضطروا أخيرا إلى طلب الصلح وتركوا جميع جزر الأرخبيل الرومى ، وتخلوا عن دالماسيا ، ودفعوا غرامة حربية للسلطان ثلاثمائة ألف دوكة . وفى ذلك الوقت مات اياس باشا بالطاعون وكان أرناؤطياً فى الأصل من عائلة كاثوليكية ؛ وكان ممدوح السيرة ، فتولى مكانه لطفى باشا وكان ارناؤطيا أيضا . وكان السلطان أزوجه بشقيقته ، واشتعلت الحرب فى بلاد المجر بين العثمانيين والنمسويين ، وثار أمير البغدان متفقا مع النمسا ، فولى السلطان أخاه مكانه وفى أثناء هذه الحرب مات سابوليا ملك المجر من قبل السلطان سليمان فتولت الأمر امرأته ايزابيلا ، فزحف جيش النمسا لحصار بودابست ، فاستصرخت الملكة ايزابيلا السلطان سليمان فزحف بنفسه وجاؤا للسلطان بابن سابوليا وهو طفل عمره سنة واذا بالانكشارية دخلوا بغتة الى « بود » وتحولت هذه البلدة من بلدة مجرية الى بلدة إسلامية ، فاعتذر السلطان للملكة ايزابيلا بأن مقصده بذلك تأمين بلاد المجر من عائلة النمسا . وأنه متى بلغ ابنها رشده يسلمه مدينة بود .

وكان « رنسون ـ Rincon » سفير فرانسة فى القسطنطينية يعمل ليلا ونهاراً لأجل بقاء الاتحاد بين فرانسة وتركية ، وكان هذا السفير يلوم مولاه فرانسيس الأول على مهادنته لشارلكان ، وفى أثناء ذلك انخدع فرانسيس بسياسة شارلكان وأرسل

الى السلطان سليمان يطلب منه مصالحة عدوه شارلكان ، فاستغرب السلطان هذا الطلب !! ولكن رنسون أصلح خطأ سيده ، فكتب السلطان الى فرانسيس قائلا له : « إن شارل ملك أسبانيا يلتمس الهدنة بواسطتك ، فاذا كان يريد الهدنة وكنت أنت تريد ذلك من قلبك فانا اشترط عليه بأن يرد لك جميع البلاد والحصون والأراضى التى أخذها منك ، فاذا قام بهذا الشرط ، وأنت أعلمت بابى العالى بذلك ، فأنا أعمل لك ما تشاء » .

وظهر أن الحق كان مع السلطان سليمان ، وأن الامبراطور شارلكان كان قد خدع ملك فرانسة ، ثم تجددت الحرب و بعث فرانسيس الأول يلتمس من السلطان تجريد الأسطول العثمانى كله لمباشرة الحرب ، وكان للسفير رنسون اليد الطولى فى ذلك. فأرسل شارلكان من قتل رنسون السفير الافرنسى غيلة بحجة أنه خائن للنصرانية فكتب فرانسيس الأول الى ندوة نور نبرغ يشكو عمل شارلكان ، ويتهمه بأنه زور وثائق لا صحة لها تبرئة لنفسه من ذلك الجرم .

وبلغ السلطان سليمان مقتل رنسون بينما كان فى « بود » فبلغ منه الغضب أنه كاد يقتل سفراء النمسا الذين عنده ، ولولا توسط المعتمد الافرنسى « بولين Boline » الذى أتاه بخبر قتل رنسون لكان السلطان من شدة غضبه قتلهم . وأما سياسة فرانسيس الأول فكان قد ظهر للسلطان أنها سياسة تذبذب ، وكاد يرغب عن صحبته الا أن بولين المعتمد الافرنسى التجأ الى خير الدين بربروس ، وكان هذا أصبح مقربا جداً عند السلطان لا سيما بعد أن كسر أسطول شارلكان فى بحر الجزائر ، وكان بربروس يميل الى فرانسة . فما زال بالسلطان حتى أقنعه بارسال الأسطول العثمانى نجدة لملك فرانسة على الامبراطور شارلكان ، وذلك سنة ١٥٤٣ . فسار الأسطول العثمانى الى « نيس » بقيادة خير الدين بربروس ، وكان مركباً من مائة وعشر بوارج عليها أربعة عشر الف مقاتل ، فانضم اليه أسطول ملك فرانسة بقيادة الكونت « دانغين d'enghien » وكان مركباً من أربعين بارجة عليها سبعة آلاف مقاتل فاستولى العثمانيون والفرنسيس على نيس ، ولكنهم اختلفوا وقامت قيامة النصرانية

على فرانسيس الأول من أجل تحالفه مع المسلمين على النصارى ، ومن أجل موافقته على إذلال النصرانية فى بلادها ، حتى قيل : إن الكنائس فى سواحل نيس لم تكن تجرأ على قرع أجراسها مدة إقامة الاسطول العثمانى أمام نيس .

فتصالح فرانسيس الأول مع شارلكان ، و وجه السلطان قوته الى حرب المجر ففتح « ڤالبو » و « سيكلوز » و « غران » و « نيوغراد » و « ڤيس غراد » و « ڤيلكا » وغيرها ، فارسل شارلكان وأخوه فرديناند يلتمسان الصلح من السلطان وكاد السلطان يجنح الى الصلح لولا مساعى « جبرائيل دارامون d'Aramont » سفير فرانسا الذى كان يهون على السلطان أمر شارلكان ، قائلا له : إنه فى المقيم المقعد مع أمراء البروتستانت فى المانيا . فعاد السلطان سليمان وأجمع على الحرب وقرر الزحف ، وكتب بذلك الى الملك فرانسيس فى شهر مايو ١٥٤٧ ، فوصل كتاب السلطان الى فرانسة بعد وفاة فرانسيس الأول . فتبدلت الحالة ، وجنح السلطان الى مصالحة شارلكان ، وانعقدت بينهما متاركة لمدة خمس سنوات على أن يدفع الأمير فرديناند أخو شارلكان للسلطان العثمانى خمسين الف دوكة كل سنة جزية عن القسم الباقى من بلاد المجر تحت ولايته .

ولما استراح فكر السلطان من جهة أوربة وجه نظره إلى آسيا ، فاستنجده أمراء الاسلام فى الهند على البرتغال ، وأنجدهم ، وأرسل فاختل اليمن ، ووقع القتال بين العثمانيين والزيديين ، وكتب السلطان إلى امام صنعاء يعاتبه على قتاله للجيش العثمانى ولكن الامام أجابه بجواب سديد قائلا له : إننا نعلم بلاءك العظيم فى حفظ بيضة الاسلام ، ولا نشكو منك ، و إنما نشكو من سوء إدارة عمالك ، وقد كان الأولى بهم أن يسوقوا هذه القوة على الكفار بدلا من أن يسوقوها على المسلمين الذين هم على كل حال تبعة السلطان . وهذا الكتاب مذكور فى تاريخ البرق اليمانى . ثم جاء ابن شاه العجم والتجأ إلى السلطان ، فزحف السلطان إلى تبريز ، وفتحها بعد أن فتح « وان » ثم فتح جانباً من « كرجستان » .

و بينما كان جيشه يتقدم فى آسيا إذ تجددت الحرب فى بلاد المجر ، وذلك أن

الملك سابوليا كان أوصى امرأته إيزابيلا بقسيس اسمه « جورج مارتيموزى » فصارت تعمل برأيه ، وكان هذا القسيس يشتغل لفصل الملكة ازابيلا عن السلطان ولتأليفها مع الأمير فرديناند ، وأقنعها بأن تترك له « ترانسلفانيا » و « البانات » وكل ذلك لم يعلم به السلطان إلا فيما بعد . فلما بلغه الخبر سيَّر ثمانين ألف مقاتل فعبرت نهر الطونة ، واستولت على « ليبا » واشتدت الوقائع ، ولكنها انتهت بظفر السلطان . وأرسل أحمد باشا على أثر الواقعة أربعة آلاف أنف من أنوف النمسويين إلى الاستانة ورجعت « أطمشوار » و « البانات » إلى حكم الدولة العثمانية ، وأخذ العثمانيون البارون « غوندن دورف » أسيراً مع أربعة آلاف مقاتل .

ثم استولى فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، فأرسل السلطان الأسطول العثمانى فطردهم منها وضم تلك البلاد إلى السلطنة العثمانية . وكان هنرى الثانى بن فرانسيس الأول لا يقل رغبة عن أبيه فى محالفة الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٥٥١ تعهد هنرى الثانى للسلطان بتأدية ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية بدلا عن مساعدة الأسطول العثمانى لفرانسة ورهن تحت ذلك جانبا من سفنه ، واتفقا على أن السلطان ينجده بستين مركباً حربياً وخمسة وعشرين مركباً من مراكب القرصان وأنه إذا أراد ملك فرانسة أن يستعمل هذه القوة البحرية خارجاً عن بحر طوسكانة فعليه أن يؤدى مائة وخمسين ألف ذهب وتقرر أن جميع السفن التى يغنمها الأسطول العثمانى تكون ملكا للسلطان ، وأن المدن التى يستولى عليها العثمانيون يصير رجالها وأموالها ملكا أيضاً للسلطان ، إلا أن المدن نفسها تصير لملك فرانسة . وتقرر أن الأسطول العثمانى يكتسح ماشاء من ممالك شارلكان ، ويسبى بقدر مايستطيع . وسار الأسطول العثمانى بقيادة « طورغوت رئيس » وانضم إليه الأسطول الافرنسى بقيادة « البارون لا غارد » فاكتسحا بلاد كالابرة وصقلية ، واحتلا كورسيكا ، ودانت لهما جميع المدن التى فى تلك السواحل .

إلا أنه لم يلبث الخلف أن وقع بين الحلفاء لأن الافرنسيس اعترضوا على عدم حرمة العثمانيين للدم ، والدين ، والمال ، فافترق الأسطولان ، وغضب السلطان على « طورغوت » وأرسل أسطولا آخر بقيادة بيالى باشا كان عدده سبعين بارجة حربية

ولكن هذه المرة أيضاً لم يقع الوفاق بين أمراء الأسطولين . والفرنسيس يقولون إن قواد الترك لم يكونوا يفكرون إلا فى النهب والسبى ، وأرسل هنرى الثانى إلى سفيره فى القسطنطينية يقول له : إنى مع الأسف لم أقدر أن أستفيد من عضد الجيش العثمانى لى لا لعدم رغبة السلطان فى ذلك ؛ بل لاهتمام قواده بالغنائم دون الاهتمام بتنفيذ إرادة مولاهم . ومن بعد هذه الواقعة تصالح هنرى الثانى ملك فرانسة مع فيليب الثانى ملك اسبانيا وملحقاتها ، وعادت المحالفة التركية الافرنسية من ذلك التاريخ حبراً على ورق ، لا سيما أن السلطنة العثمانية بعد السلطان سليمان بدأت بالتقهقر .

وكان السلطان سليمان فى آخر حياته قد اختلف مع أولاده ، لأن وزيره الأعظم « رستم باشا » وشى للسلطان على ولده مصطفى ، وكان العسكر يحب مصطفى حباً جمّا لكرمه وشجاعته ، وكان العلماء والأدباء يحبونه أيضا لاعتنائه بالعلم والأدب فزين رستم باشا للسلطان أن ابنه يريد أن يخلعه و يجلس مكانه ، ووقر ذلك فى نفس السلطان ، فأمر بقتل ولده مصطفى فى مخيمه وهو فى الأناضول ، وذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣ وكان لمصطفى ولد في بروسة فقتلوه أيضا ، و بكت المملكة كلها على مصطفى لما كان له من المنزلة فى قلوب الأمة ، ولا سيما عند العلماء وعند العساكر — أى رجال السيف والقلم معا — وكان مصطفى شاعراً له أغزال لطيفة نشرها تحت اسم مستعار (مخلصى) وكان له تفسير للقرآن ، وتعليقات على البخارى وكتب نحوية ، ورثاه الشعراء ولم يخشوا والده وكان لمصطفى أخ اسمه « جهانغير » فمات حزناً على أخيه ، وثارت العساكر على السلطان وطلبت عزل الصدر الأعظم رستم باشا الذى كان الواشى بالأمير مصطفى ، وكان السبب فى هذه المأساة التى جرحت القلوب بأجمعها ، وكان مرجع كل هذه الدسائس الى السلطانة «خورشم» التى كانت تهىء العرش للاولاد الذين منها . وكان رستم باشا صهرها ، وهى التى فى الحقيقة قتلت الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، ثم قتلت الصدر الأعظم احمد باشا الذى كان قد خالف صهرها فى الوزارة . وهى التى قتلت الأمير مصطفى ابن السلطان .

ثم نشبت الحرب من جديد بين العثمانيين و المجر ، فزحف خادم على باشا على

بلاد المجر واستولى على عدة من المدن ، وقام المجر يقاتلونه وعلى رأسهم الامير فرديناند ، ولكن الدولة اضطرت الى توقيف الحرب والمتاركة ، نظراً لما طرأ من الحوادث فى بيت السلطنة ، لأن الامير بايزيد ابن السلطان ثار على أبيه على أثر دسائس بين الوزراء لا محل لذكرها هنا فجمع بايزيد عشرين ألف جندى وقاتل بهم عساكر أبيه ، فتغلب أبوه عليه وفر بايزيد مع ولده أورخان إلى أماسية ، ومن هناك كتب إلى والده يلتمس منه العفو ، فوقع الكتاب والرسول فى يد « لالا مصطفى باشا » الذى كان عدواً لبايزيد ، فأخفى الكتاب عن السلطان ، ولما لم يجد بايزيد جواباً من أبيه ذهب ملتجئاً الى شاه العجم ، وكان معه اثنا عشر ألف جندى ، فقبله الشاه طهاسب براً وترحيباً فى ظاهر الحال ، ولكنه وضع نصب عينه استثمار هذه الحادثة بقدر الاستطاعة . وبالاختصار فقد قبض طهاسب أربعمائة الف ذهب ، وقتل بايزيد مع أولاده الاربعة ، وكان لبايزيد طفل فى بروسة فى سن ثلاث سنوات فقتلوه أيضاً .

وكان قد تولى الوزارة على باشا ، وكان رجلا حليماً كريماً ، يكره الشر ، فعقد مع النمسا صلحاً فى يوليو سنة ١٥٦٢ ، وبعد عقد هذا الصلح تفرغ السلطان لمشروعاته البحرية ، وأجمع غزو مالطة . فسير بيالى باشا قبطان البحر ، ومعه صالح بك أمير الجزائر ، ودراغوت أمير طرابلس ، وكان الاسطول العثمانى مؤلفاً من مائة وثمانين بارجة وفى ٢٠ مايو ١٥٦٥ أنزل الاسطول عشرين الف عسكرى فى مالطة وبدأوا بحصار قلعة « سنت إيلم Saint-Elme » وفى أول يوم من المهاجمة سقط « دراغوت » أمير طرابلس قتيلا ، وبقى الاتراك يضيقون على ذلك الحصن حتى أخذوه عنوة ولكن أدوا عنه ثمناً غالياً جداً .

وكان رئيس فرسان مالطة « بطرس لاڤاليت » فأرسل قائد الجيش العثمانى مصطفى باشا يعرض عليه الاستسلام ، فأجاب بأنه ليس أمامه سوى الدفاع أو الموت إلا أن الخبر ورد بأن الحرب نشبت من جديد فى بلاد المجر ، فأقلع العثمانيون عن مالطة ، وذلك أنه كان الامير « فرديناند » قد مات وخلفه ابنه مكسيمليان ، وكان

راغباً فى الصلح ، إلا ان إتيان بن سابوليا ملك المجر من قبل الدولة العثمانية تجاوز حدود النمسا ودخل بلدة « ساتمار » فلم يسع مكسيمليان إلا أن يحشد جيشه و يدخل الى بلاد المجر ، وكان على باشا الصدر الاعظم قد مات فخلفه « محمد باشا سوقولوڤيتش » من بوسنة ، وكان راغباً فى الحرب . فدخلت الجيوش العثمانية فى « كرواسية » « وترانسيلڤانيا » وجاء السلطان سليمان الي بلاد المجر ، و دخل عليه اتيان بن سابوليا فوعده بأنه لن يفارق المجر قبل أن يوطد له ملكه ، فحصر السلطان بنفسه مدينة « سيغيت Szigeth » و استولى عليها ، وامتنعت القلعة و بقى العثمانيون يحاصرونها مدة أربعة أشهر ، فى أثنائها مات السلطان سليمان فأخفى سوقولوڤيتش خبر موته عن الجيش وكانت وفاة السلطان فى ٥ سبتمر ١٥٦٦ وفى ٨ سبتمر استولى العثمانيون على القلعة وذبحوا كل من فيها ، وبقى الصدر الاعظم كاتماً موت السلطان عن الجيش يقرأ الأوامر باسمه الى أن وصل السلطان الجديد من كوتاهية .

ولا شك فى أن السلطان سليمان القانونى كان أعظم سلطان أنجبه البيت العثمانى ، و برغم ما عابوه من انقياده للسلطانة التى كانت أحظى حظاياه المسماة « روكسلان » وبرغم قتله وزيره ابراهيم باشا الذي كان عماد سلطنته ، و قتله أولاده فقد قال المؤرخ « هامر Hammer » أشهر مؤرخ لسلطنة آل عثمان : إن هذه الاغلاط لا ينبغى أن تنسينا محاسن هذا السلطان الباهرة ، التى جعلت من زمانه العصر الأكبر للسلطنة العثمانية ، و ذلك بعلو همة هذا السلطان ، وسعة عقله ، و متانة عزمه ، وشدة بأسه ، مع محافظته التامة على الشريعة الاسلامية ، و مع حبه للنظام والضبط ، و مع تثميره للمملكة وخيراتها ، ومراعاة الاقتصاد مراعاة لا تخل بشىء من إظهار عظمة الملك ، والبذخ فى مقام البذخ . وكان السلطان سليمان محباً للعلم والعلماء موقرا لهم عارفاً بأقدارهم ، لا يألو جهداً فى الاحسان اليهم ، والاعتناء بشأنهم » .

وقال المؤرخ الافرنسى «لاجونكيير La Jon quiere » : إن عصر سليمان القانونى لم يكن له نظير ؛ سواء من جهة الفنون والآداب ، أو من جهة المفاخر الحربية سوى عصر لويس الرابع عشر فى فرانسة ، مع الفرق بأن دور سليمان انتهى كما بدأ فى

عنجهية الظفر ، ولم تكن نهايته إدباراً وبدايته إقبالا ، ولم يعهد أن السلطنة العثمانية أنجبت فى عصر من الأعصر من أعاظم الرجال بقدر ما أنجبت فى عهد السلطان سليمان فقد نبغ فيها من رجال السياسة ؛ ابراهيم باشا ، ورستم باشا ، وصقولى باشا . ومن رجال البحر ؛ خير الدين بربروس ، وطورغوت ، ودراغوت ، و بيالى . ومن قادة الجيوش فرهاد باشا ، وأرسلان باشا ، وحمزة باشا ، وميكال أوغلى . ومن كتاب السلطنة جلال زاده ، ومحمد إيغرى عبدى . ومن الفقهاء ؛ ابو السعود افندى ، وابن كمال باشا

ونبغ فى عصره من الشعراء ؛ عبد الباقى الذي كان عند الاتراك كما كان المتنبى عند العرب ، وحافظ عند الفرس . وكان السلطان سليمان يجل عبد الباقى اجلالاً زائداً و يجعله حلية عصره . ولما كان السلطان سليمان نفسه شاعراً فقد بعث اليه بابيات يلقبه فيها بشاعر آل عثمان . ومن شعراء ذلك الوقت يحيى بك الذى رثى الامير مصطفى ابن السلطان سليمان ولم يحقد عليه السلطان بسبب ذلك ، بل خصّص له مرتباً . ومن شعراء ذلك العصر فضولى ، والروانى ، والسامعى ، وغيرهم . ومن مآثر السلطان سليمان المعدودة ؛ جامع السليمانية الذى لا يوجد بناء أجل ولا أدق منه فى أبنية آل عثمان ، وكذلك جامع السليمية الذى بنى على قبر السلطان سليم الأول . وجوامع محمد وجهانغير فى غلطة . وجامع السلطانة الخاصكى . وفى زمانه جرى إصلاح قناة المياه المسماة « بقناة يوستنيانيوس » فى استانبول . وكذلك جدد السلطان سليمان قناة جديدة على الحنايا الى دار السلطنة ، ولو شاء الكاتب أن يحصى جميع مآثر السلطان سليمان من الأبنية الفخمة ، والآثار الخالدة ، لاحتاج الى كتاب كبير ، وهو مع ذلك إنما تخصص بالقوانين حتى أطلق عليه المؤرخون اسم « القانونى » وكان له مزيد الاعتناء برتب العلماء ، وتوفير الجرايات لهم ، وإغنائهم عن الناس . وقد ميزهم فى أمور كثيرة وهذا دأب جميع آل عثمان .

وله قوانين كانت فى غاية الحكمة ، لولاها لم تكن السلطنة العثمانية بلغت مابلغته من السعادة فى زمانه ، فان الحروب بينه و بين دول النصرانية ، و بين دول آسيا أيضا كانت متصلة ، وكانت الجيوش تتلو الجيوش ، والزحوف تتبع الزحوف ، وجميعها

تقدر بمئات الألوف من العساكر، فلو لم تكن البلاد معمورة، والنعم موفورة والارزاق فائضة، والخيرات دارّة؛ لم يكن يتيسر للسلطان قضاء نصف قرن فى الجهاد المستمر، وتعبية الجيوش الجرّارة بدون استنزاف حياة المملكة. والحقيقة أن السلطان وجه عناية خاصة الى مسئلة تنظيم المالية، وترتيب الخراج، بشكل يفى باحتياجات الدولة بدون أن يرهق الرعية. و بلغت واردات السلطنة فى أيامه نحوا من تسعة ملايين وعشرين ألف دوكه!! هذا عدا واردات الخزانة الخاصة التى كانت تبلغ أيضا خمسة ملايين دوكة. هذا ولما بلغ سليمان سنّ الكبر صار قليل الخروج إلى الديوان، وصار الوزراء يستبدون و يسترسلون الى شهواتهم ـ وفى هذا أصاب سليمان من الانتقاد ما أصاب عبد الرحمن الناصر الأموى الذى يشبه سليمان فى طول مدة حكمه، بل تولى عدة سنوات زيادة على حكم سليمان ـ و يشبهه فى بسعة ملكه، وعظمة أعماله، وتوالى فتوحاته، وسعادة الرعية فى ظله، ولكنه في آخر الأمر اعتمد على خواصه، وأخلد الى الراحة. فشكا الرعية من عمّاله، وتناولوه باللوم، وأشرعوا اليه أسنة الانتقاد، ولكنه لم يمنع هذا أن يكون عبد الرحمن الناصر وسليمان القانونى كل منهما نسيج وحده، وأن يكون مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى.

وجاء فى « شذرات الذهب » أنه فى سنة ٩٧٤ كما فى « النورالسافر » أو ٩٧٥ كما فى كتاب « الأعلام » . توفى السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادى عشر من ملوك آل عثمان. قال في الأعلام: كان سلطاناً سعيداً، ملكا أيّده الله بنصر الاسلام تأييداً، ولى السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة، وجلس على تخت السلطنة وما دَمِىَ أنف أحد، ولا أريق فى ذلك محجمة من دم. ومولده الشريف سنة تسعمائة، واستمر فى السلطنة تسعاً وأربعين سنة، وهوسلطان غازٍ فى سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، مرغم أنوف عداه، بلسان سيفه وسنان قناه، كان مؤيداً فى حروبه ومغازيه، مسدداً فى آرائه ومعازيه، مسعودا فى معانيه ومغانيه، مشهودا فى وقائعه ومراميه، أيان سلك ملك، وأنّى توجه فتح وفتك، وأين سافرسفر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق

والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الـكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب . وكان مجدّد دين هذه الأمة المحمدية فى القرن العاشر ، مع الفضل الباهر ، والعلم الزاهر ، والأدب الغض الذى يقصر عن شأوه كل أديب . وشاعر إن نَظَم فعقود الجواهر أو نثر فمنثورَ الأزاهر ، و إن نطق قلد الأعناق نفائس الدر الفاخر . له ديوان فائق بالتركى ، وآخر عديم النظير بالفارسى ، تتداولهما بلغاء الزمان ، وتعجز أن تنسج على منوالهما فضلاء الدوران . وكان رؤوفا شفوقا ، صادقا صدوقا ، إذا قال صدق ، و إذا قيل له صدّق ، لايعرف الغلّ والخداع ، بل يتحاشى عن سوء الطباع ، ولا يعرف المكر ولا النفاق ، ولا مساوى الأخلاق ، بل كان صافى الفؤاد ، صادق الاعتقاد ، منور الباطن ، كامل الايمان ، سليم القلب خالص الجنان .

وما تناهيت فى بثى محاسنه إلا وأكثر مما قلتُ ما أدع

وأطال صاحب الأعلام فى ترجمته وترجمة أولاده ، وذكر غزواته ، فذكر له أربع عشرة غزوة انتصر وفتح فى جميعها ، وذكر كثيراً من مآثره ، فمن ذلك الصدقة الروميّة التى هى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين ، فانه أضاف اليها من خزائنه الخاصة مبلغاً كبيرا . ومنها صدقات الجوالى ــ ومعناه مايؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها ــ وهى من أجلّ الأموال ولأجل حلّها جعلت وظائف للعلماء والصلحاء ، والمتقاعدين من الـكبراء . ومنها إجراء العيون ، ومن أعظمها أجراً عين عرفات إلى مكة المشرفة ، ومنها بمكة المدارس الأربع ، ومنها تكيّتهُ ومدرسته العظيمة بمرجة دمشق ، إلى غير ذلك مما لا يحصى فرحمه الله رحمة واسعة . انتهى ملخصاً . ومن أراد البسط الزائد فليراجع الأعلام . اه

قلت : كان سليمان القانونى يجمع أحياناً بين الأضداد ، فانه قد اشتهر عنه من الرأفة والعفو مالا خلاف فيه ، كما أنه ثبت كونه أمر بقتل أولاده الذين بلغه أنهم كانوا يريدون أن يخلعوه ، والملك ــ كما يقال ــ عقيم ، فلا تنفع فى جانب الاستئثار بالملك رأفة ولا شفقة ، وهذا من وجوه الشبه أيضاً بين السلطان سليمان القانوني

والخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى قتل أيضاً ابنه . وكان الحامل له على قتله سبب أشبه بالسبب الذى حمل السلطان سليمان على قتل ابنه مصطفى ، وهو ولوع الناس به ، وحوم القلوب عليه ، واشتهاره بالعلوم والآداب .

هذا وقد رثى السلطان سليمان المفتى أبو السعود العمادى الشهير بمرثية هى و إن كانت من شعر العلماء ، وعلى لهجة الفقهاء ؛ فهى لا تخرج عن طبقة الشعر العالى قال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور ... فالأرض قد ملئت من نقر ناقور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن ... قضت أوامره فى كل مأمور
وَمَنْ وَمَنْ ملأ الدنيا مهابتــه ... وسخرت كل جبّار وتيمور
مجاهـد فى سبيل الله مجتهـد ... مؤيد من جناب القدس منصور
وصدق عزم إلى الخيرات منصرف ... وحسن لحظ على الألطاف مقصور

ومنها :

يا نفس مالك فى الدنيا مخلفة ... من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة ... أليس جثمانه فيها بمقبور
يانفس فاتئدى لا تهلكى أسفاً ... فأنت منظومة فى سلك معذور

وأما العلماء الذين نبغوا فى زمان السلطان سليمان القانوني ، فمنهم المولى خير الدين الذى كان معلماً للسلطان ، وكان قد حصل على حشمة وافرة بسبب جاهه عند السلطان سليمان ، ومع ذلك لم يتبدل ما فى طبعه من التواضع ولين الجانب . ومنهم قادرى شلبى ، وتقلب فى المناصب العلمية حتى صار قاضياً للمساكر ، ثم عزل عن ذلك وتولى الافتاء بالقسطنطينية . ومنهم سعد الله بن عيسى ، وأصله من قسطمونى وتولى القضاء بالقسطنطينية ، ثم تولى الافتاء بها ، وكان محمود السيرة مرضىّ الطريقة . ومنهم الشيخ محمد بن إلياس المشتهر « بچوى زاده » تولى القضاء بمصر ، ثم صار قاضياً للمسكر المنصور ، ثم تولى الافتاء بالقسطنطينية ، ثم تقاعد عن الفتوى وعاد إلى التدريس وكان قوّالا بالحق ، صادعاً بالشرع ، وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه

كان من محاسن الايام . ومنهم المولى محيي الدين محمد بن قطب الدين ، وكان مدرساً وما زال يترقى حتى تولى قضاء العساكر ، ثم عزل عن القضاء فرجع الى التدريس ، ثم ترك التدريس وذهب إلى الحج ورجع ، وانقطع للعبادة واعتزل الناس . ومنهم المولى حافظ محمد بن احمد باشا بن عادل باشا أصله من بردعة ، فى حدود العجم ، قرأ فى تبريز وفاق أقرانه ، وبلغ الغاية من العلوم العقلية مع الرسوخ التام فى الفقه ، والتفسير والحديث ، ومع الأدب ، والتاريخ ، ولم يكن يفتر عن الكتابة ، وله تآليف كثيرة وشروح وحواش على كتب السيد الشريف الجرجانى ، وله رسالة اسمها « الهيولى » وله كتاب اسمه « مدينة العلم » جعله ثمانية أقسام ، وأورد فى كل قسم منها اعتراضات على ثمانية من العلماء المشهورين فى الآفاق ؛ كصاحب الهداية ، وصاحب الكشاف والبيضاوى ، والتفتازانى ، والشريف الجرجانى ، ونحوهم . وله رسالة اسمها « نقطة العلم » ورسالة أخرى اسمها « معارك الكتائب » ورسالة أخرى اسمها « السبعة السيّارة » وكان بالجملة من أعاظم العلماء ، ومنهم الشيخ محمد التونسى المغوشى ، قال عنه الطاشكبرى صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه أجازه ، وقال إنه كان آية من آيات الله الكبرى فى العلم والفضل والتحقيق ، وكان يقرأ القرآن العظيم على السبع القراآت ، بل على العشر . وذلك بدون مطالعة كتاب ، وكان يحفظ الشرح المطول للتلخيص ، مع حواشيه للسيد الشريف ، ويحفظ شرح المواقف للسيد ، وشرح المطالع لقطب الدين الرازى ، والكشاف مع حواشى الطيبى ، وغير ذلك من الكتب يحفظها بأسرها . ولم يكن يحتاج إلى كتاب ، ولا إلى ورقة ، بل كان يملى كل شىء من حفظه ! وقد يكون شأنه فى هذا من خوارق العادة ، وفى آخر الأمر استأذن السلطان سليمان فى الذهاب إلى مصر فراراً من برد استانبول الذى لم يألفه ، وتوفى فى مصر .

ومنهم المولى عبد الفتاح بن احمد بن عادل باشا ، كان من المدرسين الكبار وتوفي وهو يدرّس بمدرسة الوزير ابراهيم باشا فى القسطنطينية ، ومنهم المولى علاء الدين على الاصفهانى ، وكان أيضا من كبار المدرسين ، وأصله من بلاد العجم . ومنهم مصلح الدين المشهور « بجالك » وأصله من بلاد منتشا ، وكان مدرساً ثم انقطع عن

التدريس ، وانقطع للعبادة . ومنهم شاه قاسم بن الشيخ المخدومى من أهل تبريز لما فتح السلطان سليم تلك البلدة أتى به معه إلى بلاد الروم ، وكان من الأدباء .

ومنهم قاضى زاده الاردبيلى ، وهو من تبريز أيضا ، فلما فتحها السلطان سليم أتى به أيضا الى بلاد الروم . وقد ترجم « تاريخ ابن خلكان » الى الفارسية وقتل مع الوزير احمد باشا نائب السلطان سليمان فى مصر . ومنهم محيي الدين محمد القراباغى قرأ فى بلاد العجم ثم أتى إلى بلاد الروم ، وعاش مدرسا ، وله تآليف منها شرح لرسالة « إثبات الواجب » للدوانى ، وحواش على شرح « الوقاية لصدر الشريعة » وكتاب فى المحاضرات اسمه « جالب السرور » وقد تلقى علماء عصره هذه الكتب بالقبول . ومنهم ابن الشيخ الشبشرى ، وقرأ فى بلاد العجم ، وجاء الى بلاد الروم وله قصيدة بالفارسية مقدار ستين بيتا مصراع كل بيت منها تاريخ جلوس السلطان سليمان وكان المصراع الاخير تاريخاً لفتح قلعة رودس وله كتب وحواش على تآليف السيد الجرجانى ، وأثنى السيد الطاشكوبرى عليه فى أخلاقه .

ومنهم الشريف العجمى ، قرأ فى بلاد العجم ، ثم جاء الى بلاد الروم وعاش مدرساً ومات وهو مدرس فى إزنيق . ومنهم حسام الدين ابن الطباخ ، ولد فى مدينة غاليبولى وكان من المدرسين ، وتولى القضاء ثم ترك القضاء والتدريس ، وكان عالى الهمة لا يتذلل الى أرباب الجاه ولا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن پير محمد باشا الجمالى قرأ على والده ، ثم على أحمد بن كمال باشا ، وتولى التدريس باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم صار قاضياً فى أدرنة ومات وهو قاض بهـا . ومنهم المولى عبد اللطيف من قسطمونى ، وكان أيضاً من أكابر المدرسين ، ثم استقضى فى أدرنة ثم ترك القضاء وكان على جانب عظيم من الصلاح ، همّه فى آخرته لا فى دنياه . ومنهم المولى بايزيد الشهير « بنقيضى » وكان مدرساً صالحاً لا يلتفت الى الدنيا ، وكان يرضى من العيش بالقليل . ومنهم يعقوب الحميدى ، وهو من المدرسين أيضاً وكان عابداً متصوّفاً . ومنهم محمد الشهير « بابن المعمار » كان مدرساً فى أسكوب ، ثم جاء مدرساً فى احدى المدارس الثمان بالقسطنطينية واستقضى فى مدينة حلب مرتين ، ومات وهو

قاضٍ بحلب ، وكان مرضيّ السيرة . ومنهم شمس الدين أحمد المشهور « بابن الجصّاص » صار قاضياً بدمشق ، ثم صار مدرساً باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ومات وهو مدرّس بها . ومنهم علاء الدين على المشهور « بجرجين » وكان يدرّس فى المدارس المشهورة ، ومات وهو يدرّس باحدى المدارس الثمان . ومنهم سيدى المنتشوى الملقب « بالدبّ » وكان من المدرسين . ومنهم المولى حيدر الملقب « بحيدر الأسود » كان مدرساً ، ثم استقضى بمدينة حلب ولم تحمد سيرته فى القضاء فغضب عليه السلطان وعزله ، فعاش فى القسطنطينية وبنى مسجداً ووقف عليه أوقافاً إلا أن اشتغاله بأمور الدنيا كان أكثر من اشتغاله بالعلم عفا الله عنه . ومنهم عبيد الله شلبى بن يعقوب الفنارى من جهة الأم ، كان قاضيا فى مدينة حلب . قال صاحب الشقائق : إنه كان حميد الاخلاق الى الغاية ، وكان من الكرم بما لامزيد عليه ، وربما تجاوز حد الكرم الى الاسراف ، وملك أموالا عظيمة وكان ينفقها كلها ، وملك عشرة آلاف مجلد من الكتب ، وله شرح على « البردة الشريفة » من أحسن شروحها .

ومنهم حسام الدين حسين الشهير « بكدك حسين » كان من المدرسين الكبار ومات وهو مدرس فى طرابزون ، وكان من أهل التقوى والصلاح . ومنهم محمد الشهير « بابن القوطاس » أصل أبيه من بلاد العجم وجاء الى الروم ، وتوفى محمد المذكور وهو يدرس بمدرسة محمود باشا فى القسطنطينية . ومنهم سنان الدين يوسف ابن أخى الآيدينى الشهير « باخى زاده » قرأ فى بلاد العجم ، ودرّس فى بلاد الروم وكان عالماً سليم النفس على فطرة الاسلام . ومنهم المولى جلال الدين القاضى ، كان مدرساً ثم صار قاضياً ، وكان عالماً فاضلاً صالحاً محمود الطريقة فى قضائه . ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبى ، كان مدرساً ثم تولى القضاء ، وكان مشتغلا بنفسه ، سليم الطبع خاشعاً متواضعا ، وقد بنى دار التعليم بالقسطنطينية . ومنهم ابن الكتخدا الكرميانى قرأ فى بلاد العجم على العلامة جلال الدين الدوانى ، وتولى التدريس فى الروم ، ثم صار قاضياً وحمدت سيرته فى القضاء . ومنهم بدر الدين محمود

من أولاد الشيخ جلال الدين الرومى ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، وكان صاحب أخلاق كريمة . ومنهم بدرالدين محمود بن عبيد الله ، كان مدرسا فى إحدى المدارس الثمان ، ثم تولى القضاء بحلب ، ثم بأدرنه ، ومات وهو قاض بها . وكان مستقيم الطريقة . ومنهم اسحاق الأسكوبى ، كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بدمشق ، ومات وهو قاض بها . وكان صدوقا صحيح العقيدة .

ومنهم أبو السعود المشتهر « بابن بدر الدين زاده » وكان قاضياً ومن أهل العلم ومنهم دلى برادر ، وكان من المدرسين ثم ترك التدريس وسكن فى القسطنطينية بقرب البحر ، و بنى مسجدا ووقف عليه حمّاما ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات . ومنهم جعفر البروسوى المشتهر « بنهالى » كان مدرساً ثم صار قاضياً فى غلطة من القسطنطينية ، ثم مال إلى العزلة وكان خفيف الروح ظريف الطبع . ومنهم باشق قاسم ، وكان من المدرسين وهو من أصحاب اللطائف والنوادر ، ولكنه كان من الصالحين ، وقد عمر نحواً من مائة سنة . ومنهم فخر الدين بن اسرافيل زاده ، كان من المدرسين ثم صار قاضيا بدمشق أولا وثانيا ، وكان له اختصاص بالعلوم العقلية . ومنهم شمس الدين احمد بن عبد الله ، كان من المدرسين ثم تولى قضاء دمشق ومات وهو قاض بها وكان محمود الطريقة . ومنهم حسام الدين حسن شلبى القَرَاصُوِىّ كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، وكان من العلماء ومنهم أمير حسن الرومى ، كان من المدرسين ومات وهو يدرس بدار الحديث فى أدرنة . وله حواش على شرح الفرائض للسيد الشريف . ومنهم محمد الشاه بن شمس الدين اليكانى ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها وكان مشتغلا بنفسه لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم سليمان الرومى ، كان مدرساً ومات وهو مدرس باحدى المدرستين المتجاورتين بأدرنة . قال صاحب الشقائق : وكانت وفاته فى مجلس خاص بالعلماء عند حضور سلطاننا الاعظم فى وليمته المباركة لختن أولاده الكرام ، وقد سقط مغشياً عليه ، فحمل من المجلس الى خيمة ومات هنالك وكان معرضاً عن أبناء الزمان لا يذكر أحداً إلا بخير — يريد بقوله سلطاننا الاعظم

السلطان سليمان القانونى . ومنهم قطب الدين المرزيفونى ، وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس فى طرابزان ، وله تعليقات على « شرح المفتاح » للسيد الشريف. ومنهم المولى پير احمد ، كان مدرساً ثم استقضى بحلب ، وكان صحيح العقيدة لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن الشيخ محمود المغلوى الوفائى ، كان من المدرسين ، وكان محباً للطريقة الوفائية ، وكان عالماً مؤلفاً وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الشريف ومنهم احمد بن حمزة القاضى الشهير « بعرب شلبى » قرأ فى مصر الصحاح الستة من الأحاديث ، والفقه ، والأصول ، والهندسة ، والهيئة ، وجاء إلى القسطنطينية فبنى له الوزير قاسم باشا مدرسة بقرب مدرسة أبى أيوب الانصارى ، فدرس هناك طول حياته . ومنهم ورق شمس الدين ، وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الانصارى رضى الله عنه ، وكان صالحا لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد الأول التبريزى كان والده قاضى الحنفية بتبريز ، ورأى المولى جلال الدين الدوانى وهو صغير ، وحكى أن علماء تبريز كانوا يجلسون بين يدى الدوانى مطرقين رؤوسهم . وجاء محمد المذكور إلى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة ، ثم أعطاه السلطان سليمان مدرسة أيضا ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، ثم بالقسطنطينية ، وكانت له اليد الطولى فى العلوم العربية والانشاء ، وكان كثير الاهتمام بالمحسنات اللفظية ، ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد القادر المشتهر «بالمعلول» كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر ، وكان من أصحاب الثروة بنى دار القراء فى القسطنطينية وغيرها . ومنهم محمد الشهير « بَرْجَا شَلَبى » كان من مدرسى المدارس الثمان ، وتولى قضاء دمشق ، ثم قضاء أدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكان محمود السيرة . ومنهم پير محمد بن علاء الدين على الفنارى ، كان من مدرسى المدارس الثمان ، وعلى جانب من العلم والورع . ومنهم علاء الدين على بن صالح ، كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بأدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكانت له يد فى الانشاء ، وترجم « كليلة ودمنة » إلى التركية ترجمة حسنة . ومنهم صالح الاسود

وكان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان عالما صالحاً كاسمه . ومنهم المولى أبو الليث وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان فاضلا حسن العقيدة . ومنهم فخر الدين بن محمد بن يعقوب وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، فاضلا صاحب أخلاق ، مات فى عنفوان شبابه . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمصدر » درس باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بمدينة حلب ، ثم صار قاضيا بمكة المشرفة واتصل بخدمة العارف بالله السيد على بن ميمون المغربى . ومنهم محمد الشهير « بشيخى شلبى » درس باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان محمود الطريقة لايذكر أحداً إلا بخير . ومنهم سنان الدين يوسف الشهير « كوبرجك زاده » ودرس باحدى المدارس الثمان ، وبمدرسة أياصوفيا ، وأفتى ببلدة أماسية ، وكان مرضى الطريقة . ومنهم عبد الرحمن المؤيدى المشهور « بحاجى شلبى » وكان مدرساً بمدرسة أبى أيوب الانصارى ، ثم باحدى المدارس الثمان ، وكان عالما بالعلوم العربية ، وينظم الشعر العربى الحسن ، ومات وهو شاب . ومنهم محيى الدين محمد بن عبدار الشهير « بمحمد بك » اتصل بخدمة الفاضل ابن كمال باشا ، ثم صار مدرسا بالمدارس المشهورة ثم ظهر اختلال فى دماغه ، ثم برىء منه فسافر إلى مصر ، فأسره النصارى واسترده بعض أصدقائه منهم ، وفى زمان السلطان سليمان تولى التدريس ، ثم استقضى بدمشق وكان ماهراً فى العلوم العقلية والعلوم الرياضية .

ومنهم مناسترلى شلبى ، درس فى مناستر ، ثم اختار العزلة واشتغل بالعلم والعبادة وكان من الصالحين . ومنهم الشيخ ابراهيم الحلبى . خطيب جامع السلطان الفاتح بالقسطنطينية ، وكان من حلب وقرأ فى مصر ، ثم أتى القسطنطينية فصار خطيباً بجامع السلطان محمد ، ومات عن تسعين سنة ، وكان فقيهاً أصولياً تقياً نقياً ، ملازماً لبيته لايراه أحد الا فى بيته أو فى المسجد ، واذا مشى فى الطريق يغض بصره عن الناس ، ولم يسمع منه ذكر أحد بسوء ، وله عدة تصانيف أشهرها كتاب فى الفقه سماه « بملتقى الابحر » . ومنهم محمد الحسينى الشهير « بسيرك محيى الدين » كان معلماً

للأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان من ذوى السمت الحسن . ومنهم محيي الدين محمد القوجوى الشهير « بمحيي الدين الأسود » كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وكان عالماً عاملاً مستقيم الطريقة ، لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم المولى خير الدين خضر ، كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وتوفى وهو معلم له . ومنهم هداية بن يار على العجمى ، كان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، ثم صار قاضيا بمكة ، ثم ترك القضاء وجاء الى مصر وتوفى بها ، وكانت له مشاركة فى العلوم مع الأدب والتواضع . ومنهم محى الدين محمد بن حسام الدين ، تنقل فى المدارس الشهيرة بين بروسة ، وتيرة ، وأماسية ، وشورلو ، ومناستر ، ومغنيسيا ، وأدرنة وتولى القضاء بدمشق ، ثم فى أدرنة ، ثم فى القسطنطينية . وكان مطلعا على علم الكلام ، وله يد فى التواريخ والمحاضرات . ومنهم محيي الدين الآيدينى المشتهر « باهلجه » وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس بسلطانية بروسة ، وكان من الصالحين . ومنهم عبد القادر الشهير « بعبدي » كان من كبار المدرسين ، ثم صار قاضيا بمكة ، ثم فى مصر ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان مرضى السيرة فى قضائه . ومنهم حسام الدين حسين شلبي القراصُوِىّ ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان وتوفى وهو مدرس بها ، وكانت له نسبة خاصة الى العلوم العقلية . ومنهم كمال الدين الشهير « بكمال شلبي » وكان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، واستقضى بدار السلام بغداد ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان صحيح العقيدة كريم الاخلاق . ومنهم أمير حسن شلبي ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم بمدرسة أيا صوفيا ، وكان من أهل المروءة والفتوة . ومنهم محمد بن الوزير مصطفى باشا ، كان مدرسا بسلطانية بروسة ومات شابا . ومنهم محيي الدين محمد بن المولى خير الدين معلم السلطان سليمان كان مدرسا بمدرسة الوزير مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ومات شابا . ومنهم فرج خليفة القرامانى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها ، ومنهم شمس الدين احمد اللازبى المعروف « بشمس الأصغر » وتنقل في التدريس الى أن صار باحدى المدارس الثمان ، ثم صار مدرساً بمدرسة السلطان سليمان

بالقسطنطينية . ومنهم شمس الدين احمد البروسوى ، وكان من المدرسين وتوفى فى أوائل أيام السلطان سليمان . ومنهم عبد الرحمن بن يونس الامام ، وكان مختصا بعلم الكلام ، وقد مات شهيداً . ومنهم عبدالكريم الويزوى ، كان مدرسا وتوفى مفتيا فى مغنيسيا . ومنهم شمس الدين احمد الشهير « بالقاف » تنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم قضى بدمشق ، وكان حسن السمت ، ومنهم سعد الدين الأقشهرى تنقل فى المدارس الشهيرة وأفتى بأماسية ، ومات وهو مدرس بمدرسة السلطان مراد فى بروسة ، وكان عابداً زاهداً . ومنهم خير الدين الاصغر ودرس فى أسكوب ، ثم فى شورلو ، ثم مات وهو يدرس بها . ومنهم عبد الرحمن المشهور « بابن الشيخ » كان مدرسا ثم اعتزل التدريس وانقطع الى الله تعالى ، وكان لايذكر أحداً بسوء ، وكان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، هذا مع القناعة والورع ، والرضى من العيش بالقليل . ومنهم حسن القرامانى ، وكان مدرسا ثم استقضى فى غلطة ، ثم فى طرابلس ، ثم فى سلانيك وتوفى بالقسطنطينية ، وكان صاحب ثروة مع الخير والدين وحسن السمت فى قضائه ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محيي الدين الشهير « بابن الحكيم » كان قاضيا بالمدينة المنورة صلى الله على ساكنها ، ومات وهو قاض بها ، و بنى مدرسة بالقسطنطينية ومنهم عبد الحى بن عبد الكريم بن على بن المؤيد من أماسية ، درس ببلده ، ثم بالقسطنطينية ، ثم صار قاضيا بعدة من البلاد ، ثم اعتزل القضاء و رغب فى التصوف وكان محمود الطريقة . ومنهم سنان الدين يوسف ، أصله من قره سى ، كان متصوفا واعظا يجلس للوعظ فى جامع الأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان عابداً زاهداً تتلألأ أنوار الصلاح من جبينه ، ذا شيبة جليلة .

ومنهم بدر الدين محمود الآيدينى ، توفى وهو يدرس بمدرسة محمد باشا فى القسطنطينية وكان مشتغلا بالعلم والعبادة . ومنهم علاء الدين الآيدينى ، وكان مشتغلا بالتدريس مع العبادة . ومنهم شمس الدين محمد بن عمر بن أمر الله بن الشيخ آق شمس الدين المشهور ، وكان معلماً للأمير سليم بن السلطان سليمان ، وهو الذى تولى السلطنة بعد أبيه ، وتوفى شمس الدين محمد هذا فى سن الشباب . ومنهم المولى خير الدين من

قسطمونى ، وكان مدرساً ثم صار معلماً لبعض أبناء السلطان سليمان . ومنهم المولى بخشى ، كان معلماً للسلطان سليم بن السلطان سليمان . ومنهم جعفر المنتشوى ، وكان معلماً للسلطان بايزيد بن السلطان سليمان ، وكان مشتغلا بنفسه . ومنهم المولى درويش سبط المولى سنان باشا ، وكان من المدرسين . ومنهم مصلح الدين بن المَنتشوى وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم سعد الله المعروف « بابن شيخ شاذيلو » وكان من المدرسين أيضا ، وعلى الفطرة الاسلامية . ومنهم عبد الكريم ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وكان عالما صالحا وتوفى شابا . ومنهم الشريف مير على البخارى ، قرأ على علماء عصره فى بخارى ، وسمرقند ، ثم جاء إلى بلاد الروم فى زمان السلطان سليمان ، وله شرح لطيف على « الفوائد الغيائية » من علم البلاغة للعلامة عضد الدين . ومنهم حسام الدين حسين النقاش العجمى ، من أهل تبريز رأى العلامة الدوانى ، وكان رجل من العلماء يقال له غياث الدين منصور ، يريد أن يباحث الدوانى ، فقال ملك تبريز للعلامة الدوانى : يريد غياث الدين أن يتكلم معك فى بعض المباحث ؟ فقال الدوانى : يتكلم مع الأصحاب ونحن نتشرف باستماع كلامه ، ولم يتنزل إلى المباحثة مع غياث الدين . ثم إن النقاش العجمى المذكور جاء إلى بلاد الروم ، ثم جاور بمكة ، ثم جاء إلى القسطنطينية . وكان شافعي المذهب وكان حافظا للأحاديث والتواريخ ، وله شرح على « البردة الشريفة » . ومنهم مهدى الشيرازى الشهير « بفكارى » قرأ فى شيراز وأتقن علم الكلام ، والمنطق والحكمة ، وجاء إلى بلاد الروم وصار مدرسا بمدرسة فلبة ، ومات وهو مدرس بها وكانت له تآليف ، وكان كاتبا بالعربية .

ومنهم المولى سعي ، وكان أديبا بالعربية والفارسية والتركية ، وتوفى فى أوائل سلطنة سليمان خان . ومنهم المولى قاسم ، لازم خدمة العارف بالله ابن الوفاء ، ثم نصبه السلطان بايزيد معلما لخدامه ؛ وذلك لعلمه وصلاحه ، وكان سريع الكتابة وسرعة كتابته لو وصفت لربما لم يصدق السامع . ومنهم ابن المكحل ، كان خطيباً بجامع الفاتح بالقسطنطينية ، وكان بليغاً صالحاً . ومنهم محيي الدين بن العرجون

وكان حسن الصوت عارفا بالقراآت ، وتولى الخطبة بجامع أيا صوفيا . ومنهم المولى پير محمد ، كان ماهراً بالقراآت ، وصار خطيباً بجامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية ومنهم الحكيم سنان الدين يوسف ، ومهر فى الطبّ ، ونصب طبيبا فى مارستان أدرنة ، ثم فى مارستان القسطنطينية ، ثم صار طبيبًا للسلطان سليم خان « الثانى » وهو بعدُ أمير على طرابزان ، ولما تولى السلطنة جعله طبيبا لدار السلطنة . ثم جعله السلطان سليمان رئيسا للأطباء وبقى على ذلك إلى أن توفى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة . قال صاحب الشقائق : وسألته عن مدة عمره قبيل موته بشهر أو شهرين فأخبر أن سنه مائة أو أكثر بسنتين . ومع ذلك لم يتغير عقله ، إلا أنه ظهر فى يديه رعشة ، فسألته عن ذلك فقال : إنها من ضعف الدماغ ، فتعجبت من إخباره عن ضعف الدماغ مع ماله من كمال الادراك والفهم . وكان طبيبا مباركا ، وله احتياط عظيم في معالجاته لقوة صلاحه ، وكان لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم الحكيم عيسى ، كان طبيبا لمارستان أدرنة ، ثم صار طبيبا بدار السلطنة ، وكان متصفا بكرم الأخلاق ، مملوءاً بالخير من فَرْقِه إلى قدمه . ومنهم الطبيب عثمان أصله من العجم جاء فى زمان السلطان سليم إلى بلاد الروم وصار طبيبا بدار السلطنة ، وكان خيرا صالحا . ومنهم يحيى شلبى المعروف « بأمين زاده » كان أبوه من أمراء الدولة العثمانية ، وغلب عليه حب الكمال ، واشتغل بالعلم ، وكان صاحب كمال وجمال ، وقرأ على المولى كمال باشا زاده ، وعلى المولى على شلبى الجمالى ، ثم صار معيداً لدرسه ، ثم صار مدرساً وأخذ يتنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم صار قاضيا ببغداد ، ثم صار مدرسا بدار الحديث التى بناها السلطان سليمان بالقسطنطينية وكان أبعد الناس عن ذكر مساوىء الناس . قال صاحب الشقائق : ولم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب أصلا ولا كلمة فحش ، وكان ماهرا في العلوم الأدبية ، وفى التاريخ ، والمحاضرة .

ومنهم عبد الكريم القادرى الملقب « بمفتى شيخ » كان متصوفاً ، جلس فى زاوية أيا صوفيا الصغير بالقسطنطينية ، واشتغل بالارشاد ، ونصبه السلطان سليمان مُفتيا ، وظهرت مهارته في الفقه ، وكان إذا قعد في الخلوة الأربعينية يرتاض رياضة

قوية ، ويحفر فى الأرض كالقبر ويقعد في تلك الحفرة ، وربما تتعطل حواسه من شدة رياضته ، وبعد تمام الأربعين يخرج إلى الناس ويعظهم إلى وقت الخلوة من السنة القابلة ، وكان متواضعاً خاشعاً ، يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم الشيخ محمود شلبي ، انتسب إلى العارف بالله السيد احمدالبخارى وتزوج بابنته ، وبعد موته قام مقامه . قال صاحب الشقائق : وكنت لاأقدر على النظر إلى وجهه الكريم لانعكاس حيائه إلىّ ، وكان يقرأ عنده كتاب « المثنوى » ويؤوّله على طريقة الصوفية ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحميدى ، وكان من اتباع السيد البخارى ، زاهداً عابدا منقطعاً عن الناس . ومنهم حاجى خليفة المنتشوى ، كان من طلبة العلم ثم انتسب إلى خدمة الشيخ محمود شلبي الذى ذكرناه وحصل عندة التصوف ، وأكمله وأجاز له بالارشاد ، وكانت له كلمات مؤثرة فى القلوب ، وكل من جالسه يمتلىء قلبه خشية . ومات وهو مجاور بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية . ومنهم الشيخ بكر خليفة السياوى ، وكان من المتصلين بخدمة الحاج خليفة المذكور ، وخلفه بعد وفاته ، وكان مشتغلا بالحقائق ، منقطعاً عن الخلائق . ومنهم سنان الدين يوسف الأردبيلى ، وكان من أتباع العارف بالله شلبي خليفة ، اشتغل بالارشاد ، وسكن بزاوية عند جامع أيا صوفيا ، ومات عن مائة سنة . ومنهم الشيخ رمضان وهو من المتصوفة أخذ عن الشيخ قاسم شلبي وجلس مكانه بعد وفاته فى زاوية الوزير على باشا بالقسطنطينية . ومنهم الشيخ بالى خليفة كان من خلفاء الشيخ قاسم شلبي ، ومات ببلدة صونية بعد الخمسين والتسعمائة . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمركز خليفة » وكان من أتباع العارف بالله الشيخ سنبل سنان ، صارفاً أوقاته للرياضة . ومنهم الشيخ سنان خليفة من خلفاء الشيخ سليمان خليفة . وكان رجلا أمياً إلا أنه كان صاحب أحوال سنية ، وجذبات عظيمة ! ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بكندر » كان متصوفاً اتصل بالشيخ محيى الدين القوجوى ، وخلفه بعد وفاته . وكان منقطعا عن الناس لايخرج من بيته إلا ليصلى فى مسجده . ومنهم محيى الدين الإزنيقى ، وكان من أتباع محيى الدين الاسكليبى ، وكان من الزاهدين . وممن تربى

عند الأسكايبي الشيخ اسكندر دده بن عبد الله ، وكان رجلا أميًّا حصل ببركة التصوف على معارف ذوقية تتحير فيها العقول ، كما يقال عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه . ومنهم محيي الدين محمد ، كان ببلدة اشتب فى الروملى وكان من العارفين بالله . ومنهم الشيخ ادريس ، كان من خلفاء شلبي خليفة وتوطن بدمشق .

وكان من خلفاء الشيخ ادريس مريد اسمه الشيخ داود خليفة وكان عابداً إلا أنه كان يدعى أنه يصاحب المهدى ، وأن المهدى من جماعته . ومنهم الشيخ باباحيدر السمرقندى ، جاء إلى بلاد الروم وبنى له السلطان سليمان مسجداً فى ظاهر القسطنطينية وكان خاشعاً يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم صفى الدين الملقب « بشيخ السراجين » من أماسية . ومنهم الشيخ محيي الدين محمد من قرية بقرب أماسية ولم يكن يأكل إلا من زراعة يده . ومنهم الشيخ عبدالغفار من بلدة مدرنى ، وكان أبوه منتسبا إلى طريقة الزينيّة ، وكان فى شبابه تابعا لهوى نفسه ، فرأى فى منامه أن والده قد ضربه ضربا شديداً ووبخه ، فلما أصبح ذهب إلى الشيخ رمضان وتاب على يده . وكانت له توبة عظيمة . ومع هذا فقد كان من العلماء والأدباء ، قال صاحب الشقائق : وكان من محاسن الأيام . ومنهم الشيخ إسحق ، وكان طبيباً نصرانياً قرأ على المولى لطفى الطوقاتى المنطق ، والعلوم الحكمية ، واهتدى للاسلام ، فترك الطب والحكمة ، واشتغل بتصانيف الامام الغزالى ، وداوم على العمل بالكتاب والسنة ، إلا أنه أنكر التصوف لأنه لم يصل إلى أذواقهم . ومنهم الشيخ أحمد شلبي الأنقروى كان من العلماء ، ثم رغب فى التصوف ، ولما بلغ سن الشيخوخة أقام بمدينة أنقرة . ومنهم السيد الشريف عبد المطلب بن السيد مرتضى ، وكان سيداً صحيح النسب ، وحصل العلم والأدب ، ثم رغب فى التصوف وصحب الشيخ ابن الوفاء وأجاز له بالارشاد الشيخ يحيى الطوزلرى وزوّجه بابنته ، إلا أنه لم يؤثر العزلة والخلوة بل بقى يختلط بالناس . ومنهم الشيخ عبد المؤمن من أتباع السيد على بن ميمون ، انقطع فى مدينة بروسة ، ومن الناس من لم يكن يعتقد به ، ولكن يقال إنهم كانوا يفترون

عليه إتباعاً لأغراضهم . ومنهم الشيخ شجاع الدين الياس من الطريقة الخلوتية وكان أمياً تغلب عليه الجذبة . ومنهم الشيخ احمد بن مركز خليفة ، حصل العلم ، ثم مال إلى التصوف ، وانتفع به كثير من الناس . ومنهم نور الدين حمزة الكرمياني كان من طلبة العلم ثم رغب فى التصوف ، واتصل بسنبل سنان ، ثم بمحمد بن بهاء الدين ، وكان مواظبا على آداب الشريعة . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير « بالشيخ الأصغر العريان » وكان منقطعاً عن الناس ، ساكناً بقرب « مغنيسيا » ومنهم محيي الدين المعروف « بامام قلندرخانة » صحب الشيخ حبيباً القرامانى والشيخ ابن الوفاء ، والسيد احمد البخارى ، وكان عالما ولكن انقطع عن الناس ، وكان خطيباً بجامع قلندرخانه . قال الطاش كو برى صاحب الشقائق : سألته عن سنه فقال مائة أو أقل منها بسنتين ، وعاش بعد ذلك مقدار ثمان سنين .

ومنهم مصلح الدين مصطفى من خلفاء السيد احمد البخارى ، كان متوطناً فى القسطنطينية فى زاويته المسماة « بذات الأحجار » منقطعا إلى الله مشتغلا باصلاح أصحابه . ومنهم العارف بالله الشيخ على الكازروانى ، وكان فى أول أمره اتصل بخدمة السيد على بن ميمون المغربى ، وكان له اطلاع على الخواطر وأحوال القلوب . ومنهم احمد بن مصطفى بن خليل الطاش كو برى صاحب كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » ونشأ فى أنقرة ، وكان أبوه من العلماء فاعتنى به ، فقرأ على علاء الدين الملقب باليتيم النحو والصرف ، وقرأ على عمه ، وعلى أبيه ، وعلى خاله وعلى المولى محيي الدين الفنارى ، وعلى المولى محيي الدين القوجوى ، وعلى المولوى محمود ابن قاضى زاده ، وعلى الشيخ محمد التونسى ، وأجازه العلماء الكبار . وتولى التدريس بمدرسة قلندرخانه بالقسطنطينية ، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ثم إلى مدرسة السلطان بايزيد بأدرنة ، واستقضى فى بروسة وتوفى وهو مدرس باحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية وله كتاب اسمه «المعالم فى علم الكلام» وحاشية على «حاشية التجريد » للسيد الشريف ، وله كتاب كبير فى التاريخ جمع فيه ماذكره ابن خلكان وأضاف اليه . وقد جمع كتابه الشقائق النعمانية بعد أن أصابه الضرر فى عينيه ، لأنه

بعدأن تولى القضاء كف نظره ، فصح فيه المثل : إذا جاء القضاء عمى البصر . ومنهم يحيى بن نور الدين الشهير « كوسج الأمين » وتنقل فى المدارس الشهيرة ، ولما بنى السلطان سليمان مدرسته بالقسطنطينية ، وجعلها دار الحديث أعطاه إياها ، ثم بلغ السلطان عنه شيء ، فغضب عليه وعزله ، فأصابه غم شديد لم يعش بعده كثيراً . ومنهم محمود الآيديني المعروف « بخواجه قاينى » وكان من كبار المدرسين ، وتولى القضاء بحلب ، ثم بمكة . ومنهم المولى مصلح الدين وكان مدرساً فى المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء بغداد ، وقضاء حلب ، واستقضى فى أدرنة ، ثم فى القسطنطينية ، وأناف عمره على تسعين سنة . ومنهم مصلح الدين بن شعبان من غاليبولى ، وكان معلماً للامير مصطفى ابن السلطان سليمان ، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورته ، فلما قتل السلطان ابنه عند خروجه من طاعته وقع فى هوة الفقر ، وصبر على نوائب الدهر . ومنهم المولى محيي الدين الشهير « بجرجان » وكان يدرس فى المدارس الشهيرة ، ثم تولى الافتاء ، ثم عزل بكائنة خروج الامير بايزيد بن السلطان سليمان . ومنهم محمد بن محمد الشهير « بعرب زاده » وكان مدرسا فى إحدى المدارس الثمان ، وتولى قضاء مصر وسافر إليها بحراً فى قلب الشتاء فأصابتهم عاصفة فغرق هو وجماعة من رفاقه . ومنهم نعمة الله الشهير « بروشنى زاده » وتنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة ، وحمدت سيرته فى القضاء ، ولكنه كان فى لسانه بذاءة يحذره الناس من أجلها . ومنهم شاه على شلبى بن قاسم بك ، وكان من أصحاب الزهد والصلاح . ومنهم شمس الدين احمد بن أبى السعود وكان مدرساً فى إحدى المدارس الثمان ، ثم فى مدرسة الامير محمد بن السلطان سليمان ، وتوفى وهو مدرس فيها . ومنهم قورد احمد شلبى ابن خير الدين معلم السلطان سليمان ، وكان مدرسا . ومنهم غرس الدين احمد ، نشأ فى حلب ، ثم قصد دمشق وأخذ الطب فيها عن رئيس الاطباء المشهور « بابن المكى » ثم ارتحل إلى مصر وأخذ العلوم العقلية والرياضيات عن الشيخ ابن عبدالغفار ، وأخذ علوم الدين عن القاضى زكريا . ومنهم عبدالباقى بن علاء الدين العربي الحلبى ، وكان من المدرسين المشهورين ، وتقلد القضاء فى حلب ، وفى مكة ، وفى مصر ، وكانت له شهرة عظيمة

إلا أنه كان مقبلا على الدنيا . ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين المعروف « بشيخ زاده » وكان من جلة العلماء ، وأجازه المفتى أبو السعود . ومنهم محمد بن المفتى أبي السعود ، وكان مدرسا وتقلد القضاء فى دمشق . ومنهم المولى صالح بن جلال وكان السلطان سليمان أمره بترجمة بعض الكتب الفارسية فأتمها فى قليل من الزمن ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء مصر ، ومنهم محيي الدين الشهير « بابن الامام » وتولى قضاء حلب . ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن عبد الله ، وكان يدرس بمدرسة سليمان باشا فى إزنيق ، وله تآليف من جملتها رد على ابن كمال باشا . ومنهم دده خليفة وتولى التدريس ثم الافتاء ، وله تآليف منها حاشية على «شرح التفتازانى فى الصرف» .

السلطان سليم الثانى

هذا وتولى بعد السلطان سليمان الكبير ولده السلطان سليم الثانى ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وكانت وفاة السلطان سليمان رحمه الله فى اليوم الثانى والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وجاؤا بجنازته إلى القسطنطينية ، وكان يوماً عظيما ، وبقى خبر موته مكتوماً خمسين يوماً ، وجاء فى تاريخ سلطنة سليم الثاني : سليم تولى الملك بعد سليمان .

ولما جاء سليم بجنازة أبيه إلى القسطنطينية لم يوزع على الانكشارية العطايا التى اعتاد السلاطين توزيعها عند جلوسهم على عرش السلطنة ، فحصلت ثورة صارت تتفاقم ، وعجز الوزراء عن قمعها ، وخاف السلطان على نفسه فاضطر إلى إجابة طلب العساكر ، وأنفق جميع ما فى الخزانة حتى أسكتهم . وكان سليم الثانى أول سلطان انحرف عن الجادة التى كان يسير عليها آل عثمان ، فانهم كانوا بأجمعهم أبطالا يباشرون القتال بأنفسهم ، ولا يعرفون للراحة معنى ، ولم يكن لهم غرام إلا بالفتوحات وتأييد الاسلام ، وتحصين ثغور المملكة ، وقهر عداها . وكانت همم جميعهم سامية لا يعرف منهم نِكْس ولا وَكَلَ ، فما بدأ دور التراخى في آل عثمان إلا فى زمن سليم الثانى . وكان محباً للدعة والراحة ، ملازماً للحرم مدمناً لشرب الخمر ، مسترسلا إلى الشهوات

وفى أيامه ارتفع التحريج عن الخمرة ، فكاد يعم شربها . وإنما روى صاحب الدر المنظوم أنه قبل موته تاب وكسر أدوات اللهو وأوانى الشراب ، وكان قد ألقى السلطان سليم بمقاليد الأمر إلى وزيره الصوقلى ، ولولا الصوقلى لسقطت هيبة السلطنة . ولم يمت سليمان القانونى حتى انعقدت فى ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ معاهدة بين الدولة العثمانية والمجر على أن كل فريق يحفظ ما بيده ، وأن النمسا تؤدى للدولة ثلاثين ألف دوكة سنويا ، وتعترف بسيادة الباب العالى على البغدان ، والفلاخ ، وترانسلفانيا . ولم تحصل النمسا على هذا الصلح إلا بعد أن رشت رجال الباب العالى بأربعين ألف دوكة .

وكان الصوقلى يريد أن يرسل عساكر تستولى على بلاد الفولغا فى شمالى الروسيا حتى يقطع ما بين الروس وبين آسيا ، فسرح جيشا إلى استراخان ولكن لم توفق تلك الغزاة برغم جميع ما بذله الصوقلى من العناية ، ولم يساعده خان القريم « دولة غرائى » كما كان ينتظر . وفكر الصوقلى فى فتح « ترعة السويس » لتتمكن الدولة العثمانية من البحر الأحمر والبحر الهندى ، ولكنه لم يتمكن من إجراء فكرته هذه بسبب توالى الحروب . وفى زمن السلطان سليم الأول كانت الحجاز واليمن دخلتا فى طاعة الدولة ، ولكن الزيدية لم يلبثوا أن ثاروا على العثمانيين بقيادة الامام مطهر وبعد أن دخل الأتراك إلى صنعاء أخرجوهم منها ومن سائر المدن ، ولم يبق ترك إلا فى زبيد . فأرسلت الدولة سنان باشا الأرناؤوطى فتغلب على الزيدية واعترف الامام مطهر بسيادة السلطان . وفى زمن سليم الثانى افتتحت الدولة « جزيرة قبرص » ويقال إن الذى رغّب السلطان فى فتحها رجل يهودى برتغالى اسمه « يوسف ناسى » مدح له خمر قبرص ، فجرد عليها أسطولا وفتحها ، وقيل إنه وعد هذا البرتغالى بتوليته قبرص ، ولكنه بعد الفتح استحيى من انجاز ذلك الوعد المدنى الذى حمله عليه الشرب ولكنه أعطى البرتغالى لقب «دوك ناكسوس» وكان الوزير الصوقلى غير مرتاح إلى فتح قبرص يفضل على ذلك إنجاد مسلمى الأندلس الذين كانوا يثورون المرة بعد الأخرى على الاسبانيول ، ويستنجدون آل عثمان . ولكن « لالا مصطفى باشا »

والوزير « بيالى » وقبطان البحر أرادوا السلطان على فتح قبرص . فساقت الدولة مائة ألف مقاتل إلى تلك الجزيرة ، ونزلت العساكر فى ١ آب سنة ١٥٧٠ . وحاصر العثمانيون « نيكوزيا » وأخذوها عنوة ، ويقال إنهم قتلوا عشرين ألفا من الأهالى واستولى الاتراك على « ليماسول » و « لارناكا » وامتنعت « فاماغوسته » وردّت هجمات الأتراك ، لكنها لم تقدر على المقاومة الى الآخر ، واستولى الترك عليها ، وقتلوا قائدها « براغادينو » الذى أبدى تلك المقاومة الشديدة . ولما وصل خبر قبرص الى أوربة اتفقت البندقية ، والبابا ، ودولة اسبانيا ، وفرسان مالطة ، وجهزوا أسطولا كبيراً منه سبعون سفينة اسبانيولية ، وتسع سفن لفرسان مالطة ، واثنتا عشرة سفينة للبابا ، ومائة وأربعون سفينة للبندقية ، فتلاقى هذا الاسطول بالاسطول العثمانى فى ٧ اكتوبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول العثمانى ثلاثمائة سفينة ، واشتبك القتال بازاء جزائر « كورزولارى » على سواحل بلاد الارناؤوط .

و وقعت سفينة قبطان البحر العثمانى بين سفينتى الأميرال الاسبانيولى ، والاميرال البندقي ، فجاءت أربع سفن عثمانية لأجل تخليص أمير البحر العثمانى ، وفى أثناء المعمعة أصابته رصاصة فسقط ، وهجم الاسبانيول وقطعوا رأسه ، ودارت بعد ذلك الدائرة على العثمانيين ، فأخذ الأسطول المسيحى منهم مائة وثلاثين سفينة غصباً ، وأحرقوا أربعاً وتسعين ، وغنموا ثلاثمائة مدفع ، وأسروا ثلاثين ألف مقاتل ، وأنقذوا خمسة عشر ألف أسير مسيحى . ولم ينج من الأسطول الاسلامى الا أربعون سفينة لأمير الجزائر . وكانت خسائر أسطول النصرانية لا تزيد على خمس عشرة سفينة ، وثمانية آلاف مقاتل . وبعد هذه المعركة المشهورة بمعركة « ليبانت » لم تقم للبحرية الاسلامية قائمة تحمد فى البحر المتوسط .

ولهذه المعركة قرعت طبول البشائر فى جميع العالم المسيحى ، ولا يزال أهل ايطاليا يحتفلون كل سنة بتذكار هذه الموقعة . ولما بلغ الخبر السلطان امتنع ثلاثة أيام عن الطعام ، وطرح نفسه على الأرض يستغيث بالله أن يرأف بالاسلام ، لأن القوة البحرية التى كان أسسها سليم الأول وسليمان القانونى استولى عليها البوار بهذه الكائنة

ولكن الصوقلى بمهارته لم يلبث أن شرع بتجديد الاسطول العثمانى بسرعة خارقة للعادة ، وعضده فى ذلك أمير الجزائر « أولوج على » وتوجهت عليه أمارة البحر . فبنى العثمانيون مائة وخمسين سفينة حربية ، وكان القرار هو أن يبنوا مائة وخمسين سفينة ثانية ، فقال قبطان البحر : إنه يصعب على الدولة استحضار كل لوازم هذه السفن ، فأجابه الصوقلى الصدر الأعظم : بأن السلطنة بمنابع ثروتها تقدر أن تجعل جميع الأسلحة من الفضة ، وجميع الاشرعة من الاطلس . وهكذا خرج الاسطول العثمانى فى سنة ١٥٧٢ بمائتين وخمسين بارجة حربية ، فعادت البندقية تحسب للعاقبة حساباً . وفى ٧ مارس سنة ١٥٧٣ ارتضت بالصلح مع الباب العالى ، وتخلت عن جزيرة قبرص ، ودفعت ثلاثمائة الف دوكة تعويضات . ثم طرد العثمانيون الاسبانيول من تونس واستولوا على هذه البلدة ، وامتنع الاسبانيول بحلق الواد الا أن « الدون جوان دوتريش » جاء باسطول الى تونس وردّ مولاى حسن الحفصى الى الملك ، ولم يطل هذا الامر اذ بعد سنة ونصف جاء سنان باشا ومعه أربعون الف مقاتل ، فطرد الحفصى والاسبانيول معاً ، واستولى على قلعة حلق الواد التى كان امتنع الاسبانيول بها.

ثم عصت بلاد البغدان ؛ فارسلت الدولة جيشاً خلع أميرها ، ونصب مكانه رجلاً اسمه « ايڤونيا » وفر أمير البغدان السابق الى الروسيا حيث قتله « ايڤان » ملك الروس . ثم إن ايڤونيا نفسه عصى على الدولة ، وظاهره القوزاق ، واستولى على « برايلا » و « بندر » و « اكرمن » فزحفت اليه الجنود العثمانية فهزمته ووقع فى الاسر واستؤصل القوزاق باجمعهم . ومات السلطان سليم فى ١٢ دسمبر ١٥٧٤ . ومع ما كان عليه هذا السلطان من القصور فقد كانت وفاته مصيبة على الدولة لأنه بعد وفاته سقط الصدر الاعظم الصوقلى وكان رجلا من دهاة الرجال ، وكان نادر المثال .

وجاء فى « شذرات الذهب » نقلا عن الاعلام أن السلطان سليم الثانى ولد سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، وجلس على تخت السلطنة يوم الاثنين لتسع من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، ومدة سلطنته تسع سنوات . وسنه حين تسلطن

ست وأربعون سنة ، وعمره كله ثلاث وخمسون سنة ، وكان سلطانا كريما ، رؤوفا بالرعية ، رحيما ، عفواً عن الجرائم حليما ، محباً للعلماء والصلحاء ، محسناً إلى المشايخ والفقراء ، طالما طافت بكفيه الآمال واعتمرت، وصدع بأوامره الليالى والايام فأتمرت كم أظهرت لسواد الكفرة يد صارمه البيضاء آية للناظرين ، وكم جهز جيوشا للجهاد فى سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين .

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرص بسيف الجهاد ، ومنها فتح تونس المغرب وحلق الواد ، ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة . ومن خيراته تضعيف صدقة الحب على أهل الحرمين ، والامر ببناء المسجد الحرام . وتولى بعده ولده السلطان مراد ، وتاريخ جلوسه :

بالبخت فوق التخت أصبح جالساً ملك به رحم الاله عباده
وبه سرير الملك سر فأرخوا حاز الزمان من السرور مراده

اه . وهو من نظم الشاعر « ماميه » الرومى .

وفى زمان السلطان سليم الثانى نبغ من العلماء : الشيخ محيى الدين المشتهر « بحكيم شلبى » وكان من الاطباء . وعلاء الدين المنوغادى ، وكان من المدرسين الكبار ، وتولى قضاء بغداد . والمولى شمس الدين احمد بن أخى القرامانى ، وكان أيضا مدرسا ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة . ويعقوب الشهير « بجالق » وكان مدرسا أخيراً باحدى المدارس الثمان ، ثم تولى قضاء بغداد . وتاج الدين ابراهيم ، وقضى حياته فى التدريس ، وكان في المدرسة التى بناها السلطان سليمان فى دمشق . ومحمد ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وأخذ عن أبى السعود المفتى ، وعن كمال باشا زاده ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم صار قاضيا بالعسكر المنصور . ثم اختلف مع الوزير الكبير فاعتزل ، وكان من الاجواد الكبار فوق علمه وفضله . ولما جمع المولى محيى الدين سباهى زاده حواشيه التى علقها على « حاشية التجريد » للسيد الشريف صدّرها باسمه فأعطاه مائة دينار . ويقال إنه حصل له من قضائه بالعسكر سبعون ألف دينار ، أنفقها كلها ومات وعليه أربعة آلاف دينار .

وكانت له مقالات على منوال « مقامات الحريرى » وعلق حواشى على « حاشية الدوانى للتجريد » وله شعر عربى بديع ، ومنهم السيد حسن بن سنان ، خدم المفتى أبا السعود ، ودرس فى المدارس الشهيرة ثم تقلد قضاء حلب ، ثم انتقل إلى مكة وحمد أهل الحجاز قضاءه . ومنهم مصلح الدين داود زاده ، وتنقل فى المدارس حتى صار إلى إحدى المدارس الثمان ، ثم إلى مدرسة سليم خان ، ثم تقلد قضاء المدينة . ولما دخل الحرم الشريف أعتق مماليكه ومات بالمدينة ودفن بالبقيع .

ومنهم المولى محمود معلم الوزير الكبير محمد باشا ، وتنقل فى المدارس ، ثم تولى قضاء القاهرة ، وحمد الناس قضاءه . ومنهم مصلح الدين الشهير «بمعلم السلطان جهانكير» ابن السلطان سليمان ، وكان من العلماء العاملين . ومنهم محيى الدين الشهير « بابن النجار » نشأ فى اسكوب من الروملى ، وتولى التدريس مدة طويلة ثم تولى قضاء بغداد ، وكان فاضلا أديبا ، وله نظم بالتركى والعربى . ومنهم عبد الرحمن المعروف « بالدارزاده » كان مدرسا فى ديموطقة ، ثم في القسطنطينية ، وتولى قضاء المدينة المنورة ، وقضاء حلب . ومنهم مصلح الدين بستان ، وكان مدرساً فى احدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء بروسة، ثم قضاء أدرنة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر المنصور . وكان من فحول العلماء ، وله تآليف قيمة . ومنهم مصلح الدين الشهير « كوجك بستان » وكان من كبار المدرسين . وأفتى فى بلاد مغنيسيا .

ومنهم المولى عبد الله الشهير « بغزالى زاده » وهو من ذرية الامام الغزالى ، وكان منسوبا إلى الوزير الكبير رستم باشا وولاه القضاء فى قصبة أبى أيوب الانصارى مع قصبة غلطة ، فلما عزل رستم باشا عزل هو أيضا معه ، وكان محمود الطريقة . ومنهم المولى جعفر ابن عم المفتى أبى السعود ، كان مدرسا ثم تولى قضاء دمشق ، ثم قضاء العسكر فى الأناضول ، وكان عالما عابداً . ومنهم شاه محمد بن حزم ، وهو من ذرية جلال الدين صاحب « المثنوى » وكان من أكابر المدرسين ، وتقلد قضاء القاهرة ، ثم قضاء القسطنطينية ، وكان من فحول العلماء إلا أنه كان معجباً مستبداً صعب المقادة ، وله حواش على كتاب «الاصلاح والايضاح» لكمال باشا زاده ، وحاشية

على «حاشية التجريد» للسيد الشريف . ومنهم احمد بن عبد الله المشتهر « بالغورى » ودرس بمدرسة السلطان بايزيد فى دمشق ، وكان عالما أديبا له رسالة « فى علم الخط » ومنهم المولى يحيى بن عمر من آماسية ، وكان من المدرسين العظام ، وبلغ السلطان عنه شيء فعزله عن التدريس ، فانقطع عن الوزراء واتخذ مسكناً فى بشكطاش من القسطنطينية ، وبنى أيضاً مدارس ومسجداً ، وكان يطعم الفقراء ، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية ، ولما مات صلى عليه المفتى أبو السعود ، وكانت له جنازة عظيمة . ومنهم احمد بن محمد بن حسن الصامسونى ، وقضى حياته فى التدريس ، وتولى مرة قضاء حلب ، وحمده الناس فى قضائه . ومنهم المولى عطاء الله معلم السلطان سليم الثانى وكان يعلمه عند ما كان أميراً على مغنيسيا ، فلما جلس على كرسى السلطنة حظى عنده وصار يشاوره ، وصار يقدم رجاله وربما قدم غير المستحق على المستحق ، فخاض الناس فى عرضه ونسبوه إلى التعصب ، ولما مات كانت له جنازة حافلة ، وصلى عليه المفتى أبو السعود ، ونزل السلطان إلى الباب العالى بنفسه . ومنهم الشيخ رمضان وكان خطيباً فى جامع احمد باشا فى « چورلو » وتوفى هناك ، وكانت له تآليف وحواش . ومنهم پير احمد المشهور « بليث زاده » كان أبوه قاضياً فى مصر وقضى حياته فى التدريس . ومنهم المولى سنان وكان أيضا من المدرسين المعروفين ، ومن مزاياه أنه كان يسعى فى مصالح الناس مقصداً لذوى الحوائج . ومنهم علاء الدين على بن محمد المعروف « بحناوى زاده » وكان مدرساً فى إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان سليمان المدرستين اللتين بناهما غربى جامعه الكبير أعطاه إحداهما ، ثم تولى القضاء فى دمشق ، ثم في بروسة ثم في أدرنة ، ثم فى القسطنطينية ، ثم صار قاضى العساكر وكان من فحول العلماء ، وقد جمع الأدب إلى العلم ، وله بدائع النظم ، وله كتب كثيرة . ومنهم الشيخ يعقوب الكرمانى . وكان أبوه من الجند ، ولكنه رغب فى العلم والعبادة . ومنهم محمد بن خضرشاه المعروف « بابن الحاج حسن » ، وكان مدرساً شهيراً . ثم تقلد قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة . ومنهم مصلح الدين اللارى نسبة إلى « اللار » بالراء المهملة . وهى مملكة بين الهند وشيراز ، جاء من

بلاده إلى القسطنطينية ثم خرج إلى ديار بكر وآمد ، ومات هناك . وله تآليف وحواش على الكتب المشهورة ، وأراد معارضة المفتى أبى السعود في قصيدته الميمية فقصر عنه . ومنهم الشيخ أبو سعيد بن الشيخ صنع الله ، أصله من بلاد تبريز وكان من المرشدين ، ومن الأجواد ، وكانت له كلمة نافذة عند الملوك . ومنهم شمس الدين احمد بن مصلح الدين المشتهر « بمعلم زاده » يقال إنه من ذرية ابراهيم أدهم رضى الله عنه . وكان مدرسا ثم تولى القضاء ، وما زال يرقى فى القضاء حتى تولى قضاء عسكر الروملي .

قال صاحب « العقد المنظوم ، فى ذكر أفاضل الروم » : إنه كان مجبولا على اللطف والكرم ، غير أن فيه طمعاً زائداً ، وحرصاً وافراً ، سامحه الله أولا وآخراً . ومنهم الشيخ بالى الخلوتى المعروف « بسكران » وتعاطى فى أول أمره التدريس ، ثم تبع الطريقة الصوفية فترك التدريس والافادة ، وعكف على الزهد والعبادة . ومنهم على بن عبد العزيز المشتهر « أم الولد زاده » وكان مدرساً كبيرا ، ولكنه لم يكن له حظ فعانى كثيرا من الفقر ، ونكبات الدهر ، ثم تولى قضاء حلب ، ولم يكد يتولاه حتى مات . وعارض المفتى أبا السعود فى قصيدته الميمية لأنه كان ضارباً بسهم فى الأدب ؛ متمكناً من لغة العرب . ومنهم الشيخ محيى الدين بركيلو ، وكان عالما عادلا قوالا بالحق لا يهاب الحكام والامراء ، وربما و بخهم فى وجوههم . ومنهم محيى الدين فكسارى زاده وكان مدرسا ، وكان فى قول الحق صارماً . ومنهم عبد الكريم بن محمد بن أبى السعود ، وتولى قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر ، وكان من أفذاذ العلماء وتوفى وما بلغ عمره الثلاثين سنة .

وأما أبو السعود افندى المفتى بن مصطفى العمادى الشهير ؛ فانه كان حسنة زمان السلطان سليمان ، وكان منه بمقام القاضى أبى يوسف من هرون الرشيد ، والقاضى الفاضل من صلاح الدين يوسف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى من عبد الرحمن الناصر الأموى ، ولم تطر شهرة أحد من شيوخ الاسلام فى دولة آل عثمان مطار شهرته

ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية ، من

خواص أوقاف الزاوية التي كان السلطان بايزيد خان قد بناها للمولى محيي الدين العمادي والد أبي السعود ، وقرأ المولى أبو السعود على والده ، وعلى الشيخ عبد الرحمن المشتهر « بشيخ زاده » و بدأ أبو السعود افندى بالتدريس يتنقل من مدرسة إلى مدرسة حتى انتهى إلى إحدى المدارس الثمان ، ولما فارقها ودعها بأبيات منها :

دنا النأى عن نجد فأصبحت قائلا وداعاً لمن قد حل هـذى المنازلا
فياحبـذا تيك المعـالم والربى بها كل من تهوى وما كنت آملا
نسيم الصبا عرج عليها ونادِها سقَتك الغوادى وابلا ثم وابلا
نأت عنك دارى لا لِقِلى وسآمـة بلى فعَلَ التقدير ما كان فاعـلا
ولن تبرح الأشواق تزداد فى الحشا إلى أن أرى أمراً من الدهر هائلا

وتقلد قضاء بروسة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر فى الروملى .

قال صاحب الدر المنظوم : «ولما انتقل المولى سعد بن عيسى بن أمير خان إلى رحمة ربه ؛ اضطرب أمر الفتوى ، وانتقل من يد إلى يد ، ولم يثبت سقف بيته على عمد حتى تسلم أبو السعود افندى زمام الافتاء وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسمائة ، وبقى فى عهدته نحواً من ثلاثين سنة ، وكتب الجواب مراراً فى يوم واحد . ثم قال صاحب الدر المنظوم : «وسارت أجوبته فى جميع العلوم مسير النجوم» وكانت وفاة أبي السعود فى أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسمائة ، وصلى عليه المولى سنان مُحَشِّى «تفسير البيضاوى» ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصارى . ثم قال صاحب الدر المنظوم : « إنه تفرد فى ميدان فضله فلم يجاره أحد ، وضاقت عن إحاطته صدور الحصر والحدّ ماصارع أحداً إلا صرعه ، وما صمم شيئاً إلا قطعه ، وانقطع عن القرين . ولم يبق من يعارضه ويكايده ، وقد وصل تلاميذه وأصحابه إلى المناصب السميّة ، والمراتب السنية ، فكان لا يضيع منه كلام ، ولا يفوت له مرام . وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى ؛ عن التفرغ للتصنيف ، سوى أنه اختلس فرصاً وصرفها إلى التفسير الشريف ، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأذهان ، ولم تقرع به الآذان وسماه « بارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » ولما وصل منه إلى آخر

سورة ص ورد التقاضى من طرف السلطان سليمان خان ، وظهر كال الرغبة والانتظار فلم يمكن التوقف والفرار ، فبيّض الموجود وأرسله بصهره المولى محمد المشتهر «بابن المعلول» فقابله السلطان بحسن القبول ، وأنعم عليه بما أنعم ، وزاد فى وظيفته كل يوم خمسمائة درهم . وبعد ذلك تيسر له الختام ، ورتبه بالكمال والتمام ، وأرسله إلى السلطان ثانياً بعد إتمامه ، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه ، وزاد فى وظيفته مائة أخرى .

وكان يمنعه عن الاكثار من التأليف تواتر الفتوى من الآفاق . ومن شمائله أنه كان ذا مهابة عظيمة قلما يقع فى مجالسه أخذ ورد ، ولكنه كان كثير المداراة للناس مائلا إلى مداهنة رجال الحكومة ، وكان طويل القد ، خفيف العارضين ، غير متكلف فى اللباس والطعام . انتهى بتصرف . وله من النظم القصيدة الميمية المشهورة

أبعد سليمى مطلب ومرام وغير هواها لوعة وغرام
وفوق حماها ملجأ ومثابة ودون ذراها موقف ومقام
وهيهات أن يثنى إلى غير بابها عنان المطايا أو يشدّ حزام
هي الغاية القصوى فان فات نيلها فكل منى الدنيا علىّ حرام
سلا النفس عنها واطمأنت بنأيها سلوّ رضيع قد عراه فطام

وهى تسعون بيتاً شرحها كثير من العلماء . وله مشيراً إلى تعلق الانسان بالعالم الجسمانى قصيدة مطلعها :

طال الثواء بدارة الهجران مثوى الكروب قرارة الاشجان

ومنها :

حتى مَ ترتع فى مراتع غفلة وإلى مَ تسلك مسلك الخسران
فكأن قلبك فى جناحى طائر بادى التقلب دائم الخفقان
مازلت تبغى مطلباً عن مطلب وتحل فى مغنى عقيب مغانى
أو ما كفى ما قد بلغت من المنى قد كان ما فى حيز الامكان
ألقى الزمان إليك حبل قياده مع مابه من شدة وحران

لو أنت تملك كل ما قد رمته فاعلم بأن جميع ذلك فانى
سر فى فضاء العالم العلوى كم هـذا الجثوم بعالم الجثمان
قد آن من شمس الحياة طلوعها من حضرة الأشباح والأبدان

وجاءه كتاب من شريف مكة ، فأجابه بجواب فيه مايأتى :

وخريدة برزت لنا من خدرها كالبدر يبدو من خلال غمام
عربية فتنكرت وازّينت بملابس الأعجام والأروام
طوبى لمن رزق الوقوف ببابها فهو المرام وأىّ أىّ مرام
باب إليه تشوقى وتوجهي حَرَم عليه تحيتى وسلامى
ياليت شعرى هل أفوز بزورة يوماً وقد ضربت هناك خيامى

السلطان مراد الثالث

وتولى بعد سليم الثانى ابنه مراد الثالث ، وكان محباً للعلم والادب ، إلا أنهاستولى عليه شهوتان ؛ إحداها حب المال ، والثانية حب الجمال . وأفرط فى معاشرة النساء الى الحد الذى أضرّ بعقله ، ولكنه أصدر أمراً قاطعاً بمنع الخمر . فثار به الانكشارية والسباهية ، حتى اضطروه الى الغاء هذا الامر ، فانعكس المثل ، وصار : اليوم أمر وغداً خمر . وفى زمانه خرقت النمسا الصلح ، فسارت العساكر العثمانية وهزموا جنودها وقتل « هربرت بارون اوسبرغ » فى المعركة وأرسل رأسه الى القسطنطينية . فطلبت النمسا الصلح ، ولكن العثمانيين لم يزالوا يشنون الغارات على استيريا ، وكارنيتا فاضطر النمسويون الى القتال . وفى ذلك الزمان صار « اتيان باتورى » ملكا على بولونيا ، فاتفق مع البابا ومع امبرطور المانيا على حرب صليبية يصلونها الاتراك، وبدأت المذاكرة فى كيفية تقسيم السلطنة العثمانية . وقد سبق لنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » أن الممالك الاوربية فى مدة ستمائة سنة قررت تقسيم السلطنة العثمانية و بلاد الاسلام مائة مرة ، ذكرنا كل واحدة منها ، وكيفية المذاكرات التى جرت بها فمن شاء فليراجع ذلك هناك .

وقد كانت عزيمة إتيان باتورى هذا من أهم هذه العزائم النصرانية بحق دولة آل عثمان . وكان يريد أيضاً استئصال إمارة موسكو ، ولكنه مات قبل أن يضع عزيمته هذه موضع الاجراء . وفى مدة مراد الثالث ضعفت قوة الصدر الاعظم الصوقلى ، وتغلب عليه رقباؤه ، وتمكنوا من عزل حواشيه والمنسوبين اليه ، وما زالوا يقصون من أجنحته الى أن أرسلوا من قتله سنة ١٥٧٩ ففقدت الدولة بفقده رأسها المفكر ، وعقلها المدبّر .

وكان شاه العجم طهماسب قد مات مسموماً ، وخلفه ابنه حيدر فقتل فى يوم مبايعته ، وتولى أخوه اسماعيل فاستقر فى الملك ثمانية عشر شهراً ، فانتهز العثمانيون الفرصة وشنوا الغارة على أطراف العجم ، واستولوا على بلاد كرجستان كلها ، وقسموها الى أربع ولايات ؛ فتولى أزدمير عثمان باشا ولاية شيروان ، وتولى محمد باشا تفليس وحيدر باشا صخوم ، وتولى ابن اللاوند على كرجستان الاصلية . فأرسلت سلطنة العجم أربعة جحافل لاسترداد بلاد كرجستان ، فوقعت المعارك بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بينهما . الا أن أزدمير عثمان باشا فى الداغستان كان دائماً مظفراً . فأتم فتح داغستان وكرّ على الروس .

ولما كان خان القريم تخلف عن مساعدة الدولة أراد أن يقاتله ، فزحف محمد غرائى خان القريم بأربعين الف فارس ، وكاد يوقع بأزدمير عثمان باشا ، الا أن إسلام غرائى اخا محمد تولى القريم من قبل السلطان ، فزحف على اخيه فتفرق عن محمد غرائى جميع جنده وقتل . فلما رجع أزدمير عثمان باشا الى القسطنطينية ، دخل بأبهة عظيمة لم تحصل لقائد قبله ، وتولى الوزارة العظمى مع قيادة الجيش الزاحف لحرب العجم . ثم إنه سار بمائة وستين الف مقاتل الى تبريز ، وهزم العجم ، ودخل تلك البلدة ، ولكن ساءت صحته فتعطلت الحركات العسكرية ، وظفر حمزة مرزا قائد العجم بالعثمانيين . وفى أثناء ذلك مات عثمان باشا ، وتقهقر الجيش العثمانى ، ورجع العجم فحصروا تبريز وحملوا عليها خمسة عشر حملة ، وأصلوها ثمانية وأربعين معركة ولكنهم لم يقدروا عليها ، وأرسلت الدولة فرهاد باشا لنجدتها . وفى هيعة ذلك اغتيل

القائد حمزة مرزا ، وظفر فرهاد باشا ظفراً عظيما بالايرانيين ، فاضطر الشاه عباس الى طلب الصلح ، فانعقدت المعاهدة على أن تبقى كرجستان ، وشيروان ، ولورستان وتبريز ، وقسم من أذربيجان للدولة العثمانية . وفى زمن مراد الثالث اضطربت المملكة بكثرة الفتن ، وظهرت علامات اختلال الادارة ، فثار الانكشارية فى استانبول لأنهم أرادوا أن يؤدوا اليهم رواتبهم بعاملة ورق رقيق لم يرتضوا بها ، فهجموا على قصر السلطان .

وفى مصر ثار الجند على أويس باشا الوالى ، وفى تبريز خرج الجند أيضاً عن الطاعة فذبح منهم جعفر باشا ألفاً وثمانمائة ، وفى بود عاصمة المجر انتقض الجند بسبب تأخر أرزاقهم وقتلوا الوالى . وما زال الجند ــ لا سيما الانكشارية ــ يزدادون تمرداً حتى قررسنان باشا الصدر الأعظم الدخول فى حرب مع دولة أجنبية ليشغل الانكشارية عن العصيان ، فسرح جيشاً تحت قيادة حسن باشا والى بوسنة يهاجم النمسا ، فانهزم حسن باشا وزحف سنان باشا بنفسه ففتح « ڤيسيريم » و« بالوته » إلا أن قائد بود انهزم واستولت النمسا على تسع قلاع ، ثم ثارت « ترانسيلڤانيا » و« الفلاخ » و« البغدان » واتحدت هذه الامارات الثلاث مع النمسا وقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين فيها ، ولم تكن أحوال السلطنة العثمانية فى زمن هذا السلطان على ما يرام بل اضطرب الحبل ، ومات السلطان فى ٦ يناير سنة ١٥٩٦ .

ونبغ فى زمن هذا السلطان من العلماء : الطبيب الياس القرامانى ، وكان فى الأصل طبيباً ثم تبحر فى العلوم العقلية والنقلية ، ولكنه بقى يتعاطى الطب . وكان فرهاد باشا من وزراء السلطان مراد الثالث مبتلى بحبس البول ، فأشار عليه الطبيب الياس بتناول معجون تناوله ، فمات بعد ذلك بالزحير ، فاتهم الطبيب بأنه تعمد قتل فرهاد بإشارة من الوزير محمد باشا الذى كان رقيبه ، فدخلت زوجة فرهاد باشا على السلطان وطلبت قتل الطبيب ، فأخذ وحبس وأمر السلطان بالتحقيق ، فلم يثبت شىء على الطبيب وشفع به المفتى والعلماء ، فأخرج من الحبس ، فجاء خدام فرهادباشا وقتلوه . ولما وقف السلطان على ذلك غضب غضباً شديداً ، وقبض على ستين شخصاً

من جماعة فرهاد باشا ، وصلب منهم عشرة ، ونفى الباقين . ومنهم مصلح الدين بن علاء الدين المشتهر « بجراح زاده » ولد فى أدرنة وقرأ على المولى لطف الله بن المولى شجاع ، ثم تبع طريق الصوفية ، وصار من الأولياء ، ومات بأدرنة ، وتنسب إليه الكرامات الكثيرة . ومنهم عبد الرحمن بن على الأماسى ، كان من المدرسين ثم استقضى فى بروسة ثم فى أدرنة ، ثم فى العسكر المنصور ، ثم فى مكة المكرمة . وكان ذا خطوة عند السلطان سليم الثانى ، و بقى إلى زمن السلطان مراد الثالث . ولكن صاحب الدر المنظوم نبزه بمداهنة الوزراء وانهماكه بالرئاسة ، وليس ذلك مستحسناً فى العلماء . ومنهم الشيخ محرم بن محمد من قسطمونى ، وكان من المتصوفة . ولما أتم السلطان سليمان جامعه الشهير نصب له به كرسى ، فكان يدرس تارة و يعظ أخرى ومنهم المولى شمس الدين أحمد ، وكان من العلماء وأصحاب الأخلاق . ومنهم محمد بن أحمد المشتهر « بزَن » كان أبوه من ندماء السلطان سليم الأول ، وطاب العلم وانتهى بأن صار من المدرسين ، يتنقل من مدرسة إلى أخرى ، ودرس فى مدرسة السلطان سليمان بجزيرة « رودس » ، وكان أطاس بحيث إذا عرى عن زى الرجال يشتبه أمره على النظر ، و يكون مصداق ما قال الشاعر :

وما أدرى وسوف أخال أدرى … أقوم آل حصن أم نساء ؟ !

يحكى أنه كان مع السلطان مراد الثالث ببلدة مغنيسيا ، وكان قد ظهر الجراد وأكل الزروع كلها ، فقال السلطان : كأنما الجراد لعب بلحية المفتى أيضاً . ومنهم أحمد بن حسن الصامسونى ، وكان من المدرسين ، ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، ثم قضاء مكة ، وحمدت سيرته . ومنهم محمد بن عبد العزيز المشتهر « بعيد زاده » من مرعش ، لازم المولى خير الدين معلم السلطان سليمان ، وصار يتنقل فى المدارس ، ودرس فى مدرسة السلطان سليمان فى دمشق ، ثم تولى قضاء بيت المقدس وكان عالماً أديباً ، وله نظم يمدح به أهل بروسة و يقول فيهم :

رأيناهم أشد الناس حبًّا … لأهل العلم رأساً أو مسوساً

فلو كانت البلاد بنى أبينا … لكانت هذه فيهم عروساً

ومنهم المولى محمود المشتهر « بالكاتب » ولد فى سلانيك ، وكان من المدرسين المعروفين ، وتولى قضاء بغداد ، ثم قضاء آمِد . ومنهم المولى زين العباد من أولاد الشيخ ابراهيم التنورى القيصرى ، ولد فى قيصريه ، وطلب العلم ، واتصل بكبار العلماء ، وأخذ عنهم ، وصار من المدرسين ودرّس فى دمشق بمدرسة السلطان سليمان . ومنهم رمضان المشتهر « بناظر زاده » وكان من المدرسين المعروفين ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، وكان عالماً عاملا حسن الصورة والسيرة ، احترز من التأليف خوفا من الخطأ . ومنهم المولى حسن ولازم المفتى أبا السعود ، ودرس باحدى المدارس الثمان ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء مكة ، ثم قضاء القسطنطينية . ومنهم المولى حامد من قونية . وكان من المدرسين ، وتقلد قضاء دمشق ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء بروسة . وتولى قضاء العسكر فى الروملى ، وكان من الفقهاء المشهورين وكان عظيم النفس مهيباً فى أعين الناس . ومنهم المولى محمد بن عبد اللطيف المشتهر « ببخارى زاده » تولى القضاء بطرابلس الشام . ومنهم المولى يوسف المشتهر « بسنان » قرأ على محيي الدين الفنارى ، وعلى علاء الدين الجمالى ، ودرس بدار الحديث فى أدرنة وتقلد قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، وانتهى أمره بأن صار من قضاة العسا كر ومات عن تسعين سنة . وكان شيخاً جميل الصورة والسيرة على أخلاق كريمة كثيرة وكتب حواشى على تفسير البيضاوى . ومنهم احمد بن محمد المشتهر « بنشانجى زاده » وكان مدرساً وتقلد قضاء مكة ، وقضاء مصر . ومنهم المولى محمد المعروف « همشيره زاده » وكان من المدرسين .

قال صاحب الدر المنظوم : إنه كان محباً للصلحاء ، متردداً إلى مجالسهم اللطيفة مستمدا من أنفاسهم الشريفة ، غير أنه كان كثير الاقتحام في مصالح الفئام ، باذلا عرضه الخطير فى الأمر الحقير . ومنهم محمد بن المولى سنان ، كان مدرسا بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة خانقاه ، ثم بالمدرسة الخاصكية ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى المدارس السليمانية ، وكان معروفا بحدة الذهن ، وفرط الذكاء ، وقوة البحث ، وله حواش على الشرح « الشريفى للمفتاح » . ومنهم المولى احمد المعروف « بالكاملي »

كان مدرساً بمدرسة مصطفى باشا باستانبول ، ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد بجوار أبي أيوب ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى مدارس السلطان سليمان . ولما فتح السلطان سليم الثاني جزيرة قبرص تولى قضاءها ، وتسلم هناك زمام الحكومة ، لكنه عجز عن القيام بأمور قبرص ، فاستقال من ذلك المنصب وعاد إلى القسطنطينية . قال صاحب الدر المنظوم : إنه كانت له مكاتيب تارة يختار فيها الحروف العارية عن النقط ، وتارة يلتزم في كلمة حرفاً واحداً فقط ، ومن الذي ما ساء قط . ومنهم محمود المشتهر «بمعلم زاده» وكان ملازماً للمفتي أبي السعود ، ودرس بمدرسة مراد باشا ثم بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة رستم باشا في القسطنطينية ، ثم بمدرسة بنت السلطان سليمان باسكدار ثم باحدى المدارس الثمان ، ومات شاباً . ومنهم محمود المشتهر «ببابا شلبي» قرأ على المولى القادري ثم ذهب مذهب الصلاح ، واشتهر بالتقوى فنصب لتعليم بنت السلطان سليمان صاحبة الخيرات الحسان ، فلما تزوجت بالوزير الكبير رستم باشا أكرمه غاية الاكرام وجمع كتباً كثيرة نفيسة . ومنهم شمس الدين احمد بن بدر الدين المشتهر « بقاضي زاده » وكان مدرساً في المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر . وفي زمان السلطان مراد الثالث نال الحظوة التامة ، وتقلد الفتوى بدار السلطنة . قال صاحب الدر المنظوم : « إنه أفحم من عارضه بشقاشقه الهادرة وأرغم من عاناه بحقائقه النادرة ، كثير الاعتناء بدرسه ، دائم الاشتغال في يومه وأمسه ، رفيع القدر ، شديد البأس ، عزيز النفس ، يهابه الناس ثم قال : إنه كان فيه من التهور المفرط والحدة ما زاد على المعتاد . ومنهم احمد المشهور « بمظلوم ملك » وكان معلماً لأبناء السلطان سليم ، فلما جلس على سرير السلطنة السلطان مراد الثالث وقتل إخوته الذين كان هذا الشيخ معلماً لهم — فقد قيل إن السلطان مراد قتل من إخوته خمسة — أصبح هذا الشيخ منكوباً . ثم قلدوه قضاء بيت المقدس ، ثم قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة ، ثم عاد إلى القسطنطينية ، وكانت سيرته مرضية . ومنهم عبد الواسع بن محمد ابن المفتي أبي السعود ، كان من المدرسين المعروفين وكان يكتب الخط النادر الجميل . ومنهم محمد بن نور الله المشتهر « بأخي زاده » أخذ

عن عرب شلبي ، وعن المولى عبد الباقى ، ولازم خير الدين معلم السلطان سليمان ثم درس بمدرسة خير الدين باشا فى بشكطاش وفى غيرها . ثم تقلد القضاء ، وانتهى بأن صار قاضياً للعساكر ، وكان بحراً من بحار العلوم ، أنظر أهل زمانه . ومنهم شمس الدين احمد المعروف « بالعزمى » ولد فى القسطنطينية ، وطلب العلم ودرس بالمدرسة الأفضلية ، ثم بمدرسة سنان باشا ببشكطاش . ومنهم المولى محمد المعروف « بصارو كرداوغلى » كان من ملازمى المفتى أبى السعود ، وتنقل فى المدارس الشهيرة . ومنهم المولى خضر بك بن عبد الكريم القاضى ، وكان من المدرسين ، وتوفى وهو مدرس فى بروسة .

قال صاحب الدر المنظوم : « وكان من الغائصين فى بحار العلوم ، غير أنه لايخلو عن القيل والقال ، مطلق اللسان فى السلف ، ومزدرياً بشأن الخلف ، مع غاية الاعجاب بنفسه ، لطف الله به فى رمسه . »

السلطان محمد الثالث

وتولى بعد مراد الثالث محمد الثالث ، وكانت أمه من البندقيه (يافّه) ولما تولى محمد الثالث كان له تسعة عشر أخاً فقتلهم جميعاً ! ! و برغم هذه الفعلة الغريبة كان حسن العقيدة ، صارماً فى إحقاق الحقوق ، مهتّماً بتنفيذ الشريعة الغراء ! ! وفى زمانه تولى الأمور سنان باشا ، وحسن باشا ، وسيكالا زاده ، وعسفوا الرعية ، وأثقلوا كواهل الاهالى بالضرائب . ولم يقدر السلطان على إصلاح الحال ، وكانت الحرب مستمرة ، وكانت العساكر العثمانية غير موفقة فى بلاد الفلاخ حيث اتفق أمير الفلاخ مع أمير ملداقيا ، وأمير ترانسلفانيا ، والامبراطور ردلف الثانى . فزحف سنان باشا واستولى على بخارست سنة ١٥٩٥ إلا أن ميشيل أمير الفلاخ عاد فهزم العثمانيين وقتل أسرى الأتراك « بالخازوق » وشوى « على باشا » و « كدجى بك » على النار !! وصار الفلاخيون يتقدمون كل يوم الى الأمام ، ولكن الدولة العثمانية لم تكن تستغنى عن بلاد الفلاخ لما كانت تستدره من أخلافها ، وتنعم به من خيراتها . و بينما

هى تفكر فى استرداد بلاد الفلاخ التى هى فى هذا العصر مصاص مملكة رومانيا مات الأمير ميشيل هذا فتخلصت الدولة العثمانية من شره .

وأما النمسا فكانت جيوشها استولت على «غران» و « ويسغراد» و «بابقشه» و « كليس » فهاجت خواطر العثمانيين جداً ، واضطر السلطان أن يخرج بنفسه الى الحرب سائراً على خطة أجداده الأوائل . فوقع المصاف فى سهل « كيرستس » فى ٢٦ اكتوبر ١٥٩٦ ودارت الدائرة على النمسويين والمجر ، وخسروا خمسين الف مقاتل فى تلك الموقعة ، إلا أن العثمانيين لم يحسنوا الاستفادة من هذا الظفر العظيم . وفى سنة ١٥٩٨ رجعت النمسا وهاجمت مدينة « راپ » وعرضت على « ساتورجى باشا » تسليم البلدة فرفض ، ولما وقع فى أيدى النمسويين قطعوه إرباً ! ! والتجأ ثلاثمائة من العثمانيين الى القلعة ، ووضعوا النار فى البارود فانفجر مخزن البارود ، وقتل فيه المحاصرون والمحصورون ، واستولى النمسويون بعد ذلك على «دولا» و «ويسيريم» و « پاپا » وانكسر حافظ أحمد باشا فى « نيقو بوليس » ثم فى « بود » . فزحف الصدر الأعظم ابراهيم باشا وانقذ « بود » واستولى على « كانيشة » سنة ١٦٠٠ واستعمل ابراهيم باشا حسن السياسة مع الصرب والفلاخيين ، فانقادوا الى الطاعة .

وأما حالة السلطنة فى الداخل فقد كانت من أسوأ ما يكون ، فلم تكن تسكن ثورة فى جهة حتى تثور ثورة فى جهة أخرى. وأهمها ثورة « قره يزيدجى عبدالحليم » فى الأناضول ، وكان استولى على « أورفه » ثم اتفق مع أخيه الدلى حسن والى بغداد وادعى السلطنة . ولم تتغلب الدولة عليه إلا بعد جهاد طويل ، وثار والى ديار بكر ، ووالى الشام ، ووالى حلب ، ووالى كوتاهيه ، ووالى بغداد الدلى حسن المذكور ؛ فتغلبت الدولة عليهم بعد عناء لا يوصف . ونقلت والى بغداد الى بوسنه .

ولكن أوجاق السباهية ثار على الحكومة بسبب تأخر أرزاقه ، ولو شاركه أوجاق الانكشارية لقلبوا الحكومة والسلطان معاً ، ولكن الانكشارية حافظوا على الأمانة . وفى أثناء ذلك مات محمد الثالث .

السلطان احمد الأول

وخلفه ابنه احمد الأول وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر ، وكانت السلطنة منهوكة القوى بكثرة الفتن ، وهي تحارب النمسا في أوربا ، والعجم في آسيا ، لأن الشاه اسماعيل كان أعلن الحرب ، واسترجع تبريز ، و وان ، و إيروان ، بينما العصاة في أكثر بلاد الاناضول قد رفعوا رؤوسهم ، وفي ذلك الوقت عصى الأكراد تحت قيادة « جان بولاد » في حلب ، وعصى الدروز الذين تحت قيادة الأمير « فخرالدين المعنى » فاسترضى مراد باشا الصدر الأعظم جماً من رؤساء العصاة ، وأرسلوا جان بولاد والياً على « طمشوار » في البلقان . وأرضوا « قلندر أوغلى » بولاية أنقرة فرفضت أنقرة ، قبول الثائر فعاد الى العصيان . فزحف اليه مراد باشا فهزمه . وأرسل من فتك « بعوصلى شاويش » وهو من رؤساء العصاة ، كما أنه استجلب اليه يوسف باشا والى منتشة ، وآيدين الذى كان عاصياً أيضاً . فلما حصل في يده خنقه . وفر الأمير فخر الدين المعنى إلى البادية ، والخلاصة أن مراد باشا أتى بخوارق العادات من الحزم والدهاء حتى استأصل جراثيم الفتن التي كادت تقضى على كيان السلطنة العثمانية ، فلقبوه بمجدد السلطنة . وما انتهى من قمع الفتن الداخلية حتى وجه همته لمحاربة العجم .

ومن أغرب الأمور أن هذا الشيخ قام بجميع تلك العزائم والعظائم وهو في سن التسعين — أى كان أسنّ من موسى بن نصير يوم فتح الأندلس — ولكن أثر فيه التعب ، وفي ٥ آب ١٦١١ انتقل إلى رحمة باريه . فاستدعى السلطان أحمد للصدارة الوزير نصوح باشا والى ديار بكر ، فعقد الصلح مع العجم ، وأعاد لهم البلاد التي كانت الدولة أخذتها منهم . فأما من جهة النمسا فانه كان وقع بينها و بين المجر خلاف نفع العثمانيين ، و بايع المجر ملكا اسمه « بوسكاى » فدخل تحت حماية السلطان وزحف لالا محمد باشا بجيش استرجع « غران » و « و يسغراد » و « ويسبريم » . فعادت النمسا فصالحت « بوسكاى » ملك المجر ، و بقيت عساكر الدولة وحدها

تحارب النمسا . وكانت الدولة مضطرة إلى الصلح تطفى نيران الفتن المشتعلة فى الأناضول فانعقدت بين الدولة و بين النمسا معاهدة « سيتفاتوروك Sitvotorok » سنة ١٦٠٦ فنزلت الدولة عن الجزية السنوية التى كانت تدفعها لها النمسا وهى ثلاثون ألف دوكة ، واكتفت بقبض مائتى الف ريال غرامة حربية . وأعاد كل من الفريقين الأسرى الذين فى يده ، وبقيت للدولة « غران » و « ايرلو » و « كانيشة » . وبقيت فى يد النمسا « راب » و « كومورنو » وهذه المعاهدة هى أول معاهدة حصلت بها المساواة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، لأنه إلى حد ذلك الوقت كانت الدولة العثمانيـة تعامل الدول الأوربية معاملة الأعلى للأدنى ، وتتقاضى الأوربيين جزًى سنوية ، وإتاوات متنوعة : وبهذه المعاهدة حصلت ترانسلفانيا على نصف استقلال وتخلصت مملكة المجر من دفع الجزية عن القسم الذى لم يكن العثمانيون يحتلونه .

ومن خصائص تلك المعاهدة أن الدول المسيحية أمكنها أن تناقش الدولة العثمانية فى كيفية تحرير الصك ، وقبل ذلك كانت الدولة تملى مثل هذه المعاهدات باللغة التركية ، وتبلغها أعداءها ، وكان عليهم أن لايراجعوا فيها . وبالاختصار كانت هذه المعاهدة أعظم إرهاص بين يدى تقهقر آل عثمان .

هذا وقد رفض أهالى ترانسيلفانيا الدخول فى طاعة النمسا ، فرجع الباب العالى عما تقرر فى المعاهدة ، وزعم أن « بوسكاى » لم يكن له حق بالتصرف بالامارة بدون رضى الأهالى فولى أمراء آخرين من قبله منهم « بيتلنغابور » وكان من أشد أعداء النمسا ، فاعترضت النمسا على ذلك ، فأجاب الصدر الأعظم بأن المتاركة غير شرعية ، لأنه لم يكن وقع عليها مفتى السلطنة . فثارت إمارة « مولداڤيا » وطرد الأهالى « طومزه » الأمير الذى كان من قبل الباب العالى ، إلا أن اسكندر باشا جاء فقمع الثورة ، وأعاد طومزه إلى مكانه . ثم نشبت الحرب فى تلك المدة بين الدولة واسبانيا ، وجاءت سفن فرسان مالطة وصارت تعيث فى سواحل الدولة ، وغنمت أساطيل الطليان عدة سفن حربية عثمانية ، فوجهت الدولة قوتها البحرية إلى البحر المتوسط ، وانتهز القوزاق هذه الفرصة

ونزلوا فى سينوب ونهبوها . فغضب السلطان على الصدر الأعظم نصوح باشا وأمر بخنقه . وفى سنة ١٦٠٤ تجددت العهود التى كانت بين الدولة وفرانسا، وربما زيد فيها وشددت الدولة فى منع الأعمال القرصانية فى البحر المتوسط، وعزلت والى تونس، وخنقت والى الجزائر، ثم تجددت العهود بين الدولة و بولونيا وتعهدت بولونيا بمنع القوزاق من الغارة على مولداڤيا، كما تعهد الباب العالى بمنع التتار من الغارة على بولونيا . وفى سنة ١٦١٢ انعقدت معاهدة تجارية بين هولاندة والباب العالى .

وفى ذلك الوقت ظهر التبغ بواسطة الهولانديين، فأفتى شيخ الاسلام بمنعه بحجة أنه من الخبائث على نحو ما يذهب إليه اليوم الوهابية، وأتباع الطريقة السنوسية أيضاً . ولكن الشعب ثار بالمفتى وقالوا إنه لا يوجد تحريم للدخان فى الكتاب أو السنة، فمن أين للمفتى حق تحريم ما لم يرد على منعه نص؟ فاضطر المفتى إلى إلغاء فتواه . وكان السلطان أحمد الأول قد بلغ رشده وظهرت مناقبه، فكان عادلا كريماً محمود السيرة، معتنياً بأمر المملكة، وكان موصوفا بالتقوى والورع، أهدى نفائس نادرة إلى الحجرة الشريفة النبوية، ولو لم يكن له علة إلا أن رئيس الخصيان فى القصر السلطاني كان فى زمانه صاحب الأمر والنهى!! ولما مات السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٧ كان ابنه عثمان فى سن الثالثة عشرة .

السلطان مصطفى

فرجحت الأمة مبايعة السلطان مصطفى أخى السلطان أحمد، وفى زمن السلطان أحمد هذا أجلى الأسبان بقية مسلمى الأندلس الذين كانوا أكرهوا على التنصر لكنهم لبثوا مسلمين في الباطن، وسبب ذلك أن هؤلاء أرسلوا وفداً إلى السلطان أحمد يستغيثون به، فخاف ملك اسبانيا من الدولة العثمانية فقرر إجلاءهم ودخل منهم ألوف إلى فرانسا، فأرسل السلطان أحمد إلى هنرى الرابع ملك فرانسا يطلب منه ارسالهم إلى بلاده و بلاد الاسلام، ففى الحال اركبوهم السفن إلى بلاد الاسلام .

وفى بداية زمن السلطان مصطفى وقعت حادثة كادت تشعل الحرب بين الباب

العالى وفرانسا ، وذلك أن أميراً من أمراء بولونيا كان معتقلا فى الأبراج السبعة بالقسطنطينية ، ففرمنها بمساعدة أحد كتاب سفارة فرانسا ، فقبضت الدولة على السفير واعتقلته ، ووصمت مأمورى السفارة تحت الاستنطاق ، ولبثوا في الاعتقال أربعة أشهر . فأرسلت فرانسا تهدد بالحرب وتطلب التعويضات ، فلم يصل معتمد فرانسا إلى الأستانة حتى كان العثمانيون خلعوا السلطان مصطفى .

السلطان عثمان الثانى

وبايعوا السلطان عثمان الثانى ابن أخيه ، فكانت مدة مصطفى ثلاثة أشهر فقط . واعتذرت الدولة لفرانسا ، وكتب السلطان والصدر الأعظم ، وقبطان البحر كتاب اعتذار إلى لويس الثالث عشر ، وانتهت المسألة . وفى ذلك الوقت وقع خلاف بين الدولة و بولونيا من أجل مسائل تتعلق بترانسلفانيا ، فأجمع السلطان على غزو بولونيا ، وكان ينوى ذلك حتى يتمكن من منع تجاوز الروسيا التى كان قد بدأ أمرها يستفحل . فزحفت الجيوش العثمانية وقطعت نهر « دينستر » وحملت على الجيش البولوني حملات شديدة لكنها لم تقدر عليه ، فلما رأى العثمانيون عقم هذه الحرب وكان البولونيون فى وجل شديد من الهزيمة ؛ انعقدت معاهدة الصلح فى ١٦ اكتوبر ١٦٢٠

وفى ذلك الوقت حصلت مؤامرة فى فرنسا على الدولة العثمانية يرأسها كارلس الثانى الملقب « بكارلس دوغنزاغ de gauzague » وزعموا أنهم يريدون الاستيلاء على القسطنطينية ، وكان منهم البرنس « دوكليف de Cleves » التى كانت جدته « مرغريت باليولوغ » من سلالة الامبراطور « اندرونيك باليولوغ » فبدأ هؤلاء الأمراء بالسعى لدى امبراطور ألمانيا ، وملك اسبانيا ، حتى يعضداهم فى هذه الحرب الصليبية ، وأرسلوا يوقدون نيران الفتن فى بلاد العرب وكرواسيا ، ودالماسيا ، والبانيا ومكدونيا . وفى ٨ سبتمبر ١٦١٤ حصل اجتماع حضره زعماء من الصرب ، والهرسك والبشناق ، والدالماسيين ، فى أرض القبيلة الألبانية الكاثوليكية المسماة « بكوتجى »

وكان في هذا الاجتماع بطريرك الصرب وكثير من الأساقفة ، وتقرر إدخال أسلحة وأعتدة من البحر إلى أرض الجبل الأسود وتوزيعها على القبائل الألبانية ، وأن تثور هذه القبائل وينضم إليها الصربيون ، وقدروا أن عدد الثوار لن يقل عن اثنين وأربعين ألف مقاتل ، منهم اثنا عشر ألفاً من الفرسان ، وأنهم يدهمون المدن مثل « ڤالونة » و « شقودرة » و « كاستلنوڤو » قبل أن يتنبه الترك للمكيدة .

وبلغ الخبر أمراء مولداڤيا والفلاخ فوعدوا بأنهم بمجرد اشتعال الثورة يعبرون نهر الطونة بجيوشهم وينضمون إلى الثوار المسيحيين ، وكان كارلس الثانى دوغنزاغ قد شرع بتكتيب كتائب من فرانسا ، وفى بناء سفن حربية على نفقة نفسه ! وتبرع البابا بمبلغ مائتى ألف ذهب لهذه الحرب ، وبتقديم ألفى مقاتل فى عشر سفن ! ووعد ملك اسبانيا بستمائة ألف ذهب ، وعشرين سفينة ، ووعد فرسان مالطة بست سفن وتعهد اليونان بالدخول فى هذه الثورة ، واتفق الكاثوليك والارثوذكس من يونانيين وألبانيين ، وصرب ، وبلغار ، وتعاهد الاساقفة على ذلك . وكان الرأى العام فى فرانسا مائلا جداً إلى اصلاء هذه الحرب الصليبية على المسلمين ، ونشر «ساڤارى دو بريڤ» « de Bréves » سفير فرنسا فى تركيا سابقاً ١٦١٩ نشرة فى وجوب محو السلطنة العثمانية ، ودعا القسيسون والأساقفة فى الكنائس ، وأعلنوا الحرب الصليبية سواء فى فرانسا ، أو فى النمسا ، أو فى بولونيا ، أو فى ايطاليا ، إلا أن كل هذا توقف من نفسه وحبط العمل ، ويقال : إن الأسطول الذى كان أعده كارلس دوغنزاغ المسمى «بدوك نيڤير » احترق بسبب لايزال مجهولا ، واضمحلت هذه المسألة من ذلك الوقت .

وقد أشرنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » إلى هذه المؤامرة الصليبية فى جملة المائة مشروع التى ائتمرت بها أوربا على الاسلام في مدة ستمائة سنة ، فمن شاء فليراجع ذلك هناك .

وكان السلطان عثمان قد صمم أن يتخلص من أوجاق الانكشارية ، ويستبدل به جيشاً يكون أطوع للسلطنة منه . فعلم الانكشارية بذلك وثاروا به ، وعينوا

داود باشا صدراً أعظم ، وخلعوا السلطان وساقوه إلى الأبراج السبعة ، وهناك قتلوه في ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢ . وهو أول سلطان قتل في الدولة العثمانية .

السلطان مصطفى ثاني مرة

وتولى مكان السلطان عثمان عمه السلطان مصطفى فما مضى يومان على مبايعته حتى ثار السباهية بداود باشا وطالبوه بدم السلطان عثمان ، فقال لهم : إنه ما قتله إلا بأمر السلطان مصطفى ، فلم ينفعه هذا العذر وأسقطوه من الوزارة ، وصارت الحكومة ألعوبة في أيدي العساكر ، حتى يقال إنهم أسقطوا ستة صدور عظام في مدة الخمسة عشر شهراً التي تولاها مصطفى ، وصارت الأمور في نفس الأستانة أشبه بالفوضى وعصى باشا طرابلس الشام فطرد الانكشارية من بلده ، وعصى باشا ارضروم وزحف إلى أنقرة وسيواس وعذب من سقطوا في يده من الانكشارية ، وانضمت بلدان كثيرة في الاناضول إلى الثوار كرها بالانكشارية ، وأراد العلماء أن يوقفوا الانكشارية عند حدهم فلم يفلحوا ، وأخيراً تولى الصدارة على باشا فرأى أنه لا يستتب النظام بوجود سلطان بلغ هذا الحد من ضعف العزم ، فقرر خلعه ومبايعة مراد أخي السلطان عثمان .

السلطان مراد الرابع

وكان مراد مراهقاً لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة من العمر ، فلذلك بقي السباهية والانكشارية يسرحون ويمرحون كما يشاؤون ، ويعسفون الأهالي باسم السلطان .

واستفادت العجم من هذه الحالة فتجاوزت على ملك آل عثمان ، وزحف الشاه عباس على بغداد وفتحها بعد حصار ثلاثة أشهر ، وعذب أهل السنة ، وشنق نوري افندي قاضي بغداد ، وعمر افندي خطيب الجامع الأعظم . وكان والي بغداد في الاصل ضابطاً من ضباط الشرطة اسمه « بكير آغا » فعصى الوالي وأراد أن يستأثر هو بالولاية واعصوصب حوله جماعة على شاكلته ، فتغلب عليه حافظ باشا وكاد يوقع

به ، فأرسل بكير آغا الى الشاه عباس ليأتى الى بغداد فيسلمه البلد ، فلما جاء الشاه عباس وطلب مفاتيح بغداد وجد بكير آغا قد صالح العثمانيين على شرط أن يكون والياً فالتزم الشاه عباس أن يحصر بغداد ، وأخذ يغاديها القتال و يراوحها ، ولم يتمكن منها إلا بخيانة ابن بكير آغا الذى وعده الشاه عباس بأن يجعله والياً محل أبيه . فلما فتح الشاه عباس بغداد بقى يعذب بكير آغا سبعة أيام ، ثم وضعه فى زورق مطلى بالقطران الملتهب ، وتركه فى دجلة ، ثم قتل ابنه الذى خان أباه !

ولما وصل خبر سقوط بغـداد الى السلطان مراد الرابع ، حاول على باشا الصدر الأعظم إخفاء الخبر عن السلطان ، ولـكن المفتى أسعد افندى أخبره بالحادثة . فصدر أمر السلطان بقتل الصدر ، وعين مكانه « شركس محمد » وسرحه بجيش لقتال أباظة والى أرضروم الذى عصى الحـكومة ، وأخذ يقتل الانكشارية فى كل سهل وجبل . فزحف اليه القائد حافظ باشا وهزمه ، ثم صالحه على أن يبقى والياً على أرضروم ، وفى أثناء ذلك مات الصدر الاعظم محمد باشا ، فتولى مكانه « حافظ باشا » وزحف الى بغداد لطرد العجم منها ، فما زال الانـكشارية يثورون عليه حتى اضطر الى ترك حصار بغداد ، وانـكفأ إلى الموصل ، ثم إلى ديار بكر . وعاد الانـكشارية إلى الثورة ، فعزل السلطان حافظ باشا وولى مكانه خليل باشا ، فزحف هذا ليأخذ أباظة والى أرضروم فلم يقدر عليه ، فعزله السلطان وولى خسرو باشا ، فتمكن هـذا من إخضاع أباظة ولـكنه عوضه من أرضروم بولاية بوسنة .

وبقيت الثورات تتوالى فى وسط السلطنة ، والحالة تسوء ، ولـكن الله فرج عن الدولة العثمانية بموت الشاه عباس أكبر سلاطين الدولة الصفوية . فخلفه ابنه وكان شابا غراً ، فزحف خسرو باشا إلى العراق وهزم جيوش العجم ، لـكنه لم يقدر على فتح بغداد برغم مهاجماته الـكثيرة لها ، ورجع خسرو باشا إلى الموصل ، فردّ السلطان إلى الصدارة حافظ باشا الذى لم يكن عنده مثله فى كفايته .

فلما علم العسكر أن السلطان عزل خسرو باشا ثاروا على السلطان وتقاضوه رأس حافظ باشا ، وكان المحرك للعسكر على هذا العمل هو خسرو باشا نفسه . فأذن السلطان

للعساكر فى الانصراف من العراق أملا بتسكينهم ، فلما وصلوا إلى الأستانة أزدادوا تمرداً وهجموا على القصر ففتح السلطان لهم الأبواب ، واستدعى اثنين من الانكشارية واثنين من السباهية ، وقال لهم قولا ليناً لعلهم يتناهون عن غيهم ، فلبثوا مصرين على أخذ رأس حافظ باشا ، فبذل حافظ باشا نفسه لأجل راحة مولاه ، وخرج إليهم حتى قتلوه طعناً بالخناجر ، ولكن لم يسقط رخيصاً برغم شيخوخته ، ولم يقتل إلا بعد أن قتل منهم عدة . وسكنت ثورة العسكر مؤقتاً ، ولكن السلطان لم ينس عصيانهم لأمره ، وكونهم إنما عملوا بدسائس خسرو باشا ، فأمر بخنقه . فثار العسكر مرة ثانية ونادوا بخلع السلطان مراد . وكان متولى كبر هذه الثورة رجب باشا ، فظهر فى هذه الحادثة أن السلطان الشاب كان بطلا غشمشما ، فانه أمر حالا بقتل رجب باشا والرمى بجثته إلى العسكر ولم يبالى بهم ! ! وطلب السلطان من أحمد آغا قائد السباهية أن يقبض على رؤوس الثورة ، فماطل فى إنفاذ الأمر السلطانى ، فأمر السلطان بقتله مع أربعة من رفاقه وجاء المفتى الأعظم يخوف السلطان من عاقبة استخفافه بغضب العلماء فقتله ، فعلمت السلطنة أن على رأسها رجلا غير الرجال الذين عرفتهم إلى ذلك الوقت منذ مدة طويلة ودخلت الناس فى الطاعة .

وكان الأمير « فخر الدين المعنى » أمير لبنان ثار بالدروز على الدولة ، وعقد معاهدات مع بعض الدول الأوربية ، ولما لم يقدر على مقاومة الدولة جاء إلى فلورانسة من إيطاليا ، ثم بعد أن أقام عدة سنوات فى فلورانسة فى خبر يطول شرحه ، ولا يسعه هذا المختصر ؛ زحف إليه « الكوجك أحمد باشا » بجيش جرار ، و بعد وقائع شديدة دارت الدائرة على الأمير فخر الدين ، وقتل ابنه الأمير على ـ وكانت أم الأمير على أرسلانية ـ فى واقعة حاصبيا ، فالتجأ الأمير فخر الدين إلى مغارة فى جبل الشوف اسمها « شقيف تيرون » و يقال لها اليوم « قلعة نيحا » . وهى كهف عظيم فى بطن جبل أشبه بالحائط لا يمكن الرقي إليه من الأسفل ، ولا النزول إليه من سطح الجبل ، ولا العبور إليه من الجانبين ! ! و إنما يدخلون إليه من أحد الجانبين زحفاً على البطن واحداً وراء واحد ، على صخرة ضيقة مشرفة على الوادى لا يمكن الانسان أن يمر بها واقفا .

وقد دخلت أنا بنفسى زحفاً على هذه الصورة إلى هذا الكهف الذى كان يلجأ إليه العصاة فى كل حين ؛ وكان ممن لجأ اليه الضحاك بن جندل الخارجى فى أيام الحروب الصليبية ، وهذا الكهف يسع نحواً من خمسمائة مقاتل ، وليس فيه ماء نبع ولكن آبار تجرى اليها مياه تحت الأرض بأنابيب من عين يقال لها «عين الحلقوم» كانت فى ذلك الوقت مطمورة ، فلما جاء الكوجك أحمد باشا ورأى استحالة الوصول إلى الكهف ، لأنه لا يؤتى لا من فوق ولا من أسفل ، ولا من عن أيمانه ولا من عن شمائله ، سأل عن مشرب أهل الكهف ؟ فقيل له إن الماء يجرى تحت الأرض ، ولكنه غير معلوم أصله ، ولا مكان جريه . فأتى القائد المذكور بخيل تركها عدة أيام عطاشاً ، فلما أفلتها على سطح الجبل وهى عطاش شمّت رائحة الماء فصارت تضرب بأرجلها على الأماكن التى كان الماء يجرى تحتها ! فعلم الكوجك أن الماء هو هناك ، فأمر بحفر الأرض حيث كانت الخيل تضرب بأرجلها ، فوجد أنابيب الماء ، فلم يقطع الماء لأنه لو قطع الماء والآبار التى فى الكهف ملآى لبقى الأمير فخر الدين قادراً على الامتناع مدة طويلة ، فذبح الكوجك بقراً فى مجرى الماء فجرى دماً إلى الآبار . وفى أحد تلك الأيام قام الأمير فخر الدين صباحاً فقال له جماعته : تعال فانظر الآبار ، فنظر فاذا هى دم ، فأمر الجند الذين معه بأن يخرجوا و يستسلموا للقائد ، وفى جوف الليل دلّى نفسه هو ومدبر أموره « أبو نادر الخازن » ومعهما خادم وذلك من الكهف إلى أسفل ، وهو علو خمسين متراً ، ومن هناك ذهب إلى كهف آخر يشابه « شقيف تيرون » واسمه « مغارة جزين » فأرسل الكوجك أحمد باشا جماعة نقبوا الصخور من تحت الكهف الثانى وما زالوا يحشونها بالبارود و يقطعون منها جانباً بعد جانب حتى أوشكوا أن يصلوا إلى المغارة ، فاضطر الأمير فخر الدين أن يستسلم إلى الكوجك أحمد الذى أرسله إلى الأستانة مع أولاده الثلاثة منصور وحيدر ، و بلك .

فلما وصل الأمير فخر الدين إلى الأستانة قال للسلطان : إننى مظلوم ، ولم أبن القلاع إلا حماية من الأعداء ، ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة ، وقد أمنت

طريق الحج ، ومنعت الاعراب عن التعدى ، وأديت الأموال الأميرية ؛ وأيدت الأحكام الشرعية ، فعفا عنه السلطان . إلا أن الأمير «ملحم المعنى» جمع رجالا من حزبه القيسية ونهض لقتال الأمير « على علم الدين » الذى كانت الدولة ولته جبل الشوف ، فنهض الأمير على لقتاله ومعه اليمنية ، فجرى بينهم قتال دارت فيه الدائرة على اليمنية ، فكتب الكوجك أحمد باشا للسلطان بأن هذه المشاغبات كلها هى من دسائس الأمير فخر الدين ، فصدر أمر السلطان بقتله مع أولاده ، وذلك ٣ مايو ١٦٣٥ ، واستحيى السلطان من أولاده الأمير حسيناً ، واستخدم بالحضرة وترقى وعاش زمناً طويلا . وكان عمر الأمير فخر الدين يوم قتل اثنتين وخمسين سنة ، وكان قصير القامة طويل الباع ، عالى الهمة ، استولى على معظم سورية ما عدا دمشق وحمص ، وحماه ، وحلب ، وقيل له سلطان البر ، وكان عنده جيش دائم ١٢ ألفاً .

هذا ولقد تمكن السلطان مراد الرابع بحزمه وشدة بأسه من قمع الفتن الكثيرة وهدأت الأحوال فى زمانه ، وزحف لقتال العجم على رأس جيش جرار . وبينما كان زاحفاً كان يأتى من الصرامة أعمالا توقع الرعب فى قلوب الذين تحدثهم أنفسهم بالانتقاض ، وفى طريقه استولى على قلعة « أريوان » ثم على قلعة « تبريز » وأحرقها ثم عاد إلى القسطنطينية يستريح من وعثاء السفر ، فما كاد يستقر به المقام حتى رجع الايرانيون فحشدوا واسترجعوا أريوان وكسروا العثمانيين فى صحراء ميربان . فنهض السلطان مراد ثانية وزحف إلى بغداد ، ولبس ثياب جندى من عامة الجند ، ونزل بنفسه يقاتل فى الخنادق ! وكان معه الصدر الأعظم ، فلما حمل العسكر العثمانى كان السلطان والصدر الأعظم والوزراء يقاتلون بأنفسهم كسائر العسكر وأصابت الصدر الاعظم « طيار محمد باشا » رصاصة برأسه فسقط قتيلا ، وأخذ السلطان مراد بغداد عنوة على أثر حملة استمرت ثمانيا وأربعين ساعة ، ثم انعقد الصلح بين الدولة والعجم على أن بغداد تعود لآل عثمان ، وأن أريوان تعود للعجم

وكان مراد الرابع فى شدة بأسه ، ومضاء عزمه ، وعظمة مهابته ، أشبه بآل عثمان الأولين ؛ ولو طالت حياته لجدد عهد سليمان القانونى ، ولكنه بعد أن استولى على

بغداد استرسل إلى الشهوات البدنية ، وأدمن شرب الخمر فاعتلت صحته ، و بلغت منه العلة أن صارت الروح فيه ذماء . و بقى يأمر بسفك الدماء ، و يقال إنه بينما كان وصل إلى دور النزع أمر بقتل اخيه إبراهيم ! ! ولـكن السلطانة الوالدة أمرت بعدم إنفاذ هذا الحـكم ، وقالت له إنه نفذ ، وفى ٩ فبراير سنة ١٦٤٠ أسلم الروح وكان عمره تسعا وعشرين سنة . وهو الذى أنقذ السلطنة بعد أن كادت تتمزق أيدى سبا بالفتن والثورات وانتقاض الأمراء كل واحد من جهة . فأعاد مراد وحدة السلطنة بشدة حزامته وصرامته ، وأزال كثيراً من المظالم ، وأعادالنظام إلى الجيش . وفى أيامه ازدادت واردات السلطنة وحسنت جباياتها . ولم يكن يعاب إلا فى ظمئه إلى سفك الدماء ؛ فانه كان يتلذذ بالقتل . وكان له عيب آخر ؛ وهو شدة غرامه بالمال ، فكان يحب الأحمرين « الدم والذهب » ولم يكن لمراد الرابع أولاد ، فتولى السلطنة بعده أخوه السلطان ابراهيم ، ولولا وجود السلطان ابراهيم هذا لانقرضت عائلة آل عثمان لأنه لم يكن بقى منها غيره .

السلطان ابراهيم

و بدأ السلطان ابراهيم ملكه بمصالحة النمسا ، ولكن حصلت حادثة أدت إلى الحرب بينه و بين جمهورية البنادقة ، وهذه الحادثة من أغرب حوادث التاريخ ، وهى أن رئيس الخصيان فى القصر الذى يسمونه « قيزلر آغاسى » كان عنده فى الحرم جارية حسناء بارعة الجمال ، اختيرت لتكون ظئراً للامير محمد بن السلطان ابراهيم ، وكانت هذه الجارية قد حملت ثم وضعت ولا يعلم من أين وقع حملها ، فشغف حبها السلطان حتى صار يفضل طفلها على طفله ، فوقعت الغيرة فى السراى وكاد السلطان يقتل طفله من شدة شغفه بالجارية وحبه لطفلها ، فلم يجد « القيزلر آغاسى » حيلة أحسن من أن يقصد الحج ويأخذ معه الجارية والطفل .

ومن المعلوم أن فرسان مالطة لم يكن لهم مهمة سوى قطع طرق البحر على المسلمين فهاجموا الاسطول الذي كان فيه « القيزلر آغاسي » فاشتبكت بين الفريقين معركة

ووقع «القيزلر آغاسى» قتيلا بعد أن دافع أشد الدفاع عن نفسه ، ووقعت الجارية وطفلها فى أيدى فرسان مالطة ، فظن الفرسان أن الطفل هو ابن السلطان وبالغوا فى الاعتناء به وبأمه ، إلا أنهم عرفوا فيما بعد أن الطفل لم يكن ابن السلطان ، فربوه فى الديانة المسيحية ، ونشأ قسيسا وكان يطلق عليه اسم « الاب العثمانى Paere ottomani » وكان الناس فى أوربا يعتقدون أنه من ذرية السلطان . ثم إن فرسان مالطة بعد هذه الغنيمة عرجوا على قندية من جزيرة « إقريطش» ونزلوا على البنادقة هناك فأكرموهم فوصل هذا الخبر إلى السلطان فجن جنونه ، وأصدر أمره بادىء ذى بدء باستئصال جميع المسيحيين ، إلا أن شيخ الاسلام عارضه بشدة فتوقف عن إنفاذ هذا الامر وأمر بقتل جميع الافرنج ، فجاء الوزراء وأبدوا وأعادوا حتى أرجعوه عن أمره هذا وحسنوا الاكتفاء بقتل كهنة الكاثوليك، ولكنه رجع عن هذا أيضا . وإنما اعتقل سفراء الدول المسيحية كلهم ، وأرسل يقول لهم : إنه يجعلهم مسؤولين عن الاهانة التى لحقت به ، فأجابه سفراء البندقية وانكلترة وهولانده بأنه لا يوجد فى فرسان مالطة واحد من تبعة حكوماتهم ، وأن جميع فرسان مالطة هم فرنسيس . فهاج غضب السلطان ابراهيم على الفرنسيس ، وبينما هو يريد الانتقام منهم أغراه الصدر الأعظم بفتح جزيرة « كريت » أو « قريطش » وفى ٢٤ يونيو ١٦٤٥ كان الاسطول العثمانى المؤلف من ثلاثمائة وثمان وأربعين سفينة أمام هذه الجزيرة ، وأنزل إلى «خانيا» خمسين ألف مقاتل ، فجاء أسطول البنادقة متأخراً فأخذوا ثأرهم باحراق « باتراس » و « كورون » و « مورون » وأخذوا خمسة آلاف أسير من العثمانيين . فلما اتصل الخبر بالسلطان اشتد غضبه وأصدر أمراً جديداً بقتل المسيحيين فى السلطنة ، ورجع المفتى فعارضه أيضاً بشدة . وفتح العثمانيون « ريتمو » و « أبو كورونو » و « كسانو » من مدن « اقريطش » ولكن امتنعت عليهم « قندية »

وكان السلطان مسترسلا إلى شهواته البدنية ، منقاداً لجواريه الحسان يفعل لهن ما يشأن ، فاستنزفن خزانة السلطنة ، وأسفت الرعية من هذه الحالة التى عليها السلطان وكثر القال والقيل ، فعزم السلطان على البطش بقواد الانكشارية والسباهية ، فتجمعوا

وانضم إليهم العلماء وقرروا خلع السلطان ومبايعة ابنه محمد الرابع ـ وهو طفل ـ ووقع ذلك فى ٨ آب ١٦٤٨ وما مضى أسبوع على هذا العمل حتى قام السباهية يطالبون إرجاع السلطان ابراهيم إلى العرش ، فخاف المفتى والعلماء على أنفسهم إذا رجع وجاؤا بالجلاد « قره على » ودخلوا على السلطان ، فأخذ السلطان يستغيث وقال للمفتى: كان يوسف باشا سوّل لى قتلك وأنا لم أقبل منه ، واستحييتك وأنت الآن تريد قتلى أفلا تلوت القرآن وعلمت كيف يكون حكم الظالمين ؟ ! و بينما يقول هذه الكلمات إذ وضع الجلاّد دون الحبل فى عنقه وشدوه فأزهقوا روحه .

السلطان محمد الرابع

و بقى السلطان محمد الرابع على عرشه وهو ابن سبع سنوات ، ورجعت الفوضى كما كانت قبل أيام مراد الرابع ، واضطر العثمانيون لرفع الحصار عن قندية ، وانكسر الاسطول العثمانى فقتل الوزير صوفى محمد باشا بسبب هذه الهزيمة ، وزحف الثوار من الأناضول صوب القسطنطينية ، وقابلهم الصدر الأعظم « قره مراد » فهزموه وكادوا يستولون على الاستانة ؛ إلا أن الخلف وقع بينهم فتفرقوا ، وتمكنت الدولة من الايقاع بهم ، ومن استرضاء بعضهم .

وفى سنة ١٦٥١ ثار الانكشارية طالبين عزل شيخ الاسلام « بهائى » لأنه أفتى بجواز الدخان والقهوة ، وكانت الصدور العظام لا تستقر فى الدسوت إلا أياما قلائل . وفى سنة ١٦٥٦ ثار الانكشارية والسباهية بسبب تأخر رواتبهم ، وطلبوا عقاب الوزراء . فاضطر السلطان لارضائهم . ولحسن الحظ كانت النمسا مشغولة بحرب الثلاثين سنة . فلم تقدر أن تسترجع بلاد المجر . ولكن الحرب بين البندقية والدولة العثمانية لم تكن سعيدة الطالع للدولة وتغلب الاسطول البندقى على الاسطول العثمانى بازاء الدردنيل. واستولى على « تيندوس » وعلى « لمنى » و بينما الحالة هى فى الدرجة القصوى من الخلل ، تولى زمام الصدارة الوزير « محمد باشا الكوبرلى الشهير » ولم يقبل الصدارة إلا على شرط إطلاق يده فى العمل فوعدته السلطانة الوالدة بعدم

معارضته بشيء . وأول ما بدأ به من الاعمال أنه ألغى الأمر الصادر بقتل سلفه ، ثم ثار العسكر فأنزل بهم العقاب الصارم ، ورمى في البحر أربعة آلاف جثة . وبدت خيانة من « بطريرك الروم » فشنقه . ثم جدد الحرب على البنادقة بشدة عظيمة واسترجع تيندوس ولمنى . وجاء رسل « شارل غوستاف » ملك السويد يعرضون على الباب العالي محالفة دفاع وهجوم على بولونيا . فرفض الكوبرلي وألقى في السجن مقتعدى أمير ترانسلفانيا « راكوشي » الذي كان تحالف مع السويديين ومع القوزاق على البولونيين . ثم عزله الكوبرلي وأقام مكانه رجلا يونانيا . وانقرضت بذلك عائلة (باسارابية) التي نبغ منها عدة أمراء . فثار راكوشي على الدولة ، وانتصر في أول الأمر ، إلا أن الكوبرلي تغلب عليه . ووقعت معارك في بلاد رومانيا أوقع بها المسيحيون بالمسلمين الذين هناك . فزحف الكوبرلي على بلاد الفلاخ ، وظاهره التتار فزحفوا الى مولداقيا وقهروا الرومانيين ، وأقاموا أميراً من قبلهم على تلك البلاد .

ثم إن التتار تجاوزوا حدود مملكة النمسا فوقعت الحرب بين النمسا والدولة من أجل ذلك فصارت الحرب بين الدولة من جهة ، والنمسا والبندقية من جهة أخرى وكادت تقع مع فرنسا أيضا . وكانت امتيازات فرنسا في المملكة العثمانية مقررة ومسكوكاتها مقبولة ، وما عدا الانكليز والبنادقة فكل الامم لأجل أن تتجر في البلاد العثمانية يجب عليها رفع العلم الافرنسي . وكان الفرنسيس لا يؤدون شيئاً من الضرائب في بلاد الدولة ، وكان قرصان الجزائر لا يقدرون أن يمسوا بسوء السفن الافرنسية ، وكان للفرنسيس حق اصطياد الصدف في سواحل الجزائر ، وأكثر من وطد هذه الامتيازات لفرانسا هو السفير « ساڤاري دو بريڤ » ولكن بعد انقضاء أيام هذا السفير أخذت المحبة بين فرنسا والباب العالي بالنقصان ، ولا سيما في زمان مراد الرابع .

وكان الانكليز والهولنديون أقنعوا السلطان بطرد الجزويت ، وجاء سفير لفرانسا اسمه « هنرى دوغورنيه de Gournay » فأساء السياسة ، فصدر الأمر بأغلاق كنائس غلطة التي كانت تحت حماية فرانسا ، وبمنع الفرنسيس من حمل السلاح ، وبأجبارهم

على دفع الرسوم والضرائب . ثم إن الأروام فى القدس الشريف حصلوا على الاذن بحراسة الأماكن المقدسة ، وقد كانت من قبل فى أيدى الفرنسيسكان . وأخذ قرصان الجزائر يعتدون على مراكب الفرنسيس ، وانضم إلى ذلك أن سفير فرانسا عند ما تولى الصدارة « محمد باشا السكو برلى » لم يقدم له الهدايا المعتادة ، وقد كانت هذه سنة متبعة ، ثم رأى السفير الموسيو « دولاهاى » أن هذا الصدر الأعظم طالت أيامه ، فقدم له الهدايا اللازمة وعوض ما فرط ، ولكن كانت سخيمة الصدر الأعظم تمكنت من قلبه ، فصار يترصد الفرصة ليوقع بين فرانسا والدولة

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة بين البنادقة والدولة على « اقريطش » . وفى سنة ١٦٥٩ جاء افرنسى اسمه « فيرتامون » إلى الصدر الأعظم وسلمه رسائل واردة من جيش البنادقة فى قندية بأسم المسيو « دولاهاى » سفير فرانسا فى الاستانة وكان هذا الافرنسى خائناً لقومه ، فسئل السفير عن ذلك وكان طريح الفراش بمرض الحمى ، وكان الصدر الأعظم وقتئذ في أدرنة ، فأرسل السفير ابنه ينوب عنه فبينما كان الصدر الأعظم يسأل ابن السفير عن معنى هذه المكاتيب لأنها كانت محررة بالأرقام ؛ أجابه الولد بغلظة ، فأمر الصدر بحبسه وقال : لا نتحمل من ابن سفير ما يجوز أن نتحمله من سفير ! فقام السفير من فراشه وذهب إلى أدرنة يحاول تخليص ابنه ، فسأل الصدر السفير عن معنى هذه المكاتيب ؟ فأبى السفير أن يجيب بشيء فبقى الولد في الحبس ، وأرسل الكردينال « مازارين » المار يشال « بلونديل » ومعه مكتوب من ملك فرانسا إلى السلطان يطلب فيه عزل الصدر الأعظم ، فلم يلتفت الكوبرلى لمعتمد فرانسا ، ولا أذن له بمقابلة السلطان . فتحمل الكردينال مازارين هذه الاهانة ، وانتقم لفرانسا بارسال متطوعين يساعدون البنادقة فى « اقريطش »

وكان أمر الكو برلى يغلظ يوماً فيوماً ؛ وكلما ازدادت سنه علواً ازداد بطشاً وعتواً ، وحصلت بعض فتوق فى أيامه فسدها بدهائه وحزمه ، وأطفأ ثورة حصلت في مصر وقبل أن مات سأله السلطان عن الشخص الذى يليق بأن يخلفه ؟ فأشار عليه بابنه « أحمد باشا الكو برلى » وكان كأبيه في الدهاء والحزم .

ولما تولى هذا الصدارة عرضت النمسا والبنادقة الصلح فلم يجب أحمد باشا الكوبرلى هاتين الدولتين إلى الصلح ، وزحف وعبر الطونة عند « غران » وهزم الكونت « دوفورغاكس » وضيق الحصار على بلدة نوهيزل Neuhoesel وهى أمنع معقل فى بلاد المجر كان يقال إنها لا تؤخذ ففتحها الكوبرلى عنوة بعد حصار ستة أسابيع ثم عاث الجيش العثمانى فى المجر ، ومراغية ، وسيليسية ، وسحب فى رجوعه ثمانين ألف أسير فاستغاث الأمبراطور ليو بولد صاحب النمسا بدول النصرانية ، فدعا البابا جميع النصارى إلى حرب صليبية .

وكان « لويس الرابع عشر » غير ناس الاهانة التى لحقت بسفيره ، فوعد بتجهيز ستين ألف مقاتل لحرب الترك ، وأرسل بالفعل ثلاثين ألفاً بقيادة الكونت دوكلينى de Coligny » وتطوع فى هذا الجيش أكثر أبناء بيوتات الشرف فى فرانسا وكان الكوبرلى قد استولى على « سيرين ڤار » و « كورمورن » الصغرى ولكن عندما وصل جيش الفرنسيس صارت الحرب سجالا ، وقطع الكوبرلى الأمل من محو قوة النمسا . فعقد الكوبرلى الصلح المسمى بصلح « ڤازڤار » سنة ١٦٦٤ ووقع الاتفاق على أن ترانسلڤانيا لا يكون فيها عثمانيون ولا نمسويون ، وأن يتولاها أمير تحت سيادة السلطان ، وفى الولايات المجرية السبع يكون منها ثلاث للنمسا ، وأربع للدولة العثمانية . وبقى الفرنسيس فى البحر المتوسط يتجاوزون على سواحل الدولة ويتعرضون لمراكبها ، فاشتد غضب الأتراك ونادوا يا للثارات .

وكان فى فرانسا الوزير « كولبير Colbert » لا يرى فى هذه العداوة خيراً فأرسل ابن المسيو لاهاى لأجل السعى فى الصلح ، ولم يكن هذا الاختيار فى محله لأنه هو الذى أغلظ القول لمحمد باشا الكوبرلى وأمر هذا بحبسه ، فلما وصل لاهاي الصغير وقابل الكوبرلى الصغير اختصما فى الكلام فسمع لاهاى من الصدر الأعظم كلاماً مهيناً ، فخرج مغاضباً وقال للصدر إنه سيغادر القسطنطينية ، فلما وصل عند الباب قبضوا عليه وحبسوه . ولما بلغ الخبر السلطان أمر باطلاق لاهاى واسترضائه ولكن الكوبرلى رفض تجديد امتيازات الفرنسيس ، ومنعهم من المرور بالبحر

الأحمر ومصر فى تجارتهم مع الهند ، وأذن فى ذلك للانكليز والجنويين . فأخذ الفرنسيس يوالون النجدات لجزيرة « اقريطش » وكان الحصار على قندية ، فركب أحمد باشا الكوبرلى بنفسه وضيق الخناق على تلك البلدة ، وأقبل فرسان مالطة وأكثر أبناء النبلاء فى فرانسا ينجدون قندية إلا أنهم انكسروا فى واقعة حاسمة وتركوا ميدان القتال منصرفين إلى بلادهم . فازداد ضغط الأتراك على تجار الفرنسيس فأرسل لويس الرابع عشر أربع سفن لأجل حمل السفير ورجال السفارة وجميع التجار الفرنسيس الذين فى القسطنطينية ، ثم جهز اثنى عشر تابوراً وثلاثمائة فارس فى خمسة عشر سفينة تحت قيادة « الدوك بوفور Beaufort » وأرسلها إلى كريت . ولكن هذه الحملة لم تكن عظيمة الفائدة لكريت والبنادقة ، ولم تمنع تغلب العثمانيين على الجزيرة . وانعقد الصلح فى ٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩ ، ودخلت كريت كلها تحت حكم الدولة ، ما عدا ثلاثة مراس « كورابوزه » و « صوده » و « اسپينالونغة » وكان فتح العثمانيين لكريت هو آخر فتح لهم فتحوه من ممالك النصرانية . ولم يوجد فى التاريخ بلدة اشتد حصارها وطال نظير قندية ، واستمرت حرب كريت خمساً وعشرين سنة ، فى أثنائها قام العثمانيون بست وخمسين حملة ، ، وصدوا خمساً وأربعين هجمة ! ! وأحرق المحصورون ألفاً ومائة واثنين وسبعين « لغما » وأحرق الأتراك ثلاثة أضعاف ذلك . وبلغ عدد خسائر البنادقة أربعين ألفاً .

وذكر المؤرخ هامر أن خسائر العثمانيين بلغت مائة الف .

وكان لويس الرابع عشر وأكثر شبان فرانسا يريدون محاربة تركيا ، إلا أن « كولبير » الوزير المعروف كان لا يزال يعارض فى هذه الحرب ، وعزل السفير لاهاى وأرسل مكانه المركيز « دونوانتل de Nointel » فطلب من تركيا مطالب رفضها الكوبرلى ، وقال إن تلك الامتيازات التى كان يتمتع بها الفرنسيس كانت من قبيل الانعام لا غير ، وليست شرطاً لازماً ، فان لم يكن السفير يفهم هذا فما عليه إلا أن يرجع إلى بلاده . فلما علم لويس الرابع عشر بما جرى أمر بتجهيز أسطول خمسين بارجة حربية ، ولكن في آخر الأمر تغلب الميل إلى السلام ، وأعيدت معاملة

الفرنسيس فى تركيا إلى ما كانت عليه ، واعترفت الدولة لفرنسا بحماية الكاثوليك فى الشرق . ومع هذا فان لويس الرابع عشر بقى طول حياته يكره تركيا و يفكر فى شن الغارة عليها ، ولم يتأخر عن ذلك إلا عجزاً ، لأن الدولة فى أيام أحمد باشا الكوبرلى عادت فصعدت إلى ذروة المجد .

وفى أيام الكوبرلى دخل القوزاق الروس فى طاعة الدولة ، وكانت الدولة أعلنت الحرب على بولونيا فى ١٨ آب ١٦٧٢ وزحف السلطان بذاته وكسر البولونيين ، وعقد ملك بولونيا « ميشيل ڤيسموفيكي » صلحاً مهيناً ، وتخلى عن « پادوليه » للعثمانيين وعن « أوكرانيا » للقوزاق ، وتعهد بدفع جزية سنوية عشرين ألف دوكة . فالشعب البولونى لم يوافق على هذا الصلح ، وعاد القواد فاستأنفوا الحرب ، وكانت سجالا بين الفريقين . فتوسط خان القريم فى الصلح ، وانعقدت المعاهدة على أن يبقى قسم من أوكرانيا تابعاً للدولة العثمانية . ومن سوء حظ الدولة مات أحمد باشا الكوبرلى ؛ وكان لم يتجاوز إحدى وأربعين سنة ، وكانت وفاته فى ٣٠ أكتوبر ١٦٧٦ ، ولم يكن سفاكا للدماء كأبيه ، ولا كان شرها إلى المال . وكان محباً للعدل ، قائماً بالقسط . فتولى الصدارة بعده ابن عمه قره مصطفى باشا ، ولم يطل الامر حتى استؤنفت الحرب فى رومانيا ، و بلاد القوزاق ، فزحف قره مصطفى بجيش جرار ، واستولى على كورين من أوكرانيا .

و بينما العثمانيون يحاربون فى أوكرانيا إذ حصلت وقائع فى بلاد المجر حملتهم على عقد الصلح ، وذلك أن المجر كانوا قد اقتتلوا مع النمسويين ، وكانوا منقسمين إلى قسمين : أحدهما حزب الكونت « تكلى Tekeli » وهؤلاء كانوا يعتمدون على تركيا ، والحزب الآخر كان يعتمد على النمسا ، فاستعان تكلى بالدولة ، وزحف قره مصطفى باشا على رأس مائة وأربعين ألف مقاتل ، وكان النصر حليف جيشه ، فاغتر بقوته وساق الجيش إلى ڤينا طامعاً فى أخذها . وكان الكونت تكلى والقائد العثمانى فى بود وأكثر القواد ضد هذا الرأى ، إلا أن قره مصطفى أصر على حصار ڤينا .

وكان قائد البلدة الأمير « إشتار تمبرغ Stharemburg » فجند الأهالى كلهم ، وقابل

هجمات الأتراك بمدافعة نادرة المثال . وقام الترك بثمانية عشر هجمة ، وحمل النمسو يون من الداخل أربعاً وعشرين حملة ، ووقع كثير من الحصون فى أيدى الأتراك .

و يقول المؤرخ الافرنسي « دولا جونكيير » : إنه لولا بخل قره مصطفى لربما كان الجيش العثماني استولى على ڤينا ، وذلك أنه كان يعتقد كون ڤينا ملأى بالأموال والكنوز ، فلو كان أمر بحملة عمومية واستولى الجند على البلدة لكانوا نهبوها لأنفسهم فكان يريد أن يأخذها بدون أن يترك للعسكر حق التصرف بالغنائم ، فبقي منتظراً النصر مع حفظ النظام إلى أن تمكن امبراطور النمسا « ليو بولد » من استجلاب البولونيين لنجدة ڤينا . وكان البابا استصرخ لويس الرابع عشر باسم النصرانية ، إلا أن شدة بغضاء ملك فرنسا لامبراطور المانيا حالت دون نجدة ملك فرنسا الذي كان يثبط سائر الدول المسيحية عن اصراخ الألمان .

و برغم كل مساعى لويس الرابع عشر فى خذلان النمسا زحف « صو بيسكى » ملك بولونيا . وزحف أمراء « الساكس » و « الباڤيير » لنجدة النمسا وفى ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ اشتبكوا فى معركة حاسمة مع العثمانيين ، فخاب السعد في هذه المعركة وفقد العثمانيون عشرة آلاف قتيل ، وغنم الألمان والبولونيون ثلاثمائة مدفع وخمسة آلاف خيمة وصناديق لا تحصى ملأى بالعدد . وسقط فى أيدى الألمان أعلام الجيش العثمانى عدا السنجق الشريف ، وتقهقر قره مصطفى باشا قاصداً إلى بود فتعقبه البولونيون وهزموه هزيمة ثانية ، وقتلوا من جيشه ثمانية آلاف واستولى الرعب على الأتراك فولوا مدبرين ، ووصلت الأخبار إلى الأستانة فثار ثائر الأمة ، واضطر السلطان محمد الرابع إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا ، وأرسلوا رئيس القرناء إلى بلغراد لأجل تنفيذ هذا الأمر ، وتولى الصدارة ابراهيم باشا فى أحرج وقت عرفته السلطنة ، وتألبت على الدولة العثمانية عصبة من دول النصرانية : المانيا ، و بولونيا ، والبندقية ، والبابا ، وفرسان مالطة : وانضم اليهم الروس طمعاً فى دخول البحر الأسود ، وغزو بيزنطية : وكان الشيخ العثمانى قد دب الرعب فى قلبه ، وكانت الخزانة خاوية ، وكانت فرنسا غير داخلة فى هذا الحلف بغضا بالمانيا ، ولكن كانت

المراكب الافرنسية تغزو سفن المسلمين . ووقع قتال بين الأسطول الافرنسي والمراكب العثمانية أمام جزيرة « شيو » وضرب أمير البحر الافرنسي « دوكين Duquesne » مدينة الجزائر بالقنابر ودمرها ، ولم يرجع الفرنسيس عنها إلا بعد أن أخذوا غرامة الحرب من إمارة الجزائر ، وتسلموا الأسري المسيحيين الذين عندهم . وضرب أيضاً دوكين مدينة طرابلس فأوقع بها ما أوقع بالجزائر . وجاء الفرنسيس فضربوا مراسي المغرب ، ودمروا الأسطول المغربي . ثم إن الهزائم التي وقعت على جيش قره مصطفى باشا في النمسا تركت الطريق مفتوحاً للعدو ، فزحف إلى المجر كما أن البنادقة أعملوا الحركة لأجل فتح بلاد المورة ، ووقعت « پريڤيزه » في أيدي البنادقة ، ثم « ناڤارين » و « مورون » و « أركاديه » و « پاتراس » و « ليپانت » و « كورنتيه » و « أثينا » .

وأما النمسويون فانهم استولوا على « فيسغراد » و « ڤاكسن » ودخلوا « پست » وحصروا « بود » واستولوا على بعض مواقع للعثمانيين في « كرواسية » ودحروا والي بوسنة . ثم استولى قائد النمسا « الدوك دولورين » على « غران » و « نوهيزل » كما أن الكونت « هربشتاين » استولى على « ليكة ، وكورباڤية ، ووادي أودڤينه » كما أن الجنرال « شولتس » هزم « تكلي » الأمير المجري المولى من قبل العثمانيين فعين السلطان سليمان باشا صدراً أعظم وعهد إليه باسترداد شرف السلطنة التي أصيبت من النوائب بما لم يسبق له مثيل ! وكان سليمان باشا شديد البأس مقداماً إلا أنه كان ينقصه علم الحرب الذي كان موصوفاً به « الدوك دولورين » وهو القائد الاول في زمانه وكان الدوك دولورين يحاصر بود وفيها القائد عبدي باشا ، وكان المحاصرون تسعين الف مقاتل ، فردهم عبدي باشا على الاعقاب مرتين . إلا أنه قتل في المعمعة و بعد قتله دخل النمسويون وحلفاؤهم إلى بود ، وذلك في ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦ . وكانت بود هي آخر حدود الاسلام من جهة أوربا . و بقي العثمانيون فيها مائة وخمساً وأربعين سنة ، وكانت هي باب الجهاد ومفتاح السلطنة . وكانت فيها مساجد ومدارس

عديدة فلم يبق منها شيء سوى مدفن لمجاهد يقال له « كل بابا » حافظ عليه المجر إلى الآن وهو على رابية عالية من بود .

ومن آثار العثمانيين فى بود حمامات معدنية لا تزال إلى الآن . ثم اشتبك سليمان باشا مع العدو فى « موهاك » وهو مكان كان العثمانيون كسروا فيه المجر قبل ذلك التاريخ بمائة وستين سنة . فلم يسعدهم طالع الحرب هذه المرة ، وخسروا عشرين ألف مقاتل، مع المدافع، والذخائر . ودخل العدو بلاد ترانسلفانيا واستولى عليها ، واستولى على أربعة عشر حصناً فى « سلافونيا » وعلى كثير من القلاع فى كرواسية ، والمجر السفلى . فبعد توالى هذه المصائب على الدولة لم تجد الأمة أمامها وسيلة لاصلاح الحال سوى خلع السلطان محمد الرابع ، فخلعوه فى ٨ نوفمبر ١٦٨٧ وبايعوا أخاه السلطان سليمان الثانى .

السلطان سليمان الثانى

وكان سليمان الثانى محبوساً مدة ستة وأربعين سنة فى أحد القصور، لا يخالط أحداً ولا يخالطه أحد ، وكان يقضى أوقاته بالمطالعة ، فلما عرضوا عليه السلطنة حاول الاستعفاء منها ، فأجبروه على القبول . ولكن الانكشارية والسباهية ثاروا على الحكومة وقتلوا الصدر الأعظم ، وأهانوا حرمه . فلما شاع الخبر فى الآستانة ثارت حمية الشعب ، وخرج العلماء تحت العلم النبوى ودعوا الأهالى إلى تأديب العسكر فانقضوا عليهم وفتكوا بهم ، وقتلوا كثيراً من رؤسائهم ، فأخلدوا إلى السكون . وبقى النمسويون والبنادقة يتقدمون فى فتوحاتهم فاستولوا على « أرلو » وطردوا العثمانيين من « دالماسية » وأخيراً دخلوا بلغراد ، فالتمس الأتراك الصلح فاشترطت النمسا شروطاً ثقيلة إلى الغاية ، فحاول العثمانيون الثبات فتقهقروا أيضاً ، وأخرجهم العدو من « نيش » و « ودن » وأصبحت أسكوب تحت خطر السقوط . وقال أحد الوزراء : لا يزال

أمامنا حملة واحدة، و يصير العدو فى الآستانة . فعقدت الدولة مجلساً فى أدرنة للتشاور فيما يجب عمله لانقاذ السلطنة ، وعهد بالصدارة إلى مصطفى باشا الكو برلى ابن الكو برلى الكبير ، وأخو أحمد باشا الكو برلى . فقام بالأمور خير قيام ، و بدأ باصلاح السلطنة من الداخل وملأ الخزائن بالأموال ، واستأصل الرشوة ، وأخذ على أيدى الظالمين وسن قوانين عادلة للخراج . وكان جانب من موارد السلطنة تحول إلى الأوقاف فاسترجعها الكو برلى ، وقال : إن الجهاد أولى بها ، ثم بعد أن ملأ خزانة السلطنة بالأموال اللازمة ؛ نشر فرماناً يقول فيه : إن الله يأمر المؤمنين بالجهاد ، إلى آخر رمق من حياتهم ، و إنه يجب على المسلمين أن ينفروا خفافاً وثقالا ، فثارت الحمية فى رؤوس المسلمين ونفروا من كل صوب . وفى الوقت نفسه عامل النصارى بمزيد الرفق ، وأطلق حرية التجارة ، فاستفاد من ذلك اليهود والنصارى . ومن جملة ماشدد به هذا الصدر الأعظم الرشيد منع العساكر من الاعتداء على الأهالى ولو بمثل حبة الخردلة ، ومن خالف ذلك أنزل به العقاب الصارم : ثم نظر إلى أحوال القضاء فطهر المحاكم ، وأشعر الرعية وجود العدل ، وأعاد مجد السلطنة كما بدأ ، و بحسن إدارته هذه حفظ للسلطنة بلاد « المورة » لأن الأهالى قاموا إذ ذاك وانتصروا للدولة على البنادقة ، لا سيما أن هؤلاء كانوا يسعون فى نشر المذهب الكاثوليكى بين الأروام الأرتوذكسيين . فلما رأى الأروام ما رأوا من عدالة هذا الصدر وحسن إدارته رجعوا إلى الدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم .

و بعد أن سدد الكو برلى أحوال السلطنة وأعاد هيبة الحكومة كما كانت زحف إلى الثغور ووافاه خان القريم سليم غرانى ، فبدأوا ببلاد الصرب فدوخوها وهزموا جيشاً ألمانياً فى قوصوة . وهزم الأمير « تكلى المجرى » حليف الدولة الجنرال « هوسلر » وأخذه أسيراً . واسترجعت الدولة « نيش » و « ودن » و « سيمندريا و « بلغراد » وذلك سنة ١٦٩٠ . ثم مات السلطان سليمان الثانى .

السلطان احمد الثانى

وخلفه أخوه أحمد الثانى فى ٢٣ يونيو ١٦٩١ فكان للكوبرلى فى مدة أحمد من نفوذ الكلمة ما كان فى مدة سليمان ، حتى أن السلطان أحمد قال مرة : إنى لا أريد أن أعترض الكوبرلى فى شىء من أمور الادارة خوفا من أن يتعطل بذلك ما هو أدرى منى . إلا أن الأقدار أبت إلا حرمان السلطنة العثمانية من هذا الرجل العظيم ، فانه فى الحرب مع النمسا تلاقى فى « سالان كنيم Salan Kenem » مع جيش المانى يقوده « لويس فون بادن » . وكان الصدر الأعظم مخترطاً سيفه أمام الجيش ، فأصابته رصاصة فى صدره فخر قتيلا ، ودارت الدائرة على الأتراك وفقدوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل ، ومائة وخمسين مدفعا ، وكانت مصيبة من أعظم المصائب على الدولة ، وفقدت بفقده وزيراً عاقلا ، عادلا ، نشيطاً ، جريئا ، مهذبا صادقا ، اجتمع فيه من الخلال الباهرة ما قلما وجد فى رجل من رجال السياسة . فبكاه المسلمون والمسيحيون معا ، وأسف الجميع لفقده . وبقيت الدولة مدة أربع سنوات لم يلتئم جرحها الذى تركه موت الكوبرلي .

السلطان مصطفى الثانى

ثم تولى السلطنة مصطفى الثانى بن محمد الرابع ، وكان عهده متسما بالمتانة والصلابة ورجع السلطان إلى دأب أجداده الأولين ، وأعلن أنه سيباشر قيادة الجيش بنفسه فقال له بعض وزرائه : إنه لا يجوز له أن يعرض للتهلكة شخصه المقدس ، فرفض كلامه وفى بداية أمره كسر الأسطول العثمانى فى خليج « شيو » أسطول البنادقة ، وزحف خان التتار إلى بولونيا ، وأوقع بأهلها ، ولم يتوقف إلا عند « لمبرغ » . وجاء الروس لحاصروا « آزوف » فهزمهم العثمانيون والتتار ، وقتلوا منهم ثلاثين ألفا . وذلك فى ا كتوبر سنة ١٦٩٥ ، ثم دخل السلطان بنفسه بلاد المجر وفتح « ليپّه » وجاء الجنرال « ڤيتيرانى » ليصدّه فأحاط به الجيش العثماني ، و بعد عراك شديد كثرت

فيه الخسائر من الفريقين أخذ ڤيتيرانى أسيراً وأمر السلطان بدق عنقه . ثم انتصر السلطان فى وقعة « أولاش » على أمير الساكس . و بينما كانت الأمور جارية وفق مراد العثمانيين ؛ إذ تولى البرنس « أوجين دوساڤوا » قيادة الجيش الألمانى .

سلطنة مصطفى الثاني ابن محمد الرابع التى ابتدأت سنة ١٦٩٥ كانت فاتحتها فاتحة حزم وعزم ، وما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتى أعلن نيته أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه خلافاً لما كان عليه أسلافه المتأخرون . وقد حاول بعض وزرائه أن يأفكه عن عزمه هذا فلم يستفد شيئاً ، وقال له السلطان : إنى ماض فى خطتى هذه ، ثم إن عهد هذا السلطان بدأ بالظفر ، فالاسطول العثمانى كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة « ساقس » واستولى العثمانيون على هذه الجزيرة ، و زحف خان القريم على بولونيا وأوغل وأثخن ، ولم يتوقف الا عند « لمبرغ » : وكذلك الروس تركوا حصار « آزوف » بعد أن فقدوا ثلاثين الف مقاتل ، وذلك فى اكتوبر سنة ١٦٩٥ ثم إن السلطان نفسه دخل بلاد المجر وافتتح مدينة « ليپه » عنوة وأسر الجنرال « ڤيتيرانى » وأمر بقطع عنقه . ثم تغلب السلطان فى واقعة «أولاش» على أمير الساكس قائد الجيش الألمانى فى السنة التالية ، فاشتعلت حماسة العثمانيين وصارو يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش ، ولتكتيب كتائب من المتطوعة ، إلا أن طالع الحرب لم يستمر طويلا على هذا الشكل ، فان بطرس الأول قيصر الروسيا عاد فافتتح « آزوف » والبرنس « أوجين دوساڤوى » تولى قيادة الجيوش النمسوية فكسر الجيش العثمانى على نهر « تيس Thaiss » حيث فقد العثمانيون ثلاثين الف مقاتل ، منهم عشرة آلاف غرقوا فى النهر ، وقُتل الصدر الأعظم ، وفر السلطان ودخل العدو بلاد بوسنه وذلك سنة ١٦٩٧ فعاد الخطر فأحدق بالسلطنة ، وعوّل السلطان على وزير جديد من آل كوبرلى وهو الكوبرلى حسين باشا ، وكانت الخزانة فارغة ، فجاء الكوبرلى هذا ورمّم الاحوال ، وحشد جيشاً عهد بقيادته الى « دالتبان باشا » وسرّحه الى بوسنه فأجبر النمسويين على الانكفاء الى الوراء فعبروا « نهر الساف » . وكان لويس الرابع عشر يغرى تركيا بمتابعة القتال ، ويتعهد لها

بواسطة سفيره المأركيز « دوفريول » بأنه لا يصالح النمسا الا اذا استرجعت تركيا بلاد المجر وجميع البلدان التى فقدتها . ولكن سياسة النمسا تغلبت فى ذلك الحين وقيل إن الذهب لعب دوره فى هذه المسألة ، وانعقد الصلح بين تركيا والنمسا على شرط ترك الأولى للثانية جميع المجر وترانسلفانيا . وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة « كارلوفيتس » وتاريخ انعقادها ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩ ، وبموجبها تقررت الهدنة بين الدولتين الى مدة خمس وعشرين سنة ، وصار نهر « الساف » ونهر « أُنّة » فاصلا بين تركيا والنمسا ، واسترجعت بولونيا « كامينيك » و « فادولية » و « أوكرانية » وبقيت آزوف للروسيا . وصارت بلاد المورة وجميع دلماسية الى جمهورية البندقية ، وألغيت جميع الجزى التى كانت تدفعها الدول المسيحية الى الدولة العثمانية .

ومعاهدة كارلوفيتس هذه كانت الى ذلك العهد أعظم ضربة على السلطنة العثمانية ، فتراجع الأتراك عن بولونيا والمجر الى ما وراء نهر الدنيستر ، والساف والأُنّة ، وظهر للجميع الضعف الذى كان قد بدأ يعمل عمله فى سلطنة آل عثمان .

وكان الخلل عاماً جميع فروع الادارة ، وكانت الفتن مشتعلة على حدود إيران وفى القريم ، وفى أفريقيا ، وفى بلاد العرب . فقام الكوبرلى حسين الذى اقتفى أثر عمه برأب الصدوع ، وسدّ الفتوق ، وأعفى أهل بوسنة و « البانات » مما كانوا يؤدونه باسم الجيش ، وترك لأهل الروملى مليوناً ونصف مليون من متأخر الضرائب وأصدر أوامر فى جميع السلطنة بأن جميع المأمورين يجب أن يكونوا علماء ، وأن يحفظوا القرآن وقواعد الدين ، وشدّد فى انتخاب المدرّسين ، ووضع الادارة وقيادة الجيش تحت رقابة شديدة ، وأصلح الأمور المالية ، وسنّ قانوناً للبحرية ، وبنى المساجد ، والمدارس ، والأسواق ، والثكن العسكرية ، ورمّم أسوار بلغراد ، وتمشوار ونيش . وشحنها بالأقوات ، ونظر فى أحوال المسيحيين من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين . ولكن هذه الاصلاحات كلها لم تقع بدون مقاومة ؛ فتألب على الصدر الأعظم حزب ممن كانوا يعيشون بالغلول من أموال الدولة ، وأخذوا يدسون الدسائس حوله وحول أعوانه ، الى أن اضطروه الى الاستقالة وكان أصيب

بمرض عضال وفى ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ بعث الى السلطان بختم الصدارة ، ومات بعد ذلك بسبعة عشر يوماً ، وفقدت الدولة به رجلا عظيما ممن أخّروا أجل سقوطها نظير سائر آل الكوبرلى

وقد أحدث موت الكوبرلى هذا فتوقاً جديدة فى السلطنة ، وتولى الصدارة « دالتبان باشا » وكان مغرما بالحرب يريد نقض المعاهدة التى انعقدت مع النمسا الا أنه لم يطل أمره وقُتل قيل بدسائس بعض العلماء . فتولى الصدارة « نامى محمد باشا » فأراد أن يحذو حذو الكوبرلى فى الاصلاح فأثار عليه المشايخ جيش الانكشارية وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى الثانى ، ومبايعة أخيه احمد الثالث .

السلطان أحمد الثالث

وفى أول الأمر اضطر السلطان الجديد الى إرضاء الثوار ، وقتل المفتى فيض الله افندى بفتوى من خلفه محمد افندى وهو حادث لم يسبق له مثيل ، غير أن السلطان بعد أن تمكنت أقدامه فى السلطنة عاد فأخذ ينكل بزعماء الثورة فقتل منهم وغرّب وعهد بالوزارة الى صهره المسمّى داماد حسن باشا ، فسار بالمملكة سيرة حسنة ، وثارت فى أيامه بلاد الكرج فدوّخها ، واعتنى بتأمين قافلة الحج من الشام الى مكة ، وبنى مدارس ، وأنشأ دار صنعة بحرية .

وفى أيام احمد الثالث كان لويس الرابع عشر قد خاض الحرب المسماة بحرب الوراثة فى أسبانيا ، فعرض بواسطة سفيره على تركيا أن تدخل فى حرب مع النمسا وتسترجع ما فقدته ، ولكن حزب السلام كان فى تركيا غالباً ، فرفض السلطان طلب ملك فرنسا . وكانت الروسيا قد نجمت قرونها إذ ذاك ، فانتهزت فرصة اشتغال الدول الغربية بالحرب وخلا لها الجو ، ورأت تركيا قد مالت الى الدعة فجعلت تتأهب لقتالها ، وتركيا كانت لا تحفل بما تفعله الروسيا بقيادة بطرس الاكبر . وكان كارلوس الثانى عشر قد خشى مغبّة قوة الروسيا ، فحمل عليها وطلب معاونة السلطان فوعدوه بارسال خان القريم لمعاونته ، فاعتمد على هذا الوعد وأوغل فى أرض الروسيا

بستة عشر الف مقاتل لا غير ، فانكسر والتجأ الى « بندر » ضمن الحدود العثمانية وحاول أن يجر العثمانيين الى محاربة الروسيا فلم يفلح . وذلك لأن نعمان باشا الكوبرلى الصدر الأعظم كان يكره دخول الدولة فى الحرب ، وكان هذا الكوبرلى نظير أسلافه فى العدل ، الا أنه كان ينقصه علو أفكارهم ، فسقط أخيراً . وكان أكثر السبب فى سقوطه مشرفاً له ، لأنه عارض السلطان فى إسرافه ، وأبى أن يجعل معاشات الانكشارية من طرق غير شرعيـة . فقال له السلطان : إن سلفك « شورلولى » كان يجد طرقاً لتأديته رواتب العساكر ، فأجابه الكوبرلى : لى الفخر بأن أجهل مثـل هذه الطرق . فعزله السلطان و ولى مكانه « محمد باشا البلطجى » الذى أعلن الحرب على الروسيا ، وتولى بنفسه قيادة الجيوش .

وكان بطرس الأكبر يؤمل أن المسيحيين فى السلطنة العثمانية يرفعون لواء الثورة فلم يتحرك منهم أحد ، وسار البلطجى بمئتى الف مقاتل من الترك والتتار وأحاطوا بجيش بطرس الأكبر على ضفاف نهر البروت ، وأوشك بطرس وجيشه أن يقعوا فى الأسر وكانت الروسيا لو أسروا ستسقط من عداد الدول ، فبادرت كاترينا بدهائها لتلافى الخطب ، ودخلت فى المذاكرة مع الصدر الأعظم ، وعززت الكلام بهدايا فاخرة قدمتها له ، وانعقدت معاهدة « فالكسن » وذلك سنة ١٧١١ وبموجبها تعهد قيصر الروسيا باعادة قلعة « آزوف » وبهدم القلاع التى بناها فى تلك البلاد ، وبعدم التدخل فى أمور القوزاق . فكانت هذه المعاهدة مفيدة لتركيا إلا أنها كانت أفيد جداً للروسيا ، لأنها أنقذت القيصر من الأسر . وثار غضب ملك السويد ووبخ البلطجى على عدم أسره بطرس الأكبر ، فأجابه البلطجى جواباً بارداً وهو أنه لو أسر بطرس لبقيت بلاد الروس بدون رئيس . فهذا الكرم كان بغير محله ، بل كان نوعاً من الخبال . وجاء الكونت « بونياثوفسكى » سفير السويد وعرض القضية للسلطان وعضده خان القريم « دولة غرائى » فغضب السلطان على البلطجى وعزله ونفاه ، على أن خلفه يوسف باشا لم يكن أيضاً مغرماً بالحرب ، فعقد متاركة مع الروسيا إلى مدة ٢٥ سنة . وصدر الأمر لكارلوس الثاني عشر بأن يعود إلى بلاده ، وكان كارلوس

جباراً عنيداً فأبى أن يمتثل الأمر وبقى معلقاً أمله بجر العثمانيين إلى محاربة الروسيا فالتزمت الدولة أن تعالج إخراجه من أرضها بالقوة فعصى الأمر ، فساقوا اليه عشرين ألف عسكرى من التتار وستة آلاف من الترك ، فحاول مقاومة هذا الجيش بثلاثمائة من رجالة ولكن العثمانيين لم يريدوا أن يغدروا بنزيلهم ، وصبروا عليه حتى رجع إلى السويد من نفسه بعد أن أقام سنتين في تركيا .

وفي تلك المدة استفادت الدولة من الهدنة مع الروسيا ، وطردت البنادقة من جميع بلاد المورة ، ومن بعض البلاد التى كانت باقيـة لهم فى كريت . ولـكن جزيرة « كورفو » امتنعت على العثمانيين ، فالتجأت البندقية إلى النمسا وكان قائد جيوشها « أوجين دوساڤوى » الشهير فأعلن الحرب على تركيـا وهزم الجيش العثمانى فى « پترڤاردين » وذلك فى ٥ أغسطس سنة ١٧١٦ وقتل الصدر الأعظم فى الوقعة واستولى النمساويون على « تمشوار » وخاصروا « بلغراد » . فزحف الصدر الأعظم الجديد خليل باشا لنجدة بلغراد فانـكسر أيضاً ، فالتزمت الدولة أن تعقد الصلح مع النمسا ، وأخلت لها تمشوار و بلغراد وقسماً من بلاد السرب ، ومن بلاد الفلاخ ، ورجع بطرس الأكبر فاستفاد من هزيمة تركيا هذه وأخل بالمعاهدة التى كان عقدها معه البلطجى ، فتجددت معاهدة أخرى وأقنعت الروسيا عدوتها تركيا بالاتحاد معها على قضية النظام الارثى فى مملـكة بولونيا ، وغفلت تركيا عن كون بولونيا حصناً حصيناً لها فسايرت الروسيا .

وتولى الصدارة ابراهيم باشا ، فقام يحارب العجم ، وأثار السنية الذين فى بلادها فانتهز بطرس الأكبر الفرصة وأغار على الطاغستان وسواحل بحر الخزر ، فأرسل خان القريم ينذر الدولة بسوء المصير فزحفت الجيوش العثمانية على أرمينية وكرجستان وكادت الحرب تقع بينها و بين الروس فخاف بطرس الأكبر أن تدور عليه الدائرة هذه المرة أيضاً فوسط فرنسا بينه وبين الدولة ؛ فسعى «دو بوا» سفير فرنسا فى إرضاء الفريقين وذلك من أملاك العجم .

وكانت فارس يومئذ فى حال أشبه بالفوضى ، وكان الشاه مير محمود قد تغلب

عليه أشرف ابن عمه واستولى على الملك ونازعه طاهماسب ، وكان هذا أحق بالملك شرعاً فتحارب الاثنان وانتهى الأمر بهزيمة أشرف والتحاقه بسجستان حيث مات وكان عند طاهماسب قائد عظيم اسمه « نادر كولى » كان فى الأصل زعيم أشقياء فزحف صوب تركيا واسترجع الولايات الفارسية التى كانت قد دخلت فى الحوزة العثمانية ، فلم يشأ السلطان أن يثير على فارس حربا ، فغضبت الانكشارية وثاروا وطلبوا رأس الصدر الأعظم ، ورأس شيخ الاسلام ، ورأس القبطان باشى فامتنع السلطان عن إعطائهم رأس شيخ الاسلام ، ولكن قتل لهم الآخرين . فلم يزدهم ذلك إلا تمرداً ، وخلعوا السلطان أحمد وبايعوا محمود الأول

وفى زمن أحمد الثالث دخلت المطبعة فى تركيا وأفتت مشيخة الاسلام بجوازها إلا أنه بقى طبع المصحف الشريف ممنوعاً . وطبع فى ذلك الوقت كتب كثيرة مثل « جيهان نوما » وهو جغرافية للشرق مع أطالس وخلاصات تاريخية . و « تقويم التواريخ » وهو سلسلة ملوك الشرق وعظمائه إلى سنة ١٧٣٢ « وتحفة الكبار » وهي تاريخ البحرية العثمانية إلى سنة ١٦٥٥ « وتاريخ تيمور » من قلم نظمى زاده . و « تاريخ مصر للسهيلى » . و « تاريخ الافغان » مع « مختصر تاريخ الدولة الصفوية فى فارس » . و « تاريخ بوسنه » من سنة ١٧٣٦ إلى سنة ١٧٣٩ وهى مدة اتصلت فيها الحروب فى ذلك الاقليم . و « تاريخ الهند الغربية » . وكتاب « الفيوضات المغنطيسية » يتكلم عن خصائص المغناطيس و إبرته المعروفة . فهذه هى الكتب الأولى التى طبعت بالمطبعة العثمانية بحسب رواية المؤرخ « لاجونكيار LaJonquiére » وقد قرأت فى بعض المظان مايخالف هذا وهو أن أول كتاب طبع فى الأستانة هو « صحاح الجوهرى » . ثم ان الدولة عادت فمنعت المطبعة ، و بقى ذلك إلى زمن السلطان عبد الحميد الأول الذى أصدر خطاً شريفاً فى تاريخ ١٢ مارس سنة ١٧٨٤ باعادة المطبعة تحت ادارة محمد رشيد افندى ، وأحمد واصف افندى . فكانت مدة إهمال المطبعة أربعين سنة ثم إن السلطان محمود الأول اهتم بها مزيد الاهتمام .

وكان السلطان أحمد الثالث شاعراً أديبا ، وله شعر رقيق لا سيا فى الغزل . أحفظ من جملته :

عجباً لسلطان يذل له الورى ويصول سلطان الغرام عليه

وما أكثر الأدباء والشعراء فى آل عثمان ! ! .

السلطان محمود الاول

تولى السلطان محمود الاول سنة ١٧٣٠ ولأول سلطنته ثار الانكشارية وعلى رأسهم المسمى « بترونه خليل » فقمعت الحكومة ثورتهم وقتلت منهم سبعة آلاف وعاد السكون إلى العاصمة . ثم استأنفت الدولة محاربة العجم وأجبرت الشاه طهماسب على طلب الصلح ، فانعقد فى ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ ونزلت العجم عن تبريز ، وأردهان وهمذان ، وجميع اللورستان ، وأيضا تركت لتركيا الداغستان ، وناختشيفان ، وأريفان وتفليس ، وغيرها . ولكن هذا الصلح لم يطل أمره ، فانه برز « نادر كوليخان » من قواد العجم وخلع الشاه طهماسب وصار هو كافلا للمملكة الفارسية ووصياً على القاصر الشاه عباس الثالث . فنقض نادر المعاهدة وغزا البلاد العثمانية وحصر بغداد فاشتبكت معركة شديدة على دجلة وانكسر العجم أولا وثانياً ، ولكنهم عادوا فانتصروا فى المعركة الثالثة ، ووقع السر عسكر طوبال عثمان باشا قتيلا . وكان هذا قائداً بطلا ، ووزيراً عادلا فاضلا ، خسرت تركيا بموته خسارة لا تعوّض . وأرسلت الدولة جيشاً آخر بقيادة السرعسكر عبد الله باشا الكوبرلى بن مصطفى باشا الكو برلى فقتل هذا السر عسكر أيضاً فاضطرت الدولة إلى طلب الصلح وعقدته مع نادر شاه الذى كان تولى سلطنة العجم ، ورجعت مع إيران إلى الحدود التى كانت تحددت بين السلطان مراد الرابع والعجم سنة ١٦٣٩ وأكثر السبب الذي حدا تركيا على طلب الصلح هو نشوب الحرب بينها وبين الروسيا

وكانت بولونيا فى فوضى مستمرة ، فانتهزت الروسيا من جهة ، والنمسا من جهة أخرى الفرصة لأجل اقتسامها . وقاتل « ستانسلاس » ملك بولونيا قتالا شديداً إلا

أن الروس تغلبوا عليه فصارت بولونيا فى قبضة الروسيا ، بينما فرنسا مشغولة بالحرب مع النمسا .

وكان عند الدولة العثمانية رجل إفرنسى اسمه أحمد باشا أصله من البحرية الافرنسية وقد جرت معه وقائع خرج من أجلها من وطنه ودخل فى خدمة النمسا وامتاز بالبسالة فى الحرب بين النمسا وتركيا ، ثم وقع الخلاف بينه و بين البرنس أوجين فألقاه فى السجن ، فوجد وسيلة للفرار من السجن والتجأ إلى تركيا وصار قائداً وتسمّى بأحمد باشا ، وقدّم للسلطان تقريرا يطلعه فيه على أسرار السياسة الأوروبية ، وأشار على السلطان بعقد محالفة مع فرنسا وأقنعه بها ، فرضى السلطان بذلك حتى يتمكن من قهر النمسا . ولما علم كارلس الثانى أمبراطور النمسا بمشروع هذه المحالفة مع فرنسا أسرع بمصالحة هذه ، وفى أثناء ذلك زحف الروس إلى تركيا بينما هى فى حرب مع العجم فاستولوا على آزوف ، والقريم ، وغيرهما .

ولما كانت النمسا قد صالحت فرنسا واستراحت من حروبها مع اسبانيا وسردانيا عبّت جيشاً كبيراً وغزت به بلاد السرب ، والفلاخ ، والبوسنة ، وظنّت نفسها قد نالت مرامها .فانكسر جيشها فى بنالوقة ، والتزمت أن تخلى البوسنة . وكذلك انكسر جيشها فى الصرب تحت قيادة البرنس « هيلدبُورهوَزِن » فطلب أمبراطور النمسا الصلح وذلك سنة ١٧٣٧ وتوسطت انكلترا وهولاندا فى إعادة السلام ، إلا أن الباب العالى اشترط أن يكون الصلح بواسطة فرنسا . واسترجعت الدولة فى تلك النوبة بلاداً كثيرة كانت قد استولت عليها النمسا . ولولا غفلة الحاج محمد باشا الصدر الأعظم لكان الجيش النمسوى قضى عليه بتمامه . فأما الحرب مع الروسيا فكانت سجالا ، ففى البداية انكسر الروس على نهر « الدينيستر » وأحرق الأسطول العثمانى أسطول الروسيا إلا إنهم عادوا فيما بعد فانتصروا على العثمانيين ودخلوا مُلداڤيا . وبمساعدة المركيز « فيلنوف Villeneuve » انعقد الصلح بين الدولتين الروسيا والنمسا ، و بين الدولة العثمانية و ذلك بكفالة فرنسا . و بموجب هذه المعاهدة رجعت بلغراد و « وشاباتز » وجميع بلاد الصرب ، والفلاخ ، وقلعة أورزوفة إلى تركيا .

وجُعِلت هذه المعاهدة لمدة سبع وعشرين سنة ، وقد محت معاهدة كارلوفيتس السابقة التى كانت وصمة عار على العثمانيين .

فاما الروسيا فقد رضيت بالصلح على شرط أن تهدم قلعة آزوف ، ولا يكون لها سفن حربية لا فى قلعة آزوف ولا فى البحر الاسود ، وأعاد الروس جميع البلاد التى كانوا احتلوها من تركيا . وقال المؤرخ الألمانى «هامر Hammar» : إنه فى ذلك الوقت ساد النفوذ الافرنسى فى الآستانة الى أن صار كل شيء بيد فرنسا تقريباً وطلبت فرنسا تعديلات فى الامتيازات الأجنبية المعروفة بامتيازات سنة ١٦٧٣ فأجيبت اليها وذهب السفير العثمانى محمد سعيد ليقدم ذلك الى لويس الخامس عشر فى فرساى فقوبل باحتفال عظيم ، ورجع ومعه مدربون افرنسيس للجيش العثمانى بحسب طلب « بونفال Bonval » الافرنسى الذى كان أسلم وتسمّى بأحمد باشا ، وهو الذى مات سنة ١١٦٠ هجرية ودفن فى « بيره » من بلاد اليونان . ثم إن تركيا عقدت محالفة عسكرية هجومية دفاعية مع السويد فى وجه الروسيا .

وفى ذلك الوقت توفى الامبراطور « كارلس السادس » صاحب النمسا ، وترك الملك لابنته « مارى تيريز » فتحركت أطماع الدول الاوربية وأردنَ اقتسام النمسا . وكانت هذه أحسن فرصة للدولة العثمانية حتى تسترجع بلاد المجر ، وكانت فرنسا على رأس الدول التى تريد تمزيق النمسا ، فدعت تركيا الى الاشتراك معهن فأبى السلطان نقض العهد ، وشرع يرسل المواعظ الى تلك الدول حتى تمتنع عن إثارة الحرب . وأصدر الصدر الأعظم منشوراً طويلا يصف فيه أهوال الحروب بأبلغ العبارات ويختمه بدعوة الدول المسيحية الى السلام . وعبثاً حاول بونفال المسمى احمد باشا وسفير فرنسا وغيرهما تحريك السلطان ورجاله لانتهاز هذه الفرصة ، وساعدهم فى ذلك أرسلان غرائى خان القريم الذى كان يعرف مقاصد الروسيا ، فالدولة العثمانية حينئذ أصرت على التزام السكوت وتوسطت انكلترا بينها و بين الروسيا واوستريا حتى عقدت بين الدول الثلاث معاهدة سلم دائمة . ثم ان الدولة وحّدت بين إمارة الفلاخ وملدافيا وصارت ترسل إلى هناك أميراً تنتخبه من أروام استانبول ، فكان رجال

الدولة يضعون هذه الامارة بالمزاد فيذهب الأمير الرومى من الآستانة فيجمع مايقدر عليه من الأموال بالطرق الدنيئة وغير المشروعة ، و يرشو بها رجال الديوان لأجل إطالة امارته ، حتى إذا جاء من زاد عليه صرفوه عن الامارة وولوا الذى زاد . وهكذا ساءت إدارة الفلاخ والبغدان ، وكان هذا النسق فى الحكم يزيد بغضاء أهالى رومانيا للأتراك ويحملهم على محبة الروس . وقد جنت الدولة العثمانية من تحكيم هؤلاء الأروام فى بلاد رومانيا اتحاد الرومانيين مع الروس فى وجهها وكان ذلك و بالا عليها .

السلطان عثمان الثالث

وفى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٤ توفى السلطان محمود الأول بعد أن ملك أر بعاً وعشرين سنة وكان حليما رؤوفاً محبو باً ، فأسف عليه الناس أجمع ، وخلفه السلطان عثمان الثالث . وكان الصدر الأعظم هو على باشا فاستخف بأمر السلطان وأكثر الغلول من مال الدولة ، فأمر السلطان بقتله ووضع رأسه فى صحن من فضة على باب القصر السلطانى ، وولى الصدارة وزيراً اسمه محمد راغب باشا . وكان فى غاية الدهاء والحكمة مع الحزم والعزم ، وكانت له خبرة بالسياسة الخارجية . ولم يطل أمر عثمان الثالث ولم يحصل شىء فى زمانه سوى حريق لم يسبق له مثيل فى الآستانة التهم نصف هذه العاصمة . ومات عثمان الثالث فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٥٧ .

السلطان مصطفى الثالث

وخلفه ابن أخيه وهو السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث .

وقد بدأت سلطنته فى أثناء حوادث أثارت ثائر الأمة ؛ منها الاعتداء الذى جرى على قافلة الحجاج بين الحرمين ، ومنها أن سفينة أمير الماء ـ أى القبطان باشى ـ خرج منها جنودها و بقى فيها بعض النواتية من الأرقاء المسيحيين فذهبوا بها إلى مالطة .

غير أن السلطان بدأ بالاصلاح فعلا ، وأول ما وجّه اليه همه هو إصلاح الأمور المالية ، وضبط الجبايات ، واتباع سياسة التوفير ولا سيما فى القصر السلطانى . وأخذ

السلطان ادارة الاوقاف من يد « آغا القصر » وسلمها إلى الصدر الأعظم . وكان راغب باشا يبنى المحاجر الصحية توقياً من الطاعون ، ويقوم باصلاحات أخرى مثل بناء دار الكتب العظيمة التى بناها فى استانبول ، وكان مراده أن يشق بلاد الاناضول بترعة تتكون من نهر سقارية ، ومن بحيرة واقعة بين سقارية وإزنيق ، وذلك تسهيلا لنقل الحبوب والاقوات فمات قبل أن يتمكن من إجراء هذه الفكرة الحسنة وكانت وفاته سنة ١٧٥٢ .

وبينما كانت الدولة فى أشد الحاجة إلى مثل راغب باشا جرت حوادث فى غاية الخطورة ، منها قتل بطرس الثالث قيصر الروسيا وجلوس كاترينة الثانية على عرش تلك المملكة ، وموت أوغوست الثالث ملك بولونيا ، وكانت الروسيا قد دخلت فى صف الدول العظام ، وأخذت تنمو بسرعة فوجهت جميع دسائسها إلى إسقاط مملكة السويد ، ومملكة بولونيا والسلطنة العثمانية . وقد تغلبت على السويد ونزعت من يدها بموجب معاهدة « نيستاد » أحسن ولاياتها فى البلطيق الغربى ، ثم قضت الروسيا على مملكة بولونيا وأجلست على عرش هذه المملكة الكونت « ستانسلاس بونياثوفسكى » عشيق القيصرة كاترينة أو أحد معشوقيها الذين كان لا يأخذهم الاحصاء ، فاحتجت تركيا وفرنسا على عمل الروسيا هذا ولكن الدولة العثمانية كان بلغ منها فساد الادارة وفشو الرشوة والخيانة إلى أقصى حد يتصوره العقل وكان الانكايز يستعملون المال فى جميع مقاصدهم ، وينالون به جميع مايريدونه من الدولة وكان السلطان يعرف كل ذلك ولا يقدر على الاصلاح نظراً لشمول الفساد وعموم البلوى حتى أنه قال لخان القريم : إن جميع الباشوات الذين عندى قد فسدت أخلاقهم ولم يبق لهم هم الا فى اقتناء الجوارى ، وآلات الطرب ، وبناء القصور . وفى أثناء ذلك اعتدى الروس على حدود الدولة ودخل القوزاق الى « بالطة » فأعلنت الدولة الحرب على الروس ولكن كانت جيوشها فى أسوأ حالة ، وكان مضى زمن طويل وهى خافضة فى السلم فنسيت أهم معدات القتال ، وكانت قلاعها قد تداعت الى الخراب ، وكانت المدفعية فى أشنع حال ، وكان الولاة قد أخذوا يستقلون فى ولاياتهم مثل احمد باشا فى بغداد

والحاج يمكلى فى طرابزون ، والمملوك على بك فى مصر ، وغير ذلك . وثار يومئذ ظاهر العمر الزيدانى فى عكة .

هذا ولما أعلنت تركيا الحرب على الروسيا زحف خان القريم كريم غرائى فاخترق حدود الروسيا ، وهزم الروس وعاد الى بندر بخمسة وعشرين الف أسير منهم . ولسوء الحظ مات كريم غرائى فى أثناء ظفره هذا ، فزحف الروس وحاصروا « شوقسين » فامتنعت عليهم ، وجاء أمين باشا قائد العثمانيين لنجدة التتر فانهزم وأمر السلطان بقتله . وخلفه وزير يقال له « المولدوفنجى » فلم يتوفق لانه بينما كان يعبر نهر دنيستر طغت المياه فزعزعت أركان الجسرين اللذين على النهر ، فازدحم الجيش العثمانى ازدحاماً ساعد على انهيار الجسور فغرق منه عدد كبير ، بينما كان الروس يرمون على الجيش بنيرانهم فانكفأ العثمانيون الى نهر الطونه ، ودخل الروس الى بلاد رومانيا . ثم أرسلت الروسيا أسطولا الى البحر المتوسط فأثار بلاد الموره ، وبلاد الجبل الأسود ، فتوالت الوقائع بين الأتراك وبين الثائرين من الأروام ، ومن السلاف واشتعلت الحرب بين الأسطولين العثمانى والروسى ، واحترق الأسطول العثمانى فى « ششمه » . وكان يقود الأسطول الروسى « أورلوف » الشهير عشيق القيصرة كاترين الثانية ، ولكن قيادته كانت اسمية والفعل كان لأمير الماء الايكوسى المسمى « الفنستون » وأراد الفنستون هذا أن يخترق الدردنيل فأبى أورلوف أن يطيعه وجاء فحصر جزيرة لمبى التى هى قبالة ذلك البوغاز . وكان العثمانيون قد بادروا الى تحصين الدردنيل ، وحشدوا على الضفتين ثلاثين ألف مقاتل ، وهكذا أمنوا خطر عبور الروس الى الأستانة .

وأما فى رومانيا فدارت الدائرة أيضاً على العثمانيين ، مع أنه كان عندهم هناك مائة وثمانون ألف مقاتل ، وأوشكوا أن يحيطوا بالروس ، ولكن بسوء إدارتهم تغلّب الروس عليهم فى معركة « كاهولو » وقيل إنهم فقدوا خمسين الف مقاتل . ولم يكن من يفكر فى حفظ شأن السلطنة غير السلطان وحده ، وكان الوزراء كلهم تحت تأثير الانكليز يريدون الصلح ، وقد طلبوا وساطة النمسا لذلك . وكان البارون «دوطوط

de Tott » الافرنسي يشتغل بأمر السلطان فى ترميم المدفعية العثمانية ، اذ بعد أن كانت هى المدفعية الأولى فى أوربا تقهقهرت الى الدرك الأسفل ! ! فأنشأ السلطان مدرسة للمدفعية والهندسة فى الكاغدخانه ، وكذلك بنى السلطان مدرسة للبحرية وذلك فى دار الصنعة التى يقول لها الأتراك « الترسانة » وكانت البحرية وصلت الى أقصى حدود الخلل وصار القبطان باشى - أى ناظر البحرية - يضع السفن تحت المزاد ، فالذى يزيد له فى الرشوة يقلّده قيادة السفينة . ومما لا شك فيه أن البارون دوطوط خدم العثمانيين فى ذلك الوقت خدمة جزيلة فى ترميم المدفعية والبحرية .

وفى سنة ١٧٧١ هاجم حسن بك التركى ومعه أربعة آلاف متطوع جزيرة « لمنى » وهزم الروس وألجأهم الى الفرار بأسطولهم ، فكافأه السلطان بنظارة البحرية وانهزم الروس أيضاً فى كرجستان ، وفى طرابزون ، إلا أنهم تغلبوا على القريم وكانت هذه قاصمة الظهر لتركيا اذ أعلن البرنس الروسى قائد جيشهم استقلال القريم عن تركيا ، ووضعها تحت حماية الروسيا . ومن بعد ذلك صار البحر الأسود بين الدولتين بعد أن كان عثمانياً بحتاً .

أما النمسا فقد اتفقت مع بروسيا والروسيا على اقتسام بولونيا ، ثم توسطت النمسا فى الصلح بين تركيا والروسيا واجتمع رجال الدول الثلاث فى مولداڤيا ، وعندمابدأوا بالمذاكرات الصلحية اشتطّ الروس فى مطالبهم فرفضت تركيا صلحاً كهذا ، واستؤنفت الحرب . فانكسر الروس فى « روسجق » و « سيلستريه » من بلاد البلغار . فذهبوا الى « بازرجيك » وهى مدينة غير محصنة فانتقموا عن هزائمهم بقتل الأهالى وفيهم النساء والأطفال ، وروى المؤرخ « هامر » أن حسن باشا قبطان البحر على رأس جيش من السباهية طرد الروس الى ماوراء الدانوب ، وغنم مدافعهم وأرزاقهم وقدور الطعام فيها اللحوم وهى نصف ناضجة .

ثم إن الدولة تغلّبت على علي بك الثائر بمصر بالاتفاق مع ظاهر العمر الزيدانى والى عكة الذى كانت السفن الروسية تمدّه بالمال والسلاح ، ولسوء طالع السلطنة مات مصطفى الثالث بينما كان يريد أن يقود الجيش المرابط على الدانوب ، وذلك

فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٣ وأسفت الأمة العثمانية بأجمعها عليه ، لأنه كان مصلحاً كبيراً ، وجاء فى زمن بلغت فيها الادارة أبعد ما يتصوره العقل من الخلل ، فعالج أمراض السلطنة بصبر عجيب ، وأصلح جانباً كبيراً مما كان ينوى إصلاحه .

وقد فكر السلطان فى خرق برزخ السويس وكلف البارون دوطوط بأن يرسم له خطة لهذا المشروع الذى كان ينوى إجراءه بعد عقد الصلح .

السلطان عبد الحميد الأول

فتولى الملك السلطان عبد الحميد الأول والملك جمرة تضطرم ، ولم تصل الفوضى فى السلطنة العثمانية إلى مثل ما وصلت إليه لذلك العهد ، فان أحمد باشا والى بغداد كان قد أعلن استقلاله ، وظاهر العمر الزيدانى كان قد استفحل أمره واستولى على بلاد الجليل التى يقول لها العرب « بلاد الأردن » وحصّن عكة واتخذها عاصمة له وكان محمد بك والى مصر ثائراً تقريباً ، وكان محمود باشا والى اشقودره فى شمالى ألبانيا قد انفصل عن الدولة ، وكان أهم منه على باشا والى يانيا الذى أسس في جنوبى ألبانيا مملكة مستقلة .

دخل عبد الحميد الأول على السلطنة وهى بهذه الحالة ، وجاءت الروسيا وأعلنت عليه الحرب انتقاماً عن هزائمها الماضية ، وأسرع القائد الروسى الكونت « رومانسوف » فقطع بين الجيش العثماني و بين ميرته التى كانت فى « ڤارنة » فوقع الرعب فى الجيش وتبدّد شمله ، ولم يبق مع السرعسكر إلا ١٢ ألف مقاتل . فرأى السلطان أن مداومة الحرب مستحيلة ، وعقد مع الروسيا معاهدة « كوتشوك قينارجى » فى ٢١ يوليو سنة ١٧٩٤ . و بهذه المعاهدة انسلخت بلاد القريم ، و بلاد بوجاق ، و بلاد قوبان عن تركيا ، واستولى الروس على كيلبورم ، و ينى قلعة ، وآزوف ، وصار لهم حق الملاحة فى البحر الأسود ، ورجعت الفلاخ والبغدان إلى تركيا ولكن مع الاعتراف للروسيا بحق إبداء رأيها فى شئون تينك الامارتين ، وكذلك صار للروسيا حق آخر وهو

التكلم فى الشئون العائدة للمسيحيين وكنائسهم ، مما كان السبب فى الحرب المسماة بحرب القريم سنة ١٨٥٤ .

قال هامر مؤرخ السلطنة العثمانية : من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية فى قبضة الروسيا ، وقلما وُجدت معاهدة على تركيا أشأم منها ، ولم ينشف الحبر على الورق حتى أعملت الروسيا دسائسها فى شبه جزيرة القريم ، فثار الأهالى وخلعوا « دولة غرانى » الأمير الشرعى وبايعوا «شاهين غرانى» الذى انضوى تحت لواء الروسيا . فلم يقبل أشراف البلاد أن يدخلوا فى طاعة الخان الجديد ، فاستنجد هذا كاترينة فارسلت اليه جيشاً سبعين الف عسكرى ، فقبضوا على أشراف البلاد وأعيانها ، وقتلوا منهم وغرّبوا وارتكبوا الفظائع ، وانتهى الأمر بخضوع القريم للحكم الروسى . و بعد أن قضت الروسيا وطرها من القريم رمت الخان شاهين هذا الى الخارج ، فلجأ الى تركيا فنفوه الى رودس ، وقيل إنهم قتلوه . وصارت القريم والقوبان من ذلك العهد جزءاً من الروسيا ، واعترف الباب العالى بذلك سنة ١٧٨٤ وكانت النمسا والروسيا متفقتين حينئذ ، وتعاهد الامبراطور يوسف الثانى صاحب النمسا ، والقيصرة كاترينة على اقتسام تركيا . فاضطر الباب العالى أن يعلن الحرب على الدولتين ، فزحفت الجيوش النمسوية من جهة بلغراد فكسرها الصدر الأعظم فى « لاغوس » واكتسح بلاد « البانات » التى كانت لتركيا من قبل . وهاجم الاتراك مدينة « كيلبورم » فامتنعت عليهم لان الروس أحسنوا الدفاع عنها ، واستولوا على « هوقسيم » وعلى « أوقزاقوف » وجاء قبطان البحر حسن باشا لينقذ « أوقزاقوف » فخسر خمس عشرة سفينة ، وأحد عشر الف مقاتل ، فكانت نتيجة هذه الفادحة أن الروس دخلوا « أوقزاقوف » وذبحوا ٢٥ الف نسمة من أهلها .

وفي أثناء هذه الحرب ظهر رجل فى الأناضول تسمى بالشيخ « أوعلان أولو » وزعم أنه المهدى ، وكاد يثير الأناضول كلها على الدولة . ومن الغريب أن هذا المهدى كان فى الحقيقة رجلا طليانياً اسمه الأصلى « جيوفنّى فاتيستابوتّى Jiovanni Battista Boatti » ولد فى « بيازانو » من إيطاليا ، ودخل راهباً عند الدومينيكان

فى « رافين Ravenne » فأرسلوه إلى الموصل ، فاختلف هناك مع المطران وخرج من الدير وأخذ يجوب بلاد الأناضول ، و بلاد إيران ، وانقلب من الرهبانية إلى القيادة العسكرية ، و إلى الدعاية المهدوية ، وأخذ يخطب فى الأمصار فى إعادة الاسلام إلى نقائه الأول كما كان عليه السلف ، فانقاد الناس إلى كلامه وأطاعوه ، وزحف إلى أرضروم واستولى عليها وتلقب بالمنصور ، وأراد أن يتقدم منها إلى سيواس . فأرسل الباب العالى رسله إلى هذا المهدى يقول له : إنه مادام المهدى المنتظر فليظهر حماسته الدينية فى محاربة الروسيا ؛ فاقتنع المهدى المنصور بهذا الكلام وسار إلى القوقاس يحارب الروس ، وانتصر فى الوقعة الأولى على القائد الروسى « أبركسين » ثم انكسر وما زال يحارب مدة أربع سنوات والحرب بينه و بين الروس سجال ، إلى أن وقع فى أيدى الروس أسيراً فعاملته كاترينة معاملة حسنة ، وأجرت عليه رزقا كافياً وعاش فى دير الأرمن الكاثوليك إلى سنة ١٧٩٨

أما السلطان عبد الحميد الأول فبعد توالى هذه المصائب على المملكة مات غماً وذلك فى ٧ ابريل سنة ١٧٨٧ .

السلطان سليم الثالث

وتولى مكانه ابن أخيه السلطان سليم الثالث ، وكان عبد الحميد بخلاف السلاطين السابقين برًّا بأهله ، فكان يعامل السلطان سليما معاملة الأب لابنه

فجلس السلطان سليم أسوأ ما كانت السلطنة حالا ، وكان سليم مقتنعاً بوجوب إصلاحها والأخذ فى إدارتها بالطرق العلمية الأوربية . وكانت هذه الفكرة قد ملأت دماغه فتجشم مشقة إجرائها ، وأنفذ كثيراً منها . وكان حميد الخصال عاقلا حليما ، فبدأ ملكه بالعفو والمرحمة ، وساعد المديونين بأداء ثلاثين فى المئة إلى دائنيهم من خزانة السلطنة تخفيفاً للازمة الاقتصادية ، ولكن طالع الحرب كان لا يزال مشئوماً . فان قبطان البحر حسن باشا انكسر فى «فورشانى» في ٢١ يوليو سنة ١٧٨٩ و بعد ذلك بشهرين لحقت بالعثمانيين هزيمة أخرى ، وكانت الفلاخ ، ومولداڤيا ، و بلاد الصرب

فى أيدى الاعداء ، والروس يحاصرون قلعة اسماعيل التى هى معقل العثمانيين الأعظم على الدانوب ، وكانت الخزانة فارغة ، فكانت من كل جهة علامات الشؤم مُطبقة إلا أن حادثاً جاء يخفف الازمة وهو موت يوسف الثانى أمبراطور النمسا سنة ١٧٩٠ فان أخاه ليو بولد خالف السياسة التى كان سائرا عليها أخوه فى عداوة تركيا وعقد الصلح مع الباب العالى ، وأعاد اليه جميع البلاد التى كانت النمسا احتلتها من تركيا سوى بعض أماكن على ضفة « نهر الأُنَّة » ولكن الروس لبثوا ظافرين ، وفتحوا قلعة اسماعيل عنوة بعد حصار شديد يفوق الوصف ، فذبح الروس جميع المسلمين كباراً وصغاراً ، رجالا ونساء ، واستمرت المذبحة ثلاثة أيام ، ولما وصل الخبر إلى استامبول ثار الشعب وطلبوا الاقتصاص من رجال الدولة ، فقتلوا لهم الوزير حسن باشا الذى كان قبطان البحر برغم ما كان من بسالته وقيامه بواجباته ، وكان السرعسكر يوسف باشا قد انهزم أيضاً فى « بانشين » فتدخلت انكلترة وبروسيا فى الصلح ، وانعقدت معاهدة « ياسى » فى ٩ يناير سنة ١٧٩٢ وبموجبها استولت الروسيا على القريم ، وعلى شبه جزيرة طامان ، وقسم من قوبان ، وقسم من بسارابيا ، ومدينة أوقزاقوف وغير ذلك .

ونبغ فى ذلك الوقت « كوتشوك حسين باشا » فتولى نظارة البحرية ، وكان صهراً للسطان ، وكان متحلياً بمزايا نادرة ، ولو لم يمت قبل وقته وذلك سنة ١٨٠٣ لبلغت تركيا بواسطة هذا الوزير الدرجة القصوى من الرقىّ ، فانه بدأ فطهَّر البحر من القرصان بعد أن طال عَيْثُهم فيه ، ثم أخذ بترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة ، ثم انتدب مهندسين من فرنسا والسويد ، ثم أخذ بانشاء الاساطيل ، وجدّد مدرسة المدفعية ، ومدرسة البحرية اللتين كان أنشأهما البارون الافرنسى دوطوط . وأنشأ خزانة كتب تشتمل على أحسن كتب الفن ، واعتمد فى أكثر اصلاحاته العسكرية على ضباط الفرنسيس وأدخل اصلاحات فى دار السبك فى الطوبخانة ، وكانت الروسيا تنظر إلى هذه النهضة العثمانية بعين الحذر ، وقد تحفَّزت للنكث « بمعاهدة ياسي » وثار فى ذلك الوقت باشا

« ودين » من بلاد البلغار ، فساقت الدولة عسكرا لمحاربته ولكنها التزمت أخيرا أن ترضيه بترك ودين له مدة حياته .

وكانت هذه الفتن المصطلمة المستمرة فى السلطنة العثمانية فى داخلها ، وهذه الحروب المضطرمة المستمرة عليها من خارجها ؛ قد أطمعت فيها دول أوربا ، وصيرتها تفكر فى دنو أجل هذه السلطنة . وصارت كل دولة تتحفز للاستئثار بشقص من هذه التركة . وقد كان حديث اقتسام أوربا للسلطنة العثمانية قديماً ، وطالما تذاكرت الدول الأوربية جمعاء فى هذا الأمر ، أو تفاوض القسم الاكبر منها فى إتمامه ، وكان يحول دول ذلك الاختلاف فيما بينهن ، مع صعوبة إتمام العمل بنفسه ، لأنه ليس بسهل . وقد لخصنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » كتاباً لأحد وزراء رومانيا اسمه « مئة اقتسام لتركيا » يدل بالوثائق على قدم الفكرة الصليبية فى أوربا وعدم انقطاعها ، ومن الغريب أن الاوربيين فكروا فى هذا الأمر أيام كانت تركيا فى عنجهية أمرها ، وكانت جيوشها توغل فى قلب أوربا . فبديهى أنهم ازدادوا تفكيراً به بعد أن ظهرت عليها علامات الانحطاط ، وتوالت فيها الثورات ، وتحفز رعاياها البلقانيون المسيحيون كالسرب ، واليونان ، للانتقاض عليها .

فلما تولى سليم الثالث السلطنة كان الناس فى أوربا يعتقدون أن أجل السلطنة أصبح قريباً جداً ولذلك قررت الحكومة الفرنسوية غزو الديار المصرية ، وحاولت اقناع تركيا بان هذه الغزاة لا تنوى بها فرنسا العداوة لتركيا ، و إنما تريد بها سبيلا الى الهند ، كما أنها ترى حكم المماليك فى مصر شيئاً أشبه بالفوضى فتريد القضاء عليه . وكانت انكلترة فى غيرة شديدة من نفوذ كلمة فرنسا لدى الباب العالى ، فلما غزت فرنسا مصر اهتبلت فى ذلك الفرصة حتى تقربت الى الحكومة العثمانية ، وصارت معها يداً واحدة . فأعلنت الدولة الحرب على فرنسا ، واتحدت معها انكلترة والروسيا وقبضت الدولة على معتمد فرنسا وحبسته فى الأبراج السبعة بالأستانة ، وضبطت أملاك الفرنسيس فى جميع البلاد العثمانية . وكان الفرنسيس قد تغلبوا على المماليك فى واقعتى « الاهرام وامبابة » وسقطت مصر كلها فى أيدي الفرنسيس وجاء جيش

عثماني بقيادة مصطفى باشا عدده ١٨ الفاً فنزل عند أبي قير ، وقبل أن يتحصن في مراكزه هجم عليه بونابرت ومزّقه شر ممزق ، الاّ أن الأسطول الانكليزى أحرق الأسطول الافرنسى فى مياه أبى قير ، فتعذّر على الفرنسيس إنجاد عسكرهم ، وصار كالمحصور . ومع هذا فقد زحف « بونابرت » الى سورية ، وما زال يتقدم حتى وضع الحصار على « عكة » وكان لو أخذها استولى على سورية ، وربما وصل الى الأستانة . وهذا شيء لا يقدر مؤرخ أن يجزم به ، وإنما يتفق العقلاء على أن فشل بونابرت أمام عكة قضى على آمال فرنسا فى هذه الحملة المصرية . « فاحمد باشا الجزّار البوسنوى » قائد الحامية العثمانية فى عكة « والاميرال سيدنى سمث » قائد الأسطول الانكليزى في بحر عكة ، ردّا بونابرت خائباً . فرجع الى مصر ومنها أبحر الى فرنسا ، وترك قيادة جيشه للجنرال « كليبَر » . فأخذ الانكليز يفاوضون كليبر فى الصلح ، ولكنهم طلبوا منه تسليم جيشه فأبى قبول هذا الشرط المهين ، فجاء واحد اسمه سليمان الحلبي سار من حلب الى مصر بمجرد حميته ، وطعن كليبر بخنجر فقتله ، فأنقذ الاسلام من عدو كبير . فخلفه الجنرال « منُو » فانكسر ، وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٨٠١ على إخلاء الفرنسيس للديار المصرية .

وكان السلطان راغباً جداً فى عقد الصلح ، وذلك لأن الفتوق كانت متوالية من كل جهة ، فالانكشارية عصوا فى بلغراد واستولوا على القلعة . وكانت عصائب من الأشقياء تعيث فى بلاد البلغار ، ومكدونية . وكان السربيون بقيادة «قره جورج» جد العائلة المالكة اليوم قد رفعوا لواء الثورة . وكان « على باشا تبلى » المتغلب على يانيا قد أعلن استقلاله عن الدولة ، وكان الوهابيون قد غزوا الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين ، وكانت فى نفس العاصمة ثورة أحدثها الانكشارية بالاتفاق مع العلماء بسبب التشكيلات العسكرية التى قام بها السلطان سليم مقتدياً فيها بالجيوش الأوربية ، وقد أطلق عليها اسم « النظام الجديد » فوقع القتال بين الانكشارية والنظام الجديد ، وانتهى الأمر بغلبة الانكشارية .

وفى ذلك الوقت رجع التقارب بين تركيا وفرنسا ، وأرسل بونابرت الجنرال

« سباستيانى » لأجل حمل الباب العالى على محاربة الروسيا ، وكان الباب العالى عزل أميرى الفلاخ ، ومولداڤيا صنيعتى الروسيا ، فأرسل اسكندر الأول قيصر الروسيا عسكراً احتل تينك الامارتين وأعلنت الحرب .

ثم لم تكف الثورات الداخلية . والفتن والحرب مع الروسيا ، حتى جاء الانكليز يطلبون من الدولة أن تعقد تحالفا مع الروسيا وانكلترة ، وأن تعلن الحرب على فرنسا ، وتطرد الجنرال سباستيانى الذى أرسله بونابرت إلى الاستانة ، وأن تتخلى عن الفلاخ ومولداڤيا للروسيا . وقد طلبوا أن يتسلموا الدردنيل والأسطول العثمانى . فأبى الباب العالى قبول هذه الشروط ، ودخل الأسطول الانكليزى من الدردنيل الذى كانت حصونه ضعيفة جداً بسبب إهمال الاتراك لها . وكان الأسطول العثمانى أمام غاليبولى فأحرقه الانكليز ، ولما وصل الخبر الى الأستانة عوّل رجال الدولة على الاستسلام لارادة الانكليز والروس ، وأشاروا على السلطان سليم بترك كل مقاومة ، إلا أن الانكشارية والأهالى ثاروا عليهم ، وأجبروا السلطان على المقاومة واستفاد من ذلك الجنرال سباستيانى والفرنسيس ، وانضم إليهم سفير أسبانيا ، وحرّضوا الأهالى على القتال ، وابتدأت التحصينات بالعاصمة بينما الأميرال الانكليزى دوكنورت يتفاوض مع رجال الديوان فى شروط الصلح . فما مضت خمسة أيام حتى كانت الحصون قد ترممت وصار فيها تسعمائة مدفع ، وكان ناظر البحرية من حزب المقاومة مخالفا لزملائه ، فجهز عشر بوارج وأعدها للقتال . فلما رأى الاميرال دوكنورت أنه بهذه الايام الخمسة التى أضاعها فى المفاوضات الصلحية أصبحت الأستانة فى منعة عظيمة ، خاف على أسطوله فأسرع بمفارقة الاستانة ، و بينما هو عابر الدردنيل أطلقت عليه الحصون مدافعها فأغرقت له بارجتين وأهلكت ستمائة بحرى.

فغضب الانكليز وأرادوا الاستيلاء على الديار المصرية ؛ وكانت الدولة قد أرادت التخلّص من المماليك فثاروا عليها وتغلبوا على خسرو باشا فى دمياط .

محمد على باشا

وكان هناك قائد ألبانى اسمه « محمد على » من ذوى التدبير استفاد من سوء إدارة المماليك ، واستجلب إلى ناحيته عواطف الأهالى ، فصار له حزب عظيم وثاروا على المماليك ، وثاروا أيضا على خسرو باشا الوالى من قبل الدولة وسفّروه إلى الاستانة . فأرسلت الدولة مكانه خورشيد باشا ، فأراد هذا أن يتخلص من محمد على فلم يقدر عليه بسبب انتصار الاهالى له . وألح المصريون على الدولة بتولية محمد على على مصر ، فرضيت الدولة بذلك تسكينا للفتنة ، وأصدرت الفرمان بولاية محمد على ، على أن يدفع لها خراجاً سنوياً سبعة ملايين فرنك ، وكان ذلك سنة ١٨٠٥ . فاتفق المماليك تحت رئاسة « محمد بك الألفى » مع الانكليز وشرع الفريقان بمحاربة الدولة ، واحتل الجنرال « فريزر » الانكليزى الاسكندرية سنة ١٨٠٧ إلاّ أن محمد على لم يكن على طرز المماليك فى الاهمال ، فتغلب على الانكليز ، واسترجع الاسكندرية ، وأعلنت الدولة الحرب على انكلترة وجرت معركة بحرية هائلة بين الأسطول العثمانى والأسطولين الانكليزى والروسى على باب الدردنيل .

وفى ذلك الوقت عادت الثورة إلى الاستانة ، وكان الصدر الأعظم غائباً مع أعوانه الوزراء فى سد الفتوق البعيدة فتولى الأمر قائمقام الصدارة ، فخان السلطان وأفسد بين الجند ، فهاجموا القصر وطلبوا من السلطان أن يسلمهم سبعة عشر شخصاً من رجاله ليقتلوهم . وكان السلطان توقف عن مقابلة الانكشارية بالعسكر الجديد تحرجاً من سفك الدماء بين عساكره ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على تسليم رجاله للقتل ، وفى مقدمتهم « البُستانجى باشى » الذى عند مارأى استفحال الثورة و إحاطة الانكشارية والجيش المسمّى « يَمَك » بالقصر أراد أن يستسلم إليه ليقتلوه ويخلص مولاه السلطان من هذا المأزق وأخذ السيف يعمل فى جميع أنصار الاصلاحات الجديدة ثم ازداد تمرد الجند حتى طلبوا خلع السلطان سليم نفسه ، فاستفتوا شيخ الاسلام قائلين له : إذا كان السلطان مخالفاً لأحكام القرآن فهل يجوز بقاؤه على عرش السلطنة ؟

فأجاب شيخ الاسلام : كلاّ والله أعلم بما يجب . وكان رئيس الثورة رجلا يقال له « قاباقتجى أوغلو » فاستند على هذه الفتوى وخلعوا سليم الثالث

السلطان مصطفى الرابع

وبايعوا مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول ، ودخل شيخ الاسلام فأبلغ السلطان سليم فتوى الخلع وإرادة الشعب . فتلقى السلطان سليم هذا الأمر بالصبر الجميل واعتزل جانباً وأخذ يقضى أوقاته فى تعليم محمود ابن عمه الذى تولى السلطنة فيما بعد باسم محمود الثانى . ولما وصل الخبر إلى الانكشارية على نهرطونة زاطوا فرحاً ، وثاروا على الصدر الأعظم وجعلوا مكانه شلبى مصطفى باشا .

وصار الحكم فى استانبول لشيخ الاسلام ، وقائمقام الصدارة ، ولكن لم يطل الأمر حتى وقع الخلف بينهما واستفاد « قاباقتجى أوغلو » من ذلك فانحاز إلى شيخ الاسلام وأسقطا الصدر الأعظم فقام مقامه طيّار باشا فاختلفا معه أيضاً فأسقطاه فالتجأ إلى مصطفى باشا البيرقدار والى رُسجق . وكان البيرقدار من حزب السلطان سليم ، فقرر أن يزحف إلى الآستانة ويخلصها من هذه الفوضى ويرد سليما إلى السلطنة . فأرسل من قبله سعاة إلى الصدر الأعظم – وكان الصدر مصطفى شلبى – فأكد له أن كل مراده تخليص الآستانة من شيخ الاسلام وقاباقتجى أوغلى ، فوافق الصدر على ذلك ، وما لأهم السيد على ناظر البحرية ، وزحف البيرقدار بستة عشر ألف عسكرى على الاستانة ، فلما علم السلطان مصطفى الرابع بهذه الحركة صدر أمره بعزل شيخ الاسلام وأعوانه ، وحل نظام عسكر اليَمَك . وكان مصطفى البيرقدار على باب الاستانة ، فأظهر رضاه وظن السلطان مصطفى أن الفتنة قد انقضت ، وذهب إلى كوشك كوك صوتنيز"ه ولكن البيرقدار كان ناوياً أن لا يرجع حتى يرد السلطان سليما إلى السلطنة ، فهاجم القصر واتفق الانكشارية معه ، وبلغ السلطان مصطفى ذلك فرجع إلى القصر ، وأرسل إلى البيرقدار يقول له ليتمهل فانه لا يلبث أن يخرج إليه السلطان سليم . وفى الوقت نفسه أمر مصطفى الرابع جماعة من رجاله بقتل سليم الثالث ، وكان السلطان سليم

قوى البنية موفّق العضلات ، فصرع جملة ممن هاجموه قبل أن سقط قتيلا . ولما قيل للسلطان مصطفى أنه قد قُضى عليه جاء ونظر إليه وقال : قولوا لباشا روسجق ليأخذ الآن السلطان سليم الذى يريده ، وكان البيرقدار ويقال له أيضاً « العَلَمدار » قد دخل القصر عنوة ، فرأى السلطان سليم مدرجاً بدمائه فصاح وَىْ أفندم . وأخذ يلطم نفسه ويبكى . فقال له سيد على ناظر البحرية : ليس لباشا روسجق مصطفى العلمدار أن يبكى بكاء النساء، فلندع البكاء ولنقتصّ من قتلة السلطان السليم ولنخلص السلطان محمود الذى يجوز أن يقتل أيضاً . فرجع البيرقدار إلى رشده وخلع السلطان مصطفى وحبسه

السلطان محمود الثانى

وبايع أخاه محموداً بالسلطنة وذلك فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٨ .

وفى سنة ١٩١٧ طفت أنا محرر هذه السطور مع بعض زملائى نواب الامة العثمانية فى قصر طوب قبو مقر السلاطين العظام قبل أن صاروا يسكنون فى قصر « طولمه بغجه » وكشك « يلدز » وكان يدلنا على آثاره التاريخية ، وأقسامه الكثيرة المدهشة ، المؤرخ أحمد رفيق بك . ولما وصلنا إلى الغرفة التى قتل فيها السلطان سليم الثالث رحمه الله دلنا على المكان الذى سقط فيه صريعاً ، وهو لا يزال معروفاً إلى الآن . وبهذه المناسبة روى لنا حادثة مصطفى العلمدار هذه بتفاصيلها وقال: إن الذين قتلوا السلطان سليما أرادوا قتل السلطان محمود أيضاً بحيث لا يبقى غير السلطان مصطفى فيضطر العلمدار إلى قبول سلطنته ، فانه كان لم يبقَ إلّا سليم ومصطفى ومحمود ، فجماعة مصطفى بعد قتل سليم جاسوا خلال القصر ليجدوا محمود ليقتلوه ، فكان الجوارى أخذن محمود وخبأنه فى مدخنة لم تخطر على بال القَتَلة ، فبقى مختبئاً فى هذه المدخنة إلى أن قبض مصطفى باشا البيرقدار على السلطان مصطفى ، فأخرجوا محموداً من المدخنة وبايعوه سلطاناً . ولو لم يوجد محمود لكانوا مضطرين أن يبقوا طائعين للسلطان مصطفى . قال لنا رفيق بك ، إنه أدرك جارية عاشت طويلا ، وماتت فى زمان

السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود ، وكانت تقص له كيفية قتل السلطان سليم الثالث لأنها شهدت ذلك عياناً .

ولما تولى السلطان محمود الثاني ولّى البيرقدار مقام الصدارة العظمى ، فبدأ هذا بقتل جميع أعوان السلطان مصطفى ، وزعماء عسكر اليَمَك . وانفرد البيرقدار بالأمر والنهى وعقد مجمعاً من جميع الاعيان والوزراء ، وأوضح لهم وجوب إصلاح أوجاق الانكشارية وتأسيس جيش يضارع الجيوش الاوربية فى تعليمه ومعداته . وقال الصدر الأعظم إنه هو من جملة الانكشارية ، وهو يفتخر بكونه من هذا النظام ، ولكنه يرى أن هذا النظام قد فسد ، وأنه كان نظاماً لا يُغلب لو لم ينحرف عن جادة تعاليم الحاج بيكتاش . ولكن هذا الجيش بعد أن كان مدة قرون هو عماد السلطنة ، وكان العالم يرتجف خوفاً منه ، آل من الفساد إلى أن فقد كل مزاياه القديمة ، ونسى جميع القوانين التى كان فرض عليه العمل بها السلطان سليمان القانونى ، وصار الترقى فيه بالرشوة وصارت الرتب تحت المزاد ، وعم الجهل بالفنون العسكرية فانحطت منزلة هذا الجيش انحطاطاً عظيما ، ولذلك فقد أمرنى السلطان بأن استأصل جميع هذه المفاسد من أوجاق الانكشارية ، وأن أجبر جميع الانكشارية غير المزوجين على السكن فى الثكن العسكرية ، وأن لا أدفع رواتب إلاّ للانكشارية المقيمين فى الثكن ، وأن أمنع بيع الجرايات والرواتب ، وأن أوجب على جميع الانكشارية التقيد بتعاليم السلطان سليمان واتباع الطرق العصرية الاوربية التى أفتى العلماء بوجوب اتباعها ، كما أن مولاى السلطان عازم على تأسيس جيش جديد من شبان المسلمين ، ومن أنفس الانكشارية يتلقّى الطرق العصرية الأوربية التى يمكنه أن يقاتل بها الكفار بنجاح ، هذا مع المحافظة على نظام الطاعة والاتحاد الذى كان عند الانكشارية القدماء .

فوافق جميع الوزراء وأعيان السلطنة على هذا القرار ، وأفتى شيخ الاسلام بوجوبه وظن الناس أن كل شيء قد انتهى .

إلا أن فوز البيرقدار كان عظيما إلى حد أن غصّ به النظراء ، وصاروا يتربصون به الدوائر . وكان قد أغضب العلماء باحتقاره إياهم ، وبعزمه على التصرف بأوقاف

المساجد ، وارتكب البيرقدار خطيئة تبديد الجيش الذى دخل به الأستانة ؛ فانه كان أرسل منه اثنى عشر الفاً إلى مدينة « فيلبّه » لقتال « مولّا أغا » الثائر بها فلم يبق عنده إلاّ سبعة آلاف لم يكونوا بقوة كافية ليمنعوه من أعدائه ، فزحف الانكشارية إلى القصر لينقذوا السلطان مصطفى الرابع و يردّوه إلى السلطنة، فقابلهم البيرقدار بشرذمة من العسكر الجديد فلم يقدر عليهم لتفوقهم فى العدد ، فقتل السلطان مصطفى ورمى اليهم بجثته فازدادوا حنقاً ، وأحرقوا جانبامن القصر ، ودخلوا وأوشكوا أن يقبضوا عليه وعلى أعوانه ، فلجأ إلى مخزن البارود ووضع فيه النار ، فهلك هو وأعوانه تحت أنقاض مخزن البارود ، ولم يشأ أن يستسلم إلى أعدائه .

وانتصر للعلمدار رامز باشا ناظر البحرية ورمى الانكشارية بالقنابر ، وأسرع قاضى باشا بثلاثة آلاف من الجند للمحافظة على شخص السلطان ، وأخذ الانكشارية يتراجعون ، وأراد رامز باشا أن يعلن العفو إلاّ أن قاضى باشا خالفه فى هذا الأمر وأصرّ على الانتقام . فلما رأى الانكشارية أنهم قد أحيط بهم حلّ بهم اليأس فوضعوا النار بالبلدة وهى كما لا يخفى مبنية بالخشب ، فكادت النار تلتهم جميع الأستانة لتشاغل الناس بالفتنة عن إطفاء الحريق .

ثم إن رامز باشا وقاضى باشا وأعوانهما عند ماعلموا أن البيرقدار قد هلك فى مخزن البارود سُقط فى أيديهم ، وفروا إلى رسجُق وأرادوا هناك المقاومة فلم يتمكنوا فالتجأ رامز باشا إلى بطرسبرج لأن أصله من القريم وفرّ قاضى باشا و بهيج أفندى من أعوانه إلى بلاد القرامان فوقعا فى أيدى أعدائهما وقُتلا. وقد زعزعت هذه الثورة أركان السلطنة ، فاضطرت الدولة إلى عقد الصلح مع الانكليز ، فانعقد فى ٩ يناير سنة ١٨٠٩ أما مع الروسيا فلم يمكن عقد الصلح ، وزحف الروس وأخذوا « برايلا» على الدانوب ، وكسروا العثمانيين أمام « سيليسترية » . ولكن لم يقدروا على القلعة ودارت السنة الثانية والصدر الأعظم معتصم بقلعة « شُمله » لكنه لا يقدر أن يحمى البلاد . فاستولى الروس على « سيليسترية » و « رسجُق » و « بيقو بوليس »

و « بزارجق » فجعلت الدولة أحمد باشا صدراً أعظم فزحف بستين ألف مقاتل على الروس وأجبرهم على إخلاء رسجق .

وفى ذلك الوقت أعلنت فرنسا الحرب على الروسيا فاضطر قيصر الروسيا إلى طلب الصلح من الباب العالى ، فانعقد الصلح فى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ وصار « نهر البروت » هو الحد الفاصل بين المملكتين ، ولم يبق فى أيدى الروس سوى أفواه الدانوب ، وقسم من بسّارابيه . وندم السلطان على عقد هذه المعاهدة لأن الناس نبّهوه فيما بعد إلى أن الروسيا لم يكن لها مناص من قبول جميع شروطه ، وأن وزراءه أضاعوا الفرصة فعزلهم ، وتسمّى هذه المعاهدة بمعاهدة « بخارست » .

ولما تولى محمود الثانى كانت السلطنة فى الداخل ممزقة تمزيقاً ، فكان آل شعبان أوغلو حاكمين فى شمالى الأناضول ، وكان آل قره عثمان أوغلو متغلبين على البلاد المجاورة لأزمير . وكان فى سَرَس من مقدونية وفى فلبّه من تراقية أمراء أصحاب جيوش وقوة ومنعة لا يخضعون تمام الخضوع للحكومة ، وكانت بلاد العرب فى أيدى الوهابيين وكانت مصر فى يد محمد على ، وكانت بلاد السرب ثائرة ، وكان على باشا والى يانيا مستأثراً ببلاد تساليا وأبيروس . وكان « مولاّ أغا » غالباً على وِدين ، فأخذ السلطان محمود يعالج أمراض السلطنة ، فرمى الوهابيين بمحمد على والى مصر ، فساق عليهم جيشاً بقيادة ولده طوسون باشا ، فتغلب الوهابيون على هذا الجيش فى الحجاز ، ولكن توالت النجدات من محمد على فهزم الوهابيين .

ثم صارت الحرب سجالا بين الفريقين ، ثم أرسل محمد على ولده ابراهيم باشا فبعد حروب شديدة حصر الوهابيين فى الدرعية ، واستولى عليها عنوة ، وأخذ الأمير السعودى أسيراً وأرسله الى أبيه ومعه ولده . فمحمد على أرسلهما الى استانبول ، وقال لهما : إنى أوصيت الدولة بكما ليحسنوا معاملتكما . فقال له ابن سعود : يكون ما أراد الله . ولكن لما وصل الأمير وابنه الى الأستانة شنقتهما الدولة . وكان محمد على قد ذبح المماليك واستأصلهم جميعاً فى القطر المصرى ، و بعد أن استراح فكره منهم وجّه همته الى إصلاح مصر ، وقام بأعمال مدهشة بحيث يمكن أن يقال إنه من أعظم

مصلحي الشرق ، بل مصلحي العالم لانه بعث مصر من قبرها ، وأنقذها من عيث المماليك ، وأنشأ لها جيشاً عظيما على طرز الجيوش الأوربية ، واعتمد فى تدريبه على ضباط من الفرنسيس وأنشأ أسطولا عظيما ، ودارصنعة بحرية ، ومعامل للسلاح ، و بنى مدارس ، وأرسل طلبة يحصلون العلم فى أوربا ، واحتفر ترعة بين الاسكندرية والقاهرة وفتح محمد على السودان ، وكان فى الحقيقة ملكا مستقلا لولا الخراج السنوى الذى كان يدفعه للدولة .

وفى ذلك الوقت ثار الصرب على الدولة لسببين ؛ أحدهما نزوعهم الطبيعى إلى استرداد ملكهم ، والثانى سوء الادارة وظلم العمال لهم . فلما انتقضوا أراد الوالى أن يسكن الأمور باللطف وحسن السياسة فجاء الانكشارية وذبحوا الوالى ، وقتلوا من السربيين عدداً كبيراً . وكان المجر والنمسويون يساعدون السربيين ، وامتاز بين السربيين رجل اسمه « جورج » لقبه الأتراك « بقره جورج » أى الأسود . وكان صارماً جداً ، فاعصوصب حوله جماعة من السربيين وأرادوا عبور نهر « الساف » لينضموا إلى النمساويين ، و يقاتلوا العثمانيين . وكان والد قره جورج غير راغب في الثورة ، فراود ابنه على الرجوع فأبى ، فتنازعا وانتهى الأمر بأن الولد قتل الوالد . وامتدت الثورة واستولى قره جورج على « شاباتس » و « سمندرية » فأرسلت الدولة جيشاً للتنكيل بهم وعززته بجيش ثان ، ولكنهم لم يقدروا على قمع الثورة . وكان القائد ابراهيم باشا تراضى مع السربيين على إعطائهم الاستقلال الداخلى تحت سيادة السلطان ، وأن تقيم الحاميات العثمانية فى المدن ، فأبى الباب العالى تصديق هذا الصلح فاستؤنف القتال بشدة وحصر السربيون بلغراد وكان فيها سليمان باشا . فلما أوشك أن يسقط اتفق معهم على الخروج بجيشه وتسليم البلدة ، ولكن لما خرج نكث السربيون بالعهد وقتلوه مع جميع العساكر التى معه . ثم أرسلت الدولة جيوشاً للانتقام من السربيين ، فكانت الحرب سجالا . وازدادت شهرة قره جورج بين السربيين واستبد بالأمور فوقعت المنافسة بينه و بين كثير من أقرانه ، واستفادت الدولة من هذا الخلاف فساقت العساكر واسترجعت بلغراد و بددت شمل السربيين .

وفر قره جورج إلى بلاد المجر ، ورجع الحكم إلى الاتراك ، فبدأوا هم والارناؤط بالانتقام من السربيين ، وقتلوا ونهبوا . فعاد السربيون وتألبوا وثاروا ثورة ثانية وتجدد القتال بشدة . وكان « ميلوش أوبرنوفيتج » من زعماء السربيين قد عرض على القواد العثمانيين الصلح على شرط العفو العام ، وتأليف مجلس من ١٢ عضواً ينتخبهم الاهالى ويكون على يدهم توزيع الضرائب ، وتكون بلاد السرب متمتعة باستقلالها المدنى والدينى والقضائى ، ويكون لها أمير ، وأن يبقى فى بلغراد قائد عثمانى ومعه حامية . فانتُخب أوبرنوفيتج أميراً ، وصار بيده الأمر والنهى . ولم يبق فى يد الوالى التركى من الولاية إلا الأسم . وبلغ قره جورج خبر هذا الاتفاق بين الدولة وأوبرنوفيتج فثار به الحسد ، وجاء إلى بلاد السرب أملا باشعال الثورة فوصل إلى سمندرية فلما علم به أوبرنوفيتج أرسل اليه من قتله غيلة ، وبعث برأسه إلى الاستانة . فنصبت الدولة رأسه على حائط القصر وفوقه كتابة « هذا رأس الشقى قره جورج »

هذا ما كان من أمر السرب ؛ فأما على باشا التبَلينى فكان أرناؤطياً وكان أبوه رأس عصابة فورث العيث والفساد فى الأرض عن أبيه . ولكنه كان داهية حكيما وبطلا مغواراً معاً . ولم يكن عنده وجدان يردعه عن شىء . فدخل فى خدمة الدولة وأقنع ولاة الأمور بتوليته « ترحالة » و « تَبالين » أولا ، وسمت نفسه إلى الاستيلاء على يانيا ، فبث فى أطرافها عصائب من قطاع الطريق أقلقوا راحة الأهلين ، وبعث من جهة أخرى إلى الدولة يعرض عليها أن توليه يانيا وأنه يعيد الأمن إلى نصابه فقبلت الدولة اقتراحه وولّته يانيا ، وكانت فرنسا استولت على جزيرة كورفو وأخواتها فخدع على باشا ضباط الفرنسيس ونال منهم الاذن بالملاحة فى بحر كورفو . ولما نشبت الحرب بين الدولة وفرنسا زحف على باشا على الفرنسيس واستولى على فونيتزة وبريفيزه . ثم وجّه قوته إلى محو الامارات المسيحية التى بين بلاد اليونان وبلاد الأرناؤوط ولا سيما جمهورية «شولى» فقهرهم بعد أن أعمل الحيل والمال والسيف لذلك وبعد هذا حاز على باشا والى يانيا شهرة عظيمة ، ولقبته الدولة بوالى الروملّى . ثم أعطت ولديه « ولى » و « مختار » باشويتى الموره ، وضمّت إليه بشوية برَاة . ثم إنه

كان فى أبيروس بلدتان لاتزالان مستقلتين ، وهما « أرجيروكاسترو » و « كارديكى » فشنّ عليهما الغارة واستأصل أهاليهما ، ولا سيما أهالى كارديكى

وكان له فى ذلك ثأر قديم غريب الشكل . وذلك أن أمه « خاميكو » بعد وفاة أبيه تولّت قيادة العصابة محل زوجها ، فوقعت فى إحدى المرات في أيدى أهل كارديكى هى وابنتها « شاميتزه » فارتكبوا فيهما الفاحشة ، فاستحلفت ولدها علياً الذى كان قاصراً أنه متى بلغ رشده يأخذ بثأر أمهِ وأختهِ من أهل كارديكى . فلم ينسَ على هذا الثأر ، ولما وقع أهل كارديكى فى يده بحث عن الذين اعتدوا على عرض أمه وأخته فنظمهم بالسفافيد وشواهم على النار كما يُشوى لحم الغنم ولكن المذابح التى أجراها علىّ أثارت عليه السخط العام ، و بدأت الدولة تخشى غائلته فأرسلوا اليه من استانبول من يقتله فكان بحزمه و يقظته يطلع على ذلك ، فلم يصل أحد من المرسلين لقتله إلى يانيا ، بل كان يأخذهم السيف فى الطريق قبل وصولهم ، وكان جمع أموالا عظيمة لأن البلاد التى تولاها كانت مملكة فيها عدة ملايين ، و بقى والياً عليها نحواً من ستين سنة ، فتمكنت قدمه الى حد أنه أصبح لايعبأ بطاعة السلطان .

وكان أحد المقربين إلى على باشا واسمه اسماعيل باشو قد اختلف معه ؛ وجاء فعرض للسلطان جميع ما يعلمه من مظالم على وأقنع السلطان بعزل ابن على باشا عن ولاية المورة ، فلماعلم على باشا بالخبر أرسل اليه من يقتله ، فهجم الجناة على اسماعيل باشو على باب جامع أيا صوفيا ولكنهم لم يوفقوا لقتلهِ ، فقبضوا عليهم واستنطقوهم فأقروا بأنهم مرسلون من قبل على باشا . فغضب السلطان غضباً عظيما وولّى إسماعيل باشو على يانيا ، ودلفينو ، وسرّح معه جيشاً عظيما لقتال على باشا ، فلما علم على باشا بأنه لم يبقَ له أمل فى عفو السلطان أجمع المقاومة ، وحاول أن يستجلب المسيحين الذين فى بلاد اليونان ، والارناؤط إلى صفه واعداً إياهم بالتحرر من حكم الأتراك .

فأجاب بعضهم نداءه وامتنع البعض الآخر . فأما الذين التفوا حوله فسكان الجبال من اليونان الغربية ومن تسّاليا ، وكان فى مقدمتهم أساقفتهم . وأما الذين رفضوا الانضمام إليه فالكاثوليك من الأرناؤوط ، لأنه لم يكن لهم ثقة به غير أنه بسبب سوء

إدارة اسماعيل باشو انضم أكثر المسيحيين إلى على باشا . و بدأت الحرب فانكسر على باشا فى البداية وذلك فى تسَّاليا وانحاز اثنان من قواده عمر فريّون وطاهر عباس فى خمسة عشر ألفاً من الجنود إلى العسكر السلطانى . وخان علياً أولاده الثلاثة وسلموا القلاع التى فى أيديهم إلى الدولة ، ولما بلغه خيانة أولاده له نادى أنهم ليس لهم حق أن يرثوه ، وقال إنه لا يعرف له أولاداً غير الذين هم أنصاره، ولم يبق مع على باشا سوى ثمانية آلاف مقاتل كانوا من نخبة جنوده و بينهم رجال مدفعية ماهرون ، فوقف بهذه القوة أمام عشرين ألف مقاتل من عسكر الدولة كانوا أحاطوا بمدينة يانيا ، وشرع على باشا يراسل المسيحيين الذين مع جيش الدولة ، وفتح خزائنه لهم ، وبث الدعاة إلى الثورة فى جميع بلاد اليونان ، وكذلك فى بلاد رومانيا . ثم لجأ إلى حيلة أخرى لأجل استجلاب النصارى إلى صفه وهو أنه زوّر كتاباً زعم أنه ورد إليه من خالد افندى أحد مقربى السلطان يقول له فيه : إنه فى الربيع القادم يجب القيام بقتل عام يستأصل فيه جميع المسيحيين القادرين على حمل السلاح وتسبى نساؤهم ، و يؤخذ أولادهم المراهقون لينشأوا فى الديانة الاسلامية . فصدّق النصارى هذا المكتوب المزور ، وثاروا بأجمعهم وفى مقدمتهم أهالى «جمهورية شولى» وانحازوا إلى على باشا ومعهم كثير من الارناؤوط المسلمين ، فتزعزعت مراكز الأتراك ونسبت الدولة عدم النجاح إلى سوء تدبير اسماعيل باشو فعزلته وعهدت بالقيادة إلى خورشيد باشا وذلك سنة ١٨٢١ فسار خورشيد باشا بعشرة آلاف من بلاد اليونان قاصداً يانيا . فلما وصل إلى « لاريَّسا » بلغه أن أهالى مدينة « باتراس » رفعوا لواء العصيان ، فأمر بنزع السلاح من أيديهم وتغريم المسيحيين جميعاً ، فبدأت من ذلك الوقت ثورة اليونان . وكان أهالى الجزر اليونانية لم يفقدوا قوة المقاومة فى وجه الأتراك ، وكذلك أهالى الجبال الغربية من بلاد اليونان فانهم كانوا حفظوا نوعاً من الاستقلال الداخلى . وكان لهم جند وطنى يقال له « الارماتوليس » ـ ومعنى هذه اللفظة الرجل الشاكى السلاح ـ وكان الارماتوليس الذين فى الجبال لا يخضعون للدولة إلا قليلا ، فأرادت الدولة أن تخضد شوكتهم ،

وشكّلت بأزائهم قوة مسلحة من الأرناؤوط المسلمين بقيادة الأتراك يقال لها « درفتد باشا » فتنبّه الأروام إلى أن مراد الدولة هو استئصال قوّتهم والقضاء على الارماتوليس فلما عصى على باشا وساقت الدولة عليه الجيش حاول على باشا أن يستجلب إلى ناحيته هؤلاء الارماتوليس الذين كان هو من قبل آفة عليهم .

وكانت بلاد اليونان قد استعدت للثورة ، وذلك لأن الأروام أهل حركة ونشاط وهم أقوم على التجارة والملاحة من كل قوم ، وكانت ثروتهم قد ازدادت كثيراً عن ذي قبل بانصرافهم إلى التجارة ، وكانوا يجوبون البحار كلها ، وفى كل مكان من أوربا تجار من الأروام ، فلا يكاد يخلو منهم مكان . وكانوا هم الواسطة بين الشرق والغرب ، وكانت الدولة العثمانية نفسها تحتاج إليهم وتستخدم منهم فى سفنها وباحتكاك الأروام الدائم مع الأوربيين وحروب الأوربيين مع الدولة العثمانية ازداد نزوع الأروام إلى الاستقلال ، وانقسموا إلى قسمين ؛ منهم من يريد الاستقلال العاجل بقوة السلاح ، وآخرون يرون المصلحة فى عدم مقاومة الدولة العثمانية بالسيف بل بتهذيب الأمة اليونانية وترقيتها حتى تنال تدريجاً حقوقها ، ويأتى وقت تتحرر من حكم الترك تماماً .

وفى سنة ١٨١٣ عند ما تألبت جميع دول أوربا على نابوليون ظن الأروام أن دول الاتحاد المقدس ستمد إليهم يد المساعدة ؛ ولكن دول الاتحاد المقدس كانت تكره تحرير الشعوب لمخالفته لمباديها ، فخاب أمل اليونان فيها . ثم إن على باشا التبلينى كان قد ضرب التجارة اليونانية ضربة شديدة باستيلائه على مرافىء أبيروس وألبانيا ، فعند ذلك اتحد اليونان من تجار رأوا كساد تجارتهم ، وضباط تدربوا فى الجيوش الأوربية ، وناشئة تعلموا فى مدارس أوربا ؛ أنه لا خلاص لبلاد اليونان إلا بالثورة العامة . وكما يحصل فى جميع الأمم المقهورة تألفت الجمعيات السرية ودخل فيها ألوف من الأروام ، وتألفت شعب لهذه الجمعيات السرية فى أوربا وفى نفس القسطنطينية ، ويقال إنه كان فى القسطنطينية عاصمة تركيا ١٧ ألف شخص تابعون للجمعية المركزية ، وكانوا مطلعين على كل شىء . وكانت لهم فى بلاد رومانيا وبسارابيا

جمعيات تعمل بالاتحاد مع الأروام ، فتنبهت تركيا لهم و بطشت بكثير منهم . وكان أهالى باتراس فى بلاد اليونان قد ثاروا بالسلاح على الحامية التركية ، وانتظروا أن تأتيهم نجدة من الروس . وكان الثوار نحواً من عشرة آلاف ، فساقت الدولة جيشاً مزّق شملهم فاعتصموا بالجبال ، وامتدت حركة العصيان فى الجزر اليونانية ، و بلغت الحماسة من الأروام أن امرأة اسمها بُوبُولينه جهّزت بمالها ثلاث بوارج حربية وتولّت قيادتها ، ووجد من أغنياء اليونان عدد كبير نزلوا عن كل ثروتهم لأجل ثورتهم . وكان أحد القضاة من الأتراك آتياً مع حرمه فى سفينة من مصر إلى الاستانة فظفر اليونان بالسفينة وأهانوا القاضى وضربوه ، ويقال إنهم اعتدوا على عفة زوجته ، ثم تركوا السفينة تمضى إلى الاستانة . فلما وصلت شاع خبر هذا الاعتداء فى العاصمة وكانت صدور الأتراك قد امتلأت وغراً من أخبار الثورة اليونانية ، فهاج الشعب التركى وهجموا على دار البطريركية وذبحوا البطريرك غريغوريوس مع ثلاثة من الأساقفة وقتلوا ألوفاً من الأروام . واحتج سفراء الدول الأوربية على هذه المجزرة ، فأجابتهم الدولة بأن دول أوربا كلها تقتص من جميع الذين يكيدون عليها بلا استثناء ، فأى حق لها فى الاعتراض على الذين يأتمرون بسلامة الدولة العثمانية ؟ وفتك الأتراك بالأروام فى مقدونيا وتراقيا والأناضول . وقيل إنه هلك ثلاثون ألف رومى منهم ثمانون أسقفاً .

ولما وصلت أخبار هذا الانتقام إلى بلاد اليونان ؛ اشتدت الثورة وانتخب « ديمتريوس إبسيلنتى » فى مدينة « هيدرة » قائداً عاما للثورة . ولكن الجيوش العثمانية كانت دوّخت « مون بازى » و« ناڤارين » وحصرت « باتراس » و « نابولى » و « تريپوليتزة » وغيرها ، وأرسل خورشيد باشا وهو يحاصر يانيا عساكر طهّرت كثيراً من البلاد اليونانية من الثوار ، ولا سيما فى « آرثَة » . إلاّ أن اليونان ذبحوا من الأتراك فى تريپوليتزة ١٢ ألف نسمة ، ثم وقع الخلف بين الأروام أنفسهم فكانوا ثلاثة أحزاب كل منها يخالف الآخر فى آرائه ، وكان على باشا لا يزال يدافع عن يانيا وخورشيد باشا يحاصره إلى أن تمكن خورشيد من الاستيلاء على قلعة يانيا ، ففر على باشا إلى بحيرة يانيا واعتصم بجزيرة فى وسط البحيرة حيث يوجد برج فيه مخزن بارود

جلس فيه ناوياً إذا وصل اليه العدو أن يضع النار فى البارود فيطير هو والعدو معاً ولكن بقية عساكره لم يطيعوه فاضطر إلى قبول شروط الصلح التى عرضها خورشيد باشا ، وأقسم له هذا على المصحف الشريف بأنه إذا استسلم يسلم ، فلما استسلم أمر خورشيد باشا الجند بقتله ، وكان ذلك الشيخ لم يفقد شيئاً من بأسه ، فلما هجموا عليه أعمل فيهم النار ثم هجم بيطقانة ، وما زال يصارعهم حتى وقع قتيلا ، وكان ذلك فى ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ .

أما الأروام فضجروا من الشقاق ، وعقدوا مؤتمراً فى «أپيدور» وأعلنوا استقلال اليونان ، وذلك فى أول يناير سنة ١٨٢٢ وأعلنوا الحرية الدينية ، واحترام الملك الشخصى ، والمساواة التامة أمام القانون ، وانتخبوا مجلساً يقال له مجلس الشيوخ مؤلفا من واحد وخمسين عضواً ينوب كل واحد منهم عن مقاطعة ، ولهذا المجلس لجنة إجرائية مركبة من خمسة أعضاء ، وانتُخب « ديمتريوس إبسيلَنتى » رئيسا لمجلس الشيوخ ، وانتخب «ماڤروكورداتو» رئيسا للجنة الاجرائية . ولكن إبسيلَنتى استقال من رئاسة الشيوخ ، وأبى كثير من رؤساء العصابات أن يعترفوا بهذا المجلس ، ومضوا فى أعمالهم ، كأنهم غير مرؤوسين .

وكان من أشهر هؤلاء قائد عصابة إسمه « أندروزوز » لم يكن أهالى تيسالية وليڤادية يخضعون لغيره ، فهذا الرجل عصى أوامر المجلس فأمر ماڤروكورداتو بعزله عن القيادة وأعلن خيانته . ولما سقط على باشا والى يانيا ساق خورشيد باشا عساكره إلى بلاد اليونان ليقضى على الثورة منتهزاً فرصة الخلاف الذى وقع بين زعمائها ، ولكن خورشيد أخطأ فى كونه أعلن على الأروام بياناً مهيناً لهم ، وفى أثناء ذلك جاء زعيم أرناؤوطى مسيحى إسمه « بوتزاريس » مشهور بالبسالة ومعه عصابة من نخبة رجاله فانضم إلى الأروام واشتدوا به ، وكان هذا الرجل أبىّ النفس شريف المبدأ ، فوبخهم على قتلهم نساء الأتراك وأطفالهم قائلاً لهم : إنكم بهذه الاعمال لوثتم القضية الوطنية بالعار ، وزحف ماڤروكورداتو لقتال خورشيد باشا فانكسر ، وانكسر أيضاً زعماء عصائب أخرى ، وسقط فى أيدى الاروام . ولم تعد اليهم حماستهم إلا بعد وصول

المتطوعين الاور بيين وكان خورشيد باشا استولى على «قورنتية» وفرّ رجال الحكومة الوطنية التى تألفت هناك واستولى اليأس على الاروام ما عدا الزعيم ابسيلَنّى ، وزعيما آخر اسمه « كولوكوترونى » فهذان بقيا يقاتلان واجتمع اليهما بقايا السيف ، وأخيراً هزما الاتراك فى «ستفانى» « وباربانى » ومات بعد ذلك خورشيد باشا ، قيل إنه سم نفسه من شدة اليأس ، غير أن عمر غريّون استولى على جمهورية شولى ، وأجلى أهلها من هناك إلى جزيرة كورفو والجزر التى حولها .

وظهر أن الاروام لا يقدرون أن يقاوموا الدولة العثمانية فى البر ، لكنهم كانوا على جانب عظيم من القوة في البحر ، لأن مراكب القرصان كانت تملأ بحر اليونان وكانت تعتدى على الجميع . وكان عدد القرصان الاروام وافراً جداً ، وكانت الدول الأوربية تضطر أحياناً إلى تأديبهم ، فلما حصلت حرب الاستقلال الرومى اجتمع هؤلاء القرصان كلهم ونصروا القضية الوطنية ، وصار أكبرهم المسمّى « طومبازيس » ومعه مئة سفينة ، وأجبر الأسطول العثمانى على عبور الدردنيل راجعاً ، و بقى يجول فى الارخبيل الرومى ، ويجاذب الاسطول العثمانى الحبل . فاستنجدت الدولة الاسطول المصرى وأرسلت قوة بحرية عظيمة فتمكّن قرصان الاروام من أن يدهموها على غرة فى عيد رمضان ، وأن يحرقوا بارجة قائد الاسطول بدون أن يشعر أحد . فوقع الرعب فى سائر الاسطول ، ودارت الدائرة عليه . فأرسلت الدولة أسطولا ثانياً فلم يقدر على قرصان اليونان ، ودخلت سنة ١٨٢٣ والوقائع مستمرة ، والحرب سجال بين الفريقين إلا أنه فى هذه السنة قُتِل « بوتزاريس » المسيحى الذي يُعد هو « وإبسيلنّى » و « كناريس » أعظم رجال الثورة اليونانية .

ولما طالت هذه الثورة ثارت الحمية فى جميع بلاد أوربا لنصرة اليونان ، الذين يقاتلون لاجل استقلالهم . وهبّ الشبان فى فرنسا وانكلترة والمانيا يريدون التطوع فى هذه الحرب ، وتألفت الجمعيات لجمع الأموال ، واكتتب الناس فيها من كل فج وأقبل كثيرون من القواد والضباط يركبون البحر إلى بلاد اليونان وانضموا إلى الثوار

وقُتل كثير من هؤلاء المتطوعين ، وكان منهم أفراد من أشرف العائلات النبيلة وقواد من المشهورين بالبسالة .

وفي سنة ١٨٢٤ استولى الأسطول المصرى على جزيرة « كازوس » وقطع المصريون خمسمائة رقبة من الأهالى ، وأرسلوا ألوفا من الآذان المصلومة إلى الأستانة واستولى الأسطول التركى على « بسارة » ولكن لم يطل فرح الأتراك هذا فان السفن اليونانية تغلّبت على الأسطول العثمانى وفرّ أمير البحر تاركا الجنود التى أنزلها فى « بسارّة » فهجم عليهم الأروام وذبحوهم ، فأرسلت الدولة أسطولا اجتمع مع الأسطول المصرى فى جزيرة « ساقس » إلاّ أن « ميوليس » اليونانى من أكبر زعماء الثورة تغلب على الأسطولين ، وفقد عدداً من جنودهما . فأرسل السلطان محمود إلى محمد على والى مصر يوليه بلاد « المورة » وجزيرة « كريت » ويعهد اليه بقمع الثورة ، فأرسل محمد على ولده ابراهيم باشا فأنزل عساكره فى المورة سنة ١٨٢٥ واستولى على « ناقارين » و « كالاماته » وجميع السواحل ماعدا « نابولى » وهزم « كولوكوترونى » فى مدينة « تريكورفة » وهزم أبسيلنتى فى مدينتى « ريزس » و « إردوفه » برغم مساعدات المتطوعين الأوربيين الذين كانوا فى صفوف اليونان ، وكاد ابراهيم يسحق الثوار بأسرهم فصاروا يفرّون إلى الجبال ولم يبق ثائراً إلا زعيم اسمه « بابا فليشاس » فإن هذا الرجل لم يقدر على ابراهيم ولكنه ألحق بعسكره خسائر غير قليلة ؛ ولم يبقَ بلدة غير طائعة فى بلاد اليونان غير « أثينا » و « ميسولونكي » التى جاء القائد التركى رشيد باشا يحاصرها فدافعت هذه البلدة دفاعاً شديداً ، وكان فيها أربعة آلاف من نصارى الأرناؤوط ، وأقبلت عليها النجدات من كل فج بحيث لم يقدر رشيد باشا على فتح البلدة ، فاستنجد ابراهيم باشا فجاء وضيق الحصار على « ميسولونكي » فاشتدت المجاعة بالمحصورين حتى أكلوا الخيل والكلاب ، وأخيراً أجمعوا من يأسهم على الخروج وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم النساء والأولاد ، فقاتلوا قتالا شديداً ولكنهم لم يقدروا على النجاة ، فسحقتهم عساكر ابراهيم باشا ورشيد باشا واستولى المسلمون على « ميسولونكي » ومن بعد ذلك ذهب رشيد باشا يحاصر أثينا ، حيث اجتمع

ألوف من الثوار ومعهم قواد أوربيون فانتصر الأتراك عليهم . ثم أخذت البلاد اليونانية تقدم الطاعة لابراهيم باشا وكاد ينقطع كل أمل من استقلال اليونان الذين أخذ الزعماء منهم يقاتل بعضهم بعضاً ، وصارت الحالة عندهم أشبه بالفوضى ، فعند ذلك تدخلت الدول الثلاث فرنسا وانكلترا والروسيا وطلبت من الدولة ومن الثوار الأروام توقيف الحرب . فالأروام أسرعوا إلى القبول بطبيعة الحال . وأما الدولة فقد رفضت هذه المداخلة فى مملكتها ، واستمرت على القتال ، فاقترحت الروسيا تقسيم بلاد اليونان إلى ثلاث إمارات تحت حماية أوربا ، فرفضت ذلك الدولة واليونان معاً فالدولة رأت فى هذا التدبير خروجاً لبلاد اليونان من السلطنة العثمانية ، واليونان رأوه تدبيراً يخالف مبدأ استقلالهم ووحدتهم . وفى ذلك الوقت أى سنة ١٨٢٥ فى شهر ديسمبر توفى القيصر اسكندر وخلفه ابنه نقولا الأول الذى أجبر تركيا على عقد معاهدة تخول للروسيا حق الملاحة فى البحر الأسود ، وتجعل للفلاخ ومولداڤيا إمارتين ينتخب الأهالى أميريهما إلى مدة سبع سنوات ، وتجعل سربيا إمارة مستقلة استقلالا داخلياً تحت سيادة السلطان ، وإنما تبقى حاميات عثمانية فى بلغراد ، وثلاث قلاع أخرى ، وتدفع للدولة جزية سنوية . ثم قررت الدول توكيل انكلترا والروسيا بإيجاد طريقة حل للمشكلة اليونانية ، ووافقت النمسا ، وبروسيا ، وفرنسا على ذلك . فلما خاطبت انكلترا والروسيا الباب العالى بشأن حرب اليونان أجاب بأن السلطان لن يقبل تدخل الأجانب بينه وبين رعيته ، ولن يجاوب على اقتراحات كهذه .

فعند ذلك اتفقت الدول الثلاث فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ على أن تفصل بلاد اليونان عن تركيا فصلا إدارياً وتجعلها إمارة مستقلة داخلياً ، وعليها أن تؤدى جزية للدولة العثمانية . فأجاب الباب العالى كالأول بالرفض البات ، فأمرت الدول الثلاث أساطيلها بمنع الجيوش العثمانية من الحركات العسكرية . فأبلغ أمراء البحر الانذار اللازم إلى ابراهيم ، وهو تعهد لهم بأن يتوقف عن كل حركة إلى مابعد ورود الجواب من السلطان ومن محمد على . فأما اليونان فلم يتقيدوا بانذار الدول الذى كان موجهاً إليهم أيضاً ، وهاجموا بقوتهم البحرية أسطولا صغيراً كان فى ميسولونكي فأحرقوه .

فثار غضب إبراهيم باشا وأرسل إلى أمراء البحر بأنه لا يمكنه أن يبقى مكتوف اليد بازاء اعتداء الثوار ، وكان ابراهيم قد جاءه الأمر من الأستانة بعدم توقيف القتال فكرر قواد الأساطيل الثلاثة إنذار ابراهيم بارجاع الأسطول العثمانى الى الدردنيل والأسطول المصرى إلى الاسكندرية ، وباخلاء بلاد المورة . وكان ابراهيم باشا غائباً فأجيبوا بأن هذا البلاغ سيرسل إليه ، فاجتمعت الأساطيل الثلاثة فى مياه ناقارين وكان الأسطول العثمانى ثمانين قطعة مصطفا صفين على شكل هلال ؛ ولم يكن عند الفريقين نية القتال ، ولكن بطريق القضاء والقدر انطلقت رصاصة من جهة الاسطول العثمانى فأصابت رجلا انكليزيا من نواب المجلس البريطاني ، فقابل ذلك ربّان السفينة الانكليزية التى وقع فيها هذا الحادث باطلاق الرصاص المتوالى . ثم إن الانكليز أرسلوا إلى محرّم بك قائد الأسطول المصرى يقولون له إنهم حاضرون لتجنب الحرب إذا توقف العثمانيون عن إطلاق النار ، ولكن فى ذلك الوقت أصابت رصاصة أخرى جندياً انكليزياً فقتلته ، ويقول الافرنج إن هذه الرصاصة جاءت من بارجة الأميرال التركى . فنشبت الحرب واستمرت المعركة خمس ساعات إلى المساء فلم يبقَ من الاسطول العثمانى سوى خمس عشرة سفينة . ولما بلغ الخبر إبراهيم باشا تلقاه بسكون جاش وأعلن أنه يقتل كل من أراد الاعتداء على مسيحى . ووصل الخبر إلى الاستانة فأبلغ الصدر الاعظم سفراء الدول الثلاث الاقتراحات الآتية : الاول عدم التدخل فى قضية اليونان ، والثانى دفع غرامة عن السفن الحربية العثمانية التى احترقت فى ميناء ناقارين ، هذا مع اعتذار الدول للدولة . فأجاب سفراء الدول الثلاث بأن دولهم قطعت علاقاتها مع تركيا ، وبرحوا الأستانة .

فأعلن السلطان محمود الجهاد باسم الدين الاسلامى ، وحرّض المؤمنين على القتال فأعلنت الروسيا الحرب على الدولة على حين أن الدولة كانت محقت أوجاق الانكشاريه فبقيت بدون جيش تقريبا . ولما حصلت معركة ناقارين تجددت آمال اليونان ، وزحفوا للقتال من كل صوب إلا أن الاتراك حفظوا مراكزهم فى ناقارين ومودون ، وباتراس وكورون . وأما ابراهيم باشا فسحب أسطوله وعاد إلى الاسكندرية بموجب عقد هدنة

ولم يترك سوى اثني عشر ألف جندى فى بعض القلاع . وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ انعقد فى لوندرة مؤتمر دولى لأجل تحديد المملكة اليونانية التى قررت الدولة تأسيسها واتفقوا على أن يجعلوا لها ملكا مسيحيا تحت حماية الدول الثلاث ، وجعلوا للدولة على هذه الامارة اليونانية جزية سنوية نصف مليون قرش . وكذلك قرروا التعويض على المسلمين الذين أجلاهم الاروام عن بلادهم ، و بعثت الدول إلى السلطان لينيب عنه مندوباً فى المؤتمر فرفض السلطان هذا الطلب ، واستؤنفت الحرب فى بلاد اليونان ولكن الروسيا أغارت على بلاد الدولة وعبرت جيوشها نهر البرُوت واحتلت الفلاخ ومولداڤيا ثم حاصر الروس قلعة سيلسترية ، وأحاطوا ببرايلة على نهر الطونة وكان السر عسكر حسين باشا فى قلعة « شُملة » وكان يوسف باشا فى « ڤارنة » فالروس الذين أمام سيلسترية انهزموا عنها ، ولكن برايلة سقطت فى أيديهم . وجاء القيصر نقولا الأول بنفسه إلى ساحة الحرب ، وضيّق الروس الحصار على سيلسترية وڤارنة وهاجموا شُملة واسكى استانبول ، ولكنهم فشلوا ، و بينما العثمانيون يدافعون الروس أحسن دفاع إذ باع يوسف باشا قائد موقع ڤارنة قلعة هذه المدينة من الروس وقبض على ذلك مبلغاً من المال وفرّ به إلى الروسيا يتنعّم بثمن خيانته ؛ فلما دخل الروس إلى ڤارنة امتنع ثلاثمائة من الاتراك بالقلعة وأبو تسليمها برغم الامر الصادر من يوسف باشا ، و بعد أخذ ورد ارتضى القيصر بأن يخرجوا بأسلحتهم و يلتحقوا بالعساكر العثمانية .

وأما فى آسيا فقد ظهر الروس على العثمانيين وأخذوا قارص وأردَهان وغيرهما وتولّى الصدارة فى استانبول رشيد باشا فاتح ميسولونكى وأثينا ، فزحف إلى البلقان وناجز الحرب الجنرال «رُوت» خلف الكونت ديابتش القائد الكبير للجيش الروسى لمعاونة الجنرال روت وهزموا الصدر الأعظم فى ١١ يونيو سنة ١٨٢٩ ثم استولى الروس على سيلسترية . فاعتصم الصدر الأعظم بقلعة « شُملة » فانتهز الروس هذه الفرصة وعبروا الطونة من وراء الصدر الأعظم ، ولبثوا يزحفون إلى أدرنة ، فاستسلمت البلدة لهم بدون قتال ، واحتل الروس « قرق كليسة » و « ديموطِقَة » وغيرهما .

وأما من جهة آسيا فاستولى الروس على أرضروم ، وكانوا سائرين إلى الأمام .

وأما فى بلاد اليونان فاشتدت عزائم الأروام واسترجعوا كل المواقع التى خلت منهم

والخلاصة أن السلطان محمود شاهد فى هذه الحرب هزائم لم تحل بالدولة من قبل فطلب الصلح بواسطة بروسيا ، وانعقدت معاهدة أدرنة التى بموجبها استولى الروس على مصابّ الطونة ، وصار لهم الحق فى حرية الملاحة فى البحر الأسود والخروج منه إلى البحر الابيض . وأخذوا « پوتى » فى آسيا ، وفصلوا بين تركيا و بلاد القوقاس . فخسرت تركيا علاقتها بتلك الامم القوقاسية التى كانت من أشد أنصارها ! فسهل على الروسيا إدخالهم فى الطاعة تدريجا ، وتعهدت الدولة بأن لاتعزل أمراء الفلاخ ومولداقيا وأما سربيا فبقيت على حالها ، وتعهد الباب العالي بدفع غرامة حربية ١٢٥ مليون قرش يؤديها تقسيطا على عشر سنوات على شرط أن الروس لا يخلون بلاد الفلاخ ومولداقيا قبل دفع الأقساط كلها . وفى سنة ١٨٣٠ اعترفت الدولة باستقلال اليونان و بالحدود التى وضعتها الدول بينها و بين تركيا .

وكان السلطان محمود معتقداً أنه لا بد من الاصلاح فى داخل السلطنة والسير بتركيا على الطرق العصرية الأوربية ؛ ولما توالت الهزائم على الجيوش العثمانية فى زمان سليم الثالث ومحمود الثانى تحققت الناس أن السبب في هذه الهزائم انما كان قصور الانكشارية فى التعليم العسكرى عن الجيوش الاوربيـة ، وأنه لا بد للدولة من جيش مرتب على نسق الجيوش الاوربية حتى يمكنه أن يقاتلها بنجاح أو ثبات ، ولم يكن فى الامكان تنظيم هـذا الجيش الجديد مع وجود الانكشارية الذين كانوا يعارضون فى هذا الامر معارضة من يقاتل عن حياته . وكانت الدولة تعانى من ثورات الانكشارية ما لا يوصف ، وكم من مرة كانت ثوراتهم سبباً في الانهزام أمام الاعداء وكم استبدوا بالاهالى وعاثوا في البلاد حتى عاف الناس مجرد سماع ذكرهم ؛ فـكانت الصدور ملأى من أعمالهم ، وكانت الامة ترجو الخلاص منهم . فلما أمر السلطان محمود بتنظيم الجيش الجديد كانت جميع الامة مؤيدة لفكرته هذه ، و بدأ السلطان بتنظيم هـذا الجيش ، وأخذت ضباط الانكشارية تتعلم الحركات العسكرية فى « آت ميدان » . و إذا بالانكشارية تآمروا وثاروا على السلطان بغتة ، وزحفوا إلى

السراى يهددون السلطان و يطلبون منه رؤوس الذين وافقوا على النظام الجديد ، ولم يكن السلطان محمود خوّار العزيمة ولا ممن يهاب الاخطار ، فامتنع من إجابة طلبهم ونادى بالامة ، وأخرج السنجق النبوى ، فاجتمعت الامة تحته والعلماء فى مقدمتهم وصمدوا إلى الانكشارية ورموهم بالنيران ، وأطلقوا المدافع عليهم فكسروهم ، وبعد أن انهزموا أعملت الأمة السيوف فى رقابهم فقتلوا منهم عشرة آلاف رجل ، وقيل عشرين ألفاً ، وتخلصت الأمة من معرّتهم ، و بعد ذلك نشر السلطان خطاً شريفاً يقول فيه : إنه من المعلوم بين المسلمين أن السلطنة العثمانية إنما رقت ونمت واستولت على الشرق والغرب بقوة الدين الاسلامى ، وأن نظام الانكشارية كان فى أول الأمر يوم كانت الطاعة شعاره حصناً حصينا للدولة ، وطالما كان النصر معقوداً برايات هذا النظام ، ولكن فى العصر الأخير فشا فى الانكشارية روح التمرد وصاروا بلاء على الدولة ، وصاروا لا يلقون الأعداء إلا انهزموا ، فأجمعت الأمة على إيجاب التخلص من هذا النظام البالى ، وعلى تنظيم جيش جديد يمكننا أن نصادم به أعداء الدين الخ.

وما اكتفى السلطان باستئصال الانكشارية ، بل أراد استئصال جميع جراثيم الفساد التى كانت آفة على المملكة ، فألغى الطريقة البكتاشية ، وقتل رؤساءها وأقفل تكاياها . ولكن بعد أن سار على خطة التجدد فى المملكة ، وغيّر الأزياء القديمة ؛ حاول الرجعيون الانتقام ، فأشعلوا النار عدة مرار ، وفى إحدى المرار أحرقوا ثُمْنَ الأستانة ! ولكن السلطان ضمّد الجروح ، وساعد المصابين . وفى مرة أخرى أحرقوا «بيك أوغلو» محلة الاوروبيين ، وحصلت أيضا ثورة بالسلاح ، فقضى السلطان عليها ولم يثنه شىء عن عزمه ، ومضى فى سياسة التجدد ، و بنى المدارس ، وأسّس المدرسة العسكرية الكبرى ، وأنشأ المراكب النارية ، وأسّس المحاجر الصحية .

وكان بالجملة مقتنعاً بوجوب الاصلاح والتجديد ، حازما رابط الجأش ، غير هيّاب للموت ، عادلا بالرعية ، مهتما بالصغيرة والكبيرة من شئون الامة ، مساويا بين جميع أجناس رعيته . ولكن المصائب بسبب أطماع الدول الأوربية توالت على السلطنة فى زمانه .

وفى سنة ١٨٣١ استولى الفرنسيس على الجزائر فى خبر ليس هنا موضعه فعجزت الدولة عن دفع هذا الاعتداء ، لاسيما أن الجزائر كانت منفصلة عنها ولم تكن سيادتها عليها إلاّ بالاسم ، ثم خرج محمد على والى مصر على الدولة وأغزى ابنه ابراهيم بلاد الشام بخمسين ألف جندى فاستولى على غزّة ، و يافا ، وحيفا ، وحاصر عكة التى كان قائدها عبد الله باشا ، فأمر السلطان محمد على برد عساكره إلى الوراء ، فاشترط محمد علي على السلطان توليته سورية ، فأبى السلطان قبول طلبه ، وأرسل جيشا لقتال الجيش المصرى تحت قيادة حسين باشا ، فانكسر حسين باشا وفتح ابراهيم باشا عكّة عنوة ، واستولى على جميع سورية ، وفى ذلك يقول الشيخ أمين الجندى الشاعر :

لو قيل إبراهيم جاء محارباً سقطوا ولو كان الكلام تقوّلا
قامت قيامة عكة من بأسه وأحاط من كل الجهات بها البلا
بمدافع ما إن لها من دافع وقنابر تحكى القضاء المنزلا
تنسيك بدراً والنضير وخيبراً وحروب مكّةَ والبسوس وكربلا
من مبلغ الأتراك أن جنودهم هُزموا وأن حسينهم ولّى إلى

ولم يقف فى وجه ابراهيم باشا غير الدروز ، فانهم اجتمعوا فى « وادى التيم » وناجزوا جيشه القتال فى وقائع متعددة أشهرها واقعة « وادى بكّا » حيث أحاط ابراهيم باشا ومعه اثنا عشر ألف مقاتل نظامى بخمسمائة من الدروز فقاتلوه طول النهار وأبوا أن يستسلموا إليه إلى أن ماتوا جميعاً . وما نجا منهم غير ٢٥ شخصا . اخترطوا سيوفهم وشقوا الجند النظامى على كثافته ، وخلصوا من بين الجند كله . وقد عرفت منهم واحداً عُمِّر طويلا اسمه أمين المصفى من قصبة بعقلين ، وأما دروز حوران فالتجأوا إلى اللجاه واتفقوا مع عرب السلوط ، وساق عليهم ابراهيم باشا جيشاً فكسروه مراراً وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، و بقى الدروز عصاة على ابراهيم إلى أن انصرف من سورية ولكن الأمير بشير الشهابى الوالى على جبل لبنان لان إلى ابراهيم باشا لأنه كان ذهب إلى مصر وتعاهد مع محمد على ، فلما زحف ابراهيم إلى الشام مهد له كثيراً من العقبات ولم تمنع ابراهيم باشا ثورة الدروز من أن يزحف إلى الأناضول و يهزم جيش الدولة عند

قونية ، وأن يتقدم من هناك إلى بورسة ، فوقع الهلع فى الأستانة ، وقد كان خوف الروس من محمد على أعظم من خوف الترك . وذلك أن الروس فكروا فى أن محمد على قد يستولى على القسطنطينية وينظم تركيا كما نظّم شئون مصر ، ويؤسّس دولة جديدة شابة غير الدولة العثمانية التى كان حل بها الهرم ، فعرضت الروسيا على السلطان محمود محالفة عسكرية فى وجه محمد على ، وأنزلت خمسة عشر ألف جندى بقرب الأستانة ، وكانت على نية زيادة هذا الجيش حينما نبّه السلطان سفيرا انكلترا وفرنسا إلى خطر وجود العساكر الروسية فى الأستانة ، وقالا له : إن الأولى به أن يقبل شروط محمد على ، وهى إضافة سورية كلها وولاية « آطنه » إلى مصر تحت سيادة السلطان من أن يستعين بالروسيا صاحبة الطمع السرمد فى القسطنطينية ، وهكذا اقتنع السلطان باعطاء سورية وكيليكية إلى محمد على ، ولكن السلطان لم يكن ليرضى من قلبه مصالحة محمد على على هذا الشرط وبقى يجهّز العساكر ليقاتل ابراهيم باشا ويرده إلى الوراء فزحفت العساكر العثمانية تحت قيادة حافظ باشا ، وتلاقى الجمعان فى « نزّبْ » وكان مع ابراهيم باشا جيش كبير من العرب ، فانكسر حافظ باشا كسرة شنيعة وغنم ابراهيم أكثر مدافعه ، ومات السلطان محمود من الغم عند سماع خبر هذه الهزيمة وذلك سنة ١٨٣٩

السلطان عبد المجيد

وتولى السلطنة ولده الكبير السلطان عبد المجيد ، وكانت الدولة أصبحت بدون جيش تقريباً ، وكان أمير البحر أحمد باشا اختلف مع الصدر الاعظم فذهب وسلّم الأسطول العثمانى إلى محمد على فى ميناء الاسكندرية . فصارت الدولة مضطرة إلى الصلح مع محمد على إلا أن الروسيا وانكلترا والنمسا وبروسيا عقدت مع السلطان عبد المجيد معاهدة سنة ١٨٤٠ بموجبها لا يبقى لمحمد على سوى مصر التى تعود إمارة له ولذريته وفلسطين التى يتولاها بصورة مؤقتة ، وعليه أن يخلى سورية وبلاد العرب وجزيرة كريت ، وبقيت فرنسا خارجة عن هذا الاتفاق ، لكنها لم تصل فى مساعدة

محمد على إلى العمل ، وذلك بما رأته من تألب أوربا عليه . فصار محمد على يقاوم بدون سند من جهة الدول ، وكانت قوة ابراهيم باشا أكثرها فى عكّة ، فجاء الاسطول الانجليزى وضرب عكة بالقنابر ، وطيّر مستودع البارود والذخيرة فاستسلمت عكة وسحب ابراهيم جيشه إلى مصر ، وكانت الدولة تريد الخلاص من محمد على تماما إلا أن الانكليز كانوا عقدوا معه معاهدة لابقاء مصر فى يده ، فأجبروا الدولة على مراعاة هذه المعاهدة .

وأما الأمير بشير الشهابى حليف محمد على فلما التزم ابراهيم باشا إخلاء سورية لم يتبعه إلى مصر ، بل بقى يرجو أن يصلح أموره مع الدولة ، وكان الأمر والنهي وقتئذ فى يد الانكليز ، فلما نزل إلى صيدا وقابل أمير البحر الانكليزى سمع منه مايدل على أن انكلترا لاتريد إبقاءه أميراً على لبنان ، ثم أتوا به إلى بيروت وأبلغوه أن الدولة العثمانية قررت عزله فليختر بلاداً يقيم بها ، فاختار فرنسا . فقال له الانكليز لك أن تسكن فى أى بلد شئت ما عدا فرنسا ، ومصر ، فاختار مالطة ، ثم وجد مالطة فى عزلة عن الدنيا كلها فسعى فى التحول إلى استامبول ، وجاء اليها و بقى فيها إلى أن مات . وكان قد تعين الأمير بشير قاسم الشهابى والياً على جبل لبنان وكان الفرق بينه و بين ابن عمه فى الحزم والعزم وحسن التدبير كما بين الأرض والسماء ، فما مضى على ولايته إلّا أشهر قلائل حتى سخط عليه مشايخ الدروز أصحاب الاقطاعات ، لأنه كان بذىء اللسان ، فكانت بذاءته تجرح فى قلوبهم ، على حين لايوجد فى الدنيا بلد كجبل لبنان يهتم أهله قبل كل شىء بالآداب وحفظ اللسان فقرر الدروز الاجتماع لخلع الأمير بشيرقاسم ، فانتصر له النصارى لأنه منهم ، فوقعت الوقائع بين الفريقين فى « دير القمر » سنة ١٨٤١ وتسمي هذه الوقائع فى لبنان بالحركة الاولى . فعزلت الدولة الامير بشير قاسم ، وأرسلت عمر باشا النمساوى إلى جبل لبنان فأخذت فرنسا تسعى فى إعادة الحكم إلى آل شهاب بناء على كون الطائفة المارونية ترغب فى ذلك ، إلا أن الدروز وسائر الطوائف غير المارونية عارضوا رجوع الحكم إلى الشهابيين ، فبعد أخذ ورد بين الدول تقررت قسمة الجبل إلى قسمين يفصل بينهما

طريق دمشق ، وجعلت الدولة الامير احمد عباس الأرسلانى والياً على القسم الجنوبى والامير حيدر اسماعيل أبى اللمع والياً على القسم الشمالى ، وألحقت بلاد جبيل بباشوية طرابلس . فأغضب هذا التدبير الطوائف الكاثوليكية وحاميتهم فرنسا . ولكن الدول الاخرى حباً بالتوازن و بمقاومة نفوذ فرنسا التى تريد السيادة فى جبل لبنان عضدت الدولة العثمانية فى الترتيب الجديد . وهنّ انجلترة ، و بروسيا . وأميركا والروسيا . وتألف فى كل من القائمقاميتين ديوان مختلط تتمثل فيه كل الطوائف وما مضت سنوات قلائل على هـذا النظام حتى تشاجر الدروز والنصارى مرة أخرى ، وحصلت وقائع بين الفريقين ، فسكّنت الدولة هذه الفتنة .

وجاء شكيب افندى ناظر الخارجية من الأستانة فرتب الأمور ، وعزل الأمير أحمد أرسلان بسبب حصول الفتنة فى أيامه ، وجعل مكانه أخاه الامير أمينا فبقى إلى سنة ١٨٥٩ فخلفه ولده الامير محمد الأرسلانى ، وفى مدة هـذا ثارت العامة فى قضاء كسروان وكلهم هناك من الموارنة ، وكانت ثورتهم على مشايخهم آل الخازن فطردوهم واستولوا على أملاكهم ، وقتلوا منهم فذهبوا إلى بيروت يشتكون إلى الوالى التركى ، فرأى الوالى أنه لا بد من حرب لقمع ثورة الاهالى ، فرأى الاولى أخذ المسألة بالسياسة فطال الامر ببنى الخازن ، فالتجأوا إلى مشايخ الدروز لأنهم أصحاب إقطاعات مثلهم ، و بين الفريقين تكافل إقطاعى طبيعى . فقرر مشايخ الدروز الزحف على كسروان وإعادة بنى الخازن إلى بيوتهم ، فقامت من أجل ذلك قيامة المارونيين الذين فى بيروت وفى بلاد الشوف وجزين ، وقالوا . إنهم لا يرضون بذهاب الدروز إلى كسروان يقاتلون إخوانهم ، فوقع التنافر بين الفريقين ، وبدأ المارونيون بالحركة . ثم انفجر الدم فى حوادث جزئية فى البداية ، واجتمع المسيحيون فى زحلة وزحف منهم عدة آلاف قاصدين قضاء الشوف على تفاهم مع نصارى الشوف بأن يثوروا من جهتهم فيضعوا الدروز بين نارين ، واعتمدوا على كثرة عددهم لأن الدروز لا يزيدون على السدس بالنسبة إلى النصارى ، ولكن الدروز المشهورين بالشجاعة وبحسن الانقياد إلى رؤسائهم فى الحروب قابلوا ذلك الجيش الذى زحف اليهم ، وذلك فى

« ظهر البيدر » شرقى عين صوفر ، وجرت معركة تقهقر فيها النصارى إلى « قب الياس »

ثم حصلت وقائع أخرى كان الفوز فى جميعها للدروز ، ثم جمع خطار بك العماد جمعا كبيراً من الدروز وقصد مدينة زحلة حيث تجمع فيها النصارى من كل جهة فوقعت واقعة شديدة انتهت أيضا بأن النصارى تركوا زحلة واستولى عليها الدروز وأحرقوها . وكانت قصبة دير القمر المسيحية الواقعة فى وسط بلادالدروز تدافع بشدة الدروز الذين يهاجمونها ، فلما سقطت زحلة خارت عزائم أهالى دير القمر فاستولى عليها الدروز ، وأعمل الجهلاء منهم السيف فى أهلها ، وقتلوا مقتلة عظيمة . ولكن عند مابلغ الخبر آل أرسلان ، وآل جنبلاط ، وآل نكد ، أرسلوا رجالهم إلى دير القمر وأنقذوا ألوفا من بقايا السيف من المسيحيين وآووهم ، وقاموا بإعاشتهم إلى أن جاءت وزراء الدولة والدول وبدأوا بالتحقيق عن الحوادث ، وكذلك حصلت حادثة كهذه فى حاصبيا وأخرى فى راشيا وكان الدروز مع كونهم أقل عدداً يتغلبون على النصارى ، وكانت تقع من الجهلاء بعد الفوز حوادث مؤسفة لامراء فيها الا أنه فى جميع هذه الوقائع لم يكن الدروز هم البادئين بالشر ، وكيف يبدأون وزعماؤهم هم أصحاب الاقطاعات الوافرة وتحت حكمهم عشرات ألوف من النصارى وفى أيديهم أكثر الأملاك . فكان لا يخفى عنهم وهم عقلاء محنكون أن الفتنة تكون سبب انقراض نعمتهم ، وتؤل إلى جعل الحكومة على نسبة عدد الطوائف فيفقدون أكثر امتيازاتهم ، بخلاف النصارى الذين كانوا يرون أنهم لايحصلون على المساواة ، ولايتخلص ذلك العدد الكبير منهم عن حكم الدروز إلا بثورة تجبر الدولة على انصافهم ، فقضية أن الدروز كانوا مستولين على أكثر كثيراً مما يحق لهم بحسب العدد هذه قضية لا نزاع فيها .

وأما قضية كون الدروز هم الذين بدأوا بقتال النصارى وأنهم هم الذين اعتدوا عليهم فهى كذب محض قد حققته لجنة التحقيق الدولية التى وقفت على جميع الحقائق ولذلك أبى الجانب الأعظم من الدول أن يعد الدروز معتدين ، وإن كانوا حكموا على مئات منهم بالنفى ، فلم يكن ذلك مبنياً على اعتدائهم ، ولكن كان ذلك تسكيناً لخواطر النصارى الذين قتل منهم عدة آلاف بعد تغلب الدروز عليهم . ولقد حكمت

الدولة بالقتل على المشير احمد باشاقائد الفيلق العثمانى في دمشق وعلى مئات من المسلمين ممن كانوا المسئولين عن الحادثة التى وقعت على نصارى الحاضرة السورية ، ولكنها بالاتفاق مع الدول عدا فرنسا لم تقتل أحداً من الدروز لما ظهر من أن الاعتداء لم يقع منهم ، ولما ثبت بالوثائق والمناشير التى صدرت عن أساقفة النصارى من أن الرؤساء الروحيين كانوا هم المحرضين على الحرب ، وغير معقول أن الدول المسيحية مع شدة تعصبها فى النصرانية مثل انكلترا ، والنمسا ، و بروسيا ، والروسيا ؛ تساعد الدروز بقدر الامكان وتأبى مجاراة فرنسا على قتل جانب منهم لو تحقق عندها أن الدروز كانوا هم المعتدين ! ولا تبال أصلا بأقوال المؤلفين الافرنسيين الذين ينكرون هذه الحقيقة و يروون روايات إذا قرأها الانسان يضحك أو يحزن لشدة بعدها عن الواقع ، ولغياب الوجدان فيها تماماً ، ودعوى الفرنسيس أن الانكليز لأجل أن يتوكأوا على الدروز و يتخذوا لأنفسهم أنصاراً فى سورية قد اجتهدوا فى إنقاذهم على أثر تلك الحوادث المسماة بحوادث « الستين » ـ لوقوعها سنة ١٨٦٠ ـ هى دعوى لا ترتكز على أدنى أساس ، لأن الانكليز هم أشد تحمساً للنصرانية من أن يرضوا بذبح الدروز للنصارى و بأن يُتركوا بدون قصاص ، ولما وصلت إلى لندرة أخبار هذه الحوادث مقلوبة عن وجهها اشتد غضب الإنكليز ، وطلبوا فى أول الأمر من حكومتهم الاقتصاص من الدروز بكل صرامة : إلاّ أنه كان بعض الانكليز المنصفين المقيمين بسورية لا سيما المستر « سكوت » صاحب معمل الحرير فى قرية شملان من لبنان قد كتبوا إلى انكلترة بحقيقة ماجرى ، وقالوا إن الدروز إنما كانوا مدافعين لا مهاجمين ، فهدأ عند ذلك الرأى العام الانكليزى .

ولما تألفت اللجنة الدولية فى بيروت ثبت أيضاً أن الدروز لم يكونوا هم البادئين بالقتال . وثبت أن الأمير محمد أرسلان أمير لبنان الجنوبى راجع الوالى خورشيد باشا لأجل إرسال جيش نظامى يكفى لمنع الحوادث ، واستمد أيضاً قناصل الدول كلها حتى يسعوا فى هذا الأمر لدى الوالى ، وهذا كان سبب خلاص الأمير محمد من القتل والنفى

ومن كل مسئولية ، ولا يُنكر أن الانكليز كانوا قد بدأوا بتأسيس علاقة مع آل جنبلاط وحزبهم من الدروز ، وربما كانوا لأجل حفظ التوازن . غير راغبين في استئصال هذه الطائفة القليلة العدد من جبل لبنان ، ولكنهم لو كانوا قد تحققوا كون الدروز هم المعتدين لكانوا وافقوا بالأقل على اجراء القصاص بحق عدة مئات منهم كما جرى في دمشق بحق المشير احمد باشا ومئات من المسلمين ، وأيضاً فان الروسيا والنمسا و بروسيا لم يكن عندهن أقل سبب سياسي يقتضي العفو عن الدروز ، والاكتفاء بنفي مئتين أو ثلاثمائة رجل منهم إلى الخارج ، مع أن النصارى قدموا جدولا إلى اللجنة الدولية يلتمسون فيها قتل سبعة آلاف من الدروز .

والخلاصة لما ثبت أن الدروز لم يكونوا إلا مدافعين عن حوزتهم ترفقت بهم الدولة العثمانية وجميع الدول عدا فرنسا ، وإنما نفى من نفى منهم نكالا وعبرة من أجل المذابح التي لا تنكر مما قام به جهلاؤهم بعد الغلبة ، ولقد قلب مؤرخوا هذه الوقائع من الفرنسيس حقائقها رأساً على عقب ، وجعلوا الابتداء والاعتداء من الدروز وليس ذلك بصحيح . ثم إنه قد ثبت أيضاً باعتراف عقلاء النصارى أنفسهم أنه لم يوجد واحد من الدروز سطا على عرض امرأة نصرانية ، ولا وجد منهم من قتل ولداً ، أو امرأة ، أو شيخاً عاجزاً . وقد اعترف بذلك صاحب كتاب « حسر اللثام عن نكبات الشام » المطبوع بمطبعة المقطم بمصر ، وفيه سرد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه من الطعن بالدولة العثمانية ومن الوقيعة بالمسلمين والدروز ما يزيد على كل وصف ، إلا أنه صرح بكون الدروز في جميع هذه الوقائع لم يتلوثوا بالاعتداء على أعراض النساء ، ولا قتلوا امرأة ، ولا ولداً ولا عاجزاً ، وهو يذكر أيضاً هِمَم كثيرين من زعماء الدروز الذين أنقذوا النصارى ألوفا ، كما يذكر أن أعيان المسلمين في الشام مثل محمود افندي الحمزاوي وصالح أغا المهايني ، وعمر آغا العابد ، وعدداً كبيراً من الوجهاء ليس الأمير عبد القادر الجزائري فقط ؛ قد حافظوا على النصارى ، وآمنوهم من خوف ، وآووهم من فقر ، مع أن مؤرخي الفرنسيس يحصرون هذه المحافظة في الأمير عبد القادر رحمه الله وحده وهو بدون شك قد حافظ على ألوف من المسيحيين ، وكان السبب في نجاتهم من الغوغاء

الذين اعتدوا عليهم بدون علم الرؤساء ، ولـكن الأمير عبد القادر لم يكن هو الوحيد الذى قام بذلك الواجب .

ثم إن السلطان عبدالمجيد أعلن التنظيمات المسماة « بخط كولخانة » ومآله أن حياة الأشخاص وأموالهم وأعراضهم تـكون مصونة ، وتـكون الأموال الأميرية عائدة إلى نظام واحد ، وأن تُلغى الاحتكارات ، وأن تـكون الضرائب بحسب الثروة وأن تـكون مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وأن تـكون المحاكمات علنية وأن تـكون المساواة أمام القانون شاملة لـكل أصناف الرعية ، وأن يكون الناس أحراراً فى البيع والشراء ، وأن يكون ضبط أملاك المجرمين ممنوعاً ، بل تعود إلى ورثتهم .

وقد زعم بعض مؤرخى الفرنسيس أن الضرائب و إن أوجب خط كولخانه استيفاءها على نسبة الثروة ، فقد كانت تجبى بصورة جائرة على المسيحيين . وهذا الـكلام أيضا غير صحيح ؛ فالضرائب فى السلطنة العثمانية كانت على حسب مقدار الأملاك وريعها ولم يكن فيها تمييز طبقة على طبقة مما هو شأن الدول الاستعمارية الاوربية .

وأسست الدولة جامعة باسم « دار الفنون » وجعلت التعليم ابتدائياً ، واعدادياً وعالياً . وقامت باصلاحات كثيرة ؛ وفي سنة ١٨٤٨ ثارت الفلاخ ومولداڤيا ، وكادت الفتنة تؤدى إلى الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية ، ولـكن الحرب لم تقع بينهما هذه المرة ، وتفادوها بتدابير سلمية .

وفى زمان السلطان عبدالمجيد نشبت حرب القريم ، وأساسها الخلاف بين الروم واللاتين على كنيسة بيت لحم التى فيها المغارة التى يقال إن المسيح ولد فيها ، فاللاتين كانوا يدعون حق الولاية على هذه الـكنيسة بموجب فرامين بأيديهم ، وزعموا أن الأروام بدسائسهم لدى الدولة قد استولوا على حقوق لم تـكن لهم من قبل ، وأخذوا مفاتيح كنيسة القيامة و بسطها وقناديلها بفرمان من السلطان محمود الأول . وزعم اللاتين أن السلطان سليمان الثانى كان خولهم هذه الحقوق سنة ١٦٩٠ فرجع الأروام واستردوا ما فقدوه فى سنة ١٧٥٧ ، ثم إن الروسيا سنة ١٨٠٨ ساعدت الأروام

لدى الباب العالى فاستولوا على جميع الأماكن المقدسة تقريبا ، فبقيت فرنسا تحتج على ذلك . وسنة ١٨٥١ طلبت فرنسا من الدولة تأليف لجنة مختلطة لأجل النظر فى الفرامين التى بأيدى اللاتين والروم ، وادعت الاستيلاء على كنيسة القيامة ، وعلى المكان الذى فيه مدافن ملوك الافرنج ، وعلى قبر العذراء ، وعلى كنيسة بيت لحم ، وغيرها .

فلما بلغ ذلك الروسيا اعترضت على هذا الأمر وقدمت إلى الدولة مذكرة لو قبلها الباب العالى لكان ذلك اعترافاً منه بحماية الروسيا لجميع المسيحيين الارثوذكسيين فلذلك رفض الباب العالى إجابة طلب الروسيا ، فقطعت الروسيا العلاقات مع الدولة وزحفت العساكر الروسية تحت قيادة البرنس « كورتشاكوف » فقطعت نهر الباروت بتسعين الف ماش وعشرين الف فارس ، وستة آلاف مدفعى ، فاحتل هذا الجيش الفلاخ ، ومولداقيا ، وكانت الحصون العثمانية عند الطونة خراباً تقريباً ولكن كان عند الدولة قائد اسمه « عمر باشا النمساوى » أصله خرواطى كان من عظماء القواد فرمم تلك القلاع وجمع جيشاً جراراً وصد الروس وردّهم ، أما فى آسيا فتقهقر العثمانيون إلى الوراء ، وجاء أسطول روسى فأحرق أسطولا عثمانيا فى ميناء «سينوب»

وفى ذلك الوقت كانت انكلترة ترى من مصلحتها توقيف الروسيا على حدها خوفاً من استيلاء الروس على الأستانة ، وكان نابوليون الثالث أمبراطور فرنسا منقاداً إلى السياسة الانكليزية ، وكانت الامة الافرنسية الكاثوليكية ترى أن الدولة العثمانية قبلت هذه الحرب مع الروسيا من أجل عدم تسليمها حقوق اللاتين فى القدس فلما أحرق الاسطول الروسى السفن العثمانية التى كانت فى سينوب دخل الاسطول الانكليزى والاسطول الافرنسى من الدردنيل إلى الاستانة محافظة عليها من الروسيا

فأرسل نيقولا الاول قيصر الروس يحتجّ على هذه الحركة ، ونشر على شعبه منشوراً أشبه باعلان حرب على فرنسا وانكلترة ، فعقدت هاتان الدولتان محالفة هجومية دفاعية مع السلطان عبد المجيد فى ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ وكان تحت قيادة « عمر باشا » — وكان يقال له السردار — مئة وثلاثون الف نظامى ، وخمسون الف

متطوع . وكان الجيش الروسى تحت قيادة البرنس « باسكيفتش » يبلغ مئة وتسعين الفا ، فهاجم الروس سيلسترية فدحرهم العثمانيون عنها ، فتقهقروا على طول الخط . وأراد عمر باشا أن يجتاز نهر البروت إلا أنه كان الفرنسيس والانكليز قد عمدوا إلى نقل ميدان الحرب إلى القريم ، وقرروا حصار سيباستوبول فانتقل السردار عمر باشا إلى القريم ، وهناك جرت الوقائع الكبرى . وثارت بلاد اليونان انتصاراً للروسيا وتجاوز الاروام على الحدود العثمانية فانهزموا . واحتل جيش إفرنسى آثينا ، وأما فى القريم فانتصر الانكليز والفرنسيس والعثمانيون فى وقائع « آلمة » و « بالاكلاقة » و « انكرمان » و « تراكثير » وافتتح عمر باشا « أوبّاتورية » عنوة . وفتح الحلفاء « برج مالاكوف » بعد معارك شديدة ، قيل إن الفرنسيس هناك فقدوا عشرة آلاف مقاتل . ودمَّرت أساطيل الحلفاء مرافىء الروسيا فى البحر الاسود ودخلت أساطيلهم من البلطيك ، واستولوا على بومارسوند ، وانضم إلى فرنسا وانكلترة وتركيا فى هذه الحرب مملكة الساردوا ، والبيمونت ، فأرسلت ١٥ الف مقاتل ، فلما توالت هذه المصائب على الروسيا طلب القيصر نقولا الصلح ، فانعقد مؤتمر فى فينّا فى أول فبراير سنة ١٨٥٦ وتقررت فيه شروط الهدنة ، ثم انعقد مؤتمر الصلح فى باريز وكان الجانب الواحد هو فرنسا وانكلترة وتركيا ومملكة الساردوا ، والجانب الآخر الروسيا . وكانت بروسيا والنمسا كفيلتين ، وبهذه المعاهدة تقرر استقلال السلطنة العثمانية التام ، وعدم تدخل أية دولة فى شئونها الداخلية ، وذلك بموجب المادة التاسعة كما أنه بموجب المادة العاشرة تقرر عدم مرور السفن الحربية من الدردنيل ، وبحسب المادة الحادية عشرة تقررت حرية التجارة والملاحة فى البحر الاسود ، وكذلك بحسب المادة العشرين تقرر أن الروسيا تتخلّى لمولداقيا عن قسم من بسارابيا. ثم جعلت مصابّ الطونة تحت إشراف لجنة أوربية ، وبهذه المعاهدة جرى إلغاء حماية الروس على بلاد السرب ، والفلاخ ، ومولداقيا ، ورجعت هذه الامارات تحت سيادة الباب العالى وحماية أوربا . وبمقابلة معاهدة باريز هذه جددت الدولة العثمانية مآل خط كولخانه

من جهة إعلان المساواة التامة بين أصناف رعاياها ، ومن جهة حرية المذاهب وغير ذلك من الاصلاحات .

وفى ١٣ يوليو سـنة ١٨٥٨ هجم بعض أهالى جدة بالحجاز على قنصل فرنسا ومعاون قنصل انكلترا فقتلوهما ، فجاء أسطول انكليزى إفرنسى فضرب البلدة بالقنابر وفى سنة ١٨٦٠ جرت الوقائع التى سبقت الاشارة إليها بين الدروز والنصارى فى جبل لبنان ، وكانت الدولة سكّنت الأمور ، واستدعت زعماء الفريقين إلى بيروت ووقع الصلح بينهما ، إلاّ أن بعض الجهلاء فى دمشق طمعاً بالنهب والسلب استفادوا من غفلة الحكومة فانقضّوا على حارة النصارى وجروا الدماء الغزيرة ، وارتكبوا الموبقات الكبيرة ظلماً وعدواناً ، فكانت هذه الحادثة المشئومة سبباً فى احتلال جيش افرنسى لبيروت ولبنان تحت قيادة الجنرال « بوفور دوبول Beaufort D'haipoul » فأرسلت الدولة فؤاد باشا المشهور إلى سوريا ، فأخذ فؤاد باشا يضمد جروح المسيحيين ووزّع عليهم تعويضات بالملايين ، و بحسن سياسته سكّن الأمور وقتل عدداً من الجناة فى حادثة دمشق يبلغ ١٣٠ ، ونفى كثيراً من العلماء والأعيان وفى مقدمتهم الشيخ عبد الله الحلبى مفتى الشام ، وقد كان نفيهم لأجل السياسة لأنهم كانوا بالحقيقة أبرياء من كل ما وقع على المسيحيين .

وما رجع فؤاد باشا من سوريا إلى الأستانة إلاّ بعد أن استرجعت فرنسا عساكرها ، وكانت يومئذٍ انكلترا والنمسا مساعدتين لتركيا . وفى ٢٥ يوليو سنة ١٨٦١ توفى السلطان عبد المجيد ، وكان سلطاناً كريم الأخلاق عادلا حليما متواضعاً ، وكانت الرعية العثمانية من جميع الطبقات تحبه وتحترمه ، ولذلك أسف عليه الجميع .

السلطان عبد العزيز

وتولّى مكانه السلطان عبد العزيز . وفى زمانه لم تحصل حوادث تذكر سوى ثورة كريت التى قمعتها الدولة بالقوة ، والسلطان عبد العزيز هو أول سلطان زار أوربا عند ما دعاه نابليون الثالث سنة ١٨٦٧ إلى معرض باريز مع سائر الملوك ، وفى زمانه

أيضاً جرى خرق بوغاز السويس بواسطة شركة افرنسية يرأسها المسيو « داليسبس » وذهب السلطان عبد العزيز بنفسه إلى مصر ، وكان السلطان عبد العزيز سليم الطوية جسوراً إلاّ أنه كان مسرفاً ترك على الدولة ديونا كثيرة . على أن من أهم مآثره اعتناؤه بالأسطول، ففي زمانه كان للدولة قوة بحرية عظيمة ، وكانت هي الدولة الثالثة في البحر ، وقد كان في أيامه من رجال الدولة « مدحت باشا » وكان مولعاً بالحرية ، فنما بواسطته حزب الأحرار ، وصاروا يتحدثون بخلع السلطان لكثرة اسرافه واستمالوا إليهم السر عسكر « حسين عونى باشا » ودبّروا على السلطان مكيدة فاتفقوا مع ناظر البحرية وأتو بالأسطول فرسا أمام سراى طولمه بغجه ، بينما العساكر كانت تحيط بالسراى من جهة البر ، ثم أدخلوا على السلطان من أبلغه أن الأمة خلعته . فأراد السلطان أن يستخف بهذا الموضوع فأطلعوه على العساكر المحيطة بالقصر من جهتى البر والبحر ، وأنزلوه من السراى ووضعوه فى قصر آخر .

السلطان مراد

و بايعوا السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد ، وما مضى عدة أيام على خلع السلطان عبدالعزيز حتى وُجد فى قصره قتيلا ، فذهب الناس إلى أنه قُتل بأيدى هؤلاء الذين خلعوه . وليس ذلك بصحيح ؛ بل كان الخلع فجأة قد أثّر جداً في عقل السلطان ، فتناول مقراضا وقطع به عروق زنده فسال دمه إلى أن مات .

وكان ضابط اسمه « حسن الشركسى » شقيقاً لاحدى نساء السلطان ، فجاء إلى الباب العالى ودخل على مجلس الوزراء فاغتال السر عسكر حسين عونى باشا وناظر البحرية أحمد باشا القيصرلى ، وراشد باشا ناظر الخارجية وكان مراده قتل مدحت باشا ولكن هذا فرّ ونجا بأعجوبة ، فجاء الجند ولم يتمكنوا من القبض على حسن الشركسى إلاّ بقتله . وأما السلطان مراد فما مضت عليه إلا ثلاثة أشهر فى السلطنة حتى حصل له اختلاط فى عقله ، فاتفق رجال الدولة على إقصائه عن السلطنة ونصب أخيه السلطان عبد الحميد مكانه .

السلطان عبد الحميد الثانى

وكان ذلك سنة ١٢٩٤ هجرية . وكانت فى أواخر مدة السلطان عبد العزيز قد نجمت قرون الثورة فى البلقان ، وكانت بدايتها فى الهرسك ، وكان على رأسها « قره جيورجيوفتش » من ذرية قره جورج الذى تقدم الكلام عليه وهو جد ملك يوغوسلافيا الحالي . ثم امتدت الثورة الى بلاد السرب فأرسلت الدولة جيشا للتنكيل بالعصاة ، فاتسعت الثورة وكان مراد السربيين أن يستقلوا استقلالا تاما ولا يؤدوا جزية للسلطان .

فساقت الدولة جيشا بقيادة عثمان باشا الذى صار فيما بعد يلقّب بالغازى ، فهزم السربيين ودوّخت الدولة جميع ثوار البلقان من بلغار وسرب ، وهرسك . وكانت الروسيا تظاهر الثائرين كما لايخفى ، فلما سحقتهم العساكر العثمانية أعلنت الروسيا الحرب على الدولة العثمانية . وهذه الحادثة تشبه كثيرا إعلان الروسيا الحرب على النمسا عند ماساقت النمسا جيشها على السرب فى أول الحرب العامة ، أى أن الروسيا كانت دائما ترى نفسها مرجعاً للأمم السلافية ، ولا سيما الأمم السلافية الارثوذكسية ، فأما السلافيون الكاثوليكيون فلم يكونوا يرجعون إليها . فكانت بداية سلطنة عبدالحميد الثانى هي بالحرب مع الروسيا ، ونظراً لكون تاريخ هذه الحرب معلوما وعليه تأليف كبير بالافرنسية « La Puerre Russo turque » فاننا لا نجد لزوماً للتطويل فى شأنها ، ولا للاسباب فى تاريخ سلطنة عبد الحميد ، لأن حوادث أيامه معروفة مشهورة وقد كُتب عنها بكل اللغات . فالحرب الروسية التركية جاءت وبالا على الدولة إذ أن الروسية فى القرن الأخير قد نمت نمواً زائداً فصار عدد سكانها يفوق عدد سكان السلطنة العثمانية أربع مرات بالأقل ، وكانت البلاد البلقانية من سرب و بلغار وفلاخيين وأروام يداً واحدة مع الروسيا ، ولم تكن هذه الأسباب وحدها كافية للفشل الذى حل بالجيش العثماني ، بل حصل خطأ كثير فى التدبير العسكرى ، وكانت لوازم الجيش ناقصة كما هو شأن الدولة فى حروبها فى العهد الاخير ، وتدخل السلطان كثيرا

فى أمور الحرب بدون معرفة . وخلاصة القول أن الروس عبروا نهر الطونة وتقدموا ظافرين وصار الجيش العثمانى بقيادة السردار عبد الكريم باشا يرجع إلى الوراء وكادت الحرب تنتهى بفشل تام للعثمانيين ، و إذا بعثمان باشا قاهر السرب جاء ودخل فى قلعة بلافنة واعتصم بها ، فجمع الروس جيوشهم وصمدوا إليه فكسرهم كسرة شنيعة فأعادوا الكرة عليه أولا وثانيا وفي كل مرة كان يهزمهم ، وفى إحدى المرار فقدوا خمسة عشر الف عسكرى ، ورجعت الحرب تبشر بحسن مآل العثمانيين ، ولكن عثمان باشا لم يبقَ عنده وهو محصور من كل الجهات ذخائر تساعده على الثبات ، وجاء قيصر الروسيا اسكندر الثانى بنفسه واستصرخ إمارة رومانيا ـ أى الفلاخ ـ ومولداڤيا وذلك باسم النصرانية قائلا : إنها كلها تحت الخطر ، فأنجده الرومانيون بسبعين ألف عسكرى انضافت هذه إلى الجيش الروسى المحاصر لعثمان باشا فى بلافنه . ومع هذا فلولاَ نفاد الذخيرة لم تكن تلك الجيوش كلها لتتغلب على عثمان باشا ، وفى آخر وقعة أراد عثمان باشا أن يخرق جيوش الروس برغم كثافتها و ينفذ إلى الخارج ، فوقع جريحاً فاضطر إلى النكوص نحو بلافنه . وعرض على أمبراطور الروسيا الاستسلام ، ولما دخل عليه وأراد أن يسلمه سيفه كما هى عادة كل المستسلمين قال له الأمبراطور : إن قائداً مثلك يحق له أن يُبقِي سيفه معه ، و بالغ القيصر فى إكرامه .

و بعد تسليم بلافنه زحفت جيوش الروس إلى الأستانة واحتلت أدرنة ، ووصلت إلى سان استفانو ؛ وكان العثمانيون قد أعدوا جيشا للدفاع عن الأستانة إلا أنهم كانوا يخشون أن تدور عليهم الدائرة بكثرة جيوش الروس ، فأما من جهة القوقاس فكان القائد الكبير أحمد مختار باشا الغازى قد انتصر على الروس فى وقعة « كدكلر » وتقدم إلى الأمام ، ولكن الروس عادوا فتغلبوا عليه بتفوقهم في العدد ، وكان درويش باشا قائد الجيش العثمانى المرابط فى باطوم تحت الحصار ، فهاجمه الروس مراراً فدحر جميع مهاجماتهم ، وانتهت الحرب و باطوم فى يده ، هذا وعند ما وصل الغراندوق نقولا إلى سان استفانو طلب السلطان عبدالحميد الصلح ، فاشترطت الروسيا شروطا ثقيلة جداً التزمت الدولة العثمانية أن تقبلها خوفا على الأستانة من السقوط ، إلاّ أن الانكليز وجدوا

الصلح على هذه الشروط عبارة عن استيلاء الروسيا القريب على سلطنة آل عثمان ووصولهم إلى البحر المتوسط ، فاعترضوا الروسيا ودخل أسطولهم إلى الأستانة وأجبروا الروس على تمزيق المعاهدة ، وفاوضوا الدول السبع في عقد معاهدة ثانية بدلا عن معاهدة «سان استفانو» . فتقرر عقد مؤتمر برلين المشهور ، واتفقت الدول هناك على أن تكون إمارة رومانيا مملكة مستقلة تماما عن السلطنة العثمانية ، وأن تستقل تماماً أيضا إمارة السرب و يسمّى أميرها « ميلان أونوفتش » ملكا عليها ، وأن يستقل الجبل الأسود ويُعطى قسما من بلاد الأرناؤوط ، وأن تضاف تساليا وأبيروس إلى اليونان ، وأن تكون بلاد البلغار إمارة تحت سيادة السلطان و يليهاولاية ممتازة .

ومن جهة آسيا تضاف قارص وأردهان وباطوم وتوابعها إلى الروسيا ؛ وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية وتعويضات لتجار الروس الذين لحقتهم خسائر بسبب تدمير الأسطول العثمانى لسواحل الروسيا ، وهذا هو مجمل معاهدة برلين ، و بعد ذلك اتفقت الدولة مع انكلترة على أن تتخلى لها عن قبرص ، وتؤدى انكلترة للدولة خراجاً سنوياً عن هذه الجزيرة ، وبمقابلة هذا التخلى تعهدت انكلترة للدوله بأنه إن تجاوزت الروسيا على حدود تركيا من جهة آسيا تكون انكلترة مساعدة لها ثم تقرر بموجب «معاهدة برلين» هذه أن تحتل النمسا ولايتى بوسنة والهرسك احتلالا مؤقتاً ، ولما دخلت الجيوش النمساوية هاتين الولايتين ثار فى وجهها مسلمو تلك البلاد و بقيت المعارك بين الفريقين مدة أربعة أشهر ، ولم يساعدهم الأهالى السربيون فى شيء بل انحصرت المقاومة فى المسلمين . وكذلك ثار الارناؤوط فى وجه الجبل الاسود وأبوا أن يلتحق من بلادهم شيء بحكومة الجبل المذكور . وكان الشركس والطاغستانيون ثاروا على الروس فى أثناء الحرب بين الدولة والروسيا ، فلما انكسرت الدولة هاجر منهم مئات الوف إلى الأناضول . وبعد مضى عدة سنوات على معاهدة برلين شن اسكندر أمير البلغار الغارة على ولاية الروملى الشرقية ، وألحقها بامارة البلغار ، فصارت الولايتان واحداً ، وفكّر السلطان عبد الحميد فى سوق جيش لارجاع الشيء إلى

ما كان عليه ، إلاّ أن كامل باشا أشار بعدم الحرب ، وباقرار هذه المسألة ، فأعجب رأيه السلطان وجعله صدراً أعظم .

ولما رأت فرنسا ما حل بالدولة العثمانية من الضعف أرادت أن تستغل ضعفها بالاستيلاء على تونس ، فلم يصعب عليها أن توجد لذلك سبباً ، وشنّت الغارة على تونس ، وأجبرت باى تونس محمد الصادق على إمضاء معاهدة تضمن لتونس استقلالها الداخلى تحت حماية فرنسا ، وكان ذلك سنة ١٨٧٩ واحتجت الدولة على ذلك ولكنها لم تقدر على محاربة فرنسا من أجل تونس . وزعمت فرنسا بأنه جاء وقت على تونس لم يكن فيه للباب العالى عليها إلا سيادة إسمية ، وثار بعض الاهالى والجند التونسى بقيادة على بن خليفة ولكن لعدم تكافؤ القوتين انتهت الثورة بتغلب الفرنسيس كما حصل فى الجزائر من قبل ولو لم تحتل فرنسا بلدة الجزائر لم تكن لتستولى على المغرب الأوسط كله العمالات الثلاث ؛ الجزائر ، ووهران ، وقسنطينة ، ثم إنه بقيت فرنسا خمسين سنة تقاتل أهل الجزائر حتى أدخلتهم فى الطاعة . فلما انتهت منهم بدأت تفكر فى الاستيلاء على تونس ، ولما انتهت من خطب تونس بدأت تفكر فى الاستيلاء على المغرب الأقصى ، ولما رأت إيطاليا أن فرنسا استأثرت بهذه الممالك الثلاث من دونها اعترضت على فرنسا من جهة ، واعترضت على انكلترة من جهة أخرى وقالت لهما : إنكما تقاسمتما قارة إفريقية ، فمصر والسودان لانكلترة ، وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وأواسط أفريقية لفرنسا ، ولم تدعا لايطاليا شيئاً ! . فاتفقت هذه الدول الثلاث على أن تكون لايطاليا ولاية طرابلس مع برقة ، ومن هنا جاءت حرب طرابلس ، وهكذا الاستعمار سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض . ومن تساهل فى أمر ملكه فى البداية خوفاً من شر أعظم فانه لا يلبث أن يقع فى أعظم من الشر الذى تفاداه . وكذلك احتلال الانكليز لمصر كان نتيجة وقوع تركيا فى الضعف الذى كانت الروسيا هى السبب فيه .

واذا نظرنا إلى حروب الروسيا نجد أنها كانت تقدم رجالها وأموالها ، وتنفق النفائس والأنفس فى سبيل غيرها ، فاستقلال اليونان ، والجبل الأسود ، والسرب

والبلغار، والرومانيين واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك، واستيلاء فرنسا على تونس واحتلال الانكليز لوادي النيل والسودان، واحتلال إيطاليا للاريتري ثم لطرابلس وبسط انكلترة حمايتها على لحج وحضرموت، وظفار، وسلطنة عمان، وجزيرة البحرين، ومدينة الكويت، ونزولها فى جزيرة قبرص، كل ذلك كان من نتائج الضعف الذى أوقعته الروسيا بتركيا، فالروسيا كانت تطبخ والآخرون كانوا يأكلون

وفى زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثة الجلّى وهى احتلال الانجليز لمصر وبسببها نفر السلطان من انكلترا نفوراً شديداً، وصار الانكليز يعملون بكل الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية. وقد تقدم لنا في هذا التاريخ أن عيون الانكليز كانت طامحة إلى مصر منذ قرون، وأنها على أثر خروج الفرنسيس من مصر أرادوا أن يستأثروا هم بها، ولكن محمد على لم يكن كالمماليك، فأجبر الانكليز على الخروج من مصر وبقيت انكلترا تترصد الفرصة لاحتلال وادى النيل فى أول فرصة، لا سيما بعد فتح برزخ السويس الذى جعل طريق الهند على مصر.

وكأن انكلترا استأجرت قبرص من الدول العثمانية لتكون لها قاعدة بحرية فى وجه مصر، وقد حدث أن الجيش المصرى كان فيه عنصران؛ أحدهما عربى مصرى والآخر تركى وشركسى، فحصل خلاف بين العنصرين لم يعرف العقلاء أن يتداركوه ولا حسبوا حساباً للعواقب، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطنى مصرى ترأسه الميرالاى «أحمد عرابى» وصار هذا الحزب يطالب بحقوق المصريين الاقحاح ووقف موقفاً مناوئاً للخديوى توفيق باشا. فشعر الانكليز بأن هناك حركة يمكنهم أن يستفيدوا منها، فأخذوا يتدخلون فيها بحجة أن لهم مصالح مالية فى مصر يخشون عليها، وكانت أمنيتهم إنما هى إحداث ثورة فى مصر يتمكنون بسببها من الاحتلال، وتحقيق تلك الأمنية القديمة وهى الاستيلاء على الديار المصرية. فأعملوا فى هذا الموضوع جميع الدسائس التى اشتهروا بها، ولم تكن شهرتهم فيها بدون أساس. فأخذ الحزب الوطنى ينمو تحت زعامة عرابى ومحمود سامى وغيرهما من الزعماء، وانقلب عن أصله فبدلا من أن يكون منحصراً فى دائرة ضيقة مناوئاً للأتراك والشركس، أصبح حزبا هدفه

الأسمى كسر نفوذ الأوربيين فى مصر ، لأن نفوذهم كان بلغ فى زمن اسماعيل باشا مبلغا لا يكاد يتصوره العقل ؛ فان اسماعيل وضع نصب عينيه إدخال مصر فى المدنية العصرية الأوربية ، وظن أن من لوازم هذا المبدأ ترغيب الأوربيين فى السكنى بمصر وتمييزهم على الأهالى فى كل شيء ، فانتهى الأمر بأن أصبح الأهالى فى حكم العبيد للأجانب .

فلما تألف هـذا الحزب الوطنى نظر إلى حالة البلاد فوجدها أصبحت لا تطاق من جهة النفوذ الأوربى ، فترك مناوأة الترك والشركس واتحد معهم على مناوأة الأفرنج ، وأخذ الانكليز يشعلون النار حتى يحدثوا ثورة من المصريين على الأوربيين وكان السلطان عبد الحميد قد ارتكب هو وأعوانه خطأ كبيراً ساعد الانكليز فى الوصول إلى مرامهم ، وذلك أنه أخذ يقوّى الحركة العرابية بطريق غير مباشرة على أمل إسقاط الخديوى توفيق وعائلة محمد على كلها ، وإعادة مصر ولاية عثمانية كسائر الولايات ، وكان هذا رأياً سقيما جداً . إذ لا يعقل أن الدولة بمكانها من الضعف وكثرة المشكلات والخطوب تفتح على نفسها أبواباً كهذه يتعذر عليها سدها فيما بعد وتجعل العائلة الخديوية ضد الدولة أحوج ما كان الفريقين إلى الوئام لما هناك من الخطر الأجنبى على الاثنين ، ثم إنه لمـا شعر الأجانب بأن الحركة العرابية منظور إليها بعين الرضا فى الأستانة ، طلبوا من السلطان أن يصدر فرماناً بعصيان عرابى باشا ولم يسعه إلاّ إجابة طلبهم فبعد أن كانت سياسة الأستانة مشجعة للعرابيين على العصيان رجعت تحت الضغط الأجنبى إلى تقوية الخديوى وكسر نفوذ العرابيين بحيث انفض عنهم كثيرون بحجة أن السلطان الخليفة أعلن عصيانه .

ومع هذا فبقيت الثورة تمتد وتشتد حتى جرت مذبحة الاسكندرية ، وذهب فيها كثير من الأجانب ، وانتشرت الفوضى فى البلاد ، وهذا الذى كانت انكلترة تتمناه حتى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب ، وبالفعل دخلت منه وجاء الأسطول الانكليزى فضرب الاسكندرية ودمّر قلاعها بالقنابر ، ثم بعد تدميرها نزلت العساكر الانكليزية إلى البلدة ، ثم وقعت الحرب بين الانكليز والعرابيين

وكان الانكليز فى ظاهر الحال يحاربون باسم الخديوى والسلطة الشرعية .

وانقسم الناس فى مصر الى قسمين ؛ منهم من استمسك بالخديوى وقاوم العرابيين بحجة أنهم خارجون عن السلطة الشرعية ، ومنهم من انحاز إلى العرابيين بحجة أنهم المدافعون عن الوطن ، وحشد العرابيون جيشاً فى التل الكبير وصمّموا على المقاومة هناك فزحف إليهم الانكليز و بددوا شملهم فى أقل من ساعتين ، ثم سارت العساكر الانكليزية ودخلت القاهرة ، وكل هذا بزعمهم على نية تأييد الخديوى ، والرجوع من حيث أتوا ، ولبث الجيش الانكليزي مدة من الزمن في مصر بحجة توطيد سلطة الخديوى المتزعزعة ، فكلما طالبت الدولة الانكليز بالجلاء عن مصر كان جوابهم إن هذا يكون بعد توطيد الأمن ، وتمكين الخديوى وكيل السلطان الشرعى . ثم انهم عقدوا مجالس عسكرية ، وحاكموا العرابيين ، ونفوا عرابى باشا ومحمود سامى باشا وعددا من الباشوات إلى جزيرة سيلان فى الهند ، كما أنهم نفوا عدداً من الضباط الكبار إلى بيروت ، ونفوا أيضاً معهم اليها الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقانى وغيرهما من الوطنيين أصحاب الأقلام ، وطال مكث الانكليز فى مصر والباب العالى يعترض عليهم و يطلب جلاءهم بحسب وعدهم ، حتى أنهم أحصوا مواعيدهم الرسمية بالجلاء فبلغت اثنين وستين وعداً نكثوا بها كلها ! وكان احتلال الانكليز لوادي النيل سنة ١٨٨٢ و بعد أخذ ورد طويلين بين انكلترة والباب العالى وصل الفريقان إلى اتفاق على الجلاء شاترطت فيه انكلترة حق احتلالها لمصر فيما إذا تجددت فيها حوادث مخلّة بالأمن ، أو وقائع ذات خطر على حياة الأوربيين ، وكاد السلطان عبد الحميد يوقع على هذا الاتفاق ، إلاّ أن فرنسا ألحت عليه برفضه فامتنع فى آخر ساعة من التوقيع عليه .

وكان مراد فرنسا الحقيقى أن تتفق هى رأساً مع انكلترة فتترك منازعتها على مصر بمقابلة تخلّى انكلترة عن منازعتها إياها على مراكش ، وهكذا تمّ بينهما فيما بعد وأصبحت انجلترة فى مصر لاينازعها سوى الدولة العثمانية التى كانت مشكلاتها الكثيرة وعداوتها مع الروسيا تقيدها تقييداً شديداً عن الاندفاع فى عداوة انكلترة . وأما فرنسا

فبطل اعتراضها على انكلترة فى احتلال مصر بمقابلة سكوت انكلترة عن احتلال فرنسا للمغرب .

و بقيت الحال على غير استواء بين انكلترة والدولة العثمانية مدة سلطنة عبدالحميد كلها ، وذلك كله بسبب مصر ، وكان السلطان قد أرسل إلى مصر الغازى مختار باشا مندو باً من قبله لملاحظة مصالح الدولة ، وكان المصريون يجلّون مختار باشا مزيد الاجلال باعتبار تمثيله للسلطان الخليفة ، وأيضاً بسبب كونه فى نفسه قائداً عظيما ، وعالماً كبيراً ، ولكن الانجليز لم يجعلوا له سبيلا لأى تدخل فى أمور مصر ، ووضعوا هناك مسيطراً على مصر السر « اڤلين بارنغ » الذى لقبوه فيما بعد « باللورد كرومر » . وكان هذا الرجل شديد الغطرسة ، متكبراً فظاً ، وله عداوة خاصة للاسلام ، فتصرف بأمور مصر كما لو كانت إحدى مستعمرات انكلترة ، وفى زمانه ثار السودانيون تحت قيادة محمد احمد الذى لقب نفسه « بالمهدى » فقالوا له المتمهدى ، وانقضّوا على العسكر المصري الانجليزى الذى كان يقوده « غوردون باشا » فاستأصلوه ، وكان عدده عشرة آلاف جندى . واستولى المهدى على السودان وانقطع الحكم الانجليزى المصرى من هناك ، ومات المهدى فخلفه «التعايشى» وكان هذا ظالما عاتياً جبّارا ، فأسرف فى سفك الدماء ، وأفنى كثيرا من الخلق فتغيرت عليه قلوب الاهالى وصاروا يريدون التخلص منه .

وفى ذلك الوقت قرر الانكليز استرجاع السودان ، فجهزوا جيشاً مصرياً عهدوا بقيادته إلى ضباط منهم ، وأنفقوا على الحملة من خزانة مصر ، وفتحوا السودان ولكن بدلا من أن يردوه إلى مصر كما كان جعلوا الحكم مشتركا بينهم وبين المصريين ـ بزعمهم ـ والحقيقة أنهم جعلوا شركة لمصر بالاسم فقط ، و برفع العلم المصرى ، وقبضوا على كل شىء ، وتصرفوا بكل شىء كما يشاؤن . وهم الذين أذنوا لايطاليا فى احتلال مصوع ، وعصب ، والاستيلاء على بلاد عثمانية واسعة كانت تحت إدارة الحكومة المصرية ، ولما احتل الانكليز مصر كانت الحكومة المصرية تدير من قبل الدولة

شمالى بلاد الحجاز ، ففى الحال فطن والى الحجاز لمغبّة هذا الأمر ، وأخرج قضاء الوجه من تحت الادارة المصرية .

ولكنه بقى فى يد مصر القسم الأكبر من شبه جزيرة سينا ، فأراد العثمانيون إجراء تحصينات فى القلاع التى إلى الغرب من العقبة ، فاعترضت انكلترة على الدولة فى ذلك ، فأصر السلطان على التصرف ببلاده بحجة أنها بأجمعها بلاد عثمانية ، فاستبد الانكليز فى هذه المسألة استبداداً شنيعاً ، وأنذروا الدولة بالحرب . وكأن مصر أصبحت فى نظرهم من جملة الأمبراطورية البريطانية ، فازداد السلطان عبد الحميد شنآنا لبريطانيا العظمى ، وكان ذلك من جمله أسباب موالاته لألمانيا . وانعقدت بينه وبين الأمبراطور غليوم الثانى مودة أكيدة صارت تزداد بمرور الايام ؛ وعوّل السلطان على المانيا فى تدريب جيشه ، واستدعى « فون غولتس » من قواد المانيا ليكون على رأس المدرسة العسكرية فى الأستانة واستجاد غيره من أهل العلم والصنعة فى المانيا واستخدمهم فى حكومته . وكان يرسل كل سنة عدداً كبيراً من الطلبة إلى المانيا ، وبقى السلطان عبد الحميد صديقاً للأمبراطور غليوم إلى نهاية ملكه .

ولما أعلن الدستور العثمانى وصار الأمر إلى جمعية الاتحاد والترقى ، ظن رجال هذه الجمعية أنهم يتركون صداقة المانيا التى كانت تعتمد على السلطان عبد الحميد وتنال بواسطته الامتيازات فى تركيا ، ومن جملتها سكة حديد بغداد ، رأوا أن يرجعوا إلى صداقة انكلترة ، وأخذوا يتزلفون الى هذه ويذكّرونها بالصحبة القديمة يوم كانت انكلترة تساعد العثمانيين على الروس ، ويوم كان السلطان عبد المجيد فى ثورة الهند الكبرى يخاطب مسلمى الهند ناصحا لهم بعدم الاشتراك مع الهنادك فى محاربة الانكليز ، الاّ أن المسألة المصرية منعت كل تقارب بين العثمانيين والانكليز وما مضت ثلاثة أشهر على حكم الاتحاديين فى تركيا حتى رجع الاتحاديون وأدركوا أن لا أمل فى عطف الانكليز وعادوا أصدقاء لالمانيا كما كان السلطان عبد الحميد وبقيت الاحوال بين تركيا وانكلترة مُشربة بروح العداوة إلى الحرب العامة أى كانت قد بدأت العداوة بين انكلترة وتركيا من سنة ١٨٨٢ ، لأجل مصر

واستمرت إلى ١٩١٤ أى إلى سنة الحرب العامة وهى مدة اثنتى وثلاثين سنة . وذلك كله بسبب احتلال الانكليز لمصر والسودان وتوابعهما . ثم خاضت الدولة غمرات الحرب العامة إلى جانب ألمانيا نفوراً من انجلترة ، ولما بدأت الحرب الكبرى وحاولت دول الحلفاء الروسيا وفرنسا وانجلترة إقناع الدولة العثمانية باجتناب الحرب ؛ كان أول شرط اقترحه رجال الدولة هو إخلاء الانجليز لمصر ، وكان الأتراك مستعدين أن يقبلوا التحالف مع الانجليز إذا أراد هؤلاء إخلاء مصر ، فلم يقبل الانجليز أن يسمعوا كلمة واحدة فى هذا الموضوع .

وعند ما دخلت الدولة فى الحرب العامة أعلنت انجلترة الحماية على مصر ، وخلعت الخديوى عباس حلمى المنصوب بفرمان سلطانى ، ونصبت عمه الأمير حسين بن اسماعيل سلطاناً على مصر ، وأرادت تجنيد جيش من المصريين لقتال الأتراك فاعترض على ذلك السلطان حسين نفسه لأنه كان وطنياً صادقاً ، ورضى بعض زعماء مصر بالدخول فى الحرب إلى جانب انجلترة على شريطة أن انجلترة تعترف باستقلال مصر وتخلى وادى النيل فرفضت انجلترة هذا الطلب أيضاً وأصرّت على إرادتها وساقت من المصريين عشرات الألوف استخدمتهم فى جيوشها ، وتصرفت برجال مصر وأحوال مصر كما تتصرف بالهند أو بغيرها من المستعمرات الانجليزية .

وكانت انجلترة لا تفكر أصلا أن تلقى شيئاً من القوة الحيوية التى ظهرت من السلطنة العثمانية فى أيام الحرب الكبرى ، ولكن عند ما حمى الوطيس ورأت دول الحلفاء ما رأته من قوة تركيا ، وعظمة المقام الذى قامته بجانب المانيا ؛ علمت خطل رأيها وكونها استخفت بتركيا استخفافاً دلت الحوادث على أنه لم يكن فى محله . ففكر قواد الانجليز فى اختراق الدردنيل والاستيلاء على الأستانة ، وعبّأ الحلفاء جيشاً جراراً وأرسلوا أساطيلهم وحاولوا عبور مضيق الدردنيل ، فقاتلهم العثمانيون قتالا شديداً وأغرقوا جانباً من بوارجهم ، فأتوا بجيوش أخرى وأنزلوها فى البر وحاولوا التقدم إلى الأمام ، فصادمهم الترك بشدة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصور العقل . واستمرت

حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر والحلفاء يكرون والعثمانيون يصدونهم إلى أن قطع الحلفاء كل أمل من الفوز وركبوا بوارجهم خائبين ، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف جندى حسبما قرأت فى وثائق الحرب الكبرى المطبوعة فى باريز ، وفيها أن هذا العدد هو خسائر الجنود البرية ، ولم يدخل فيه عدة آلاف من خسائر الأساطيل ، وقد جاء فى هذا الكتاب أن بعض البوارج التى أغرقها العثمانيون بمدافعهم لم ينجُ من بحريتها إلاّ عشرون جندياً لاغير ، وقد كانت حرب الدردنيل هذه هى ألمع صفحة من تاريخ العثمانيين فى الحرب الكبرى ، كما كانت حرب بلفنة ألمع صفحة من تاريخ الحرب الروسية التركية . وتعدّل خسائر العثمانيين فى حرب الدردنيل بمثى ألف مقاتل بين قتيل وجريح .

ولما رأت انجلترة بعينها أن حسبانها من جهة تركيا وقوة مقاومتها كان أكثره خطأ ؛ عادت ففكرت فى فصل العرب عن الترك حتى تشغل العثمانيين بعضهم ببعض

وقد كان الشريف حسين بن على ، أمير مكة قبيل الحرب الكبرى داخل الانكليز فى عقد محالفة معهم على أن يثور على الدولة وتمده انكلترة بالمال والسلاح إلى أن تستقل البلاد العربية وتنفصل عن تركيا ، فرفضت انجلترة اقتراح أمير مكة هذا استخفافاً بالقوة العربية ، واعتماداً على أنها لا تحتاج إلى العرب في القضاء على تركيا إذا نشبت الحرب ، وكان معلوماً أن الحرب العامة ستقع لامحالة ، ولذلك اتفق الانجليز والفرنسيس على اقتسام سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، أى قبل الحرب العامة بسنتين . وهذا من أوضح الدلائل على كون دول الحلفاء كانت تتأهب لقتال ألمانيا ولاقتسام تركيا بعد تغلبهم على ألمانيا ، وأيضاً يستدل على تلك النية التى كانت عندهن بأن تركيا فى أول الحرب العامة عند ما صار الحلفاء يراودونها على عدم الدخول فى الحرب أجابتهم بأنها لا تقدر أن تبقى على الحياد التام خوفاً من أن يتفق الجميع عليها ويتصالحوا على ظهرها ، فهى إن لم تدخل فى الحرب إلى جانب ألمانيا ، فلابد لها من الدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء تحت محالفة تعقد بينهم وبين تركيا . فرفضت انجلترة هذا الاقتراح ، ولم تجد من حاجة إلى عقد محالفة مع تركيا قد تمنعها فيما بعد

من الاستيلاء على البلاد العربية . وهذا مثل رفضها للتحالف مع مصر وللسبب نفسه وكذلك مثل رفضها للتحالف مع إيران وللسبب نفسه ، أى حتى لا تضطر إلى الاعتراف باستقلال هذه الممالك الاسلامية التى كان الانجليز وضعوا نصب أعينهم القضاء عليها .

ونعود إلى أخبار السلطان عبد الحميد فنقول : إن من أهم الحوادث التي جرت فى أيام هذا السلطان هو فتنة الأرمن ، وهذه الفتنة أساسها أن الأرمن كانت لهم فى الأعصر القديمة دولة ، وكان لهم استقلال ، وكانت مملكتهم واقعة فى شرقى الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية ، ولما استولى الأتراك على تلك البلاد فى أيام الأتراك السلاجقة ، وبعد واقعة ملازكرد التى وقع فيها قيصر القسطنطينية أسيراً رحل منهم جانب إلى غربى الأناضول ، وأقاموا فى جبال طوروس وفى سهول كيليكية . وكانت لهم هناك إمارات لعبت أدواراً فى الحروب الصليبية ، وسواء كانوا فى شرق الأناضول أو فى غربيّه ، لم تكن لهم أكثرية عدد بالنسبة إلى السكان المسلمين . وإذا وجدت منهم جماعة فى مقاطعة صغيرة كانت أكثر من غيرها فلم يكن ذلك ليقيم لهم ملكا مستقلا ، وقد كانت الدولة العثمانية أحصت عددهم فى جميع بلادها فكانوا لا يزيدون على ثلاثة ملايين مبعثرة مابين خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليوناً من الأمم الأخرى . ففي بعض الولايات كانوا خمسة في المائة ، وفى بعضها عشرة فى المائة .

وأكثر الولايات سكانا من الأرمن كانت ولايات مُوش ، وبِتْلِس ، فى شرقى الأناضول وكانوا هناك خمسة وثلاثين فى المائة ، وبرغم هذا كله كانوا يزعمون أن لهم حقاً فى الاستقلال كما استقل اليونان ، والبلغار ، والسربيون ، والفلاخيون وغيرهم من الأمم المسيحية التى كانت خاضعة لسلطنة آل عثمان . ولكن هذا قياس مع الفارق ، فان الفلاخيين والبُغدانيين كانوا عدة ملايين من أمة واحدة ، وعلى حدود الروسيا ولم يكن بينهم إلا مئتان أو ثلاثمائة ألف من الترك ، وإن السربيين كانوا مليونى نسمة ، وليس بينهم سوى بضعة عشر ألف مسلم . وكذلك البلغار كانوا خمسة

ملايين وليس بينهم سوى مليون من الأتراك ، وكان اليونان من قبل أكثر من مليون فى بلادهم وليس بينهم إلا مائتان أو ثلاثمائة ألف من المسلمين . فلذلك تيسر لهذه الأمم أن تقوم وتدعى الاستقلال ، وتقاتل الدولة العثمانية قتالا لم يكن يخمد حتى يشتعل ، واستمر ذلك مئات من السنين ، فانتهى الأمر بانسلاخ هذه الأقوام عن السلطنة العثمانية بمساعدة أوربا .

فأما الأرمن فلم يكونوا فى أوربا مثل اليونان ، ولا البلغار ، ولا السرب ، ولا الرومانيين ، ولم يكونوا مجتمعين فى ولاية واحدة حتى تتألف منهم كتلة تستحق الاستقلال ، و إنما كانوا مشتتين فى جميع ولايات السلطنة ، وكانوا فى كل مكان هم الأقلية ، ولم يكن سائر السكان من أتراك وأكراد يقبلون الخضوع للأرمن . فلهذا كان ادّعاؤهم الاستقلال غير وارد ولا من جهة ، وكان بينه و بين إمكانه فملا بون شاسع . وهذا ما قد كان يدركه قدماء الأرمن ، فلذلك كانوا وطنوا أنفسهم على الارتباط بالدولة العثمانية التى كانت تعتمد عليهم ، وتستخدم كثيراً منهم حتى فى المناصب العالية . وفى ظلها نما عددهم ، وازدادت ثروتهم ، ولما كانوا هم أهل جد ونشاط ، و إقدام على الأعمال ؛ كان كثير من مرافق السلطنة فى أيديهم ، وأينما توجه الانسان فى البلاد العثمانية كان يجد على الأرمن آثار النعم . وكانت الدولة تثق بهم وكان الأتراك يخلطونهم بأنفسهم ، و يسمون الأرمن « الملّة الصادقة »

واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بدأ الضعف فى السلطنة العثمانية ، فصار الأرمن يرفعون رؤوسهم و ينتهزون الفرص من خطوب الدولة ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم ، و إن كانت قد درست معالم ذلك الملك ، وكانوا هم تفرقوا شذر مذر وزاد هذا الادعاء عندهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم فى أوربا وأمريكا فجميع هؤلاء الشبان الذين كانوا يتعلمون فى الديار الأوربية والأمريكية كانوا يعودون متشبعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان الأوربيون بواسطة رسالاتهم الدينية الكثيرة يذهبون إلى الديار التى فيها أرمن من تركيا و يفتحون المدارس والملاجىء ، وكان جميع من يتعلم فى هذه المدارس الأوربية يخرج كارهاً للدولة ، عدواً

للمسلمين ، وذلك بسبب المبادىء التى كان الأوربيون - ولا سيما الأقسة والمبشرون - يرضعونهم إياها من الصغر . فأهمّ عوامل الشقاق الذى وقع بين الأرمن و بين سائر الرعية العثمانية ، كان هو التعليم فى مدارس الأوربيين ، فأصبح غير ممكن تساكن الجنسين بعضهم مع بعض ، وظهرت عند الأرمن نزّعات شيطانية ، ونزعات عدوانية تخالف ما كان عند آبائهم بتمامه ، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم و بين المسلمين ودارت الدائرة على الدولة فى الحرب التركية الروسية .

طلب الأرمن من الدول الأوربية استقلالا داخلياً للبلاد التى فى شرقى الأناضول على أمل أن يجددوا هناك مملكة أرمينية القديمة ، و بديهيّ أن الدول فى مؤتمر برلين أمكنها أن تفصل الولايات الأوربية التى كانت للدولة بسبب كثرة المسيحيين فيها ، وقلة المسلمين الذين يساكنونهم ، ولكنها لم تقدر أن تفصل الأرمن عن حكم الدولة العثمانية نظراً لقلة عددهم بالنسبة إلى من يساكنهم من المسلمين ، فقررت اقتراح بعض اصلاحات إدارية فى البلاد التى فيها أرمن ، ولما كانت هذه الاصلاحات ليست هى مرمى الأرمن الحقيقى سواء أنفذها الأتراك أو لم ينفذوها ؛ لم تكن هذه المسألة لتشفى للأرمن غليلا .

فمن ذلك الوقت شرعوا يعدّون معدات الثورة و يتحفزون للقيام على الدولة حتى ينالوا ما يريدونه بالثورة ، فأخذوا بتشكيل جمعيات سرية جعلوا مركزها فى أوربا وهى ذات شعب وفروع فى جميع البلاد التى فيها أرمن ، فكان المركز الأرمنى بالوسائل الكثيرة التى له ؛ يجمع الأموال من الأوربيين ومن الأرمن الموسرين ، و يقرر الأعمال و يرسم الخطط والحركات ، و يشترى الأسلحة و يعين متطوعين فدائية يفادون بأنفسهم فى سبيل مصلحة أمتهم .

وهكذا جعلوا حركة الانتقاض على الدولة تكاد تكون عامة ، لاسيا بين النشء الجديد ، وكانوا إذا رأوا من أبناء قومهم من لا يريد أن يسايرهم فى طريقهم إما اقتناعاً بفساد عملهم ، أو خوفاً من سطوة الدولة ؛ بطشوا به وعدوه خائنا ، كانوا يستحلّون دمه وقد قتلوا من هذا النمط عدداً غير قليل منهم ، وكانوا يعلّمون أحداثهم أسماء ملوك

الأرمن القدماء ، و يذكرون أسماء قديسى الأرمن فى الكنائس ليثيروا فى رؤوس الشبان الحمية الأرمنية ، و يحيوا تذكار الملك الأرمنى القديم . وكل هذا تحملته الدولة العثمانية مدة طويلة ، ولكنها فى الآخر رأت أن رعيتها المسلمين لن يستطيعوا على هذه الأحوال صبراً ، فأمرت باقفال بعض مدارس كانت تلقى فيها بعض التعاليم الثورية ، فثار الأرمن بسبب إقفال هذه المدارس ، وقاموا بحركة عصيان ، وكان الأتراك والأكراد قد امتلأت صدورهم وغرا منهم فحصلت حوادث وسالت دماء فى ولاية أرضروم ، وموش ، فجاء الأرمن يشكون إلى الدولة وقامت قيامتهم فى الأستانة وطلبوا من بطريركهم عشقيان افندى أن يراجع السلطان فى الاقتصاص من المسلمين الذين حملوا على الأرمن .

ولما وجدوا من عشقيان افندى فتوراً فى المراجعة هجموا عليه وهو فى كنيسة « قوم قبو » وحاولوا قتله ففرّ من بين أيديهم وتوارى ريثما جاءت الشرطة فقبضت على الثائرين وألقوا عدداً كبيراً من شبان الأرمن فى غيابات السجون . وكانت تشكلت فى استانبول لجنة أرمنية ثورية اسمها « اللجنة الحمراء » يديرها أرمنى من التبعة الروسية اسمه « آغوب بدريكوف » وأخذت هذه الجمعية السرية تفتك بالأرمن الذين كانوا لا يوافقون على الثورة فقبضت السلطة على بدريكوف هذا وحكمت عليه المحاكم بالقتل ، ولكن السلطان عفا عنه وسلمه إلى سفارة الروسيا على شرط إخراجه من الاستانة وخرج ، ولكن اغتيال الأرمن الصادقين للدولة بقى مستمرا ، وكانت هذه الوقائع سنة ١٨٩٠ .

ثم إن جمعيات الأرمن لاسيما التى يقال لها « هيكان » ازدادت جرأة وأخذت تبث حركة العصيان فى الاناضول فاشتعلت الفتنة فى سيواس ، وأنقرة ، وقونية ، وأطنة وقبضت الدولة على المشاغبين ، وأخذت بمحاكمتهم ، وأكبر الناس ــ حتى عقلاء الأرمن أنفسهم ــ هذه الحركات وأصدر البطريرك عشقيان افندى منشوراً ينصح فيه أمته بالاخلاد إلى السكون وتجنب هذه الحركات المخالفة للأمانة للدولة ، ولمصلحة الأرمن أنفسهم . فما مضى على ذلك أيام قلائل حتى أطلق أحد المنسوبين إلى هذه

الجمعيات الرصاص على البطريرك وهو فى كنيسة قوم قبو ، ولكنه أخطأه ، فأخذت الحكومة العثمانية تشدد فى معاقبة ثوار الأرمن .

وفى أثناء ذلك نجمت بوادر الثورة فى جبل يقال له «جبل ساسون» من سنجق موش ، فى ولاية بتليس . وذلك بأن أهالى هذا الجبل كانوا امتنعوا عن تأدية الضرائب ، فأبرق والى بتليس إلى الباب العالى عن عصيان أهالى هذا الجبل ، ووجوب تأديبهم . فأرسلت الدولة المشير زكى باشا بقوة من المشاة والخيل والمدفعية فدمروا ديار العصاة ، وجعلوا عاليها سافلها . فلما وصلت أخبار إيداب الدولة لعصاة الأرمن إلى صحف أوربا حتى قامت قيامتها ، وأخذت تتكلم عن مذابح الأرمن كما هى عادتها كلما ثار ثائر أمة مسيحية على حكومة إسلامية .

وما زالت الصحف الأوربية تضرب على هذا الوتر حتى أمر السلطان عبد الحميد بارسال لجنة تحقيق إلى محل الواقعة ، ودعا الدول التى هن موقعات على معاهدة برلين أن ترسل معتمدين من قبلها مع اللجنة المذكورة ليشهدوا سير التحقيق ، فجرى التحقيق بحضورهم وثبت عصيان الأرمن بشهادات تفوق الاحصاء وأدلة لا تقبل المراء ومع ذلك فقد بقى قناصل الدول فرنسا وانكلترة والروسيا يدعون أنهم لم يقدروا أن يتصلوا تمام الاتصال بالأهالى حتى يطلعوا على الحقائق . ثم عند ما وجدوا كون هذا العذر واهياً جعلوا يقولون إنه على فرض وقوع عصيان فلم يكن من العدل أن يتناول العقاب جميع أهالى الناحية والحال أنه قد بطش الأكراد بالأرمن الذين ثاروا على الدولة وذلك بمرأى ومسمع من العساكر العثمانية ، وأخذت الصحف الأوربية تحت تأثير الكنائس لاسيما فى انكلترة تستفز الدول إلى التدخل لرفع المظالم عن الأرمن ولما كانت انكلترة تسمع كثيرا لرؤساء الكنائس فى بلادها سعت لدى الدول فى التدخل بهذه المسألة فأجابتها فرنسا والروسيا ، واتفقت الدول الثلاث على تقديم اقتراحات للسلطان لأجل إصلاح الادارة فى البلاد التى كان الأوربيون يطلقون عليها اسم « أرمينية » وهى فى الحقيقة بلاد الأكراد .

فمن جملة هذه الاقتراحات تعيين مفتش عام لتلك الولايات ، وتشكيل لجنة

مختلطة دائمة لمراقبة سير الاصلاحات ، ويكون مركز اللجنة فى الأستانة . فرفض السلطان قبول تشكيل هذه اللجنة الدائمة المختلطة ، وعيّن المشير شاكر باشا مفتشاً عاما لولايات شرقى الأناضول ، فرفضت الدول تعيين هذا المفتش ، وأصرّت على تعيين مراقبين أوربيين وجرى بينها و بين السلطان كثير من الأخذ والرد ، والسلطان ثابت لايتزعزع . فخطب اللورد ساليسبورى فى مجلس اللوردية خطابا أنذر به السلطان بسوء المصير إذا لم يقبل نصائح الدول ، فاشتد بذلك عزم ثوّار الأرمن وقاموا بمظاهرة عظيمة بحجة أنهم يطالبون بتنفيذ الاصلاحات الموعودة ، فعند ذلك هجم عوام المسلمين على الأرمن فى نفس العاصمة وذبحوا منهم عدداً كبيراً ، لأنهم رأوا الأرمن يتعمدون إثارة الفتنة سبيلا لادخال الدول الأوربية فى أمور السلطنة الداخلية . وهذا ما كان يقصده الأرمن فعلا ، وكان يعتقدون أن فى ذبحهم فائدة لأنفسهم فى المستقبل

فلما وقع هذا الانتقام من الأرمن ؛ واتهم الأجانب رجال الشرطة وناظم باشا ناظر الضبطية بأنهم أغضوا النظر على ذبح الارمن ، وأنهم كانوا يقدرون على منع الشر فلم يمنعوه ؛ أبعد السلطان ناظم باشا عن الاستانة وجعله والياً على بيروت، وعزل سعيد باشا الصدر الاعظم وجعل مكانه كامل باشا . ثم أصدر خطاً سلطانياً يتضمن قبول اقتراح الدول وتشكيل مجلس مراقبة لسير الاصلاحات ، ولكن خبر ثورة الأرمن والمذبحة التى حلّت بهم كان انتشر فى ولايات الاناضول وامتلأت صدور المسلمين غيظاً منهم .

وكان للأرمن حينئذ بطريرك إسمه إزميرليان عقد الأرمن به جميع آمالهم ، وكانوا يبالغون فى مدح مناقبه لأنه كان يقوى عزائمهم ، و يجدد روحهم القومية ، فازدادت حركتهم نمواً . ولما كان الأرمن غير مقتصرين فى حركتهم هذه على البلاد العثمانية بل كانت هذه الحركة ممتدة إلى بلاد القوقاس ، فقد تنكر لها رجال الدولة الروسية أيضا ، وسعوا لدى الباب العالى فى استبدال بطريرك آخر بالبطريرك إزميرليان الذى كانت الروسيا ترى فيه مصدر هذه الحركات ، فانه كان يعارض فى الغاء التعليم الأرمنى فى القوقاس ، والروسيا تأبى إلا التعليم الروسي وحده ، ولما كان طلب الروسيا موافقاً

لهوى تركيا ، فقد حملت الدولة العثمانية هذا البطرك على الاستقالة فاستعفى فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ وعين مكانه بطريركا برلتماوس مطران بروسه ، فبلغ الأرمن من الحنق لهذا التبديل أن أجمعت جمعياتهم الثورية الهجوم على القصر السلطانى ، ووزعوا الاسلحة سرًا على كثير من أعضاء الجمعيات ، وعينوا عيد الجلوس موعداً لهذه الحملة إذ يكون الشعب التركى غافلا منصرفا إلى إعداد الزينة بعيد السلطان . فوصل الخبر إلى السلطان بواسطة البطريرك برلتماوس نفسه ، ويقال إن الحكومة الروسية هى نفسها أبلغت السلطان خبر هذه المؤامرة لأنها كانت تكره جمعيات الأرمن الثورية وتعلم اتصالهم بحزب النيهيلست الذين كانوا اغتالوا القيصر اسكندر الثانى : فأخذ السلطان حذره وتهيأت الضابطة للتنكيل بثوار الأرمن . وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ دخلت عصابة من الأرمن إلى البنك العثمانى بغتة ومعهم أكياس ملأى بقنابر الديناميت ، وقتلوا الجند المحافظ على البنك ، وقصدوا الاستيلاء على خزانة البنك فجاء الجند وأحاطوا بهم من الخارج وصاروا يطلقون النار عليهم وهم يقابلون الجند بالمثل ، وشاع فى الاستانة أن ثوار الأرمن حاولوا نسف البنك العثمانى ، فهاج الشعب التركى وصاروا يقتلون الأرمن أينما ثقفوهم ، فحصلت مذبحة استمرت ثلاثة أو أربعة أيام فقتل منهم ألوف ، وكان سيقتل أضعاف ذلك لولا أن كثيرين من المسلمين حموا كثيرين من الارمن وآووهم فى بيوتهم ، وكان كثير من أئمة المساجد ومن رجال الدين ينهون العامة عن أن يمسوا الأرمن بسوء ، وكذلك كثير من رجال الدولة وقوا الأرمن في الحارات التى تجاور بيوتهم . وامتاز بين هؤلاء المشير فؤاد باشا الجركسى .

فأما العصابة التى دخلت إلى البنك فقد أخرجوها تحت ضمان سفراء الدول وأبعدوها من الأستانة ، بعد أن كانت هذه العصابة هى سبب ذبح عدة آلاف من الأرمن ربما كان كثير منهم أو أكثرهم أبرياء .

وكانت جزيرة كريت ــ أو إقريطش ــ قد أخذت تتحرك وذلك لاختلاف وقع بين أهالى الجزيرة وبين الدولة ، وكانت الثورة فى كريت خُلقاً متأصلا فى أهل هذه الجزيرة ، ويقال إنهم مفطورون على القلق والشغب وقد كانوا كذلك في القديم قبل

الدولة العثمانية بل قبل الدولة الرومانية نفسها ، وفى هذه الجزيرة حل ثوار قرطبة الذين بطش بهم الحكم الأموى أمير الاندلس فى وقعة الربض المشهورة ، فجلا منهم طائفة إلى فاس ، وسارت طائفة أخرى بضعة عشر الف نسمة إلى الشرق فنزلوا فى الاسكندرية وثاروا فيها على الدولة العباسية ، فقاتلهم عمال مصر من قبل بنى العباس وأخرجوهم من مصر إلى جزيرة إقريطش قائلين لهم ليتبوأوا منها مايشاؤن . فذهبوا ونزلوا بهذه الجزيرة ، وأسسوا لأنفسهم إمارة مستقلة فى جانب من إقريطش تحت رئاسة عبد العزيز بن شعيب البلوطى ، واستمرت هذه الامارة على استقلالها أكثر من مائة سنة . ثم أرسل عليهم الروم من بيزانطية جيشاً حصرهم حتى استسلموا وأخذ أميرهم أسيراً إلى القسطنطينية ، وشرّدهم من تلك الجزيرة ، ومن بقى منهم فيها تنصروا .

ويقال إنه لا يزال فى كريت قرى معروفة يقال إن أصل أهلها من العرب وسحناؤهم تدل على ذلك ، ولا تزال عندهم عادات عربية محفوظة إلى اليوم . وقد ذكرنا فى ما سبق كيفية فتح الدولة لكريت وأنها آخر فتوحات الدولة العثمانية وأنها بقيت تقاتل كريت سبعاً وعشرين سنة إلى أن دوّختها . وفى سنة ١٧٦٦ عصت هذه الجزيرة الدولة ثم ساقت الدولة عليها عسكراً أدخلها فى الطاعة ، وسنة ١٨٧٨ ثارت مرة ثانية فاتفقت الدولة مع أهلها على دستور خاص بهم وعيّنت لهم والياً مدته بحسب هذا الدستور خمس سنوات ، وتقرر أنه إذا كان الوالى مسلماً يكون له معاون مسيحى ، واذا كان مسيحياً يكون له معاون مسلم . وكذلك المتصرفون إذا كان المتصرف مسلماً كان المعاون مسيحياً ، وبالعكس . وكانت نواحى الجزيرة ٨٨ ناحية منها ٥١ مختلطة أى مسلمين ونصارى ، و٣٤ مأهولة بمسيحيين فقط ، وثلاث نواح ليس فيها غير مسلمين . وكان للجزيرة مجلس تشريعى يجتمع مدة أربعين يوماً فى السنة ، وعدد أعضائه ٨٠ منهم ٤٩ مسيحيون و٣١ مسلمون ، ولا يتقرر شىء إلا بثلثى الاصوات . ففى سنة ١٨٨١ طلب المسيحيون تعديل هذا الدستور بحجة أنه مجحف بحقوقهم ، وأن التمثيل فى المجلس غير متناسب مع عدد السكان ، فاذا كان أعضاء المسيحيين فيه ٥٠ وجب أن لا يزيد المسلمون على ٢٥ ، والحال أن الدولة جعلتهم ٣١

ولا شك فى أن الدولة كانت تعلم من استعداد أهل كريت للانفصال عنها ماجعلها تحتاط لمستقبل الحكم العثمانى فيها ، وتراعى الأقلية الاسلامية . ومع ذلك فمسلمو كريت كانوا لا يقلون عن ثلث السكان ، وكان بينهم عدد غير قليل من عرب برقة وجماعات وافرة من مهاجرى بوسنه والهرسك والبلغار المسلمين . ثم إن المسيحيين فى كريت اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لادارة الجزيرة ، واشتد الخصام فى سنة ١٨٨٧ فأرسل السلطان عبد الحميد المشير شاكر باشا لأجل إصلاح الأحوال فوجد أنه لا مناص من استعمال القوة ، فان المسيحيين خرجوا عن الطاعة وأبوا دفع الضرائب ، وصاروا يعتدون على المسلمين فى القرى التى أكثرها مسيحيون ؛ وصار المسلمون يرحلون من القرى إلى المدن لأنهم فى المدن كانوا هم الأكثرية . فساق شاكر باشا القوى العسكرية على عصائب الأروام فشتت شملها ، وأخلد الجميع إلى السكون برغم أنه كان لكريت جمعية فى أثينا ترسل إلى كريت متطوعين وأسلحة فلما رأى اليونان أن الدولة العثمانية قهرت ثوار كريت هاجوا وطلبوا من حكومتهم إرسال الاسطول اليونانى إلى مراسى كريت بحجة حماية المسيحيين ، حيث كان الاتراك بطشوا بالأروام فى مدينتى « خانية » و « قندية » فلما رأت الدول استفحال الخطب أرسلن إلى مرسى « سودا » سفنا حربية فأنزلت عساكر فى الجزيرة وذلك فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٧ ولم تشترك ألمانيا ولا النمسا فى هذه الحركة ، وإنما كانت الدول اللواتى تولينها انكلترة ، وفرنسا ، والروسيا ، وإيطاليا . فبدلا من أن الأروام يسكنون إلى عمل الدول هذا ؛ كان منهم أن أرسلوا فى ١٠ فبراير الكولونيل فاسوس ومعه عدة توابير من الجند المنظم ، وجماعة من المتطوعين ، فساروا بالأسطول اليونانى ونزلوا بقرب خانية ، وأنذرتهم الدول حتى يرجعوا ، وألقت عليهم النار من سفنها فابتعدوا إلى داخل الجزيرة ، وأعلنوا الحاق كريت بمملكة اليونان .

فعند ذلك أعلنت الدولة الحرب على اليونان ، وزحف المشير أدهم باشا بمائة وخمسين الف جندى على اليونان ، فما انقضت مدة شهرين حتى تمزق الجيش اليونانى كل ممزق ، ولولا أن أبرق قيصر الروسيا إلى السلطان عبد الحميد يرجوه العفو عن اليونان

والتوقف عن متابعة الحرب ؛ لـكان الأتراك دخلوا أثينا واستولوا على اليونان كلها . فلم يسع السلطان إلا إجابة رجاء القيصر ، وانعقد مؤتمر الصلح ؛ و بعـد مذاكرات طويلة تقررت إعادة الجيوش العثمانية من بلاد اليونان كما دخلت بدون أن تجنى الدولة العثمانية أدنى ثمرة من انتصارها عملا بالقاعدة الأوربية ؛ إن ما يؤخـذ من الهلال للصليب لا يعاد ، و إن ما يؤخذ من الصليب إلى الهلال لا بد من إعادته . . . فـكل نتيجة تلك الحرب كانت تصحيح بعض الحدود بين تركيا واليونان ، بحيث أن جميع ما استردت الدولة من تساليا كان عبارة عن قريتين ، ولـكن أجبرت الدول اليونان المغلوبة على دفع غرامة حربية أربعة ملايين جنيه كلفة الحملة العثمانية . على أن الدولة استفادت فائدة أدبية لا تنكر بهذه الحرب ، لأنهـا كادت في مدة شهرين لا غير تستولى على بلاد اليونان كلها ؛ واجتاز الجيش العثمانى جبالا يحار العقل كيف اجتازها بهذه السرعة ! ! ومن ذلك الوقت خمدت الحركة الأرمنية ، واستراحت الدولة مدة سنوات من مشكلات الأرمن ، ووقفت الدول عن مطالبتها بتنفيـذ برنامج المطالب الأرمنية .

فأما فى جزيرة كريت فـكان النصارى قد طردوا المسلمين من جميع القرى واقتلعوا أشجارهم ودمروا بيوتهم ، فالتجأ المسلمون إلى المدن واشتدت العداوة بين الفريقين ، فهجم الـكريتيون المسلمون ومعهم جماعة من عرب بنغازى على حارة النصارى فى قندية فأحرقوها ، و بطشوا بالمسيحيين ، وحصل مثل ذلك فى خانية حاضرة الجزيرة ، فتعصبت الدول وأنذرت الدولة بأن تخرج عساكرها من كريت أو تعلن هى استقلال الجزيرة ، وهي و إن لم تفعل ذلك دفعة واحدة فقد كانت تريد أن تصل إلى هذه الغاية تدريجاً ، فأتت بالبرنس جورج ابن ملك اليونان وجعلته والياً للجزيرة ، و بقيت هذه الحالة إلى أن انتهت الحرب البلقانية فى زمن السلطان محمد رشاد . فتقرر ضم كريت إلى اليونان ، وعانى المسلمون فى كريت شدائد كثيرة وهاجر منهم قسم كبير إلى بلاد الدولة العثمانية ، ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق ولهم حارة فى جبل الصالحية ، ومنهم جماعات تفرقوا فى سائر الاقطار . وأناس ذهبوا إلى

الاسكندرية ، وكانت الدولة أسكنت منهم جماعة فى الجبل الاخضر من برقة ولكن مهاجرتهم الكبرى وقعت بعد الحرب العامة ، وانعقاد مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ وفيه تقررت مبادلة السكان ، فأخرجوا جميع المسلمين الذين فى الروماللى ، أى فى البلاد اليونانية من أوربا وفى الجزر وكريت من الجملة ، وقرروا إسكانهم فى تركيا ، وبمقابلة ذلك أخرجوا جميع الاروام الذين فى بلاد الأناضول بدون استثناء ، فلم يبق فى تركيا رومى واحد إلا من كان غريباً ، ولم يبق فى بلاد اليونان مسلم واحد إلا عابر سبيل وقد حصلت مبادلة الأملاك والأراضى أيضاً ، وإنما وقع استثناء للأروام الذين فى الأستانة ، فان مؤتمر الدول فى لوزان لم يشأ إخلاء القسطنطينية عاصمة الروم القديمة من المسيحيين ، فأبقوا فيها الأروام الذين لم يهاجروا من تلقاء أنفسهم ، وهم مائة وخمسون ألف نسمة وأبقوا فى مقابلة ذلك الاتراك الذين فى ولاية تراقية الغربية ، أى الولاية التى إلى الغرب من ولاية أدرنة ، وذلك لأن الأتراك المذكورين هم أكثرية هذه الولاية ، ولم تكن لهم رغبة فى المهاجرة .

وأما فى جزيرة كريت ، فلم يبق مسلم واحد ، ولا فى سائر جزر الأرخبيل الرومى ماعدا رودوس وأخواتها التى احتلتها إيطاليا فى أثناء حرب طرابلس الغرب ، ثم استلحقتها نهائياً ، فهذه الجزر لم تتبع قاعدة تبادل السكان لكونها خرجت من ملك تركيا واليونان معاً ، فلا يزال عشرة آلاف من المسلمين فى جزيرة رودوس ، وبضعة آلاف فى سائر الجزر العشر « dédocanaire » وذلك تحت حكم ايطاليا . وانطوى بساط كريت كما انطوى بساط الاندلس بعد أن ملكها المسلمون ثلاث مرات ؛ الأولى فى زمن بنى أمية فى دمشق ، والثانية عند ما احتلها ثوار قرطبة تحت إمارة عبد العزيز ابن شعيب ، والثالثة فى أيام الدولة العثمانية ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وقد عرفت من أعيان كريت المسلمين رجلين ؛ أحدهما أحمد نسيمى بك ناظر الخارجية العثمانية فى أيام الحرب ، وهو من أعز إخوانى ، وأمثل من عرفت فى حياتى وأحسنهم أخلاقا ، فضلا عن ذكائه وسعة اطلاعه ، وكان يحدثنى عن كريت الأحاديث والآخر فاضل بك أحد أعيان المسلمين فى قندية ، وقد كنت أسأله مرة عما يقال من

حسن جزيرة كريت وزكاء تربتها ، ولذة فواكهها وطيب نجعتها فقال لى : جميع ماتسمعه من هذا القبيل عن كريت هو الواقع ، وربما أقل من الواقع ، ولكن لا يوجد فى الدنيا أكثر شرًّا من أهلها . وفنزيلوس الوزير اليونانى المشهور كان من زعماء ثوار كريت على الدولة العثمانية ، ولما صار وزيراً للدولة اليونانية كان هو العامل مع دول الحلفاء فى خلع قسطنطين ملك اليونان كما لا يخفى وفى أخريات هذه الايام ترأس ثورة على الحكومة اليونانية وهو قد بلغ من الكبر عتيا .

وفى زمن السلطان عبد الحميد ساءت الاحوال فى مكدونية ، لأن السلطان كان أكثر همه فى المحافظة على شخصه ، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس ، وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد ، وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق مافيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف فى قلوب الرعية وصارت فى قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ فى الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ، ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل . وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده ، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الادارة ، ويعللون سوء الادارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية . وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد محدود ، فليس بصحيح على إطلاقه ؛ لأن خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية ، لاتذكر قضية الجواسيس فى جوانبها شيئا . فأما العوامل الداخلية فهى انحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، واستيلاء الجهل ، وانقسام سكان المملكة إلى أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ماهو عدو عامل لا يرضيه إلا زوال الدوله العثمانية . ثم ما وقر فى صدور الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذى انقطع الأمل من شفائه .

فأما العوامل الخارجية فهى مطامع الدول الاوربية فى أجزاء هذه السلطنة

كل دوله منهن تحب أن ترث شقصا من هذه التركة فهى تدس الدسائس فى البلاد التى هى مطمح نظرها حتى تتوصل منها إلى مأربها

ولو كان سهم واحد لاتقيته ولكنه سهم وثان وثالث

بل كانت الأسهم التى تتلقاها الدولة العثمانية مما لا يعد ولا يحصى ، ولكن المسلمين فى السلطنة نظراً لمعرفتهم أن هذه الدولة هى ملجؤهم الوحيد ؛ كانوا لايريدون أن يعتقدوا زوالها ، فكانوا يتأوهون من جهة حالتها هذه ، ويجتهدون من أخرى فى إصلاحها ، ويظنون أن الاصلاح ليس بالمستحيل ، وأن فى استطاعة الدولة أن تنهض وتسترجع مكانها السابق ، وذلك إذا كان السلطان يقلع عن سياسته الخاصة وعن حصر الأمور فى يده ، ويترك الاهتمام بالجواسيس ، ويطبق على المملكة القانون الأساسى الذى كان بدأ به فى أول سلطنته ثم عطله تعطيلا مؤقتاً ، فاستمر هذا التعطيل ثلاثين سنة . وكان الشبان على الخصوص يعتقدون أن لا نجاة للمملكة من السقوط إلاّ باعادة الدستور ، وانتخاب مجلس الأمة ؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادىء الحرية قد هجروا بلادهم وأقاموا بباريز وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدى ، ويبثون روح الثورة بين الناشئة ، فكان السلطان يجتهد فى إسكات هذه الفئة التى كانت تشوّه سمعته فى العالم الأوربى ، وكثيراً ما كان يتمكن من إرضاء أناس من هؤلاء الشبان بتقليدهم مناصب عالية ، أو بإغداق النعم والعطايا عليهم ، ولكن بقى هناك من هذه الفئة من كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتهم ، بل لبثوا يرفضون جميع ما يعرض عليهم من أموال أو مناصب . وكان فى طليعة هؤلاء أحمد رضا بك المقيم بباريز ، والذى كان يصدر جريده حرّة باسم « مشورت » تدخل إلى البلاد العثمانية سرّاً ، والدكتور ناظم الذى كان من أركان جمعية الاتحاد والترقى — وشنقة مصطفى كال من عهد قريب — وغيرهما .

ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلى هؤلاء الاتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوربا ، وشرعوا

فى التحريك لأجل إعلان الحكم الشورى فى تركيا . وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضا في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهى ؛ مقاومة السلطان ، والعمل لاسقاطه ، وأخيراً انتدب بعض شبان الأتراك وألفوا جمعية سرية فى سلانيك ، وسموها « جمعية الاتحاد والترقى » وأخذوا يجتذبون إلى جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى أن بعض المستخدمين فى الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية ، وكانوا يجتمعون فى المحافل الماسونية حتى يتقوا الشبهة فيهم . وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجها إلى استجلاب الجيش حتى تصير فى أيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان ، وتوفقت هذه الجمعية إلى استجلاب عدد كبير من الضباط ، ولما كان عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع فى بلاد الروملى ، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الروملى منهم ، وكانوا يعملون فى جوار سلانيك ؛ تسنى لرجال الاتحاد والترقى أن يتصلوا بضباط الجيش ، وأن يقنعوهم بأن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغب وتعثوا فى الأرض لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح فى ظلها السكان وهذه الادارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة فأما إذا أمكن خلعه ، وجعل الحكم فى السلطنة دستورياً شورياً كما هو فى سائر الممالك المتمدنة فان جميع هذه المشاغبات تنتهى من نفسها ، وتخلد جميع الأقوام إلى السكينة وهكذا تنجو السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها . فشرب أكثر الضباط هذه المبادىء التى ليس بعجب أن تقبلها عقولهم ، لأن المسيحيين من أروام ، و بلغار ، وسربيين كانوا يدّعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلاّ من سوء الادارة وأنه إذا اصطلحت الادارة فهذه تكون غاية أمانيهم ، و يدخلون فى الطاعة .

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً بل حقيقة الحال أنه سواء اصطلحت الادارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم ، واليونان إنما يسعون فى ضم البلاد التى أكثرها منهم إلى مملكتهم ،ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم

الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن شبان الأتراك منهم من آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها لكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا باعادة الدستور ، وجعل الحكم فى السلطنة للشورى كما هو فى سائر البلاد .

و بلغ السلطان سريان هذه الحركة إلى الجيش المرابط فى الروملى ، فراعه الأمر وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد إسماعيل ماهر باشا لأجل الفحص عن هذه الحركة فرجعت هذه اللجنة وقررت للسلطان أن أكثر الضباط دخلوا فى جمعية الاتحاد والترقى ، وأن الخطب عظيم ، وأن الخرق اتسع على الراقع ، وكان حسين حلمى باشا مفتشاً عاماً لولايات الروملى ، فكتب هو أيضاً إلى السلطان يعظّم من شأن حركة الجيش ، ويشير على السلطان باعلان الدستور . وفى أثناء ذلك ذهب أنور بك وعصى بشرذمة من الجند فى جوار سلانيك ، كما أن نيازى بك استولى على مدينة مَنَسْتر وكاد يعلن فيها الدستور ، ولما بلغ جمعية الاتحاد والترقى ماقام به أنور ونيازى من العصيان اشتدت عزيمتهم ، واجتمعوا حول منزل حسين حلمى باشا وطلبوا إعلان الدستور ، وأصبحت سلانيك فى أيديهم . ولما وصل الخبر إلى السلطان استشار الصدر الأعظم وكان الصدر يومئذ فريد باشا الأرناؤوطى ، فأشار إليه باعلان الدستور ، وذلك تسكيناً للفتنة ، وكذلك جمال الدين افندى شيخ الاسلام أبدى له ضرورة هذا الاعلان ، وكان أحمد عزّت باشا الدمشقى مستشاراً للسلطان ـ كما لايخفى ـ وهو المطلع على ماجريات هذا الخطب ؛ قد عارض فى إعلان الدستور بكل قوته ، ولكن الوزراء خالفوه ، وهو نفسه الذى قال لكاتب هذه السطور عند ما اجتمعت به بعد الحرب العامة هنا فى جنيف : بأن الذى أثّر فى السلطان بالدرجة الأولى حتى أعلن الدستور هو جمال الدين افندى شيخ الاسلام . أما كوچك سعيد باشا . ففى أول الأمر نصح للسلطان بالثبات ، و بقمع هذه الحركه بالقوة ، إلاّ أنه بعد ذلك جاءت الأخبار بأن الفيلق الثانى الذى مركزه أدرنة انضم إلى جمعية الاتحاد

والترقى ، فوقع الرعب فى قلوب الوزراء جميعاً ، وعادوا فأشاروا على السلطان باعلان الدستور اتقاء لشرّ أعظم ! ! والحقيقة أن القوة التى فى يد جمعية الاتحاد والترقى كانت ضئيلة ، وكان الجيش أكثره طائعاً للسلطان ، ولكن قوة الجمعية كانت معنوية ، والأمة — حتى فى نفس قصر يلدز — أصبحت تعتقد أن لانجاة للدولة إلا باعلان الدستور ، وعقد مجلس الأمة .

والخلاصة أن السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسى ، وأمر بانتخاب المبعوثين ، وتعين كوچك سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة . فأراد سعيد باشا إعطاء السلطان بعض حقوق فى تعيين الوزراء خلافاً للقانون الأساسى ، فوقع بسبب ذلك خلف بين الوزراء أدّى إلى استعفاء الوزارة ، فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا وتألفت وزارة جديدة فيها رجال أماثل مثل رجب باشا الأرناؤوطى ناظر الحربية وحسن فهمى باشا ناظر العدلية ، وغيرهما . ولكن وزارة كامل باشا هذه شاهدت حوادث ذات بال ، مثل إعلان بلغاريا استقلالها التام ، ومثل أن دولة النمسا أعلنت استلحاق ولايتى البوسنة والهرسك ، ومثل أن الأروام أعلنوا إلحاق جزيرة كريت باليونان ، وكان إعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من أميرهم فرديناند إلى السلطان عبد الحميد فى ٥ اكتوبر سنة ١٩٠٨ فأرسلت الدولة جواباً للحكومة البلغارية بأنها لاتستطيع الاعتراف بعمل مخالف لمعاهدة برلين ، وكتبت إلى الدول تدعوهن إلى عقد مؤتمر لأجل النظر فى ما أقدمت عليه بلغاريا من خرق هذه المعاهدة وكذلك احتجّت الدولة على استلحاق النمسا والمجر لبوسنه والهرسك برغم كون النمسا والمجر اجتهدتا فى استعطاف الدولة العثمانية ، وعرضتا عليها تعويضات مالية وردّتا لها (سنجق نوفيبازار) من أصل بوسنة .

وفى أثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعية الاتحاد والترقى و بين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية لأن الجمعية كانت هى سبب إعلان الحرية ، فكانت تريد بطبيعة الحال أن تسيطر على الحكومة ، ولم يكن هذا الأمر ليحصل بدون اصطدام آراء مفض إلى النزاع ، وكانت الأمة مشغولة بانتخاب المبعوثين ، ولم تكن الآراء

متفقة فى قضايا الانتخابات مما يحصل فى كل مملكة ، فانتهى الأمر بسقوط كامل باشا وكان مجلس الأمة قد انعقد وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه ، وأقسم يمين الأمانة للدستور ، ولكن لم يكد المجلس ينعقد حتى وقع الشقاق بين المبعوثين ، فمنهم مبعوثوا جمعية الاتحاد والترقى ومبدؤهم كان المركزية التامة ، أى حصر كل الادارة فى مركز الدولة ، و بناء الاصلاحات كلها على هذا الأساس ، ومن البديهى أن مبدأ كهذا سيُعطى السيادة للعنصر التركى الذى له المقام الأول فى السلطنة ، فلهذا كان العرب والأرناؤوط والأروام والأرمن ضد هذا المبدأ ، لأنه يُجحف بحقوقهم ، فتألف من هؤلاء حزب تسمى بحزب « الأحرار » انضم اليهم أيضاً كثير من الأتراك المناوئين لجمعية الاتحاد والترقى ، فنى مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين ، وتغلّب الاتحاديون على خصومهم ، وهكذا سقط كامل باشا وجاء مكانه حسين حلمى باشا ففى مدة هذا الصدر تسوّت بين تركيا والنمسا قضية بوسنة والهرسك ، وذلك بدون عقد مؤتمر دولى . لأن الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولى فتح أبواب جديدة عليهم فاسترجعت الدولة سنجق نوفيبازار ، واستأدت مليونين ونصف مليون جنيه بدلا عن الأراضى العائدة فى بوسنة للدولة خاصة ، وتقرر بقاء التشكيلات الدينية الاسلامية فى البوسنة والهرسك مربوطة بالدولة العثمانية ، كما كانت فى السابق وعقدت الدولة مع النمسا معاهدة تجارية ، ثم رجعت إلى مسألة البلغار فبعد أخذ ورد طويلين وحل مشكلات مالية يطول شرحها انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة فى ١٩ ابريل سنة ١٩٠٩ وفى هذه المعاهدة كل ما يضمن حقوق المسلمين وأوقافهم ومؤسساتهم الدينية فى مملكة البلغار ، فاستراح بال الدولة من جهة هاتين المشكلتين قضية استقلال البلغار التام ، وقضية استلحاق بوسنه والهرسك بالنمسا .

ولكن ثار تنُّور الخصام فى وسط السلطنة ، وتعددت الأحزاب ، و بسبب إعلان الحرية أظهر كلٌّ ما فى نفسه ، و بدلا من أن يكون هذا القانون الأساسى سبباً للانضمام وللسير على قاعدة (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) وليس امتياز فيها لفريق على فريق ؛ كانت عاقبة هذا النظام الجديد أن كل أمة من الأمم الكثيرة التى

تتألف منها السلطنة العثمانية أخذت تحاول الانفصال عن السلطنة نفسها بالطرق الممكنة وغير الممكنة ، وجاءت هذه الحالة عذراً للسلطان عبدالحميد الذى كان يدعى أنه إنما أخّر إعلان الدستور وجمع مجلس الأمة خوفاً من تفكك أجزاء السلطنة وفراراً من صدع الوحدة العثمانية لأنه فى ظل الحرية لا يمكن منع النزعات القومية التى هى كامنة فى صدور هذه الأمم المختلفة التى لا يجمع بينها سوى رهبة الدولة .

ولكن جمعية الاتحاد والترقى مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة وكان أكثر زعمائها شباناً لم يتمرسوا بالأمور ، ولم تنجّزهم الحادثات ، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر — حتى من أنفسهم — فسكروا بخمرة العزّ واستخفّوا بمن سواهم ، وظنوا أنهم قادرون على كل شىء ، والحال أنهم كانوا يواجهون صعاباً ، و يقابلون عقاباً ، لاقبل لهم بها ، فكانت أمامهم — وهى الطامة الكبرى — دسائس الدول الأوربية التى كل واحدة منهن كانت تحرك أهالى البلاد التى تطمح اليها من أجزاء السلطنة ؛ وكان هذا مرضاً مزمنا ، فلا الأجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه ، ولا الأهالى الذين تعودوا رؤية نفوذ هذه الدول فى بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم ، ولأجل وضع سد فى وجه الأجانب كان ينبغى أن تكون الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالا ، وأغزر مالا من جميع الدول العظام . ولم تكن هذه الشروط حاصلة فى الدولة العثمانية كما لا يخفى . ثم إن جميع الأمم التى كانت تتألف منها هذه السلطنة كانت أهدافها مختلفة ؛ فالاروام وهم جانب كبير فى المملكة لا ينسون ملكهم القديم ، وفى كل حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الترك منها إلى آسيا ، والأرمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم فى نفس الأناضول ، والبلغار يريدون ضم مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة ، وهذا من جهة المسيحيين .

فأما من جهة المسلمين فان الجامعة الوحيدة التى كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هى الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنة

تفككت منذ قرون، ولكن سوء الإدارة فى الداخل من جهة ؛ ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى ؛ حملا الكثيرين من العرب والأرناؤوط بنوع خاص على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية ، وقد بدأ ذلك عند الأرناؤوط قبل العرب ، فحاولت الدولة تأديب الثائرين منهم فاستلزم ذلك تجريد جحافل و وقعت معارك دموية ، فازداد الأرناؤوط من الدولة نفوراً . وأما العرب فكانت عندهم غيرة من الترك لأنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً ، ولم تكن لهم الامتيازات التى للترك ، وكان الترك يزعمون أن العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التامة مع الأتراك ، فمن البلاد العربية جانب كبير لا يقوم بالخدمة العسكرية الاجبارية ، بل يكلف الدولة سوق عساكر لادخال أهله فى الطاعة ، وهذا النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهى بل كان يزداد بضعف الدولة وقد كان يظهر فى مواقع كثيرة . ولكن كان المانع الوحيد من انفجار بركان الشر بين الفريقين هو الخوف على بيضة الاسلام لا غير ، إلا أن الانكليز تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من استجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلبوه بطريقة الاقناع ، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بنى العباس ، أو دولة بنى أمية مثلا ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم ، وعلى عمارة بلادهم التى لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمارتها . فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصه . ولا يمكن أن يقال إن هذا كان رأى الجمهرة من الأمة العربية ، بل فى الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الأفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ، واختياراً لأهون الشرين .

نعم لو كانوا على يقين بأن الدول الأوربية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط أيديها إليها بالغصب والتقسيم ، لكانوا يرجحون بدون شك الانفصال عن الترك ، والاستقلال بدولة لانفسهم . ولكن عقلاء العرب كانوا لا يجهلون مطامع

الدول الأجنبية ، فى بلادهم ولم يكن يخفى عنهم تصميم أوربا على تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بازاء المسلمين مهما عاهدت ولم يكن يشذ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض من لاتجربة لهم ، أو من لاتهمه الجامعة الإسلامية فى كثير ولا قليل . ومنهم من كان الانكليز يستخدمونهم فى بث دعايتهم كأجراء لاغير .

ثم إن الاتحاديين ساعدوا بسوء تصرفهم واستخفافهم بأعدائهم هذه الأمم غير التركية فى السلطنة على أنفسهم ، ودخل في الجمعية الاتحادية عناصر كثيرة مفسدة كرّهت الرعيّة بها . وكان رجال الحكم الجديد قد أقصوا عن وظائف الحكومة أكثر الذين كانوا يشغلونها ، واستبدلوا بهم شباناً من حزبهم ، فآسفوا جمعاً عظيما لهم تأثيراً فى السلطنة ، لأنهم أصابوهم فى أسباب معيشتهم ، فانكسرت خواطر وتراكمت أحقاد ، وتألفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون ، وانتشرت لهم جرائد ، وأعصوصب حولهم كثير من العوام .

ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنج و يتساهلون بأمور الدين ، و يتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادىء الاسلامية إلى هذا الحزب الذى شرع بمصادمة جمعية الاتحاد والترقى ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ «درويش وحدتي» عصبة سموها « الوحدة المحمدية » وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلى حزب الرجعيين ليكونوا يداً واحدة على حزب الاتحاد والترقى ، فاشتدت المعارضة فى وجه الاتحاديين بينما هم مهملون للاحتياط ، واثقون بأنفسهم ، مستخفون بخصومهم . فاشتدت المناقشات فى الجرائد ، وازدادت العداوة بين الأحزاب ، و إذا بالناس فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٩ تسمع أن حسن فهمى بك محرر جريدة « سربستى » قد قتل غيلة على الجسر وهو راجع من بيك أوغلى إلى استانبول ، وكان هذا الكاتب من أكبر أعداء الاتحاد والترقى ، فقيل إن الاتحاديين هم الذين أرسلوا من يغتاله ، وقيل إن الذين اغتالوه هم حزب الرجعيين ، وذلك لأنهم استشاروه فى القضاء على الدستور والرجوع إلى نظام الحكم القديم فأبى أن يسايرهم فى هذه المكيدة ، فخافوا أن يفشى سرهم للحكومة فأرادوا التخلص منه فقتلوه ، فهاجت الخواطر لقتل هذا الكاتب ، وقدّم ستة من

مبعوثى المجلس سؤالا لناظر الداخلية عن هذه الحادثة ، وتفاقم القلق فى الاستانة وكان الرجعيون قد اتصلوا ببعض توابير من الجيش ، واتهم السلطان عبد الحميد بأن له يداً فى الدسيسة رأساً أو بواسطة أنصاره القدماء ، فما شعر الأهالى إلا والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا ، وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة ، وعزل أحمد رضا بك رئيس مجلس الأمة ، و يطلبون تسليم على رضا باشا ناظر الحربية ، وأعضاء جمعية الاتحاد والترقى ليقتلوهم ، وكان بعض المشايخ علّموا العسكر أن ينادوا باعادة الشريعة و إلغاء القانون الأساسى حتى يملكوا بذلك قلوب العامة ، وفى ذلك الوقت هجموا على نادى الاتحاد والترقى ، وعلى ادارة جريدة « طنين » وعلى النادى العسكرى وعلى نادى النساء ونهبوها وجعلوا عاليها سافلها ، ثم انقضّ الجنود على ضباطهم فقتلوا منهم ثلاثمائة ، وفر من الضباط عدد كبير من الأستانة ، وتخبأ آخرون فيها . ثم هجم الجند على مجلس المبعوثين ليقتلوا منهم الاتحاديين المعروفين بمكانتهم فى الجمعية ، ولكن كان المبعوثون الاتحاديون قد علموا بالثورة وما يضمره الرجعيون المتستّرون باسم الشريعة من نية قتلهم ، فلم يحضروا إلى المجلس . وحضر الأمير محمد أرسلان رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوث اللاذقية ، وقيل له فى ذلك اليوم إن ذهابه إلى المجلس خطر على حياته لأنه كان من الاتحاديين المعروفين ، فأبى إلاّ أن يذهب ليقوم بالواجب وكان بلغه أن فى نية الثوار إحداث مذبحة فى الاستانة تحمل الأجانب على التدخل لأجل حماية رعاياهم فتسقط بذلك حكومة الاتحاد والترقى ، فذهب ابن عمنا إلى المجلس ليحمل المبعوثين على مراجعة السلطان شخصياً ليبذل كلمته ونفوذه لأجل تسكين الثورة التى قد تجر و بالاعظيما على السلطنة ، فلما ذهب رحمه الله إلى المجلس لم يجد من نيّف ومائتى مبعوث إلا ثلاثين أو أربعين مبعوثاً فقط ، فتكلم معهم فى الموضوع وتقرر بينهم إرسال وفد إلى قصر يلدز ليعرض الخطب على السلطان ، و يلتمس أمره الجازم للعسكر وللشعب بالسكون ، فانتخب المجلس أحد عشر مبعوثاً منهم محمد أرسلان ليقوموا بهذه المهمة . فلما خرجوا وركبوا العربات عرف محركوا هذه الثورة مقصدهم فردوهم من حيث أتوا و بينما هم على باب المجلس أوعز بعض المحركين لهذه الثورة إلى

الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمد أرسلان ـ وهم لا يعرفونه ـ فوقع شهيداً . ثم قتلوا أيضاً ناظم باشا ناظر العدلية ، وكان مرادهم أن يفتكوا أيضا بسائر أعضاء المجلس الذين لبثوا ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من تخبأ فى أى مكان يتوارى به عن الأعين ، ولكن العسكر بعد أن فتك بناظر العدلية و بمبعوث اللاذقية سمعوا أنه سيأتى عسكر آخر بأمر السلطان فيقتص منهم ، فوقع الرعب فى قلوبهم وأمسكوا عن قتل سائر المبعوثين وصاروا يطلقون الرصاص فى الفضاء تهويلا .

وأما حسين حلمى باشا والوزراء رفاقه فقد تخبأوا حيث لا يعلم بهم أحد ، وانسل محمود مختار باشا على باخرة انكليزية فذهب العسكر إلى بيته ليقتلوه فلم يجدوه . فأمر السلطان بتأليف وزارة جديدة تحت رئاسة توفيق باشا الذى كان سفيراً للدولة فى لندرة ، وأدخل فيها أدهم باشا قائد الجيش العثمانى الذى قهر اليونان ، وذهنى باشا ورفعت باشا الذى كان ناظراً للخارجية فى الوزارة السابقة ، فأبقوه فى الوزارة الجديدة كما كان ، وأبقوا أيضاً ضياء الدين افندى شيخ الاسلام . وأبقوا نورادونغيا افندى الأرمنى ناظر الاشغال النافعة ، وأبقوا خليل حماده باشا ناظر الاوقاف وتعيّن لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمى باشا وتعيين عادل بك ناظراً للداخلية ، والقائد ناظم باشا قائداً للفيلق الخامس مكان محمود مختار باشا ، وقد كان وقوع هذه الثورة في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ وفى اليوم التالى لم ينعقد المجلس ولكن لما تم تشكيل الوزارة انعقد بحضور ١٩١ مبعوثا وأصدر المجلس منشوراً يحاول فيه تلطيف الحادثة ، ويحث الرعية على السكون . ونقلت جثة الأمير محمد أرسلان باحتفال عظيم إلى بيروت حيث كان له مأتم لم يسبق نظيره ، و بكى الجميع شبابه لأنه كان فى الرابعة والثلاثين من العمر ، و بكوا مزاياه العالية . وحزن عليه أبوه الأمير مصطفى أرسلان حزناً أثر فى صحته فلم يعش بعد ذلك طويلا .

ولما وصل الخبر إلى سلانيك وهى مركز الاتحاد والترقى هاج العسكر ولا سيما الضباط الذين علموا بقتل رفاقهم ، فلم يبطئوا أن زحفوا إلى الاستانة .

فاجتمع الفيلق الثالث ـ أى فيلق سلانيك ـ والفيلق الثانى ـ أى فيلق أدرنة ـ وساروا إلى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا ، فوقع الرعب فى الأستانة وخيف أن العساكر الآتية من أدرنة وسلانيك تنتقم من العساكر والأهالى الذين قاموا بالثورة الرجعية ، فأرسل الصدر الأعظم إلى محمود شوكت باشا يقول له : إن السكون تام في الأستانة وأنه لاخوف من حرب ، وكان توفيق باشا قد نصح للسلطان بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية .

ولما اجتمعت الجيوش فى «سان ستفانو» وذلك فى ٢١ ابريل أقبل عليها النواب والشيوخ وانعقد مجلس الأمة تحت رئاسة احمد رضا بك ، ونشروا منشوراً يجعل الأمر والنهى والاقتصاص من الثائرين فى يد محمود شوكت باشا قائد الجيش المسمّى بجيش الحركة ، وكان العساكر البحرية قد اشتركوا فى الثورة من قبل ، ولكنهم لما رأوا القوة أقبلت أسرعوا إلى الخضوع . وبالاجمال لم يكن فى نية توفيق باشا ولا أدهم باشا ، ولا أحد من الوزارة الجديدة مقاومة الفيلقين القادمين من الروملى ولكن بعض العساكر الذين كانوا فى ثكنة « طاشقشلة » والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء ، أطلقوا النار على جيوش الروملى فوقعت معركة انتهت بفوز جيوش الروملى ، وكذلك وقعت مناوشات خفيفة فى ثُكن أخرى وانتهت بفوز قوة محمود شوكت باشا ، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان ، إلاّ أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا . وفى ٢٦ ابريل تقرر فى مجلس الأمة خلع السلطان . وصدرت الفتوى من مشيخة الاسلام بأنه إذا كان زيد ـ الذى هو أمير المؤمنين ـ يحذف مسائل مهمّة من كتب الشرع وقد يمنع تداول هذه الكتب أحياناً ، وكان يخالف الشرع فى استعمال بيت مال المسلمين ويقتل وينفى ويحبس بمجرد هواه ، ويحنث بيمينه الذى أقسمه ، ويُحدث الفوضى فى المملكة أفلا يجوز تخليص الامة من ضرره ؟ أفلا يكون من مصلحة الامة خلعه الخ ؟ الجواب ؛ نعم .

السلطان محمد الخامس

وهكذا تقرر خلع عبد الحميد الثانى ، ومبايعة أخيه السلطان محمد رشاد باسم محمد الخامس . وذهبت لجنة مؤلفة من عارف حكمت باشا وآرام افندى من أعضاء مجلس الأعيان،ومن أسعد باشامبعوث دراج،وفراسو افندىمبعوث سلانيك؛فبلغوا السلطان قرار خلعه ، وفى يوم الأربعاء ٢٨ إبريل الساعة الثامنة والنصف مساء جاء القائد حسين حسنى باشا وعلى فتحى بك وأبلغا السلطان قرار نقله إلى سلانيك ، وسفّروه فى نصف الليل ، وكان معه نساؤه و إثنان من أولاده ؛ الأمير عبد الرحيم افندى وعمره ١٦ سنة والامير محمد عابد وعمره ٦ سنوات ، ولم يصحبه إلا أربعة من الخصيان ، وتسعة من الخدم . و بعد نقل السلطان إلى سلانيك ومبايعة أخيه سكنت الأمور وأعلنت الادارة العرفية فى العاصمة ، وتألف مجلس حربى لمحاكمة الذين أحدثوا الثورة وسفكوا الدماء فصدر الحكم بشنق عدد من هؤلاء ، ولا شك فى أنه كان قد بقى أناس كثيرون متحفزون لاعادة السلطان عبدالحميد إلى العرش فى أول فرصة ، ولكن هذا الحزب كان يرى لزوم السكينة إشفاقاً على الدولة . ولما اشتعلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ، وأنزلته فى قصر « بكلر بك » حيث بقى إلى أن مات سنة ١٩١٧ وحضرت مأتمه وشهد الجمهور بحقه شهادة حسنة لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه و إيمانه ، وبعد أن بويع السلطان محمد الخامس ، أعيد حسين حلمى باشا إلى الصدارة ، و بقى النفوذ الحقيقى لجمعية الاتحاد والترقى ، فحصل بين الجمعية وحسين حلمى باشا اختلاف أدى إلى استقالته . فاستدعى الاتحاديون إبراهيم حقى باشا سفير الدولة فى رومة ، وجاء إلى الاستانة فى ١١ يناير سنة ١٩١١ فاختار حقى باشا لنظارة الحربية محمودشوكت باشا وصار طلعت بك ناظراً للداخلية ، وجاويد بك للمالية ، ورفعت باشا للخارجية ، ونجم الدين ملاّ بك للعدلية ، وحلاجيان افندى للنافعة ؛ والأميرال خليل باشا للبحرية ، والشريف على حيدر باشا للأوقاف ، وأمر الله افندى للمعارف ، وتولّى مشيخة الاسلام القاضى حسين حسنى أفندى .

وعند ما قُرِىء برنامج الوزارة الجديدة فى المجلس نالت ١٨٧ صوتاً ضد ٣٤ من المعارضين . واستنكف ٢١ مبعوثاً عن إعطاء أصواتهم ، فكان مبدأ وزارة حقى باشا مؤذناً بالنجاح ، إلا أنه كان الأمر لا يزال فى يد الاتحاديين ، فاشتدت من أجل ذلك المعارضة . وكان حقى باشا ومحمود شوكت باشا ورفعت باشا من أعضاء الوزارة معتدلين ، على حين أن طلعت بك وجاويد بك وحلاجيان افندى كانوا يريدون إجراء برنامج الاتحاد والترقى « بزّه وعروته » فوقع الخلاف فى وسط الوزارة وصار الاتحاديون الغُلاة يريدون إسقاط حقي باشا من الصدارة ، وفى ذلك الوقت جرت ثورة الأرناؤوط وأساسها أنه بعد مؤتمر برلين تألفت جمعية فى بلاد الأرناؤوط مبدؤها المحافظة على الوطن الألبانى ، وهذه المحافظة كانت تقتضى مقاومة الأروام من جهة ، والسربيين من جهة أخرى . فنظر السلطان عبد الحميد إلى الموضوع فوجده موافقاً لسياسته ولسياسة الدولة العثمانية ، فأخذ يقوّى الارناؤوط عمداً ويمدهم بالمال ، ويوليهم المناصب ويعتمد عليهم أكثر من سواهم . وما عاشت الجمعية الأرناؤوطية إلاّ بفضل إمداد السلطان عبد الحميد لها ، فقد كان يتخذ الأرناؤوط ردءاً له فى مقاومة البلقانيين الذين ينوون الاستيلاء على بلاد الروملى كالسرب والبلغار ، واليونان ، وكان أيضاً يتخذ الأرناؤوط بطانة له ضد حزب «جون تورك» الذى كان يعلم أنه لن يرضى عنه . وكان بلغ عدم ثقته بالترك أنه جعل الحرس السلطانى الخاص كله من العرب والأرناؤوط ، فكان حول قصر يلدز بضعة عشر تابوراً من العساكر نصفها من العرب بزى خاص بهم يلبسون العمائم وأكثرهم من عرب اليمن ، والنصف الآخر كان من الأرناؤوط بزيهم الخاص . وكان قد اعتنى جد الاعتناء بتعليم هذا العسكر الخاص وتدريبه وترفيه معيشته ، والتأنق فى كسوته حتى صار من الطبقة الاولى فى عساكر العالم ، لا يفضله عسكر آخر . ولما زار امبراطور ألمانيا غليوم الثانى صديقه السلطان عبد الحميد الثانى واستعرض أمامه هذا الحرس الخاص ؛ ابتهج الامبراطور به ابتهاجاً أكيداً وقال : إنه يضاهى أحسن عسكره فى ألمانيا . وكان إذا خرج السلطان يوم الجمعة للصلاة أقيمت له مراسم حافلة

تتجلى فيها الهيبة الملوكية إلى الدرجة القصوى ، وتسير الوزراء والقواد أمام مركبة السلطان مشاة على الأقدام ، وتصطف عساكر الحرس المذكور عن الجانبين ؛ العرب من جهة ، والأرناؤوط من جهة ، فيكون لذلك أبّهة وروعة لاينكرها أحد . وكان يسمّى هذا الاحتفال برسم السلملك ، فتقصده كبار الأجانب والسياح من جميع الأقطار ، وقلّما كان السلطان يخرج من قصره إلاّ لصلاة الجمعة ، وكان سفراء الدول يذهبون غالباً لشهود هذه الحفلة ، وكان اقتصار السلطان فى حرسه على العرب والأرناؤوط دليلا واضحاً على عدم ثقته فى الأتراك الذين يوجد منهم غالباً من ينوي له السوء .

وقد كنا نلاحظ أيضاً أنه عند ما يخرج لصلاة الجمعة — سواء كان راكباً جواداً أو راكباً عربة — يكون عن جانبيه فارسان ؛ كلٌّ منهما سيفه مسلول فى يده وهما أيضاً عربيان أحدهما محمد باشا العرقسوسى من دمشق ، والثانى على باشا قيراط من طرابلس الغرب . فلما تولّى السلطان محمد رشاد وصار الأمر إلى حزب جون ترك نثروا هذا الحرس الخاص من أرناؤوط وعرب نثراً ، ولم يبقوا له أثراً .

ونعود إلى ذكر إقبال السلطان عبد الحميد على الارناؤوط فنقول : إنه أمتعهم بامتيازات كثيرة ، وأعلقهم حبال الارتباط بشخصه حتّى صاروا لايبغون منه بدلا ولا عنه حِوَلا . ولما قام الاتحاديون بالانقلاب وإعلان القانون الأساسى ثقل ذلك على الأرناؤوط وتوجسوا خيفة قصر حريتهم ، لأن القانون الأساسى كان معناه المساواة التامة بين الرعية ، وهم لم يكن السلطان يعاملهم بالحقيقة بالمساواة ، بل كان يميزهم على غيرهم ، ويُسبغ عليهم من النعم مالا يعرفه فريق آخر من الرعية ، ولذلك اجتهدت جمعية الاتحاد والترقي فى استرضاء الأرناؤوط بجميع الوسائل حتى لا يناهضوا الدستور ، ووعدتهم بابقاء امتيازاتهم الأولى ، وبفتح مدارس تعلم فيها لغتهم ، وباعتبار اللغة الأرناؤوطية لغة رسمية فى بلادهم ، وبمعاملتهم فى كثير من الأحيان بحسب تقاليدهم وعاداتهم، وبتعزيز الشرع الاسلامى فيما بينهم ، وأخذت توزّع الأسلحة على الأرناؤوط ليتمكنوا من مقاومة السربيين ، وأهالى الجبل الأسود

وكل هذا قصدت به جمعيــة الاتحاد والترقى اجتذاب الأرناؤوط إلى ناحيتهـا حتى لا يعارضوا نشر الدستور ، ولا يحدثوا عليـه ثورة وهم أسرع الناس إلى الثورات . إلا أن الأرناؤوط كانوا لا ينسون منزلتهم الخاصة عند السلطان عبد الحميد ، وكانوا لا يثقون فى حزب « جون تورك » ففى أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ أرسلوا وفـداً إلى سلانيك يطالب باعادة الاحكام فى ألبانيا إلى الشرع الشريف ، وبالاعتراف بامتيازاتهم وبتأسيس مكاتب أرناؤوطية على نفقة الدولة مما لم يكن ليُرضى جمعية الاتحاد والترقى التى داهنتهم فى أول الامر من قبيل التسكين وتخدير الاعصاب ، حتى لا يثوروا فى وجه النظام الجديد . فلما رأتهم ممعنين فى الادلال ، متعنتين على الدولة بصنوف المطالب قررت بازائهم إرهاف الحد ، و إدخالهم فى الطاعة كسائر أجناس الرعية . وكان بين الارناؤوط رجل اسمه « عيسى بولاطين » من زعمائهم ، ولم يكن يراعى القوانين ولا يتحرّج عن القتل والنهب إذا ألجأه الأمر . وكان السلطان عبدالحميد يصيبه بنعمه المتواترة حتى تسلم البلاد من عيثه ، فلما أعلن الدستور لزم عيسى بولاطين بيتهسا كتاً ولـكن الاتحاديين لبثوا يحسبون له حساباً ، فأصدروا الأوامر إلى الحـكومة المحلية بنزع سلاح عيسى بولاطين والجماعة التى حوله ، ومن المعلوم أن الارناؤوطي يؤثر الموت على تسليم سلاحه ، فعصى عيسى بولاطين الأمر فساقت الدولة عسكراً بقيادة جاويد باشا فذهب هذا الجيش ودمّر القرى وأوقع بأهلها ، ودك الحصن الذى يسكنه عيسى بولاطين ، فثار الارناؤوط فى كل الجهات من أجل ذلك ، واتسعت الثورة فضاعف جاويد باشا القوة و بطش بالثائرين بطشة جبّارين ، ونزع الأسلحة من أيدى الارناؤوط وتقاضاهم غرامات ثقيلة ، و قيل إنه قتل النساء والاولاد ــ وهذا ما لا نعتقده ، ولـكنه أشيع يومئذ عمداً ــ فاجتمع ثلاثة آلاف أرناؤوطى فى « فيرازوفيتش » لأجل الاحتجاج فرماهم جاويد باشا بالقنابر ، وشرّد بهم من خلفهم ، ثم أخذت الدولة باحصاء النفوس فازداد قلق الأرناؤوط ، وعلموا من هذا أن الدولة تريد إجراء الخدمة العسكرية فى ألبانيا . وكان مقصد الجون تورك فى الواقع أن يلغوا امتيازات الارناؤوط تدريجاً ، وأن يجبروهم على دفع الضرائب التى تدفعها سائر الرعية ، وأن ينسوهم تلك الدالة

التى عوّدهم إياها السلطان عبدالحميد ، وكل هذا كان بعيداً عن أن يرضى به الأرناؤوط
وفى ١٧ يوليو سنة ١٩٠٩ عقد الأرناؤوط فى « فريز وفيتش » مجمعاً عاما للتحدث فيما بينهم فى ما يجب أن يعملوه لمعالجة هذه الحالة ، فأرسلت جمعية الاتحاد والترقى نيازى بك أحد أركانها لأنه أرناؤوطى ، وأصحبته بجماعة من المخلصين لها على أمل أن يصرفوا الأرناؤوط عن المطالبة بما يخالف مصالح الدولة ، فلم تقترن مساعيها بالنجاح ، لأن المؤتمر الارناؤوطى قرر أن يكون للارناؤوط حق بتولى المناصب الادارية ، و بتعليم اللغة الأرناؤوطية ، واقترح توسيع سلطة مجالس الولايات و إنشاء الطرق وعقد اجتماع سنوى للأمة الارناؤوطية ، وعدم تقاضى الارناؤوط شيئاً من الضرائب عدا العشر ، وأن يؤخذ معدل خمس سنوات و يجعل منه متوسط و يصير جباية ثابتة ، وغير ذلك من الاقتراحات التى رأت فيها جمعية الاتحاد والترقى مقدمة لاستقلال داخلى فى ألبانيا ، وكانت بلاد البانيا الجنوبية ساكنة ، بخلاف البانيا الوسطى والشمالية إلا أن الحركة فى آخر الأمر شملت الجميع ، وقرر الارناؤوط فيما بينهم الحرب لأجل الاستقلال بادارتهم الداخلية وتحفزوا للقتال .

وفى سنة ١٩١٠ بدأت الثورة فى نواحى « برشتنه » بسبب الضرائب فأسرع الأرناؤوط من سائر الجهات إلى نجدة ارناؤوط برشتنة ، فأرسلت الدولة جيشاً نحو عشرين ألف مقاتل ، ومعهم ثلاثون بطارية من المدافع تحت قيادة شوكت طورغوط باشا ، فقاتلوا الارناؤوط قتالا شديداً ولكنهم لم يقدروا عليهم ولاسيما فى مضيق « كاتشانيق » وهو موقع شديد المنعة في ولاية قوصوه احتله الارناؤوط ، وعجز العسكر عن أخذه ، فما زالت ترد الامدادات إلى شوكت طورغوط باشا حتى تمكن من الاستيلاء على المضيق وهزم الارناؤوط بعد وقائع دموية ، ودمّر لهم قرى كثيرة فانتقلت مقاتلة الأرناؤوط إلى مضيق « تشرنالوقة » ولبثوا يقاتلون . فأرسلت الدولة محمود شوكت باشا ينصح للارناؤوط بالكف عن القتال و بالدخول فى طاعة الدولة فتوفق فى مهمته وأخلد الارناؤوط إلى السكينة . إلا أن عيسى بولاطين و إدريس صقر وعدة آلاف من الثائرين معهما لاذوا بالفرار إلى جهة الجبل الاسود ، وإلى

قرى الارناؤوط الكاثوليك ، وكانت الثورة الأرناؤوطية ، فى بداية الأمر قاصرة على الارناؤوط المسلمين ، ففى سنة ١٩١١ انضم إلى المسلمين قبائل الارناؤوط الكاثوليك وصارت جمعيات الارناؤوط فى ايطاليا وروما نيا تمد الثورة ، وجاءت إلى الأرناؤوط نجدات من الجبل الاسود ، وصار ثوار الارناؤوط يلجأون إذا ضاقت بهم الحال إلى أرض الجبل وعادت الثورة فازدادت اشتعالا ، وعبّت الدولة ستين تابوراً ، وأخذ شوكت طورغوط يدمّر قرى الماليسور المارديت من الارناؤوط الكاثوليكيين ، فعند ذلك توسطت دولة النمسا والمجر لدى الباب العالى لأجل الكف عن سفك الدماء ، فاستمعت الدولة نصيحة النمسا وأخذت فى تضميد جروح الارناؤوط بما أمكن ، وسكن الارناؤوط ولكنهم رجعوا إلى اقتراحاتهم الأولى وهى احترام الدولة لعاداتهم القومية واستقلال التعليم فى مكاتبهم ، واستعمال الحروف اللاتينية ومنح البانيا إدارة لامركزية ، وانفاق ما يفيض من واردات البانيا على منافع هذه البلاد ، واجتمع مبعوثو الارناؤوط تحت رئاسة حسن بك مبعوث اسكوب وقرروا هذه المطالب فأجابت الدولة بالقبول وأصدرت العفو عن جميع الثائرين ، وسامحت فى كثير من بقايا الاموال الأميرية ورضيت بأن تكون الخدمة العسكرية سنة فى الاستانة وسنتين فى نفس البانية ، وأوجبت أن يكون المأمورون فى البانيا عارفين باللغة الارناؤوطية ، وأخذت الدولة ترمم البيوت التى دمرتها العساكر ، ووزعت مبالغ من النقود على المصابين ، وهكذا سكنت الثائرة الارناؤوطية ، وذهب السلطان محمد الخامس بنفسه إلى بلاد الارناؤوط وصلى فى صحراء قوصوه ووراءه جمع قيل إنه مائة الف مصل ، ورجع إلى الاستانة مسروراً .

وفى تلك الأيام بدأ الشقاق بين أعضاء الاتحاد والترقى أنفسهم ، واختلفت الآراء فى مجرى السياسة التى يجب على الجمعية اتباعها ، فخرج منها أناس مغاضبين ، منهم أمير الألاى صادق بك الذى كان من مؤسسى جمعية الاتحاد والترقى ، فانفصل عن الجمعية وألف حزباً جديداً معاكساً لها ثم استعفى طلعت بك ، وأمر الله افندى وحلاجيان افندى من النظارات ، التى كانوا يتولونها وظهر للناس ضعف الحكومة ولم يكن مجلس المبعوثين بأحسن منها حالا بل كانت تتوالى فيه المشاحنات والمهاترات

بين الأحزاب ، ومرة جرت حادثة بين نواب العرب ونواب الترك وكادوا يتضاربون والخلاصة أن العثمانيين كانوا فى ذلك الوقت يمزّق بعضهم بعضا ، وكانت كل العلامات تؤذن بسوء المصير ، وإذا بحادث طرأ بغتة وهو أن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا أو تتخلى لها عن طرابلس الغرب وبرقة ، وكانت مطالب إيطاليا عبارة عن خمسة وهى : خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، وبنغازى ، ودرنة ، وتشكيل جندرمة فيها تحت قيادة ضباط من الطليان ، وأن تكون إدارة الجمارك بأيدى مأمورين من الطليان أيضاً ، وأن لا يتعين وال لطرابلس إلا برضى إيطاليا ، وأعطى الباب العالى مدة أربع وعشرين ساعة ليجيب بالقبول . فاجتمع مجلس فوق العادة فى القصر السلطانى ، وسمع حقى باشا الصدر الأعظم كلاماً مهيناً بسبب إهماله وعدم احتياطه لأن سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان ذكر له أن مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند تركيا ، وأنه سبق لايطاليا كونها قدمت مذكرة إلى الباب العالى سنة ١٩٠٤ بعد اتفاق إيطاليا مع فرنسا وانكلترا تقول فيها : إنها مادامت الحالة غير متغيرة فى البحر المتوسط ، فان إيطاليا لا تدعى بشىء فى طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير فى البحر المتوسط يخل بالتوازن الدولى فهي مضطرة أن تتخذ تدابير لوقاية مصالحها . ثم إن حقى باشا كان سفيراً في رومة ، فكان يجب عليه أن يطلّع على حقيقة نيات ايطاليا وليس لحقى باشا عذر فى غفلته هذه . فثبت بحق حقى باشا ما أوجب استقالته ملوماً بل مغضوباً عليه ، ولم يقدر هو أن يدافع عن نفسه . ثم أجاب الباب العالى برفض مطالب إيطاليا قائلا لها : إذا كانت ستصمم على احتلال طرابلس فان الدولة تقوم بالواجب عليها بأزاء اعتداء إيطاليا .

وحقيقة مسألة طرابلس الغرب من أولها إلى آخرها لا تخرج عن كون انكلترة وفرنسا تقاسمتا أفريقية ، وذلك على أثر حادثة فاشودة المشهورة التى كادت توقع الحرب بين هاتين الدولتين ، فمنذ ما اقتنعت فرنسا بارجاع جنودها من فاشودة اتفقت الدولتان على تقسيم أفريقية كلها تقريباً بينهما على قاعدة أن فرنسا تسكت لانكلترة على وادى النيل وجميع توابعه ، وعن امتلاك الخط الممتد من البحر المتوسط إلى الكاب ، وبمقابلة

ذلك توافق انكلترة على احتلال فرنسا للمغرب بحذافيره وتوابعه ، وقد كانت هذه السياسة التى اتفقت فرنسا وانكلترة عليها هى الأصل الأصيل فى الحرب العامة ولولاها كان يبعد كثيراً وقوع هذه المجزرة البشرية الكبرى ، وذلك لأن المانيا وجدت فى عمل فرنسا وانكلترة هذا استخفافاً بها ، وجهالة لمكانها بين الدول العظام وأخذت من ذلك الوقت تترصد الفرصة لاظهار ما فى نفسها من عمل انكلترة وفرنسا وأبت أن تعترف لفرنسا بحق احتلال مراكش . وسيكون لهذه المسألة أدوار أخرى تمر بها وتزيد العداوة بين المانيا وانكلترة إلى أن تنشب الحرب العامة ، لأنه عند ما اشتدت الأزمة بين فرنسا والمانيا من أجل استيلاء فرنسا على مراكش ؛ كان الفرنسيس سألوا الانكليز عما يكون من موقفهم فى هذا الخلاف ؟ فأجابوهم بأن الأسطول الانكليزى حاضر للعمل فى جانب فرنسا . فكان هذا الجواب هو أعظم عامل فى زرع العداوة بين الالمان والانكليز . فالحرب العامة إذاً و إن تعددت أسبابها فقد كان السبب الأقوى فى نشوبها اتفاق انكلترة وفرنسا على تقسيم أفريقية وانتهاء الأمر باحتلال فرنسا المغرب بمساعدة انكلترة، فانكلترة من زمن قديم تريد أن تربط شرقى أفريقية بالهند ، وتجعل من ذلك مستعمرة واحدة ، ولأجل تحقيق هذا المشروع توسلت بوسائل لا تحصى ، أولها القضاء على الدولة العثمانية حتى يتسنى لانكلترة وضع يدها على جزيرة العرب التى هى حائلة فى الوسط بين أفريقية والهند ، الثانى القضاء على استقلال الدولة الايرانية ، وقد كانت انكلترة اتفقت سنة ١٩١١ مع الروسيا على اقتسام المملكة الفارسية فجعلوها ثلاث مناطق ؛ الشمالية تحت تصرف الروسيا ، والجنوبية تحت تصرف انكلترة ، والمتوسطة مستقلة إلى حد محدود تحت نفوذ الدولتين .

وهكذا أصبح ممكناً أن تمد انكلترة خطاً حديدياً فى جنوبى فارس آتياً من الهند إلى العراق ، ثم تمده فى أراضى الدولة العثمانيــة من حدود فارس فى أرض العراق وفلسطين إلى مصر ، وهكذا إلى رأس الرجاء الصالح ، وتكون جميع البلدان التى سيمر بها هذا الخط من أملاك انكلترة خالصة لها. فما اكتفت انكلترة بالاستيلاء

على بلاد الهند التى فيها ٣٢٠ مليوناً من السكان ؛ بل حاولت أن تطفر من الهند إلى أفريقية ، وتجعل هاتين القارتين ؛ غربى آسيا ، وشرقى أفريقية قطعة واحدة ، لاينازعها فيها منازع . وكأنها تريد أن تأخذ موثقاً على الدهر ، وتجعل الفلك الدوّار يدور على محور إرادتها ، فجميع هـذه الأمم من هنود و إيرانيين وعرب ومصريين وأحباش وصوماليين وزنوج لم يوجدوا في نظر انـكلترة ليكون لهم حرية فى أنفسهم ! و إنما أوجدهم الله ليكونوا رعايا لانـكلترة حتى تـكون لها الـكبرياء فى الأرض ، ولاجل إتمام تصورها هذا لزم لها أن تسترضى فرنسا فتبيحها احتلال المغرب ، واسترضاء إيطاليا فتتفق مع فرنسا و يسمحان لها باحتلال طرابلس الغرب ، فهل تمكنت انـكلترة من تطبيق برنامجها الواسع هـذا ؟ الجواب إنها قد لقيت فى تطبيقه ما لم تـكن تتوقعه بل ما لم يكن يخطر لها على بال ! فأول خرق وقع فى هذا البرنامج وقع من جهة فارس فان انـكلترة كانت تقاسمت فارس هى والروسيا قبل الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب العامة فـكانت نتيجتها الظفر الأكبر لانـكلترة ، وكان من المعقول أن إيران بعد هذا الظفر تصبح ـ لاسيما المنطقة الجنوبية منها ـ مستعمرة انـكليزية ، فـكان الذى حصل هو عكس ذلك ، ورجعت إيران فأخرجت الانـكليز والروس من بلادها ، ورجع خط الاتصال بين الهند ومصر منقطعاً .

وأما الخرق الثانى فى برنامج السلطنة البريطانية هذا فقد وقع من جهة بلاد العرب ، فقد كانت انكلترة تفـكر بأنها إذاقضت على الدولة العثمانية كانت هي الوارثة لها في بلاد العرب فتتصرف بهذه البلاد كما تشاء ، والملك حسين بن على الذى زعمت أنها حالفته واعترفت باستقلاله بدل قيامه على الأتراك ؛ إنما تجعل له الحـكم فى الحرمين الشريفين فقط ، وهو مع ذلك سيكون مضطراً إلى قبول أية كلمة تصدر منها . وأما نجد والعراق وفلسطين فهذه كانت فى نظر انكلترة مرشحة تـكون من المستعمرات البريطانية ، فظهر لها بعد الحرب العامة و بعد ظفرها مع حلفائها أن العراق لايرضى أن يكون من جملة مستعمرات انكلترة ، وما زال يثور حتى اضطرت انكلترة إلى الاعتراف باستقلاله ، وهى و إن كانت اتفقت مع العراقيين على تأمين المواصلات الأمبراطورية

كما يقال ، فهذا التأمين للمواصلات ليس بسرمد ، كما أن نجداً مع توابعه الواصلة إلى الجوف ، و إلى قريات الملح على مقربة من شرقى الأردن ؛ بقى مستقلا تمام الاستقلال ، يليه ملك عظيم الشأن هو « عبد العزيز بن سعود » وقد أوسع ملكه بالاستيلاء على الحجاز وصارت هناك دولة عربية مؤلفة من نجد والحجاز وعسير يسكنها زهاء خمسة ملايين من قبائل العرب المسلحة ، ولا يسهل على انكلترة أن تلعب بها كما تشاء ، ولا أن تجعل فيها خطوط مواصلات . فلذلك كان هو هذا الخرق الثانى فى البرنامج البريطانى .

ثم بينما هى تظن أنها قد تملكت مصر ولم يبقَ لها معارض فيها ولا فى السودان و بينما هى تقيم القيامة اليوم لأجل منع إيطالية ، من الاستيلاء على الحبشة حتى تؤمن السلطنة التى تحلم بها من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ؛ ظهر لها خرق ثالث فى هذا البرنامج ، وهو قيام المصريين عن بكرة أبيهم يبلّغون انكلترة أن جميع مماطلاتها لن تفيدها شيئا فى حل الخلاف الذى بينها و بين مصر ، وهو الخلاف الذى يأبى المصريون أن يعرفوا له حلاً غير مؤسس على استقلال مصر التام ! . فهذه إذاً ثلاثة خروق ؛ أولها إيرانى ، والثانى عربى ، والثالث مصرى ، فى هذا البرنامج الواسع الذى حلمت به انكلترة ، وليس الانكليز بأول كتلة بشرية اتسع سلطانها حتى أفقدها رشدها ، وجعلها تحاول تخليد حكمها على آفاق لا تغرب الشمس عنها . بل من قبلها سكرت أمم كثيرة بخمرة العز ! و بينما هى تظن أن لم يبق لها منازع فى الدنيا ؛ جاءتها الحوادث بما لم يكن فى حسبانها ، وخسرت ما كانت قد تظنّنته مما ملكت أيمانها ، وظهر على الأمر من لم يكونوا لها على بال . ولا بد أن يصدق فيها قوله تعالى (فأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)

ونعود إلى غارة إيطاليا على طرابلس الغرب فنقول : إنها و إن كانت قد اعتذرت بكون الانكليز والفرنسيس تقاسمتا أفريقية ، ولم تبقيا لها شيئا غير طرابلس الغرب فاضطرت إلى احتلالها ؛ فانه لم يكن من ضمير حى ، ووجدان قوى ، ليقبل هذا التعليل و يجعله حجة ! ! . و إن كان مما لاشك فيه أن انكلترة وفرنسا كانتا على وفاق مع

إيطاليا فى قضية طرابلس . ولذلك عند ما استغاثت تركيا بدول أوربا جمعاء مما فعلته إيطاليا أصمّت انكلترة وفرنسا آذانهما عن سماع نداء تركيا !! وليتأمل المتأمل فى تلوّى السياسة ودناءة مباديها ، وذلك عند ما يرى أن اعتداء إيطاليا على طرابلس لم تقابله انكلترة بأدنى كلمة استنكار ، على حين أنها اليوم تحشد انكلترة ١٨٠ بارجة حربية ، وتجمع كلمة خمسين دولة من أعضاء جمعية الأمم على مقاطعة إيطاليا التجارية بحجة أن إيطاليا شنّت الغارة على الحبشة ظلماً وعدوانا ، كأن الغارة على طرابلس لم تكن ظلماً وعدوانا ! ! يحللونه عاما ويحرّمونه عاما ، و يفضحون أنفسهم أمام التاريخ ولا يبالون بما يقال عنهم .

أرسلت إيطاليا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أسطولا عظيما إلى مرسى طرابلس فأنذر البلدة بالضرب إن لم تستسلم له ، فأبت البلدة الخضوع فبدأ يرميها بالقنابر وما زال يرميها حتى تمكن من احتلالها فى ٧ أكتوبر ولم يكن فيها قوة من الجيش التركى النظامى غير ألفين إلى ثلاثة آلاف عسكرى ، لم يكن لها قِبَل بتجريدة إيطاليا لافى العدد ولا فى العتاد ، وإنما كان الأهالى العرب هم الذين تولوا كبر المقاومة . وبعد أن نزل الطليان بساحة طرابلس حاول العرب أن يردوا المعسكر الايطالى إلى البحر ، فاقتتل الفريقان من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٦ منه بشدة نادرة المثال ، وكاد العرب يقلعون الطليان من طرابلس ، ولولا امتناع الطليان بقلاع طرابلس لأخرجوهم منها ولكنهم امتنعوا ريثما تكاملت جموعهم بوصول الامدادات من البحر ، وردّوا العرب إلى الوراء بعد أن لحقت بالطليان خسائر جسيمة . ومن شدة مالحق بهم من الخسائر ارتكبوا فظائع لاتزال وصمة عار عليهم فى التاريخ ، وذلك فى حادثة المنشية التى ذبحوا فيها الأهالى ولم يستثنوا أحداً ولا النساء ولا الأطفال !! ونشرت ذلك الصحف الأوربية — حتى الصحف المعادية منها للاسلام — فانكفأ الطرابلسيون إلى « واحة عين زارة » فتقدم الطليان بقوة كبيرة وأخرجوهم منها ، فانكفأوا إلى « غريان » وصاروا يناوشون الطليان القتال بينها و بين مدينة طرابلس . وقد طرح مبعوثو طرابلس قضية بلادهم فى مجلس الامة العثمانية ، فحصلت المناقشات فيها فتبين من إهمال الحكومة

العثمانية فى ظل الدستور والحرية مالم يكن معهوداً في زمن السلطان عبد الحميد الذى رموه بكل سوء . فمن جملة ذلك أن حامية طرابلس كان ينبغى أن تكون بحسب النظام ١٧ تابوراً من المشاة و١٠ كواكب من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء ، والحال أنه لم يوجد فى كل طرابلس إلا أربعة آلاف جندى نظامى لايزيدون ، وأنه كان أهالى طرابلس قد اقترحوا التجنيد من تلقاء أنفسهم ، وقرر المجلس فى السنة السابقة النفقات المالية لذلك ، وعند ماحضر الشبان للتجنّد وكانوا ستة عشر ألفاً لم تقبل القيادة منهم إلا ثلاثة آلاف وأربعمائة . وكان يوجد فى طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع مرتينى ونوع شنَيْدَر ، فاسترجعتها الحكومة إلى الأستانة على وعد أن ترسل بدلا عنها أربعين ألف بندقية موزر ، فنسيت الحكومة هذا الوعد ولم ترسل شيئاً ، وتبين أن المشير ابراهيم باشا الذى كان والياً لطرابلس قبل ذلك بسنوات اقترح تأسيس معمل سلاح وقراطيس للبنادق فى نفس طرابلس وكتب إلى الباب العالى بأن أهالى طرابلس أشداء ذوو بصائر فى الحروب إذا أغارت عليهم دولة أجنبية يقدرون أن يدفعوها عن بلادهم ، بشرط أن يكون عندهم الأعتدة والأسلحة الكافية ، ولما كان لايوجد عند الدولة قوة بحرية تؤمن إيصال الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت على هذا القطر دولة كدولة إيطاليا ، فانه يجب إرسال كمية وافرة من الأسلحة إلى ثُكن طرابلس ، وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص بالأقل فى نفس طرابلس ، بحيث يكون فى أيدى الأهالى عدة كافية يدافعون بها عن أنفسهم عند الحاجة ، فهذا الاقتراح أهمله الباب العالى ولم ينظر فيه برغم النُّذُر الكثيرة التى كان يتلو بعضها بعضا بأن إيطاليا تتأهب من زمن طويل للاغارة على طرابلس و برقة .

بل حدثنى من أثق به من زعماء الطرابلسيين ، ومنهم كبيرهم السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله بأن الدولة فى زمن السلطان عبد الحميد كانت ترغب فى تجريد أهالى طرابلس من السلاح ، وتكبس الزوايا السنوسية التى تظن فيها وجود أسلحة وأن انتقال السيد المهدى السنوسى من واحة جغبوب إلى واحة الكفرة على مسافة ٢٥

مرحلة من بنغازى إلى الجنوب كان أصل السبب فيه اعتقاد المهدى السنوسى أن هذا القطر سيتعرض فى يوم من الأيام لاحتلال إيطاليا ، وأنه سيحتاج الاهالى إلى السلاح حتما ، والحال أن الدولة العثمانية ـ بعماية قلب غير مفهومة ـ كانت تحاول تجريد الأهالى من أسلحتهم ، ولا تريد أن تدرك أن هذا القطر دون غيره هو تحت خطر غارة أجنبية لا تقدر الدولة أن تدفعها إلا إذا كان الاهالى متسلحين . فالسيد المهدى السنوسى رضى الله عنه كان يرى ضرورة التسلح فى وجه الأجانب ، ولكنه لم يكن يريد أن يخاصم الحكومة العثمانية التى كانت ضد هذا الأمر ، فأوغل فى الصحراء وسكن فى الكفرة بعيداً عن الحكومة ، وذلك حيث يمكنه أن يتسلح هو ومن معه ، وأن يستقل بآرائه . ولما ذهبت أنا إلى برقة لأجل الجهاد بعد الغارة الايطالية ببضعة أشهر ؛ سمعت أن متصرف بنغازى كان قبل حرب طرابلس بشهرين يكبس زاوية من زوايا السنوسيين اسمها زاوية القطفية بتهمة أنه مخبأ فيها سلاح . (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولما اجتمعت بأنور رحمه الله بمعسكر عيد منصور فوق درنه ، حيث أقمت ثمانية أشهر مجاهداً . كنت أتحدث اليه بما فى نفسى من تقصيرات الدولة الفظيعة بحق طرابلس ، وكان يوافق على ذلك كله ولا يجد عن إهمالها عذراً .

ثم إنه كان تقرر لدى الدولة تعليم أهالى طرابلس الحركات العسكرية ، وأن هذا القرار أيضاً قد أهملته الحكومة ، ولهذا طلب مجلس الأمة محاكمة حقى باشا وزملائه الوزراء لأجل ما ارتكبوه من هذه الاهمالات كلها ، فلم ينفذا القرار بسبب أن بعض الوزراء كانوا من أركان الاتحاد والترقى ، فكيف يمكن الجمعية أن توافق على إدانتهم ومحاكمتهم ؟ فبقى هذا القرار من المجلس حبراً على ورق .

وكان الصدر الأعظم سعيد باشا قد جنح إلى الصلح ، لأن إيطاليا كانت قد احتلت رودوس والجزائر التى تجاورها ، وكان البحر فى يدها ، ولم يكن الأسطول العثمانى كفؤاً للاسطول الايطالى . فكان الصدر يرى وجوب الصلح على شرط إبقاء السيادة العثمانية على طرابلس ولو بالاسم ، وحفظ حقوق الخلافة الاسلامية ، وكانت

هذه سياسة دفع الضرر الأشد بالضرر الأخف ، إلا أن الرأى العام الإسلامى كان ضد التساهل فى قضية طرابلس ، لا سيما عند ما رأى المسلمون أن عرب طرابلس لبّوا داعى الجهاد بشكل لم يكن منتظراً ، ووقفوا فى وجه إيطاليا وقفة كان الأوربيون أنفسهم لا يصدقونها لو لم يروها بأعينهم ! . فايطاليا كانت تظن بحسب المعلومات التى عندها عن ضعف الحامية العثمانية فى طرابلس ؛ أنها تستولى على هذا القطر فى مدة لا تتجاوز ١٥ يوماً ، وهى لا تشك فى ذلك ، ولما سمع اللورد كتشنر بظن إيطاليا هذا ــ وهو القائد المحنك المشهور ــ وكان يومئذ المندوب السامى البريطانى فى مصر قال : إنى أرى الطليان مفرطين فى التفاؤل ، وإن تجربتى الطويلة فى حروب أفريقية تجعلنى أخطّئ هذا الرأى وأقول : إن احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب و برقة قد يستغرق ثلاثة أشهر . . . فهذه الثلاثة الأشهر التى ضربها أمداً اللورد كتشنر القائد الانكليزى الكبير ، المنجّذ فى حروب العالم الاسلامى ، والخمسة عشر يوماً التى ضربتها إيطاليا أمداً لتمام الاستيلاء على طرابلس ؛ كانت لدى الفعل عشرين سنة تامة ، وما انتهت إلا بأسر الشهيد عمر المختار وشنق الطليان إياه وذلك سنة ١٩٣١ ولو كان أهالى طرابلس يملكون ما فيه بلغة من العتاد والذخيرة لكانوا إلى اليوم حامين لساحتهم . فايطاليا بعد غارتها على طرابلس بشهرين أو ثلاثة أوصلت جيش الاحتلال هناك إلى مئة الف عسكرى ، ولكنها لم تقدر أن تتقدم إلى الأمام شبراً واحداً ، بل كان جيشها فى نفس مدينة طرابلس ، وفى بلدة خُمس ، وفى مدينة بنغازى التى لم تقدر العساكر الايطالية أن تنزل فيها إلا بعد معركة استمرت ثلاثين ساعة ، وجرى فيها من الوقائع ما تشيب له ذوائب الاطفال واحتل الطليان أيضاً بلدة درنة على البحر فى ذيل الجبل الأخضر ، وموقع طبرق من البطنان ، أى أنهم لم يكونوا داسوا من أرض طرابلس سوى هذه المدن الاربع ، بينما لهم هناك مائة الف عسكرى تمدها البوارج الحربية من البحر ! !

وكان أنور ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى برلين ، وكان على فتحى ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى باريز ، فخفّ أنور من برلين إلى الاستانة بقصد الجهاد فى طرابلس ، ولما أبدى اقتراحه وجوب تسفير جانب من الضباط إلى طرابلس لم يعتقد

أحد فى الاستانة بأن ذلك يؤدى إلى فائدة عملية ، ولما استأذن لنفسه فى الذهاب إلى طرابلس قال له محمود شوكت باشا ناظر الحربية : لا أرى فائدة من سفرك ، وربما يقتلك العرب فى الطريق لأن الطليان يقدرون أن يرشوهم بالمال فيغتالوك ؟ ! فقال له أنور : لقد أهملنا طرابلس إهمالا فظيعاً ضاقت فيه فسحة العذر ، فيجب علينا أن نعوّض تفريطنا فى حقها ، وأن نبذل كل مانستطيعه فى سبيل الدفاع عنها ، وإذا كان العرب يقتلوننا فى الطريق فيكون الذنب ذنبهم ، ونعود نحن معذورين . قال لى هذا أنور من فمه فى معسكر درنه ، وقد وقعت بينى وبينه مودّة أكيدة ، وخلطة ارتفع فيها التكليف بيننا ، واستمرت هذه المحبة منذ تعارفنا فى عين منصور سنة ١٩١٢ إلى أن استشهد رحمه الله فى أرض بخارى فى محاربته للروس البلاشفة سنة ١٩٢٢ . ولما رأت الدولة إصرار أنور على الجهاد بنفسه فى طرابلس ؛ أدّت إليه خمسة آلاف جنيه لاغير لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مرّوا من مصر متنكرين ، وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضباط .

ولم يصلوا إلى السلّوم حتى وافتهم الأخبار بأن قبيلة من العرب يقال لها الشلاويّة وهي من القبائل الصغرى أوقعوا بتابورين من الطليان وردوهم مدحورين إلى درنة وغنموا منها أسلابا كثيرة . فاشتد بهذا الخبر عزم أنور ، وأغذّ السير ، فأول مالاقى زعماء العرب ومشايخ الزوايا السنوسية فى زاوية مرطوبة ، وكان العرب ناقمين على الدولة إهمالها أمر طرابلس ، ذاكرين تلك الحماقة التى كانت تظهر من عمالها فى تجريدهم من سلاحهم ، فقالوا لأنور : إننا لا نمشى ولا نقاتل حتى تأتينا بالأسلحة والذخائر الكافية وبالمدافع . فأجابهم بأنه سيأتى بكل ذلك ، وكان مقصده بهذا الوعد الفارغ إثارة حماستهم حتى ينغمسوا فى الحرب ، وإلاّ فهو كان يعلم صعوبة تهريب السلاح إلى طرابلس وبرقة ، فان الأسطول الايطالى كان مراقباً السواحل مراقبة شديدة فلم تتمكن تركيا من تسريب الأسلحة إلى المجاهدين إلاّ فى الأندر . والذى أعلمه أنه من محمول البواخر العديدة التى أرسلتها الدولة لم يصل إلاّ محمول باخرتين لاغير ، إحداهما

تمكنت من التفريغ فى سواحل برقة ، والأخرى تمكنت من التفريغ في ساحل طرابلس لأول هذه الحرب .

وقد كان من الممكن تهريب السلاح بواسطة سواحل مصر لولا أن الانكليز شدّدوا المراقبة إلى الدرجة القصوى بواسطة مصلحة خفر السواحل المصرية ، فلم تتمكن الدولة من تهريب بندقية واحدة بواسطة سواحل مصر . ولما كنتُ قد أقمت فى معسكر عين منصور عدة أشهر ؛ فقد علمت أن السلاح الذى كان يقاتل به العرب هناك قليل منه كان من بقايا سلاح الدولة ، ومنه قسم من السلاح اليونانى المهرّب الذى يقال له « غراء » والأكثر كان من البنادق الطليانية التى كان العرب يغنمونها فى أثناء الوقائع .

وقد أعجب العرب بحمية أنور وبسالته فأحبوه حباً جماً ، ولما وصلت إلى هناك وجدت فى مخيّم عين منصور من الجبل الأخضر على مسافة ساعتين من درنه إلى الجنوب سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل من العرب من قبيلة العبيدات ، وقبيلة البراعصة وقبيلة الحاسة ، وبينهم المشايخ السنوسية لزوايا الجبل الأخضر ، مثل سيدى محمد العالمى الغمارى شيخ الزاوية البيضاء ، وسيدى محمد الدردفى شيخ زاوية شحّات ، وسيدى محمد الغزالى شيخ زاوية ترت ، وغيرهم من أشياخ السنوسية .

وكان مع أنور بضعة عشر ضابطاً من الأتراك ، منهم مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا اليوم ، وبضعة عشر ضابطاً آخرون من أبناء العرب . ولما مررت بطبرق كان الطليان احتلوها ، ولكنهم بنوا استحكاماً بقرب البحر امتنعوا من ورائه فلم يكونوا يقدرون أن يخرجوا منه ، وكان هناك أمامهم معسكر للعرب قائدُه أدهم باشا الحلبى ، ولا يزيد عدد المقاتلين فيه على ألفين ، وبينه وبين معسكر الطليان فى طبرق ساعة ونصف ، وكان عمدة المقاتلين للطليان في معسكر طبرق قبيلة يقال لها عائلة مريم من العبيدات ، وكان لها زعيم يقال له الشيخ المبرى قُتل فى الجهاد ، وكان القائمون بالجهاد فى برقة هم السادة السنوسية تحت رئاسة السيد احمد الشريف الذى استنفر القبائل كلها فانضوت تحت علم السنوسى ، وانقادت إلى الضباط العثمانيين تحت

رئاسة أنور القائد العام ، فكان معسكر صغير فى طبرق أمام الحامية الطليانية التى نزلت فى ذلك المرسى ، ومعسكر ثان فى عين منصور تحت قيادة أنور بنفسه وهو يقابل الطليان الذين فى درنة ، وكان عدد الطليان عشرين ألف مقاتل ، ولكنهم كانوا لا يقدرون على الخروج ، وكلما خرجوا ردّهم العرب إلى حيث كانوا ، وقد بنوا استحكامات حول درنة يعتصمون بها إذا هاجمهم العرب الى البلدة ، ولكن مهاجمة كهذه كان ينبغى لها مدافع ، ولم يكن فى معسكر أنور إلا مدفعان صغيران لا غير .

وكانت مدافع الطليان من أضخم المدافع ، وكانوا يقذفون علينا بالشرانبل بدون انقطاع ، وأظن أنه لولا المدافع الكبيرة ما استطاع الطليان الثبات فى درنة نفسها .

وأما المعسكر الثالث فى برقة فكان فى بنغازى تحت قيادة عزيز بك المصرى وكانت فيه قبائل العواقير ، والمغاربة ، والدرسة ، والعرُفا ، والعبيد ، وفيه من زعماء السنوسية سيدى عمران السكورى ، وسيدى محمد بن عبد المولى ، وجم غفير معهما وكان المعسكر العربى مخيما فى سهل يبعد ساعتين عن بنغازى إلى الجنوب ، وكنا نخمّن عدده بأربعين ألف مقاتل كلها تحت المضارب . وقد وقعت سواء فى درنة أو فى بنغازى وقائع فى غاية الشدة ، وخسر الطليان فيها ألوفا مؤلفة من الجنود ، وما استطاع الطليان أن يخرجوا مسافة شبر واحد إلا ردّهم العرب إلى المدن فاعتصموا بها تمدّهم بوارجهم من البحر .

وقد ذكرت هذه الحوادث فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » فى مبحث خاص بطرابلس الغرب أوسع من هذا . و بقيت هذه الحالة كما نحن واصفوها إلى أن نشبت الحرب البلقانية ، وهى التى هجمت فيها دول البلقان مجتمعة بسياسة قيصر الروسيا على تركيا مفاجأة ، فتغلبت عليها فبعثوا من الأستانة إلى أنور يستقدمونه إلى الأستانة بالحاح شديد ، فاضطر إلى ترك القيادة كارهاً ، وعاد إلى استانبول وخاض فى حرب البلقان ، ولكن بعد أن كانت دارت الدائرة على الدولة . وكان لأنور بلاء حسن بمعية القائد احمد عزّت باشا الأرناؤوطى عند ما استرجع الأتراك ولاية أدرنة .

و بعد رجوع أنور إلى الأستانة صارت قيادة المجاهدين فى يد عزيز بك المصرى

فبقى يقاوم الطليان مدة من الزمن لكنه اختلف مع السنوسية اختلافاً شديداً ، وكانت إيطاليا قد اتفقت مع عباس حلمى خديوى مصر لذلك العهد ، وذلك على أنه يبذل جهده فى تسكين حركة المقاومة فاقتنع بذلك ، وأرسل وفوداً إلى السنوسية ينصح لهم بترك الجهاد فلم يقبلوا كلامه . وحدثنى السيد احمد الشريف أنه عند ما جاءه رسول الخديوى آخر مرة قال له : كنا نتلقاك بالاكرام والاحترام مراعاة للذى أرسلك و إن كنا لم نستطع إجابة طلبه ، ولكن بعد أن تكرر قدومك علينا بالطلب نفسه فاننا مضطرون أن ننذرك بأنك إذا جئت بعد هذه المرة من قبل سمو الخديوى تنصح لنا بترك الجهاد فليس لك عندنا أمان على نفسك .

ولما قطع الخديوى أمله من السنوسية استقدم عزيز بك المصري إلى مصر وكانت الدولة قد عقدت معاهدة الصلح مع إيطاليا وأمرت عزيز بك على باخلاء برقة فجاء ومعه أربعمائة جندى هم بقية العسكر العثمانى الذى كان فى برقة ، والتمس السنوسية من عزيز بك أن يترك لهم الأسلحة والأعتدة التى كانت فى يد العسكر ، فاحتج بعدم إمكانه ذلك لأن الدولة كانت صالحت إيطاليا على طرابلس بعد أن هاجمتها الدول البلقانية ، ومن أجل ذلك لا يقدر هو أن يسحب العسكر إلا بسلاحه ، فحصل بينه و بين العرب من أجل قضية السلاح هذه معركة فى سهل « دَفْنَة » من البطنان غير بعيد عن السلّوم ، قُتل فيها من العسكر بضعة عشر رجلا ، ومن العرب زيادة على ستين فتكاثرت العرب واستصرخ بعضهم بعضا وأحاطوا بالعسكر ومنعوه من المسير وكان مرادهم إصلاء عزيز بك والجند الذى معه معركة لم تكن تنتهى إلاّ بفناء الأربعمائة جندي ، وعدد كبير من العرب المهاجمين ، فوصل الخبر إلى السيد أحمد الشريف بمكانه من الجبل الأخضر ، فأرسل السيد عمر المختار الشهيد المشهور يأمر العرب بالانصراف ، وترك عزيز بك المصرى بعسكره يسير إلى جهة مصر ، وكانت المسافة بين مكان السيد السنوسى ومكان عزيز بك مسيرة أربعة أيام ، فقطعها الشيخ عمر المختار فى أربع وعشرين ساعة ، ولما وصل وجد العرب كلها تجمعت وقد أحاطت بعزيز بك وعسكره تريد الأخذ بالثأر ، فأبلغ عمر المختار قبائل العرب أمر السيد أحمد

الشريف وقال لهم : مهما كان قد حصل فانه لايليق بنا أن تكون نهاية مساعدة الدولة لنا فى هذه الحرب أن نفتك بعساكرها لأجل مسألة سلاح ، وهم مجاهدون ومسلمون مثلنا . وهكذا ألقى عمر المختار السلام بين الفريقين ، ومضى عزيز بك بعسكره إلى مصر وقد ترك السلاح للعرب

ولا بد من التنويه بالمقام المحمود الذى كان لأهل مصر في هذا الجهاد ، فان هجوم الطليان على طرابلس وقع بغتة ، فما مضت أيام حتى بدأوا بالتفاوض مع العرب واستجلبوا أناساً منهم إلى جهتهم لأن الطرابلسيين رأوا أن الدولة لم ترسل قوة تدافع بها عن بلادها ، ووجدوا القوة التى لها من قبل فى طرابلس تكاد تكون عدماً ، فانقطعت آمالهم من إمكان الجهاد . و بينما هم فى منتهى الانكسار إذ وصلت اليهم قوافل من مصر موقرة أرزاقاً يتلو بعضها بعضا ، فكانوا كالأرض الميّتة التى أصابها وابل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن ذلك الوقت بدأوا بالجهاد العظيم ، وعلموا أن المسلمين من ورائهم ظهير ، ثم لم يلبث أنور أن وصل فازدادت بذلك ثقتهم واشتدت حماستهم ، وكان منهم هذا الجهاد الذى استمر عشرين سنة . على أنه لو لا دعوة السيد احمد الشريف هذه القبائل إلى الجهاد ما كان مجيء أنور من الأستانة ولا كانت جمعية الاعانة المصرية التى ترأسها الامير عمر طوسون ليتمكنوا من تأسيس هذا الجهاد المبين على هذا الاساس المتين ، الذي أذن للعرب بأن يصدّوا دولة عظيمة كايطاليا مدة عشرين سنة !

وأما من جهة غربى طرابلس فقد كان الجهاد لايختلف فى شيء عما كان فى جهة برقة ، واجتمعت هناك الكلمة على الحرب دفاعاً عن الوطن ، والتفوا حول نشأت بك قائد الجند العثمانى الذى جاءه فتحى بك الملحق العسكرى العثمانى فى سفارة الدولة فى باريز ، وصار هو رئيس أركان الحرب ، وانضم إليهم رجالات طرابلس مثل الشيخ سليمان البارونى زعيم الأباضية ، وآل سيف النصر ، والمحاميد ، وأهالى مصراته وترهونه ، وزليطن ، وأُرفلّة ، وغيرهم . وكان للدولة معسكر أمام طرابلس ، ومعسكر آخر أمام خُمس ، وكان فى المعسكر الأول نشأت بك ، وفتحى بك ، وفى المعسكر

الثانى خليل بك خال أنور باشا ، ونورى بك أخوه . وكانت الحالة هناك كما كانت فى برقة تماماً ، أى أن المجاهدين كانوا يصدون الطليان عن الخروج من طرابلس وخمس ، و بقى هذا الأمر إلى أن نشبت الحرب البلقانية وصالحت الدولة إيطاليا على طرابلس، فانفضت هذه الجموع ، وركب نشأت بك وفتحى بك ببقية العساكر إلى الأستانة ، وكما أن المصريين قاموا بالواجب تحت رئاسة الامير عمر طوسون من إمداد مجاهدى برقة ؛ فان التونسيين قاموا أيضاً بمثل ذلك من إمداد مجاهدى طرابلس وكلٌ من الفريقين أنفق بدون حساب ، وتجلّى هناك تعاون المسلمين بما يسر الخواطر ويحقق قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) .

وأحزّر أن المصريين أمدوا مجاهدى برقة بمبلغ لا يقل عن مائتى الف جنيه نقدا عدا قيمة الاقوات والارزاق التى كانت قوافلها متصله يلاقى بعضها بعضاً بين غاد ورائح ، وقادم وقافل ، فهذه لا أعلم حسابها ، وعدا ثلاث بعثات أرسلها الهلال الاحمر المصرى ، وقام فيها بمساعدات كبيرة . وكان للدولة العثمانية أيضاً بعثات هلال أحمر متعددة وجاءت بعثة هلال أحمر أيضاً من قبل أهالى منشستر فى الروملى ،وعداما كان من معالجة الجرحى فقد وجدت هذه البعثات الصحية أن الاهالى كانوا مصابين بأمراض مزمنة ، وأوبئة مستحكمة ، لا سيما مرض الزهرى المنتشر . فأخذت هـذه البعثات بمؤاساتهم بعد أن كانوا لا يعرفون شيئاً من أمر العلاج والوقاية ، فاستفاد الاهلون كثيرا فى صحتهم ، لا سيما عرب الجبل الأخضر. ولولا أن نشبت الحرب البلقانية والتزم المصريون تحويل إمداداتهم إلى جهة الأستانة ؛ لـكان الجهاد فى القطر الطرابلسى بقي على حاله ، وكان الطليان لا يقدرون أن يبرحوا مراكزهم ووراء استحكاماتهم ولـكن الحرب البلقانية شغلت المسلمين عن حرب طرابلس ، وانصرفوا عن المهم إلى الأهم ، وأخذت لجنة الاعانة تحت رئاسة الأمير عمر طوسون «أمين الأمة» ترسل الاعانات إلى الدولة ، وأراد الأمير عمر أن يبعث أيضا مابقى من الاعانة الطرابلسية إلى الأستانة فـكتبت إليه حينئذ أرجوه أن يبقى إعانة طرابلس لطرابلس لأنها فى الحرب البلقانية لا يكون لها غناء ذو بال ، وأما فى طرابلس فانها تسد أرماق المجاهدين

الذين كانوا يجاهدون مكتفين بالقوت الضرورى ، فقد كان الواحد منهم يعيش بقرش ونصف فى اليوم .

ولما طال القتال فى طرابلس على غير نتيجة لايطاليا ؛ أخذت هذه تفكر فى اشعال الحرب على تركيا فى أمكنة أخرى ، فأما الدردنيل فكانت الدولة قد بادرت بتحكيمه ووضعت فيه أربعين ألف عسكرى فلم يجرأ الاسطول الطليانى أن يقتحمه حذراً من الدمار ، ولكنه احتل موقعاً من جزيرة لمنى .

ثم ذهب فدمّر نسّافتين من الاسطول العثمانى كانتا فى بيروت ، ولما لم يجد الطليان فائدة من هذه التهويلات أجمعوا احتلال جزيرة رودوس وبقى مع ذلك العثمانيون مصممين على القتال ، وكان فريق من الترك يود فى الباطن مصالحة إيطاليا على طرابلس تخلصاً من الأخطار التى كان يخشى منها على الدولة باستمرار الحرب ، إلا أنهم خافوا هيجان العرب والعالم الاسلامى فيما إذا تخلوا عن طرابلس ، ولم يكن مساعداً لايطاليا يومئذ حسب زعم الطليان سوى الخديوى بالسبب الذى تقدم ذكره وقد أشار إلى ذلك جيولتّى رئيس نظار إيطاليا السابق ، وذلك فى مذكراته المطبوعة التى يذكر فيها تاريخ حياته ، فصرح بأن عباس حلمى خديوى مصر كان من أول حرب طرابلس إلى آخرها مساعداً لايطاليا بما أمكنه من الوسائل ، بحجة أن جده اسماعيل باشا عند ماخلع من إمارة مصر وسكن فى نابولى أحسنت الحكومة الايطالية معاملته! ولما اطلع الأتراك على هذا الكتاب بعد الحرب العامة ، وكان جيولتّى نشره قبل ذلك ببضع سنوات كان لذلك وقع سيء لديهم ، وطعنت جرائدهم فى الخديوى السابق طعناً شديداً .

فالدولة كانت إذاً لا تجرأ على التخلى عن طرابلس حتى بعد احتلال رودوس وكان الطليان أصبحوا فى حيص بيص من تمادى هذه الحرب التى كلفتهم مبالغ طائلة من المال « منذ عشر سنوات كانت ايطاليا أحصت خسائرها المالية على طرابلس بثلاثمائة مليون من الجنيهات » وعشرات ألوف من الرجال ، فحدثتها نفسها أخيراً باحتلال بلاد الروملى ، وكان هذا مما يغيظ البلقانيين الطامحين إلى ميراثها من تركيا

وكانت الروسيا قد بدأت بسياسة التأليف بين البلغار والسرب واليونان ، حتى يهاجموا الدولة العثمانية يداً واحدة ، فوجدت إيطاليا فى احتلال الروملى سبباً للتنازع بينها و بين البلقانيين ، فتوقفت عن ذلك ور بما تكون إيطاليا كلفت الروسيا اتخاذ سياسة ضغط على الباب العالى حتى يرضى بالتخلى عن طرابلس .

فأخذت الروسيا تفاوض الدول العظام فى التوسط لدى الباب العالى فى هذا الأمر . وأخيرا اتفقوا جميعاً على تقديم مذكرة إلى تركيا ينصحون لها فيها بوضع حد لهذا الخلاف ، فأجابت تركيا أن الصلح الوحيد الذى يمكنها أن ترضى به هو إلغاء قرار مجلس نواب إيطاليا استلحاق طرابلس الغرب ، وسحب جميع العساكر الطليانية من ذلك القطر ، و إلا فهى تقاتل إلى ما شاء الله قتال المظلوم المعتدى عليه ! و بينما تركيا على أشد ما يمكن من العزم للدفاع عن طرابلس لما شاهدته من بأس الطرابلسيين وشدة بلائهم فى هذه الحرب ، ولكونها لم تكن تتكلف عليهم فى الشهر الواحد أكثر من مئة ألف جنيه ؛ إذ راعها اتحاد الدول البلقانية الأربع : اليونان ، والبلغار ، والسرب والجبل الأسود ، وتحفزهم للزحف عليها فمنذ ذلك أجمعت الصلح مع إيطاليا مكرهة.

وكان أنور لا يزال فى الجبل الأخضر ، ووصل إلينا الخبر ونحن هناك . فعلمت أن الدولة لا تقدر أن تكافح البلقانيين جميعاً ومعهم إيطاليا . وفكرت أنه يمكنها إذا أكرهت على الصلح مع إيطاليا أن تستمر على إمداد الطرابلسيين سراً بواسطة مصر ، و يمكنها أيضاً أن تسحب عسكرها النظامى الباقى فى طرابلس بدون أن يُحدث ذلك فتوراً فى الدفاع . فبعد أن وقعت مذاكرات بينى و بين السنوسيين من أعوان السيد أحمد الشريف لأنه كان وقتئذ لم يزل فى الكفرة ، برحت الجبل الأخضر قادماً إلى مصر ومنها قصدت إلى الأستانة ، فوجدت الحرب البلقانية على وشك الانفجار وكان الصدر الأعظم حينئذ مختار باشا الغازى ، ولكن السياسة كان أكثرها فى يد كامل باشا ، وكان ناظر الحربية ناظم باشا ، وكان شيخ الاسلام جمال الدين أفندى فقابلتهم جميعاً وأوضحت لهم محاذير التخلى عن طرابلس ، فقال لى كامل باشا بالحرف : إننا لا نقدر أن نحارب أربع دول البلقان ، ونستمر على محاربة دولة عظيمة كايطالية .

فبينت له أن استمرار الدفاع عن طرابلس ممكن بدون تكليف الدولة مؤونة شاقة لأن المجاهدين هناك إذا كفلت لهم الدولة والعالم الاسلامى قوتهم الضرورى فانهم يقدرون أن يصدّوا الطليان عن التقدم ، وليس المقصد من مسعانا سوى إقناع الدولة بأنها إن أكرهت على الصلح لا تتخلى عن إمداد الطرابلسيين بواسطة مصر . فهذا الرأى لم يرفضه كامل باشا ، وكذلك أكّد لى جمال الدين أفندى شيخ الاسلام بأن الدولة لن تهمل أهل طرابلس ، ولكنها مضطرة الآن أن تكفّ عن حرب إيطاليا حتى تكون انتهت من الحرب البلقانية .

و بالاختصار أرسلت الدولة نابى بك ، وفخر الدين بك إلى سويسرة حيث اجتمعا مع برتولينى وفولبى معتمدى إيطاليا و باشرا مذاكرات الصلح ، وانتهى الأمر بأن الدولة تترك سيادتها على طرابلس لأهاليها ، وتنصح لهم بالائتلاف مع إيطاليا ، وأن إيطاليا تعفو عن جميع الذين قاوموها فى طرابلس من الأهالى ، والعساكر التى للدولة فى طرابلس يخرجون منها ، كما أن العساكر الايطالية تجلو أيضاً عن رودوس ، وجزر الأرخبيل التى احتلتها .

وكان أيضاً من جملة الشروط أن تبقى طرابلس مرتبطة بالدولة من الجهة الدينية فالسلطان يبقى هو الخليفة الأعظم فى نظر الطرابلسيين ، و يدعى له على المنابر ، و يكون للسلطان وكيل فى طرابلس يقال له نائب السلطان ، وقد تعين بعد الاتفاق شمس الدين باشا لهذا المنصب ، ومعه يوسف بك شتوان مستشاراً .

وكانت وزارة سعيد باشا قد شعرت بأن المجلس لا يمشى معها فى قضية الصلح مع إيطاليا ، لا سيما بعد أن جاء يوسف بك شتوان وخطب فى مجلس المبعوثين خطاباً مآله أن الحالة الحربية هى فى طرابلس مرضية جداً لا تؤذن بأدنى خطر ، وأنه لا خوف على الدولة إلاّ من الشقاق الداخلى ، فتحمس المبعوثون وآلوا بعدم الموافقة على الصلح وكان الصدر الأعظم بدأ يشعر بقرب الحرب البلقانية ، و يرى أنه لابد من عقد الصلح مع إيطاليا ، وكان المجلس لا يزال فى شقاق بعيد بين الأحزاب ، فأقنع سعيد باشا السلطان بحل مجلس المبعوثين حتى يتسنّى للحكومة أن تمضى فى سياستها ، وكان

للسلطان حق في حل مجلس النواب بموافقة مجلس الأعيان على شرط مباشرة الانتخابات لانعقاد المجلس الجديد ، فصدر الأمر بحل المجلس وانتُخب مجلس جديد ، وما كاد ينعقد المجلس حتى جاءت الأخبار بأن الارناؤوط استأنفوا الثورة ، واتفقوا هذه المرة مسلمين وكاثوليكيين وأرثوذكسيين يداً واحدة فى وجه الدولة ، وعلى رأسهم اسماعيل بك مبعوث برات ، ونجيب دراغه مبعوث درشتنه ، و بصرى بك مبعوث دبره وحسن بك ، و يحيى بك ، وغيرهم . وانضم اليهم أيضاً ضباط أرناؤوط من ضباط الجيش العثمانى ، وعقد هؤلاء الأرناؤوط اجتماعاً حضره ٨٦ من رجالاتهم ، وقرّروا طلب حل المجلس الجديد وعزل الاتحاديين الذين فى الحكومة مثل محمود شوكت باشا ناظر الحربية ، وطلعت بك ناظر البوسطة والتلغراف ، وجاويد بك ناظر الاشغال النافعة ، فاشتد الخطب على الدولة ، واستعفى محمود شوكت باشا وظهر أن الاتحاديين أصبحوا بعد ثورة ألبانيا يخشون تحمّل المسئولية ، فصار الصدر الأعظم سعيد باشا يعرض نظارة الحربية على المقتدرين فلا يقبلها أحد منهم ، فاختار الاستعفاء . فانتدب السلطان لتأليف الوزارة الغازى مختار باشا المشهور .

وكانت تألفت فى الأستانة جمعية عسكرية يقال لها جمعية « الخلاص كاران » فوزّعت منشوراً تطلب فيه تبديل الحكومة ، ومنع الاشخاص غير المسئولين من التدخل فى أمور الدولة ، وتقترح حل المجلس وانتخاب مجلس آخر بتمام الحرية وكانت الحكومة تريد سن قانون يمنع رجال العسكرية من التدخل فى السياسة فهذه الجمعية أعلنت أن رجال العسكرية لا يمتنعون عن التدخل في السياسة إلا بعد قبول هذه المطالب . فقرىء هذا المنشور فى المجلس وأثار حركة شديدة ، وأقسم المبعوثون بأنهم لا يتركون كراسيهم الا موتى ، وطلبوا من الحكومة التحقيق عن الجمعية التى وزّعت هذا المنشور ، فجاء الصدر الاعظم مختار باشا ومعه ناظم باشا ناظر الحربية الجديد وطمأنا خواطر المبعوثين ، وتعهد ناظم باشا باعادة النظام الى الجيش كما كان وتلا الصدر الاعظم برنامج الوزارة الجديدة وفيه منع الضباط من الاشتغال بالسياسة

ومنع المأمورين من التدخل فى أمور الانتخابات ، والتقيّد بالقوانين الموضوعة فى أمر تعيين المأمورين ، وغير ذلك . وأما من جهة الصلح مع ايطاليا فلم تعلن الوزارة شيئاً ، ثم وقع الخلاف فى المجلس على قضية حق السلطان فى حل المجلس وعدمه وكان الاتحاديون الذين لهم الأكثرية فى المجلس يريدون إعطاء هذا الحق للسلطان على شروط كان يناقشهم فيها خصومهم حزب الحرية والائتلاف ، وكان هذا الحزب يرأسه لطفى فكرى ، فاشتد الجدل بين الفريقين ، وفى أثناء ذلك كانت ثورة الارناؤوط تتفاقم يوماً فيوماً ، ثم بدأ الشقاق بين أعضاء الوزارة نفسها ، وانتدب مختار باشا الصدر السابق فريد باشا الارناؤوطى لأجل نظارة الداخلية ، وحسين حلمى باشا الصدر السابق أيضاً لنظارة العدلية ، فأبى فريد باشا الدخول فى الوزارة ، ودخل حسين حلمى باشا ولكنه اضطر بعد قليل الى الاستعفاء ، وازداد تحرّج مركز الحكومة التى كانت ترى ازدياد مشكلاتها فى الداخل والخارج ، و بينما ثائرة الارناؤوط تتوقد إذا بعصائب البلغار فى مقدونية — أى الروملي — رجعت إلى العمل ، وأخذت بنسف السكك الحديدية ثم فى نهار العيد انفجرت قنبرة فى « جامع أشتب » وجرح بها أناس كثيرون ، فثار المسلمون وأوقعوا بكثير من البلغار ، ثم حصلت حوادث من هذا القبيل فى ولاية « أسكوب » فانتقم المسلمون أيضاً بقتل عدد من البلغار ، وأهم حادثة هى التى وقعت فى « كوتشانة » فى أول أغسطس سنة ١٩١٢ ؛ فانه كان قد وضع البلغار قنابر فى السوق فانفجرت وقتلت عدداً من المسلمين ، فأوقع المسلمون بالبلغار ، وقيل إنهم قتلوا منهم ١٥٠ شخصاً ، وهكذا استمرت الحوادث مدة طويلة ، فعصائب البلغار تلقى القنابر الديناميتية فى الاسواق والجامع عمداً لأجل إثارة المسلمين حتى ينتقموا من المسيحيين ، وتضطر الدول المسيحية للتدخل فتنسلخ مكدونية عن تركيا ، وهذا على نمط حركات الأرمن .

وكان البلقانيون أكثر الأحيان مختلفين بعضهم مع بعض ، نعنى بذلك البلغار واليونان ، والسرب ، وذلك لأن مكدونية التى يقول لها الترك الروملى فيها من جميع هذه الاجناس ، فالبلغار يدعون أنها يجب أن تكون لهم ، واليونان يحتجّون بأن

الأكثرية في سلانيك ونواحيها وتراقيا هي للجنس الرومي ، والسربيون يحتجّون بأن الأكثرية في شمالي مكدونية هي لهم ، وكل فئة تعزّز دعواها بأدلة . ولم يكونوا يفكرون بشيء من حقوق المسلمين هناك ، مع أن المسلمين في البانيا ومكدونية كانوا أكثر من نصف السكان ! وكانت للدولة في أوربا ست ولايات : الاولى ولاية أدرنة الواقعة على البحر الاسود ممتدة من ضواحي الأستانة إلى حدود البلغار ، والثانية ولاية سلانيك التي يتبعها أكثر مكدونية ، والثالثة ولاية قوصوه التي هي الآن من ضمن مملكة يوغوسلافيا ، والرابعة ولاية مَنَسْتر الواقعة بين يوغوسلافيا و بلاد اليونان والخامسة ولاية يانيا من جنوبي بلاد الارناؤوط ، والسادسة ولاية شقودرة في شمالي بلاد الارناؤوط . وكان عدد المسلمين في هذه الولايات الست من أرناؤوط وترك وبوماق – وهم نوع من البلغار دينهم الاسلام ولغتهم البلغارية – ومهاجرين يزيدون على عدد النصارى بقليل . فلم يكن للبلقانيين حق في ادّعاء تقسيم هذه البلاد فيما بينهم لا سيما وقد كانوا هم أنفسهم غير متفقين في التقسيم ، وكل فئة تريد أن تأخذ حصة الاخرى ، ولكن ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الاوربية عليها من كل جهة أوسعا مطامع البلقانيين حتى أصبحوا لا يفكرون في شيء سوى طرد الأتراك من أوربا تماماً ، بحجة أنهم طارئون على أوربا من آسيا ، وأنهم لم يكونوا ذوي ملك في شبه جزيرة البلقان قبل القرن الرابع عشر للمسيح . ثم إن البلقانيين كانوا يعلمون أن الأتراك في حال تغلبهم عليهم لا يقدرون أن ينالوا منهم شيئاً ، ولا أن يفتحوا من بلدانهم بلداً بخلاف مالو تغلبوا هم على الأتراك فانهم حينئذ يقدرون أن ينالوا كل ما يريدون ، وذلك عملا بقاعدة إن ما يؤخذ من الهلال للصليب لا تمكن إعادته للهلال ، وأن ما يؤخذ من الصليب للهلال فلا بد من أن يرجع إلى مكانه . وهذه القاعدة متفق عليها في أوربا تطبقها أوربا بقدر إمكانها ، والبلقانيون يعلمونها . وفي بداية الحرب البلقانية كان في ظن الدول الاوربية أن تركيا تتغلب على البلغار والسرب واليونان والجبل الأسود ، فأرسل المسيو بوانكاره – وهو يومئذ رئيس نظار فرنسا – مذكرة إلى تركيا و إلى الدول البلقانية المتحالفة عليها ، يبلّغ الجميع بأنها إذا حصلت حرب بين الفريقين فالدول لا تسمح

للفريق الغالب أن يأخذ شيئاً من الفريق المغلوب . وقد كتب بوانكاره هذا تزهيداً للفريقين فى الحرب ، وكان مرجحاً عنده أن دول البلقان لا يقدرون على تركيا ، فلما وقعت الواقعة وانهزمت تركيا فى هذه الحرب بما كان فيها من الشقاق المستمر الذى صرف نظرها عن الاحتياط لحفظ ثغورها ؛ نسى بوانكاره بلاغه هذا الرسمى الذى كتبه باسم الدول ، وكان من جملة المساعدين للبلغار واليونان والسرب على اقتسام تركية أوربا . وكان مراد الدول - لاسيا انكلترة وفرنسا والروسيا - إلحاق ألبانيا أيضا بمكدونية وإعطاء جنوبيها لليونان ، وشماليها للسرب ، لولا معارضة النمسا وإيطاليا فى ذلك . فالنمسا كانت دائما تجتهد فى منع اتساع مملكة السرب ، وقد كان هذا من أكبر عوامل الحرب العامة ، وإيطاليا نفسها كان من مصلحتها حفظ ألبانيا للارناؤوط ، فلذلك بعد الحرب البلقانية وافقت الدول على تأسيس استقلال خاص لالبانيا ، ولكن بعد شدة عظيمة كادت النمسا فيها تقتتل مع الروسيا ، غير أنهم ظلموا الارناؤوط أيضا إذ أن هذه الامة تبلغ نحواً من ثلاثة ملايين يسكنون على ساحل بحر الادرياتيك بين الجبل الاسود من الشمال ، واليونان من الجنوب ، ومكدونية من الشرق ، وهم كتلة واحدة كلهم أرناؤوط ، ولسانهم هو اللسان الارناؤوطى ، وإن كان الثلثان منهم مسلمين ، والثلث الثالث كاثوليكيين وأرثوذكسيين .

وعلى كل حال فبعد أن تقرر إخراج الدولة العثمانية من أوربا وجب أن يُعطى الأرناؤوط البلدان التي هم فيها أكثرية السكان وهى ؛ ولايات يانيا ، واشقودرة وقوصوه ، ومَنَسْتر ، لاسيا أن الأتراك المسلمين كانوا بعد خروج الدولة العثمانية من الروملّلى يفضلون الانضمام إلى الأرناؤوط حتى يتخلصوا من حكم البلغار واليونان والسرب فالذى حصل فى مؤتمر لندرة بعد الحرب البلقانية بتأثير الروسيا ، ومساعدة فرنسا لها لم يكن مطابقا لحقوق الأمم من الجهة التى يقال لها « الاتنوغرافية » بل بشدة الحاح النمسا ، وموافقة إيطاليا جعلوا بلاد الأرناؤوط المستقلة عبارة عن ولايتى يانيا وشقودرة وألحقوا منهما شيئا للجبل الأسود ، وشيئا لليونان ، وكل الذى بقي للمملكة المستقلة لا يزيد عدد سكانه على مليون واحد . والحال أن جنوبى يوغوسلافيا لاسيا ولاية

قوصوه مأهول بالأرناؤوط ، فلذلك يوجد الآن من الأرناؤوط ضمن مملكة يوغسلافيا وعلى حدود ألبانيا أكثر مما يوجد فى ألبانيا نفسها ! ! وهذه من المسائل التى لم تصب فيها الدول ، وإنما كان الاعوجاج فيها هو بسبب تعصب الروسيا للسربيين . وستكون هذه من أسباب تجدد الحروب فى شبه جزيرة البلقان .

ولما كان الاختلاف شديداً بين العناصر المسيحية فى البلقان الرومى والسلافى والبلغارى ؛ ففى زمن السلطان عبد الحميد سعت الروسيا كثيراً فى التأليف بينهم حتى يتمكنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك ، ولكن السلطان عبد الحميد بدهائه و يقظته كان دائما يمنع الاتفاق بينهم ، ويستميل هذا العنصر تارة ، وذاك العنصر أخرى . أما جمعية الاتحاد والترقى فاغترت بقوّتها وظنّت أن اعلان الدستور قد نفى كل خطر عن السلطنة ، ونامت عن مراقبة السياسة الخارجية ، بل بلغ غرور بعض أعضائها فى أول الأمر أن اعتقدوا حركات البلغار واليونان والسربيين لخلع الحكم العثمانى إنما السائق فيها مجرّد سوء الادارة العثمانية ، وأنه لو اصطلحت الادارة العثمانية لأخلد هؤلاء إلى السكون ! وحقيقة الحال أن هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتى يطردوا الاتراك من شبه جزيرة البلقان ، وأن المسألة عندهم تاريخية محضة لا تعلق لها بالادارة فى حسنها وعدمه . فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول ، فيجب أن أن تخلو تماماً من المسلمين مرة ثانية . هذه هى فكرتهم الحقيقية وأوربا كلها تميل إلى هذه الفكرة ، ولما افتتح البلقانيون سلانيك قال أحد وزراء الانكليز : لا يمكننا إلاّ أن نفرح باسترجاع المسيحيين للبلدة التى بها ابتدأ انتشار النصرانية .

و إذا رجعنا إلى الحقائق نرى أن الحرب الصليبية و إن كانت غير مستمرة إلى اليوم تحت هذا الاسم كما كانت فى القرون الوسطى ؛ فهى مستمرة بالفعل ، بالروح نفسها و إن كان قد تغير الاسم ! وكل بلاد وجدت تحت حكم المسيحيين فى الغابر تجتهد الدول الأوربية فى إخراجها من تحت حكم المسلمين ولو كان مضى على ذلك بضعة عشر قرناً ، أي أن الأندلس تمثل فى كثير من البلدان وليست هى منحصرة

فى اسبانيا ، فالمسلمون ليس لهم إلا القوة ليحافظوا على أنفسهم ، ولما كانت الدولة العثمانية قوية تغلبت ليس على بلاد اليونان والبلغار والسرب فقط ؛ بل على بلاد رومانيا ، والمجر ، وخرواطية ، وقسم من بولونيا ، وحاصرت فينّا مرتين . فلما حل بها الضعف صارت تتقلّص شيئا فشيئاً إلى الجنوب حتى لم يبق لها فى أوائل هذا القرن غير الولايات الست التى تقدم ذكرها ، ولم يكن من المأمول أن تحفظها إلا بالقوة القاهرة .

حدثنى حسين حلمي باشا الصدر الأعظم السابق وهو الذى كان مفتشا عاما للولايات المذكورة يوم أُعلن الدستور العثمانى أن السر أدوارد غراى ناظر الخارجية الانكليزية المشهور سأله : ألاَ يوجد طريقة تنحلّ بها مشكلات مكدونية ؟ فأجابه: نعم يوجد طريقة وهى أن يكون عندنا نحن الأتراك القوة اللازمة لكسر البلغار واليونان ، والسربيين ، والجبل الأسود فى وقت واحد ، وليس من طريقة غير هذه .

هذا وقد كان السعى في جمع كلمة الدول البلقانية الاربع قديماً . وسنة ١٨٨٨ قدّم أمير الجبل الأسود نيقولا لائحة الى قيصر الروسيا تتضمن وجوب تحالف هذه الدول ضد تركيا تحت حماية القيصر ، وسنة ١٨٩٣ صارت مكالمة بين اليونان والبلغار فى هذا الصدد ولكن لم تسفر عن نتيجة ، ثم إن البلغار والسربيين اتفقوا على ذلك وبقى الخلاف بين السرب والجبل الاسود ، فتوسط البلغار بين الفريقين ومهّدوا العقبات فبقى ناقصاً دخول اليونان في الاتحاد ، فالذين من اليونان قاموا بالسعى الحثيث للائتلاف مع البلغار برغم ما كان بين الفريقين من نقط الخلاف هم « باناس » سفير اليونان فى صوفيا ، و « فنزيلوس » رئيس نظار اليونان . وكان إهمال الاتحاديين للسهر على هذه المسألة من جملة أسباب اتفاق البلقانيين ، حتى أنه لما علم السلطان عبد الحميد المخلوع بخبر الاتحاد البلقانى هذا هزّ برأسه وقال : كم من مرّة أوشك هذا الاتحاد أن ينعقد وسعيت كل سعى حتى منعتُه ! قال هذا عند ما جاؤا ينقلونه من سلانيك إلى الاستانة ، فسأل عن السبب فقالوا له : إن دول البلقان الاربع تحالفن على تركيا والحرب قريبة الوقوع . وفى ١٣ مارس سنة ١٩١٢ انعقدت أول محالفة بين السرب والبلغار .

ضد تركيا . وفى ٢٩ مايو من السنة نفسها انعقدت المحالفة بين البلغار واليونان ، ولكن الأولى كان أمدها ست سنوات ، أما الثانية فكانت لثلاث سنوات . وفى ٥ اكتوبر من تلك السنة ذهب « دانف » رئيس مجلس النواب البلغارى إلى « ليفادية » فى القريم فأخبر القيصر الروسى والمسيو سازونوف ناظر خارجيته بانعقاد جميع المحالفات اللازمة بين البلقانيين ، وانحلال جميع العقد التى كانت تفرق بينهم ، لأن القيصر كان هو الحَكَم فى ما اذا اختلفوا . وفى ذلك الوقت كانت ثورة الأرناؤوط أجبرت الدولة العثمانية على منح الارناؤوط بعض امتيازات رآها البلقانيون مضرة بهم ، فلما تحققت الدول أن الحرب بين البلقانيين وتركيا واقعة لامحالة ؛ توسطت النمسا فى الخلاف تفاديا للحرب وذلك على أساس إدخال الاصلاحات فى بلاد الروملى ، وأن تكون هذه الاصلاحات تحت إشراف لجنة دولية .

وبينما الدول فى المذاكرة حتى تمنع الحرب ؛ إذا بأمير الجبل الأسود يعلن الحرب على تركيا فى ٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وفى ١٣ منه عالنت الدول الثلاث اليونان والسرب والبلغار الدولة العثمانية طلب الاصلاحات فى الروملى بحسب المادة ٢٣ من معاهدة برلين ، وطلبت تفريق العساكر العثمانية المرابطة فى الروملى . وكانت مذكرة هذه الدول فى شكلها غير مقبولة ، فلم يبقَ أمام تركيا سوى إعلان الحرب . ولكن كامل باشا كان يرجو فصل اليونان عن الاتحاد البلقانى بالنزول لهم عن جزيرة كريت ، فذهب سعيه سدى لأن فنزيلوس أبى بتاتاً أن ينفصل عن حلفائه فنشبت إذاً الحرب .

وكان البلغار مستعدين للقتال من زمن طويل ، فزحفوا بمائتين وخمسين ألف مقاتل من أحسن الجيوش تدريباً ، وأكملهم عدة ، ولم يكن عند الدولة جيش متقن التدريب كهذا الجيش ، بل كان من أغلاط السلطان عبد الحميد التى لا يمكن التمارى فيها منع التمرينات العسكرية خوفاً من انتقاض الجيش عليه ، واستمر هذا طول مدة سلطنته . فالعسكر الممرّن الذى كان فى زمن عمه السلطان عبد العزيز ، والذى بمثله انتصر عثمان باشا على الروس فى بلفنة ، واحمد مختار باشا فى القوقاس ؛ ذهب ولم يقم

مقامه عسكر آخر مثله . فجميع العسكر فى زمن عبد الحميد لم يكن يعرف شيئاً من التمرينات التى كانت فى زمن عمه ، فكان الفرق إذاً كبيراً بينه و بين العساكر البلقانية . ولما جاء الاتحاديون وخلعوا السلطان عبد الحميد أرادوا إصلاح الجيش بعملية سموها عملية التصفية ، فأخرجوا إلى التقاعد جميع الضباط القدماء الجرّ بين ووضعوا مكانهم شباناً خالين من التجربة ، وبعبارة أخرى انحلّ الجيش القديم ولم يمضِ الوقت الكافى حتى يتكوّن جيش جديد . ومن جملة أسباب الضرر الذى وقع هو اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ، وانصرافهم عن واجباتهم إلى إحداث القلق فى المملكة ، والانتصار لفئة على فئة مما يجب أن ينزّه الجيش عنه .

فصار الجيش العثمانى بعد اعلان الدستور أشبه بجيش الانكشارية القديم فى الفوضى ، فهذه الفرقة تخرج عن الطاعة وتنحاز إلى العصاة مثلا ، وهذه الجمعية من ضباط الجيش تطلب إسقاط الحكومة وحلّ المجلس ، وهذه الفرقة الأخرى تهجم على مجلس الأمة وتسفك دماء بعض المبعوثين و بعض النظار بتحريك خفى من رجال السياسة ، وكم وقع من قتل جنود لضباطهم ، وعصيان ضباط على قوادهم .

نعم أن فون غولتس باشا الألمانى كان هو والضباط الذين معه أصلحوا كثيراً من حالة الجيش فى تركيا ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يمنع التمرينات العسكرية خوفاً على نفسه ، وكانت هناك مصالح ضرورية للجيش ، وكانت هى بغاية الاهمال وهى مثل مصلحة الاعاشة . ومصلحة الصحة ، ومصلحة إركاب العساكر فى السكك الحديدية ، وغير ذلك مما لا غنى عنه في الجيوش العصرية . وأضف إلى كل هذه النواقص أن الدولة فى حرب البلقان احتقرت البلقانيين أشد الاحتقار ، وظنّت أنها فى شهر من الزمن تمزّق شملهم كل ممزّق ، حتى أن ناظم باشا ناظر الحربية أعلن الضباط وجوب أخذهم ألبستهم الرسمية إلى ميدان القتال ، حتى اذا دخلوا صوفيا و بلغراد وأثينا ووقع عرض الجيش يكونون بألبستهم الرسمية ، كأنّ أمر الظفر عنده كان لا يتطرق إليه الشك ، وهذا أشبه بزبيدة أم الأمين عند ماأعطت قائد جيش ولدها قيداً من فضة وقالت له : إن المأمون هو من أولاد الخلفاء ، ومتى وقع فى يدك

فلا يصح أن تقيده كما تقيد سائر الأسرى « أي بالحديد » فأنا أعطيك هذا القيد من الفضة لتقيده به ، عند ما يقع في الأسر . فكان من الأمر أن المأمون هو الذي قهر الأمين وأخذ منه الخلافة ، ثم قتل الأمين في المعمعة . ثم بناء على هذا الاستخفاف لم تستنفر الدولة الجيوش التي لها في سورية ، ولا في العراق ، ولا في شرق الأناضول حيث كانت تخشى ثورة من جهة الأرمن ، فاقتصرت على جيش الروملي وعساكر قسم من الأناضول . ولم يكن جيش الروملي كله ليجتمع ، لأن الأرناؤوط كانوا في حال ثورة ولم يقاتلوا في هذه الحرب إلا قتال عصائب ، وبهذا كان عدد الجيوش البلقانية أعظم من عدد الجيش العثماني ، ففي كل من الساحات الثلاث أي ساحة تراقية الشرقية أمام البلغار ، وساحة مكدونية العليا أمام السرب ، وساحة سلانيك أمام اليونان ؛ كان الجيش العثماني أقل عدداً وأقل معدات من أعدائه . وفي ١٨ اكتوبر زحف البلغار لأخذ أدرنة فلم يتمكنوا من ذلك ، ولكنهم ظهروا على الأتراك في ناحية طونجة . وكان عبد الله باشا في ٢٠ و ٢١ اكتوبر أعطى الأمر بالهجوم بدون أن يؤمّن خطاً للرجعة ، فارتكب في ذلك خطأ حربياً ظهرت نتيجته حالا . وفي ٢٢ اكتوبر تلاقت الفرقة السادسة من الجيش الرابع العثماني مع فرقة من الجيش الاول فلم تعرف إحداهما الأخرى وترامتا بالنيران ، إذ كل فرقة منهما كانت تظن أنها بأزاء البلغار . فمن أول الحرب ظهر سوء القيادة في الجيش العثماني .

وكان محمود مختار باشا قائداً لشطر الجيش الثالث وهو ثابت في مركزه ، وإذا بالبلغار يهجمون على الجيش الذي على جناحه الأيسر هجوما فجائياً ضعضع الأتراك فانهزموا ، فحاول محمود مختار أن يصدّ البلغار ويوقّف الهزيمة ولكن كان الجنرال البلغاري ديمتريف جاء بدون أن يشعر به الأتراك أصلا فهاجم الجيش الذي على يمين محمود مختار ، فاضطر محمود مختار إلى التقهقر فانهزم المعسكر العثماني إلى قرق كليسة وهو الجيش الرابع ، ثم الجيش الثالث ، ثم حاول الجيش الأول أن يهاجم البلغار ليوقّف الهزيمة فلم يقدر على شيء بل تقهقر هو أيضاً . وكل هذا من عدم وحدة القيادة ؛ وعدم وجود خطة حربية مقررة . فكل فرقة وكل جيش من الأتراك كان يقاتل بدون أدنى صلة

مع رفاقه ، ولا علم له بما عليه سائر الجيوش العثمانية . لأن الأتراك فكروا أنه لا يلزم لهم إلاّ أن يقابلوا البلغار في أى مكان كان ، وفي أي وقت كان ، حتى يولّى هؤلاء الادبار ، فمن شدّة استخفافهم بالعدو تغلّب عليهم العدو . ولما تقهقر عبدالله باشا بجيوشه قسم منها إلى جهة « ڤيزه » والقسم الآخر إلى لولى بورغاز ؛ لم يكن بين القسمين أدنى صلة ، ولا كان الواحد يعرف ما عند الآخر ، ومحمود مختار باشا هو القائد الوحيد الذى كان مالكا حركة جيشه ، بحيث عند ما التزم إلى التقهقر تقهقر بانتظام حقيقي . وكان ناظم باشا ذهب بنفسه ليتولى القيادة العامة ، وناجز البلغار القتال فى « لولى بورغاز » « وقره أغاتش » . وزحف محمود مختار باشا مهاجماً للعدو على ظن أن عبد الله باشا يتمكن من نجدته بالجيش الاول والجيش الثانى ، فتمكن محمود مختار من أن يشطر فرقة الجنرال خريستوف إلى شطرين ، إلاّ أنه كانت وردت نجدات عظيمة للبلغار ، وفي الوقت نفسه انهزم الجيش الثانى العثماني ، فلم يقدر محمود مختار أن يتمم خطته بسبب الفشل الذى حلّ بسائر القوّاد ، لكنه بقى ثابتاً فى مركزه . فأمر ناظم باشا القائد العام بتراجع القوات كلها إلى « شركس كُوى » فتراجعت كلها ومن الجملة جيش محمود مختار .

ومن أغرب الامور أنه بقدر ما استخف الاتراك بالعدو فى البداية ؛ وقع فيهم الرعب بعد أن حلّت بهم الهزيمة الاولى فنكصوا جميعهم إلى «شطلجه» . ولما علمت الجيوش العثمانية التى فى تراقية الغربية وفى مكدونية بالهزيمة التى وقعت فى تراقية الشرقية ؛ تلاشت قوتها المعنوية . وكان قائد الجيوش العثمانية فى مكدونية هو على رضا باشا ، فانكسر أمام السربيين فى « بورنيڤو » وفى « قوصوه » وفى « كومانوڤو » وهى هزيمة كان أكثر السبب فيها أن عصائب الأرناؤوط فى أثناء المعركة انسلّت من ميدان القتال مدبرة فوقع الفشل فى الجيش كله . وصارت المعارك هناك عبارة عن سلسلة هزائم ، تتلو إحداها الأخرى بدون أن يوفّق الترك فى معركة واحدة إلا ما ندر فسقطت المراكز التركية المهمة مثل قوصوه ، ومناستر ، وأسكوب ، وجميع البلاد التى تتبعها ، وكل هذا بين ٢٣ اكتوبر و١٨ نوفمبر . ولو قيل إنه لم تقع مع تركيا حرب

أشأم من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم تكن فى هذا القول مبالغة . وكان القائد الوحيد الذى حفظ جيشه هو جاويد باشا ، فانه لولا انهزام عصائب الارناؤوط فى واقعة « كومانوڤو » مع السربيين لكانت الغَلَبَةُ فى تلك الوقعة للترك ، وكان الخبر وصل إلى الاستانة بأن السرب انهزموا فيها انهزاماً نهائياً ، ولكن المعركة انتهت بعكس ما ابتدأت . وكان جاويد باشا هزم اليونان فى إحدى الوقائع ، وتمكن من اللحاق ببلاد الأرناؤوط مع جيشه ، إلا أن الأرناؤوط كانوا عند ما رأوا هزيمة العثمانيين قد فصلوا أنفسهم عن الدولة ، وأسّسوا فى « ڤالونة » حكومة موقتة بمساعدة النمسا وإيطاليا .

وأمام جهة الجيش اليونانى فانه لم يكن أمامه إلاّ قوة تركية ضئيلة ، فكان الجيش اليونانى يتقدم إلى الأمام قاصداً سلانيك ، وكان تحت قيادة ولى عهد اليونان ستون الف جندى يقابلها ٢٥ الفاً من الاتراك ، ولكن الترك ثبتوا برغم قلة عددهم ثباتاً عظيما ثم تقهقروا إلى الوراء لأن السربيين والبلغار كانوا اتصلوا باليونان ، واضطر تحسين باشا إلى تسليم « سلانيك » لهؤلاء . وكان جاويد باشا تغلب على اليونان فى وقعة «سيروڤيتش» التى استمرت يومين وانتهت بهزيمة اليونان فى ٥ نوفمبر ، إلاّ أنه وردت إمدادات عظيمة لليونان فتمكن بها ولى العهد اليونانى من الاقبال بعد الادبار . فتراجع جاويد باشا إلى « مناستر » وهناك هاجمه السربيون وجرت وقائع بين بقايا الجيوش العثمانية والسربيين واليونانيين والبلغار لم يقدر الترك أن ينالوا فيها كلها خيراً بعد أن انخذلت قواهم المعنوية ، وتقطع ما بينهم ، لأن البلغار كانوا استولوا على « ديموطقه » فقطعوا ما بين الاستانة وبين مكدونية ، واستولى الذعر على الدولة نفسها فى الاستانة فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يفعلون ، وكان عندهم جيوش كثيرة فى المملكة لا تزال فى أراضيها ، وإنما كانوا فى جمود تام بسبب الفشل غير المنتظر ، فلم يفكّروا فى استجماع قواهم . وكانت الادارة أشبه بالفوضى ، وقد رأينا ذلك بأعيننا ، وكان الهلال الأحمر المصرى أرسل بعثة عظيمة إلى الأستانة فيها المرحوم محمد باشا الشريعى ، والمرحوم كامل باشا جلال مفتشان ، وجاءنى أيضاً كتاب من رئاسة الهلال الأحمر المذكور

بأن انضم اليهما مفتشاً ثالثاً ، كما أن لجنة الاعانة المصرية التي يرأسها الأمير « عمر طوسون » كافتنا بتوزيع الاعانات على مهاجري المسلمين الذين فرّوا من الروملي إلى الاستانة بعد انهزام الجيوش العثمانية ، فكنا نحن الثلاثة المفتشين مضطرين أن نتصل برجال الدولة كل يوم لأجل تسهيل مهمة الهلال الأحمر ، ومهمة توزيع الاعانات على المهاجرين ، فشاهدنا من آثار الفوضى في الادارة ما لا يصدّقه العقل ، وذهبنا في نهار جمعة إلى نظارة الحربية للمراجعة بمصالح مستعجلة فلم نجد في نظارة الحربية أحداً وقيل لنا : أفلا تعلمون أن دوائر الحكومة لا تشتغل نهار الجمعة ! فقلت : كلا ! إن الدولة التي يحل بها من المصائب ماحل بها هذه المرّة لا يحق لدوائرها أن تتمتع براحة يوم الجمعة ! نعم عند ما كنا نذهب إلى الباب العالي كنا نجد كامل باشا الصدر الأعظم دائماً حاضراً ، وكنا دائماً نراجعه في أيام الجمعة أيضاً ، وكان يبيت في الباب العالي بقرب مكتبه برغم علو سنّه . وجاءنا مرة الخبر بأن أربعة آلاف عسكري في سان استفانو قد أصيب أكثرهم بالكوليرة ، لأن من جملة مصائب الدولة في هذه الحرب أن الكوليرة تفشّت في عساكرها تفشّياً فظيعاً ، وفتكت بهم فتكاً ذريعاً فقيل لنا إن هؤلاء العساكر الذين في سان استفانو على مقربة من الاستانة مطروحون بالعراء بدون خيام ولا بيوت يأوون اليها ! وكان ذلك في وسط زمهرير الشتاء ، فذهبنا أنا ورفاقي إلى كامل باشا وأخبرناه بالخبر ، ورويناله ما سمعناه من أن نصف هؤلاء الجند قد ماتوا ، وأن رفاقهم جالسون إلى جانبهم في انتظار الموت ، فأعطى الأوامر اللازمة إلى الحربية حتى يرسلوا إلى سان استفانو الأطباء والممرضين وجميع اللوازم لأجل معالجة هذه الحالة ، ولكننا ثاني يوم لحظنا أنه لم يحصل شيء ، فقلت لزملائي : إن كنتم تنتظرون في أثناء هذه الفوضى إغاثة الدولة لهؤلاء العسكر فاعلموا أنه لا يذهب إلى هناك أحد من الأطباء والممرضين حتى يكون العسكر قد قضوا نحبهم جميعاً ، وعليه يجب أن نبادر نحن بالعمل ، فأرسلنا في اليوم نفسه النجارين وحملوا الأخشاب اللازمة وبنوا للعساكر بيوت الخشب ، وأرسلنا اليها الأسرّة والأغطية اللازمة ، والاطباء

والملايين والأدوية ، وكل هذا تمّ في ثلاثة أيام ، وبعد ذلك جاء المأمورون العثمانيون فوجدوا كل شيء خالصاً ، وعلى هذا يمكن أن يقاس غيره .

ونعود إلى تاريخ هذه الحرب المشئومة التي انتهت بها ولاية الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان فنقول : إنه بعد أن انهزمت الجيوش العثمانية في تراقية الشرقية وتراجعت إلى « شطالجة » وتشتت العسكر العثماني في تراقية الغربية ، ومكدونية بقيت بلاد الارناؤوط لم يحتلها العدو ، و بقيت القوة هناك أيضاً ضعيفة ، فتقدم اليونان من جهة الجنوب وما زالوا يهزمون أمامهم تلك الشراذم المتفرقة حتى وصلوا إلى «يانيا» وأخيراً استولوا على يانيا . ثم إن السربيين وعساكر الجبل الأسود استولوا أيضا على عدة مواقع من شمالي البانيا ، غير أن الأرناؤوط صدوهم عن « شقودرة » .

أما من جهة البحر فقد كان الاسطول العثماني انحطّ انحطاطاً عظيما ، وكان السلطان عبد الحميد يخشى الاسطول كما يخشى الجيش البرّي ، وكان يكره العساكر البحرية أكثر مما يكره العساكر البريّة ، لأنه يتذكر أنه لما خلعوا عمه السلطان عبد العزيز في سراي طولمه باغجة التي على ساحل البحر نظر السلطان إلى البحر فوجد الاسطول واقفاً أمامه ، مع أن عبد العزيز هو الذي أنشأ الأسطول ، وكان عبد العزيز شديد العناية به ، وكانت الدولة في زمانه دولة بحرية من الدرجة الثالثة .

ولما جرت الحرب العثمانية الروسيّة كان البحر الاسود كله في يد الدولة ، ولكن السلطان عبد الحميد أهمل الأسطول إهمالا تاماً ، فما زالت قوة تركيا البحرية في أيامه تنحط حتى صارت دولة اليونان أقوى منها في البحر ، و بعد خلع عبد الحميد اشتغلت الدولة بالفتن الداخلية ، وقامت الأحزاب تتناحر فيما بينها ، فلم يكن عند الدولة وقت لاصلاح الأسطول . فلما نشبت الحرب البلقانية أدركت الدولة عظم الضرر الذي جرّه عليها إهمال الاسطول ، وذلك بأنها بسبب ضعف أسطولها لم تقدر أن تستحضر جيش سورية من طريق البحر خوفاً من أن الأسطول اليوناني يتعرّض للبواخر التي تنقل الجيش من سواحل سورية وكيليكية إلى الأستانة أو الروملي ، ولم تكن يومئذ بين الأناضول وسورية سكك حديدية متصلة حتى يمكن نقل العساكر برّاً . فجيوش

البلاد العربية بقيت جميعاً فى أرضها . وعدا هذا فقد استولى اليونان على جزائر الأرخبيل . نعم أن الأسطول اليونانى لم يجرأ أن يناطح حصون الدردنيل التى عجزت عنها جيوش الحلفاء الجرارة فى الحرب العامة ، ولكنه استولى على جزيرة لمنس وانبروس ، ومدلّى ، وساقس ، وسائر الجزر . وخرج الأسطول العثمانى من الدردنيل لمنازلة الاسطول اليونانى ، وألحق الأول بالثانى خسائر مهمة ، لكنه لم يتمكن من غلبة ظاهرة ، فرجع إلى الدردنيل محتمياً بالحصون .

وكان حسين رؤوف بك يومئذ قائداً لبارجة اسمها « حميديّة » فأشار بالكرة على الأسطول اليونانى فلم يقبلوا كلامه ، فخرج وحده ببارجته حميديّة واخترق نطاق الحصر اليونانى ، وجاء إلى بلاد اليونان ودمّر مينا « سيرا » وأغرق عدة بوارج لليونان ، وعجز الاسطول اليوناني عن مطاردته ولكنه كان يتجنّب الانتظار فى مكان واحد خوفاً من أن تجتمع قوة اليونان البحرية عليه . فكان ينتقل من مكان إلى آخر ، وكلما صادف لليونان سفينة أغرقها . وقد أخبرنى هو أنه كان ذهب إلى مرسى مالطة ونزل إلى البر ، ودعاه القائد الانكليزى واحتفى به ، وبينما هو على مائدته أخبروه بأن عدة سفن حربية لليونان وصلت على مقربة من مالطة تترصد خروجه لأجل الايقاع بحميديّة ، وقال لى : إنه لم يعتقد تلك المرة إمكان النجاة لأنه بسفينة واحدة لا يقدر أن يتغلّب على عدة سفن ، وإن كان يمكنه أن يدمّر بعضها فخرج من مالطة متوجسا الخوف وسار ببارجته أمام البوارج اليونانية ولم يجرأوا أن يتعرضوا له ! .

ورؤوف بك هذا هو الذى صار فيما بعد ناظراً للبحرية فى أيام الحرب العامة ، ثم بعد الحرب العامة كان من أكبر رجال تركيا الذين نهضوا بها ، وقاوموا معاهدة « سيفر » ونظّموا المقاومة العسكرية فى الاناضول ، وبعد استقلال تركيا تولّى رئاسة الوزارة فى أنقرة ، ولكنه لم يوافق مصطفى كمال على سياسته الداخلية وخروجه على قواعد الاسلام ، فاختلفا وأدّى الأمر إلى مغادرته تركيا ، فأقام فى فرنسا عدة سنوات ذهب في خلالها الى الهند ، ثم فى هذه السنة ١٩٣٥ دعته الحكومة التركية إلى العودة

وألحّوا عليه فأجاب الدعوة ، ولـكن على شرط أن يبقى بعيداً عن السياسة .

ثم نعود إلى الحرب البلقانية فنقول : إن سبب الفشل الفظيع الذى حل بتركيا فى تلك الحرب كان إقدام الأتراك على القتال بدون استعداد كاف ، وعلى ظن أنهم بمجرد اللقاء يهزمون البلقانيين كما هزموا اليونان سنة ١٨٩٤ ، فهاجموا البلغار فى تراقية بدون منهاج حربى معيّن ، معتقدين أنهم سائرون إلى تأديب رعية ثائرة ، والحال أن الجيش البلغارى كان على تمام الاستعداد من كل جهة . فلما انكسر الترك فى هذه الجهة فى الصدمة الاولى انـكسرت جميع قواهم المعنوية دفعة واحدة ، وصارت هذه الحرب عبارة عن سلسلة مصائب . على أن البلغار كانت لحقت بهم خسائر عظيمة ولما وصلوا أمام « شطلجة » كان القتال قد برّح بهم ، فلما هاجموا الأتراك فى شطلجة لم يقدروا عليهم . وكان هؤلاء قد تنبهوا للخطر المحدق بهم وتأملوا فى فظاعة دخول البلغار إلى الاستانة ، وأفاقوا بعض الشيء من عماياتهم الحزبية التى كانت إلى ذلك الوقت هى شغلهم الشاغل ، وأرسلت الحـكومة عدداً من الوعّاظ إلى شطلجة يثيرون الحميّة الدينيّة فى رؤس العساكر ، وهذا خلاف ما كانوا عوّلوا عليه من قبل . فانه لما بدأت الدول البلقانية الأربع بالقتال أعلنت فى مناشيرها الرسمية أنها فى حربها هذه إنما تباشر حرباً صليبية ضد الهلال ، وصارت من أول الحرب على هذه الخطة ؛ ولـكن الدولة العثمانية تجنّبت فى مناشيرها مقابلة البلقانيين بالمثل ، وتحاشت فى هذه الحرب كل صبغة دينية . وبقيت كذلك إلى أن دارت عليها الدائرة فأرسلت إلى الجيش المرابط فى شطلجة الوعّاظ وخطباء الجوامع يستفزّون حمية الجنود باسم الاسلام الذى أصبح على شفا جرف هار ، وكان الجنود من أنفسهم أدركوا أنه لم يبق أمام البلقانيين ليقضوا على الدولة سوى عقبة شطلجة ؛ فاستجدّوا عزائمهم ، ونظراً لضيق خط الدفاع ـلأن شطلجة أشبه ببرزخ واقع بين البحر الأسود من الشرق، وبحر مرمرة من الغربـ تمـكن الجيش العثمانى من الثبات فيه برغم هجوم البلغار الشديد ، بل عند ما هجم هؤلاء دحرهم الاتراك وألحقوا بهم خسائر فادحة . وحاول البلغار مهاجمات أخرى فانـكسروا فيها .

وكان قد وصل من اليمن الجنرال أحمد عزّت باشا وهو من أمهر القوّاد العثمانيين وأوفرهم علما، وأوسعهم بصيرة، فذهب وشاهد حالة الجيش المعنوية والمادية فى شطلجة، وحادثته بعد رجوعه منها هل هناك أمل فى إمكان المقاومة بعد هذا الذعر الذى حل بالجيش ؟ — وكان عنده عبد الهادى باشا الفاروقى وهو من القواد المعروفين — فقال لى : إن الجيش يقدر على المقاومة، نعم لا يعرف كل شىء يمكن أن يجد فى أثناء القتال. ولكن الحالة الحاضرة التى رأيتها فى شطلجة تؤذن بالتأكيد أن البلغار لا يقدرون أن يخرقوا هذا الخط، وأن يدخلوا الى الاستانة، وكان كامل باشا قد باشر المساعى فى طلب الصلح، ولا شك أنه طلب الصلح راضياً بشروط البلقانيين الثقيلة، فجاء الجنرال محمود مختار باشا الى الاستانة ونهى الدولة عن هذا التهوّر فى طلب الصلح، وأكّد لها بأن الأعداء لم يقدروا أن يخرقوا خطوط شطلجة.

ولم أشاهد محمود مختار بنفسه ؛ ولكن شاهدت والده الغازى مختار باشا، وشكا لى أعظم الشكوى من فسولة القوّاد الذين تولوا تلك الحرب، واستيلاء الرعب عليهم وقال لى : لولا محمود لدخل البلغار الأستانة، ولكن محمود كان السبب فى تثبيت قوة الجيش، وفى منع هذا الهلع الذى استولى على الدولة. وكان كامل باشا قال للسلطان محمد رشاد : إنه يكون الأوفق انتقال جلالته إلى بروسة خوفاً من دخول البلغار إلى الاستانة ؛ فأجابه السلطان : إننى لا أتحرك من مكانى، فاذا كان لم يبق أمة عثمانية قادرة على منع سقوط سلطانها أسيراً فلا مانع عندى من السقوط أسيراً ! وقد جرّب البلغار بكل قواهم أن يزحزحوا الأتراك عن مواقفهم فلم يقدروا على شىء.

فالرواية التى يذيعها بعض كتاب الاوربيين بأن الروسيا هى التى منعت البلغار من دخول الأستانة، ولولا ذلك لدخلوها هى غير صحيحة. وقول القائد العام للجيش البلغارى : إننا لو أردنا أن نخرق خطوط شطلجة لأمكننا ذلك، لكن لا نريد أن نتجشم خسائر الهجوم الفادحة بدون فائدة مادية ؛ هو كلام تَبَجُّح ليس عليه أدنى دليل. بل البلغار بعد أن دحرهم الأتراك صاروا يخشون أن يعود الأتراك فيكروا عليهم ويخسروا ثمرات انتصارهم، لا سيما أن الدولة كانت بدأت تستدعى قواها

التى كانت متفرقة وتجمعها فى شطلجة ، ومن جملة من زعم أن البلغار إنما ثبطهم عن دخول الاستانة نهى الروسيا لهم عن ذلك هو المسيو « دولاجونكيار » صاحب تاريخ السلطنة العثمانية .

Histoire de l'Empire Ottoman depuis les Origines Jusqu a nos Jours por le Vte de la Jonquière

وهو المطبوع فى باريز سنة ١٩١٤ وهو تاريخ غريب الشكل جداً ؛ كتابته من من أولها إلى آخرها تحامل على الأتراك وعلى الاسلام جميعاً ، ونقص من مزاياهم وبخس من أشيائهم ، وتحريف للوقائع عن حقائقها ، وليس يخلو سطر واحد من هذا الكتاب من عبارة بغضاء تخرج من فم مؤلفه مما هو مخالف لشروط التاريخ . ومع هذا فالفرنسيس يعتمدون على هذا الكتاب و يظنونه بالفعل تاريخاً للسلطنة العثمانية .

ثم نعود إلى قضية طلب الصلح فنقول إن البلغار لو كانوا علموا هم والسربيين أنهم يقدرون أن يناموا على ظفرهم هذا لما كانوا رضوا بالصلح ، بل كانوا مضوا فى الحرب إلى آخرها ليزدادوا ربحاً مادياً ، ومجداً معنويا ، ولكنهم علموا أن الدولة العثمانية قد تستجمع قواها وتهزمهم عن شطلجة ؛ وتذهب جميع مجهوداتهم سدى . فأما اليونان فأبو الصلح لأنه كان عليهم أن يستصفوا فتح البلدان التى يريدون ضمها إليهم ، ولم يكونوا يخشون استجماع الدولة قواها ، فأما فى البحر فلم يكونوا خائفين على سواحلهم ، لأن الأسطول العثماني كان أضعف من أسطولهم . أما فى البر فكان الجيش العثمانى لا يقدر أن يلتحم مع الجيش اليونانى إلا بعد أن يدحر الجيش البلغارى كله فى تراقية والجيش السربي كله فى مكدونية ، أما فى الاستانة فكان كامل باشا وحزبه مصممين على الصلح ، وكان الاتحاديون يريدون متابعة القتال حتى يغسلوا هذا العار الذى التحق بالدولة ، ولم يسبق له نظير لأنهم كانوا يقولون : إن تغلب دولة كالروسيا سكانها ١٦٠ مليوناً على تركيا التى سكانها ٢٦ مليوناً ليس بعجيب ولكن تغلب هذه الدويلات الصغيرة التى سكانها يومئذ لا يزيدون مجتمعين على اثنى عشر مليونا هو غير مفهوم ، ولا يجوز للدولة أن ترضى به بوجه من الوجوه إلا اذا

كانت ترضى بانحلالها التام . وكانوا يعدون الفشل الذى وقع فى الجيش العثمانى أشبه بقضاء نزل ، أو آفة سماوية لا ينبغى أن تكون قاعدة ، وعلى كل حال ينبغى متابعة الحرب حتى تسترد الدولة شأنها ، و إلا فلا حياة لها بعد ذلك . وذهب الأمير حليم سعيد باشا ، وطلعت بك إلى كامل باشا عند ما شاع عزمه على عقد الصلح وجادلاه طويلا حتى يصرفا نظره عن ذلك فقال لهما : إن الاتحاديين هم الذين أصروا على الحرب وهم الذين كانوا السبب فى هذه المصائب ، وأنه هو لا يريد أن ينقاد إلى آرائهم فرجعا بخفى حنين .

وفى ٣ دسمبر انعقدت المتاركة بين تركيا من جهة ، و بلغارية وسربيا والجبل الأسود من جهة أخرى ، وأبرق ناظم باشا ناظر الحربية من موقع القتال إلى كامل باشا بذلك وكانوا قرروا مباشرة المفاوضات الصلحية بعد عقد المتاركة بعشرة أيام وكانت أدرنة لا تزال محصورة لا يقدر الأعداء عليها ، فكانت شروط البلقانيين هي تسليم أدرنة ، ومناستر ، وشقودرة ، لأن المدن الثلاث لم يقدر البلقانيون عليها وكذلك كان اليونان يحاصرون يانيا ولم يقدروا عليها ، وطلب البلقانيون تخلية الجيش العثمانى لشطلجة ، وعدم إرسال قوة من قبل الدولة العثمانية إلى ساحات القتال فى أوربا ، وأجاب الترك برفض تخلية شطلجة ، و باقتراح تموين المدن التركية المحصورة و بعد أخذ ورد طويلين خيف فى أثنائهما من انقطاع المفاوضات اتفق ناظم باشا والجنرال ساڤوف البلغارى على أن تبقى العساكر العثمانية فى شطلجة ، وتبقى العساكر البلغارية والصربية فى مراكزها ، ويكون بين الفريقين منطقة متحايدة . ورفض اليونان الدخول فى المتاركة لأنهم كانوا يريدون فتح يانيا ، وكانت لا تزال ممتنعة عليهم .

ثم جاء ناظم باشا إلى الأستانة بعد عقد المتاركة وهو لا يشك أن الصلح واقع فذهب محرر هذه السطور لمقابلته وأبديت وأعدت معه فى أن شأن الدولة قد انكسر تماماً فى هذه الحرب ، وأن الدولة لا يمكن أن تحيى بعد أن انكسر شأنها إلى هذا الحد وأن الدولة لا يزال فى يدها قوى تقدر بها على تلافى مافرط ، وأن فى ولاياتها الأسيوية

عساكر كثيرة تقدر أن تجرّها إلى ميدان القتال وتستأنف الكرة ، وقلت له : إن البلقانيين بعصائبهم التي كانت تعيث في تراقية ومكدونية قد شغلوا الدولة أكثر مما شغلتها جيوشهم المنظمة ، فكان يجب على الدولة أن تقابلهم بالمثل ، وأن تأتي بجانب من القبائل الكردية والعربية وتبثها بشبه جزيرة البلقان ، فانه من الصعب جداً أن يستطيع البلقانيون تأمين البلاد التي احتلوها إذا شنّت هذه القبائل الغارات في أطرافها . فقال لي ناظم باشا : إن الصلح كان مقرَّراً ، والقتال لن يتجدد ، وعبارته هكذا بالحرف « غوغا تكرر إيتمية جكدر » أي أن القتال لن يتكرر . فأبديت له عدم اعتقادي كون الحرب انتهت ، وذهابي إلى أنه لا بد من أن تشتعل الحرب من جديد ، فعلى الدولة أن تستحضر جميع عساكرها الباقية في آسيا . وخرجت من عند ناظم باشا وأنا غير متعجّب من فشل الدولة في هذه الحرب .

وأما أحمد عزت باشا الأرناؤوطي الذي كان والياً في اليمن وجاء في آخر الحرب وكان لايصدّق بانكسار الجيش العثماني في ظروف الأحوال التي انكسر بها لكثرة ماراًى من أغلاط القيادة ، فقد كاشفته بما في نفسي من قضية جمع العساكر التي في آسيا ، واستنفار القبائل العربية والكردية ، فأجابني بالموافقة على الشق الأول ، وأما الشق الثاني فقال لي : كان هذا موافقا جداً لو وقع في أول الحرب ، أما الآن فلم يبق ميدان لشنّ هذه الغارات بعد أن احتلّ العدو جميع الروملي ، وانحصر الجيش العثماني في شطلجة . نعم قال لي هذا ولكنه رجع فيما بعد إلى رأيي . ولما استرجع الأتراك تراقية الشرقية وأدرنة كما سيأتي الكلام عليه ، واستدعت الدولة وفداً من سورية إلى الأستانة ثمانية أعضاء كنت أنا من جملتهم لبعض المذاكرات المتعلقة بالأصلاحات الداخلية ، دعتنا أن نذهب إلى أدرنة ونهنىء أهلها على الخلاص ، فشاهدت فريقا من القبائل مخيّمين غير بعيد عن البلدة وهم من قبائل العراق ، وكانوا بزيّهم العربي أي بالعُقُل والكوفيات ، وزرتهم في مضاربهم وشربت القهوة عندهم ، وعلمت أنه في الكرّة التي كرّها الترك على البلغار وأخرجوهم فيها من أدرنة كان لهذه القبائل بلاء شديد ، وكان مجرد مشاهدتهم قبل فعلهم يوقع الرعب في البلغار . ولو كانت

الدولة تنبهت لهذا الأمر وسحبت من بوادى الشام والزور والعراق ثلاثين ألف فارس من العرب والأكراد وجعلتهم ردءا للجيش المنظّم لما حلّ بها هذا الفشل العظيم الذى حلّ بها فى الحرب البلقانية ، ولكن الدولة استخفّت بأعدائها يومئذ استخفافا خُيِّل لها أنها ذاهبة إلى حرب لا يزيد على تأديب عصاة ! !

ولما جاؤا إلى المذاكرات الصلحية استندت الدولة على بيان البلقانيين أنهم لا يريدون من هذا الحرب إلا إصلاح إدارة البلدان التى يسكنها أقوام منهم، وأظهرت استعدادها لاعطاء مكدونية إدارة خاصة تحت مراقبة الدول ، فأجاب البلقانون بأنهم إنما كانوا رضوا بذلك الاقتراح أملا بتفادى الحرب ، والحال أن الحرب قد وقعت برفض الدولة لهذا المشروع فالآن هم يريدون العمل بنتيجة الحرب ، وهو إدخال إخوانهم فى ممالكهم رأساً ، ويطلبون غرامة حربية لتعويضهم مما تكلفوه ،وطلب البلغار أن تكون حدودهم خطاً يذهب من « ميديه » على البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل وتكون « قوَلَه » تابعة لهم . وطلب السربيون ولايتى « قوصوه » و « مناستر » . وطلب الجبل الأسود « شقودره » وتوابعها. وطلب اليونان جميع الجزائر وولاية يانيا ومكدونية السفلى داخلا فيها سلانيك وتراقية الغربية ، فرفض الأتراك هذه المطالب كلها ، وانعقد مؤتمر الصلح فى لندره وتواجهت الخصوم بعضها مع بعض .

وكانت الدولة حشدت ثلاثة جيوش أتت بها من آسيا ، وصممت أنها لدى الحاجة تزحف وترفع الحصار عن أدرنة التى كان البلقانيون عجزوا عن فتحها ، و بتوسط الدول رضيت تركيا أن تتخلى للبلغار عن بعض أماكن غربى أدرنة ، وأما من جهة جزائر الأرخبيل فرفضت أيضاً تركيا التخلى عنها لليونان ، واقترحت أن تترك للدول حل مسألة كريت . وأما البانيا فقد رضيت تركيا بأن يكون لها استقلال داخلى وأن تتعين حدودها بالاتفاق مع الدول ، فلما رأت الدول أن الدولة غير مستعدة لاجابة البلقانيين إلى مطالبهم ، وأن الحرب قد يستأنف نشوبها ، أرسلت إلى الدولة فى ١٠ يناير سنة ١٩١٣ مذكرة عمومية تنصح لها فيها بقبول مطالب البلقانيين ، و بالتخلى

عن أدرنة للبلغار ، وأنه يقع اتفاق على حماية مسلمى أدرنة ، وصيانة المساجد والمقابر الاسلامية التى فيها ، وأنه إذا كانت تركيا تصر على الحرب فهذه المرة يجوز أن الحرب تمتد إلى آسيا ، وأنه لا يمكن أن تقترض تركيا مالا من أوربا عند الاحتياج لأجل إصلاح ممالكها فى آسيا . وكان الاتحاديون معارضين أشد المعارضة فى الصلح على هذه الصورة ، وكانوا يقذفون بكامل باشا لجنوحه إلى السلم ، ويقولون لا يحق له أن يتخلى عن شبر من أراضى المملكة بدون قرار مجلس الامة ، والحال أن المجلس كان منفضاً . فأجمع كامل باشا على عقد مجمع كبير من رجال الدولة وأعيانها لاستشارتهم فى هذا الخطب الجلل ، وهى عادة قديمة عند الدولة بأنها فى الخطوب الكبرى تدعوا الوزراء الذين فى الخدمة ، والوزراء السابقين ، وقواد الجيش القائمين على الخدمة والمتقاعدين ، والعلماء الكبار ، ورؤساء الطرق ، وكبار أصحاب الأملاك ، وأعيان التجار والزراع ، ومثل هذا الديوان انعقد فى ديسمبر سنة ١٨٧٦ عند ما طلبت الدول وضع مكدونية و بلغاريا والبوسنة والهرسك تحت المراقبة الأوربية ، فرفض الديوان الذى انعقد يومئذ اقتراح الدول هذا ، وأدى ذلك إلى نشوب الحرب الروسية التركية . فالديوان الذى عقده كامل باشا هذه المرة لم يحل المسألة حلا نهائياً ، وانقضى بالمذاكرات على كيفية المقاومة . و بعد ذلك جاءت جماعة من الاتحادين إلى الباب العالى و بيدهم طلب يتضمن رفض تسليم أدرنة ، ودخل أنور إلى مجلس الوزراء يقدم هذا الطلب إلى الصدر الأعظم ، وفى أثناء وجوده داخلا حصلت جلبة أمام الباب العالى ، فخرج ناظم باشا ناظر الحربية وانتهر الذين كانوا يرفعون أصواتهم ليحدثوا الضوضاء ، فأطلق عليه أحدهم الرصاص فقتله . فخرج كامل باشا فوجد ناظم باشا صريعاً فاستقال من الصدارة بتلك الدقيقة ، وركب عربته وسار إلى بيته . وتولى الاتحاديون الحكومة تحت رئاسة محمود شوكت باشا بعد أن جاء أنور إلى سراى « طولمه باغچة » وحصل على الأمر السلطانى بذلك .

أما زعم بعضهم بان أنور هو الذى قتل ناظم باشا فليس بصحيح ، لأن كامل باشا نفسه روى فى مصر لمن حادثه من أصحاب الجرائد أن جماعة الاتحاديين اجتمعوا

أمام الباب العالى وكانوا نحواً من مئة شخص ، ودخل أنور عليه يقدم له الاحتجاج على تخلية أدرنة ، و بينما هو يقرأه سمع صوت الرصاص أمام الباب ، فخرج فوجد ناظم باشا صريعاً . إذاً أنور برىء من هذه التهمة بشهادة كامل باشا نفسه ، وأما كيفية قتل ناظم باشا و ياوره توفيق القبرصلى فقد اختلف فيها ، والأقرب أنه انتهر الجمع فأهانوه بالكلام فتصدّى ياوره للقبض على من استطالوا عليه فحينئذ أطلقوا الرصاص على الناظر والياور معاً وقتلوهما . و بعد ذلك وقع استعفاء الوزارة ، وذهب كامل باشا وجمال الدين افندى شيخ الاسلام إلى مصر ، وذهب فريد باشا الأرناؤوطى الصدر السابق أيضاً إلى مصر ، وشاهدتهم هناك ، وجرى بينى و بين فريد باشا جدال طويل فى سراى عابدين أمام جمال الدين افندى ، وكان صدره ملآن وغرا على الاتحاديين وكنت أقول له : إننى آسف من هذه المنازعات الحزبية فى أثناء ما البلغار مخيمون على أبواب الاستانة ، وأتأسف من تفكره والحالة هى هذه بعداوة الاتحاديين . فامتعض جداً مما واجهته به ، وشرع جمال الدين افندى شيخ الاسلام فى تهدئة روع كل منا .

ثم فى ٣٠ يناير سنة ١٩١٣ ردت الدولة الجواب على الدول وما ل مذكرتها الجوابية وهى من جهة أدرنة التخلى عن أحد شطريها وهو ما يقع على الضفة اليمنى من نهر المريج ، فأما الضفة اليسرى التى فيها المدينة الحقيقية فتبقى لتركيا ، وكذلك لم توافق الدولة على ترك جزائر الأرخبيل . ثم اقترحت على الدول الغاء الامتيازات الأجنبية التى تعرقل سير الاصلاح الادارى فى تركيا ، وطلبت أن يكون لها الحق بضرب المكوس التى تستلزمها الحالة ، وطلبت إضافة أربعة فى المائة على رسوم الجمارك وغير ذلك مما لم تجب إليه الدول . ولما رأى البلغار أن تركيا لاتريد تسليم أدرنة جددوا الحرب وهاجموا أدرنة ، وجددوا القتال أيضاً فى شطلجة ، و بولايير . بقرب الدردنيل ، ومع كون واقعة بولايير لم يوفق فيها الترك فانه كان يتعذر على البلغار أن يربحوا شيئاً من استمرارهم على الحرب . ثم إن الترك كسروهم فى واقعة كالكترية ، وكانت الدولة استجدت نشاطها ، وقطع البلغار آمالهم من التغلب عليها . نعم أن مدينة يانيا فى جنوبى البانيا كانت استسلمت للجيش اليونانى بعد حصار طال

عدة أشهر ، ولم يبق فيها قوة ولا ذخيرة فاضطرت حاميتها إلى الاستسلام فى ٥ مارس ومثل ذلك مدينة أدرنة التى اضطر قائدها شكرى باشا إلى تسليمها فى ٢٦ مارس فتكون مدة حصارها ستة أشهر وثمانية أيام ، كما أن مدة حصار يانيا كانت نحوا من أربعة أشهر وكل من البلدتين لم يتمكن البلقانيون من الاستيلاء عليها إلا بالجوع ولو كان فيهما الميرة الكافية والعلف الكافي للبنادق والمدافع ؛ ما كان في استطاعة البلقانيين دخولها . والدفاع الذى دافعه شكرى باشا عن أدرنة يبقى صفحة تاريخية باهرة فى تاريخ تركيا ، وطالما اقترح عليه البلقانيون تسليم أدرنة تحت شرائط شريفة فأبى ، وأجاب بأنه لايسلمها إلا ميتاً ، ولكن بعد أن نفذت الذخيرة ، وانتهى القوت ، لم يبق فى استطاعته المقاومة . وأما فى الحرب فقد حمل عليه البلغار والسرب مراراً عديدة ، وكانوا يرتدون على أدبارهم ، وقضى هو وأهالى أدرنة من الجوع وإعواز ضروريات الحياة شيئاً كثيراً علمت منه أنا بنفسى حقائق مرة يوم كنت مفتشاً للهلال الأحمر المصرى فى الاستانة مع محمد باشا الشريعي ، وكامل باشا جلال . وذلك أنه جاءنا رسول من قبل شكرى باشا فى أثناء الحصار يقول إنه إنسل من ادرنة خفية ومعه كتابة إلى الباب العالى يطلب مبلغ من المال لشراء حنطة للعسكر ، وأن الجوع قد ضرس العسكر بنابه ، ولم يجدوا مالا فى الخزينة ذلك الوقت . فهل من الممكن أن الهلال الأحمر المصرى أو لجنة الاعانة المصرية تقرض الدولة مبلغاً لأجل إغاثة حامية أدرنة ، فتذاكرت مع رفاقى وأرسلنا بواسطة الدولة سراً عشرة آلاف جنيه من مبلغ الاعانة المصرية إلى شكرى باشا تحت اسم إعانة لجياع أدرنة .

ثم إننا قررنا بعد ذلك إرسال بعثة من الهلال الأحمر المصرى إلى أدرنة ، فأبرقت إلى الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الأحمر المصرى و إلى الأمير عمر طوسون رئيس لجنة الاعانة المصرية بوجوب السعى لدى الدول حتى تتوسط مع البلغار لأجل إدخال بعثة إلى أدرنة لمعالجة الجرحى والمرضى ، وتم الأمر ودخلت البعثة المصرية وأعانت الجيش العثمانى ومسلمي أدرنة إعانة فوق الوصف ، وعرفت مقدارها . بنفسى وذلك أنه بعد استرداد الدولة لأدرنة كما سيأتى الكلام عليه ، استدعت الدولة

وفداً من سورية كان مؤلفا من ثمانية أشخاص : محمد فوزى باشا العظم ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، وأمين افندى الترزى من دمشق ، ومحمد باشا المخزومى ، والدكتور حسن الأسير من بيروت ، والشيخ أسعد الشقيرى من عكا ، ونصرى افندى الشنتيرى من بيروت ، والأستاذ الشيخ عبد المحسن افندى الاسطوانى قاضى الشام الحالى ، وهذا العاجز كاتب السطور ، ولم يبق فى الحياة من هذا الوفد غيرى وغير الأستاذ الأسطوانى والشيخ الشقيرى ونصرى الشنتيرى . وكان ذهابنا من بيروت إلى الأستانة فى شهر أغسطس ١٩١٣ لأجل مذاكرات مع الدولة تتعلق بالاصلاحات الداخلية فى سورية وبتسكين الأمور بين العرب والترك ، وكانت الدولة استرجعت أدرنة ، فدعتنا إلى زيارتها لأجل تهنئة أهلها بالرجوع إلى حضن السلطنة العثمانية فذهبنا إلى هناك واحتفل الجيش المرابط بوصولنا ، وفى حضور الجيش تلوت قصيدة منشورة فى ديوانى الذى هو الآن تحت الطبع مطلعها :

فدى لحمانا كل من يمنع الحمى ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش إلا أن نموت أعزة وما الموت إلا أن نعيش ونسلما

وخطب فى الجمع الشيخ الشقيرى وخطب فى صلاة الجمعة الشيخ أحمد الفقيه المكي الذى جاء معنا خطبة بصوته الشجىّ وفصاحته الحجازيّة مما حقق قولى فى قصيدتى :

أدرنتنا لو كان للصخر ألسن بهـا يوم عاد الراجعون تكلما
فما من فتى إلا وأجهش بالبكا ولا من جواد عاد إلا وحمحما
ولا غادة إلا وكفكف دمعها مكر حماة العرض كالسيل مفعما
ولا منبر إلا وأورق بهجة وقام عليه ساجع مترنما
وقرت عيون المصطفى في ضريحه وهناه فى الفردوس عيسى ابن مريما

ومنها :

فمن مبلغ البلغار أنا إلى الوغى وإخواننا الأتراك نزحف توأما
وأن جميع العرب والترك أمة حنيفية بيضاء لن تتقسما
وقولوا لهم بانت سعاد فلا يزل فؤادكم ـ صباً ـ عليها ـ متيما ـ

فلا يُطمعنكم فى أدرنة مطمع ولا تفتحوا فى شأنها أبداً فما
أدرنة صارت عندنا تلو مكة وماء المريج اليوم أشبه زمزما

ولما أقبل الليل كان الوالى الحاج عادل بك أعدّ لنا مكاناً للمبيت فاستعفيت منه قائلا : إنى كنت مفتشاً للهلال الأحمر المصرى ، ولا يزال له بعثة فى أدرنة وكنت أنا السبب فى دخولها ، فأرغب فى المبيت بدائرة الهلال الأحمر المصرى . فذهبت و بت هناك وعند الصباح رأيت مئات من مسلمى أدرنة أمام دائرة الهلال الأحمر و بأيديهم سطول ، فسألت عن ذلك فقالوا : إنه كل يوم يتوزع عليهم حساء وخبز ، ولكنهم قالوا إنه فى أثناء حصار أدرنة بعد أن قلّت الأقوات واشتد الجوع كان الأر بعون ألف نسمة من مسلمى أدرنة يعيشون كلهم من الهلال الأحمر المصري ، ولولاه لهلكوا بأجمعهم من الجوع ؛ لأنه لم يبق بأيديهم شىء من طول الحصار ، حتى أن الذين فى أيديهم شىء من النقود لو أرادوا شراء القوت لم يجدوه ، فالله تعالى أغاثهم بوجود هذه البعثة المصرية . ولما استرجعت الدولة أدرنة درّت الخيرات ، وارتفع الضيق ووزّعت الدولة عليهم الأقوات ، فلم يعودوا محتاجين إلى الهلال الأحمر ، وقالوا لى إن الذين تراهم الآن إنما هم خمسمائة أو ستمائة شخص من المساكين والعاجزين .

و بمناسبة هذه المعاونة التى لقيتها أدرنة من حمية أهل مصر ينبغى لى أن أذكر على وجه الاجمال ما قامت به مصر كنانة الله فى أرضه من إمداد الدولة العثمانية فى الحرب البلقانية المشئومة ، وأن لا أدع هذه الواقعة غفْلا قياما بواجب الأمانة مع التاريخ ، وتوفيراً للحق لأهله ، فأهل مصر يومئذ حققوا قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون فى توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » فأول شىء أنهم جمعوا إعانة للدولة مبلغ نصف مليون جنيه ، وذلك بهمة لجنة الاعانة التى كان يرأسها الأمير « عمر طوسون» الذى هو يرأس كل عمل خيرى تقريباً فى مصر ، وأرسلوا بعثة من الهلال الأحمر المصرى قامت بأعظم الاعمال فى معسكر شطالجة ، ثم إن مسلمى الروملى بالنظر لما وقع عليهم من اعتداء البلقانيين ــ لاسيما البلغار واليونان ــ فرّوا من وجه العدو اتقاء القتل للنفوس

والهتك للاعراض ؛ فالتجأوا جميعاً إلى الأستانة ليجوزوا إلى بلاد الاناضول ، وجاء منهم فريق إلى غاليبولى ليجوزوا منها أيضاً إلى البلاد نفسها ، و بديهى أن هؤلاء الذين فروا من وجه العدو هاموا على وجوههم لا يلوون على شيء خوفاً على دمائهم وأعراضهم، ولم يكن ليتيسر لهم التريّث حتى يستحضروا النفقات اللازمة لهم من أجل السفر ، وأكثرهم خرجوا بعيالهم وهم لا يملكون القوت الضرورى ؛ وكان ذلك في قلب الشتاء ، وكان عددهم لايقل عن مائة وخمسين الف نسمة .

فلما دخلوا الأستانة أنزلتهم البلدية فى الجوامع والمدارس . فاستوعبتهم جميعاً ، ومن هنا يعرف الانسان فائدة هذه الجوامع العظيمة التى شيّدها سلاطين آل عثمان بالحجر الصلب ، وتوسعوا فى عمارتها إلى الدرجة القصوى ، حتى أن الجامع الواحد منها مع مضافاته والمدارس المتصلة به يكاد يكون بلدة ، فأبرقنا إلى مصر بحالة هؤلاء المهاجرين وكنت أنا المتولى الكتابة إلى الأمير عمر طوسون ، والأمير محمد علي توفيق ووصفت لهما حالة إخواننا المهاجرين وما هم عليه من البأساء ، فلم نلبث إلا أياماً قلائل حتى فوضوا إلينا هذا العاجز ومحمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال وعدة أشخاص آخرين من مستخدمى الهلال الأحمر توزيع الاعانات على هؤلاء المهاجرين على معدل ثلاثة ريالات مجيدية للنسمة ، فطلبنا من أمانة البلدة جداول أسمائهم جميعاً وأخذوا بتنظيمها لنا ، فكنا نذهب بأنفسنا إلى جامع جامع ومعنا البوليس يدعو كل رئيس عائلة باسمه ليأتى أمام اللجنة مع جميع أفراد عائلته ، فننظر فى الجدول الذى فى أيدينا ونسأله عن اسمه وأسماء أفراد عائلته فاذا طابق ما فى الجدول أدينا له ما يستحقه ، فكان صاحب العائلة يقبض عشرين ريالا ، أو ثلاثين ريالا ، أو أربعين ريالا بحسب عدد عائلته . وهكذا حصل لهؤلاء المهاجرين من الفرج ما لايوصف فى زمن كانت الدولة فى شغل شاغل عنهم بسبب الحرب و إعداد لوازم الجيوش .

وقد بقينا أكثر من شهر نوزّع هذه الاعانات عليهم حتى أخذ كل من المائة والخمسين ألف نسمة نصيبه ، وأرسلنا لجنة إلى غاليبولى فدفعت مثل ذلك من الاعانات إلى المهاجرين الذين اجتمعوا فيها ، وجميع هؤلاء المهاجرين عبروا إلى

الأناضول وسلموا من الاهانات والاعتداءات ، لا بل من الفظائع التى حلّت بالذين تخلفوا من المسلمين فى بلاد البلقان ، وهى وصمة عار على البلقانيين لا يمحوها الدهر فقد ارتكبوا من الفظائع والفجائع بحق مسلمى الروملى المساكين بعد انهزام العساكر العثمانية ما لو ارتكب المسلمون بحق المسيحيين عشر معشاره لقامت أوربا وقعدت وملأ صراخها الآفاق ، وملأت أساطيلها مرافىء الشرق ، وتوالت احتجاجاتها فى العشى والاشراق ، ولكن هذه الدول التى تدعى المحافظة على حقوق الانسانية وتزعم أنها تعلم الناس قواعد المدنية ؛ عرفت بجميع فظائع البلقانيين بحق المسلمين وما أتت بأدنى حركة .

ولى فى ذلك الوقت برقية شديدة إلى السر ادورد غراى ناظر الخارجية الانكليزية أبيّن له فيها دهشة العالم من وقوفهم بدون أدنى اكتراث لما هو واقع على مسلمى الروملى الوادعين فى بيوتهم من اعتداءات الدول البلقانية ، على حين أنهم كانوا يقيمون القيامة لو كان الاعتداء واقعاً من المسلمين على البلقانيين . و بعد ارسال البرقية طلب كامل باشا الصدر الاعظم صورتها وأعجب بها ، وجرى حديث بينى و بين فيسموريس مستشار السفارة الانكليزية فى الاستانة فى هذا الموضوع فلم يقدر أن يعترض بكلمة واحدة ، وغاية ما قدر أن يقول لى إن السر بيين كانوا أقل أذى للأهالى المسلمين من غيرهم .

ولما سقطت سلانيك فى أيدى البلقانيين كان قد اجتمع فيها جميع المسلمين الذين فى جوارها ، والذين فروا من وجه جيوش الأعداء فدخل اليونان والبلغار إلى سلانيك وفيها مائة وخمسون ألف نسمة من المسلمين اللاجئين اليها ، فضلا عن المسلمين الذين هم من أهلها ، وقد ضبط الأعداء جميع الأقوات والأرزاق التى فى البلدة لأجل جيوشهم ، فصار المسلمون على شفا الهلاك جوعا ، وحرص اليونان والبلغار على قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعلم أحد ماذا يجرى فيها ، وهذا قد كان من أسوأ أعمالهم ، وكأنهم أرادوا أن يمحوا هؤلاء المسلمين الذين اجتمعوا هناك بواسطة الاجاعة فلم يجدوا وسيلة أحسن من قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعرف المسلمون

ماذا جرى ، ولا يرد منهم أدنى مدد إلى مسلمى سلانيك ، ولكن أبى الله إلاّ أن يغاثوا فجاء رئيس أطباء الجيش العثمانى فى سلانيك إلى الاستانة واسمه سلامى باشا وكان خروجه من سلانيك بمجرد دخول العدو ، فلم يطأ أرض الاستانة حتى اجتمعنا به ومنه أخذنا الخبر عن سقوط تلك البلدة لأن البلقانيين كانوا قطعوا الأسلاك التلغرافية ، فكان لم يمض على سقوطها غير ثلاثة أيام . وهو الذى أخبرنا بأن فى سلانيك مائتى ألف مسلم بالأقل إذا مضى عليهم عشرة أيام ، ولم تأتهم أقوات يموتون كلهم جوعاً . فسرعان ماحرّكت قلمى بالابراق إلى مصر سواء إلى الأمير عمر طوسون أو إلى الهلال الأحمر ، وحيى الله لجنة الاعانة المصرية والهلال الاحمر المصرى ، فانه ما مضى أسبوع حتى كانت البواخر دخلت مرفأ سلانيك ملأى بالاقوات والارزاق والأكسية وجميع اللوازم الضرورية ، ومعها الرجال الموكلون بها ، فأغاثوا المسلمين وأنتاشوهم من خطر الهلاك جوعاً ، وكذلك سمعت أن الخديوى السابق أرسل بواخر إلى مرسى « قَوَلَة » موقرة أرزاقاً لأن قَوَلَة هى موطن محمد على باشا جد العائلة المالكة فى مصر . وكان اجتمع إليها أيضا عشرات ألوف من المسلمين الفارين من وجه البلقانيين .

وخلاصة القول أن المقام الذى قامه أهل مصر أبقاهم الله ركناً للاسلام من إغاثة مسلمى البلقان فى الحرب البلقانية يبقى لهم مأثرة خالدة لاتبليها الأيام فى تاريخ الاسلام

ونعود إلى وقائع الحرب فنقول : إن الحكومة العثمانية بعد أن تولّى الوزارة محمود شوكت باشا كانت ترغب فى الصلح ، ولكنها لم تكن ترضاه على أى الوجوه ، وكان رجال الاتحاد والترقى يريدون استمرار الحرب على أمل الكرّة على البلغار وأخذ الثأر منهم ، لأنهم كانوا جميعا يعتقدون أن الهزيمة التى انهزمها الجيش العثمانى فى الحرب البلقانية كانت حادثة على خلاف القياس . ولكن الدول بدأت تضغط على الدولة فى أمر الصلح وفى ٣١ مارس سنة ١٩١٣ أرسلت الدول مذكرة إلى الباب العالى تلح فى عقد الصلح ولكنها تصرّح بأنها لا تدعو الدولة إلى دفع غرامة حربية ؛ أما الخط الفاصل بين الأملاك العثمانية والمملكة البلغارية فكان خطاً ممتداً من البحر الأسود

إلى بحر الأرخبيل يقال له خط « ميديا ـ أنوس » وهو فى الواقع خط لا يبعد كثيراً عن شطالجة ؛ وكان مؤتمر الدول فى لندرة قرر إرسال لجنة عسكرية لتحديد الخط المذكور بالفعل على قدر ما تسمح حالة الأراضى من تقويمه . وأما ألبانيا فقرر المؤتمر سلخها عن تركيا ، وجعلها مملكة مستقلة ، وكذلك جزائر بحر الأرخبيل كان المؤتمر يريد أن يجعل لها نظاما خاصاً ، ماعدا كريت فكانوا قرّروا إلحاقها ببلاد اليونان .

وكل ماجرى على الدولة من المصائب لم يضع حداً للشقاق فى الاستانة ، فقتل ناظم باشا ناظر الحربية بأيدى الاتحاديين أثار غضب أضدادهم حزب الائتلاف والحرية فصاروا يكيدون فى الخفاء للانتقام و إسقاط الوزارة الاتحادية ، و بلغ الخبر الاتحاديين فأهملوا الاحتياط اللازم ، وقيل لمحمود شوكت باشا : إن أناساً يأتمرون بك ليقتلوك فهزّ أكتافه لالكونه لم يصدق الخبر بل لأنه لم يبالى بالحياة ، وكان متوكلاً معتقداً قوله تعالى (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) وهكذا تمّ لحزب الائتلاف والحرية ما أرادوا من الكيد ، وكان المتآمرون محيي الدين بك مدير الأمن العام فى وزارة كامل باشا ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، وصالح خير الدين باشا ابن خير الدين باشا التونسى الذى كان صدرا أعظم ، و كان صالح باشا من أصهار العائلة السلطانية ، وكان فى هذه المؤامرة أيضا صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، فانتدبوا بعض الأشقياء و بعض الجناة من أصحاب السوابق فى القتل ورشوهم وكانوا يعتقدون أنه بمجرد قتل محمود شوكت باشا يستولون هم على الحكم حالا و يقتلون رفاقه مثل أنور وطلعت وجمال وغيرهم ، فذهبت هذه العصابة وترصدت محمود شوكت باشا عند مروره بسيارته من ساحة بايزيد آتيا من نظارة الحربية إلى الباب العالى وكان ذلك فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ نحو الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر ، فقتلوه وهو فى سيارته ، وقتلوا معه ياوره إبراهيم بك .

وأما الياور الآخر أشرف بك فأمكنه الخلاص وذهب مستنجدا بالبوليس . فنقل محمود شوكت باشا إلى نظارة الحربية حيث مات بعد عشرين دقيقة من الواقعة لأنه كان خرق جسمه خمس رصاصات . فكان بين قتل ناظم باشا وقتل محمود شوكت

باشا أقل من ستة أشهر بخمسة أيام ، وأفظع شيء فى قتل محمود شوكت باشا أن اثنين من الذين تآمروا بقتله كانا سيقتلان بعد واقعة الثورة على الدستور ومجيء جيش الحرية من سلانيك إلى الأستانة ، فصفاعنهما محمود شوكت باشا القائد يومئذ وأنقذهما من القتل ، وعفا عن مجرمين سياسيين كثيرين برغم جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تريد الاقتصاص منهم ، فكان أن الذين عفا عنهم محمود شوكت باشا هم أنفسهم المتآمرين على قتله . ولكنهم لم يبلغوا هذه المرة أمنيتهم ، فما أغمض محمود شوكت باشا عينه حتى تولّى الحكم الأمير سعيد حليم باشا مكانه ، وهو ابن الأمير حليم باشا المصرى ابن محمد على باشا والى مصر ، وكان الأمير حليم باشا يسكن الأستانة وأولاده نشأوا فيها ، وانضم كبيرهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس إلى جمعية الاتحاد والترقى ، وكانا من أماثل الرجال ، وكان الأميرسعيد واسع العلم ، ثابت الجنان عظيم الحمية ، وفي أيام صدارته استرجعت الدولة نشاطها ، وزال ما كان طرأ عليها من الوهل ، وتعيّن طلعت بك ناظرا للداخلية ، وكان هو روح الاتحاد والترقى ، وهو أجرأ الاتحاديين وأشدهم إقداماً ، وأسرعهم فهماً ، وأمضاهم في الامور ، وقد جمع إلى الذكاء والحزم عفّة النفس ، فانه كان مأمورا فى التلغراف من الدرجة الثانية ، فلما صار الانقلاب كان هو من أشد الاتحاديين مضاء ، وأعظمهم أثرا بالجمعية ، فصار ناظرا للتلغراف ، ثم صار ناظرا للداخلية ، وفى الحرب العامة تولّى الصدارة و بقى فيها إلى نهاية الحرب . ودخل فى الحكومة فقيراً وخرج منها فقيراً ، وكان يقول : ألا يكفى أن هذه الامة تحمّلت جهلى ، أفأجعلها تتحمل انحطاط أخلاقى . كان يتكلم عن جهله لأنه لم يكن من العلماء ، أو ممن لهم تحصيل للعلم كاف ، ولكن كان ذكاؤه الفطرى أعجوبة ، وكانت جرأته خارقة للعادة ، فصار سيد الاتحاد والترقى بدون منازع . وكانت نهايته فى برلين قتيلا بيد أرمنى أرسلته جمعيات الأرمن لاغتياله وكنا فى ذلك الوقت فى برلين ، وكنت بالمذاكرة معه أسّست ناديا يجمع جميع الشرقيين وانتخبت رئيساً له باتفاق الكلمة ، فاحتفلنا له باسم النادى الشرقى بمأتم عظيم ، وأبقينا تجاليده فى مكان خاص بالجبانة الاسلامية فى برلين .

وكانت الجبانة قد ضاقت جداً ولم يبق فيها مكان للدفن ، فراجعت الحكومة الألمانية فسمحت لنا بألف وخمسمائة متر مربّع أضفناها اليها ، وأدرنا حولها جداراً و بنينا فيها مسجداً صغيراً لايواء المصلين على الجنائز فى أيام المطر والثلج ، وأنشأنا بجانبه منزلا لأجل حارس الجبانة ، فجعلنا جثة المرحوم طلعت باشا فى غرفة من ذلك المحل ، وجرى تحنيطها حتى يتيسر نقلها إلى الاستانة ودفنها هناك . فلما استقلّت تركيا وجاءت الحكومة الكمالية الانقرية لم تسمح بدفن طلعت فى تركيا . فكان من الغرائب أن أعظم الاتراك حمية على وطنه لم يمكن دفنه فيه ، وما أبت الحكومة الكمالية دفن طلعت فى الاستانة إلا خوفاً من أن يكون له مأتم تقوم له تركيا وتقعد وتتجدّد فيها قوة الاتحاد والترقى . فسبحان الله الذى جعل طلعت ممن يخافه الناس فى حياته و بعد مماته ! وكان مع هذا من ألطف الناس خلقاً ، وأحلاهم عشرة ، وأودعهم نفساً . وأيام كنا فى برلين سنة ١٩٢٠ كنا نجتمع كل يوم تقريباً ، وقد ترجمته فى حواشى «حاضر العالم الاسلامى» ترجمة وافية .

هذا ودخل فى الوزارة أحمد عزت باشا الارناؤوطى ناظراً للحربية وقائداً للجيش وعثمان نظامى باشا للاشغال النافعة ، و بقى أكثر النظار الآخرين فى مناصبهم و بدأت الوزارة بمحاكمة الذين قتلوا محمود شوكت باشا ، والذين دخلوا فى مؤامرة قتله فحكموا على ٢٤ شخصاً منهم بالقتل ، منهم من كانوا فرّوا من الوجه مثل صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، واسماعيل بك مبعوث كوملجنة ، ومنهم من وقع فى اليد مثل صالح باشا خير الدين صهر العائلة السلطانية وجماعة يبلغون عشرة اشخاص فشنقوهم وصلبوهم فى ساحة بايزيد .

وقد اجتمعت سنة ١٩٣٦ باسماعيل بك مبعوث كوملجنة فى جنيف وروى لى كيفية فراره فى تلك الحادثة وتخلّصه من أيدى الاتحاديين .

ثم إن الدول البلقانية اختلفن بعضهن مع بعض فالحكومة البلغارية تنازعت مع الحكومة السربية والحكومة اليونانية ، على اقتسام الأسلاب التى أخذوها من تركيا في الروملى ، ووصل الأمر بينهن إلى القتال . وكانت رومانيا أرادت أن

تستفيد من قتال هؤلاء الحلفاء ، فطلبت تعديل حدود « الدبروجة » بينها و بين بلغاريا فوقع الخلاف بين رومانيا و بلغاريا فرأت تركيا الفرصة سانحة لاسترداد ولاية أدرنة ، وفى ٦ يوليو أرسلت تركيا بواسطة عثمان نظامى باشا إلى الحكومة البلغارية إنذاراً بوجوب تخليتها الأراضى التى كان البلغار قد احتلوها ، وكانت الوقائع الحربية قد انتهت من شهر ابريل بموجب متاركة بين البلغار والعثمانيين ، ولكن بقيت الجيوش البلغارية محتلة جميع ولاية تراقية التى يفصلها عن تركيا خط انوس ـ ميديه الذى قرره المؤتمر الدولى بين الفريقين ، فأرسلت الحكومة البلغارية المسيو « نتشيفيتش » معتمد بلغاريا سابقاً فى الاستانة لأجل الاتفاق مع تركيا لا سيما أنه كان من أنصار التقرب بين تركيا و بلغاريا ، فرضى نتشيفيتش بتغيير خط انوس ـ ميديه الذى كان الاتراك غير راضين به ، وجعل الفاصل خطاً ماراً بقصبة شورلو ، ولكن الأتراك طلبوا أن بلغاريا تقبل النصيب المفروض عليها من الدين العثمانى على نسبة ما أخذته من أملاك تركيا ، وتقبل أيضاً باعطاء تأمينات متعلقة بحقوق المسلمين الذين فى المملكة البلغارية والبلاد التى استولت عليها هذه المرة ، وتتعهد بعدم تقاضى تضمينات حربية فلم يقدر نتشيفيتش أن يتعهد صريحاً بقبول هذه المطالب ، فزحف الجيش العثمانى بقيادة احمد عزت باشا من جهتين؛ شطر منه سار من جهة رودوستو والآخر من جهة شورلو وفى ٢٢ تموز وصل المتطوعون وخيالة العرب والأكراد إلى أدرنة تحت قيادة أنور باشا .

وأما البلغار فلما وجدوا الجيش العثمانى زحف عليهم نكصوا بدون قتال ولم يباشروا إلاّ مدافعات جزئية قتل فيها صاحبنا رشيد بك ابن المشير فؤاد باشا ، كنا معا فى حرب طرابلس ولم تكن من البلغار مقاومة إلا بعد أن وصلوا إلى حدود بلغاريا الأصلية ولكنهم لم يقدروا على مقاومة تذكر ، ولو شاء العثمانيون يومئذ أن يتوغلوا فى نفس بلغاريا الأصلية لأمكنهم ذلك ، لكنهم كانوا يخشون اعتراض الدول فأرسل الباب العالى إلى الدول مذكرة يقول فيها إن الدولة أبلغت بلغاريا بوجوب سحب عساكرها من الأراضى التى احتلّتها جنودها وذلك لأجل وضع حدود تتمكن بها تركيا من

المحافظة على الأستانة وعلى الدردنيل . وهذه الحدود غير ممكنة إلا باتباع مجرى نهر المريج ، بحيث كل ماهو جنوبى هذا النهر يبقى لتركيا .

فلما لم يجب البلغار طلب تركيا اضطرت الدولة إلى احتلال هذه الأراضى تاركة تعيين الحدود الموافقة للمذاكرات السياسية ، فغضبت الدول من أجل إخلال تركيا بقرار مؤتمر لندرة الذى عين خط أنوس ـ ميديه فاصلا بين تركيا و بلغاريا ، وأرسلت إلى الدولة تنذرها بأنها إن لم تسحب عساكرها من أدرنة فانها تتخذ جميع التدابير اللازمة لأجل تثبيت قرار المؤتمر ، فهذا الجواب لم يَرُعْ تركيا وقتئذٍ ، وذلك لأن الأتراك كانوا يرون الدول متمسكات بالقرار الذى يصدرنه فى مصلحة أعداء تركيا و يقلن لا يجوز تبديل هذا القرار بوجه من الوجوه ، بخلاف مالو كان القرار فى مصلحة تركيا فانه يتبدل حالا . وقبل الحرب البلقانية أبلغت الدول الفريقين بأن هذه الحرب يكون الغالب والمغلوب فيها سواء ، وتبقى الحدود مكانها . فلما تغلب البلقانيون على الأتراك نسيت الدول بلاغها هذا كما تقدم الكلام عليه ، فلهذا لم يكن لانذار الدول هذه المرة موقع خوف فى قلوب الأتراك ، وأبرق عزّت باشا قائد الجيش من أدرنة يقول : إن الجيش لا يمكن أن يتخلى عن أدرنة .

وكان بالفعل لو ضغطت أوربا على تركيا ، والحكومة ضغطت على الجيش والأهلين ، لجرت ثورة دموية ، فأجابت تركيا الدول بأن مذكرتها إلى الباب العالى تشير إلى أن الدول حاضرة للمذاكرة مع تركيا فى الشروط اللازمة لتأمين حدودها والحال أن خط أنوس ـ ميديه لا يتأمن به شىء ، وأن تركيا إنما احتلت البلاد التى كان احتلها البلغار محافظة على حياة الأهالى الذين كانوا صائرين لا محالة إلى الانقراض فتركيا ترجو من الدول إعادة النظر فى قضية الحدود . فلما وصلت هذه المذكرة إلى الدول خطب السر ادورد غراى خطبة فيها شىء من التهديد لتركيا إذا أصرّت على استرداد أدرنة . وأما الروسيا فأشارت بمنع كل معاملة مالية بين أوربا و تركيا ؛ ولكن كل هذا لم يرعب الترك ، لأن قضية أدرنة هى لهم قضية حيوية ، فأدرنة مفتاح

الأستانة كما لا يخفى ، وفى ولاية أدرنة مئات ألوف من المسلمين كانوا سينقرضون أو سيرحلون بأجمعهم لو بقى البلغار هناك ، لما كان عند البلغار من الوجد لاستئصال الاسلام من تلك البقعة . فالأتراك كانوا مصممين على عدم الرجوع عن أدرنة وتهددوا البلغار باعلان الحرب عليهم إذا لبثوا يطالبون بأدرنة ، فخاف البلغار من أن ينهزموا ويفقدوا ثمرات طوائلهم فى أول الحرب فجنحوا إلى السلم ، والتمسوا من تركيا المذاكرة رأساً . وكان مسلمو تراقية الغربية قد ثاروا وأسسوا حكومة مستقلة لانفسهم مركزها كوملجنة ، ففى ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ تقررت شروط الصلح بين الفريقين واستعادت تركيا بموجب هذا الصلح أدرنة ، وقرق كليسه ، وديموطقة ، وأعيدت الحدود الأصلية التى كانت بين تركيا وبلغاريا قبل الحرب البلقانية ، سوى بعض قرى إلى جهة البحر الأسود أكثر سكانها من البلغار فهذه سمحت بها تركيا لبلغاريا .

وكذلك خسرت بلغاريا الخط الحديدى من أدرنة إلى دده آغاج البلدة التي على ساحل بحر الأرخبيل ، وكان البلغار سيجعلونها منفذاً لهم إلى البحر المتوسط ، وكذلك تقرر بين الدولتين أن يضرب أمد لسكان مكدونية وتراقية أربع سنوات ليختاروا التابعية العثمانية أو التابعية البلغارية ، فاذا مضت السنوات الأربع ولم يختاروا التابعية العثمانية يصيرون رعايا بلغاريا ، وإلا فيبقون كأجانب مرجعهم الدولة العثمانية . وإذا كان فى هذه البلدان يسكن عثمانيون من ولايات أخرى تابعة لتركيا فيبقون على تابعيتهم العثمانية ، ثم حصلت مذاكرات فى قضية الأوقاف الاسلامية ، وتقرر أن تكون إدارتها بأيدى الجماعات الاسلامية وفقاً للاتفاق التركى البلغارى المنعقد سنة ١٩٠٩ بحق الأوقاف الاسلامية فى بلغاريا القديمة فاشترطت تركيا أن تكون الأوقاف الاسلامية فى الأراضى الملحقة جديداً ببلغاريا تحت إشراف شيخ الاسلام فى الاستانة ، بخلاف الأوقاف فى بلغاريا القديمة التى كان للحكومة البلغارية حق لاشراف عليها . ثم تقرر أن يكون مسلمو البلغار تابعين للشرع الشريف فى أحوالهم الشخصية ، فيحكم بينهم فيها قضاتهم كما فى تركيا ؛ ويكون للمسلمين فى بلغاريا

منتون تنتخبهم الجماعات الاسلامية بتمام الحرية ؛ ويجرى تصديق انتخابهم بمعرفة شيخ الاسلام فى تركيا ، وتقرر أن تكون المدارس والمكاتب الاسلامية فى بلغاريا معدودة من مؤسسات الحكومة البلغارية التى يجب أن تنفق عليها .

واستغرب الناس تساهل بلغاريا هذا مع تركيا ، وقد كانت هى الظافرة فى الحرب البلقانية ، والحقيقة أن قواد الجيش البلغارى وجدوا أنفسهم لو أصروا على العناد لكرّ الترك عليهم ، وكانوا من بعد غلبهم سيغلبون ، لأن الجيش التركى فى المدة الأخيرة كان غير الجيش التركى فى أول الحرب ، ثم إن البلغار كانوا اقتتلوا مع السرب من أجل « مَنَستر » التى كان البلغار والسرب يتنازعون عليها . وكذلك كانوا اقتتلوا مع اليونان من أجل مكدونية فصارت بلغاريا مضطرة بحكم الضرورة أن تسالم تركيا . وانعقدت معاهدة الصلح النهائى بين تركيا وبلغاريا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٣ واتفقت الدولتان على عدم اعتبار المعاهدة السابقة المنعقدة فى لندرة فى كل المواد المخالفة فيها للمعاهدة الأخيرة .

ثم جرت المذاكرات بين تركيا واليونان لأجل الصلح ، ولم تصل الدولتان إلى وفاق ، أولا لأن اليونان طلبوا التمتع بالامتيازات الأجنبية التى كانت الدولة حرمت اليونان إياها عند ما كسرتهم سنة ١٨٩٧ فتركيا أبت إرجاع الامتيازات وقالت : إن الدول العظام أنفسها أصبحت مستعدة لالغاء هذه الامتيازات ، ثم إن تركيا طلبت الحرية التامة فى اليونان لشعائر الدين الاسلامى ، وأن تكون إدارة الأوقاف الاسلامية فى بلاد اليونان تحت مراقبة شيخ الاسلام ، وتكون قضاة المسلمين هى الحاكمة في الأحوال الشخصية ، فطلب اليونان بمقابلة ذلك أن تعاد إلى بطريرك الروم فى الاستانة الامتيازات الدينية القديمة التى كان منحها السلطان محمد الفاتح ، فأجابت تركيا بأن لا مدخل لدولة أجنبية فى أمور داخلية فى تركيا .

ثم اختلفوا فى قضية الأوقاف لأن اليونان رضوا بالاعتراف بالأوقاف العائدة إلى المساجد رأساً ، فأما الأوقاف التى يقال لها وقف ذرية فادّعت دولة اليونان أنها تحل فيها محل الدولة العثمانية ، واختلفوا أيضاً في قضية الخدمة العسكرية ، فاقترحت اليونان

إعفاء الأروام الذين فى تركيا من الخدمة العسكرية على أن تعفى اليونان المسلمين الذين فى بلادها من الخدمة نفسها ، فرفض الباب العالى ذلك، فاقترحت اليونان وجهاً آخر وهو أن يكون للأروام في تركيا توابير مخصوصة لايدخلون فيها مع سائر العسكر وأن اليونان بمقابلة ذلك تجعل لمسلمى بلادها توابيرخاصة ولا تجبرهم على نزع الطربوش فرفض الباب العالى هذا أيضاً . وطلبت اليونان العفو العام عن الأروام العثمانيين الذين ساعدوا اليونان ، فأجابت تركيا هذا الطلب . ثم طلبت اليونان ثلاثة ملايين جنيه عثمانى تعويضاً لها عن ضبط مائة سفينة يونانية قبضت عليها تركيا فى أول الحرب فأبى الباب العالى دفع شىء ، وانقطعت المفاوضات مدة . ثم استؤنفت بميل الفريقين إلى الصلح ، وانعقدت المعاهدة فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٣ وفازت تركيا بتأييد كلمتها فى قضية الامتيازات ، وفى قضية الأملاك السلطانية ، وكذلك فازت فى معاملة الجماعات الاسلامية فى أحوالهم الشخصية بموجب الشرع الشريف ، كما جرى الاتفاق مع البلغار . ولكن لم يمكن تركيا أن تنال من اليونان حق إشراف شيخ الاسلام على الأوقاف الاسلامية فى اليونان بل طلبت اليونان أن تكون إدارة هذه الأوقاف بأيدى مسلمى بلاد اليونان وهكذا تم . وبقيت مسألة الجزر معلقة وكانت الدول تريد إلحاق جميع الجزر باليونان عدا « تَنَدُس » و « إمبروس » و « كستيلوريزو » وذلك لقربها الشديد من السواحل العثمانية .

وبينما الدول تفكّر فى فض الخلاف بين تركيا واليونان إذ وقعت الواقعة الكبرى وهى الحرب الكبرى فتوقف كل شىء منذ سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٣ أى مدة تسع سنوات فى خلالها جرت الحرب العامة ثم تبعتها حرب أخرى بين تركيا واليونان التي سلمتها انكلترة قسما من بلاد الأناضول ، فاستمرت الحرب بين الأتراك والأروام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٢ وانتهت بانهزام اليونان ، فعند ذلك انعقد بين الدول وتركيا مؤتمر لوزان ، وتقرر الصلح ، وبموجبه ألحقت جميع الجزائر فى الأرخبيل إلى اليونان ، إلا الجزر التى أمام الدردنيل مثل لمنى وتندس ، ولكن تقررت أيضاً مبادلة الأراضي والسكان ، فجميع المسلمين الذين فى بلاد اليونان جاءوا إلى تركيا

كما أن جميع الأروام الذين فى تركيا أخرجوا إلى بلاد اليونان وأخذت تركيا أملاك اليونان فيها ، و بمقابلة ذلك أخذت اليونان أملاك المسلمين فيها . واستلحقت إيطاليا رودوس والجزر العشر التى حولها . ولم يبق فى مملكة اليونان سوى مسلمى تراقية الغربية ، فقد جرى استثناؤهم من المهاجرة ، ولم يبق من الأروام فى تركيا غير الأروام الذين فى القسطنطينية ، إذ أن الدول فى لوزان جعلن هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامة وذيولها ، ونحن أحببنا الوقوف فى تاريخ الدولة العثمانية عند هذا الحد ، لأننا لو دخلنا فى موضوع الحرب العامة لطال بنا الموضوع جداً . ولما كنا نريد أن نفرد الحرب العامة وذيولها إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ بتأليف خاص ــ إن شاء الله ــ لم نجد لزوما للدخول فى هذا التاريخ بموضوع أكبر حرب عرفها العالم مما يجب أن يفرد بتأليف على حدة .

وربما يؤخذ علينا فى هذا الكتاب كوننا تكلمنا عن نفسنا فى بعض وقائع شهدناها بأعيننا ، وربما عد ذلك بعضهم من قبيل تزكية المرء نفسه ، والله يعلم أننا من أبعد الناس عن هذا الأمر (بل الله يزكّى من يشاء) و إنما قصدنا بذلك زيادة توثيق الوقائع التى نرويها بذكر ما شهدناه منها عيانا ، إذ هناك فرق كبير بين السماع والعيان وكثيراً ما روى المؤرخون أخبارا لم يكن لها أصل ، أو كان لها أصل ضعيف ، وذلك بسبب تلقفهم هذه الأخبار من أفواه الناس ، أو نقلهم لروايات غير ممحصة . فانا إذا رويت ما شهدته بعينى ، وما سمعته بأذنى ؛ فانما يكون مقصدى فى ذلك زيادة التحرى والانتهاء إلى أقصى درجات التوثيق « وما راء كمن سمعا » وهكذا تظهر الوقائع بشكل بارز ، حتى كأن الانسان يراها بالعيان ، وليس هذا بمذهب لم يسبق اليه المؤرخون ، والله تعالى وحده من وراء السداد .

فهرس مواضيع

تعليقات الأمير شكيب أرسلان

على الجزء الأول من كتاب تاريخ ابن خلدون

(تم الفهرس)



الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١	٩	esclaves	esclave
٢	٦	والحزوات	والخروات
٧	٢	او	و
٧	١٠	مُذحج	مَذحج
٩	٧	بنصرايتهم	بنصرانيتهم
٢١	٥	هو هنزولون	هو هنزولرن
٢٢	٥	جدير	جديراً
٢٩	١٩	المفهمومة	المفهومة
٣٠	٧	بدم	بآدم
٣٢	١	بدون	دون
٥٨	٥	بدون	دون
٦٩	١٩	Goseph	Joseph
٦٩	١٩	Edoird	Edoard
٧٢	٢١	امرىء القيس	امرؤ القيس
٨٩	١٣	صلحة	صلحه
١٠٤	٧	سيكونوا امراؤنا	سيكونون امرآءنا
١١٢	٨	ومعه خمسين	ومعه خمسون
١٢٨	٧	وهزمه	فهزمه
١٢٨	١٢	المردريت	المرديت
١٣٦	١٠	نيفروبون	نيغروبون
١٣٦	١١	لوزون حسن	اوزون حسن

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
بلاد الشركس	بلاد الشركى	١٩	١٣٦
المتعلقة بالقضاة	المتعلقة للقضاة	٢٣	١٣٧
الشهير بالخيالى	الشير بالخيالى	٢٢	١٤٠
ثم صار معلماً	ثم معلماً	٩	١٤٣
ان على بن ابى طالب	ان علياً بن ابى طالب	٢١	١٦١
قبر الامام	قبر الامامى	٦	١٨٧
Szigeth	Szlgeth	٧	٢٠٠
وما دمى	وما دلى	١٩	٢٠٢
الواقعة	الموقعة	٢٢	٢٢١





